

الموسوعة التارخيية الحديثة



الموسوعة التارخيية الحديثة

تاريخ

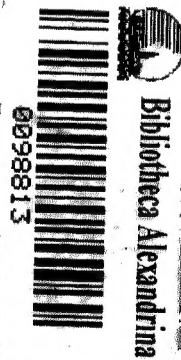
العصر الوسيط

في أوروبة

تأليف

الدكتور نور الدين جاطوم

رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق



دار الفكر

نَائِخُ
الْعَصْرِ الْوَسِيطِ

تاريخ العصر الوسيط في أوربة

الجزء الأول

من أواخر العصر الروماني الى القرن الثاني عشر

تأليف

الدكتور نور الدين جاطوم

رئيس قسم التاريخ في جامعة دمشق

دار الفكر

١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

دار الفكر - دمشق - ساحة الحجاز
ص. ب (٩٦٢) - برقياً (فكر) هاتف (١١٠٤١)



المقدمة

العصر الوسيط

بين الغارات البربرية الكبرى في القرن الخامس ، وبين فجر النهضة الأوروبية الحديثة في القرن الخامس عشر ، مضت ألف سنة من عمر الزمان أطلق عليها عادة اسم « القرون الوسطى » أو « العصر الوسيط » .

غير أن الناس الذين نسميهم « رجال العصر الوسيط » لم يكونوا ليفكروا بهذه التسمية ، ولم يدر بخلداهم مثل هذه العاطفة ، بل أنهم كانوا يشعرون ، كما نشعر نحن ، بأنهم يعيشون في عصر يعتبر نهاية لتطور سابق ، وبأنهم « رجال عصرهم » . ولذا كانوا ، كما نحن عليه اليوم ، يعارضون بصورة غريزية رجال العصر القديم . وعندما يتحدثون عن عصرهم يقولون عنه بأنه « عصر حديث » ويعتقدون ويرون بأنهم أناس « محدثون » يختلفون كثيراً عن رجال « العصر القديم » .

ومن السهل بعد هذا أن ندرك أن الإنسان المتقف في العصر الوسيط يفهم أن التاريخ عصران: العصر القديم الراحل ، والعصر الحديث الذي يعيش فيه . ولكن متى بدأت العصور الحديثة ؟ إن العصر الوسيط الديني لم يعرف الفصل في أدوار التاريخ إلا تحت زاوية الدين . ولذا فإن الحد الفاصل بين العصر القديم والعصر الحديث عنده هو ظهور المسيحية أو ظفرها في عهد قسطنطين . ولا نجد في العصر الوسيط نصاً يدخل حقيقة غير هذه الحقيقة . وذلك لأن العصر القديم بدأ مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالوثنية ، ولا جدل في أن الغارات البربرية في القرن الرابع والخامس قد سجلت بداية حاسمة لعصر جديد في مقدرات الشعوب .

ومنذ متى بدأت فكرة القرون الوسطى بالظهور ثم أصبحت من بعد معروفة ، أو بتعبير آخر متى بدأت فكرة تقسيم التاريخ إلى عصر قديم، ووسط، وحديث ، أي منذ متى ظهرت الفكرة القائلة بأن المرحلة الثانية في حياة المجتمع قد آذنت بالرحيل ؟

لا شك في أن هذا المفهوم لم يظهر قبل القرن الخامس عشر . لأن الثابت أن هذه الفكرة بدأت تظهر وتوسع منذ القرن الخامس عشر وخاصة في القرن السادس عشر . فمن ذلك أن جيوفاني آندريا، أسقف آليريا في كورسيكا ، الذي أصبح فيما بعد قيصراً لمكتبة الفاتيكان ، كان يميز عام ١٤٦٩ بين « قدامى العصر الوسيط ومحدثي عصرنا » . ولذا فقد كان يعلم أن عصر النهضة بدأ يبدئ مرحلة جديدة في السير نحو المستقبل . وفي الحقيقة أن عصر النهضة يختم العصر الذي كان يسميه رجال العصر الوسيط «العصر الحديث» ، غير أن العصر الحديث بحق انما هو «عصر النهضة» كما نفهم نحن في أيامنا هذه . وذلك لأن شعلة القديم ، التي عادت وشعر بها عصر النهضة ، جعلت العصر الوسيط عصر انتقال، أو برزخ عبور ، أو نفقاً مظلماً بدا فيه العصر القديم مجهولاً أو غير معترف به . ولكن عندما مضى زمن الخداع وحل محله عصر النهضة ، بعثت الحضارة القديمة وعثر عليها بعد طول البحث ، وبدأت الحركة الانسانية تتفتح ملء السمع والبصر بوضوح اللغة اللاتينية ، وتوصل الفن إلى درجة النضج والكمال، وأصبح يضاهي بكماله أبحار الآثار الاغريقية . وأخذت الأفكار الجديدة تدوي دويّاً يرافقها اتساع الآفاق في مختلف الميادين ، وفتح المحيط الأطلسي واكتشاف العالم الجديد وتقدم المعرفة . وبما لا شك فيه أن لاشيء يخلق من العدم ، فقد سبق عصر النهضة ، بعد العصر القديم ، بعصر حمل وتحضير ونحمر ، حتى إذا ما آن أوانه تفجر عن انسانية جديدة مشربة بالقديم الوليد . وفي كل ذلك ما يدل على استئناف السير والاندفاع والرقى والحياة الجديدة .

ويبدو لنا، من دراسة آثار الكتاب والأدباء ورجال المعاملات والمؤرخين، أن

التعبير « العصر الوسيط » لم يستقر الا منذ ان دخل المناهج المدرسية وأصبح تعبيراً دائماً ومقبولاً رسمياً ومستعملاً في كتب الغرب الاوربي ومدارسه . ولقد أخذنا نحن العرب هذا الاصطلاح واستعملناه في كتبنا ومناهجنا الدراسية . غير أن التردد ما زال عند نقطة البدء ونقطة الختام . ونقطة البدء توضع في زمن الغارات وغالباً عند وفاة الامبراطور تيودوس عام ٣٩٥ ، وأفضل من ذلك عند سقوط آخر امبراطور روماني عام ٤٧٦ م . أما نقطة الختام ، فبعد ان بقيت طويلاً عند فتح الأتراك للقسطنطينية عام ١٤٥٣ أصبح المؤرخون يجنحون اليوم إلى وضعها عام ١٤٩٢ ، أي عام اكتشاف العالم الجديد . بعد هذا بقي علينا ان نتساءل ما إذا كان تقسيم العصور ، الذي يتضمن العصر الوسيط ، يرى ما يبرره في الواقع ، أي هل يوجد بحق بين العصر القديم والعصر الحديث عصر وسيط ؟

ان اول اعتراض يمكن ان يوجه إلى هذا التقسيم هو ان وصفنا العصر « الوسيط » يعني ، سواء شئنا أم لم نشأ ، أننا نصفه عصر « انتقال » . ولكن ليس كل عصر عصر انتقال ؟ وأي عصر لم يكن سوى ممر بين العصر الذي سبقه والعصر الذي يليه ان ألمع عصور الحضارة ، كعصر بريكس وعصر لويس الرابع عشر ، لا تشذ عن هذه القاعدة وإذا كان كل عصر عصر انتقالياً في جوهره - وذلك لأن الحياة التاريخية كالحياة الفردية تمضي دون انقطاع في صيرورة الزمان المتجانسة - أفلا يدل ذلك على أننا لم نقل شيئاً ، أو ان ما نقوله معاد ومكروور لا فائدة منه وخطر في الوقت نفسه اذا تكلمنا عن « عصر وسيط » ؟ أليس كل عصر عصر وسيطاً . ونحن بدورنا ايضاً سنصبح ذات يوم رجال عصر وسيط بالنسبة لأخلافنا . ولكن يجب ان نعترف دون مواربة ان دحض هذا القول غير مناسب أو حاسم كما يتراءى ذلك ؛ وإذا وجد بحق تباين أساسي بين العصر القديم والعصر الحديث وكانت الألف السنة التي تفصل بين هاتين المرحلتين قد مهدت المرور من الأول

الى الثاني ، فان التعبير « **العصر الوسيط** » يصبح ذا معنى عميق ويبدل على حقيقة جوهرية . وبحسبنا في تاريخ العصر الوسيط بوصلنا إلى ان الحقيقة كانت على هذا النحو . وهذا ما ينبغي علينا ان نوضحه على قدر الامكان .

اذا تأملنا العصر القديم وجدناه عصرآ تعاقبت فيه السيطرة والنفوذ بين الأمم . وكانت كل واحدة منها تحاول ان تلتهم الأخرى : فهناك المصريون والآشوريون والميديون والفارسيون ثم أتت اغريقية وسادت العالم بفكرها . وشادت بعدها روما اوسع امبراطورية عرفها العصر القديم ، وحققت احلام الفاتحين من رعمسيس إلى الاسكندر ، بمن حاولوا الوصول إلى ذروة القوة والمجد . ومن عهد أوغسطس إلى قسطنطين تمت الثقافة الاغريقية — اللاتينية حول البحر المتوسط ، واعتزت باشعاعها وامتدادها . وضربت روما الرقم القياسي العالمي . وغدت وحدة رومانيا دستور البشرية الراشدة المتفوقة التي بلغت مثلها الأعلى . ورافق هذه الوحدة الدوام والبقاء وغدت روما « المدينة الخالدة » وكل ما كان خارجاً عنها بربرياً . وهكذا التهمت الامبراطورية الرومانية عندما أصبحت تدل على الحضارة ، كما أله الامبراطور عندما أخذ يتزعم بجلال مهيب هذا الشكل السامي والكامل للحياة الاجتماعية . وما ظفرت المسيحية حتى اضافت ما عندها الى هذا الشعور بتفوق روما . وغدت « روما بطرس » أعظم من روما او غسطوس ، وعاصمة عامة عالمية . واصبحت الامبراطورية باعترافها المسيحية إلهية مقدسة اكثر من ذي قبل . ولا غرابة بعد هذا اذا بدت الغارات البربرية ، وما جرت من وبال على الامبراطورية ووحدها ، كارثة عظيمة في نظر رجال القرن الرابع والخامس ؟

حقاً إن الأجيال التي سبقت الغارات البربرية والأجيال التي تلتها ، كانت تشعر بالانحطاط والتخاذل ، وتتحمل بمشقة آثار الأزمة التي يعانها المجتمع ؛ غير أنها لم تلاحظ نتائجها الحقيقية بأي حال من الأحوال . لقد كانت هذه الأجيال تتجشم

الاذلال، والحذلان والخسران والأزمات، كما نتجشم نحن المصائب والأزمات التي تنزل بنا . ولم يشعر أحد بأي حدس أن عالماً قد هلك وأودى أو ، على الأقل ، أن دوراً مضى وانقضى .

ان انحطاط الامبراطورية في أخريات أيامها والأزمة التي انتابتها ، ودخول البرابرة إليها ، واستقرارهم فيها ، أدت جميعاً إلى زعزعة الوضع السياسي والاجتماعي بكامله . ومنذ ذلك الحين بدأ وضع جديد في حال التحضير والتهيئة .

يقول بعض المؤرخين ان السلام الطويل ، الذي عاشت في ظلاله الامبراطورية الرومانية بعد الفتح ، قد اضعف فيها الشعور العسكري ، الذي يملك الغرب اللاتيني في ذلك الحين ، لأن الغرب كان يستهلك أكثر مما ينتج ، كما كان يقيم في روما اثرياء لا عمل لهم إلا الاهتمام برفاهم وبدخهم على حساب الاقتصاد العام ، وعاطلون راسميون يعيشون على حساب الجماعة . ولذا كانت روما تسترعب دون مقابل ، وكان الشرق يجهزها بكل ماتريد . وعندئذ أخذ تيار الذهب انجابه الوحيد نحو الشرق دون انقطاع ، وأدى أخيراً إلى العجز وتوالي سقوط النقد ، ولم يعد هنالك ثروة منقولة مستقرة ولا اعتماد منظم ، بل سيطرت الثروة العقارية والحياة القروية والمحلية ، وغدا الغرب على هذا النحو صاحب أطيان ، فتبدلت طباعه واختل نظامه . ومن المسلم به أن المجتمع يضطرب إذا كان موضعاً لتبدل عميق في اقتصاده . ولقد شعر بهذا الاضطراب من عاصر الغارات الكبرى . ولم يكن من هذه الأخيرة إلا أن زادت وعجلت بالتطور والسير سريعاً نحو الحياة القروية والمحلية . وقد ساعد على ذلك بطء التيارات الاقتصادية وصعوبة المواصلات وتكليف البرابرة مع حياة الحقول . وعندما ثل عرش رومولوس اوغستول ، آخر امبراطور في روما ، وأرسلت شارات الامبراطورية إلى الامبراطور زينوب في القسطنطينية عام ٤٧٦ م أصبح كل ملك من ملوك البرابرة مستقلاً ، وغدت على الفور ولايات روما بمالك ناشئة مثل :

وعن هذه الحياة الموضعية والتطور الاجتماعي نشأ النظام القطاعي . وبعد فكيف يمكن لهذا الاقتصاد الجزأ والمبعثر أن يتفق مع المفهوم السياسي للوحدة ؟ للوصول إلى ذلك يجب على إحدى هاتين النزعتين المتضادتين ان تتغلب على الأخرى . أما أن يفتح الاقتصاد أبوابه أو أن ينهار بناء الوحدة . ولما لم يكن باستطاعة أحد أن يفتح الاقتصاد المغلق ، فقد تحققت الفرضية الثانية بانقسام الأمراء وتجزئه الوحدة للامبراطورية الغريبة .

غير أن فكرة الوحدة الامبراطورية بقيت تتردد في الازمان . لأن العصر الوسيط الجزأ ظل يتعطش إلى الوحدة . لقد بحث عنها في كل مكان ، في تجديد الامبراطورية ؟ وفي الفكرة الدينية المسيحية . أي أنه أراد أن يحققها تحقيقاً مدنياً أو دينياً . وحينئذ العصر الوسيط إلى الوحدة يوضح لنا لأي درجة كانت تستهويه « خصومة التقليد العلماني والكنسي » وبأي هياج واهتمام كان يتبع « النزاع بين الكهنوت والامبراطورية » الذي امتد من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر وشغل العقول والقلوب .

وبينما كانت القوتان المتنافستان تغالب احدهما الاخرى في سبيل نصر مستحيل ، كانت الحوادث تسير على عكس الصوفية . وذلك لأن عالماً جديداً أخذ يرسم ويتضح منذ القرن الثالث عشر ، ولأن الاقتصاد بدل اتجاهه منذ بداية القرن الحادي عشر . فقد نشط البحر المتوسط علاقاته مع الشرق بسبب حج المسيحيين إلى الأراضي المقدسة ، والحروب الصليبية ، وتشكل البودجوازية ، هذه الطبقة الجديدة التي اهتمت اهتماماً بالغاً بالتجارة والصناعة . وبكلمة مختصرة ان ظروفها سعيدة تجمعت وساعدت على زوال الاكتفائية وتركت المكان شاغراً إلى الاقتصاد الحديث ، الذي ينزع إلى الواسمالية والمبادلة الدولية . وفي الوقت ذاته أخذت النزعة السياسية ، التي بلغت درجتها القطاعية القصوى في القرن التاسع

فرنسا الميروفنجية ، واسبانيا الفيزيغوطية واطاليا الاوستروغوطية . وحلت
الكثرة محل الوحدة ، وقام مقام الامبراطورية دول متعددة .

ومن الجدير بالذكر ان فكرة الامبراطورية ، التي تداعت في الواقع ،
بقيت سالمة في عالم الفكرة المحضة . وبقاء هذه الفكرة أدى إلى ارجاع
الامبراطورية من جديد ، في عهد شارلومان عندما توج في روما امبراطوراً يوم عيد
الميلاد عام ٨٠٠ .

ولكن القرن التاسع ، الذي بدا فيه فجر الوحدة ، انتهى في ظلام التجزئة
والانقسام . وذلك لأنه لم يكن لشارلومان وارث أهل لهذا الارث ، ولذا انهار
أثره بعده . وبما لاشك فيه أن مثل هذه الأسباب عارض ، غير أن دراسة حكم
لويس الثاني تدل على أن تطاحن الأحزاب وتصادم المنافع الفردية قد أضر بالوحدة
ضرراً بليغاً . وكان الاقتصاد والسياسة يتطوران بصعوبة وباتجاه متعاكس .
فمن الوجهة السياسية ، كانت الدولة الكارولنجية دولة مركزية موحدة ،
وقد استطاعت أن تعيد إلى الغرب شكل الامبراطورية . غير أنها كانت تعيش على
اقتصاد موضعي وذلك لأن الحروب والفتوح والدبلوماسية ومفاهيم المثقفين لم
تغير شيئاً في شروط الحياة اليومية ، إذ لم يطرأ ما يبدل توزيع الثروة وسير
النقود والمبادلات والظروف التي تثبت قيمة الأشياء وشروط العلاقات بين
الأشخاص . ولقد قيل بحق ان الامبراطورية الكارولنجية كانت دولة سياسية عظيمة ،
إلا أنها لم تكن دولة اقتصادية عظيمة . ولهذا السبب تكيف الغرب مع الاقتصاد
المخلق وزاد في ذلك الفتح العربي بما أحدثه من انقطاع وبت في علاقات البحر المتوسط ،
كما دلل المؤرخ البلجيكي هنري بيرين ، على ما في قوله من مبالغة . يضاف
إلى ذلك أن الحياة الكارولنجية كانت موضعية أكثر من الحياة الميروفنجية ،
حتى أننا لا نجد فيها مدناً ، بل حقولاً تكفي بنفسها ، وتعيش في حالة
« اكتفائية قروية » .

والعائش ، تخضع لاتجاهات جديدة وقوة استقطاب شديدة غلبت فيها النزعة المركزية من جديد على النزعة الاميرية (الاقطاعية) . وكان هذا التطور الجديد مسوقاً بدافع الملوك ولذا اتجه نحو وحدات لانحو وحدة ، ونحو تشكل ملكيات أي تأسيس دول إلى جانب بعضها . ولا شك أن هذه النتيجة كانت خاتمة لعمل الغارات . وكان وراء هؤلاء الملوك شعوب ، وقد اكتسب كل منها شعوراً بكيانه ، وبدأت في بلاد الغرب حركة قومية تجلت للعيان في القرن الرابع عشر عندما دخلت فرنسا وانكلترا في حرب « المائة العام » وتحملت كل واحدة منها فظائعها وآلامها . وكانت هذه الحرب فرصة تمت فيها ارادة كل من الدولتين واهتزت فرديتها الخاصة . وبعد أن بلغت كل منها سن الرشد ظهرت في الأفق السياسي اسبانيا الفتية التي شعرت بشخصيتها في حربها مع العرب والعمل على استرداد بلادها من أيديهم . وكذا ايطاليا ، فهي وان فقدت قوة التماسك والارتباط بين أجزائها ، إلا أنها كانت شعلة وضاء تزهر بثقافتها أمام فظاظة « البرابرة » . أما ألمانيا فقد بدأت ، بفضل الأسرة النمساوية ، تبشر بالدور الذي ستلعبه في المستقبل .

وهكذا نشأت اوروبا ، وتآلفت دولها ، وأخذت كل واحدة منها في تحديد قوتي الأخرى ، وتتألب عليها ، وتفرض احترامها واحترام منافعها الحيوية وكرامتها . ولم يكن ثمة مجال للتوحيد بين الدول ودفعها في دولة واحدة ، أو امكان لسياسة توسعية ظافرة ، وكانت كل دولة تريد السيطرة على غيرها تصطدم بحلف من القوى وتجذ جزء مخاطرتها . وغلبت بهذه الصورة الكثرة على الوحدة . ولما سئم العالم من البحث عن السلام في وحدة لا يمكن تحقيقها ، وربما كانت غير مرغوب بها ، لم يجد بداً من أن يراها في توازن القوى ، الذي انبثق عنه احترام الحريات والحقوق ، وما ينشأ عن ذلك من انسجام . وفي هذه التبدلات ، التي أتينا على ذكرها ، نرى أن أف عام العصر الوسيط

سهلت المرور من عالم الوحدة القديمة الى عالم الكثوة الحديثة ، وان رجال العصر الوسيط أدوا رسالتهم خلال التردد وكثرة المنعطفات في طريق طويل . ولما كان هذا العصر قد انتقل بالإنسانية من مرحلة لأخرى لذا كان عصر انتقال . وإذا كان لهذا العصر ما يفخر به فهو يفخر بتألق القرن الثالث عشر ، عصر القديس لويس والقديس توماس الاكوييني ، الذي يمكن أن يشبه بأجد الحوليات البشرية وبعصر بريكلس وأوغستوس أولويس الرابع عشر . وليس فيه ما يناقض الطابع العام لسير العصور . فقد بدأ العصر الوسيط بالامبراطورية وهي في حال الانحطاط وانتهى بأوربة المنظمة ، أوربة عصر النهضة ، أوربة الحديثة . ودور هذا العصر في التاريخ واضح وضروري ، وهو دور الجسر الوسيط بين عصرين من تاريخ البشرية ، لا كما يمثل عادة بهوة سحيقة مظلمة بين أوجين منيرين .

وصفة القول ان تاريخ كلمة « العصر الوسيط » يرجع الى عصر النهضة . فقد كان الأدباء الانسانيون أول من استعملها ، وبخاصة في النصف الثاني من القرن الخامس عشر ، وغالباً في القرن السادس عشر ، ثم تبناها المؤرخون بدورهم في القرن السابع عشر ، وأشاعوا استعمالها .

وهذه التسمية تكشف عن عقلية خاصة . فهي تعبر عن الازدراء الذي يشعر به المصلحون والعلماء والفنانون حيال العصور الوسيطة الواقعة بين العصر القديم وعصر النهضة الأوروبية . فقد كان الأوائل يرونها دوراً طويلاً مليئاً بالتشويه المنظم للمسيحية البدائية ، والمحق المتزايد للمثل الأعلى الانجيلي . وكان الأواخر يصفونها بأنها عصور ظلمات . وكانت ايطاليا خاصة تنتظر الى هذه العصور بأنها « غوطية » أي بربرية وتعتبرها عصوراً عقيمة باهتة ، واقبح من ذلك عصور تأخرو انحطاط .

بيد أن هذا الموقف تبدل فيما بعد على يد رجال الفكر مثل هردر في المانيا وبورك في انكلترا ، وجول دومبستر في فرنسا . وأخيراً اكتشف الفلاسفة

أن عالماً جديداً بدأ في دور التحضير والحمل منذ القرن الثالث عشر ، ولاخير اذا بدأ
ابكر من ذلك في بعض الميادين وفي بعض المراكز الدينية والفكرية .

أما الاطار الجغرافي للعصر الوسيط فيشمل جميع البلاد التي أسهمت في
إشادة الحضارة المسيحية في الغرب الأوربي وقدمت عناصرها ونخص بالذكر منها
بلاد بريطانيا العظمى ، بلجيكا ، ألمانيا الغربية ، ايطاليا اللومباردية ، كاتالونيا ،
فرنسا الجنوبية والشمالية ، حيث أعدت هذه العناصر المختلفة والمتفرقة ونسقت
بانسجام وصهرت معاً وتكون منها تركيب قوي متين البناء .

هذا ويقسم تاريخ العصر الوسيط الى دورين كبيرين : الأول ويذهب حتى
منتصف القرن العاشر . وهو دور اتصال بين الشعوب ، مهم في أوله ، ولكنه
أخذ يتنظم بالتدريج وبدأت تظهر فيه معالم بناء المستقبل . فقد قامت فيه أطر
جديدة ومواد حضارية انقذت من غرق العصر القديم ، واستطاعت الكنيسة
بالتدريج أن تكسب الأفراد والحياة الاجتماعية . وفي هذه الأطر ، وهذه الروح ،
ومن هذه المواد أعد الكارولنجيون التركيب الأولي وهو تركيب غير عقيم بالجملة
ولكنه أتى مبكراً وقبل الأوان وسيؤتي ثماره في الأجل البعيد ، وذلك عندما
وقعت الكنيسة في أيدي العلمانيين وتناست أصولها وجذورها الأولى ، ثم أصلحت
نفسها وتطهرت وتحررت ، وعندما انطلقت الحركة الديموقراطية لتعمل وتنهض
من خباياها ويمجد العصر الوسيط توازنه في الفترة الواقعة بين ١١٢٥ و ١١٥٠
ويؤلف دوراً عامراً من أدوار التاريخ الكبرى .

أما الدور الثاني فيذهب من منتصف القرن العاشر ليصل الى نهضة إيطاليا في
القرن الخامس عشر ونهضة أوربة عامة في القرن السادس عشر . ففي هذه الفترة
تحررت البشرية الأوربية تدريجياً من سلطة الدين ، وتراجعت الكنيسة أمام
الفكر العلماني ، كما تحررت من سيطرتها السلطات العامة والعلوم والفنون
والسياسة والاقتصاد . وتفتت العصر الوسيط بتأثير الاصلاح البروتستانتي والنهضة
وقوة الرأسمالية وتركيز الحكم المطلق بيد الملوك . وهكذا ترك العصر الوسيط
الى البصير الحديثة تراثاً هاماً وقيماً مازال موضع تقدير ابناء العصر الحاضر وعاجبهم .

وعلماء الجمال والكتاب والمؤرخون العصر الوسيط . لقد نال هذا العصر الوسيط إعجاب « الابداعيين » في القرن التاسع عشر وتشيعوا له كرد فعل على « عبادة العقل » وفلسفة القرن الثامن عشر . ولم تدم هذه العاطفة طويلاً . ولكن الأهمية التي أيقظتها في الأوساط العلمية ، ازدادت ولم تنه ولم تضعف ، وتوالى الدراسات واعادت الى « العصر الوسيط » مع الزمن وجهه الحقيقي ، وبوأتها المكانة التي يستحقها في التطور التاريخي . وما من أحد اليوم يمثل العصر الوسيط بعصر ظلام حتى ولا بعصر انتقال . بل على العكس ، لقد أخذ المفكرون والمثقفون يرونه « العصر الأول » بالنسبة لأوربة ويسجلون لصالحه واعناده والثقة به أثراً أساسياً وهو « حضارة الغرب المسيحية » التي ورثت الثقافة الاتباعية القديمة وأصبحت دعامة قوية لحضارة أوربة اليوم .

وإذا كانت هذه هي حال العصر الوسيط ، بما له وما عليه ، فإن أول قضية ، ان لم يمكن القضية الوحيدة ، توضع أمام علماء العصر الوسيط ، هي معرفة كيف تهيأت حضارة هذا العصر وأعدت ، وما هي الصفات التي تحلت بها عندما بلغت درجة النضج ، ومتى ولماذا تصلبت وتجمدت وأصبحت بالفقر ولم تضمحل .

لقد وضعت قضية العصر الوسيط على بساط البحث منذ هجرات آخر القرن الرابع وأول القرن الخامس ، وتناقش المؤرخون حول بدايته ونهايته ووضعوا لذلك ، كجاءنا ، أبعاداً زمانية ومكانية . ولا شك في أن كل موقف من المواقف حول البداية يمكن الدفاع عنه ، لأنه يكشف عن جزء من الحقيقة . ولكن الحادث الحاسم كان في عبور القبائل الجرمانية نهر الراين والدانوب وتعاون روما والبرابرة والكنيسة واتصالها مع بعض اتصالاً وثيقاً في عصر الغارات البربرية الكبرى . أما النقاش حول النهاية فلم يكن أقل حماساً وجدلاً . ولكن المشاهد أن تبدلات كبيرة حدثت بين ١٤٥٠ و ١٥٥٠ ، حتى أن العلماء لم يشكوا في

الفصل الأول

نهاية العالم الروماني والغارات الكبرى

الغارات البربرية الكبرى

ان الرأي السائد لدى اكثر الناس عن الغارات البربرية الكبرى هو ان الأقوام الجرمانية والتتوية انثالت في القرن الرابع والخامس على الامبراطورية الرومانية وهي في حالة احتضار ؛ وان قبائل الهون والفاندال والايستروغوط والبورغوند والفيزيغوط والفرنجة اجتاحت ايطاليا وغاليا واسبانيا وافريقية الشمالية ؛ وأن افطع زعماء هذه الأقوام الغازية زعيان وهما : آلاريك وآتيل ؛ وأن الامبراطورية الرومانية ، في الغرب الاوربي زالت من الوجود بسبب هذه الغارات ، وحل محلها ملكيات بربرية ؛ وان اعظم هذه الدول قوة وبأساً بملكة الفرنجة ، ومؤسسها الحقيقي كلوفيس ؛ وان هذه الغارات الكبرى تعتبر حداً فاصلاً بين العصر القديم والعصر الوسيط .

ولكن رجل الفكر والبحث لا يكتفي بهذا القول ، بل يرى ان حادث الغارات الكبرى كان عظيماً ومعقداً في أسبابه وحقيقته وصداه فيها وخلفه من نتائج . ويدل الألمان على هذا الحادث عادةً بكلمة «حركة» أو «هجرة الشعوب» . وهذه التسمية ولا شك توضح الحادث بشكل أقل مسرحية من سواء ، ولكنها لا تدل على معناه العميق بدقة ، ولا تعطي إلا فكرة بسيطة وغير كافية عن

التبدلات والتغيرات التي أحدثتها الغارات ، كما لا تظهر إلا الناحية العرقية ، بينما تبطن النواحي السياسية والاقتصادية والثقافية التي هي أهم من غيرها بكثير .

لقد كانت الغارات الكبرى سبباً في انهيار العالم القديم . ولكن يجب ألا نعتبر هذه النكبة ، التي منيت بها الامبراطورية الرومانية ، حادثاً مفاجئاً قصير الأمد ، على حين أنه كان نتيجة لنزاع طويل . ولقد انصرف جهد المؤرخين المعاصرين أمثال فوستل دو كولانج وييرين ودوبش وفرديناند لوط ، وغيرهم من استهوتهم هذه الدراما الممتعة ، إلى عرض هذه الازمة على بساط البحث وتشريحها . وبداء من هذه الدراسة ان حادث الغارات الذي اعتبر كتلافة انقضت على الامبراطورية ، أصبح اليوم مفهوماً على شكل مغاير لما كان في السابق . والصحيح الثابت ان هنالك امتداداً بسيطاً لانحلال مزمن دب في جسم الامبراطورية ولا يمكن اجتنابه ، وان الغارات البربرية قد عجلت في انهاءه . ولفهم ذلك نجب العودة إلى بدء الامبراطورية ، الى عهد أوغسطس ، أي عندما انتهى الفتح الروماني وتشكل حينذاك مفهوم « رومانيا » ومفهوم « برابرة » .

ان كلمة « بري » كلمة قديمة جداً ، فقد ظهرت في الياذة ، وتدل على الاحتقار والازدراء . ثم تحول معنى هذه الكلمة ، وأصبحت فكرة الانحطاط أو الصغار الاجتماعي والفكري متعلقة ، عند افلاطون وأريستو ، بالشعوب التي يصنفها الإغريق بربرية لأنها لاتتق اللغة الإغريقية . وإذا ففهم هذه الكلمة عند مفكري اليونان مرادف لكلمة « غير مثقف » و « فظ » و « متوحش » . ثم أخذت اللغة اللاتينية هذا اللفظ عن الإغريق للدلالة على هذه المعاني . ويعرف بعض المؤرخين المعاصرين هذه الكلمة بأنها تدل على القوى العدائية التي كانت تهدد الثقافة الإغريقية - اللاتينية والدولة الرومانية .

لقد كانت رومانيا محاطة بالبرابرة من جميع جهاتها ، وحضارة البحر المتوسط

في حصار من الشمال والجنوب والشرق ، وحدودها في الغرب تقف عند شاطئ
الحيط الاطلسي ، بحر الظلمات ، حيث لا يجرأ أحد على ركوبه إلا إذا سار
محاذياً للشاطئ بحيطه وحذر ، ولا يعلم ان قارة عظيمة تمتد على الشاطئ الآخر
منه ، وستبقى هذه القارة ، قارة امريكا ، مجهولة خلال الف سنة أيضاً ، ولم يكن
الجغرافيون يعلمون سوى ثلاث قارات : أوربة ، وآسيا وافريقية . ولم يكن
بين برابرة هذه القارات أي صلة أو رابطة ، بل كانوا ينتسبون إلى عروق مختلفة
ويؤلفون اسراً عرقية كبرى . وهم موزعون كما يلي : الجرمن ، السلاف
(الصقالبة) ، الفينيون ، الاتراك المغوليون ، الايرانيون ، الأعراب ،
البربر (سكان افريقية الشمالية) ، ويعيشون على شكل شعوب وقبائل تنتقل
باستمرار . وقد لعب الجرمانيون ، من بين هؤلاء البرابرة ، دوراً أساسياً في تحول
العالم القديم إلى العالم الوسيط .

* الجرمانيون .. كان الجرمانيون يحتلون الاراضي التي تسمى اليوم المانيا الغربية
والنمسا على مصوراتنا الجغرافية ، ولم ينبتوا في هذا الاطار الجغرافي ، بل هم فرع من
العرق الآري الذي كان يسكن قديماً آسيا ، وربما كان يقيم على شواطئ بحر الخزر
(قزوين) . ولقد تحدر الاغريق والايطاليون من هذه الأرومة ، وانفصلوا عن
موجة القبائل الآرية التي كانت تتجه في سيرها نحو الغرب وتوصلت حتى نهر
الأودر . اما القبائل الجرمانية الأصلية فقد استقر بها المقام في بداية العصور
التاريخية في حوضي نهرى الاودر والايلب ، أي في الاراضي التي تحدها روافد
هذين النهرين مع الجبال والبحر .

ولقد نقل إلينا كتاب العصر القديم اسماء الأقوام الجرمانية باضطراب ودون
أي تنظيم . ويرى اللغويون يرون صعوبة كبرى في التعرف إليها . وما يلفت النظر ان

هذه القبائل لم يكن لديها في هذه المرحلة أي شعور بالتعاون والتضامن ، ولم يكن في لغتها ما يدل على جمعها ، حتى أن كلمة جرمانى ، التي نستعملها ، ليست جرمانية بل كان يطلقها الغاليون على البرابرة الذين يقيمون ما وراء نهر الراين ، ويعنون بها « جيران » ، وقد عرفها الرومانيون وتبنوها بينما كانت الجرmaniون يجهلون مطلقاً . أما التعبير « دوتش » الذي كان له شأنه واختاره الألمان ليذل عليهم . فيبدو أنه لم يكن موجوداً قبل القرن الثامن للميلاد . وعلى كل حال فإن تطبيقه الأول كان وصفاً للغة لا للشعب .

ومها يكن فالأدلة كثيرة على قربى القبائل الجرمانية والمجموعة العرقية الجرمانية في لغة والدين والأخلاق . وليس من الضروري أن تكون العرقية واحة في عصر ما لتوسع نتائجها التاريخية في كل عصر .

وما يجدر ذكره هو أن تطور ديانة الجرمن بصورة خاصة ، دون سائر الشعوب الإلرية ، كان له أثره وصداه . فقد كان الجرmaniون يعبدون قوى الطبيعة ، وكان أودن أو فوثان إله القوة وقد احتلت عبادته مكانها في المعبد الجرمانى ، بينما كانت فكرة « الحق » تفوق كل شيء عند الاغريق - اللاتينيين ، وذلك بفضل جوبيتر وآبولون ومينرفا ، آلهة الحضارة القديمة ، وهذه الفكرة بعيدة كل البعد عن أشياع اودن .

ولم تكن الأفكار الدينية التي يدين بها الجرmaniون لتقلق المتحضرين ، بل الاضطرابات التي تعكر صفو المناطق التي يقطنون فيها ، وذلك لأن أمواج البحر الجرمانى كانت تزداد تلاطماً باستمرار ، بسبب الهجرات المتعاقبة ، التي كانت تحدث ، أما لهم الفطري للحرب والسلب والنهب ، أو بسبب الضغط والدفع اللذين يأتيان من الخارج . وفي هذا الاطار الجغرافى ، الذي أصبح فيما بعد المانيا ، كانت القبائل تلتقي وتتصادم ، وتطغى الواحدة على الأخرى دون أن يكون

التاريخ قادراً على احصاء الضحايا وتعداد الهزائم وتقدير الظفر . وفي هذا التراحم المستمر ، اندفعت بعض هذه الأقوام وهجمت على ثغور روما تحاول اختراقها . وإذا كانت هذه الأقوام تريد عبر الحدود فليس بالضروري أن تتجاوزها عدوة تريد الحرب والقتال ، إذ ليس هنالك معارضة عرقية أو حقد قومي بين الآريين الذين أبدعوا الحضارة الاغريقية-اللاتينية والآريين المتأخرين الذين أخذوا بسحر جنة (فالهالا) أودن ؛ وليس هنالك ما يدعو إلى أي اختلاف بين هؤلاء وأولئك الغاليين-الرومانيين الذين تبنا ثقافة روما ولا يرون في «جيرانهم» الشرقيين عادة يخشونهم كما كانوا يخشونهم في عهد قيصر .

وقد استهوى بهاء الامبراطورية هؤلاء الجرمانيين . وأوجدت حياتهم البائسة في نفوسهم استعداداً لتقدير سحر الحياة المستقرة ، والمطمئنة عن غدها ، فكفروا باختراق الحدود ، لا بشكل مهاجرين أو فارين أو رحل لا يشعرون بما هو أمامهم ، بل زائرين أو مستطلعين أو راجين ، ولا مانع لديهم من أن يقدموا للامبراطورية سواعدهم وسيفهم ، فهي بحاجة لأعوان يذودون عن حدودها ولعمال يفلحون أرضها . وهكذا يرى أن روما بعد أن رفضت تحضير البربري في أرضه ، منذ اوغسطس وفاروس ، تعود اليوم فتترك البربري يأتي إليها ليتحضر في دارها .

كان النفوذ إلى روما مزدوجاً: عن طريق الجندي والمعمّر . وهذا التغلغل السلمي هياً بحق الغارات . فلو لا الدفاع عن الدانوب ، ولو لا زراعة الحقول الرومانية ، لما كان للغزو الأثر الذي كان له من امتزاج هذين العالمين : عالم روما وعالم البرابرة .

ولقد كان أدب الضيافة ينشط استقرار الجرمانيين على أرض الامبراطورية . فقد استقبل البرابرة اما بشكل اغراط في الجيش أو بشكل تعاقد للعمل .

وبصورة عامة كان هذان النشاطان يتم أحدهما الآخر ، فبعد أن يقضي الجنود عدة سنوات في الجيش يعودون إلى الأرض كمعمرين . ولم يكن هذا الاستخدام ليطبق على أفراد منعزلين بل على قبائل بكاملها ، كانت تأتي إلى أرض الامبراطورية وتضرب جذورها فيها . وبدفعة واحدة حلت المشكلتان : مشكلة الدفاع ومشكلة الزراعة في كل منطقة من المناطق ، وجرى توزيع الأراضي والحيوانات المنزلية والرقتي ، بشكل هاديء ، بين السكان القدامى والمهاجرين الجدد . وكانت أراضي الدولة تقوم بالنفقات الأساسية لمنح الامتيازات وتوزيع الحصص على الضيوف . ولقد اضطر كبار الملاكين إلى تفضية قسم كبير من أراضيهم في سبيل ضمان الأمن والحصول على الايدي العاملة . وإذا بدا لبرابرة آخرين أن يتقدموا معتدين على هذه الأراضي فإن البرابرة الضامنين كانوا على استعداد لسفك دمائهم للحيلولة دون تقدم البرابرة الغازين .

وعلى هذا النحو اختلط الغزو بالضيافة وتم الاستعمار . ومن قبلت ضيافته أقام مع أهله وذويه . وهذا النوع من الاستعمار يخالف الاستعمار الحديث . فبينما نجد المتمدنين يستعمرون البلاد الجديدة الناشئة . نرى استعمار العصر القديم ، عند زواله ، يظهر بمنظر مخالف ، أي أن الأقوام أو البلاد الناشئة تستعمر البلاد العريقة القديمة . وكما أن الاستعمار الأوربي يبدل البلاد المستعمرة فيما وراء البحار ، فقد كانت استعمار البرابرة أرض الامبراطورية الرومانية ، في القرنين الرابع والخامس ، يبدل الغرب المتمدن . وعن هذا الاستعمار أخذت ترسم جرملة الثغور . وهذه الجرملة عظيمة النتائج لأنها تسجل ختام العهد الامبراطوري . فقد تألفت في ذلك الحين جيوش البرابرة . وكان الملك منهم يقوم مع شعبه بخدمة الامبراطورية ويرتبط معها بعقد . وقد شوهدت جنود من هذا النوع على الراين والدانوب .

وكانت القاب الشرف تغدق على زعماء القبائل ويمنحها البلاط الامبراطوري لمن أدى منهم خدمات عظيمة . ومن هؤلاء الزعماء : ميروفيه الفرنجي ، وستيليكون الفاندالي وريسير السويقي . وكانوا كلهم أنصاراً للجيش الروماني وموظفين في خدمة الامبراطورية .

ولم يتخل هؤلاء الجرمانيون ، الذين يقومون بتعهداتهم على هذا النحو ، عن جنسيتهم . فقد احتفظوا بنظمهم وعاداتهم وطبائعهم واعراف قبائلهم . وكان على رأس كل قبيلة ملك يخوله المحاربون السلطة والسيادة . فهو إذاً زعيم عسكري ويلقب بـ « أمير الأمراء » . ويساعد رؤساء العائلات بدورهم الأمراء والملك . وكانت الملوك من الأسر التي يعرف عنها انها متحدرة من أصل إلهي . ويترب على ذلك حق الدم بالسيادة ، ولكن هذا الحق لا يعني الوراثة ، لأن كل ذكر يجري في عروقه الدم الملكي يمكن أن يُستوَد . وكانت إقامة العدل حسب قانون القبيلة ، وهو قانون غير مكتوب ويطبق بموجب شكيليات ومراسم خاصة في المحكمة وبصورة علنية .

لقد كانت الحرب شغل الجرمانين الشاغل وخاصة في عهد الغارات ، والخدمة العسكرية الاجبارية قاعدة عندهم . وعدا التجنيد الاجباري ، وجد لديهم نظام عرف باسم « نظام الرفقاء » ، وهو نظام عسكري يميز العالم الجرماني . فمن ذلك أن الزعيم اذا فكر بالقيام بحملة ، حضر إلى مجلس القبيلة ودعا الناس للحاق به . فمن قدم منهم نفسه اليه اعطاه عهده .

وقد كان هذا النظام عارضياً في زمن قيصر ، إلا أنه أصبح فيما بعد نظاماً دائماً . وكانت ينضم إلى هؤلاء الرفقاء شباب أيضاً . وكان على كل محارب في هذه العصابة أن يحلف اليمين لزعيمه ، وأن يخلص في خدمته اخلاصاً مطلقاً . وعلى الزعيم أن يؤمن له الطعام وقسماً من الغنائم

والاسلاب . وقد يبلغ التضامن الناجم عن اليمين درجة تضطر المحارب الا يعيش بعد رئيسه إذا قتل في الحرب . وقد لعبت هذه العصابات دوراً عظيماً في الغارات .

ولم تكن هذه الغارات أو هجرات الشعوب ، حسب مفهوم الألمان ، لتمر دون أن تترك أثر الألم في البلاد التي تجتاحها . ولقد وصف لنا الكتاب المعاصرون الذين شهدوا هذه الحوادث ، وأوضحوا الذعر والخوف والرب ، وما كان يتعرض له سكان الأرياف والمدن من أهوال . فها هو ذا القديس جيروم يخبرنا عن أعمال الغارات وما تجرّه من خسائر بقوله : « كان المؤمنون يقتلون في الكنائس ، وكانت الأراامل القديسات والعذارى ممن وهبن أنفسهن للسيد المسيح في جملة الغنائم التي سلبتها هذه الوحوش المفترسة . لقد كان الأساقف يقادون أسرى ويقتلون ، والمذابح تهدم ، والشقاء يسود في كل مكان ير منه البرابرة » .

وكان القديس أمبرواز يرى في البرابرة « حيوانات مغلقة عن كل عاطفة ، ولا تعرف إلا الخطف والسلب والفجور » .

ولم يكتم القديس جيروم ألمه عندما رأى روما تسلب وتحرق فقال : « ومن كان يظن أن روما الظافرة على العالم تنهار في يوم من الأيام » . ومهما يكن ، فمن العدل أن نبالغ في قيمة هذه الأحكام ، ومن الخطأ أن يقال أن الغارات ، وحتى في أخرج أوقاتها ، كانت مصحوبة دوماً وفي كل مكان بالشدة والارهاق . وإذا كانت في بعض الأحيان فظة غاشمة ، فقد كانت في الغالب سلمية . وإذا شوهدت بعض الحوادث الفظيعة ، فقد كانت تنشأ عن المنازعات التي كانت تقوم في داخل الامبراطورية . ففي الحروب الأهلية التي تشن في سبيل الحصول على عرش الامبراطورية

كان المتنافسون يرمون البرابرة بعضهم ببعض ، فيلحق كل فريق الضرر بأراضي المتخاصمين ومدنهم . ولكن مثل هذه الأحوال كانت استثنائية . ويمكننا القول بصورة عامة ان البرابرة ليسوا متعصبين ولا هدامين . ولذا فان معظم المدن القديمة بقيت سالمة إلى ما بعد الغارات ، ولم تضرر الأوابد إلا قليلاً . وإذا لم يبق أنبئة "امبراطورية فهذا لا يدل على أنها تهدمت أثناء الغارات أكثر مما تهدمت في العصور التي قبلتها . والحقيقة ، التي يجب أن يقال ، هي أن أحجار هذه الأوابد قد استلت من مكانها في غضون العصر الوسيط لإنشاء الدور والحصون والكنائس . كما القيت التآثيل في الأتثن لصنع الكلس . وقد استعملت الكوليزة في روما وملعب نيم وغيرهما من مفاخر الأبنية مقالع حجرية . ولذا يحسن الا يجعل الجرمن في القرن الرابع والخامس مسؤولين عن هذا التهديم ، كما يحسن إلا ينسب دوماً مثل هذه الأعمال إلى بعض الحوادث الطبيعية كالزلازل أو الفيضانات وغيرها .

وإذا كان البرابرة يحترمون ، في الغالب ، السكان والآثار ، فهم يحترمون الامبراطورية دوماً ولا يحاولون تهديمها . وها هو ذا القديس أغسطينوس يحدثنا عن ذلك بقوله المحكم : « لقد ابتليت الامبراطورية ولكنها لم تهدم » . وما من أحد كان يفكر بأن تبديد . لقد كانت فكرة الامبراطورية عامة شاملة ، ولا شيء أدل على ذلك من شدة برابرة الغرب ، عندما التفوا حول القائد آتسيوس ضد آتيليا ملك الهون . وحيثما وجد الجرمانيون كانوا يدافعون عن الامبراطورية .

الهون . — لقد كان أصل الهون موضع جدل ونقاش وما زال مشكوكاً به . والمتعارف عليه أنهم أتراك — مغربيون . وسواء أكان العنصر الأصفر

عندهم أصلياً أم مكتسباً ، فسياؤهم ، كما يبدو ، تدل على أنهم مغوليون أكثر منهم أتراك . وقد استطاعوا أن يؤسسوا امبراطورية حقيقية في منغوليا الخارجية ، ويضعوا أيديهم على طرق الصحراء ، ويفرضوا احترامهم على الشعوب الآسيوية من تخوم كوريا إلى الحدود الغربية لتركستان الصينية . وقادتهم حملاتهم إلى سور الصين العظيم ، ولكن امبراطور الصين يو-تي صد هجماتهم واضطرم إلى الفرار عام ١٢٨ قبل الميلاد . ولأسباب مازالت في معظمها مجهولة ، وجدت أقوام منهم في روسيا في العام ٣٦٣ م على شواطئ بحر الخزر ، وأخذت تزاحم الآلن والغوط . ووصلت بنجولها إلى مياه الدانوب .

لقد كان هؤلاء الأتراك - المنغوليون فرساناً أشداء يتطون جياداً صغيرة شبيهة بجياد القوزاك ، وكان الناس يتحدثون عنهم أحاديث عجيبة ، فيقال انهم يحفظون اللحم تحت سروج خيولهم ، وانهم هدامون يفخرون بأنهم يجعلون البلاد خراباً يباباً بعد مرورهم منها . ولكن جهودهم ينقصها الانسجام والوحدة ، فقد كانوا يؤلفون عصابات ويأثمرون بأمر زعمائهم . وأتيح لأحد زعمائهم ، روجيلا ، أن يحقق وحدة الهون ، ولا يعلم كيف كان ذلك ، ويوجد دولة ابتدائية في بانونيا . وفي عهد روجيلا هذا قام الهون بعدة حملات تارةً ضد الامبراطورية الشرقية ، وطوراً ضد شعوب جرمانيا . وقد خلدت ذكرى حروبهم الظافرة ضد أقوام البورغوند في الملحمة المسماة نيبيلونغن التي يمزج فيها العنصر التاريخي بالأسطورة . وبما يجدر ذكره أن فظاعة الهون كانت مضرب الأمثال .

لم يكن لروجيلا وارث منه ، فورثه ابنا أخيه موندزوك وهما بليدا وآتيلا . غير أن الأصغر آتيلا ، تخلص من أخيه بقتله وحكم وحده ابتداءً من عام ٤٤٥ م .

كان آتिला شخصية فذة . فقد استطاع في بضعة أشهر أن يؤسس امبراطورية مترامية الاطراف معتمداً في عمله السياسي على الارهاب . ولا شك في أن الاسطورة أضافت إلى حقيقته أشياء كثيرة من نسج الخيال . فمن ذلك أن إله الهون الوحيد كان سيفاً مجرداً غرز في الأرض ، وإن فظاعة هذا الرجل ، جعلت الناس يطلقون عليه اسم «بلاء الرب» . وبما يذكر عنه مراراً أن العشب لا ينبت انتى ضرب حافر جواده الأرض . ومما يكن من أمر ، فإن سيرة هذا الرجل المشؤوم قد أثرت في خيال الناس . وكانت طريقته في الحروب اباداة المغلوبين أو ادخالهم في الجندية ، وشعبه مجموعة عصابات لام لها إلا القتل والسلب والنهب والتخريب .

كان آتिला يقيم العدل حيث يستقر به المقام ، ويتخذ من هذا المقام عاصمته ، وهي أشبه ما تكون بمعسكر حربي تجتمع فيه سداجة الملك القبلي مع شدة الوحشية في الحروب والحرص على حفظ حقوق الناس ، كما تتمثل فيه صفات الزعيم الحربي . فهو لا يفهم شيئاً خارجاً عن الحرب ، وقد شاد امبراطوريته بالسيف ، وانهارت هذه الامبراطورية عندما كف هذا السيف عن البريق .

لقد كان موقع الهون ، على الدانوب عام ٤٤٥م ، يساعدهم على أن يلقوا بأنفسهم نحو الشرق أو الغرب . وقد اتخذ آتिला وجهة الغرب وانهاه عليه بضرباته . ويقال ان الذريعة التي مهدت له هذه الفرصة هي أن الاميرة الرومانية هونوريا ، أخت الامبراطور فالانتيان الثالث ، أرسلت مع حاجبها خاتماً إلى آتिला تطلب وده ، وكانت تريد بذلك أن تثار لنفسها ، لأنها منعت من الزواج لأسباب سياسية ، وكاد آتिला يعتقد بصدق هذه المغامرة وطلب يد هونوريا بعد أن مهد لها اجتماع في مدينة رافينه . وبما يدل

على صحة هذا الحجة أن الهون انجسوا نحو غاليا ولم يتجهوا نحو ايطاليا .
وتحرك جيش آتिला برمته ، وكان عظيماً في أعين المعاصرين . ويقال
ان عدد فرسانه ٦٠٠.٠٠٠ ، ولكن هذا الرقم كان أكثر من الحقيقة
بكثير . وأثار قرب الهون ذعراً عظيماً حتى جعل كل انسان همه أن
ينجو بنفسه . وكانت الحرائق وأعمال القتل قائمة على طول الطريق الذي يمر
فيه الغارة .

وليس بالسهل تعيين طريق « بلاء الرب » . وذلك لأن كثيراً من
سير القديسين أظهرت ملك الهون في أمكنة لم يظهر بها في الحقيقة ،
وذلك بغية اثبات بطولها في حادث الغارات . فهو لم يمر مثلاً من تريف
وتونغر وآراس . وكما يحدثنا سيدوان ابولينير ، دخل هذا البلاء بلاد
غاليا عن طريق نهر الراين الاوسط ، واجتازه على قوارب صنعت من
أشجار الغابة الهرسينية .

وبلغ الرعب في باريس أشده . فنصبت القديسة جونيف ، وقد
ضخم مؤلفها الدور الذي لعبته ، الأهلين باللجوء إلى الصلاة والاعتصام
في المدينة . فلم تصب باريس بأذى ببركة جونيف ، التي أصبحت تلقب
« ربة باريس » ، واندفع الهون حتى اورلثان ، بلد القديس اينان .

ان الحادث الهام ، الذي يجب تسجيله ، هو أن الرومانيين والبرابرة
الفواكتة واحدة أمام الخطر المشترك المدام ، وتآلف حلف ضد
شعب الهون المتفطرس ، الذي أراد السيطرة على كل شيء . وقد لعب
القائد آئسيوس دوراً هاماً في حسن تنظيم الجيش وقيادته .

وتحدثنا سيرة القديس اينان أن الهون لم يدخلوا اورلثان بفضل
وساطة القديس ، واضط آئسيوس الاتراك - المغوليين إلى الانسحاب ،

- ٢٦ -

بينما يلح سيدوان ابو لينير بان واقعة حامية الوطيس وقعت تحت حصون المدينة وأجبرت الهون على التراجع والانطواء في انحاء مدينة تروا . وبالقرب من هذه المدينة وقعت الواقعة الكبرى المعروفة في التاريخ باسم واقعة « الحقول السكاثالونية » عام ٤٥١ م . وغلب آتيلا على أمره ، ولكن خصومه كانوا في حالة اجهاد ايضاً فلم يحاولوا ملاحقته ، ونجت غالباً ، واستطاع المغلوب أن ينجو دون أن يصيبه اذى الغالب . وهلك آتيلا عام ٤٥٣ م بعد محاولة أراد بها الغارة على ايطاليا . وقد اثرت وراثته بعد وفاته حرباً داخلية جعلت فلول الهون غير قادرة على الهجوم والعدوان مرة أخرى .

كان من نتائج غارة الهون المباشرة ان القت الشعوب الجرمانية في غاليا وايطاليا . ولم يقف في سبيلهم اقل حاجز . وكان آئسيوس آخر عظماء الرومانيين ؛ وقد عجل مقتله بجرف الامبراطورية نحو الهاوية ، لاسيما وان الاباطرة كانوا يتوالون على الحكم اسماً لافعللاً . وكان رومولوس اوغستول آخرهم . وقد ثل عرشه أحد زعماء البرابرة اودواكر ملك الهيرول وأصبح سيد ايطاليا الحقيقي ، وأرسل اشارات الامبراطورية إلى زينون امبراطور الشرق القائم على عرش بيزنطية . وهكذا تم انقلاب اودواكر عام ٤٧٦ م الذي يعتبر بداية للعصر الوسيط .

لم يكن اودواكر بعمله هذا لينكر الامبراطورية ، بل على العكس ، لقد كان يعترف بها ، وقد كتب الى زينون : « ان الغرب ليس بحاجة إلى امبراطور خاص ، إن امبراطوراً واحداً يكفي للنطقتين » ويريد بذلك الغرب والشرق . فلم يبق اذن سوى امبراطور واحد . ولكن الواقع الحقيقي كان وراء هذا القناع السطحي ، لأن سلطة زينون في الغرب كانت نظرية ، وليس لها اقل مفعول مادي . فمذ ان زال الامبراطور في روما

— ٢٧ —

أصبح البرابرة المعسكرون في النصف الغربي من رومانيا مستقلين ، أي
ان كل ملك بربري أصبح سيداً في مملكته ، ولا أحد فوقه ، الا هذا الوم
الامبراطوري . وهكذا تداعت الوحدة الامبراطورية وحلت الدول محل
الولايات القديمة . وهذا الحادث ينهي العالم القديم ويدشن العالم الجديد ،
عالم العصر الوسيط .

الفصل الثاني

نتائج الغارات

بعد ان طغت أمواج الغارات الكبرى على الامبراطورية الغربية في القرن الخامس ، تبعتها امواج اخرى وغطت اوروبا في القرون التي تلت . فمن ذلك ان الآفار ، وأصلهم من منشوريا ، نفذوا إلى اوروبا في منتصف القرن السادس ، وتوصلوا إلى ما يقارب نهر الدانوب الأدنى . واللومبارديون وهم جرمانيون شرقيون ، بقوا حيث هم عندما اندفع اخوانهم الغربيون على « رومانيا » . ولما هددتهم الآفار بغزوهم تحركوا او غزوا بدورهم ايطاليا في العام ٥٦٨ م . وثم السلافيون . وأخيراً النودمانديون والهونفاريون في القرن التاسع والعاشر . ولقد كانت هذه الغارات تتوالى باستمرار . ولهذا السبب نرى ان المؤرخ لويس هالفن قد أطلق الوصف « بوبري » على كامل العصر الذي يمتد من وفاة الامبراطور تيودوس إلى نهضة القرن الحادي عشر ، فضلاً عن ان وجهة نظره هذه تتسع حتى تشمل العالم كله بما فيه الفتح الاسلامي . غير اننا إذا اردنا ان نحدد آفاقنا ونقتصرها على اوروبا الغربية ، وجدنا في الرأي التقليدي روحاً من حقيقة ، وهو ان نهاية القرن الخامس للميلاد تسجل تاريخاً خاصاً ، لأنها تعتبر نقطة توقف مؤقت ، واكثر من نقطة توقف ، وذلك لأن مد الغارات تلاه جزر مؤقت . فقد قام ، بعد كلوفيس مؤسس دولة الفرنجة ، جوستينيان

محاول ارجاع امبراطورية الغرب ، ولكن محاولته هذه كانت وهماً ويوماً ليس له غد ؛ الا انها تدل ، على الأقل ، على ان قوى الهجوم ، في بداية القرن السادس ، قد اعتراها الاعياء والوهن ، وان اوربة شعرت بمجاجة الى الانشاء والبناء .

ويتساءل الآن كيف كانت حالة أوربة في آخر القرن الخامس ؟ كانت ايطاليا في أيدي الاوستروغوط ؛ وشمال غاليا كله إلى نهر اللوار بيد كلوفيس ملك الفرنجة ، باستثناء كتلة الاموريك ، حيث حل بعض البروتون بعد أن غادروا الجزر البريطانية . واحتل الانغلو - ساكسون والجوت جنوب بريطانيا العظمى ، ولبث البروتون الباقيون يدافعون عن جزيرتهم واعتصموا في بلاد الغال (ويلز) وكورنواي . أما الفيزيغوط فما زالوا سادة قسم كبير من غاليا ، أي في حوض اكيثانيا وسبينايا (وهي تقابل مايسمى اليوم بلاد البيرة الشرقية واللانغدوك) وپروفانس . واقتطع البورغوند مملكة في منطقة الرن ، واحتل الآلامان هلفيسيا الرومانية أي مايسمى سويسرا اليوم . أما اسبانيا فكانت تابعة إلى الفيزيغوط ، ما عدا الشمال الغربي ، حيث أسس السوفييون مملكة ، ولبثوا فيها حتى الفتح العربي . وأخيراً مملكة الفاندال وتشمل شواطئ افريقية الشمالية .

لقد نبتت هذه الملكيات البربرية ، كالطور ، على أرض الامبراطورية الغربية المنحلة . بيد انها كانت دولاً موقته ولم تعمر طويلاً ، ومالبت أن زالت الواحدة تلو الأخرى ، الادولة واحدة وهي مملكة الفرنجة . فقد وقع ان أعتلى العرش فيها كلوفيس حوالي العام ٤٨١ ، بعد سقوط آخر امبراطور في الغرب ، وبدا أن دولة الفرنجة تتمم الامبراطورية . وقد ظهر ذلك واضحاً في امبراطورية شارلومان .

وربما يظن أن الأزمة ، التي سببتها الغارات البربرية في اوروبا ، أدت إلى انحطاط يصعب علاجه . لاشيء من ذلك البتة . لأن هذه البربرية ، التي عمت أرجاء اوروبا وبدأت فاسدة في ظاهرها ، كانت تضم بذوراً خصيبة . وستتحد هذه البذور مع تقاليد الماضي الروماني الباقية وروح المسيحية المجدد وتعمل عملها ببطء وتساعد على تشكيل حضارة العصر الوسيط المسيحية .

اثر البرابرة السياسي والاجتماعي . - لقد أقام البرابرة ممالكهم في الغرب قبل نهاية الغارات البربرية . وبعد ان زال آخر امبراطور روماني أصبحوا وحدهم سادة هذا الغرب ، فهل سيجعلون من النظم الرومانية صفحة بيضاء ويفرضون حضارتهم الخاصة كما فعلت روما في الماضي ، أو أنهم سيستعملون الأطلال الرومانية ويقيمون نفوذهم بالقوة .

لقد استهوت هذه القضية الاوربيين منذ القرن الثامن عشر وانقسمت الأوساط العلمية مدة طويلة : فمن جهة : الجوامنة الذين يحبون البرابرة ويعتبرونهم مجددين للعالم الروماني المتداعي والأخذ بالانحطاط ، وباعتين لقوة وحرية الشعوب التي قهرها النظام الروماني . ومن جهة اخرى ، الرومانسيون الذين يبرهنون على أن البرابرة لم يغيروا الغرب في شيء لأن الطابع الروماني كان عميقاً . ولقد تعلق النزاع قبل كل شيء في المضمار السياسي وتفاقم بمعارضة القوميات وامتد إلى التاريخ الاجتماعي والاقتصادي والفني .

لقد ظفر البرابرة بالقوة على الرومانيين ، بيد أنهم كانوا يمثلون اقلية صغيرة بالنسبة إلى مجموع سكان الامبراطورية ، وربما كانوا بنسبة ٥٪ . وقد ظلوا في البدء مجتمعين في بعض المناطق ، حتى أن كثيراً من البلاد كإيطاليا وإسبانيا وحتى غالباً لم تعرفهم . ثم إن إقامة هذه الأقلية التي

بدأت قبل القرن الخامس ، تمت بالتدريج ولم تكن كالاحتلال الصاعق الذي قام به العرب في افريقية واسبانيا .

وأخيراً ان الجرمانى الذي احتل الامبراطورية الرومانية لم يكن معادياً لها ، بل دخلها مسالماً حتى أن الغوطي بصورة خاصة خضع لتأثير الحضارة الرومانية .

وبالرغم من هذه الشروط في الاقامة والاستقرار فان حظ الانصار مسبقاً كان كثيراً ، لأن كل شيء يضع الغالب والمغلوب وجهاً لوجه في اللغة والدين ، والاريوسية و الوثنية ، والعرف والسلاح ، وخاصة الأنظمة السياسية والاجتماعية .

وبعد فهل يجب الكلام عن نظم سياسية عند البرابرة ؟

ان هذه النظم يمكن تلخيصها بالملكية المطلقة المعتمدة على القوة العسكرية . ولم يكن للأمراء ، ملوك الشعب الفرنجي ، والغوطي والفاندالي الخ . . . اي فكرة عن دولة يعتبرون أنفسهم مسؤولين عنها . لقد كانوا ملاكاً لفتحاتهم ووزعونها بصورة عامة بين ورثتهم واولادهم . ثم إن فكرة استغلال ثروتهم بصورة منظمة تغيب عنهم أيضاً : لقد كانوا يعيشون على أرضهم في الدومين حتى ينفد احتياطهم ، ثم يبحثون عن موارد أخرى . وبلاطهم يتألف من الموالين ومن أقرباءهم . وتنظيمهم العائلي بقي على حاله كما كان قبل الغارات : « شراء » الزوجة ، حق التأديب الأبوي ، التضامن بين أعضاء الاسرة . الطلاق النادر ، التسمي الكثير ، وعلى الأقل عند الملوك . والتنظيم القضائي يتصف عندم بالدية . وهذا التنظيم السياسي والعائلي والحقوقى للغزاة كان بالنسبة للرومانيين عوداً إلى العصر البدائي .

ولكن الجرمان لم يحاولوا فرض هذه النظم على السكان الأصليين في أوربة . لقد كان البوري يرفض توحيداً لا يفهمه ، ولذا كان يسهر على أن يحتفظ كل فريق بتشريعه الخاص . فالفرنجي السالي يحاكم بموجب القانون السالي ، والبورغوندي حسب القانون البورغوندي ، وبالتالي الرومانيون حسب القانون الروماني . وهكذا كانت النظام الحفوقي للقبيلة الأصلية مع كل انسان منهم أوحى يذهب ليقم ، ومها كان السيد الذي ينتسب اليه . وهذا النظام المسمى « شخصية القوانين » هو ولا شك بقية باقية من عصر وجدت فيه بعض الشعوب « متحدة » في الامبراطورية الرومانية ، واحتفظت بامتياز أنظمتها . ولما أصبحت سادة الامبراطورية ظلت تحافظ على هذه العادة ، وستبقى هذه التشريعات زمناً طويلاً ، وعلى الاقل في غاليا ، وستولد اعراف العصر الوسيط الكثيرة .

وبعد فهل هذان المجتمعان سيعيشان جنباً الى جنب دون أن يؤثر احدهما بالآخر بالتقابل ؟ ان ما قلناه يمكن أن يفهم منه ذلك ، ولكن تبني البربر للغة الرومانيين ودينهم مع المحافظة على النظم السابقة يجعل الانصهار ممكناً . وتبني الجرمن للغة اللاتينية يعتبر حادثاً تاريخياً لا يسعنا الا ان نسجله . فبينما نجد في الشرق ان البلغار والصرب والروس قد حافظوا على لغتهم ، نجد ان الجرمن منذ القرن الخامس يحرقون قوانينهم باللاتينية وبالتالي مراسيمهم ومراسلاتهم . وليس بالامكان أن نعلم ما اذا سار المحاربون على سنن زعمائهم . واذا حافظوا طويلاً على اللغة الجرمانية فقد اضطروا في جميع الأعمال المكتوبة أن يخضعوا للتعامل الجديد .

لقد تبني الملوك البرابرة اللاتينية لغة ادارية وتكلموا بها وكتبوا بها أحياناً ، ولكنهم عملوا أكثر من ذلك للتقرب من السكان الرومانيين :

ففي تنظيم « بلاطتهم » لم يستعملوا المفردات ، مثل عظمكم ، وفعتمكم ، المستعملة في البلاط الروماني فحسب بل انهم استعملوا الألبسة أيضاً . وبعضهم تخلوا عن جلود الحيوانات التي يلبسونها ، وعن الأسلحة البربرية ولبسوا البسة الأباطرة البيزنطيين . ولا شك في أنه يجب التمييز بين الفرنجة والغوط .

وسواءً أكان ذلك منهم عن كبرياء ، أو عن مكر أو عن اعجاب فالواقع حاصل ويتضح اذا عرفنا أن الأمراء البرابرة تركوا الأنظمة الرومانية على الحال التي وجدوها وجعلوا ارستقراطية الامبراطورية تشايح قضيتهم .

ومن الغريب حقاً أن يرى في غالبا وإيطاليا وإفريقية وإسبانيا ، التي تغيرت قليلاً ، جميع الاطر الادارية الامبراطورية : نفس الضرائب المباشرة وغير المباشرة ، نفس الحاكم ، نفس النظم البلدية . وأكثر من ذلك ان البرابرة أخذوا عن الرومانيين نظام الكونت لأننا نجد في بداية القرن الخامس كونتاً رومانياً في مارسيليا وتريف . وهذه البقايا التي لا سبيل لسكرانها غدت حجج « الرومانسيين » وخاصة فوستل دوكولانج . ومن جهة أخرى كان من الواجب لتأمين سير هذه النظم ، ان يستدعى الذين شكلوا الطبقات الموجهة في الامبراطورية عبر الأجيال . وبسرعة قبلت الارستقراطية الرومانية ، في بعض الأحياء عن عطف ، وفي الغالب الأعم عن منفعة أن تخدم السادة الجدد . وهذا التقارب ، بين الطبقات الموجهة والغالبين ، حادث سياسي يشاهد في كل العهود ، ويساعد على صهر المجتمعين . وهكذا نرى ان الشيوخ الغالين الرومانيين

قد دعموا الملك آلاريك، ولكن أولادهم انضموا للفرنجية . وقد اعترف مجلس الشيوخ الروماني تباعاً بـ أودواكر وتيودوريك . ويمكن أن يشار إلى أن هنالك بعض المقاومات . ولكن الارستقراطية الرومانية بصورة عامة سبقت البربر . فمن ذلك أنها أرسلت أبناءها لتثقفهم في بلاط الملك وبالتالي ليحصلوا على وظائف عسكرية وإدارية . ومن المدرسة الميروفنجية خاصة تخرج القضاة المقررون ، والكونتات ، والاساقفة الغاليون الرومانيون . وبالتالي ان الطبقتين الارستقراطيتين امتزجتا مع بعضها وألفتا طبقة نبيلة واحدة غنية بالاطيان ، محاربة ، جاهلة .

ولكن الصعب ولا شك هو التقارب بين الجزمن والشعوب الأصلية أي السكان المحليين . لقد عاش البرابرة زمناً طويلاً منعزلين ، ولكن الزمان ساعد على الاختلاط بطريق الزواج ، والسوق العسكري وبخاصة في غاليا واسبانيا . وإذا خرجت افريقية الفاندالية وإيطاليا عن هذا التطور فذلك لأن هذين البلدين كانا رومانيين أكثر من غيرهما من جهة ، ومن جهة أخرى لأن البرابرة كانوا يقومون برد فعل ، لا سيما وأن ديانتهم غريبة عن دين الرومانيين ، ونستطيع أن نفرض بأن اعتناق الكاثوليكية ، من قبل هؤلاء المغيرين الوثنيين من كلوفيس وجماعته ، وآجلاً ، الامراء الانغلو - ساكسون او اعتناق الملوك الاريوسيين ، كالبورغوندي - سيغيسموند أو الفيزيغوطي ريكارد ، قد ساعد على صهر المجتمعين . ولقد كان عمل الاكليروس الكاثوليكي في هذا السيل قطعياً حاسماً لما كان له من أهمية سياسية واجتماعية .

وهكذا فقد تشكل في الغرب الاوربي مجتمع جديد . وهو تركيب غير كامل ، وسيقدم للجرائم والرومانسيين حججاً دائمة في النقاش والجدل . وهذا الذوبان الاجتماعي يختلف حسب الزمان والمكان ، فمن ذلك أن

المناطق النائية عن البحر المتوسط ، كالبلاذ الانغلوساكسونية التي ترومنت قليلاً ، لم تعرف هذا الصهر . وهناك بلاد أخرى ترومنت كثيراً ، ولكنها ، لأسباب دينية ، نجت من هذا الحادث كالفريقية الفاندالية وإيطاليا الاستروغوطية . أما في الملكيات التي واثاها الحظ ان تدوم طويلاً ، كمملكة الفرنجة والفيزيغوط فقد تم الامتزاج تدريجياً مع الزمن .

اثر البرابرة في الحياة الاقتصادية . — لقد كانت الفكرة السائدة ان انحلال الامبراطورية الرومانية والحضارة القديمة كان بسبب البرابرة . ان هذا الحكم مبالغ فيه . وقد خطاه المؤرخ البلجيكي هنري بيرين . فهو لا يشك في أن العصر الوسيط قد أتى بشيء جديد ، كما لا يشك في أن عهداً حديثاً بدأ في تاريخ البشرية في هذا العصر . غير أنه يرى أن نقطة البدء يجب أن تتأخر الى عهد الكارولنجيين ، أي الى آخر القرن السابع . واذا بدت هذه النظرية متناقضة في الظاهر الا ان جمهرة المؤرخين قد قبلوها بالاجماع . يقول بيرين ان ما يميز العالم القديم طابعه الخاص وهو طابع البحر المتوسط لأن حضارته كانت متمركزة على هذا البحر . وان عظمة روما ترجع إلى انها عرفت كيف تجعل من هذا البحر حوضاً داخلياً في امبراطوريتها . ولقد دام العالم القديم بدوام اقتصاد البحر المتوسط . ودلل المؤرخ على ان الغارات لم توقف هذا الاقتصاد رغم الاضطرابات التي أحدثتها في حياة الامبراطورية . ولكن الضربة القاصمة كانت على يد الفتح العربي . واذن فليس المسؤول الحقيقي عن سقوط الحضارة القديمة الآريك أو آتيلا أو اودواكر أو كلوفيس بل العرب المسلمين ، لأنهم استطاعوا إغلاق البحر المتوسط في وجه المسيحيين . وهذا الاغلاق جر على اقتصاد العالم الغربي نتائج عديدة ، فمن ذلك : انهاء التجارة والمبادلات مع الشرق ، وخراب الحياة العمرانية التي تغذيها

هذه المبادلات ، والزام الغرب بان يعيش في اكتفائه قامة ، ونشوء اقتصاد زراعي ، اقتصاد مغلق يقتصر فيه المرء على موارده الخاصة وتناج اراضيه ، وفي مثل هذه الحالة تصبح المبادلات والاسواق نادرة .

لم يكن لدى بيرن وثائق اقتصادية كافية ليثبت فيها صحة نظريته ، غير أنه جمع عدة علائم ليدلل بها على أن هذا التحول قد وقع ابان الفتح العربي ولم يعمل عمله إلا في بداية العصر الكارولنجي . وهذه العلائم هي : زوال النقود الذهبية بعد أن كانت تصنع بكثرة في عهد الميروفنجيين ، وانقطاع البردي المستورد من مصر ابتداءً من القرن السابع ، وعدم استعماله من قبل النساخين في غالبا ، واستبدالهم إياه بقر الحيرافات ، وإضاءة الكنائس بالشموع بعد ان كانت تضاء بزيت الزيتون ، إنتاج البحر المتوسط الذي يؤدي به من افريقية الشالية .

وحسب هذه النظرية يرجع بدء العصر الوسيط إلى بعد قرنين . ولذا فإن عصر الميروفنجيين لا يبدو كمقدمة بل كخاتمة مشؤومة للعالم القديم الذي يتناول على هذا النحو ويجعل الغارات الكبرى بمثابة مرحلة من مراحل التاريخ الروماني .

والطريف في نظرية بيرن لا لأنها تعطي حلا جديداً لقضية العصر الوسيط ، بل لأنها أدت بالمؤرخين الذين أتوا بعد بيرن أن ينظروا إلى هذا العصر من الماضي البشري بعين جديدة ونور جديد ، وهو نور التوسع الاقتصادي . واعادة النظر في هذه القضية على ضوء الافكار الجديدة التي اوحى بها بيرن اما هو عمل ضروري إذا أريد بيان الدور الذي لعبته الغارات الكبرى في تحول العالم القديم بضبط ودقه دون افراط أو تفريط . لقد كان للحضارة القديمة طابع عمراني وصناعي وتجاري . وهذه

الحضارة ، التي تفتحت في القرن الثاني بعد المسيح في عهد الامبراطورية العليا ، كانت في الواقع حضارة شرقية . ففي اغريقية وايونيا ومصر ازدهرت المدن ، وتوطدت هذه الحضارة بفضل الملكيات الهلنستية . ثم قلدت روما هذه الملكيات بعد فتحها واوجدت فن العمران المدني في الغرب وحولت قراء البدائية في ايطاليا وغاليا واسبانيا إلى مدن غنية مأهولة بالسكان . كان هذا الجهد عظيماً ولكنه اصطناعي وعيبه انه كان متأخراً ومنصباً على توسيع العمران المدني . وهذا الرفاه الاقتصادي في الغرب لم يعيش بعد الظروف الاستثنائية التي تمتعت بها الامبراطورية الرومانية في ظل الاباطرة الانطونيين (من ٢٩٦ - ١٩٢ م) . فعندما زالت هذه الظروف السعيدة في القرن الثالث للميلاد ، حل الانحطاط سريعاً وبدا التباين بين الغرب الآخذ بالافول والشرق الذي ما زال محافظاً على اقتصاده العمراني التقليدي القديم منذ قرون عديدة .

وفي الحقيقة ان الاختلاف بين الشرق والغرب كان قبل الفتح الاسلامي وقبل الغارات الكبرى . والعوائق التي وضعها الفتح الاسلامي في طريق الملاحة في البحر المتوسط لم تكن الاوقية ، كما لم يكن لها تلك النتائج التي استخلصها بيرن . وهي لم توزع اقتصاد العالم الغربي لو لم يكن هذا الاقتصاد ملحقاً بالشرق منذ عصور مديدة . لأن مطالب السكان المدنيين في ايطاليا وغاليا وضرورة تموينهم بالحبوب لم تكن لتأمين الا باستيرادها من آسيا ومصر وافريقية الشمالية . كما أن روما كانت مدينة طفيلية لا تستطيع أن تعيش على مواردها الخاصة وموارد البلاد المجاورة لها التي حاصرها الفتح الاسلامي وحكم على اوروبا الغربية بالانطواء على نفسها وجعلها تعتمد على اقتصادها الزراعي . ولقد أدى انحطاطها وعدم قدرتها على الاستغناء عن باقي الامبراطورية إلى السقوط الذي وصفه بيرن .

ولقد توقع اباطرة القرن الرابع هذا الخطر. إن توسع نفوذ الدولة بأخذ كل شيء على عاتقها كانت له فوائده من الناحية السياسية ، ولكنه ادى بالمقابل إلى تفاقم الازمة الاقتصادية . فقد كانت الضرائب باهظة ، حتى أن الأغنياء هجروا المدن ، وتهدمت الطبقات الوسطى . وقامت الثورات وحركات العصيان بسبب التكاليف الساحقة التي تثقل كاهل صغار الناس .

كذلك عدم الأمن الناجم عن أعمال السلب كما هو ناجم عن الغارات الأولى جعل المواصلات الداخلية خطيرة وشل حركة التجارة . وأصبحت على هذا النحو حياة المدن بفقر دم شديد أدى بها إلى الإعياء والتقلص والانطواء .

ومن علام هذا الانحطاط سير الذهب في اتجاه الشرق واستيراد الغرب دون مقابل يعوض ما فاتته من معدن ثمين . لقد لوحظ ذلك في آخر القرن الرابع للميلاد وسجل سيماك ، محافظ روما ، ندرة الذهب في إحدى رسائله . ولم تكن التدابير التي اتخذها اباطرة ناجعة الا قليلاً . حتى أن التدابير ، التي اتخذت في القرن الثالث لتخفيض قيمة النقد المتداول ، أدت إلى ارتفاع في الأسعار كما تؤدي عادة تدابير التضخم النقدي . ولقد حاول ديوقليسين عبثاً إيقاف هذا التيار الجارف في مرسومه الشهير (المرسوم الأعظم) . واتخذت تدابير أخرى لتأمين التموين بالمواد الغذائية الضرورية . ونظمت صناعة الحجازة بأن حرم على من يتعاطونها وعلى أعقابهم أن يهجروها ، ومثل ذلك على الأصناف الأخرى كصنف الملاحين . وكان من هذه التدابير أن كبت أيدي الأصناف في صناعاتها . وفي كل ذلك دليل على اقتصاد متعب عاجز عن أن ينجو بوسائله الخاصة وحدها .

أما الغارات الجرمانية فلم تأت بتغير ، ولم تزد في تفاقم الوضع أو تحسنه . وقد استولى ملوك البرابرة على كنوز الامبراطورية التي

اكتشفوها أثناء فتوحاتهم في مدن الامبراطورية وواظبوا على ضرب النقود الذهبية . وفي الفوضى ، التي تلت سقوط الامبراطورية ، خرج كثير من ضاربي النقود الامبراطورية عن السلطة المركزية ، وبدل على ذلك ما وجد من نقود ذهبية لاتحمل إلا اسم ضاربها دون اسم الملك .

وهناك وقائع أخرى تدل على أن المعاملات التجارية مع الشرق ما زالت باقية بعد الغارات ، كما في السابق ، وكانت تجري على أيدي التجار السوريين واليهود . وعلاقات المملكة الفرنجية في الغرب الأوربي كانت تتم بواسطة ميناء مرسيليا . ومن الممكن ذكر عدة أدلة تبرهن على رغبة الملوك الميروفنجيين ببقاء العلاقات التقليدية مع الامبراطورية الشرقية .

وقد يشكو كثير من الباحثين من قلة الشواهد والوثائق التي تدل هذه العلاقات . ولكن هذه القلة لها معناها : فهي تبرهن على أن ملوك البرابرة ، الذين اقاموا في غالبا ، لم يعملوا شيئا في حث النشاط الاقتصادي في البلاد ، وان محافظتهم التقليدية أو أنانيتهم جعلتهم يطيلون النزاع والاحتضار لحالة لهم فيها فائدة .

وكذا ايطاليا الاوستروغوطية فقد حافظت أيضاً على تقاليد الامبراطورية الراحلة وما زالت علاقاتها التجارية مستمرة مع بيزنطة وتدل على ذلك رسائل الملك تيودوريك الكبير التي حررها كاستيودور . وفي هذه الرسائل يشكو الملك من قلة السفن التي تحمل إلى ايطاليا المواد الغذائية والسلع التي هي بحاجة اليها ، ويرى أن تبقى التجارة نشيطة والا يعيقها في ذلك ضرائب أو رسوم جمركية .

وإذا بقي البرابرة محافظين على عادات الامبراطورية القديمة ولم يتحول البناء الاقتصادي في اوروبا الغربية بسبب الغارات الكبرى ، فان هذه

المهزة العنيفة قد زعزعت مع ذلك كيائها الهرم الاشل الهزيل . لمن غزو البرابرة المباشر أو تصادمهم أدى إلى تبدلات في الحياة المدنية والحياة القروية . ولقد كانت هذه التبدلات بطيئة ولا يشعر بها إلا أنها كانت عميقة . وعندما جاءت الغارات العربية بدورها لتجرف العالم القديم قام اقتصاد جديد في اوروبا الغربية وهو اقتصاد العصر الوسيط ، ولم يحدث فجأة . بل ان الارض التي أنبتته كانت مهياة لقبوله منذ أمد بعيد .

كان العموان المدني من أعظم مهام الأباطرة في القرنين الاول والثاني ، وكانت ثروة المدن دليلاً واضحاً على الرفاه في عهد الامبراطورية العليا . ولقد تمتعت هذه المدن بحرية ساعدتها على الانساع والنمو ، وذلك بفضل الأمن الذي ساد فيها آنذاك . وسياؤها الساحرة ناجمة عن الآثار العامة الكثيرة فيها من أقواس الظفر والمعابد والمدرجات والمسارح والحمامات والقصور التي تسكنها الارستقراطية المحلية . وكانت هذه القصور تبنى غالباً في أطراف المدن . ومن الصعب ان نقدر عدد سكان هذه المدن . ولا يمكننا أن نتخذ لذلك قاعدة من عظمة المسارح أو الملاعب ، لأن الذين شادوا هذه الملاعب أو المسارح لم يكونوا مسوقين بدافع نفعي ، بل كان مهمهم رفع شأن الشعب الروماني وارضاء كبرياء السكان . ولذا يجب الا ننزع فرضيات ديموغرافية من هذا النوع الا بحذر شديد وحيطه تامة ، وذلك لأن معظم مدن اوروبا الغربية وخاصة مدن غاليا لم تصل إلى درجة العظمة إلا في وقت متأخر . إن عدد سكان هذه المدن يجب الا يتجاوز ما يقارب عشرة آلاف نسمة بالرغم من وجود مدرجات وملاعب مثل مدرج نيم أو آرل ، أو سنت ، التي يمكن أن يستوعب الواحد منها ٢٤٠٠٠ نظار فأكثر . أما روما فكان رقم سكانها مساوياً لسكان أكبر مدن الشرق . ويبدو أن سكانها في القرن الثالث كانوا ٤٠٠٠٠٠٠ نسمة .

وكان هؤلاء السكان وبالأعلى عليها لأنهم ساعدوا على افقار الامبراطورية الغربية .

وهناك صفة أخرى لمدينة الامبراطورية - العليا ، وهي أنها كانت أوطاناً صغيرة مستقلة استقلالاً ذاتياً أو بشكل مستعمرات تدار بحرية تحت رعاية الامبراطور . وكان السكان يفخرون بمدينتهم ، وقد ظهر هذا الفخر في كثير من النقوش . وكان كبار الأغنياء يبذلون المال بسخاء زائد في تزيين هذه المدن .

غير أن الانحطاط بدأ بعد عهد الأنطونيين ، وكان القرن الثالث سؤماً على العمران المدني ويحمل البرابرة قسماً من المسؤولية في هذا الانحطاط . وذلك لأن الذعر الذي سببته الغارات الأولى في عام ٢٥٧ و ٢٧٥ دفع الغاليين - الرومانيين إلى إحاطة المدن بأسوار بعد أن كانت مفتوحة . وقد بدل بناء هذه الأسوار منظر المدن . فبعد أن كانت آخذة بالإتساع في الامبراطورية العليا إذا بها تنقلص الآن . وحصر المدن على هذا الشكل أدى بالكثير منها إلى تضيعة قسم من آثارها . وفي كثير من المدن بقي المسرح والملاعب خارج السور وأصاب مثل ذلك « الفيللايات » المبنية في الأحياء الجميلة . ولذا أصبح منظر المدن حزيناً وتأملت الحياة الداخلية في المدن من هذا التحول .

لهذا السبب هجرت الاوستقراطية المحلية المدن . وهناك سبب آخر ساعد على الاسراع بهذه الهجرة : ففي أوقات الرفاة والحصب حمت الحربة ، التي كان عليها الانطونيون ، المدن وعملت على نهضة الحياة البلدية فيها . غير أن الوضع قد تبدل في عهد السيفيريين لأن الأباطرة قلقوا من اسراف البلديات وبدأوا يطبقون رقابة شديدة عليها ومالئت هذه الرقابة أن

تحولت ، مع الزمن ، الى وصاية ضيقة . فقد عين لكل مدينة عامل امبراطوري وأصبح هذا سيدها الحقيقي بينما جرد مجلس الشيوخ المحلي والحكام البلديين شيئاً فشيئاً من امتيازاتهم وسلطاتهم ولم يبق لهم سوى توزيع الضرائب بين المواطنين وفرضها عليهم .

ونتيجة لهذا الانحطاط هجرت الارستقراطية الوظائف وكفت عن الاسهام في اداة المدينة وانزوت في أراضيها . ومن الملاحظ البديهي في أوقات السلام والاستقرار والرفاه والحصب أن المدن تستهوي السكان وتجذبهم اليها، وأن جميع الاحصاءات تبرهن على أن السكان المدنيين في الأوقات العادية يزدادون بانتظام على حساب السكان الريفيين . ولكن إذا حل ظرف مليء بالاضطرابات والفوضى وحصل اختلال اقتصادي كحدوث قحط أو عوز أو حدوث تقنين وتقتير ، فإن الأرض تستعيد عزها وتبدو ، كما هي ، المغذية الحقيقية والمجهزة الأساسية بالخيرات المادية . وتحسن العودة في مثل هذه الأحوال الى الأرض . ويقوم بهذه المحاولة في أول الأمر الأغنياء لأن طبيعة حياتهم لاتربطهم بالمدينة . وعلى هذا النحو غدت الارستقراطية في القرن الرابع والخامس ملاكة للأراضي .

وتحولت سماء المدن الداخلية اثر هجرة هؤلاء الأقوياء . يضاف الى ذلك ان الاصلاح العسكري ، الذي قام به الامبراطور قسطنطين ، دحر الجنود البرابرة الذين كانوا يحمون الحدود . وأصبحت المدن الهادئة حاميات كالدن التي في شمال غاليا . ووجود هؤلاء الجنود البرابرة المقيمين في المدن والضواحي ، ووجود زعمائهم ورؤسائهم الذين أصبحوا مع الزمن سادة المدن الحقيقيين ، إن كل ذلك أفسد طباعها التقليدية . ولكن هذا الطابع العسكري وحده لم يؤثر في المدن ذلك التأثير العميق بل ان الكنيسة

- ٤٣ -

ايضاً طبعت المدن بطابعها الخاص ، وبشكل مغاير ودائم . وقد بدأت سيطرة الكنيسة في عصر الغارات الكبرى . ويبدو أن الطوائف المسيحية القديمة تشكلت في خارج المدن ، وأرادت أن تكون مقبرتها بجانب كنيسها اذ كان يحظر تكفين الأجسام في داخل الكتل العمرانية . وعلى العكس ، نرى ان الكاتدرائيات الأولى قد شيدت في داخل الأسوار . وفي هذا مايدل على أن هذه الكنائس لم تبني إلا بعد الانتهاء من بناء الحصون والاحساس بخطر الغارات . وبينما كانت الحياة البلدية في حالة افول وتغادر الارستقراطية المدن ، كانت هذه المدن تستقبل العبادة الجديدة دون أن تشك في ان النهضة الدينية ستكون باعثاً على العمراء المدني . ثم ان الدور الذي لعبه بعض الاساقفة أثناء حملات آتيلايرومن على انهم كانوا حماة المدن . ولعلنا نذكر دور القديس اينان في أورلثان ودور القديس ليون في روما . وبعد أن رأى الرومانيون ان اباطرتهم قد تخلوا عنهم ، التمسوا ملاذاً يدافع عن مصالحهم ضد الهون . وقد أفادت الغارات الكبرى البابوية لأن البابا في مثل هذه الأيام العصية قام مقام الامبراطور في الدفاع عن المدينة الخالدة . وفي عهد القديس ليون يبتدىء دور روما البابوي . وقد حذا أكثر الاساقفة حذو البابا في الدفاع عن مدنها .

وساعدت الغارات الكبرى على الاسراع بحركة الانحطاط المدنية التي بدأت في القرن الثالث ، وأهملت الطرق شيئاً فشيئاً ، وهجرت الاقنية . ونلاحظ خلال بعض النصوص أن السوريين واليهود استمروا في تعاطي تجارتهم في باريس واورلثان وبوردو ومارسيليا . وهذه الأمثلة تدل على أن نظام الغرب الاقتصادي لم يتزعزع ببجيء الغزاة ، ولكن النشاط

الاقتصادي قد تباطأ شيئاً فشيئاً . وقد ظهر هذا الفساد قبل الفتح العربي الذي ضرب الاقتصاد القديم ضربته الحاسمة .

ولقد كان أثر الجرمانين في الحياة الزراعية عميقاً . ولكن هذا الأثر يصعب الحصول عليه . وتشكل المنظر الريفي في أوربة الغربية يستهوي العلماء المعاصرين . ولكن القضايا التي تثيرها هذه الدراسة لم تجد بعد حلاً قاطعاً ، وسبب ذلك أن الوثائق لا تلقي عليها إلا نوراً ضئيلاً . ولذا تجب الاستعانة بعلم الآثار واللغة وأسماء المدن وطوبوغرافيا الأرض .

منذ آخر القرن الرابع ، وقبل أن تتجزأ امبراطورية الغرب ، كان نظام الأراضي السائد نظام الملكية الكبرى . ولكن كان يوجد إلى جنبها قرى حرة يسكنها صغار الملاكين . وبما يجدر ذكره أن هؤلاء الملاكين قد نالهم الشقاء كما نال سواد المدن أثناء الغارات واضطروا إلى الاحتماء برعاية أغنياء الملاكين الذين كانوا بجوارهم . وكان نتيجة هذه الضرورة القاسية أن كثيراً من الملاكين المستقلين الصغار قد ضحوا بحريتهم وادخلت أراضيهم الصغيرة في الفيللايات المجاورة وردوا إلى شروط المستعمرين .

وهناك ملاحظة تدلنا كيف أن الحقول الصغيرة قد ابتلعتها الفيللايات المجاورة بسهولة : لقد عرفت الامبراطورية الدنيا الملكية الكبرى وجهت الاستثمار الكبير . كانت الفيللا مقسمة إلى قسمين : الاول للسيد الملاك الكبير ويستغله مباشرة لاستعماله الشخصي ؛ والثاني أوسع بكثير من الأول ويحتوي على قطع صغيرة تكفي الواحدة لاعالة اسرة واحدة . وكان المستعمرون الذين يفلحون هذه الأراضي الصغيرة يدفعون إلى الملاك اناوات نقداً ، وغالباً محاصيل طبيعية ، ويؤدون إليه خدمة أيام في أرضه الخاصة . وهذا النظام الداخلي يدفع الملاكين الكبار إلى

زيادة عدد المستعمرين للأراضي الصغيرة في وقت كان الرقب في حالة تراجع والحاجة إلى الأيدي العاملة ضرورية . ولذا فإن مصلحة الملاكين الكبار أن يجلبوا للملاكين الصغار إليهم ليستعمروهم . وكان لكل واحد منهم أرض ومسكن داخل الفيلا . وكان الملاك الصغير يشتري أمنه باستقلاله لأن المستعمر لم يكن إلا نصف حر . ولكن شروطه المادية لم تتبدل لأنه مازال يستثمر أرضه القديمة ولا يمنعه نظام الاستعمار من نقلها إلى أولاده . ولكن لا يبعد أن يكون قد تعلق بالأرض منذ أن دخلت أرضه في الفيلا .

وبعد فهل أدى مجيء البرابرة إلى تغير عميق في الحياة الريفية وشروط الأرض ؟ إن استعمار الأرض بطريق الضافة لم يكن له سوى تأثير سطحي . ولكن عندما أصبح ملوك الفرنجة سادة غالباً ، احتكروا أملاك الامبراطورية ، وقد كان الباطرة قبلهم يعدون باستئثارها إلى منتفعين . ولا نعلم إلا شيئاً قليلاً عن النظام الذي تخضع له هذه الأراضي . بيد أن الفرنجة الذين وضعوا أيديهم على الأموال العامة اهتموها حتى هجر فيها كثير من الزراعات واتسعت الأراضي البور ، وزاد ملوك البرابرة فيها أراضي الصيد .

وفي آخر القرن الثالث تبدل منظر الأرياف ، وغير عدم الأمن العام سيماها ، كما غيرت المدينة سيماها أيضاً . وبينما أخذت هذه المدن تشد قوتها أخذ سكان القرى يتجمعون خوفاً من الغزاة . ولا يوضح هذا التحول الذي جرى في الأرياف يجب ملاحظة عادات هؤلاء الغزاة . فقد أتى الجرمن والفرنجة والآلامان وغيرهم ، للمناطق التي تكاثفت فيها هجرتهم ، بعادات تخالف عادات السلتين والغالين — الرومانيين . فقسمت الأراضي إلى قطع

ضيقة وطويلة . وأدى هذا التقسيم الى بعثرة الأراضي التابعة لعائلة واحدة ، وسهل فقدان الحواجز سير القطعان على الاراضي المزروعة بعد الحصاد وعلى الأراضي البور ، وفرضت الزراعة على ثلاث سنوات بصورة دورية على الفلاحين المقيمين في قسم خاص وحدهم وظلت قاعدة . كما أن احياء الأرض عن طريق احراق الأعشاب بالنار وامتداد البقع الجرداء في الغابات يذكر ان بالتعامل القديم . ويجب ان نشير ايضاً الى أن اختراع الطاحونة المائية في ذلك العهد إنما يرجع إلى الرهبان الفلاحين اكثر مما ينسب الى المغيرين الجرمانين . وفي كل ذلك استمرار للحياة السابقة للغارات .

نتائج الغارات الدينية والثقافية . — لاشك ان الغارات البربرية الكبرى احدثت تغييراً في الحياة السياسية والاقتصادية وإنا لتساءل بعد ، ما إذا كانت هذه الهزة قد هدمت الحضارة نفسها وعن مبلغ الأثر الذي تركته في الحياة الدينية والفكرية والمعنوية . فلقد حدث أن البرابرة أغاروا على الامبراطورية في القرن الذي ظفرت فيه المسيحية أي في العصر الذي وسعت الكنيسة فتوحاتها وكثر اتباعها وثبتت دعائها ونظامها ومذهبها . ان وقوع هذين الحادثين معاً ضخماً بنتائجه ، عظيم في تأثيره . فقد أدى بالمغيرين أن يؤثروا في الديانة المسيحية تأثيراً من الصعب تعريفه ونكرانه . وهذا التأثير عميق حتى أن الحس السليم يقبله لأنه ناجم عن احتكاك يومي بين الكنيسة والدول الناشئة التي قامت على انقاض الامبراطورية الغربية . ان نفسية البربري المقيم على ارض الامبراطورية تختلف مثلاً عن نفسية الغالي — الروماني ولادة العصور العريقة في الحضارة . وبما لاشك فيه ان الكنيسة كانت تحرص على التمسك بالتقاليد الرومانية وتريد حشر نفسها في دوائر الامبراطورية ، وعلى تبني اللغة اللاتينية وبقائها امينة وفية للثقافة الاتباعية القديمة ، ولكنها مادامت تنشر مذهبها بين البرابرة وتسعى لتمثلهم

فهي لاتستطيع أن تتخلص من تأثيرهم . ولكن من الصعب الكشف عن حقيقة هذا التأثير .

ومن جهة ثانية ، ان مقدرات المغيرين كان يسيرها وضعهم الديني . وان من المشاكل الخطيرة التي يثيرها تاريخ الغارات السقوط المفاجيء الذي مني به كثير من الملكيات البوبرية التي نشأت في القرن الخامس مثل دولة البورغوند التي لحقها الفرنجة عام ٥٣٤ ، ومملكة الفاندال في افريقية الشالية والمملكة الاوستروغوطية في ايطاليا اللتين قوض دعائهما دون اشفاق الامبراطور جوستينيان بعد سنين ، وكذا الانكسار الذي فرضه كلوفيس عام ٥٠٧ على الفيزيغوط الذين كان يظن بأنهم سيخلفون الرومانيين ، ولكنهم لم يستطيعوا الا بمشقة زائدة أن يحتفظوا بكيانهم في اسبانيا خلال قرنين . وهذه الأمم التي سقطت في غضون القرن السادس تتصف بصفة واحدة وهي انها اريوسية المذهب أي انها تنكر وحدة جوهر الشخصيات الثلاث في الثالوث الأقدس وبالتالي الوهية السيد المسيح . ويستثنى من هذه الشعوب شعب واحد وهو الشعب الفرنجي الذي استطاع أن ينهض بسرعة في اوائل هذا القرن . وقد رافق هذا النهوض اعتناق ملكه كلوفيس الديانة المسيحية الكاثوليكية .

ولتر الآن كيف اعتنقت هذه الأمم البوبرية المسيحية ؟

كان الغوط أول من اعتنق الديانة المسيحية . وقد استقروا حوالي منتصف القرن الثالث في ولاية داسيا الرومانية التي تخلت عنها الامبراطورية ولكنها احتفظت بتقاليدها اللاتينية وما زال الناس حتى يومنا هذا يتكلمون باللغة الرومانية وهي لغة رومانيا اليوم المشتقة من اللاتينية . وقد اتى إليها المبشرون ونشروا فيها الديانة المسيحية . وكان للكنيسة الغوطية شهادتها وأشهرهم القديس سابا الذي اضطهده الملك آثاناريك واغرقه عام

٣٧٢ لأنه رفض ان يأكل لحم الأضاحي . وكانت القديس سابا كاثوليكياً قحاً . غير ان الأسقف اولفيل الفيزيخوطي (٣١١ - ٣٨٣ م) دعا مواطنيه في آخر القرن الرابع إلى اعتناق الرطقة الاربوسية التي ابتدعها الكاهن اربوس الاسكندري (حول ٢٥٦ - ٣٢١ م) .

وقد نسج الجرمان الشرقيون على منوال الفيزيغوط (غوط الغرب) واعتنقوا الاربوسية . ونقل الفيزيغوط الاربوسية إلى الاستروغوط (غوط الشرق) ، ثم اعتنقها بالتوالي الجيديون والفاندال والروغ والآلامان والتورنجيون واللومبارديون . وساعد تماس هذه الأمم البربرية واحتكاكها مع بعض على نجاح هذه المهرطقة . بيد ان التشريع الامبراطوري طاردها فأفل نجمها في رومانيا لولا ان واتها ظروف سعيدة وأسباب عميقة فجعلتها تتقدم بسرعة . ومن هذه الأسباب ترجمة اولفيل الكتاب المقدس الى اللغة الفوطية . وقد كان لهذه الترجمة من التأثير ما كان لترجمة لوثير في القرن السادس عشر ، لأن غاية الجهد واحدة وهي جعل النصوص الأساسية للمذهب المسيحي في متناول العامة التي تجهل الثقافة الاغريقية - اللاتينية . يضاف إلى ذلك أن مفهوم الثالوث ومذهب الكاثوليكية المسيحي قد بحث فيها وهما علماء اللاهوت الهلنيون الذين ثقفوا الافلاطونية الحديثة . ومثل هذه المفاهيم الدقيقة تخفى ولا شك على ادمغة البرابرة التي لاتستطيع استيعاب هذه الأمور الفلسفية وفهما . ولهذا يمكن القول ان الاربوسية جذبت البرابرة اليها لسهولة تصويرها الآله تصويراً قريباً من افهامهم .

واعتناق المذهب الاربوسي كان عظيم النتائج لا من الناحية الدينية فحسب ، بل من الناحية السياسية أيضاً فقد رأينا أن تمثيل البرابرة في

الامبراطورية ، لاقى بعض المقاومة في منتصف القرن الخامس . والشيء الثابت أن كاثوليكي الامبراطورية لم يسيثوا الظن بالبرابرة لأنهم اعتنقوا الأريوسية بل لأنهم يعتبرونهم متوحشين . وقد وصفهم القديس جيروم بأنهم « حيوانات متوحشة » . ولم يكن حكم الشاعر المسيحي برودانس بأخف منه فقد قال فيهم :

« العالم البربري بعيد عن العالم الروماني بعد ذوات الأربع عن ذوات القدمين والعجاء عن المخلوق الناطق » . وما هذه الأحكام الا نتيجة لسورة الغضب التي سببتها فظاظة الغزو والغارة . ولكنها لم تمنع التمثيل من أن يعمل عمله حيث استقر البرابرة . غير أن الجرمانين باعترافهم الأريوسية وضعوا حائلًا حقيقياً بينهم وبين رومانيا . فقد بدأ يرسم شكل جديد للوطنية الرومانية امتزجت فيه فكرة الامبراطورية وفكرة الكاثوليكية معاً . وهذا الشعور حال دون انصار العناصر الاصلية والبربرية في الدول الجرمانية التي نشأت عن انحلال الامبراطورية الغربية . وعبثاً حاول تيودوريك في ايطاليا ان يطبق التسامح في قسم كبير من حكمه . ولقد قال في هذا الشأن : « اننا لانستطيع أن نفرض ديناً لانه لا يمكن اجبار انسان على الايمان رغماً عنه » . ولم تستطع تجربته أن توجد دولة متماسكة أو دائمة . وعلى نقيض هذا الملك الاوستروغوطي المتسامح كان جانزريك وخلفاؤه يضطهدون الكاثوليك في الدولة الفاندالية التي اسسوها في افريقيا الشمالية . ولقد دامت ذكرى هذه الاضطهادات ، حتى أن غريغوار تور يتطرق في الكتاب الثاني من تاريخ الكنيسة إلى جرائم الفاندال . ولم تدم هذه الدولة أكثر من قرن حتى فتحتها جوستينيان وكان فتحها لها أسهل من فتح المملكة الاوستروغوطية .

وكذا الدولة البورغوندية لم تعمر طويلاً . وهكذا كانت الارويسية عبثاً ثقيلاً على مقدرات الشعوب البربرية وشوْماً عليها . واذ صح لكوفيس مالم يصح لغيره في بقاء دولته فذلك يرجع إلى اعتناقه المسيحية الكاثوليكية وقد استطاع وخلفاؤه من بعده بهذا العمل أن يشخصوا « رومانيا » . وهذا مالم يستطيعه امراء البرابرة الآخرون . فقد كان ملوك الفرنجة كاثوليكين وبهذا الاعتبار لقب كلوفيس بـ « قسطنطين الجديد » وكان هذا اللقب مفعماً بالوعود . فمنذ عهد ملوك الميروفنجيين الأوائل استيقظت في رأس الاكليروس ، قادة الرأي ، الفكرة القائلة بان مملكة الفرنجة تتم امبراطورية الغرب ، وبث في الكنائس ، كما في الاوساط العلمانية عاطفة مؤداها أن لملوك الفرنجة دوراً خصتهم العناية الالهية به . وهذا الفضل الذي منحه الله لهم بقي متعلقاً بهم وبالأمة الفرنجية الى ما بعد كلوفيس ، بالرغم من أن أكثر الميروفنجيين لم يكونوا أهلاً لذلك . ومن هنا نرى كيف أن ملوك الفرنجة كانوا مسوقين لارجاع الامبراطورية الرومانية ، وكيف أن كلوفيس باعتناقه الكاثوليكية قد حضر وهياً الجو لشارلمان .

وإخلاصة ان مقدرات الأمم البربرية كانت مقيدة بموقفها الديني وبالمقابل ، ان تأثير هذه الأمم على حياة الكاثوليكية الداخلية وبما لها كان غير واضح . لقد جعلت هذه الأمم البربرية من الفكرة المسيحية والعاطفة المسيحية كلاً قاسياً ، ولكن ليس من السهل البرهنة على ذلك أو اثباته . ولنحاول ذلك : لقد كان عهد الغارات مصحوباً بنشاط أدبي مسيحي باللغة اللاتينية ، ويأتي في القمة بيلاج والقديس جيروم والقديس اغسطينوس ، في حين أن غيرهم من اللاهوتيين والأخلاقين والمبشرين والوعاظ كانوا يقفون حياتهم لكنيسة فقط ، وكانت القضايا التي يثيرونها خطيرة جداً مثل قضية الحورية

والجبرية وقضايا الذنب الاصلي والعفو . وقد اثبت هذه القضايا في اشد اوقات الغارات . ويظهر ان جو هذه الاخيرة لم يساعد على الابطاء والتراخي في البحث في هذه القضايا بل كان دافعاً ومحرضاً لنشاط المفكرين وحماستهم . ويروى أن القديس أغسطينوس قد تصور في فكره « مدينة الله » ليساعد مواطنيه على تحمل البؤس لأن الله قدره عليهم . وبعد وفاة اغسطينوس (٤٣٠ م) بقيت مراكز الحياة الفكرية . والفت الاغسطينية في مرسيليا وجزر ليون كثيراً من المعارضين الذين يعتقدون بجرية الانسان . وإذا خطونا بضع خطوات ووصلنا إلى آخر القرن السادس ، وجدنا غريغوار تور يقول ان معاصريه قد جفت عواطفهم . وضعف تفكيرهم . ولكن يجب الا ننسى أن مؤرخ الفرنجة هذا كان كاثوليكياً شديداً التعصب لكاثوليكيته ويكره الاربوسية ، بيد أن الحجج ، التي يأتي بها ليدافع عن مذهبه ، كانت فقيرة . فمن ذلك قوله : « من آمن بالله حباه خيراً كثيراً ومن كفر به ابتلاه بالشروع » . وبمثل هذا القول الفقير يدافع عن دينه . وزراه ، عندما يناقش الملك شيلبيريك الأول في الاعتقاد بالثالوث ، يكتفي بهذا القول : « عندما تتكلم عن أشخاص فهذه الكلمة يجب أن تفهم بمعنى روحي لا بمعنى مادي ، وليس في هؤلاء الأشخاص الثلاثة الا مجد وخلود وقوة » . ولا يبدو في التخاطب أي جهد للعقل . ولا نجد في أثر المؤرخ الواسع القضايا الأساسية للحياة الأخلاقية وحياة مافوق الطبيعة ، فهو لا يبسها ولا يحاول البحث فيها . وكل ما في الأمر أن الدين أخذ شكلاً مادياً والمسخ الى نوع من عبادة الأوثان . فكان الناس يحترمون القديسين لفضائلهم اقل من احترامهم للخوارق والكرامات والاعاجيب التي تقوم بها بقاياهم من ثوب أو شعر أو حذاء . ولم تمض مائة وخمسون سنة على وفاة القديس أغسطينوس الا وعظمت روح الكاثوليكية . ولكن ماهي مسؤولية البرابرة في هذا التقلص والقساوة الأليمة في التفكير ؟!

وهذه القضايا التي أتينا على عرضها تضعنا امام قضية من أخطر القضايا وهي ازمة الثقافة القديمة . واذا كان تعريف الثقافة بقولنا انها نتاج الحضارة والتربية ، فان المثقف هو الذي يناقض البربري والجاهل . والثقافة غذاء الحياة الباطنية وانشاء « البناء الروحي » . والشئ يتقرب من الحضارة إذا أبعد عنه مفهوم الفن المادي وكانت الأهمية للعناصر التي تساعد على هو الفرد اكثر من التي تجنب الى زيادة رفاه الجماعة .

ولكن كيف اصبحت الثقافة القديمة في ظل الامبراطورية ؟ اننا نعلم ذلك من الاخلاقيين وعلماء الفصاحة ومثقفى الاحداث الرومانيين . ان مؤسسة كونتيلين اعطائية تعطينا منهج الدراسات المطبق في روما منذ عهد الامبراطور تراجان . فقد كان التعليم يتضمن حلقتين : النحو والبلاغة . وليست الغاية من هذا التعليم ، رغم طابع البلاغة ، ايجاد فصحاء فحسب ، بل رجالاً متعلمين قادرين على القيام بالوظائف العامة . والشئ الذي يلفت نظرنا عندما نحلل هذا المنهج هو اننا لانجد فيه الفلسفة ، واذا وجدت فلا تعلم لذاتها . كان كونتيلين يطلب الى التلميذ الا يتعلق بمدرسة معينة . وموضوعات الاخلاق وما وراء الطبيعة لاتدرس الا بالقدر الذي ينمي الفصاحة . وفقدان التعمق أو الاهتمام بالتخلص من ما وراء الطبيعة ربما كان سبباً في بقاء الثقافة الكلاسيكية طويلاً . ونظراً لانتشارها في جميع الامبراطورية نراها تغذي في آخر القرن الرابع المجتمع العالي الراقي . وطابعها السطحي جعلها تبقى الى مابعد تقدم المسيحية . واكثر غالبية الرومانيين وخاصة من كان ينسب منهم الى الطبقات العالية في المجتمع ، لم يغيروا بعمق نمط حياتهم وعاداتهم ، عندما اعتنقوا الديانة المسيحية . لقد أصبحوا كاثوليك عصرهم ، وكما قيل على سبيل الفكاهة لقد اعتنقوا ديانتهم الجديدة بفتورهم وعدم اكتراثهم الذين اظهروا ديانتهم القديمة . وقد استمرت

الثقافة القديمة بقوة العادة لانها كانت خالية من كل عمق ومن جذور
 ميتافيزيكية . ولذا استطاعت أن تتحد مع المسيحية التي هي سطحية منها .
 ولم يذهب هذا الأدب الانساني السطحي بين عشية وضحاها تحت
 ضربات البرابرة ، الذين لم يعملوا شيئاً لمقاومتها . وفي جميع أجراء الامبراطورية
 التي فاضت بالجرمانيين ، حافظ السكان الاصليون على تقاليدهم وعاداتهم
 الفكرية . وكانت التمارين الفكرية للتسلية وترجية الفراغ . وتذوق الثقافة
 كان يقتصر على « الشكل » اكثر منه على الجوهر . والجدير بالذكر أن
 المدارس العامة زالت في هذه الدول البربرية الناشئة . وأصبح التعليم
 بأيدي معلمين خاصين . ويظهر أن المطالعات العامة قد أهملت . وليس
 في ذلك مايدل على أن ملوك البرابرة كانوا خصوصاً للثقافة الكلاسيكية .
 ان أكثر ملوك البرابرة كانوا محاطين بلفيف من المتعلمين . غير أن السواد
 الاعظم من البرابرة كان جاهلاً ، وهجومهم تراجعت الثقافة . حتى ان
 غريغوار تور كان يشعر بجهله ويحجل من نفسه وبلعن عصره الذي فقد
 فيه دراسة الآداب . ومع هذا فان غريغوار تور لم يصل بعد الى
 الدرك الأسفل من الهاوية . وهذا الدرك يظهر في القرن السابع ، وتاريخ
 فويديغير شاهد على ظفر البربرية . وبدا انحطاط الثقافة عاماً ، ولم تنج
 من ذلك ايطاليا . وقد كان المؤلف الاسباني ايزيدور اشبيلية آخر يمثل
 لهذه الثقافة الراحلة .

ولم يكن من البربر سوى ان عجلوا في زوال هذه الحضارة . ومن
 المحتمل لو أن الامبراطورية الغربية عاشت قرنين أو ثلاثة قرون
 عوضاً عن ان تنهار في عام ٤٧٦ م لتمكنت المدارس العامة من
 أن تتابع سيرها البطيء ، ولتتمكن الشعراء الامناء لتقاليد كلوديان

وسيدوان ابولينير ان يستمروا في اخراج قصائد وأشعار في المدح والاشادة بذكر المحاسن بأسلوب جزل متين تغلب عليه الصناعة . ولكن هل يؤسف على ثقافة في حالة الاحتضار بادر المغيرون اليها وعجلوا في القضاء عليها ؟ ان الجواب الجريء على ذلك هو أن الانسان في مشهد من هذا النوع يشعر براحة عندما يرى المريض المحتضر قد أودى . لقد كانت الثقافة الكلاسيكية تشكو الضعف منذ عدة قرون ، وكانت معرفة الاغريقية في حالة انحطاط ، حتى ان الهلنية لم تلعب دوراً نشيطاً في حياة الغرب الفكرية . ولم يكن للقديس أغسطينوس نفسه سوى معرفة سطحية باللغة الاغريقية تكفيه للتحقق من نص من النصوص . وباقتصار الثقافة الغربية على اللاتينية وحدها ضاقت وتقلصت . ولقد كان بالامكان أن تحتفظ بقسم من خصائصها لو بقيت أمينة على مثلها التقليدي القديم وهو البحث عن الحكمة . وهذا المثل الاعلى أيضاً قد تخلى عنه . فمذ بداية الامبراطورية ، ومنذ زمن كلوديان وسيدوان لم تكن الثقافة الأدبية سوى تمارين نحوية وتسلية عصرية . وقل من كان ينشد في دراسته ثروة روحية . ولم يكن المتعلمون يقدموا على الدراسة الا بسائق الوهم ، وهو رغبتهم في أن يتميزوا عن البرابرة الذين يجاورونهم . وكانت اللاتينية الأدبية تبتعد كثيراً عن اللاتينية العامة . وكان تعلم هذه اللغة الاصطناعية يتطلب جهداً يستوعب انتباه المتعلم . وقد دعت شدة الانصراف الى الشكل الى إهمال الدراسة العميقة والجوهر . حتى أن نظم القصيدة أو تحرير الرسالة كانت مجرد ألاعيب عقلية . وينجح المؤلف نجاحاً تاماً اذا استطاع ان يلبس الافكار المبثلة أو النكتة العامة شكلاً ثميناً أو غامضاً . ان ثقافة من هذا النوع لا بد وان تنتهي بالفناء ، وإذا عجل المغيرون في القضاء عليها فليس في عملهم مايدل على انهم ارتكبوا جرماً حقيقياً أو إثمًا كبيراً .

ولقد حاول بعض الكتاب ان يقوموا بعملية الانقاذ مثل مارتينانوس كابلا وكاستودور وبويتشي وايزيدور اشلية وبيد . ولم يتقنوا الثقافة القديمة لأنه كان محكوماً عليها بالموت . وكل ما انقذوه هو بعض افكار متفرقة من بقايا المعرفة التي تؤلف جوهر هذه الثقافة . وهذه الأفكار افادت آجلاً كمواضع استعمال لتأسيس ثقافة جديدة في عهد الكارولنجين .

غير أن هنالك حادثاً جديراً بالذكر وهو فضل الكنيسة البريطانية وايرلندية والانغلو - ساكسون في نقل بقايا الثقافة القديمة بعد حادث الغارات . على أن الانغلو ساكسون لم يأتوا من بلادهم الأصلية من هولشتاين وشازفيك وجوتلند إلا ببعض اساطير حماسية . وهذا يدل على فقر الحضارة الجرمانية . ولقد حاول كثير من علماء الالمان البحث عن آثار الحضارة الجرمانية في الفن والآداب ، ويرى كريستوفر داوسون في كتابه « أصل اوربا » ان تقاليد الجرمانين الفنية بقيت في انكلترا حتى القرن الثامن . ولكن هذه الشواهد الفنية كانت فقيرة بائسة ، كـ بعض الحلبي . وكذا في الحقل الأدبي نرى العناصر الجرمانية فقيرة ، حتى أن المؤرخ نفسه يعترف بأن الشعوب الجرمانية لم تجد لها شاعراً كهوميروس . وفي الحقيقة ان تأثير العالم الجرمانى على ثقافة العصر الوسيط في اوربة الغربية يكاد يكون عدماً . وأمر ذلك واضح لكل ذي فكر نزيه .

وبعد فهل يجب أن نقول ان كل شيء مضى وكان البرابرة لم يتوغلوا في غرب اوربة ؟ ان مثل هذا الزعم بعيد عن الحس السليم ، وفقهاء اللغة اول من يعترض عليه . ففي شمال الامبراطورية وعلى تخوم غالبا ، تراجعت « رومانيا » . ويدلنا على ذلك قول سيدوان ابولينير : « إن سنا اللغة الرومانية قد احتجب في بلجيكا والبلاد الرينية » . ولقد لحص الاستاذ فرديناند لوط في كتابه « الغارات الجرمانية » ما فقدته اللغة

اللاتينية لحساب اللغات الجرمانية . فمن ذلك ان الروبر جرمنوا الضفة اليسرى لنهر الرين . وطردت اللغة الجرمانية اللاتينية في الازاس وسويسرا الالمانية عندما احتلها الآلامان . وإذا تكلم اليوم نصف سكان بلجيكا باللغة الفلاماندية وكذا في مقاطعة الشمال الفرنسية فذلك لأن السالين قد ازاحوا اللغة اللاتينية عن هذه البلاد في القرن الخامس .

اما في بريطانيا العظمى فقد كان تأثير المغيرين جذرياً وذلك لأنهم اوغارا في بلاد تعتبر اقل بلاد اوربا تأثراً بالرومانية . فقد كانت لغة سكانها الأصليين السلتية (او الكلتيّة) ما خلا بعض المستعمرات الرومانية حيث كان يتكلم باللاتينية . ولقد قام بين الانغلو - ساكسون والبروتون نزاع دام عدة قرون دون ان يتبنى المغيرون لغة البلاد من كورنية أو غالوية . ولم تنعدم بنتيجة الغزواتان اللغتان بل دحرتا إلى المناطق التي اعتصم فيها البروتون في بلاد كورنواي وبلاد الغال (ويلز) واحتفظ الانغلو ساكسون بلغتهم الأصلية التي أصبحت اللغة الانكليزية . غير ان هذه اللغة كانت قاسية ابتدائية فقيرة بالمفردات ، حتى ان البرابرة اضطروا الى استعارة كثير من الكلمات اللاتينية بواسطة المبشرين ، كما اخذوا فيما بعد عن اللغة الفرنسية ، لغة النورماندين ، عندما فتح غليوم الفاتح انكلترا . وهكذا نشأت اللغة الانكليزية وتوسعت ولم تصبح لغة الشعب الانكليزي الا بعد استعارات كثيرة عن اللغات الرومانية أي اللغات المشتقة من اللاتينية كالفرنسية والاسبانية .

وفي غاليا ، على العكس ، اخذ المغيرون لغة السكان الأصليين . وليست اللغة الفرنسية ، كما يمكن ان يتسرب للظن ، لغة الفرنجة ، بل اللغة اللاتينية الشعبية التي يتكلم بها الغاليون - الرومانيون . يضاف إلى ذلك ان الفرنجة عندما تبناها ادخلوا إليها كثيراً من كلماتهم . وقد بقي بعض

هذه الكلمات في اللغة الفرنسية الحديثة والبعض الآخر ذهب منذ العصر الوسيط . فمن هذه الكلمات تعابير عسكرية ومفردات حقوقية . وهذه الكلمات تدل على ان الفرنجة فرضوا على البلاد المفتوحة تقاليدهم وبعض مؤسساتهم المدنية . وكذلك ادخلوا في اللغة العامية بعض كلمات من لغتهم الدارجة ، وهذه الكلمات طردت ما يقابلها في اللغة اللاتينية . ولقد بقيت هذه الكلمات التي ادخلها الفرنجة لا لأنها أوضح أو أصح ، بل لأنها قصيرة وقوية البيان والدلالة . هذا ويجب ان نلاحظ ان عامية الكلمة تكون غالباً سبباً في نجاحها ؛ كما يجب ان نقول ان ما أتت به اللغة الجرمانية إلى الفرنسية ليس فيه ما يدل على ثقافة عالية . وكل ما في الأمر ان للغيرين كلمات سهلة قصيرة وربما كانت فظة ولكنها جذبت السكان الأصليين واخذوها عن محدثيهم من البرابرة . وما هو جدير بالملاحظة ان اللغات التي يتكلم بها الغزاة من فيزيغوط وبورغوند واستروغوط وفاندال قد ذهبت وزالت تماماً سواء في غاليا أو ايطاليا أو افريقية الشبالية ولم تترك أثراً البتة . وبين الدول التي احتلت غاليا في القرن الخامس ، نجد الأمة السلتيّة . فقد تركت أثراً لغوياً دائماً وذلك لأن البروتون عندما هاجروا إلى شبه جزيرة آرموريكا على اثر غارات الانغلو - ساكسون ، نقلوا معهم لغتهم ، وهذه اللغة السلتيّة ما زال يتكلم بها في ثلاث مقاطعات فرنسية بينما نحاول عبثاً أن نجد أثراً ولو كان ضعيفاً للغة الغوطية واللغة البورغوندية في اكنانيا وسبانيا والسافوا .

وهذه الملاحظة لها معناها : فهي تدل على فقر الحضارة الجرمانية . لقد اتى الجرمانيون الى امبراطورية الغرب في وقت كانت فيه الثقافة الكلاسيكية في حالة أفول ولا تغذي سواد السكان . وكان من الممكن أن يكون حظ البرابرة عظيم الاثر لو انهم كانوا حملة ثقافة حقيقية

وخصية وقابلة للتمثيل . ويكفى أن نذكر على سبيل المثال انتشار المسيحية التي تقدمت تقدماً سريعاً لأنها كانت تغذي سكان الامبراطورية بغذاء ديني حرموا منه منذ عدة قرون . غير أن فقر الثقافة الجرمانية ربما يبدو بوضوح عندما نقارن تأثير الغارات الروحي ، الذي هو قريب من العدم ، بالتوسع الاسلامي ؛ اذ لم يمض قرن ان على الغارات الجرمانية الا واحتل العرب المسلمون حوض البحر المتوسط وأتوا بدينهم وثقافتهم القائمة على الدين والمشرية بالايان القوي . وكان منهم أن جعلوا أبناء البلاد المفتوحة يعتنقون دينهم ويقبلون بحضارتهم الناشئة ونفوذهم . وكان للاسلام حضارة ولم يكن للجرمانية حضارة . لقد اكتفى الجرمانيون ببرورة الامبراطورية لأنه لم يكن لديهم ما يحل محل الثقافة الكلاسيكية الأخذة بالانحطاط . ولقد الفوها وتبنوها لأن حضارة الامبراطورية الدنيا المنحلة كانت أعلى من حضارتهم . ولقد عجلوا بالتحللها وكان اثرهم فيها سلبياً . ومن هذه الوجهة يمكن أن يقال انه كان مفيداً . ولو بقيت امبراطورية الغرب عدة قرون لما رجحت شيئاً .

واقامة الجرمانين في الغرب وتسلمهم اليه وضرباتهم التي وجهوه إلى الامبراطورية قدمت عدة قرون خراب الثقافة القديمة ونشوء حضارة العصر الوسيط . وقد كانت هذه الحضارة ثقافة جديدة خصية ولم يستثن منها الجرمانيون الذين تمدنوا وتكيفوا مع المسيحية وقدموا لها مساعدتهم ، ولكنها لم تكن من صنع ايديهم لأن ثقافة العصر الوسيط لاتينية ومسيحية اكثر بكثير مما هي جرمانية ، ولأن ما اتت به الغارات الكبرى في الناحية الروحية قريب من العدم .

اثر البرابرة الفني : — تدل الخلفات العديدة ، التي جمعت في الغرب الأوربي كله ، على ان الفن البربري حقيقة ، كما يفهم من تأمل قطع

الحلي كالحواشم والشكالات و « أبازيم » الأحزمة المزدانة بالمينا أو التزيينات الحيوانية كما يتجلى في كنوز تورنيه وغوردون في قاعة الميداليات في المكتبة الوطنية بباريس وكذا الصناديق والتيجان. غير ان هذا الفن، على ما يظهر ، قد اقتبس تقنيته وتزيينه من الفن السلي ، وبخاصة من شعوب شواطئ البحر الاسود الايرانية . وفوق ذلك يرى ان التأثير الببري في الفن متواضع بالنسبة لمى التأثير الشرقي والروماني الذي استمر في عمله خلال القرن السادس وطبع الغرب بطابعه في تصاميم الكنائس والتزيين بالفسيفساء ذات الأرضية الذهبية ، وتيجان الاعمدة الكورنثية وتوابيت بروفانس او اكيثانيا .

وسينشأ من تركيب الأشكال القديمة والعناصر الببرية فن أصيل ، وسيكون في أصل فن العصر الوسيط في الغرب . وإذا عاش الفن القديم في افريقية الفاندالية أو في ايطاليا الاوستروغوطية ودلت دراسة الاوابد في رافينه على هذا الاستمرار فقد نشأت في غاليا واسبانيا وخاصة في انكلترا ، في القرن السابع ، أشكال فنية جديدة من هذا المزج بين الفن القديم والفن الببري .

الفصل الثالث

المدخل الى تاريخ الكنيسة

الكنيسة في العصر الروماني . – الكنيسة مكان العبادة عند المسيحيين وتطلق أيضاً على جماعة المؤمنين بالدين المسيحي الذي أنزله الله على المسيح عيسى بن مريم ، ومنه أتت «المسيحية» أي دين المسيح . والكنيسة بالاصطلاح جسد المسيح الصوفي . انما شيء إلهي ولا يمكن فهمها بالعقل البشري . وهذه هي الكنيسة غير المرئية . أما الكنيسة المرئية فهي هذه الجماعة المسيحية التي تحيا في عالمنا وأعضاؤها اناس مثلنا يخضعون للتغيرات والتطورات التاريخية .

في العهد الذي ولد فيه المسيح عيسى بن مريم كانت فلسطين تابعة للإمبراطورية الرومانية التي كانت تضم آنذاك العالم المتمدن أي بلاد البحر المتوسط وغاليا وبعض أجزاء الجزر البريطانية . وكانت روما عاصمة هذه الامبراطورية ، والفكرة التي تؤخذ عنها عظيمة وظلت عظيمة التأثير في العصر القديم بل والعصر الوسيط .

لقد نما في الأوساط العبرية آنذاك شكلان لفهم الدين : الأول في فلسطين والثاني في الدياسبوردا ، أي في الخارج . ففي فلسطين عم ضيق التفكير ، وسدت الأبواب في وجه ما ليس يهودياً . وكانت حالة الرأي

تضم عدة نزعات تمثل من جهة بالصدوقيين ، أي اليهود المستنيرين ، ومن جهة أخرى ، بالفريسيين وهم أنصار التقيد الحرفي بتعاليم **الناموس** ، وسيلة السلام الوحيدة ، ويؤلفون قوه دينية يحسب حسابها .

وكان اليهود يكرهون الرومان لأنهم قضوا على استقلالهم ، وكان الرومان يقابلون هذه الكراهية بالمثل . ومع هذا فقد كان التوحيد ، الاعتقاد بوحدانية الإله ، والأخلاق ، التي بشر بها الأنبياء والمزامير ، تؤثر فيهم ، حتى أن كثيراً من الوثنيين كانوا يتقبلون فكرة الوحدانية ويطلق عليهم اسم « **من يخشون الله** » .

وكان هذا التفكير نفسه في بلاد الدياسبورا ، ولكن دون تفكير ضيق أو تعنت في الرأي ، أو غير ذلك من الصفات التي تميز اليهود في فلسطين . فقد ظلت الدياسبورا مفتوحة للعالم ولل فلسفة الاغريقية . ولقد أدت ترجمة العهد القديم إلى الاغريقية ، التي اشترك فيها سبعون حبراً ، إلى النفوذ إلى العالم الكلاسيكي . وهذا النص الذي أصبح يسمى **النص السبعيني** هو كتاب العهد القديم المسيحي . وهذا الكتاب لا يحتوي فلسفة ، بل وحيأ دينياً يبشر بالتوحيد والأخلاق المبنية على سلطة الله .

وكان يملك اليهود في فلسطين قلق مظلم ، ويتنظر كثير منهم الأخذ بالثأر وظفر « **الشعب المختار** » بمجيء المسيح « **رسول الله** » الذي يعد به الكتاب المقدس . وانتشرت هذه الفكرة بين الناس حتى ساد الاعتقاد باكتشاف المسيح . وظهرت فرق دينية أخرى تحلم بمؤسسها وزعيمها السري « **سيد العدل** » الذي اضهد وقتل وظل بالنسبة اليها مثلاً أخلاقياً وحامياً . وفي هذا المناخ من القلق العام ، الذي يملك اليهود الذين ينتظرون المسيح ، والوثنيين النهمين إلى التجارب الدينية الجديدة ، ظهر المسيح .

يسوع المسيح . — ولد يسوع المسيح عيسى بن مريم في بيت لحم في عهد الامبراطور اغسطس ، وقضى شبابه في الناصرة والجليل ، ثم جاب فلسطين في سنه الثلاثين ونادى بنفسه المسيح أي « رسول » الله و « ابنه » . وانضم اليه اثنا عشر تلميذاً ، وظل خلال ثلاثة أعوام يبشر في الكنيسات أمام الجماهير اليهودية ويبشرها بالحادث الجديد ، الانجيل ، وهو الوعد الحق بالسلام والعدل ، ويتوجه إلى المساكين برسائلته في المحبة والاخاء بلغة بسيطة يفهمها عامة الناس ، مستعملاً القصص والأمثال والصور الحسية المشخصة .

ولكن يسوع مالبت أن اصطدم باليهود لأنهم كانوا ينتظرون مسيحاً ماجداً منتصراً . وبالرغم من أن يسوع كان يؤكد تعلقه بالناموس اليهودي لأنه لم يأت ليلغي بل لتمام ، فات « أحبار الناموس » الذين كانوا يجلسون في المحكمة اليهودية العليا ثاروا لهذا التبشير الذي يجعل محبة الله والاخاء بين الناس فوق الناموس . فما وسعهم إلا أن أثاروا السلطات الرومانية التي رأت في تبشيره تحريضاً يمكن أن ينقلب إلى حركة ثورية . وما كان من الحاكم بيلاطس البنطاني إلا أن أخذ بما طلبته المحكمة العليا وصلب عيسى « ملك اليهود » ونال بذلك الجزاء الشائن ، الذي يلقيه العبيد واللصوص ، على رابية الجلجلة التي تقوم عليها اليوم كنيسة القيامة في شمال القدس .

تعاليم يسوع مؤسس الكنيسة . — تؤلف حياة المسيح وأثره أساس الكنيسة . والمصادر التي تساعد على معرفة حياته هي « العهد الجديد » وخاصة الاناجيل الأربعة ويضاف اليها بعض أصول وشواهد غير مسيحية . لم يزعم يسوع ولا تلاميذه تأسيس دين جديد بل اتمام « العهد القديم »

في داخل اليهودية . إنه رسول الله ، إله اليهود ، الإله الأوحى ، اللامادي الذي لا يمكن تمثيله ، ولا تراه الأعين بل تدركه البصائر والقلوب ، وابتداءً من هنا تبتعد تعاليم المسيح عن المفاهيم اليهودية ، إذ لا يراد من الله الرب المنتقم الجبار الذي ذكره العهد القديم بل الله ، إله المحبة والحب والعفو عن خطايا خلقه ، إله جميع الناس لا إله قوم بذاته . وهو يرى أن الفضائل الشخصية وحدها تدخل في الحساب ، ولا مجال للتمييز الاجتماعي ، وأن العبيد الأرواء والفلاحين سواسية مع الشيوخ والامبراطور نفسه ، وأن الناس أخوة ويجب أن يحب بعضهم بعضاً ، وأن يعفوا عن الذنب ويقابلوا السيئة بالحسنة ، وأن الذين يتكيفون مع القواعد الأخلاقية ، التي هي أعلى من الناموس نفسه ، ستكون لهم الحياة الأبدية .

الرسول وانتشار المسيحية . - وبعد موت المسيح قام تلاميذه الحواريون بتمام رسالته التي عهد بها إليهم بقوله : « اذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم معمدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس » . ونشر هؤلاء التلاميذ المذهب الجديد .

وكان لشخص الحواري بطرس مكانة خاصة في نفس يسوع ، ويضاف إليه وإلى من آمن بيسوع ، من التلاميذ الأوائل ، مؤمنون أكثر حداثة ، وأشهرهم يهودي من كيليكيا ، وهو مواطن روماني اسمه بولس تارسا ، وكان في أول أمره خصماً للنصارى ثم بدا له المسيح وهو في الطريق إلى دمشق فصباحاً فجأة وغداً القديس بولس . وقد جاب بلاد الشرق كله ثم ذهب إلى روما . وكان فيها داعية ومبشراً عظيماً بالإنجيل ، ومنذ ذلك الحين أخذت الديانة اليهودية تنطوي على نفسها بعد أن شقت المسيحية طريقها في الأوساط الوثنية .

وقد أضاف الرسل إلى رسالة السيد المسيح وحياً بجداً وهو الموت ،
والدفن في القبر ، وقيامه المسيح في اليوم الثالث من دنته ، وظهوره
إلى تلاميذه قبل أن يصعد إلى أبيه في السموات العلى . « والعهد الجديد »
الذي بشر به السيد المسيح يضم رسائل القديس بولس والأنجيل الأربعة .
وأصحابها هم : القديس متى ، القديس يوحنا ، القديس لوقا ، القديس مرقس ،
يضاف لذلك قصة أعمال الرسل ورؤيا القديس يوحنا .

وفي القرن الاول للمسيح تألفت طوائف مسيحية في فلسطين وفي مدن
الشرق مثل : انطاكية والاسكندرية وقرطاجة ، وفي روما نفسها . وقد
تأثرت المدن بالدين الجديد أكثر من الارياف . وكان أول من داب
بالدين الجديد الفقراء والمحروون والارقاء لأنهم أكثر شعوراً وحساً بوسالته
في الاخاء والمساواة ، ولأنهم بحاجة إلى التماسك والأمل ، ولكننا نرى
منذ القرن الأول بعض الايمان في طبقات المجتمع العليا ، ومن ثم أخذ
الايمان ينفذ بالتدريج إلى البلاط الامبراطوري .

ولا ندري متى نفذ الانجيل إلى روما . ومع هذا فاننا نجد يهوداً
مسيحيين في هذه المدينة في عهد الامبراطور كلود (٤١م - ٥٤م) .
وقد اضطروا أن يغادروا روما بأمر امبراطوري مع اليهود . وكان يخلط
بينهم وبين اليهود . ولكن هذا التدبير لم يحل دون نمو الطائفة الجديدة
كما يستدل على ذلك من رسالة القديس بولس إلى أهل روميا حوالي العام
٥٧م . ومن هذه الرسالة نعلم أن الكنيسة كانت معروفة وسلطتها
تأتي من إدارة بطرس وبولس وتكريسها بشهادتهما وبقيامهما المدفونة في
روما . ويعلم من « أعمال الرسل » ان بولس سكن المدينة الحادة .
أما ما يتعلق باقامة بطرس في روما فقد حام الشك حولها لأسباب عقائدية

اكثر منها نقدية . بيد أنه لا ينكر اليوم علمياً بأن بطرس عاش في روما وعذب ، حتى أن الدلائل المعطاة عن هذا الحادث في الآداب القديمة قد ثبتت بالحفريات الجديدة التي جرت تحت كنيسة القديس سبستيان على الطريق الآبي ، والمكتشفات الاثرية التي وجدت في كنيسة القديس بطرس . فقد أُمِطت النقاب عن القبر الذي ينطبق على قبر أمير الرسل . ومن المهم ان يلاحظ أن أساقفة روما يعتبرون أنفسهم خلفاء بطرس مها كانت عداوة خصومهم من كنسيين أو سياسيين ، وأن « أعمال الرسل » في الاصحاح الاول ، ورسالة القديس بولس الى اهل غلاطية في الاصحاح الأول تدل على سلطة بطرس في الطائفة المسيحية البدائية المقدسية .

ورد في انجيل القديس متى في الاصحاح السادس عشر ، والعديدين ١٨ و ١٩ ، ان المسيح جعل بطرس مؤسساً للكنيسة وخوله « سلطة المفاتيح » أي « سلطة العقد والحل » . ففي العدد ١٨ جاء : « وأنا اقول لك أنت الصفاة وعلى هذه الصفاة سأبني كنيستي وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » . وفي العدد ١٩ : « وسأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما ربطته على الارض يكون مربوطاً في السموات ؛ وكل ما حللته على الارض يكون محلولاً في السموات » . ونقل بطرس الى خلفه اسقف روما هذه السلطة ، ومنه انتقلت الى جميع اساقفتها . وقد اهتمت الفكرة التي تعتبر اسقف روما اسقفاً بين الاساقفة ، وانجبه الرأي الى الفكرة التي تجعل اسقف روما رئيساً للاساقفة .

تنظيم الكنيسة . - منذ عهد الحواريين تجمع المؤمنون وانتظموا

العصر الوسيط - هـ

في كنيسة . والكلمة من الاغريقية (اكايزيا) وتعني المجلس والجماعة . وكان بوجه كل جماعة اسقف ينتخبه المؤمنون ، ويساعده في مهامه المشايخ والكهنة القانونيون في اعداد الحفلات الدينية . وللدخول في الجماعة المؤمنة كان على كل مؤمن جديد ان يخضع لحقة التعميد وذلك بأن ينزل في مغطس مملوء بالماء المقدس . وهذا الطقس قديم ويراد منه ايجاد رابطة لا تنحل بين المؤمن والمسيح . ويعني التعميد ايضا وعداً بالبعث . فالمؤمن الذي ينزل في المغطس ويخرج منه هو كالمسيح عندما دخل القبر ثم بعث حياً . والعبادة بسيطة جداً وتقتصر على صلوات وتأملات مشتركة وتنتهي بالعشاء وهو طعام اخوي مشترك ، وفي الوقت نفسه احياء لذكرى العشاء الرباني الذي تناوله السيد المسيح مع تلاميذه ليلة موته . ومناولة المشاركين المسيح كسرة خبز وقليل من الخمر . واخذت هذه المناولة فيما بعد شكل حفلة دينية او « قداس » . ويراد منها تضيحية غير دامية لجسد المسيح ودمه ، أي مشاركة المسيح مشاركة صوفية جسداً وروحاً . وليعرف المسيحيون بعضهم بعضاً استعملوا الرموز . وكانت الحفلات الدينية تقام غالباً في دار مؤمن ، موسر . ويدفن الاموات في مقالع حجرية مهجورة أو في الدياميس وهي سراديب تحت الارض يدفن على جنباتها الشهداء ، كما في سرداب القديس كاليكست والقديس سياستيان في روما .

ومع الزمن تشكل نظام التسلسل في السلطات الكنسية وأسس حسب التقسيمات الادارية في الامبراطورية الرومانية : اسقف في المدينة ، رئيس اساقفة في عاصمة كل اقليم ، بطريرك في انطاكية والاسكندرية والقدس والقسطنطينية . وكان اسقف روما كغيره من الاساقفة ، الا انه اخذ يتمتع بسلطة تفوق سلطة الاساقفة الآخرين باعتباره خلف القديس

بطرس . وهكذا نشأت سلطة الباباوات ، اساقفة روما . وابتداء من القرن الرابع كانت المجامع المسكونية تضم الاساقفة الآتين من جميع البلاد المسيحية . ولقد كان من حسنات هذا التنظيم ان قوى الكنيسة المسيحية وسهل توسعها في الامبراطورية الرومانية .

وكما تقدمت المسيحية كانت الشخصيات المثقفة المؤمنة في كل بلد تضع ثقافتها الاغريقية - اللاتينية في خدمة الايمان وتبرره وتدافع عنه وتكون له مديحاً ومجيداً . ونشأ على هذا النحو أدب مسيحي يساعد على التعمق في الحياة الدينية . وكان يمثل هذا الاتجاه في البدء جوستن الثابلسي ، ورتولين القرطاجي ، واوريجين الاسكندري . وفي القرن الرابع واول القرن الخامس ، كبار المفكرين الاوائل واللاهوتيين المسيحيين ويسمون « آباء الكنيسة » . ونخص بالذكر منهم القديس آثناس في الاسكندرية ، والقديس باصيل في قيساري في الشرق الاغريقي والقديس امبرواز ، اسقف ميلانو ، في الغرب اللاتيني ، وكان له تأثير كبير على ادارة الكنيسة وتنظيم العبادة والعلاقات مع السلطة الامبراطورية ، والقديس جيروم وكان عالماً جواباً رحالة طاف أرجاء الامبراطورية . وكانت ترجمته اللاتينية للعهد القديم السبعيني وللعهد الجديد عن الاغريقية تؤلف الكتاب المقدس الكاثوليكي الرسمي (الفلغاطة) . وكان القديس اغسطينوس اعظمهم جميعاً . وهو من نوميديا أي الجزائر ، اشتغل أستاذاً للفصاحة ثم أصبح اسقف هيبون (بونة) في الجزائر . وله آثار كبرى سيطرت على الادب المسيحي في عصره وامها « الاعترافات » و« مدينة الله » . بيد ان الكنيسة كلما اتسعت خشيت عدوى الفلسفات والديانات المحيطة . وكان عليها منذ القرن الثالث ان تكافح الهرطقات او البدع ، اي الانحرافات الدخيلة على الدين .

والجدير بالذكر ان المسيحيين كانوا يؤكدون بأنهم رعايا الامبراطورية الرومانية ، امناء على عهدها ، ويحترمون السلطات القائمة . ولقد قال السيد المسيح : « ملكوتي ليس من هذا العالم » واوصى بقوله : « أوفوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » . وذهب القديس بولس الى ابعد من ذلك فكان يعلم « لاسلطة الا من الرب » وان « من يعارض السلطة يقاوم النظام الذي اقره الرب » . ومع هذا فان المسيحية بطبيعتها لا يمكن ان تبدو الا خطرة بل وفاضحة للسلطة الامبراطورية . فقد رفض المسيحيون القيام بالحركات الطقسية الميكانيكية التي كان يقوم بها الآخرون ، كحرق البخور أمام تماثيل الآلهة الرومانية ، ورفض تضحية الضحايا على مذابح المعابد ، واكثر من ذلك رفضهم اجلال عبادة الامبراطور وروما . وفسرت هذه الاعمال منهم تقويضاً لقواعد الوحدة الامبراطورية وتمرداً على النظم السائدة . ولذا حذفوا من المجتمع الروماني واعتبروا خطرا عاما على سلامة الدولة وحاق بهم الاضطهاد من كل جانب .

كان أول اضطهاد لاقاه المسيحيون في عام ٦٤ م في عهد الامبراطور نيرون . فقد سرت اشاعة بأنه اشعل النار التي التهمت روما ، وما كان منه إلا ان نحى بغضب الشعب على المسيحيين فصلب كثير منهم ، أو القي بهم الى الحيوانات المفترسة في مدرجات اللعب ، أو احرقوا أحياء . ولاقى القديس بطرس والقديس بولس في روما الكثير من الاضطهاد . ومنذ ذلك الحين عرف المسيحيون قرابة ثلاثة قرون ، من نيرون إلى ديوقليسيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م) دوراً من التسامح النسبي ، واخرى من الاضطهادات العنيفة ، كما في ظل حكم الامبراطور دوميسيان (٨١ - ٩٦ م)

ومارك اوريل (١٦١ - ١٨٠ م) . ولم تتوصل الاضطهادات الى تفتت التنظيم المتين في الكنيسة ، بل ان هذه استمرت في توسعها ، وأكثر من ذلك ، زادها الاضطهاد قوة واندفاعاً ، وكان بعض المسيحيين يلتمس الشهادة طريقاً مباشراً الى الحياة الابدية ودنيا الخلود . ولقد ابدوا من الحزم والجلد والصبر على الشدائد بما شده انظار الوثنيين ودفع بعضهم الى الايمان . وقد كتب ترتوليين في العام ١٩٧ م « كان دم المسيحيين كالبنار » .

ومنذ ٣١٣ اعتوف الامبراطور قسطنطين حسب مرسوم ميلانو بحرية جميع الأديان بما فيها المسيحية ، حتى انه كان يشجعها ويكثر عطايها لها . وأقام اسقف روما رسماً في قصر لاتران وهو ملك قديم لأسرة آل لاثيراني ، في جنوب المدينة . وشيدت الكنائس على مخطط معبد روما ، ككنيسة القديس بطرس في الفاتيكان عام ٣٢٦ وكنيسة القديس بولس خارج الأسوار .

وفي عام ٣٦١ أفاد جوليان ابن أخ الامبراطور قسطنطين من موت عمه واستقر في القسطنطينية . إلا أنه سرعان ما تنكر للمسيحية ولذا لقبه المسيحيون بالمارق أو المرتد . كان معجباً بالثقافة الافريقية - اللاتينية ومتحمساً لقراءة هوميروس ، فاراد ارجاع الوثنية التي صنعت عظمة روما وحضارتها واعتمد على الوثنيين الذين اضطهدهم قسطنطين وعلى الارستقراطية الرومانية القديمة المتعلقة بعبادة الأوثان وطرد المسيحيين من الادارات العامة ، وأسس المدارس الوثنية . غير أن هذه المحاولات كانت متأخرة في وقت انتشرت فيه المسيحية وقوي ساعدها .

وبعد موت جوليان في حروبه ضد الفرس عام ٣٦٣ م ظفرت

المسيحية نهائياً وانطفأت السلالة القسطنطينية . واستولى على الامبراطورية ائاس جدد ، مثل فالانتيان ، وأخيه فالانس ، ثم آخرون أقل هبة . وكان عليهم ان يقفوا جهودهم لصد هجمات البرابرة الذين حاصروا البحر المتوسط لرأب الصدع الذي تمثل بتجزأة الامبراطورية . واستطاع الامبراطور تيؤدوس (٣٧٩ - ٣٩٥) لآخر مرة ان يعيد الوحدة الامبراطورية عام ٣٩٤ تحت سلطته بعد أن انقذها بانتصاره العظيم على الغوط .

وامتاز حكم تيؤدوس بمحدثين عظيمين :

الأول - ادخال البرابرة في الجيش الروماني لتأمين الدفاع عن الأقاليم . وكان بين هؤلاء البرابرة ستيلىكون الفاندالي الذي أصبح قائداً عاماً . وكان تيؤدوس يأمل من عمله هذا أن يستوعب الجرمن ويعدهم . ولكن في الوقت الذي بدأت فيه الغارات الكبرى كانت الامبراطورية تعج بالبربر من الداخل .

الثاني - نحرىم الوثنية . فحتى عهده كان الاباطرة المسيحيون يتساحون بممارسة الديانات الوثنية بحرية . إلا أنه أمر باغلاق المعابد وتحريم الاضاحي . وهكذا تبدلت حالة المسيحيين تماماً بالنسبة إلى عصر دوقليسيان ، لأن المسيحية أصبحت دين الدولة والوثنيون مضطهدين . ومع هذا ظلت الوثنية قوية ولم تزَل الا مع الزمن تدريجياً . وبينما كانت المعابد تغلق ابوابها ، الواحد تلو الآخر ، كانت الكنائس آخذة بالنمو والتكاثر .

واتضحت في هذه الكنائس قواعد الطقوس الدينية والعبادة وانتظم العشاء الرباني ، الطعام الأخوي للمسيحيين الأوائل ، وأطلق على الكنيسة وصف « كاثوليكية » أي عامة . وفي الوقت ذاته ظهر شكل جديد للحياة الدينية وهو الرهبانية .

الرهبانية . - الرهبانية في الأصل حركة زهد وتكشف وتصوف وانعزال عن الدنيا الفانية . والباعث لها هو النفور الذي يملك المرء بما في الحياة من فساد فيذهب به الى رد فعل سلبي يدفعه الى الانطواء والابتعاد ومحاولة تطهير النفس بتنمية الحياة الدينية بالتبتل والصلاة والتأمل والتفكير والتقوى والنسك والتعزي بالجوء الى الله .

والرهبانية شرقية المنشأ . وترجع الى القرن الرابع الميلادي . ففي زمن الامبراطور ديوقليسيان (٢٤٥ - ٣١٣) وجد في مصر عدد عظيم من المسيحيين الذين هربوا من الاضطهادات الدينية وبحسوا عن سلام أرواحهم في الصحراء ، وسكنوا المغاور والكهوف في وادي الملوك وفي غيرها من المناطق الجبلية . وكان القديس انطوان أشهر هؤلاء النساك . ففي عزلته أخذ يكافح الشيطان وشتى المغريات ، واستطاع بصلاته وصيامه وتهجده وغنائه المزاميران يتنصر على نفسه . فقد كان يلبس قميصاً خشناً ويمتنع عن أكل اللحم ، ويتوافد عليه الناس في عزلته في الصحراء ليستمعوا الى نصائحه وإرشاده ، وتلمس بركته للاستشفاء من آلامهم وطرده الأرواح الخبيثة عنهم . ثم قام الى جواره نساك آخرون ، وأصبح انطوان بتعاليمه والمثل الشخصي ، الذي ضربه للناس ، موجهاً روحياً . وقد عمر طويلاً رغم شقاء الحياة وشظف العيش .

ثم شاعت الرهبانية في سورية أيضاً ، ومن أشهر النساك السوريين سمعان العامودي . ولدينا نسخة عن سيرته كما حفظها أحد معاصريه وهو الاسقف تيؤدوريتوس . ذهب به أهله الى الكنيسة ، فاضطربت نفسه لدى علمه بالسعادة التي وعد بها المتقون الذين يتألمون في سبيل المسيح في هذه الدنيا . والتحق ببعض النساك ، وعندما توفي ابواه باع أمواله وتصدق بقسم منها على الفقراء ، ووقف الباقي على دير ، وغدا فيه راهباً ، وقضى حياة

ورع وعفة وامتناع عن لذائذ الحياة . وبعد عشر سنوات ذهب الى دير آخر بالقرب من انطاكية وانعزل في حجرة صغيرة مكتفياً بقليل من الحبز والماء ، وكان يصوم أربعين يوماً ممتنعاً عن تناول أي شيء ، ويجدد الكرة .

غير أن الرهبان الآخرين حسدوه بحده ، عندما رأوه يفوقهم صبراً ونسكاً وزهداً ، فافسدوا عليه حياته واضطروه الى مغادرة الدير ، فذهب ينتقل في الجبال يتجشم حمارة القيظ وصبارة الشتاء منصرفاً الى الصلاة والتأمل . ثم قرر أخيراً العيش على رأس عمود . وأقبل عليه الحجاج من كل حذب وصوب بعد أن ذاعت شهرته في الآفاق . وكان ينصحهم بالتخلي والعزف عن أعراض هذا العالم والتزود بالعمل الصالح وتطهير النفس من ذنوبها ، ويحييهم بلطف وإيناس ، ويخفف آلامهم ، ويصلح ذات ذات بينهم . وبلغ السبعين من عمره ، قضى منها ثلاثين عاماً على العمود . ولا يعلم تاريخ وفاته .

وسرت عدوى سمعان إلى الكثير من الرجال والنساء ، حتى ان العاموديين القوا غابة من الأعمدة يقوم على رأس كل منها تاج آدمي حي . وظل هؤلاء العاموديون حتى القرن العاشر ، غير أن هذه العادة أخذت تضمحل مع الزمن . ومع هذا فقد ظلت الأخبار تتناقل ، الى القرن الثاني عشر ، عن قصص عجيبة لراهب عامودي أقام على ضفاف نهر الاردن وكان يزوره في كل اسبوع أسدان ليطعما عنده . وفي القرن التاسع عشر وجد رهبان عاموديون في رومانيا وفي جيورجيا ، بلاد الكرج .

باكوم مؤسس الحياة الديرية . — ان مؤسس الحياة الديرية هو باكوم المصري . فقد استقر في بداية القرن الرابع بالقرب من طيبة ثم تبعه نساك آخرون وألفوا قرية حقيقية . ويروى عنه أنه رأى ذات يوم رؤيا

واقتنع بضرورة توحيد قوى النساك وجمعها في طائفة واحدة يتعاون أفرادها ويعدل بعضهم بعضاً ويصلحون أخطاءهم ، ويصلون معاً وينصرفون الى أعمال البر والتقوى ويضعون امكانياتهم لخدمة الآخرين ومواساة آلامهم . وهكذا نشأ على أرض مصر أول دير للنساك . ومع الزمن كثر عدد المتطلعين الى الحياة الروحية ، وبنيت أديرة جديدة ضمت الرجال والنساء وكانت اخت باكوم تقوم على دير نسوي . وشهد تاريخ افريقية الشبالية والشرق الأدنى اديرة ضمت رجالاً ونساء تحت سقف واحد . ثم ظهرت المفاسد ففصل الجنس .

ووضع باكوم قواعد مكتوبة تصر على ضرورة الطاعة المطلقة لرئيس او رئيسة الدير . وعلى عكس النساك الاوائل كان الرهبان ملزمين بالعمل في الحقول والقيام بجدل الحصر والслال من القصب أو ورق النخيل . ومن طيبة امتدت الحياة الديرية الى مصر كلها . وفي آخر القرن الرابع وجدت أديرة كثيرة كان يضم الواحد منها مئات من الرهبان والراهبات ، وما لبثت هذه الحركة الديوانية ان امتدت الى بلدان الشرق الأدنى وبلغت الغرب الاوربي . وأصبحت ذات أهمية تاريخية لما قامت به من جهود موفقة في تبشير القبائل الجرمانية والاخذ بيد المواطنين الرومانيين في تلك الظروف البائسة ، ولا سيما عندما أشرف العالم الروماني على الانهيار والدمار .

ومها يكن من أمر فان الحياة الدينية المسيحية أدت الى وجود نظامين لرجال الدين (الاكليروس) أي الذين اتخذوا الحياة الدينية مسكناً ، وهما :

١ - الاكليروس العصري : ويضم رجال الدين الذين يعيشون

في العصر بين ظهرا في المؤمنين في الكنائس ويقومون بالصلوات والاعمال الدينية ، ويسهرون على سلامة الارواح ، ويأتي على رأسهم البابا وهو الرئيس الروحاني الأعلى ، ويليه الأساقفة والكهنة القانونيون وغيرهم من الكهنة حتى الحوري القائم على كنيسة القرية .

٢ - الاكليروس النظامي : ويضم رجال الدين الذين يعيشون في عزلة الدير ويتبعون نظام هذا الدير الذي يمكن تلخيصه بالصلاة والعمل . وهذه العزلة لا تمنعهم من الحياة المشتركة من جهة ، ومن القيام بالأعمال من جهة أخرى في خارج الدير من تبشير وزرع وحصاد وقطاف وحطب واحسان ومواساة . وعلى اعتبار أن حياتهم مسيرة طبقاً لقاعدة الدير ، أو نظامه ، أو طريقته . لذلك يسمى هذا الاكليروس باسماء مختلفة ، فيقال الطريقة الديرية أو النظام الديرية ، أو القاعدة الديرية ، وكلها تدل على مسمى واحد وهو الحياة الرهبانية الديرية .

الفصل الرابع

المملكة الفرنجية

مكتم السلاوة المبروفجية

٧٥٢ - ٤٨١

الفرنجة . -- الفرنجة قوم من الأقوام الجرمانية . ويبدو أن دورهم لم يظهر على مسرح التاريخ قبل القرن الثالث الميلادي ، حتى اننا لا نرى اسمهم في « جرمانيا » تاسيت المؤرخ اللاتيني (حوالي ٥٥ - ١٢٠ ميلادية) . وكلمة « فونجي » تعني « حر » وربما كان هذا الوصف يدل على الأقوام التي كانت تنزع الى الاستقلال عن روما والخروج عن طاعتها .

ان تاريخ الفرنجة مبهم غامض والبحث فيه يحتاج الى حيلة وفطنة وحذر . ويميز عادة في الفرنجة ثلاث قبائل : الفرنجة الساليون ، أي البحريون الذين ينزلون قرب البحر ، والويبور ، أي البريون الذين يقيمون على ضفاف النهر ، والشاماف . وقد وجد اسمهم في التاريخ الروماني حوالي العام ٢٤٠ في ترجمة حياة الامبراطور اوريليان لمؤلفه فوبيسكوس . وكل ما يتحدث عنهم قبل هذا التاريخ ليس الا من قبيل الاسطورة . وقد كتب عنهم غريغوار تور ، في القرن السادس ، وقال عنهم انهم أتوا من بانونيا ، غير أنه لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا عندما يتكلم عن عصور

بعيدة عن عصره . وثقتنا تكون أقل بين أتى بعده من المؤلفين . ونجد في كتاب « تاريخ المملكة الفرنجية » المؤلف في القرن الثامن ان أصلهم يرجع الى طروادة هوميروس وفيرجيل . وفي القرن العاشر نجد لهم ذكراً في « كتاب التاريخ » حيث نرى ايضاً لا نجد في الكتاب السالف الذكر لأن المؤلف ينسبهم الى آنتينور الطروادي الذي أوجد هذا الشعب ، الذي تبعثر الى عدة قبائل ، ثم تجمع تحت زعامة فاراموند سليل آنتينور . ولقد تناقش المؤرخون في أصل الفرنجة دون الحصول الى حل مقنع . الا أنهم اتفقوا على نقطة واحدة وهي ان ملكاً باسم فاراموند لم يكن موجوداً ، وان أقدم زعماء الفرنجة ، الذين يمكن أن يتكلم عنهم بيقين ، هم كلوديون ، وميروفه ، وشيلديريك .

ان ما نعلمه عن الفرنجة هو ان الامبراطور اوديليان قهرهم في واقعة جمرت بينه وبينهم . وهذه الغلبة كانت فرصة للتنويه عنهم في الآداب اللاتينية . ومما يكن فقد احتل الفرنجة ، منذ آخر القرن الثالث ، جميع البلاد الواقعة بين نهر الراين الادنى ونهر الماين ، وأشهر قبائلهم التي كانت في هذه البقعة هي : **الشاماف والشات والبروكتير والريبوير والساليون** . ورغم ما نلاحظه من نقص في الوثائق التي تبحث عن الفرنجة ، نرى أن قبائلهم تؤلف اتحاداً خطراً على مصالح روما . ونراهم تارة يدافعون عن ارض الامبراطورية ، وطوراً يحاولون الامتداد عليها . وعلى اي حال فقد تأصلت جذورهم في شمال غاليا القديمة . والصحيح الثابت أن اقدم ملوكهم **كاوديون** توصل الى آراس وجرت بينه وبين (القائد) الباتويس آئسيوس الروماني واقعة دحر فيها الا انه اعاد الكرة وحل في كامبريه وسيطر على نهر السوم .

ولا نعلم علم اليقين شيئاً كثيراً عن ميروفه الذي قاتل الهوث كما رأينا سابقاً .

أما شيلديريك فقد أصبح ملكاً عام ٤٥٧ . وكانت الطقوس المتعارفة لدى الفرنجة ان الملك ، اذا سلم السلطة ، يرفع على ترس كبير ، والهتافات التي تصحب هذه المراسم تعتبر بمثابة اعتراف به . وقد يكون أبوه ميروفه ، واليه تنسب السلالة الميروفنجية . وتوفي شيلديريك في تورنيه عام ٤٨٢ م . وقد اكتشف قبره عام ١٦٥٣ حيث دفن مع جواده واسلحته ومجوهراته . ولقد كان لهذا الاكتشاف فوائد جلى في علم الآثار . فهو يعطينا صورة واضحة عن ملك السالين . وكان خلفه ابنه كلوفيس الذي استطاع ان يمتد بنفوذه على كل غالبا تقريباً .

كلوفيس . - ولد كلوفيس عام ٤٦٦ في مكان ما زال مجهولاً وكان عمره عند وفاة أبيه خمس عشرة سنة تقريباً . ويعتبر في هذا السن راشداً لأن القانون السالي يعتبر سن الرشد اثنتي عشرة سنة . وعندما تولى العرش كانت غالبا مقسمة الى أربعة أقسام :

١ - المملكة الفيزيغوطية وهي تضم جميع البلاد الواقعة بين جبال البيرينه ونهر اللوار مع اقليم بروفانس واسبانيا .

٢ - المملكة البورغوندية وتقع في حوض نهر الرون والصون .

٣ - المملكة الغالية - الرومانية التي اسسها القائد الروماني ايجيديوس وقد خلفه عليها ابنه سياغويوس وتمتد هذه المملكة بين نهر السوم واللوار .

٤ - مملكة الفونجة وهي تمتد في الشمال والشمال الشرقي من فرنسا الى ما وراء نهر الراين .

وكان الوضع السياسي والديني في غالبا مضطرباً . فقد كانت تابعة اسماً للامبراطورية الرومانية ، والسكان يسمون « رومانين » ويعتبرون أنفسهم رعايا الامبراطور . وكان ملوك البرابرة يحملون القابهم وأسماء وظائفهم العسكرية في الامبراطورية . اما ملوك الفيزيغوط فلم يعترفوا منذ اوريك بسيادة الامبراطورية عليهم . ومن الناحية الدينية كانت الغاليون - الرومانيون كاثوليكين ؛ والفيزيغوط والبورغوند اريوسيين ؛ والفرنجة وثنيين . على ان ما يشغل سكان غاليا في القرن الخامس هو معرفة أي الديانتين تتفوق على الأخرى : الأريوسية او الرومانية الخفيفة ، لأن العاطفة الدينية كانت تفوق كل حركة قومية وتسحقها ، حتى ان مقدرات العصر الوسيط كانت منوطة بهذا اللغز الديني .

إن كل ما نعرفه عن كلوفيس مأخوذ عما يحدثنا به غريغوار تور في كتابه الذي ألفه في آخر القرن السادس : يقول لنا اسقف تور ان كلوفيس هاجم سياغريوس وغلبه في سواستون وأمر بقتله وأصبح سيد البلاد حتى نهر اللوار . وقد رافق هذا الفتح فتح الاوستروغوط لايطاليا . فقد غلب تيؤدوريك الكبير قبائل الهيرول وملكهم اودواكر وأصبح سيد روما وتأسست المملكة الايطالية . وطلب تيؤدوريك يد الدوفليد اخت كلوفيس وتزوجها عام ٤٩٣ . وقد عقد هذا الزواج بين الدولتين صداقة دامت عدة سنوات وكانت له نتائج هامة .

وتبع هذا الزواج بعد عدة أشهر زواج كلوفيس بكلوتيلد ابنة اخ غونديود ملك البورغوند ، وكانت كاثوليكية . واختلفت الروايات في هذا الزواج . فكيف يمكن لاميرة كاثوليكية أن تتزوج ملكاً وثنياً ، وهل عملت بوحى الاساقفة طمعاً في نشر المسيحية بين الفرنجة ! ؟ من

الصعب الاتيان برأي حاسم . وكل ما في الامر أن هذا الزواج قد وقع وانصرفت الزوجة الى حض زوجها على اعتناق المسيحية . والثابت ان كلوفيس لم يغير دينه بسرعة ، بل عمد أولاده وبقي وثنيا عدة سنوات ايضاً . وفي هذا ما يدل على تمسكه بدينه وربما يكون كلوفيس قد تردد بين الاريوسية والكاثوليكية . كانت زوجته كاثوليكية وأخته الدوفليد اريوسية في بلاط الاستروغوط . يضاف الى ذلك ان اكثر الملوك والشعوب البربرية المحيطة بالفرنجة كانت تدين بالاريوسية . وفي ذلك كله ما يحمل كلوفيس على اعتناق الاريوسية . ولكن جماعة كلوتيلد عملوا ما في وسعهم لدى كلوفيس ليدن بالكاثوليكية . ثم جرت حرب بينه وبين الآلامان المقيمين في الالزاس واللورين وانتهت باخضاعهم . ويحدثنا غريغوار تور أن اعتناق كلوفيس المسيحية كان منوطاً بهذا النصر . فقد آلى على نفسه ، بعد ان لاقى الشدائد في حربه مع الآلامان ، ان يدين بدين زوجته ان انتصر عليهم . وتم له ذلك وقبلته الكنيسة في حضنها في يوم عيد الميلاد ، وربما كان ذلك عام ٤٩٧ م ، وشايعه في عمله ثلاثة آلاف من رجاله . ومن المحتمل أن تكون ونس المدينة التي تم تعميده فيها . وهناك رواية أخرى تقول في تود . ثم اختلط في المستقبل هذا التعميد لأول ملك مسيحي مع المشع بالزيت . ويحكى أن حمامة أتت من السماء الى القديس ريمي بزجاجة تحوي دهناً معطراً لتبارك ريت المشع . واحتفظ بهذه الزجاجة المقدسة في دير القديس ريمي في رنس كذكرى لهذا الاحتفال الذي سار عليه ملوك فرنسا في المستقبل .

وفي عام ٥٠٠ هاجم كلوفيس ملك بورغونديا ، غونبدود ، واضطره لدفع الجزية . وفي عام ٥٠٧ جهز حملة لقتال ملك الفيزيغوط آلاريك الثاني وقهره . وقتله كلوفيس بيده بالقرب من بواتيه ، وبهذا الظفر وقعت

مقاطعة الاوفيرن واكيتانيا حتى جبال البيرينه بيد كلوفيس . وعند عودته من هذه الحرب تقبل في مدينة تور شارات القنصلية التي بعث اليه بها امبراطور الشرق آناستاز . وهذا دليل على الكايد التي كانت تنصبها بينظله وترمي منها الى تطويق الاوستروغوط لتستتر منهم ايطاليا .

وتوفي كلوفيس عام ٥١١ م بعد أن قضى على ملوك أو زعماء قبائل الفرنجة وتوطدت سلطته على غاليا كلها ، باستثناء بورغونديا التي استقل ملكها ، وبروفانس حيث اوقف تيودوريك ، ملك الاوستروغوط ، الفرنجة وحال دون تقدمهم . ولا شك في أن كلوفيس في ظفره هذا كان مديناً لمساعدة الاكليروس الكاثوليكي . وقد استطاع ان يعرف مدى تأثير الاكليروس الكاثوليكي في نفسية السكان الغالين - الرومانين وحاول قبل أن يعتنق الكاثوليكية أن يكسب ود الاكليروس ، وساعده هذا الاكليروس ليحملة على اعتناق الكاثوليكية . وكان لاعتناقه المسيحية الكاثوليكية تأثير هام ، لأنه كان الملك الكاثوليكي الوحيد ، ويعتبر زعيم الكاثوليك وحاميهم الرسمي .

ومات كلوفيس ولم يجعل من غاليا دولة واحدة ، ولكنه استطاع أن يوحد الشعب الفرنجي بعد أن كان مؤلفاً من عدة قبائل . وترك نوعاً من مملكة تمتد من البيرينه الى ما وراء نهر الراين في جرمانيا حتى الفيزر والدانوب . وعلى هذه المملكة الغالية الجرمانية قامت الوحدات التاريخية في عهد خلفائه من ملوك السلالة الميروفنجية .

خلفاء كلوفيس . - حكم الميروفنجيون ، خلفاء كلوفيس ، حتى عام ٧٥٢ . وينقسم تاريخهم إلى دورين : الاول : (٥١١ - ٦٣٩) وهو دور الفاعلية والحروب . والثاني : (٦٣٩ - ٧٥٢) وهو دور الملوك

الكسالى لأنهم كانوا صورة السلطة الحقيقية التي كانت بيد حجاب القصر ، وفيه انتقل الحكم لسلالة جديدة وهي السلالة الكارولنجية .

أما الدور الأول فقد كان مليئاً بالاضطرابات ، وهذا يرجع إلى أن ملك الفرنجة إذا مات تقاسم أولاده ملكه كالتقسام الإرث ، وفي هذا العرف من القسمة ما يفسح المجال للمنافسات بين الأخوة . ففي عام ٥١١ م ، عندما توفي كلوفيس ، تقاسم أولاده : تييرى وكلودومير وشيلدوبير وكلوتير إرث أبيهم . وكانوا كأبيهم محاررين أشداء ، فتحوا تورنجه في جرمانيا عام ٥٣١ م وغزوا أسبانيا وإيطاليا وعادوا منها بالغانم والأسلاب . وفي عام ٥٥٨ ، وجد كلوتير وحده ملكاً بعد أن مات أخوته وأبنائهم . غير أنه هذا حذو سلفه وقسم إمبراطوريته بين أولاده الأربعة : شاربيير ، سيجوير ، وغونتران ، وشيلبيرك . وماتوا بعد قليل ودخل ورثتهم في منازعات دامية . وظلت وحدة المملكة متأسكة بفضل الكنيسة أي بفضل مجالس الأساقفة . ولعبت الكنيسة على هذا النحو دوراً مشابهاً للدور الذي لعبته الكنيسة في انكلترا حيث أفادت كهمة وصل بين مختلف الممالك السكسونية .

كانت الأجزاء الهامة في المملكة الفرنجية : أوسترازيا أو مملكة الشرق وتضم بلاد الموز والراين وعاصمتها متز ؛ وبودوغونديا وهي بلاد الصون والرون ، وأول ملك لها غونتران وكان يقيم في أورلئان ومن ثم في شالون على الصون ؛ ونوستريا وتمتد من مصب نهر الايسكو حتى مصب نهر اللوار وعاصمتها بالتناوب باريس ، سواسون ، تورنيه . أما المنطقة الواقعة بين اللوار والبيرينه فقد سميت غاسكونيا . وقامت عدة حركات انفصالية في بروتانيا بين الأقوام السلتية التي لم تستطع

العصر الوسيط - ٦

حتمال الأجانب . وقد ظهر الاستياء خاصة بين طبقة النبلاء .

نزاع الملكات . - ومضت بين عام ٥٦١ و ٦١٣ فترة كانت الحرب قائمة في مملكة الفرنجة بسبب المنازعات العائلية . كان سيجوير الأول ملك اوستوازيا (٥٦١ - ٥٧٥) وشيلبيرك الأول ، ملك نوستريا (٥٦١ - ٥٨٤) . وقد تزوج الاخوان بنتي ملك الغزيغوط : تزوج سيجوير برونيو ، وشيلبيرك غالسويند . وكان زواج سيجوير وبرونيو سعيداً موفقاً . ولكن زواج شيلبيرك كان مفجعاً بسبب خطأ خادمة في القصر تسمى فريديغوند ، وكانت امرأة طموحة ، فظيمة ، غادرة ، استطاعت أن تغوي شيلبيرك وتصبح خليلته ، ولم يكفها هذا الوضع بل أرادت أن تتزوجه وتكون ملكة وأوحت بقتل غالسويند لتحل محلها . فاستاء سيجوير وبرونيو من هذه الجريمة النكراء وحاولا الانتقام ، ولكن خبثها لم يصل إلى درجة خبث فريديغوند . ومات سيجوير بدوره قتيلاً وسجنت برونيو ، ونجها ابنها الشاب شيلدوبير بالفرار . واستقبلته الطبقة النبيلة الاوسترازية وحمته ونادت به ملكاً في متز (٥٧٥) . وعندما بلغ سن الرجال حارب اللومباردين ونقل الحرب الى ايطاليا ، ولكنه دحر وغلب على أمره ، غير أن مبادئته هذه قوت سلطة الأمراء الذين كانوا يحتلون شمال ايطاليا واتحدوا آنئذ تحت صولجان أوثاريس . وفي الوقت نفسه حاول غونتران ، ملك بورغونديا (٥٦١ - ٥٩٢) أن يصل بمملكته الى الحدود الطبيعية بانتزاع سبتانيا من الغزيغوط فخاب ظنه . وأدرك الملك أن فقدان الاتحاد بين الفرنجة كان سبباً أساسياً في خيبتها ، فتحالفا وتزوج شيلدوبير ابنة غونتران (٥٨٧) وبهذا الزواج يمكن أن تخضع بورغونديا لسلطته

عند وفاة حميه . ومات شيلدوبير شاباً تاركاً ولدين قاصرين تحت وصاية جدتها برونيهو .

بيد أن برونيهو ما فتئت تأكيد أملاً في إبادة فريديغوند والأخذ بثأر غالويند رسيجوير . ولهذا الغاية تزوجت ميروفه بن شيلبيريك . وليسعد هذا عيني فريديغوند قتل ميروفية ؛ وفاوضت باسم شيلدوبير بتحالف استرازا وبورغونديا ، وكانت هذه المهمة صعبة غير أنها استعملت مواهبها ودبلوماسيتها . وكان عليها للوصول إلى هدفها أن تفصل بورغونديا عن نوستريا ، عندما تكلف غونتران بالوصاية على الابن القاصر لشيلبيريك وفريديغوند . ومات غونتران مقتولاً ، وبعد وفاته حاولت برونيهو توحيد الفرنجة بكسبهم قضيتها . ولكن شيلدوبير ، ليرضي أمه ، هاجم كلوتير الثاني بن فريديغوند ، غير أن جيش نوستريا خذله .

أما أرملة سيجوير البائسة فكانت تتصرف بالسلطة بصفتها وصية على أولاد شيلدوبير القاصرين : تيودوبير ملك اوسترازا (٥٩٥ - ٦١٢) وتييري الثاني ، ملك بورغونديا (٥٩٥ - ٦١٣) وظنت بأنها تملك الأسلحة الضرورية للأخذ بثأرها . ولكنها رأت بعد ذلك أن وضعها لا يطمئن ، وأقل بما كانت تظن لأن البورغونديين يحتقرونها كأجنبية ورفضوا اطاعتها . وماتت فريديغوند عام (٥٩٧) عندما أوشك الحظ أن يهجرها .

وهذه الحرب التي دامت طوال عشرين عاماً وجاشت بين تاج اوسترازا وتاج نوستريا ، قامت من جديد عندما أصبح تيودوبير بسن تسمع له بقيادة الجيش . غير أن كلوتير الثاني غلبه واضطر إلى التنازل عن العرش ومات في السنة التالية ميتة عنيفة ، وكانت عمره خمساً وعشرين عاماً . ولم يعيش

تيري بعده إلا سنة ومات عام ٦١٣ تاركاً أربعة أولاد ، وكان عليهم حسب التقاليد الميروفنجية أن يتقاسموا الامبراطورية . إلا أن برونو ألحق على أن يصبح الابن البكر سيجويير الثاني ملكاً وكان في سن الحادية عشرة . وخافت الطبقة النبيلة من أن تصبح الملكية قوية فلم توافق على هذا التديير ، وحضت كلوتير الثاني على حرب برونو . ولم تعمل الطبقة النبيلة شيئاً للحيلولة دون المؤامرة والغزو . وهكذا وقع أولاد تيري في أيدي أعداء أسرهم ، وحاولت برونو عبثاً أن تلوذ بالفرار . وأخذت وعذبت خلال ثلاثة أيام وعلقت أخيراً بجمل وأخذ يجرها في معسكر كلوتير . ثم ربطت بذنب حصان لم يروض بعد فزق جسدها أشلاء (٦١٣) . وكانت سنها سبعين عاماً واتهمت بأنها كانت سبياً في موت عشرة ملوك . وزاد آخرتها بلاءً أن متهمها وقاضيا وجلادها كان ابن فريديغوند .

ومات كلوتير الثاني بن فريديغوند بعد أن حكم وحيداً دول الفرنجة . وخلفه ابنه داغويير (٦٢٩ - ٦٣٩) . وقد حاول هذا أن يحافظ على النظام وإقامة العدل وتظاهر بالعطف على الكنائس ومنح مساعداته الى كنيسة القديس - دوني ، التي أصبحت مدفناً للملوك فرنسا . وهذا لم يمنعه من أن يكون فظيلاً جشعاً كغيره من الميروفنجيين . وبهوته يتبدى دور الملوك الكسالى .

عصر حجاب القصر . - منذ القرون الأولى في العصر الوسيط استطاع فرنجة كلوفيس وخلفاؤه أن يسيطوا نفوذهم على مساحات واسعة من الأراضي التي يمكن أن تؤلف بمحدودها الجغرافية ونفوسها ، صورة أولى للامبراطورية الكارولنجية . وكانت هذه الملكية تشمل ، في عهد داغويير

أي في العهد الذي بلغت أعظم حد لامتدادها ، جميع غاليا وقسماً من البلاد الرينانية واليانا وتورنجة . وبدأ أثرها يظهر في الفريز وساكس وبافاريا ، وتوحي باحترامها الى بعض جيرانها في البلاد السلافية . ولم تكن الملكية الميروفنجية إلا ملكية « بربرية » قامت على الفتوح ، وكانت تهدف الى زيادة أراضيها التي تألفت منها مملكة الفرنجة .

ويرى الفرنجة أن أنسال كلوفيس لا يكونون أهلاً للحكم إلا طبقاً للعادة المتأصلة فيهم وهي أن البربر يخصصون العرش الى أسرة الزعيم الذي قادم الى النصر ؛ وأن الأراضي التي فتحها بقوة سلاحه تعتبر ملكه الخاص . ولذا فمن الطبيعي أن يكون إرثها مؤمناً الى أولاده الشرعيين ، ومنهم الى ورثتهم المباشرين الذين يقسمونه فيما بينهم الى حصص أو « ممالك » متساوية القيمة ، الا في حالة الوفاة التي تسمح بجمع الإرث بين حين وآخر في مملكة واحدة .

ويبدو في النصف الثاني من القرن السابع ان الاسرة الميروفنجية قد نهكت قواها وأدى انحطاطها بمملكة الفرنجة الى الحراب . وأخذت الأراضي الجرمانية تنفصل عنها . حتى ان غاليا انقلبت عليها وسادت الفوضى في داخل الممالك الجزئية ، وجعلت كل واحدة منها تناوى والأخرى من اوسترازايا ، ونوستريا وبورغونديا ، دون أن تستطيع احداها أن توقف اكيثانيا المنشقة عنها . وحول الملوك الأشباح ، الذين يتوصلون الى العرش بسبب وفاة آبائهم بسن مبكر ، أو يكونون حديثي السن ولم يبلغوا سن الرجال إلا قليلاً ، كان يلتف اناس ذوو أطماع يتعطشون الى الحكم والسلطة ، وأمهرهم كان يجمع حوله انصاره ويعتمد عليهم ويعمل حاجباً في القصر ، بيد أنه كان يتمتع بالسلطة الحقيقية . ويرى في مثل هذه الحال أن

التجزئة السياسية أمر واقع ؛ ولكن الوحدة النظرية مازالت موجودة وما من حاجب من الحجاب الا ويرغب باعادة الوحدة السياسية لصالحه وذلك باستيلائه على مناصب الحجاب في الممالك الأخرى . وليتوصل كل من هؤلاء الحجاب الى حيث اخفق منافسوه كان يسعى في توطيد نفوذه وحصر وظيفته في أسرته . وهذا ماحاوله أجداد الكارولنجيين وشادوا بهذه الطريقة مجد أسرهم .

قدامى الكارولنجيين وأثر شارل ماوتل . - ففي زمن كلوتير الثاني وابنه داغوير كان بين الشيخ ، أحد الكارولنجيين ، يشغل حجابة القصر في أوسترازا حيث لبث عشرين عاماً ما خلا مدة قصيرة عهد فيها بالوظيفة الى صهره السيجيزل بن اسقف متر ، ارنولف . وبعد بين هذا قام ابنه غريموالد ثم حفيده بين الشاب ويسميه المؤرخون المعاصرون بين هيرستال بالنسبة الى مزرعة كاروانجية واقعة بالقرب من مدينة لياج . وقد حكم هؤلاء الثلاثة قصر أوسترازا . وغلب الثاني منهم النوستريين (أهل نوستريا) في تروري ثم في بيرون عام ٦٨٧ وأضاف له حجابة قصر نوستريا وبورغونديا .

وبقي بين الشاب حتى عام ٧١٤ ، أي السنة التي توفي فيها ، السيد الوحيد في الممالك الثلاث . وقد عهد بحكومة القصر في نوستريا وبورغونديا الى ابنه الثاني غريموالد الثاني . وجرت العادة منذ بداية القرن الثامن أن يعتبر حاجب القصر في أوسترازا زعيماً للملكية كلها .

وأوشك النظام أن يسود في العام ٧١٤ لولا مقتل غريموالد الثاني . وكان أحفاد بين الشاب اطفالاً حديثي السن كما هي حال ملك نوستريا الميروفنجي . ففي مثل هذه الحالة كيف يمكن التوفيق بين ظل الملك وظل الحاجب ؟

لقد حاولت أرملة بين بليكترود ان تسوي الأمور بنفسها وتحكم من وراء أحفادها الصغار ، الا ان النوستريين قاوموها وانتخبوا حاجباً منهم . وكادت مملكة الفرنجة أن تقع في الفوضى مرة ثانية لولا أن ابناً طبيعياً لبين الشاب يدعى شارل استطاع أن ينقذ الموقف وينجي ، كما كان المعاصرون يقولون ، المملكة الفرنجية من الانقسام والدمار .

وبعد أن قضى شارل على خصومه حاول ارجاع الأمور الى حيث تركها والده . ولكن مملكة الفرنجة خرجت متصاعدة بعد هذه الأزمة .

فقد بقيت اكيثانيا مستقلة رغم أنه تغلب على دوقها اود .

وكذا المسلمون في اسبانيا ، فبعد أن هاجموا رويسون ولانغدوك السفلى في العام ٧١٩ أو ٧٢٠ تقدموا باتجاه نيم وتولوز ، الا ان اود ، دوق اكيثانيا ، تدخل وسد في طريقهم وادي الغارون . أما في شمال نيم فقد توصلوا عام ٧٢٥ الى وادي الرون والصون أي الى قلب بورغونديا ونهبوا اوتن وعادوا منها بالمغانم والأسلاب دون أن يجرأ أحد على اللحاق بهم . أما في شرق الراين وشماله فقد رفض معظم سكان الأراضي الجرمانية الاعتراف بتفوق الفرنجة ، ولم يستطع شارل أن يهديء الحدود الألمانية والبافارية والسكسونية والفريزية الا بشق الانفس .

غير أن شارل كان قوي الشكيمة ، فقد جابه الأوضاع التي أحاطت به بشجاعة هائلة واستطاع أن يفرض احترامه . ولكن الخطر الحقيقي الذي كان يخشاه هو خطر المسلمين الذي بدأ يتجسم فجأة أمامه . فقد تدفقت فرسان الأمير عبد الرحمن الغافقي من پامبلون على غاسكونيا وبوردو ، ووصلت الى أبواب پواتيه في (تشرين الأول ٧٣٢) وزحفت على تور وفرنسا الشمالية . الا ان اود ، أمير اكيثانيا ، استنجد بشارل

فانجده وانضم الجيشان الى بعضها ، ووقعت الواقعة ، واستشهد الأمير عبد الرحمن ، واضطر جيش العرب المسلمين الى التراجع .

نجت غالباً من خطر المسلمين ولكن دون أن تتخلص منهم فمالوا يرابطون في روسيون ولانغدوك السفلى حيث كانوا يقومون بين حين وآخر بهجمات موفقة وخاصة عام ٧٣٧ على آفنيون والمناطق المجاورة . ولكن شارل دفعهم الى جنوب نربونه وبقوا حيث هم خلال عشرين سنة . ان ظفر شارل في پواتيه اكسبه سلطة ونفوذاً في جميع غالباً . فكان يعمل كسيد مطلق ، يشرع ويقيم العدل ويلعب بالكراسي الاكليركية وأموال الكنائس ويوزعها على أنصاره مقابل خدماتهم له . وكان يتصرف في الأمور كما لو كان يتمتع بسلطة الملك . ولم يكن ليعترض عليه أحد في سلوكه مع الاكليروس ، بل على العكس ، كان الناس يدحونه في اخلاصه للدين ويعتبرونه حامياً له ، لأنه كان يعمل على مساعدة أعمال البر والتقوى ويسمى المبشرين . حتى أن البابا غريغوار الثاني طلب عام ٧٢٢ مساعدته للقدس بونيفاس بعد أن أرسله ليهدي الوثنيين في جرمانيا الى دين المسيح . فأجاب شارل على هذا الطلب بكتاب حرره على نسق الرسائل التي يحورها الملوك لحماية رعاياهم ، وهو بهذا يجعل نفسه حامياً للمبشر الرسولي ويعامله وكأنه أحد أتباعه .

ويعتبر هذا التصرف في ذلك الحين خطراً ، لأن سلطته مازالت موضع شك . ويجب أن ينتظر خمسة عشر عاماً ليصبح حاجب القصر رجلاً يشار له بالبنان في المملكة الميروفنجية وفي الغرب كله . وكيف لا يكون ذلك بعد أن اتجه البابا غريغوار الثالث في سنة ٧٣٩ و ٧٤٠ صوب شارل وطلب نجده ضد اللومباردين بعد أن أخذوا يهددون روما للاستيلاء عليها .

ويبدو أن السدة الرسولية ، منذ عهد جوستينيان ، أصبحت تابعة لسلطة أباطرة الشرق في القسطنطينية . وهؤلاء الأباطرة لا يرون في الباباوات أكثر من اساقفة ، ولذا كانت سياستهم الدينية ، حتى ووضعهم الديني ، غير مطابقين لما عقد الباباوات عليهم من آمال . ومنذ عام ٧٣٢ كان الامبراطور ليون الثالث يطمع في ادارة الكنيسة فأثار الحرب في دوله . وكان يرغب في الرجوع الى عبادة خالية من الأباطيل مع ما تجرّه عبادة الايقونات . وقد وقف في هذا الشأن موقفاً صارماً جعل الشرق حوله شعلة نار ، وهياً الجرح لقطع العلاقات مع بابا روما . ولم يعد هنالك مجال للتفاهم مع حكومة الامبراطور بعد أن تبين للبابا عزمه على إملاء ارادته وتطبيق عقوباته على أموال الكنيسة الرومانية والاعتداء على سلطة البابا بعد أن ضيق ساحة عمله المباشر وأخذ منه بعض أقاليمه مثل كالابرو ، وصقلية ، ودالماسيا ، والبلاد البلقانية ، وألحقها ببطركية القسطنطينية . وفي مثل هذه الأحوال لا يستطيع البابا أن يؤمل بمساعدة الامبراطور ، فضلاً عن أن هذا الأخير كان مثقلاً بالأعمال ومنهمكاً في الدفاع عن ممتلكاته في آسيا وأوربة الشرقية . وقد افزع البابا خطر اللومبارديين بعد أن قطعوا جرمانيا حتى شواطئ الدانوب وهاجموا ايطاليا عام ٥٦٨ . وقد عادت ايطاليا منذ ثلاثين سنة إلى حوزة الامبراطورية الرومانية واصبحت جزءاً منها وتحكمها القسطنطينية . حاول اللومبارديون انتزاع ايطاليا من أيدي أباطرة الشرق ، واحتلوا قسماً عظيماً من ايلات الشمال وبعض ايلات الجنوب ولم يستطيعوا الاستيلاء على روما ورافينه عاصمة أباطرة الغرب القديمة حيث يقيم « حاكم » ايطاليا ونائب الامبراطور الرسمي في شبه الجزيرة .

كان اللومبارديون أريوسيين ثم اعتنقوا الكاثوليكية الرومانية . غير أن

زحفهم تأخر لقلة تفاهمهم مع بعض ومنازعاتهم الداخلية . الا أنهم على كل حال كانوا يؤلفون خطراً على البابوية . لقد كان البابا من الوجهة النظرية اسقفاً من اساقفة الامبراطورية ، غير أنه عملياً حر في أفعاله ، بعيد عن القسطنطينية وعن رافينه وبياكانه ان يعمل كأسقف عام . وقد أفزعه أن يكون اسقفاً الملكة اللومباردية . والحق كرسى البابوية بهذه المملكة يمكن أن يكون بالنسبة للبابا كارثة ، لاسيما وان بطريك القسطنطينية كان ينازعه سلطته الدينية ويعاضده في ذلك الامبراطور ويعتبره مساعداً مباشراً له . ومادامت الحال هكذا فكيف الخلاص من الخطر ؟

هنالك حل ممكن : وهو اللجوء الى الفرنجة . ومنذ ذلك الحين ، ولأول مرة تبدى للعيان ان سلام المسيحية في الغرب الأوروبي لا يمكن ان يكون الا باتحاد شارل الكارولنجي والبابوية . وعن هذا الاتحاد ظهرت نتائج عظيمة ودائمة .

في العام ٧٣٩ كان ملك اللومباردين ليوتبراند يعسكر على مسافة خمسة عشر ميلاً من المدينة الخالدة . ولم يكن الوقت وقت تردد . لذا اتجه البابا غريغوار الثالث نحو حاجب القصر الميروفنجي . وكانت الرسائل التي يوجهها الكرسي الاقدس الى « نائب ملك » الفرنجة تدل دلالة واضحة على رجائه الحار له ومعاملته « كابن مخلص لأمير الحوارين ، لتأخذه الشفقة بالدموع ، التي تذرفها عينا البابا ليل نهار أمام الحراب والدمار ؛ ليفكر أيضاً باستهزاء الناس الذي قد ينال من قوة الفرنجة اذا تأخر أو ابطأ » . يضاف الى ذلك أن نعمة هذه الرسائل والبعثه التي أرسلها البابا غريغوار منذ عام ٧٣٩ الى شارل مارتل لتشرح له واقع الحال ، ان كل ذلك يدل على الأهمية التي يعلقها البلاط البابوي على مساعدة أمير الفرنجة وعلى الجاه الذي يتمتع به .

ولكن شارل رفض التدخل في شؤون إيطاليا لأن تحالفه مع اللومباردين كان ضرورة ماسة لصد الهجوم الاسلامي على شاطي هروفانس . ولقد كانت هذه الحطة التي اتبعها معقولة ، ولكن يجب ألا نرى فيها دليلا على ضعف سلطته ، كما لمح في ذلك غريغوار الثالث في آخر رسائله . وها نحن نراه عام ٧٤١ م يستشير كبار رجاله في تقسيم المملكة بين اولاده ، كما يظهر لنا ذلك من تاريخ فريديغير الذي يوضح بقوله : لقد اعطى شارل إلى ابنه البكر كارلومان : اوسترازا وبلاد الآلامان وتورنجه وإلى ابنه الثاني بيبن : بورغونديا ونوستريا وروفانس . واقطع إلى ابنه الطبيعي غريغون بعض أراضي في نوستريا واسترازا وبورغونديا .

ثم يضيف ان شارل مات في كيرسي في ٢٢ تشرين الأول ٧٤١ ، ودفن كداغوير الملك العظيم في كنيسة القديس - دوني الشهيد . ولم يكن شارل ملكا بعد ولكنه تصرف كما لو كانت الملكية الميراثية غير موجودة . حكم كارلومان وبيبن . - كان وصول اولاد شارل مارتل إلى السلطة مصحوبا بثورة عامة في جميع اطراف الدولة . وسبب هذه الثورة ولا شك فقدان الملك وهذه الثورة تتمثل في :

١ (قيام غريغون في وجه اخويه حسداً منه لهم .

٢ (قيام دوق اكيثانيا هونالد بن اود

٣ (قيام دوق الآلامان ، تيوبالد .

٤ (قيام دوق بافاريا أو ديلون .

غير ان الاخرين قضوا على حركات العصيان هذه بشدة ، واضطروا للاحتفاظ بسلطتهم وتقويتها ان يضربا على هذه الحركات مرارا وتكراراً . وكانت جهود الحاجبين منصرفة إلى تقوية نفوذهما الشخصي واصدار البراءات

باسمها . وقد بلغت بها الجراءة الى القول عن «مملكتها» ، حتى ان كارلومان عام ٧٤٧ كان يعتبر ان السيد المسيح عهد اليه باعباء الحكم .
كان الاخوان يقومون بهام المملكة كما لو كانت المملكة مملكتها .
وقد عملا على تجديدها وبعثها ، ويعقدان الجامع الدينية ويصدران البراءات التي تظهر ارادتها السنية .

ولكن حكم الأخوين لم يدم سوى ست سنوات . فقد تخلى كارلومان عن حياة العصر وعن السلطة الى أخيه ييبن واراد الانتقال الى حياة التأمل ودخل أخيراً راهباً في دير مون كاستينو، وبقي ييبن يحكم وحده .
واول عمل قام به اطلاق سراح أخيه غريغون بعد ان قضى في السجن ست سنوات . وكان ذلك منه رأفة ورحمة بأخيه ، وفي الوقت ذاته سبباً في جر اخطار عظيمة عليه . فما تخلص غريغون من السجن الا وأخذ يثير المقاطعات على أخيه ، ولكن ييبن استطاع أن يرد أخاه ومن ناصره في حركته : وأخيراً ذهب غريغون ولجأ في اكينانيا .

ويبدو أن الظروف كانت تلائم ييبن ليخطو خطوة حاسمة لتسليم العرش . فقد ظهر أنه كان يقيم العدل في القصر الميروفنجي الذي يسميه قصره ، يأخذ مجلسه ويحيط به عظماء المملكة وأساقفتها وأدواؤها ومكونياتها ، وينفذ السلطة التي منحه الله إياها . وأخيراً قرر أن يزيع شبح الملك عنه ، ويحكم ملكاً حقيقياً ، ويبدل الاسرة المالكة .

انقلاب ييبن القصير . — كان ييبن يحكم المملكة وحده ، فأراد أن يستفيد من هذا الظرف المؤاتي . ولمس بعض المعارضة من دروغون ابن أخيه كارلومان ، فرأى أن يسرع قبل فوات الأوان . ولكن قلب الحكم الذي وطد العزم عليه ، قد يثير عليه مقاومات كثيرة ، لأن عمله يعتبر اعتداءً على الحكم

الشرعي ، وقد يجد مناوؤوه ما يبرر قيامهم ويكون حجة ييدم . لذا انجبه بين نحو روما . وقد أوجد رجال الدين هذا الميل عنده لأخذ رأي البابا في المسائل التي تعرض عليه ، ولا سيما فيما يتعلق بأمور الدين . وفي العام (٧٥٠) أرسل ، إلى البابا زكريا ، بوركلارد ، اسقف فرتزبورغ وفولراد أب دير القديس - دوني ليسالاه ما إذا كانت من العدل أن يحمل الأمير لقب الملك وليس له أي سلطة . فأجاب البابا أن من الأفضل أن يكون ملكاً من كانت بيده السلطة الحقيقية .

كان هذا التصريح قوة ليين . وفي تشرين الثاني ٧٥١ جمع كبار الدولة في سواستون وطلب منهم أن ينتخبوه ملكاً على الفرنجة ، ثم أراد أن يخلع على هذا العمل رداء القداسة ، فأوعز إلى الأساقفة الحاضرين ، وعلى رأسهم بونيفاس ، أن يقدسوه بالزيت ، فجدد بذلك طقساً من طقوس اليهود . وهكذا أيدت سلطة بين غير الشرعية بقوة فوق طبيعية . أما الملك شيلديريك الثالث فجرت ناصيته وسجن في دير القديس - برتان .

بين والبابا . - توفي البابا زكريا عام ٧٥٢ فخلفه ايتبن الثاني . واعترض هذا البابا منذ بدء بابويته مصاعب جمّة : منها أن ملك اللومباردين استولف كان يعمل على وحدة إيطاليا تحت سلطته ويهدد روما . ولكنه عقد مع البابا صلحاً لأربعين سنة ، ولم تمض بضعة أشهر على هذا الاتفاق إلا وأراد أن يفرض الجزية على سكان دوقية روما فدل بذلك على أطماعه ورغبته في بسط نفوذه عليها .

أثار هذا العمل بيزنطة ولكن الامبراطور قسطنطين الخامس ، بن ليون الثالث وولي عهده ، لم يكن على استعداد لفرض احترام حقوقه في الغرب . وكان البابا يعلم ذلك ، وما أرسل اليه وفداً ليطالب منه العون

إلا لينقذ الموقف شكلياً . ولما وجد البابا نفسه في خطر محقق بعث
 بين يطلب اليه سراً أن يدعوه للمجيء إلى فرنسا ليشرح له قلقه ،
 ورجاه أن يرسل اليه رجال ثقته . وكان ذلك فطنة من البابا ، لأن
 الطرق كانت موبوءة باللومبارديين وغير آمنة . ومن جهة أخرى كانت
 البابا يريد ، قبل الذهاب إلى بين ، أن يحصل على شيء يدل على مسؤولية
 الملك الفرنسي تجاهه .

كان جواب القسطنطينية إلى البابا ان يطلب إلى ملك اللومبارديين
 الجلاء عن الأراضي التي فتحها . ولم يكن هذا الجواب إلا من قبيل
 الجواب الافلاطوني والاحتجاج الديبلوماسي . أما بين فقد أرسل إلى البابا
 رسولين ليطمئنه عن نوايا سيدهما ويرافقا اثنين الثاين إلى فرنسا حسب
 رغبته . ولم يتردد البابا بين بينظته والفرجة ، بل أخذ الطريق ميمماً
 وجهه شطر بين . وليربح البابا وجدانه مر في الطريق على استولف
 لينقل اليه ما كلفه الامبراطور به ، فكان جوابه اليه الرضى البات ،
 وقد توقعه البابا من قبل .

اجتمع البابا وبين في بونثيون وافتتحت المفاوضات بينهما ، وفيها رجا البابا
 بين رجاء حاراً أن يضع حداً لمزاعم استولف وتهديداته ويؤمن حماية
 حقوق القديس بطرس و « جمهورية الرومانيين » . وتعهد الملك مقسماً
 اليمين أن يسترد من استولف مقاطعة رافينه ويمتلكات الجمهورية .

كان في وعد بين شيء من الغموض . لأن رافينه لم تكن تابعة
 للبابا ، وقد فتحها اللومبارديون على حساب الامبراطورية . واذا كانت
 روما تحكم في الواقع من قبل البابا ، الا انها تعتبر من الوجهة الحقيقية

أرضاً من اراضي الامبراطورية . فاذا أعاد بين الى البابا ما أخذه
ايستولف فمعنى ذلك اغتصاب لحقوق الامبراطور .

وليبر البابا وجهة نظره اصطحب معه من روما وثيقة تدل على
« هبة قسطنطين » للبابا سيلفيستر الاول وخلفائه من بعده . وفيها يمنح
الامبراطور البابا روما وجميع أقاليم ايطاليا والغرب . وكان هذا الصك
منتحلاً الا انه كان يعكس رأياً مقبولاً في روما .

ويضيف قسطنطين الى هذا الامتياز الاول هبة أخرى وهي : قصر
لاتران وكنيسة القديس بطرس ، وحق حمل التاج والشارات الامبراطورية :
الرداء الارجواني والبنزة الحمراء والصولجان وعصا القيادة ، والحق في أن
يكون له فرسان يرافقونه كما يرافقون المجد الامبراطوري ، والسلطة . في
تسمية قادة وقناصل ، وأخيراً السيادة المطلقة في روما وايطاليا والغرب
كله .

هذه هي فحوى النص الشهير في هبة قسطنطين التي يرجع اليها غالباً في
غضون العصر الوسيط ، وتبنى عليها نظريات كثيرة لها صداها الكبير .
ويتضمن هذا النص ايضاً عدة بنود . ويضيف اليها قسطنطين ان احترامه
للقدس بطرس يجعله يقوم بوظيفة السائس حيال البابا سيلفيستر الاول
وذلك بأن يترجل ويقود « مطية البابا » .

وهذه الوثيقة في مجموعها لم تكن في أصل البروتوكول الذي تبني
في بونثيون ، ولكنها تبرر مطالب ايتين الثاني الازضية . وطلب بين
من ايستولف أن يضع حداً لعدائه مع روما . ولكن هذه المحاولة باءت
بالفشل . وعندئذ جمع الملك كبار المملكة في آذار وأعرب عن رأيا

في حرب ايطاليا لصالح البابا فقبول بمقاومة عظيمة . وذلك لأن التحالف بين الفرنجة واللومباردين يعتبر عندهم تقليداً سياسياً ، فضلا عن أن هذه الحملة بعيدة . وليقوي ايستولف المعارضة حمل كارلومان على مغادرة دير مون كاسينو ليذهب الى فرانسيا ويجول دون هذه الحملة . ولقد كانت هذه المحاولة دون جدوى ، لأن كارلومان القي عليه القبض ووضع في دير فينا (في فرنسا) وبها توفي . واضطر أولاده أن يعيشوا رهبا .

وعقد مجلس آخر في كيرسي على الواز . وفي هذه المرة استطاع ان يبين أن يحمل كبار المملكة على الأخذ بفكرته والسير عليها . وأوضح تعهداته في بونثيون حيث تعهد بصك ، باسمه وباسم أولاده ، الى البابا بأن يمنحه رافينه ويؤمن له امتلاك هذه الارض مع دوقية روما

وكان بين يعمل بدوافع كثيرة مختلفة . فقد ساءه من ايستولف أن كان على استعداد لاستقبال غريفون ، لولا أن دامت المنية هذا وقتل في إحدى ممرات الالب ، وكان يعول اذا رجع ظافراً ، أن يحصل على تأييد من البابا لوضوله الى السلطة . وقد تم لبين ما أراد في ٢٨ تموز ٧٥٣ ، فقد مشح البابا بالزيت المقدس بين وأولاده وباركهم جميعا كما بارك الملكة حتى انه هدد الفرنجة بالحرمين من جماعة المؤمنين اذا انتخبوا ملكاً عليهم من غير أسرة بين وأنساله .

عزز هذا التقديس أواصر التحالف بين بين وأسرته وبين البابا فقد أوجد بينهم نوعاً من قرابة روحية ، ودل على أن الله والحواري بطرس يؤيدان بين في مملكته ، ويحميانه من كل محاولة يمكن أن تحدث عن طريق الملوك الشرعيين أو من أحد أبناء كارلومات . وفي الوقت نفسه اعلن البابا أن بين وأولاده حماة روما . وهذا المنصب يخول

ملك فرنسا الدفاع عن روما وإيطاليا الرومانية ، والاعتراف له بالحماية . وهذا العمل اغتصاب جديد لحقوق الامبراطور . وخاف بين تعدد الحوادث فلم يحمل ابداً لقب القائد أو الحامي .

حاول بين مرتين لدى استولف ، مع رسالة من البابا ، أن يجلو عن الاراضي التي هي من حصة البابا ، الا أن جهوده بقيت دون نتيجة . وعندها عبر بين جبال الالب وحاصر استولف في بافيا ، فاسترحم منه الصلح ، واضطر أن يعيد الى البابا رافينه مع بقية أراضي المقاطعة التي فتحها مع الاعتراف بالسيادة الفرنجية . ولكن يزنطة لم تتخل عن هذه الاراضي التي اصبح يتصرف بها بين بموجب حق الفتح . وقد علمت بذلك مؤخراً فأرسلت الى بين وفداً تطلب اليه التخلي عن رافينه وأمارتها فرفض الملك رفضاً باتاً .

ولكن استولف عاود الكرة ولم يترك أي أرض للبابا ما خلا أرض نارني ، ثم تجراً واستردها منه ، واضطر بين مرة ثانية أن يعبر الالب ويحاصر استولف في بافيا ويجبره على الصلح . ولذا وجب تجديد خضوعه للملك الفرنجة مع دفع الجزية والعدول عن كل فتوحاته في امارة رافينه ونارني ، والتخلي أيضاً عن كوما كشيو . ونظم بين كل ذلك ومنحه الى القديس بطرس براءة مكتوبة ، وكلف الالب فولراد ان يتملك الاراضي ويسلم مفاتيحها حسب الاصول التقليدية الى روما وخليفة القديس بطرس .

وهكذا اصبح البابا سيداً لدوقية روما وأمارة رافينه ولا شك في أنه يعترف نظرياً بسيادة الامبراطور عليه ، ولكن هذه السيادة لم تجد العصر الوسيط - ٧

فرصة مؤاتية لتظهر فيها . وفي الواقع بقيت اراضي البابامستقلة ولكنها لم تجد شكلا حقوقياً معيناً . ولذا يمكن اعتبار الجمهورية الرومانية دولة في حالة التشكل ، والسلطة الوحيدة التي تسيطر فيها هي سلطة بين الذي يراقب الى حد ما سياستها الداخلية .

فتح سبتانيا . - كان العالم الاسلامي في منتصف القرن الثامن في حالة قلق واضطرابات كثيرة أضعفت مقاومته في بلاد الغرب : فمن ذلك قيام الحوارج في افريقية الشمالية عام ٧٤٠ وعصيان البربر في اسبانيا ، والنزاع بين العرب انفسهم من قيسيين وكليبيين في اسبانيا ، وحصول المجاعات التي أبادت البربر في شمال شبه الجزيرة الايبيرية ، وانتقال الحكم الى ايدي بني العباس في بغداد عام ٧٥٠ ، وفتح اسبانيا عام (٧٥٥-٧٥٦) على يد عبد الرحمن الداخل الذي أسس امارته المستقلة في قرطبة وجعلها عاصمته .

وساعدت هذه الظروف بين على فتح سبتانيا التي رغب فيها شارل مارتل من قبل . واستطاع أن يفتح نيم وماغليون وآغد وبيزيه وما جاورها . الا ان ناربونه قاومت بشدة ولم تسقط بيده الا عام ٧٥٩ بعد أن قتلت الحامية العربية وأمن السكان على أنفسهم ان يعيشوا حسب القوانين الفيزيغوطية .

فتح اكيثانيا . - وكان بين كوالده يرغب في اخضاع اكيثانيا ، لسلطته المباشرة ، والتمس حجة لذلك ، وهي أن دوق اكيثانيا ، عندما التجأ اليه غريغون ، أخذ يضع يده على الكنائس الفرنجية في اكيثانيا ويفرق الامتيازات الملكية الممنوحة لها . وجرت بينه وبين بين عدة مواقع ، وطلب دوق اكيثانيا المفاوضة فأخفق ، وأخيرا وقع أسيرا بيد بين فقتله . وخضعت اكيثانيا الى الحق العام في المملكة .

علاقته مع الكنيسة . - وحاول بين أن يتبع سياسة التنظيم التي بدأ بها بونيفاس في جرمانيا فسعى في تحسين الوضع المادي لكل كنيسة باعطائها المنح . وأخيراً فرض ضريبة العشر ليعوض على الكنائس بعض أموالها المفقودة .

علاقته مع الشرق . - ان تدخل بين في ايطاليا جعله في علاقة دائمة مع بيزنطة . وجرى بينها تبادل الوفود والهدايا ، ولكن هذه الصداقة لم تعمر طويلاً، لأن الامبراطور أراد أن يزوج ابنه من جيزيل بنت بين فلم يقبل . وكذا اراد الوفد البيزنطي أن يوقع الحلاف بين البابا وبين في مجمع جانتي بشأن عبادة الصور فلم يفلح .

وعندما علم بين بدنو وفاته قسم كآبيه مملكته بين ولديه :
فأخذ كارلومان : المناطق الشرقية : بروفانس . سبتانيا ، بورغونديا
الانزاس ، آليمانيا .

وشاول : اوستوازيا ونوستويا . وقسمت اكيثانيا بين الاخوين .
وكان هذا التقسيم حداً نهائياً لوحدة الملكية .

الفصل الخامس

الحضارة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

لقد قوضت غارات القرن الخامس أشكال الماضي السياسية ، وبدلت تركيب الشعوب العرقي . ولكنها لم تؤثر في الحياة الاقتصادية الاقليلا .

الزراعة . - لقد كانت الارض ، كما في عهد الامبراطورية ، مصدراً أساسياً للثروة . فقد كانت غاليا وجرمانيا والبلاد المجاورة لهما تعيش على الزراعة وحدها تقريباً . وكانت الملكية الكبرى سائدة ، بيد أنها لم تكن في غاليا كما في ايطاليا وافريقية . لأن الارستقراطية الغالية - الفرنجية كانت مملك عدة دومينات مبنوثة في نواحي المملكة وتتراوح سعة كل واحد منها وسطيا بين ١٢٠٠ و ١٣٠٠ هكتار .

وكان الدومين مقسماً الى قسمين رئيسيين : قسم خاص بالامير أي المالك وهو اقل قسم من الاراضي الزراعية ويضم كروماً ومراعي وغابات ومروجاً ، والقسم الثاني يتألف من قطع صغيرة من الاراضي تسمى كل واحدة منها « مانس » وهي تؤلف وحدة الاستغلال ، وتكفي من حيث المبدأ ، لاعاشة فلاح وأسرته . ويحق للمتصرف بقطعة الارض هذه التمتع بالغابة والمرج الخاصين بأراضي الامير .

وكان المتصرفون بالاراضي عادة ارقاء اقيموا نهائياً على الحصة المخصصة لهم ، وخاصة مزارعين صغاراً . وقد اعتبرهم القانون أحراراً ولكنهم كانوا في الواقع اقناناً وعبداً للارض .

وقد لوحظ تقسيم الدومين الى قسمين منذ القرن الثالث على الأقل . وكان يشجعه نظام الضريبة في ظل الامبراطورية السفلى . ويقوم استغلال الدومين على الأرقاء الريفيين . غير أن عدد هؤلاء كان آخذاً بالتناقص . وعمل القنانة ضئيل المردود ونكبة للملاك . أما المزارعة فقد زالت ، أو لا توجد الا بشكل حالات فردية متفرقة في غالبا ، لأن المزارع على الطريقة الرومانية لم يكن رأسمالياً صغيراً فحسب ، بل رجلاً مسكيناً فقيراً معوزاً . ولما لم يكن باستطاعته تأدية بدل المزارعة بانتظام مالاً سائلاً ، فقد كان عرضة للطرد ، اذا لم يلذ بالفرار تلقائياً . وقد تدخل تشريع الامبراطور قسطنطين وخلفائه وجعل من المزارع الحر معمرأ خاضعاً لظروفه الاجتماعية . وبالمقابل كان يحق له التمتع الوريثي بقطعة أرضه ، المانس ، وثبات اتاواته .

وهذه الاتاوات ضريبة تدفع مالاً وخاصة من ثمار الارض مع نقلها . وتدل النصوص على أن وارد المالك من المانس قليل ولكنه أكيد . ومن جهة أخرى ، كان لهذا النظام فائدة تتجاوز الفائدة الناجمة عن المانس وهي فائدة اليد العاملة الوفيرة والدائمة لاستثمار « احتياطي » الامير . وتتأمن الزراعة بالسخرة ، وقيام المتصرفين بالاراضي بالأعمال الزراعية بالتناوب . وعلى الأقنان أن يخصصوا لاحتياطي الأمير نصف الاسبوع (٣ على ٦ أيام عمل) وعلى المعمرين أقل من ذلك . وبفضل هذا النظام كان المالك آمناً على وجود سواعد تخدمه ، والسكادح الريفي على

عدم طرده من مزرعته ؛ والريق نفسه وجد فيه مأوى وقـدرة على العمل لحسابه الخاص نصف الاسبوع .

وكان استغلال الارض سيئاً ، كما في القديم ، بسبب نقص العلم الزراعي . وكانت الزراعة نامية في كل مكان ، وخاصة زراعة الكروم . ثم اعتادت البلاد الجرمانية على زراعة الفواكه والحضار . وكان الدومين منطوياً على نفسه ، كما في الماضي ، ويقتصر على انتاج ما هو ضروري لتغذية سكانه ومسكنهم وتدفنتهم وإضاءتهم ولباسهم . وكان له صانعو عرباته وحدادوه ونجاروه وصباغوه وخبازوه . وكان نساء الاقنان يجتمعن في المشاغل وينسجن القنب والكتان ويغزلن الصوف . ويضم الدومين الطاحونة والمعصرة ومعمل الجعة وهي ملك للامير واستعمالها اجباري وغير مجاني للسكان . ويبدو أن الطاحونة المائية المعروفة في الامبراطورية الرومانية ، والقليلة الاستعمال في الأرياف ، قد تعممت في العصر الميروفنجي وكانت تعتبر تقدماً تقنياً ، وفي الوفت نفسه حسنة من حسنات البشرية بعد أن وفرت على الارقاء العذاب الذي يلاقونه من استعمال طاحونة اليد .

وكان الدومين مستقلاً من الناحية الروحية ، له كنيسته الخاصة ، وقد بناها الامير لنفسه ولعائلته في العصر الروماني ثم تنازل عنها للمتصرفين بالأراضي ، وخصص لها وارداً يصرف لاعاشة الكاهن القائم على خدمتها وخدمة المؤمنين .

وكان مسكن الأمير بعيداً عن أكواخ الفلاحين ، كما هي الحال في ظل الامبراطورية الرومانية . ويتألف من عدة أبنية كبرى تتقدمها أبواب معقدة ، وتضم اجنحة صيفية وشتوية . ولم يكن القصر ، باستثناء بعض الحالات ، حصناً بعد .

ولا يظن ان الملكية الصغيرة زالت من الوجود ، بل ان النصوص ، ولو كانت نادرة ، تؤيد العكس . فقد وجدت ألوف من المنازل الصغيرة التي تؤلف قرية من القرى ، ولكن لم يكن لهذه القرى أي مقوم أو نظام بلدي . وكانت تضم سكاناً من مختلف الأعمال والأشغال : تجاراً وصناعاً ، وخاصة أناساً يعيشون على الزراعة دون أن يكونوا أقناناً أو معمرين . وفي العصر الميروفنجي زالت الملكيات الصغيرة بسبب جشع الملاكين الكبار واعتدائهم ودخلت في الدومينات الخاصة .

هذا وتدل قوانين البرابرة على ان المجتمع كان ريفياً كاملاً ، والملكية العقارية ظاهرة أساسية ، والحياة قروية ، وسعة الدومين تختلف حسب الأقوام . ويسمى احتياطي الأمير بأسماء مختلفة ، وكذلك المتصرفون بالأراضي . ودار السيد مبنية بالحشب . والحياة في الشمال اقل زينة منها في الوسط والجنوب ، ولكن الأساس واحد . وفي القرن السادس كسبت الارستقراطية الفرنجية ، ان لم يكن سواد الشعب ، اراضي في نوستريا واكتانيا وبورغونديا وبروفانس ، ولم يختلف نوع حياتها عن حياة « الشيوخ » . كذلك لم يختلف المزارعون من العرق الجرمانى عن الأقتان والمعمرين الغالين — الرومانين .

التجارة . — ان معلوماتنا عن التجارة قليلة وضئيلة . وقد أخذت عن الأخبار المتناثرة في آثار غريغوار تور وفي الدبومات الملكية التي تعفي المؤسسات الكنسية من دفع الرسوم في بعض الاماكن التي يتأجر فيها ، وبعض الأعمال الحقوقية التي يخول المليك فيها الاستفادة حق النقل والسكن والتفقات بطريق المصادرة . وبالرغم من فقر هذه المعلومات فهي تكفي لتدلنا على أن التجارة عادت في القرن السادس بعد أن هدأت موجة الغارات ، الى ما كانت عليه في زمن الامبراطورية .

ويبدو أن التجارة القديمة والوسيلة تقع على عاتق طبقة اجتماعية معينة ، طبقة التجار ، وهؤلاء يقومون بصفة فردية وخاصة تعاونية بالبحث في البلاد البعيدة عن السلع الخارجية أو بيع منتجات بلادهم . ومن الملاحظ أن الاخطار التي تواجه البضائع وتهدد الحريات وحياة التجار في أوقات الاضطراب توضح ضرورة اقامة رابطة فسيما بينهم وضرورة تجمعهم . فقد كانوا يسافرون قوافل مع قوى مسلحة تواكبها . ويظهر التجمع في الأشخاص والبضائع . ففي كل مدينة يوجد حي أو على الأقل ساحة كبرى مغلقة شبيهة بالبازار أو الفندق في البلاد الاسلامية وتباع فيها البضائع . أما تجار المفرق أو الباعة ، وهم طبقة قليلة ومحتقرة في نظر الأقوياء ، فينتشرون في المدينة ويتجمعون في الشوارع حسب اختصاص تجارتهم الصغيرة .

وكان التاجر في الغالب أجنبياً وبقوة الأشياء . فلتجارة الحبوب والتمر والملح والأخشاب يمكن أن يكون التاجر من غالبا . وعندما يراد التجارة مع البلاد البعيدة كاسبانيا وإيطاليا والقسطنطينية وسورية ومصر ، دون الكلام عن البلاد البربرية ، فمن الضروري أن تكون التجارة بأيدي أناس يعرفون الطرق واللغات الأجنبية ، ولهم مستودعات وعلاقات في الموانئ وأماكن لنقل التجارة الخارجية . فلا عجب اذا وجد في المدن التجارية في غالبا مثلاً ، مثل باريس وارلثان وكليومون ومرسيليا وبوردو ، عدد من اليهود والسوريين والاغريق . ولقد حل السوربون في وقت مبكر محل الإيطاليين في تجارة البحر المتوسط . على أن ضرورة التجارة كانت تقتضي من بعض التجار الاغنياء الاقامه والبقاء في البلاد التي يتاجر بها . ولتذكر ، على سبيل المثال ، أن الملك غونتران عندما دخل اورلثان ، في ٥ تموز عام ٥٨٥ ، هلك له الجمهور وهتف بحياته

حاملًا الأعلام والرايات ، وكان يتغنى بمديحه « في لغة السوريين ، ولغة اللاتين ولغة اليهود » . ولم يكن هذا الجمهور مؤلفاً فقط من كبار التجار العائدين ، بل من كبار التجار المقيمين أيضاً ، وكان بين هؤلاء التجار السوريين أناس اشتهروا بتقوam وصلاحهم . وقد حصل أحدهم ، عزيز ، من الملك في العام ٥٩١ على كرسي أسقفية باريس . غير أن السنة السوء زعمت أنه توصل الى هذا الكرسي بفضل ثروته وغناه .

وكان اليهود كثرة منتشرة في كل مكان ، ويتناول نشاطهم شتى الأعمال . وقد أرادت المجامع الدينية أن يحرم الملوك عليهم جباية الرسوم القضائية واستخدام خدام مسيحيين . وظلت هذه المطالبات مدة طويلة دون نتيجة . وفي العام ٥٨٠ أو ٥٨٢ قام الملك شيلبيريك بتعميد اليهود بالقوة في مملكته ، ثم استؤنف الاضطهاد في عهد داغوير ولكنه لم يبلغ درجة الفظاعة التي وصل اليها ملوك الفيزيغوط في اسبانيا .

وأخيراً كان يرى التجار الاغريق في مارسيليا وآرل وناربونه . اما النقل فكان يتم على الطرق الرومانية . وكان الملوك يتعهدونها بالعناية لحاجات الادارة والتجارة ويجبرون الرسوم على المركبات وحموله الحيوانات ، كما كانوا يقيدون من أعمال السخرة في هذه الطرق . وكانت البضائع تحمل على مركبات بدولايين أو ثلاثة دواب أو على ظهور الحيوانات أو البشر . وكان النقل على هذه الطرق متعباً ومكلفاً وخطراً . ولذا فضلت الطرق السيارة عليها كأنهار الرون والصون والوار والسين والموز والراين مع رافده الموزيل . وكانت العناية بالمواقيع وجسور الأنهار وعدواتها تؤمن بواردات الرسوم .

ومن أشهر الموانئ التي كانت تقوم بالتجارة : في الشمال روان

وايتابل التي حلت محل بولون بعد أن خربها الساكسونيون في القرن الخامس . وكانت هذه الموانئ تتاجر مع بريطانيا العظمى . وفي آخر العصر الميروفنجي نهض ميناء دوروشند على الراين الأدنى ، على حدود بلاد الفرنجة والفريزون . وعلى المحيط الاطلسي كانت ثانت تتاجر مع اسبانيا واحياناً ايرلندا ، وبوردو مع اسبانيا أيضاً .

وكان البحر المتوسط ، كما في العصر القديم ، مسرح التجارة العالمية وأشهر موانئه : نابونه ، آدل ، مارسيليا . وعن طريق هذه الموانئ كان البلاط الملكي والطبقة الارستقراطية وغيرها من الطبقات التي تحب البذخ والظهور تتمون بالحريز والعمود والحجر والتوابل (القرنفل والقرفة) والبلح والفسق التي يؤتى بها من بلاد الشرق وبخاصة من القسطنطينية التي أصبحت موطناً للعالم الأوربي . ومن مصر كان يؤتى بالبهردي لصنع الكتب والديبومات والمراسيم الملكية والصكوك الخاصة .

وتقوم التجارة البرية على الطرق الذاهبة من غاليا الى ايطاليا وهي: جبل جونيفر ، القديس برنار الكبير ، القديس برنار الصغير ، سبتيمر . وطريق الدانوب والقسطنطينية وآسيا الصغرى . غير أن هذا الطريق كان خطراً خلال قرون ثلاثة بمجيء الهون في القرن الخامس ، والآفار في القرن السادس ، والسلاف والبلغار في القرن السابع . وإذا استثنينا ادوار الطمانينة والهدوء فقلما كانت القوافل أو جموع الحجاج الذاهبة من غاليا أو جرمانيا تصل الى أهدافها .

ومع الفتح الاسلامي خفت التجارة البحرية بين بلاد الغرب والشرق . وفي بعض الاوقات توقفت . ولم يظهر الانحطاط مباشرة . ولم يكن الخلفاء الامويون مسؤولين عنه ، وذلك لأنهم تركوا الحياة الاقتصادية والنظام الضريبي البيزنطيين على حالهما في سورية ومصر ، ولم يفكروا

بمضايقه التجارة الدولية لأنها كانت مصدراً من مصادر وارداتهم . غير أن فتح اسبانيا على يد طارق بن زياد وموسى بن نصير عام ٧١١ أبعد الفرنجة عن البحر المتوسط وجعل المسلمين سادة الحوض الغربي منه . وقد انقلب توقف التجارة المتوسطية مع تفتت الدولة الفرنجية ونهاية حكم الميروفنجيين (٧١١ - ٧٢١) .

العملة . - كان نظام النقد الميروفنجي امتداداً للماضي . وكانت غالبا تعيش في الظاهر ، في ظل نظام العيار الذهبي . وبهذا المعدل كانت تدفع الضرائب . ووحدة النقد هي السو الذهبية التي تزن ٣٢٧ غ .

والقطع الذهبية ذات الوزن الجيد هي المضروبة بصورة الامبراطور البيزنطي ، واذا كانت غير ذلك لا تقبل في عالم تجارة البحر المتوسط . وكانت هذه العملة تضرب في مشاغل وادي نهر الرون . وهذا يدل على أن باقي غالبا وجرمانيا كان يتاجر قليلا أو لا يتاجر مع البحر الأبيض المتوسط . وهذه العملة الامبراطورية المستعارة توقفت في بداية القرن السابع .

وأول ملك فرنجي تجرأ وضرب النقد الذهبي بصورته على مرأى من استياء بيزنطة ، هو تير . بيد أن هذا الضرب كان خاصاً بإيطاليا التي احتلها خلال فترة من الزمن ، ثم قلده ابتداء من القرن السادس بقية الميروفنجيين . وفي بروفانس ومارسيليا كان السك الوحيد للعملة الذهبية سك ملوك الفرنجة وخاصة ملوك اوسترازيا من كلوتير الثاني (٦١٣ - ٦٢٩) الى شيلدوبير الثالث (٦٩٥ - ٧١١) ثم توقف . ومع ذلك فإن العاديات ، أي الخلفات النقدية التي تركها سك العملة الملكية ، كانت نادرة . وهذا ما يجعلنا نعتقد أن هذا النقد كان حادثاً عارضاً .

ووجد أيضاً سك نقود اسقفية وديرية ، ولكنه كان مبعثراً ولم يكن موفوراً بغزارة . غير أن ضاربي النقد من الأفراد تركوا نماذج متعددة ومتنوعة عن نشاطهم . ومن المهم أن نذكر أنها ظهرت لأول مرة في وادي نهر الرون في النصف الثاني من القرن السادس . ومن هذه المنطقة نقل الضاربون خبرتهم إلى سائر بلاد غاليا .

غير أن ضرب العملة الذهبية قد توقف في بداية القرن الثامن . وهذا التوقف يتفق مع خراب تجارة البحر المتوسط ، لأن الشرق سحب ذهب غاليا دون مقابل ، إذ لم يكن لديها بضاعة لتبيعها له أو أنها كانت في حال لا يمكنها من إرسال شيء له . ولذا كانت العملة الفضية العملة الوحيدة التي تدخل في الحسابات حتى حكم الملك القديس لويس .

هذا بالإضافة إلى أن ندرة العملة دعت إلى إعادة ضربها من جديد وتخفيض وزنها . وهذه الندرة أدت ، على الأقل في أوسترايا ، إلى دفع الديون عينا فتدفع بالحيوانات قياساً إلى وحدة النقود الذهبية المعتبرة .

الصناعة . — لقد كان الدومين الأميري والمدينة الحرة يعيشان من منتجات أرضها ويصنعان معظم أدواتها وملابسها وكل ما يحتاجان إليه . وكانت ممارسة هذه الصناعة الريفية عادة دائمة . وكذلك الأديرة كانت تكتفي بنفسها . ويبدو أن أجمل الانسجة كانت تخرج من أديرة النساء . والنتيجة الحتمية لذلك هي أن الريف لم يكن بحاجة لصناعة ، ولم يكن في المدينة صناعة ، ولم يكن فيها ، على ما يبدو ، هذا التخصص الذي اشتهرت به المدن من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر وهو صناعة الأقمشة .

والصناعة الوحيدة التي عاشت في المدن الفقيرة هي الصياغة وعمل المينا وصنع الأسلحة . لأن البلاط ورجال الطبقة الارستقراطية يحبون الجواهر والألبسة الفاخرة والأسلحة المتينة والجملية . وكان من الضروري أن يوجد في

بعض المدن ، ان لم يكن في كلها ، صياغ وصناع دروع ومطرزون .
غير أن الطلبات المتباعدة التي هي من هذا النوع كانت محدودة ولا تكفي
لأعاشة هؤلاء الصناع المهرة .

غير أن الصناعة وجدت أحسن زبائنها في الكنيسة . فقد بنيت في
ذلك العصر كاتدرائيات وكنائس كثيرة . وهذه الابنية كانت بحاجة
الى جهاز دائم من البنائين والتجارين والزجاجين والنحاتين . وكانت هذه
الكنائس مزدانة من الداخل بالرسوم والفسيفساء والرخام والجلال . وهذا
العمل للأسقف خاصة يوضح كيف أن صناع المدن وقعوا تحت سلطته
الزمنية والروحية .

المدن . — إذا استثنينا المنطقة الريمانية وبلجيكا وجدنا المدن القديمة
على حالها حية باقية . ويجب أن نشير إلى أن المدن التي تهدمت مثل
ماينس وكولونيا نهضت في القرن السادس . ولكن لم تظهر أي مدينة
هامة في العصر الفرنجي . وفي الحقيقة كانت هذه المدن تختلف تماما عن المدن
المعاصرة في العالم الإسلامي ، مثل بغداد وقرطبة والقاهرة ومراكش .
لقد كانت مدن هذا العصر صغيرة ومثلها المدن التي يسكنها الملوك مثل
باريس ، اورلئان ، شالون على الصون ، سواسون ، رنس ، متز ، ولم
تزد مساحتها خلال مدة كبيرة امتدت من آخر القرن الثالث الى آخر
القرن الحادي عشر . وكان سكان الضاحية التي تحيط بالمدينة سكان الاديرة
لان المدينة صغيرة ولا يمكنها استيعابهم .

وكان يغلب على هذه المدن الطابع الريفي . ففيها توجد حدائق
وكروم ، وفي شوارعها تطوف أسراب الخنازير والبقر والطيور . ولما
كانت هذه المدن لا تستطيع أن تتسع خارج الاسوار ، لذا كان الريف
يدخل اليها ويقيم فيها ؛ فضلاً عن أن هذه المدن كانت متكاثفة على نفسها

وتلتصق منازلها ببعض ، وسكانها قلائل ، ولا يتجاوز نفوسها من ٨ الى ٩٠٠٠ نسمة . وأكثر المدن يتراوح نفوسها بين ٢ و ٥٠٠٠ نسمة . وكان جوها خائفاً ومنظرها حزينا ، ولذا كان الملوك يفضلون أن يعيشوا في الريف في دوميهم . ولم يكن لهذه المدن مجلس بلدي ، وزوال هذا المجلس كان مرتبطاً بالحياة الاقتصادية التي جعلت منها جسداً بلا روح ، حتى أن الكونت جعلها مقراً عادياً له وأخذ يديرها كما يدير الريف بصورة استبدادية . غير أن شخصية أخرى أخذت تحل محل الكونت وهي الاسقف لان سلطته الروحية واحسانه وثروته جعلت منه مواطناً أصلياً في المدينة ، حتى أن المدينة في آخر العصر الميروفنجي أصبحت بكاملها بين يديه ، ولم يبق للكونت نفسه مكان لسكناه . وإذا صرفنا النظر عن المجتمع الموسر ، وهو بالضرورة محدود ويضم عدداً قليلاً من التجار وأكثرهم أجانب ، وجدنا سكان المدينة صناعاً فقراء يعيشون على توصيات الكونت وأكثر من ذلك الاسقف ، واكبر كمين وفلاحين . وفي آخر العصر الفرنجي فقد هذا العالم الصغير حريته لان سكان القرن العاشر والحادي عشر أصبحوا أقتاناً متعلقين بالارض .

ولا شك في أن هذه الظواهرات خطيرة على الحضارة لانها تؤدي الى ركود المدن ، ولان الفن والعلم والآداب لا تعيش إلا في المدن وانحطاطها يؤدي إلى تأخر الحضارة .

وصفة القول ان الحياة الاقتصادية في العصر الميروفنجي كانت تسير على خطا الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الرومانية الراحلة ، وان الاقتصاد كان في تدهور مستمر منذ عصور مديده ، والعصر الميروفنجي نفسه يتم انحطاطاً سابقاً . فامتداد المدن الضعيف ، وزوال الحياة المدنية ، وفقدان العاصمة أو المدن الجديدة لتدل جميعاً على أن الحياة الاقتصادية لم

تنهض من القرن السادس الى القرن الثامن . واذا قلنا بوجود بحارة دولية وصناعة وطبقة تجار ممتنين فما هو حجم المبادلات ؟ نجهله . ومن عجب أن يقال أن مارسيليا مركز اقتصادي منتعش بصورة خاصة ، وان ملاحظتها النشطة تربطها بالقسطنطينية وسورية وافريقية ومصر واسبانيا وايطاليا ، بينما ظلت مدينة صغيرة يبلغ محيطها ٢٥٠٠ متر على الاكثر، وسكانها يتراوحون من ٨ الى ٩٠٠٠ نسمة . ومن المحتمل جداً أن تقتصر هذه « الملاحة النشطة جداً » في كل سنة على ارسال اسطول صغير يتألف من هذه السفن القديمة القليلة المحمول . أما تجارة البذخ فهي بالضرورة متباعدة ولا تمثل وزناً ضخماً من السلع . وفي الحقيقة ان الرأسمال كان في بدء تكونه ، والتجارة الميروفنجية لا تدل على النظام الرأسمالي الا من بعيد .

الفن

البناء . - لقد كثر البناء في العصر الميروفنجي وخاصة بناء الكنائس ولسوء الحظ لم يصلنا منها أي بناء كامل سليم . ولم يحافظ تقريباً الا على الكنائس التي انشئت تحت الارض وعلى مدافنها . وبالمقابل عرفت أبنية تعميد وأشهرها بيت تعميد القديس يوحنا في بواتيه . واذا اضيفت هذه الاطلال الكنسية الى الاوصاف المبهمة لتأكدنا أن الكنائس في غالباً حافظت دوماً على الخطط البازيليكي . وينقسم داخل هذه الكنائس الى ثلاثة أقسام : القسم الاوسط وهو الاعرض والاكثر ارتفاعاً من القسمين الجانبيين . والبناء مغطى بالحشب ، ويتلقى النور من النوافذ العليا في جدران القسم الاوسط . والداخل مزين بالفسيفساء والصور ، والورق الملصوق على الجدران والجلال. ولم تكن هذه الابنية كبيرة جداً .

ان تواضع ابعاد هذه الكنائس يوضح لنا ضعف كثافة السكان المدنيين . وعندما نهضت الحياة الاقتصادية في القرن الحادي عشر وازداد سكان الحواضر المدنية ، قرضت هذه المباني الجارية مع الكنائس التي التهمت النيران او دمرها العدو ، وبنت من جديد لكن متناسبة مع الحاجات الجديدة ورغبات السكان .

أما الكنائس ذات القبة المركزية (الوسطى) فقد نشأت في الشرق ولم تصل غالبا ، وكذلك كان استعمال الآزج الحجري مجھولاً أيضاً . أما البناء المدني فلم يبق منه شيء . ومن المحتمل أن تكون القصور التي شيدت في الشمال في الاراضي الملكية قد بنيت من خشب .

التصوير والنحت . - ولم يبق شيء من التصوير الذي كان يزين الكنائس وفيلات الملاكين . وسقط فن التشكيل سقوطاً ذريعاً وسريعاً منذ عهد قسطنطين . ولم يعد أحد قادر على صنع تمثال أو لوح منحوت . وما مضى القرن الخامس في الغرب ، وحتى في القسم الشرقي من الامبراطورية ، الا وكان الفنانون غير قادرين على نسخ الجسم البشري بشكل منحوت ، يضاف الى ذلك أن نحت الحيوانات كان فيه من عدم الخدق وقلة الخبرة شيء كثير . وكان يرسم على تيجان الاعمدة تزيينات مأخوذة عن الماضي المسيحي كالصليب والسمكة ؛ أو عن الفن الروماني الشرقي كالجداول والشباك والنجوم والسعف ؛ أو عن الفن الايراني الذي نقله الجرمات كأسنان المنشار والتزيينات المتشابكة أو المعوجة الملتوية . وهذه الزخارف منحوتة بشكل سطحي . وهكذا أصبح النحت تزييناً وينفذ بأيدي غير ماهرة . وكانت التوابيت الحجرية أو الرخامية ، التي تسجى فيها الشخصيات المرموقة ، خالية من اللوحات المنحوتة كما في القرن الخامس أيضاً . وباستثناء الجنوب الغربي من غالبا كان يكتفى بوضع ملامح لتصوير الصليب وطغراء المسيح

والحمامات وأواني تخرج منها عناقيد العنب . أما النحت على العاج الذي لاقى في القسطنطينية مصيراً جميلاً ، فيبدو أنه انقطع عن الوجود في غالبا ابتداءً من القرن السادس .

الفسيفساء . - أما الفسيفساء التي تضيء امبراطورية الشرق الرومانية ، وحتى ايطاليا ، فلم يحفظ منها نموذج الا قليلاً ونادراً . وان التزيينات الحيوانية ، كالاسد والتنين والطاووس والوعل والحوت البحري وغيرها ، لتذكر بالانسجة الفارسية التي كان لها تأثير كبير على الفن في الغرب ، بالرغم من أن أنسجة من هذا النوع لم تصنع في الغرب .

التصوير والمنمنمات . - لقد كانت جدران الكنائس وصلات الفيلات الغنية مزدانة بالصور ، ولكن زال كل شيء منها .

أما تصوير المخطوطات فلسوء الحظ لم يصنع الغرب شيئاً مرموقاً بالنسبة الى منتجات الامبراطورية الشرقية ذات النشاط الفني العجيب ، وأشهرها أسفار التوراة الخمسة في تور . فقد نفذت في القرن السادس أو القرن السابع ، وكانت تتاجاً فنياً هزيباً ومضحكاً . لقد كان فنانون الغرب غير قادر على تأليف مشهد ، أو تصوير الجسم البشري ، ولذا اهتم برسم الاحرف الاولى بأبعاد عظيمة ، وتصوير الحيوانات ذات الاربع ، والاسماك والزواحف والطيور ، ورسم التزيينات النباتية بألوان حمراء وخضراء وصفراء .

وفن تصوير الكتب يرجع في أصله ، كفن صياغة الحلي ، الى الشرق . وقد استلهم فنانون الغرب هذا الفن بحرية عن النماذج الساسانية في فارس .

الكتابة . - وكانت الكتب مؤلفة من دفاتر من الرق وتصبغ

أحياناً بالارجوان من أجل النصوص المقدسة . ويستعمل فيها ثلاثة أنواع من الكتابة الرومانية . أما ورق البردي فقد نفذ استعماله في غالبا في آخر القرن السابع ، وكان يخصص للأعمال الادارية وعقود الافراد . وابتداءً من القرن السابع خاصة وجدت عليه نصوص تاريخية مثل مخطوطة غريغوار تور وفريديغير ، وقد كتبت بالكتابة الميروفنجية الفظيعة . أما الكتابة اللاتينية في القرن الخامس فقد أدخلت في الآثار المقدسة والادبية لانها تشغل مكاناً قليلاً وتكتب بسرعة .

فن الصياغة . - لقد ترك هذا الفن منتجات فخمة أحياناً وكان منتشرأ في اوروبا كلها . وقد ظن ان هذا الفن ابداع جرمانى ولكنه في الحقيقة ايراني الأصل . ومن المحتمل ان يكون الغوط اثناء اقامتهم في اكرانيا في القرن الثالث والرابع قد اخذوه عن السارمات ونشروه في هجراتهم عند الجيدين والفاندال والآلامان والبورغوند ، ثم وصل الفرنجة والانغلو ساكسون والاسكندينافين . كما راجت صياغة المجوهرات ووصلت بيزنطه ولعبت هذه دورها في نقلها إلى الغرب .

وهذا الرواج ، الذي لاقته الصياغة في مجتمع قاس متكبر مزهو ، ساعد على صياغة حلي ذهبية وفضية وبرونزية مزدانة بالاحجار الكريمة من خواتم وعقود ودمالج وشكالات وازرار وأسلحة وقبضات سيوف وأغمدة وأحزمة وأدوات عبادة كالكوؤوس والصناديق التي تحفظ فيها بقايا القديسين والتيجان النذرية .

وصفوة القول ان الفن في غالبا وجرمانيا ، من القرن السادس إلى القرن الثامن ، كان مجرداً من الأصالة . لقد كان تكملة لانهطاط القديم أو تقليدأ ضعيفاً لفن جديد من أصل ايراني كما في صناعة الحلي وتزيين

الكتب . ومن عجب أن النهضة الفنية في الامبراطورية الرومانية الشرقية ، في القرن السادس ، كان لها تأثير ضعيف جداً في مناطق ما وراء الألب ولم تدب فيها أي قوة جديدة .

الأدب

الأدب . — لانستطيع ان نجد في هذا العصر كاتباً كبيراً . فنجد اربعة قرون ، من امبراطورية تراجان ، لم تعد الآداب اللاتينية . وعلى الأقل الآداب الدنيوية ، لتنج سوى آثار تقليدية . لقد عقلت عبادة النماذج القديمة الفكر ، وسم حب الفصاحة الشكل ، وأصبحت المدرسة عاجزة عن تقويم هذا الطيش بل وكانت تفسد الذوق .

وابتداءً من القرن الثالث كان الأدبُ الحي الأدبُ اللاتيني المسيحي ويتمثل باسماء لامعه : ترتولين . أرنوب ، القديس سيرن ، القديس امبرواز ، القديس جيروم ، القديس اغسطينوس ، وفي الشعر برودانس . ولسوء الحظ لم يعرف هؤلاء الكتاب أو لم يستطيعوا التخلص تماماً من جاذبية الفصاحة الساحرة .

وهناك عقبة أخرى وهي حالة اللغة . فالاختلاف بين اللغة ، التي تستعملها الطبقات العليا في المجتمع ، وخاصة عندما تكتب ، ولغة التخاطب المبتذلة أيضاً في ظل الامبراطورية العليا ، كان في حالة تفاقم ، وعلى الأقل ابتداءً من القرن الرابع . ومع الزمن أصبحت اللغة اللاتينية الدراجة العادية لغة وطنية جديدة . وتقوض شكل الكلمات وزال الاعراب، وفقدت اللغة ثلاثة ارباع الكلمات أو بدلتها بتعابير عامية، وتأثر تركيب الجملة بهذه التغيرات الكثيرة ، وغدت اللغة التركيبية لغة تحليلية .

غير ان الطبقات العليا ، التي حافظت على ذكرى اللاتينية الكلاسيكية ، لم تكن سوى اقلية في المجتمع . فالموظفون والشيوخ الاغنياء ظلوا يتكلمون اللاتينية التقليدية في ظروف استثنائية . ولكنهم ، في سياق الحياة العادي ، اخفوا ، منذ القرن الخامس على الأقل ، يستعملون اللغة العامية مع افراد الشعب من مواطنين ومعمرين وارقاء ، وحتى فيما بينهم أيضاً .

وفي الحقيقة ظلت اللاتينية ضرورة بدوام الامبراطورية في الغرب ، لأنه لا يمكن لأحد الوصول إلى الوظائف العليا في الدولة ما لم يعرف اللاتينية المكتوبة معرفة واسعة . يضاف إلى ذلك ان نظم الأشعار وانشاء الخطب والمدائح التقليدية حسب هوى الزمن وذوقه بقيت متماسكة واستمرت رغم ضعفها في ايطاليا تحت حكم اودواكر ومن بعده تحت حكم الاوستروغوت .

اما في غاليا فقد زالت هذه التقاليد ، وخاصة عندما وضع الميروفنجيون ايديهم على البلاد . ولا شك في ان بعض الملوك ، مثل سيجوير وشيلبيريك ، قد اعجبوا بمدح الشاعر فورتونا ، أو أظهروا انهم فهموا اشعاره المعقدة ، ولكن كان على من يريد الوصول إلى البلاط الفرنجي أن يسلك طرقاً أخرى أكثر مباشرة من الشعر اللاتيني .

وكذلك زالت المدارس العامة في غاليا قبل منتصف القرن الخامس ، ولم يبق سوى اساتذة خاصين ، وأصبح التعليم يكلف غالياً ، وأخذ عدد الاساتذة يتناقص باستمرار .

ومنذ منتصف القرن السادس كف الغاليون — الرومانيون ، وحتى في الاوساط الارستقراطية ، عن التكلم فيما بينهم بلغة أخرى غير اللغة اللاتينية العامية . وقد دلت كتاباتهم على عدم الحذق والصحة ، وأصبحوا

كمن أقاموا في الخارج ونسوا استعمال لغة الأم ، وحاولوا انعاش ذكريات بعيدة عنهم ، وقلما ينجحون في هذه المحاولة . اما المتعلمون أو المثقفون من درجة أدنى ، مثل محرري الوثائق والدبلوماسيات والصيغ القانونية والاستمارات وغيرها فكان جهلهم وقلة معرفتهم ظاهرين لذي عين .

وسنالك عقبة أخرى ، من نوع أخلاقي وديني ، تتعارض مع كل محاولة تجديد للآداب ، وعلى الأقل في الناحية الدنيوية . فقد ظل الوثنيون يأخذون على المسيحيين الفقر أو عدم الانتاج . بيد أن القرون الثالث والرابع والخامس شهدت تشكل ادب مسيحي عظيم . وسواء عن تقليد أم عن حرص على الادب الانساني ، لم يشأ القديس جيروم والقديس اغسطينوس وسيدوان ابولينير ان يشجبوا الآداب الدنيوية ، بل حافظوا على ضرورة دراستها .

أما في القرن السادس فقد كان القديس سوزير نفسه في آرل (٤٧٠-٥٤٣) مفعماً بهذه الثقافة القديمة ، ولكنه تجرأ على شجبها والحكم عليها بالبطلان ، وقال : على المسيحي أن يتكيف مع النصوص الدينية المقدسة وكتابات آباء الكنيسة . وسيعود هذا الشجب ثانية بعد قرون ، ومن سلطة أقوى وهي سلطة البابا القديس غريغوار . وعلى هذا النحو ظفر التعليم الديني الجديد في غاليا وإيطاليا نفسها في النصف الثاني من القرن السادس ولولا تأثير الرهبان الارلنديين لزال الآداب القديمة نظراً لعدم الاهتمام بنسخها .

وبعد فلا عجب إذا منيت الآداب القديمة بالانحطاط ، لاسيما وان حمايتها الأبرار أخذوا يودعون الدنيا الواحد بعد الآخر . فقد مات سيدوان ابولينير عام ٤٨٤ ، وهو آخر أمير كبير مثقف في غاليا . وكان أكبر حبر في المملكة البورغوندية آفيتوس ، أسقف فينّا في فرنسا من ٤٩٠

إلى ٥١٨ . فقد كتب اشعاراً مسيحية ورسائل في المعلومات الدينية ، بأسلوبٍ ناعم دقيق وغامض يكاد يكون صحيحاً ولا غبار عليه . ثم خلفه آخرون في بروفانس يتذوقون الآداب القديمة ، ولكنهم لم ينتجوا أي أثر هام . وعلى ما يبدو ان أواخر الادباء الانسانيين في الجزء الأول من القرن السابع كانوا أساقفة ، مثل ديدية فينا وديدية كلهور .

وفي الشعر لانجد انتاجاً يستحق الذكر خارجاً عن انتاج فورتونا ، وهو الشاعر الوحيد في العصور الميروفنجية ، ولكنه شاعر لاتيني أجنبي . ولد في تريفيز حوالي العام ٥٣٠ ودرس في رافينه ، وحج عام ٥٦٥ لزيارة ضريح القديس مارتن في تور ، ولم تر عيناه الغزو اللومباردي . الذي عاث في وطنه . لازم الملوكة الفرنجة ، وكان صديقاً للملكة راديجوند ، زوجة الملك كلوتير الأول ، ومحميها ، وأقام في بواتيه وأصبح اسقفاً لها ، ومات في السنوات الاولى من القرن السابع . وكان الملوكة يقدرونه مع المثقفين العلمانيين والاكليركيين . وترك فورتونا قصائد في المدح والثناء ومناسبات الأفراح والاتراح والهجاء وسير القديسين ، وأثره الشعري يتألف من أحد عشر كتاباً .

والمطلع على آثار فورتونا يحكم عليه بضعف الذوق وعدم الاخلاص . ففي عرس سيجويير وبرونييو يشيد بالمدح ويشبه العروسين بكوييدون وفينوس . وفي تعزيته لفريديغوند على مصابها بفقد أولادها يعدد شيوخ وملوك العهد القديم الذين تحملوا وطأة القدر . وهو في كل ذلك نافه ومضحك ، ويرائي بشكل دنيء ، غير أنه لا يخلو من لمعة ، فاشعاره عن موت غالويند وعن خراب تورنجة مثلاً تتم عن هياج وعاطفة وحساسية منبعثة عن نسمة شعرية حقيقية . وهو يكتب الشعر بسهولة ويسر ، ولكن وتر قيثاره لا يرن دوماً بدقة وصدق ، والتباين واضح

بينه وبين سيدوان ابولينير اكبر مثقف في العصر الفائت . ولم يكن سيدوان بأقل منه ذوقاً سيئاً وربما كان اكثر تفاهة . ومع هذا فقد سيطر فورتونا على عصره بشعره ، وعندما توفي لم يجراً أحد على كتابة الشعر .

يضاف إلى ذلك ان النظام الجديد والتعليم المسيحي الذي فرضه سوزير آرل لم ينتج عنها أي أثر لاهوتي أو اخلاقي ، وكانت غالباً في هذا الحقل عقيماً . غير أننا نجد في هذا العصر مؤرخين أو اخباريين ، ومؤلفين في سير القديسين .

التاريخ . - غريغوار اسقف تور (من ٥٧٣ إلى ٥٩٣ أو ٩٥٤) أشهر المؤرخين . كتابه الأساسي « تاريخ الكنيسة الفرنجية » . وقد كتبه معترفاً بنقص ثقافته القديمة ، وجمع حوادثه من الماضي القريب وقص فيه ما رآه دون اعمال أو تصنع في الاسلوب ، محاولاً الكتابة باللغة اللاتينية الصحيحة ، ولو لم تكن رشيقة ، احتراماً منه للقارئ . ولكنه لم يوفق كثيراً . كان قليل الذكاء ، شغفاً متحمساً عاطفياً يعتقد بالحوارق ، وتشوب كتاباته معلومات غير صحيحة وخاصة عندما تتعلق بأحداث غريبة عن غالباً الرومانسية . ويؤخذ عليه اسلوبه الركيك وتحيظه وهواه ، ولكن عدم الاهتمام باعمال الاسلوب وتنقيحه جعل لاثره حلاوة وطلاوة خاصة ، وأمن له مكاناً فريداً مرموقاً في أعلى العصر الوسيط . واثره على مافيه من عيوب لا يخلو من قيمة أدبية تتميز باللون ووصف الأشخاص والأحوال ، وهذه المتعة التي يشعر بها القارئ تشفع للمؤرخ وتعتبر أفضل شهادة لصالحه .

وعندما ينتقل القارئ من « تاريخ الفرنجة » لغريغوار تور إلى تكملته حتى عام ٦٤٠ يشعر بسقوط مفاجيء . وقد كتب هذه التكملة

عام ٦٦٠ راهب بورغوندي مجهول سماه ناشروه الأوائل في القرن السادس عشر فريديغاروس (فريديغير) ، ولا يعلم سبب هذه التسمية . والمعروف عنه انه انسان غير معجب بنفسه . كتب في مقدمة كتابه : « لقد شاخ العالم ، ونبأ حد المعرفة ، وما من انسان في عصرنا يضاوي خطباء الماضي » . ونراه يتكلم بحق عن غلاظة أسلوبه .

أما الكتيب المسمى « تاريخ الفرنجة » أو « تاريخ حكم الفرنجة » الذي ألفه راهب من دير القديس - دوني بعيد ٧٢٧ فهو مصدرنا الوحيد عن السنوات التي تذهب من ٦٥٧ إلى ٧٢٧ لأن البؤس الأدبي يصل إلى الدرك الأسفل . وبعد ذلك اقتصرت الكتابة التاريخية على جمع الحوادث الجولية السنوية بشكل حوليات .

سير القديسين . - لقد كانت سير القديسين نوعاً أدبياً رائعاً يستجيب لحاجات العصر ، لأن كتابة حياة قديس ، سيد كنيسة من الكنائس أو دير من الأديرة ، كانت تعتبر واجباً دينياً وعملاً تقياً ، كما كانت وسيلة لجذب المؤمنين والحفاظ عليهم لزيارة القديس . فقد كانت تقرأ صفحات من حياة القديس أمام الاتقياء والحجاج في يوم عيده أي في اليوم الذي ولد فيه للحياة الجديدة بعد الموت . وكانت حياة القديس الأرضية من حيث المبدأ موضع تمجيد واطراء . وبما لاشك فيه أن السيرة كانت توضع لخدمة غرض من الأغراض . فقصة الخوارق التي تم على قبر القديس أو في حياته كانت عنصراً اجبارياً في السيرة كالتوازل أو الملح في الطعام ، وبدونها لاتظهر كرامة القديس . وإذا كان المؤرخون يشكون من أن هذه المؤلفات لاتزودهم الا بحصيلة علمية ضئيلة ومشكوك بصحتها في الغالب ، فهم ينسون انهم أمام مؤلفات غرضها الاول التمجيد والاشادة لا الإعلام .

ولقد احتفظ بعدد عظيم من « سير » القديسين النساك و « آلامهم » من أساقفة وآباء القرن الخامس والسادس والسابع والثامن ، واعد تأليف بعضها او الفت في العصر الكارولنجي او بعده أيضاً . واقدّم سير القديسين سيرة القديس جرمين الاوسيري المتوفى عام ٤٤٨ التي فيها عدد من تلاميذه . وهي سيرة رصينة وبسيطة ومثقلة بالعجائب والحوارق ، لغتها صحيحة ، وليس في اسلوبها كثير من البلاغة ، وتغلب عليها الصفة الأدبية . وكانت السير في القرن السابع مفيدة وقيمة رغم ما تخدمه من اغراض سياسية . ولكن اسلوبها فسد فيما بعد ، واكثر من ذلك ايضاً أن السيرة أصبحت نوعاً ادبياً تقليدياً . فقد كان المؤلفون ، وخاصة عندما لا يعلمون شيئاً أو يعلمون قليلاً عن بطلم ، لا يترددون في سلب سير القديسين السابقين ، او في سد نقص اخبارهم ومعلوماتهم بتوسيعات من بنات افكارهم . ومن هنا غلبت على هذه المؤلفات صفة الانتحال والرتابة والملل لأنها تسبب للقارئ الضجر والسأم بل والكرهية ، وخاصة كثرة ما فيها من اخبار غير قابلة للتصديق مطلقاً .

كسوف اللغة اللاتينية الاتباعية — لم يبق حوالي منتصف القرن السابع أحد في غالبا قادر على الكتابة باللاتينية الصحيحة ، ان لم يكن بالنقية السهلة . ولولا الاكليسوس الاسكوتلاندي والانكليزي والايرلندي وتلاميذه لزالّت اللاتينية كلغة للأدب والتأليف . وقد اضطر هؤلاء الرهبان بحكم جهلهم اللغة الرومانية إلى تعلم اللاتينية في نصوصها ، وتوصلوا إلى امتلاكها بصحة وضبط وكتبوا فيها .

ولم تكن الآداب الكلاسيكية في متناول عامة الشعب الروماني وحتى من كلف يعرف القراءة ، وزادت الفجوة اتساعاً عندما تم الانفصال بين لغة الشعب والأدب ، لاسيما وان رجال هذا الأدب كانوا قلة نادرة

آخذه بالتناقص يوماً عن يوم . يضاف إلى ذلك أن الأدب المسيحي نفسه كان بعيداً عن العامة وحرفاً ميتاً عند الشعب . وهكذا آلت الحال إلى أن صنع الشعب أدبه بنفسه ، وكان للأجزاء الجرمانية في المملكة الفرنجية ادبها وقصائدها الغنائية . وكان الشعر الغنائي ينشد في بلاط الملوك يرافقه العزف على « القانون » . ولكن لم يحفظ من قصائده شيء . وكان العصر الممتد من القرن الرابع إلى القرن الثامن عصراً ذهبياً لأدب الملتصمة عند الشعوب الجرمانية حيث يجدون ملوكهم وفعالهم ومغامراتهم . ومن الجدير بالذكر أن سيغفريد بطل ملحمة النييلونغن أصبح في هذا الأدب الجديد رجلاً فرنجياً عند فرنجة منطقة الراين .

الميرفوق والعادات والتجمّع

بلاط الملك . - كان العصر الميرفونجي يتمتع بشهرة سيئة . وقد دافع بعضهم عنه وهاجم غريغوار تور مصدرنا الأساسي لتاريخ هذا العصر ، ولم يقبل شهادته بغية انقاذ شهرة الفرنجة أو رجال الكنيسة ، ولكن هذه المحاولة كانت عبثاً .

كان القصر « مركز الدولة » بؤرة فساد ، ومكاناً للفسق والحيانة والفضاعة والخطف والشراسة . وكان الملوك يضربون المثل ، غير أننا لا نعرف عنهم إلا قليلاً . فقد كان كلوفيس ، مؤسس الدولة الفرنجية قوة تاريخية من الطراز الأول ، ولكن الإنسانية فيه معدومة . وكذلك كانت حال ابنه تييري وابن هذا ، تيسير ، اللذين لعبا دوراً كبيراً . وايضاً كلودومير وشيلدويير وكوتير ويأتون في الصعيد الثاني . ونعلم قليلاً عن سيجوير الأول وكوتير الثاني وحتى داغوبير الأول . وبعد هؤلاء لم يكن الميرفونجيون شيئاً مذكوراً ولا ظلالاً . لقد كانوا مجرد أسماء

لا تذكر بشيء ولا تثير اهتماماً . وفي الحقيقة ان الملوك الوحيدين الذين نعرفهم هم معاصرو غريغوار تور ، سيجوير ، وخاصة شيلبيريك وغونتوان وكان غريغوار تور يكره شيلبيريك ويتهمة بشتى الاجرام والذائل . ويصنع من الثاني قديساً . وما يقوله في غونتوان يدعنا نرى فيه شخصاً مرعباً يخفي الجشع والطمع والفضاعة والجبن تحت ظاهر من السداجه .

الخطاط الميروفنجيين . - ولم تكن الملكات بأفضل من الملوك . وإذا اخذنا بقول غريغوار تور نرى ان كلوتيلد زوجة كلوفيس الاول تحب النار والانتقام ؛ وان اوستريخيلد ، وتدعى ايضاً بويللا ، زوجة غونتوان ، أخذت على زوجها عهداً وهي على فراش الموت ، باعدام الطبيب اللذين عالجها ، وهذا ما بادر اليه الملك الساذج ونفذه . وافترى فريديغير على برونهو كذباً ، ولكن وجدانها عذبا بعد اقرار كثير من الجرائم . أما فريديغوند فكانت لوحة مرضية . ويستوى في ذلك الغاليات - الرومانيات والجرمانيات . فقد قضت البروفانسة دوتري على ابنتها خوفاً من ان تحظى بفضل الملك تيبير مكانها . ولم تكن الملكات الاخريات إلا ظلالاً . لقد كن قنات يفيد منهن جنون الملك ، ومسخرات مستسلمات لشتى انواع الرغبات . وشذت بينهن قديستان أجنبيتان ، راديغوند التورنجية وهي اسيرة حرب ، وبوليلد الانكليزية وهي رقيقة ، وقد اتهمها بعض كتاب السير بأنها اوحت بقتل اسقف ليون .

الحجاب والأدواق . - لم يكن معظم حجاب القصر إلا اسماء ، ومنهم من ترك الاستقراطية تفعل ما تشاء ، ومنهم من اشتهر بفضاعته . أما أسلاف الكارولنجيين مثل آرنول وبين القديم ، وبين هيرستال ، والمغتصب غريمود فكانوا رجالاً لهم قيمتهم وشأنهم . ولم يكن رجال البلاط بأفضل منهم ، بل ان بعضهم كانوا حيوانات مفترسة يقومون

بالمؤامرات وأعمال الخيانة والغدر . وقد ظهر خداعهم ومخاتلتهم في حياة الدولة الداخلية وفي العلاقات الخارجية . ومناقبهم كمنالهم تقوم على الطيش الحربي والفكر المغامر ولا يمتاز عنهم الاستقرائية المحلية إلا قليلاً . والتباين ظاهر بين القرن الخامس والسادس . ففي القرن الخامس كانت الارستقراطية مهذبة مصقولة الطباع ، مأخوذة بحب الآداب والفنون . ولكن هذه الطبقة زالت في القرن السادس . وفي غضون العصر الميروفنجي تشكلت الطبقة النبيلة الفرنجية ثم الفرنسية التي تحب الحرب ولا تبالي بقيم الفكر ، وكانت أنانية فوضوية وسبياً في بلاء فرنسا حتى وصول لويس الرابع عشر إلى السلطة .

وقد يكون من الجور أن يحكم على مجموع رجال البلاط هذا الحكم العام . فقد وجدت بين أفرادهم أرواح نقية تقية مختارة استطاعت أن تنجو من عدوى الفساد والرذيلة . وبما تجدر الإشارة إليه أن كثيراً من قديسي القرن السابع خاصة كانوا من رجال البلاط وشغلوا فيه وظائف كبرى مثل آرنول ، شلودولف ، ايلوا ، وات ، ديديه ، بونيتوس ، فيليبير . ولكن هؤلاء الأتقياء لم يأمنوا على سلامة أرواحهم إلا بالفرار إلى كرسى الأسقفية أو العزلة في رحاب الدير . وهذا دليل واضح على أن العالم العلماني في نظرهم فاسد لا يمكن شفاؤه . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة نفسها لم تنج من تأثيرات العصر المفسدة .

الشعب . - أما الطبقات الدنيا من الشعب فلا يعلم تقريباً شيئاً عن حالتها الحلقية خارجاً عن تعلقها بالأباطيل الوثنية والحرافات ، وتدوقها الساذج للخوارق والمعجزات ، ولا مجال للافتراض بأنها كانت أفضل أو أقبح ممن كانت تعيش في ظل الامبراطورية الرومانية ، ومن الممكن

ملاحظتها في أيام الأعياد حيث ترى ترقص وتغني وتتمل، شأنها في كل عصر .
الأوبئة والأمراض والمجاعات . — لقد اغطشت كثرة الأوبئة
 سماء هذا العصر . وتاريخ غريغوار تور مفعم بالقصص التي تنقل لنا
 فتك الأمراض المعدية وخاصة الطاعون ، وربما كان يفد إلى أوربه عن
 طريق التجارة مع بلاد حوض المتوسط الشرقي . وأفزع هذه الوافدات
 وأشهرها الطاعون الدبلي الذي ظهر في مصر عام ٥٤١ أو ٥٤٢ ، وانتشر
 عن طريق سورية في إيران والهند ، ولم تتج منه أوربه . وكان هذا
 المرض يبدأ باضطرابات التصور والخيال ، تتلوها حمى قصيرة ، ثم التهاب
 مفاجئ في أسفل البطن تتبعه اغفاءة مميتة .

الاضطرابات النفسانية . — ولم توفر هذه الوافدات أي طبقة من
 طبقات المجتمع . فقد أصيبت بها الملكة أوستر يخيلد زوجة غونتران
 وماتت عام ٥٨٠ . وفقد الملك شيليريك وخليته فريديغوند أولادهما
 وكاد الملك يقع ضحيتها . وكانت الأفكار تضطرب ، وينسب انتشار هذه
 الأوبئة إلى سوء النية والأعمال الطالحة والسحر . ونذكر على سبيل
 المثال أن ملكة بورغونديا الأنفة الذكر ، وهي تحتضر ، انتزعت من زوجها غونتران
 وعداً باعدام طبييها ؛ وان فريديغوند قامت بأعمال انتقامية فظيعة من
 اتهمتهم بتسميم أولادها .

أُسى القومية الفرنسية

ظهور فرنسا . — لقد تشكلت في غضون العصر الميروفنجي نبتة القومية
 الفرنسية ، وارتسمت صورة فرنسا بشكل قلق لم يستقر ولم ترتسم معالمه
 بوضوح . وبالرغم من بربرية الفرنجة واستحكام شخصية القوانين تم في

هذا العصر التقارب بين الغازيين والسكان الغاليين - الرومانيين ، وعلى الأقل سكان شمالي غاليا . وانقطعت الصلة مع الامبراطورية . فمنذ وفاة آيسوس وفالانتينيان الثاني (٤٥٥) انقطع الاتصال بين غاليا وايطاليا . وعاش سياغريوس ، وهو آخر زعيم روماني ، وأبوه آنجيدوس المتوفى عام ٤٦٤ ، اميرين مستقلين وعدوين للجماعة البرابرة الذين سيطروا على اواخر اباطرة الغرب . وفي اليوم الذي أصبحت فيه القسطنطينية مقراً وحيداً للامبراطورية عام ٤٧٦ كانت القطيعة الواقعية بين غاليا الشمالية وروما البوسفور البعيدة أمراً لا يمكن اجتنابه . وعندما اعتنق كلوفيس الكاثوليكية شايعته الارستقراطية العالية والاكليروس وجمهور الشعب دون التفكير بالعودة الى سلطة الامبراطورية الجديدة .

والملاحظ ان المعارضة الدينية ، التي فصلت الفيزيغوط عن الاسبانين الرومانيين والايستروغوط ، ثم اللومباردين عن الايطاليين ، قد زالت حالاً في غاليا بين الغاليين - الرومانيين والفرنجة . كما ان العقبة الأخرى ، التي قامت في وجه الشعوب واختلاطها مع بعض وهي تقسيم الاراضي بين سكان البلاد الاصليين والغزاة ، زالت ايضاً . فقد اقتطع فرنجة الراين والساليون قسماً كبيراً من الاراضي الرومانية في القرن الخامس ولم يبق لكلوفيس فائدة بالقيام بمصادرات أرضية تولد احقاداً دائمة ومستحكمة . يضاف الى ذلك ان المساواة التامة سادت مجموع رعايا ملك الفرنجة منذ عهد كلوفيس وأولاده ، وغدا التزاوج المختلط كثيراً ومألوفاً في جميع الطبقات . وهكذا تم التقارب بين الشعبين بشكل عاجل وأكيد . ويبدو ان هذا التقارب كان ضرورة أملتها الظروف وبدأت اول ما بدأت في البلاط الملكي . فقد كان الاختلاف الى القصر اجبارياً لكل من اراد ان يشق طريقه في الوظائف العامة ، أو من يبحث عن الغنى

والثراء . وكان المراهقون الشباب المنتفعون من كل جنس يعيشون في القصر مع بعضهم في ود وصفاء خلال عدة سنوات .

وكان البلاط الملكي يتكلم بلغتين . فقد كان الملوك ، مع الحفاظ على استعمال « الفوانيسك » وهي اللغة الفلاماندية القديمة ، يتكلمون اللغة الرومانية ايضاً . وبعضهم مثل شاربيير وشيلبيريك وكلوثير الثاني كانوا يتذوقون اللاتينية الكلاسيكية .

وفي الجيش كانت جماهير الناس الاحرار تلتقي ببعضها . وعندما قسمت المملكة الى اربع حصص كان معظم المحاربين في ثلاث منها يتألف من الغالين - الرومانيين ، وحتى في اوسترازايا كان هؤلاء يؤلفون قسماً كبيراً في الجيش لأن اوسترازايا الميروفنجية لا تضم البلاد الرينانية فحسب بل كانت تدخل فيها اقاليم الشامبانيا والافيرن والبواتو والتورين والبروفانس .

وكانت التآثيرات المتبادلة بين الشعبين عديدة وعميقة في مختلف المجالات السياسية والحقوقية والفكرية والجمالية واللغوية والعرقية . ومع الزمن بدا أن التأثير الجرمانى كان غالباً . فقد أظهر الملك الميروفنجي الشخصية الجرمانية أكثر من الرومانية وساعدها على النمو ، وساد القانون السالى على حساب الحقوق الرومانية ، ولم يعد للآداب اللاتينية ، خارجاً عن عالم الاكليروس ، إلا تأثير سطحي جداً على الأقسام الفرنجية الصرفة في المملكة ، وكذا الحال في الفن .

وفي ميدان اللغة حدث تبادل نشيط بين اللغة الجرمانية واللغة اللاتينية العامة . ومن الطبيعي أن بنية كل لغة ظلت على حالها لم تتبدل ، ولكن مفردات اللغتين غنت باقتباسات متبادلة . وازداد عدد الكلمات التي أخذتها اللغة الرومانسية في غالبا عن الجرمانية بنسبة عظيمة لاسيما وان تلك

اللغة فقيرة ومفرداتها محدودة . لقد أخذت اللغة القديمة عن لغة الفرنجة تعابير تتعلق بالحياة العسكرية والقيادة والأسلحة والألبسة والنظم والحقوق والسكن والبناء ، والأثاث والطعام والتسلية ؛ وكلمات تمثل الطبيعة والنبات والأشجار والثمار والحيوان .

وتكشفت أيضاً تأثيرات أعمق كأسماء الجهات الأربع ، والألوان والتعابير النفسانية من أسماء وصفات وأفعال .

ومن جهة أخرى ، قام الجرمانيون باقتباسات كثيرة عن اللاتينية وبدأوا بذلك قبل فتح غاليا ، وتناولت هذه الاقتباسات بخاصة الإدارة والتجارة والثقافة والنبات والحضر . كما اشتقت كلمات كثيرة عن لاتينية الكنيسة .

وفي المضمار العرقي كان تفوق التأثير الجرمانى ظاهراً ، فمن أعلى المجتمع إلى أدناه وجدت الأطعمة والشراسة من كل نوع والتعطش إلى النار . ومنذ حكم أولاد كلوفيس لم يتميز الجنس من بعضها في الشر . ومن غير اللائق أن تنسب أعمال الشدة والفظاعة والحيانة والغدر إلى الجرمانين وحدهم . ومنذ آخر القرن السادس تمثل الغاليون - الرومانيون الجرمان وأخذوا عنهم أسماء جرمانية . وزالت الأسماء الخاصة الرومانية في القرن السابع ، وبالتالي ان جميع أسماء الأشخاص التي لم تكن مشتقة من أسماء الألقاب أو المأخوذة عن أسماء المناطق ، أصبحت جرمانية ، دون عد أسماء الملوك وكلها جرمانية .

وزالت آخر عقبة بين الطرفين وهي شخصية القوانين . فقد سقطت عملياً وساد الجميع قانون واحد .

وأدى اختلاط الأعراق والقوانين إلى اختلاط السكان ببعضهم ، حتى

ان كلمة فرنجي في القرن السابع فقدت معناها العرقي وأصبحت تدل على إنسان حر ، رعية الملك ، مها كان أصله . واعتقد انسال الرومانيين عن حسن نية أنهم فرنجة منذ قرون مديدة . وقد تم اتحاد السكان الأصليين بالغزاة في القرن السادس وتعززت أواصره في القرن السابع ، وجرى الذوبان بين العناصر وصهرها مع بعضها عندما تخلت السلالة الميروفنجية عن مكانها للكارولنجيين .

ومع ذلك فلم يكن الانصهار تاماً وعاماً في جميع أجزاء غالبا ففي المناطق الريفانية لم يبق العنصر الجرمانى شيئاً عظيماً من الماضي الرومانى . واكتانيا ، التي ظلت مجزأة زمناً طويلاً بين مختلف الدول الفرنجية ، ألقت لنفسها كياناً خاصاً وامارة مستقلة ذاتياً حول آخر القرن السابع . وظل العنصر الرومانى فيها سائداً باستثناء المنطقة الواقعة بين نهر الغارون والبيرينه ، حيث أقام الغاسكون .

فرنسا العصر الوسيط . — وهذه المنطقة ، التي قام فيها هذا الذوبان والاتحاد الجديد وتمتد من نهر الموز إلى اللوار وتضم شمال بورغونديا ، هي فرنسا العصر الوسيط الحقيقية ، وبملكة كلوفيس قبل العام ٥٠٧ ، وهي بالإجمال نوستريا ، فرنسا الرومانية . ومنذ بداية القرن السابع ، عندما بدأ غرب المملكة وشرقها يتناحران ، اقتصر التعبير « فرنسي » على النوستريين ، حتى ان السلالة الكارولنجية التي كانت اوستوازية بعواطفها ، لم تجرؤ ، في القرن الثامن على الأقل ، على نقل حفلات المباركة إلى الشرق . ولا يكون الملك ملك الفرنجة إلا إذا انتخب وقُدس ودفن في كومبين ، ونوايون ، والقديس — دوني .

نشأة فرنسا . - إن هذا الحادث السياسي والنفساني ، وهو نشأة القومية ، ليس خاصاً بفرنسا . وإذا كانت انكلترا وألمانيا غير مستعدين للحياة القومية قبل آخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر ، فإن اسبانيا وإيطاليا كانتا في دور تهيئة أمة كخاليا في العصر نفسه . غير أن عاصفة الإسلام في اسبانيا وعداء البابوية للومبارديين في إيطاليا قد أجهضا هذه النباتات الاولى . أما في فرنسا فقد استطاعت هذه النباتات أن تخرج للحياة في وقت مبكر وستظل هذه الحياة ضعيفة زمناً طويلاً . ولو لم توضع قواعد القومية الفرنسية في العصر الميروفنجي ، لانهار البناء الضعيف يبعث الامبراطورية ، أو في الآجل ، بنعرة الإقطاعية .

الفصل السادس

الكنيسة في العصر الميروفنجي

الأسقف . — عندما تداعى المجتمع الروماني ، في القرن الخامس والسادس ، كانت الكنيسة الكاثوليكية القوة المعنوية الوحيدة التي ظلت متماسكة أمام عوامل الاضطراب والفوضى والتخريب . لقد زالت الوطنية الرومانية ، وضعفت عاطفة المصلحة العامة . وأصبح الغد مظلماً أكثر من أي وقت مضى . وما كان من الشعب إلا أن تجمع بغريزته حول الكنيسة فأصبحت له موئلاً ووطناً ، وغدت هذه الكنيسة والقومية الرومانية شيئاً واحداً . وظلت الأسقفية ، كما في عهد قسطنطين ، منطبقة على المدينة . ولما كان قطيع المؤمنين مهتداً باستمرار فقد توجب ألا يكون الاسقف انساناً متأملاً . وفي الغالب كان يؤخذ من أقوى الطبقات وأغناها ، وخاصة طبقة « أعضاء مجلس الشيوخ » . وكان الشعب يفضل أن ينتخب علماً تقياً عارفاً بالقضايا ممارساً لها على أن يختار اكليركياً دون خبرة في الحياة ودون نفوذ . وقد دام هذا التقليد في العصر الميروفنجي .

وبعد أن صاب كلويس واعتنق الكاثوليكية حيث فيه الأسقفية الغالية — الرومانية قسطنطين جديداً ، وشجعت أهدافه في غالبا ، ووجد كلويس وحده عاهلاً كاثوليكياً في الغرب الاوربي . وفرحت كنيسة غالبا بهذا الظفر الذي يمكنها من سحق الأريوسية ، فتركت الملكية

البربرية تسيطر عليها سيطرة تكاد تكون مطلقة . واعتقد الملك الميروفنجي بأن له الحق في مراقبة انتخاب الأساقفة ، وأخذ ينتخب من حوله وجواره أساقفة ولو كانوا علمانيين ، وراقب الاسقفية مراقبة شديدة ، وخاف أن تخونه لصالح قريب له ، ولم يتردد لأتفه الأعذار أن يحاكم الأبحار ، بل وأجلهم قدراً . ومن المعلوم أن محاكمة الاسقف لا تجري إلا أمام المجمع الديني ، غير أن هذه المجمع ما كانت لتتعد دون سماح الملك . وكان العاهل يخيفها بحضوره ويؤثر في القرار الذي يتخذه الآباء . أما العلاقات بين الأسقفية وروما ، باستثناء البوفانس ، فكانت تتم بطريق الملكية . ويعتبر الاسقف موظفاً ، ويشترط فيه أن يكون مطوعاً ، ويكلف بمراقبة الكونت ومقاضاة الكليروس مدنياً وجزائياً ، لحد ما ، وفي بعض الأحوال .

ومن جهة أخرى كانت النعم تغدق على الكنيسة ، فما من ملك أو ملكة إلا وأنشأ مؤسسات دينية . وما من كنيسة شيدت في القرن السابع إلا ووضعت تحت حماية المليك الخاصة وحصلت على صك حصانتها . وهذه الحصانة تقتضي الإعفاء من الضرائب العقارية والجزية ودفع حصاة الغرم القضائي المتوجب للملك ورسم الإيواء والوكالة مع منع القاضي (الكونت) من الدخول على المحصن لعقد المحكمة أو ممارسة أي عمل من أعمال السلطة القضائية . وينتج عن ذلك نتيجة لم توضح في الدبلومات ولكنها حتمية ، وهي أن يستولي المحصن على ادارة القضاء ، وعلى الأقل في القضايا الصغرى ، ويمارسه على العلمانيين ، وحتى الأحرار منهم ، في دوميته . وأخيراً اغدقت أفضال خاصة تعفي المؤسسات الدينية من رسوم المرور والعبور والسوق والجمارك على البضائع والسلع الضرورية لإعاشة رجال الدين . وخضعت الأسقفية لسلطة الملك ، وعلى الأقل في القرن السادس ،

ولا تقاوم إلا عندما يريد الملك أن يغطي على الجغرافية الكنسية أو يقاوم العقيدة . ولكن مثل هذه الحالات كانت نادرة لأن « الميروفنجيين لم يكونوا مسيحيين صالحين ليصبحوا هراطقة » .

وفي الواقع ، يصعب تمييز الكنيسة عن الدولة لأن المجال العائد لكل منها غير محدد بوضوح ، وأكثر من ذلك أن الحكومتين لم تهتما بتحديد نطاقها ، ولم يكن أحدهما ليستغني عن الآخر .

ولم يكن الأسقف راعياً روحياً لقطيعه فحسب ، بل كان مديراً أيضاً . ففي القرن الخامس كانت الثروة الأرضية للكنيسة الكاتدرائية صغيرة ، وأحياناً لاوجود لها . أما في القرن التالي فإن كرم الملوك والمؤمنين والاحبار ، خاصة ، الذين اعتادوا على توريث ما لهم للكنيسة ، زوجتهم الصوفية ، جعل منها مالكا غنياً . وكان للجبر شعب لا يحصى ، من الكليركين والأقنان والمعمرين والأحرار الفقراء ، ويؤمل به ويعقد عليه رجاءه . وبسرعة رأت المدينة ، مقر سلطته ، أرضها تنتقل برقعتها الصغيرة بكاملها وتصبح تحت إدارته . وانمحت المجالس البلدية المحتضرة أمام الأسقف ووقع شعب الصانع والباعة الذي يعيش في المدينة في عداد زبائنه . وليس هذا كل شيء . فالدولة الميروفنجية لم تهتم بواجب الاسعاف والتعليم . وكان الضعفاء من يتامى وأيامى تحت حماية الاسقف ، والمعوزون والمرضى ينتظرون منه ما يقوم بأودهم .

وكانت لإدارة المستشفيات والملاجئ وزيارة السجون تقع على كاهل الجبر . وكان البرابرة في حروبهم الدائمة يخطفون الأسرى ، والانغلو-ساكسون أقبح من الفرنجة يتاجرون بالرقى ويبيعون مواطنهم . وكان اقتداء البائسين واجباً من واجبات الاسقف الاساسية ، وأكثرهم كان يقوم بهذا الواجب بكل عناية واهتمام . فمن ذلك ان القديس سوزير

أول باع زينة كنيسته ليقتدي الأسرى . ولم يقبل القديس جرمن الدعوة على عشاء إلا إذا تعاهد المدعوون على افتداء رجل فقير على الأقل .

وقبل نهاية الامبراطورية كفت المدن الغالية عن مساعدة المدارس ، ولم يعد التعليم عاماً ، بل انصرف لخدمة كبار الامراء ، وتناقص عدد الاساتذة باستمرار في القرن الخامس والسادس ، وأوشكت الثقافة على ضالتها وشكلها البدائي أن تضيع ، لولا أن الكنيسة انقذت ما يمكن انقاذه . وفي كل مكان ، في القرى كما في المدن ، وجدت مدارس يديرها الكهان ، ولكن التعليم فيها كان قاصراً على الضروري : القراءة ، والحساب (بغية تعيين الأعياد الكنسية) وانشاد المزامير .

يرى من العبث محاولة تعداد وظائف الاسقف . فقد كان يتدخل في كل شيء ، لان الجميع يرجونه . فالشعب يرجوه الاهتمام بشؤون العائلة والدفاع عنه أمام مطالب الضريبة ، وحمايته من الكونت وعماله والتدخل لصالحه لدى الملك . كان الاسقف حكماً أعلى ، وقاضياً معنوياً ، وأباً لمن في أسقفيته . وكان الشعب يحل رعايته ، حتى أن تقواه حولت كثيراً منهم إلى قديسين . ولم ير عهد من العهود تطويلاً عفوياً للاساقفة من قبل الرأي العام كما رأى في عهد الميروفنجيين . وكانت الرأي يعتقد بأن رفاه البلد متعلق بحياة الحبر الصالح ، ولذا كان يراقب سلوكه بحرص شديد . فإذا كان متزوجاً عند انتخابه وجب عليه أن ينفصل عن زوجته ، ويعيش عفيفاً ، وينقضي عمره تحت أعين الجمهور محاطاً ، مصاناً ، تحدى به العيون والجواسيس والارصاد . وليس له أن يتمتع بنعمة الانطواء والتأمل والتفكير أو العزلة والانفراج .

وفي الحقيقة ان عمل الاسقف ساحق ولا حد لمسؤوليته ، ولا يتجشم أعماله الا الاشخاص الذين يتمتعون بجاه كبير ويتمتازون بمواهب للانقطاع للعمل ، والقيام بمثل هذه الوظيفة المليئة بالاعمال عن جدارة واستحقاق . ولهذا السبب كان الاسقف يختار في الغالب من الطبقة الارستقراطية صاحبة الاطيان ، ومن العلمانيين المتمرسين على الاعمال والوظائف الادارية العليا . ويكفي أن نتذكر أسقفية شخصيات لامثيل لها مثل سيدوان أبولينير ، أسقف الاوفيرن في القرن الخامس ؛ وآرنول أسقف ميتز ، وابلوا أسقف نويون في القرن السابع ، لنفهم ان هذا التعامل كانت له نتائج سعيده ولم تكن الاسقفية لتلائم في ذلك العصر المتأملين أو الحجولين ، ولا الرجال الاتقياء الشجعان دون نشأة طيبة ودون ثروة وجاه .

وبالرغم من أن هذه الوظيفة كانت كثيرة المتاعب فقد كان لها سحر فظيع ، ونظراً لانها غير قاصرة على الاكليركيين الممتهنين الذين لا يتوصلون اليها الا درجة درجة في السلم الكهنوتي ، فقد كانت تثير جشع العلمانيين الطموحين ، ومنهم من كان يجند كل شيء للوصول اليها بجميع الوسائل كالرشوة خاصة . ولذا كان يرى ، إلى جانب الاحبار القديسين ، كثير من المغامرين ممن لا اخلاق لهم يحتلون كرسي الاسقفية .

كفاح العقيدة ضد الهرطقات . - ويجب . الا ننتظر من الكنيسة في الغرب ، خلال هذا الدور ، أي تقدم أو تعمق في أمور العقيدة المسيحية . لقد كانت القضايا الكبرى في طبيعة المسيح موضع نقاش في الشرق ، وكانت روما نفسها ، من منتصف القرن السادس إلى منتصف القرن الثامن ، تابعة بعيداً للامبراطورية البيزنطية . وقد حاول الامبراطور عبثاً أن يرد أسقف روما إلى دور بطريرك القسطنطينية .

وامستطاعت الكنيسة الغالية أن تقهر البدعة السيلاجية التي تنكر نفاذ العفو والذنب الاصلي ، وأن تسحق الأريوسية ، بفضل قوة الفرنجة ، وفكرت أن تستجعم وتنعم بنصرها لولا أنها أحست أو أدركت قيام بعض الهرطقات القديمة والحديثة ، التي نشأت في الشرق ، مثل هرطقة بونوزوس وهي هرطقة التبنيمة التي تقول بان المسيح ليس ابن الله إلا بالتبني ، وليس من جوهر الاب منذ الازل ؛ وقد لقت انصاراً في القرن السادس ولم تتطفئ تماماً إلا في القرن السابع ؛ وهرطقة نوفاسيان المتزمت من رجال القرن الثالث ، التي أنكرت على المرتدين عن المسيحية ، تحت الضغط والاكراه ، عودتهم إلى حظيرة الكنيسة بعد ذهاب المانع ، ووجدت لها اتباعاً في منطقة الاوفيون في القرن السابع ؛ وهرطقة الطبيعة الواحدة للمسيح التي ظهرت حوالي ٦٤٥ . وعندما شجب البابا مارتن الاول هذه الهرطقة فرض على القديس أرمان واساقفة غاليا توقيعهم على الحكم ٦٤٧ . ولكن لاشيء من كل هذا بدا مقلقاً وخطراً بشكل لا يمكن مقاومته وكفاحه .

الجماع الدينية . — لقد انصرفت كنيسة غاليا قبل كل شيء إلى التنظيم والتهذيب . وينعكس نشاطها في قوانين الجماع التي انعقدت في القرن السادس : فقد عقد ٤٢ مجعاً من ٦١١ إلى ٦١٤ ؛ و ١٢ من ٦١٤ إلى ٦٨٠ ، والأخير عام ٦٩٥ . وترمي هذه القوانين إلى اصلاح حياة الكليركيين من محبي الولاثم والرقص وحياناً المتزوجين ، واستئصال الوثنية والاضاليل السحرية ومراعاة الصيام والاحتفال بالاعياد المسيحية ، والدفاع عن شخص الكنسيين وشخص أموال الكنيسة ضد اعتداء الافراد وتجاوز السلطة .

التعليم . — لم يكن المذهب الذي دعا اليه الاساقفة من نوعية عالية

جداً . فقد كان الاجار قليلي الثقافة . وكان القديس آفيت آخر اديب انساني في فينا ، وتوفي عام ٥٢٥ . وكان زميله القديس سوزير الآرلي يحترق الآداب القديمة ويوصي بالثقافة القائمة على دراسة المؤلفين الكنسيين وحدهم . وساد هذا المذهب . وافضل المفكرين كانوا يكتبون بهذه الثقافة الفكرية . ، ويجهلون ايضاً انتاج آباء الكنيسة الكبار الذين كتبوا بالاغريقية ، لأن معرفة هذه اللغة زالت في الغرب . ولم يكن عند المثقفين أي ثقافة فلسفية او دينية حقيقية . حقاً لقد كان ايمانهم قوياً ولكن دون ثقافة وعلى الأقل في القرن الخامس . وتقوام غير واضحة أحياناً ، ويتصورون انفسهم ، مثل غريغوار تور ، يعيشون في أعجوبة سرمدية ، ويتساهلون بقبول نوعية الحارقة . فالمصباح الذي يسقط دون ان ينكسر ، أو الحقل السليم بعد العاصفة يكفي لاثارة اعجابهم ، وحضور الشيطان يشغل اهتمامهم والفرق طبيعي بالنسبة إليهم أمر طبيعي .

صبء الوثنيين . - لقد كان صبء الوثنيين من مهمة القديس مارتن ومعاصريه ، ثم تابع تلاميذه هذا العمل بنجاح في القرن ، الخامس ولكنه توقف في القرن السادس ، عند الشعب الجرمانية على الاقل . ولم يكن مثل كلوفيس معدياً لغيره من الفرنجة ، فقد ظل الساليون والريبور والآلمان وثنيين جفاة قساة . ويبدو ان بربرية الفرنجة وجيرانهم قد ثبتت مهمة كل محاولة للتبشير عند اساقفة بلجيكا وجرمانيا ، ولم يعد التبشير الى نشاطه بحق الا في القرن السابع على ايدي الرهبان الايرلنديين والانكليز . فقد بدأ القديس كولومبان حوالي ٦١٠ ، وتلميذه سن - غال ، ثم فريدولن بصبء المان سواب وسويسرا ، وتابع هذا العمل ييرمن في القرن الثامن . وساعد تأسيس اسقفية في كرونستانس ودير في سان - غال على نجاح هذا التبشير .

وفي القرن السابع ارسل دير لوكسوي بعثات تبشيرية الى بافاريا ، وفي القرن الثامن صبت البلاد كلها . وصابت تورنجه على ايدي المبشرين السلتيين واشهرهم القديس كيليان . واخفق التبشير في الفريز ، ووجب لذلك قوة الانكليزي ويليبورود من ٦٩٠ الى ٧٣٤ يدعمه سيف بين ميرستال وشارل مارتل لغرس الايمان المسيحي في شعب الفريزون .

تبشير القوي . - لقد لعبت الاسقفية الغالية - الفرنجية دوراً ضعيفاً في صبء الوثنيين في جرمانيا بالنسبة لضخامة العمل الذي يجب القيام به لدى سكان البلاد الاصليين . وهكذا لم تكلل جهود وينفريد (بونيفاس) حواري جرمانيا بكمبر نجاح .

لقد كانت المسيحية في القرون الثالث والرابع والخامس في الغرب ديناً بين سكان المدن . اما الارياف فقد ظلت وثنية بسبب فقدان الموارد في الرجال . وقد قام بهذا العمل القديس مارتن ومعاصروه في آخر القرن الرابع ، ثم توالى بصورة مبهمه . ولم يكن بالسهل تأمين حاجات الأرواح في كل اسقفية . وكان العلم الديني في بادئ الامر قاصراً على المدن ، ولم يكن في كل مدينة سوى كنيسة واحدة . الأمر الذي يدل على ان القرى كانت محرومة من المساعدة الروحية . ووجد من المناسب بناء كنيسة في كل قرية على أن يخدمها خوري محلي وترتبط بالكنيسة الكاتدرائية في المدينة . وهكذا وجد على رأس كل كنيسة في القرية كاهن وتم هذا العمل في العصر الكارولنجي .

أصل الحياة الديرية في غاليا . - وفي الحقيقة أن الاسقف والكاهن لا يستطيعان مهما كانت قيمتهما عالية ، أن يكفيا لتغذية الحياة الروحية والعناية بها . لقد كان الكاهن في الريف قليل الثقافة ومن نشأة متواضعة وتحت رحمة الملاك الاكبر . فهو الذي ينتخبه ، وسيظل دون شأن وجاه

طوال العصر الوسيط ، حتى ولو كان صالحاً ، وهذا ما لا يحدث دائماً .
اما الاسقف فان كثرة أعماله كانت تلتهمه ولا تترك له متنفساً

وعلى هذا النحو يرى ان المصادر الحية لكل مجتمع ديني ، وهي النسك
والتصوف ، تنبع بصعوبة في اوساط الاكليروس العصري . ولذا انتشرت
هذه النزعة في عالم الاكليروس النظامي ، بين الرهبان والراهبات . ولقد
نشأ للنسك بشكله المزدوج التقشف والعيش المشترك في بلاد الشرق كما
رأينا ، وازدهر وظل مجهولاً زمنياً طويلاً في الغرب . ويبدو ان سيرة
القديس انطون ، التي اتى بها الاسقف آثناس الاسكندري عام ٣٣٦
إلى مدينة تريف ، قد عرفت غالباً لأول مرة بأعمال التقشف التي كان
يقوم بها كبار القديسين في مصر . ومع هذا فقد لاقت حركة النسك معارضة
شديدة لدى المسيحيين العاديين والاكليروس ايضاً . وأول من نظر في
غالباً إلى النظم الرهبانية نظرة قبول ورضى ، اسقف تور ، القديس مارتن .
فقد اقربها في ليغوجية ، بالقرب من بواتيه ، وفي مارموتيه بالقرب من
تور ، والاسقف فيكتوريس ، اسقف روان .

ولم يكن القصد من ذلك لزوم حياة الدير بالمعنى الصحيح ، بل ان
اناساً اتقياء ، غير اكليركيين ، بنوا لانفسهم اخواً ووضعوا ثرواتهم
معاً وبدأوا يمارسون حياة التقشف . كذلك لم تشكل النساء المتحجبات
بعد جمعيات حقيقية ، وماكن ليجمعن الا في الكنيسة . ويعشن
في بيوتهن ، عذارى أو أيام ، متقشفات منقطعاً للعفة ، « زوجات
المسيح » .

الأديرة . — توطدت حياة الزهد المشتركة في غالباً في القرن الخامس .
وضربت المثل في ذلك مقاطعة بروفانس . ففي العام ٤١٨ رجع كاسيان
من الشرق وأسس في مرسيليا دير القديس فيكتور للرجال ، ودير

القديس مخلص (أصبح فيما بعد دير القديس كاسيان) للنساء . وفي العام ٤١٠ ، اعتزل هونورا في جزيرة لورن في خليج كان ، وأصبحت لورن بعد سنوات قليلة ملجأً للقديسين ومدرسة تجهز كنائس جنوب غاليا باسائذة المذهب والاحبار الافاضل . وعندما أصبح هونورا اسقف آرل عام ٤٢٦ ، أسس ديراً في جزيرة في نهر الرون . ثم بنى أحد خلفائه ، وهو القديس سوزير ديراً للنساء سمي دير القديس سوزير الآرلي . وأنشئ عدد عظيم من المؤسسات في أبرشية فينّا واشهرها دير غريني . وفي القرن السادس بلغت الحركة غاليا الشمالية . وقام الاساقفة بهذه المبادأة . فقد كان اكثرهم اغنياء ويستطيعون أن يستخدموا مالههم في هذه المؤسسات ، كما كانوا احراراً باستعمال الموارد الخاصة بالكنيسة الكاثدرائية . ولذا كانت هذه الأديرة تحت اشراف الاسقف بشكل وثيق .

ولكن الملوك والملكات بدورهم انشأوا مؤسسات غنية جداً . فقد انشأ كلوفيس وكلوتيلد ، على راية تطل على باريس من الجنوب ، ديراً أخذ فيما بعد اسم دير القديسة جونيف . وبنى ابنها شيلدوير ديراً في آرل ، وأسس مع الملكة اولتروغوط بالقرب من باريس دير سانت فانسان الشهير والذي سمي فيما بعد سان جرمن دي بريه . وأنشئ كلوتير دير القديس - ميدار في سواستون . وقلدت الملكات الملوك .

وهي القرن السابع أخيراً دخل الكبار حلبة التنافس والزحام في بناء الأديرة ، وأحياناً شاركوا الملوك ، وهكذا عم بناء الأديرة .

الرهبان الايرلنديون . - وفي آخر القرن السادس ، حوالي العام ٥٩٠ ، أتى سكوتيون من ايرلندا إلى القارة بشكل جديد للتكشف والنسك واقاموا منعزلين في اطراف الغابات ، وأشهرهم كولومبان . فقد

أسس في أسفل جبال الفوج أديرة آنتغري ، لوكسوي ، فونتين ، ثم هرب من حرب برونهيو وانعزل مع رهبانه في ريشا . وقبل عام من وفاته (٦١٥) ذهب إلى ايطاليا وأقام على منحدرات الآبن في بويو .

و كثرت المؤسسات من النموذج الايرلندي في القرن السابع في آليانيا والازراس وبورغونديا وفي فرنسا في ابرشية مو وقام الرهبان بحركة تبشير نشيطة . ولقد رأينا ان جنوبي المانيا قد صبا خاصة على يد السكوتيين . وقد وجهت المؤسسات حسب « طريقة » القديس كولومبان . ومن المشكوك فيه أن توجد قبله في غاليا انظمة مكتوبة للحياة الديرية . وفي القرن الخامس حكم كاسيان وهونورا بموجب جاهها الشخصي . وجرى من بعدهما على تقليدهما . وحرر سوزير اسقف آرل من ٥٠٣ إلى ٥٤٣ قاعدة لرهبانه وراهباته استلهمها من تقاليد لورن حيث نشأ . ولاقت هذه القاعدة نجاحاً عاماً . وإذا نجحت قاعدة كولومبان ونشرها تلاميذه في كل مكان ، فان هذا النجاح كان مؤقتاً ، باعتبارها غريبة عن غاليا وجرمانيا ، فضلاً عن أن الاكليروس العصري كان ينظر اليها نظرة سيئة .

قاعدة القديس بندكت (حوالي ٤٨٠ - ٥٤٧) . — أما المستقبل فكان لقاعدة أخرى وهي القاعدة التي وضعها ايطالي يدعى بندكت نورسيا أب دير مون كاستينو المتوفى عام ٥٤٣ ، وهي تقع في ٧٣ فصلاً ، وتعتبر قانوناً حقيقياً للحياة الديرية . ولم يكن الراهب البندكتي متأملاً فقط يفرض على نفسه تقشفاً غير طبيعي كآباء الصحراء المصريين والسوريين ، بل كان يخضع للعمل اليدوي والمطالعة . ويتكيف النسك حسب هذه القاعدة مع اقليم اوربة ومع المزاج الغربي . وظلت هذه القاعدة زمناً طويلاً مجهولة في غاليا ، وبعد أن نفذت اليها ، حوالي العام ٦٣٠ ، لاقت تحبيذاً

وآثارت تقوى ديرانية جديدة . وفي بداية القرن الثامن حلت قاعدة القديس بندكت محل قاعدة كولومبان وقواعد أخرى غامضة .

تحاول القاعدة البندكتية التوفيق والتوازن بين التأمل والتأربن الدينية والعمل اليدوي والفكري وتطبيق الفضائل المسيحية .

الدير - فالدير يجب أن يها فيه كل ماهو ضروري من ماء وطاحونة وحديقة ومشاعل لممارسة المهن المختلفة في داخل اطار الدير .

الأب - وعلى من يقبل منصب الأب في الدير أن يحكم تلاميذه بتعليم مزدوج وذلك بان يطبع فيهم كل ماهو صالح وسليم بالقول والفعل .

وان كل شيء يجب أن يعمل حسب ارادة الأب .

العمل - البطالة عدو الأرواح . وعلى الاخوة في الدير أن يخصصوا ساعات للعمل اليدوي وأخرى لقراءة الأشياء المقدسة .

التضامن والخضوع - وعلى الاخوة أن يتبادلوا الخدمة فيما بينهم ، وان يقوموا جميعاً بخدمة المطبخ ولا يعفى الواحد منهم إلا اذا كان مريضاً او أوكل إليه عمل أكثر أهمية وفائدة للدير . » وعلى كل من يغادر خدمة المطبخ في آخر الاسبوع ان يكنسه يوم السبت وينظف كل ماله علاقة بهذه الوظيفة . فعليه أن يقوم بغسل كل ما أفاد في مسح أيدي اخوته وارجلهم ، وعليه أيضاً وعلى سلفه أن يغسل ارجل جماعته كلها .

الفقر - واذا ملك أخ شيئاً ما فعليه أن يوزعه على الفقراء قبل دخول الدير أو يهبه الى الدير هبة شخصية دون أن يحتجز شيئاً منه لنفسه .

وعليه أن يعلم منذ اللحظة الاولى بأنه لا يستطيع التصرف بجسده الخاص .

القراءة العامة - ويقرأ دوماً على مائدة الاخوة أن مقرباً نظامياً يقوم بهذه الوظيفة يوم الأحد ويبقى طوال الاسبوع . ويحافظ على الصمت

التام على المائدة بشكل لا يسمع فيه همس أو كلام إلا صوت المقرئ وحده . ويعنى بان يوضع على الموائد كل ما هو ضروري للشراب والطعام ، وعلى الاخوة أن يخدم بعضهم بعضاً بشكل لا يحتاج أحد منهم الى طلب شيء .

ولقد تمتعت المؤسسة الديرانية اكثر من الكنيسة الكاتدرائية بحظوة المؤمنين والملوك ، واغدقت عليها العطايا والهبات من كل نوع في القرن السابع والثامن وأصبحت بعض الاديرة مالكة لأغنى ملكيات المملكة . ولم يكن الاكليروس النظامي في أي عصر من عصور فرنسا باغنى مما كان في آخر عصر الميروفنجيين . فقد كان يتمتع بحصانات وامتيازات كالاعفاء من الضرائب ، ورسوم المرور والجمرك ونقل العربات التي تحمل السلع والاشياء الضرورية للرهبان ، كما كان يحق له ممارسة العدل في القضايا الصغرى .

ومع ذلك فقد ظل الأب في الدير والأم في ديرها خاضعين لسلطة اسقف الابرشية . وكان هذا الوضع يثقل تدريجياً كاهل ابويات « اديرة » القرن السابع الكبرى ، وحصلت من الاجار انفسهم على تحديد السلطات المطلقة التي يارسونها على الرهبان ، وسمح الاساقفة للرهبان والراهبات بانتخاب ائبهم وامهن طبقاً لقاعدة القديس بندكت . ولم يتبع هذا المثل في كل مكان وظلت الامتيازات الاسقفية نادرة في العصر الميروفنجي .

غير أن غنى الأديرة وقواها ادت لحراب المؤسسات الكنسية في عهد امارة شارل مارتل . فقد كانت موضوعة خارج الدولة ولا تؤدي لها أي خدمة زمنية ، ووجدت الألوف والملايين من الناس ، أحراراً وغير أحرار ولا يدفعون أي ضريبة ، ولا يقومون بالخدمة العسكرية ، بحجة أنهم كانوا متصرفين ، أي رعايا ابوية محصنة . غير أن ضرورة الكفاح ضد اعداء

المملكة الفرنجية من برمن واكتانيين ومسلمين اقتضت تدبيراً شديداً .
فقد وضع شارل مارنل ومحاربوه ايديهم على الاديرة ومملوكوا وارادتها .
وبالرغم من الاعادات الجزيئية التي قام بها شارلسون وابنه لويس التقي ،
وبالرغم من المؤسسات الجديدة التي اقيمت في كلوي ، سيتو وكليرفو وغيرها ،
من القرن العاشر الى القرن الثاني عشر فمن المشكك فيه أن يكون
الاكليروس النظامي قد استطاع استعادة ثروته العقارية التي كان يمتلكها
في القرنين السابع والثامن .

عبادة القديسين . — لم تكن عبادة القديسين صفة من صفات العصر
الذي امتد من القرن الخامس الى الثامن . فقد نشأت قبله وعاشت بعده .
إلا ان هذه العبادة اتسعت في العصر الميروفنجي في غالبا اتساعاً
عجيباً ومميزاً .

ان الاعجاب الذي يبعثه الشهيد في النفس كان من شأنه أن يذهب بالمؤمنين إلى
ان ينسبوا الى « ابطال المسيح » سلطة الوساطة لدى الآله الذي يتأملونه
على الدوام . فالصلوات والهدايا التي تقدم للكنائس المشادة على الأماكن
التي لاقوا فيها العذاب كانت تعتبر في القرن الثالث وسيلة ناجعة لتأمين
وساطتهم القادرة على كل شيء . وعندما أصبحت الامبراطورية مسيحية
انتقل الاجلال الى النساك ، ومنهم الى اساقفة اتقياء محسنين خاصة . وكان
ينسب اليهم عند وفاتهم هبة الخوارق كالشهداء ، وأحياناً تتوطد شهرتهم
بالمعجزات التي تصدر عنهم في حياتهم .

المخلفات . — كانت المنطقة ، التي تحافظ على مخلفات شخص قديس ،
تعتبر سعيدة لأن هبات السماء تنزل عليها ، ولأن هذه البقايا تملك صفات
فوق طبيعية ضد امراض الجسم والعقل .

وكان يبحث عن هذه المخلفات بشئ الوسائل المشروعة وغيرها . ومع هذا فقد كان الناس في هذا العصر يحجمون عن تشويه الجسد المقدس لاقتسامه بين المعجبين به ، وكانوا يكتفون بغبار ضريحه ، وبقطعة من لباسه اعتقاداً منهم بأن السلطات الفوق طبيعية تتصل بكل شيء يمس الجسد المقدس .

ولم تصنف هذه السلطات بعد ، لأن القديسين يصبحون في المستقبل اختصاصيين في شفاء مرض من الأمراض ككبار الأطباء في عصرنا . ولكن كان بينهم ذوو شهرة كبرى . ولذا اقتضت الضرورة زيارة ضريحهم لكسب فضلهم . وكلما كانت المسافة طويلة ومصحوبة بالمتاعب والاضطراب كلما كان طالب الوساطة أكثر استحقاقاً ، لأن الثواب على قدر المشقة . ومن هنا راج الحج إلى المزارات المقدسة .

وكانت مراكز العبادة كثيرة لا حصر لها . ولكن وجد في الغرب مركزان يفوقان غيرهما وهما : روما ، وتضم بقايا القديسين الحواريين ، القديس بطرس في الفاتيكان ، والقديس بولس على طريق اوستي ؛ وتود التي تقوم بالقرب منها كنيسة القديس مارتن ، ويعتبر هذا القديس قديس غالباً القومي ، وكان الميروفنجيون يبجلونه دون سائر القديسين ، وكان غضبه كالجأ لشراسمهم .

المسيحية والوثنية . — من الممكن ان يتساءل ما إذا كانت عبادة القديسين هذه بقية باقية من عبادة الآلهة والابطال القدامى : « اليس القديس الشهير إلهاً متكرراً فاراً من البانتيون (مدفن العظام) ومرتبداً البسة رثة مسيحية » ! ولكن هذه النظرية لا تسمع الا بتشابه سطحي وبتقارب يمكن الرد عليه ، وليس لها في جميع الأحوال تطبيق في غالباً . لأن المقدسين المبجلين في هذه المنطقة كائنات واقعية وغير اسطورية مطلقاً .

ويكفي لايضاح عبادة القديسين ، ان يمثل « الألم فوق طبيعي وحاجة الايمان بالاتصال المحسوس بالله » عند المسيحيين ، كما هي الحال عند الوثنيين ، حاجة عميقة للنفس البشرية .

ولا يمكن أن ينكر ان انتصار المسيحية اتى إلى الكنيسة بمجاهير غير مهيأة بصورة كافية للحياة الجديدة . وظلت هذه الجماهير نصف وثنية فرضيت عن عبادة الأبطال المسيحيين . فالاحتفالات التي احاطت بها والأفراح الدنيوية التي رافقت الأعياد الدينية كانت ، بالنسبة للشعب ، ذات جاذبية قوية . ومن سخرية القدر ان يدخل اجلال الشهداء ، الذين بذلوا حياتهم في كفاح عبادة الأصنام ، الوثنية وظاهر الوثنية عرضاً في الطوائف المسيحية .

طقوس التوبة . - لقد ظفرت الكنيسة الكاثوليكية على المذاهب المتزمتة ، كالمونتانية والدوناتية ، التي توقع المذنب في وهدة اليأس وتوشك ان تطرحه في الوثنية ، ولكنها حافظت على ضرورة التكفير عن السيئات المرتكبة ضد العقيدة والاخلاق . وقد اختص المبشرون السكوتيون بنظام التوبة الذي تصوره في ايرانده في القرن السادس ونشروه في القارة . وهذا النظام هو نظام التوبة المسعرة ، وبموجبه تفرض على المذنب توبة خاصة امام الكاهن ، دون أي احتفال ، حسب تعرفات اعمال ، تكفر عن الذنب ، مجموعة في كتيبات تسمى « كتب طقوس التوبة » . وتتناسب اعمال الكفارة مع شدة الذنوب المرتكبة ومدتها . فالجرائم الخطيرة كسفاح ذوى القربى وقتل الأب واليمين الغموس ، يحكم عليها ، حسب الظروف ، اما بالنفي او الاقامة في دير مدى الحياة او عشرة ، او سبعة أو ثلاثة أعوام . وتقضي كفارة الذنوب الأقل خطورة الصيام مدة طويلة أو

قصيرة أو تكراره خلال اربعين يوماً ، وسنوات ؛ أو الصلوات ، والجلد بالسياط ، وتقديم الصدقات .

لقد كانت غاية القديس كولومبان وخلفائه أن يفرض ، على المؤمنين المذنبين ، الاعتراف والتوبة وتقديم مساعدة سهلة إلى « صديق الروح » أي المعترف . ويرى ان التوبة اذا كانت مفصلة ودقيقة لا تترك مجالاً للتردد والهوى الفردي . غير أن التوبة على هذا النحو تعني الذهاب في اتجاه ممارسات العالم الدنيوي الذي يفهم القانون بشكل تسويات . ولكن مثل هذه التسويات قد يكون لها تأثير مشؤوم على قانون التوبة الديني ، لأن كل ذنب او جريمة يمكن ان يفتدى بالمال أو بطريق ملتوية ، كبناء مؤسسة دينية مثلاً . ومع الزمن كان لممارسة طقوس التوبة تأثير مفسد للعاطفة المسيحية والأخلاق العامة .

ان هذه اللوحة التي اعطيناها عن الحياة الدينية في العصر الميروفنجي لا تستطيع ان تقدم لنا ألواناً مشعة ، لأن كثيراً من الانجرة الكثيفة تمتد على البلاد المسيحية . فما لا شك فيه ان الشعب مسيحي حقاً ، ولكنه لا يعرف شيئاً عن العقائد ، لأن دياناته مصنوعة من مجموعة اباطيل وممارسات سحرية ، وتقواه تقوم على ظواهر وثنية ساذجة وبريئة ، فضلاً عن ان الكنيسة لم تستطع أو لم تعرف كيف تطف وتخفف ببرية السلاطة الحاكمة ومن حولها .

يضاف إلى ذلك أن الاكليروس نفسه لا يخلو من العيوب . فقد كان التعليم الديني في الارياف بائساً ، والغيرة على الدين والاخلاق ظاهرية ومدعاة للشك والظن ، والتعليقات القانونية التي تفرض عزب الكهان ظلت في الغالب حرفاً ميتاً طوال العصر الوسيط . ويدلنا غريغوار تور

وقوانين المجامع الدينية المحلية على أن بعض اعضاء الاكليروس كانوا طموحين جشعين دون ضمير ، يفترون الكذب على اسقفهم ويشكونه للملك لأتفه الامور ؛ وان الاحبار نفسهم كانوا ضعيفي الثقافة ، ويشاركون قطيعهم اذليله وأوهامه . وقد وضعت الملكية يدسا على الأسقفية واقامت في الغالب إلى جانب الاساقفة المقدسين موظفين غير اكفاء للقيام بعمل . ومع الزمن تفاقم الشر ، وفي القرن السابع ، وخاصة في النصف الثاني منه كان الاسقف أميراً كبيراً غنياً يشارك في مكائد القصر أو يحرص عليها ، حتى ان بعض الاساقفة الفوا لأنفسهم امارات ولم يهتموا بامور الدين ، كما تدل على ذلك ندرة المجامع الدينية المحلية ، بعد أن كانت كثيرة ، وزوالها أخيراً من ٦٩٦ إلى ٧٤٢ .

واستطاع الاكليروس النظامي ان ينقذ الكنيسة المسيحية من الحراب والدمار الروحي والاخلاقي . ولكن ليس في ذلك ما يدل على أن آباء الاديرة والرهبان كانوا مثال التقوى والصلاح ، لان غنى الاديرة كان خطراً على الحياة النسكية والمادية . بيد أن الروحانية على ما يبدو كانت اقل ظلاماً في الاديرة منها في سلك الاكليروس العصري .

وبالرغم من هذه العيوب التي تلتصق لوحدة الكنيسة الميروفنجية فيجب الا يحكم عليها بشدة ولا سيما اذا تصورنا أنها كادت تنهار تحت ضربات الغارات البربرية وضياع الحضارة بعد أن فقدت كل قوة معنوية . حتى ان الافلاطونية الحديثة ، وهي الفلسفة الوحيدة التي ظلت حية ، لم يكن لها من تأثير الاعلى عدد قليل من الاتباع . ولم يخل هؤلاء من الاضاليل التي يتساوى فيها المسيحيون والوثنيون . ولدايجب الاعتراف دون مواربة ان القليل من المثل الاعلى ، في هذا العالم المضطرب وفكره المتقهقر ، قد التجأ إلى الكنيسة المسيحية وقاما وجد في غيرها .

وكذلك الاحسان لم يجد له ملجأً غير الكنيسة . ولم يجد الفقراء والجياع والاسرى والسجناء من معين الا الاسقف أو الاب للتخفيف عن شقايتهم . ولقد كان الاساقفة في الغالب جهلاء طموحين شكاكين ولكن احسانهم الواسع يغفر لهم صغائرهم وضعفهم .

ولولا المدارس الاسقفية والديرية وتشغيلها النساخ بنسخ المؤلفين القدامى لما وصلنا أي أثر كلاسيكي . وفي الدير وحده وجدت العاطفة الصوفية موئلاً وملجأً . ففيه بحثت النفوس المضطربة المتقززة من قبح العالم وشروره عن ملاذ لتعيش حياة فوق طبيعة . وفي الكنائس وجد الآثون والفارون من غضب الملوك وحقد الكبار حرارة العطف والايواء لأن الدين يحب الرحمة ويشفق على المنكودين . وأمام المذبح وقف الاستبداد الملكي لاهناً يخشى سلاح الخويمان الذي شهره الاسقف في وجه كل معتد أثيم .

المملكة الفرنجية

حكم السلالة الطارونجية

٧٦٨ - ٨٩٩

الفصل السابع

تأسيس الامبراطورية السكارولنجية في الغرب

٧٦٨ - ٨٠٠

بداية الحكم . - لقد كان عمل بين القصير عظيماً ولكنه لم يحين ثماره إلا بفضل ابنه البكر شارل ، فقد استطاع هذا الأخير بسلطته ونفوذه ، خلال خمس واربعين سنة من حكمه المجيد ، أن يصبح سيد الغرب دون منازع .

ولد شارل عام ٧٤٢ ولكن انساله كانوا يسمونه شارل الكبير أو شارلومان . ولقد كان أول عمل يتطلب منه الحفاظ على مملكة بين وشدة تماسكها . لأن بين عاود الخطأ ، الذي ارتكبه ملوك الميروفنجيين وولد كثيراً من المنازعات ، وهو تقسيم المملكة كإرث بين اولاده .

اعتلى العرش كل من الأخوين عام ٧٦٨ وكانت عاصمة شارل نوتون وعاصمة كارلومان سواستون . ولكن التفاهم بينها كان قصير الامد . فلم تمض سنة على اعتلائها العرش حتى قامت ثورة في اكيثانيا ، فطلب شارل

من أخيه المساعدة فرفض كارلومان . ولكن شارل استطاع ان يعيد اكينيا إلى حظيرة الطاعة .

وفي بدء عام ٧٧٠ تصالح الاخوان بفضل مساعي امها برتراد . ويبدو ان شارل قد تأثر كثيراً بأراء أمه فوجه سياسته في اتجاه سلمي ، وبمساعيا تم اتفاق بين ملك الفرنجة ودوق بافاريا . وفي هذه السنة أيضاً زوجت ابنها ديزيره ، بنت ملك اللومباردين ، وعملت على التفاهم بين المملكتين . ولكن البابا احتج على هذه السياسة التي قد تؤدي إلى التفاهم على حسابه . ولم ترض هذه السياسة كارلومان ، لأنه كان يخشى على نفسه من التطويق . ولم يمض شهر على اتفاقها الا وتوترت العلاقات بينها من جديد .

ظهر اختلاف في مشاكل روما : وذلك أن البابا بولس الأول مات في ٢٨ حزيران ٧٦٧ م . وكانت الارستقراطية العسكرية في روما تكره البوروقراطية الاكليزيكية ، التي تمتعت بالسلطة في عهد البابوين الاخيرين . فقد قام الدوق توتو على رأس الميليشا وفرض على الجميع انتخاب اخيه قسطنطين . وكان هذا علمانياً ، ولكنه استطاع في عدة أيام أن يحصل على جميع القاب الاكليروس ، حتى توج في ٥ تموز ٧٦٧ بابا في روما . ولكن حزب الاكليروس لم يقف مكتوف الايدي تجاه هذا العمل ، فقام رئيسه كويستوف وطلب النجدة من ملك اللومباردين فانجده ، وبفضل الجنود التي ارسلها هذا الأخير ازيع قسطنطين وسملت عيناه . وفي ١ آب ٧٦٨ نادي الحزب الفاتر باتيين الثالث بابا في روما . وسعى هذا البابا أن يمنع كل محاولة من هذا النوع تعتمد على القوة . وفي الجمع الذي عقد في لاتران عام ٧٦٩ ، وكان بين أعضائه اثنا عشر اسقفاً

فرنجة ، تقرر ان الكهان والشاسين في روما يمكن انتخابهم لكروسي البابوية على الايشترك أي علماني في الانتخاب .

وقلت اتين الثالث من تحالف شارل مع ديديه ملك اللومباردين ولكن برتراد أتت الى روما وأخذت على ديديه وعداً لارجاع المدن والأراضي المنازح عليها . وهذا التقارب اقض مضجع كريستوف الذي طلب مساعدة اللومباردين ، ولكنه بدأ يسيء الظن بهم وجعل يوطد علاقاته مع كارلومان . وليحول ديديه دون التدخل الفرنجي قرر الزحف على روما واتفق مع البابا على أن يسلمه كريستوف وابنه سرج فاهلكها اشياعه . وعندما طلب إليه البابا ان يستأنف مفاوضاته المتعلقة بشأن ارجاع الاراضي التي وضع يده عليها رفض ذلك بصراحة .

وادر ك شارل الحظر الذي ينجم عن نفوذ ديديه في روما . وفي صيف ٧٧١ ردّ دزيرة الى أبيها ، وفصم عرى التحالف الفرنجي اللومباردي . وتزوج في آخر السنة هيلدوغارد من أسرة دوق البانيا . وفي ٤ كانون الثاني ٧٧١ توفي كارلومان في شاموبي . فبادر شارل الى احتلال مملكة أخيه بينما كانت أرملة جيربرج وولداها ييحنون عن ملجأ لهم عند ملك اللومباردين .

شارلومان وايطاليا . — منذ زمن بين القصير ارتبطت ايطاليا بالبابوية ولفتت انتباه شارل ، وشغلت في سياسته مكاناً هاماً . ولقد دلت حوادث السنوات الأخيرة الخمس ان البابوية لاتستطيع ان تستغني عن الحماية الفرنجية . وعندما توفي البابا اتين الثالث خلفه هادرين على كروسي البابوية . وكان ديديه ملك اللومباردين حريصاً على تحقيق برنامج اسلافه . ورأى ان الوقت مناسب لتحقيق الوحدة الايطالية تحت سلطته لاسيا وانه وجد فرصة في التجاء اولاد كارلومان الى بلاطه . وطلب الى البابا أن يبارك

أولاد كارلومان ليحول دون تفاهم شارل مع البابا . ولكن البابا رفض وما كان من ديديه الا أن زحف على روما مستولياً على البلاد التي مر منها في طريقه ، وأصبحت روما في حالة دفاع . وعندها جدد هادرين مافعل اثنين الثاني واسترحم المساعدة والنجدة من ملك الفرنجة . واستقبل شارل رسول البابا في ٢ كانون الثاني عام ٧٧٣ ، وكان مشغولاً آنذاك بمحدود مملكته الشرقية ولذا رجح اجتناب الحرب في ايطاليا . وحاول أن يتفاوض مع ديديه ، حتى انه أراد ان يقدم مبلغاً من المال اذا أصلح اخطائه مع البابا ، ولكن عبثاً حاول لأن ديديه كان مصمماً على فرض ارادته . وزحف على روما مصطحباً معه أولاد كارلومان لياركهم . حشد هادرين تحت أسوار المدينة حرس دولة الكنيسة وهدد ديديه بالحرمان أي بالخروج عن الجماعة اذا تابع سيره فخاف ديديه وعاد أدراجه .

ولكن الخطر كان يهدد شارل لأن ديديه اذا نجح في محاولته وأخضع روما فربما أثار حوله المنافسين من أبناء أخيه . ولذا وجب أن يقرر بالمبادرة الى السلاح والحرب ، وقد جهز جيشين : احدهما تحت ادارة برنار عم الملك ؛ والآخر تحت ادارة شارل نفسه . ودك الحصون اللومباردية في جبل سوني ، وعندما التقى الجيشان في سهل البر وقعت الهزيمة الكبرى . وفر ديديه إلى بافيا وحاصر فيها ، وكان ابنه آداليز في فيرونه مع ارملة كارلومان وأولادها . ولكن فيرونه لم تقاوم واستطاع آداليز أن يفر الى بيزنطة وسلمت جيبررج وأولادها الى شارل . وبقيت بافيا تدافع بقوة . وفي هذه الأثناء أراد شارل زيارة روما ليصلي على ضريح الرسل (الحوارين) . وتلقى هادرين الخبر بمفاجأة وخوف ، غير أنه تماسك واستقبل « حامى الرومانيين » باحتفال مهيب « بما هو أهل له . والتقى الملك والبابا في كنيسة القديس بطرس ، وتبادلا الايمان والضمانات المشتركة ، وبعد

أن استسمح شارل من الحبر الأعظم دخل روما . ثم طلب البابا من شارل تجديد هبة أبيه للبابا في كيرسي عام ٧٥٤ ، فأعطاه نيابة رافينه ودوقتي سبوليت وبينيفن والبندقية وايستريا . وهاتان الأخيرتان ايلالتان بيزنطيتان ، ولم يكن لديه مبور للتصرف بهما . وكتب صكاً بذلك الى البابا ، ثم عاد الى بافيا ، وسلمت الحامية وأخذ ديديه وعائلته اسيراً الى ليج . ولم يكتف شارل بضم لومبارديا للملك بل أعلن نفسه ملك اللومبارديين وهذا اللقب الجديد يدل على أنه يريد أن تكون له في ايطاليا اليد الطولى ويمارس فيها سلطة الحكم الفعلية . ولكنه ترك الى المملكة اللومباردية موقفاً حكماً ذاتياً موسعاً واكتفى بتسمية بعض الأدواق ووضع حامية في بافيا . وأعاد الى البابا الأراضي التي اغتصبها ديديه عام ٧٧٢ . وسبق أن وعد بالتخلي عن بولونيا وايمولا منذ ٧٥٦م ولكن هذا الوعد لم ينفذ .

ان وقوع المملكة اللومباردية في يد شارلومان اوقع مصالح البابوية ومصالح المملكة الفرنجية في اختلاف . ولقد كان فتح المملكة اللومباردية بالنسبة لشارل ، يعتبر نهاية لمرحلة ، وذلك لأنه يعتبر نفسه قد تحرر من جميع المشاغل التي تقلق راحته من جهة ايطاليا الشمالية ، ويرى الآن أن باستطاعته ان ينصرف بتكليفه الى مشاكل ساكس ، وكانت تتطلب من قبله تدخلاً جدياً . أما البابا هادريان ، فعلى العكس ، كان يرى ان هذا الدور الجديد ، الذي فتح أمامه ، انما هو دور تحقيق لاحلام سابقة . لان الوعد ، الذي قطعه الملك على نفسه ، يمكنه من ان يجني منه بعض الفوائد المباشرة وذلك بانهاء ما قد بدىء به منذ بين ، والاعتماد على ما أمناء به الملك الفرنجي .

وما كاد شارلومان يضع يده على العرش اللومباردي الا وطلب الحبر

الاعظم ان يتدخل لصالحه . فمن ذلك انه كان يأمل من شارل أن يؤمن له الجلاء عن الاراضي التي يطمع الكرسي الأقدس برجعها اليه . ويرى ان شارل عندما اتى الى روما قد صرح علناً بأنه لن يستسلم لشهوة « الذهب والأحجار الكريمة والفضة » ولن يتعطش للمجد أو الفتوحات بل ان جل ما يطمع اليه ، كما كان ابوه من قبل ، ان يناضل ليعطي الحق إلى القديس بطرس ، ويرفع من شأن كنيسة الله المقدسة ويزيد في سلامة رئيسها وأمنه .

وحدث ان علم هادريان بمؤامرة تدبر ضد شارل والبابا وتضم دوق فريول وسبوليت وبينيفن وشيوزي حول آدالجز ، وربما كانت هذه المؤامرة تلقى عوناً من بيزنطة . ووقع أن شق دوق فريول عصا الطاعة وحده ، فاراد شارل أن يقضي على هذه الحركة قبل ان تتسع وتم له ذلك والغى الدوقية ، ووضع فيها حاميات فرنجية وكسرت كل مقاومة في ايطاليا الشالية .

وشغلت حروب ساكس واسبانيا شارل فلم يأت الى ايطاليا الا في آخر العام ٧٨٠ . وقضى بضعة أشهر في تنظيم المملكة اللومباردية وحضر عيد الفصح في روما عام ٧٨١ ، حيث عمد ابنه الثاني بين وباركه البابا المباركة الملكية مع اخيه لويس ، ولقب بين ملك ايطاليا . اما من الناحية السياسية والعسكرية فقد طبق شارل اصلاحاته الادارية والقضائية في ايطاليا واوجد كونتات مستحدثين عوضاً عن القدامى .

وفي غضون هذه الفترة كان من السهل ابرام اتفاق بين شارل وبيزنطة ولا سيما بعد أن مات الامبراطور ليون الرابع (٧٨٠) وقامت على الرصاية الامبراطورة ايرينه مكان ابنها قسطنطين السادس . ولقد كانت

ايرينه ترغب في اعادة عبادته الصور وتقربت من البابا والكنيسة الغربية . وفي العام ٧٨١ قدم وفد بيزنطي على شارل يطلب يد ابنته روتروود الملك الحدث وابرم عقد الخطبة .

وكانت حروب ساكس تستوعب نشاط شارل . فقد اكتشف مؤامرة دبرت للقضاء عليه . وتأثر شارل لهذا الحادث حتى فرض على جميع الشخصيات الكنسية والعلمانية بين الولاة . وبعد ان هدأت الاحوال عاد الى ايطاليا لحل المشاكل البيزنطية ، لان البابا كان يتهم دوق بينيفن بالتآمر على شارل ، ولكن هذا الاخير اضطره إلى الطاعة .

وفي هذه الاثناء ، وبينما كان شارل في كلبو ، جاءه وفد من ايرينه ليخبره بفسخ الخطبة بين قسطنطين وابنته روتروود . ويبدو أن الامبراطورة خافت من أن تعمل كبتها في المستقبل على تخفيض سلطتها ونفوذها الخاص . يضاف إلى ذلك أن ظفر الفرنجة كان يؤلف خطراً جديداً أكبر من الخطر الذي كان يهدد به دوق بينيفن أراضي بيزنطية في ايطاليا .

على أن جهود ايرينه في ارجاع الكنيسة الشرقية إلى حظيرة الدين الخفيف ، بعد أن حكم مجمع نيقية على عبادة الايقونات بالبطلان (ايلول- تشرين الأول ٧٨٧ م) ، جعلت للامبراطورة بعض الخطوة في روما . وليعدل شارل من حديثها فيما اذا وقع يوماً ما في خلاف مع بيزنطية تحلى للبابا عن جنوب توسكانا اللومباردية وعلى شاطئ غروسييتو و بيومينو وعاد إلى فرنسا .

ولكن أمير بينيفن لم يسلم البابا المدن والاراضي التي وعد بها . غير أن هادين كان يخشى ما هو أخطر من ذلك ، لأن دوق بينيفن آريشيس

كان يفاوض بيزنطة بمعاهدة دفاعية على أن يحصل في حال النصر على منصب باتريس (حامي) ويمثل الامبراطور في ايطاليا وحتى في روما . ولكن المنية وافته ورفض البيزنطيون أن يتعهدوا بشيء لبيزنطة خوفاً من أن يحرم شارل ابن دوق بينيفن ، غريوالد ، من حكم الدوقية . وكان البابا يرغب في ضم بينيفن له ، ولذا أشار على شارل الا يسلم غريوالد السجين الذي أخذ رهينة بعد مؤامرات أبيه . وفصل شارل النزاع باعتراف غريوالد بسلطته ووضع جنود بينيفن تحت تصرفه فيما إذا فاجأه هجوم بيزنطي محتمل الوقوع . وقعت الحرب عام ٧٨٨ غير أن القوى الامبراطورية ، وكان يرافقها آداليز بن ديديه ، كسرت ورجعت على عقبها . وربما يكون للتدابير التي اتخذها الملك ضد بيزنطة التي قاومت عبادة الصور ، دخل بهذا الخلاف .

لقد كان لحوادث النصف الثاني من القرن الثامن تأثير عميق في ممارسة السلطة في روما والأراضي التابعة للبابا . وكان هادرين كأسلافه يمارس الحكم المباشر فيها ويسهر على حسن ادارتها . وحاول أن يصلح أسوار المدينة وبحاري الماء فيها . ولكن الحادث الجديد الذي يجدر ذكره هو زوال السلطة الامبراطورية بالتدريج . ومع هذا لم يقطع هادرين علاقاته مع بيزنطة ، ولم يتوجه اليها إلا بكل تقدير واحترام ، ولم يشك بسلطانها وسيادتها ، ولكنه كان يعمل كما لو كانت غير موجودة . فنذ عام ٧٨١ كان يؤرخ مراسيمه بسني بابويته ، ويضرب النقود باسمه وصورته ، وكان عمال الامبراطورية القدامى طوع أمره .

غير أن هنالك سلطة أخذت تتكشف بأنها أقوى من سلطة البابا وهي سلطة « حامي الرومانيين » . وظن هادرين أنه الفى في هذا الحامي ما يجعله في مأمن من جميع الأخطار الخارجية وحليفاً له

في سياسته التوسعية الأرضية ، ولقد رأينا كيف اخفقت آماله هذه .
 لقد كان شارل حامياً له وسيداً : فقد كان يطلب إلى سكان دولة البابا
 أن يقسموا له يمين الطاعة وللبابا أيضاً ، ويراغب حكومة الحبر الأعظم
 ويتقبل الظلامات من رعاياه . ولقد شبت دولة الحبر الأعظم في آخر
 بابوية هادرين بأمارة كنسية ذات حصانة تتمتع ببعض السيادة ولكنها
 تعتبر داخلية في نطاق الدولة الفرنجية .

ولما مات هادرين في ٢٥ كانون الأول ٧٩٥ كان خلفه ليون الثالث .
 ورغم أن انتخابه كان بالاجماع ، الا انه اصطدم بعداء الارستقراطية
 العسكرية والعائلية . وهذه المعارضة اضطرته أن يضع نفسه تحت تصرف
 الحامي ، وأرسل اليه راية المدينة ، رمز القيادة العسكرية . وهذا اعتراف
 صريح بسلطة شارل وتفوقه ، ورجاه أن يعث إليه بكبار دولته ليتقبلوا
 يمين الشعب الروماني . وقد أوفد شارل لهذه المهمة مستشاره انجيلبرت
 وأوصاه أن يتحدث مع البابا في شؤون الكنيسة ، وينصحه أن يكون
 حسن السيرة ، ويبين له أخيراً حدود فاعليته . وخصص شارل لنفسه
 دوراً نشيطاً وهو حماية كنيسة المسيح أي المسيحيين جميعاً ضد هجوم
 الوثنيين أو الكفار وصيانة الدين الحنيف من كل شائبة . وما على البابا
 إلا أن يساعده في مهمته بالابتغال إلى الله تعالى والدعاء له . وهذا معناه
 أن ليون الثالث أصبح أسقفاً كأساقفة الفرنجة .

توسع الفرنجة في الشمال — الشرقي

خضوع الفريز .- في الشمال الغربي من وستفاليا بين أفواه نهر الراين
 ومصب الفيزر كانت تسكن أقوام الفريز ، وهي أقوام قريبة من أقوام
 الساكسونيين وتتشابه معها في شروط الحياة والاخلاق والعادات والعقائد .

وقد عرفوا باستقلالهم وشدة حرصهم عليه وعبادة الأوثان رغم الجهود التي بذلتها البعثات الانغلوا - ساكسونية منذ القرن السابع لتبشيرهم بالديانة المسيحية . ولم يخضعوا للفرنجة قبل القرن الثامن إلا ظاهراً ، حتى أن المناطق الواقعة في الشمال الشرقي من خليج زويدرزه كانت أشد مقاومة للنفوذ الفرنجي . وفي العام ٧٥٤ وقع القديس بونيفاس (وينفريد) شهيد الدين الذي أتى لبشر به بعد معاضدة يبين له . وبعد خمس عشرة سنة أُنشأ مبشر آخر من انكلترا يدعى ويلهاد فلم يوفق في كفاحه ضد عبادة الأصنام .

ولبثت الفريز في معظم اجزائها في السنوات الأولى من حكم شارلومان في حالة قلق والفتح فيها غير مستقر . غير أن محاولات الفريز للتخلص من حكم الفرنجة وسيطرتهم كانت في آخر عهدها ، وذلك لأن سحق الساكسونيين عام ٧٨٥ اجبرهم على الاستسلام . وقام المبشر ليوذغر بنشر الدين بينهم بحماسة واندفاع . وقد جعلها شارل اباله من ايلاته وقسمها إلى كوتنيات وتوجب على سكانها أن يقدموا الجنود للدخول في الجيش الملكي . ومضى وقت طويل حتى قضي فيها على الوثنية القوية والمتأصلة ، وانتشرت فيها الديانة المسيحية بفضل صبر شارلومان وحزمه . ولقد كان التبشير مساعداً ومفيداً للسياسة الكارولنجية في هذه البلاد .

فتح ساكس . - كان سكان ساكس أقواماً صعبة المراس وتؤلف خطراً على سلامة الفرنجة . وكان القتال بينها وبين الفرنجة دائماً ، إلا أنه لا يخرج عن عمليات عسكرية سريعة دون أن تكون مستمرة ومنظمة ولم ينجم عن هذه العمليات سوى هدوء مؤقت ، حتى إذا لمست هذه الشعوب ضعفاً في سلطة الملك وفي الايلات الفرنجية المتاخمة لها مثل

تورنجه وهسّ والبلاد الرينانية عاودت الكرة على هذه البلاد وأعملت فيها السلب والنهب . وكانت وثنية عنيدة رغم جميع المحاولات التي بذلت لادخالها في حظيرة الدين المسيحي . وهي تشغل السهول الممتدة بين البلاد المنخفضة ونهر الإلب وهارتز وبحر الشمال وتصل إلى البaltيك حتى حدود البلاد الدانيمركية . ولم يكن بين هذه الشعوب وحدة تجمعها بل تتألف من جماعات عرقية مختلفة وميول متباينة ، منها : الوستفاليون في الغرب ؛ والأستفاليون في الشرق ؛ والانغرايون بينها والنورد-البنجيون وسكان بلاد الفيمود على جانبي نهر الإلب الأدنى . وهذه الشعوب شديدة التعلق باستقلالها ، ولا تلبث أن تؤلف كتلة واحدة مذ ترى هذا الاستقلال مهدداً . وهذا ما حدث في عهد بين القصير وفي عهد خلفه مرات عديدة .

لم يكن تدخل شارلومان في أول الأمر خارجاً عن الطرق التقليدية المعروفة في قتال هذه الشعوب التي لا يراد منها سوى فرض احترام السلطة الفرنجية ، ولكن ضغط الظروف اضطر شارلومان إلى تبديل خطته وسياسته ونهضة خطة في النفوذ التدريجي الملائم في كل مرة في المشكل نفسه . اتخذ شارلومان عدة تدابير دراكونية ضد هذه الشعوب وأداع مرسوماً بقضي بنشر الحضارة الفرنجية والديانة المسيحية في ساكس ، ومن امتنع جزاؤه الموت ، وطلب الاطاعة العمياء وحرم الاجتماعات العامة والمجالس إلا التي يدعو اليها . وعاشت ساكس بضع سنين في ظل الارهاب ، ولكن أهلها كانوا يتجبنون الفرص ليزايوا نهر شارلومان عنهم ، ويقتلون الموطفين الملكيين والمبشرين المسيحيين . ولم يترك شارلومان وسيلة من وسائل القمع الا استعملها ، فمن ذلك أنه اقتلع الشعوب المتمردة من أرضها ونقلها جماعات صغيرة إلى داخل المملكة الفرنجية ، واستعاض عنها بالفرنجة

أو من غيرهم من الشعوب الموالية لشارلومان . وبفضل هذه التدابير القاسية استطاع شارلومان فتح ساكس بعد أن كلفته وكلفت أهلها جهوداً طويلة وضحايا كثيرة . وقد وسع شارلومان بهذا الفتح حدود مملكته إلى مصب نهر الإلب ، وعمل بجهد ونشاط على نشر الدين المسيحي وإزالة عبادة الأوثان .

كان فتح ساكس عظيم النتائج . وذلك لأن شارلومان ضم الساكسونيين إلى الشعوب الجرمانية المجاورة من فرنجة وتورنجيين وبافاريين وآلامان . وأمكن من هذا المزيج تشكيل المانيا ، كما أن هذا الفتح ربط شمال أوربة الوسطى بأوربة الغربية وصهر العناصر الكاثوليكية واللاتينية والجرمانية ونشأت عنها حضارة العصر الوسيط التي تعتبر أساساً لحضارة أوربة الغربية الحالية .

التوسع الفرنجي في الجنوب الشرقي

خضوع بافاريا . — كان الشعب البافاري شعباً من الشعوب الجرمانية، ويمتاز عنها بأنه لم يغادر جرمانيا ولم يتعرض لرومانيا الا في حصونها الأمامية . وقد خضعت بافاريا لحكم الفرنجة منذ عهد بين القصير . وأظهر دوقها تاسيلون الثالث اطاعته له ، وقام بواجباته العسكرية تجاه بين عام ٧٥٦ وفي الحملات الأولى التي وجهها الى اكيثانيا . غير أن سلطة بين في بافاريا كانت ضعيفة ولا يشعر بها الا قليلاً . ومن بافاريا هذه نفذت المسيحية والحضارة الجرمانية الى بلاد السلاف في سنيريا وكارانشيا .

ويبدو ان تاسيلون ملّ الحرب في اكيثانيا ، لاسيما وأنها لاتعود بالفائدة

على بافاريا ، فترك الجيش الفرنجي و أعلن استقلاله . ولم يستطع بين تنظيم حملة ضده . ثم جرى بينه وبين شارل اتفاق عام ٧٧٠ وهدأت الحال بينها ، حتى ان مفرزة بافاريا ساهمت مع شارل في الحملة التي وجهها الى اسبانيا عام ٧٧٨ . ولم يعجب شارل ان يبقى تاسيلون مستقلاً في بافاريا ويحكمها حكماً ذاتياً . غير ان ظفره في ايطاليا وساكس جعل تاسيلون في دباط فورمز يحدد تعهداته التي قطعها على نفسه تجاه بين .

ولم يكن هذا التصريح من تاسيلون الا شفوياً . أما في داخل حكومته فلم يتغير شيء . وقام نزاع بين البافاريين والفرنجة ، وخاف تاسيلون على نفسه ، فأرسل وفداً للبابا عام ٧٨٧ م يرجوه التوسط بشأنه لدى شارل فطلب هذا من تاسيلون خضوعاً تاماً . ولما لم يكن للبابا سياسة خاصة فقد هدد البافاريين بالحرمان والطرده من الجماعة اذا قاوموا الملك شارل . وهجر البافاريون دوقهم . فضاف من الطرد وسلم نفسه لشارل وتخلى عن دوقيته . غير ان شارل أعادها إليه بعد ان تعهد بالطاعة واقسم شعبه بين الولاء أيضاً . ورغم هذا فقد كان تاسيلون مصمماً على الانتقام حتى أنه حاول ان يغرر بقومه لثلاثين ألفاً لشارل . وبأجاء من زوجته ليوتغارد ابنة ديديه ملك اللومباردين ، تحالف مع الآفار والبيزنطيين الذين يحاولون الهجوم على ايطاليا . غير أن هذه السياسة لم ترق لقومه واخبروا شارل بخبره فأوقفه . وحكمت عليه المحكمة الملكية بالاعدام . ولكن شارل عفا عنه واكتفى بجز ناصيته وسجنه في جوميسج ثم في فورمز . وفي عام ٧٩٤ تخلى تاسيلون علناً أمام مجلس في فورمز عن كل حقوقه ومزاعمه في دوقية بافاريا .

كان خضوع بافاريا وملاحقها كارانثيا نجاحاً هاماً للملكية الكارولنجية

وذلك لأنه يدل على زوال الاستقلال الذاتي في هذا الاقليم ويجعل طرق التيرول ووادي الدانوب بين يدي شارل .

خضعت بافاريا لادارة المملكة العامة وطبق فيها الإرادات الملكية . وأصبحت أراضي الدوقية اموالاً للملك . هذا ولما كانت هذه الدوقية تخشى خطر غارات الآفار ، لذا رأى شارل ان يعهد بالسلطات العسكرية والادارية الواسعة الى حاكم دائم وجعل من مهامه الخاصة السهر على الثغور الشرقية .

وكما ادجت بافاريا في جسم المملكة الفرنجية فكذلك خضعت كنيسنها للكنيسة الفرنجية وعمل رئيس الاساقفة فيها على اخراج اكليروس متعلم ومنظم وغيور على الدين .

خضوع الآفار . — أتى الآفار من اواسط آسيا بعد تقلبات كثيرة واستوطنوا وادي الدانوب الأوسط من نهر تيسزا الى كلارانتيا . ولم يكن لهم حدود ثابتة وذلك لأنهم يقومون على الدوام بأعمال السلب والنهب في جميع الجهات على حساب البلاد البلقانية ومختلف مناطق اوربة الغربية . وكانوا يأتمرون بأمر زعيم عسكري يلقب بالحقان . ولبت خطرهم عظيماً حتى آخر القرن الثامن . واتفقوا عدة مرات مع تاسيلون دوق بافاريا ضد شارلومان وتعددت هجماتهم . وكان شارل يقابلهم بالقوة . ولم يكن من هذه المقابلات سوى حماية الثغور . وأخيراً ، في العام ٧٩١ ، قرر حربهم والقضاء على مقاومتهم وعدائهم . وتم له ذلك في ثلاث حملات : في ٧٩١ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ م . وبنتيجة هذه الحملات ضمت أراضي الآفار الى المملكة الفرنجية ، وقسمت البلاد الى مناطق ، والحق بعضها ببافاريا وبعضها الآخر بايطاليا . وفي كل مرة ينتصر فيها الجيش الفرنجي كان يرافقه انتصار في الدعاية والتبشير للدين المسيحي .

وبما يميز التبشير الديني في البلاد الدانوبية انه سار حسب طرق وأصول مسيحية حقيقية معتمداً في ذلك على الاقتناع واللفظ بخلاف ما كان يجري في بلاد ساكس حيث كان التبشير والتعميد معتمدين على القوة .

وكان من خضوع الآفار أن زال الخطر عن جنوب المانيا وايطاليا وحرر المستائين في هذين البلدين من الحكم الفرنجي من الاعتماد على الآفار اذا ما قاموا بحركات عصيانية أو ثورات . وتمكنت الشعوب السلوفينية والكرواتية الخاضعة للآفار بهذا الفتح من الدخول في حظيرة العالم المسيحي الغربي .

غير أنه لم يكن في سهل الدانوب الأوسط قوى كافية لايكاف الغارات الشرقية الجديدة . وذلك لأن الاستعمار الألماني والتنظيم السلافي لم يكونا على درجة من القوة حوالي آخر القرن التاسع لصد هجوم الهونغارين واستيطانهم في هذه المنطقة وجعلها خلال ثلاثة أرباع القرن منطلقاً للغارات والسلب في أوربة الوسطى .

التوسع نحو الجنوب والغرب

شارلومان واسبانيا . — كانت اسبانيا منذ منتصف القرن الثامن تعيش منفصلة عن الخلافة الإسلامية بعد أن نقل العباسيون العاصمة الى بغداد . وكان ممن نجا من فتك أبي العباس السفاح الأمير عبد الرحمن . فقد فر ونزل في المغرب الأقصى ومنه ذهب إلى قرطبة وأصبح أميرها عام ٧٥٦ م . غير أن وضع اسبانيا لم يستقر على حال، وكانت تعكره حركات العصيان منذ ٧٦٣ م التي يغذيها أنصار الخلافة العباسية من اليمانيين أو البربر . ولكن الأمير عبد الرحمن قضى عليها بين أعوام ٧٧٠ و ٧٧٧ . وفي ٧٧٧ دبرت مؤامرة ضد عبد الرحمن تسدها بغداد واشترك فيها

سليمان بن يقضان الاعرابي الكلبي والي سرقسطة ، وكان يريد الاعتماد على قوة خارجية فاستنصر بملك الفرنجة وذهب اليه في ساكس في مدينة بادربورن . وكان شارلومان في ذلك الحين على اتم استعداد ، ولا سيما بعد أن نجح في مشاريعه فيما وراء الالب والراين . وقد خامرته فكرة بسط نفوذه فيما وراء البيرينه ، أو على الاقل إظهار نفسه حامياً للمسيحيين من رعايا المسلمين في اسبانيا . وقرر أخيراً تجهيز حملة قوية . وفي ربيع ٧٧٨ جهز جيشاً وسار في طريقه إلى اسبانيا وترك في شاسنوي زوجته هيلدوغارد حيث أته بتأمين لويس ولوثير . وعندما وصل نهر الغارون قسم جيشه إلى قسمين على أن يسير كل منها بجهة يلتقيا أمام سرقسطة . فعبر الأول البيرينه الشرقية ، والثاني ، وكان تحت قيادته المباشرة ، عبر بلاد نافار ، ويسكنها البشكنس والغاسكون . وفي هذه الاثناء بلغه الخبر بأن عبد الرحمن بن حبيب أحد المتآمرين ، وكان على رأس بربر افريقية ، نادى بسيادة الخليفة العباسي في « مرسية » واختلف مع ابن الاعرابي ، وقتله عامل من عمال الامير عبد الرحمن . وساء شارلومان ذلك ، غير أنه سار بجيشه وسقطت بيد الفرنجة هويسكا وبارسلونة وجيرونا . والتقى الجيشان أخيراً أمام سرقسطة . غير أن زعيماً عربياً يدعى الحين بن يحيى الأنصاري انتهر فرصة غياب الوالي ونصب نفسه والياً على المدينة ورفض تسليمها وأنزل بشارلومان خسارة فادحة ، واضطره إلى التراجع بفلول جيشه . ولما وصل إلى بامبلون وجد أن لا سبيل إلى البقاء في نافار ودمر حصون المدينة ، وعندما اخترق منعطف رونسوفو هاجم مؤخرة جيشه مطروح وعيشون ابنا سليمان مع من انضم اليها من الغاسكون ومزقا المؤخرة . وقتل في هذه الواقعة ايجيارد قائد جيش شارل ، كرونت بالاتن آنسلم ، و« حاكم » نغر بروثانيا ،

رولان . وكانت لهذه الواقعة أثر كبير في الانتاج الادبي وشعر الملاحم . وهكذا فان حملة اسبانيا قد أخفقت وانتهت بكارثة . وانتقل بعد هذا عبد الرحمن من دور الدفاع إلى دور الهجوم وفرض ارادته على بشكنس نافار وعلى كوتتات سيرانيا الواقعة جنوب سبتيانيا والخاضعة اسماً للفرنجة .

وعندما عاد شارل من حملته في اسبانيا توقف في اكيثانيا وسعى في تنظيمها خوفاً من أن تسبب أخبار اخفاقه ثورات وحركات عصيان . فمن ذلك أن عين شارلومان كوتتات فرنجة وجعل لكل منهم كونتيتين أو ثلاث ، ووضع على الاسقفيات اناساً أمناء .

غير أن هذه التدابير لا تعتبر كافية في بلد اعتادت طويلاً أن تحتفظ بحكمها الذاتي . لذا سمى شارلومان ابنه لويس عام ٧٨١ ملك اكيثانيا واتبع في سياسته هذه خطته التي اتبعها في ايطاليا وأرضى الاكيثانيين في حبهم للحكم الذاتي .

وكانت هذه المملكة الجديدة تضم اكيثانيا ، عدا تور ، وسبتيانيا وغاسكونيا . وجعل شارلومان لابنه الصغير وصين : آرنولد وميجيناريوس وترك شارلومان لنفسه السياسة الخارجية . وفرض تشريعه على اكيثانيا . وكانت مهمة ملك اكيثانيا تنفيذ التدابير التي يتخذها ابوه . وكان هذا يتداخل بشؤون المملكة هذه بصورة مباشرة أو بواسطة رسله .

فتح التخوم الاسبانية . - كانت المنازعات الداخلية في اسبانيا لا تنقطع وقد ألفت فيها القوى الفرنجية واسطة للتدخل ومعاودة الكرة على المسلمين . وفي العام ٧٨٥ استولى الفرنجة على جيرونا ؛ وفي العام ٧٨٨ توفي الخليفة عبد الرحمن الاول ونشبت الحرب بين ابنه وخليفته هشام

واخوته ، فاغتنمها الفرنجة فرصة أيضاً للاستيلاء على المنطقة الساحلية في جنوب سبتانيا . ولكن الاحوال هدأت عام ٧٩٣ وتوطدت سلطة هشام ، فجهز جيشاً تحت قيادة عبد الله بن عبد الملك لاسترجاع ما استولى عليه الفرنجة . وعلم أن شارلومان كان منهمكاً آنذاك في حرب الآفار وليس باستطاعته أن يرسل نجداته الى الحدود الاسبانية . فاستولى على جيرونا وأحرق ضواحي ناربونة وتقدم الى قرقسونة ثم عاد ، ولكنه لم يحتفظ بالمواقع التي فتحها .

وفي العام ٧٩٥ عاود الفرنجة الهجوم واحتلوا كلردونا ، وفيش ، وكاستر على التخوم الغربية في البيرينه . ثم توالى الحملات في العام ٧٩٦ و ٧٩٧ و ٨٠٠ دون الحصول على ظفر حاسم . وفي العام ٨٠١ م توفي الخليفة هشام وخلفه ابنه الحكم الملقب بالمنتصر وثار عليه عمه سليمان وعبد الله بعد أن عفا أبوه عنها . وذهب عبد الله الى شارلومان في ايكس لاشابل يطلب مساعدته ، فأوفد معه جيشاً استولى على طليطلة بينما استولى سليمان على بلنسية . وزحف شارل ولويس ابنا شارلومان على البلاد الواقعة في شمال البيرينه وأعمالاً فيها السيف ، وقد أظهر الحكم في هذه الظروف العصبية نشاطاً وحزمًا وأجلى الفرنجة إلى ما وراء البيرينه ، وعاد إلى طليطلة بعد أن نشبت بينه وبين عمه سليمان معركة حامية قتل فيها سليمان ، وسلم عبد الله فعفا عنه . وفي غضون ذلك استولى الفرنجة على برشلونة . ويرجع ذلك الى خيانة حاكمها الذي استدعى الفرنجة طمعاً في الاستقلال بها . وأصبحت ممتلكاته الاسبانية تشمل كتالونيا ، وقاعدتها برشلونة ، وغاسكونيا والمدن الفرنجية في نافار وآراغون .

وسكنا كانت الحرب سجالاً بين الفرنجة والعرب في اسبانيا دوت الوصول الى موقعة حاسمة .

بروتانيا . - كانت بروتانيا حتى بداية القرن التاسع غير خاضعة للأسرة الكارولنجية . ومعظم سكانها من البروتون وقد أتوا اليها عندما هاجم الانغلو - ساكسون الجزر البريطانية . وهم يختلفون عن مجاورهم بالأخلاق واللغة والاشكال الاجتماعية والاوزاع الدينية والمدنية . ولم يستطع الميروفنجيون اخضاعهم رغم محاولاتهم العديدة في القرن السادس . وتعهد البروتون خلال عدة مرات أن يدفعوا الجزية ولكن هذه التعهدات لم يكن ليحل بها . ولم يعترف البروتون بتفوق الفرنجة عليهم إلا إذا لم يستطيعوا عمل شيء تجاههم . وكانوا كثيرون الشغب . لذا وجب تنظيم تخوم أو منطقة عسكرية بينهم وبين المملكة الفرنجية . وكان من حكامها رولان الذي قتل في رونسوفا عام ٧٧٨ ، وقد اضطربت الاحوال فيها بعد موته . واضطر شارلومان الى ارسال حملات متوالية لتهديتها ، ولم يستطع إلحاقها بملكته بصورة دائمة . والشيء الايجابي الذي حصل في هذه المنطقة هو تنظيم الثغور فيها أي الحصون العسكرية الرابضة على حدودها .

علاقة شارلومان بانكلترا . - لم يكن لشارلومان سلطة سياسية فيما وراء المانش ، إلا أن تأثيره كان عظيماً ، حتى أن ملوك الانغلو - ساكسون كانوا يؤدون له آيات الاحترام العميق . ولكن العلاقات السائدة بين شارلومان وملك مرسيا ، اوفتا ، سيد جنوب انكلترا انقطعت في العام ٧٩٠ بعد أن طلب هذا الامير ابنة شارلومان لاحد أولاده ورفض طلبه ، وانقطعت التجارة بين المملكتين . إلا أن العلاقات عادت ودية فيما بعد أي في العام ٧٩٦ م . فمن ذلك أيضاً أن شارل تدخل بعد بضع سنوات في المنازعات الداخلية في نورثامبريا بعد أن خلع الملك ايردولف عام ٨٠٧ بوحى من الاكليروس . والتجأ الى نيميغ بالقرب من شارلومان بعد أن أصبح امبراطوراً . وبطلب من هذا ضغط البابا على

رئيس أساقفة يورك ليخضعه الى ملكه المعزول . وفي العام ٨٠٩ بعث الامبراطور بعثة فرنجية مع رسل البابا ليعيدوا الملك الى عرشه بعد أن أقصي عنه .

كان امتداد الدولة الكارولنجية في العقود الاخيرة من القرن الثامن حادثاً هاماً في تاريخ أوربة الغربية . فمنذ موت بين اتسعت رقعة المملكة الفرنجية وتضاعفت . وأحسن من هذا أن الدولة الكارولنجية أصبحت الدولة الوحيدة الكبرى في الغرب ، وغدا الملك الذي باركه وقده ايتين الثاني معادلاً لجاره الامبراطور البيزنطي . ونافست ايكس لاشابل مقر شارلومان القسطنطينية مركز الامبراطور في الشرق ، وصارت العاصمتان مركزي السياسة في العالم المسيحي . وأخذت فكرة الامتداد تتجاوز فكرة المملكة . وإذا كانت هذه الدولة الواسعة تتصل على المصور بالامبراطورية الشرقية فلم لا يوجد امبراطورية غربية في غرب أوربة كما في شرقها !

لقد خامرت هذه الفكرة رجال العصر . وربما قال كثير منهم كما قال بين عندما رشح نفسه للملكية : « المنصب لمن يمارس السلطة بيده » . وقد كانت الظروف مؤاتية وحاسمة للدفاع بفكرة الامبراطورية ، منها : استحكام ذكرى الامبراطورية ؛ وبقاء فكرة امبراطورية الغرب رغم زوالها ؛ وعودة فكر العصر القديم لجيل يعتبر مثقفاً أكثر من تقدمه ، وتسهبه ثقافة هذا العصر ؛ وحرص سياسة الحبر الأعظم على التخلص من تبعية القسطنطينية وتعلقه بمن يعترف به دوماً ، ويتمثل هذا في شخص الامبراطور الذي يتناول التاج من يديه . وقد تعددت التاميمات الشفافة الى الامبراطورية في العقد الاخير من القرن الثامن . ففي رسائل آل كوتن ،

مستشار شارلومان ، وايجنهارد مؤرخه ومترجم حياته ، وفي أشعار تيودولف ومنافسيه . وهم إذ يحجمون أمام كلمة امبراطور إلا أنهم يستعملون الصفة « الامبراطورية » . وكانت رجال البلاط من سياسيين ومفكرين يحاولون أن يوجدوا حول سيدهم جواً ملائماً لبعث الامبراطورية . وعلى ما يبدو أن شارل تظاهر بأنه لا يفهم ما يعنون . وكان الناس فيما حوله يفكرون بالامبراطورية إلا هو وحده ؛ وربما اودته هذه الفكرة ، إلا أنه كان ينظر إلى أبعد من ذلك .

لقد كان شارلومان بربرياً وهو وإن كان بطلاً من أبطال الحضارة إلا أنه فرنجي المنبت ؛ واعتلاء العرش الامبراطوري من قبل رجل لا يجري في عروقه الدم الروماني أو اليوناني ، ذلك لعمري تجديد خطيئته ويحتاج إلى جرأة وإقدام .

الفصل الثامن

امبراطورية شارلومان

٨٠٠ - ٨١٤

تتويج شارلومان . - اذيعت عن البابا ليون الثالث اشاعات سيئة ومني بها الى شارلومان ، فرأى أن ينصحه ، ويعيش شريفاً ويحترم قوانين الكنيسة . واستثمرت هذه الاشاعات ضد الحبر الاعظم فئة من الارستقراطيين والكنسيين ممن كانوا ينعمون بالخطوة في عهد البابا هادرين ورأوا أنفسهم في الحاضر قد حرموا من امتيازاتهم وناب عنهم قوم آخرون . ودبرت مؤامرة هوجم على أثرها البابا وجرح ، حتى أن المتآمرين حاولوا سمل عينيه وقطع لسانه ، وسجنوه أخيراً ، غير أنه استطاع أن يعود في الليل الى كنيسة القديس بطرس حيث أتى دوق سبوليت وألجأه في عاصمته .

وما علم شارلومان بالحبر إلا وأرسل يستدعي البابا فليحق به هذا في بادربون . وبعد بضعة أيام على وصوله ، تبعه رسل من أعدائه ، وانهموه أمام شارلومان بالزنا ونكث اليمين وشهادة الزور . وتردد شارل فيما يجب عمله تجاه البابا . غير أن رسالة من آلكنون جعلته يعدل عن كل تدبير قاس يمكن اتخاذه بحق الحبر الاعظم ، وكلف رئيس الاساقفة آرن سالزبورغ وهيلدوبالد كولونيا أن يوصلاه الى روما فأدى الرسولان الملكيان رسالتها

وأعاد البابا ليون الثالث إلى عرشه . ثم أجريا تحقيقاً فبين لهما أن جميع الشكاوى التي وجهت ضد البابا كانت خاطئة ومفتعلة وأوقفنا المتآمرين وأمرنا بنفيهم إلى فرنسا .

على أن شارل وحده ، بما لديه من قوة ونفوذ ، يستطيع أن يقطع دابر الخصام ويبيت في الأمر ، ولكنه لا يتمكن من ذلك إلا في روما . وفي ربيع عام ٨٠٠ كان في تور حيث اجتمع بمشاوريه وأصغى لأحاديثهم . ويبدو أن جميع الاعمال التي قام بها فيما بعد لا تخرج عن المقررات التي بحث فيها مع رجاله في هذا الاجتماع . وقد رأى في خريف هذه السنة أن السلام مخيم في أرجاء المملكة فعزم على الذهاب إلى إيطاليا .

وفي ٢٤ تشرين الثاني دخل شارل روما باحتفال مهيب . وفي ١ كانون الاول عقد اجتماعاً عاماً في كنيسة القديس بطرس حضره كبار الدولة من اكليركيين وعلمايين وفرنجة ورومانين . ودام الاجتماع عدة أيام بحث خلالها في التهم الموجهة ضد البابا . ومن المعلوم أن البابا ، من الوجهة الحقوقية ، لا يمكن أن يحاكم باعتباره زعيم الكنيسة . ومع ذلك فقد قرر المجلس المنعقد أن ليون الثالث ملزم ، لتبرير سلوكه ، بحلف اليمين التي تطهره من كل ما الصق به من تهم . ونفذ ذلك فعلاً في ٢٣ كانون الاول . ولحماية « الشكليات » صُرح علناً أن ما قام به البابا من حلف اليمين لم يكن إلا عملاً ارادياً خالصاً ، ولم يكن للمجلس دخل في اكراهه على ذلك . أما أهل روما فلم تحف عليهم خافية . وما من أحد كان يشك في أن شارل والاساقفة فرضوا اليمين على البابا .

وبعد يومين ، أي في يوم عيد الميلاد ، كان شارل في كنيسة القديس بطرس يحضر القداس . وبينما كان يعلي أمام « اعتراف » القديس بطرس فاجأه البابا ووضع على رأسه تاجاً ذهبياً . وما رآه شعب روما ممن كان في الكنيسة إلا وحياء بهذا النداء :

« الى شارل المبارك ، وقد توجه الله ، العظيم ، محب السلام ،
امبراطور الرومانيين ، حياةً ومجداً ! » . وبعد هذا انحنى البابا أمامه
و « عبده » كما يقتضي البروتوكول الامبراطوري الذي دشن في عهد
ديوكليسيان . ثم بارك البابا شارل الصغير بن شارلومان .

وعلى ما يبدو أن شارلومان استاء لما حدث ، لا لأنه لم يكن يتطلع
الى منصب الامبراطور ، بل لأنه يأخذ على ليون الثالث تسرع ومفاجأته ،
واقحامه الامور ؛ وربما كان يرغب في اختيار الوقت المناسب ليتفاوض
مع بيزنطة ، لا سيما وأنه يخشى بحق حقدما عليه . وعلى كل حال كان
يرغب أن يكون امبراطوراً عندما يريد ، أو على الاقل ، أن يكون
امبراطوراً دون تدخل البابا .

ولو بحثنا في قيمة هذا التتويج لرأينا أن شارلومان أصبح امبراطوراً
حسب الشكليات المتعارف عليها في بيزنطة . و « المنادة » في معناها
الدستوري تمثل انتخاب الشعب الروماني ومراسم تقليد المنصب . أما
تتويج البابا و « عبادته » فقد أضافها البابا ، ولم يكونا أكثر ضرورة مما
كان عليه تدخل البطريرك في بيزنطة . وعلى هذا فان شارلومان لم يقبض
على زمام سلطته الامبراطورية من البابا ، ولكن الظواهر بطبيعتها أوجدت
هذا الضلال ، واستطاع خلفاء ليون الثالث أن يزيده ثقة واعتماداً .

لقد كان وصول شارلومان الى الامبراطورية نتيجة لوضعه العام في حينه .
فقد قهر السكسونيين والآفار ، وكان ملكاً على دولة اكبر واغوى من
ملكية بيزنطة ، وسيد روما عاصمة الامبراطورية القديمة . فهو يجمع اذاً
جميع الشرائط التي تخوله العمل امبراطوراً . واذا كانت « الامبراطورية »
سلطة عامة لحماية الكنيسة « وبسط السلام في العالم » ، وقرار ملكوت
الله في الارض ، فشارلومان بذل جهده في تحقيق هذه الاهداف ، ووسع

حدود العالم المسيحي ، وسهر على مصالح الكنيسة الروحية ، وضرب على ايدي الهراطقة ، واتخذ تدابير ضد الافراط في « عبادة الايقونات » ، وكما كتبت عنه آلكون ان سلام الكنيسة يعتمد عليه وحده .

واذا اضفنا الى ذلك ، الجو الذي كان يحيط بشارلومان ، هذا الجو الذي يجب اليه الامبراطورية ، فلا عجب اذا قلنا ان شارلومان كان مطلعاً على الحالة الفكرية العامة حوله . وما ذهب لروما الا ليخطو الخطوة الحاسمة .

ولم يكن ارتقاء شارل الى منصب الامبراطورية في روما حادثاً غريباً بل كان عادياً ، فقد كانت سلطته فيها عظيمة ، ونرى اسمه في الاحتفالات الدينية حل محل الامبراطور . وقبل ذلك بسنوات وضع البابا في غرفة طعام (تريكلينيوم) كنيسة قصر لاتران فسيفساء قتل ، من جهة ، يسوع وهو يسلم المفاتيح الى القديس بطرس والراية الى قسطنطين ، ومن الجهة الاخرى ، القديس بطرس يسلم الوشاح « الباليوم » الى ليون الثالث والراية الى شارل . وهذا يعني ان شارل يبدو كقسطنطين جديد او كمن يريد ان يصل ما انقطع من تقاليد الامبراطور المسيحي العظيم . ومن كان يرى هذه الصور في روما يفهم ان ملك الفرنجة حل محل الامبراطور البيزنطي في ممارسة السلطة .

ووات الظروف شارلومان في تحقيق احلامه ومطامعه ، وذلك لأن اعتلاء الامبراطورية « ايرينه » عرش بيزنطة لم يغير رأي كثير من الناس ، لانهم يعتبرون العرش الذي تعتليه امرأة في حكم الشاغر . يضاف الى ذلك ان راهبين قدما روما في ٢٣ كانون الاول وحملوا الى شارل من بطريك القدس راية مع مفاتيح مزار القبر الاقدس . اما البابا فقد كانت مقدراته بين ايدي شارل ، ولهذا فهو لا يفكر في امر يخالف ارادته ، ويرى في ارتقاء شارل الى الامبراطورية ضماناً قوياً لحمايته في روما

تجاه اي تدخل يخشاه من قبل بيزنطه ، وبقينا بأن مدبري المؤامرة التي كادت تودي بحياته سيلقون جزاءهم من شارل . وفي الحقيقة كانت اول عمل قام به الامبراطور في حياته العامة محاكمة المشتركين في المؤامرة والحكم عليهم بالموت لارتكابهم جرم « الاعتداء على الجلالة » ، الا ان شارل عفا عنهم ونفاهم .

وبعد ان اصبح شارل امبراطورا بدل لقبه ، واستعمل صيغة العبارات التي استعملت عندما نودي به امبراطورا ، واكد بانه امبراطور روماني وخليفة قسطنطين وتيودوس . وقد وجد خاتم نقش عليه : الامبراطور الروماني الجديد .

ومع هذا فان شارل لم يتخل عن لقب الملك . فقد احتفظ باسم ملك الفرنجة والومباردين ، وذلك لانه يعلم بان دعامة سلطته المتينة تعتمد عليها . ولم تتبدل سياسته ولا تنظيم دولته .

ولكن سلطة الملك ارتقت وقويت معنوياً بتأثير اللقب الامبراطوري ، ورأى شارل نفسه انه ارتفع الى مستوى اعلى ، وأن منصبه الجديد يجعل منه حاميا للكنيسة ويعين شعوره بمسؤولياته تجاه الله ، وطابع سلطته الديني . ويعلق شارل اهمية خاصة على المنصب الامبراطوري ويظهر ذلك في ٨٠٢ عندما فرض على رعيته ، وعلى الذين حلفوا يمين الطاعة للملك ، ان يحلفوا يمين الولاء للامبراطور ، واستعار صيغة هذه اليمين من صيغة التعهدات التي يقوم بها التابع حيال أميره في النظام الاقطاعي .

اما في روما ودولة الكنيسة ، فقد خول الوصول الى الامبراطورية شارل سلطة اعظم من التي يخوله اياها لقب « حامي » . فقد اصبح سكان المدينة وملحقاتها ، بما فيهم البابا ، رعية له . اما سلطته في الواقع فلا تختلف عما كان يمارسه في السابق ، وبقيت الادارة مستمرة وتعلق بعمال

الحبر الاعظم ، واقتصر الامبراطور على مراقبتهم وضبطهم بواسطة رسله ومبعوثيه ، وأصبحت روما اول مدينة في الغرب التي يحكمها .

الخلاف مع بيزنطة . — كان وقع النوبيين في بيزنطة الباء . فمئذ العام ٧٨٨ تحسنت العلاقات بين ايرينه وشارلس . وفي ٧٩٧ و ٧٩٨ و ٧٩٩ ارسلت ايرينه بعوثا الى فرنسا ، واستقبل بحفاوة ، دون ان تتوصل الى تسوية في المسائل المختلف عليها ، مثل قضية ايستريا التي فتحها شارلومان على حساب بيزنطة وضمها اليه عام ٧٨٨ .

اما التسوية الامبراطورية فتعده بيزنطة « اغتصابا » لان الامبراطورية واحدة وهي امبراطورية خلفاء اوغسطس وقسطنطين الحقيقيين الذين استقروا على شواطئ البوسفور ، ولم يخدم الحق في الحفاظ على التقاليد الرومانية والاحتجاج على هذا الاغتصاب . وقد احتجوا فعلاً . وكان من جملة الصعوبات ، التي اصطدمت بها الحكومة الكارولنجية بعد عام ٨٠٠ ، هذه الصعوبة الناشئة عن الخلاف في قضية الامبراطورية بين الشرق والغرب .

اما من جهة الفرنجة فقد حاولوا ان يبينوا ان رقي شارل الى الامبراطورية كان امرا صحيحا تاما . فقد نودي بشارل امبراطوراً حسب الاشكال المشروعة وحسب البروتوكولات القديمة التي ما زالت مطبقة ، لا سيما وان عرش اوغسطس كان شاغرا .

ومها يكن من امر فان الانقلاب الذي قامت به ايرينه عندما خلعت ابنها قسطنطين السادس وحلت محله ، وانزاعها امام خليفة بغداد وقبولها دفع الجزية له عام ٧٩٨ م ، واستعداد شارلومان للاستيلاء على الاراضي الامبراطورية التي تقع في متناول يده ، وخاصة صقلية ؛ ان كل ذلك حمل ايرينه على محاولتها الخفية ودخولها في مفاوضات مع الغاصب ، وقد ارسل شارلومان ، عام ٨٠٢ ، ردأ على هذه المفاتحة ، بعثة لتقترح على

ايرينه ان تتزوج بمنافسها شارلومان ، وبهذه الصورة تم الوحدة وتفرض المشاكل والمنازعات . الا ان ايرينه ثلت عن عرشها قبل ان تعود البعثة الفرنجية ، وقد ارسل نقفور الاول القائم بالانقلاب الى شارلومان يفاوضه بغية التوصل الى التفاهم بين الطرفين . فتقدم شارلومان الى ارسل نقفور باقتراحات يطلب اليه الاعتراف به ، وبوجود امبراطوريتين مستقلتين الواحدة عن الاخرى . ولم يجب البازيلوس شارل ، وظن نفسه على درجة كافية من القوة وقطع علاقاته معه ، كما قطع في الوقت نفسه علاقاته مع الخليفة العباسي هارون الرشيد .

اما شارل فقد برهن على صبره وطول أناته ، هذه الميزة التي تعتبر في جملة صفاته السياسية . فقد كان يعلم ان نقفور مهدد بهجمات العرب والبلغار ، ولذا يكفي ان يضغط عليه عسكريا ليزيد في صعوباته ومشاكله ويضطره لقبول شروطه . وكانت منطقة البندقية وشاطئ دالماسيا خير موطن لتدخل شارلومان ، لا سيما وان فتح هذه الاراضي يتم فتح ايستريا وكرواسيا .

كانت البندقية منذ منتصف القرن الثامن آخذة بأسباب الغنى والثروة بفضل التجارة . ولبت سكانها رعايا بيزنطيين يتمتعون بحماية الامبراطور ويستوردون من القسطنطينية وبلاد الشرق المنتجات الفاخرة من ادوات الزينة ويصدرون اليها الارقاء الذين يخطفونهم من بلاد سلاف الجنوب وكانت جزيرة تورشيللو سوقا هامة لهذه « العروض » . كما انها كانت تغذي ، من قبل ، سهل لومبارديا بالملح حسب اتفاق عقد مع ايوتبراند ملك اللومباردين .

وخضعت البندقية للبازيلوس . الا ان هذا الخضوع لم يكن في الواقع الا متقطعا ، لان العسكريين فيها انقلبوا الى ارستقراطية من الامراء

الاقطاعين . وقد ملأت منازعاتهم الدامية تاريخ القرن الثامن . اما الحكومة العليا فكانت بيد دوق أو « دوج » منتخب يقيم في هيراكليا في مالموكو ، وفي بداية القرن التاسع في احد جزر رياتو وهي البندقية الحالية . وقد ساعدت المنازعات الاهلية على توسع سلطة الدوج ، ونهج « الأدواج » سياسة ثابتة ، وإن بدت في الظاهر غير متمسكة ، وهي احترام سيادة بيزنطة الملائمة للحياة الاقتصادية، والاعتماد على قوى خارجية ، كاللكية الفرنجية ، ليحولوا دون تطبيق هذه السيادة فعلياً . ولهذا كانوا يتمتعون بحكم ذاتي يعتبر خيراً من الاستقلال .

وبفضل المنازعات الداخلية استطاع شارلومان أن يجد له منفذاً إلى البندقية، وأمر ابنه بيبين بفتحها واضطر ادواجها الى الخضوع . وكانت ضياع البندقية شديد الوقع على امبراطور بيزنطة . واضطره موقفه العصيب أمام العرب والبلغار إلى المفاوضة مع شارلومان . وفي تشرين الأول ٨٠٠ أرسل وفداً إلى ايكس - لا - شابل لعقد الصلح . واتفق الطرفان على أن يجلو شارل عن البندقية ، وأن تعترف بيزنطة بالامبراطورية الكارولنجية . وواصلت المفاوضات سيرها في عاصمة الامبراطورية الشرقية وانتهت في العام ٨١٢ . وفي هذا التاريخ كانت رسل ميخائيل الأول ، الذي خلف نقفور في عام ٨١١ ، قد وصلوا ايكس - لا - شابل وصادقوا باسم سيدهم على التسويات التي اتفق عليها مع نقفور ، و اعترف بموجبها رسمياً لشارل بلقب « امبراطور » وبازيلوس . وتبدلت الوثائق بين الطرفين وحمل رسل ميخائيل نسخه الخاصة . وفي عام ٨١٣ توجه الوفد الفرنجي إلى القسطنطينية ، وتلقى في العام التالي من ليون الخامس الأرمني ، الذي قلب عرش ميخائيل ، الوثائق التي حملها إلى لويس الثاني ، خلف شارلومان .

لقد ترك الصلح ، الذي أبرم في العام ٨١٢ لشارل جميع فتوحاته في إيطاليا وإستريا وكروواسيا ، مقابل تخليه عن شاطئ دالماسيا والبندقية . وألزمت هذه بدفع ضريبة سنوية إلى ملك إيطاليا . وبالمقابل حصل سكانها على فوائد تجارية في الامبراطورية الغربية . أما من الناحية السياسية فقد توطدت فيها سلطة بيزنطة الفعلية .

وهكذا تم الاتفاق بين بيزنطة وامبراطور الغرب على النظام الجديد واعترف بوجود امبراطوريتين وامبراطورين ، كل منهما سيد في دولته الخاصة ، وتجمع بينهما عرا الاخاء المسيحي .

حكم شارلومان

٨٠٠ - ٨١٤

إذا نظرنا إلى حكم شارلومان بعد تتويجه نراه لا يختلف كثيراً عما كان عليه من قبل . فقد رأينا أن الامبراطور قد أتم مشاريعه التي بدأ بها : فتح ساكس ، وثغور اسبانيا ، وعملياته الحربية في بروتانيا ودوقية بينيفن . وإلى جانب هذه العمليات قام شارلومان بعمليات أخرى ضد السلاف والدانيمرك والعرب في البحر المتوسط . ولم يحصل شارلومان على ظفر حاسم في جميع العمليات الحربية التي قام بها ضد هؤلاء ، وكل ما في الأمر أنه استطاع ، الى حد ، أن يقف في وجههم . غير أن الدانيمرك والعرب سيحملون حملة شديدة على الملكية الفرنجية في عهد أخلافه وعلى الدول التي نشأت عن تجزئة الامبراطورية .

على أن شارلومان وإن كان في نزاع مع عرب اسبانيا ، إلا أن علاقاته ، على ما يبدو ، مع الدولة العباسية في الشرق ، كانت متممة للسياسة التي نهجها والده من قبل . لقد كانت العلاقات بين شارلومان والخليفة

هارون الرشيد ودية . فقد أرسل شارلومان إلى هارون الرشيد وفداً في العام ٧٩٧ وفي العام ٨٠٢ . وتلقى من الخليفة رسلاً في العام ٨٠١ وفي العام ٨٠٧ . وأهداه هارون الرشيد هدايا أثارت إعجاب الغربيين ، فمن ذلك أن بعث إليه بفيل وخيام وساعة مائية وشطرنج من عاج .

وقد أدت المفاوضات بين الطرفين في العام ٨٠٧ إلى أن يمنع الخليفة هارون الرشيد إلى شارلومان حق حماية الأمكنة المقدسة في فلسطين مع المؤسسات المسيحية فيها والسكان والزوار المسيحيين في الأراضي المقدسة ، كما يحدثنا بذلك ايجنار في كتابه « حياة شارلومان » .

والفكرة السائدة لدى مؤرخي الأسرة الكارولنجية أن حالة المسيحيين في الأراضي المقدسة ، في آخر القرن الثامن ، كانت سيئة ومليشة بالصعوبات لما يلاقه المسيحيون من ضروب الاضطهاد التي كانت تقوم بها السلطات المحلية والسكان المسلمون . ولذا فحماية أمير مسيحي يشفع لهم لدى الخليفة يمكن أن يحسن وضعهم . وقد صادف إذ ذاك أزمة الايقونات وانقلاب ايرينه والحرب بين نقفور والخليفة . كل ذلك حال دون طلب وساطة بيزنطة إلا أن سلطة شارلومان وهيئته وقوته العامة جعلت الانظار تتجه نحوه . وكانت البعثات التي أوفدها بطريرك القدس إلى شارلومان في عام ٧٩٩ و ٨٠٠ و ٨٠٧ لهذه الغاية .

هذا القول مبالغ فيه لأن ما نعلمه عن عهد الخليفة هارون الرشيد وسهره على مصلحة الرعية يجعلنا نشك في قيمة التهم الموجهة إلى المسلمين في اضطهاد المسيحيين ، ولا مبرر لهذا الاضطهاد المزعوم . غير أن ما يعلم عن شارلومان واهتمامه في نشر الدين المسيحي في أوروبا وعلاقاته الودية مع الخليفة العباسي هي التي حدثت ببطريرك القدس إلى إرسال الراية ومفاتيح القبر المقدس إلى شارلومان لا سيما وأن الكثيرين يعتقدون أن

عرش الامبراطورية البيزنطية شاغر ما دامت تشغله امرأة وما دام نقفور غاصباً لهذا العرش . ومن الطبيعي في مثل هذا الجو الودي الذي نشأ بين شارلومان وهارون الرشيد أن يتوجه الامبراطور إلى الخليفة بتوصية ودية يطلب فيها رعاية الخليفة لمسيحي الشرق . أما تقارب وجهة النظر بين الخليفة والامبراطور فقد كان على حساب بيزنطة والأمويين في الاندلس .

نهاية حكم شارل . - : لقد أسس شارلومان امبراطورية مترامية الأطراف وليس بالسهل تحديدها بدقة وضبط . إلا أنه يمكن أن نقول ان هذه الامبراطورية تتشكل من فرنسا الحالية ومن غربي ألمانيا ونصف إيطاليا الشمالية وجزر البحر المتوسط الغربية ويدخل فيها جزر الباليار ، وثغور نافار وكاتالونيا . يقول المجهار ان هذه الامبراطورية تمتد حتى نهر الفديستول . وليس بعيد أن يكون الفرنجة قد صاقبوا بعض النقاط في هذا النهر البولوني ، ولكن الشعوب التي تسكن البلاد الواقعة بين الودر والفديستول ، وبين الودر والإلب لم تدخل في جسم الدولة الفرنجية . وعندما يتكلم المجهار عن نهر الإيبر كحد للامبراطورية يجب ألا نعتقد أن مجرى هذا النهر يؤلف حداً فاصلاً بين الامبراطورية والاسلام من منبعه الى مصبه . والحقيقة أن نهر الإيبر لا يؤلف حداً فرنجياً إلا في مجراه الاعلى وفي مجراه الادنى . أما القسم الواقع من واديه بين نهر سيغر ونهر آراغون فخارج عن سيطرة الفرنجة تماماً .

ويذكر المجهار أن بانونيا وداسيا كانتا في جملة البلاد التي فتحها شارلومان وهاتان المنطقتان تنطبقان على بلاد الآفار الذين فرض شارلومان عليهم الجزية والتعميد ، وموطنهم يمتد على هونغاريا ورومانيا في مصوراتنا الجغرافية الحالية . أما حدود الامبراطورية الاصلية فتتألف من ثغور فريول وكارنتيا وبافاريا الشرقية . وما تبقى من الحدود المجاورة لمنابع الساف فهي بلاد

ملحقة ، وكذلك الكارنيول . أما حدود الامبراطورية مع الدانيمرك فهي نهر الأيدر مع بعض مواقع ستراتيجية على الضفة اليمنى لهذا النهر . وفي ايطاليا ، كانت دولة البابا تؤلف نطاقاً في وسط شبه الجزيرة وتقع تحت حماية الامبراطور وذلك لأن من أسباب وجود الامبراطورية حماية الكنيسة وصيانتها .

إن هذا الرسم الذي أعطيناه للامبراطورية يدل على سعة الأراضي التابعة للامبراطور شارلومان ، كما يدل على أن الامبراطورية الكارولنجية ، وارثة الامبراطورية الرومانية ، لا تختلف عن هذه إلا من حيث الاتصال الأرضي . فقد كانت الامبراطورية الرومانية متوضعة على البحر المتوسط وتضم جميع الأراضي التي تستند على شواطئ هذا البحر . أما الامبراطورية الكارولنجية فكثيفة الشكل قارية ، انسلخ عنها الشاطئ الافريقي وأصبح تابعاً للعرب المسلمين ، وغدت جرمانيا جزءاً مقوماً لهذه الامبراطورية الجديدة . وبذا بدأت ترسم معالم أوربة .

كان السكان في هذه الامبراطورية الواسعة يخضعون لمؤسسات سياسية واحدة وقوانين واحدة ، ومنظمة كنسية واحدة ، وثقافة قديمة تابعة آخذة بالتجديد في قالب مسيحي وروح مسيحية . وقد انقسمت هذه الوحدة بعد وفاة شارلومان بثلاثين سنة الى دول قومية أخذت بالتشكل ولكن الطابع الذي تركته هذه الوحدة كان قوياً جداً ، حتى أننا نجد في كل من هذه الدول عناصر مشتركة في المؤسسات والحقوق والتنظيم الكنسي والثقافة وفي هذا ما يدل على بقاء وجود حضارة أوربية واحدة في أعلى العصر الوسيط . وقد جعل حكم شارلومان هذه الحضارة ممكنة . ولقد شعر المعاصرون بعظمة حكم شارلومان . وكلما تقدم العهد أخذت صورة هذا الحكم تتعظم في خيال الناس . ففي الأدوار المضطربة

في النصف الثاني من القرن التاسع والقرن العاشر والحادي عشر كانت عصر شارلومان يمثل العصر الذهبي . وتذكر على الدوام فتوحات الامبراطور ومغامراته العسكرية ، وهذا ما يتجلى غالباً في « أغاني الملاحم » الفرنسية ، وتتردد بالذهن ذكرى المشرع العادل موطد السلام والنظام ، التي سادت في التقاليد الألمانية . وأخيراً زادت الكنيسة في مجد شارلومان وجعلته في عداد القديسين .

أما شخصية شارلومان فلا نعرفها جيداً . فمن ذلك أن منظره الطبيعي يغيب عنا تماماً . وكل ما نعرف عنه أنه كان طويل القامة ضخم الجثة ، قدوة بسيطة في هيئته الخارجية ونوع حياته . ومزاجه القوي يفسر لنا شغفه بالصيد ، ورغبته الشديدة في اللذائذ الجنسية . لقد كان جرمانياً الأصل لغة وذوقاً ولكنه تربي تربية لاتينية . يتكلم اللاتينية الفصحى واللاتينية العامية . أما أن يجعل منه ألمانياً أو فرنسياً فذلك خطأ عقيم وضلال بعيد .

يرجع أصله إلى المنطقة الواقعة بين نهر الرين والايסקو ، من هذه المنطقة النصف جرمانية والنصف رومانية ، ويقع في ريفين من أراضي عائلته الواقعة على جانبي نهر الموز أو على طول نهر الموزيل . ولكن المياه المعدنية في ايكس - لا - شابل جذبت إليها للاستشفاء ، وجعلته يقيم فيها ، منذ عام ٧٨٦ م ، بضعة أشهر في السنة . وفي آخر حكمه تعتبر ايكس عاصمة الامبراطورية .

إن الصفة البارزة في شارلومان هي تعلقه العميق بالديانة المسيحية وهو لا يكتفي بالايمان بل يعمل ويواظب على اقامة الشعائر . حتى أن نشر المسيحية والدفاع عنها كانا شغله الشاغل . وهو لا يتراجع تجاه أي تضحية ، ولا أمام أي وسيلة للوصول إلى هذه الغاية . ولقد نجح في ذلك

الى حد بعيد . وكان يجلب كنيسة روما ورئيسها اجلالاً خاصاً ويعمل كل ما في وسعه لنشر الشعائر والطقوس الدينية الرومانية في الامبراطورية . غير أن تقواه لا تمنعه من القبض على زمام الكنيسة ، وربطها به ربطاً وثيقاً . ونراه يتدخل في قضايا العقيدة ، ولا يتوانى عن فرض رأيه الخاص ، ويجبر الأساقفة والبابا نفسه على الاطاعة الشديدة . ولقد دفعه تعلقه بالدين وحرصه على تشكيل اكليروس أهل للقيام بمهامه الأساسية ، الى الاهتمام بالثقافة الأدبية وتنميتها رغماً عن أن ثقافته كانت ضئيلة ، ولم يتعلم الكتابة إلا في سن متأخرة .

ولقد رأى على مخط متقدميه ، وهو على قيد الحياة ، أن يقرر شيئاً فيما يتعلق بوراثته العرش . فأذاع مقرراته في شهر شباط ٨٠٦ وحمل نصها إلى البابا .

ويظهر من هذا النظام الذي وضعه شارل أنه يفهم فكرة الامبراطورية المجردة فهماً ضعيفاً ، لأن ممارسة السلطة الامبراطورية مجردة عن الشخص المنسوبة اليه كان يجب ان يكون منها الحفاظ على وحدة الأراضي التي تمارس فيها هذه السلطة . ولم يكن تقسيم المملكة عام ٨٠٦ سوى تامة لتقليد سابق كان مطبقاً منذ عهد الميروفنجيين وأوائل الكارولنجيين . وهذا التقسيم مستوحى من المفهوم القديم الذي يجعل السلطة الملكية إراثاً يتقاسمه الورثة بعد وفاة المورث . ورغم أن شارلومان يعتبر أن رتبة الامبراطورية شخصية ، وقد حصرها بشخصه الخاص ، إلا أنه لم يتعرض لها في تسوية ٨٠٦ . ونراه قسم امبراطوريته بين أولاده كما يلي :

١- إلى شارل : البلاد الواقعة في شمال الخط الممثل بنهر اللوار والدوب والدانوب . وهذا القسم أعظم الأجزاء .

٢ - إلى بين : آليانيا وبافاريا في جنوب الدانوب والمملكة اللومباردية .

٣ - إلى لويس : اكيثانيا وجنوب غاليا .

وليس لأحد من الاخوة أي سيطرة على الآخرين ، بل يجب أن يسود السلام ، بين هؤلاء الملوك ، بتحالف دائم . وعليهم جميعاً حماية الكنيسة الرومانية .

غير أن الحوادث التي جرت حالت دون تحقيق هذا المخطط الذي رسمه شارلومان ، وكان من الممكن أن تتجم عنها نهاية الامبراطورية الكارولنجية . ففي ٨ تموز ٨١٠ مات بين وهو في سن الثالثة والثلاثين . فأرسل الامبراطور بعوثاً منهم آدالارد أب كوربيا ليقوم بالادارة والدفاع عن ايطاليا . وأخيراً في العام ٨١٢ قرر أن يجعل فيها حكماً دائماً بغد أن ثبت لديه ضرورة ذلك لا سيما وأن العرب كانوا يوالون هجماتهم عليها . وفي خريف هذه السنة أرسل برنارد بن بين لهذا الغرض . وفي الحقيقة كانت السلطة بين يدي آدالارد وأخيه فالو . وفي عام ٨١٣ أتم شارلومان ترتيباته وجعل برنارد ملكاً على ايطاليا .

أما موت بين فلم يبدل شيئاً في المقررات التي اتخذها الامبراطور عام ٨٠٦ ولكن موت شارل الشاب (أو شارل الصغير) المفاجيء في ٤ كانون الاول ٨١١ بدل الوضع تماماً ، ولم يبق للامبراطور سوى ابن واحد وهو لويس ملك اكيثانيا . ولذا كان من الطبيعي أن يؤمن له الارث بتمامه ويحتفظ برنارد بن بين بصفة يمثل السلطة الملكية في ايطاليا . وفي اجتماع عقد في ايكس - لا - شابل في ربيع عام ٨١٣ وافق كبار الدولة على هذا القرار . وفي ايلول دعي لويس الى اجتماع

— ١٨٦ —

جديد في ايكس ونودي به امبراطوراً . وفي اليوم التالي توجه أبوه بنفسه دون تدخل الاكلبروس ثم أعاده الى اكينانيا .

وفاة شارلومان . — ان أحزان العائلة والقلق الناجم عن الأخطار التي قد تهدق بالامبراطورية وما اليها قد سودت آخر سني حياة شارلومان . ففي عام ٨١١ نظم وصيته بثروته وأثاثه ووهب القسم الأعظم منها . وفي ١ تشرين الاول ٨١٣ عاد الى ايكس بعد فصل قضاءه في الصيد في جبال الأردن . وفي كانون الثاني ٨١٤ أصيب بذات الجنب ولزم الفراش في ٢٢ منه ، ولفظ أنفاسه في ٢٨ كانون الثاني ٨١٤ ، وله من العمر واحد وسبعون سنة . وقد وضعت جثته في تابوت قديم ودفن في كنيسة نوتردام التي بناها بجانب قصره .

الفصل التاسع

الامبراطورية الكارولنجية

من وفاة شارلومان الى معاهدة فردون

٨١٤ - ٨٤٣

سياسة لويس التقي العامة. - كان لويس في السادسة والثلاثين من عمره عندما توفي أبوه شارلومان . كان واسع الثقافة . ولكن لم تكن له تلك القوة والعزم والوضوح التي اتصف بها والده . فقد كان ينقصه بعد النظر وفكرة الدأب والمثابرة على العمل . وكثيراً ما كان يتخذ قرارات فجائية ومتناقضة . وليس له من قوة الشخصية ما يجعله يسير الأمور باملاء ارادته الخاصة ، فهو بحاجة دائمة الى من يسيطر عليه ويوجهه . لقد كان لويس تقياً ورعاً ، وقد نسب اليه وصف التقي بعد موته بقليل ، كما كان كلفاً بشهوات الحس ومستسلماً لنفوذ الاكليروس والنساء .

ولقد أوحى شخصية لويس التقي بالشك وسوء الظن الى من كانوا من أهم مساعدي شارلومان ومعاونيه ، وخاصة آدالارد وأخيه فالأ . غير أن الامبراطور لم يلق بعد أي مقاومة حقيقية . دخل ايكس - لا - شابل في ٢٧ شباط ، وما عثم أن أبدى ميله في اقضاء من يشك في أخلاقهم وأخلاقهم . فمن ذلك أن أخواته كن يعشن عيشة مريبة فالزمن الحجاب والرهبة في الدير . وبوحي من حاشيته الاكبتانية أقصى آدالارد وأخاه فالأ ، وبذل الجهاز السياسي الذي كان على زمن أبيه

ووضعه تحت زعامة هيليساشار مشاوره في مملكة اكينانيا . وقد قدم له كبار أجزاء الامبراطورية ولاءهم وطاعتهم اما بصورة شخصية أو بمن ينوب عنهم . كما دعا ابن أخيه بونارد الى ايكس فمثل بين يديه وأقسم له بيمين الطاعة .

وحاول لويس منذ استلامه عرش الامبراطورية أن يضرب على أيدي الموظفين الذين يسيئون استعمال وظيفتهم ، ولكن جهوده على ما يظهر لم تكلل بأكبر نجاح . غير أن الفكرة الموجهة لسياسته العامة كانت ترمي الى الكنيسة ورفع شأنها وتنقيتها من كل شائبة ، وقد اعتمد في هذا الشأن على الأب بندكت مستشاره في اكينانيا أيضاً . وبتأثير بندكت هذا أخذت حكومة لويس التقي وجهة كنسية وديوية . فقد منح المنح الكثيرة الى الكنائس وعقد مجعاً في ايكس - لا - شابل عام ٨١٦ والزم الاكليروس العصري باتباع قاعدة أو طريقة في الحياة ، واهتم بحياة الراهبات والرهبان وحضهم على التمسك بأهداب الدين .

إن شدة الورع والتقوى ، التي يمتاز بها لويس ، والأهمية الزائدة ، التي يعلقها على مصالح الكنيسة ، تظهران مدى التأثير الذي كان لهما في توجيه سياسته العامة ، وعلاقاته مع البابا . وبالرغم من أن أباه شارلومان كانت تقياً ، إلا أنه لم يتساهل مرةً وبسمح للبابا بأي فعل يدل على الاستقلال والخروج على طاعته . بيد أن الامور اتخذت وجهة جديدة في عهد الحكم الجديد . فمن ذلك ان لويس لم يعترض على البابا عندما امتنع عن تحليف الرومانيين بيمين الولاء للامبراطور الجديد ؛ وان البابا ليوت الثالث كان يتصرف بكثير من الأمور دون أن يأخذ رأي الامبراطور . وكثيراً ما كان هذا الاخير يكتفي ببعض الايضاحات .

وزاد البابا ايتين الرابع على سلفه ، فقد طلب إلى الشعب بيمين الولاء

إلى الامبراطور ، وعندما بورك بعد اعتلائه السدة الرسولية ، لم يرج من لويس تثبيتاً لانتخابه مع ان التثبيت والاقرار من حقوق الامبراطور . واكتفى لويس بالايضاحات التي حملها اليه السفراء وتكرر هذا الحادث ايضاً عند موت ايتين الرابع وبابوية باسكال الأول .

وفي هذه الفتوة جرى حادث له شأنه وأهميته : وذلك أن البابا ايتين الرابع ذهب الى فرانسيا في تشرين الأول عام ٨١٦ وتوج لويس التقي في رنس . وهذا التتويج بالنسبة الى لويس ليس سوى تثبيت لسلطانه من قبل خليفة السيد المسيح . أما البابا فقد بين ان مساعدة البابا في هذا الشأن ضرورية ولا مندوحة عنها في منح اللقب الامبراطوري . وهذه هي الخطوة الاولى في جعل هذه الشكلية خاصة من خصائص البابا . ولم يقف لويس عند هذا الحد ، بل انه منح البابا ٨١٧ امتيازاً . وبوجهه يثبت لويس ويؤيد حقوق الكنيسة الرومانية التي تمارسها على اراضيها في ايطاليا ، والحقوق التي تزعم بانها تملكها في أرضها وفي جنوب ايطاليا ؛ وأهم من ذلك انه يتخلى عن كل سلطة في روما ، ويمتنع عن أي تدخل في انتخاب الحبر الاعظم وتثبيته . ومعنى ذلك التخلي عن امتيازات السيادة الامبراطورية في روما .

براءة ٨١٧ (اوردينايسيو آميري) . - لقد كانت لفكرة الامبراطورية قيمة كبرى في نفس لويس التقي . ومنصب الامبراطورية في نظره أعلى من سائر المناصب . وقد دل على ذلك بتبديله اسم «ملك الفرنجة واللومباردين» الذي حافظ عليه شارلومان ، وتسمية نفسه امبراطوراً فحسب . وهذا الموقف الذي وقفه لويس يتساقو خير تساقو مع الأفكار الدينية الكنسية التي تسيطر سياسته العامة . والا فلا فائدة من الامبراطورية اذا لم تؤمن حماية الكنيسة وتوسع انتشار المسيحية . ولتستطيع الامبراطورية

أن تؤدي رسالتها على الوجه الأكمل يجب أن تكون واحدة وفي يد رجل واحد كالكنيسة .

ولقد كانت هذه الفكرة ولا شك منبعثة عن حاشية الامبراطور امثال مستشاره هيليساشار وخلفه فريدوجيز ورئيس كنيسته هيلدون وأمين سره الخاص المينارد .

وقد اوحى هؤلاء اليه باصدار براءة تموز ٨١٧ التي تقضي بعدم تقسيم الامبراطورية . فاذا توفي الامبراطور فلن تكون الامبراطورية عرضة لأي تقسيم ، وبوجب هذه البراءة تقرر ماييلي :

(١) ان يكون ابنه البكر لوثير ، وعمره آنذاك اثنان وعشرون سنة ، وارث ابيه الوحيد على عرش الامبراطورية . وقد نودي به امبراطوراً رسمياً وعلنياً والبس التاج الامبراطوري واشرك في ممارسة السلطة إلى جانب ابيه .

(٢) يحتفظ بين بتاجه الملكي في اكيثانيا ، ويصبح لويس ملكاً على بافاريا . ويتولى الحكم كل منها تحت رقابة الامبراطور ، أي انها يقيان ملحقين بأخيهما الأكبر .

(٣) عند وفاة الأب ، يلحق بمملكة اكيثانيا ، التي يقوم على عرشها بين ، غاسكونيا وثغور تولوز وكونتية قرقسونه وأوتن وآفالون ، ونوفير ؛ ويأخذ لويس كلارانيا وبوهيميا وثغور الآفار والسلاف . ويبقى كلامهما تابعا للسلطة الامبراطورية .

(٤) تبقى بمملكة ايطاليا بيد برنارد حفيد شارلومان الذي اعطاها اليه ٨١٣ م .

(٥) متى اصبح لوثير امبراطوراً يجب ان يتروك لأخويه ، عندما

يبلغان سن الرشد (١٥ سنة) ، حرية التصرف في مملكتيها ، والقاب الشرف وحصيلة الرسوم والضرائب والغرامات وواردات الخزينة . وفيما عدا ذلك يحتفظ باليد العليا فوق الجميع . وعلى هذين الأخوين أن يأتيا لزيارة أخيها الامبراطور مرة كل عام « في الوقت المناسب » أي حين انعقاد المجلس الامبراطوري ، ويقدم اليه هداياها السنوية ويتفاهما معه « بروح الحب الأخوي » على تسوية القضايا المشتركة بينهم .

(٦) يجب على لوثير بالمقابل ان يستقبل اخويه استقبالا اخوياً ويذكر دوماً أنه يتصرف « بروضى الله » بسلطته العليا التي تفوق سلطتهم ، ويمنحها المنح والهدايا ، كما يجب عليه أن يمدحها بعونه وحمايته العسكرية ضد عدوان « الأمم الخارجية » .

(٧) ولثلاثي المقررات السابقة أي اعتراض ، في حالة وفاة أحد اخوي لوثير ، نصّ على أن يدعى شعبه لانتخاب احد ابنائه بمن هو أهل لشغل العرش الشاغر . وإذا لم يكن للمتوفى اولاد شرعيون فان مملكته تؤخذ وتوضع بيد الامبراطور . وإذا دام الموت لوثير نفسه فان المؤمنين مدعوون ، « لتأمين سلامة الجميع وسكينة الكنيسة ووحدة الامبراطورية أن يلزموا جانب التأمل ويدعوا الله تعالى ان يلهمهم من يدلهم على تسمية احد الاخوة الباقين ليسندوا اليه منصب الامبراطورية .

ان مجموع هذه التدابير يؤلف كلاً متجانساً لا يضم من التقاليد المتعارفة في المملكة الا القليل الضروري لتأليف القلوب وتهدة الأطماع التي لا يعجبها النظام الجديد .

يضاف إلى ذلك ان لويس التقي انصرف في السنوات الاولى من حكمه إلى توحيد التشريع والقوانين ، وذلك باذاعة عدة براءات غرضها

ادخال التجديد على القرانين النافذة بغية تخفيف الاختلافات . والواقع ايضاً أن كلمة « الوحدة » ابتداءً من ٨١٧ اخذت تتردد بلا انقطاع على اقلام انصار الامبراطور وخصومه . وسيكون النضال مع « الوحدة » او ضدها في الامبراطورية . وكثيراً ما يذكر بهذه المناسبات فكرة الوحدة المسيحية ووحدة الايمان التي كانت تؤلف في ذلك الحين امتن أساس للامبراطورية .

عصيان برنارد في ايطاليا . - ورغم ان براءة ٨١٧ لم تبدل شيئاً في وضع ايطاليا ، الا ان برنارد لم يعجبه هذا النصف من عمه لأنه كان يطمح بالاستقلال التام ، وحاول ان ينظم حركة عصيان ضد سلطة الامبراطور فأخفق اخفاقاً تاماً وحكم عليه بالاعدام ، لولا ان عمه عفا عنه ونجاه من الموت . ولم ينع هذا من سمل عينيه ، ومات بعد أيام . ولقد اوجس لويس خيفة من افراد اسرته فجز ناصية دروغون وهوغ وتيري وهم ابنا طبعيون لأبيه ، وبعث بهم إلى الدير .

وتوفيت بعد قليل أي في العام ٨١٨ الامبراطورة هرمانغارد فتزوج بعدها جوديث الآلمانية ، وكانت ذكية جميلة مثقفة استطاعت أن تسيطر على زوجها بسهولة . ولكن هذا التأثير لم يظهر مباشرة . فبعد وفاة القديس بندكت كان الحزب الامبراطوري ، الذي هيأ براءة ٨١٧ مسيطراً . وقد أوحى اليه رجاله باعادة آدالارد وفالا من المنفى لانها من اشيائه . وكان هؤلاء اليد الطولى في الدولة ، فطلبوا من الامبراطور أن يعيد الكرة ويثبت في تشرين الاول ٨٢١ في مجلس يميغ وتونفيل براءة ٨١٧ ، وذلك بأن طلب من عظماء الدولة حلف اليمين . وفي مجلس آتين عام ٨٢٣ صالحوا بين لويس ونصفي اخويه هوغ ودروغون وعين الثاني اسقفاً على مدينة ميتز . وطلبوا إلى الامبراطور اصلاح الادارة .

وعلى ما يبدو ان الامبراطور لم يحقق ما عقدوا عليه من آمال ، ولذا رأوا ان يعتمدوا على انفسهم قبل كل شيء . وظهر الامبراطور أسفه في مجلس آتيني على الموقف الذي وقفه من ابن اخيه برنارد ، حتى انهم اضطروه إلى الاعتراف العام بأخطائه دون أن يروا في ذلك صغارا وإذلالا لجلالة الامبراطورية . ولكن أملهم كان في لوثير بن لويس . فقد دعي الى روما وتوج مرة ثانية من قبل البابا ، وكان هذا التتويج فرصة جديدة للحبر الأعظم ليظهر فيها أن أمر ذلك يعود له دون غيره . كما أن وجود لوثير في ايطاليا كان فرصة لفرض ارادة الامبراطور على الكرسي الاقدس ومراقبة السلطة الامبراطورية لانتخاب البابا ، وقد وقع ذلك عند وفاة البابا باسكال الاول في أيار ٨٢٤ وانتخاب البابا اوجين الثاني وإقرار دستور ٨٢٤ .

دستور روما ٨٢٤ . - أقر لوثير دستور روما ويتلخص فيما يلي :

(١) حصانة الاشخاص الذين هم في حماية البابا والامبراطور الخاصة .
(٢) يخول هذا الدستور الرومانيين اختيار القانون الذي يرغبون العيش في ظله .

(٣) تخول مراقبة موظفي الادارة في روما إلى رسولين (مفتشين) دائمين ، يسمي احدهما الامبراطور وله حق التدخل عند مالا يستطيع البابا تعديل المفاصد أو تقويم اساءة التصرف .

(٤) يفرض على البابا المنتخب ان يحلف بين الولاء بين يدي رسل الامبراطور قبل تثبيته في منصبه . ويلزم الرومانيون جميعا بحلف بين الولاء الى الامبراطور .

لقد كان هذا الدستور ظفراً للامبراطورية، وبه استطاع لوثير أن يوطد السيادة الامبراطورية في روما . وهذا النجاح الذي أحرزته لوثير يبرر الثقة التي يعلقها عليه أنصار الامبراطورية . وقد تمكنوا في آب ٨٢٥ أن يشترك لوثير مع أبيه في الحكم وإدارة الامبراطورية . ومنذ ذلك التاريخ ظهر اسمه إلى جانب اسم أبيه في الوثائق الرسمية والبراءات الامبراطورية .

السياسة الخارجية . - كانت سياسة لويس التقي الخارجية متمماً لسياسة أبيه شارلومان .

ففي إيطاليا الجنوبية كانت دوقية بينيفن تحتفظ باستقلال ذاتي واسع . وكان دوقاتها عرضة للثورات . ولهذا الدوقية سياسة خاصة ترمي إلى وضع يدها على إيطاليا الجنوبية ، وهذا ما جعلها في نزاع مع دوقية نابولي التي كانت تتمتع بالحكم الذاتي بالنسبة إلى بيزنطة أكثر من بينيفن بالنسبة إلى الامبراطورية الغربية . على أن أدواق بينيفن ، وإن اعترفوا بسلطة الامبراطور العليا عليهم ، إلا أن هذه السلطة كانت نظرية في الواقع .

وفي البحر المتوسط كان العرب يرالون هجماتهم على الجزر . ففي العام ٨١٥ حاول الساردينون الاتفاق مع السلطات الفرنجية ضد العرب ولكن لم يكن لتدابيرهم كبير نفع . وعندما ظهر الاسطول الفرنجي في مياه ساردينيا دمره الاسطول العربي في اسبانيا . وحاول لوثير القيام بحملة الى كورسيكا ولكن دون جدوى . ثم هدأت الأحوال نسبياً بعد حملة كورسيكا وساردينيا لأن العرب وجهوا ضرباتهم صوب صقلية . وفي العام ٨٣١ كانت بالرمو في أيديهم . وفي ٨٤٠ كان غرب الجزيرة تابعاً لهم . وفي الوقت نفسه كانوا ينتشرون في جنوب إيطاليا القارية بفضل المنازعات

التي كانت تجري بشأن بينيفن بين المتنافسين راديشي وسيكونولف ، وكان كل منها يعتمد على العرب للوصول إلى غايته ، ولذا نراهم عام ٨٤٠ في باري ، وفي ٨٤٢ اقتتلوا تراثت من الاغريق . ولبت العرب حتى ٨٤٢ ينشرون الرعب والخوف في مياه الادرياتيك .

وفي بلاد الدانوب جرى تحديد ، بناء على طلب البازيلوس ليؤت الخامس ، بين الدالماسيا البيزنطية ودالماسيا الفرنجية ، وأظهر الكرواتيون ولاءهم للامبراطور واعتنق معظمهم الديانة المسيحية على أيدي المبشرين الفرنجة كما حصلوا على اسقفية خاصة بهم في نونا .

وسببت الحرب مع البلغاريين تعديلات أرضية واسعة في بلاد الدانوب . وقد اتخذ الامبراطور لويس عدة تدابير من شأنها أن تجعل البلاد التي يغمرها نهر الدانوب وروافده غير مقسمة ، كما كانت في السابق ، بين ايطاليا وبافاريا وألحقها كلها ببافاريا ، وفتح بذلك مجالاً للنفوذ الجرمانى في هذه البقاع . وكان يرافق الاستعمار الالماني فيها التبشير بالدين المسيحي ، وإحداث أمارات كنسية وكونتيات وأراضي تابعة للملك .

وفي بلاد سلاف الشمال كانت بوهيميا تحت سلطة الامبراطور . ولكن هذه السلطة كانت نظرية . وكذا مورافيا كانت بحالة مماثلة في علاقاتها مع الامبراطورية . وبينما كانت بوهيميا مجزأة إلى عدة دوقيات ، توحدت مورافيا . وقبل عام ٨٣٦ فرض أميرها الدوق موامير سلطته على الشعب كله . وفي بلاد الدانيمرك حاول لويس أن يذهب إلى أبعد مما ذهب إليه أبوه في اتباعه سياسة دفاعية ضد الدانيمرك ، وتدخل فيها بشكل نشيط ، وأراد أن يفرض عليها هارالد الثاني الذي اعترف بسيادته واستطاع أن يخضع قسماً من جوتلند إلى سلطته . وقد تعمدتها رالدي ماينس وكرهه شعبه وطرده وحاول أن يعود بمساعدة القوى الفرنجية إلا أنه أخفق .

وفي ثغور اسبانيا جرت حوادث هامة سجلت فيها حكم لويس التقي .
فمن ذلك انفصالها عن دوقية تولوز حسب براءة ٨١٧ . وبقيت الدوقية
ملحقة باكيتانيا ، وانفصلت الأراضي الواقعة في جنوب البيرينه عنها وألفت
مع سبتيانيا اوغوطيا ثغوراً خاصة متميزة .

ووالى لويس كفاحه ضد العرب ابتداءً من العام ٨١٥ وظلت الحرب
بينه وبينهم سجلاً وتقتصر على هجومات متكررة من كلا الطرفين .

بوادر الأزمة في الامبراطورية . - في ١٣ حزيران ٨٢٣ ولدت
جديث في فرنكفورت طفلاً سمي شارل وهو من سيكون شارل الأصلع
في المستقبل . وقد تعهد لوثير بحمايته ووعد ألا يعارض فيما إذا ترك له
أبوه قسماً من الأراضي .

غير أن جديث لم تكن لتهم بفهوم الامبراطورية وكانت تعتبر أرض
الدولة ، كبقية الأموال ، يمكن اقتسامها كما يقتسم الإرث عادة . ولذا
كان لها أن تؤمن لابنها شارل أكبر حصة ممكنة من إرث أبيه .
وقد كانت هذه السياسة سبباً في تشكيل معارضة ضدها من عدة
جوانب وهي :

١ - عند أولاد لويس التقي وخاصة عند لوثير الذي كان يحرضه
حموه هوغ بعد أن عزل عام ٨٢٨ وجرد من منصبه في دوقية تور لأنه
تخلّى عن نصرته الامبراطور والذهاب إلى بارسلونة لمحاربة العرب ورفع
الحصار عنها .

٢ - عند الحزب الامبراطوري ، وخاصة عند زعيمه « فالّا » الذي
يرى في ذلك خطراً يهدد الامبراطورية التي يجب أن تؤمن الدفاع عن
البلاد وحرية الكنيسة وسلامة أموالها وتوزيع مواردها .

٣ - وأخيراً عند زبائن الحزب الامبراطوري من كبار الدولة ، وهم لا يستطيعون تحقيق ما يصبون إليه خوفاً من أن يحل بهم ما حل بهوغ وماتفريد . ولقد كانت الظروف ملائمة للقيام بالمعارضة . ففي الخارج اخفقت الامبراطورية في ثغور الدانيمرك وفي بلاد الدانوب . ومرت بالبلاد سنوات كانت شديدة البرد صحبها القحط والجذب والوباء . وفي الداخل كان عمال الامبراطور يسيئون استعمال السلطة . وكانت الأراضي والأملك توزع على الأنصار والمقربين . ويسود بين رجال الكهنوت الفوضى وعدم الانصياع للنظام . ولقد حاول الامبراطور اصلاحاً لهذه المفسد ولكن جهوده ذهبت عبثاً . فمن ذلك أنه أرسل المفتشين إلى أنحاء الامبراطورية للضرب على أيدي المفسدين ووضع حد لها ولكن دون كبير فائدة .

وعقدت عدة مجامع في ماينس وليون وباريس وتولوز حتى أن الأساقفة ذهبوا في مجمع باريس إلى القول بتفوق الكهنوت على الملكية . وظل الاكليروس الأعلى الامبراطوري مستمراً في تهديم السلطة الامبراطورية ظناً منه بأنه يقوي سلطته الخاصة .

أمام هذه الشكايات حاول لويس التقي مرة أخرى القيام بالإصلاح وإرسال مندوبيه في البلاد . وعقد مجلساً في مدينة فورمز وأذيعت فيه ثلاث براءات ولكن لم تؤد إلى شيء . وذلك لأن أصل المفسد وجد في نظام الدولة نفسه . وهذا ما حاول دون رغبة الامبراطور في تنفيذ ما يريد وفرض سيطرته على ممثليه في البلاد .

وفي مجلس فورمز أي في سنة ٨٢٩ أقر الامبراطور إعطاء ابنه شاول بن جديث أراضي خاصة به ، وتضم هذه الأراضي : ألمانيا والألزاس وريثيا وقسماً من بورغونديا .

وإذا نظرنا إلى هذا القرار نرى أن ليس فيه ما يعد خرقاً لبراءة ٨١٧، ولكن كان يخشى من أن هذا العمل يمكن أن يعتبر خطوة أولى في إعادة النظر في تقسيم الامبراطورية بنامها ، وحاول الامبراطوريون شجب هذه السياسة .

واستاء لوثير لما حصل واحتج على هذا التدبير الذي اتخذته أبوه ، فأرسله إلى إيطاليا وحذف اسمه من الوثائق الرسمية للامبراطورية .

أما حديث فقد رأت أن تدعم ابنها شارل فأوعزت إلى الامبراطور أن يستدعي إلى قصره برنارد سبتيانا . فسلك هذا في البلاط مسلك الحزبي المتعصب وأقصى جماعة الامبراطوريين وأبدلهم بأناس مخلصين له وللامبراطورية .

وأخذت المعارضة تشتد ضدهم حتى أن حديث وبرنارد اتبها بالسيطرة على الامبراطور بالوسائل السحرية التي يستعملونها لهذه الغاية ، ومنهم من زعم بوجود علاقات بينها . ولبت المعارضة تنتظر الفرص المواتية للقيام بالثورة .

ثورة ٨٣٠ . - ولقد اتبحت هذه الفرصة عندما اتخذ برنارد في شباط ٨٣٠ ، قراراً يقضي بتجهيز حملة إلى بروثانيا حيث أعلن أهلها العصيان ، وزاد في سخط الرأي العام على هذه الحملة أنها دعيت لتكون على اهبة الاستعداد في مدينة (رين) يوم ١٤ نيسان الموافق ليوم خميس العهد . واتخذ أعداء برنارد وحديث من ذلك ذريعة للقيام بحركة عصيان في الجيش . وبادر لوثير على جناح السرعة من إيطاليا ، وخاف بين ولويس من أن يفضي هذا الحادث إلى فوائد جديدة لشارل ، وانضم إلى الثائرين .

ولم يكن لويس على استعداد للمقاومة، واضطر برنارد إلى الالتجاء في
 بارشلونة ، وخضع لويس التقي نفسه إلى ارادة المتألمين عليه في مدينة
 كومبين . وكان منهم من يريد خلع الامبراطور عن العرش . غير أن
 لوثير وفالا اتباعاً حلاً معتدلاً : وهو أن يعترف الامبراطور بأخطائه
 ويعد في الوقت ذاته باحترام (ارادة ٨١٧) ، وبحكم بمشورة كبار
 الدولة . وأخذت حديث وسجنت في دير القديسة راديجوند في بواتيه ،
 وطبقت بعض العقوبات على أنصارها وأقاربها . واستلم لوثير السلطة وظهر
 اسمه مجدداً في الوثائق الرسمية وبقي أبوه في حالة تشبه الأسير محاطاً بالرهبان .
 على أن نجاح الثوار لم يكن منه سوى إبدال فئة بأخرى ، حتى أن
 إساءة استعمال السلطة من قبل الفئة الحاكمة الجديدة أدى إلى رد فعل
 شديد وخاصة عند الشعوب الجرمانية . وقد استطاع راهب من حاشية
 الامبراطور اسمه غوتنبالد أن يجلب لويس ويبين إلى صف أبيها بعد أن
 طمعها بتوسيع أراضيها . وفي تشرين الأول ٨٣٠ رأى لويس التقي في
 دياط نيميغ أن كبار جرمانيا يساندونه في رأيه وأن باستطاعته أن يستعيد
 سلطته معتمداً عليهم . وفي شباط ٨٣١ عقد الامبراطور مجلساً في ايكس -
 لاسابل بحضور أولاده الثلاثة الكبار وحكم على مدبري المؤامرة بالاعدام
 ولكنه عفا عنهم واكتفى بسجنهم . فمن ذلك أن فالاسجن في نوار موتيه
 وهيلندون في كورفيه . أما لوثير فحذف اسمه مرة أخرى من الوثائق
 الرسمية وأرسل إلى إيطاليا . واعيدت حديث وأقسمت اليمين لرفع تهمة
 القذف بالزنا التي وجهها إليها خصومها وعادت تتمتع بامتيازاتها السابقة .
 وأقسم برنارد اليمين على أنه بريء بما نسب إليه .

ولما رأت الامبراطورة أن لويس التقي قادم على أن يفني بوعده لولديه
 لويس وبيبن في توسيع أراضيها ، وجدت الفرصة مواتية لتطالب بحق

- ٢٠٠ -

ابنها شارل . وجرى تقسيم ٨٣١ كما يلي :

١ - أن يأخذ بين ، عدا اكيثانيا ، جميع البلاد الواقعة بين نهر اللوار والسين وفي شمال هذا النهر وكونتيات شالون وآمين وبونتيو .

٢ - أن يأخذ لويس ، عدا بافاريا ، شمال جرمانيا والمناطق التي تسمى اليوم البلاد المنخفضة وبلجيكا والشمال الشرقي من فرنسا .

٣ - أن يأخذ شارل ، عدا عن الوقف الذي خصص له في عام ٨٢٩ ، القسم الأعظم من بورغونديا وبروفانس وغوطيا وباجي ، وويفر وكاستريا وبورسيين ، ورنس ولان وموزيلغو وتريف .

ولا يدخل هذا التقسيم في حيز التنفيذ إلا بعد وفاة لويس الثاني ، ويقصر لوثير على ايطاليا، ويعود إلى مذهب تقسيم الامبراطورية بأكملها ولا يتخذ أي حيلة لصالح السلطة الامبراطورية كما لا يحترم مبدأ الوحدة الامبراطورية. ولم يعجب هذا التقسيم بين ولا لويس ، فقد استاء كل منها من الحصة المخصصة لشارل ، حتى أن بين أظهر عصيانه في آخر ٨٣١ ، واجتاح لويس عام ٨٣٢ آليانيا . غير أن السكسونيين كانوا أمناء على عهد أبيه ، وسبب عصيانه ضياعه واضطر الى الخضوع . وفي ايلول نظمت حملة ضد بين ، ولكنها انتهت بكارثة . وأعلن الامبراطور سقوط ابنه وأدخل اكيثانيا في حصة شارل .

ولقد سبب تقسيم ٨٣١ امتعاضاً في أوساط الامبراطوريين ، وكانت الظروف مؤاتية للقيام بحركة ضد الامبراطور وجديث . وشايع هذه الحركة أيضاً لوثير ولويس وبين . ورأي لوثير أن يخلع على هذه الحركة صفة شرعية وطلب من البابا غريغوار الرابع ، الذي وصل إلى السدة الرسولية عام ٨٢٧ ، في ظل دستور روما (٨٢٤ م) أن يتدخل في الامر .

وأخذت المعارضة تزداد شيئاً فشيئاً . وكان هدف الامبراطورين خلع الامبراطور ومساعدة الحبر الأعظم لهم ، حتى أن فالاً زعيمهم ، الذي سعى في عام ٨٢٤ في اخضاع البابا لسلطة الامبراطور ، يعود اليوم فيقلب للامبراطور ظهر المجن ويستعين بالبابا على الامبراطور .

رأى لويس التقي أن الوضع رصين ومحتاج إلى حيلة . فجمع جيوشه في حزيران ٨٣٣ في فورمز . وكتب الأساقفة الذين يرافقونه إلى « أخيم » اسقف روما (البابا) يعنفونه على حشته بيمين الطاعة للامبراطور . ولكن البابا غريغوار الرابع كان على اتفاق مع فالاً وهيليساشاد وآغوبارد وغيرهم من زعماء الامبراطورين وأجابهم بعبارات شديدة مؤكداً لهم تفوقه عليهم وعلى الامبراطور ومنهماً هذا الأخير بتعكيره سلام الامبراطورية وفصم وحدتها بعد خرق براءة ٨١٧ . وفي ٢٤ حزيران من السنة نفسها كان جيش لويس التقي وجيش أولاده وجباً لوجه في الالزاس بالقرب من كولمار في روتفالد . وأراد الامبراطور المفاوضة مع البابا ، فاعتم أولاده هذه الفرصة ليفسدوا جنوده عليه وتم لهم ذلك . وفي ٣٠ حزيران رأى لويس التقي أن أنصاره قد انفضوا من حوله فاضطر للتسليم . وأعلن لوثير سقوط أبيه واستلامه السلطة بدلاً عنه . وعرضاً عن أن يلجأ إلى الإصلاح ، كما هو منتظر ، اقتسم هو واخوته الغنيمة ، ولم يؤمنوا وحدة الامبراطورية .

أعطى لوثير إلى أخيه لويس الجوهاني : ألمانيا والالزاس وساكس وفرانكونيا وتورنجه ؛ وإلى يبين : آنجو والبلاد الشاطئية بين اللوار والسين . ومن عجب أن يصدر هذا التقسيم عن اتخذوا وحدة الامبراطورية شعارهم ومثلهم الأعلى . واستاء البابا بعد أن عرف أخيراً أنه اتخذ العوبة بأيديهم وعاد إلى إيطاليا حزينا .

أما لويس التقي ، فسجن في كنيسة القديس ميدار في سواستون ، وشارل في بروم في الأردن ، وجديث في تورتونا في إيطاليا . وفي الأول من تشرين الأول انعقد دباط كوميين تحت رئاسة لوثير ونظر في جرائم الامبراطور وفي الطرق التي يجب اتباعها للحيلولة دون رجوعه إلى السلطة . فتقرر أن يدعوه إلى التوبة وأن يتخلى بنفسه عن سلطته وأجبر على تجريده من أسلحته وملابسه الملكية وارتداء ألبسة التائب .

إرجاع لويس التقي إلى السلطة . - ويبدو أن هذا الإذلال الذي فرضه الأبناء على أبيهم الشيخ أثار عليه العطف ، وأنكر هذا العمل كثير ممن وخزم ضميرهم الحي . فقامت حركة جديدة ترمي إلى إرجاع لويس التقي إلى السلطة . يضاف إلى ذلك أن لوثير وزبائنه جنوا وحدهم ثمرة هذا الظفر وأساءوا إلى كثير من أنصارهم . وفي كانون الثاني سار لويس الجرمان في بريد تخليص أبيه ، بينما كان برنارد سبتيانياو كونت بورغونديا ، غير أن ، وضابط الامبراطورية الأول غليوم في غربي غاليا ، يحشدون الجيوش للغرض نفسه . وكذا بين زحف على السين لنفس الغاية . ولما رأى لوثير اتساع الحركة غادر ايكس - لا - شابل مصطحباً أباه وأخاه الصغير شارل وتركهم في سن - دوني بالقرب من باريس في ٢٨ شباط . وفي ١ آذار تصالح الامبراطور فيها مع الكنيسة وتقلد أسلحته من جديد . وفي منتصف آذار التحق به ابنه لويس وبين ليوجهوا حملتهم جميعاً ضد لوثير . وقد ظفر هذا في أول الأمر ولكنه اضطر أخيراً للاستسلام والانسحاب إلى إيطاليا . واتسعت أراضي كل من لويس وبين ، فأخذ لويس الجرمان في ألمانيا والالزاس وفرنكونيا حتى نهر المين ؛ والثاني بين : آنجو . أما لويس التقي فقد رأى أن من الخير أن يتوج مجدداً في ٢٨ شباط ٨٣٥ في كارتدانية ميتر .

غير أن فكرة لويس التقي في منح ابنه شارل قسماً هاماً من الأراضي كانت تتردد في ذهنه فبدأ بتحقيقها عام ٨٣٧ . وأخذ شارل أراضي واسعة تضم الفريز والبلاد المنخفضة وبلجيكا اليوم ، والمناطق الواقعة بين نهر الموز الأوسط والسين وبحر الشمال وشمال بورغونديا وبعض كونتيات في جنوب السين . وفي السنة التالية أي في ايلول ٨٣٨ بلغ شارل سن الرشد وتوجه أبوه في كيرسي وأعطاه دوقية مين مع جميع الشاطئ بين نهر السين واللوار .

ولكن هذه التدابير في صالح شارل أفلقت أخويه لوثير ولويس الجرمانى حتى أنها اجتمعا في ٨٣٨ م في الالب للذاكرة في هذا الشأن . واغتاظ لويس التقي من ذلك فجرد ابنه لويس الجرمانى من الأراضي الجرمانية التي خولت إليه عام ٨٣٤ مع ساكس وتورنجه التي يحكمها أيضاً في الواقع منذ ٨٣٣ . وفي العام ٨٣٩ اضطر الامبراطور للذهاب إلى فرنكفورت . وبمساعدة الساكسونيين أجبر ابنه على الفرار .

وفي هذه الأثناء توفي بين ملك اكيثانيا في ١٣ كانون الأول ٨٣٨ م تاركاً ولداً يسمى باسمه بين . ولم يمنحه الامبراطور مملكة أبيه بل أعطاها لشارل وذلك بوحى من زوجته حديث وعندئذ تشكل حزبان :

١ - الحزب الارستقراطي ، وعلى رأسه كونت بواتيه اينوت وبرنارد سبتيانا وقد نادى ببين الثاني ملكاً .

٢ - الحزب الآخر ، ويتزعمه أسقف بواتيه ايرون ، وكان من أنصار شارل . وفي خريف ٨٣٩ رأى لويس التقي أن يعترف الاكيثانيون بشارل ملكاً عليهم ونادى به ملكاً على اكيثانيا في مدينة كلرمون .

أما لوثير فذ اعتزل في إيطاليا أخذ يمارس الحكم محاطاً بأنصاره القدماء أمثال فاللا والكونت لامبر وماتفريد وهوغ . وكان يعمل مستقلاً ، وحتى في السياسة الخارجية . وسمح هو وحده لمدين شمال إيطاليا أن تعقد في عام ٨٤٠ معاهدة تحالف وتجارة مع البندقية ، وأتم هذا التديير ، في السنة التالية ، بتثيته أملاك البندقية في الامبراطورية .

وفي غضون ذلك تصالح الأب وابنه . وكانت جديد في هذه المرة واسطة الصلح . فقد ثبت لها أن لوثير وحده يستطيع دون أخوته ، أن يحمي ابنها شارل عندما يودي الامبراطور . وجرت مفاوضات بين شارل ولوثير على أساس تقسيم الامبراطورية عدا بافاريا . واستقبل لويس التقي ابنه في ٣٠ أيار ٨٣٩ . وفي اليوم التالي جرى التقسيم ، واتخذ الحط الفاصل بين الأخوين نهر الرون والصون والموز ، على أن يأخذ لوثير القسم الشرقي وألا تكون هذه المقررات نافذة إلا بعد وفاة الامبراطور . ولم يتطرق البحث بسلطة عليا للوثير ، بغية الحفاظ على وحدة الامبراطورية .

غير أن اضطراب الامبراطورية منذ عام ٨٣٠ فتح المجال لكثير من الشعوب الخاضعة أن ترفع رأسها وتوالي هجماتها على الامبراطورية . فمن هذا اضطراب الحالة في برونانيا ، وفي البلاد السلافية ، الأمر الذي اضطر الامبراطور إلى تجهيز حملات لتهدة الحالة .

وكانت غارات القرصان النورماندين تقلق الامبراطور . فقد لبثوا من ٨٣٠ - ٨٤٠ يوالون هجماتهم واعتداءهم على شواطئ الامبراطورية . وقد كانت الفريز مسرح مغامراتهم . ولم يضع تدخل الامبراطور بجانب هوريك ملك الدانيمرك حداً لهجومهم ، ولم يكن للتدابير الدفاعية التي اتخذت من تأثير فاعل إلا قليلاً .

وكذا الجنوب الغربي من غاليا كان عرضة لزيارة القرصان . وقد أخذت هذه الزيارات في بعض الأحيان شكل الحرب . ولم تكن أساطيل العرب في البحر المتوسط أقل هجوماً من أساطيل الدانيمرك في المحيط وفي بحر الشمال . ففي عام ٨٣٨ م جاء الاسطول العربي من ترّاغونه وماجورقه وهجم على مرسيليا وأعمل فيها السلب . وفي عام ٨٤٢ جاء فريق آخر وكان أشد جراًة من السابق فصعد وادي الرون وتوصل إلى آرل ونهبها .

وفاة لويس التقي . - وفي هذه الأثناء كان حكم لويس التقي في أخريات أيامه . ففي عام ٨٤٠ كان الامبراطور يشارب فيما وراء الراين ، بعد أن ثار عليه لويس الجرمانى مرة أخرى . وعند عودته وقف متعباً في جزيرة في نهر الراين أمام انجلهيلم حيث لقي الموت بين يدي أخيه (دروغون) وله من العمر اثنان وستون سنة .

النزاع بين أولاد لويس التقي . - لم يكد لوثير يعلم بوفاة أبيه إلا وأرسل رسله في كل الامبراطورية ليخبر الناس باستلامه زمام السلطة طالباً طاعة الجميع ومهدداً جزاء المخالف بالموت . ولقد رأينا أن لويس الجرمانى اقتصر على بافاريا بموجب القرار (٨٣٩) وأخذ يحاول استرداد أراضي الضفة اليمنى لنهر الراين التي حكمها فعلياً من ٨٣٣ إلى ٨٣٨ . وبقي لوثير تجاهه في حدود الحق . إلا أنه خرق نجاء شارل اتفاقات ٨٣٩ بصورة علنية ، واعتبر جميع التدابير التي اتخذت عقب براءة (٨١٧) لاغية . كان لوثير يطمع في التمتع بالسلطة وحده فاكسب بذلك عطف المتعلقين بوحدة الامبراطورية من رجال الاكايروس ، من أمثال اسقف ميتر دروغون ، ورجال الارستقراطية العلمانية التي كانت متعلقة بهذه الفكرة لعامل نفعي وهو التعطش للكسب والفائدة .

وكان لويس أقرب خصوم لوثير وأكثرهم خطراً . ولذا رأى الامبراطور أن يخضعه أولاً ، فاجتاز نهر الراين إلى فورمز ، وانجه نحو فرنكفورت وتقابل مع جيش أخيه على مقربة من ماينس واضطر إلى عقد هدنة مع لويس ليصفو له الجو ويتفرغ لسحق شارل .

فلق شارل من مناورات أخيه بعد أن رآه يعمل على إثارة أتباعه ضده ، واستطاع لوثير أن يتقدم في فرنسا حتى وصل إلى أورلئان وأصبح أمام شارل وجهاً لوجه ، وعوضاً عن أن يتقاتلا عقدا بينهما هدنة .

وكان هذا الاتفاق يقضي بمنع لوثير من مهاجمة لويس الجرمانى . غير أن الامبراطور كان لا يعرف لوسوسة الضمير معنى وأقلقه أن أخاه أمن طاعة الفرنجة الشرقيين والالامان والساكسون والتورنجيين . فعزم على مهاجمته واستطاع أن يوقع الاضطراب في بافاريا . وفي غضون ذلك علم أن أخاه شارل ، بعد أن أمن الوضع العام في بروتانيا وسبتيانيا ، قد عبر نهر السين يريد مهاجمته فترك عندئذ حامية في فورمز ونهاى للوقوف في وجه أخيه . وعندما وصل شارل إلى آتيني أتاه وفد من لويس يعلمه بأنه آت لنجدته .

واستطاع شارل بفضل ضابط مملكته آلارد أن يؤلف جيشاً قوياً ، وانضمت جنوده إلى جنود أخيه لويس بالقرب من شالون (على المارن) وسحقت قوى الامبراطورية . وكان لوثير ينتظر نجدة من بين الثاني ، فحاول أن يلهم أخويه بمفاوضات ، وكانا يترددان في القتال ، لأن الحرب بين المسيحيين مخالفة للدين . وعندما وصلت النجدة الاكيتانية حاربها في منطقة أوسير عند فونتوا آن بويزي وانتهت الحرب باخفاقه . غير أن الظافرين لم يستثمرا فوزهما ، واستطاع الامبراطور أن يقاتل متراجعاً دون قلق ، وعاد لويس إلى بلاد الراين ، وكان حريصاً على تقوية سلطته فيها .

أما لوثير فقد انسحب إلى ايكس - لا - شابل وفكر أن يأخذ بثأره ، فأنار الاقنان في جرمانيا ضد امراهم ، ووعد المتألبين بالعودة إلى الحق الذي كان يسود السكسونيين في الزمن الذي كانوا فيه وثنيين . ومن جهة ثانية أمن لنفسه تحالفاً مع القرصان النورمانديين مقابل منحهم بعض الأراضي في الفريز ، ثم حاول لوثير الهجوم ولكنه لم يلحق بأخيه لويس . ولم تمض بضعة أيام إلا وأخذ يقاتل متراجعاً . ثم عاد إلى أخيه شارل وأجبره على الانطواء وراء السين بمساعدة بين اكينتانيا . وفي هذه الأثناء زحف شارل نحو الشرق للقاء اويس الجرمانى . وقرر الاخوان شارل ولويس الانتهاء من المشاكل مرة واحدة . وفي ستراسبورغ ، في ١٤ شباط ٨٤٢ ، أقسم الرؤساء والجنود الايمان ، وتعهد كل من الأخوين بمساعدة الآخر وعدم التفاهم مع لوثير . ثم وعد كل من الجيشين بالتخلي عن رئيسه إذا حثت يمينه . وزحف جيش الاخوين الى كوبلنس وعبر نهر الموزيل واضطرا قوى الامبراطور المكلفة بحماية هذه المناطق إلى الفرار .

فاجأت الحوادث لوثير فالتجأ إلى ليون ومنها إلى ايطاليا . ولم يتردد اخواه بعد هذا في أن يعلنوا سقوطه ويوزعوا بينها الأراضي التي خصصت له بموجب اتفاق ٨٣٩ ، ثم لاحقاه . وفي الطريق اتاهما وفد من لوثير يقترح عليهما الصلح على أساس التقسيم . وجرت مفاوضات بين الطرفين أدت الى عقد تقسيم موقت والتقى الاخوة الثلاثة وقرروا أن يكون التقسيم النهائي في أول تشرين الأول المقبل على أن يجتمع مائة وعشرون مفوضاً في مدينة ميتر لتهيئة الأسس اللازمة . وانصرف بعدها كل من لويس وشارل إلى تهدئة الحالة العامة في مملكته . وشاء سوء ارادة لوثير أن يفسد ويعرقل تحقيق المفوضين واجتماعاتهم في ميتر ، وتأخر الاجتماع

حتى شهر آب على أن يعقد في مدينة فردن . وفي هذه الأثناء قامت بعض حركات العصيان في بروتانيا فانصرف شارل إلى تهدئتها . وهاجمه النورمانديون على سواحل المانش وقاموا بأعمال التخريب والنهب في افواه الدار وأحرقوا نانت وبعدها عادوا الى جزيرة نوارموتيه ليتحصنوا فيها .

معاهدة فردن آب ٨٤٣ . - وفي شهر آب ٨٤٣ تحقق اتفاق

الاخوة وجرى التقسيم في فردن كما يلي :

١) يأخذ لوثير ، علاوة عن ايطاليا ، الفزيز والبلاد الواقعة بين نهر الايسكو والراين بما فيها الهانوت وكامبريزي وباجسي لوم وكاستريس والكونتيات القائمة على عين الموز والدون والرون ، عدا كونتية شالون فقد تركت بتمامها الى شارل ؛ وعلى اليسار الأقسام الغربية من منطقة ليون وفينا وفيغاريه وأوزيج . وجعلت حدود الشرق نهري الراين والآر .

٢) يأخذ لويس الجرمانى اسقفيات ماينس وفورمز وسبير الواقعة على الضفة اليسرى لنهر الراين مع جميع البلاد الواقعة على الضفة اليمنى .

٣) يأخذ شاول جميع المناطق الواقعة في غرب دول لوثير ، باستثناء ابوية القديس واسط في آراس التي تركت لهذا الأخير .

وتكفل الاخوة الثلاثة بسلامة دولهم وتعهدوا بأن تجري بينهم علاقات أخوية . ولم يجعلوا اقل ميزة للامبراطور على أخوته إلا هذا اللقب الشرفي . وفي الحقيقة يعتمد هذا التقسيم على أساسين :

الأول : إن كلاً من الحصص يجب أن تنضم إلى أرض كانت في السابق تابعة لأحد المتقاسمين كإيطاليا الى لوثير، وبافاريا الى لويس الجرمانى ، واكتانيا الى شارل .

الثاني : تأمين واردات متكافئة بين الأخوة .

ولم يراع في هذا التقسيم أي اعتبار للعرق واللغة والقومية ، ولم تحترم

- ٢٠٩ -

سلامة المناطق الكبرى التقليدية ، فمن ذلك ان فرنسا وبورغونديا
قسمتا بين شارل ولوثير ؛ وألمانيا - بما فيها الألزاس - بين لوثيولويس .
وكذا الحال فيما يتعلق بالتقسيمات الكنسية .

لقد قضت معاهدة فردن نهائياً على وحدة الامبراطورية وعلى آمال
الذين يعتقدون بأن هذه الوحدة كانت ضرورية للدفاع عن الشعب المسيحي
وتعظيم الكنيسة . ولقد أوضح الشماس فلوروس ليون هذه العواطف
بقوله : « إن هذا التقسيم لم يبق امبراطوراً ولا ملكاً بل ملكاً ، ولا
ملكة بل بقايا مملكة » . غير أن « بقايا المملكة » هذه ستكون في
المستقبل نطاقاً جغرافياً تتشكل فيه أمتان كبيرتان : فرنسا وألمانيا .

وقبل معاهدة فردن بأشهر ، أي في ١٩ نيسان ٨٤٣ ، توفيت في تور
الامبراطورة « جديث » التي سبب زواجها بلويس التقي هذه الحوادث الآتفة
الذكر وكانت معاهدة فردن خاتمة لها .

الفصل العاشر

الممالك الفرنجية والامبراطورية الكارولنجية

٨٤٣ - ٨٨٧

مع معاهدة فردن الى وفاة لوثير الاول

٨٤٣ - ٨٥٥

نظام الاخاء . - لقد قضت معاهدة فردن على وحدة الامبراطورية وأوجدت مكانها ثلاث ممالك مستقلة يسود بينها نظام الزمالة والاخاء والتعالف الذي يرمي إلى المحافظة على السلام وإبقاء الوضع الراهن الارضي . ولعل أهم ميزة لهذا النظام هو القضاء على المشاحنات التي كانت تقوم بين الأخوة من حين لآخر .

أما لقب الامبراطور فلم يكن له أقل ميزة تفضل لوثير على اخوته ، ولا يؤمن له إلا رتبة شرفية . وكان لوثير يطمع بالامتيازات التي تتعلق بهذا المنصب من حماية للكرسي الأقدس وسيادة في روما وأراضي الجبر الأعظم . غير أن الحروب التي وقعت بين الاخوة في السابق جعلت البابا يتحرر من كل قيد . وعندما توفي البابا غريغوار الرابع في كانون الثاني عام ٨٤٤ ، انتخب سيرج الثاني وبورك بابا دون استشارة الممثل الامبراطوري ، ودون مبايعة الامبراطور . وقد أرسل لوثير من ايكس - لا - شابيل ابنه البكر ، لويس الثاني ، إلى إيطاليا بعد أن نصبه ملكاً عليها ، واضطر البابا أن يبرر

سلوكه ، وألزم الرومانيون ببياعة الامبراطور ، وبارك سيرج الثاني لويس ملكاً وتوطدت على هذا النحو سلطة الامبراطور في روما رغم أنها ضعيفة . حاول لوثير أن يستغل عمله في روما ويستعيد سلطته في مملكتي أخويه وطلب من البابا رفع اسقف ميتز ، دروغون ، إلى منصب النائب الرسولي في غاليا وجرمانيا . غير أن هذه المناورة فشلت أمام معارضة اسقفية « فرانسيا الغربية » التي عقدت مجعاً في فير في كانون الأول ٨٤٤ . وفي هذا المجمع أيضاً دعا الأساقفة الملك إلى إشغال كرسي اسقفية رنس الشاغر . وفي السنة التالية انتخب له هنكهار وهو كاهن عالم وراهب قديم من سن - دوني .

حكم لويس الثاني في ايطاليا . - بقي لويس الثاني في ايطاليا يتابع باستمرار وبوسائل غير كافية سياسة التوحيد والإصلاح منصرفاً إلى توطيد السلطة الملكية وإعادة النظام وإصلاح أخلاق الاكليروس . وفي عام ٨٤٥ دامه خطر العرب على شواطئ البحر التيراني ، حتى أن نابولي تخلت عن تحالفها مع مسلمي صقاية لتنظم دفاعاً مشتركاً مع المدن البحرية الأخرى مثل غايت وآمالفي وسورانتة . ولذا اندفع هجوم المسلمين نحو الشمال ، وفي ٢٦ آب ٨٤٦ وقع حي روما الواقع على الضفة اليمنى لنهر التير في أيديهم وعادوا بالغنائم والأسلاب .

كان وقع هذه الغارة على روما أليماً . فرأى لوثير ولويس الثاني أن يحجرا ايطاليا الجنوبية من المسلمين . وقام لويس الثاني على رأس حملة عام ٨٤٦ وظفرت جيوشه على المسلمين واستودت بينيفن من يد حمايتها المسلمين والزم كل من راديلشي دوق بينيفن وسيكونولف دوق ساليرن أن يكتفي بدوقيته ، لأن تنافسها أدى إلى الهجوم الاسلامي على البلاد ، وان واجبها يقضي منها الآن متابعة النضال ضد المسلمين ، غير أن هذين الدوقين

لم يكونوا أهلاً لما يتطلب منها . وفي عام ٨٤٩ استرجع المسلمون مواقعهم ووالوا هجماتهم ودامت الحالة هكذا بضع سنين أخرى . وفي سنة ٨٥٢ حاول لويس الثاني الاستيلاء على باري ، التي كانت قاعدة هامة للمسلمين ، ولكنه أخفق ولم يدعمه أمراء إيطاليا الجنوبية .

وفي عام ٨٤٧ توفي سيرج الثاني وخلفه ليون الرابع . وقد جرت مباركته دون انتظار موافقة الامبراطور ، ولكنه اعترف خطياً بمحقوق هذا الأخير عليه . وامتاز ليون الرابع بتحصين روما . فقد أحاط الضفة اليمنى مع حي كنيسة القديس بطرس بسور . وفي عام ٨٤٩ نهب المسلمون شواطئ بروفانس ولوني وحاولوا هجوماً على المدينة الخالدة ولكنهم أخفقوا أمام مقاومة اسطول المدن البحرية والحرس الروماني .

وفي عام ٨٥٠ نصب لوثير ابنه لويس امبراطوراً . وفي نيسان من هذه السنة باركه البابا ، وترك الامبراطور الشاب يمارس في روما سلطاته بصورة فعلية ويفرض احترامها . حتى أن البابا بنوا الثالث الذي خلف ليون الرابع عام ٨٥٥ لم يبارك إلا بعد أن صادق على انتخابه مندوبو الامبراطور .

وشكت بروفانس ، كإيطاليا ، من عصيان زعمائها وغارات القرصان عليها . وكانت الفرز عرضة لغارات النورمانديين . حتى أن الامبراطور أحدث فيها دوقية دانيمركية على مصبات الراين والموز والايكو لتتعم هذه المناطق بعض الشيء بهدوء نسبي .

شارل الأصلع . - وكانت الحالة في فرانسيا الغربية أسد خطراً . حتى أن سلطة شارل الأصلع لم يعترف بها الا في اكيثانيا أو في بروثانيا ولا في منطقة الثغور التي أمامها . ولقد حاول شارل أن يفتح غرب مملكته وجنوبها . وفي آخر عام ٨٤٣ زحف على اكيثانيا ضد بين وحاصر

- ٢١٣ -

تولوز ولكنه اضطر أخيراً إلى التراجع وأخذ يحارب متراجعاً . وفي السنة التالية تخلى عن قسم عظيم من اكيثانيا إلى ابن أخيه بين الثاني الذي اعترف بسيادة عمه واعتبر نفسه تابعاً له .

وضاعت من شارل بروثانيا كأكيتانيا ولم يعترف دوقها له إلا بسلطة نظرية فقط .

ووالى النورمانديون هجائهم من قاعدتهم نوايموقيه على مناطق الغارون والشواطىء الاسبانية واجتاحوا بوردو وشواطىء المانش . وفي عام ٨٤٥ صعد أسطولهم نهر السين ونهب باريس . ولبت جيش شارل على جموده لا يبدي حراكاً حتى اضطر إلى دفع مبلغ من المال ثمن انسحابهم .

حاول شارل أن يدعم سلطته الملكية أمام هذا الخذلان الذي مني به فأقام حفلة دينية عام ٨٤٨ في كنيسة اورلثان لمباركته ، ومنها اندفع إلى اكيثانيا فهزم بين واستولى على تولوز (عام ٨٤٩) . وفي العام ٨٥٢ سُلِّم إليه بين ، وحاول كبار اكيثانيا أن يستعطفوا لويس الجرمانى ويستمدوا منه العون ، فأرسل إليهم ابنه لويس الشاب ولم يجد تدخله شيئاً . غير أن بين تمكن من الفرار ، وحاول شارل مرة أخرى القضاء على مقاومة بين فرأى أن يسترضي الاكيثانيين ويمنحهم استقلالاً ذاتياً ، وفي تشرين الأول جعل ابنه (شارل) ملكاً على اكيثانيا .

وجرى شيء مشابه لذلك في بروثانيا . فقد منح شارل الأصلع زعيم البروتون ايريسبو لقب الملك ، وتخلى له عن التخوم مقابل اعترافه بالطاعة . وعاد النورمانديون إلى اعتداءاتهم وجعلوا يهاجمون أطراف المملكة من ثلاث قواعد : من الجيرود ، من جزيرة في نهر السين ، ومن جزيرة في نهر اللوار ، ويعيشون في الأرض الفساد والسلب والنهب . ولم تكن التدابير التي اتخذها شارل الأصلع ضدهم ناجعة للضرب على أيديهم .

مملكة لويس الجرمانى . - لم تضطرب الحالة في فرنسا الشرقية بمثل ما كانت عليه فرنسا الغربية . ففي الجنوب الشرقي كان التوسع المسيحي والالمانى يتابع سيره كالمعتاد غير أن النتائج لم تكن كلها واحدة في المملكة . ففي بوهيميا كانت سلطته نظرية . وفي مورافيا كانت السلطة الملكية ضعيفة الشأن . وفي بانوليا تقدم التبشير المسيحي بسبب توطد السلطة . وكانت كنيسة سالزبورغ مركز الدعاية المسيحية . ولم يتعكر السلم إلا في عام ٨٥٣ عندما هجم البلغاريون ، بتحريض من شارل الأصغر ، للحيولة دون تدخل لوبس الجرمانى في اkitانيا .

وفي شمال المملكة اضطر لويس إلى القيام بعدة حملات ضد الاوبودريت والوند والسورب حرصاً على بقاء هذه الأقوام في طاعته . ولم تكن هذه الحملات مصحوبة بمجهود رصينة في أعمال التبشير . كما أن البعثات المسيحية كانت توالى أعمالها في الدانيمرك والسويد تحت ادارة القديس آنشير .

وفي ٢٩ ايلول ٨٥٥ توفي لوثير الأول في بروم ، بعد أن تخلى عن مثله في الوحدة وقسم دوله بين أولاده :

- ١ - أن يحتفظ لويس بايطاليا .
 - ٢ - أن يأخذ لوثير الفريز وفرنسيا .
 - ٣ - أن يأخذ شارل بروفانس والبلاد الرومانية (الواقعة في وادي نهر الرون) .
- وبوفاة الامبراطور لوثير يذهب عنصر أساسى في سياسة « الاخاء » التي سلكها أولاد لويس التقى فيما بينهم .

مع وفاة لوثير الاول الى وفاة لوثير الثاني

٨٥٥ - ٨٧٠

لقد أصبحت الامبراطورية الكارولنجية عند وفاة لوثير الأول كقطعة فسيفاء تتألف من خمس ممالك غير متساوية ، لا تماسك بينها ، فضلاً عن ان الاتفاقات، السابقة رغم الأيمان المغلظة التي رافقت عقدها ، لا تستطيع حمايتها ضد اخطار جديدة وتبدلات وتعديلات أرضية . وكان من الضروري على الأقل ان يوجد اتفاق بين ابناء لوثير الثلاثة ليستطيعوا تدارك الاخطار . ولكن كلاً من الأخوين لويس الثاني و لوثير الثاني كان يرى بأنه مغبون في حصته ، ولا يبعد ان كانا يفكران باقتسام حصه اخيهما الصغير شارل لولا ان امراء بروفانس كانوا الى جانبه . وقد احتدم النقاش بين الاخوة الثلاثة مرة في اورب عام ٨٥٦ في جنوب بحيرة نوشاتيل وكادوا يشتبكون مع بعضهم ، ولم يتوطد السلام فيما بينهم الا بعد كبير عناء .

وكذا التفاهم بين شارل الأصلع ولويس الجرمانى كان ضعيفاً . كانت الحالة مضطربة جداً في مملكة شارل الأصلع أي في فرنسا الغربية ففي العام ٨٥٦ استرجع بين الثاني نشاطه في اكيثانيا واتخذ وضعاً مهدداً . ولذا اتفق شارل الأصلع مع البروتون ضده ، حتى انه خطب ابنة ايريسبو لابنه لويس الملقب بالألكن بعد أن نصبه ملكاً على منطقة مين . وفي سنة ٨٥٧ قتل ايريسبو وخلفه سالومون وتحالف هذا مع كبار نوستريا وطرده لويس الألكن عن الحكم عام ٨٥٨ .

وكذا النورمانديون لم يبقوا دون حراك . فقد احرق النورمانديون المقيمون في جزيرة في نهر السين ، مدينة باريس ، وبايو ، وشارتر . وأحرق

نورمانديو نهر اللوار اورلثان وتور وبلوا . وهاجم اسطولهم شواطئ اسبانيا . وفي العام ٨٦٠ اجتاحوا سبتيانا وپروفانس ، الا انهم غلبوا على امرهم من قبل الكونت جيرارد الذي كان يحكم المملكة باسم شارل بن لوثير الأول . وجبن اهل فرنسا عن مقاومة هؤلاء الغزاة . غير ان شارل الأصلع جمع جيشاً وتحالف مع ابن اخيه لوثير الثاني وحاصر النورماندين في نهر السين في جزيرة واسل . واغتم لويس الجرمانى هذه الصعوبات التي يتخبط بها اخوه وهاجم مملكته .

وكانت الظروف مؤاتية لمثل هذا الغزو ، فقد توطدت سلطة لويس الجرمانى في مملكته ولم ينازع سلطته منازع . وفي العام ٨٥٦ تألف حزب في فرنسا الغربية من أهل اكيثانيا وكبار فرنسا ومين وبورغونديا . ورجاهذا الحزب لويس الجرمانى أن يأتى لفرنسا ويطرد منها شارل الأصلع . وسبق للويس أن قاوم هذا الرجاء ، ولكنه استجاب في هذه المرة للداعي المسمى ورغب في تأسيس دولة فرنجية واسعة . وفي آب ٨٥٨ عبر الحدود ، وكان زحفه أشبه بنزعة عسكرية لم يلق فيها مقاومة تذكر . ولما رأى شارل الأصلع ان معظم الارستقراطية قد انقضت من حوله استسلم للهرب . غير أن الاكليروس كان أميناً على عهده فانقذه بفضل هنكار رئيس الأساقفة . ولما دعا لويس الجرمانى الأساقفة الى رنس لمباركته رفض هنكار باسمهم . ويئس حلفاء لويس بعد أن خيب ظنهم وتخلوا عن نصرته ، ولما رأى أن لا سبيل للمقاومة والغلاب قفل راجعاً في كانون الثاني ٨٥٩ يجرر اذيال الحية . وتوطد السلام اثر تدخل لوثير الثاني في مؤتمر كوبلنس (حزيران ٨٦٠) . واضاع لويس الجرمانى في هذه المغامرة كثيراً من جاهه حتى في أعين رعيته . وبالمقابل ازدادت سلطة شارل الاصلع في مملكته ، كما عظم نفوذ هنكار .

أما إيطاليا فكانت فريسة المنازعات الداخلية . فقد استأنفت ساليون وبينيفن الكفاح . واستقلت كلبو وقامت ضد ساليون . وثار لامبر دوق سبوليت في وجه الامبراطور ، حتى اضطر لويس الثاني أن يجيز جيشاً ويوقفه عند حده . واستفاد المسلمون من هذا الوضع فأعملوا النهب في نابولي والتخريب في بينيفن وكلبو وكامبانيا ، ولم ينالوا مون كاستينو بأي اذى بعد أن دفع لهم مبلغ من المال . وفي هذه السنة نفسها طرد النورمانديون من بروفانس فنهروا ييزا ولوني .

وجدت لويس الثاني في عمله . وكانت علاقته طيبة مع البندقية التي اخذت تستقل بالتدريج استقلالاً ذاتياً عن ييزنطة . ووطد سلطته في روما . وفي العام ٨٥٨ توفي البابا بنوا الثالث وانتخب مكانه الشماس نيقولا ، وجرت مباركته بحضرة لويس الثاني ، ورغب هذا أن يكون البابا الجديد طوع بئانه . الا ان نيقولا الأول كانت له وجهة نظره . فقد كان يسعى في توسيع سلطة البابوية ، وواتته الظروف ، لا سيما وان الامبراطورية فقدت جاهها منذ ثلاثين عاماً خلت .

دعوى توتبرج زوجة لوثير الثاني . - كانت توتبرج زوجة لوثير الثاني عقيماً فأراد لوثير طلاقها وزواج خليلته والدراد بعد أن أنهى اولاد منها . وفي العام ٨٥٧ سجن زوجته واتهمها في اخلاقها ثم ارجعها اليه بعد أن برأتها المحكمة الملكية .

وفي العام ٨٦٠ كانت السياسة في الغرب تحوم حول طلاق لوثير الثاني من زوجته ليتزوج والدراد . ولقد اضاف إلى السبب ، الذي ذكره آنفاً ، سبباً آخر وهو ان زواجه بالدراد كان قبل زواجه بالملكة . وعقد جمعاً دينياً في ايكس - لا - شابل في شهر كانون الثاني ، إلا انه لم يقض بما رغب به الملك . ثم عقد مجلساً آخر في ١٥ شباط بفضل مساعدة رئيس

اساقفه كولونيا غونتر ورئيس اساقفه تريف تيتغود ، فحرم عليه كل علاقة مع توتبرج دون ان يحصل على فسخ الزواج .

غير أن هنكمار احتج على ذلك وحكم ببطلان الأصول الذي جرى عليه هذا الجمع ودافع عن الملكة . ولقد كانت هنالك عوامل دينية ومعنوية تضطره للعمل على هذا النحو . فقد كان على اتفاق مع شارل الأصلع الذي كان يأمل بأخذ لوتارنجيا (مملكة لوثير) اذا بقي ابن اخيه زوجاً لتوتبرج العقيم . وقد غدت معارضة طلاق لوثير واخذ دوله عاملاً أساسياً لسياسة شارل التي كان هنكمار يوحى بها . وقد ذهبت توتبرج والتجأت اليهما وضما احتجاجهما إلى احتجاجها الذي وجهته إلى قداسة البابا .

سعى لوثير في البحث عن دعم له عند لويس الجرماي وأطمعه بالألزاس . وبعد أن أمن اتفاقه معه ، عقد في ايكس مجعاً ثالثاً . فأعلن هذا الجمع ان توتبرج ليست زوجة شرعية للملك ، وباستطاعة هذا ان يتزوج امرأة أخرى غيرها . ولم تمض مدة إلا وعقد لوثير زواجه على والدراد وتوجها ملكة .

وكان لويس الجرماي يرغب بالسلام فدعاه إلى عقد مجلس لتسوية الخلاف بين أخيه شارل الأصلع وابن أخيه. لوثير الثاني . وانهقد هذا المجلس في سافونير في خريف عام ٨٦٢ وكان ظفراً لشارل الأصلع واذلاً إلى لوثير . وبه وعد لوثير ان يبين سلوكه أمام مجلس مؤلف من كبار الممالك الثلاث ليحكم له أو عليه ، ولم تظهر أي نتيجة ايجابية لهذا التعهد .

غير أن عمل البابا كان انجح تأثيراً ، فلم يكذب يطلع على مقررات الجمع الثالث في ايكس الاوكلف رادوالد ، اسقف بورتو ، وجان ، اسقف سيرفيا ، بعقد مجمع واجراء تحقيق في قضية زواج لوثير . وكان هذا العمل

فرصة لاطهار سلطته على زعماء الكنيسة الفرنجية ، وسلطته التي يزعم بأنها فوق سلطة الملوك أنفسهم . ولكن لوثير توصل إلى افساد ضمير المندوبين الرسولين ، حتى ان جمع الاساقفة اللوترانجين الذي ترأساه في ميتر عام ٨٦٣ صرح بأن لوثير تزوج بوالدراة قبل زواجه بتوتيرج، وان هذا الزواج الأخير باطل . وكلف غونتر وتيتغود بحمل هذا القرار الى روما . ولكن نيقولا الأول كان قانعا بخداع لوثير وشركائه ، فشجب مقررات مجمع ميتر ، وعزل الرسولين من منصبها الديني في مجمع عقده في لاتران ، وحرم على لوثير معايشرة والدراة . وتدخل الامبراطور لويس الثاني في الامر تدخلا مسلحا في بداية عام ٨٦٤ ، ولكنه لم يستطع أن يعمل شيئا أمام ارادة البابا الحازمة .

وكان لوثير ، في ذلك الحين ، يحارب النورماندين في الفريز ، عندما علم بحكم البابا ، فاعلم نيقولا الاول بخضوعه عام ٨٦٤ . ولكنه كان يحرص على حليف ضد البابا وشارل الاصلع ، وجرت بينه وبين أخيه لويس الثاني مقابلة في اورب .

ودعا تدخل البابا في قضية لوثير إلى التنبؤ بضياع مملكة لوثير بعد وفاته . وأمام هذا الاحتمال تقرب الملك الالماني من أخيه وتقابلا في توزي في شباط ٨٦٥ واتفقا معاً ودعوا ابن اخيهما إلى اصلاح سلوكه . وقد قلقا من توسع سلطة البابا، فقررا الا يرسل اساقفتها إلى المجمع العام الذي دعا اليه نيقولا الاول ليعرض عليه في روما قضية طلاق لوثير وقضية انشقاق بطريك القسطنطينية فوتيوس .

خاف لوثير من تفاهم عميه ، واستغزى مرة ثانية ، ورجا البابا التوسط بينها وبينه . واغتم نيقولا الاول هذه الفرصة لجعل نفسه حكما بين الملوك ، فأرسل الى فرانسيا آوسين ، اسقف اورتا ، ليحجر لوثير على ارجاع

توتبرج ، ويمنع شارل الاصلع وأخيه لويس الجرمانى من مهاجمة ابن
ابن اخيهما لوثير ، ويعيد روثاد ، اسقف سواسون ، إلى كرسىه بعد أن
ازيح عنه بتشبت من هنكار يدعمه شارل الاصلع . أدى آرسين رسالته
وعاد معه والدراد ، غير أن هذه فرت وعاودت علاقاتها مع عشيقها .
وأراد البابا أن يخضع أيضاً شارل الاصلع وهنكار ، وطبق على هذا
الاخيرة قاعدة المساواة في التبعية للكرسى الاقدس الذي يخضع له الاساقفة
جعباً . وحتى الملك على نيقولا الأول ، وساءه ان سياسة هنكار قد أفسدت
عليه أموره ، فقطع علاقاته معه ومع سياسته ، ثم انضم إلى لوثير الثانى ،
بعد أن أعطاه أبوية (دير) القديس واسط في آراس ، ليرجو البابا في الغاء
الزواج بتوتبرج . ولكن هذه المحاولة كانت عبثاً .

وفي هذه الاثناء والى النورمانديون المقيمون في نهر السين هجماتهم
ودحروا جيوش شارل الاصلع ، ولم يتخلص منهم إلا بعد ان اشترى
رحيلهم بمبلغ من المال . أما نورمانديو اللوار فكانوا يعملون النهب في
المناطق المجاورة . ولم يستطع الملك صدم الا بصعوبة . ثم عقد صلحاً
مع البروتون وجعل ابنه لويس الاكبر ملكاً على اكيثافيا ومنحه
سلطات محدودة .

غير ان اندازاً شديد اللهجة من البابا سبب انقلاباً في الاحلاف : فقد
تقرب شارل الاصلع من هنكار وتقابل مع لويس الجرمانى في ميتر ، وبحث
معه فيما يجب اتخاذه في حالة تقسيم مملكة لوثير . فقلق هذا وحاول
مرة ثانية أن يتصالح مع عمه الاكبر وتخلّى له عن أمانة الازراس .

وفي ١٣ تشرين الثانى ٨٧٦ توفي البابا نيقولا الاول بعد أن رفع
عالياً سلطة الحبر الاعظم في الكنيسة وفي العالم . وكانت سياسته على خلاف

سياسة الملوك المتحولة ثابتة لا تتغير وفي سبيل فكرة واحدة : وهي توطيد سلطة البابا المطلقة التي تجسد القانون الآلهي وخلفه على عرش البابوية هادريان الثاني ، وبورك برضى الامبراطور ، وكان أميناً للمثل الاعلى الذي كان عليه سلفه ولكنه أقل منه عناداً في التطبيق ، وبضغط من الامبراطور لم يثبط المساعي التي حاولها لوثير. وعندما ذهب هذا عام ٨٦٩ إلى ايطاليا ، للحصول على فسخ الزواج ، رفض طلبه ومات على أثر حمى أصابته وهو في طريق العودة في بليزانس في ٨ آب .

وأتت الفرصة شارل الاصلع ليستولي على لوتارنجية . فقد هدأت غارات النورماندين ، وكان لويس الجرمانى منهمكاً في قمع الفتن والثورات ، فضلاً عن أنه كان مريضاً وبقي في راتسبون .

دخل شارل الاصلع لوتارنجية واعترف به حزب من كبار الكنسين والعلمانيين . وفي ٩ ايلول ٨٦٩ باركه هنكمار في ميتر . وفي ٦ تشرين الاول فقد زوجته ، وفي ٢٢ كانون الثاني ٨٧٠ تزوج ريشيلد أخت الكونت بوزون ليرتبط ارتباطاً وثيقاً بأعظم اسرة في المملكة . غير أن لويس الجرمانى بعث اليه بانذار فاضطر إلى المفاوضة . وفي ٨ آب عقدت معاهدة تقسيم في ميرسن . ودخلت الفرز في حصة شارل وجعلت الحدود نهر الموز والاورط والموزيل والمارن والصون والجورا . وفي هذه السنة اقتلع الملك من الكونت جيرارد دوقية ليون وعهد بحكومتها إلى بوزون . وتدخل البابا عبثاً لدى شارل وهنكمار ليفرض عليها حق الامبراطور في إرث أخيه . ولم يتلق من هنكمار إلا جواباً مستعلياً يدعوه فيه ألا يعرض نفسه لنزاع مع مليكه .

وبقيت الحالة مضطربة في ايطاليا والفوضى مستحكمة . وكان المسلمون يفيدون من هذا الوضع لوسعوا هجومهم . وحاول الامبراطور

لويس الثاني عام ٨٦٦ الكرة عليهم ، وانضمت إليه نابولي وآمالفي ودوق بينيفن واسطول البندقية . ولم يبق للمسلمين سوى باري وتارنت ، وحوصرت الاولى عام ٨٦٩ بفضل معاهدة مع امبراطور بيزنطة ، وأبى اسطول لحصار المدينة من جهة البحر . غير أن سوء التفاهم ساد بين الحلفاء ولم تؤخذ المدينة الا في عام ٨٧١ . ثم توترت العلاقات بين الحلفاء حتى أن باصيل الأول ذهب إلى منازعة الامبراطور الكارولنجي حق تسمية نفسه بالامبراطور المبارك ولم يعترف له إلا بلقب (ركس) الذي تنادي به بيزنطة ملوك البرابرة . واقتضى البحث في شرعية الامبراطورية الغربية جواباً نشبطاً من لويس الثاني أثبت فيه حقه باللقب الامبراطوري الروماني .

وبعد سقوط باري أرسل جيش الى تارنت وانسحب الامبراطور الى بينيفن . غير أن أميرها ادلشيس سجن لويس الثاني ولم يجره إلا بعد أن أخذ عليه عهداً ألا يدخل الأراضي البيبنقنتية . وبفضل هذه الحالة المضطربة عاود المسلمون هجومهم ورفع الحصار عن مدينة تارنت .

وفي الوقت نفسه دخلت المسيحية في البلاد الدانوبية في مرحلة جديدة ، وذلك أن خان البلغاريين بوريس اعتنق المسيحية عام ٨٦٤ وطلب إرسال المبشرين المسيحيين فأثابه من روما مبشرون نشيطون حتى انسحب أمامهم مبشرو جرمانيا . ومنذ العام ٨٧٠ أصبحت بلغاريا في منطقة نفوذ بيزنطة .

ولاقت الكنيسة الألمانية إخفاقاً آخر . فقد رأى دوق مورافيا راتيسلاف مكافحة نفوذ الاكليروس البافاري ، فطلب أن يرسل إليه كهان اغريقيون فأرسل إليه الامبراطور ميخائيل الثالث عام ٨٦٤ أخوين : قسطنطين وميتود . وترجم الاول العهد الجديد إلى اللغة السلافونية .

- ٢٢٣ -

ومات قسطنطين بعد عودتها الى روما . ثم أرسل البابا هادريان ميتود مفوضاً لدى جميع الأمم السلافية وجعله رئيساً لأساقفة بانونيا . وهكذا انفصل التبشير بالمسيحية عن الجرمنة في البلاد الدانوبية .

امبراطورية الغرب من وفاة لوثير الثاني الى وفاة شارل الأصغر

(٨٧٠ - ٨٧٧)

قضية وراثة لويس الثاني . - في سنة ٨٧٢ تحلل الامبراطور لويس الثاني من تعهداته ، وأعيد تنويجه ، ونادى مجلس الشيوخ الروماني بآدلشيس عدو الامبراطورية ، وتركت ايطاليا الجنوبية في حباله فوضى . ووضع الامبراطور مشروعاً لحلة الى بينيفن عام ٨٧٣ ، ولكن هذا المشروع اوقف بعد مناورة الاسطول البيزنطي الذي جعل هذه الامارة تحت حماية بيزنطة .

هذا ولم تنجب الامبراطورة انجلبرج أولاداً الى زوجها . ولذا وضعت وراثة لويس الثاني على بساط البحث أمام لويس الجرمانى وشارل الأصغر . وقد وعد الامبراطور الأول بتاج ايطاليا الى ابنه كارلومان . وكان يساند الثاني البابا هادريان الثاني وخلفه جان الثامن الذي بورك بابا في ١٤ كانون الأول ٨٧٢ .

ولم يكن لويس الجرمانى على درجة من القوة ليفرض مزاعمه ، فقد ثار عليه ولده لويس وشارل السمين عام ٨٧٠ و ٨٧٣ ، وتوترت العلاقات بين الأب وولديه . ولم تكن الحالة هادئة بوجه عام في فرنسا الشرقية . ووات الظروف شارل الأصغر . وساعده البروتون عام ٨٧٣ على طرد النورماندين من آنجه . وفي العام ٨٧٤ قتل الملك سالومون ونشبت

الحرب بين المطالبين بإرثه . كل ذلك جعل بروتانيا في حالة لا تستطيع معها الهجوم والغلاب .

وبعد أن توفي لويس الثاني في بريشيا في ١٢ آب ٨٧٥ ، بعد جهود قضاه في خدمة المثل الاعلى الامبراطوري ، زحف شارل الأصلع في طريقه الى ايطاليا حيث دعاه البابا جان الثامن ، وكانت الحال فيها عصبية . فقد نهب المسلمون جنوب ايطاليا ، وتحالفت معهم نابولي وغايت وآمالفي وساليرن وكادت الاساطيل العربية والقرصان الدالماسيون أن تحول دون الملاحة في بحر الادرياتيک لولا مقاومة البنادقة . وكانت السفن الاسلامية تجوب أنحاء البحر التيراني وتهاجم أراضي البابا وتصل في غزوها الى أفواه الرون . ولذا كان البابا يأمل من شارل الأصلع أن ينقذه مما هو فيه من ضيق .

ووصل شارل الأصلع الى روما وانتخب امبراطوراً وباركه البابا في ٢٥ كانون الاول ٨٧٥ . مقابل ذلك تخلى شارل عن المندوب الامبراطوري في روما وأبد امتيازات أسلافه ووسعها . ثم ذهب إلى بافيا ونودي به ملكاً على ايطاليا ، على أن يقوم بواجباته الملكية تجاه كبار ايطاليا الذين أعلنوا انضمامهم اليه . غير أنه لم يعمل شيئاً لتهدة الحال في ايطاليا أو يتخذ علاجاً لفوضاها ، وكل ما فعله هو أنه عهد الى بوزون بحكم المملكة وعاد الى فرنسا . وضم القسم الذي يخص لويس الثاني من بروفانس ، بعد أن اقتسمها هذا الاخير مع لوثير الثاني عندما توفي ملكها شارل اخوهما . وفي حزيران ٧٧٦ بويغ في بونثيون بالامبراطورية من قبل كبار دولته . وفي ٢٦ آب توفي في فرنكفورت لويس الجرمانى . وما علم شارل الأصلع بالحبر حتى ألقى بنفسه على خفاف الراين يريد الاستيلاء على مملكة أخيه ، بعد أن رأى الحلاف بين

أبنائه . ولكن الأخوة استطاعوا أن يسووا خلافهم ويقتسموا مملكة أبيهم :
أخذ كارلومان بافاريا وبانونيا وكرانثيا والبلاد السلافية التابعة لها .

ولويس الشاب : فرنكونيا وساكس وتورنجه .

وشاول السمين : سواب .

وبقيت لوتارنجيا غير مقسمة .

وساءت في هذه الأثناء حال إيطاليا رغم ماأبداه البابا جان الثامن
من حزم : فقد كان يناضل ضد الاغتصابات والتعديبات على أموال
وواردات البابوية ، ونظم الادارة ليحد من سلطة الارستقراطية الرومانية .
وحاول أن يجمع كلمة امراء إيطاليا الجنوبية ويفصل المدن البحرية عن
المسلمين ، ولم يكن لهذه الجهود كبير مفعول . فقد والى المسلمون هجراتهم
وتوصلوا الى القرب من روما . ولم يبق لإيطاليا الجنوبية من حام سوى
الامبراطور البيزنطي باصيل الأول . فقد وضع حامية في باري عام ٨٧٦
واعترفت دالماسيا بسلطته عام ٨٧٧ .

وتحت الحاح البابا جان الثامن قرر شارل الاصلع الحملة على إيطاليا
وفي الطريق أصابه زحار ، وتوفي بحالة يرثى لها وهو يعبر شعب جبل
مون سوفي في ٦ تشرين الأول ٨٧٧ .

وفي الحقيقة لم تكن حياة شارل الاصلع بالحياة السهلة بل كانت
مملوءة بالمغامرات ، وكان حين هم أنه يتوصل الى الامبراطورية وبعد في
صف الاباطرة . وماحياته ، وهو امبراطور ، الاسئلة من الحية والحسرة
والياس . فقد اخفق في المانيا حيث اراد التدخل ليستولي على مملكة
أخيه لويس الجرمانى ، ولكن لويس الشاب ابن هذا الاخير قهر عمه في
آندرناخ على الراين ، في ٨ تشرين الاول ٨٧٦ . وأخفق في إيطاليا ،

العصر الوسيط - ١٥

- ٢٢٦ -

ولم يستطع شيئاً . ومات ملك فرنسا الجديدة « حزيناً » كما يقول محرر
حوليات فولدا . ولم تكن الممالك التي خلفت الامبراطورية على شيء من
القوة لتحفظ بكيانها . فقد كان العالم الغربي تنقصه آنذاك قوى الوحدة
المركزية ، وذهب في طريق التجزئة والانقسام . وتوالت المصائب على فرنسا
والبلاد المجاورة من كل حذب وصوب : الغارات البربرية في تجمدد دائم ،
واقانية الزعماء التي لم تستطع سلطة المليك الحد منها ، وتوضع الحياة
المحلية ، واضطراب جبل الامن العام وعدم الطمأنينة ، كل ذلك مهد
السبيل الى الكارثة الكبرى التي حلت بالسلالة الكارولنجية عام ٨٨٨ .

امبراطورية الغرب من وفاة شارل الاصلع الى خلع شارل السمين

٨٧٧ - ٨٨٧

لقد لاقى لويس الأول لكن بعض الصعوبات للقبض على ناصية الملك
بعد وفاة أبيه شارل الاصلع . وباركه هنكمار في ٨ كانون الاول ٨٧٧
في كومبين ، بعد أن وعد باحترام امتيازات الاكليروس وكبار الدولة .
ونصحه هنكمار أن يتقرب من أبناء عمه الالمانين . وفي ١ تشرين
الثاني ٨٧٨ عقدت معاهدة في فورون بينه وبين لويس الشاب على أساس
الاحترام المتبادل . وكان كل منها بحاجة الى السلام ليقتضي على المقاومات
التي تناوئه في مملكته . وفي العام ٨٧٨ اقتسم اولاد لويس الجرمانى
لوترانجيا ، غير أن ملك بافاريا كارل لومان تخطى عن حصته منها لأخوية .
ومرض كارل لومان وعاد الى مملكته الاولى بافاريا . وبقي البابا دون حام ،
وفي وقت كانت فيه ايطاليا تتخبط في الفوضى : المسلمون يهددون
بهجماتهم والتنازع قائم بين امراء الجنوب . لذا عزم البابا جان الثامن

عام ٨٧٨ ان يذهب بنفسه الى فرنسا ليطلب منها العون فلم يلتق فيها ما كان ينبغي .

وفي السنة التالية توفي لويس الالكن وقد أثاره من زوجته الاولى ولدان : لويس الثالث وكارلومان . واعترف بهما ملكين كبار الدولة وأعظمهم نفوذاً فيها . غير أن هنالك فئة اخرى ، وعلى رأسها الأب غوزلن قدمت التاج الى ملك فرنسا الشرفية ، لويس الشاب ، وقد زاد هذا في قوته بضم بافاري مملكة أخيه كارلومان المصاب بمرض عضال . ودخل لويس الشاب مملكة أبناء عمه ولكنه ماعتم أن أجلى عنها ، ولكنه عاود الكرة في عدوانه عام ٨٨٠ ولم يلتق في فرنسا الغربية الانصار الذين يعول عليهم . ثم جرى اتفاق بين أبناء العم اعترف بهوجه لويس الشاب بملكية ابني عمه على ان يأخذ جميع لوتارنجيا . وعارضه في هذه المملكة هوغ بن لوثير الثاني والوداد ، وكان يحاول استرجاع مملكة أبيه . واقتسم لويس الثالث وكارلومان أراضيها على النحو التالي :

اخذ لويس الثالث : فرنسا ونوستريا .

وكارلومان : بورغونديا واكتانيا .

وفي هذه الأثناء حدث حادث خطير ، وهو أن قسماً من أراضي الفرنجة استقل تحت حكم ملك أجنبي عن الأسرة الكارولنجية . ففي مجمع مانتي في ١٥ تشرين الأول ٨٧٩ انتخب كبار الاكليروس والعلمايين بوزن ملكاً على بروفانس وبورغونديا .

أمام الخطر المائل من ثورة هوغ وبوزون حدث تقارب بين الملوك الكارولنجيين . وتقابلوا في غونديروفيل في حزيران ٨٨٠ وقرروا القيام بعمل مشترك ضد اعدائهم . وسحقت جنودهم جيش هوغ وأخذت قسماً

من اراضي بوزون ولم يبق له سوى جزء من بروفانس .

وكذا ايطاليا لم تنعم بالهدوء فغارات المسلمين عليها متوالية ، ووضع الحبر الاعظم في خطر . وقد اخذ هذا يحض شارل السمين ملك سؤاب ، وقد ظهر له هذا اللقب في القرن الثاني عشر ، ان يأتي اليه ليتوجه ملكاً على ايطاليا فأتى اليها واعترف به ملكاً ولكن دون أن يقوم بشيء لصالح البابا ، وتركه وعاد الى سؤاب . وفي شباط عام ٨٨١ اتى إلى روما وتوج فيها امبراطوراً . وهكذا انتقل التاج الامبراطوري إلى ورثة لويس الجرمانى بعد أن تخلى عنه لويس الألكن وريث شارل الأصلع . وسيصنع بيت لويس الجرمانى ، من الامبراطورية الكارولنجية المتطورة ، الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وبتعبير آخر « الوينخ الاول » (٩٣٦) .

ومات لويس الشاب في ٢٠ كانون الثاني ٨٨٢ ولويس الثالث بن شارل الأصلع في ٥ آب ٨٨٢ على اثر حادث ، وتبعه اخوه كارلومان في ١٢ كانون الأول في العام ٨٨٤ ، واعترف كبار المملكة بشارل السمين خلفاً له .

وشاءت الظروف أن تجمع الممالك الكارولنجية في شخص شارل السمين عن طريق الارث والوفاة ، وإذا استثنينا قسماً من بروفانس رأينا الوحدة الكارولنجية تعود بعد التجزئة ، ولكنها وحدة نظرية .

ومات بوزن في ١١ كانون الثاني عام ٨٨٧ ولم يستطع ابنه لويس الأعمى مقاومة الكبار في بروفانس ، فأتى الى شارل السمين وقدم طاعته ، ودخلت بروفانس جميعها في الوحدة الكارولنجية . ولكن هذه الوحدة كانت على وشك الانهيار . ولم يكن شارل السمين بذلك الرجل الذي يستطيع الحفاظ على هذه الوحدة وتقويتها . فقد ظهر عجزه وضعفه من الناحية

الجسمية والفكرية والحلقية لذي عينين . وتوالت عليه الضربات من كل جانب ، وتبع الاخفاق الاخفاق دون انقطاع ، فسحق تحت ضغط المسؤولية الملقاة على عاتقه . واتفق آنذاك ان حاصر النورمانديون باريس ، فأتى شارل السمين لنجدها ، ولكن لم يجرأ على القيام بأي حرب ، واشتوى رحيل النورماندين بالمال ، وسمح لهم بنهب بورغونديا .

واحدث عجز شارل استياء عاماً في الاوساط الالمانية ، وفي الحريف ثار آرنول كارانشيا بن اخيه كارلومان ، وفي تشرين الثاني أعلن نفسه ملكاً في فرنكفورت .

وفي دياط تريبور ، المنعقد في كانون الأول ٨٨٧ ، تخلى عنه الجميع وغادر منصبه الملكي ، ومات في ١٣ كانون الثاني ٨٨٨ في نيدنغن . وانفصمت عرا الوحدة الكارولنجية إلى الابد ، وانتهى تاريخ المملكة الفرنجية ، وستنشأ على انقاض الامبراطورية ثلاث أمم : فرنسا ، ألمانيا ، إيطاليا .

الفصل الحادي عشر

نهاية الامبراطورية الكارولنجية

٨٨٧ - ٨٩٩

تجزئة الامبراطورية الى ممالك

لقد خلع الديباط المنعقد في تريبور (تشرين الثاني ٨٨٧) الامبراطور شارل السمين . ولم يعمر هذا بعد خلع طويلا وتوفي في نيدنغن في ١٣ كانون الثاني ٨٨٨ . وقد كتب المؤرخ ريجينون : « لقد انقسمت الممالك التي خضعت له ، وقطعت الصلة التي تربطها ، ولم تنتظر أميرها الطبيعي ، بل ان كل واحدة منها حاولت ان تجدد لنفسها ملكاً من أبنائها » .

ان تقسيم الامبراطورية الى ممالك وانتخاب كبار كل منها ملكاً عليهم منهم وفيهم ، تلكم هما الصفتان الأساسيتان للأزمة السياسية التي افتتحت بزوال الامبراطور العاجز الرخو الذي استطاع في حين من الزمن ان يجمع تحت سلطته الضعيفة مختلف البلاد التي كانت خاضعة في السابق لسلطة شارلومان .

آرنولف ملك جرمانيا . — وعندما توفي شارل السمين لم يكن لسلالة الكارولنجية الا ممثل شرعي يدعى « شارل » وهو ابن لويس الألكن ، وقد ولد بعد وفاة ابيه ، وكان عمره آنذاك سبع سنين ، ولم يكن باستطاعته في مثل هذه الظروف الحرجة أن يدعي بالامبراطورية أو ان يطالب بزاعم من هذه النوع . وعدا عن شارل هذا كان السليل

الوحيد لشارلومان ، الذي يستطيع أن يدعي بحقه بالامبراطورية ،
آرنولف دوق كارانثيا وهو ابن طبيعي لكارلومان ملك بافاريا من
امراة نبيلة .

كان آرنولف طموحاً قوي الشكيمة نشيطاً ، وقد ظهرت عليه منذ
حدائة سنة صفات رجل الحكم متحدة مع الاستعداد العسكري . فحوالي
العام ٨٧٠ ، أي عندما كان له من العمر خمس وعشرون سنة ، عهد
اليه بتخوم بانونيا وكرانثيا ، ثم تولى ادارة بافاريا عندما كان ابوه مريضاً .
وعندما توفي هذا في العام (٨٧٩) عهد آرنولف بادارتها إلى عمه لويس
الثالث . وكان شارل السمين يخشاه لذكائه وجاهه وقوة تأثيره ، فاضطر
إلى الاعتزال واستطاع ان يجذب اليه المستائين ، بمن كانوا يشكون جمود
الامبراطور ، ويتعجب اليهم . وعندما اطمأن لهذه الشعبية قام في العام
٨٨٧ وترغم الثائرين ونادوا به ملكاً واكرهوا شارل بعد خلعهم على الاعتراف
به خليفة له في المانيا . غير أنه لم يستطع المطالبة بالامبراطورية مباشرة ،
وذلك لأنه خشي ، ولا شك ، من أن ولادته غير الشرعية ربما تثير
حواله كثيراً من العوائق لا قبل له بها ، ولذا اكتفى في الأشهر الأولى
من العام ٨٨٨ بتوطيد سلطته بكل تواضع على المملكة التي عهد بها اليه .
ولكن لم يفكر أحد بمنازعة السلطة التي تناولها ، كما لاحظ ذلك
كثير من معاصريه ، عن طريق الانتخاب والوارثة . يضاف إلى ذلك
ان توليه العرش لم يكن له أي طابع ثوري ، وكل ما في الأمر ان
كبار جرمانيا ارادوا انقاذ البلاد بتخلصهم من الامبراطور العاجز ، بعد
أن دلت قرائن الاحوال على ضعفه في ادارتها والدفاع عنها ، ولم يدعوا
بجلاً للتردد بل انهم ظلوا امناء على عهدهم للسلالة الكارولنجية .
اود ملك فرنسا . - اما الحالة في فرنسا فكانت مغايرة لما تقدم .

ان الظروف الحرجة ، التي أحاطت بها ، ازال الولاة للسلالة الكارولنجية أمام الاوضاع الخطرة . فقد هز الغزو النورماندي بلاد الغرب وما زالت فرنسا تئن تحت حصار باريس (٨٨٥ - ٨٨٦) وما تلاه من تسليم منجمل . فالحوف من القتل والسلب والنهب كان طاعياً ، ولا مجال للانشغال بغيره . هذا ولما كانت السلالة الكارولنجية تتجسد بائن صغير لا حول له ولا قوة ، وليس فيها زعيم حربي ، فقد كان الرأي السائد بالاجماع ان يبحث عن رجل ، في غير هذه الاسرة ، يستطيع انقاذ البلاد وانتشالها من الخطر المحدق . ولقد ظن فولك ، مطران رنس ، أنه وجد هذا الرجل في دوق سبوليت غي الثاني . وكان جده لامبر ، قبل ان يغادر وطنه إلى ما وراء لالب ، دوقاً على فانت . غير ان الامراء أحبطوا مشاريع هذا الخبر الطموح الذي كان يؤمل ، بالنظر لقرباه من هذه الأسرة المتأصلة منذ نصف قرن ، ان يحكم باسم غي . وبادر هذا اثر نداء فولك ، وباركه جيللون اسقف لانغر ، إلا أن الامراء نادوا بأود ، كونت باريس ، ملكاً وتوجه غوتيه مطران سانس في ٢٩ شباط ٨٨٨ في كومبين .

ولا شك في ان هذا الانتخاب كان موفقاً . فقد ولد اود في حوالي العام ٨٦٠ . وكان ابن رويير القوي الذي اشتهر في عهد شارل الاصلع بكفاحه ضد النورماندين . كما اشتهر اود نفسه منذ حداثة سنه بشجاعته وميله للحرب ومقاومته الشديدة التي دامت خلال سنة اثناء حصار باريس الشهير (٨٨٥ - ٨٨٦) وزادت في نفوذه وجاهه .

ولا عجب اذا عهد امراء نوستريا وفرنسا وبورغونديا ، عندما مات شارل السمين ، بالتاج إلى هذا الزعيم الذي جمع قوة الشكيمة والغلاب إلى شدة الشجاعة والمهارة .

وقد استقبل تولي اود العرش بارتياح وغبطة ، ولكن هذا لم يحل دون بعض المعارضة . فمن ذلك ان غي سبوليت عاد ادراجه إلى إيطاليا بعد انتخاب منافسه ، ولبت فولك ، ولم يذهب مباشرة الى ما ذهب اليه الامراء . فقد اتفق مع كونت فلاندر ، بودون الثاني ، حفيد شارل الاصلع من أمه حديث ، ومع اساقفة بوفيه ونويون وكامبريه وذهب إلى ملك جرمانيا في فورمز ودعاه بالخاح الى المطالبة بالملكة الفرنجية الغربية التي أضحت ، على اثر اغتصاب السلطة ، تابعة الى أمير لايت الى الارومة الملكية بصلة . اما آرنولف فلم يكن ليفكر حتى ذلك الحين ان يضع نفسه منافساً لاود ، ولكن هل استقبل بترحاب طلب الاسقف وفكر بمهاجمة مملكته ؟ ان النصوص لا تسمح بأن نؤكد ذلك ايجابياً . وعلى كل حال فقد دشن اود حكمه بظفر على النورماندين في مونفوكون (٢٤ حزيران ٨٨٨) واحبط ترتيبات فولك . كما أن بودون فلاندر لم يتباد في معارضته . أما آرنولف فقد اكتفى بدعوة اود إلى اجتماع فلبى طلبه ، وتقابل الاميران في فورمز في أول آب . وفي هذه المقابلة اعترف آرنولف باود . ورضي هذا بأن يكون تجاه ملك جرمانيا في وضع لا يشبه التبعية في شيء ، وكل ما في الامر ان الارتباط بينها ليس له من غاية سوى حفظ الوحدة المعنوية بين الدولتين الاساسيتين الناشئتين عن تجزئة الامبراطورية الكارولنجية .

وهذا التفاهم بين المليكين سوى الوضع في فرنسا الغربية ، ولم يكن بإمكان مطران رنس إلا الانصياع للأمر الواقع وتقديم خضوعه لاود الذي انتخبه كبار المملكة ليكون خليفة شارل الثالث الكارولنجي .

مملكة بروفانس . - اما الممالك الاخرى التي شملتها في زمن ما امبراطورية شارل السمين فقد اخذت تسترجع استقلالها .

ففي الجنوب كانت بروفانس ، منذ وفاة لوثير الاول (٨٥٥) ، تتمتع خلال مرات عدة باستقلالها الذاتي . وقد حكمها شارل أصغر اولاد الامباطور من (٨٥٥ - ٨٦٣) . وبعد عدة تقلبات قام اساقفة فينا (في فرنسا) و بيزانسون وليوت و تارانتيز وايس و آرل ، وفادوا بالكونت بوزون ملكاً ، واحتفظ هذا بالتاج حتى وفاته في ١١ كانون الثاني ٨٨٧ أي قبل عام من وفاة شارل السمين .

وترك بوزون ولداً حدث السن يدعى لويس ، ولم يكن اهلاً للحكم غير أن ارملة ارمغارو كانت امرأة قوية نشيطة ، فقد وطدت العزم على ان تؤمن انتقال الملكية إلى اعقابها ، وحكمت بروفانس بنفسها في تلك الفوضى العامة . وبعد ان مات شارل السمين استطاعت ، بمساعدة البابا ايتين الخامس و آرنولف ملك جرمانيا ، ان تعقد في فالانس مجلساً من الاساقفة والكبار ، واقتنعت بأن يعهد بالتاج إلى لويس ويباركه ملكاً . ولكن جميع البلاد التي كانت تابعة في القديم لايه بوزون لم تعترف به . وقبلت بسلطته بروفانس الاصلية ، والفينوا (منطقة فينا) ومنطقة ليون . أما بورغونديا و بيزانسون فقد خرجتا من يده . وقامت ارمغارو بالصاية حتى موتها في (٨٩٦ أو ٨٩٧) . وكانت تعتمد على آرنولف في توسيع مملكة بروفانس ، الا ان آمالها خابت ، لان آرنولف لم يستطع أن يحول دون تشكل مملكة بورغونديا لصالح رودولف الاول . كما أنه اوجد نفسه مملكة اللورين لصالح ابنه زونتيولد .

مملكة بورغونديا . - لقد ظهرت مملكة بورغونديا في التاريخ بعد وفاة شارل السمين بقليل . ففي بدايه العام ٨٨٨ اجتمع كبار الدوقية في كتيبة آغون ، ونادوا بالمركيث رودولف بن كونراد كونت اوسر ، ملكاً عليهم . وفي الواقع أن هذا الأمير لم يكن منه سوى أن أبدل

لقبه بلقب آخر، وذلك لأنه كان يمارس سلطته منذ السابق على البلاد الواقعة بين الجورا وألب بنين والتي تتألف منها هذه الدولة الجديدة . غير أنه كان يطمح ويحلم بأن يجمع تحت صولجانه جميع لوترانجيا . فما كاد يتسلم التاج إلا واحتل الالزاس وقسماً من اللورين . ثم توج ملك لوترانجيا في مجلس عقد في تول وباركه آرنود أسقف هذه المدينة ، غير أن عزف الأمراء عنه اضطره في حزيران ٨٨٨ الى التخلي عن اللورين وحتى عن الالزاس . وبعد أن تفاوض مع آرنولف لبث أخيراً ملكاً على بورغونديا .

مملكة اللورين - هذا وات إخفاق رودولف بورغونديا في اللورين يمكن إيضاحه بسهولة : وذلك لأن معظم الأمراء فيها من علمانيين وكنسيين كانوا موالين لآرنولف ملك جرمانيا . ففي حزيران ٨٨٨ كان الاساقفة ، باستثناء آرنود أسقف تول ، في مجمع ماينس الذي عقده آرنولف . وهذا يدل على أنهم كانوا يعترفون بسلطته منذ ذاك الحين . وبقيت مقدرات اللورين متحدة بمقدرات المانيا حتى عام ٨٩٥ . وبالرغم من أن الملكة اودا أتت بسلام اسمه لويس في العام ٨٩٣ ، فان آرنولف ، وكان منصرفاً الى تنظيم المانيا وفتح ايطاليا ، أراد أن يحول دولته في الغرب الى مملكة متميزة لصالح ابنه الطبيعي زونتيبولد الذي كان يشعر نحوه بحنان خاص . وظل يصطدم بمقاومات شديدة خلال سنتين ، غير انه تماسك . وفي أيار ٨٩٥ قرر الأمراء اللورينيون الاجتماع في فورمز الاعتراف بزونتيبولد ملكاً عليهم .

وزونتيبولد ، على ما هو عليه من صفات ممتازة ، كان حاد المزاج ، استبدادي الطبع ، ولم يستطع أن يحب شعبه بنفسه ، حتى ان الارستقراطية لم تكن لتحمه إلا مكرهة ، ووقفت منه موقفاً متحفظاً

ملؤه الشك وسوء الظن، وما لبثت هذه العاطفة أن تحولت إلى حقد وبغض وعداء، وذلك عندما قام الكونتات إيتين و جيرارد و ماتقوريد و اودو و آكر واحتجوا شيئاً من أموال كنائس تول وتريف، وعاقبهم الملك على عملهم وجردهم من اقطاعهم . وتدخل آرنولف في الامر وتوسط في الصلح بين زونتبولد والاقطاعيين ، وأعاد إليهم ما أخذ منهم في (٨٩٧) . وفي العام التالي (٨٩٨) أثار زونتبولد حوله عاصفة جديدة من الاستياء عندما صادر أموال الكونت رينيه . فذهب هذا إلى فرنسا واستنجد بالملك شارل الساذج بن لويس الالكن الذي خلف اود المتوفى في ١ كانون الثاني ٨٩٨ على عرش فرنسا . وأجاب شارل دعوة رينيه واجتاح اللورين . غير أن السكان كانوا يفضلون حكم زونتبولد على أن يحكمهم هذا الكارولنجي الغربي ، ولم يستقبلوه كما كان ينتظر منهم . وما كاد الجيشان يلتقيان في بروم إلا وفضل المفاوضة وعقد الصلح ثم عاد من حيث أتى . وبقيت اللورين الى زونتبولد ولكن سيرته الاستبدادية حالت ، رغم جهود أبيه ، دون اتفاق دائم مع رعيته . ولما مات آرنولف (في ٨ كانون الاول ٨٩٩) نادى اللورينيون بابنه لويس الطفل ملكاً عليهم ، وخلف أباه على عرش جرمانيا . فثار زونتبولد لنفسه بكل ما أوتي من قساوة ، غير أنه أودى (في ١٣ آب ٩٠٠) في حرب مع جيش أخيه الصغير على ضفاف الموز . ولم يشأ لويس الطفل أن يضم اللورين الى جرمانيا بل تركها تتمتع باستقلالها الذاتي وعهد بالحكم فيها الى كونت فرانكونيا جيهارد وصار لقبه من بعد ذلك دوقاً .

مملكة ايطاليا . — لقد رأينا ان المانيا و بروفانس و بوو غونديا واللورين قد تألفت بعد وفاة شارل السمين ، بشكل دول مستقلة ، ورأينا

أيضاً أن ملوكها انتخبوا انتخاباً دوت منازعة شديدة . أما إيطاليا ، فعلى العكس . كانت مليئة بالاضطراب والقلاقل ، وذلك لان المنافسات بين الامراء في سبيل العرش غدت الحرب الاهلية خلال سنوات طويلة .

ففي الايام الاولى من عام ٨٨٨ انعقد مجلس في بافيا وانتخب ملكاً بيرانجيه مركيز فريول ، وهو حفيد لويس التقي من أمه جيزيل . ولم يكن لدى بيرانجيه أنصار إلا في الشمال الشرقي من شبه الجزيرة ، لذا قام دوق سبوليت غي الثاني ينافسه على الملك . وكان هذا الاخير سليل اسرة قديمة فرنجية ، من ضفاف الموزيل ، أتت في النصف الثاني من القرن التاسع واستوطنت إيطاليا بفضل عقود الزواج التي عقدتها وأحسن اختيارها ، وبفضل سياستها القوية الحازمة . وهكذا كسب غي الاول أبو غي الثاني دوقية سبوليت . وبعد وفاته في (٨٧٩) خلفه ابنه البكر لامبر عليها وأخذ غي كورنتية كاميرينو . ولما مات لامبر في العام (٨٨٢) انتقل إرثه الى أخيه . وكان هذا طموحاً يعرف كيف يعقد الصفقات ويدبر الدسائس ، ولم يتردد في سبيل توسيع رقعة دوله أن يتحالف مع البيزنطيين والعرب ، الامر الذي أقلق البابا والامبراطور . وقد أعلن جرمه بالحيانة العظمى ، حتى أن شارل السمين كلف بيرانجيه بالقبض عليه واحتلال أراضيه (٨٨٣) . غير أن بيرانجيه لم يستطع تأدية هذه الرسالة . فقد انتشر الطاعون في جيشه ومنعه من القبض على غي . ثم عفا عنه الامبراطور في العام (٨٨٥) .

وعندما مات شارل السمين بدا أن دوق سبوليت لم يكتوث بإيطاليا لانه فكر بتاج فرنسا الذي عرضه عليه فولك مطران رنس . وعندما طرده اود ارتد الى إيطاليا وظفر على مركيز فريول دون كبير عناء لا سيما وانه كان يحقد عليه تدخله في العام (٨٨٣) . ودارت رحا

الحرب بينها في بريشيا ، وكانت ضروساً وغير حاسمة ، وغدا كل من الخصمين في حالة لا يستطيع معها المثابرة على القتال ، فعقدوا هدنة حتى ٦ كانون الثاني ٨٨٩ ، ريثما يستعيدان نشاطهما ويستأنفان القتال مرة أخرى . وقد حاول يوانجييه أن يحصل على مساعدة ملك جرمانيا ، وذلك بأن يعترف له بنوع من تفوق على إيطاليا ، كما فعل ملوك فرنسا وبورغونديا . غير أن آرولف كان منهمكاً بشؤون مملكته الخاصة فلم ينجده . ولما عادت الحرب في العام ٨٨٩ أخفق يوانجييه وغلب عند نهر لاتزيبيا أحد روافد البر . وقد فسر هذا الخذلان الذي مني به بحساب عسيرة ابتلاه الله به . وتحزب الاساقفة لغي سبوليت وانتخبوه في بافيا (شباط ٨٨٩) ملكاً وفرضوا عليه شروطهم ، وتتلخص في أن يتعهد غي باحترام الكنائس ويبرهن على خضوعه للكرسي الاقدس خضوع الابن لآبيه .

إيطاليا البيزنطية . - لم تمتد سيادة الملك الجديد على كل إيطاليا . ففي الشمال الشرقي بقي يوانجييه . وفي الجنوب استقر البيزنطيون في باري منذ (٨٧٦) واخذوا يتطلعون الى الاستيلاء على الاراضي التي كانوا يحتلوها من قبل . وزاد نفوذهم في العام ٨٨٨ - ٨٨٩ عندما ردوا هجوم المسلمين وظفروا عليهم ، حتى ان امير الماء (الاميرال) البيزنطي ميخائيل استطاع ان يستحوذ على قائد الجيش العربي مكبر بن ابراهيم ويرد جنوده إلى صقلية . ولكن معارضة الامراء اللومباردين وقلة تشبث حكومة الامبراطور في القسطنطينية لم تساعد البيزنطيين في إيطاليا على متابعة هذه الفوائد التي جنوها . ففي تموز ٨٩١ وقف سيمبا نيكوس في بينيفن ، ولكنه لم يستطع الحفاظ على الوضع وعادت المدينة إلى آل سبوليت . واكتفت بيزنطة في إيطاليا الجنوبية بسيونتو وباري على أن تكونا في المستقبل

نقطة انطلاق لمؤسسات جديدة في شبه الجزيرة حيث يجيل أن نفوذها قد زال إلى الابد .

بقاء فكرة الامبراطورية في الغرب . - وعلى هذا فقد انحلت الامبراطورية الكارولنجية في العام ٨٨٨ . وعن تجزئتها نجمت ست ممالك مستقلة . غير ان فكرة الامبراطورية لم تزل هماماً من الوجود ، فقد اعترف كل من اود فرنسا ورودولف بورغونديا وبيرانجيه فريول للملك جرمانيا آرنولف بنوع من تفوق ، لأنه ، كان من ارومة شارلومان ولو كان ابن سفاح . ولكن هل يمكن لهذا التفوق ان يستحيل إلى شيء ايجابي ؟ وهل لمن بقي من الأسرة الكارولنجية أن يكون كفواً لبعث الامبراطورية لصالحه والتي تعتبر كشيء خاص بأسرته ، هذه هي القضية التي وضعت على بساط البحث غداة وفاة شارل السمين وتفكك دوله .

محاولة ارجاع الامبراطورية

خطط البابا ايتيين الخامس . - ان الممالك ، التي نشأت عن تجزئة امبراطورية شارل السمين ، ترجع في أصلها إلى الانتخاب . اما انتخاب الامبراطور فلا يمكن ان يتم حسب هذا الاصول ، فضلاً عن ان تدخل الكرسي الأقدس أصبح مع الزمن ضرورة ماسة . وقد رأينا أن جان الثامن انتقى تباعاً شارل الأصلع ولويس الألكن وشارل السمين . فهل يقوم خلفه ايتيين الخامس ويمارس هذا الحق الذي لم يفكر أحد بمنازعته ؟ لقد كان وضع البابا حرجاً . فهو لا يستطيع أن يعهد بالتاج الامبراطوري إلى شارل الساذج لأن فرنجة الغرب لم يشاءوا ان يكون ولو ملكاً . كما أن ولادة آرنولف غير الشرعية كانت تخلق أمامه عقبة كأداء ومن الصعب التغلب عليها . غير ان الخدمات التي أداها إلى

الكنيسة وإلى المسيحية جعلت البابا ينسى بسرعة هذا العار الذي لصق به من أصله .

ومنذ ان اعتلى آرنولف عرش جرمانيا أخذ يتظاهر بالاحترام والاكرام حيال الاساقفة الألمان . واستطاع هؤلاء ، بفضل حمايته ، ان يعقدوا في صيف عام (٨٨٨) في ماينس مجمعا دينيا عاما ، وهذا ما لم يره الناس منذ أمد طويل . ومن جهة ثانية ، أعلن الملك الجديد ارادته ووطد عزمه على أن يضرب على أيدي الشعوب الوثنية التي كانت تتدافع على حدود البلاد المسيحية ويدفع عن هذه غائلة هجومهم وغزوهم . ومنذ مجلس فورسهم المنعقد في أيار ٨٨٩ قرر القيام بحملة ضد قبيلة الاوبوتريت السلافية . ووقعت الواقعة في شهر ايلول . وهي وان لم تكن موفقة الا انها دلت ، على الأقل ، على ان الملك كان يشعر ويدرك قيمة رسالته وحمايته .

وعندما علم البابا ايتين الخامس بهذه الوقائع في بداية العام ٨٩٠ ، دعا آرنولف بوساطة امير المورافيين شفاتوبلوك ان يأتي إلى روما ويزور القديس بطرس و « ينجمي ايطاليا من المسيحيين الفاسدين والوثنيين المهملين » ومثل هذه اللهجة لا تترك ادنى شك فيما يكنه البابا من نيات واسرار ؛ ومن جهة أخرى ، كان ايتين الخامس يعلم ان ملوك فرنسا وبورغونديا كانوا يظهرن استعداداتهم لصالح آرنولف الا غي سبوليت ، ملك ايطاليا ، الذي لزم الحيطة لأنه كان يخفي في نفسه كثيراً من المشاريع للمطالبة بالتاج الامبراطوري ، وإن لم يكن من الاسرة الكارولنجية .

وشاء سوء الحظ الا يجيب آرنولف بالحال الدعوة التي وجهت اليه ، وذلك ان اسباباً خطيرة داخلية وخارجية اضطرته إلى البقاء في المانيا حتى عام ٨٩٤ . وفي الوقت الذي كان فيه البابا منصرفاً إلى هذه السياسة ،

كان القلق يساور آرنولف بشأن سؤاب . وذلك ان ابناً طبيعياً لشارل
لسمين واسمه برنارد كان يحاول فيها العصيان والثورة .

ولكن برنارد هذا قضى عليه الكونت رودولف ريثيا . وبفضل التدابير
التي اتخذت بالضرب على ايدي العصاة عاد النظام إلى ما كان عليه ، غير
أن اخطاراً أخرى اخذت ترتسم في الحدود .

في الشرق كانت الامبراطورية المورافية الكبرى ، التي تمتد من نهر
الاودر الى نهر السال وإلى الساف والتيزا ، تؤلف خطراً على جرمانيا .
وجرت مقابلة مع الدوق شفاتوبلوك واحيط فيها علماً بمقتوحات ايتسين
الحامس (آذار ٨٩٠) إلا أنها لم تنجح في قشع الغيوم التي تراكمت في
هذه الجهة . وفي الغرب لم يكن النورمانديون بأقل خطراً وخشية : ففي
٨٩٠ - ٨٩١ جابوا منطقة الموز واجتازوا النهر إلى لسيج وانطلقوا
يخربون ايكس - لا - شابل . ولذا كان من المستحيل في مثل هذه الظروف
الخرجة ان يغادر آرنولف المانيا ، ورأى ان ينقذ بملكته الخاصة قبل
ان يستسلم للحلم الامبراطوري .

لقد وطد آرنولف العزم على التحرر . ففي ١ تشرين الثاني ٨٩١
ظفر على النورمانديين بالقرب من لوفن ، غير أنه لم يستطع ردهم في العام
التالي عندما أتوا واجتاحوا البلاد الرينانية . وفي ذلك التاريخ كان منهمكاً
في الشرق . ومنذ شباط ٨٩٢ نجده في بافاريا حيث جرت مقابلة بينه
وبين شفاتوبلوك ، غير ان هذا تهرب وأصبحت الحرب محتمة الوقوع .
دخل آرنولف الامبراطورية المورافية وترك جيشه فيها يرتكب كل فظاعة
ولم يحصل على نتيجة لأنه لم يستطع أخذ أي مدينة . ثم توجه إلى قيصر
البلغار فلاديمير وتبادل وإياه الهدايا دون الوصول الى اتفاق إيجابي . وكذا

كانت حملة ٨٩٣ عقيمة كحملة السنة الفائتة ، إلا أن هذه الغارات في بلاد الاعداء قد أضعفت قوة كفاح الحُصم وأخرت امكانية الغزو .

امبراطورية غي سبوليب (٢١ شباط ٨٩١) . - لقد اضطر آرنولف تحت ضغط الظروف التي ألمت به الى البقاء في المانيا . وهذا ماجعل التاج الامبراطوري يفر من يديه ، وكان غي سبوليت ملك ايطاليا يطمع به أيضاً .

ولم يكن لدى البابا ايتين الخامس ما يجعله محبباً الى غي سبوليت لأن هذا الأمير ، كاسلافه ، لم يعمل ما من شأنه أن يبرهن على إجلاله للكرسي الأقدس ، فضلاً عن ان سلطة البابا الزمنية في ايطاليا الوسطى كانت تناوىء طموحه وتقف في سبيله باستمرار ، غير انه حاول ، على الأقل منذ تولى العرش ان يصلح هذه الشهرة الشائنة التي لصقت بأسرته . وقد أقر مجلس بافيا الذي انتخبه ، ان الكنيسة الرومانية ، وهي رأس الكنائس جميعاً ، يجب ان تحافظ على حقوقها ومناصبها وامتيازاتها ، كما دل على ان غي قد أقسم اليمين على ان يجب هذه الكنيسة الرومانية ولذا انتخب « ملكاً وحامياً » . أفلا يحق للبابا بعد هذه الضمانات الاكيدة وما لازمها من تصريحات ان يمنح غي عفوه أو يكافئه بهذه المكافأة التي طالما تأقت نفسه اليها وتمناها وهي ان يكلل رأسه بتاج الامبراطورية ! ؟ .

وظل آرنولف مصباً أذنيه لدعوة الحبر الاعظم ، ولم يكن باستطاعة ايتين الخامس ان يطيل أجل وضع لانيخلو من عذار . وبعد مفاوضات لم تعرف تفاصيلها كلل جين غي سبوليت بالتاج الامبراطوري في ٢١ شباط ٨٩١ في كنيسة القديس بطرس . وبذا ذهب هذا التقليد المديد الذي ترك للأمة الكارولنجية اكبر منصب زمني في الغرب المسيحي .

اما غي سبوليت فقد حل هذا الفعل عملاً رصيناً وأراد ان بلعب الدور الذي يخوله إياه لقبه الجديد . فمن ذلك انه اخذ يذيع أعماله التشريعية على غط شارلومان ، وأراد ان يجعل الامبراطورية وراثية في أسرته فدعا البابا فورموز ، الذي خلف المرحوم ايتين الخامس ، ان يتوج ابنه لامبرت فتم له ما أراد في ٣٠ نيسان ٨٩٢ . ولا مرة في ان امبراطورية سبوليت لم تكن سوى كاريكاكاتور باهت للامبراطورية الكارولنجية حتى انها لم تمتد على كل ايطاليا حيث مازال بيرانجيه محتفظاً بزعمه ، كما لم تعترف بها أي مملكة من الممالك التي نشأت عن لوتيرانجيا القديمة . فمن ذلك ان أود ملك فرنسا يجلبها ، وآرنولف ملك جرمانيا يتربص الفرص السانحة ليعيد التقاليد الامبراطورية الكارولنجية .

حملة آرنولف الاولى في ايطاليا (٨٩٤) . - ويبدو ان الوقت قد حان للقيام بمثل هذا العمل في آخر العام ٨٩٣ . فقد كانت المانيا تنعم بسلام نسبي . وكانت ايطاليا تبث اليه النداءات الحارة . وقد ارسل البابا فورموز في بحر عام ٨٩٣ الى الأمير الكارولنجي بعثة وكلفها بتجديد دعوة خلفه ايتين الخامس . كما ان بيرانجيه فريول منافس الامبراطور غي كان على استعداد لتشجيع أي مشروع يمكن به التخلص من نفوذ آل سبوليت . ولم يكن باستطاعة آرنولف ان يعفي نفسه من التدخل . وأرسل تحت قيادة ابنه الطبيعي زونتيبولد جيشاً لدعم بيرانجيه . وما اقترب هذا الجيش الا وتملك الذعر غي وبادر الى الحصار في بافيا . غير ان خصومه لم يحاولوا استثمار الفوائد التي نجمت عن هذا القرار غير المنتظر . فقد ظل زونتيبولد خلال ثلاثة أسابيع دون حراك ، ومن ثم قفل راجعاً يحارب القهقري ، وقد لايبعد ان يكون الامبراطور السبوليتي قد اشتراه بالمال فلم يعمل شيئاً . وعند ذلك قرر آرنولف

ان يأتى بنفسه الى شبه الجزيرة ، وأخذ طريقه في بداية كانون الثاني ٨٩٤ رغم قساوة الشتاء والتحق ببيرونجيه في فيرونه وزحف الى برغام التي كان يحميها الكونت أمبرواز واستولى عليها بعد حصار قاتل وحرب شوارع شديدة تتخللها المذابح الهائلة ؛ والتجأ امبرواز الى برج وحاول ان يطيل أمد المقاومة فالقي القبض عليه واعدم شنقاً وأخذ الاسقف أدالبرت أسيراً وسلم الى هاتون مطران ماينس .

عودة آرنولف . - أمام هذا المصاب القاسي الذي حل بأمبرواز خضعت معظم المدن في ايطاليا الشمالية واستسلمت ميلانو وبايفيا الى آرنولف وفرغى سراعاً الى سبوليت . وكذا الامراء التوسكانيون فقد قدموا خضوعهم للملك جرمانيا وقد وصل الى بليزانس في آذار ٨٩٤ وفكر بالزحف على روما ، وفي الوقت الذي أصبح النصر منه قاب قوسين أو أدنى ، نجده يتوقف عن الأعمال الحربية ويرجع الى المانيا .

أما أسباب هذه العودة المفاجئة فما زالت سرية . وحوليات فولدا تعزوها الى المرض الذي ألم بالجيش الألماني . ومن المحتمل جداً ان يكون لانشقاق الماركيز أدلبرت توسكانا والموقف العدائي الذي وقفه ملك بورغونديا ، رودولف ، دخل في هذا القرار الذي اتخذته آرنولف . وذلك لأن رودولف لم يكن ليغفر للملك جرمانيا معاكسته له عندما طمع باللورين ، ولذا فان آرنولف ، عوضاً عن أن يعود مباشرة الى المانيا عن طريق برينير ، ذهب وحاصر حصن ايفريه ، شمال غربي بافيا ، في يوم الفصح (٣١ آذار ٨٩٤) . وكان يدافع عن هذه المدينة الماركيز آنشيه قريب غي سبوليت . وشوهد أن جيشاً بورغوندياً كان يساهم بالعمليات الحربية ؛ وفي هذا ما يدل على أن رودولف كان متحزباً ضد آرنولف . وقد حاول

هذا عبثاً خلال ثلاثة أسابيع أن يقتحم هذه العقبة ، وأخيراً أخذ طريقه الى ألمانيا دون أن يستولي على أيفريه . وحقق على رودولف ، غير أن هذا لم يمنعه من الحكم مطمئناً حتى وفاته (٩١٢) .

حملة آرنولف الثانية وتتويجه (٨٩٥ - ٨٩٦) - في آخر العام ٨٩٤ تبدل وضع شبه الجزيرة الإيطالية لصالح آرنولف . فقد مات غمي سبوليت وخلفه ابنه لامبرت دون صعوبة ، غير أنه مازال قتيلاً ولم يكن أهلاً للكفاح . ومن جهة أخرى عاود البابا فورموزرجاه لآرنولف ، فلم يكن من هذا إلا أن بادر الى إيطاليا ليغسل العار الذي لصق به في العام الفائت . غادر مملكته في تشرين الأول ووصل بافيا في غرة كانون الأول ٨٩٥ ، ثم زحف على روما ، غير أن الطريق كانت شاقة : المطر دائم التهاطل والتموين عسير ، لأن جيش سبوليت عندما انتحب ترك البلاد وراءه خراباً يباباً وصحراء قاحلة . كما أن الحلفاء وخاصة آدالبرت توسكانا الذي ارتد عن انشقاقه ، لم يبدو كبير حماس . وبالجملة فقد وصل الجيش الألماني أمام روما منهوك القوى خائر العزم ، وعوضاً عن أن يدخلها منتصراً ، كما كان يؤمل ، وجد أبوابها مغلقة في وجهه . وكانت روح المقاومة في هذه المرة أجبلتود ، أرملة الامبراطور غي القوية والمحببة للسلطة ، فقد وطدت العزم على أن تبقى امبراطورة وتدافع عن المدينة حتى النهاية . غير أنها لم تستطع منع آرنولف من النفوذ اليها من ثغرة بالقرب من باب القديس - بانكراس . واستقبل البابا ملك جرمانيا في كنيسة القديس بطرس وتوجه امبراطوراً حسب الترتيبات المعتادة في حفلات التتويج ، وما لبث الرومانيون إلا أن انضموا اليه دون عناء وبايعوه في (٢٢ شباط ٨٩٦) .

مرض آرنولف ووفاته . - لقد تم لآرنولف ما أراد ، وكان عليه

ان يحصل من هذه الحوادث على جميع النتائج التي تترتب عليها ، غير ان روما وإن وقعت في يد آرنولف إلا ان وضعه كان قلقاً ضعيفاً ، لأن أجيلتود ولامبرت قررا المضي في مناوئتهما ، ولذا وجب على الامبراطور الجديد ان يعمل ما من شأنه ان يحبط مساعما . ففي اول آذار ٨٩٦ أقام في روما فارولد أحد مخلصيه ، وسار متجهاً صوب سبوليت حيث انزوت الامبراطورة السابقة . وفي الطريق أصابه شلل فنقل الى المانيا حيث عاش حتى عام ٨٩٩ وأجلى جيشه عن ايطاليا تاركاً فيها أسوأ الذكريات .

نهاية الامبراطورية الكارولنجية . - كان آرنولف آخر أباطرة السلالة الكارولنجية . وقد ترك في النفوس ذكرى الأمير الشجاع العامل . وربما كان باستطاعته ان يكون رجلاً عظيماً لولا ان الظروف عاكسته وحال المرض المفاجيء دون ما يريد . ويسجل موته في التاريخ زوال الامبراطورية الكارولنجية بصورة قطعية . وقد قام من بعده سادة آخرون تملوا باللقب الامبراطوري ، ولكن لم يكن لهم أي سلطة فعلية على الدول المسيحية الغربية ، ولم يتوصلوا الى ممارسة سلطتهم على دولهم الخاصة بهم ، ولو كانت قليلة ضيقة الرقعة . وفي الحقيقة ان اخفاق محاولة آرنولف قضى الى اجل طويل بتجزئة الامبراطورية الى ممالك مستقلة ، ولم تستطع السلالة الكارولنجية البقاء .

إذا ألقينا نظرة عامة على الامبراطورية الكارولنجية نجد ان تاريخها الطويل مشوب باللبس منذ نشأتها ، فلم يكن لدى شارلومان ومستشاريه أي فكرة واضحة عن الغاية التي يجب الوصول اليها . وعندما أصبح امبراطوراً لم يسلك مسلك الزعيم الذي يسود الغرب المسيحي بأجمعه ، ولم يشعر بالضرورات التي تنجم عن هذا الوضع الجديد . ان كل ذلك يحملنا على الظن بأنه يرى ان الوضع موقت ومرهون بشخصه فقط .

واذا نظرنا الى شارلومان هذه النظرة ، فلا نعي منها ان نبخسه حقه او نخط من عبقريته ، ان كل ما نريد هو ان نضع الرجل في ميزان عصره . لقد شاء بعضهم ان يجعل من شارلومان سياسياً عظيماً ونسب اليه كل ما هو هام وعظيم ، والى خلفائه مسؤولية العواقب الوخيمة التي حلت بالامبراطورية . ولكن مثل هذا التفكير من قبيل الوهم . والثابت ان شارلومان انقاد للحوادث أكثر مما يقال عنه ، وان شخصيته القوية وشعوره بما هو ممكن قد دفعا عنه غائلة التهور الذي مني به ورثته ولم يستطيعوا الاحتراس منه .

ولم يكن لدى شارلمان سياسة معينة ، بل ان اعماله تتعاقب ويتم بعضها بعضاً حسب الظروف . وهذا ما يوضح لنا كيف انه أسس الامبراطورية عام ٨٠٠ ثم ارتأى تقسيمها منذ العام ٨٠٦ بين أولاده الثلاثة ليحول دون وقوع حرب وراثية في الغرب المسيحي . ويجب ألا يستتج من هذا انه لا يقدر قيمة الفوائد التي تعود على البلاد المسيحية من الوحدة التي أوجدها من جديد موت ولدبن من ورثته الثلاثة بعد ان اصبحت دولة بأجمعها ، والتاج الامبراطوري في يد أمير واحد ، وبامكان هذا الأمير ان يتابع سياسة والده ويقوي أثره الذي تعب في ايجاده ويجعل من الامبراطورية حقيقة دائمة .

إن خطأ لويس التقي ومشاوريه انهم كانوا يريدون تحقيق كل شيء دفعة واحدة ، وبولون وجوههم عن كل ما هو حقيقي ومحسوس ، ويضحون بالتقاليد والمنافع في سبيل فكرة واحدة وهي الحفاظ على وحدة الامبراطورية وعدم تعرضها للخطر . لقد كانت خططهم واضحة ومنطقية ولكنها لا تستطيع الحياة إلا إذا تحققت على مراحل . لقد أرادوا ان يفرضوها بسرعة ولذا أخفقوا . ودشن لويس التقي حكمه بالوحدة وانتهى بالفوضى وولد الاضطراب

في الأفكار التي غيرت وجهتها وحادت عن طريقها بسبب تعديل الحصص التي خصصت لكل من ورثة العرش بينما كانت تستنكر اجراء اي تقسيم .

ان الشك الذي لازم المملكة الكارولنجية في البدء استمر بها حتى عام ٨٤٠ وانتهى في معاهدة فردن الى انحلال نهائي . واذا منيت الامبراطورية بالحراب في الوجهة الأرضية ، الا أنها بقيت في ذلك التاريخ حقيقة حية في الناحية الروحية والمعنوية . حتى أن سلطة الأمراء الذين يحرزون اللقب الامبراطوري كانت تعتبر أقل من الفكرة التي يمثلها ويشخصها هذا اللقب . وهذه الفكرة هي فكرة وحدة الغرب المسيحية ولذا نرى الكنيسة تعود الى قيادة هذه المجموعة المثالية التي تتألف منها الشعوب بعد أن أصبحت غريبة بالنسبة لبعضها ولكنها بقيت متضامنة في الدين والحضارة .

ولهذا السبب تغيرت ميزة الامبراطورية الكارولنجية : ففي البدء كانت السلطة السياسية مهيمنة على الدين . وفي الآخر أصبح الدين سيداً . وبينما كان البابا في عهد شارلومان منذاً لأوامره إذا به الآن يمنح التاج الامبراطوري ويطلب الى من يمنحه هذا التاج حماية الكرسي الأقدس . وتبدل هذين الدورين ، دور البابا ودور الأمباطور ، كان منه أن أضعف بالتدريج في أعين المعاصرين ، قيمة اللقب الأمباطوري . وبعد أن كان الامباطور سيد الغرب أصبح في آخر القرن التاسع مساعداً للجهرا الأعظم في حماية الدين ، حتى إن الإخفاق الذي مني به أباطرة العهد الأخير من أمثال شارل الاصلع وشارل السمين أفقد وظيفة الامباطور كثيراً من اعتبارها ، وبقيت الحال هكذا إلى أن جاء اوتون جرمانيا وبني ، على أنقاض الامباطورية الجرمانية ، امباطورية أخرى لها شأنها وتاريخها الطويل .

الفصل الثاني عشر

الكنيسة في العصر الكارولنجي

كان نفوذ الكنيسة عظيماً في العصر الكارولنجي ، ولقد ظهر في مختلف نواحي الحياة الخاصة والعامة : الأسرة ، المدرسة ، العدل ، الاحسان ، الحكم . وإذا اقتصرنا على الحياة الكنسية في ذلك العصر لوجدنا أنها تتمثل في ثلاث ظاهرات :

- ١ - انتشار المسيحية في أوروبا وتنظيم الكنيسة الفرنجية .
- ٢ - الجدل الديني والمهرطقات .
- ٣ - علاقة البابوية بالملكية الكارولنجية .

انتشار المسيحية في أوروبا وتنظيم الكنيسة الفرنجية . - لقد كان التعاون وطيداً بين السلالة الكارولنجية والكنيسة في محاربة اعداء الدين من جهة ونشر المسيحية من جهة أخرى . وبدأت هذه الظاهرة منذ أوائل الكارولنجيين . فبينما كان شارل مارتل يدفع هجوم الإسلام في بواتيه عام ٧٣٢ ، كان معاصره بونيفاس (٦٨٠ - ٧٥٥) ينشر الدين المسيحي في أراضي جديدة .

لقد صبأت بريطانيا العظمى وأوجد فيها البابا غريغوار الكبير مركزاً واسعاً للتبشير . وكان الانغلو - ساكسون همزة وصل بين روما وجرمانيا . ونشر الرهبان السلتيون من أمثال القديس كولومبان مؤسساتهم الرهبانية هنا وهناك . وكان دير ميلفونت في أيرلانده مهبطاً

للتبشير في اوروبا الوسطى ، وكان وينفريد ، المعروف تحت اسمه الروماني بونيفاس ، وزملاؤه رسل التبشير في المناطق الجرمانية . فقد أسسوا فيها اسقفيات ليكون عملهم دائماً . وكانت مساعدة روما ضرورية لهم ، وتركت مجالاً رحباً لنمو سلطة الحبر الأعظم في ذلك العصر .

ففي البلاد الألمانية الممتدة من الفوج الى الألب الريفية ، قام العمل التبشيري ونظمت الأديرة ، وتألف التسلسل الأسقي ، ولم تقص بضع سنوات إلا وأصبح قوياً ، وبإمكانه امداد بونيفاس بالمساعدين والأعوان .

يبد أن تبشير الفريز كان عملاً شاقاً وبذل فيه بونيفاس كل جهده وغيرته حتى استشهد عام ٧٥٥ . وتابع التبشير عمله على يد وبليبرود فكان اسعد حظاً ، واستطاع بحماية الفرنجة أن يحقق انتصارات هامة ، وأيد البابا سيرج الاول رسالته التبشيرية ورسمه اسقفاً إقليمياً . واعطاه بين أرضاً في اوترخت اقام فيها أسقفية .

وفي ساكس أخفقت محاولات التبشير وذهب ضحيتها الكثير من المبشرين . وفي العام ٧٢٢ رسم البابا غريغوار الثاني بونيفاس أسقفاً لجرمانيا ، فاستعان برهبان وراهبات الأديرة الانكليزية وبني اديرة في هسّ وتورنجه للنساء والرجال ، وكانت هذه الأديرة مراكز زراعية ومدارس ، ومعاهد اكليزية ، وملاجئ للحياة الروحية ودوراً للأدب والفنون .

لقد كانت طريقة العمل التبشيري تقوم على الاتصال بالسكسونيين بلطف وايناس وهذوء واعتدال واجتناب كل مامن شأنه إثارته ، والقيام بالمقارنة بين مام عليه من اباطيل وحقائق المذهب المسيحي ؛ وبالاقتناع

سبيلاً إلى قلوبهم ، والالحاح على جاه العالم المسيحي وما يملكه من مناطق خصبة غنية بالزيت والخمر والكنوز الأخرى ، وإظهار الوثنيين قطعاً يعيش في المناطق الباردة ويعمه في الجهالة والضلال ؛ أو بوضع آلهتهم من أشجار وبنابيع وأصنام لاتضر ولا تنفع بل لاتغضب حتى ولو اعتدي عليها . وضرب بونيفاس للوثنيين مثلاً بقطع شجرة غيبار الكبرى المبهجة أمام زملائه وبحضور جمهور من الوثنيين ، وما حارت الشجرة جواباً ، وأخذت أخشابها المقدسة وبنيت منها كنيسة على شرف القديس بطرس .

ولزم التنظيم بعد التبشير . وكانت روما تتابع باهتمام بالغ تقدم المسيحية في البلاد الجرمانية . ولم يكد غريغوار الثالث يعتلي الكرسي الأقدس عام ٧٣١ إلا وأرسل الوشاح الى بونيفاس ورمحه رئيس اساقفة . وكان اقليمه يضم بافاريا ، أليانيا ، هس ، تورنجه . وانشئت في هذه المنطقة الأخيرة عدة أديرة أشهرها دير فولدا ، وكان يعتبر مركزاً هاماً من مراكز الحضارة في قلب جرمانيا .

وكانت الكنيسة الفرنجية تعاني أزمة فساد خلقي في الفترة الواقعة بين أواخر القرن السابع ومنتصف القرن الثامن . فاتفق بونيفاس مع البابا زكريا (٧٤١ - ٧٥٢) وكارلومان وبين القصير على إعادة بناء النظام الكنسي وتقويته لدى الفرنجة ، واستطاع ، عن طريق المجامع الدينية الافليمية والمحلية ، أن يصلح نظام التسلسل الكنسي ، ويجدد سلطات رؤساء اساقفة رنس وسانس وروان ، ويدعم سلطة المجامع السنوية المكلفة بالسهر على انتظام الانتخابات الاسقفية والأبوية (الديرية) واصلاح النظام الكنسي وإبادة بذور الهرطقة ، ويقم المؤيدات الصارمة لاحترام قواعد العزب الكنسي ، وفرض الزيارة الأسقفية للبرشية كل عام . واهتم بإعادة الأموال الكنسية المختصة ولو جزئياً .

وهكذا اندفع بونيفاس وزملاؤه وتلاميذه في العمل التبشيري ، وما أتى آخر القرن الثامن إلا وأصبحت الفريز مسيحية . وظلت ساكس تقاوم زمناً طويلاً لأن الأباطيل الوثنية كانت فيها قوية ومستحكمة ، لاسيما وأنها ظهرت بمظهر رمز استقلال البلاد . ولم تنظم الكنيسة فيها إلا بعد فتح شارلومان عام ٧٧٦ . وفي القرن التاسع نظمت فيها الاسقفيات ، وكثرت الاديرة وأشهرها دير كورفيه .

وفي البلاد الاسكاندينافية اخفقت أعمال التبشير التي قامت عام ٨٢٢ برعاية إيون رنس ، ثم اندفع التبشير بدعوة من لويس التقي في السويد . وبالرغم من الاضطرابات التي لاقاها في طريقه من اعمال القرصنة التي قامت بها اقوام الفايكنغ فقد شيدت كنيسة في شلزيغ وموقع امامي في السويد ولم ينته التبشير إلا في آخر القرن العاشر بمساعدة الامراء الاسكاندينافيين أنفسهم .

وظلت البلاد السلافية حتى الغزو المجري في آخر القرن التاسع على حالها دون أن تؤلف دولاً متميزاً بعضها عن بعض . وقد دخلتها المسيحية عن طريق المورافيين . ففي العام ٨٦٢ كتب الدوق واديسلو الى الامبراطور ميخائيل الثالث يشكو كثرة المبشرين من مختلف البلاد ، ويرجو أن يبدله على رجل كفؤ يهديهم سبيل الرشاد ، فارسل إليه الامبراطور البيزنطي الأخوين : قسطنطين وميتود ، وكانت لهما معرفة بالسلافيين ولغتهم ، وقد استخدمما هذه اللغة في التبشير والصلاة والاحتفالات الدينية ، وثبتا اللغة ، وأوجدا أدباً سلافياً . ولم يرق هذا النجاح الذي احرزاه للألمان فانتقدوهما على استعمال لغة ليتورجية غير مقدسة ، مستشهدين بأن النقش المرسوم على صليب المسيح كان بالعبرية والاعريقية واللاتينية ، وبهذه اللغات الثلاث فحسب كان يسمح القيام بالخدمة الالهية ، وشكوا امرهما الى البابا نيقولا

الأول والى هادريان الثاني ، واضطر الاخوان أن يذهبوا مراراً الى روما لتبرير عملها . ومات سيريل عام ٨٦٩ .

وتابع ميتود عمله ورسم اسقفاً في بانونيا و سيرميا ، غير أن اسقف سالز بورغ سجنه عامين ، ولكن الكرسي الأقدس تدخل لصالحه ، وظل حتى وفاته اسقفاً على بانونيا (٨٨٥) . وشمل عمل الأخوين البلاد السلافية . فقد بشر ميتود في بوهيميا وعمد زعيم البلاد بيريفوج ، وأخذت بولونيا المسيحية عن بوهيميا . وكان تلاميذ ميتود دعاة المسيحية في شبه جزيرة البلقان كلها .

لقد قام هذا العمل التبشيري على سواعد الرهبان ، واعطى في أوربة كلها نتائج دائمة ، وزاد في سلطة الكرسي الأقدس ، وسهل امتداد المملكة الفرنجية التي كانت له قوة ودعم وسنداً ، وهما عمال هذا التبشير حضارة العصر الوسيط بربط وسط أوربة البربري بغربها المثقف برباط وحدة الدين والايمان .

وكان جل اهتمام القديس بونيفاس ، في غاليا ، اصلاح النظام الكنسي الذي هو أساس لكل اصلاح جدي . وساند هذا النهوض الديني كهنة اسقفية مبرز بكل قوام وحياتهم المشتركة ، وبالاصلاح الذي قام به القديس بندكت راهب دير آنيان ، وحاول عن طريقه بمساعدة لويس التقي مراعاة القاعدة البندكتية في الحياة الديرانية .

الجدل والهزات . - لم يحدث خلال فترة طويلة من هذا العصر أي تجديد في المملكة الفرنجية خارجاً عن القضايا التي تمس الاسرار المسيحية والنظام الكنسي . لقد تلقت الامبراطورية صدى النظريات التي نشأت في الشرق أو في اسبانيا ، ولم تقف منها موقفاً سليماً بل ردت بشدة ، وازادت أن تفرض نظراتها العقائدية على البلاد المسيحية .

إن الجدل ، الذي يتعلق بطبيعة « عبادة » الايقونات أو الصور ، أي التمثيل التصويري للسيد المسيح ومريم والملائكة والحواريين والقديسين ، دخل فجأة بلاد الفرنجة عندما انتهى في الشرق . فقد أعاد جمع نيقية ، المنعقد في ايلول وتشرين الاول ٧٨٧ ، عبادة الصور ، ولكنه قرر أن تكون هذه العبادة عبادة شرف لا عبادة حقيقية واجبة لله وحده .

وبالرغم من النعت « المسكوني » الذي نعت به جمع نيقية الثاني ، فلم يشترك به إلا آباء الامبراطورية البيزنطية مع مندوبين حبريين ، ولم يضم اسقفاً من المملكة الفرنجية أو من اسبانيا المسيحية ، ولم تعرف قرارات المجمع في الغرب إلا بترجمة لاتينية . ويبدو أن المعنى الصحيح لكلمة « عبادة » لم يفهم ، وظن أن أساقفة الشرق يوصون بالعبادة الصرفة للصور . وقامت على اثر ذلك حركة استياء ، حتى ان شارلومان أمر عدة علماء من حاشيته بتأليف « كتب شارلية » هاجم فيها المجمع . وفي العام ٧٩٠ وجه الى البابا هادريان الاول براءة في ٨٥ مادة بشجب كل نوع لعبادة الصور ، كما شجب مقررات نيقية في مجمع فرنكفورت . ولا يرجع رد الفعل ضد مجمع ٧٨٧ الى خطأ أو ضلال فحسب ، بل الى حذر الملك الفرنجي وحاشيته من عبادة الصور . ولحسن حظ مصير الفن لم يحرم ملوك الفرنجة والمجمع الفرنجية استعمال الصور في النحت والتصوير لتزيين الكنائس ، ولم يكونوا مهتمين للايقونات بالمعنى الدقيق للكلمة .

وفي العام ٨٢٤ طرأ حادث غير منتظر وهو أن الامبراطور البيزنطي ميخائيل الأتكن طلب رأي الامبراطور لويس التقي والبابوية في هذا الموضوع ، وفي العام التالي انعقد مجلس أساقفة في باريس وأبقى على الحكم الذي اتخذ ضد مجمع نيقية الثاني دون اعتبار لتحفظات البابا هادريان

الاول ، وارسلت وثائق ضد هذا المجلس الى روما والقسطنطينية ، ولم تعرف بعد نتيجة هذا الخبر في كل من العاصمتين . وظل كل فريق عند مواقعه .

ويبدو أن القضية سويت لولا أن الاسباني كلود ، الذي رفعه الامبراطور الى الكرسي الاسقفي في تورينو ، دخل في النقاش وذهب فيه حتى النهاية ، ولم يشجب عبادة الايقونات فحسب ، مهما كانت هذه العبادة ، بل شجب أيضاً اجلال الصليب وعبادة مخلفات القديسين ووساطتهم . وهذا الافراط في المنطق افزع دونغال وخاصة جوناس اورلثان ، وقبلوا بأن يميز بين عدة « عبادات » . ومن المحتمل ، عندما وطدت العبادة نهائياً في الشرق ، في الجمع الرابع في القسطنطينية عام ٨٦٧ ، أن يكون الغرب قد تنازل لتأثير روما ، وقبل في آخر القرن مذهب نيقية رغم ما يبدو معاكساً لمزاجه الديني .

وهناك هرطقة أخرى وهي هرطقة التبني . نشأت هذه الهرطقة في اسبانيا حوالي آخر القرن الثامن . وعلى ما يظهر أنها تتصل بالنسطورية وتقول ان : « الابن الوحيد للأب (الكلمة) هو الابن الحقيقي لله ، بينما ابن مريم ابن تبناه الله » . وبتعبير آخر : ان المسيح ، باعتباره انساناً ، هو ابن تبناه الله . ولا يعترف انصار هرطقة التبني ، كالنسطوريين ، وحدة الشخص في المسيح ، وبالتالي ، ان المسيح — الانسان لا يمكن ان يقوم بتضحية ذات قيمة لامتناهية . ومن هنا تفهم النتائج الهدامة لعقيدة فداء البشرية .

كان ايليبياند ، رئيس اساقفة طليطلة ، صاحب هذه الهرطقة . فقد صرح بأن التمييز ازلي ولا شك ، غير ان شخص المسيح بن مريم

لا يساوي الأب والروح القدس . وهو بذلك يناقض مجمع نيقية لعام ٣٢٥ . وأخذ بهذا المذهب اتباع مثقفون وأصبحوا له حماة ، ونشروه في اسبانيا ، ولم تخل الدعوة له من المعارضة .

عندما علم البابا هادريان الأول بالجدل يقسم الاكليروس الاسباني ، كتب رسالة عقائدية إلى أساقفة اسبانيا عام ٨٧٥ ، ورد فيها على أخطاء ايليياند وأتباعه مع شواهد عديدة من آباء الكنيسة . ورأى ايليياند نفسه مهدداً فالقى عونا له في فيليكس اسقف اورجيل ، وأعلن هذا تشيعه للمذهب الجديد ، قبل ٧٩٢ ، وأصبح أول لاهوتي فيه . وأطلع هادريان الاول شارلومان على أخطاء فيليكس . فأراد وضع حد لها في مجمع راتسبون (٧٩٢) ، وبدا أن فيليكس ارتد عن مذهبه وشجب هرطقة التبني . غير أن فيليكس لم يكن مخلصاً في تراجع ، ومالبت أن بشر بالهرطقة من جديد ، وذهب إلى ايليياند ليكون في أمان ، وعندئذ تدخل الكون في القضية وكتب إلى فيليكس رسالة مفعمة بأقوال من الكتاب المقدس وآباء الكنيسة ، ودعاه ألا يمزق وحدة الكنيسة . فعقد ايليياند مجمعاً وحرر رسالتين : احدهما لشارلومان وفيها يدعو الملك لدعم فيليكس اورجيل ؛ والاخرى موجهة إلى أساقفة غاليا واكتانيا واوستوازيا ، ويبرر فيها مذهب التبني .

جمع شارلومان في فرنكفورت عام ٧٩٤ أساقفة بلاده ، واحتل نزاع التبني في هذا المجمع مكاناً هاماً . ومثل البابا هادريان فيه مندوبان ، ودعي اليه فيليكس فامتنع عن المثول . وخرجت عن هذا المجمع وثيقتان : الاولى تلح على مسلمات الكتاب المقدس ، والثانية توسع هذه المسلمات ، وأيدها المجمع بسلطته ، واتخذ قراراً بشجب مذهب فيليكس وايليياند . وأخطر شارلومان البابا . وقد كتب هذا في حينه رسالة ينصح فيها الاسبانين ،

ويعرض بمهارة كامل الحجج التي تشجب مذهب التبني ، وقد اعتبر خطأ أن هذه الوثيقة ، التي كتبها البابا ، كانت من قبله موافقة رسمية على مجمع فرنكفورت .

وبالرغم من هذه الوثائق الخطيرة التي بعث بها الى الاسبانين ، فقد ظل فيلكس اورجيل يبشر بهرطقته . وقد كتب بعد المجمع إلى شارلومان رسالة لا تلك منها إلا تنقأ ، وأكد فيها آراءه بجلاء أكثر من أي وقت مضى ، وبلغ الملك الفرنجي هذه الوثيقة الى الكون والبابا ليون الثالث وبعض الأساقفة ، ففندها الكون تفنيداً كاملاً في سبعة كتب . وعقد شارلومان مجمعاً في ايكس - لا - شابل في خريف ٧٩٩ ، مثل فيه فيلكس اورجيل ، ودافع عن نفسه بعناد خلال ستة أيام ضد الكون . وأخيراً اعترف بغلبه ، وتخلّى من جديد عن خطاه . وحرمه البابا في المجمع الروماني الذي عقده في السنة نفسها ، وعهد به الى ليدراد ليون . وقبل فيلكس بانكار أخطائه علناً في رسالة وجهها الى كهان اورجيل . ويعتقد أنه توفي في ليون عام ٨١٨ بعد أن تصالح مع الكنيسة ، لولا أن آغوبارد وجد في أوراقه كتيباً مهدى الى لويس التقي ، وفيه يظهر أنه ظل ثابتاً على رأيه . ويبدو أيضاً أن ايلياند ظل متمسكاً بعناده حتى وفاته ، وهذا النزاع بعد موت هذين الداعين المناضلين .

وما سكن الجدل في هرطقة البتني إلا وأخذت هرطقة الجبرية تعكر صفو الأفكار طوال شطر كبير من القرن التاسع ، والقائل بها غوتشالك . وكان فكراً لامعاً ، مخالفاً ، عنيداً ، استهوى معاصريه بسر الجبرية حتى وفاته حوالي العام ٨٦٨ .

كان أبوه كونتاً ساكسونياً . أرسل منذ حداثة سنه الى ابوية فولدا

ثم حصل على إلغاء تعهده الديراني ، لعدم موافقته ، في مجمع ماينس لعام ٨٢٩ . وألغى لويس التقي هذا القرار وسمح له بتبديل الدير ، فاختار غوتشالك أوربيه في أبرشية سواسون ودرس فيه القديس اغسطينوس والقديس فولجانس روسنب ، وأخذ عنها مقاطع منفصلة عن نصها الأصلي وذات لون ينم عن الجبرية المطلقة التي قدرها الله على عباده وجعل منهم **مصطفين** و **اشقياء** ، واستخلص منها أن المسيح مات في سبيل من قدر الله عليهم السلام وحدهم .

وأسهم في النقاش مشاهير علماء العصر . وفي مجمع ماينس ٨٤٨ شجب غوتشالك وسلم الى المطران هنكمار لمعاقبته فحكم عليه مجدداً بأنه هرطقي لا يمكن إصلاحه في مجمع كيرسي على الواز لعام ٨٤٩ ، وجرّد الهرطقي من منصبه وجعله علناً ثم زج في سجون دير هوتفيل حيث مات مصراً على عناده ومقاومته (٨٦٨) .

وكان **الجدل الثالوثي** أقل حدة ودويّاً في الظاهر من النزاع في عبادة الايقونات والتبني ، ولكنه أنتج مع الزمن نتائج مخربة باسهامه في ابعاد مسيحية الشرق عن مسيحية الغرب .

لقد وضعت قضية علاقات الروح بالآب والابن أمام الفكر المسيحي عندما قام الجدل في الاربوسية . ولم يؤد تفكير الآباء الى قرار عقائدي ، واستطاعت كل كنيسة من الكنائس الكبرى أن تهيه مذهبها في هذا الموضوع دون أن تلتقى عوائق . وفي القرن الخامس كان سيريل الاسكندري يرى بأن الروح القدس تنبثق من الابن بالطبيعة ، ومن الآب بالابن .

ولم يلق هذا الرأي أي حظ في الشرق . ويبدو ان أحد كبار جهابذة الكنيسة ، وهو القديس يوحنا الدمشقي ، في القرن الثامن ،

كانت يردد ما قال سيريل ، ومع هذا فهو لا يريد بأن يعتقد بأن الروح القدس تنبثق من الابن ، بل تنبثق بالابن . وفي الغرب ، بعد القديس اغسطينوس ، صرحت كنائس افريقية واسبانيا وغاليا وانكلترا ، جون تردد ، بأن الروح القدس تنبثق من الآب والابن . وعندما أنكر الملك الفيزيغوتي ريكارد الأريوسية عام ٥٨٩ تلا رمزاً مطابقاً لهذا المذهب الذي نادت به مجامع طليطلة . وكان الانشقاق ، على هذا النحو ، يعتبر سويّاً في الغرب ، حتى ان شارلومان في الكتب الكارولنجية يأخذ على بطريرك القسطنطينية تاراسيوس تبشيره بالإيمان « من الآب بالابن » الذي لم يحتج عليه المندوبون الحبريون . غير أن البابا هادريان الثاني دافع عن قدامى الآباء ضد ملك الفرنجة اللاهوتي المندفع جداً .

ثم طرأ حادث أثار الخلاف العتيد من جديد . ففي ٨٠٨ تلا رهبان فرنجية مقيمون في دير في فلسطين ، في القُداس ، الرمز مع إضافة الانشقاق « من الآب والابن » فاعتبروا هراطقة ، وهددهم الرهبان الاغريق بالطرد ، فاشتكى الفرنجة ، للبابا وللإمبراطور أيضاً ، بقولهم إنهم سمعوا تلاوة الرمز مع هذه الاضافة في كنيسة البالاتن ، فحمل شارلومان على المذهب المعاكس ، وطلب الى تيؤدلف أن يحرق كتاباً في « الروح القدس » ودعا الى ايكس - لا - شابل (٨٠٩) مجعاً وحكماً لصالح الانشقاق « من الآب والابن » .

ولاقى الإمبراطور من جانب روما مقاومة شديدة . فقد قبلت الاضافة من الوجهة المذهبية ، ولكنها من الوجهة العملية رفضت أن تدعها تقرأ في تلاوة الرمز وانشاده حتى في كنيسة البالاتن . وبعد قرنين أي في ١٠١٤ ، رضيت روما إدخال الاضافة في ترتيب القُداس ، تحت ضغط الإمبراطور هنري الثاني . وعرفت البابوية ، في الحال ، خطر

هذا الجدل وعملت كل ما في وسعها لاختماده . وهذا الشعور الغامض له ما يبرره . لأن فوتيوس في العام ٨٦٧ سيظهر ، في ساحة الصراع اللاهوتي ، هذا السلاح على روما وسيستخدمه سهماً مسمماً ضد كنيسة الغرب .

ومنذ ذلك العصر أصبح الجدل الثالوثي إحدى النقاط المذهبية التي رفضت الكنيسة « العامتان » التسامح بها . وهذا التعنت يدع المؤرخ غير اللاهوتي حائراً لأنه لا يرى فرقاً جديراً بالتقدير بين « من الابن » و « بالابن » . ومع ذلك يوجد فرق ولو بدا متناهياً في الصغر ، لأن الصدع الخفيف اتسع خلال العصور وانتهى بجفوة بين المذهبين ، وسينمحي في الغرب الشخص الثالث للدرجة يصبح فيها فضلاً من القول بالنسبة للمؤمنين غير المحترسين ، أي الأكثرية . وفي الشرق سيحافظ الروح القدس على شخصية متميزة لدى عامة المؤمنين .

البابوية والملكية الكارولنجية . لقد ساد العلاقات بين البابوية والملكية الكارولنجية جو من التفاهم ، وهذا التفاهم مما بتأثير أسباب مختلفة : منها أن الفرنجة لم يكونوا أريوسيين ، واعتبر صبا كلوفيس دليلاً على فضل الله . وكانت روما تقدر ولاءهم . فقد التمس البابا فيرجيل مساعدة شيلدوير الأول ضد الغوط ، وحذا حذوه البابا بيلاج الثاني وطلب مساندة شيلدوير الثاني ضد اللومباردين ، واعترف البابا غريغوار الكبير بالملكية الفرنجية ملكية ممتازة ولم يتنبأ ولا شك بتبدل الجبهة في السياسة الجبرية التي كانت تهيأ على هذا النحو وارتسمت فيما بعد تحت ضغط اللومباردين عند زوال الامبراطورية .

وفي العصر الكارولنجي حقق الايمان المسيحي فتوحات واسعة في قسم عظيم من اوروبا بمساعدة خلفاء يبين على أن هنالك حادثاً عميقاً وهو أن

الفكرة الرومانية في الدولة أخذت تستوعبها الفكرة المسيحية تدريجياً. التي تنزع إلى اجتياح كل شيء وتأسيس الأنظمة السياسية نفسها على الكنيسة واعتبارها قاعدة وحيدة لها .

ولقد أعطى ايزيدور اشيلية في القرن السابع التعبير الواضح الذي تكرر ذكره كثيراً في القرون التالية وإن أمراء العصر يحتلون أحياناً قم السلطة في الكنيسة ليحموا النظام الكنسي بسلطتهم . ومع ذلك فإن هذه السلطات ليست ضرورية في الكنيسة إذا لم تفرض برهبة النظام ما يعجز الكهان عن فرضه بالكلام . إن نظرية « العضد الزمنية » كلها تكمن هنا ، لأن سبب وجود السلطة الزمنية هو خدمة الكنيسة . ولكن الأمراء لا يفهمون ذلك دوماً في التطبيق . وهذه الفكرة تكمن تحت جميع المنازعات الكبرى التي تقوم بينهم وبين البابوية . ومن الممكن القول دون مبالغة ، بأن هذا المفهوم قد عظم بنظرية السلطين الدينية والزمنية التي قيل بها في القرن الثاني عشر .

ولقد ظهرت آثار هذه النزعة الفكرية منذ بداية السلالة الكارولنجية لأن أول ملك ، قبل أن يضع التاج على رأسه ، طلب من البابا زكريا ما إذا كان من الأفضل أن يكون لقب الملك خاصاً بمن يمارس وظائفه أكثر من سليل ممحي لجنس منقط . وعلى اثر جواب الخبر بالإيجاب بورك يبين من قبل بونيفاس أولاً في سواسون عام ٧٥١ ، كما باركه البابا ايتين الثاني من جديد في كنيسة القديس - دوني في ٢٨ تموز ٧٥٤ .

وهذه الممارسة أكثر من رمز تقارب بين السلطين . إنها الحتم الكنسي على الملكية ، والدمج الرسمي للنظام الملكي في الكنيسة ، والتسلسل الكنسي الذي يعطي لسلطة الملك تقايداً دينياً . والملك الذي اختاره الله يعد

بخدمته ، وان يكون عادلاً ، وبكلمة أن ينفذ ارادته . ولكن من هو المعبر المجاز اكثر من غيره ؟ الكنيسة .

ولم يتأخر بين باعترافه بجميل كرسي بطرس . وعندما جاء ايتيين الثاني ليبارك بين كان لرحلته سبب آخر ، وهو طلب العون وانشاء علاقات مع الملكية الفرنجية . وما كان بوسعه أن يعمل غير ذلك ، فقد حاول استولف ، ملك اللومباردين ، فتح ايطاليا بعد أن أخذ رافينه وهدد روما . وطلب ايتيين الثاني مساعدة البازيلوس البيزنطي دون جدوى ، وسعى لدى استولف فلم يحظ بما يريد ، وما كان منه إلا ان ذهب الى فرنسا وبارك السلالة الجديدة ومنح بين لقب حامي الرومانيين ، واستبعد به ليخلص روما من تهديد اللومباردين ويجبر استولف على اعادة نيابة رافينه الى الجمهورية الرومانية . وعبر ملك الفرنجة الالب ، ووقف أمام بافيا وقبل استولف شروطه دون قتال ، وتخلّى عن النيابة والمناطق المجاورة لا ليردها إلى الامبراطورية البيزنطية بل ليهبها إلى القديس بطرس .

ولم يقم استولف بعد ذهاب بين اي اعتبار لتعهداته وحاصر روما في ١ كانون الثاني عام ٧٥٦ ، وعاود البابا شكواه ، وثار بين ووقف ثانية أمام بافيا ، واستسلم استولف في هذه المرة دون قتال أو مقاومة . واثضعت الحالة هذه المرة . فقد وهب بين البابا بة حسب الأصول وأضاف كوماكشيو إلى المدن المتنازل عنها سابقاً . وسلم فولراد أب دير القديس - دوني المفاتيح مع الرهائن ، ووضع ايتيين الثاني علناً ورسمياً الوثائق والمفاتيح على ضريح القديس بطرس . وهكذا تألفت الدولة الحبرية .

وقد دلت الأحداث على أن عمل الكرسي الأقدس لا يمكن ان يستغني عن دعم زمني ، وان هذا الكرسي عوضاً عن أن يتجه صوب بيزنطة سيوجه وجهه منذ الآن فصاعداً شطر المملكة الفرنجية ، وان الالة

المتزايدة مع الملكية الكارولنجية شجعت مزج السلطات التي عرفناها تحت اسم « الاغسطينية السياسية » وستلعب أولاً لصالح شارلومان .

لقد حاول البابا هادريان الأول ان يدفع عن نفسه وصاية شارلومان الكاسحة وتقاهما على ان يصرحا ويستوضعا عن حدود سلطة كلٍ منهما . وكانت علاقاتها ودية عادية واحياناً باردة ، ولا نجد أي رسالة من هادريان تتعلق بالدور الممتد من ٧٨٨ إلى ٧٩١ . غير ان نزاع الايقونات في مجلس فرنكفورت ٧٩٤ كاد يفسد علاقاتها . والكتب شارلومانية التي الفت بهذه المناسبة تكشف في آن واحد عن انفصال الغرب عن الشرق وعن النزعة القيصرية - البابوية للمليك الفرنجي ومعيته .

وظل هادريان حتى وفاته (٧٩٥) وهو لا يرضى بان تختلف حماية شارلومان عن حماية بيبين . ونراه في الرسائل التي حررها حول العام ٧٩١ لا يخرج عن قيود اللغة الدبلوماسية ويناشد الملك ان يحذر التجديدات . أما من جهة شارلومان فقد ترك إلى القديس بطرس الحماية الفعلية التي تنازل عنها ابوه بيبين وأبداها من عنده .

ثم أن موت هادريان واعتلاء ليون الثالث عرش البابوية ، وجاه شارلومان المتزايد ، وفقدان حظوة البلاط البيزنطي وسير الحوادث والافكار ، ان كل ذلك ادى الى تزيين رأس شارلومان بالتاج الامبراطوري . ومنذ اعتلى ليون الثالث الكرسي الأقدس بعث الى شارلومان مفاتيح القديس بطرس وراية المدينة الخالدة . وكان جواب شارل له مرحياً . فقد حظه بشدة أن يجيا حياة شريفة ، وان يراعي قوانين الكنيسة ويحكمها بتقوى . كما دل في هذا الجواب على المفهوم الذي كونه لنفسه عن السلطة الامبراطورية والسلطة الحبرية بقوله : « بينا يناضل المليك يرفع البابا يديه إلى الله ، كموسى » ، أي ان الدور النشط المسيطر منوط بالأمير ، والبابا مندوب لخدمة

الصلاة ، وللأمير « ان يحكم كنائس الله في كل شيء ويجمعها من الأشرار » .
ويصرح شارل ايضاً بأنه يريد تقوية الكنيسة من الداخل في فهم الايمان
الكاثوليكي . ولم يقم ابنتين الثالث بأي جهد للتخلص من سيطرة شارل
ونفوذه بل أعلن على رؤوس الأشهاد « بأن لا شيء ، الا الموت ، يمكن
ان يفصله عن الحب الذي يكنه لشارل » .

ولقد حقق شارلومان الدستور الايزيدوري الذي ذكرناه آنفاً وبين
ان السبب الأسمى لوجود سلطته هو خدمة الكنيسة : « اسهروا على ان
يقوم كل واحد ، حسب ذكائه وقواه وحالته بخدمة الله القدسية » . وان
نظام الرسل والمندوبين الذي وضعه كان لهذه الغاية ايضاً ، إذ لم يقتصر
عملهم على النظر ما اذا كانت الشرطة صالحة ، او العدل سائداً ، او
المكايل والموازين صحيحة أو العملة غير مزيفة ، بل كان عليهم أن
يراقبوا سلوك الأساقفة والكهان والرهبان ، ويتأكدوا بانهم يمارسون
وظائفهم باحسان ، ويعرفون قوانين الكنيسة ، ويشيرون بالدين بشكل
ملائم ويتبعون قواعد القداسات والانشاد المقدس ، ولا يقتنون كلاب
صيد ولا عقبان ، ولا يتعاطون القمار ، وباختصار ، بأنهم يؤدون رسالتهم
خير الأداء وأنهم قدوة صالحة للمؤمنين .

أما ان يكون لشارلومان سلطة واسعة على الكنيسة فليس ذلك
بالحدث التاريخي العجيب ، لانه كان يقبض على اكبر سلطة في الغرب
الاوربي ، ولكن الكنيسة ادخلت على هذه السلطة شيئاً من نفوذها .
ومن جهة أخرى كان شارل يمارس سلطته عادة في الاتجاه الملائم لمصالح
المسيحية . والقضية الحقيقية التي تطرح في علاقات الكنيسة والدولة في
العصر الكارولنجي هي انتقال السلطة في فترة قصيرة من الزمن . ففي
فجر القرن التاسع كان توجيه الغرب المسيحي بيد الامبراطور . وفي اقل

من خمسين عاماً بعد وفاة شارلومات (٨١٤) انتقل التوجيه إلى يد البابا نيقولا الأول (٨٥٨ - ٨٦٧) .

ولو كانت سلطة الأمباطور مبنية على حق متميز عن الحق الكنسي كسلطة قدامى الإباطرة المسيحيين ، وكانت تمارس فقط في صعيد واحد وهو الدولة ، متميز عن صعيد الكنيسة ، لما امكنت مهاجمتها . ولكن سلطة شارلومان تكمن في شخصه أكثر منها في بناء سياسي يصنعه مرة ثم يهدمه أخرى. ويدل تقسيم الامبراطورية بين اولاده عام ٨٠٦ على أن شارلومان ظل غريباً عن الفكرة الرومانية للامبراطورية . ومن جهة أخرى خول سلطته رسالة اساسية لتكون في « خدمة الله » وتأمين سلام الأرواح ، وبذلك أمن لسلطته اسماً حقوقياً واخلاقياً ودينياً وكنسياً. لقد وطد شارل الامبراطورية في الكنيسة وجاراه في رأيه كتاب العصر السياسيون مثل سماراغد ، جوناس اورلثان ، سيدوليوس ، سكوتوس ، أرغوبارد ، هنكار ، وتطوروا في هذا الجو الفكري نفسه .

ومالبث نتائج هذه المفاهيم الاساسية ان ظهرت ، وكان تنازل لويس التقي عن العرش نتيجة مباشرة لها . فقد حنق اولاده من التقسيمات المتتابعة في فورمز (آب ٨٢٩) وايكس - لا - شابل (شباط ٨٣١) ، وانتهوا باذلاله في سواسون (تشرين الأول ٨٣٣) . ويمكننا ان ندرك بسرعة قوة نفوذ الاساقفة في المحضر الذي حرروه في توبة لويس التقي العامة التي انتهت بتنازله عن العرش . لقد عددوا سلسلة اخطاء تؤول كلها الى سبب أساسي واحد وهو ان الامباطور بكل عن أداء رسالته . وتدخلوا في الأمر « لأنهم نواب المسيح وحمل مفاتيح ملكوت السموات » و « أظهروا قوة وظيفتهم الكهنوتية بالكتف عن الأخطاء المرتكبة في

الحكومة الامبراطورية ، لأن هذه الأخطاء كانت فضيحة في الكنيسة وعامل خراب للشعب وهلاكاً للمملكة .

ومن الممكن ان يرى في هذا التدخل الأسقي بداهة لنظرية « التيقراطية » او « المشيئية » اي الحكم الآلهي ، ولكن لاشيء في النصوص يكشف عن ان الاساقفة كانوا مقتنعين للقيام بأنفسهم بجلع « الامبراطور » .

وعندما أتى لوثير الى ايطاليا والتحق باخوته الثاثرين تبعه البابا غريغوار الرابع فكتب اليه بعض الاساقفة رسالة تلوم تدخله وتسجل تبعيته لوارث سارلومان ، فأجاب البابا جواباً سامياً ويرر تدخله في هذه القضية السياسية المتعلقة بوراثه الاراضي وتقسيمها بقوله : « وكيف يمكنكم ان تعارضوني وكنائسكم عندما أؤدي رسالة سلام ووحدة ، هي هبة المسيح بل ووظيفة المسيح » . لقد خول الامبراطور نفسه هذه الرسالة بيد انه لم يكن على مستواها وخار عزمه ، ولذا فالبابا حاضر لينوب عنه .

ومن الممكن ان نتبع بقاء أفكار غريغوار الرابع عند اخلافه . فنرى ان سيرج الثاني (٨٤٤ - ٨٤٧) ، في الرسالة التي رسم فيها دروغون نائباً للسدة الرسولية ، يصرح بأن يتدخل ضد اولاد لويس التقي الثلاثة إذا لم يبقوا متعدين « في السلام الكاثوليكي » ، واستمر ليون الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥) وبنوا الثالث (٨٥٥ - ٨٥٨) على الموقف نفسه واعتبرا نفسيهما مكلفين بالحفاظ على السلام . وكانت الطرق معبدة أمام نيغولا الاول (٨٥٨ - ٨٦٧) ، فلم يدشن على عرش بطرس برنابجاً جديداً ، ولكنه اتاه بقوة جديدة . أخذ النصوص القديمة وأحيائها ووسع تطبيقها ، ووضع بحزم وعزم سلطته فوق جميع السلطات الموجودة كنسية وزمنية وطالب بحق إحلال النظام في كل مكان .

ونراه ، في قضية طلاق لوثير الدقيقة الشائكة ، لم يكسر قرار مجمع ميتر (حزيران ٨٦٣) مجلح الاسقفين توتغو وغونتر مندوبي المجمع ، بل هدد الملك باللعة والحرمات إذا لم يندم على ما فعل . وطالت هذه القضية . وكان لوثير الثاني خبيراً بأساليب المماطلة والامهال ، ولم يشأ يقول الاول ان يعجل . وبالرغم من الغموض ، الذي يغلف العمل الحبري ، يبدو ان البابا حرم الملك وطرده من الجماعة .

وفي تدخلاته لتوطيد السلام ، بين لوثير الثاني وشارل الاصلع ولويس الجرماي ، كان يعمل دوماً باسم الطابع الديني للسلام ، وباسم المسيح « الذي هو السلام الكامل والعدل الكامل والحق الكامل » . ومن هذا الصعيد الفوق طبيعي انزلق بشكل غير محسوس نحو الصعيد السياسي وفرض احترام الموائيق السياسية والمعاهدات . وكان يجب ان يستشهد بالقدس اغسطينوس الذي يميز بوضوح بين الصعيدين : الديني والزمني . وأخففت الاغسطينية حدودهما ونزعت الى استيعاب النظام الطبيعي والسياسي في النظام الفوق-طبيعي والكنسي ، وبذلك أسهمت في النهوض الحبري نحو قمة المسيحية .

وصفوة القول ان الامحاء التدريجي للحدود الدقيقة بين الكنيسة والدولة أعطى للعامل الشخصي والسلطة الفردية ، ملكاً أو بابا ، أهمية كبرى . وفي القرن الذي رأى ظفر الهيمنة الامبراطورية شهدنا أيضاً نقل هذا التفوق الى شخص البابا نيولاول . ولكن هذا التفوق كان قصير الأجل ، لأن القوى الفوضوية العتيدة للاقطاعية ، في آخر هذا العصر الكارولنجي ، انطلقت من عقالها وهدمت الامبراطورية ، وأضعفت بل وأذلت البابوية .

- ٢٦٨ -

وفي العام ٩٦٢ تنهض الامبراطورية ومعه القيصريه - البابويه وتدعي
ظاهراً بحق تخويل الأسراو المسيحية بصورة غير مباشرة ، وتقلد الاسقف
وظيفته كتلة واحدة دون تمييز بين روحي وزمني . وسيقوم نضال البابويه
ضد الامبراطورية الجديدة ولن تقتصر نهائياً إلا بتطبيق المبادئ التقليدية
التي وضعتها موضع العمل والتنفيذ في العصر الكارولنجي .

الفصل الثالث عشر

الحضارة الكارولنجية

الحياة الاقتصادية

كان المجتمع الكارولنجي في اساسه ريفياً قبل كل شيء ، وبالرغم مما كان فيه من نشاط صناعي وتجاري فقد كانت الارض مصدر الثروة والاقتصاد قروياً في القرن الثامن والتاسع في اوروبا الغربية .

الزراعة . — لقد انتشر نظام الملكية الكبرى العقارية منذ العصر الروماني وأصبح في القرن الثامن والتاسع حادثاً عاماً . وبما لاشك فيه ان الملكية الصغيرة لم تزل تماماً ، لأن المصادر تذكر لنا وجود ملاكين متواضعين منتشرين هنا وهناك في غربي اوروبا . ويبدو في القسم الشرقي من الامبراطورية ، وخاصة فيما وراء نهر الراين ، أن هذه الطبقة الاجتماعية كانت عديدة ولها اهميتها . واذا كان صحيحاً أن التعصيرات التي تمت في القرن الثامن قللت السطح العام للملكية الكنيسة ، فقد استطاعت الكنائس ، في عهد شارلومان ولويس التقي ، ان تسترد بعض الاراضي المصادرة الغنية . ونذكر على سبيل المثال ان ملكيات ابوية القديس جرمات دوزيه تقارب مساحتها في اوائل القرن التاسع ٣٣٠٠٠ هكتار . وكان الملوك على رأس دومين عقاري واسع ، والملكيات الضريبية متناثرة في انحاء المملكة . اما الثروات العقارية لكبار العلمانيين فيبدو في كثير من

الحالات انها كانت عظيمة جداً وتضم كثيراً من قرى اليوم . وكانت الملكية الكبرى بل والكبرى جداً شكلاً سائداً للنظام العقاري في الامبراطورية الكارولنجية .

ولحسن الحظ حفظ عدد كبير من البيانات المفصلة والنصوص التشريعية المتعلقة بالدومينات الكارولنجية وخاصة الدومينات الكنسية والضريبة . وبين هذه المصادر نخص بالذكر الوثائق المسماة « البولبيك » وتحتل المكان الأول ، وتحتوي وصفاً منظماً لأموال وواردات الابرشيات (الأديرة) والابرشيات . واكثر هذه الوثائق الكارولنجية اهمية وتفصيلاً الوثائق المتعلقة بابوية القديس جرمان دوبريه التي وضعها الأب ايرمينون في آخر حكم شارلومان واول حكم خلفه

وبعض هذه الوثائق الاقتصادية الكارولنجية الشهيرة براءات تضم كثيراً من المعلومات الادارية ، وانواع الاشجار والنباتات والحضار والحيوانات والادوات المستعملة التي يملكها الدومين ، ومعلومات فنية تتعلق بزراعة الأرض وتربية الحيوانات وصيد الاسماك والعناية بالأخشاب والغابات والصيد البري وتربية النحل . ومثل هذه البراءات تعطي ولا شك فكرة واضحة عن حياة الدومين الاميري في العصر الكارولنجي .

كان الدومين الإطار الأرضي الذي تنمو فيه الزراعة ، ويرجع أصله إلى العصر الروماني والعصر الميروفنجي ، ومن الممكن تتبع مراحل نموه المستمر ، إلى أن بلغ التنظيم فيه درجة عالية من الكمال في القرن التاسع وأصبح سائداً وأزال القرى الحرة . وكان الدومين الكارولنجي واسعاً جداً ويطابق في الغالب قرية من قرى اليوم . ويحتوي الدومين (الفيلا) عنصرين متميزين وهما :

١ - الاحتياطي الاميري ويستثمره المالك مباشرة .

٢ - قطع الاراضي الموزعة بين الفلاحين .

والدومين الاحتياطي واسع جداً ويضم ، عدا الابنية ، حقولاً وكروماً ومراعي وخاصةً غابات . أما مجموع قطع الاراضي ، فعلى العكس ، يضم خاصة اراضي زراعية . وتدل الوثائق على وجود نسبة بين احتياطي الأمير وقطع الأراضي . فقد كانت القطع تحتوي مانساً أو عدة مانسات ، بل واجزاء المانس . والمانس ، كما نعلم ، وحدة زراعية وبشرية ، وهي نظرياً غير قابلة للقسمة ، وتتألف من أراضي تختلف سعتها ما بين ٥ و ٣٠ هكتاراً وتتراوح وسطياً بين ١٠ و ١٥ هكتاراً . وهي مستغل صغير يمكن ان يعيش عائلة .

ومن المهم ان نميز بين استغلال الدومين واستغلال قطع الأراضي . وهذا الأخير يقوم به الفلاحون ويدخل فيهم المعمرون وهم أحرار نظرياً ، ولكنهم وراثياً متعلقون بالتواب منذ عهد الامبراطورية الدنيا ، وهم كثر على الضفة اليسرى لنهر الراين ، والى جانبهم يرى مزارعون آخرون ، الأقنان ، وهم سليلو قدامى الأرقاء الرومانيين أو الجرمانيين ، ومعمرون جرمانيون .

ولا شك في ان الشرط الحقوقي للفلاح لا يطابق بالضرورة في القرن التاسع شرط المانس الذي يأخذه من المالك . لأن الفلاح كان في حالة تبعية وثيقة لمالك الدومين . ولم يكن هذا المالك أميراً عقارياً فحسب ، بل ايضاً ، ولحد واسع قليلاً أو كثيراً ، أميراً قضائياً . وكان الفلاح يجني محاصيل مانسه شريطة أن يدفع للأمير اتاوة ثابتة عينية غالباً . ولما يؤتى باليد العاملة المأجورة لاستغلال الاراضي الخاصة بالمالك ، بل كان الفلاحون يقومون باعمال السخرة في لحتياطيه خلال ثلاثة أيام في الأسبوع .

وكانت السخرة ثقيلة على الفلاح الكارولنجي . ويبدو أن الاقنان ، ممن ليس لهم اراضي ، كانوا متعلقين بمرکز الاستغلال ويسهمون في استغلال احتياطي الأمير .

وفي أراضي المانسات يسود نظام المستغل الصغير . وفيه يهتم الفلاحون بإنتاج الحبوب والخصار والفواكه وتربية الحيوانات الكبرى والصغرى . ولهم الحق في التمتع بالغابة والمرعى الأميريين . وكانت أراضي الأمير تضم عادة غابات واسعة ترعى فيها قطعان الخنازير ، وتنتج الحقول الحبوب والمراعي والعلف . وفي إيطاليا كانت زراعة الزيتون مزدهرة في عدد من الدومينات الكبرى . وكانت كروم العنب عديدة نسبياً حتى أنها تمتد قليلاً شمال منحى الحرارة المتساوية الحالي للكرمة .

ولم يقتصر الأمير على إلزام الفلاحين باستغلال الحقول والمراعي والغابات في احتياطيه ، بل كان يفيد أيضاً من معارفهم المسلكية ومهارتهم الفنية . فقد كان تحت تصرفه صناع عربات ونجارون وحدادون وخبازون ، ونساء قنات ينسجن ويغزلن في المنزل أو في مشغل الأمير صوف الدومين وكتانه ، وبالأجمال كان الدومين مشروعاً واسعاً ، مزرعة ومصنعاً معاً ، ولكنه بخاصة مزرعة .

وكان الدومين مستقلاً من الوجهة الاقتصادية ، ويغطي حاجات الأمير والفلاحين بإنتاجه الزراعي والصناعي ، وما كان الدومين يشتري شيئاً . ومن النادر أن يبيع شيئاً من محصوله . وإذا باع فبكمية قليلة جداً . وفي أغلب الأحيان كانت احتياطي الغلال يجمع ويدخر لأوقات الشدائد والمجاعات المحتملة الوقوع . ووجدت علاقات تبادل غير تجارية بين مختلف الدومينات التابعة للأمير واحد ، أو أبوية واحدة ، أو اسقفية واحدة

ولثلا يحرم الدومين من بعض المحاصيل التي يصعب الوصول اليها او زراعتها كالملح والزيت والخمر والكتان والخمر (مادة صمغية لزجة تستخرج من الصنوبر والسرو) تمكنت بعض الابويات من الحصول على دومينات بعيدة عن أرضها واستغلتها لتجهزها بهذه المحاصيل المختلفة ، وكانت تلزم فلاحها بالذهاب إلى هذه الاراضي البعيدة بواسطة الزوارق أو العربات والعمل بها . ونذكر كشاهد على ذلك ان كثيراً من الابويات في البلاد المنخفضة كانت مالكة لكروم في شمال فرنسا أو على طول نهر الراين والموز . وكانت كنيسة رنس تملك في الفوج دوميناً يجهزها بالخمر خاصة . ومن الممكن تعداد الأمثلة . ولا يفترض هذا التنظيم الاقتصادي بيعاً أو شراء بل يطابق ما اتفق على تسميته بالاقتصاد الدوميني دون منافذ .

ويجب ألا يظن بأن نمو نظام الدومين كان منشطاً للاقتصاد الريفي لأن العصر الكارولنجي لم يحي أرضاً بوراً ولم يستغل أرضاً متروكة ، إلا في بافاريا وكرانثيا وروسيون حيث أقام شارلومان ولويس التقي لاجئين اسبانيين . ووجدت اراضي كثيرة مهجورة دون استغلال . وكان استعمال الدورة الزراعية على سنتين أو ثلاث سنوات أمراً شائعاً ، ولا تكشف النصوص التشريعية عن مفاهيم اقتصادية وفنية أصيلة . وكل ما وجد ليس إلا من قبيل التعليقات البسيطة التي يملها الحس السليم والنصائح العملية . ومع هذا فقد اهتمت بعض السلطات الكنسية الكبرى ، من أمثال اينجهارد وآدالارد وقاتو ، بتنظيم الدومين وتحسين الطرق الفنية . وربما كانوا متأثرين بأدب علماء الزراعة اللاتينيين لأن آثار كولوميل نسخت في القرن التاسع ، وكتاب ولافريد سترابون في الزراعة وان كان قبل كل شيء تدريباً أدبياً ، فهو يدل من جهة أخرى على الاهتمام بعلم الزراعة .

التجارة - لم يكن نشاط الدومين المغلق صالحاً لنمو نشاط تجاري كبير . ولا شك في أن المصادر المعاصرة تذكر لنا وجود تجار وأسواق ولكن هذا النشاط التجاري ، الذي يلمح له ، كان ضعيفاً جداً . بيد أن تجارة الأشياء الفاخرة والمنتجات الأجنبية عرفت أهمية نسبية في القرن التاسع لأنها كانت تعتمد على اقلية اجتماعية صغيرة غنية .

وترى بعض الأسواق في المدن والقرى والدومينات ، وبأقي اليها الفلاحون كل اسبوع ويبيعون فيها السلع الغذائية . وكان لهذه التجارة بعض الأهمية وبخاصة في أوقات المجاعة في المناطق المجاورة . وهؤلاء الفلاحون ، الذين يقومون بالمبادلات من حين لآخر حسب الظروف ، لا يصح مزجهم بالتجار الممنهين . ولقد تأكد بصورة لا تدع مجالاً للشك ان هؤلاء التجار وجدوا في العصر الكارولنجي ، ولكن المهم الا نبالغ بدورهم وأهميتهم ، لأن عدداً منهم لم يكونوا سوى باعة جوالين يحملون بضاعة قليلة القيمة ويتنقلون من مدينة لأخرى ، ومن دير لآخر في عهد شارلومان ولويس الثاني . ويلاحظ في ايكس لا - شابل ، مقر الامبراطور ، عدداً كبيراً من التجار الذين يبنون البلاط بالاقمشة الحريرية والتوابل والعاج والبضائع الأخرى النادرة والقيمة . وكان يعيش بالقرب من بعض الاساقفة أو في جوار بعض الاديرة تجار يجهزون الكنائس بالبخور والعطور والحرائر والحلي والجواهر . ويستوردونها من اسبانيا والبندقية ونادراً من البحر الباطيكي بكمية قليلة . ولقد كانت من الندرة بشكل يحرص عليها وتعتبر من الهدايا الفاخرة التي تقدمها الشخصيات الممتازة لاصدقائها بشكل بضعة مناقيل من الفلفل والعقاقير والعطور والكمون والبخور والصباغ على أمل أن تتلقى بالمقابل بعض النباتات الطبية أو قليلاً من العطر أو قطعة حرير . وهذه المبادلات المجانية تدل ولا شك على قلة العلاقات التجارية العادية .

وكثر عدد التجار اليهود في القرن التاسع ، وكاث هؤلاء يذهبون إلى خارج الامبراطورية بحثاً وراء الأشياء الفاخرة والنادرة . وكانت بعض المدن تضم جالية يهودية كثيرة العدد مثل ليون واكس - لا - شابل وفاربونه وبوردو وماينس .

وبالإضافة إلى نخارة التوابل والمنسوجات الحريرية كانت تجارة الرقيق عنصراً تجارياً هاماً اختصت به البندقية وكان التجار البنادقة يأتون بالرقيق من المناطق السلافية ، التي لم تتمسح بعد والواقعة فيما وراء نهر الايلب ، ويصدرونه بخاصة نحو بيزنطة وأفريقية الشمالية . كما ان التجار من فردن كانوا يذهبون إلى اسبانيا لبيعوا فيها الرقيق .

ووجدت في الامبراطورية السكارولنجية بعض مناطق تتمتع بموقع جغرافي ملائم ساعدها على التفتح التجاري كالمنطقة الواقعة بين نهر السين والموز . ووجدت ثلاث مراكز مجاورة للشاطئ وتفيد في ازالة التجارة الانكليزية والفرنجية وهي روان ، آميان ، كانتوفيك ؛ وفي وادي الايسكو ثلاث مراكز أخرى : فالانسين ، تورنيه ، غاند ؛ ونحو الشرق نجد على طول الموز مدينتين تجاريتين : ماستويخت ، فردن ، وعدداً من المواني مثل دينان ، نامور ، هوي . وكان الانتقال سهلاً في هذه المنطقة . وفيما عدا ذلك كان وادي الدانوب وبلاد سالزبورغ مركزاً نشيطاً لتجارة الملح . وفي ساكس وعلى طول الحدود الشرقية كانت تقوم تجارة الاسلحة والالبسة والحول مع السلاف والآفار .

وفي الدلتا المتشكلة من مصب الراين والموز كان للفريزون مركز تجاري هام ومركز للزوارق وهو دورشتيد وقد دمره النورمانديون حوالي منتصف القرن التاسع . وكانوا يشحنون الاقمشة والخمر ويهجرون إلى

انكلترا وفرنسا الشمالية يصعدون مجرى الراين إلى منطقة اقتصادية لنشاطهم .
 وكان تجارهم في فورمز وكسانتن وستواسبورغ وكولونيا ودويسبورغ .
 ولهم علاقات تجارية مع التجار الاسكندنافيين الآتين من البaltيك .
 وكان للدانماركيين مستودعات تجارية على شاطئ ميكلامبورغ وشلفينغ .
 وهنا ينتهي التيار التجاري البaltيكي الآتي من جزيرة غوتلاند وشواطئ
 روسيا . وكانت زوارق النورمانديين تجوب هذه المنطقة ويتعاطى ملاحوهم
 التجارة والقرصنة معاً .

وكانت دور البندقية في ايطاليا الشمالية كدور دورشتيد في بلاد الفريز
 مركزاً تجارياً ممتازاً في أعالي العصر الوسيط . ولم تنقطع العلاقات بين
 هذا الميناء وبلاد البحر المتوسط البيزنطي والاسلامي . وكان البنادقة يذهبون
 بالرقى إلى هذه الموانئ ويأتون منها بالمحاصيل الاجنبية ، وفي سنة ٨٤٠
 أبرم لوثير الأول مع البندقية معاهدة تجارية جددت فيما بعد مرات عديدة .
 وانطلاقاً من بداية القرن التاسع دل البنادقة على نشاط اقتصادي كبير في
 شمال ايطاليا واهتموا خاصة بتجارة الملح . وفي العصر نفسه كانت مدينة
 كوماكشيو منافساً خيفاً لهم وكان سكانها يصعدون نهو البو وروافده حتى
 بافيا مستوردين الملح من مودينا ، وكريمون وبولونيا وبلينانس وبافيا ،
 ويجدون في سهل البونشاطاً تجارياً . وفي آخر القرن التاسع دمرت البندقية
 كوماكشيو وأصبحت وحدها نقطة اتصال اقتصادي هام بين ايطاليا
 والشرق .

وعلى نقيض الفريز والبندقية ، اللتين تؤلفان في القرن التاسع مركزين
 للتجارة العالمية مع الامبراطورية الكارولنجية ، بدت بروفانس وميناء
 مرسيليا المزدهرتين في الماضي ، في حالة تأخر اقتصادي . وبالرغم مما يفد

على مرسيليا من سفن ايطالية ، وما يلاحظ على طول الشاطئ الليغوري من نشاط تجاري ، فان الملاحة العربية اضعفت ملاحة اوربة في حوض المتوسط الغربي . وقد عبر عن هذا الانقطاع في العلاقات المديدة بين جنوب فرنسا وشواطئ افريقية وروسيا راهب دير القديس غال عندما ابدى عن اسفه إلى شارلومان بقوله ان هوة تفصل امبراطوريته عن امبراطورية البازيلوس البيزنطي .

كانت الطرق المائية والطرق الرومانية القديمة تؤمن سير المسافرين والبضائع عبر الامبراطورية . ولم ير في أي مكان أي رسم لطرق جديدة في هذا العصر . على أن الملاحظ هو أن السادة في بعض المناطق كانوا يحرصون على العناية بشبكة الطرق القديمة واعادة بناء بعض الجسور . فقد شيد جسر خشبي على الراين في ماينس في أول القرن التاسع . وفي بولون رفع شارلومان المنار القديم من الاطلال . وكانت شعاب الجبال مون سوني ، سبتيمر ، القديس برنار الكبير سالكة ومطروقة ، بينما كانت الطرق المؤدية من ايطاليا إلى بروفانس مهجورة تقريباً .

الصناعة . — لم يعرف العصر الكارولنجي صناعة كبرى . فقد كان الأمير في كل دومين يشغل الفلاحين بمن يلمون بشيء من المعرفة المسلكية في تحويل بعض المنتجات الزراعية ، أو نسج الأقمشة أو صنع الادوات الابتدائية . ولم يكن هؤلاء الصناع كثراً أو مختصين ونذكر على سبيل المثال : الحداد والنجار وصانع الأسلحة والدروع والبناء والحياط وغيرهم .

ويجدر بنا أن نذكر أن صناعة النسيج في منطقة الفلاندر والفريز تلتج أقمشة مشهورة ناعمة ولها مكانة هامة نسبياً في التجارة العالمية . وكان التجار الفريزون ينقلونها ويتاجرون بها في البلاد البعيدة ، وبفضلها

نهضت صناعة الفلاندر في القرون التالية نهوضاً عظيماً ، وغدت هذه المنطقة منذ القرن التاسع في عداد المناطق المنتجة للأقمشة .

وكان معظم الصناع من الفلاحين الذين يجمعون بين الزراعة والصناعة . وإلى جانب هذه اليد العاملة غير الاختصاصية وجد عمال عرفوا بمهارتهم الفنية ويفوقون الفلاحين بأعمالهم . وكان لدى الكنائس والابويات مهندسون معماريون وصياغ يعملون في تزيين الأبنية الدينية وتجميلها ، وكان أكثرهم اكليركيين . وكان بين هؤلاء الصناع المهرة رجال أحرار يقيمون في المدن وآخرون طوافون يجوبون أنحاء الامبراطورية ، وأشهرهم بناؤوكوم . وليس بالمستحيل أن نجد في إيطاليا ، في رافينه وروما ، في القرن التاسع ، تجمعات أصناف مهنية يعود تشكّلها إلى عهد الامبراطورية الدنيا . وكان الحدادون والصياغ يتمتعون ببعض الامتيازات ولهم أوضاع خاصة .

وكانت الصناعات الفاخرة تخصص منتجاتها للعبادة والعالم الاكليركي كصناعة الصلبان والصينيات وحقات القربان والثريات والصناديق الذهبية والفضية والنحاسية لحفظ الخلفات ، والنواقيس ، وتجليد الكتب ، والزجاج الفاخر . وكان عدد هؤلاء الفنانين قليلاً ويبحث عنهم في كل مكان .

وكان هؤلاء الصناع المهرة يصنعون الألبسة الثمينة والأسلحة الفاخرة لكبار الأمراء العلمانيين . وكان للحديد دور أساسي في تسليح الجيوش . وفيما عدا إنشاء بعض الكنائس والقصر الامبراطوري في ايكس - لا - شابل لم يكن للعصر الكارولنجي كبير نشاط في البناء . فمن حين لآخر يبني جسر أو يصلح آخر ، أو قنطرة أو بناية عامة . وكانت الملوك يتدخلون في بعض الأحيان لحسن سير الأعمال . ويأخذ الأساقفة

والآباء وكبار العلمانيين على عاتقهم القيام بالمبادأة . وكان النشاط واضحاً في نطاق بناء الحصون والأسوار بسبب الغارات النورماندية ابتداء من منتصف القرن التاسع . وكانت هذه الأبنية بدائية ، والحواجز والتصوينات والدوك المبنية بالحشب والتراب أكثر من الأسوار الحجرية .

النقد . — لقد حدث في القرن الثامن حادث هام من الوجهة الاقتصادية وهو حلول العيار الفضي محل العيار الذهبي بسبب فقدان المعدن الأصفر الذي امتصه الشرق . أما الإصلاح النقدي الذي بدأ به بين القصير فقد انتهى في عهد شارلومان . وبعد كانت السو حتى ذلك الحين عملة ممتازة ، أصبحت عملة حساب كالليرة وأصبحت العملة الحقيقية منذ الان الدينار الفضي ووزنه القانوني ٢٦٠٤ غرام . وفي عهد بين كان كل ٢٦٤ دينار يساوي ليرة . وفي عهد شارلومان وصل هذا الرّم إلى ٢٤٠ . وكانت الليرة النقدية تساوي ٢٠ سو ، والسو ١٢ دينار . وقد ذاع نظام النقد الكارولنجي في جرمانيا دون أن يزيل الأنظمة النقدية السابقة له . ويلاحظ من جهة أخرى ، أن العملة البيزنطية في وادي الدانوب ، والعملة الانغلو — ساكسونية والاسكندنافية في شمال جرمانيا . ولا شك في أن الأعمال التجارية توضح هذا التخلخل النقدي الأجنبي .

وكان ضرب النقد الكارولنجي وحيد المعدن . ومع ذلك فقد ضربت بصورة استثنائية بعض النقود الذهبية باسم شارلومان ولويس التقي ، وأصلها من الفريز وكانتوفيك واويزيس (في جنوب فرنسا) حيث بقيت جزئياً ذكرى السك الفيزيغوطي وحيث كان اليهود يشخصون إلى اسبانيا لينافسوا فيها الذهب العربي . وأخيراً عرفت ايطاليا السك الذهبي خلال فترة أطول مما في فرنسا . وكان مشغل لوقا يصدر بعد ٧٧٤ ثلثي

نقود السو الذهبية باسم شارلومان على نمط نقود ديديه ملك اللومباردين كما ظلت النقود الذهبية تضرب أيضاً في بينيفن في القرن التاسع .

وحتى الثلث الثالث من القرن التاسع كانت العملة الكارولنجية عملة ملكية يظهر عليها اسم الملك لا اسم الضارب . وعمل الملوك الكارولنجيون ما في وسعهم ليقبّل الجمهور بالعملة . فكانوا يسهرون خاصة على صحة وزنها ومحاولون ، ولكن دون جدوى ، ألا تضرب الدنانير إلا في المشاغل الرسمية . ولقد حدد موسوم بيترو الصادر في ٨٦٤ تسعة مشاغل في فرانسيا الغربية لضرب النقود . ومع هذا نرى في آخر عهد شارل الأصلع عدداً عظيماً من النقد ضربه الكونتات والكنائس لصالحهم ، ولكن بعد أن حصلوا على امتيازهم من الملك ليؤمنوا تداوله . غير أن تجميد النماذج النقدية وتوضعها بسبب اغتصاب العملة أصبحت أمراً شائعاً ابتداءً من القرن العاشر .

وكان الدفع عيناً منتشراً ويؤدي الفلاحون الضرائب المتوجبة عليهم من منتجات الأرض والتربية الحيوانية . وكان ينص في عقود البيع على الثمن بخير أو حيوانات أو ألبسة أو أسلحة وغيرها . وعندما يراد دفع مبلغ هام كان الدفع معدناً ذهبياً أو فضياً موزوناً .

الحياة الفكرية

النهضة الكارولنجية . - لقد تمثلت الحياة الفكرية في العصر الكارولنجي بالنهضة ، وهذه النهضة ، من حيث المبدأ ، كانت تجديداً في تعليم الاكليروس ، لأن الحالة البائسة التي تردت اليها ثقافة الاكليركين دفعت شارلومان إلى القيام باصلاح فكري كبير . وتدل البراءات التي

أصدرها في هذا السبيل على القلق الذي ساور الامبراطور . كانت النهضة الكارولنجية قبل كل شيء ، وفي أساسها اصلاحاً مدرسياً لصالح الأطفال المخصصين للاكليروس . فقد أمر شارلومان ان تؤسس المدارس للأطفال المربين في الأديرة لتعليم القراءة والكتابة ومبادئ اللاتينية وبعض شروح اجمالية للكتاب المقدس والكتب الليتورجية . وكان هذا التنظيم المدرسي الديري أساساً لكل شيء . وحافظت المدارس الأسقفية التي ظهرت في الامبراطورية في تور ، سانس ، ليون ، تريف ، ماينس ، فورمز وغيرها على هذا الطابع العملي في تعليم النحو والبلاغة والجدل ؛ وتعليم الحساب والهندسة والفلك والموسيقى ، وبكلمة مختصرة الفنون الحرة . وهذا ما يسمى الثالث و الرابع . وكان الاساتذة يرجعون في تعليم هذه العلوم إلى مؤلفات الآباء مثل بيد ، ايزيدور ، كاسيودور ، أو شيشيرون ، بريسبان ، دونات .

ثم أصبحت هذه المدارس الأسقفية مراكز فلسفية نظرية عالية ، ولكنها في أصلها مدارس تعليمية بسيطة دون أصالة ، غير أنها جديرة ومتعلقة بالتقليد . وقد استطاع شارلومان ، باعطاء هذه المدارس أساساً مدرسياً تقليدياً ، وفي متناول الجميع دون تمييز طبقة اجتماعية ، أن يؤمن مستقبل هذا التجديد الفكري كله .

وكان الكونت أكبر أعوان شارلومان . وهو انغلو - ساكسوني أتى إلى غاليا بدعوة من الملك الفرنجي عام ٧٨٢ . وفي ٧٩٦ قصد دير القديس مارتن في تور واستقر فيه ابتداءً من ٨٠١ ، ومات عام ٨٠٤ . ولم يكن مبدعاً ، بل ناقلاً جماعاً . ولكنه في هذا الدور من النهضة الكارولنجية كان يساوي أكثر من عبقرية ظلت منعزلة . وقد حفظ

عدد من مؤلفاته ، ومنها نستشف اهتمامه باعطاء المدارس كتباً مدرسية يدوية ، وانقاذ القسم الأكبر من ثقافة العصر القديم الفكرية من النسيان .

وكان بطرس بيزا (المتوفى قبل ٧٩٩) وبول دياكو مساعدين ثمينين للملك . ولقد أتى شارلومان ببطرس بيزا إلى غاليا بعد انتصاره على ديديه ، ملك اللومباردين ، وكان بطرس نحويًا . وكان بول دياكو نحويًا ومؤرخًا عرف الأوساط الكارولنجية بالتاريخ الروماني وتاريخ اللومباردين وعلم في ميتر وألف تاريخاً لأساقفة هذه الابريشية . غير أن تيودولف اورلثان كان أعظم رجل في هذا العصر وأكثر معرفة بحاجات زمانه . أصله من اسبانيا ، دعي إلى بلاط شارلومان عام ٧٨١ ، ورسم اسقف اورلثان في ٧٨٦ وتوفي عام ٨٢١ . نظم مدارس عديدة في ابرشيته : مدرسة الصليب الأقدس ، والقديس اينسيان ، والقديس بندكت ، والقديس ليفار . ولم تكن هذه المدارس خاصة بمن يعدون للحياة الدينية ، بل مفتوحة لكل من يريد الاختلاف اليها . وذهب إلى أبعد من ذلك ، فقد طلب إلى كهان الأرياف أن يكون لديهم مدارس مجانية للأطفال في القرى الأميرية (الفيليات) أو الحرة . وامتد هذا التعليم إلى الوعظ والارشاد . وكان الرعاية لا يألون جهداً في توجيهه إلى المؤمنين كل يوم أحد .

وبما يلفت النظر أن هؤلاء الأعوان كانوا أجانب عن غاليا . فقد جاء الكون من انكلترا ، وديكويل وكليمان من ايرلنده ، وتيودولف من اسبانيا ، وبطرس من بيزا ، وبول دياكروبولن اكيليه من ايطاليا . وعلى الرغم من أن حضارة غاليا قد تدنت في آخر الدور الميروفنجي وبداية العصر الكارولنجي ، فلم تكن عموماً أدنى من حضارة السلاو

المجاورة ، ولا يفهم باديء بدء أن هذا اللجوء الى الاجانب وحدهم كان لتنقية لغة النصوص وكتابتها ، وبخاصة النصوص المقدسة . لقد تطورت اللاتينية بصورة عجيبة منذ نهاية الامبراطورية الرومانية . وكان الناس المتعلمون ، وحتى الاكليروس ، يلفظونها كجماهير الشعب ويكتبونها كما يلفظونها . وإذا اضيف إلى ذلك أن الإعراب والتصريف كانا في حالة خراب ، وإن جرس الشدة حل محل الجرس الموسيقي ، أمكننا أن نوضح أن فهم الكتابات القديمة من مقدسة وديوية لم يكن في المتناول دون دراسة طويلة وشاقة ، وأن مربي غالبا لم يكونوا قادرين على فهم اللاتينية بحق ، وعلى عمل التجديد المنشود . ولذا كان الأساتذة الأقحاح في النحو والاملاء والفكر من سكان الجزر . فقد حافظت الأديرة في بريطانيا العظمى وايرلندة على كتابة اللاتينية ولفظها نقية . واستطاع هؤلاء العلماء أن ينجحوا في اصلاحهم اللفظ والكتابة وفهم الطرق القديمة . ولكن الهوة وجدت بين اللاتينية الصحيحة واللاتينية المتكلم بها وأصبحت اللاتينية لغة ميتة ولا يفهمها الشعب حتى إن المجامع سمحت بالتبشير باللغة العامية ، اللغة الرومانسية ، لغة غاليا وايطاليا واسبانيا . وهذه اللغة ليست اللاتينية بالمعنى الكلاسيكي القديم .

ومن مدرسة القصر ودير القديس مارتن ، حيث استقر الكون ، شع الاصلاح ، ونقل رابان ، تلميذ الكون ، طريقه إلى فرنسا الشرقية ، إلى فولدا ، وكون بدوره تلاميذ آخرين . وأصبح لكل كاتدرائية مدرسة . وكانت الأديرة مراكز المعرفة . وبما يلتفت النظر أن الاكليروس الأعلى رجا لويس التقي عام ٨٢٩ تأسيس ثلاث مدارس عامة ، حامعات امبراطورية ، ولكن هذه الامنية لم تتحقق .

وكان من الضروري ، للقيام بالدراسات ، وجود وسائل عمل أي نسخ

من الكتاب المقدس وكتب ليتورجية ونصوص من آباء الكنيسة مع ما يلحق بها من مؤلفات الكلاسيكيين اللاتين . وكانت ايكس - لا - شابل ، تور ، ليون ، القديس دوفي ، اورلثان ، رنس ، كوربي ، ميتز ، القديس جرمن دوبريه ، فولدا ، كولونيا ، مراكز هامة للنسخ .

وأخذ نوع الكتابة في هذا العصر اسم « الكتابة الكارولنجية » وهي كتابة مستديرة تختلف بوضوحها وبساطتها عن الكتابة المشابكة في العصر الميروفنجي . وتوصلت أبحاث علماء الكتابات الأثرية إلى تعيين مراكز مختلفة لاصلاح الكتابة .

وكان الكثير من هذه المخطوطات مرفقاً بمنمنات وتزيينات ، وبعضها رائع جداً ، ونخص بالذكر « كتاب الاناجيل لجميع القداست » لشارلومان وهو من عمل غوتشالك في ايكس - لا - شابل ، وكتاب « المزامير » الذي أعطاه شارلومان إلى البابا هادريان الاول .

تطوّر النهضة وفتحتها . - لقد تطورت النهضة في عهد لويس التقي ومن الممكن من الوجهة البديعية الجمالية ، أن يقال انها نشأت ، لان اهتمام الكون كان دينياً فقط ، ويخشى بل يكره الادب الديني القديم من أعماقه . كما يمكن القول ان النهضة أصبحت انسانية وصارت الآداب تدرس لذاتها .

وتتمثل سبب هذه النهضة الثانية بالفكر الموسوعي ، والانساني ، والجدلي . فقد كان الفكر الموسوعي يتمثل في رابان موو ، وكان أعظم وجوه هذا العصر . فقد ولد في ماينس عام ٧٨٤ ودرس على يد الكون في تور ثم أصبح أب دير فولدا . ثم اسقف ماينس وتوفي في ٤ شباط ٨٥٦ . أتم برنامج استاذة ، وكتب عدة كتب مدرسية بفكر

الملاحظة والحس المشخص اللذين لا نجدهما عند الكون . وكان رابان مور أول الموسوعيين ، ونراه في القرن التاسع يذكرنا بأحد أبناء وطنه في القرن الثالث عشر وهو البير الكبير . لقد جعل الكتاب المقدس ، النحو ، الحساب ، الموسيقى ، الليتورجية في متناول الجميع . وبالإضافة إلى ذلك كان يلاحظ الطبيعة ويتأمل في الكون ، وهذا مظهر جديد من مظاهر النهضة الكارولنجية .

وكان الفكر الانساني يتمثل في لوب فويير ، ويذكرنا في القرن التاسع بجان سالزبوري في القرن الثاني عشر . ونراه في مراسلاته يبحث عن مخطوطات الشعراء والبلغاء وفلاسفة العصور القديمة . وقد نسخ بنفسه هذه الآثار ، وكون لنفسه أجمل مجموعة تضم المؤلفين القدامى مثل : سالوست ، سويتون ، اوريليوس ، فيكتور ، سنك . فالير مكسيم ، وحاول أن يحرر مراسلاته بريشة شيشيرونية .

أما الجدل فقد تمثل في أغوبارد تلميذ رئيس اساقفة ليون ليدراد وخلفه من ٨١٦ إلى ٨٤٠ . وكان مزاجاً جديلاً عنيفاً . قضى حياته في كفاح المفاسد ، والأباطيل الشعبية ، والايمان بالسحر ، وعبادة الصور ، واغتصاب أموال الكنيسة ، والمبارزة القضائية واختلاف القوانين العصرية ، وعرف بكرهه لليهود ووقاحتهم . وكان مرأً منهكماً في جدله اللاهوتي والليتورجي ضد فيلكس اورجيل ، كما كان يكره جداً الامبراطور لويس التقي والامبراطورة حديث ويرى أن الاولاد كانوا على حق في الثورة على أبيهم غير الكفء الذي كان العوبة بيد حاشيته .

الأنواع الأدبية . - لقد كان الاهتمام منصرفاً في هذا العصر إلى الشعر المعروف دون اجمال الشعر الايقاعي . وكان الشعراء الكارولنجيون

يستلمون الناذج القديمة مثل فيرجيل واوفيد وغيرهما ، والشعراء المسيحيين مثل برونانس .

نظم جوزيف الايرلندي المتوفى حوالي ٧٩١ قصائد تقية ، ولكن الشعر العظيم كان في تمجيد انتصار شارلومان على تاسيلون بافاريا عام ٧٨٧ الموقع باسم مؤلفه « الايرلندي المنفي » وهو دونغال الذي نشأ وتربى في دير القديس - دوني .

والاسباني تيؤدولف (المتوفى في ٨٢١) وكان أمهر شعراء عصره . كتب في ٦ كتب مقطوعات دينية وأخلاقية .

وكان للفرنجة شعراؤهم مثل : انجيلير (المتوفى عام ٨١٤) . وهو أب علماني في دير القديس ريكيه ، تغنى بالملك وأبنائه وبناته . وكان محباً لاحداهن ، بيوته . ولقب بهوميروس في أوساط البلاط الثقافية . وغنى مودوان ، اسقف اوتز حوالي ٨٤٠ ، سعادة العالم في ظل حكم شارل في حوار على طراز قصائد فيرجيل الريفية . وكان لقبه الشعري نازو أي اوفيد .

ومن شعراء البلاط اومولد الأسود الاكيتاني (المتوفى بعد ٨٣٨) . مجد أحداث لويس التقي السامية وابنه بين في أشعار تحالطها نسمة الملحمة في الفينة بعد الفينة ، ولكن الذي يفسدها هو المبالغة واساءة استعمال الميثولوجيا .

وفالافريد السوائي ، ولقبه سترابو (المتوفى عام ٨٤٩) تثقف في الياانيا في دير راينخاو (في جزيرة في بحيرة كونستانس) ثم في فولدا . وسمي مريئاً للشاب شارل بحماية هيلدون عام ٨١٩ . مجد الأسرة الامبراطورية في أشعاره « على تمثال تيؤدوريك » . ونراه في « رؤيا الجحيم » يهبو

الاخلاق والطباع ، ولا يوفر حتى شارلومان بسبب شبقه ، ولكنه يفقديه أخيراً . و « حياة القديس ماميس » تصف بسذاجة وسحر الطفل الناسك يبشر بالانجيل حيوانات الغاب . وأخذ وصفه لحديقة ابوته القديمة بمجامع قلوب اداء عصر النهضة فنشروها عدة نشرات . وكانت فالافريد وحيد عصره بهذا الانطباع الندي الغض الذي نلمسه في شعره بالنسبة إلى معاصريه من الشعراء الذين لا يقدمون إلا أزهاراً من ورق .

وهناك موضوعات أقل دنيوية تستهوي المثقفين . فقد فسر فلوروس ليون (م . حوالي ٨٦٠) الانجيل والمزامير وبكى تفتت الامبراطورية . ومجد غوتشالك الراهب الساكسوني (م . حوالي ٨٦٦) ، الذي اضطهد نظرياته في الجبرية ، تقواه في أشعار مؤثرة على شرف السيد المسيح .

ونظمت شعراً سير بعض القديسين على يد : هيريك في سيرة القديس جرمن ، وميلون في سيرة القديس آمان ، وهو كبالد في سيرة ركتورود . ولكن هذا الأخير كان يتسلى أيضاً في « مدح الصلع » .

وفي آخر القرن مجد آبون راهب دير القديس جرمن دوبريه مقاومة الباريسيين للنورماندين عام (٨٨٥ - ٨٨٦) في قصيدته « الباريسية الحسناء » ولغتها غامضة ومصحوبة بتفسيرات وشروح .

وفي لوتيرانجيا اهدى الايرلندي سيدوليوس (م ٨٥٨) مقطوعات إلى الامبراطورة ارمنغارد والملكين شارل ولويس الجرمانى ، وإلى اساقفة لياج وكولونيا . وفاندالبيرت أب بروم (م ٨٤٨) نظم حياة الشهداء شعراً .

وفي جرمانيا كتب آجيوس أب كورفيه ترجمة حياة هاتومود رئيسة دير غاندرشيم ، وقيمتها ضعيفة . وهناك راهب آخر من كورفيه

مازال مجهولاً ، الف بين ٨٨٨ و ٨٩١ تاريخاً في مدح شارلومان بنظم الحوليات الرسمية شعراً .

ووصف سالومون الثالث أب دير القديس غال واسقف كونستانس (٨٩٠ - ٩٢٠) ، في رسالتين منظومتين حالة المانيا الفضيعة التي مزقتها المنازعات الداخلية ، وهاجها الهونغاريون وحكمها لويس الطفل آخر الكارولنجيين في الشرق .

التاريخ : - لقد اهتم الكارولنجيون بتاريخهم الخاص وأرادوا أن تراث الأجيال التي تخلفهم على ضوء ملامح . فقد كتب تاريخ امارة شارل مارتل وبين القصير بايحاء من أخ شارل الخاص هيلدوبراند وابن هذا نيفيلون بشكل تكمة لتاريخ فريديغير حتى السنة ٧٦٨ .

وابتداءً من هذا التاريخ تعرف الحوادث من « الحوليات الرسمية » التي كان يحررها اكليركيو كنيسة البالاتن . وكانوا يجمعون في اطار كل سنة الأحداث التي تبدو لهم اكثر نفعا من غيرها دون أن يبحثوا عن ايضاح أهميتها . وكانت لغة هذه الحوليات فقيرة رفلاء حتى شعر ، في القرن التاسع ، بحاجة الى إعادة تحريرها حتى السنة ٨٠١ . وقد نسب هذا العمل الجديد دون مبرر مقنع الى ايجنهارد أمين سر شارلومان ومتوهم حياته . وتقف هذه اطوليات عند السنة ٨٢٩ . غير أن التمزق الذي اعترى الامبراطورية قطع هذا العمل . ولم يعرف المحررون أي وجهة يتجهون ، وفي أي صف يكونون . ثم اكملت هذه الحوليات من جانبين : من فرنسا الشرقية التي أصبحت فيما بعد المانيا ، ومن فرنسا الغربية . ففي المملكة الاولى امتدت الحوليات حتى السنة ٨٨٧ وحررت من قبل مؤلفين مختلفين ، وبخاصة مؤلفين من دير فولدا . ومن هنا أخذت هذه

الحوليات اسم « حوليات فولدا » . وهي موالية بكاملها الى ملوك جرمانيا . وفي الغرب تابع مجهول سرد الحوادث حتى السنة ٨٣٥ ثم انما برودانس اسقف تروا حتى سنة ٨٦١ ومن بعده هنكار مطران رنس حتى وفاته سنة ٨٨٢ . وقد بدل هذا المحرر طبيعتها وجعل منها يوميات شخصية عرض فيها افكاره ، ومجد فيها شكواه واحقاده ، وعند الحاجة ، ضد الملك . وقد وجدت اقدم مخطوطة لها في دير القديس برتن ، وجرت العادة على تسميتها « الحوليات البرتنية » .

التراجم . - أما سير الملوك الحاكمين فكانت نوعاً آخر . وقد أعطى ايجنارد نموذج هذه السير في كتابه « سيرة شارلومان » التي ألفها بعد وفاة الامبراطور . وتعتبر من حيث الاسلوب رائعة من روائع النهضة الكارولنجية . ويبدو فيها أن الشكل والمخطط مستوحيات من المؤرخ اللاتيني سويتون . ومن الممكن أن يتساءل ما إذا كان هذا التقليد يضعف قيمة الجوهر أو يلغيه تقريباً .

ولا يوضع هذا التساؤل بشأن « أعمال الامبراطور شارلومان » ، الذي ألفه نوكر الألكن راهب دير القديس غال في آخر العصر . وهو كتاب مغرض ، والقصص التي ينقلها ليس لها طابع شعبي .

وكان لويس التقي بطل مؤلفين نشرنا بعد وفاته : الأول ألفه تيغان نائب اسقف تريف ؛ والثاني ألفه مجهول اتفق على تسميته بالفلكي بسبب الأهمية التي يعلقها على الحوادث السماوية . وهذان المؤلفان يعارضان ويردان على الأحكام البغيضة التي حمل بها على الامبراطور لويس التقي . أما الملوك الآخرون فلم يكن لهم تراجم . ييـد أن حكم شارل الأصلم كان موضع اهتمام التاريخ . فقد ألف نيشار ابن عمه انجليبرت بناءً على طلبه كتاب « تاريخ أبناء لويس التقي » باللاتينية معتمداً في

ذلك على مذكرات شخصية ووثائق رسمية . وفيه يصف الحوادث التي اشترك بها من ٨٤٠ حتى ٢٠ آذار ٨٤٣ ، غير أن موته المفاجيء في العام ٨٤٤ في خدمة الملك الشاب شارل حال دون متابعة كتابة هذا الأثر التاريخي لهذا العصر .

لقد كان نيتار أميراً من أمراء الكارولنجيين ، شغل عدة مناصب مدنية وعسكرية ، وكان متعمقاً بدراسة الآداب المقدسة ومنتقفاً ثقافة عالية . وبالرغم من انه نصب رئيساً لأحد الأديرة إلا أنه كان علمانياً يكتب باللاتينية . وفي ذلك دليل على أن الثقافة لم تكن وقفاً على رجال الدين .

يضاف إلى ذلك المؤرخ اللاتيني بول دياكر ، وهو نبيل لومباردي تثقف ثقافة عالية وعقد صلات مع البيت الملكي اللومباردي ، وعمل مريباً لابنة الملك ديديه اللومباردي وألف لها قبل ٧٧٤ ، « ملحق التاريخ الروماني » مؤلفه ايتروب . وقد قربه ديديه وأطلعته على أسرار كثيرة من أمور الدولة . ومنذ ٧٨٧ أقام بول دياكر حتى وفاته في دير مونكاسينو وأطلق العنان لنشاطه الأدبي . وأعظم ثمة لهذا الجهد هو كتاب « تاريخ اللومباردين » الذي ذهب به من الاصول الاسطورية حتى ٧٤٤ . وقد لاقى هذا الكتاب نجاحاً عظيماً . وفيه يظهر حياد المؤرخ بأسلوب مفعم بالحركة والحياة .

كتب السياسة . - لقد رأى رجال الكنيسة من واجبه أن يسدوا النصح إلى الامراء . فمن ذلك أن سماراغندوس ، أب دير القديس مييل ، المتوفى سنة ٨٣٠ ، ألف لشارلومان كتاباً أسماه « الطريق الملكي » ، وجونايس اورلثان وجه في ٨٣١ كتابه « النظام الملكي » إلى بين اكيثانيا الاول ، وسيدوليوس كتابه « العمداؤ

المسيحيون « إلى لوثير الثاني ؛ وهنكار كتابه « الشخص الملكي ومهنة الملك » إلى شارل الأصلع .

وهذه الكتب التي سميت فيما بعد « موايا الأموال » مخيبة للغاية وليس فيها ظل لفكرة سياسية ، بل هي مواعظ رخيصة مبتذلة وحض تافه للفرار من الذنب ودعوة لممارسة العدل .

تاريخ الاسقفيات والأديرة . - وبدأت الاسقفيات والاديرة تنحو منحى تراجم البابويات المعروفة باسم « سير الأحياء » ، وتكتب تاريخها الخاص معتمدة في ذلك على حياة القديسين الحقيقيين جهد المستطاع ، وعلى حويلات صغرى محلية ، وعلى صكوك منسوخة غالباً ، وأخيراً على ذكريات وملاحظات .

سير القديسين . - لقد قل في هذا العصر عدد الشخصيات التي يقدسها الرأي ، على حين أننا لا نجد في العصر الميروفنجي اسقفاً أو أباً إلا واشتهر بأنه قديس بعد موته . فقد عرف ما لا يقل عن ٣٥٠ سعيداً في غاليا وجرمانيا بعد اعوام ٤٨١ و ٧٥١ بينما لا نجد سوى خمسين قديساً جديداً بين أعوام ٧٥١ و ١٠٠٠ . ومع ذلك فلم يفتقر التأليف في سير القديسين .

ولم توضع لكل قديس سيرة ، بل ان عدداً عظيماً من سير القديسين التي كانت معروفة في العصر الميروفنجي اعيدت كتابتها من جديد لتتفق مع روح العصر وذوقه . وقد شذب اسلوب هذه السير حتى أفسد الجوهر . وخطر من ذلك ان الكتاب كانوا يؤلفون سيراً للقديسين على انماط معروفة وحسب سير بعض شخصيات من العصر الروماني لم يبق منهم سوى اسمهم لتعلق الناس بهم في بعض الأماكن وجلبهم حياتهم .

وهناك نوع آخر من سير القديسين مما نمواً عظيماً وهو نقل رفاة

القديس أو خلفائه بسبب الغزو النورماندي وما نجم عنه من نكبات . فقد كتب عدد كبير من هذه السير وذكر فيها اغتراب رجال الدين وهم ينقلون وفاة القديس الى ضريحه ثم لا يلبثون ان يعيدوها حيث كانت وحياناً يعادون الكرة ويفروث . وقصة هذه التنقلات والاسفار مصحوبة بالحوار والكرامات مثل سير القديسين : دوني ، جرمان ، واسط ، فيليبر ، فاندرييل . وكلها تتضمن معلومات وفيرة من كل نوع . ويبدو أن القديسين من أبناء البلاد ما كانوا ليشبعوا رغبة التقوى والورع في نفوس المؤمنين ، بل كثيراً ما كان يبحث عن نقل بقايا القديسين من أماكن بعيدة للتبارك بها ودفع الأذى . ويبدو ان دير القديس - دوني كان مركزاً لهذا الاتجاه الجديد في تأليف سير القديسين .

اللاهوت والفلاسفة . - لقد كان جان سكوت* الايرلندي في المقام الاول بين رجال التجديد الفكري في القرن التاسع . ولد في ايرلنده وجاء الى بلاط شارل الأضلع قبل ٨٤٥ . وبين ٨٦٠ و ٨٦٦ اعاد النظر في ترجمة دونيس التي وضعها هيلدون . وستستعمل هذه الترجمة المنقحة خلال العصر الوسيط كله ، حتى بعد ترجمة جان سارازن وروبير غروستيت . وبعد ذلك بقليل أي بين ٨٦٢ و ٨٦٦ الف جان مؤلفه العظيم « اقسام الطبيعة » . ووضعه بشكل حوار بين الأستاذ والتلميذ على نمط كتاب « طيباوس » لافلاطون . ولأول مرة يطالب فيلسوف بحق العقل بقوة . ولأول مرة في هذه النهضة الكارولنجية نجد رجالاً يفكر بنفسه . فهو يتصور الطبيعة بأربعة مظاهر : الطبيعة الخالقة وغير المخلوقة ؛ الطبيعة المخلوقة التي تخلق بدورها ؛ الطبيعة المخلوقة التي لا تخلق ؛ الطبيعة التي لا تخلق وهي غير مخلوقة . وهذا الكتاب يضم مجموع المذاهب الأساسية للافلاطونية الحديثة التي وصلت اليه بطريق دوبيس ومكسيم المبشر ، وغريغوار دونيس والقديس اغسطينوس .

وسيدخل كتاب « اقسام الطبيعة » عنصراً أساسياً في فلسفة العصر الوسيط حتى نهضة القرن الخامس عشر .

مناقشات في سر القربان المقدس . — لقد قام في عهد شارل الاصلع جدل في طريقة حضور جسد ودم المسيح في الافخارستيا . ففي ٨٢٣ تناول آمالير هذه القضية في « الوظائف الكنسية » وقبل بالحضور الحقيقي ، ولكن دون ان يقدر على ايضاح طريقة هذا الحضور ، ولم يعرف كيف يميز جسد المسيح بن مريم والجسد القرباني والجسد الصوفي المتمثل بالكنيسة . وشجبه فلوروس ليون عام ٨٣٨ في مجمع كيرسي . واول لاهوتي اقترح في هذه النقطة الصعبة مذهباً متجانساً ومنظماً هو باشاز رادبير في كوربيه . فقد حلل طريقة الحضور الحقيقي وقبل استحالة الحبز والخمر إلى جسد ودم المسيح وأصر على تطابق الجسد التاريخي للمسيح مع الجسد القرباني . وكانت تنقص باشاز المعرفة بما وراء الطبيعة ولكن اتجاهه صالح . ثم تناول القضية راترام جزئياً (٨٥١ - ٨٥٩) وحاول وضع تناقض بين وجود الجسد القرباني وعدم رؤيته . ورأى أنه لا يوجد تطابق بين هذ الجسد القرباني والجسد التاريخي . وفي الحقيقة كلت النزاع قائماً على الكلمات . ودافع رابان مورنفسه عن مذهب راترام . وتبناه مع شيء من الفروق الدقيقة فلوروس ليون وفالافريد سترابو وغوتشالك . ويبدو أن جان سكوت جنح إلى رأي هؤلاء اللاهوتيين ، بينما دافع هنكمار رنس دفاعاً مرأ عن مذهب باشاز .

الجبورية . — وكان النزاع في الجبورية اعنف المنازعات في القرن التاسع . فقد أوقع مفكري العصر في تناسخ مع بعضهم . فحوالي العام ٨٤٨ دعم الراهب غوتشالك فكرة وجود قدر مزدوج غير قابل للتبديل

والتحويل : قدر للصالحين وآخر للاشقياء ، فقدم هذا المذهب هنكار
ومن الممكن القول ، دون الدخول في تفصيل المناقشة ، ان برودانس
تروا ، رابان مور ، راترام ، لوب فيريير كانوا في جانب غوتشالك
في القسم الجوهري من مذهبه . ودخل ايريجين في النقاش وصرح بأن
العقل سلطة كافية للفصل في هذه القضية . وبوجب العقل لا يمكن أن
يوجد قدر مزدوج . وهل يمكن الكلام عن جبرية ؟ وهل يمكن الكلام عن
جهنم ان لم تكن شكلاً أو حالة من حالات الوجدان ؟ وكتب فلوروس
ليون عقب هذه التصريحات مؤلفاً عن حماقة جان سكوت ايريجين وعذر غوتشالك
على خرفة ، ولام استعلاء هنكار وقساوته وازعاجه للجميع . وأخيراً
بقي كل واحد منهم على مواقعه . ولأول مرة في الغرب ، منذ القرن
الخامس ، تناقش قضايا هامة في اللاهوت بطريقة عقلانية .

اسهام الاغريق في النهضة الكارولنجية . — كان الايرلنديون كثراً
في بلاط ملوك الفرنجة منذ شارلومان . ومن الحطل المبالغة بتأثيرهم حتى
في عهد شارل الأصغر . ومعظمهم مثل جوزيف ، كليمان ، دونشاد ،
توماس ، ليسوا سوى نحويين وناظمي أشعار . لقد كانوا عمالاً طيبين ولكنهم لم
يكونوا فنانيين ، ولم يكن لهم أثر عميق في معاصريهم ، وهم يتدخلون في
الاصلاح دون ان يكونوا له مؤلفين وعمالاً .

ولقد أراد بعضهم أن ينسب إلى القديس اغسطينوس قسطاً كبيراً
في صعود الاصلاح الكارولنجي . بيد اننا نعتقد أن هذا التأثير ظل محدوداً
وقاصراً على بعض قضايا اللاهوت .

أما الأمر فيختلف بالنسبة للاغريق ، فهم موجودون وحاضرون في
جميع الافكار الصالحة ويرجع اليهم في اللاهوت ، والليتورجيا ، والكتاب
المقدس والنحو . ويراد ان تناقش القضايا التي ناقشوها بانفسهم . وازداد

نفوذهم تدريجياً . ففي ٧٥٤ . برك البابا ايتين الثاني بين القصر في أبوية القديس - دوني . واعترافاً بهذا الحادث الرئيسي ارسل بول الأول ، اخو ايتين ، إلى بين القصر عام ٧٥٨ مخطوطات اغريقية لارسطو ودونيس . ورأى شارلومان باب للاغريق كنوزاً ادبية يمكن أن تغني الفكر الأوربي ، فتعلم لغتهم واستدعى بيزنطيين لتصحيح نص الأنجيل ، ومع ذلك فقد كان هذا الناس سريعاً بين الشرقيين والغربيين .

وفي ٨٢٧ أتى رسل الامبراطور ميشيل الألكن الى كومين بنسخة جديدة من مجموعة دونيس . ولترجمته استنجد هيلدون بالاغريق واعتمد على رهبان بيزنطيين مقيمين في روما في دير القديس ايتين والقديس سيلفستر . ونحتوا لغة لاهوتية وفلسفية ، وانتشر تأثير الاغريق في عهد لويس الثاني على ايدي اغريق اتوا من روما . وتبدلت الحال في عهد شارل الاصلح . فقد كان ايريجين يعرف الاغريقية بصورة كافية ويترجمها بنفسه دون مساعد . وترجم أيضاً غريغوار نيس وغريغوار نازيانس ومكسيم المعترف . وكان يعرف ابيفانوس الفلستيني (حوالي ٣١٥ - ٤١٣) شخصياً . ومن يدري ان كتاب « اقسام الطبيعة » ليس إلا تحضيراً اعده جان سكوت عن بعض المؤلفات الاغريقية .

ومن جهة اخرى وضعت لغة اغريقية - لاتينية عظيمة دلت على ارادة الغربيين في الدخول بتناس مباشر مع الفكر اليوناني . وعندما يلكون في العام ٨٧٥ ترجمة انسطاس ل « دروس مكسيم » يكون لديهم مجموعة مؤلفات اغريقية تؤثر حقاً في فكرهم .

ومهما يكن فان الواجب يقضي الانبالغ او نخط من قيمة النهضة الكارولنجية . ولا شك في أنه لم يخرج عنها مثقف كبير اوفنان كبير

او مفكر كبير ، باستثناء جان سكوت ، ولكن يجب أن نعترف بأنه لولا هذه النهضة لزال الأدب القديم والفكر القديم بشكلها الغربي بكاملها تقريباً ، لأن المؤلفات اللاتينية لم تحفظ لنا بغالبيتها الا بفضل المنشورات والنسخ التي حصل عليها خلال هذا الدور . ولو لم توجد الشعلة في عهد شارلومان لتكاثفت ظلمات الجهل ، ولما عرف كيف يمكن الخروج من البربرية . وما يبرهن على فضل هذه النهضة ، مها كانت ضئيلة وهزيلة ، هو انها اجتازت ازمة القرن العاشر ، وان المناطق التي لم تلامسها إلا بشكل ضعيف ، مثل جنوبي غاليا واسبانيا وايطاليا ، ظهرت في تدهور تام بالنسبة لبلاد « الفرنجة » ذاتها . وستكون هذه البلاد الممتدة من الوار الى الراين والجورا مركز الحياة الفكرية في اوروبا خلال قرون عديدة ، من آخر القرن الثامن إلى آخر القرن الثاني عشر .

الحياة الفنية

ان الانحطاط الفكري والفني ، الذي شهده آخر القرن السابع ، تدهور في بداية القرن الثامن ، فلا نكاد نرى سوى بعض مراكز حضارية عاشت فيها التقاليد القديمة كالآديرة الانغلوساكسونية واللومباردية والفيزيغوطية . ومن هذه المراكز أخذ شارلومان مستشاريه الانسانيين واحاط نفسه بهم ، وأسس بمساعدتهم مدارس ومشاغل للنساج والمنمنمين والمزخرفين ، ودعا الابويات الكبرى على ضفاف الراين والموز وشمال غاليا ووسطها وشمال ايطاليا وسويسرا ان تسير على منواله . وشجع الفنانين والمهندسين الممارين والرسميين والمنمنمين والنحاتين وصناع العاج والصابغ . ولم يكتف بنسخ مؤلفات آباء الكنيسة والمؤلفين القدامى ، بل أمر بجمع الآثار الفنية القديمة من البوونز والفخار والحزف والعاج والاقمشة والمخطوطات ذات المنمنات

وتراث الرومانين ، وما أتى به السوريون وتجار الشرق والاكليزيون المكلفون بجمع مخلفات القديسين والرهبان الحاجون إلى القدس والعائدون من مصر وفلسطين . واعطى من كل من هذه الآثار الفنية نماذج مختلفة يستلهم منها الفنانون . وقد اقترح اينهارد على ابنه أن يدرس المهندس المعمار الروماني فيتروف .

المباني الكارولنجية . - لقد بنى الامبراطور شارلومان واولاده واحفاده قصوراً مثل قصر ايكس وانغليم ، وشادوا حصوناً ، وساعدوا الابويات على بناء الكنائس والأديرة في غاليا وسويسرا وجرمانيا . ووجد فن رسمي أجراً من فن العصور السابقة يبشر من عدة وجوه بالفن الرومانسي ، ولكننا لانعرفه الا من الوصف والمنمنمات والرسوم وبقايا البناء وقطع التزيين ولوحات الجدران المحفوظة في بعض الابنية ، لان الحروب والثورات والحرائق وعمل العصور وتبدلات الذوق ازال كل شيء . وهناك بعض ابنية مازالت موجودة بتمامها وأخرى في اجزاء منها . وأهمها كنيسة شارلومان التي شادها بالقرب من قصره في ايكس - لا - شابل حيث كان يحب الاقامة . وق. بدىء ببنائها عام ٧٩٦ وباركها البابا ليون الثالث في ٦ كانون الثاني ٨٠٥ . وهي أثر من آثار المهندس المعمار اودميتز ، ودفن فيها شارلومان في ٢٨ كانون الثاني ٨١٤ .

وكانت الكنائس الكارولنجية ، التي بنيت في هذا العصر ، تنسخ تصميم الكنائس المسيحية الاولى ، وتقلد النماذج الشرقية التي تأثرت بها . وكانت هذه الكنائس تبنى عادة بالحجر المكسر بالمطرفة وتقام على المونة فوق بعضها وتجلل بالكس أو الحص ، وتضم عقوداً آزجية وحنايا مرتفعة تتجاوز ابعاد نصف قطر الدائرة . وكثيرا ما كانت هذه الكنائس تبنى بمواد الأبنية الغالية - الرومانية المهجورة أو المحربة وبخاصة الأعمدة وقواعدها

والتبحان ، وأحياناً أحجار الجدران. وكانت الافنية الداخلية تغطى بالاششاب، ثم عدل عنه في آخر القرن العاشر وبنيت العقود الآزجية . ونوافذها عريضة تعلوها اقواس بشكل نصف دائرة .

الرسم والفسيفساء . — لقد كانت الكنائس الميروفنجية تبنى بأحجار فقيرة وغشيمة ، وتزين برسوم جدرانية أو بالفسيفساء . ولم يكتف المخرفون بتمثيل الموضوعات الايرلندية الانغلوساكسونية والبربرية والاسلامية والزخارف المتواشجة ذات الترتيبات الطائشة والتزيينات المسلوبة التي أكثر منها الفن الميروفنجي ، بل حاولوا ان يرجعوا إلى الفن القديم الكلاسيكي ويمثلوا ، حسب التقاليد الاغريقية — الرومانية المثقلة بالتأثيرات الشرقية والبيزنطية ، مشاهد مأخوذة عن العهد القديم والجديد والتاريخ الديوي . بيد انه لم يبق من هذه المجموعات الكثيرة التي وصفها الشعراء والمؤرخون إلا الشيء القليل ، حتى ان الفسيفساء التي كانت شائعة في العصور السابقة لتغطية الارض وتزيين الجدران زالت بتمامها تقريباً .

وكانت الرسوم مطبوعة بطابع النهضة الكارولنجية الموسوعي . وكثير من رسوم الكنائس تأثرت بالفن الشرقي في سورية ومصر وبلاد الرافدين وكلها تدل على البحث عن الحركة والواقعية في المواقف والتهجير والملابس التي تختلف عن الطابع المقدس للفسيفساء الأخرى .

وفي رسوم المخطوطات نشاهد ، من جهة ، التقاليد الملنسية : كاتاليف الفخم العظيم ، والمواقف النبيلة وجمال الصور المثالي ؛ ومن جهة أخرى التقاليد السورية والشرقية : التركيب الجميل الفاتن والمواقف الطبيعية والبحث عن الحقيقة التاريخية والتفصيل الدقيق الواضح . وفي كلا الحالين نشاهد عودة إلى الزخارف التزيينية ذات الرسوم النباتية والحيوانية القديمة وظهور الوجه البشري من جديد .

فن الصياغة . - لقد نما فن الصباغة في العصر الكارولنجي نمواً عظيماً . فقد كثر عدد الأشياء الذهبية والفضية المزدانة بالصور والحلّة بالأحجار الثمينة في فرنسا ، إيطاليا ، بلجيكا ، انكلترا ، ألمانيا ، على المذابح والأضرحة وصناديق مخلفات القديسين والاكواب وحقق القربان المقدس والمنابر وصفائح التجليد وتمثال يسوع المصلوب وغيره من التماثيل الأخرى . ولكن أكثرها صهر في أوقات الفاقة والعوز ولم يبق لنا منها إلا النذر القليل .

البرونز . - وتدل النصوص على صهر المعدن وصناعة التماثيل من البرونز . فمن ذلك تمثال شارلومان وهو ممتط صهوة الجواد الذي أتى به من كاتدرائية ميتر وحفظ في متحف اللوفر في باريس . وكان في كل من روما واكس - لا - شابل وماينس والقديس - ريكيه مشاغل يصهر فيها الفنانون المعدن ويصنعون أبواباً ودربزينات وأعمدة ومصابيح .
العاج . - ظهر فن النحت بخاصة على العاج . فقد صنعت منحوتات عاجية قلدت العاج المسيحي والهلنستي والسوري والاسكندري . وتضمنت مشاهد دينية وذيوية وحفلات دينية وصلب السيد المسيح وصوراً رمزية عن كتاب المزامير ، والعهد القديم ، وسير القديسين ، والعذراء ، ورؤيا يوحنا المعمدان .

النحت على الحجر . - لم تحسن النهضة الكارولنجية النحت على الحجر ، ولم يعادل هذا النوع من النحت نحت العاج وقص البرونز وإنتاج الأوراق الذهبية والفضية . وجرت العادة أن تزين الأوابد بتباريز ونوافر داخلية في البناء تتضمن زخارف بشكل الحصر أو الأغصان المتواشجة المتشابكة وورداً وزخارف هندسية ما زالت نماذجها كثيرة في إيطاليا

وسويسرا وألمانيا وفرنسا وانكلترا . ولما تأتي هذه المنحوتات من تزيينات الأوابد ، بل من قطع الاثاث والحواجز وموائد المذابح .

على أن المنحوتات البارزة على الحجر ، التي احتفظ بها في الشرق وفي أرمينيا وجيورجيا ، عاشت أيضاً في الغرب في بعض الصلبان الفخمة الفاخرة في بريطانيا العظمى وإيرلنده السلتيين ، ولكنها تطورتا من القرن الخامس إلى القرن الحادي عشر بتأثير تيارات الفن الكبرى التي سيطرت في هذه المناطق كالثقافات السورية - المصرية التي ادخلت في القرن السابع ، وربما كان ذلك على يد الرهبان الأقباط الذين كانوا يقيمون في جنوب غاليا مثل دير ليون ؛ أو بطريق شمال انكلترا ، حيث يوجد بعض النماذج التي نقلت عن فن البحر المتوسط ؛ أو بتأثير فن الحلي الكارولنجي وفن الايقونات الشامي الممزوج بفن الايقونات المسيحي الذي يرجع تاريخه إلى القرن الثامن ؛ أو أخيراً بتأثير الصور الكارولنجية في القرن التاسع التي تمثل أفاعي تنغل على بعضها وزخارف متشابكة أخذها النحاتون الأيرلنديون ونسخوها في نقوش مدورة أو بيضوية وأدخلوا عليها شيئاً من عبقريتهم وأصالتهم .

إن هذه النهضة الفنية الكارولنجية ، التي تمثل العودة إلى القديم بارادة الامبراطور ، ظلت سطحية . لقد كان الفن فيها فن هواة وغواة وجماعين للآثار الفنية ولم يدخل إلى قلب الجماهير . ولكن الفن الشعبي ، من جهة موازية ، عاش في زخارف الحجر وفي تزيين المخطوطات والحلي والاثاث ولكن لم يضع جهد شارلومان وأنسالة : لويس الثاني ، شارل الأصغر ،

- ٣٠١ -

لوثير المأخوذون بالفن والأدب ، لأن النهضة الكارولنجية تؤكدت بفن العمارة الدينية من حيث التصميم والاسادة . ويحوي هذا الفن نبتة فن العصر الوسيط وهي « أول الفن الرومانسي » الذي ظهر بتقنية المنحوتات البارزة وعودة ظهور الوجه البشري والزخرفة القديمة . وامتدت هذه النهضة في رينانيا وفي جنوب ألمانيا وفي أديرتها وأديرة سويسرا وإيطاليا وغاليا حيث حوفظ على التقاليد والنماذج التي خرج عنها فن العصور التالية .

الفصل الرابع عشر

النظم الميروفنجية

الاستعداد الملكي

الملكية نظام أساسي . — لم تكن الدولة الميروفنجية مدينة بوجودها إلى فتح شعب شعباً آخر ، بل إلى إرادة شخصية كلوفيس القوية . فقد استخدم قبيلة الفرنجة السالين ، التي كانت تحت أمره ، لتحقيق طموحه ، ودحرت هذه الأقوام الفرنجية الغالين — الرومانيين وهاجمت البلاد التي ظلت رومانية للحصول على الغنائم والاسلاب ، أو بكل بساطة للانطلاق في رياضة الحرب . ولم يكن لدى هذه الأقوام أي فكرة بفتح غاليسيا وجرمانيا بصورة منظمة ، وإذا افترض أنها وضعت خطة لذلك لما عرفت كيف تنفذها . وكل ما في الأمر أن القوة والمواهب السياسية والحربية ساعدت الملك على قيادة هذه الأقوام الصغيرة المحاربة المقيمة بالقرب من تورنيه على تحقيق خارقة تاريخية نقلت محور السلطة في الغرب من إيطاليا أو وادي الغارون إلى وادي السين . وعن هذا الحادث وجد أن الملكية تمثل النظام الأساسي للدولة الفرنجية ، وأن هذه الملكية هي الدولة . ولم يحتفظ الغاليون — الرومانيون ، والفرنجة الريبوري والآلامان والتورنجيون ، الذين اعترفوا بسلطة الفاتح طوعاً أو كرهاً ، بشيء من

الحق السياسي الخاص ، كما أن مواطني الملك ، وهم الساليون ، فقدوا كل امتيازاتهم القديمة وكفت مجالس الشعب عن الانعقاد عفويًا . وابتعد الملك عن شعبه ولم يعد يقيم بين أفرادهِ ، بل أقام في باريس ، وأقام أولاده في باريس ، سواسون ، اورلئان ، رنس في البلاد الرومانية . ولم تكن الملكية وظيفة ، ولا تعبر عن الحياة السياسية العميقة للأمة . ان مفهوم « الامبراطورية » ، أي تجسيد الشعب الروماني المنطبق على العالم المتمدن في شخص رجل يأخذ على عاتقه مهمة الدفاع وشرف البشرية ، غريب عن الملكية الفرنجية . لقد كانت الملكية الفرنجية قبل كل شيء حالة واقع ونتاج القوة . وعندما مات المؤسس لم يتدخل أي اعتبار سياسي لتأمين استمرار عمله بانتقال معقول للسلطة . فقد كانت غالبا وجرمانيا تعتبران غنيمة في نظر هؤلاء الفرنجة ولذا قسمها أولاد كلوفيس الاربعة إلى أربعة أقسام متساوية واختص كل منهم بقسم كما يقسم الارث .

وكان على السلالات البربرية التي أقامت على الأرض الرومانية أن تسوي قضية وراثة العرش . فقد فهم جنزريك ملك الفاندال وحده أن الملكية لا تقبل القسمة مهما كان عدد الأولاد الذين خلفهم الملك ، واتخذ تنظيماته تبعاً لذلك . ولم تتحقق وحدة السلطة عند الفيزيغوط إلا بقتل الأخ لأخيه . أما البورغونديون فقد قسموا الحصص على عدد الاخوة . ودل الفرنجة في ذلك العصر على العجز وعدم القدرة . والحق يقال انه لم يكن لديهم أي فكرة سياسية . وظل الحق العام مجهولاً عندهم . وعندما تشكلت المملكة اعتبرت إرثاً كالارث العادي وأخذت تنتقل حسب قواعد الحق الخاص دون تدخل الشعب ودون أن تضيف الكنيسة ، بالمباركة ، على الملكية شيئاً من المثل الأعلى .

وفي الحقيقة ان واقع التوريث يميز الملكية الفرنجية والفرنسية . لان
سابقا ٥١١ ، ٥٢٥ ، ٥٥١ ، ٥٦٧ . لها صداها عبر العصر
الوسيط على تاريخ فرنسا ، وكادت خلال فترة مرة أن تقوض عمل
الوحدة الفرنسية . ولم تأخذ هذه التقسيمات بعين الاعتبار قضية العرق
واللغة والجغرافية والمصالح الاقتصادية والدينية البعيا بل اعتبرها الرأي
قطعية .

ومن الممكن أن يظن أن الممالك الفرنجية الصغيرة ، التي نشأت عن
هذه التقسيمات المتكررة ، تؤلف جزءاً من كل ، وان الوحدة السياسية
للمملكة الفرنجية موجودة . لا شيء من ذلك البتة . لقد تشكلت هذه
الممالك العجيبة من أجزاء أخذت من بين وشمال في غالبا وجرمانيا
وكانت بحق ممالك مستقلة ذاتياً ولا يمكن الانتقال من واحدة إلى أخرى
دون سماح . وكان المستأثرون في مملكة يلجأون إلى بلاط أحد الملوك
الآخرين كما يلجأون في بلد أجنبي . حتى أن الملوك أرادوا أحياناً تبديل
الجغرافية الكنسية . فاذا تملكوا قسماً من أبرشية رغبوا أن يجعلوا منه
مقراً لأسقفية فردية خاصة . ولذا لا يوجد مملكة بل مملكتان وثلاث ،
وأربع ممالك فرنجية في نزاع دائم . ولا شك في أن عاطفة التضامن
بين ملوك الفرنجة ظهرت باختيار مقاطعات غير متباعدة عن بعضها
كباريس ، سواسون ، اورلئان ، رنس ، وأن الوحدة كانت تتشكل
بين حين وآخر ، ولكنها لا تدوم زمناً طويلاً لأن الفرقة حالة عادية .

ولم يكن للملكية من أساس الا القوة . ولذا لا يمكن أن تكون
غير استبدادية . ولا يوجد أي حد قانوني لممارسة سلطتها . فكان الملك
الفرنجي يملك حق حياة رعاياه وموتهم ، وأوامره مطلقة ، ويجازي العصيان
بغرامة ضخمة تقدر بـ ٦٠ سوز ذهبية . وفي حالة عدم الدفع يوضع العاصي

خارج القانون . وكان الكابح الوحيد لاستبداده العواطف الدينية ،
التي يظهر تأثيرها متقطعاً ، والخوف من القتل .

وعندما تأكد الامراء البرابرة من توحيد سلطتهم واحتلالهم الأراضي
الرومانية بصورة قطعية كتبوا أعراف شعبيهم ، حتى انهم أمروا بتأليف
مختصرات القوانين الرومانية لرعاياهم الرومانيين . فقد أمر كلوفيس بتحرير
القانون السالي ؛ وأمر ميروفنجيون آخرون بتحرير القانون الريبوري وربما
كان ذلك للآلامان والبافارين . ولم تكن هذه القوانين إلا تقنيناً فجاً
ناقصاً عن الأعراف البربرية . ولا يظهر فيها نشاط الملك ، وبخاصة عندما
سجلت للمرة الاولى . ولم يكن الحق الخاص ليه الملك فيكلف نفسه
عناء التجديد في هذا المضمار . لقد كانت حكمة الأقدمين ، بالنسبة له
كما هي بالنسبة لرعاياه ، تحافظ على سرية مقدسة لا تمس . ودامت هذه
الصفة خلال العصور ، ويجب النزول حتى حكم لويس الرابع عشر ولويس
الحامس عشر ليسمح الملك لنفسه بالتدخل في الحق الخاص .

وعلى العكس كان الملك الفرنجي ينظم الحق العام والعدل والشرطة
وعلاقات الكنيسة والدولة ويصدر البراءات . وكان الديوان الملكي يقلد
أو ينسخ في المقدمات (الديقاجات) براءات الباطرة الرومانيين .

غير أن التشريع كان قليلاً جداً . ولم يحفظ إلا عدد قليل من
البراءات لبعض ملوك الفرنجة أو بعض المعاهدات بين الملوك . ولذا
تبدو مواد القوانين السالية والريبورية قليلة بالنسبة إلى تشريع الباطرة
الرومانيين ، فضلاً عن أن بربرية لغة البراءات الميروفنجية وفوضى المواد
القانونية توقعان القارى الحديث في كثير من اللبس .

سلطة الملك على الكنيسة . لقد كان عمل الملك عميقاً في حياة الكنيسة ، وكانت الأسقفية قوة مهيمنة في الكنيسة بل ومعنوياً في المجتمع . واستحوذ الملك الفرنجي على تسمية الأساقفة دون مراعاة القوانين الكنسية ، واعتاد أن ينتخبهم من محيطه في القصر الملكي . وكانوا في الغالب موظفين علمانيين يتسلمون المناصب المقدسة دون اعداد وتهيئة ، وكثيراً ما يشرى الكهنوت بالمال . حتى ان الانتخاب النظامي للأسقف من قبل الاكليروس وشعب البرشية كان أمراً نادراً وشاذاً في عهد الميروفنجيين . وكان المنتخب في هذه الحالة يخشى غضب الملك . فمن ذلك أن هراكليوس انتخب في مجمع بوردو اسقفاً فوضعه الملك شاربيير الأول في عربة ملأى بالشوك وحكم عليه بالنفي . وكان الملك يدعم مطالب الرهبان الذين يطالبون الاسقف بجرية انتخاب آباء الاديرة ، لأنه يعلم أن هؤلاء سيكونون تحت رحمته . وكانت المجمع كثيرة ، وعلى الأقل في القرن السادس ، ولكنها لا تجتمع إلا بعد سماح الملك ، وقوانينها بحاجة الى تأييده . وكان الأساقفة يتناقشون وهم يرجفون من سخط الملك إذا دافعوا عن زميل لهم . وكانت العلاقات المتقطعة بين اكليروس غاليا وجرمانيا والبابوية تخضع لرقابة الملك ، لأن كل شيء يجب أن يمر على يده ، بل إن أحد هؤلاء الملوك ، وهو شيلبيريك ، كان يريد أن يحشر نفسه في شؤون العقيدة ويفرض رأيه في الثالث الأقدس .

وامتحت الحدود بين الزمني والروحي . فالدولة والكنيسة تتواسج وظائفها واختصاصاتها . وكانا يعيشان يوماً يوماً دون مبادئ ودون شروط مقررة . ويلتقيان في كل شيء ، وفي كل مكان ، ويتصادمان ويختلطان ويتنازعان وسائل العمل ، مناضلين حيناً ، ومتسامحين حيناً آخر في الظلام وحسب الظروف .

وما كان الملك الفرنجي ليقيد نفسه بأي مذهب أو نظام لتنظيم البلاد المفتوحة . أما أن يوصف بناؤه بأنه جرمانى أو رومانى فذلك لا معنى له . فهو يأخذ من الماضى الرومانى أو الجرمانى ما يوافق مصالحه ويتفق مع مزاجه ، ولا يقرم بتجديدات منظمة ، بيد أنه لا يتردد عند الحاجة بعمل شيء جديد

كان معظم المملكة في ٥١١ ، سنة وفاة كلوفيس ، بلداً رومانياً وفيها حافظ الرومانيون والغالليون - الرومانيرن بطبيعة الحال على لغتهم وحقهم الخاص وجنسياتهم المتميزة منذ زمن طويل عن الجنسية الفرنجية . غير أنهم لم يكونوا محكومين كما كانوا في ظل الامبراطورية . فقد كانت يعهد بادارة الغالين السياسية والقضائية في ذلك العهد إلى سبعة عشر حاكماً على رأس سبعة عشر اقليماً تحت سلطة نائبين تابعين لوالي اقليم غاليا . وكان للادارة المالية موظفوها وصلاحياتها الخاصة كما كان الجيش يؤلف مهنة خاصة تحرمها السلطة على طبقة أعضاء مجلس الشيوخ وقضاة المدن أي على نخبة المجتمع .

ولقد انهار كل ذلك في اضطرابات النصف الثاني من القرن الخامس ، اثر الغارات البربرية الكبرى ، ولم تعد موضع بحث اعادة بناء الاقليم كما كان في ظل الرومانين .

ولكن وجد تحت الاقليم المدينة أي الدولة الصغيرة السلتية ، البلجيكية ، الايبيرية السابقة الوجود للفتح الرومانى نفسه . ولقد انتزعت روما في بادىء الأمر استقلال المدن السياسى بواقع الفتح ، ثم خففت امتيازاتها القضائية والادارية ، وأخيراً وضعت يدها على أموالها ، وانتهى الحراب الاقتصادى بهلاك المدن . ومع هذا عاشت ، فمجلس الشيوخ الصغير ما زال باقياً ، ولم تتبدل أراضيها . ولقد أمدتها الكنيسة بالقوة

عندما جعلت اقامة الاسقف في مدينته اجبارية . وكان في غالبا في القرن السادس نحو ١٢٠ أسقفاً .

وتبنى الملك الفرنجي بصورة طبيعية « المدينة » اطاراً ادارياً ، ولم يبدل امتدادها زمنياً طويلاً . ولم يزد أو ينقص امتيازات القضاة والمدافعين ، ولكنه أقام في كل مدينة ممثلاً عنه وهو الكونت . والاسم من أصل لاتيني . ومنذ عهد ديوقليسيان اختلطت الخدمة الشخصية للأمير مع خدمة الدولة . وما كان الامبراطور ليعهد بالوظائف الكبرى إلا لرجال البلاط من أصدقائه المخلصين ، وتوجب منذ الآن ، لقيادة جيش وادارة مصلحة عامة كبرى أو حاكم اقليم ، أن يكون المرشح كونتاً . ومع هذا لم ير بأن روما وضعت كونتات في المدن إلا بصفة انتقالية ، نحو منتصف القرن الخامس . غير أن هذا التنظيم وإن لم تعممه الامبراطورية الراحلة ، فقد عممه الملوك البورغونديون والغوط . ولم يجدد كلوفيس وخلفاؤه شيئاً في هذا المضمار بل انهم اتبعوا تقليداً حديث القدم وساروا عليه .

ولم يكن الكونت حاكماً ادارياً وقضائياً بسيطاً ، بل كان كالكونت الروماني في آخر عهود الامبراطورية الرومانية ، وله وظائف عسكرية . فهو يجمع الجيوش ويقودها في دائرته ، وييده القوة ، وقادر على جباية الضرائب ، ولذا عهد اليه بالادارة المالية العليا . لقد كان الكونت نائباً حقيقياً للملك . وفي عهد الملوك البرابرة تابع النظام الروماني تطوره ، وكان موظفو الكونت في أغليبتهم من أصل روماني .

ولم يجد الملوك الجرمانيون في الأقسام الجرمانية من دولتهم شيئاً يطابق الكونت فأدخلوا الكوميتا وأكثروا من الدوائر ووضعوا على رأس كل منها كونتاً ، لا سيما وأن المدن القديمة ، في حوض الابسكو والميوز الأدنى وعلى طول الراين ، تقوضت بسبب الغارات .

وأخذ الميروفنجيون عن الادارة الرومانية نظام ادارة أملاك الملك . فقد وضع الملك الميروفنجي أو البورغوندي أو الغوطي يده على الاملاك الاميرية ، وظلت هذه الاملاك تدار كما في الماضي كالأملاك الامبراطورية . وكانت الفيلا أو أملاك الميروفنجي خارجة حقوقياً عن أرض المدينة . وتدفع تدخل قضاة المدن ، الكونتات . وكان الدومين من الوجهة المالية معفى من الضرائب العامة ويتمتع بالحصانة ، وكان من الوجهة القضائية مستقلاً أيضاً إلا في القضايا الجنائية . ولذا كان **الناظر** (الدومستيكوس) لعدد من الدومنيات شخصية عظيمة ؛ ويبدو في سلم الالقاب مساوياً للكونت على الاقل .

الضرائب . — لقد وجد الملك الفرنجي الضريبة في القسم الروماني من غاليا بشكل مزدوج : المباشرة (كالضريبة العقارية والجزية) وغير المباشرة (كالرسوم على الاشياء والسلع المباعة في الاسواق ورسوم الترانزيت) . وحاذر أن يمسها بشيء ، بل على العكس طالب بها بجشع ووحشية ، واستمر في تحميل السكان الالعباء العامة ، مثل حق ابواء واعاشة الملك والموظفين والسفراء والنقل والمهات على الاقدام أو الحيل ، وأخيراً العناية بالطرق والجسور والمواني وانشائها .

وحاول المليك أن يدخل الضريبة بأشكالها المختلفة في الاجزاء الجرمانية من دولته ، ولكنه اصطدم بمقاومة عنيدة : فلم يشأ الفرنجة أن يخضعوا ويقبلوا بها وبخاصة بالجزية لما لها من صفة شائنة .

وكانت حصيلة الضريبة وحصيلة اتاوات الدومين تتجمع في صندوق الملك « الخزنة » . ولم يكن ليوجد أقل مفهوم لصندوق الدولة يختلف عن صندوق الملك الخاص ، لان حصيلة الضرائب تدخل في ثروة الامير

الخاصة ، وبتعبير آخر ، إن الضريبة تفقد طابعها « العام » . وبالمقابل لم يكن الملك يعطي شيئاً لرعاياه . فهو لا يهتم مطلقاً بالمصالح الكبرى العامة ، كإسعاد الفقراء والمرضى والتعليم والأعمال الفنية ، ولا يدفع شيئاً للجيش والإدارة . ولذا كان الذهب يتكدر عقيماً في صناديقه .

النقد . -- ورث الملك الفرنجي عن الإمبراطورية الرومانية حقاً مربحاً ومشرفاً ، وهو حق سك النقود . وتردد طويلاً بوضع اسمه على قطع النقود الذهبية لأن تجارة البحر المتوسط لا تقبل إلا القطع التي تحمل صورة الإمبراطور . ولذا اقتصر الفرنجة على تقليد النماذج البيزنطية . وحوالي ٤٠٠هـ تجرأ تيسير وكسر التقليد وضرب قطعاً ذهبياً باسمه مع وصف « فيكتور » على الوجه ، وصورة النصر يسك تاجاً على القفا . ثم قلده أعمامه وأولاده فيما بعد .

الخدمة العسكرية . -- يرجع نجاح كلوفيس إلى العصابات المحاربة السالية في مملكته الصغيرة في تورنيه ، وإلى الإمارات الميروفنجية التي ضمها تحت يده . وكانت هذه العصابات قليلة العدد ، ولكنها كانت تكفي على الأقل ، بمساعدة الريبور والبورغونديين ، للتغلب على الإمبراطورية الغوطية .

وعلى نقض السويفين والفيزيغوط واللاوستروغوط والفاندال واللومباردين ، الذين انقطعوا عن العالم واستقروا في إيطاليا وغاليا وإسبانيا وأفريقية ، كان لدى ملوك الفرنجة جنود احتياطية يمكنهم الاعتماد عليها : وإذا وضعنا جانباً « شعوب ما وراء الراين » ، التي لا يدعونها إلا في الحالات القصوى ، خشية من وحشتها ، فقد وجد في متناول يدهم الساليون الذين يسكنون الوادي الأدنى لنهر الموز والإيسكو ؛ والريبور في الجري

الادنى لنهر الراين ؛ والمهيون في وادي نهر الموزيل . ولقد كان للملكة الفرنجية في ضم هذه الاقوام فائدة كبرى ، فهي توضح قوتها ودوام هذه القوة بالرغم من الفساد وكثرة الاخطاء .

وكان طموح الميروفنجيين يتجاوز مصادره بالرجال . فقد كانوا يتطلعون إلى فتح غاليا وجرمانيا وايطاليا وبنونيا ووادي الدانوب . ولم يكن هذا الجاهز البشري الفرنجي كافياً لمثل هذه الاهداف الكبرى . ولذا استنجدوا برعاياهم الجرمانيين والرومانيين ، واعتمدوا بمحملتهم في ايطاليا على الجنود الآلامان ، وتركوا للساكسونيين والتورنجيين أمر الدفاع عن انفسهم وحماية المملكة من السلافيين والآفار . وفرض الميروفنجيون الخدمة العسكرية على الرومانيين ، وقلدوا بذلك الفيزيغوط والبورغونديين الذين كانوا يلجأون الى ابناء البلاد الأصليين في آخر حكمهم . وابتداءً من حكم اولاد كلوفيس ، ان لم يكن من حكم كلوفيس نفسه ، كان يتوجب على كل انسان حر أن يقوم بالخدمة العسكرية للملك ، لدى كل طلب وعلى نفقته . وينتج عن ذلك ان الجيوش المسماة « فرنجية » كانت تتألف في معظمها ، باستثناء الشرق ، من الغاليين - الرومانيين . أما القيمة العسكرية لهذه الجنود المرتجلة فكانت رقيقة جداً . لأن الملك الميروفنجي وطد حكمه بفضل الحماسة الحربية التي الفاها عند هذه الجماعات الفرنجية الصغيرة ، وهي آخر جنود مشاة عرفها أعلى العصر الوسيط . وكان يثق بالجمهير ويستعين بها على سحق اعدائه ، ولم يكن صعباً في البحث عن الكيفية ، لأنه لا يدفع للجنود مرتباً ولا يعلم جنوده طرق الحياة العسكرية وأساليبها .

وقد قبل الغاليون - الرومانيون الخدمة العسكرية بارتياح وقاتل بعضهم بعضاً لدعم المنازعات التافهة التي كانت تقوم بين ساداتهم الميروفنجيين

- ٣١٢ -

بسبب تقسيم المملكة أو التنازع على الملك . ولذا ايقظ الملك الفرنجي عند الغالين روح الحرب وتذوق القوضى والعنف والتعطش الى النهب . وكان مرور الجيش الفرنجي في منطقة من المناطق خيفاً ، كجيش العدو ، لما يرتكبه من أعمال وقباحت . وكثيراً ما كان الشعب يثار لنفسه فيقتل المتأخرين عن الركب أو الهاربين .

العدل الروماني . - لقد كان البت في الدعاوي المدنية والجزائية خاصاً بحاكم الاقليم في آخر الامبراطورية الرومانية باستثناء الدعاوى الصغرى المتروكة للحامي المدني بل وللكبار الملاكين . وكان الحاكم يعقد جلساته في نقاط مختلفة من دائرته الواسعة ويفصل في الدعاوى محاطاً بأمنائه وخدمه بعيداً عن الجمهور وبشيء من السرية في غرفة خاصة . وكانت الأصول الذي يعمل بموجبها مكتوباً .

العدل الجرماني . - لقد كان الفيزيغوط والهورغونديون قليلي العدد منقطعين عن العالم الجرماني ، ولذا تبنا نظام القاضي الوحيد وخولوه سلطات واسعة . أما عند الفرنجة فقد دام العرف الجرماني في الحكم . وبسبب في هذا الحكم مندوبون أحرار كل عن منطقة . وكان المندوب منهم يقتصر على رئاسة المحكمة الاقليمية (مالوس) وتنفيذ الحكم . ولا يكون هذا الحكم كاملاً الا بموافقة الجمهور الظاهرة أو الضمنية . وكان أصول المحاكمة في اساسه شكلياً أو رمزياً، ونظام الاثبات غير مكتوب، ويستعمل الشهادة الشفهية وحكم الله (الاختبار بالحديد المحمي والماء وغير ذلك) والمبارزة حيث يظهر الله بالضرورة الى جانب الحق الصالح وينهه النصر .

تبنى النظام الجرماني . - لقد اناب الملك الميروفنجي الكونت مناب

المندوب الاقليمي ، وترك لهذا الأخير النظر بالدعاوى الادنى ، وخص الكونت بملاحقة المجرم ، اذا لم يوجد تظلم من الضحية ، وعقوبة المجرمين المباشرة . وانتقل هذا التنظيم السالي الى الاجزاء الرومانية في المملكة وتواصل بسرعة .

وكان لهذا النظام فوائد عمليه كبرى . فقد اقتضى تعايش السكان المختلفين اقامة جهاز قضائي مختلط في كل محكمة . ولم يشأ الملك مكافأة القضاة على عملهم ، فرأى من الاصلاح اقتصادياً أن ينتقي عدداً من وجهاء الغالين - الرومانيين في كل « مدينة » واجبرهم أن يأتوا دورياً إلى المحكمة ويحكموا بين أفراد بني جنسهم . وكان الكونت ، بمثل السلطة الملكية في الاقليم ، يعلن حكمهم أمام الجمهور وينفذه

ومن الملاحظ في هذه المحكمة الاقليمية أن عمل الحق الجرمانى وأصوله كان سائداً : فافتداء الجنحة أو الجريمة بمبلغ من المال ، ويمين الأطراف المتنازعة مع مساندة المحلفين ، وحكم الله ، والمبارزة انشرفت في كل مكان . وساعد تقهقر المجتمع على تحييد الاعراف البربرية في أوساط الرومانيين . وكان للكنيسة أثرها في هذا الاتجاه . فقد دفعت إلى الافتداء بالمال ، وإلى الاتفاق واخماد النار والحيولة دون سفك الدماء . وكان الملك يجبي ثلث ما يجبي الكونت من حصائل الدعاوى . وكان هذا الكونت يعيش من جزء مما يجبيه ومن التمتع بدومين ملكي في دائرته . وتألف عن طريق هذه المحاكم الاقليمية فقه محلي ودخلت فيه ، بنسب مختلفة وحسب الأمكنة ، القوانين الرومانية والقوانين البربرية . ومن هنا خرجت الاعراف البلدية في العصر الوسيط .

ولم تكن المحكمة الاقليمية مجلساً قضائياً فعصب ، بل كان الكونت أو موظفوه ينشرون فيها أوامر الملك ، والدعوة إلى الجيش والبراءات

الملكية وغيرها . فهي تمثل بالاجمال وسيلة حكم سهلة . ومن فائدتها انها تنتزع الوجه كل شهر من عزلة الحياة المحلية وتذكره بواجباته نحو الملك .

المساواة السياسية بين الرعايا . - كانت المساواة السياسية بين سكان المملكة الفرنجية شيئاً عادياً . وكان بإمكان كل ساكن في غالبا فرنجياً كان أو رومانياً أو بورغوندياً ، حراً أو معتوقاً ؛ غنياً أو فقيراً أن يدخل في خدمة الدولة ويتخذ لنفسه مهنة . وكان الجميع سواسية سياسياً لانهم متساوون في الخدمة . ولم يكن الملك الميروفنجي مقيداً بنظام أو أباطيل عرق أو لغة أو شرط اجتماعي ، ولا يبحث في علاقاته مع الناس الا عن رضاه الشخصي ، فهو يصنع من المعتوق بل والرقيق ، اذا كان يسره ذلك ، متطوعاً في خدمته أو كوتناً أو ناظراً للدومين الملكي أو اسقفاً ؛ ومن رئيس الكتاب قائد جيش ؛ ومن اليهودي محصل ضريبة ؛ ويبيع الاسقفية الى سوري . ومن دواعي سروره إلا يطيع إلا طيبه . لقد كان كل شيء ينطلق من العرش ، وكل شيء يعود اليه ، وما من طبقة نبيلة يعادل نفوذها وجاهاها حكم الملك المطلق .

طبقة الشيوخ . - لقد وجد عند الرومانين طبقة شيوخ وظلت عائلاتهم تفرح بأصلها ولكنها كانت قليلة العدد ، بضع مئات على الاكثر . وبعد سقوط الامبراطورية الرومانية أصبحت امتيازاتها القانونية ذكرى . بينا دام نفوذها الاجتماعي والاقتصادي .

الطبقة النبيلة ووظائف البلاط . - لا يوجد طبقة نبيلة عند الفرنجة على عكس ما هو متعارف عليه عند بقية الشعوب الجرمانية . بيد اننا نرى ، في العصر الميروفنجي ، تشكل طبقة اربستقراطية قوية تتألف من

كبار ملاكي الأطيان وكبار الموظفين ، ولكن هذه الطبقة لم تكن طبقة نبيلة بالمعنى الأصلي ، بل كانت طبقة تتألف من اناس يتمتعون بامتيازات قانونية ناشئة عن حق الولادة ، ولايجاد طبقة نبيلة حقيقية يجب النزول حتى فجر الأزمنة الاقطاعية . والتميز القانوني الوحيد بين الناس مبني على خدمة الامير . ومالم يتغير شرط أصل الانسان يبقى المعتوق معتوقاً ، والروماني رومانياً دون أن يشتهر بأنه فرنجي .

وكان على كل من يريد أن يعتبر في المجتمع أن يتصل اتصالاً مباشراً بالملك ، ويعقد معه روابط اوثق من جمهور الرعية . وليصبح الانسان شيئاً في الدولة يجب عليه ان يتقرب من الملك ويتوسل اليه ويعرض خدماته عليه ويصبح له موالياً وأميناً ويبيعه بالمعنى الضيق للكلمة أو بتعبير آخر ان يكون رجله . ولهذا الغرض لم يكن جهاز الحرس الملكي قاصراً على العصبة المحاربة التي تحرس الملك على الطريقة الجرمانية ، بل كان يضم جميع الموظفين في معية الملك ، ومن يتطلعون الى التوظيف ، بل ومن يتحينون الفرص للحصول على رتبة كنسية ، حتى ان التعبير « موظفين » لا يستعمل إلا عند فقد ماهر افضل من الوظيفة . وكانت هذه الشخصيات الكبرى ، التي تحيط بالملك من أدواق وكونتات وناظرين خداماً للملك متفانين في سبيله أكثر مما هم موظفون . وقد بولغ في العصر الميروفنجي في الصفة الشخصية لخدمة الدولة أكثر بكثير مما كانت عليه في عهد الامبراطورية الرومانية الدنيا

الادارة المركزية المزعومة . - وهذه الصفة الشخصية للخدمة هي التي توضح لنا أن الكلام عن « ادارة مركزية » معناه المجازفة بتشويه الواقع . ومهما يكن تنظيم السلطة ابتدائياً فان طبيعة الادارة تقضي التنسيق بين عمل العمال المحليين والاطلاع على تقاريرهم وقبول ظلمات

السكان واعطاء الاوامر والتحقق من جباية الضرائب وتدقيق حسابات موظفي المالية . ولا بد لكل هذا من مكاتب ورؤساء يديرونها ويسهرون على مصالحها . ولكن الملك الميروفنجي لم ييذل في هذا الميدان أي جهد أو يقيم بأي ابتكار . فقد ورث مكاتب حكام الامبراطورية الدنيا مع رجالها وكل ما يتعلق بها من قواعد وأصول واساليب عمل .

كان بلاط الملك الميروفنجي مليئاً بالكتاب من كل نوع ويقوم على رأسهم « كبار الكتاب » . وقد أصبح هؤلاء الرؤساء ضروريين للدولة لاغنى عنهم ، واكتسبوا مع الزمن سلطة . وكانوا يستخدمون في مهام سياسية وأحياناً في قيادة الجيوش وذلك لأنه لا يوجد فصل قوي في الوظائف حسب الاختصاص .

وكانت « الحزانة » أي بيت المال لاتغادر الملك ، فهي في غرفة بالقرب من الغرفة التي ينام فيها المليك . ويشرف على ادارة الحرس وادارة السلطة رؤساء غرف تحت سلطة خدام غرفة الملك .

وعهد بخدمة الفم إلى رئيس السقاة ، وبخدمة الاصطبل إلى كوثات الاصطبل ، ومن هذه الوظيفة اتى اسم القائد الاعلى للجيش ، وتحت أمره سائس خيول الملك (الماريشال) . والحق بخدمة الأمير أطباء ومنشدون .

وعهد بتنظيم جهاز القصر إلى « اقدم الخدم » (سينيшал) . ومع الزمن أصبح لكوثات الاصطبل وخدام الخيول وأقدم الخدم صفات عسكرية .

ويتمثل نظام الاكليروس بعدد من الكهان يؤلفون كنيسة « قابلة » الملك أي سدة كنيسة الملك .

وعهد بإدارة القصر والبلاط واعاشته إلى ماجوردوم أي كبير القصر أو حاجب القصر ، ولقد كان لهذه الوظيفة أهمية خاصة حتى أن صاحبها أصبح الكل في الكل في حياة القصر .

محكمة القصر . - أن حل الخلافات التي قد تنشأ بين رجال البلاط أو بينهم وبين الناس من خارجه ، أو حل الاخطاء المرتكبة ضد الملك ، لا يمكن أن يعهد بها إلى محاكم محلية ، بل إلى السيد العام وهو الملك . وقد اعتبر الملك الفرنجي دوماً أن العدل يتجسد في شخصه حيث يختلط بمنفعته واهوائه وطيشه ، لأن كل شيء حل له . فله الحق ، إذا اعتبر أحد رعاياه مجرمًا ، أن يجرده من ثروته ويطرده ويحكم بقتله دون أي شكل من أشكال الدعوى . ودام هذا التقليد في القرن السادس عشر والقرن السابع عشر . ويعتقد ملك فرنسا أن له الحق دون محاكمة في اعدام شخصيات كبرى يخشى خطرهما ونفودها . ولكن الملك في الأحوال العادية الجارية لا يبادر إلى القضاء في شؤون يمكن أن تنتزع من لذائده أو مشاغله . ولذا شكل بالقرب من شخصه محكمة تتألف من مخلصيه ورجاله وتدعى « محكمة القصر » وكان يتوأسها شخصية كبرى ، كونت ، ويدعى « كونت القصر » .

وكانت محكمة القصر صادرة عن إرادة الملك . وليس لها اختصاص معين أو تركيب مستقر أو دورة انعقاد منتظمة أو أصول نوعي خاص . وهي أكثر مرونة من المحكمة الإقليمية الشكلية والجرمانية جداً . وليس لها محكمة استئناف لأن عقول البرابرة لا تفهم الاستئناف . وكل ما في الأمر أنها محكمة خاصة للمحاسبين ممن يعيشون بعيداً أو قريباً من الملك . وقد حلت محل المحاكم المحلية . ورفع الدعاوى العائدة للمحاكم العادية واختصاصها إلى المحكمة المركزية يمكن الملك من أن يؤلفها حسب هواه . ودامت هذه المحكمة حتى نهاية الملكية الفرنسية .

القصر عاصمة متنقلة . - لم يكن للمحكمة إدارة « مركزية » حقيقية

لأن الإدارة ليس لها مركز ، ولأن الملك لا يستقر في مكان . وليست سواسون ، أورلئان ، باريس ، دنس عواصم حقيقية ، لأن الملك لا يقيم فيها الا نادراً وقليلًا . ان تذوق التغيير وهواية الصيد وضرورة استهلاك المنتجات الطبيعية للدومينات في مكانها ، وطبيعة السلطة الاستبدادية التي تتطلب من الملك ان يكون في كل مكان ، ان كل ذلك يجبر الملك الميروفنجي أن ينتقل من فيلا الى اخرى ، ويحرق في ركابه ادارته المزعومة ، وما يسميه خزائنه ومحكمته ووثائقه عوضاً عن ان يتركها في مكان ثابت . ودامت هذه الطرق والأساليب قرونًا في اوروبا حتى القرن الثالث عشر . وكان هذا الوضع يختلف تمامًا عما كان عليه الخليفة في الدولة الاسلامية ، لأن هذا الخليفة كان يتمتع بسلطة تجعله يستقر ويتأصل حيث هو ويمجد له مقاماً ثابتاً لا يلبث أن يصبح في الوقت نفسه مركز جذب وسوقاً تجارية ومدينة كبرى .

بهاء الملكية الزائف . — لقد كانت الملكية الميروفنجية بسبب تركيبها استبدادية لاحد لاستبدادها . ولم يكن هذا الاستبداد مزدناً بالبهاء الذي يمكن أن ينعكس على الدول التي هي من هذا النوع مع ما يرافقه من الاحترام والاحتفالات والتقاليد القديمة . لقد كان الملك الفرنجي يريد أن ينادى « السيد » . وان صيغة الرسائل والدبلوماسية تتكلم عن عظمتهم وعزته وسيادته ورفعته . وعند الكلام عن نفسه يكتب « عفونا » « رحمتنا » ، « سماحتنا » ، ويبسط بسداجة ثروته وهدايا الأمراء الأجانب وخاصة الأمراء البيزنطيين . وتقليداً للإمبراطور كان له عرش ووضع وآداب للسلوك ومراسم . ويطلق على رعاياه اسم « الاقليميين » ، ويريد أحياناً أن يمنح الشعب بعض التسهيلات . وكان بعض الملوك الميروفنجيين ، مثل شيلبيريك وشاريبير ، يفخر بعرفة اللاتينية الجميلة وليس

كل ذلك الا زخرفة وزينة ، فليس التقليد الا سطجاً ومثيلاً يستوجب الهزء والسخرية . ولم ينبجج الملك الميروفنجي في « ملء اطار الملكية الامبراطورية الواسع » . وظل في أعماقه حديث نعمة وبربرياً . وبقي الشعر الطويل عنده خاصة من خصائص السلطة . وتنقصه الهيئة واللباقة . وحب الخادومات عنده ، عدا سيجوير ، قاعدة . وكان يبحث عن « ملكاته » في بيوتات الحريم ، ولا يكاد يدرك سن البلوغ والزواج الا ويتمرغ في الدعارة والفجور . ومن عجب ان تأثير الدين قليل على هذه الارواح الناقصة . فهي ليست مسيحية الا اسماً . وليس دينها الا اباطيل واوهام . بدائية فجة ويتلخص في الخوف من القديسين وخاصة من القديس مارتن .

القوضى والامراف . - كانت هذه الملكية نهمة الى الضريبة لاترحم ، وكانت في الوقت نفسه مسرفة مبذرة . وقد نتساءل على أي شيء يمكن الملك الميروفنجي أن ينفق وارداته ! فهو لا يدفع أي خدمة عامة : كأعمال الفن والتعليم والاحسان وغيرها . ولا يعطي رواتب الى رجال ادارته وقضاته . فالكوئنتات ، كما رأينا ، يعيشون من نتاج فيلا أو عدة فيلات ملكية في الدائرة التي تترك لهم ، ومن جزء من حصة الغرم القضائي الذين يعود للملك عندما يوجد « تسوية » قضائية . وليس للجيش اعطيات . فكيف اذن لاتنتفخ الحزانة ، التي تغذيها الضريبة والدومين بصورة فاحشة وهي آلة ماصة لا دافعة ؟ الواقع انها تفرغ سريعاً جداً .

لقد كانت قوى المجتمع من وطنية وبذل واخلاص متكسرة أو تعب ، وكان الرابط الوحيد هو البذل الشخصي من انسان لانسان ، وهذا هو اساس التبعية . ولكن القوة العاطفية لهذه الرابطة بدت ضعيفة جداً في عهد الميروفنجيين ، وعلى الأقل بين الملك ومعيبته ، ولم يعرف الملك الميروفنجي كيف يجب نفسه الى أحد . لقد كان الرابط الوحيد

المنفعة . وكان ولاء المولى والموظف مذبذباً ضعيفاً ، ولذا كان بحاجة للاطعام والدعم بالمال . وإذا كان للملك نظرات في ارث قريب ، كانت الخزانة تساعد أيضاً على رشي الموالين لجاره . ولقد كانت هذا السلاح أنجح من معركة لكسب مملكة جديدة .

انحطاط الضريبة العقارية . - ومع هذا فقد بدأ النضوب يظهر على هذا المصدر الضريبي الذي كان يغذي الخزانة . فمن المعلوم ان معظم الواردات في الحضارة الزراعية يأتي عن الضريبة العقارية . ولثلاثي يضعف الانتاج ، ولتتفقد فرض الضريبة يجب أن يعاد النظر بين حين وآخر في مادة الضريبة ، وأن تكون مصلحة المساحة على بينة من الأمر . ولكن مثل هذه العمليات الدقيقة كانت مكلفة ، حتى ان عدم الاهتمام الملكي كان يساعد على اهمال تنفيذها . فاذا ما صدأت عجلة الضريبة تعطلت ولم تعط شيئاً . ويبدو من قراءة غريغوار تور ، مؤرخ هذا العصر ، أن جباية الضريبة ، منذ حكم احفاد كلوفيس ، كانت متقطعة ولا يمكن ان تتم دون مشاهد مخيفة . فكل مقاومة للدفع كانت تقمع بالتعذيب والقتل .

كثرة الضرائب غير المباشرة : - اما الضريبة غير المباشرة فقد قاومت بشكل افضل لسهولة جبايتها ، وكان يكفي لذلك اقامة موقع مسلح في سوق أو على رصيف أو في منعطف طريق أو على جسر أو على طريق مائي . وقد اكثر الملك ضرائب التجارة وضريبة المرور في النصف الثاني من القرن السادس نظراً لضعف حصيلة الضريبة المباشرة .

الحصانات . - وكان الملك نفسه يعتبر جباية الضريبة نهياً ، ويرى ان سلام روحه في خطر ، وخاصة عندما يقوم عماله بالجباية على اراضي الكنيسة . ولذا أخذ الملك الفرنجي ، منذ وقت مبكر ، يصدق دبلومات

امتيازات « الحصانات » ويعفي بموجبها الاسقفيات والاديرة من دفع كل شيء يعود للضريبة الملكية ، وحرّم في الوقت نفسه على القضاي (الكونت) وعلى اتباعه دخول الأراضي المحصنة لممارسة حق الايواء والوكالة ، كما حرّم فيها اقامة محكمة قضائية وجباية الفريدا . ومن الممكن أن يفكر ان الملك اراد من هذا الاجراء ان يلحق المحصن به مباشرة لدفع نتاج الضريبة والفريدا الى الخزانة . ولكن الدبلوماسية تنص على ان حصيلة الضرائب تركت للكنيسة في سبيل سلام روح الملك . وفي هذا ما يدل على ان الأسقف ومجلس الكهان والأب والرهبان هم الذين يفيدون من الحصانة لا السكان الريفيين . فضلاً عن ذلك كانت المحصن الكنسي يقوم بالقضاء في الدعاوى الدنيا ويحصل على الغرم القضائي . وقد حصل العلمانيون ايضاً على افضال من هذا النوع .

وهكذا اقتضت جباية الضريبة العقارية والجزية على عدد قليل من الناس دون أن تتول بحكم قانونه ، بيد أنها زالت بزوال المكلف . ويصادف ايضاً اعفاء رجال الدين وخدمهم من دفع ضريبة التجارة ورسوم العبور على الارض والنهر . كما يصادف إلى جانب الاعفاء القانوني الاغتصاب المبكر وقد تكاثر مع الزمن والاهمال .

خواب الادارة النقدية . - وهناك مصدر آخر للواردات ، وهو النقد ، نجا من الملوكة . فقد كانت الكنائس والاديرة تضرب قطع النقد الفضية والذهبية باسم القديس السيد الحامي ، ويتم ذلك دون أخذ علم بأي امتياز رسمي من الملكية . ولم يكتف ضاربو النقد بالضرب في البلاد ، في السكولا ، أو في المشاغل الامبراطورية القديمة ، بل كانوا يضربون في كل مكان ، وفي اماكن صغيرة جداً . وعلى ما يبدو أن

السلطة لم تمارس عملها بشكل كامل على هذه الاعمال منذ القرن السابع وربما لم يكن هذا العمل منتظماً .

زوال الدومين العقاري . - ويبدو ايضاً أن الملك الميروفنجي في القرن السابع ، كجيرانه الملك الغوطي في اسبانيا ، واللومباردي في ايطاليا ، والساكسوني في بريطانيا العظمى ، كان يعيش خاصة من انتاج دوميناته ، وإن هذه الدومينات كانت عديدة وتبلغ المئات ، وان امتدادها يساوي وسطياً امتداد قرية حديثة .

ولكن عدداً من هذه الدومينات كانت مخصصة لاعاشة الكونتات والأدواق وحجاب القصر . وكثيراً ما كانت التقوى والندم يحضن الملوك على منح الاسقفيات والاديرة الهبات تلو الهبات . فمن ذلك ان المنطقة الباريسية كانت مملوءة بالفيلات الملكية ، ثم أصبحت بكاملها أرضاً للكنيسة . ومن الملكات من كن كريمات سيخيات .

على أن ولاء المواليين كان مذبذباً وعرضة للتغير ، ولذا كان بحاجة مستمرة إلى البذل والعطاء والدعم العقاري . وقد ضعف الدومين الملكي بهذا الدعم والامداد .

أما الامتياز الموقت وهو الانتفاع فهو مجهول في الامتيازات الملكية في العصر الميروفنجي ، أو على الأقل ، ان النصوص لا ترينا إلا هبات بشكل تملك كامل . ولا شك ان الانتفاع كان موجوداً من قبل . ولكن منح الامتياز لم يدع ، على ما يبدو ، مجالاً لصك ملكي مكتوب . ولا مرية في أن الملوك كانوا ، لدى أقل اشتباه أو سبب للخيانة ، يستعيدون أموالهم التي منحوها ويضمونها من جديد إلى أموالهم . غير أن هذه الطريقة العنيفة كرهت الناس بالملكية الميروفنجية ، ولم يعد

مطمئناً ، لأن الملك ليس له ايمان أو عهد . ولكن هذه المصادرات كانت وسيلة أكثر منها علاجاً ، ولا يمكن أن تعوض نقص الدومين الا قليلاً . وفي الحقيقة ان هذه الملكية كان محكوماً عليها بالدمار والهلاك لأنه لم يكن لديها من طريقة في الحكم الا شراء الطاعة .

وهكذا نرى أن الملكية الميروفنجية كانت دون تقاليد ، ودون مثل أعلى ، ودون فضائل عامة أو خاصة ، وجسداً دون روح وعاجزة عن خلق البذل والتفاني عند الناس في سبيل الملكية . ولم يحم بين الرعايا والمليك تيار عاطفي ، هذا التيار الذي لا يدوم بدونه أي حكم . لقد كانت الملكية الميروفنجية حالة واقع وسلطة شخصية ولا تساوي شيئاً إلا بقوة الملك . فاذا ماضعت هذه القوة بسبب أو بآخر ، قامت المنافع والاحقاد المضغوطة والاطماع غير الراضية على البناء الملكي تعمل فيه الهدم والتخريب .

ضعف السلطة الملكية ودمارها

سلبية السكان . - لقد كان الحكم الملكي المطلق ثقيلاً على الشعب ، ولكن الجماهير الشعبية لم تقم بأي رد فعل بشكل ثورة عامة أو جزئية . حقاً لقد قامت مشادات بسبب خرق دائرة الضرائب أو افراطها ، ولكن كان من السهل قمعها . كما أن بعض الموظفين لم يتمكّنوا من القيام بالوظائف التي أسندت إليهم بسبب أعمال الشغب التي كان يحركها منافسهم عليهم ، ولكن لم يحم بها أحد ممن في معيبتهم من رجال الادارة . غير أنه كان يرى عند احتشاد الجيوش للدخول في حملة عسكرية أن الحرس الوطني غير المسلح جيداً ودون نظام وتماسك يسمح لنفسه بالصراخ والتهديد إذا لم تعجبه الحملة ، أو على العكس اذا

كان يؤمل منها المغامم ويريد الملك أن يؤجلها . وفيما عدا هذه الحالات ظل الشعب مستسلماً دون حراك كما في زمن الامبراطورية الرومانية . ويراد بكلمة « الشعب » الناس الريفيون الأحرار . اما الاقنان بل والمعمرين والتجار فلا يلعبون أي دور في المجتمع .

قوة القصر . - لقد كانت المعارضة تأتي في الغالب من رجال القصر ممن يعيشون في معية الملك وفي أكنافه . فالبلاط هو الكل في الكل في الدولة كما يقال . فهو يمسك بيديه كل الوظائف والامكنة الحساسة . وعن طريق هذه الوظائف يوزع الثروة القائمة على الملكية العقارية . ولم يكن في الدولة أقوياء أو أثرياء إلا رجال القصر ، فالادارة وحكم النبلاء (الارستقراطية) وحكم الأغنياء (البلوتوقراطية) كلها تخرج من القصر وتختلط به .

في البدء شاد المليك « القصر » ليرضي نفسه وأنانيته ، وما كان ليريد أن يرى فيه الا امتداداً لشخصيته . بيد ان هذه الصنعة، التي خلقها فسواها ، وعت مع الزمن ذاتها ، وأرادت ان تحيا حياتها الخاصة ، فاذا ما ضعف سيدها او زال ، استطاعت ان تتابع سيرها ووجودها . إن هؤلاء الناس الذين يؤلفون رجال القصر ، ويعرف بعضهم بعضاً منذ الطفولة ، ويحيون حياة واحدة معاً وفي معية الامير ، كانت تملكهم اهداف واحدة ، ورغبات واحدة ، ويقوم بينهم تضامن وثيق . وعلى ما يبدو ان بين النجدة ، التي اقسموها للملك للمبادرة لنجدته إذا دعاهم ، قد اقسموها لأنفسهم . فهم في الواقع يشكلون مجتمعاً ضيقاً وبنزعات الى تأليف طبقة خاصة بهم ، وزيارهم يتزاوجون ويتصاهرون فيما بينهم ويريدون ان يؤمنوا لأولادهم ولأنفسهم جميع الفوائد الممكنة من الدولة . ولا يغرب عن البال ان « القصر » لا يشمل من يعيشون في

البلاط فحسب ، بل يضم ايضاً من كانوا يعيشون فيه من قبل . فالأدواق والكونتات والنظار ، الذين يقيمون في الأقاليم ، يعتبرون جزءاً من القصر . حتى ان الاساقفة انفسهم ، الذين خرجوا كلهم من القصر ، كانوا يتقاعسون غالباً عن الخروج منه . وفي غضون القرن السابع اعتاد اعضاء القصر ، بمن انفكوا عنه وعاشوا في الاقاليم ، ان يجتمعوا مرة في العام ، في شهر آذار ، مع زملائهم ممن بقوا في المركز فهم يؤلفون على هذا النحو نوعاً من « قصر كامل » وهو المجلس السياسي الوحيد الذي عرفته فرنسا في تلك الأزمنة . وهذا « القصر » الميروفنجي ، الذي لم يكن في الواقع ادارة حقيقية مركزية ، استطاع مع الزمن أن يتناول في عمله بأقوى مما سيفعله « بلاط » لويس الرابع عشر في المستقبل . وعلى هذا فالقوة المنافسة للملكية الميروفنجية ليست الارستقراطية ، كما يقال عادة ، بل القصر ، او على الاقل ، الارستقراطية من حيث انها تختلط بالقصر .

القصور التشريعية وسلطة القصر . - ظهرت قوة القصر فجأة بمناسبة قصور الملوك . وكانت اوسترازيا الاولى التي كان لها ملوك قاصرون ، وهذا الوضع ساعد على ظهور الارستقراطية . فقد بدا الملك تيبود (تيوبالد) بن تيبير (تودوير) خلال عهده القصير (٥٤٧ - ٥٥٥) ضعيفاً جسداً وروحاً ، ومع ذلك جردت عدة حملات هامة إلى ايطاليا .

وقد تقرر تجريد هذه الحملات من قبل حاشية مجهولة . وفي فترة قصور شيلدوير الثاني (٥٧٥ - ٥٨٤) تجلى حكم ادواق واسقف رّس . فقد كان الملك الشاب نحت نيرم ، وكان على الأم برونهيو أن تتحمل شتى انواع الاذلال . وعندما حاولت أن تتدخل بين جيشين على وشك الاشتباك صرخ بها الدوق أورسيون : « اليك عنا ايها المرأة

يكفيك انك حكمت في عهد زوجك . اما الآن فابنك الذي يحكم تحت حمايتنا لا تحت حمايتك. اليك عنا والاسعقتك سنايك خيلنا على الارض .
وفي القرن التالي انتزع الفجور والفساد الملك الفرنجي وهو في زهرة العمر ، وأصبح القصور نظاماً عادياً لجميع الدول الفرنجية . ومثل هذا القول ينطبق على اسم الملوك « الظاهريين » ، عدا داغوير ، لأن القصر في القرن السابع أخذ على عاتقه حكم المملكة الفرنجية ، وقام تحت تأثير الضرورات مقام الملكية المستبدة التي لم يجرأ أحد في القرن المنصرم على مهاجمتها والوقوف في وجهها .

ظفر القصر . - وفي ازمة ٦١٣ - ٦١٤ انتصرت الارستقراطية ، كنسية وعلمانية ، وارادت فرض شروطها على الملكية . فقد انعقد مجمع للغالين في باريس ضم ٧٩ اسقفاً ووجه عدة تظلمات إلى الملك كلوتير الثاني ، فلم يقبل بها جميعاً وهو المعروف انه صنعة الكبار والأساقفة . ولم تكن براءته عام ٦١٤ ميثاقاً دستورياً ، كما قيل ، بل هي محاولة بسيطة لاصلاح المفاصد الصارخة اكثر من غيرها . وإذا تبين أن الملكية كانت ضالعة في هذه المفاصد ، فان اخطاء الاكليروس والكبار كشفت أيضاً . ومهما يكن فقد اتخذت الملكية عدة تدابير لصالح الكبار وأهمها .

- ١ - الحفاظ على الاموال التي منحت لهم من قبل اسلاف كلوتير .
- ٢ - الغاء كل هبة اكتسبت بالكذب والموالسة والخداع .
- ٣ - اختيار القضاة من المنطقة التي يقومون على ادارتها .
- ٤ - اعتبار هذه المطالبات تعهدات قابلة للتجديد .

وبعد عامين قبل كلوتير الثاني « بالمطالب العادلة التي قدمها كبار بورغونديا واساقفتها » كما قيل بالشيء نفسه شيلديريك الباس .

واذا حل القصر بسرعة محل الملكية ، على ما هي عليه من قوة كما

يبدو ، فليس مرد ذلك إلى بنيته القوية وروح جماعته ، بفضل تطور حتمي ، بل لأن القوى المسلحة كانت بيده ، ووجد له الزعيم الذي يستطيع ان يوجه هذه القوى التي خوله اياها الادواق ، كما خوله زعيم الحدم (الماجوردوم) وحدة القيادة .

الادواق . — لم تكن وظيفة الدوق لتظهر الا نادراً في الجزء الاكبر من القرن السادس . وكان الكونت كافياً لتوجيه العمليات العسكرية تحت سلطة الملك ، الزعيم الحقيقي في البلاد . وفجأة ظهر الادواق منذ بداية الحرب الاهلية الكبرى التي دامت اربعين عاماً (٥٧٣ — ٦١٣) وأصبح يتكلم عنهم لقيادة الجيوش ، وبالمقابل أصبح الكونت استثناءً لأن وظيفة الدوق في أساسها عسكرية ان لم تكن خاصة . ويبدو انه لم تكن هنالك دوائر ثابتة « دوقيات » فكان يعهد إلى الدوق ، على الاقل ، بمدينتين ، وحياناً بثلاث مدن واربع أو أكثر. وتحلى الملوك مثل شليوبريك وغونتران وشيلدوير الثاني ، عن قيادة الحملات بصورة فعلية ووضعت الجيوش تحت قيادة دوق ، أو احياناً ، تحت اوامر عدة أدواق ، وربما كان ذلك تقليداً للشعوب الأجنبية كاليينزيين واللومباردين المشهورين بكثرة الادواق . وبسرعة ظهرت هذه الشخصيات الواعية لمصالحها وقوتها فظة متكبرة ، وأخذت تتزعم في القصر وتظهر وقاحتها وشراستها فكانت اشبه بالحيوانات المفترسة . وقد أرخ ظهور الدوق في التاريخ الميروفنجي بداية تشكل الحزب الارستقراطي .

حاجب القصر . — لم يرتفع أسم رئيس الحدم (الماجوردوم) عالياً في النصف الأول من القرن السادس . ومهما يكن عمله هاماً فلا يجعل منه موظفاً سامياً على رؤساء خدم الممالك الجرمانية الاخرى المعاصرة . على ان هنالك بعض الموظفين السامين ، كزعيم الكتاب أو كونت

القصر أو رئيس الحرس ، يستطيع أن يفرض سلطته على البلاط كله . فالوضع الرفيع منوط ولا شك بتأثير الشخصيات الذين شغلوا هذه الوظيفة في الثلث الاخير من القرن السادس ، وصعود الموظف رفع في الوقت نفسه الوظيفة . وهكذا قويت حالة الواقع وأصبحت نظاماً . وعندما انفجرت أزمة ٦١٣ ظهر الماجور سيداً حقيقياً للقصر والدولة في الدول الثلاث .

الكبار وحاجب القصر . - لقد أصبح الحاجب بحكم الواقع سيداً وما لبث « القصر » ان لاحظ ان الحاجب انتقل من مثل لشكاواه وطموحه وغدا مستبداً مستأثراً بالسلطة ، وبمسكاً بيده حياة القصر الاقتصادية ، وظيفته الأساسية ، ورئيساً للحرس المسلح وزعيماً للمتطوعين في خدمة الملك وحامياً ووصياً على المحاسيب والمهمين .

وفزعت الارستقراطية منه وحاولت أن تحذف الوظيفة او ان تختص بتسمية الحاجب لتستطيع الاشراف عليه ومراقبته . ولكنه استطاع أن يكون في مأمن من محاولات الارستقراطية لتهديده . وابتداءً من ٦٨٧ أصبح حاجب قصر اوسترازيا سيداً حقيقياً في المملكة كلها ولن يبدل لقبه الا بقلب الملك عام ٧٥١ .

ولقد بقي من الماضي الميروفنجي عند الملوك الكارولنجيين عاطفة مدارة الرؤساء وعدم القيام بأي محاولة دون الاسترشاد بنصحهم . وستكون وجهات نظر الكبار ، الذين يملأون « القصر » الكارولنجي ثم بلاط الكابسين ، وجهات نظر « القصر » في القرن السابع ، وستعتبر العائلات الكبرى بأنها تملك حقاً طبعياً في وظائف الدولة وفي انعام الملك ومرتباته ، وان الملك ليس إلا منتفعاً وموزعاً لثروة ، المملكة ، التي يعود ملك رقبتهما إلى مجتمع الناس من أهل الحسب والنسب . وسيظل هذا المفهوم للدولة مفهوم الطبقة النبيلة الفرنسية حتى النهاية .

الفصل الخامس عشر

النظم الكارولنجية

لقد كانت حالة الملكية الفرنجية في عهد الكارولنجيين كحالتها في عهد الميروفنجيين ، ولم يكن هنالك شعب سيد وشعوب خاضعة ، بل ان المملكة كانت ، بالرغم من اختلاف الاعراق ، تخضع لأنظمة واحدة .

فكرة الدولة . - ان الفكرة المجردة للدولة والقوة العامة مفقودة في عهد الكارولنجيين كما في عهد الميروفنجيين ، لأن السلطة الشخصية للملك كانت في أساس النظم ، وظلت هذه السلطة وراثية تقريباً ، وظل تقسيم المملكة وتقسيم الممالك التي انبثقت عنها بعد تجزئة ٨٤٣ ، قاعدة كما يقسم الارث الخاص . أما أن يفهم ان فكرة الامبراطور سلطة عامة لا يمكن تقسيمها ، وسلطة خالدة لا تتعلق بشخص الامير وتموت معه ، فذلك أبعد ما يكون عن أنظمة الدولة الفرنجية . ولقد حاول بعض كبار الامبراطورية أن تظفر هذه الفكرة الامبراطورية كفكرة مجردة فوق الاشخاص ، في عهد لويس التقي ، ولكن هذه المحاولة منيت بالافقار .

الملكية والوصول الى العرش . - النظام الملكي هو النظام السائد في الدولة الكارولنجية وفي الدول الناشئة عن تفتتها . كانت الملكية وراثية وتقتضي التقسيم بين اولاد الملك المتوفى . بيد أن الانتخاب الذي

قام به الكبار وتوصل بموجبه بين الثالث إلى العرش عام ٧٥١ عاد للظهور بفضل اضطرابات النصف الثاني من القرن في فرنسا الغربية : ورأى لويس الألكن ولويس الثالث وكارلومان حقوقهم الوراثة مؤيدة بالانتخاب ، وانتخب شارل السمين ، مع أن الوارث الشرعي كان الشاب شارل الساذج ابن لويس الألكن من زوجته الثانية . وانتخب شارل الأصلع ملكاً على إيطاليا عام ٨٧٦ ؛ وبوزون ، ملكاً على بروفانس عام ٨٧٩ ، وارنولف ، ملكاً على جرمانيا عام ٨٨٧ .

وهناك عامل أساسي آخر للوصول إلى العرش وهو المباركة التي لم يعرفها الميروفنجيون وأراد منها بين في ٧٥١ و ٧٥٤ أن تؤمن لانقلابه تصديقاً إلهياً . إن المسح بالزيت المقدس الذي يقوم به الأسقف في هذا احتفال هو في الواقع عمل ديني من حيث المبدأ ، ويقرب في قيمته الروحية من السر أي انه ينيل الملك فضائل خاصة ، ويجعل منه مخلوقاً مقدساً ، ويمنحه صفة كهنوتية . وبعد شارلومان أتبع المسح بعمل آخر يدخل في حفلة المباركة وهو التتويج ، وهو تقليد يخول بموجبه المنصب الامبراطوري ويمكن أن يتم بصورة مستقلة عن المسح . وكانت المباركة والمسح قاعدة في فرنسا الغربية ، إلا انها لم يكونا كذلك في فرنسا الشرقية ، حيث لم يخضع لها لويس الجرمانى ، أو أولاده ، أو ارنولف .

الحكم الملكي المطلق . - كان الملك الكارولنجي سيداً مطلقاً في مملكته ولا يخضع لأي التزام يلزمه الدين بموجبه باحترام الحق وممارسة العدل والتقوى ، شروط سلطته ، ولاشئ في الأنظمة يحدد هذه السلطة . ففي عهديين وشارلومان وبداية حكم لويس التقي لم يكن لجالس الكبار التي تتعقد في الربيع أو الصيف أو الحريف ، إلا صفة استشارية . أما بين الولاء التي يفرضها الملك على رعاياه ، فلا تخول أي صفة عقديّة

للعلاقات التي تجمع السيد والمسودين الملحقين به ، وليست الا من قبيل
تحصيل الحاصل .

ومع هذا يرى بعض التقييد ، للحكم الملكي المطلق ، بحكم الواقع وبحكم
الحق . فقد فرض الكبار المجتمعون إرادتهم على لويس التقيي ، وفي
فونسيا الغربية تعهد شارل الأصلع ، في مجلس كولن ، عام ٨٤٣ ،
حيال كبار الكنسين والعلمانيين ، باحترام حقوقهم ، وهذا التعهد شرط
للطاعة الواجبة للملك . ودام هذا التقليد في عهده وفي عهد خلفائه ؛
وكذا الحال في إيطاليا وفي بروفانس . وحقيقة الأمر ان الملوك في
فرنسيا الغربية ، ابتداء من شارل الأصلع ، لم يكونوا على درجة
كافية من القوة تجعلهم قادرين على ممارسة سلطتهم المطلقة . وإذا وجدت
بعض الظواهر المنعزلة لهذا الحكم المطلق ، فلا يمكن ان تتخذ دليلاً
على الحداد وتجاهل الواقع .

الملك المشرع . - كان الملك يشرع بشكلين : وذلك باصدار القوانين
والبراءات . أما القوانين فتؤلف حقاً خاصاً بشعب من الشعوب الداخلة
في المملكة ، وهي ، بصورة عامة ، سابقة للكارولنجيين . ولكن شارلومان
اعاد النظر في كثير من التشريعات الوطنية ، وخاصة في القانون السالي ،
وعني بأن تحفظ هذه التشريعات الوطنية مكتوبة ، ولم تكن من قبل
محررة . وهكذا نشأ في العام ٧٨٥ قانون الساكسونيين . وأخيراً نشر
عدة أوامر بغية ادخالها في جميع التشريعات او في بعضها . وقد سار على
منواله لويس التقيي ولوثير الاول .

أما البراءات فهي أوامر مقسمة على فصول وتمثل نشاطاً تشريعياً
أصيلاً . ونجد فيها قليلاً من الحق العام . ولكن الأحكام المتعلقة بالأصول
وحق البنات والحقوق الجزائية ليست نادرة ويتعلق القسم الأعظم

من البراءات بإدارة الدولة والجيش والتنظيم القضائي وحفظ السلام العام . وهناك بعض الأوامر المتعلقة بالكنيسة وتنظيم الاملاك . وتطبق البراءات على الدولة كلها أو على جزء من البلاد . وعلى خلاف القوانين ، يكون الحق الذي تضمنه هذه البراءات عاماً في المملكة . وفي فرنسا الغربية استمر شارل الأصغر وخلفاؤه في إصدار البراءات ، ودام تطبيقها في إيطاليا أيضاً . وبالمقابل لم تحفظ براءات لويس الجرمانى أو براءات اولاده .

ويشك في ان الاجماع يخول كبار جماعه عرقية اصدار قانون أو براءة ، أو ان تكون له صفة الزامية تربط الملك ، بيد انه من المؤكد ، في فرنسا الغربية ، على الأقل ، ابتداءً من شارل الأصغر ، ان ضعف الملكية كان بحيث ان « قبول » الكبار لتدابير الملك التشريعية يكفي لأن يفرض نفسه ويأخذ طابع نظام .

الامتيازات الملكية الأخرى . - لقد كان الملك يمارس سلطته في القيادة والعقوبة بأشكال مختلفة . فهو يدعو رعاياه لحمل السلاح ويقود جيشه ويقيم العدل في محكمة القصر ، ويحرص على حفظ السلام العام بالتدابير الآتية :

١ - بإصدار عقوبات في براءاته ضد كل من يخرق السلام وإلزامه بدفع غرامة ملكية ثقيلة قدرها ٦٠ سو .

٢ - بشجب كل من يخرق السلام .

٣ - بمطاردة كل من يؤلف خطراً على النظام : من اشقياء وقطاع طرق ومحرضي الحروب الخاصة واعضاء التجمعات المشبوهة المحرمة . غير أن القوة كانت تنقص ملوك فرنسا الغربية في النصف الثاني من القرن التاسع ، وفي عهد شارل السمين ، ملك فرنسا الشرقية ، لفرض احترام السلام العام لأن الحفاظ عليه سبب أسامي لوجودهم .

الامبراطورية والوصول الى المنصب الامبراطوري . لقد وجد المنصب الامبراطوري مرتبطاً بصورة منتظمة بصفة ملوك الفرنجة ، ولم يكن مع ذلك متمماً ضرورياً .

وقد استطاعت الوراثة أن تكون شرطاً في بلوغ الامبراطورية وكان الاباطرة الكارولنجيون حتى لويس الثاني « يعينون » من قبل آبائهم . غير أن التعيين والحق الوراثي ليسا شرطين كافيين . وليصبح الملك امبراطوراً لابد له من التتويج . وقد استطاع هذا التتويج أن يكون علمانياً : كتتويج لويس الثاني بيد أبيه ، عام ٨١٣ ؛ وتتويج لوثير الاول بيد لويس الثاني في ٨١٧ . وقد تم كلا التتويجين في ايكس - لا - شابل . ولكن بعد أن توج البابا للمرة الثانية لويس عام ٨١٦ ولوثير الاول في ٨٢٣ تمت التتويجات التالية طبقاً للطقس الذي اتبع في تتويج شارلومان امبراطوراً في ٨٠٠ : وذلك بأن « ينادى » بملك الفرنجة او بصورة رسمية « ينتخب » امبراطوراً ، كما جرى مع شارل الاصلع عام ٨٧٥ عندما نادى به الكبار امبراطوراً وتوجه البابا في كنيسة القديس بطرس . ومنذ ٨١٦ أضيف المسح بالزيت المقدس إلى التتويج . وإذا اعتبرنا التتويجات الثانية من ٨١٦ إلى ٨٢٣ التي يبدو انها تتضمن عدم كفاية الاولى وتفيد من ضعف سلطة ملوك الفرنجة ، فقد استطاع الباباوات ان يجعلوا الناس يقبلون بانهم وخدمهم يخولون السلطة الامبراطورية . ونادى البابا نيقولا الاول بهذا المبدأ ، وطبقه يوحنا الثامن بالإيعاز بانتخاب شارل الاصلع وتتويجه . وعندما فكر البابا ان يجعل من بوزون امبراطوراً ، كان على استعداد لتضحية الحقوق التقليدية للسلالة الكارولنجية .

السلطة الامبراطورية . - لاجال للشك في طبيعة السلطة الامبراطورية

فقد كان شارلومان وخلفاؤه يعتبرون أنفسهم ورثة شرعيين للباطرة الرومانيين ، ولقد كان جواب لويس الثاني إلى باسيل الأول ، في العام ٨٧١ ، صريحاً ورسمياً بهذا المعنى . وبهذه الصفة كانت السلطة الامبراطورية عامة ، وكانت كذلك أيضاً في أعين الناس الذين يفكرون ، وجلهم من رجال الكنيسة ، بأن الرسالة الأساسية للامبراطور تقتضي حماية الكنيسة ، العامة في جوهرها . وكان الامبراطور حقاً سيد العالم ، العالم الغربي على الأقل .

وواقع الأمر ان اللقب الامبراطوري لم يضاف إلى السلطة الملكية الا قليلاً : لقد جعلها أكثر جلالاً وبهاءً ، وزاد عند المليك الوعي لحقوقه وواجباته ورسخها بشكل أعمق في مفهومه الديني لواجباته كعاهل مسيحي . ولم يجلب من العناصر الايجابية الى الملوك الفرنجة الا حقوق السيادة على روما وعلى اراضي الكنيسة الرومانية . ولا ابعد في الواقع عن السيادة العامة للامبراطور من الامبراطور لويس الثاني . ومهما كانت مزاعمه فلم يكن سيداً الا على ايطاليا .

القصر . — كان القصر مركز الحكومة ، وكان متنقلاً كالملك ، الا المملكة اللومباردية وحدها فقد كان لها مقام دائم نسبياً وهو بافيا . ومع ذلك فقد أخذت ايكس — لا — شابل وجه عاصمة في عهد شارلومان ولويس التقي ولوثير الأول ولوثير الثاني .

وكان تنظيم القصر شبيهاً بما كان عليه في عهد الميروفنجيين . ولاشك في ان الكارولنجيين لم يستعوضوا بدلاً عن حاجب القصر ، ولكن السينيشال أصبح مكلفاً بالتدريج بالنظام العام وخدمة المائدة . وكان خدام غرفة الملك ، ونظار خوره و « الكونيتابل » و « الماريشالات » ، و « رؤساء الحرس » يعتبرون من بين كبار ضباط البيت الملكي . أما

نظار الاملاك الملكية في العهد الميروفنجي فقد زالوا في العصر الكارولنجي وعهد شارلمان بوظائفهم الى السينيشال وإلى ناظر الخمر ، بينما حافظ رئيس غرفة الملك على « الخزانة » .

أما كورنات القصر فقد ازدادت اهميتهم . وبعد ان كانوا في السابق اعواناً للقضاة في المحكمة الملكية ، أصبحوا في الحاضر يؤمنون رئاستها في الغالب . ويبدو أنهم قاموا بأعمال متفوقة بصفتهم مشاوري الملك في القضايا السياسية والقضايا الادارية . ويبدو في فرنسا الشرقية ان كورنات القصر كان تختصاً بمنطقة من المناطق الرئيسية في المملكة .

وكانت هذه الوظائف كلها في أيدي العلمانيين ، أعضاء الطبقة الارستقراطية ، وكان أصحابها مشاوري عادين للملك ، وهذا الملك يكلفهم في المناسبة بهام سياسية أو قيادات عسكرية ويأمرهم رجال مصالح دون مكاتب ، الا فيما يتعلق بمحكمة القصر ، وربما بإدارة الاملاك الملكية أو بالخزانة .

الديوان الملكي والقابلة الملكية . - وكان تحت تصرف الملك ، كما في عهد السلالة السابقة ، كتاب لارسال وثائقه الرسمية ورسائله وتحرير أعماله التشريعية ويحملون بوجه عام اسم نوتاري ، وكلهم من الاكليروس ، ويحتكرون التعليم ويسمى رئيسهم في الغالب مشاوراً ، وفي عهد لويس التقي أصبح بالتدريج يسمى رئيس المشاوريين . وكان هو والملحقون به يؤلفون « قابلة » الملك أي جماعة الاكليركيين الذين يعيشون في القصر الملكي . وابتداءً من ٨٥٤ ، أصبح رئيس القابلة ، في فرنسا الشرقية ، رئيساً للديوان الملكي والحق به مشاوري وهذا الخلط في الوظائف ، الذي وجد أيضاً في فرنسا الغربية ، وعلى الأقل في عهد شارل الأصغر ، ابتداءً من ٨٦٧ ، لم يحدث في ايطاليا .

المفتشون والتحقيق . - لقد جرى بين وشارلومان أكثر من اسلافها على ارسال مفوضين خاصين (ميسى دوميني) مكلفين بتفتيش اعمال السلطة الملكية والضرب على أيدي المفسد . وفي العام ٨٠٢ ضبط النظام : فقد قسمت ارض الامبراطورية إلى مفوضيات ، واختصت كل مفوضية في الغالب بمفتشين : كنسي وعلماني . وكان هؤلاء المفتشون يتلقون تعليمات واضحة ويلزمون بتقديم تقرير عن أعمالهم . ويبدو أن سلطاتهم كانت نفس السلطات التي يارسها الملك بنفسه .

وفقد عمل المفتشين الكثير من قوته وتأثيره عندما ادخلت ، في عهد لويس الثاني ، العادة في تحويل المفوضيات في الغالب إلى أساقفة وكونتات من المنطقة . وبهذا الشكل أخذ المفتشون ، في ايطاليا وفرنسيا الشرقية أو الغربية بصورة عامة ، صفة دائمة . وفي النصف الثاني من القرن انحط النظام تماماً . وحيث احتفظ بصفة المفتش ، لم يكن لهذه الصفة من أهمية سوى زيادة سلطة الاساقفة والكونتات أو اتباع الملك الذين كلفوا القيام بها .

الكونتات والكونتيات . - لقد بقيت الكونتية الدائرة النموذجية للملكية . حتى أن الحركة التي تنزع منذ القرن السابع لتجزئة « مدن » وسط غالبا وجنوبها إلى عدة كونتيات ، قد قويت ، وكذا الحال في المناطق الجرمانية ، باستثناء ساكس ، حيث ضمت عدة مقاطعات إلى بعضها لتؤلف كونتية . وظلت سلطات الكونتات على حالها . وبعد أن كانوا أكثر خضوعاً وانقياداً لسلطة بين وشارلومان، بدأوا يتحررون في عهد لويس الثاني . وما كانوا ليكافأوا على أعمالهم بأكثر مما كانوا عليه في عهد الميروفنجيين . وكانت الملك يمنحهم وفقاً يتألف من عدة دومينات ويخولهم إياه بشكل انتفاع ، على أن يؤمن حياتهم . ويجب أن يضاف

الى هذا الانتفاع الاديرة . ولم يكونوا راضين وأخذوا يضغطون على المقاطعات . ومنذ حكم شارلومان ارتبطوا بالملك بروابط التبعية . وفضل الكارولنجيون اختيار الكونتات من بين أعضاء الطبقة الارستقراطية « الفرنجية » بخاصة في بلاد الموز والراين والموزيل والمالين ، ومن بين عدد محدود من العائلات مازلنا نجد عدداً من أعضائها في ايطاليا والمنطقة الدانوبية وفي فرنسا وبافاريا . ولكن هذا الاصطفاء لم يكن فريداً خاصاً ، بل ان البلاد المفتوحة حديثاً مثل ساكس وثغور اسبانيا وجدت فيها سلاسل كونتية . وجرى التعامل ، في عهد لويس التقي ، على اعطاء عدة كونتيات الى شخص واحد .

ودخل التنظيم الكونتي الى ايطاليا ، وحل الكونتات محل الادواق اللومباردين ، وحل الغاشتالد ، في المناطق التي لم ينشئ فيها اللومبارديون دوقيات . وفي دوقية سبوليت رفع الغاشتالد الى رتبة كونت . وكان الملك يسمي الكونتات وينقلهم ويعزلهم . ولكن هذا الحز لم يمارس في عهد شارل الأصلع في فرنسا الغربية الا بشقة زائدة : فة تكون مع الزمن استمرار ووراثة واقع . وكانت ممارسة هذه الامتيازات في فرنسا الشرقية تلاقي ايضاً عقبات في عهد شارل السمين .

الثغور والدوقيات . - لم يرجع الكارولنجيون الدوقيات التي اغاها اسلافهم في القرن الثامن ، ولكنهم انشأوا على الحدود دوائر جديدة وهي **الثغور** . وتضم هذه الأخيرة بصورة عامة كونتية او كونتيات من الملكية القديمة وبلاداً مفتوحة تسكنها شعوب من عروق أخرى ولكنها لم تنظم الا أخيراً بشكل كونتيات: مثل الثغور الدانباركية الشرقية في ساكس ، والشرقية في بافاريا ، كارانثيا ، فريول ، ايستريا ، اسبانيا ، بروتانيا .

- ٣٣٨ -

والرئيس في الثغور كونت ويحمل أحياناً لقباً آخر : محافظ ، دوق ،
ماركيز ويتمتع في سبيل الدفاع بسلطات أوسع من سلطات للكونت العادي،
وخاصة بإقامة جيوش ببادته الخاصة . وأحياناً تكون هذه السلطات خاصة
أيضاً بالكونتات الذين يقومون على رأس الكونتيات الواقعة على الحدود
وغير المتجمعة في ثغور أي في مواقع محصنة

وكان رئيس الثغر صاحب كونتية أو عدة كونتيات ، وعلى رأس
الكونتيات الأخرى يوجد كونت أو « فيكونت » . وقد وجد في البلاد
المفتوحة أحياناً أمراء محليون كالزعماء السلافيين في بانونيا تحت سلطة ماركيز.

وبعد شارلومان انشئت مؤقتاً قيادات في المناطق المهددة ووجد على
رأسها دوق . ومنها أتى اسم الدوقية التي تنسب إليه غالباً مثل دوقية مين،
دوقية « ماين السين واللوار » ، دوقية أوتز ، الفلاندر في فرنسا الغربية
في عهد شارل الأصلع ، ودوقية ساكس في فرنسا الشرقية . وأصبح
بعض هذه الدوقيات دائماً . وفي إيطاليا كان زعيم مثل هذه القيادات يحمل في
الغالب لقب ماركيز : مثل مراكيز طوسكانا المكلفين بالدفاع عن الشاطئ ضد
هجمات المسلمين .

الدوائر والعمال الملحقون . - وفي القرن الثامن تمّ تماثل بين نائب
الكونت أو مساعده في الاجزاء المرومنة في الملكية وبين العامل الملحق
بالكونت في الأقسام الجرمانية . وكانت صلاحية هؤلاء الضباط الملحقين
بالكونت محدودة بالطبع أكثر من صلاحية الكونت وخاصة فيما يتعلق بالقضاء.
وفي عهد شارلومان ظهر موظف آخر وهو **الفيككونت** ، نائب الكونت .
وهو يسمى من قبل الكونت ويمارس سلطاته . وعندما أصبح تحت سلطة
الكونت عدة كونتيات جعل على رأس كل كونتية منها نائباً عنه ، فيكونت .

ولا يوجد أى اثر يدل على ادارة مستقلة للندن . فقد اعطيت هذه الأخيرة كلياً أو جزئياً الى الاسقف لديرها بنفسه . ويبدو في ايطاليا ان المدن القديمة حافظت ، تحت سلطة الكونت او الاسقف العليا ، على بعض الاستقلال الاداري .

التنظيم القضائي ، (الماللوس) . - لقد ظلت الماللوس المحكمة الاقليمية الممتازة . وقد دخلت في القرن الثامن في بروفانس وسبانيا وايطاليا ؛ وفي القرن التاسع في تغور اسبانيا . ويوجد ، ولا شك ، محكمة في كل كونتية ، ولكنها كانت تتعقد تبعاً في كل دائرة من الدوائر الملحقة بالكونتية . وظل دور الكونت او مندوبه الذي يتأمر المحكمة ومساعديه ، الذين « يجدون » الحكم ، على حاله كما في العصر السابق .

ولا مربة في ان شارلومان قام في ٧٨٠ باصلاح هام جداً بمجدوده في ذلك رغبة مزدوجة في تخفيف الأعباء التي تنقل على الناس الأحرار ، وفي تأمين عدالة افضل . فقد حدد ثلاثة مجالس قضائية في العام يحضرها الناس الأحرار . ومن جهة أخرى ربط بكل محكمة هيئة دائمة من المساعدين « قضاة بلدين » يسميهم الكونت ويشرف عليهم .

ولقد نفذ هذا النظام الى المناطق الجرمانية غير الفرنجية التي حافظت حتى ذلك الحين ، على نظامها القضائي الخاص : في الساكس ، حيث حل نائب شيخ البلد محل المساعدين العارضيين ؛ وفي الامانيا وبافاريا حيث ازيل « موجدو الحكم » . وفي هذه البلاد كلها ظل الحكم خاضعاً للتصديق الشعبي الذي لانجسد له أثراً في فرنسا في زمن الميروفنجيين .

أصول المحاكمات وحق الاثبات . - وما فتئت الشكلية سائدة في

أصول المحاكمات ، كما ان حق الاثبات لم يتبدل في خطوطه الكبرى ومع ذلك ، يذكر لجوء المفتشين والكونتات الى التحقيق في قضايا الردع والزجر وخاصة للكشف عن الأسقياء . ثم يتبع هذا التحقيق بلاحقة الأشخاص الذين كشف أمرهم . ويصادف ايضاً التحقيق في القضاء المدني ، ولكنه مازال استثناء بعد . أما حالات الجرم المشهود فتبقى من اختصاص الضابط القضائي دون تدخل المحكمة .

وليؤمن شارلومان الحفاظ على القرارات القضائية واحترامها بشكل افضل الحق بالمحكمة « الكاتب العدل » ومهمته تسليم المتداعين مذكرة الحكم . ولكن هذا الاصلاح لم يعمل به الا بصورة متفرقة ولم يحافظ عليه الا في بعض الامكنة .

محكمة القصر . - لقد ازدادت اهمية محكمة القصر ، وظل تركيبها نفسه في المملكة الكارولنجية الموحدة وفي كل من الدول التي نشأت عن تجزئتها : فخارجاً عن كونت القصر كان المساعدون كباراً يعينهم الملك ، ولا يرى فيهم « قضاة دائمون » الا في ايطاليا حيث يرى ان المحكمة الملكية تضم شيوخ بلد دائمين (قضاة بلديين) ومن المفروض ان يصدر القرار عن الملك حتى ولو كان غائباً . وكان أصول المحاكمة فيها اكثر مرونة بما في المألوس ، واللجوء الى التحقيق يبدو غالباً .

ولا يعرف استئناف المحاكم البلدية لدى محكمة القصر ، ولكن الملك يقبل اللجوء اليها في حال انكار العدالة واعمال الطعن في حكم المحكمة أي التظلم ضد القضاة المتهمين باعطاء حكم مخالف للقانون .

اما « المجالس القضائية » التي يعقدها المفتشون اثناء جولاتهم فيمكن ان تشبه لحد ما بجلسات محكمة القصر .

شخصية الحقوق . - لقد دام نظام شخصية الحقوق في عهد

الكارولنجيين ، وادخلوه بدورهم الى ايطاليا . وفي المناطق الخليفة السكان كانت هيئة القضاة البلديين تضم اعضاء عاشوا في ظل حقوق مختلفة مازالت مرعية الاجراء في بلدهم . غير ان تطبيق هذا النظام لا يكون ممكناً إلا من أجل شعب له اهميته . وفي الاحوال التي يكون فيها جمل او شك كان يطبق الحق الغالب في التعامل ، حق اكثرة السكان . وهذا ما ساعد على تشكل أعراف اقليمية .

وكذا الحق الملكي ، عمل في اتجاه الحق المتعارف عليه في الاقاليم ، وفي الميادين التي كان يمارس فيها هذا الحق ، كان يساعد على نشر نفوذ الحق الفرنجي .

الجيش . - ظلت الخدمة العسكرية اجبارية على جميع الناس الاحرار وعلى نفقتهم . ولم يخضع لها الاقنان والمعمرون باكثر من الناس الذين وهبوا أموالهم أو اشخاصهم للكنيسة ، ويدفعون لها ضريبة انتفاع او اقاوة « الاربعة دنانير » . على ان العبء الاكبر كان يقع على كاهل الناس « الفرنجة » الأحرار الذين أصبحوا اقلية . وفي عهد شارلومان كانت الخدمة العسكرية ، من حيث المبدأ ، على الرجل الحر الذي يملك او ينتفع بملكية تتراوح من ٤ إلى ٥ مانسات أي من ٤٠ - ٦٠ هكتاراً . ومثل هذا المستغل يعتبر في ايامنا متوسطاً . وفي بعض الظروف الحرجة يمكن للملاكين او مستفيدين من مستغلات اقل من ٣ ، ٢ مانس ان يتجمعوا بشكل بنطلق محارب بجمع ٣ + ٢ أو ٢ + ٢ ، او ٤ مانسات منزلة . ومن الممكن حقوقياً ان يدعى للخدمة « فرنجة » دون أي مورد .

وفي الواقع ان تفوق سلاح الفرسان وظهره تدريجياً في الطرق التعبوية الزم بالايدي الا الاتباع والملاكون الاغنياء لتحمل النفقات

الباهظة جداً لتجهيز الفرس . وهذا يعني ان الجنود كانوا قلة . وفي آخر القرن التاسع كان الجيش يتألف من الفرسان فقط . وفي بعض اجزاء فرنسا الشرقية ، كما في ساكس ، يبدو ان جيش المشاة كان يشكل عنصراً هاماً في الجيش اكثر منه في أي اقليم آخر .

وكان الملاكون الأحرار يزحفون تحت اوامر الكونت . وكان اتباع للملك يلتحقون بجيش الملك مباشرة . وعندما تدهم البلاد غارة يجتشد الجميع حول الكونت . وفي هذه الحالة لا يوجد أي تحديد للحمل السلاح والدفاع عن البلاد ،

الاسطول . - لم يكن للملكية الفرنجية والدول التي نشأت عن تفتتها اسطول حربي اهل لهذا الاسم . وقد ذهبت عبثاً جهود شارلومان لانشاء اسطول في بحر الشمال . بيد ان جهود لوثير الأول في ايطاليا كانت أسعد حظاً وحازت بعض النجاح على المسلمين . ولكن هذا النجاح ظل يوماً ليس له غد .

النقد . لقد خضع التنظيم النقدي في الملكية الفرنجية لنفوذ السكارولنجيين كالعدل والجيش . فقد استعاضوا عن سك النقد الذهبي بالسك الفضي ، وصنعوا من النقد مصلحة عامة بضرب النقد في المشاغل الملكية . وقد منحت امتيازات حق ضرب النقد للكنائس منذ عهد لويس الثقي راقتضت لزوم الحفاظ على النموذج الملكي .

وفوق ذلك غير بين بصورة عميقة نظام النقد وأعطى إلى الوحدة النقدية وهي الدينار الفضي ضعفاً حسابياً وهو للسو وطبق بينها نسبة ١٢ ديناراً في السو . وهذه النسبة أخذت عن القلنون الريبوري وترجع في الأصل الى بيزنطة . وأتم شارلومان الإصلاح قبل ٧٧٩ بأعطاء السو بدورها ضعفاً حسابياً وهو الليرة وتساوي ٢٠ سو .

الواردات الملكية . - كانت واردات الملوك الكارولنجيين تأتي من دوميناتهم العديدة وتقدر بعدة مئات . غير ان الهبات الدائمة التي يهبها الملوك الفرنجة إلى الكنائس وإلى الموالين لهم انقصت بشكل عظيم ثروتهم العقارية . وكانت هذه الأخيرة تدار بعناية حسب قواعد وضعها شارلومان في ارادة شهيرة له . ولم تكن الدومينات بنجوة من الاغتصابات .

وكان للملك الحق بضرائب لنفسه ولعماله اثناء انتقاهم وتجوالمهم مثل حق الايواء والاطعام وحيوانات الجر والحمل . ويحق له ، من اجل الجيش ، مصادرة تجهيزات العربات او ما يقوم مقامها من اثوات ، ويعود له جزء من الغرم وكثيراً ما كان الكونتات يغتصبونه لانفسهم .

ويحسن ان يضاف إلى هذه الضرائب العينية سخرة العمل ويلزم بها الملاكون الاحرار لصيانة الطرق والجسور والقصور الملكية، ومن الممكن ان تلزم جميع الرعايا دون تمييز ببناء الحصون .

ولم يبق من الضرائب المباشرة الرومانية القديمة في بلاد غرب الراين هنا وهناك الا اثوات منعزلة عقارية أو شخصية واجبة للملك . ووجدت اثوات بمائة لها في كل من البانيا وفرنكونيا والبلاد الرينانية وأصلها غامض . ولندكر أخيراً الهبات السنوية التي يأتي بها الكبار إلى الملك في مجلس الربيع في الاجزاء الجرمانية من المملكة .

أما الضرائب غير المباشرة كضريبة التجار والرسوم الملحقة على المواصلات فقد حوفظ عليها اكثر من الرسوم المباشرة ، ولكن الملوك مسحوا عدداً من الامتيازات إلى الكنائس وإلى الموالين لهم ، وأكثر من ذلك أن كثيراً من هذه الرسوم كان موضع اغتصاب وخاصة في فرنسا الغربية وفي ايطاليا .

— ٣٤٤ —

وابتداء من ٨٤٥ وجد تنظيم جديد وموقت للتكاليف المباشرة في فرنسا الغربية . ففي كل مرة يراد بها شراء رحيل النورماندين — مثمرات حتى ٨٧٧ — كانت تجبى ضريبة عقارية حسب المائسات تفرض بخاصة على اراضي الكنيسة وانتفاعات التابعين . ولا شك في أنها كانت تثقل كاهل المزارعين . وكان يتممها رسم شخصي على الناس الأحرار غير الملاكين أو المزارعين .

ويبدو انه لم يوجد ، ولو في حالة اولية ، ادارة لحزنة الملك ، او أي انتظام في النفقات . ومما يكن فان المصالح العامة ما كانت لتمتص شيئاً من واردات الملك .

الحصانة . — لقد وزع الكارولنجيون اكثر من أسلافهم امتيازات الحصانة . بيد ان طابع الامتياز تحول منذ عهد شارلومان . ولا شك في ان الحصانة تتضمن ايضاً منع المستفيد كل ما يمكن ان تجبيه الضريبة الملكية من الدومين المحصن . وبوجها منع لكونت من النفوذ إلى داخل الدومين . ووافق هذا المنع امتداد القضاء الذي كان يمارسه سيد الدومين باعتباره ملاكاً كبيراً . وظلت الجرائم الأكثر خطورة من غيرها ، وعلى الأقل نظرياً ، الخلافات بين سكان الحصانة والاجانب من صلاحية المحكمة العامة . والحق معترف بكل حصانة . وكان يعين من قبل الملك ووظيفته السهر على تأدية المحصن وسكان دوميناته واجباتهم العسكرية والقضائية وغيرها حيال الملك . وعليه ايضاً أن يحمي الحصانة ويمثل المحصن و « رعاياه » أمام عمال الملك والمحاكم العامة . وكان إلى جانب المعرف في الاسقفيات وكيل كنسي .

ومنح شارلومان وخلفاؤه امتياز الحصانة إلى معظم الابويات والكنائس الاسقفية الهامة في ممالكهم ، وجعلوا منها « حقاً عاماً » للمؤسسات

الكنيسة . وكان الكارلنجيون يعتقدون بان تقوية الاساقفة والآباء تساعدهم على تقوية سلطتهم الخاصة باعتمادهم على رجال الدين في مراقبة الكونتات والزامهم بواجباتهم .

ولا يعلم بامتيازات حصانة للأمرء العلمانيين من قبل الكارولنجيين ، ولكن لويس التقي وشارل الاصلع خولا اللاجئين الاسبان المقيمين في سبتيانيا وفي الثغور الاسبانية نظاماً شبيهاً جداً بالحصانة . وكان المراد من هذه الحالة أو تلك الحصول على الضمانات الكفيلة ضد استبداد الكونتات وعنفهم .

ايستويا . - لقد كان لاقليم ايستويا البيزنطي ، الذي ضم للملكية الفرنجية عام ٧٨٨ ، صفات خاصة تجدر الإشارة اليها . فقد قام فيه دوق فرنجي مقام الحاكم العسكري الامبراطوري . اما الموظفون الاداريون والقضاة الادنون المنتقون من بين الملاكين الكبار المحليين ، خلفاء قدامى قادة الوحدات العسكرية البيزنطية وورثتهم في القابهم ، فقد جردوا من سلطانهم العامة . وأما الضريبة القديمة العامة التي كانت تجبى في السابق لصالح الخزانة الامبراطورية فقد ظلت تجبى لحساب الدوق .

الامارات اللومباردية في جنوب ايطاليا . - وكانت الحالة تختلف تماماً في دوقية بينيفن وفي امارات سالرن وكابو الناشئة عن التجزئة الامبراطورية . فقد كانت السيادة الفرنجية على هذه البلاد اسمية ويعبر عنها بدفع ضريبة غير منتظمة . وكان الدوق فيها سيداً حقيقياً ويسمى « برنيسيس » ويعتبر وارثاً شرعياً للملك اللومباردين

الأراضي الطبرية . - اما في الاراضي التي تؤلف دولة الكنيسة فقد كان السادة الفرنجة يحتكرون حق السيادة بصفة « حماة » أولاً ، ثم « اباطرة »

- ٣٤٦ -

وظهر حق السيادة بشكل اشراف واعمال عدلية جزائية او مدنية في حالات خطيرة بصورة خاصة . وكان الاباطرة يقومون بهذا الاشراف اما بأنفسهم أو بواسطة مفتشين « هيسي » فوق العادة أو بواسطة مفتش امبراطوري دائم اقيم عام ٨٢٤ ثم حذف فقط بين ٨٦٥ و ٨٨١ .

وكانت السيادة الفعلية بيدي البابا ويمارسها بمساعدة هيئات ادارية مختلفة . وربما ظل مجلس الشيوخ الروماني مؤلفاً من اعضاء الطبقة الارستقراطية باعتباره هيئة ملحقة بالسلطة الحبرية . وكان اسمى موظف في روما ، محافظ المدينة ، مخولاً بسلطات الشرطة والقضاء الجنائي والقضاء المجاني . وكان يارس هذه الوظائف في وافيته قناصل . وكان القناصل والأدواق يسهرون ، في روما ، على ان يمثل المتهمون في القضاء . وكانت المليشا الرومانية تتألف من اثنتي عشرة وحدة .

وبالمقابل كان زعماء الديوانية الحبرية ، الذين ترأسوا ادارة الدولة والكنيسة واموال القديس بطرس ، اكليركيين يقيمون في قصر لابران ويمجزيهم البابا . وعدا عن هذه الوظائف الادارية كانوا يقومون بوظائف القضاء . وكان إلى جانبهم كبار موظفي البلاط الحبري بتأثيرهم ونفوذهم على الحكومة ، ونخص بالذكر منهم « قيم المكتبة » انسطاس الملقب بـ « المكتبي » وكان من الأعوان الهامين في بلاط نيقولا الأول وهادريان الثاني ويوحنا الثامن ؛ وحادثس اللباس الليتورجي في الاحتفالات الدينية والمصوغات المقدسة .

وكان على رأس المدن والدوائر البلدية « الأدواق » و « الحكام » وهم من زعماء المليشات المحلية ، والملاكين الكبار واعضاء الطبقة النبيلة الرومانية

— ٣٤٧ —

وكانوا في الغالب اعداء الداء للديوانية الجبرية واستطاعوا ان يتغلبوا عليها
غداة وفاة البابا يوحنا الثامن .

ووجد خصم آخر للحكم المطلق الجبري ويتمثل في شخص اساقفة رافينا
فقد كان أصحاب هذا الكرسي يزعمون إلى ان يحتلوا ، تحت سلطة الامبراطور
السامية ، وضعاً موازياً لوضع البابا في دوقية روما ومستقلاً عنه ، ولكنهم
لم ينجحوا في مسعاهم .

الفصل السادس عشر

تحول المجتمع الفرنسي

الوصول الوفاة

لقد اطلق اسم « النظام الاقطاعي » على النظام الاجتماعي والسياسي الذي يميز العصر الوسيط ويناقض النظام القديم من جهة والنظام الحديث من جهة أخرى .

ولا بد لنا قبل البدء في البحث من ان نعين مايجب فهمه من كلمة « الاقطاعية » ولذا ينبغي علينا باديء ذي بدء ان نحدد كل تعبير مجازي يجري على الألسن . فقد درجت كلمة « الاقطاعية » وصار الناس يتكلمون عن اقطاعية بيزنطية ويابانية ومصرية وهندية وغيرها .

غير أن هذه التعابير ليست الا تعابير كلامية ولا ينتج عنها إلا أثر أدبي ، ولكنها في الوقت ذاته خطرة ولا تخلو من محاذير ، وذلك لأن استعمال هذه الكلمة ، في كل مناسبة وكيفما اتفق ، يزيل عنها كل معناها ويجعل هذه المجتمعات المختلفة ، التي وصفناها بهذه الصفة ، بشكل واحد . وفي ذلك ما فيه من خداع وضلال . ولذا يجب الا يتكلم عن النظام الاقطاعي الا عندما يراد الكلام عن الأرض ، التي نشأ فيها هذا النظام ولما واتسع واخيراً زال من الوجود ، وهي أوربة الغربية وبصورة خاصة « المملكة الفرنسية » .

وفي الحقيقة ان الاقطاعية خاصة بالعصر الوسيط وبأوربة الغربية في هذا العصر . ولكن هذا لا يمنع من وجود اقطاعية في غير اوربة قد تشبه الاقطاعية الاوربية في العصر الوسيط من بعض الوجوه او تختلف عنها في وجوه أخرى .

تعريف الاقطاعية . — لقد عرفت الاقطاعية بتعاريف كثيرة ولكن هذه التعاريف تؤدي إلى صيغة واحدة وهي : تجزئة الملكية والسيادة لأن المتقاسمين ، الأمير وتابعه ، أو الملك وتابعه ، يعيشان عيشة مشتركة ولا يمكن تصور أحد الشريكين دون الآخر . وليس هناك تفتت حقيقي ، ولو كانت الحالة هكذا لوقع المجتمع في فوضى تامة . ان المثل الأعلى الذي يرمي اليه المجتمع الاقطاعي يخالف هذا الوضع . فهو يريد ان يحقق اتفاقاً منسجماً بين الاشخاص والأشياء والحقوق التي يتصورها متحدة بالطبيعة . وعلى هذا فالاقطاعية انحلال غير تام وغير قابل لأن يكون تاماً ، انه حالة التصاق للمادة السياسية والاجتماعية .

طبيعة الاقطاعية السياسية والاجتماعية . — لاعطاء فكرة واضحة عن هذه الطبيعة السياسية والاجتماعية للاقطاعية يجب أن نوضح الصفات الأساسية للنظام السياسي والاجتماعي للاقطاعية .

تمتاز الاقطاعية من الوجهة الاجتماعية بالشكل الذي تملك فيه الأرض . ومن الوجهة السياسية بوجود تسلسل في السلطات تعمل مستقلة ، ماعدا الالتزام الذي من شأنه تأدية واجبات شخصية . والمفهوم الاقطاعي من الناحية الاجتماعية والناحية السياسية يخالف الماضي والحاضر أي النظام القديم والنظام الحديث . ففي الحقوق الرومانية ، كما في أيامنا هذه ، تعتبر الملكية أساساً للعلاقات الحقوقية . أي ان لكل أرض مالك ، والملكية التامة

تبدو حالة طبيعية . أما في العصر الوسيط ، فعلى الأرض الواحدة تقوم حقوق تختلف طبيعتها ، حتى ان فكرة الملكية تزول عنها وتفقد كل معنى . وكذا الأمر ، اذا انتقلنا من الناحية الاجتماعية الى الناحية السياسية ، نرى عند الرومانيين ، كما عند المحدثين ، ان فكرة الدولة فكرة أساسية مستقلة عن الشكل المخصص للحكومة . وليست الحكومة سوى شكل لتحقيق فكرة الدولة التي تعتبر شيئاً عاماً . وسيادة الدولة عند الرومانيين ، كما هي عند المحدثين ، تمارس سلطتها بواسطة الحكام أو الموظفين . أما في النظام الاقطاعي فليس هنالك حكام ولا موظفون ، كما لا يوجد دولة . لأن الموظف في القديم ، أصبح بصفته الشخصية ، يارس الوظائف التي كان يارسها سابقاً بصفته مندوباً عن الدولة . وهكذا نرى تسلسلاً في السلطات من الناحية السياسية وتوضعاً في الحقوق من الناحية الاجتماعية . وان هذا التسلسل في السلطات ، الناشئ عن التملك المتحقق في جميع الدرجات ، يطابق في الناحية السياسية توضع الحقوق الذي يقوم مقام الملكية التامة في الناحية الاجتماعية .

ومن هنا يمكن القول ان الاقطاعية نشأت عن تجزئة الملكية من الوجهة الاجتماعية وعن تجزئة السيادة من الوجهة السياسية .

فكرة التطور الاقطاعي . - على ان النظام الاقطاعي ، وان كان يختلف عن النظام الذي سبقه ، فقد نشأ عنه مباشرة . وليس هنالك أي ثورة أو ارادة فردية عملت على غرسه ، بل ان التطور البطيء أوجده . ولذا فمن الممكن ان تعتبر الاقطاعية داخلة في زمرة « الحوادث الطبيعية » في التاريخ . وقد تشكلت تدريجياً مع الزمن وبقوى ميكانيكية . على ان هنالك حادثاً ظاهراً استدعى اهتمام الباحثين في قضية « الاقطاعية »

وهذا الحادث هو الغارات البربرية التي وقعت في مطلع العصر الوسيط وبلغت درجة من السعة لم يبلغها أي حادث آخر . حتى ان التطور الناجم في الغرب لم يكن سوى ثم منطقى للحالة التي أوجدتها الغارات ، وان حادث الغارات في ذاته لم يكن سوى نفوذ وسطين بقيا حتى الغارات جنبا الى جنب وهما الوسط الامبراطوري والوسط البربري .

اذن نرى ، في نقطة البدء ، انضمام عناصر وتلاقى عالمين . ولذا تبدو قضية الأصول الاقطاعية ، في اعين المراقبين ، وكأنها محولة بواسطة تمييز السابقات التاريخية . هذا ولما كان المجتمع في العصر الوسيط قد نجم عن انصار المجتمعين ، فيكفي اذن ان يميز من أي العنصرين الروماني او البربري اشتق هذا العنصر الاقطاعي . ومثل هذا النمط في تفهم القضية يبدو مشروعا ، لاسيا وان التعابير التي تدل على النظم في العصر الوسيط كانت طورا رومانية وطورا بربرية ، وأن اللغة الفنية في أعلى العصر الوسيط كانت خليطا دائما من اللغتين . وليس بالغريب في هذه الشروط ان نرى الفقهاء والمتعمقين في الدراسات قد جهدوا حثيثا في البحث عن ايضاح النظم الاقطاعية في العالم الامبراطوري او العالم البربري ، واتجه بعضهم في اتجاه الى المصادر الرومانية ، وآخرون الى المصادر الجرمانية ؛ ونشأ عن اتجاه مدرستان : المدرسة الرومانية والمدرسة الجرمانية ، وأخذت كل منهما تناوى الأخرى . وقد خرج عن كليهما ممثلون مشهورون وآثار ومؤلفات هامة أغنت المصادر التي تتناول هذا الموضوع . الا ان كلاً من المدرستين لم يف بالغرض . ونرى ، على كل حال ، ان تعالج القضية بشكل يختلف عن شكل النظريات المعقدة التي كان يجابه كل من الفريقين بها الآخر .

ولاشك في ان معرفة السابقات التاريخية أمر مفيد . غير ان السابقة ليست عاملاً وحيداً ، أو انها ليست اكثر دلالة من غيرها ، وليس

المهم ان يعرف من أين اتى العنصر الاقطاعي ، بل لماذا أصبح هذا العنصر اقطاعياً وكيف اخذ في المجتمع الاقطاعي هذا المكان وهذه الوظيفة الذين نعتز بهم له ، أو بتعبير آخر ان السابقات في حال الاقطاعية سواء أكانت رومانية أم بربرية ليست سوى مادة وشكل . وإذا أصبحت هذه العناصر على ما كانت عليه اقطاعية فذلك يرجع إلى تطور لا يبحث عن سره في روما أو في جرمانيا . ان الاقطاعية حادث من « الحوادث الطبيعية » في التاريخ ، وان تشكلها حدث بتأثير قوى شبيهة بالقوى الجيولوجية ؛ وان هذه القوى أثرت في المادة أي في هذه السابقات التي لا يتطلب منها ان تأتينا وحدها بايضاح كامل للتطور .

ومن السهل ، بعد وضع هذه المبادئ ، ان نستنتج منها الطريقة التي يجب سلوكها لنعطي فكرة عن نمو الاقطاعية ونبين على وجه الصحة ، ما امكن ، السابقات التي لامندوحة عن الرجوع اليها ، والقوى التي أثرت في هذه السابقات وأعطتها حيوية جديدة ومنظراً جديداً .

ونتساءل بعد هذا عن القوى المؤثرة التي أدت الى الاقطاعية فنجدها في زمرتين : الاولى اجتماعية والثانية سياسية. تظهر الاولى في اندفاع النزعة الاقتصادية المؤثرة على الملكية ، وتظهر الثانية في قوة تنافس الدولة وهي مبدأ التضحية الشخصية .

إذا رجعنا إلى العصر الفرنجي وجدنا أنه لم يكن « اقطاعياً » . فقد ظلت سلطة الملك مطلقة نظرياً ، وكان الأدواق والكونتات والمراكير موظفين قابلين للعزل ولم تختلط وظائفهم بعد بالانتفاع أو الاقطاع . وكذا امتيازات الملكية ، فقد ظلت باقية ولم تخدش الا قليلاً ، وما زالت الملكية تتمتع باقامة العدل وضرب النقود واقامة المعارض الموسمية

والاسواق . وبقيت الضريبة المباشرة بشكلها العقاري والشخصي حتى آخر القرن التاسع ، كما بقيت « الهبة السنوية » تجبى حتى هذا التاريخ وظل الجيش ملكياً وقومياً في آن واحد . وكان على كل رجل حر القيام بالخدمة العسكرية للملك وللملك وحده .

وما زال التضامن الاجتماعي موجوداً . فقد اختلط الفرنجة بالغالين - الرومانيين وانصهروا مع بعض وشعر الجميع بأنهم فرنجة اوفرنسيون كما بدأوا يقولون . حتى ان عاطفة الاخاء ، بين الفرنجة الناطقين باللغة الجرمانية العامية والفرنجة الناطقين باللغة الرومانسية ، مازالت قائمة ولم تتمح حقاً الا بعد عام ٨٨٨ . يضاف إلى ذلك ان من كان داخلاً في عضوية الامبراطورية الفرنجية من البورغونديين والاكيثانيين والغوط وغيرهم كانوا يعتبرون فرنجة . وربما كان الآلامان والبافارون فرنجة ايضاً . اما الساكسونيون والفريزيون والتورنجيون وبصورة خاصة السلافون ، وفي ايطاليا اللومباريون ، فكانوا رعايا الامبراطورية ولم يعتبروا فرنجة .

وظلت الدولة قوية ظاهراً . وكانت تتمثل بالملكية التي مازالت تحتفظ بسلطانها . وكان لهذه الملكية مثل اعلى سام لم يكن موجوداً عند الميروفنجيين . فقد اعترفت منذ مباركة (٧٥١ - ٧٥٤) بأن للشعوب عليها حقوقاً . يضاف إلى ذلك ان التتويج الامبراطوري عام ٨٠٠ كان يتراءى وكأنه يسمح لها بشمول العالم المسيحي باجمعه في الغرب وتحقيق « ملكوت الله » على الأرض .

وهكذا يبدو ان العصر الكارولنجي لايدل على العصر الاقطاعي بل ان التباين بينها شيء ظاهر للعيان . وفي الحقيقة ، لم تكن الدولة العصر الوسيط - ٢٣

الكارولنجية دولة اقطاعية ، بل كانت دولة سابقة للاقطاعية وممهدة لها
أي انها كانت دولة تبعية .

ولكن التبعية ليست الا صورة من صور نظام « الرعاية » مع
مايقابله من تطبيق « الاحسان » . ولذا يجدر بنا ان نتعرض لنشأة
هذا النظام والتدرج الذي مرّ به .

الرهابة والاحسان في العصر الروماني

الرعاية الرومانية . - تقتضي الحضارة وجود نظام سياسي يخضع
فيه المواطن للدولة والرعية للمليك . غير أن كثيراً من الحضارات عرفت
تبعية رجل فقير أو ضعيف الى رجل أقوى منه وأغنى . وهذه الرابطة
التبعية تختلف اختلافاً تاماً عن رابطة العبد بسيده أو المعتوق بمولاه ،
وذلك لأن الانسان الضعيف المحتاج الى الحماية انسان حر ، وتعهدهاته
تجاه الانسان ، الذي يجب ان يكفله من البؤس والشدة ، هي من نوع
مشرف ، يضاف إلى ذلك ان تعهد الفقير أو الضعيف ارادي وغير وراثي
وقد لايدوم طوال الحياة . ومثل هذا النظام يعتبر خارجاً عن القانون
ولا تحشاه الدولة ابداً . ولقد عرف الماضي الروماني هذا النظام كما دلت
عليه أقدم النصوص ، وعرفت هذه العلاقة بين الحامي والمحمي في آخر
الجمهورية ودامت في ظل الامبراطورية . ويبدو انها امتدت إلى طبقات
بقيت حتى ذلك العهد سليمة ، وخاصة ابتداء من القرن الرابع . فقد
كان صغار الملاكين ، في الأرياف وحتى القرى الحرة ، يرجون حماية
الملاكين الكبار ، الذين يشغلون في الوقت نفسه الوظائف العليا في
الدولة . ولم يطلب الفقراء وحدهم حماية القوي بل اتنا نرى منذ القرن
الأول اشخاصاً ، ممن مارسوا وظائف القضاء والادارة ، كانوا في عداد

زبائن هؤلاء الملاكين الكبار . ونرى في عهد الامبراطورية الدنيا رجالاً نبلاء واغنياء يرجون رعاية موظف كبير ليرقوا بسرعة في وظائفهم . ومن الطبيعي أن يكون الامبراطور الشخص الذي كانت ترجى حمايته اكثر من غيره . وكان عدد « زبائن » السيد و « أصدقائه » عظيمًا ، حتى أنهم يقسمون إلى ثلاثة أصناف ، أي انه كان للأمير « أصدقاء » من المرتبة الاولى والثانية والثالثة . وكان حمل الحاتم ، الذي نقش عليه صورة الأمير ، دليلاً على شارة الشرف الممنوح لهم .

وتغير التعبير مع الزمن بساءة استعماله . واستعير عن كلمة « الزبون ، بكلمة « مقبول » وأصبح زبائن الامبراطور منذ القرن الرابع يسمون « كوميتس » اي صحب الأمير ، وهؤلاء ، كالاصدقاء ، مقسمون الى طبقات .

وكان يدل على احتواء الانسان بحماية غيره بتعبير فني وهو : طلب الحماية ، وقد طبق اولاً على الوديعة بين بدي الآخر . ومنذ الجمهورية وجد لهذا التعبير معادلان الحماية والرعاية ويقصد بهما تعهد مههم . والحماية هي شيء آخر غير « التوصية » في المعنى الحديث . وقد أقامت هذه العلاقة بين الرجلين نوعاً من تعهد ، ولا يفهم من هذا التعهد أي رابطة دينية أو حقوقية بل رابطة قوية من نوع أدبي ووجداني تربط بين الطرفين . فعلى الأعلى الدفاع عن المحمي . وإذا كانت هذا الأخير ملاكاً صغيراً فعلى السيد الأعلى ان يقاوم مزاعم ادارة الضرائب . وإذا كان رجلاً كريم الأصل فعلى القوي ان يفيد من علاقته العليا ليجد له في الادارة وظيفة . وبصورة عامة يجب على السيد الذي تطلب حمايته ان يدافع عن مصالح اصدقائه لدى القضاء ، ويطعم الطعام لفقراء المدينة ويقدمه لهم في الكشكول .

أما واجبات المهني فيعبر عنها بكلمات لم تعرف تعريفاً جيداً .
ويؤاد منها ان يحترم الزبون سيده ، وان يتكيف غالباً مع رغباته
وأن يمثل كل صباح بين يديه ، ويحييه ويتلقى أوامره ، ويواكبه
في حرس الشرف ؛ وفي العهد الجمهوري أن يصوت له في الانتخابات .
وكل هذا هو ما يطلق عليه اسم التعهد الشخصي .

تعهد الأموال . - وقد اضيف في ظل الامبراطورية الدنيا تعهد
الأموال إلى التعهد الشخصي . فكان الملاك الصغير يبيع صورياً أو يعطي
أرضه على أن يستعيدها من الحامي بصفة «منتفع» . وهكذا يعهد الشاب
الطموح بثروته إلى القوي في شروطه ليست «معرفة» تماماً .

الحماية الامبراطورية . - أما زبائن الامبراطور فقد أصبحوا ، في
عهد ديوكليسيان وخلفائه ، سادة الدولة وأصبحت الصجبة مهنة وعملاً وانقلب
مجلس الأمير إلى مجمع يعج بأصدقائه . وغدت كلمة صاحب لقباً .
وسمي وزير المالية « كونت السعة المقدسة » و « كونت المالية » .
وسمي حاكم الشرق « كونت الشرق » وكان العمال المليون يسكفأون
بمنهم هذا اللقب . ولم يكن رؤساء الجيوش المرابطة على الحدود ادواقاً
بل « ادواقاً وكونتات » . ويسمى قائدا حرس جيش الامبراطور من
فرسان ومشاة « صاحبي الحرس الملكي » .

تعهد الزبون . - قد نتساءل ما إذا كانت الحماية تتضمن في العهد
الروماني ، ميثاقاً أو عملاً رمزياً كوضع يدي الأدنى بين يدي الأعلى أو مس يد
الأعلى يد الأدنى . ولا شك في ان الجواب بالاجاب ، اذا اخذنا بعين
الاعتبار صفة الثقة المتبادلة بين السيد وزبونه . غير أن النصوص ساكتة
عن هذا الموضوع ويجب ان نستخلص ، على كل حال ، ان الحماية الرومانية
لا تتضمن أي التزام من نوع عسكري لأن الزبون المقبول أو الصديق
ليس جندياً لسيده .

الرعاية العامة . - وأخيراً ، عندما استقر البرابرة في غالبا وفي جميع الغرب ، وجدوا انفسهم في مجتمع يطبق فيه الناس ، من صغيرهم إلى كبيرهم ، نظام « الرعاية » . ويرى المجتمع كله ان هذه الرعاية طبيعية وضرورية وأساسية وكان مقبولا لدى جميع الناس أن الوظائف الكبرى في الدول كانت قسمة بين صاحب الأمير .

الاحسان الروماني . - ان تطبيق « الاحسان » يلزم تطبيق « الرعاية » . وكلمة « إحسان » عند الرومانيين يراد منها الكرم المحض البسيط ، انها « الخير يفعله الانسان دون أن يكون ملازماً على فعله بقانون أو واجب » . وهذا الاحسان يتضمن فقدان كل التزام من طرف المحسن وكل عبء على كاهل المحسن اليه ، لأن كل وعد فيه يهدم طابعه المئزّه عن المنفعة ويعرضه لان يعتبر مناورة أو عملية خفية . وعلى هذا فالاحسان على نقض العقد .

ولذا لا مجال لعمل القانون في الاحسان . وقد شاع استعمال الاحسان في العهد الامبراطوري نظراً لكونه خارجاً عن القانون . ولكن إذا تعمقنا في حقيقة الأمور وجدنا ان المجانية صورية غالباً ، حتى ان المحسن المزعوم ، وقد تغطى بظاهر الاحسان في الاتفاق ، لا يمكن أن يحال إلى القضاء . ولكن الاحسان يضع المحسن اليه تحت رحمة المحسن .

ضرورة الاحسان . - ومع هذا فليس من العدل أو من الصحة في شيء ان ينسب انتشار الاحسان الى الرغبة في الغبن والحدّاع بل ان استعماله كان يستجيب الى ضرورة الحياة : « ففي الحق الروماني ، الذي لا يفترق عن الحق الجرمني في هذه النقطة ، كان لكل عقد شروطه الخاصة ومفاعيله الخاصة . لقد كان أداة قليلة المرونة جداً ، واستعمالها

مضبوطاً بعناية ومحدوداً بدقة ، ولذا فالوقائع لا يمكن أن تكون موضع بيع ولا الخدمات موضع اجار . وكثير من الاتفاقات المشروعة كانت خالية من كل مؤيد ولا يحظرها القانون . ولما لم يسمح بها ، فقد حكم بطلانها . ولذا وجب على الطرفين أن يلجأ الى الوسائل المنحرفة . ولذا لقد كان « الاحسان » القلب الذي تصاغ فيه اكثر الاتفاقات التي لا تجد لها مكاناً في النطاق الضيق والمحدود للعقود المعترف بها .

لقد كان الاتفاق الذي يطبق فيه الاحسان دوماً هو الانتفاع . وقد دام حظه طويلاً ولذا لا بد لنا من الوقوف عليه .

الاحسان الروماني . - هو تعامل قديم وخارج عن القانون الا انه ظهر في كتابات الفقهاء منذ القرن الثالث للميلاد . ولولا رجاء مسبق من قبل الطامع بامتياز أرضي لما وجد الاحسان . وهذا الامتياز لا يخول المحسن اليه إلا التمتع والحيازة لا الملكية . وهو غير وراثي ولا يخول الانتفاع مدى الحياة . وفيه يستطيع المحسن في كل وقت ان يستعيد ماله دون أن يبين السبب حتى ولو أعطى كتاباً يثبت فيه مدة الامتياز لأن هذا الكتاب لا يخول المستفيد الاعتراض ، بل يحمله ضد شخص آخر يريد أن يعكر عليه تمتعه . والاحسان باعتباره مجانياً لا يكون اجاراً ولا يدخل في صنف من أصناف العقود : لأن « الاحسان » ليس صكاً .

تطبيق الاحسان . وفي الحقيقة لم يكن الاحسان كرمياً الا في اسمه وظاهره وانما كان شكلاً من أشكال الاستغلال . وهو يغطي ثلاث عمليات :

١ - الاجار المقنع ، وهو يضع المزارع تحت رحمة الملاك لأنه يسمح لهذا بتجريد الآخر دون اقامة الدعوى .

٢ - القرض بكفالة عقارية . فالملاك المعوز يتعهد بأرضه ويتناولها بصفة منتفع ، ولا ترجع اليه ملكيتها الا بعد وفاء كامل دينه . وإذا مات دون أن يسدد دينه طرد أولاده من بعده .

٣ - يفيد كبار الملاكين في توسيع أراضيهم وذلك لأنهم ، مقابل حمايتهم غير القانونية فعلاً ، يحصلون من الفلاحين على وضع اموالهم الصغيرة في أيديهم ويعيدونها اليهم بصفة إحسان . واذا دخلت هذه الاراضي الصغيرة في الأراضي الكبرى خرجت من نطاق عمل رجال العدل ومستخدمي مصلحة الضريبة .

وعلى هذا فمجانبة الاحسان « كذب حقوقي » .

واجبات المستفيد . - ونسأل أخيراً : هل واجبات المستفيد من طبيعة واجبات المحمي ؟ قد يحتمل ذلك لأن المستفيدين ليسوا بالضرورة « محمين » . وعلى كل حال ان الاعتراف المهيم الذي يلزم به المستفيد لا يؤدي إلى أي خدمة شخصية ، وبالأحرى إلى أي خدمة عسكرية .

الرعاية والاحسان في العصر الميروفنجي

الرعاية . - استمرت الرعاية والاحسان في العصر الميروفنجي كما في السابق واحتفظا بصفاتها الأساسية وطبقها كل السكان الاصليين ، الغالين - الرومانيين والجرمانيين الغازين .

ويبدو أن هذا النظام توسع منذ القرنين السادس والسابع وازداد فيه تعلق الادنى بالأعلى . ولم يكن الأدنون من صغار الملاكين الريفيين

— ٣٦٠ —

الذين يبحثون عن حماية الكبار ، بل كانوا جمهوراً من الناس الاحرار يضعون انفسهم في خدمة الاقوياء الخاصة .

ولم يكن العلمانيون وحدهم يرجون رعاية الكبار فحسب ، بل كان يبحث عن هذه الحماية الاكليركيون ايضاً . وقد حاولت المجامع الدينية ، منذ القرن السادس ، ان تمنع تطبيق هذه الأمر لما فيه من خطر يهدد رجال الكنيسة من جراء انتزاع الاكليركيين من ساطة الاسقف .

ولقد طبق العالم الكنسي الرعاية ايضاً . فنذ القرن السادس والسابع كان الاساقفة محاطين بالعلمانيين الاحرار الذين يقومون بالخدمة المنزلية ليل نهار . وكما هي الحالة في العهد الروماني ، كان الناس من ابناء الطبقات العليا يبحثون عن حماية كبار « القصر » ليستطيعوا الوصول اليه .

وكان النبلاء الفتيان يعيشون في البلاط في جوار حاميم الذي يعلمهم ويربهم على خدمة الأمير أو الدولة . وذلك لأن الأمير والدولة يؤلفان كلاً واحداً . وبهذه الصورة نرى أن آرنول جد الكارولنجيين بدأ حياته تحت سلطة غوندولف حاجب قصر بلاط ملوك اوسترازا . وتوصف هذه التربية في القصر بـ « الاطعام » . وكان بعض الاساقفة المشهورين يقبلون في كنفهم اناساً يتقون بهم وبمجاينتهم .

رعاية الملك . — وكما في العهد الروماني كان المليك هو الشخص الذي يبحث عن حمايته اكثر من غيره . وكان على الملك ان يجمي جميع رعاياه وخاصة الكنسيين والارامل واليتامى والمسافرين والحجاج وبصورة عامة الضعفاء والمضطهدين . وكأب الواحد من هؤلاء ينقذ نفسه بهذه الحماية ، كما كان كثير من الرجال والنساء والكنسيين والمحامين والمسافرين واليهود يبحثون عن رسائل تحفظهم مقابل مبلغ من المال يدفع نقداً .

وبموجب رسائل الحماية كان المحميون يرون مصالحهم القضائية خاصة مصونة في محكمة الملك . ولما لم يكن للملك من الوقت ما يجعله يتفرغ بنفسه لممارسة حمايته ، لذا كان يخول رعايته في العهد الميروفنجي إلى حاجب القصر .

وكان على أبناء كبار العائلات « الطامعين » في القصر أن يؤدوا بين الولاء إلى الملك إذا بلغوا سن الرشد أو حصلوا منه على لقب كونت أو دوق أو اسقف .

شكل الدخول في الرعاية أو « طلب الحماية » . - وإذا لم تؤد حماية الملك لليتامى والأرامل والحجاج وغيرهم إلى أي طلب رعاية فإن هذه الحالة لم تكن كذلك عند الفئات الأخرى من المحميين . وكانت هذه الرعاية تجري باليدن وذلك بأن يضع المحمي يديه بين يدي سيده أو انه يمس يديه . وقد نجد هنا تجديداً ناشئاً عن الجرمانين . وهذا الأمر ممكن ولكن لم يبرهن عليه . ورمز اليدن كانت ترافقه بين الولاء أي الطاعة والاخلاص .

ويكتسب الأعلى ، الذي أطلق عليه اسم السيد ، سلطة على من دخلوا في حمايته . ولا يمكن مقارنة هذه السلطة إلا بسلطة الأب على اولاده والسيد على معتوقه . فالمرأة التي طلبت حماية الملك لا تستطيع أن تتزوج دون سماح منه . والرجل المحمي يمثل أمام المحكمة العامة بسيده وإذا مات دون أعقاب كان السيد يرث أمواله .

وكانت واجبات المحميين تختلف كثيراً ، ولها علاقة بمكانتهم الاجتماعية فالرجل الفقير الذي ليس له ما يطعمه أو يكسبه ، كان ملزماً بواجبات تختلف طبيعتها عن طاعة النساء والكنسيتين وقتيان النبلاء للحامي الذي يتعهدهم في بلاطه .

ولكن النصوص لا تعرف ماذا يقتضي الولاء من جانب المحمي .
 الاحسان . - لم يعق مجيء البرابرة تطبيق الاحسان ، بل ان هذا
 لما وازداد كالرعاية وظل طريقة لاستئجار الارض واطلق عليه اسم « الانتفاع »
 وقد شاع استعمال الانتفاع وخاصة على يد الكنيسة التي كانت تعتبر أغنى
 ملاك في اوربة الغربية .

وقد تعددت استعمالات الانتفاع . وافاد منه الاكليركيون والعلمانيون
 الذين يقدمون اخدماتهم . وتعتبر الارض ، التي وضعت عليها اليد بطريق
 الاحسان ، بمثابة تقاعد لكنسي عاجز أو مسن .

تطبيقات الانتفاع المختلفة . - يعتبر « الانتفاع » تأجيراً للأرض
 مع الدلالة على دفع الاثوة السنوية نقداً . وبما أن هذا الاجار هو اجار
 احسان وليس اجاراً بعقد ، فقد كان يضع المزارع تحت تصرف المحسن
 المزعوم ويحتلط مع البيع والهبة . فالرجل الذي يتخلى عن أمواله إلى
 الكنيسة يتمتع فيها بالانتفاع . ومنذ القرن الثامن والتاسع كان ينص على
 ان يتد الانتفاع إلى ابناء المتخلي واحفاده . وقد انتشر هذا النص
 شيئاً فشيئاً وأدى إلى نظام وضع اليد في آخر القرن التاسع . وهو
 يخول الكنيسة الحصول على الملكية التامة للأرض اذا تنازلت اللواهب عن
 أرض تعادل سعتها سعة أرضه ليستثمرها طوال حياته . فمن وهب
 للكنيسة أرضاً مساحتها ١٠٠ فدان حق له ان يأخذ مقابلها ١٠٠ فدان
 أخرى وان يتمتع باستثمار ٢٠٠ فدان لآخر حياته . وهذا الاستعمال يكون
 بمثابة تمييز (وضع المال بالفائدة) بفقد رأس المال .

وقد نجح هذا التعامل . ومنذ بداية القرن التاسع كانت الجماع الدينية
 توصي العلمانيين بجرارة بالا يعطوا شيئاً إلى الكنيسة دون أن يأخذوا
 بالمقابل ضعفه أو ثلاثة أضعافه . ونحن في هذه الحالة أمام « تعهد » حقيقي .

— ٣٦٣ —

ضريبة المنتفع . — كان على المنتفع في العهد الميروفنجي أن يدفع سنوياً ضريبة عينية أو اسمية . وقد ناب هذا الدفع مناب الرجاء الذي كان يتجدد كل خمسة أعوام . ويؤدي التأخر في دفع الضريبة إلى رفع يد المنتفع بل إلى دفع غرامة . ونجدنا في هذه الحالة أمام « تعهد » أو على الأقل أمام اتفاق دقيق . ومع هذا فقد كانت تتخذ بعض الاحتياطات وذلك بأن يسجل رجوع الأرض إلى المحسن دون تدخل العدالة عند انتهاء مدة الامتياز .

ويستطيع المحسن ان يسترجع امتيازَه بطريق وضع اليد فيما إذا ادعى المدين ، على غير حق ، بأنه مالك للأرض وأراد التصرف بها . وإذا كان المدين في حالة يستطيع معها مقاومة نزع اليد ، وجب عندئذ التوجه إلى العدالة العامة وخاصة إلى محكمة الملك .

ولا يتطلب امتياز الانتفاع ميئاً ولا مصافحة . وليس من الضروري أن يكون المنتفع رجلاً « محمياً » بل يكفي أن يقدم ربيعة أو رسالة تم عن عبارات الاحترام إلى المحسن ويبين فيها ان حقوق مانع الامتياز مضمونة بصراحة وان يحصل على موافقة خطية حسب صيغة معينة من قبل المحسن ، ويتجدد هذا العمل المزدوج كل خمسة أعوام . ثم انب عن هذه الطريقة بدفع ضريبة سنوية ضئيلة اسمية تؤكد بصورة لا تقبل الرد ارتباط المنتفع بحق المحسن في الملكية .

وفما عدا الضريبة نرى أن واجبات المنتفع غير معرفة تعريفاً جيداً ولم تكن هذه الواجبات بالطبع عسكرية بل تدل على احترام المنتفع للمحسن .

الطبقة النبيلة والانتفاع . — لقد كان الحصول على الانتفاع مفيداً جداً وخاصة عندما جعل الامتياز لمدة ثلاثة أجيال . وقد شوهد ان كبار

- ٣٦٤ -

الشخصيات كانت تبحث عن الانتفاع دون أن تأبى على نفسها الرجاء والحنوع. وكانت الكنيسة تحرص على أن تؤمن لنفسها حماية مشاهير الرجال وتتخلى لهم عن كثير من الانتفاعات . وتوالى الامتيازات التي هي من هذا النوع في النصف الاول من القرن الحادي عشر ، حتى ان كثيراً من القصور شيدت على الانتفاعات الكنسية .

ضالة ضريبة المنتفع . - وبصورة عامة لم تكن الطبقة النبيلة لتأبى على نفسها الحصول على الانتفاعات حتى ولو أصبحت تتطلب منها دفع ضريبة كما هي الحال في آخر القرن الحادي عشر ؛ وذلك لأن الربح الذي يجنيه من هذه الانتفاعات كان عظيماً على ما يظهر . ففي القرن الثامن سلم أب سان - فاندرييل ٢٨ دومين مقابل ضريبة ٦٠ سو . وتخلت ابوية بروم عن ٢٠ فيللا مقابل ضريبة ليوه واحدة . ومن هنا نرى ان الاثاوة كانت وهمية ، وذلك لأن الانتفاع ليس مصلحة اقتصادية بل « احساناً » . واذا كان المنتفع قوياً كان الانتفاع بمثابة ضمان لدفع طمعه وسوء نياته .

وفي آخر العصر الكارولنجي ثبت الانتفاع بشكل « وضع يد » وامتد على جيلين وثلاثة اجيال وبما التعامل به حتى أن ١/٨ الصكوك التي حفظت من آخر القرن التاسع الى عهد متقدم في القرن الحادي عشر كانت كلها صكوك « وضع يد » .

ومع هذا فلم يكن المستقبل مقتصرأ على هذا الشكل من « الاحسان » . لقد كان الانتفاع خاضعاً للضريبة وليس عليه واجب حرابي ولذا لا يمكن أن يكون مولداً للاقطاع . اما المستقبل فقد كان لنوع آخر من « الاحسان » وهو الاقطاع الذي يرتبط تاريخه ارتباطاً وثيقاً بالتبعية .

الحماية البحرية

الخدمة العسكرية العامة . - في معرض بحثنا عن الحماية في العصر الروماني والميروفنجي لم نر دليلاً على ان السيد أو الامير كان يتطلب خدمة مسلحة ممن كان في خدمته معها كان شرطه الاجتماعي . اما الملك فهو الوحيد الذي له الحق في الخدمة العسكرية .

كان على الاحرار جميعاً ان يدخلوا في خدمة الملك العسكرية وكان الملك بحاجة لرجال يحيطون به ويحمونه بصورة دائمة أي يؤلفون حرسه الخاص . وهذا الحرس يوجد طبعاً في كل الدول الملكية . وقد أخذ هذا النظام في المجتمعات البربرية طابعاً عاطفياً . وكان هؤلاء الحراس « صحباً » للزعيم يحاربون معه ويحارب معهم ، وكان كل منهم على استعداد لأن يضحى بحياته او بحريته لانقاذ سيده ، وبصورة عامة كانوا يتفانون في سبيله .

ومن المؤكد ان هذه الحال نفسها وجدت في الاوساط الجرمانية فقد كان كل أمير يحيط نفسه بلفيف من المحاربين الأقوياء . وكان جاء هذه العصبية ، أي الحاشية ، عظيماً حتى ان الارستقراطية تعتبر شرفاً عظيماً لها اذا قبل الملك أبناءها في خدمته ولو كانوا في سن الفتوة . وكانت عصبية المخلصين هذه تواكب الزعيم وترفع من جاهه في زمن السلم كما كانت في زمن الحرب تحدد به وتؤلف حوله حصناً يحميه ويدود عنه .

ولا شك في ان هذا النظام كانت مزدهراً في زمن الغارات البربرية ودام كذلك في الدولة الميروفنجية حيث نرى المحاربين المقبولين في خدمة الملك خلفاً للرفقاء . وتدلنا النصوص على ان الأمين الخاص كان يمثل بسلاحه امام الملك ويصافحه ويبايعه على الطاعة والولاء .

ومنذ هذا الحين يصبح الأمين في عداد المخلصين ويتمتع بالامتيازات المتعلقة بهذا اللقب أو المنصب . وكان باستطاعة جميع الناس من مختلف طبقات المجتمع ان يدخلوا في خدمة الملك .

خدمة الافراد المسلحة .- لقد انكر بعضهم ان يكون للأفراد الحق في استخدام محميتهم خدمة عسكرية . وفي الواقع ان النصوص لا تقول بأن الرجل الذي يدخل في خدمة غيره يجب ان يكون محارباً . ولكن الحاجة إلى الأمن في مجتمع مضطرب كانت ضرورة لا محيد عنها . فإما من احد يستطيع الانتقال دون ان يكون محاطاً بجنود تحميه . ولم يكن المسكن آمناً ان لم يكن له حرس تحميه . غير أن هنالك نقطة تجب الإشارة إليها وهي ان الخدمة العسكرية التي يقوم بها المحميون ليسهم لا تقتضي منهم الحرب ، كما هي حال التابع تجاه أميره في العهد الاقطاعي ، الا انهم كانوا يدافعون عن سيدهم ضد أعدائه او ضد اللصوص والأشقياء والسلاح في أيديهم . وهذا يعني ان خدمتهم كانت خدمة مسلحة وليست خدمة حربية .

وتدل النصوص على ان هذا النوع من الخدمة كثير . ولم يكن للكونتات والأدواق وحدهم اتباع بل الاساقفة والآباء ورؤساء الأديار كانوا محاطين بتابعين يحمونهم . وفي الحقيقة ان كل هذه الشخصيات ، بما فيهم الكنسيون ، كانوا عمال الدولة ، وهذا ما يوضح لنا كيف ان الملكية لا ترى اي مخذور في تطبيق هذا النظام .

نشأة خدمة الأفراد المسلحة .- لم تسمح الدولة الرومانية ولا الدولة الجرمانية للأفراد ، الذين يتمتعون بمكانة عالية ، ان يقيموا حولهم اشخاصاً مخلصين مسلحين . ومع هذا فان الواقع يدل على ان كبار الشخصيات في آخر القرن الرابع وفي العالم الروماني كانت لهم حراسهم

المخلصون . فمن ذلك ان روفين مدير معسكر « القسم الشرقي » في الامبراطورية الرومانية ؛ وستليكون منافسه في الغرب كان لهما حرس مسلح . وكذا الأمر عند قادة الجيوش ، حتى ان حرسهم أصبح هاماً من حيث الكمية والكيفية ، وغدا في القرن السادس في بيزنطة يُؤلف عصب الجيش « الروماني » تحت أوامر بيليزير أو ثاريسيس .

وكان هذا الحرس مقسماً الى فئتين : **دوريفودس** و **بوكسيلليرس** ويذكرون في هذه النقطة ، بقيمتهم واخلاصهم للقائد ، « صعب » الملوك الجرمانيين في الأزمنة القديمة . ومعظم هؤلاء الموالين من أصل بربري في الغالب ، وكانوا يخلصون لزعيمهم « الروماني » ، وكان في الغالب بربرياً ، اخلاصاً وراثياً . وقد شوهد ان « آخر الرومانيين » **آنيسوس** ، عندما اعدمه الامبراطور فالنتينيان الثالث ، قد ثار له مخلصوه الغوطيون كأمر جرمانى .

ومن الطبيعي ان يستمر هذا النظام وينمو بعد القرن الخامس ، حتى اننا نراه في الدولة الميروفنجية بل وفي جميع الدول الرومانية الجرمانية في الغرب وفي بيزنطية أيضاً . والقضية الحقيقية التي يجب ايضاها هي كيف ان اناساً أغنياء وغير مستخدمين في المصالح العامة ، كان لهم الحق في اقتناء المخلصين . أما الشرق فلم يقبل بهذه القضية من حيث المبدأ على الأقل . وفي الغرب لم يستطع ملوك البرابرة منع هذا التعامل . وربما لم يشاءوا ذلك لأنهم يعتبرون ان كل انسان قوي كان داخلاً في خدمتهم .

الاحسان الى المخلصين المسلحين . - لم يكن أجر الخدمات التي يقوم بها الحميون الاعاشة في البلاط فحسب ، بل ان الملك كان يكافئ هذا « الاخلاص » بالهدايا والمنح ووهب الاراضي الاميرية .

وبهذه المناسبة تعارضنا قضية : فمن المنتظر ان يكون الامتياز موقتاً ويؤلف بالنسبة الى المستفيد قطعة ارض من طبيعة الانتفاع . أما في الواقع فقد ظهرت امتيازات المحمين الملكية في النصوص بشكل ملكية تامة ولم توصف بانها احسان . وقد جرت محاولات لاجتناب الصعوبة ، لان الملكية لم تكن إلا ظاهرية . وذلك لان العقلية الجرمانية لاتعتبر الهبة مطلقة دون تقييد . فقد كان الواهب يحتفظ معنوياً وحتى حقوقياً بحقوقه في الأموال التي تنازل عنها ولذا فإن الهبات الملكية لاتحول الا حقاً عدوياً للمستفيدين ولم يكن هذا الحق مؤمناً بصورة جيدة .

ولعدم هذه النظرية تذكر بعض مقاطع من غريغوار أسقف مدينة تور . وهي تدل على ان الملك يستعيد الاراضي التي وهبها إلى كبار الشخصيات عند وفاتهم او في حياتهم . فعاهدة انديلو (٥٨٧) ومرسوم (٦١٤) يدلان على تجريد المحمين من الأموال التي تكرم الملك بها عليهم . وقد ظن بعضهم انه وجد في العصر الميروفنجي ما يمكن ان يسمى في المستقبل « احسان الاقطاع » أو على الاقل لقد حاول ان يقلل الفرق بين « احسان الاقطاع » ، هذا والهبة الملكية في الفترة الواقعة بين القرنين السادس والثامن . وليس هذا الا من قبيل الوهم لانه كان من الطبيعي ان يستعيد الملك الأراضي من موظفيه عند وفاتهم لان ايرادها كان راتبهم . اما المصادرات التي كانت تجرى في حياتهم فعذرهما الحيانة ان كانت حقيقية أو مفترضة . وكان جشع الميروفنجيين وسوء ظنهم سببين كافيين لايضاح سلوكهم هذا .

وبعد فهل هذا يعني القواء ان الملوك الميروفنجيين لم يعملوا أي امتياز بشكل « احسان » أي بصفة موقته ؟ ان انكار هذا الامر معناه عدم

الاعتراف بالماضي وبالتاريخ اللاحق للاحسان المؤدي إلى الاقطاع . أما سكوت الفصوص فيوضح بفقرها وطبيعتها .

تعايش شكلي الامتياز . - وبعد فما هو شأن ١٠٠ دبلوم ميروفنجي و ٥ أو ٦ مراسيم بالنسبة الى ١٢٠٠ أو ١٥٠٠ دبلوم كارولنجي وعدة مئات من الارادات الملكية ! ومع هذا فاننا نكاد نشك بوجود احسان ملكي في العصر الكارولنجي ، لان هذه الدبلومات عندما يكون موضوعها هبة ملكية فان هذه الهبة تكون دوماً ملكية تامة . أما الارادات الملكية ، فعلى العكس ، لم تكن لتبحث الا في الاحسان . غير ان التناقض ليس الا ظاهراً . وذلك لان الارادة الملكية لاتتم بالاموال التي تخلى عنها الملك بل تعنى بالاموال التي هي في حيازة التابعين أو في الغالب بالأموال التي ائلفوها . ولم يكن الدبلوم ليتكلم الا عن هبات الملكية التامة وذلك لان هذه الهبات وحدها تتوك مجالاً لتحرير صك مكتوب . وفقدان وثائق هذا الصنف او ذاك جعل الفكرة عن المنحة الملكية في هذا العصر خاطئة . وزوال الاعمال التشريعية الميروفنجية بعد ٦١٤ يمكن ان يوضح فقدان المعلومات الواضحة عن « الاحسان » الانتفاعي في هذا العصر .

احسان الأفراد . - وكان الافراد يكافئون الاخلاص والخدمة الدائمة باعطاء ارض اما بشكل ملكية تامة او مقابل اتاوات . ولم يكن من يأخذ الأرض فلاحاً يشتغل بذرعية لأن المال المتنازل عنه ، وان كان قسماً من فيللا ، كان يضم اراضي قابلة للزراعة ، ومراعي ، وكروماً ودوراً وجماعة من البشر .

ولقد ظهر ، منذ النصف الأول من القرن الثامن ، بان هنالك امتيازات بشكل انتفاعات كانت تعطى إلى المخلصين وقد بدأ هؤلاء يحملون اسم تابعين .

الرعاية والامسان في العصر الطارولنجي

التجديد المزعوم في هذا الدور . - لقد شهد العصر الكارولنجي جميع التعاملات الجارية في العصر السابق كما شهد نموها واتساعها . ولقد ارادت مدرسة تاريخية وتريد ان تجعل من هذا النمو في القرن الثامن ثورة حقيقية ، حتى ان نظام التبعية نشأ في هذا التاريخ وتبدل الانتفاع بدلاً عميقاً .

وظن بعضهم ايضاً انهم وجدوا اسباب هذا التبدل ، وجعلوها على صلة بتعصير اموال الكنيسة الذي قام به شارل مارتل ، وبضرورة الكفاح ضد المسلمين .

لقد كان شارل مارتل بحاجة إلى فرسان لكفاح العرب . وكانت الدومين الملكي مبدداً . ولذا وضع يده على اموال الكنيسة ووزعها على محاربيه والمخلصين في خدمته . وقد اخذ هؤلاء المخلصون يسمون تابعين . وعلى هذا النحو استطاع هؤلاء المخلصون ان يجهزوا انفسهم بكل ما هم بحاجة اليه لأن الخدمة على ظهر الحيل تتطلب كثيراً من الموارد . وقد وزعت هذه الأراضي بسخاء وكانت العملية مفيدة ومرجحة حتى ان الارستقراطية لم تتورع من الدخول في الحماية بشكل خدمة شخصية مسلحة أي بشكل تبعية ، بعد أن كان يبحث عنها ، حتى ذلك الحين ، فقراء الناس وابناء الأسر الصغيرة .

وفي الوقت نفسه تبدل شكل الامتياز بدلاً كلياً . ولم يعد هبة ملكية تامة لأن هذه الأراضي لم تكن تابعة لحاجب القصر . ولذا وجد حل وسط : وذلك ان المحاربين الذين يحتلون اموال الكنيسة بأمر الملك لا يستلمونها الا اذا دفعوا الى الاسقفية او الأبوية المنهوبتين ضريبة

الشهر (الزكاة) والعشر . ويبدو ان تمتع التابعين بهذه الاراضي قد أخذ طابع الانتفاع ، وان هذا النوع من الامتياز قد ائتمن مع الظروف وأصبحت هبات الملوك الكارولنجيين لاتعطى في سبيل ملكية تامة بل بقصد انتفاع يدوم مدى الحياة .

وهذا القول لا يخلو من حذق ، ولكنه مجرد فرض ، لأنه لا يبرهن ، على الأقل ، كيف ان الفرسان نابوا مناب المشاة عند الفرنجة بهذا الشكل المفاجيء مع ان هذا الامر قد تم بصورة تدريجية ، وفرسات العرب غير كثيرة . ولذا فان تعصير اموال الكنيسة لا يمكن ايضاحه بكفاح المسلمين بل بضرورة مكافأة انصار الكارولنجيين الاوائل الذين كانوا يناضلون اعداءهم ان في الداخل او الخارج . يضاف الى ذلك ان اعمال التعصير قد بدى بها قبل شارل مارتل . ولذا فان هذا التركيب الحقوقي ، لا يوضح قيام الانتفاع مقام الهبة المطلقة ، ضعيف وغير مقنع ، ويجب ان نضيف بانه غير مفيد لأن الاختلاف بين الامتياز الملكي في العصر الميروفنجي والامتياز الكارولنجي لم يوجد بمثل هذا الشكل الذي قيل فيه .

هذا ونستطيع القول ان التعصير قد اعاق اكثر مما ساعد على نمو التبعية وتوسعها ، حتى انه سرّد في بعض الاحيان مبادئها وجعلها مظلمة . فالقابض على الأرض الذي هو تابع في نظر الحاجب والملك ، كان منتفعاً حيال الأسقف أو الأب . ووضعه هذا لا يخلو من التباس وسيتضح في آخر القرن التاسع : وذلك لأن التابع اما ان يغتصب بصراحة الدومين الذي في حوزته ولا يرتبط الا بالملك ، أو انه يعترف بسلطه المؤسسة الدينية التي يحتل أرضها .

التبدلات الحقيقية . - وفي الحقيقة ، ان العصر الكارولنجي كان مثبتاً

للاوضاع اكثر مما كان مجدداً ، لان النظم السابقة كانت توالي تطورها وربما كان ذلك بصورة أسرع . وكان ما تبدل بادىء بدء هو التسمية . فلم يمتض بداية حكم شارلومان الا وزالت بعض الاسماء مثل « المحمي » . كما زالت سابقاً كلمه « زيون » أمام كلمة « مقبول » واستعيض عنها باسم « تابع » وعم استعمالها . وكانت تدل على الخادم غير الحر . ولاقت هذه الكلمة نجاحاً لانها تدل على الارتباط بين المحمي وأميره . هذا ويمكن القول ان المحمين استعملوها قبل غيرهم كدليل على التواضع الذي كان مظهراً من مظاهر التهنيب في ذلك العصر . وبالمقابل وصف الامراء خدامهم بـ « اصدقاء » و « طاعمين » .

الاحترام . - ولاقى الشكل الحقوقي للحماية تطوراً موازياً . وبدأ ان الطرق القديمة والتعهدات الرمزية او الكتابية لاتقي بالغرض وغير ناجعة . فمنذ منتصف القرن الثامن ، على الاقل ، أصبح حلف يمين الطاعة يقوم على الانجيل او على « البقايا » وكانت يرافقه عمل شكلي وهو الاحترام .

كان التابع مجرد من اسلحته للدلالة على شخصيته المدنية ويركع على ركبته أمام أميره ويضم يديه إلى بعضها ويضعها بين يدي الامير وأحياناً يقبل قدم سيده .

وكان هذا العمل يعبر بصورة واضحة عن طاعة التابع . ومع ذلك فان هذه الطاعة لاتشبه الدخول في القسانة بالرغم من ضعة الطقس الذي تجري فيه . لان الرجل التابع يبقى رجلاً حراً خاضعاً لواجبات معروفة بأنها واجبات شريفة .

وبعد حلف يمين « الولاء » ينهض الامير بتابعه ويقبله ويقدم له هدية كانت يضع في يده بضع سو او بضعة دنائير ، وهذا

الطقس يجعل من التبعية عقداً ثنائي الجانب يربط السيد والتابع معاً ويبدلها إلى شريكين . وكانت السلطات العامة تسهر على جعل هذه الرابطة وثيقة لانتحل . حتى ان شارلومان حرم على التابع ان يتوك سيدة بحال من الاحوال .

الكارولنجيون والتبعية . — ربما كان من اهم مميزات السياسة الكارولنجية الخطوة التي منوا بها التبعية . فقد احب الكارولنجيون ان يحيطوا أنفسهم بعدد عظيم من التابعين وارادوا ان يكون هؤلاء التابعون مبجلين محترمين كالكونتات والاساقفة والآباء ، حتى انهم كانوا يارسون في البلاط وظائف عامة وخاصة في محكمة الملك .

وبعد ان يقضوا في الخدمة زمناً طويلاً او قصيراً ، يقيمون على اراضي الملك او على اراضي الكنيسة . وتدل الدبلومات على ان الملك كان يمنح مخلصه اموالاً أميرية ويتملكونها منه ملكية تامة . اما الارادات الملكية فتقول انهم يأخذونها بطريق الانتفاع . وهم ، باعتبارهم محمين ، لا يخضعون للمحكمة الاقليمية ولا يمثلون أمام القضاء الا في المحكمة المركزية أي محكمة « القصر » . وسواء أكان امتيازهم ملكية تامة أم انتفاعاً من ارض أميرية أم « حصانة » فهو يحتفظ بامتياز الحصانة التي تضعهم في معزل عن تدخل الموظفين المحليين . وكان التابعون من الناحية العسكرية يرتبطون مباشرة بالملك . ولا يسيرون تحت امرة الكونت في الدوائر (المقاطعات) . اما في حالات الغارة المفاجئة من قبل العدو فانهم يذهبون الى الجيش الملكي مصحوبين باتباعهم الخاصين . ويبدو ان تابعي الملك كانوا يؤلفون نخبة الجيش الفرنجي ، وسلاحه الممتاز أي فرسانه ، في حين ان صغار الملاكين يؤلفون المشاة .

(وتوضح امتيازات التابعين بما يلي : فهم عمال السلطة ، يرسلهم الملوك بهجمات او يثبتونهم في جميع نقاط الامبراطورية حيث يكونون بحاجة الى

توطيد سلطتهم . ويظهر ان هذا النظام قد تكيف مع ضرورات العصر وأصبحنا لانعجب الا من شيء وهو انه لم ينقذ المملكة الفرنجية ولم يحفظها من هجوم الموظفين المزعومين وخاصة الادواق والمراكيز والكونتات الذين كانوا في حالة عصيان دائم سري وعلي .

وبما يدعو الى التباس بعض المؤرخين ان الملكية الكارولنجية لم تناوئ رعاية الكبار فحسب ، بل دعت السذج من الناس الأحرار الى الدخول في التبعية الخاصة ، حتى قيل انها كانت تجبرهم على ذلك . ولكن لم يكن هذا الا بنتيجة تفسير النصوص تفسيراً خاطئاً .

ان مصلحة الملك ، في أن يرى موظفيه العلمانيين والكنسيين وتابعيه الخاصين يحيطون انفسهم بحرس مسلح ، ليست بالأمر العسير الفهم : لأنه كان من المفيد ان يصل الكونت او الاسقف او الأب الى الجيش على رأس جيش من الفرسان الأقوياء .

ولكن لم ينصح الملك الفقراء الأحرار ان ينضموا تحت لواء الاغنياء ؟ الا تتعاضد هذه السياسة عن الكونتات ، وهم خدام الملك العصاة ، وتجعلهم يضمنون حولهم اناساً مسلحين ؟ لقد فكر بعضهم نازلة الصعوبة فانكر ان يكون التابعون مسلحين . ولكن هذا الانكار دليل عدم الفهم . لذا يجب ان يوضح الأمر خارجاً عن هذا النطاق .

لقد عرف الملك ان النقص في المال والرجال الذين يطمئن اليهم يجعل حكم الرعية امراً مستحيلاً فعلاً . فقد كانت الملايين وهي الاكثوية الساحقة لا تخضع مباشرة لسلطة الملك ؛ والطبقة المنحطة خارجة عن الدولة ، وطبقة المعمرين الريفيين ، وان كانت حرة نظرياً ، إلا أنها كانت متعلقة بالأراضي لا بشخص المالك والسيد . وكذا حال المحررين . وكان الملك يعتمد على « الحصن » ليحكم هذه الطبقة الشعبية الريفية . أما السكان المدنيون

فكانوا قلة تتألف من التجار الاجانب واليهود ولا يتمتعون بأي اعتبار وليس لهم في المجتمع إلا شأن ضئيل .

أما الطبقة التي لها شأنها فهي طبقة الملاكين الريفيين كباراً أو صغاراً وكان الملك يقبض بيده على الكبار لأنهم كانوا يبحثون عن الوظائف لعامة . أما الصغار فكانوا غير خاضعين لسلطته . وكان الكونتات الذين يديرون أمورهم ويقضون بينهم يهملون شؤونهم ويضطهدونهم . وبعد فإذا يجب أن يعمل من هذه الكتلة التي ليس للملك سلطة عليها ؟ اذا تمكن الملك أن يصبا في قالب التبعية كان باستطاعته أن يحكمها بصورة غير مباشرة . والواقع ان « السيد الأمير » كان مسؤولاً عن تابعيه، فكان يجب عليه ان يسوقهم إلى المحكمة العامة (المالوس) ويقودهم في الجيش . وقد أصبح على هذا النحو ممثلاً للسلطة وموظفاً ويفتخر الملك بأنه قابض عليه في يده . ولذا فالطريقة الناجعة هي ان يحشر في نطاق الامارة عدة مئات من الألوف وحتى عدة ملايين من الرجال . وبذلك يستطيع الملك أن يحكمهم . وهكذا يصبح الفقراء الأحرار رعايا الملك بعد أن أصبحوا تابعي الكبار ويدخلون فعلاً في تبعيته بعد أن كانوا في السابق تابعيه نظرياً .

على ان الكارولنجيين ما فتئوا يعتبرون تابعي الكبار رعاياهم، ولم يكن الأمير يمارس أي سلطة قضائية على تابعيه . وإذا سلحهم فذلك في سبيل خدمة الملك وحده .

ثم ان الملك يضع نفسه حامياً لتابعي الأفراد . وهو اذا أخضعهم لخدمة تدوم مدى الحياة ومنعهم من استقبال تابع لم يخوله أي سلطة أو مهمة، فهو من جهة ثانية يريد من التابع الذي أصيب بشرفه أو منفعة ان يكون له الحق في ترك سيده . وقد صرح بأنه يتقبل ظلامة التابعين

ولم يكن هذا الوعد عبثاً . وما قضيته هنكمار اللانوازي التي انتهت
بشعذيب هذا الاسقف وفقده بصره الا نتيجة ظلامة رفعت من تابع لهذا
الحبر إلى بلاط الملك .

ولم يخش الكارولنجيون بان يوماً سيأتي ، في حال خلاف بينهم وبين
الكبار ، يشاع فيه التابعون أميرهم المباشر . وهذا ما حصل فعلاً في فرنسا
في آخر العصر الكارولنجي .

التضاد بين المبدأ الملكي والمبدأ التبعية . - يعتمد نظام التبعية
على مبدأ خطر على الملكية إذا لم تتخذ هذه حذرهما وتحفظ بهذا المبدأ
وتحصنه فيها . فالاخلاص المطلق عند كلب أمين لسيده لا يمكن أن يتفق
مع اخلاص الرعية للملك إلا إذا حافظ الملك على سلطته عند سيد التابع .
والتوازن بين المبدأين لا يمكن أن يدوم بصورة غير معينة . فعندما
يصبح جلياً أن حماية الملك بعيدة ومنقطعة وائس لها تأثير أو عمل ، لا
يتردد التابع في ان يفضل عليها ساطة الأمير المباشرة ، نظراً لما له من
صلات يومية تربطه به .

ولا يستطيع تابعو الملك انفسهم ان يقاوموا طويلاً ضغط الكونتات
والأدواق الاقوياء بكثرة تابعيهم . ولذا يضطرون لانعزالهم ان يخضعوا
للأمراء ويعترفوا بسيادتهم عليهم . وهكذا تأسست السلالات الحاكمة في
الأقاليم في آخر القرن التاسع والعاشر .

الملكية والارستقراطية . - ورغم ان التبعية ظلت زمناً طويلاً
اداة الحكم الناجمة إلا انها لم تكن السبب الوحيد في قداعي الملكية في
فرنسا . كانت الارستقراطية عدو المملكة الفرثجية . فقد اضعفت الملكية
وقوضتها ووضعت يدها على الوظائف العامة وجعلتها « انتفاعاً » وطالبت
بأن يكون « الانتفاع » دائماً مدى الحياة بل ووراثياً .

وربما قدر لهذه الارستقراطية الا تنجح في مسعاها لولا ان تقسيم المملكة مرات عديدة اضطررها ان تنفرد في مقاطعتها في بمالك آخذة بالصغر يوماً عن يوم . وعندما توقفت الحملات المثمرة في ايطاليا والمانيا واسبانيا وعادت للدفاع المنهك ضد هجمات النورماندين لم تستطع الارستقراطية ان تبرح مكانها ولبثت حيث كانت واستحكمت في الارض .

وراثه الوظائف . - ومنذ منتصف حكم شارل الاصلع كان من الجلي أن يلاقي الملك متاعب لا تنتهي في زحزحة الكونتات عن أماكنهم . وفي آخر حكمه كان أمراً عادياً ان يخلف الابن ابيه . وبعده أصبحت الوظائف وراثية ، على الاقل في فرنسا ، وصارت السلالات الحاكمة في الاقاليم تمارس امتيازات الملك في السلطة .

الثغور والدوقيات . - ثم ان إنشاء القيادات العسكرية الكبرى أي « الثغور » ، للكفاح ضد الأعداء في الخارج والداخل (من نوستريا ، تولوز ، غوطيا ، فلاندرز ، بورغونديا) ، أنهى تفكك المملكة الفرنجية . وكانت هذه الثغور تضم ارضاً واسعة (عدة كونتيات) ، وأدت ضرورة الكفاح بالملك إلى التخلي إلى المراكز أو الدوق عن سلطانه ، وإلى البروتانيين عن ثغر رين و نانت ، وإلى النورماندين عن مجرى نهر السين الأدنى والأورن وشبه جزيرة كوتانتان .

واستطيع الملكية الفرنجية البقاء أيضاً كانت تضطر كل يوم ان تتنازل شيئاً فشيئاً عن سلطاتها .

تعميم الروح التبعية . - اجتاحت الروح التبعية المجتمع في غضون العصر الكارولنجي ، ونابت التبعية مناب الحماية في أشكالها المختلفة . وكان كبار الشخصيات في الدولة من لدواق وكونتات ومراكز واساقفة وآباء

يقسمون بين الولاء للمليك ويؤدّون احترامهم له كسائر التابعين ، حتى ان الناس المعتبرين في المجتمع في القرنين العاشر والحادي عشر كانوا داخلين في النظام التبعية . ولما كان لكل تابع اتباع ، ولكل تابع أمير فالجتماع يؤلف هرمًا من عدة طبقات آخذة بالضيق حتى الرأس حيث يكون العرش الملكي . وبذا أصبح المجتمع التبعية عالمًا مغلقًا ، أي طبقة .

زوال الملكية الحرة . - وفي خارج هذا العالم المغلق وجد ملاكون أحرار . وقد شعر هؤلاء بانعزالهم فرأوا أن يعترف بهم جيرانهم الأقوياء تابعين لهم . وهكذا أخذ عددهم بالتناقص في المناطق الشمالية وزالت الملكية الحرة في نورمانديا وبروتانيا في آخر القرن الثاني عشر .

مصير الملاكين الصغار . - أما صغار الملاكين فكانوا فقراء لا يستطيعون القيام بالخدمة العسكرية أو رفضوا فيها ولذا وقعوا في طبقة الادنياء المنحطة . وفي القرن الحادي عشر كان الأحرار الوحيدون أو النبلاء السادة الامراء واتباعهم .

التبعية في الأسرة . - ونفذت التبعية إلى حرم الروابط العائلية والعاطفية . فالزوجة والأولاد يعتبرون اتباعاً لرب الأسرة . فهو يعتبر أميرهم أو بارونهم . وفي الأسر الملكية ، وفي الطبقة النبيلة كانت الصلات بين الأبوين والأولاد تخضع إلى طقوس ومراسم تبعية . ودامت هذه الطقوس عشرة قرون أخرى كان فيها ابن النبيل يدعو أباه « سيدي » وأمه « سيديتي » .

التبعية في الحياة العاطفية . - وكان العاشق يعتبر معشوقته سيدة ويقف حيالها موقف التابع أمام سيده . وكل عبارات الحب في العصر الوسيط تم عن هذه التبعية .

تبدل العلاقات بين الرعاية والاحسان . - وفي غضون هذا العصر والعصر الذي يليه تبدلت الرابطة التبعية تدريجياً . وبعد أن ظل السيد زمناً طويلاً يدفع اخلاص مريديه باطعامهم وكسائهم وتقديم الهدايا لهم انتشرت العادة شيئاً فشيئاً بأن تكافأ الخدمات الدائمة أو العظيمة بمنحها أموالاً عقارية بطريق الملكية أو الانتفاع . وقد لوحظ هذا الحادث ، من أجل الافراد ، منذ بداية القرن الثامن ، وتعددت الأمثلة مع الزمن . وفي القرن التاسع ، أصبح هذا الأمر قاعدة . ومن المؤكد أن بقي عدد من « الطاعين » المنزلين ومنهم من كان ينهي أيامه دون أن يرى اخلاصه مكافأً بقطعة أرض ، غير أن الرأي العام أخذ يرثي لهم ويشجب أعمال أميرهم . وكلما دخل أبناء النبلاء في نظام التبعية قلت مدة الخدمة المنزلية وازدادت سعة المكافأة بالأموال النقدية « الاقطاعات » . وصار يطلب في القرن العاشر والحادي عشر تقليد المال مباشرة بعد طقوس الاحترام والولاء . ولم يعد الانسان تابعاً إلا في سبيل الحصول على الانتفاع . وهذا هو عكس الوضع الذي كان في السابق بين السيد والزيون .

وأخيراً ، وبعد أن أصبحت العلاقات التبعية النموذج الوحيد المقبول في العلاقات بين الناس ، طلب كثير من الملاكين والأغنياء ، الذين كرهوا عزلتهم ، أن يكونوا اتباعاً لجار قوي وذلك باعترافهم ظاهراً أنهم يأخذون ملكيتهم منه . ومثل هذه الاقطاعات المستودعة ساعدت على الاكثار من عدد « الامارات » .

ظهور كلمة الاقطاع . - ورغم شكلية الاحترام والولاء التي دامت حتى عام ١٧٨٩ في العقود بين السيد والتابع فلم تأخذ التبعية المقام الأول

بل « الانتفاع » أو الكلمة العامة التي اكتشفت حوالي آخر القرن التاسع وهي كلمة « الاقطاع » .

ولقد ظل « الانتفاع » و « الاحسان » المحض شيئاً واحداً خلال زمن طويل . ولذا كان خلواً من كل محتوى حقوقي ولا يقتضي أي التزام واضح . أما الواجبات الخاصة بالقابض عليه فتتعلق بصفته منتفعاً أو تابعاً . ولذا لم يكن الاقطاع منفصلاً عن التبعية . ولو حاولنا عزله لزال .

تسلسل الاقطاعات . - ولكن كلما أخذ العنصر التبعية بالضعف أخذ الاقطاع المقام الأول . وعندما لا يمكن استرداد الامتياز ويصبح وراثياً ، كما هي الحال في القرن الحادي عشر ، يبدو المجتمع تسلسل اقطاعات أكثر مما هو تسلسل اشخاص ، ويقوم فيه النظام « الاقطاعي » مقام النظام التبعية .

وأخيراً سرت نبتة الموت في المبدأ التبعية عندما جرى التعامل في تناول عدة اقطاعات من عدة أيدي أي عندما أصبح للشخص عدة أمراء .

تطور لا ثورة . - ان هذه التبدلات الكبرى كانت في حالة نهضة في العصر الكارولنجي بل ومنذ العصر الميروفنجي . غير أن التبعية التي بدلت النفوس والأشياء لم تبلغ بعد درجتها القصوى . وإذا قرأنا الوثائق ظهر لنا رغم قلتها وضآلتها أن الناس الأحرار المستقلين كانوا أكثر من الأحرار الذين دخلوا في التبعية ؛ وأن الاراضي المملوكة ملكية تامة تؤلف الاكثية اذا ما قيست بالنسبة إلى الاراضي التي وضعت عليها اليد بطريق « الاحسان » . ولكن النسب ستبدل في بداية العصر الكابسي دون حدوث أي ثورة اجتماعية . وهكذا نرى أن

- ٣٨١ -

الاقطاعية التي نشأت في ظلمة الامبراطورية الدنيا ، قد تابعت سيرها
بيطء ولكن بقوة طبيعية لا تقاوم . ولقد تراجعت الملكية والحرية
والدولة دون انقطاع أمام هذا العدو ، الاقطاعية ، الذي اتخذته
مساعداً زمنياً طويلاً .
وبعد فليست الاقطاعية موجة من أمواج الاعماق تتقدم بهياج عظيم
فتجتاح الشواطئ ، بل هي فيضان تدريجي لا يدرك الا بصعوبة . ويبدو
طفيفا ولكنه سيغطي كل شيء .

الفصل السابع عشر

العالم الاسكندينا في حتى آخر القرن التاسع

لقد كان منتصف القرن الثامن ، بالنسبة للبلاد الاسكندينا في ، بداية لعصر جديد اتفق على تسميته باسم « عصر الفايكنغ » . ففيه بدأت الاقوام العديدة ، التي تؤلف جرمانيا الشمال ، بتشكيل وحدات عرقية ظلت لغتها حتى ذلك الحين لغسة واحدة بالرغم من الاختلافات المحلية ، ولكنها أخذت تولد لغات مختلفة : كالسويدية والدانماركية والنورفجية ، لم تستكمل شخصيتها الخاصة الا في القرن الحادي عشر .

لقد كان الدانماركيون يحتلون في ذلك الحين جزر غرب الباطيك وجوتلاند وجنوب السويد الحالية (هالاند ، سكايا ، بليكنغ) . وثبت النورفجيون على طول الشاطئ الغربي لشبه الجزيرة الاسكندينا في . واستقر السويديون في بلاد السويد الوسطى الحالية في المنطقة التي تتألف وسطها من بحيرة ميلار . وفي الجنوب تمتد البلاد التي يسكنها الغوت . وهم فرع من الشعب الغوطي ظل حيث كان ولم يهاجر . أما شمال شبه الجزيرة ، حتى خط عرض اخفض مما هو عليه اليوم ، فقد سكنه اللابونيون وهم شعب متخلف جداً .

وكانت اوروبا الغربية تطلق على مجموع هؤلاء السكان اسماً عاماً :
نوردهماي أي الشاليون وهم النورمانديون .

ولم تكن اسكاندينايا عالماً مغلقاً . فقد كانت السويد تتصل ، عبر
البالطيك ، بالشاطئ الشرقي لهذا البحر ؛ وبفضل الخلجان ومصبات
الأنهار ، التي تتفتح عليه عبر السهل الروسي ، بالشرق . وأمن الموقع
الجغرافي للدانبارك دوراً وسيطاً بين البالطيك وبحر الشمال . وجعلت
فيوردات شواطئ النورفيج الغربية والجنوبية من سكانها ملاحين ،
وفتحت البلاد لعمل المؤثرات الخارجية .

المظاهر الاخلاقية . — تتصف حضارة الشعوب الاسكانديناية بمحصب
تنوعها واختلافها ، حتى ان بعض المظاهر المادية لهذه الحضارة ذات أشكال
متطورة جداً ، وما هو معروف من المظاهر الأخلاقية يدل على حالة
قريبة من البربرية . ومعلوماتنا في هذه النقطة ناقصة : فالوثائق المعاصرة
التي تتناول الحقوق تنقصنا تماماً ، غير أن النصوص الغربية تسمح
بالتأكيد من أن الشعوب النورماندية لا تعرف حداً أو قيداً لميولها
الفظة والدموية ، ويمتهونها الانتقام وتعدد الزوجات وارثاب
ادنى الرذائل .

الدين . — لقد كانت الشعوب الاسكانديناية تسدين بالوثنية
الجرمانية . فكانوا يعبدون قوى الطبيعة وبخاصة الشمس واليا تصعد
الآلهة الأساسية : تود ، اودن ، فرو ، وإلى جانبها وتحتها آلهة أخرى
مثل آل آس وآل فان ، كما يعبد الشعب الأشجار واليابيع ، وتطلب
الآلهة ضحايا بل وضحايا بشرية أيضاً ، ويقدم هذه الضحايا زعماء الشعب والقبائل .
ووجد في أيسالا مهبد خشبي يعتبره السويديون مهبداً قومياً .

وكان الاسكاندينافيون شديدي التعلق بعبادتهم الوثنية ، ولم تصلهم المسيحية الا بصعوبة . واشتهر الفايكنغ باعتداءاتهم ، في أوربة الغربية ، على الاكليزوس والكنائس بالفضاعة والعنف . واعتنق التجار الاسكاندينافيون المسيحية لأسباب عملية في موافاة الفريز وساكنس وانكلترا ، ولكنهم لم ينفذوا إلى روحها ، ولم يكن للبعثات التبشيرية التي ارسلت إلى الدانمارك ، في غضون القرن التاسع ، أي تأثير دائم .

الابجدية الاسكاندينافية . - عرفت الشعوب الاسكاندينافية الكتابة بالابجدية « الرونية » وقد نشأت هذه الابجدية عند الغوط على شواطىء البحر الأسود حوالي آخر القرن الثاني وبداية القرن الثالث . وتقوم على تلاؤم عناصر من الأبجدية اللاتينية والابجدية الاغريقية ، وعن الغوط انتشرت منذ آخر القرن الثالث بين معظم الشعوب الجرمانية وتطورت ، منذ ذلك الحين ، بشكل خاص في اسكاندينافية . وفي حوالي العام ٨٠٠ نجد فيها ابجدية رونية مبسطة تضم ١٦ رمزاً عوضاً عن ٢٤ . وكانت احجار الشواهد مغطاة بنقوش كتابة رونية .

الحضارة المادية . - ان الحضارة المادية للشعوب الاسكاندينافية في عصر الفايكنغ معروفة بشكل واضح ، ونستطيع ان نستشف معالمها من الآثار العديدة في المناطق التي كانت مراكز أساسية لنموها : في النورفيج ، فيستفولد على فيورد اوسلو ، رينجبريك في شمال اوسلو . في الدانمارك ، جزر شونن وسيلاند . في السويد ، او بلاند أو بلاد ميلار . في الباطيك ، جزيرة غوتلاند المأهولة بالغوت .

وهذه الحضارة اسكاندينافية في أساسها ، ولكنها تأثرت بقوة بتيارات

خارجية . ولم تكن شيئاً فنياً وجديداً ، بل نتاج تطور خمسة عشر قرناً . وهذا التطور وحده يوضح نعومتها . فهي تتميز بالبذخ والبحث عن الأثر الفني ، والأمثلة على ذلك كثيرة : كان ائاث الزعماء وعرباتهم وزحافاتهم وامرئتهم الحشبية محفورة بكامها ، واسلحتهم اقل زينة ولا شك مما كانت عليه في العصر السابق ، ولكن الأتراس وقبضات السيوف وبلطات الأسلحة كانت مزدانة بتزيينات وخيوط نحاسية . واهتموا بالحلي وخاصة بصياغة الاساور والأطواق والأقراط والشكالات وافادوا من الذهب مادة مفضلة حتى آخر القرن السادس ثم استهاضوا عنه بالفضة وصاغوا منها حلياً وادوات . وغنوا في تزيينهم بأسلوب الزخارف الحيوانية المعروفة منذ عدة عصور ، ولكنهم طوروها وادخلوا عليها تعديلات وتحويلات كثيرة . وكانت الحيوانات الغريبة تنهي في اطرافها برؤوس حيوانات ، وتحاط بحيوانات أخرى بأجسام منفصلة مجزأة وزخارف متشابكة ترى فيها زواحف مسلوكة . وهذه الزخارف مشتقة ، على ما يبدو ، من « فن حيواني » من جنوب روسيا ، وقد تطورت باستمرار بتأثير المجلوبات الشرقية ، وربما ببعض مؤثرات كارولنجية وانغلو-ساكسونية وإيرلندية .

الحياة الاقتصادية . - لقد كان النشاط الاقتصادي للشعوب الاسكاندينافية متعددأ متنوعأ نذكر منه الصيد وتربية الحيوانات وزراعة الحبوب كالقمع والشيلم والشعير . ومنذ القرن الثالث اتجه الميل الى تعرية الغابات وجعلها صالحة للزراعة ، وامتدت هذه الحركة من الساحل نحو الداخل . وكان الشعب يعيش متجمعأ في قرى أو يسكن المزارع المنعزلة تحت رحمة الشروط الجغرافية ، ويبني منازلهم من الحشب والغطار . ويشيد معسكرات وملاجئ يحميها بتاريس مستديرة مبنية بالحجر أو التراب .

وكانت الأسوار التي هي من هذا النوع تحيط على وجه العموم بالتكتلات التجارية .

وكانت الملاحة والتجارة تؤلفان في القرن التاسع نشاطاً اقتصادياً أساسياً وهاماً عند الشعوب الاسكاندينافية . وكان الملاحون يركبون سفناً نحيلة متساولة ، ذات جؤجؤ مزين برأس غول ، تسير بالشراع والتجديف ، وجوانبها محمية باتراس مستديرة من الحشب . وكانت هذه السفن سريعة جداً وثابتة وتساعد الملاحين النورمانديين على تغطية مسافات كبرى في البحر .

وعلى هذا النحو يتضح كيف ان البلاد الاسكاندينافية استطاعت ، في آخر القرن الثامن والقرن التاسع ، ان تقيم علاقات تجارية متتابعة مع الشرق البيزنطي والاسلامي الذي تصعد منتجاته نهر الفولغا والدينيبر وتبلغ شواطئ الباطيك بينما كانت الفراء والرقائق التي يصدرها النورمانديون تسلك باتجاه معاكس الطرق نفسها إلى القسطنطينية وبغداد . ويبدو ان جزيرة غوتلاند ، ومدينة بيركا في جزيرة بيوركو في وسط ميلار ، وفي الدانمارك ميناء شلفينغ وهينابو على ضفتي نهر شلاي ، كانت مراكز أساسية لهذه التجارة .

وكان دورها بمخاضة دور وسيط بين العالم الشرقي والعالم الغربي . وقد أخذ هذا الدور أهمية كبرى منذ ان تعذرت الملاحة في البحر المتوسط الغربي بسبب هيمنة العرب . وكان التجار والملاحون الدانماركيون والسويديون ، وبدون شك ملاحو جنوب النورفيج ، يختلفون إلى الموافيء الانكليزية والساكسونية والفريزية وخاصة ميناء دورشتيد ، وينقلون اليها منتجات الشرق كالافمشة الفاخرة ، بينما كان يبيع فيها ملاحو شمال

النورفيج الفراء والسلك المملح . ويتون من الغرب بالأدوات الحديدية وبخاصة السيوف والرماح .

ويبدو ان هذه الشعوب الاسكاندينافية لم تضرب النقود قبل آخر القرن التاسع . ففي حوالي ٩٠٠ نجد القطع الاولى بشكل تقليد بدائي للدنانير السكارولنجية لميناء دورشتيد الفريزوني والمضروبة ولا شك في هايباو . ومنذ آخر القرن الثامن وفي القرن التاسع شوهدت النقود الاسلامية الكوفية وبعض النقود البيزنطية في جزيرة غوتلاند وفي السويد . وإذا استثنينا السلع التي يصنعها الشرقيون للاسكاندينافيين وجدنا ان معظم المدفوعات في القرن التاسع كانت ، على ما يبدو ، فضة غير نقدية .

المجتمع والدولة - لقد كانت الشعوب الاسكاندينافية في آخر القرن الثامن وفي القرن التاسع تمتاز بطابع ارستقراطي . فقد وجدت بينها طبقة عديدة من الزعماء (يارل) ذات نفوذ حاسم على الناس الأحرار الآخرين الذين يتبعونهم في حملاتهم العسكرية . وكانت السلطة العامة في ايدي مجالس الناس الأحرار اكثر مما هي بين ايدي الملك الذي يتسلم سلطاته بالانتخاب . اما في الدانمارك فقد فرضت السلطة الملكية عليهم بأقوى مما كانت في السويد وبخاصة مما في النورفيج .

وفي آخر القرن الثامن بدأت تتشكل في النورفيج دول حقيقية ، حول فيورد اوسلو ، على يد ملوك فيستفولد مثل هالفدان الكريم ، في السنوات الاخيرة من القرن ، وابنه غودفريد ، اللذين حررا البلاد من سيطرة الدانمارك بعد ان توطلدت فيها . ثم أخذ خلفاؤهما في القرن التاسع يفرضون سلطتهم بالتدريج على الشعوب المجاورة لجنوب البلاد .

اما المملكة السويدية فقد أنشأها ملوك اوبلاند . غير انهم لم

يستطيعوا ان يتوصلوا في القرن التاسع إلى وضع غوطيا القارية تحت سلطتهم تماماً ، كما لم تقبل جزيرة غوتلاند ان تدفع لهم ضريبة الا بعد مائة عام .

وبدت المملكة الدانماركية اقوى من غيرها . ولقد أصبح بإمكانها القيام بسياسة خارجية تسلطية (امبريالية) . واذا فقدت جنوب النورفيج ، الذي فتحه الدانماركيون في القرن الثامن ، فقد حاول الملك غودفرواد ان يمتد بسلطته الأرضية نحو الجنوب على حساب الاوودريت والفرنجة . غير ان شارلومان وضع عقبة أمام فتوحاته . وكان مقتل غودفرواد ، عام ٨١٠ ، بداية لحروب داخلية سببها التنازع على العرش .

الحملة البحرية . - يتميز تاريخ الشعوب الاسكندنافية في القرن التاسع بكثرة حملاتهم البحرية . فقد كانت الملاحة والتجارة الخارجية نشاطاً اقتصادياً فائقاً لسكان الشواطئ في اسكندنافيا . وكانت الأعمال التجارية في حملاتهم البحرية تتبع ، حسب الظروف ، اعمال القرصنة ، حتى ان القرصنة تفوقت على التجارة بشكل حاسم ابتداء من الربع الثاني من القرن التاسع .

لقد انطلقت منذ القرن السابع حملات من النورفيج وبلغت جزر هبريد وشتلاند وفيروه وانشأت فيها مؤسسات . وفي القرن الثامن انحدرت سفن نورماندية من جزر في شمال ايكوسيا (سكوثلاندا) نحو الجنوب : ففي ٧٨٧ ولأول مرة بالقرب من دورشستر هاجمت الشاطئ الانكليزي ؛ وفي ٧٩٥ انجحت إلى الجزر في عرض ايرلنده . ويبدو ان هذه الغارات على الجزر البريطانية كانت حتى ٨٣٥ من عمل القرصان النورفيجين . أما النورمانديون ، الذين اخذوا يهاجمون شواطئ المملكة الفرنجية وازداد قوتهم انطلاقاً من العام ٨٣٤ ، فكانوا دانماركيين .

وفي العصر نفسه كانت الحملات الاسكاندينافية تتجه صوب شواطئ بحر البaltيك . وفي بداية القرن التاسع مارس الدانماركيون سلطة عليا على ميناء ريبيك في بلاد الالبودريت ، وقام السويديون بعملياتهم في هذه المنطقة الجغرافية : ففي القرن الثامن انشأوا مؤسسات مؤقتة وضعيفة في كورلاند ؛ وفي القرن التاسع ثبتوا على شواطئ فنلندا وضافا بحيرة لادوغا . وانطلقوا على ما يبدو من هذه القواعد بشكل عصابات من الغامرين وشقوا ، تحت اسم الفاريغين أو الروس ، الطرق التجارية التي تتجه نحو الجنوب ، عبر السهل الروسي ، تارة تجاراً وتارة محاربين . وفي ٨٣٩ وجد سفراؤهم في القسطنطينية . وكان زعماء العصابات السويدية تحت إمرة امرأ اخذتهم المدن التجارية السلافية لخدماتهم ، مثل مدينة فولشو - نوفغورود وكيف على الدنيبر ، فأصبحوا سادة لها ووجدوا في النصف الثاني من القرن اولى الدول في روسيا . وفي العام ٨٦٠ هددوا القسطنطينية ، وترك عملهم آثاراً في أسماء الأماكن الروسية ، فضلاً عن ان هذه البلاد مدينة لهم باسمها .

أسباب الغارات النورماندية . - كان التوسع النورماندي حادثاً عظيماً ومفاجئاً . وقد عبر عنه بخاصة في انكلترا وفي المملكة الفرنجية بغارات حقيقية . واثارت هذه الغارات ايضاحات مختلفة ، بيد اننا لانجد فيها ايضاحاً جامعاً مانهاً ومرضياً لأن كل واحد منها يتضمن شيئاً من الحقيقة ، ويمكننا ان نجعلها فيما يلي :

- ١ - تكاثر السكان بالنسبة إلى الاراضي المزروعة التي لا تكفي لتغذيتهم .
- ٢ - تشكل دول قوية أدت بالهاريين المتعلقين بحريتهم إلى مغادرة أوطانهم .

— ٣٩٠ —

- ٣ — سب المغامرة والمخيلات البعيدة في سبيل السلب والنهب وأعمال القرصنة كانت نشاطاً طبعياً عند هذه الشعوب البحرية الحربية
- ٤ — شدة التجارة الاسكاندينافية في القرن الثامن والتاسع مع بلاد الشرق والغرب دفعت الأقوام الشمالية إلى الثروة والغنى .
- ٥ — احتكاك الشماليين بالعالم الغربي عرف الشماليين بموارده فغامروا في سبيل الحصول عليها .
- ٦ — المقاومة الضعيفة التي ، أبدتها الغربيون أمام الغارات الاولى ، كشفت عن امكان تحقيق غنائم عظيمة بفضل حملات متتابعة أقوى وافضل تنظيماً .

الفصل الثامن عشر

الجزر البريطانية من القرن الخامس الى القرن العاشر

البروتون

في أواخر العهد الروماني لم تجل روما عن بريطانيا العظمى ، كما يقال ، بل الحقيقة ان القادة ، الذين كانوا في الجزيرة ، قاموا بانقلاب في بداية القرن الخامس وزحفوا على القارة ومعهم جنودهم . ورغم ان الغاصبين او الابطرة الايطاليين او القسطنطينية لم يتخاروا عن الجزيرة بصورة رسمية فان الواقع يظهر ان بريطانيا ابتداء من العام ٤٠٧ قد تركت وشأنها .

وفي السنة التالية هاجمها الساكسون الذين ما فتئوا يهاجمونها منذ أكثر من قرن . وبعد ٢١ عاماً تألب الساكسون واقوام البيكت في كاليدونيا وحاربوا البروتون ، سكان الجزيرة الاصليين ، بالقرب من فيرولام (سنت البانس) في شمال لندن فأخفقوا في مسعاهم عام ٤٢٩ . ولكنهم اعدوا الكرة في ٤٤١ - ٤٤٢ فم لهم كل شيء ووقعت بريطانيا في أيدي الساكسون .

ومع هذا فقد تمالك البروتون قواهم ، وإذا فر قسم كبير منهم ، أمام هجوم الساكسون ، وخاصة السكوتيون في ايرلنده وبحشوا عن ملجأ لهم في شبه الجزيرة الارموريكية في غاليا، وحتى في غاليس في اسبانيا،

واعطوها اسمهم وأصبحت « بروتانيا » فقد تماسك الباقون في النصف الغربي من الجزيرة البريطانية .

وتبدو هذه النتيجة مفاجئة لأن السكان ، كما هي العادة ، لم يستطيعوا مقاومة البرابرة الذين اتخذوا الحرب مهنة وشاغلاً ، وإذا استطاعوا أن يقاوموا فذلك بفضل تنظيم اقرباء الغاصبين في سنتي ٤٠٦ - ٤٠٧ . ويذكر المؤرخ الاغريقي بروكوب (بروكوبيوس) في القرن السادس ان الجزيرة تركت دون دفاع واستقلت ذاتياً « تحت حكم الطغاة » .

اما تقلبات النزاع في النصف الثاني من القرن الخامس بين أبناء البلاد والغازين فمجهولة . وكل ما نعلم انه قامت حوالي العام ٥٠٠ حرب كبرى على « جبل بادون » انكسر فيها تقدم الساكسون ، وتبع ذلك سلام او بالأحرى هدنة دامت نصف قرن . وفي منتصف القرن السادس كانت حالة العرقين المتنازعين كما يلي :

لم يشكل البروتون دولة واحدة ، بل توزعوا في ممالك صغيرة متنافسة في الكونتيات الانكليزية الحالية في كورنوي ، ديفون ، دورسيت ، سوميرست ، وفي جنوب الغال وشمالها ووسطها وفي الجنوب الغربي وفي الغرب في كهبرلاند وست مورلاند الحاليين .

وتوغل البروتون في الشمال الغربي بين شعيب البيكت في كاليدونيا واستقروا في وادي نهر كلايد ودحروا أمامهم البيكت في غولوي . ومن الممكن ان توجد مملكة بروتونية في الشمال الشرقي في المنطقة الواقعة بين سور هادريان وفيرث فورث ، وربما وجد بروتون في لانكشاير .

والجدير بالذكر ان النصوص المكتوبة ، التي تعطينا أخبار البروتون،

تتفق مع علم الآثار ويعطيان معاً نتائج متطابقة مع بعضها فيما يتعلق بتاريخ البروتون السلتيين في الجزيرة البريطانية .

على ان بعض البروتون لم يفقدوا الأمل من طرح الغازين الجرمانين إلى البحر ، بيد ان هذا الأمل كان خيالياً لأن البروتون السلتيين كانوا مضطرين إلى التراجع باستمرار أمام الأقوام الغازية ، هذا فضلاً عن أن الممالك البروتونية لا توجد بينها رابطة تجمع شملها . وهذه التجزئة السياسية ترجع ولا شك إلى تركيب بريطانيا الجغرافي أكثر مما ترجع إلى انقسام البروتون إلى سبع أو ثنائي دول ، لأن أعداءها الانغلو ساكون كانوا منقسمين على انفسهم ايضاً . وابتداء من القرن السابع تسارع اقول الامارات البروتونية وأخذت تتساقط في ايدي الانغلو ساكون .

غير أن التقلبات السياسية لم تكن وحدها مسؤولة عن طرح البروتون في الصعيد الخلفي ، بل ان اعتناق الانغلو - ساكون المسيحية وجه اهتمام الكنيسة الرومانية نحو هؤلاء . فقد كان البروتون الجزيريون متعلقين بطقوسهم الدينية الخاصة ورفضوا أن يخضعوا لتعاملات كريمة قبلها اعداؤهم وطبقوها . لقد كانوا يحتفلون بعيد الفصح حسب جدول توريسخ أخنى عليه الدهر ، ويقبلون العلمانيين في صف الاكليروس بشكل يغاير طريقة الرومانيين ، ولذا اعتبروا كاللنشين تقريباً ، وازادت روما أن تخضع اساقفتهم إلى العاصمة الانغلو ساكونية ، كانتربوري ، يضاف الى ذلك أن مقاومة الغالوين (سكان بلاد الغال) العنيدة أوجدت لهم عبر العصور شهرة سيئة في القارة .

وأخيراً ، ان بريطانيا الرومانية في الماضي لم تعد تحسب منذ وقت مبكر في عداد بلاد الثقافة الاوربية . فقد ترومنت بصورة سطحية ولم تعط أي كاتب للآداب اللاتينية . وفي القرن الخامس ضاعت معرفة

اللاتينية ، الا عند الاكليركيين والأمرء ، وأخير زالت الحقوق الرومانية أمام الاعراف المحلية .

حقاً لقد ترومنت بريطانيا ولكنها لم تأت بأي اسهام لامع في الآداب اللاتينية المسيحية . وكان جيلداز يشعر بأنه روماني ولكنه كان كاتباً مقبلاً واسلوبه ركيكاً . أما سير القديسين الغالويين المزعومة للقرن الخامس والسادس فقد كتبت في القرن الثاني عشر . وفي الحقيقة ان خسائرتنا عظيمة عن تاريخ هذا العصر : ففي القرن التاسع أحرقت الدانيمركيون وأنورفجيون الوثائق ومكتبات الاديرة والأسقفيات الغالوية . والكاتب الوحيد ذو القيمة ، آسير ، مترجم حياة الفريد الكبير كان موالياً للملكية السكونية .

وبالمقابل عرف البوتون الجزيريون منذ القرن السادس والسابع نهضة أدبية في لغتهم القومية ، ولسوء الحظ لم يصل إلينا شيء . فالأشعار الغنائية والحماسية الموضوعية تحت اسم شعراء بطوليين وغنائيين مثل : آوربن ، تاليزان ، ليوارك هن ، ليست سابقة للقرن الثاني عشر . أما قصيدة غودودن التي ترسم لنا صراع البوتون في الشمال ضد البيكت والانغلز - ساكسون في آخر القرن السادس فلا يمكن أن تكون سابقة في شكلها الحالي للقرن العاشر أو الحادي عشر . فضلاً عن أن فهمها صعب جداً .

انغلو - ساكسون

توطد الجوت والساكسون والآفل . - لقد كان المستقبل في الجزيرة الكبرى لصالح الغزاة . وهم يعتبرون من أشد الجرمانين وحشية وفضاعة ، ومن أقلهم ثقافة فكرية وأخلاقية .

وفي القرن الخامس لم يقتصر الساكسون والآنغل والجوت على القرصنة ، كما في القرن السابق ، بل انهم قاموا بهجرة كبرى (خروج) حتى أضحت مساكنهم في القارة من بعدهم خلافاً بالنسبة للآنغل ، أو مهجورة بالنسبة للدانماركيين (في جوتلاند) والسلاف (في هولشتاين) .

ومع هذا فقد كان استقرارهم في بريطانيا دون مخطط عام شامل . فقد أقام الجوت في كنت وجزيرة وايت وفي قسم من هامبشاير . وكانوا ، نظراً لثقافتهم المادية ، على حدة بالنسبة إلى الشعبين الآخرين . واحتل الساكسون شواطئ بحر الشمال ومصب التاميز في واش وشواطئ المانش وكنت حتى الدومونون البروتونية . وكانت الطرق الرومانية ، كما في القارة ، تسهل الغزو . وأقام الآنغل على طول بحر الشمال من واش إلى فيرث فورث ثم توغلوا في داخل الجزيرة .

ولم يكن بين هؤلاء القادمين الجدد أي اتفاق وانسجام ، وكانت الدول تؤسس صدفة واتفاقاً . وحسب العادة عرفت بريطانيا الجرمانية تحت اسم هبتادشي أي السبع ممالك ، ولكن العدد الحقيقي لهذه الأقسام يتجاوز كثيراً رقم سبعة .

توزع الجوت على ثلاث فرق : كنت ، جزيرة وايت ، هامبشاير . ومميت الدول الساكسونية ، حسب وضعها : اسكس (مع لندن) ، سوسكس ، وسكس (مع ونشستر) . ولكن يجب أن يضاف إليها الستوايج وهي اليوم سوري ، والهويكس وهي قبيلة ساكسونية غربية أقامت على نهر الآفون والسيفرن الأدنى .

وكان الانغل مبعثرين : ففي اسكس وواش حلّ الانغل الشرقيون (انغليا الشرقية) . وفي شمال هامبر وحتى سور هادريان وجدت دولة الدايوا وعاصمتها يورك . وفيما وراء ذلك تذكرنا دولة البرنيسيا بامم

ارض القرصان (بريغانتر) البروتون : وقد امتدت هذه الدولة حتى فيرث فورث عندما انتزعت غودودن من يد البروتون (آخر القرن السادس؟) وكانت العاصمة في البدء قصر بامبرا على الشاطئ ، ومن ثم أصبحت ادمبرا مقاماً لملوك برنشيا .

وفي داخل الجزيرة نجد « المتوسطين » ، كما كان يسميهم المؤرخ الانكليزي ، بيد الجليل ، ومرسيا ، ولاندسي بين واش وهامبر .

وبالاجمال نجد ١٦ - ١٨ دولة انغلو - ساكسونية - جوتيه عوضاً عن ٧ دول . وكانت هذه الدول دون أي تضامن قومي ، متعادية فيما بينها . وكان ملوكها يتحرقون لوعة لاختضاع الملوك الآخرين ، وليكونوا ملوكاً سامين ، سواء على الانغلو - ساكسون ام البروتون . ولكن قلما لعبت الممالك الصغيرة دوراً هاماً . وفي آخر القرن السادس هيمنت كنت حسب رأي بيد الجليل ، ولكنها كانت صغيرة لاتستطيع الحفاظ على ما كسبت من ثروة . وبين ٦٥٨ و ٧٩٢ احتدم النزاع بين مرسيا الانكليزية ونورثامبريا الى ان تفرقت مرسيا أخيراً . وفي القرن التاسع هيمنت وسكس وظلت مهيمنة حتى آخر الدور الساكسوني في تاريخ انكلترا

اعتناق الانغلو - ساكسون المسيحية . - لقد قامت الأقوام الجرمانية على انقاض الامبراطورية الرومانية ، ودخلت اليها مسيحية على المذهب الاربوسي ، ثم انضمت الى المذهب الكاثوليكي ، الا ان الفرنجة وحدهم انتقلوا مباشرة من الوثنية الى الكاثوليكية . وفي آخر القرن السادس لم يبق من الوثنيين الا اللومبارديون والانغلو - ساكسون . ويبدو ان البابوية كانت في مشاغل دينية وسياسية مع اولئك ، وكانت على حق في اهمال الآخرين . ولكن غيرة البابا غريغوار الاول لم تساعد على ارجاء صبه وثني الجزيرة زمناً طويلاً .

لقد حفر النزاع على امتلاك الجزيرة بين البروتون والانغلو - ساكسون هوة معنوية لم يستطع الدين سدها ، لأن الغزاة الجرمان لم يهتموا باعتناق دين المغالبيين ، ورفض البروتون ان ينقدوا روح الغزاة المتوحشين واعتبروهم لصواً وأشقياء . وكان اكليروس غالباً ضعيفاً دون شعة رسولية ، وغير قادر على تمسيح المناطق الريفانية ، وليس لديه فكرة في رد بريطانيا الجرمانية الى حظيرة الايمان .

داعب هذا المشروع احلام البابا غريغوار الأول منذ السنوات الاولى لحبريته (٥٩٠ - ٦٠٣) ، وبدأ باقتداء شباب كان الانغلو - ساكسون يبيعونهم عبيداً ، وعلمهم الدين في أديرة غالبا ليكونوا مبشرين في المستقبل . ولكنه في عام ٥٩٦ عجل الأمور . فقد رجاء الانكليز ، أو على الأقل اقنع نفسه ، بأن يعلمهم الايمان المسيحي وقرر ان يرسل الى الجزيرة جيشاً من المبشرين الرومانيين مؤلفاً من الرهبان ، تحت ادارة اغسطن . وبعث برسائل توصية الى اكليروس غالبا والى الملكة برونهيو وصية الملكن الحدين تير وتيوري فأمنت لهذه الجمعية المبشرة المرور من غالبا ، كما امنت لها في الوقت نفسه مكان انطواء في حال الاخفاق . ولاقى التبشير الكاثوليكي نجاحاً واستطاع اوغسطن ان يقيم مقره في دير كنيسة المسيح ، في كانتربوري التي أصبحت عاصمة دينية في انكلترا . وهكذا استطاعت الكنيسة ان تخرج الجزيرة البريطانية من عزلتها وتربطها من جديد بالحضارة الغربية . وتعمل على نشر الوحدة القومية فيها . ويرجع الفضل في ذلك الى تيودور الطرسوسي (٦٦٩ - ٦٩٠) ، اسقف كانتربوري . وهو من كيليكا ويعتبر اقوى شخصية عرفتها انكلترا . فقد قوى الكرسي الاسقفي وانشأ عدداً من الاسقفيات . ورفع هذا العدد الى ١٤ اسقفية تهيمن عليها كانتربوري . وعقد مجالس الاساقفة فأخذت تصدر القرارات المتعلقة بنظام الاكليروس

و « صناعة » الأديرة ، ونفى القضاء الكنسي . وبدأت الأسقفيات والأديرة تغنى بمبضل « بات الأمراء » .

وبعد وفاة نيزدور بقي على الكنيسة عمل هام وهو تنصير الأرياف وكان هذا العمل منذ قرن خاصاً بالملوك والملكات . وكان الشعب يتبع الملوك ولكنه ظل بربرياً ، لا اخلاقياً ، وثنياً . ولذا وجب أن تشاء في كل قرية أو دومين كنيسة ريفية . وبدأت بريطانيا الانغلو - ساكسونية بهذا المشروع الهام في القرن الثامن بعد أن انتهى في غالبا . ولكن الغارات الاسكندنافية في القرن التاسع والعاشر حالت درن الوصول به إلى غايته أو أبادت ثمار الجهود الماضية .

غير أن تعلق روما باللاتينية اعاق انتشار المسيحية لأت السكان سذج ولا يملكون ناصية هذه اللغة الصعبة ، فضلاً عن أن معظم الاكايروس لا يعرف منها شيئاً كثيراً وأن المؤمنين لا يفقهون الليتورجيا اللاتينية إلا قليلاً .

ولكن الكنيسة الانكليزية أدت خدمات جلي في نشر المسيحية في الاوساط الجرمانية الوثنية ، ونذكر على سبيل المثال الجهود العظيمة التي قام بها القديس ويليبورد والقديس بونيفاس .

النزاع بين الدول الانكليزية . - لم يكن بسن النزاع الجرمانين وحدة سياسية ، بل انهم اقاموا سبع ممالك قبلية عرفت بالممالك السبع وكانت الحروب مستمرة بينها ، وظلت انكلترا تعاني الكثير بسبب هذه المنازعات والانقسامات الداخلية حتى استطاع ايفغورث ملك وسكس (٨٠٢ - ٨٣٩) أن يغزو الجزء الجنوبي من الجزيرة سنة ٨١٥ وأن يهزم مرسيا سنة ٨٢٩ ، وبذلك أصبح سيد انكلترا وصارت وسكس اكبر قوة سياسية عندما بدأت غارات الفايكنغ توالي هجماتها وتتخذ مراكزها في الجزيرة

وتعمل فيها النهب ممهدة لفتحها بكاملها . وجرت بين الغازين وبين ملوك وسكس مواقع كثيرة ، ونخص بالذكر الملك الفرد الكبير ، فقد حاربهم وتغلب عليهم ، غير أن هجماتهم المتوالية والباغثة اضطرته إلى التعاقد واقتسام الجزيرة معهم . ولكن هذا لم يمنع من هجمات جديدة .

الفرد الكبير . - لقد لقب الاسكيز الفرد ملك وسكس بلقب «الكبير» وكان هذا اللقب في محله . فلولا ثباته وشجاعته ومهارته لسقطت انكلترا بكاملها في أيدي الدانماركيين . ولا يرى كيف استطاعت أن تتخلص من نيرهم بعد أن بقيت وسكس وحدها مركزاً للمقاومة . وبعد الفرد تفوق خلفاؤه وأصبح بإمكانهم أن يسيطروا على الاسكندينا في وسط الجزيرة وشمالها .

يضاف إلى ذلك أن الفرد كان مصلحاً . أصلح الجيش واوجد فيه مشابةً وانشأ اسطولاً . وكان مشرعاً إلا أن تشريعه قليل ودون أصالة ومستوحى من اسلافه . غير أن فضله الأكبر يظهر بنهوضه بالكندية وتنشيط التعليم . أنشأ ديراً للرجال وآخر للنساء . ودعا رجال الدين من الأجانب ، ولكنه بالرغم من كل شيء لم يستطع انعاش الحياة الديوانية . وحاول نشر الثقافة اللاتينية بعد أن اعترف بعدم وجود احد يعرف اللاتينية ، وأقام في البلاط على نمط الكارولنجيين مدرسة لتعليم أبناء كبار الدولة القراءة باللاتينية والساكسونية .

ولكن هذه الجهود لم تؤت أكلها إلا بعد زمن بعيد . واتخذ الفرد قراراً هاماً وأصيلاً سبق به رجال القارة باربعة أو خمسة قرون . فقد وضع في متناول الاكليركيين والعلمانيين أهم النصوص اللاتينية المعروفة أكثر من غيرها واعمها نفعاً بترجمتها إلى اللغة العامية . وعهد إلى الأسقف ورفرت بترجمة كتاب « محاورات » ، للقديس غريغوار الكبير ، وهو من أعذب

مؤلفات العصر الوسيط . واوحى بترجمة كتاب « المزامير » وفهرس الشهداء الساكسوني .

ولكن معظم الترجمات الساكسونية يرجع إلى الملك نفسه ، رغم أنه لم يتعلم القراءة إلا في الثانية عشرة من عمره ، كما يقول آسير مترجم حياة الملك . وأقدم آثاره مؤلف يضم منتخبات من المزامير ومجموعة أدعية ، وقد سماه انشيريديون ، وكتاب « السلوى بالفلسفة » لمؤلفه الفيلسوف بوئيس ؛ وآخر اثر له في الفصاحة الكتاب المسمى « الأزهار » وهو مجموعة « منتخبات » منتقاة في كتابتها الاولين من كتاب « المناجيات » للقديس اغسطينوس ، والكتاب الثالث يعتمد على رسالة اغسطينوس إلى بولين في رؤيا الله مع اضافات مأخوذة من كتاب « مدينة الله » و « الأخلاق » للقديس غريغوار .

واهتم الفرد بشغف في التاريخ ، فاليه يرجع الفضل في ترجمة « التاريخ العام » لمؤلفه اوروز ، وترجمة (غير منقحة) « تاريخ الكنيسة في المملكة الانكليزية » لمؤلفه بيد الجليل . واوصى بتأليف « التاريخ الساكسوني » الذي حرر نحو ٨٩٢ واريد به سرد تاريخ الجزيرة البريطانية حتى هذا التاريخ . وقد قيل ان معلوماته عن القرن الخامس والسادس عديمة القيمة ، ويمكن الحذر منها من أجل السابع . أما حوليات وسكس فلم تتألف قبل ٦٤٨ وهو تاريخ تأسيس كنيسة ونشستر . وليس بالمستحيل أن يسهم الملك فيها أيضاً : وقد اعتقد بعض الحكماء أنهم عرفوا طابعه في تنمة القصة ، من ٨٩٣ إلى ٨٩٧ .

وفي الحقيقة ، نجد في هذه الترجمات كلها اضافات وملاحظات ثمينة عرض فيها الملك ثمة تفكيره وتجربته . وقد جد في أن يعطي الكلمات اللاتينية تعابير سكسونية . وكان التاريخ القديم يضايقه أحياناً فلا يتوصل إلى التعبير عن الاسم المزدوج للقناصل الرومانيين .

ونسبت اليه خطأ ترجمة مفقودة للعهد القديم والجديد ، لأن تقواه لا تسمح له بمس نص مقدس. وحرمانا وهم آخر من تحرير الأغاني الشعبية الساكسونية التي حفظها عن ظهر قلب في طفولته .

وبالأجمال ، ان اثر الفرد عظيم وأصيل . فقد تجرأ في وقت مبكر ونشر باللغة العامة مؤلفات ثمينة للاكليركيين ومفيدة للمؤمنين . ونعت بابي الأدب الانكليزي ، ويبدو انه يستحق هذا النعت .

مضارة العصر الانكلي - الساكسوني

المصادر . - يجدر بنا أن نعترف بأن معلوماتنا عن العصر الأنكلي - الساكسوني ناقصة . اما « القوانين » المبكرة التي ترجع إلى حوالي العام ٦٠٠ فلا تتعلق إلا في كنت ثم وسكس . وضاعت قوانين اوفاملك مرسيا ، ولا يوجد منها شيء مكتوب يتعلق بنورثامبريا وانغليا الشرقية . ولا نستطيع ان نعرف بهذا المصدر في القرن العاشر الا جنوب انكلترا والجزر والساكسون ، لا الأنغل .

وكذلك الموائيق وعددها نحو ٢٠٠٠ ، فهي لا تستعمل الا للنصف الثاني من القرن الثامن . أما معظم الصكوك التي ترجع إلى عصر سابق فهي مجرد تزييف . يضاف إلى ذلك أن المعلومات النادرة ، التي نجدها في « تاريخ المملكة الأنغلية » لمؤلفة بيد الجليل وفي سير القديسين ، لا تسد العوز إلا قليلاً .

احتلال الأرض واستغلالها - لقد ظن طويلاً أن الغزاة جماعة ديموقراطية محاربة يقودها زعماء منتخبون ، وأن هؤلاء المحاربين تقاسموا الأرض المفتوحة حصصاً متساوية فيما بينهم وفلحوها بسواعدهم . ان هذا العصر الوسيط - ٢٦

محض تصور وخيال . لقد كان الانغلو - ساكسون ، كالجermanيين الآخرين ، يشكلون مجتمعاً ارسقراطياً جداً . وكان المحاربون ، وهم اناس أحرار ونبلاء ، يتكون إلى الارقاء والمعتوقين عمل الأرض . ولم تكن القرية جماعة اناس أحرار ، بل دومين مالك يوزع الأرض إلى حصص يعمل فيها الأقنان المتعلقةون بالتراب . وكانت الأرض الصالحة للزراعة مقسمة بوجه عام إلى ثلاث قطع او فصول وتخصص بالتوالي للزراعة القوية (الحنطة وخاصة الشليم) والخفيفة (الشوفان أو الحضرافات) ثم تترك بورا . وكان لكل صاحب قطعة أرض حق في حصته في كل من هذه الفصول ، والحصة تكون بشكل جقل رقيق متطاوّل جداً ، شريط حقيقي . وله ايضاً حق التمتع بالمروج والغابات المجاورة بشكل يتناسب مع سعة الأرض الزراعية المخصصة له .

ان توزيع الأرض وزراعتها دورياً على ثلاث سنوات والتضامن الشديد في الزراعة ، شيء مألوف في غالبا ، وعلى الأقل في شمالها ، وفي جرمانيا وفي العالم السلافي . وهو ولا شك ارث مشترك بين شعوب اوروبا القارية غير المتوسطة . ولذا لا مجال للقول بأن الانغلو - ساكسون أنوا بهذا النظام من جرمانيا أو انهم أخذوه عن البروتون .

الحياة المدنية والتجارة . - كانت اهمية الحياة المدنية ثانوية . وربما يعتقد بأن السبب في ذلك يرجع إلى ان الانغلو - ساكسون قوم يكرهون المدن والتجارة . لا شيء من هذا البتة ، وكل ما في الأمر ان المدن الرومانية في بريطانيا كانت في الأصل قليلة العدد والسعة ، فضلاً عن ان بعضها دمر اثناء الغزو . وكان الانغلو - ساكسون يقيمون حيث يجدون سهولة في الموقع وتقاليد تجارية تساعد على نهضة الحياة ، حتى انهم حافظوا على الأسماء البريطانية لهذه المدن . وظلت الحياة المدنية

- ٤٠٣ -

بدائية . ولكن هذا الوصف ليس خاصاً بانكلترا ، ولتلاحظ ان لندن كانت ، كما في الماضي ، موقعاً هاماً .

وكانت التجارة تتم بصورة طبيعية مع بلاد غالبا على وجه التفضيل . وكانت الصناعة ريفية بخاصة ، ويقوم بها الاقنان على الأملاك الأميرية .

طبقات المجتمع . - يرى في « كنت » الطبقات الاربع الكبرى التي ترى عند الشعوب الجرمانية : الأرقاء ، انصاف الأحرار أو المعتوقون ، الأحرار ، النبلاء . وكانت كل طبقة من هذه الطبقات منقسمة بدورها إلى عدة طبقات ايضاً . وفي « وستكس » وجد انقسام في الطبقات ، بيد أنه لم يكن على شاكلة كنت : فمن ذلك ان طبقة المعتوقين غير موجودة . وقد حلت محلها طبقة البروتون أو (ولش) ، الرعايا ، وهم منقسمون ايضاً إلى طبقات حسب ثروتهم الأرضية .

الحقوق . - لقد كانت النظم الخاصة ، من مدينة أو جزائية ، جرمانية . وكان من الممكن اقتداء الاعتداء على الحياة أو الملكية بالمال حسب تقديرات دقيقة ومعقدة تعرفها القوانين ، ولم تكن هذه القوانين ، كالقوانين الفرنجية المبروفنجية ، الا تعريفات تسوية ومصالحة . ويقتضي تضامن الأسرة اسهام اعضائها في دفع الدية سواء دفعها الجاني أو دفعت الى أهل الضحية . ولا يمكن للفرد ان يتخطى عن حقه الطبيعي دون سماح أهله . وهؤلاء ملزمون بحمايته والاجابة عنه في القضاء . وكانت المرأة والأولاد تحت سلطة رب الأسرة .

النظم السياسية والادارية . تتلخص الدولة في الملكية كما في سائر الممالك البربرية في القارة . بيد أن النظم الملكية تطورت كثيراً . وكان الملوك ، قبل اعتناقهم المسيحية ، زعماء حرب يفتحون البلاد ، ولن تزول

عنهم هذه الصفة قبل آخر القرن العاشر . ولم ينقص التعميد شيئاً من صفاتهم الحربية بل أوجد واجبات جديدة حيال الكنيسة وتجاه رعاياهم . وكان الهدف من كتابة القوانين تأمين السلام بشكل افضل . وهذا السلام يقع على كاهل الملوك . وتتحول مباركة المسح بالزيت الملوك الانغلو - ساكسون اكليلاً من المجد . وقد ورث الملوك هذا التقليد عن القديم اليهودي ، وكان الفرنجة يجهلونه قبل السكارولنجيين . وعرف اكثرهم بالتقوى والورع ، ومهم من كان يحجج ليارك نفسه في روما ويموت فيها .

يضاف الى ذلك ان قوانين بعض الملوك تشهد على حس في الادارة والمنفعة العامة ، وتشبه القوانين السكارولنجية . وليس بعيد أن تكون الدولة الفرنجية قد اثرت على سياسة الملوك الساكسونيين وتشريعهم في القرن الرابع والقرن العاشر .

ولم تكن سلطة الملك مطلقة ، ولا يمكنه القيام بأمر هام دون رأي « الحكماء » . وكانت الملكية وراثية في الواقع ، ولكن اذا توفي الملك ولم يكن له وريث مباشر ، ووقع الاختيار على أحد اعضاء السلالة ، فعلى هذا ، اذا اراد أن يتولى العرش ، ان يحصل على رضى الحكماء لتأمين سلطته الجديدة ، وفي بعض الظروف المؤلة تقع على كاهل « الحكماء » مهمة خلع الملك غير الكفو أو الظالم ، ولا يحق للملك دون موافقتهم التصرف بالأراضي العامة وأموال التاج .

لم يكن مجلس « الحكماء » ليمثل الأمة الساكسونية أو الانكليزية فهو يتألف من عدد قليل من الأشخاص : من اساقفة (وهم قلة في كل مملكة) ، واعضاء من العائلة الملكية ، وموظفي البلاط ، وحكام الاقاليم ، وبعض اتباع الملك . ونادراً ما بلغ عدد اعضاء المجلس

٦٠ شخصاً حتى في القرنين التاسع والعاشر ، ولم يكن من قبل ليضم إلا نصف أو ربع هذا الرقم .

ولم يكن لمجلس « الحكماء » دور انعقاد أو مكان معين . فهو ينمقد حيث ومتى يشاء الملك . وليس له اختصاص معين ومعروف ولكن من المقبول ان يحكم والملك باتفاق وانسجام . وطوراً وصوراً يكون مجلساً ملياً وعائلياً ، ومجلس موالين ، ومع تقدم الزمن أخذ هذا الطابع .
الادارة . - كانت الادارة المركزية ، إذا استطعنا ان نستعمل هذا الاصطلاح الطموح ، يتألف من موظفي الملك ، كما في غالباً .
أما التقسيم الارضي إلى كونتيات فلم يظهر في النصوص القديمة .
وكان المعنى العام للكونتية يدل على الابروشية .

وتدل هذه الابروشية في الغالب على مملكة صغيرة أو مملكة أصغر من هذه ، ثم على دائرة تقوم حول مدينة محصنة أو موقع اقيم لصد هجوم الدانماركيين .

وكان يعهد بادارة كل كونتية إلى حاكم وهو في الغالب من دم ملكي ، ويسميه الملك و « الحكماء » ، ومنصبه في الواقع وراثي . وتعتقد المحكمة جلساتها مرتين كل عام ويتألف أعضاؤها من النبلاء ، وربما من اغنى احرار الكونتية . وفي القرن العاشر قبل حضور ١٢ تابعاً من شيوخ الحكماء في المحكمة ، مثل حضور ١٢ حاكماً في المحكمة الاقليمية (المالوس) في التشريع الكارولنجي . وفي العصر نفسه كانت رئاسة المحكمة خاصة بموظف جديد وهو الشريف .

ومنذ ذلك الحين أخذ الملوك يغدقون الحصانات على الكنائس ، ولم يعد الناس ، وحتى الأحرار منهم ، المقيمون على الاملاك المحصنة خاضعين ،

كما في غالبا ، لسلطة قضاء المحكمة الاقليمية للكونتية . وكان « صعب » الملك يتمتعون بحصانة قضائية في الأراضى التي يجود بها عليهم كما هي حال الاتباع الخاصين (فاسي دومينيسي) في القارة .

وكانت الكونتية مقسمة إلى دوائر (المثويات) وتختلف اسمائها حسب المناطق . ولكل دائرة مجلسها القضائي . وفي الحقيقة ان تنظيم الدوائر لم يعرف إلا في آخر القرن العاشر وفي القرن الحادي عشر . وتنقسم الدوائر إلى دوائر اصغر منها تسمى (العشريات) . وهذا التقسيم خاص بجنوب انكلترا وتنظيمه غير معروف جيداً .

وكان نظام المالية غامضاً ، ويبدو أنه لم توجد ضريبة عقارية أو شخصية قبل الضريبة التي تدفع للدانماركيين . غير أن الاعفاء من الخدمة العسكرية ، كما في فرنسا ، كان يعوض ببدل نقدي يفرضه الشريف . كان الملك يعيش من ملكه الخاص . ولكن ، على خلاف القارة ، لا يوجد هوية بين الملك الخاص والأرض العامة . لأن الملك لا يستطيع ان يتصرف بكل منها دون رأي « الحكماء » . غير أن الملكية بدأت تتحرر من هذا الاشراف منذ عهد الفرد الكبير .

وكان مدير الأملاك الملكية في كل دائرة يسمى الشريف وهو يعادل (الناظر) الميروفنجي والغاستالد اللومباردي . ووظيفته الاساسية استغلال الدومين وجباية وارادته . وكان الملك يستخدم الشريف في رئاسة محكمة الكونتية ويسمي وحده هذا الشريف ، ووظيفته غير وراثية ، وهو الموظف الوحيد في الدولة الانغلو - ساكسونية .

وكما في الدول الرومانية - الجرمانية في القارة ، كان كل رجل حر ملزماً بالخدمة العسكرية على حسابه . وهذه الخدمة هي أحد واجباته

الثلاثة تجاه الدولة ، والواجبان الآخرين هما اصلاح الجسور والعناية بالحصون . ويؤلف تابعو الملك قوة الجيش ، كما هي حال الفاسي دوميني في فرنسا . ومن الممكن متابعة هذه الموازنة بتفاصيلها مع النظم العسكرية الكارولنجية .

النزوع الى الاقطاعية . - وكما كانت عليه الحال في فرنسا ، يرى في المجتمع تحويل تدريجي بطيء ولكنه قوي بروح التبعية وحافظ الملوك الانغلو - ساكسون ، كسائر الأمراء الجرمانين ، على حاشيتهم المسلحة و « صجهم » . وكما حصل في فرنسا تبدل في المفردات فقد زالت في القرن التاسع كلمة « صاحب » وحل محلها تابع ، وهي مطابقة ، تماماً للتابع الكارولنجي . ومن الطبيعي أن يكون للحكام ، الذين يأتمرون بأمر الملك ، مخلصون ومريدون ، ومثل ذلك للاساقفة والآباء . وآل الأمر إلى أن اعتبر كل رجل نبيل أو غني مخلصاً للملك أو كبير . وأصبح مجلس « الحكماء » مجلس موالين للملك حتى ان خلف الفرد الكبير ، وهو ادوار الشيخ ، طلب من الحكماء أن يقسموا بين التبعية . ويبدو في الأقاليم أن المحاكم في القرن العاشر أصبحت تتألف من الحكماء المحليين ، كما هي الحال في فرنسا في العصر نفسه في المالوس . وقد وقعت هذه المحاكم في حوزة الكبار . وعرفت انكلترا ايضاً هذه الفئة من فقراء الناس الأحرار الذين يعترفون بسيادة سيد عليهم ليطعمهم ، حتى ان أقدم القوانين تدل على ان هذا الطاعم إذا قتل ، استطاع سيده ان يقبض دية (٦ شلنات) . ومن الجدير بالذكر ان « الأمير » في انكلترا يسمى « لورد » (هلافورد) أي « مطعم الحبز » .

وكما كانت حال الملك الفرنجي ، كان الملك الساكسوني يحذر الرجل الحر الفقير . فقد تخلى عنه إلى سلطة المحصنين القضائية والتابعين « المالكين » . وإذا وجد أحد يعمل على دومين (وقد أصبح يسمى مانوار في العاشر والحادي عشر) وقع تحت السلطة الاميرية التي يارسها بلاط المانوار . وقد فرض نظام التبعية على كل رجل حر دون أمير أن يتبع اميراً ، تحت طائلة الخروج عن القانون . وكان الملك دون قوة ضابطة (شرطة) ، ولذا كان يلجأ إلى الامارة لسلامة الأمن العام ومثول الناس المشردين أمام المحاكم .

وكان الملوك الانغلو - ساكسون ، كالملوك الفرنجة ، يهبون أراضي لتابعيهم . وكما هي الحال في غالباً كانت هذه الهبات بخاصة ملكية تامة . وهذه الصفة التمليلية للمال المتنازل عنه لا يحصل عليها إلا بموجب صك مكتوب باسم الملك وموافقة الحكماء . وعندئذ تصبح الأرض ملكاً يستطيع المستفيد التصرف بها حسب هواه .

ولا يسعنا إلا ان نؤكد ، في الوقت الذي انتهى فيه الدور الانغلو - ساكسوني ، بان الاقطاع الحقيقي قد تألف في انكلترا . ولم يكن هذا البلد دولة اقطاعية بعد ، بل هو على الأقل دولة دون « طاعة » . ولكن الأرض تهيأت لتستقبل دون جهد النظام الاقطاعي الفرنسي الذي سيدخله النورمانديون .

وصفة القول ان نظم انكلترا الساكسونية تبدي تماثلاً كثيراً مع انظمة غالباً الفرنجية .

ولا شك في ان هذا التماثل يتضح خاصة بالتشابه العقاري والاقتصادي والاجتماعي والسياسي . ومع هذا فمن المسموح ان نرتاب ، في تفاصيل التشابه ، بتأثير غالباً المتقدمة على الجزيرة المجاورة .

الحالة المعنوية . - ورغم المسيحية السطحية ظل الانغلو - ساكسون شعباً بريئاً فظاً لا أخلاق له ، حتى ان المجامع وطقوس التوبات لا تترك مجالاً للوم في هذا الموضوع . فقد حافظت زمناً طويلاً على تعامل تجارة الرق المسيحي الذي الغي على القارة . وحسب قول الانكليزي القديس بونيفاس : لا يوجد مدينة في ايطاليا وغاليا وجرمانيا الا وفيها بغايا ومسمارات انكليزيات . وكان ادمان السكر عند الانكليز يتجاوز مثيله في البلاد الأخرى . ومن الأفضل الا تسكلم عن اخلاقهم .

الادب . - غير أن الانكليز كانوا يبدون مؤهلات غير عادية في الآداب . فقد كان الشعب يحب الغناء مصحوباً بالعود ، ومغامرات الابطال والملوك لا تردري الالهام الشعبي .

ان بعض بقايا هذه المؤلفات ، وبخاصة البوولف المنقول بشكل يرجع تاريخه إلى القرن الثامن تقريباً ، ولكنه حرر في البدء على القارة حوالي القرن الرابع - الخامس عندما كان الاجداد يناضلون ضد الدانيارك والسويديين والغوط ، تدل على عاطفة حماسية ، وكذلك مقطوعات ولدت في معركة فنسبوري .

وعندما تحضر الانكليز اسهموا اسهاماً ممتازاً في الأدب المسيحي . فقد وجدت بقايا العلم القديم ملجأ في المدارس الأسقفية في كانتربوري ويورك وفي مدارس الشمال الديرية ، ريبون ، جارو ، ورموث .

لقد ثقف الانغلو - ساكسون ، من فرعي المعرفة القديمه : **الثالث** (النحو ، البلاغة ، المنطق) **والرابع** (الحساب ، الهندسة ، الفلك ، الموسيقي) **الثالث** واهتموا في هذا بالنحو .

ونذكر من المهتمين بالآداب **آلدهلم** (المتوفى عام ٧٠٩) اسقف

شيربورن (في ويلتشاير) . وهو أول انغلو - ساكسوني ترك اسماً في
في الأدب اللاتيني . وبيد الجليل (المتوفى عام ٧٣٥ م) وكان تأثيره
عميقاً في اوروبا القارية وفي انكلترا ، وخاصة بكتبه في تأريخ الحوادث
زمنياً ، وسير القديسين ، وتفسيره ، اكثر من مؤلفه في « تاريخ المملكة
الانغلية الكنسي » ، وهو أفضل مؤلف تاريخي لهذه الأزمنة بعد تاريخ
غريغوار تور .

وعندما اراد شارلومان اصلاح التعليم اللاتيني في غاليا ، بعد أن
سقط إلى الحضيض ، وجد لهذه النهضة افضل مساعديه في تلميذ مدرسة
يورك وهو الانكليزي آلـكـون .

الفن . - ظهرت العاطفة الفنية عند الانغلو - ساكسون في
التزيين وفي هذا المجال ايضاً لم يؤت بشيء جديد كل الجدة ، لأن طرق تزيين
الشكلات ، والدبابيس ، وصفائح الأسلحة والمواعين (حلزون ، وحيرانات
غربية ، ونقوش متشابكة ، زخارف زوايا) هي من أصل روماني -
بيزنطي أو ايراني ، بل ومصري . . وكذلك الحال في الصياغة ذات
الحواجز . وعندما يظهر الالهام جرمانياً لا يعبر عن شيء يميز نوعياً
الانغلو - ساكسون عن غيرهم من الجرمن . ومن بين غزاة بريطانيا
الذين اظهروا كثيراً من الذوق والمهارة كان جوت كنت وجزيرة وايت .
وان قريهم من القارة يوضح ولا شك الوضع البارز الذي يحتلونه في هذا
المجال . ففي الصياغة ذات الحواجز خاصة ، انتج فنانون كنت تحفاً
تتجاوز في الكمال نماذجها في غاليا الميروفنجية .

وعندما اعتنق الانغلو - ساكسون المسيحية تعلموا الكتابة ونسخ
النصوص المقدسة . واشتهر في ذلك بخاصة مشغل ليند سفارن (الجزيرة

المقدسة) في نور ثامبريا . فقد نشر استعمال الخط الثلثي والرقعي العزيرين على الرهبان السكونيين .

ولزخرفة المخطوطات (العناوين والبدايات) فاق الانغلو ساكسون في القرنين السابع والثامن الكتاب القاريين ، ولم يكن لهم في زخارفهم التي لا تقلد من منافسين الا لسانتهم الايرلنديون .

أما ما يتعلق بالبناء فان بقايا الكنائس في كانتربوري وسيلشستر فيمكن الصعود بها إلى بداية القرن السابع ، وكذا مدافن الكنائس يمكن العودة بتاريخها إلى آخر هذا القرن . غير أن هذه الرسوم والأطلال تهم علم الآثار اكثر مما تهم تاريخ الفن .

وجود انكلترا . - ونسأل أخيراً هل كانت انكلترا موجودة ؟ أو بتعبير آخر هل بالامكان أن نرى وجداناً جماعياً ، ولو كان بدايياً ، وعاطفة قومية في حال التشكل ؟

حقاً لا حتى آخر القرن التاسع . لأن المنازعات الطويلة ، خلال القرون بين الدول الصغيرة الجوتية والانغلية والساكسونية ، تركت احقاداً شديدة . ثم ان هذه الدول ردت إلى ثلاث فئات : وسكس ، مرسيا نورثامبريا ، بينا الممالك الأخرى الصغيرة جداً (كنت ، سوسكس ، سري ، إسكس ، انغليا الشرقية الخ .) كانت تابعة . ويبدو ان الانصار بين هذه الفئات الثلاث كان مستحيلاً ، وحتى في القرنين الثامن والتاسع . فقد كانت الواحدة منها تستطيع أن تسيطر ، ولكنها لا تتمثل الآخرين .

وقد استطاعت محن الغزو الدانياركي الفظيعة ان تسهم في توحيدها في عاطفة مقاومة الاسكندينايفيين والبرابرة والوثنيين .

وفي القرن العاشر نشأت انكلترا بالرغم من وجود نعة اقليمية

قوية في الوسط وخاصة في الشمال . وإذا لم تكن الحال كذلك ، فيجب الا ينسب الاخفاق فقط إلى عدم جدارة الملوك الساكسونيين في النصف الثاني من القرن العاشر بل بخاصة إلى سبب اعمق وهو جمود الشعب الانكليزي .

لقد كانت لا مبالاة عامة الشعب ظاهرة في الجزيرة كما في غاليا واسبانيا وإيطاليا . ففي كل هذه البلاد كانت الملكية والارستقراطية والاكليروس الأعلى هي المعتبرة وحدها في المجتمع ، ولا يوجد رابط وطني عند اكثريه الشعب . ولذا فان فاتحين قلائل بعد نصر أو نصرين يمكنهم ان يستولوا على بلد كبير دون أن يلقوا مقاومة رصينة من سواد الشعب . ان هذه اللامبالاة الخفيفة هي التي سنسلم انكلترا أولاً إلى نورمانديي الدانبارك ، ومن بعد إلى نورمانديي فرنسا ، وستؤخر إلى أجل طويل تفتح العاطفة القومية الانكليزية .

ايرلنده

الموقع والتاريخ السياسي . - لقد عاشت الجزيرة الصغرى حتى القرن الخامس على هامش العالم القديم ، ولم يكن ذلك بسبب جهل الملاحين والجغرافيين القدامى بها ، فقد عرفها الفينيقيون والملاحون الاغريق والغالليون والايريون ، بل لان ما نقله سترابون وديودور الصقلي عن السكان ، مع ما نسبوا اليهم من فظاعة واخلاق وحشية ، يبرهن على ان شعب هذه الجزيرة لا يعرف عنه شيء .

ينتسب شعب الجزيرة إلى العرق السلتى ولكنه يؤلف في هذا العرق جماعة وحدها : فهو يتقارب من الوجهة الانسانية من النموذج الشمالي : القامة عالية كقامة جرمن الشمال ، والجمجمة مسطحة ، والشعر كستناوي

فاتح ، والعيون رمادية . ويتكلمون اللغة الغائلية ، وهي تختلف كثيراً عن المجموعة السلتية القارية (السلتية والبيجية) والبريتونية (الغالية والقرنية والبروتونية) . وبالأجمال ان اختلاف الايرلندي عن الجماعة السلتية الأخرى يدعنا نقبل بان الغائلين انفصلوا عن سلتى القارة الآخرين وذهبوا إلى الجزر البريطانية في عصر غابر ربما يرجع إلى القرنين الثاني عشر والخامس عشر قبل الميلاد بل وأكثر من ذلك .

ولم يعرف تاريخهم مع شيء من التفصيل الا منذ القرن الخامس الميلادي ، عندما عرفوا بفضل اعتناقهم المسيحية الكتابة اللاتينية وكتب تواريخ الاعياد المتنقلة وأصبح بإمكانهم الإشارة إلى التعاقب الزمني للاحداث التاريخية والجوية . اما القصص الحماسية الكثيرة التي حفوظ عليها فتكشف عن لغة غير سابقة للقرن التاسع الميلادي . وأما المعلومات التي تتضمنها عن الملوك والابطال فهي اسطورية أكثر منها تاريخية .

وعندما فتح الرومانيون جزيرة بريطانيا كاد الفتح يوصل التوغل اللاتيني الى الجزيرة الشقيقة . ففي العام ٨٢ كان لدى القائد الروماني أغريكولا جنود في الغرب تنتظر المناسبة للتدخل . وقد طرد احد الملوك الصغار بحرب داخلية فاستقبله اغريكولا صديقاً واحتفظ به ليستخدمه متى سعت الفرصة . ولكن الحكومة كانت ترى ان الامبراطورية قد توسعت بالنسبة لقواها فتركت هذه الفرصة تفوت من يدها .

وبعد ثلاثة قرون ، كان على بريطانيا المرومنة والمستقلة (كاليدونيا) أن تتحمل اعمال النهب التي يقوم بها القرصان الايرلنديون الذين بدىء بتسميتهم سكوتي . وفي آخر القرن الرابع سقط معظم القسم الغربي من الجزيرة في سلطة الايرلنديين فأتى بريطانيون من الشمال ، من غودودبن وخلصوا في بداية القرن الخامس البلاد التي تسمى في المستقبل بلاد الغال

من السكوتيين . ولم يتأسك هؤلاء الا في الشمال الغربي في المنطقة التي تحتفظ اليوم باسمهم القديم وهي كونثية آرجيل (البلاد الإيرلندية) .
غير أن اعتناق إيرلنده المسيحية ، دون أن تزيل الفوضى السائدة فيها ، جذب الجزيرة الصغيرة في فلك الثقافة الاغريقية - اللاتينية . وكان ذلك ابتداء من ٤٣٢ من عمل البروتوني باتريسيوس (القديس باتريك) الذي انتصر على مقاومة طبقة الدرويديين (كهان الغالين) واستطاع ان يؤسس كرسيًا اسقفيًا في ارماغ (٤٤٤) وتوفي نحو ٤٦١ . وتغلطت إيرلندا بالاديرة - الاسقفيات . وقد انصرف السكوتيون المسيحيون الجدد بشغف لدراسة الآداب اللاتينية والاغريقية . وعندما انهارت الثقافة القديمة في القارة وجدت ملجأ لها في الجزيرة الغائمة الضائعة في اقصى اوروبا .

ان تاريخ إيرلنده السياسي لا يمكن ان يعرض بتفصيل في التاريخ العام . فقد صنع من حروب لاتنة قطع بين قبيلة وقبيلة ، وملك وملك ، ومليكات ومليكات ، وفي الحقيقة ليس لهذا البلد وحدة حقيقية ، بل هو مقسم بالتقليد إلى خمس ممالك : اولتونا (اولستر) لاجينيا (لاينستر) كوناسيا (كونوت) ؛ مومونيا (مونستر) . ومع هذا فقد وجد ملك اعترف به الآخرون ملكاً أعلى (آرد - دي) وأقام في حصن تيموير (تارا) على حدود لا ينستر واولستر . وهناك تواتر يقول بأن ملك الملوك ، تواتال ، عاش في آخر القرن الأول وشكل للملك الأعلى دوميًا ملكياً .

غير أن نظام الآرد - ري لم يأت بالوحدة بل وسع الشر وآثار رغبة الحصول على هذا المنصب الأسمى عند الملوك الخمسة .

وكانت كل مملكة بدورها مقسمة إلى قبائل يحكم كل واحدة منها شخص يسمى ملك . ويوجد من هؤلاء الملوك ٢٠٠ ملك . وتقسم كل

قبيلة إلى بطون متعاسدة . وأخيراً ان نظام الوراثة لم يأخذ بنظام البكورة . وبالأجمال لقد كانت الفوضى الدموية مرضاً عضالاً وحالة دائمة في إيرلنده عبر العصور .

وقد وجد الاسكاندينافيون الأرض مهيأة للنهب واقامة مؤسسات دائمة في هذه الجزيرة التي مزقتها الاحقاد بين الأمراء وبين القبائل وليس لها وحدة سياسية حقيقة .

ظهر الاسكاندينافيون في العام ٧٩٥ واجتاحوا جزيرة ريشرو (لامي اليوم) وهي الى الشمال قليلاً من دبلن ، فردوا على اعقابهم أكثر من مرة ، وانتقلت اخبارهم إلى بلاط شارلومان ، وعرفت الجزيرة الهدوء احدى عشرة سنة . وفي العام ٨٢٣ عاود القرصان هجوماتهم ولم يوفروا شيئاً بفظاعتهم وكرهم المسيحية . وكانوا يحرقون الكنائس ويقتلون الاكليروس ، واضطر الرهبان السكوتيون إلى الهجرة إلى القارة ، وخاصة إلى غاليا ، مع بقايا القديسين والكتب والمخطوطات القديمة الثمينة .

وابتداء من العام ٨٣٤ انقلبت القرصنة الى فتح منظم . وقاوم الايرلنديون ولاقوا بعض النجاح ، ولكنه نجاح جزئي لأن المقاومة لم تكن محكمة .

ثم هاجتهم موجة أخرى من الاعداء . وحتى منتصف القرن التاسع كان المهاجمون نورفيجيون ويسميهم الايرلنديون (البيض الوثنيين) وقد اتوا من جزر ايكوسيا أو من النورفيج (بلاد البحيرات) مباشرة . وفي العام ٨٥١ ظهر الدانماركيون (السود الوثنيون) . ولو انهم ضموا هجومهم للنورفيجين لضاعت إيرلنده واصبحت اسكاندينافية . ولكن المقاومين الجدد فكروا في البدء أن يضعوا أيديهم في الموائء على أيدي

(البيض الوثنيين) . وقامت منازعات فظيعة بين الدانماركيين والنورفيجيين غلب فيها هؤلاء الآخرون .

أما الملوك الاعلون فقد أوقفوا الدانماركيين ولزم هؤلاء الصمت من ٨٧٥ الى ٩١٦ في الموافي وهدأت ايرلنده نسبياً . ولقد كان من الممكن لايرلنده ان تتحرر من سيطرة الاجانب لولا منازعاتها الداخلية ، حتى ان بعض المليكات كانوا لايتواتون عن التحالف مع الأجانب . ومن جهة ثانية ، ان اقامة الدانماركيين في الموافي ساعدت على تحضيرهم ، وبدأوا باعتناق المسيحية ، وعقدت عقود زواج بين الأمراء من ابناء البلاد والأمراء الأجانب .

ومع الزمن عاد الحظ الى الايرلنديين ، ومرت منذ العام ١٠٠٢ اثنتا عشرة سنة مجيدة على تاريخ الجزيرة العجوز شيدت فيها الكنائس والحصون والطرق والجسور بفضل حكم الملك بريان وكان بلاطه ملتقى المليكات السكوتيين وملوك البحر من دانماركيين ونورفيجيين . ورغم المحاولات العديدة التي كان الايرلنديون يقومون بها لطرد الاسكندنافيين من بلادهم ظل الدانماركيون والنورفيجيون سادة الموافي ، غير انهم بدلوا القرصنة بالتجارة ، ولم يبق غزو جديد . ولكن هذا الحادث لم يحل دون المنازعات الداخلية لأنها عادت بأشد مما كانت عليه في السابق . وفي القرن الثاني عشر كانت سبباً في تدخل الانغلو - النورمانديين وضياع استقلال ايرلنده .

النظم والحضارة . - يعتمد المجتمع في ايرلنده على قرابة الذكور و « الاسرة » ، بالمعنى العريض القبيلة ، تعني كل من يتحدثون أو يعتبرون متحدثين من جد واحد ويحملون اسمه مسبقاً بكلمة وي iii (اليوم O) وهي بمعنى آل في لغتنا العربية .

والمجتمع مبني على نظام التسلسل ، يأتي في الرأس المقدمون ويضمون الملوك و المملكات ، والنبلاء ملاك الأرض ، ويعتبرون حسب عدد مزارعهم احراراً وغير احرار . ثم يأتي بعد ذلك ملاك قطعان الابقار ، و الاحوار وهم غير مالكين ، ويمكن ان يلتبس بينهم وبين المتصرفين الأحرار ، ويختلف عمل هؤلاء ووضعهم الاجتماعي قليلاً عن الأبقار. وفي آخر السلم الاجتماعي يأتي الرقيق كان يكون أسير حرب أو محكوماً بالاعداء أو مجرمًا .

وكان لتربية الحيوانات أهمية اجتماعية خاصة ، لأن بنية الجزيرة الطبيعية والمناخية منافية لزراعة الحبوب ولكنها ملائمة لتربية الحيوانات . وهذا مايفسر لنا طرق استغلال الأرض والبناء الاجتماعي بل وحتى الحياة السياسية . ان يملك الأرض يقدر بالحيوانات التي يمكن رعيها فيها . فالرجل الغني هو من يملك حيوانات . ومن لا أرض ولا قطيع له يكون تحت رحمة المقدم الذي يؤجره الحيوان ويطلب منه اقاوات باهظة . والخلافات بين البطون والقبائل ترجع في اسبابها إلى غزو القطعان ونهبها . وظلت البقرة زمناً طويلاً وحدة للتقد في المعاملات التجارية .

وفي مضار الحقوق بقيت ايرلنده عتيقة . فقد حافظت على حق الأخذ بالتأثر مع ما يعدله من دية : وذلك بان يدفع الجاني إلى الضحية أو إلى العائلة « ثمن الوجه » أي الشرف . وتتناسب التعريفات مع الظروف الاجتماعية للأطراف المعنية ، وتنظمها هيئة قضاة أو حكام وخبراء . ولا بد من الإشارة إلى تعامل يوجد أيضاً في الهند والصين : وهو ان الضعيف الذي يئأس من عدل القوي يصوم أمام بيت هذا الأخير فإذا مات ، فرضت روحه اقبح الويلات على الرجل الظالم .

ولنشر أخيراً إلى القرابة السورية : وهي ان الاولاد من الجنسين عندما يكونون في سن منخفضة يمكن ان يوسلوا إلى عضو من القبيلة يتكفل بتربيتهم ، الأولاد حتى السابعة عشرة ، والبنات حتى الرابعة عشرة ، وبعد ذلك يعودون إلى عائلتهم . والواجبات المتبادلة بين الاب المتبني والأطفال تنظم بكل دقة زائدة .

اللغة والأدب . - تتصف اللغة السلتيّة الايرلندية بطابعها القديم البالي المحافظ على الاعراب ونظام اللفظ المعقد ، وبخاصة في اللغة الايرلندية القديمة ، لغة القرنين الثامن والتاسع . والخط فيها تقليدي ولا صلة بين الكتابة واللفظ .

وبالرغم من التأثيرات اللاتينية ، حتى القرن الخامس ، حافظت ايرلنده على أدب غني وأصيل ، ونقلت إلينا قصصاً حماسية وهي عبارة عن ملاحم غريبة منشورة مع بعض مقطوعات شعرية . وكان السحر والمهرمات روح هذه القصص ، وابطالها آلهة أكثر منهم بشراً . وظهر الجنيات الآتيات من « ارض الخلود » ليجذبن اليهن الابطال ، هو طابع آخر لهذه القصص . وكان الشعر الغنائي في الغالب هجائياً يظهر فيه الطابع السحري للرقية . والويل لمن يسبب لنفسه غضب الشعراء الممتهين .

الفن . - يتمثل المجلوب الأصيل ، الذي اتحفت فيه ايرلنده الفن العام ، بتزيين المخطوطات .

لقد اعتنقت ايرلنده المسيحية في القرن الخامس ، وجدّت في نسخ النصوص القديمة وخاصة نصوص الأدب المقدس . ولما كانت هذه النصوص منسوخة في الغالب بالخط الثاني أو الرقعي فقد استعمل الرهبان السكوتيون خاصة هذين النوعين من الكتابة اللاتينية ، ونقلوا هذا الذوق إلى الآنغل في الجزيرة البريطانية .

وقد استعان النساخ لتزيين المخطوطات بالزخرفة المنحنية والتزيينات الحيوانية دون النباتية ، والزخارف المتشابكة والزخارف ذات الزوايا . وقد أخذت عناصر هذا التزيين عن الشرق ، عن القديم ، وعن التقاليد المحلية القديمة جداً . غير ان الفنانين ، في استعمال هذه الزخارف التزيينية وخاصة الحيوانات الغريبة ، برهنوا على خصب خيال لا ينضب . وفي اختيار الالوان اجتمعت الجرأة والذوق الاكيد . وكان الفنانون يتذوقون التجانس والوضوح والاشراق والمنطق الداخلي للاشكال ، ويختلفون في ذلك عن الجرمن ، لأن الفن الجرمانى ينزع طوعاً الى اللبس والغموض ، ويرى فيها عنصراً للجمال ، ويتمسك بما يحير الفكر ، وباذلال كل ما يبحث فينا عن الفهم ، ويحتقر الوضوح . وان الكيفية ، التي يعالج فيها هذا الفنان أو ذاك الأشكال الحيوانية ، تدل على هذا الاختلاف . فالفنان الايرلندي لا يستعمل إلا الحيوانات ، ويرتب لها المنظر الذي ابتكره بنفسه . فهو يدفع حيوانات خاصة به ، وله قواعده التي لا يخرج عليها ، وإذا لم تكن حيوانات من العالم الحقيقي ، فهي على الأقل عظيمة ، ومن الممكن أن يوجد فيها علم حيوان من تشابك حيواني ايرلندي ، ونباتاً من زخرفته النباتية . أما الجرمانى ، فعلى العكس ، يأخذ حيواناً قويم البنية ، ويجد في تخريبه ، ويريد أن يحو كل أثر للبنية ، ويخلط كل جهد لايجاد شكل منظم . والايرلندي يحب التعقيد، ولكنه يحرص على انشائه من ترتيب عناصر واضحة تماماً . أما الجرمانى فيبحث عن الظلام والابهام ، وبذا يصل في الغالب إلى الارهاب .

وفي البناء تعرف ايرلنده بأبراجها المستديرة الضيقة المزينة بمخروط والمنثورة في الريف . وفي النحت بصلبات المقابر أو الطرق التي تحمل اكليلاً مزيناً في نقطة التقاء الذراعين .

ايكوسيا (سكونندرا)

تشكلت مملكة ايكوسيا باتحاد أربعة عروق مختلفة تحت سلطة واحدة . وهذه العروق هي : البيكت ، السكوت ، البروتون ، الانكليز ، دون ذكر الاسكاندينافين الذين اقاموا في القرن التاسع في الجزر وعلى الشواطىء وسكنوا القسم الشمالي من بريطانيا فيما وراء نهر التويد الذي يصب في بحر الشمال وخليج سولوي على بحر ايرلنده .

وبين هذه الشعوب كان السكوتي يتناز بتفوق محسوس منذ منتصف القرن الحادي عشر . فقد فرض اسمه سكوتي (ايسكوت ، ايكوسي) على الشعوب الأخرى ، ولكنه كان اجنبياً : اتى من الجزيرة الصغرى ايرلنده أو سكوتيا ، وحوالي القرن الحادي عشر أعطى اسم الجزيرة الصغرى خاصة على القسم الشمالي من الجزيرة العظمى ، بريطانيا .

وكانت هذه النتيجة غير منتظرة ، لأن الشعب ، الذي ساعده الحظ على انشاء مملكة الشمال ، كان شعب البيكت الذي زال اسمه ايضاً في القرن الثاني عشر . ويؤلف البيكت اقدم عرق في الجزيرة العظمى . ويمثلون البريثاني الذين عرفهم الملاحون القدامى قبل عصرنا المسيحي بعدة قرون ومازال يوجد منهم بقايا في الجزيرة الصغرى وخاصة في الشرق في اولستر و لاينستر .

وعندما وجه القائد اغريكولا الحملة الرومانية الى الجزيرة العظمى في العام ٨٤م يظهروا . ولا يعرف المؤرخ تاسيت خصوصاً للرومان في شمال فيوث فورث الا البروتون الذين يسمون بصورة خاصة « الكالدونيين » . فهل هذا يعنى أن البيكت بدلوا اسمهم ؟ هذا ممكن . ولكن من الممكن ايضاً أن يكونوا سكنوا « الاراضي العليا » (هاغلاندز) في الشمال الغربي حيث لم يوغل الرومانيون .

غير ان الامبراطورية بعد الاعياء لم تقم بفتح في شمال فيرث فورث ، واكتفت بسد الطريق في وجه برابرة الشمال بخطط تحصينات ثم بسور محصن يذهب من نهر كلايد إلى فورث . ولقدشاد الامبراطورانطونان هذا السور حوالي العام ١٤٠ م ولم يكن متيناً ولذا هجر حوالي آخر حكم كومود . وترك المجال حراً أمام هجمات الاعداء حتى سور هادريان (من التاين إلى خليج سولوي . وقد أفاد البيكت من ذلك وظهر اسمهم لأول مرة في العام ٢٩٦ م . وفي القرن الرابع كانوا افظع خصم للسيطرة الرومانية ، واكثر خطراً في ذلك العصر من الساكسون .

وفي العام ٣٦٧ م لزم كل قوة تيؤدوس ، أب الامبراطور في المستقبل ، لتحافظ الامبراطورية على بريطانيا . وفي القرن الخامس ، وبعد انسحاب آخر الجيوش التي كانت في خدمة الامبراطورية ، لم يبق للبروتون المترومين الا الاعتماد على انفسهم . وقد ظفروا على البيكت والساكسون المتألبين في ٤٢٩ م في معركة « اللوليا » في مكان غير معروف وربما كان حوالي سانت البانس في شمال لندن .

غير ان توسع البيكت توقف باقامة برابرة آخرين ، الانكليز ، على طول شواطئ وبحر الشمال ، وسكوت ايرلنده على شواطئ البان (ايكوسيا) الغربية في كانتاير . وأخيراً ، إذا شئنا الا نتكلم عن الكالدونيين ، واحتل البيكت كل البلاد في شمال خليج فورث ومصب نهر كلايد ، فقد لاقوا في عصر مجهول ، ضغط اولئك البروتون الذين ظلوا في شمال سور هادريان وكانوا مستقايين عن روما .

لقد اقام البروتون بين التاين والفورث في المنطقة التي احتفظت زمناً باسمهم : غودودين . ثم انتزع ان بروتون آخرون الكلايد من البيكت

واسسوا مملكة تسمى (صخرة كلايد) وتسمى أيضاً (حصن البروتون) وكانت العاصمة . ثم دحر البيكت في هذه المنطقة في غالوي وظلوا خاضعين للبروتون .

وبالمقابل، في القرن السادس والسابع طرد انكليز برنيسيا او اخضعوا بروتون غودودين وتوصلوا حتى خليج فورث .

وأقام البيكت في شمال هذا الخليج وظلوا سادة أعظم جزء مما سيكون ايكوسيا ، وتوزعوا في القرن السابع إلى سبع ممالك صغيرة .

وفي منتصف القرن السابع سحق البيكت السكوت وسيطروا على القسم الأكبر من ايكوسيا الحالية ، وأصبحت سكوت (بالقرب من برث) عاصمة المملكة المتحدة من هذه السبعة أقاليم .

وفي ذلك العصر ، لم يكن البيكت همجاً تماماً . وبعد محاولة تنصير غامضة على يد القديس نينيان لدى البيكت في غالوي ، هذه المحاولة التي لا يمكن تأريخها بصحة (القرن الرابع أو الخامس) استؤنف عمل التنصير على يد السكوتي كولومبا حوالي ٥٦٢ ، وقضى هذا ٣٤ سنة في التبشير وإشادة الكنائس وامتد تأثيره أيضاً إلى الجزر المجاورة للشاطئ .

وكان كل شيء يدعو إلى التفاؤل بأن مملكة البيكت ستكون نواة لتشكيل ايكوسيا في المستقبل . ولكن الحال لم تكن كذلك لأن هذا الدور في القرن التاسع عاد إلى السكوت او الغايل الذين أتوا من أيرلنده .

هذا وينبغي القول ان هجوم الاسكاندينافيين العنيف على الجزر البريطانية اضعف البيكت. فقد بدأ هذا الهجوم بالجزر ، واحتل النورفيجيون

شتلاند واوركاد في القرن الثامن وسقطت هيريد في سلطة القرصات ، وكذا جزيرة مان في عرض بحر ايرلنده . ومن هذه الجزر انطلق الفايكنغ للاستيلاء على ايكوسيا . وأقام النورفيجيون في الجزر على طول الشاطئ حتى كامبرلاند واستوطنوا هذه المناطق .

وفي منتصف القرن التاسع زحف السكوت على البيكت وبدأ هؤلاء يأخذون عادات السكوت واخلقهم ولغتهم ، وما أتى القرن الثاني عشر الا ولم يبق منهم سوى ذكريات .

وفي القرن العاشر نهضت الملكية في انكلترا ، واضطرت الملوك السكوت إلى تبني موقف متواضع . وفي أواخر القرن الحادي عشر تشكلت مملكة ايكوسيا ، ولكنها لم تتم الا في وقت متأخر بخضوع الاسكندينايفين في شمال الالبان وقسم من الجزر للملوك الايكوسيين .

ومع هذا فقد كتب ان ملكية الشمال لم تكن سكوتية اكثر منها يكتية لغةً ونظماً . ولكن الحضارة الانغلو- نورماندية جذبتها في فلكها فتبنت النظم الاقطاعية ؛ واقامت هذه الحضارة في « الاراضي الدنيا في لوثيران وتأنكلزت لغةً واخلاقاً . وعوضاً عن أن تكون ايكوسيا مركزاً للسلبية أصبحت دولة انكليزية ثانية ، رغم أنها ظلت عدواً لا يمكن مصالحته لمملكة الجنوب .

الفصل التاسع عشر

اسبانيا المسيحية

من ٧١١ الى ١٠٣٧

التاريخ السياسي

ملكة استرياس (أستوديا) . - فتح المسلمون ، من عرب وبربر ، شبه جزيرة ايبيريا في بداية القرن الثامن الميلادي ، ولزمهم لفرض سلطتهم على هذه البلاد الواسعة أربع او خمس سنوات فقط . ومع ذلك ، فقد كانت هذه السلطة ، في شمال نهر دويره ، اسمية اكثر منها فعلية . لأن بعض بقايا الارستقراطية الاسبانية اعتصمت في كتلة استرياس اوفيدو ، واتخذت فيها ملجأ في معزل عن طرق المواصلات . وفي سنة ٧١٨ قرر هؤلاء ان يتخذوا احداً منهم ملكاً عليهم ، فوقع اختيارهم على بيلاج (بيلايو) . وكان هذا ، رغم اسمه الروماني ، من أصل غوطي ، وشغل وظيفة عامة في ظل حكم آخر الملوك الفيزيغوثيين .

وجذبت هذه الظاهرة الاستقلالية سادة اسبانيا الجدد إلى استرياس . ولكن ماذا حدث على وجه الصحة ؟ لا يعلم . غير اننا إذا سلمنا بما تقوله مصادر مسيحية متأخرة نرى ان بيلاج أحرز نصراً على المسلمين في كوفادونغا ، ولكن مصادر عربية معاصرة لتلك تقول ان جليقية

(غاليس) ، وهذه المنطقة تضم استرياس ، عند هؤلاء المؤلفين ، لاقت جزاءها ، ورد المتمردون إلى ثلاثين رجلاً وعشر نساء .

والحقيقة هي ان بيلاج وخلفاءه المباشرين ، ابنه فايفلا (٧٣٧ - ٧٣٩) ثم صهره الفونسو الأول (٧٣٩ - ٧٥٧) رأوا السلام بسبب المنازعات الدموية التي قامت في ذلك العصر بين العرب والبربر وكادت تدمر الحكم الاسلامي في اسبانيا . يضاف إلى ذلك ان المجاعة السني اجتاحت البلاد منذ ٧٤٩ ساعدت في رد البربر ، القليلي العدد والمقيمون في الشمال الغربي من شبه الجزيرة ، إلى الوسط والجنوب .

واستطاع الفونسو الأول أن يثبت سلطته في الغرب على جليقية ، وفي الشرق على آلافا (آله) ، بوريا ، ريوجا ، وان يسترد ، في الجنوب ، كما قيل ، ٣٢ مدينة . والثابت انه كان سيد توي ، وآستورقة ، وليون ، وآمايا ، وسيطر على الطريق الرومانية الذاهبة من البرتغال إلى البيرينه ، وإلى الجنوب من ذلك يمتد ثغر صحراوي عريض كانت حصونه تنتقل ، حسب الأحوال ، من أيدي المسيحيين إلى أيدي المسلمين ، والعكس بالعكس .

ولم يكن لتأسيس امارة قرطبة على يد عبد الرحمن الداخل ، في البدء ، أثر خطر على مملكة الشمال المسيحية ، لأنه كان منهمكاً طيلة حكمه (٧٥٦ - ٧٨٨) بمقارعة خصومه ومنافسيه ، وهذا ما جعله يميل الآستوريين ، فضلاً عن التزواج الذي تم بين أمراء مسيحيين وأمراء مسلمين . فقد كانت ام الملك سيلو (٧٧٤ - ٧٨٣) وام الملك موريفاتو (٧٨٣ - ٧٨٨) مسلمتين .

ولكن هذا الدور من الهدوء كان مخالفاً للطبيعة لأن الجهاد (الحرب

— ٤٢٦ —

المقدسة) كان واجباً مقدساً على الأمير . وما فتئ هشام الأول (٧٨٨ — ٧٩٦) والحكم الأول (٧٩٦ — ٨٢٢) وعبد الرحمن الثاني (٨٢٢ — ٨٥٢) يوجهون الحملات ضد امراء آستوريا المعاصرين ، برمود الأول (٧٨٨ — ٧٩١) ، الفونسو الثاني (٧٩١ — ٨٤٢) ، رامير الاول (٨٤٢ — ٨٥٠) ، وكانت حالة المملكة المسيحية حرجة خلال مرات كثيرة . وقد سلك الزعماء العرب طريقة تعبوية جديدة ، فكانوا كل ربيع يهاجمون البه ثم ينقضون على آستوريا . واذا لم يسحق الاسبان فذلك لأن قوى الأمراء كانت مقسمة لحرب ثورات طليطلة ، وماردة ، وسرقسطة وضد غزو الفرنجة الذين عبروا جبال البيرينه الشرقية واستولوا على برشلونه (٨٠١) واسسوا « ثغراً » في الشمال الشرقي من اسبانيا وهو قطلونية (كاتالونيا) في المستقبل .

وفي منتصف القرن كان على الملك اوردونو الأول (٨٥٠ — ٨٦٦) ان يناضل ضد الأمير محمد (٨٥٢ — ٨٨٦) الذي وجه اليه عدة حملات ظافرة ، وضد مسيحي مرند يدعى موسى اقتطع لنفسه امارة في اراغون ونافار السفلى . غير ان الاستوريين قهروا هذا الاخير وانتزعوا حصن البلدة الذي شاده هذا المغامر ليؤمن لنفسه الاشراف على طرق قشتاله والبه (الافا) ونافار (٨٥٩) .

وكان على الفونسو الثالث ، بعد أن خلف اياه اوردونو عام ٨٦٦ أن يجمع ثورة الآستورين ، تم القى بهم في فتح بورتو فاستولوا عليها عام ٨٦٨ وأمرهم باستيطان المنطقة الواقعة بين نهري منهو ودويره . وتحالف الفونسو الثالث مع ابن مروان الذي ألف لنفسه امارة مستقلة عن الامير بين مارده وباداجوز ، واستطاع ان يستولي على قسم كبير من

البرتغال الحالية : وكسب ، عدا بورتو ، كوايبر ، براغا ، شاف ، لاميجو فيزول ، قوريه . ولما رأى هذا النجاح اندفع في غاراته حتى جبال الشارات (سيروا مورينا) ٨٨١ .

ثم ان الأمير محمد قام بعدة حملات قوية ضد المناطق التي أصبحت تسمى ليون وقشتاله ، ولم يحصل على نجاح حقيقي . وابتداءً من ٨٨٣ توقفت الحملات مدة عشرين عاماً لأن خلفاءه شغلوا باخضاع اسبانيا الاسلامية التي ثارت عليهم .

وشغل الفونسو الثالث آخر حكمه بشروع تحصينات واستيطان . وفي السنوات الأخيرة هاجم طليطلة ولم ينسحب إلا بعد أن دفع له من انسحابه . وعند عودته أخذ حصن بلد الوليد (فاللادوليد الحالية) . وظل الفونسو يخشى خطر انسال موسى الذين اقاموا في الشمال الشرقي في طليطلة وطرزونه . ومات الفونسو الثالث الكبير في ٢٠ كانون الأول ٩١٠ .

مملكة ليون . - وتقاسم ابناء الملك دوله فيما بينهم . وثبت غارسيا الاول اقامة المليك في ليون بعد ان كانت متنقلة بين المدن في عهد الملوك السابقين .

وخلف غارسيا عام ٩١٤ اخوه اوردونو الذي يسمى ملك غاليس . ثم خلف اوردونو بدوره اخوه فرويلا (٩٢٤ - ٩٢٥) . وتوطدت على هذا النحو وحدة المملكة ولكن بمجرد الصدفة .

وفي عام ٩٣١ كان الملك رامير الثاني بن اوردونو الثاني وكان شخصية عظيمة . حارب عبد الرحمن الثالث خليفة قرطبة وتغلب عليه أكثر من مرة . وسرت ضجة انتصارات ملك ليون، وخاصة نصر سمانقه (سيانكاس) (٥ آب ٩٣٩) ، وبلغت شمال البيرينه حتى المانيا .

وعندما توفي رامير الثاني (٥٩٠ أو ٩٥١) عادت الاضطرابات وازادت ناقار وقشتاله التدخل في وراثة العرش . ولذا لم يقم اوردونو الثالث (م ٩٥٦ أو ٩٥٧) واخوه سانش السمين بشيء ضد المسلمين . حتى ان هذا الاخير بعد خلعته عن العرش اعيد بمساعدة عبد الرحمن الثالث الناصر عام ٩٥٩ . وعندما توفي هذا الخليفة رفض سانش تنفيذ بنود المعاهدة التي أبرمها معه وتحالف مع خصمه السابقين ، فرنان غونزاليز ، كونت قشتالة ، وملك نافار . وبالرغم من ان عواطف الخليفة الجديد ، الحكم الثاني ، كانت سلمية فقد ارسل جيوشاً قاتلت المسيحيين المتحالفين . وطلب سانش السمين الصلح (٩٦٦) ومات بعد ذلك بقليل اثر عودته من حملة شنها ضد ثورة غاليس .

وكان الملك الجديد ، رامير الثالث ، طفلاً ، وكان سنده الوحيد عمته الفيرا وهي راهبة في دير سان سالفادور في ليون فوقعت البلاد مباشرة في فوضى تامة . ولزيادة وطأة المصيبة انقض القرصان الدانيار كيون على غاليس بعد أن طردهم ريشارد دوق نورمانديا . ولكن كونت غاليس ، غونزالو سانشير ، استطاع ان يخلص البلاد من البرابرة .

لقد كانت الفيرا والملك الصغير وكبار المتمردين كلهم ينظرون صوب قرطبة . فقد ارسلوا إلى الخليفة الحكم الثاني وفداً يعرضون عليه شكواهم . وهذا لم يمنعهم من اطلاق المسلمين وتغلب هؤلاء عليهم بانتظام . ففي ٩٨٢ ثل عرش رامير الثاني وكان عمره عشرين عاماً ، وطلب نجدة الحاجب المنصور ، ولكنه مات بعد قليل ، وخلفه برمود الثاني المصاب بنقرس القدم وتوج في ١٥ تشرين الاول ٩٨٢ ، في ساتياغو (شتياق) كومبوستيل واستطاع ان يتماك على العرش بفضل جيش من المسلمين ودفع ضريبة إلى قرطبة .

غير أن برمود اراد أن يزيع نير المسلمين عن كاهله ، ولكنه كان أمام خصم يخشى خطره وهو الحاجب أبو عامر الملقب بالمنصور الذي كان يوجه الخلافة تحت اسم الخليفة هشام الثاني الذي خلف الحكم الثاني منذ ٩٧٦ . وكان المنصور سياسياً مخائلاً ومحارباً ماهراً في عصره . وقد استطاع في حملتين (٩٨٧ ، ٩٨٨) ان يستولي على كوايبر وسمورة والعاصمة ليون ويخضع كبار المملكة . غير ان المؤامرات التي كانت تحاك في قرطبة حولت انظار المنصور لجهة أخرى . ولكن برمود لم يحافظ على ظاهر السلطة الا بمساعدة الخليفة مقابل ضريبة يدفعها له .

وكانت اشهر حملة للمنصور تلك الحملة التي وجهها إلى غاليس وانتهت بأخذ كومبوستيل (١١ آب ٩٩٧) حيث كانت تجل وتحترق ، منذ القرن الفات ، الخلفات المزعومة للحواري القديس يعقوب (جاك) . وتعتبر ستيياق كومبوستيل من اعظم امكنة الحج المسيحي بعد كنيسة القديس بطرس في روما . وقد اعتبر أخذ كومبوستيل نكبة في كل اوربة المسيحية ، حتى حور اسم المنصور إلى « اوماسور » وأصبح في فرنسا اسماً عاماً يدل به على كل زعيم غاز .

وفي العام ١٠٠٢ قاد المنصور آخر حملة له وهي حملة قتاليش وهدم اشهر دير في قشتاله وهو دير القديس ميلان . وكان مريضاً ويقود العمليات وهو في محفة . وعندما انتصر عاد ومات في مدينة سالم (مدينا سيلي) غير ان المصادر المسيحية المتأخرة جداً تنسب هذه النهاية إلى جرح أصابه في معركة « قلعة النسور » التي غلب فيها عند قولهم . وهذه المعركة ، على ما يبدو ، يجهلها المؤرخون العرب بكاملها والمسيحيون المعاصرون .

لقد كانت قوة خلافة قرطبة مرتبطة بشخص المنصور . ولما اختفى هذا الشهاب قضت الامراض ، على هذه الدولة ، في أقل من ثلاثين عاماً .

واستطاعت مملكة ليون المهدة ان تسترجع انفسها . ولكن سلالة انسال
ببلاج الضعيفة كان محكوماً عليها بالزوال . وخلف برمود الثاني المتوفى
عام ٩٩٩ الاولاد : الفونسو الخامس ، ثم برمود الثالث وبعد عشرة
أعوام على حكم غامض هلك الملك في حرب بينه وبين ابن حيه فرديناند
الاول ، بن سانش الاكبر ، ملك نافار (١٠٣٧) . ووجدت مملكة
ليون منافساً مسيحياً مخيفاً في دولة البيرينه الصغيرة التي ظلت حتى ذلك
الحين غامضة ولكنها انجبت ولداً مجيداً ولكنه لا يخضع لنظام ، وذو
مزاج مستقل ، الا وهو كوتية قشتالة .

قشتالة . - لقد كان اسمها القديم باردوليا . وفي النصف الثاني من
القرن التاسع زال هذا الاسم ، وسميت المنطقة الواقعة إلى الشرق والجنوب
الشرقي من ليون ، والمقطعة بالقصور الحصينة (كاستيلا) بهذا الاسم
« قشتالة » أي منطقة القلاع . وباعتبار قشتالة « ثغراً » فان حاكمها يتمتع
بالضرورة بسلطة واسعة ، ولم يكن امراؤها مستقلين مطلقاً . ولكن
الحالة تغيرت بعد وفاة المنصور (١٠٠٢) لاث البربر ثاروا على ظلم
الحليفة الجديد محمد المهدي وطلبوا مساندة أمير قشتالة ، سانش - غارسيا .
ودخل الحلفاء قرطبة ونهبوا (١٠٠٩) واعادت لهم معاهدة لاحقة المواقع
التي فقدوها في السابق . وبعد وفاة سانش غارسيا (١٠١٧ أو ١٠٢١)
خلفه ابنه غارسيا - سانشيز ، وقد قتل في ظروف غامضة (١٠٢٨) .
وفي هذه السنة نفسها استولى ملك نافار ، سانش الأكبر ، على هذه البلاد
باعتباره زوجاً لإلفيرا الأخت البكر لغارسيا - سانشيز . وفي ١٠٢٩ لقب
فرديناند ، احد أولاد سانش بلقب « كونت » قشتالة ، وما لبث أن
بدله بلقب « ملك » قشتالة ، عند وفاة أبيه في العام ١٠٣٥ . وهذا
التغيير في اللقب يؤكد حالة قشتالة منذ قرن تقريباً . وابتداءً من ذلك

الحين الفت قشتالة وليون دولتين متميزتين ولم تنضما لبعضها نهائياً إلا في
اقرن الثالث عشر في شخص فرديناند القديس .

النافار . — ما من شك في أن البشكنس ، الذين يحتلون الجرى
الأعلى لنهر الابره ، والنافاريين اعترفوا في البدء بسلطة المسلمين .
وعلى الرغم من أن القادة العرب والبربر الأوائل وصلوا بنبلوته (بامبلون)
وقد بقيت في أيديهم بشكل غير منتظم ، والحقيقة هي أن السكان
البشكنس ، كما في زمن الملوك الفيزيغوط ، كانوا ينطوون بعض الأحيان
ولكنهم لم يخضعوا أبداً .

ويبدو في آخر القرن الثامن وفي القرن التاسع أن النافاريين تحالفوا
مع « العرب » ضد الفرنجة . وعندما قام شارلومان بحملة على سرقسطة
أجبر بامبلون على الاستسلام وعند عودته هدم أسوارها ؛ وهذا ما دفع
النافاريين إلى الانتقام في ١٥ آب ٧٧٨ في رونسوفو (باب الشزري) . ومع هذا فإن
الامبراطور لم يتخل عن خطته في بسط سلطته في ما وراء البيرينه في الغرب
الأوربي كما فعل في الشرق . وفي ٨٠٦ تخلى النافاريون وأهل بامبلون عن
تحالفهم مع المسلمين وأعلنوا خضوعهم .

غين أن شارل في العام ٨١٣ ارسل ابنه لويس فأقام هذا في بامبلون
واتخذ عدة تدابير لإخضاع البلاد ، وعند عودته حاول البشكنس القيام
بنفس الضربة التي قاموا بها آنفاً ، ولم ينجحوا في هذه المرة ،
ولكنهم أخذوا ثأرهم بعد اثنتي عشرة سنة ، وذلك أن جيشاً من البشكنس
المجاورين للبيرينه ، الغاسكون ، توصل إلى بامبلون ، ولكن البشكنس
أبادوه عبر البيرينه عند عودته ؛ وقد أرسل أحد الزعميين ، إيل ، إلى
قرطبة ، وهذا ما يدعنا نفترض وجود مشاركة وتآمر بين البشكنس
والمسلمين . أما الآخر واسمه آزناك فقد أطلق سراحه بسبب قرابته

(٨٢٤) . واستمر التوتر بين البشكنس والفرنجية ولكننا نجعل مراحل النزاع بين الفريقين . وفي ٨٥٠ قدم زعيان نافرين مع الهدايا واجتمعوا في فيريري بالملك شارل الأصغر ، « ويبدو أنهم طلبوا الصلح وحصلوا عليه » . ولا تعلم النتيجة .

وإذا تصالح النافاريون مع الفرنجية فقد قاوموا المسلمين الذين أرادوا بسط نفوذهم عليهم . فمن ذلك أن عبد الرحمن الثاني أرسل في العام ٨٤٣-٨٤٤ جيشاً لقتال المسيحيين بالقرب من بامبلون ، وهلك زعيم بامبلون في العمليات . وفي ٨٦٠ - ٨٦١ اجتاح الأمير محمد النافار ، وأسر فورتون بن غارسيا « زعيم بامبلون » وظل عشرين عاماً أسيراً في قرطبة .

وفي هذا التاريخ نفسه (٨٥٩ - ٨٦٠) تقدم النورمانديون (الدانيارك) حتى بامبلون وأخذوا زعيمها غارسيا ولكنه اقتدى نفسه بالمال .

وقد شغف كثير من للباحثين بأصل مملكة النافار ونسب ملوكها في القرن التاسع وشادوا لذلك أنظمة لاجدوى منها للتاريخ العام . كما قيل أيضاً بأنه وجدت دولتان ، نلفار و بامبلون ، ولم تتحدا إلا عام ٨٦٠ .

وأول ملك كشفت حياته من غيوم الاسطورة هو الملك سانش غارسيا الأول . فقد حكم من ٩٠٥ إلى ٩٢٥ وناضل نضالاً عنيفاً الخليفة عبد الرحمن الثالث . بعد أن اجتاحت النافار مرتين واحتلت بامبلون .

أما خلفاؤه فقد خضعوا خضوعاً حقيقياً للخلفاء ، وبدأ هؤلاء يتدخلون في تاريخ الدولة المسيحية المجاورة كما تدخلوا في المنازعات بين ليون وقشتالة .

وكان أشهر ملوك النافار سانش غارسيا الثالث (حوالي ١٠٠٠ ، ١٠٣٥) . فقد افاد من المخطاط الخلافة بعد موت المنصور ، والمخطاط سلالة بيلاج ، وحاول ان يجعل من مملكته الصغيرة اول الدول المسيحية :

— ٤٣٣ —

ضم غريبو زكوا ، آلافا ، وقسماً من قشتالة وليون ، الريباغورز البيرينية ، والنافار فيما وراء الجبال (النافار السفلى) .

وعندما علم نبأ مقتل كونت قشتالة الشاب ، غارسيا ، بعد أن سبق وتزوج اخته ، وضع يده على هذه البلاد (١٠٢٨) واتخذ حيطته وزوج ابنه فرديناند اخت بومود الثالث ، ملك ليون .

وعند وفاته (١٠٣٥) خلفه ابنه البكر غارسيا على النافار . اما الولد الثاني ، فرديناند ، فقد أخذ قشتالة ، ولكنه لم يرض أن يظهر اقل من أخيه ، فأخذ لقب ملك . وبعد عامين هاجم ابن حميه بومود الثالث الذي هلك في معركة تامارا (١٠٣٧) . وفي السنة التالية نصب نفسه ملكاً على ليون .

الآراغون . — وهناك ابن آخر لسانش الأكبر وهو رامير ، وربما كان ابناً غير شرعي ، أراد أن يكون هو أيضاً ملكاً . اعطى الوصف « مملكة » على الوادي الذي أخذ اسمه من السيل الذي يجتازه واسمه الآراغون . وكانت العاصمة مدينة صغيرة في جبال البيرينه واسمها جاقه . واستطاع سانش غارسيا في بداية القرن العاشر ان يكسب بزواجه هذه « الكونتية » التي لعبت قليلاً حيال النافار دور قشتالة حيال ليون . ورغم ان آراغونة تضخمت بضم سورارب وكونتية ريباغورز فقد ظلت حتى ١١١٨ (أخذ سرقسطة) دولة صغيرة وفقيرة .

النظم والحضارة

الملكية . — الملكية هي النظام الأساسي للدولة . وكان الملك الآستوري يكمل الملك الفيزيغوطي ، وظل حتى القرن العاشر يقول العصر الوسيط - ٢٨

عن نفسه « الملك » دون ان يتبع هذا اللقب باسم شعب او بلد . وفي الحقيقة ، كان تركيب المملكة رخواً : فقد كان الغاليسيون في الغرب ، وبشكنس آلافا في الشرق يثورون غالباً ويقفون بجانب الآستوريين دون ان ينصهروا معهم في بوتقة واحدة . وفي القرن العاشر ما كاد مقر السلطة ينتقل إلى ليون الا وازادت كورتية قشتاله ان تنفصل عنها .

وكما كانت الحال في الدور السابق ، عاش الملك محاطاً بالدسائس والمؤامرات التي يديرها الكبار ، واخوته ، بل واولاده . ومع ذلك فقد اتصر المبدأ الوراثي على المبدأ الانتخابي ونقل البنات العرش إلى ازواجهن . فمن ذلك ان الملك الأول ، بيلاج ، كان خلفه الثاني صهره .

وتوطدت سلطة الملك حيال الكنيسة أيضاً وبأقوى مما كانت حيال العالم العلماني . وبعد أن كانت الأرض الآستورية ، التي بعث فيها الملك بيلاج الملكية ، خالية من أي كنيسة اسقفية أخذ خلفاؤه الملوك يقيمون الاسقفيات في المدن كلما دفعوا امامهم المسلمين حتى نهر دويره وما وراءه .

ولكن العودة إلى استيطان هذه المدن وارجاع الحياة المسيحية اليها كان من عمل الملك . فهو الذي يعين الاساقفة سواءً فيها أم في الكراسي الاسقفية المنشأة في المدن الجديدة . وعليهم ان يخضعوا له ، وما من أثر يدل على مزاعم استعلاء لجامع طليطلة تضع الكهنوت فوق الملكية ، أو تتطلب من الملك تعهداً أثناء تنصيبه ومباركته .

وكان العدل ، كما في كل مكان ، خاصاً بالملك . وكانت المحكمة العليا محكمة ملكية تتألف من الكنسيين والكبار من رجال البلاط . غير أن هنالك صفة خاصة في اسبانيا المسيحية وهي أن الملك وحده ،

في ظروف استثنائية ، يمكن أن يمثل أمام هذه المحكمة . والحق النافذ في البلاط وفي الكونتيات هو دوماً الحق الفيزيغوطي السائد في القرن السابع ، وهو بكامله روماني وكنسي .

وظل التشريع الفيزيغوطي وافرأ حتى النهاية ، ولكنه توقف بعد ٧١١ مع الفتح العربي ، ولم يعد الا بعد ثلاثة قرون تقريباً وبشكل امتيازات نخول إلى سكان مدن ليون وقشتالة اللتين دعم وفاؤهما وقيمتها الدولة بتقوية اميطان المناطق المستردة . وا قدم هذه الامتيازات يرجع تاريخه إلى النصف الثاني من القرن العاشر .

وكما هي الحال في كل مكان كان الملك يحكم بمساعدة الملكة واولاده والارستقراطية العلمانية وكبار الكنسين . وهذه هي بداية متواضعة للجالس (كورتز) في المستقبل .

أما « الادارة المركزية » ، إذا صح التعبير ، فقليلة العدد : كونت القصر ، القائد الأعلى للجيش (كونيابل) ، والناظر (ماجور دوموس) ورئيس القضاء الأعلى (نوتاريوس) .

وتتبع الأقاليم الكونتات وأهمهم كونتات : غاليس ، بيززو ، الافا ، قشتاله . وكانوا ، كالكونتات الفرنجة ، يجمعون في أيديهم كل السلطات العسكرية ، والادارية والقضائية ، ويساعدون في مهامهم عمال التنفيذ (سايتون) من العصر السابق . أما الفيكونتات فلا يظهرون في الصكوك الأصلية على الأقل إلا حوالي منتصف العصر الذي نتكلم عنه .

ولاً مجال للضرائب المنتظمة (العقارية والشخصية) في هذا الدور خارجاً عن ضرائب المرور والرسوم المختلفة . وكان الملك يعيش من

وارد املاكه المنتثرة في الأقاليم ، وتختلط الاملاك العامة مع ملكه ،
ويضاف لها حصة الغرامة القضائية (كالومنيا) ورسم الحرب (فونساديرا)
ورسوم السوق ، ولكن دون نقد وذلك لأنه لا يوجد ضرب نقدي ملكي
قبل آخر القرن الحادي عشر .

والخدمة العسكرية واجبة على الناس الأحرار . أما المعمرين
والمنتفعون بالأراضي فلا يقومون بالخدمة التموين والنقل . ففي قشتالة ،
يشبه الفلاحون بالنبلاء إذا كانوا على درجة من الغنى تؤهلهم للخدمة
العسكرية على الفرس . وكان الدخول في الحرب على العموم في
شهري أيار وحزيران ، وفي هذا ما يبرهن على أن القوة الأساسية للجيش
تقوم ، كما في كل مكان آنذاك ، على الفرسان ، وهذا لا يعني الاستغناء
عن المشاة . فكان على ثلثهم أن يبقى مكانه لتأمين الأمن المحلي أثناء
الحملة (كالفالكادا) . ولا يستثنى سكان المدن ، من حيث المبدأ ، من
الخدمة في الحرب ، ولكن يطلب منهم خاصة الحفاظ على أسوارهم .
ومن المحتمل في حالة الحرب الدفاعية (آبليليدو) أن يدعى كل الناس .
ويمتاز التعبئة الاسبانية بميزة وهي **الغارة** (الغاراد) ، تقليداً للعرب ،
ويقصد بها الهجوم المفاجيء المندفع جهد المستطاع في بلد العدو بغية
النهب والالوهاب مع تجنب اللقاء .

وكان الملك قائد الجيش ومحيط به حرس قليل مخلص وفدائي . غير
ان التنظيم والتعبوية (التاكتيك) مجهولان . وكذا الحال في الجنود ،
ولم يكن عددها كثيراً . ولندكر أن القوات الاسلامية لم تكن اكثر
من ذلك ايضاً . فقد كانت تتشكل في الاندلس وعليها أن تجتاز وسط
شبه الجزيرة ، وهو صحراء تقريباً ، لتصل إلى أهدافها متعبة قليلة العدد .

وإذا انتصرت ، فلا يكون لديها عدد كافٍ من الرجال للقبض بقوة على البلاد المفتوحة . وعليها في العام التالي أن تعاود الكرة .

الكنيسة . - لقد تضررت الكنيسة كثيراً في الأجزاء التي ظلت مسيحية في اسبانيا بسبب الحروب الدائمة ، على حين ان الاجزاء التي دخلت في ذمة الاسلام ، كانت تعيش بسلام ولم يصب الاشخاص والمباني بأذى . ولذا خربت الكنائس والأديرة في الشمال ، وجهد الملوك في تأسيس الأسقفيات أو النهوض بها .

ولم تظهر المؤسسات الديرانية قبل منتصف القرن الثامن ، ولم تتكاثر الا في النصف الثاني من القرن الذي يليه . وهي أكثر من أن تعد . ومع هذا فلم تستطع الكنيسة استرجاع نفوذها المتفوق الذي كان لها في العصر الفيزيغوطي . لقد خضعت كثيراً للملكية ، ولم تكن منظمة جيداً . ولا يوجد نجامع . ويكاد التسلسل الكنسي في المركز يكون موجوداً ، والعلاقات مع روما مقطوعة تقريباً .

والحياة الروحانية فقيرة جداً : فما من كاتب ذي قيمة أو نشاط لاهوتي ، ولا يظهر هذا الأخير الا في اسبانيا الفرنجية (كاتالونيا) أو في المناطق الخاضعة للمسلمين مثل طليطلة .

وظلت الكنيسة المسيحية في اسبانيا ، أو بالأحرى كنيسة المملكة المسيحية ، منطوية على نفسها لولا اختراع جسد الحواري القديس يعقوب (شنتياق) حواري اسبانيا المزعوم حوالي ٨٣٠ في ايريا (كومبوستيل) . ولاقت الحرافة نجاحاً سريعاً في الغرب ، وعاود الحج ، وخاصة الحج الفرنسي ، الى كومبوستيل سيرته الاولى عندما أعيد بناء المدينة بعد كارثة ٩٩٧ . وكانت لهذا الحج نتائج دينية وسياسية وأدبية : فقد أسهم في ربط اسبانيا الشمالية بباقي العالم المسيحي .

الطبقات الاجتماعية - تنقسم الطبقة النبيلة ، كما في كل مكان ، إلى عليا ودنيا . ويسمى الكبار بأسماء مختلفة . ويشكلون حاشية الملك ويتقبلون افضاله عليهم .

وتأتي تحتهم طبقة **الفوسان** . وهم ملاكون ريفيون ، وفي حوزتهم بعض المال ومن هنا جاء اسم « ابن بعض الشيء » (هيدالغوس) أما من ليس لهم موارد فيدخلون في خدمة آخر : وهم يعادلون « السواس » في فرنسا .

غير أن الفقر بالنصوص يساعد بصعوبة على أهمية الطبقة الحرة الريفية فقد وجد في اسبانيا المسيحية رجل يشبه من بعض الوجوه « المنتفع » في غاليا . وهو يرتبط بعرفانه بجميل غني وهبه عن كرم ، بصفة مستفيد ، دوماً ليزرعه . الا انه يبقى مالكاً ، ويبدو ان البيهيتريا التي ينتسب اليها تؤلف جماعة من القرويين . وهم سادة أرضهم وليسوا مرتبطين بأسرة اميرية كما هم أحرار في تغيير « المحسن » .

وتحت ذلك يأتي **المعمرون** وهم يشبهون المعمرين الغاليين - الرومانين و « حريتهم » وهمية .

أما **الاقذان** ، من ريفيين مرتبطين بالارض ومن خدم ، فقد عاشوا بعد الدولة الفيزيغوطية . ثم ان العادة ، في رد اسير الحرب إلى العبودية أو في شراء الأسرى ، اطالت على وجه التأكيد اجل الرق في اسبانيا .

هذا ويجب أن نترك مكاناً خاصاً لطبقة سكان المدن . ونشأتها أو نهضتها تسبق بقرن وسطياً نهوض هذه الطبقة نفسها في باقي اوروبا المسيحية . ان العمل المثمر الذي قامت به استوريا وليون كان منذ منتصف القرن الثامن في استيطان المنطقة الواقعة بين سلسلة جبال كانتابريا ونهر دويره ، ثم في

القرن الحادي عشر ، بين هذا النهر وجبال سيرا وادي الرخلة وغريدوس .
ففي هذه المناطق الحصبة والخطرة استطاعوا ان يجذبوا ويثبتوا رعاياهم
ومهاجرين « مستعربين » ، مسيحيين من الوسط والجنوب ، راغبين في
الفرار من سلطة الخليفة أو حكامه .

ولم يكن هذا الاستيطان ممكناً لو لم يحجم القادمون الجدد بمحصول
منشأة على المدن القديمة المصلحة (مثل استرقة ، ليون) أو على مواقع
جديدة (مثل برغش) .

واذا استثنينا كاتالونيا ونظمها الفرنجية ، فان اسبانيا لم تكن دولة
اقطاعية ، والملك لا يتنازل عن سلطاته . ووراثته الوظائف العامة لم
توطد بعد . ولم تحصل الكنيسة نفسها في العاجل أو الآجل على امتيازات
الحقوق العديلة والغرامات القضائية والاعفاء من الرسوم والخدمات
العامة والحصانات وغيرها مما كان جارياً في غالبا . وكذا الأمر
بالنسبة للكبار . ولا يوجد « اقطاعات » بالمعنى الضيق للكلمة ، لأن امتيازات
الملوك كانت ملكية تامة .

ومع هذا فقد كان المجتمع ، كما في كل مكان في اوروبا المسيحية ،
« تبعياً » بصورة عميقة : ان تفاني الوفي للملك وبذل الذات من رجل لرجل ،
والمنتفع لأمره و« المحسن » ، ان كل ذلك يعتبر دافعاً ودليلاً .

ومن الطبيعي أن تؤدي التبعية الى الاقطاعية . وقد دخلت هذه
الاقطاعية بتأثير من فرنسا إلى ليون وقشتالة ونافار وآراغون ثم الى
البرتغال حوالي آخر القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر ، ووجدت
في اسبانيا ارضاً مهيأة لتفتح فيها مع احتفاظها بلونها المحلي الخاص .
الحياة الاقتصادية . - كانت الممالك المسيحية تحيا حياة زراعية ،

وتقوم الزراعة في مناطق قليلة الحُصْب في معظمها ومعرضة لاجتياح الحرب ولذا كانت بالضرورة قليلة الازدهار .

وكانت الصناعة ريفية أكثر منها في باقي اوروبا المسيحية في نفس الدور . ومن الطبيعي أن الناس كانوا يبنون وينسجون ويصنعون الأسلحة ويصوغون الحلي والمجوهرات وكل هذا كان لحاجات محلية . وكانت التجارة محلية ايضاً . ووجدت علاقات أعمال مع المناطق الاسلامية ولكن هذه التجارة كانت ضعيفة وغير مستمرة .

وكانت المدن التي تقوم فيها الأسواق صغيرة . فلم تكن ليون لتجاوز بضعة هكتارات مساحة ، وكان سكانها محاربين أكثر منهم تجاراً . ولقد أدخل المهاجرون المستعربون بعض النشاط كما تدل الاسماء العربية على الأشياء المستعملة . فالكلمة « زكو » تدل على السوق ، وكلمة « زابازوك » تدل على الموظف الأول الذي ينتخبه الشعب ويراد بها « صاحب السوق » أي « مفتش السوق » . ولعب اليهود ايضاً دورهم في نهضة الحياة الاقتصادية . غير أن فقدان ضرب النقد في المملكة الآستورية - الليونية التي تستعمل قطع النقود الفرنجية وغالباً العربية ، يدل على ركود الحياة الاقتصادية . ولا مجال للقول بنهضة اقتصادية قبل القرن الثاني عشر .

الحياة الفكرية . - لقد هجرت اللغة والادب اللاتينيين لصالح اللغة العربية ، منذ القرن التاسع ، في الاجزاء الاسلامية من اسبانيا بل ومن قبل المسيحيين ، ولم يتاسك إلا في الشمال وبخاصة في استوريا وغاليس . ولقد حفظ الفتح الفرنجي ، منذ بداية القرن التاسع ، الثقافة القديمة في نطاق ضيق وعلى طول البحر المتوسط الثغر « الغوطي » (كاتالونيا) ولكنه ربطها بـ « النهضة الكارولنجية » .

ولا نعلم شيئاً عن اللغة والادب العامين لأننا لا نملك أي نص ليوني - قشتالي أو غاليسي - برتغالي قبل منتصف القرن الثاني عشر . غير ان بعض الكلمات انزلت في موائيق القرنين العاشر والحادي عشر وبلاطينية بدائية .

وكادت الثقافة اللاتينية ان تزول حتى في الشمال . ففي آستوريا لا يوجد في البدء اسقفية او دير يمكن أن يكون لها ملجأ . وفي مناطق « الاسترداد » خسرت المكتبات الاسقفية والديوية الغنية حتى القرن السابع كثيراً من مقتنياتها . ولكن الجهد بذل لاعادة انشاء المكتبات منذ القرنين التاسع والعاشر .

وكانت المخطوطات خاصة بالنصوص الكنسية . اما النصوص القديمة الدنيوية فيبدو انها لم تكن بمثابة شكل جدي ، وما زالت الكتابة هي الكتابة « الفيزيغوطية » المزعومة ، ولم يظهر التأثير الفرنسي بالكتابة « الكارولية » إلا آجلاً في آخر القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر .

وكان الأدب باللاتينية فقيراً . فقد وجدت تأريخ مختصرة جداً في نظرنا مثل : التاريخ الذي يذهب من ٦٧٢ إلى ٨٦٦ وينسب خطأً إلى الملك الفونسو الثالث ؛ والتاريخ المسمى تاريخ البلدة أو تاريخ سان ميللان وقد حرر في اوفيدو في ٨٨١ و ٨٨٣ ؛ والتاريخ المسمى تاريخ سامبيرو (اسقف آستورغا) ويبدأ من ٨٦٦ إلى ٩٨٢ ؛ وحوليات هزيلة : قشتالية (٦١٨ - ٩٣٩) ، وبرتغالية (تأريخ لورباننس ، ٨٦٦ - ١١١٠) ، ونافاريه (في مجموعة ميا ، من ٨٨٢ إلى آخر القرن العاشر) . ونص واحد ذو قيمة في سير القديسين وهو « سيرة القديس فرويلاني » وربما الفها الشساس خوان عام ٩٢٠ بعد خمسة عشر

عاماً على وفاة اسقف ليون هذا . وقبل بأن النشاط اللاهوتي كان أضعف كل هذه الآداب . ولا يوجد شعر لاتيني قبل القرن الحادي عشر . ومع هذا فقد وجدت بعض المدارس الاسقفية والديوية التي تلقى فيها الاكليروس والملوك والكبار تعليمهم الابتدائي الديني قبل كل شيء . واشهر هذه المدارس مدرسة كومبوستيل .

الحياة الانية . - لقد حافظت آستوريا ، فيما يتعلق بالبناء ، على مباني كثيرة من هذا الدور . ويصعد اقدمها حتى حكم الملك سيلو (٧٧٤ - ٧٨٣) الذي اقام عاصمته في برافيا . وتمثل هذه الأبنية في معابد قصور ملكية .

ويميز في هذا الفن اسلوبان : اسلوب الكنيسة - المعبد بمخطط مستطيل أو مربع وثلاثة صحن وثلاثة صدور (محاريب) وسقف خشبي ، كما يشاهد ابنية عقدية . وهذا النموذج من أصل « فيزيغوطي » أي روماني - بيزنطي .

ومنذ آخر القرن التاسع ظهر تأثير الفن العربي في الاسلوب « المستعربي » الذي ساد في ليون وقشتالة خلال القرن العاشر ويعرف بالفوس النضوي (على شكل حدوة الفرس) والتزيين المختلف السهاكة في الزخرفة والتدويق . وفي حوالي منتصف القرن التالي دخلت إلى البناء في اسبانيا المسيحية عناصر فرنسية بتأثير الرهبان الكلوينيين .

ولا يوجد في هذا العصر تمثال يستحق الذكر . غير أن الكنائس أو المتاحف في افبيدو ، كومبوستيل ، ليون ، برغش ، سيلوس ، احتفظت بصلبان وكؤوس وصناديق وعصي تدل على ان تقاليد صياغة الحلي التي كانت سائدة في العصر السابق ما زالت موجودة .

وكانت جدران الكنائس وقبابها مزدانة بالفرسكات ولكن لم يبق منها شيء . ويتمثل الرسم بمنمنات المخطوطات التي يرجع عهدها إلى منتصف القرن الثامن . ويضاف إلى التقاليد القديمة تأثير المستعربين وهو تأثير لا يمكن نكرانه ، ويبدو ان هنالك جهداً في تصوير الشخصيات المعاصرة .

وفي الختام ، ان تاريخ الدول المسيحية الصغيرة في اسبانيا في القرون الثلاثة الاولى ، التي تلت الفتح الاسلامي ، يبدو قليل الأهمية . لأن اشراق خلافة قرطبة والحضارة العربية أسر الانظار فلم تتحول عنه الا بأسف نحو مناطق الشمال الفقيرة التي لم تترك فيها الثقافة القديمة الا حياة واهنة . هذا فضلاً عن الحروب العقيمة التي كانت تقوم بين آستوريا وغاليس وليون وقشتاله ، والحروب التي كانت تقوم بينها وبين المسلمين . ويجب القول ان المسيحيين في هذه البلاد لم يكونوا متحدين فيما بينهم في داخل كل اقليم . فقد كانت المؤامرات تحاك من قبل الأخ على أخيه ، والابن على أبيه ، وثورات الكبار على الملك ، والتحالف مع المسلمين على بعضهم .

وبالرغم من ذلك ، فقد استطاعت هذه الدول المسيحية الصغيرة ان تنتقل بجهد من الدفاع إلى الهجوم والاستيطان ومعاودة الفتح واسترداد البلاد تدريجياً منتهزة ضعف المسلمين وتناحرهم على الملك .

الفصل العشرون

المانيا وايطاليا

من وفاة ارنولف إلى اوتون الأول

المانيا

من ٨٩٩ إلى ٩٣٦

انحطاط انطارجي : السلاف والهونغاويون . - لقد كان تاريخ
المانيا في بداية القرن العاشر متأثراً إلى حد كبير بالاضطراب الخارجية ،
لأن وجود السلاف على نهري الايلب والدانوب ، وظهور الهونغاويين
بغاراتهم المتكررة اثقلا مصير المملكة الجرمانية .

كانت حدود المانيا ، من جهة الشرق ، تتألف من الايلب ورافده السال .
وقد اقامت القبائل السلافية في بعض النقاط على الضفة اليسرى لهذين
النهرين ، وتسلس بعضها إلى غابة تورنجة ووصل حتى نهر الماين . وكانت
المانيا تحت رحمة أقل حادث ، لأن السياسة التي سلكها شارلومان وخلفاؤه
لم تولد نتائج يطمأن لها ، وظلت مواقع السلاف على ضفتي الايلب ، على
الأقل ، سليمة لم تمس .

يبرز بين هذه الشعوب ثلاثة أقوام أساسية :

١ - الاوبوتريت ، ويقيمون في الشمال على الايلب الأدنى .

٢ - الفيليتاب أو (الفيلز) والليوتيس ، وهم في الوسط بين نهر الاودر والبحر الباطيك .

٣ - السوراب أو الصرب الشماليون ، بين نهر السال وجبال ارزغبيرخ ونهر الايلب .

وظلت هذه الشعوب وثنية بعيدة عن النفوذ الجرمني ، رغم كثرة المحاولات ، وظل خطرهما ماثلاً محتمل الوقوع .

وفي شرقي جبال ارزغبيرخ وجد فرع سلافي آخر يضم :

١ - التشيكيين ، النازلين في وادي الايلب الأعلى .

٢ - المورافين ، على حوض نهر الموارفا .

٣ - السلوفين ، على ضفة الدانوب اليمنى .

ولمع نجم المورافين في النصف الثاني من القرن التاسع . وبعد أن كانوا تابعين لشارلومان استطاعوا ان يتحرروا ، وجمعوا الشعوب المجاورة حولهم وانشأوا امبراطورية امتدت على بانونيا وبوهيميا وبلاد السوراب وغاليسيا الشرقية . ودانوا بالديانة المسيحية على يد المبشرين البيزنطيين ، سيريل وميتود ، كما رأينا، وهذا لم يمنعهم من الدخول أخيراً في الكنيسة الرومانية . وكانت هذه الامبراطورية المورافية تؤلف على أبواب المانيا دولة قوية يحسب حسابها ويخشى خطرها .

ولقد خامرت المورافين حبال المانيا نزعتان : نزعة تريد الوقوف موقف العداء ، ونزعة تجنح إلى السلم . وغلبت هذه النزعة أخيراً ، ولا سيما بعد أن بدت ضرورية أمام الخطر الداهم ، عندما أوغل الهونغارون في بانونيا سنة ٨٩٤ .

يرجع أصل الهونغارين إلى آسيا الوسطى حيث يعيشون عيشة بدوية وهم المجر ، ثم أطلق عليهم فيما بعد اسم الهونغارين . دخلوا اوروبا في

بداية القرن التاسع ، وأقاموا حوالي ٨٦٠ بين نهري الدون والدينير حيث حاول ميتود ، اسقف بانونيا انذاك ، دون نجاح ، ان يبشرهم بالمسيحية ، ولكن بجيء البيتشينغ ، وهم من آسيا الوسطى ايضاً ، اضطرم الى عبور الدينير ثم الدينستر ، ثم توقفوا قليلاً في البغدان (مولدافيا) والافلاق (فالاشيا) ، وعبروا جبال الكربات في ٨٩٥ أمام دفع البيتشينغ ، وحلوا في هذه المرة منطقة نهر التيزا والدانوب الاوسط بين السوفين والمورافين . وقد سبق لأرتولف ملك جرمانيا أن تعاون مع الهونغارين على السلاف ، وهاجمهم مرتين ، وكان يحقد عليهم ولم يدرك الخطر الجديد ، وعندما ساءت الأحوال في الامبراطورية المورافية دون الوصول الى صلح بين الأطراف المتنازعة كانت السياسة الألمانية تثبت في داخلها روح الانقسام والتفرقة عوضاً عن أن تفيد من جوارها لدفع الغزو الداهم .

ولم يجد الهونغارون منافساً ينازعهم احتلال البلاد فأطالوا اقامتهم . وكانت الأرض والمناخ صالحين لنمو الزراعة ، ولكن هؤلاء الرحل لم يحاولوا الافادة من الامكانيات التي أمامهم ، وكل ما فعلوه هو انهم اكتفوا بتربية الخيول في سبيل أهدافهم الحربية ، والقيام بهجمات سريعة ، وظلوا على هذا النحو سنوات طوالاً وهم يبدون الرعب في ايطاليا والمانيا .

بدأ الهونغارون هجومهم على ايطاليا . ففي سنة ٨٩٩ اجتاحوا لومبارديا ، ثم عادوا واعملوا النهب في بانونيا (تموز ٩٠٠) ، ولم يجدوا اي عقبة تحول دون تقدمهم لولا انهم لاقوا بعض المقاومة فارتدوا على اعقابهم ، ولكن قواهم ظلت سليمة لم تصب بضعف .

ومن جهة ثانية ، لم يكن في جرمانيا ملك قادر على الدفاع ضد المغيرين . فقد مات ارنولف في ٨ كانون الأول ٨٩٩ وكانت خلفه الشرعي الوحيد لويس . وفي ٤ شباط ٩٠٠ انعقد مجلس في فورسهايم

ضم رجال ألمانيا ، ونادى بالأمير الشاب ملك جرمانيا تحت اسم لويس الثالث الطفل . أما اللورين ، التي كان يتنازع عليها زونتيبولد وملك فرنسا شارل الساذج ، فقد اعتوت بلويس الثالث ملكاً ، وجاء هذا إلى تونفيل ليقبل البيعة من رعاياه في الغرب . وبالرغم من الجهود التي بذلها زونتيبولد للاحتفاظ باللورين ، فقد غلب على أمره أخيراً وقتل ، وظلت هذه البلاد حتى عام ٩١١ متحدة مع ألمانيا .

ولد لويس الطفل عام ٨٩٣ ، واثم السادسة من عمره في العام ٨٩٩ ، وكان بحكم سنه غير قادر على الحكم وتنظيم المقاومة ضد الغزو . ولذا الحق به مجلس فورشهايم مجلس وصاية ، وابتعد أمه الملكة أودا عن التدخل في شؤون الحكم . وانتقلت الملكة إلى يد الأساقفة وبخاصة اسقف ماينس ، هاتون ، واسقف اوغسبورغ ، ادالبيرون ، وضم هذان الاسقفان اليها بعض الأمراء العلمانيين : مثل مارغراف نافاريا لوتبولد ، وهو شخصية قوية وستكون له شعبية خاصة بظفره على الهونغاريين ، والكونتين الفرانكونيين : غيارد وكونراد .

وقد يبدو اعتلاء طفل العرش ، في وقت احوج ما تكون فيه المملكة إلى زعيم عسكري من النوع الممتاز ، خفة ورعونة ، ولكن الأوصياء برهنوا على حسن سليم ، وحسن تصرف في الأمور . لقد اعتبروا بغزو عام ٩٠٠ ، ولذا بادروا برد فعل ضد سياسة ارنولف واهرموا الصلح مع المورافيين عام (٩٠١) . ولكن هذه السياسة أتت بعد فوات الأوان لأن المورافيين ، على ما يظهر ، قد تأثروا كثيراً بعدوان الجبر ، وما لبثت امبراطوريتهم ان تداعت في ٩٠٥ - ٩٠٦ وخضعت لنير الهونغاريين . وهكذا أصبحت ألمانيا مهددة بمخطر مباشر ، ولاقت اخطاء سياسة ارنولف الشرقية نتائجها الوخيمة .

وفي السنتين ١٩٠٦ و ١٩٠٧ اجتاح الهونغاريون ساكس وارتكبوا فيها أعمال العنف ، ثم انشؤا على بافاريا . واضطر جيش شارل الطفل للقائهم ولكنه ابيد بكامله . وبعد هذه النكبة توالى هجمات الهونغاريين ، وظل الوضع حرباً على هذا النحو عندما دامت المنية شارل الطفل في ٢٤ ايلول ١٩١١ .

تشكل الدوقيات القومية . - لقد انهكت الغارات الهونغارية المانيا وادمتها ودمرتها بما اقترفته من قباحات وفظاعات لم توفر فيها الشيوخ والنساء والأطفال ، وكان الشعب يعيش في حالة ارهاب دائم وعدم طمأنينة ، وكانت الملكية عاجزة عن قمع الفوضى وسد الطريق في وجه الغزاة ، وباءت جميع المحاولات التي اتخذها شارل الطفل بالحجبة ، ولم يفكر أحد بخلعه بعد أن ظهر ادنى من مستوى قضيته ، بل ان هذا الموقف منه جعل كل بلد يقرر مصيره بنفسه معتمداً على وسائله الدفاعية ، ووجد في كل منها زعماء عرفوا بحسن البلاء ومقاومة الاعداء مثل لويتبولد في بافاريا ، وهنري في ساكس ، وقد أخذ كل منها على عاتقه حماية المناطق المتعلقة بسلطته . ولا غرابة اذا تحول هؤلاء الزعماء العسكريون ، الذين يتناقلون وظائفهم كبراً عن كابر ، الى زعماء قوميين وأصبحوا ادواً مستقلين عن التاج بعد أن التفت حولهم الكونتات والمارغرافات . ولقد ساعدت ظروف عديدة على تشكل هذه الدوقيات القومية ، وكان العامل الأساسي فيها وجود جماعات عرقية لها فرديتها الخاصة ، وقد حافظت هذه الأقوام ، بالرغم من دخولها في الامبراطورية الكارولنجية ، على لغتها وعاداتها واخلاقها وقوانينها ، وكانت كل واحد منها يقيم في منطقة جغرافية خاصة ، وفي اليوم الذي تصبح فيه السلطة الملكية عاجزة عن ممارسة نفوذها تأخذ هذه الأقوام استقلالها في اطارها التقليدي الذي تعيش فيه تحت سلطة زعيم

- ٤٤٩ -

عسكري يتسبب إلى الارستقراطية المحلية . وقد اغتصب الأدواق بهذه الصفة الحقوق الملكية وورثوا ، منذ آخر حكم لويس الثالث الطفل ، كل الامتيازات وكل السلطات الخاصة بالملك .

ولكن الكنيسة لم تحبذ هذا التطور ، وظل الأساقفة متعلقين بالسلالة الكارولنجية التي اغتتهم واختارت في الغالب مستشاريا منهم . وظهر حكمهم اثناء الوصاية على لويس الطفل . ولذا لم يروا بعين الارتياح هذه القوى الناهضة أمامهم ، وناضلوا في بعض البلاد ضد الادواق . غير أن قوة منافسهم كانت تعتمد على ضرورات آنية وعاجلة وعلى تقاليد قديمة جعلت من المستحيل على رجال الكنيسة الذهاب ضد هذا التحول الذي اقتضته الظروف الجديدة .

ومنذ آخر حكم لويس الطفل انقسمت المانيا الى خمس دوقيات قوية ولكل منها سبأؤها الخاصة وهي : ساكس ، بافاريا ، فرانكونيا ، سواب ، اللورين التي زالت مؤقتاً من الخارطة الجرمانية عام ٩١١ . وظهرت هذه الدوقيات حول سبأء المانيا . لأن الوحدة الكارولنجية ، التي قاومتها القوى المحلية ، انفصمت نهائياً واستعادت الشعوب ، التي تؤلف جرمانيا القديمة ، من ساكسون وبافاريين في الشرق وآلامان ، فريديتها التي لم يستطع شارلومان وخلفاؤه أن يحوها تماماً ، حتى ان المملكة التي أوجدتها معاهدة فردن لصالح لويس الجرمانى لم تناسك إلا بسائق التقليد والعادة والشعور بالخطر الخارجي المشترك ، ولكنها تفتت أخيراً ولم يعد لملكها الا سطة نظرية على الدول التي تؤلفها . ولا شك في أن الادواق لم يفكروا بالغاء النظام الملكي ، ولكنهم في الواقع كانوا

يتصرفون كما لو كانت الملكية غير موجودة . وحتى وفاة لويس الطفل عاشوا بسلام مع الملك ، لأنه كان يتغاضى عن اغتصاباتهم . وكانوا يحترمونهم ولكنهم يتجاهلونه ويحكمون بأنفسهم دون مشاورته والرجوع اليه .

ان انشاء الدوقيات أضعف الملكية وهدد الكنيسة . لقد تمتعت الكنيسة في الامبراطورية الكارولنجية بوضع ممتاز . وكان الكارولنجيون ، ان عن رغبة برحة الساء أو عن خدمة لمصالحهم السياسية أو لكليها معاً ، يغدقون الهبات والمساعدات على الكنيسة حتى غنيت واستطاعت ان تعتمد في سلطتها الروحية على ملكيات عقارية واسعة . وكان الأساقفة يتمتعون بوظائف كهنوتية واملاك وموارد هامة جداً ، وأصبحوا في عهد أواخر الكارولنجيين من أوائل الشخصيات في الدولة ، وخلال مرات عديدة انتقل الحكم إلى أيديهم . وهذه الفوائد يمكن ان تفسد بدخول الأدواق الساحة بعد أن أصبحوا يملكون سائر الحقوق الملكية . ولم يكن في وسع هؤلاء الأدواق أن يتساهلوا بوجود اسقفية فوقهم غنية ومنظمة تخضع لتوجيهات مطران ومن الممكن احياناً أن يكون كرسي المطرانية خارج حدود الدوقية وتعقد جلساتها في مجامع قومية ثملي قواعد مشتركة وعامة لكل المانيا . ولم يكن الاساقفة ، من جانبهم ، على استعداد لقبول تضحية تبدو ضارة بالكنيسة والدولة . لذا كان الخلاف حتمياً ، ومالبت أن تفجر في دوقية سواب في عهد لويس الطفل ، وأصبح بالامكان ان ينتشر في كل مكان .

وكان من صالح الكنيسة ، للدفاع عن نفسها ، أن تبعث سلطة التاج لأن الملكية القوية وحدها تستطيع أن تحميها من طغيان منافسيها . ومن جهة أخرى ، كان للدوقيات صفة قومية ، ولزعماؤها شعبية ، ولذا

كانت الكنيسة حليفاً وحيداً ممكناً للملك عندما يريد استرجاع السلطة والجاه اللذين فقدهما . وقد ارتسم هذا التقام منذ حكم خلف لويس الطفل ، كونزاد الأول ، وباركه نهائياً اوتون الكبير .

حكم كونزاد الأول (٩١١ - ٩١٨) . - توفي لويس الثالث الطفل في ٢٤ ايلول ٩١١ دون أن ينجب اولاداً . ولم يكن للسلالة الكارولنجية ، في ذلك التاريخ ، ممثل الا ملك فرنسا ، شارل الساذج ، واليه يرجع أيضاً تاج جرمانيا حسب قوانين الوراثة . ولكن لم يفكر أحد بتقديم هذا التاج له . فقد اجتمع الامراء الألمان في فورسهايم وانتخبوا ملكاً عليهم ، دوق فرانكونيا ، كونزاد الشاب ، الذي أصبح كونزاد الاول (١٠ تشرين الثاني ٩١١) .

ويبدو ان قرابة كونزاد بالسلالة الكارولنجية ، التي يرتبط بها عن طريق امه ، لم تكن غريبة عن هذا الانتخاب . لقد كان الملك الجديد معروفاً ، حسب قول المؤرخين ، بشجاعته وتقواه وفطنته ، وربما فضل على غيره من ادواق ساكس وبافاريا لأن قدرته الشخصية اقل من غيره ، ولا يخشى من جانبه محاولة ارجاع الملكية .

وفي الواقع لقد كان حكم كونزاد الاول مقروناً بعدة اخفاقات : فقد بدأ بانفصال اللورين عن جرمانيا . وكانت هذه الدوقية مرتبطة بالسلالة الكارولنجية ، وعندما مات شارل السمين قضت آرنولف على اود ، واعتبرت في العام ٩١١ كونزاد مغتصباً وقدمت نفسها هدية إلى شارل الساذج . ولكن كونزاد لم يستسلم لهذا التخلي عنه وأراد استرداد الدوقية . وبعد حروب بين الطرفين بقي كل منها عند مواقعه دون الحصول على نتيجة ، وبقيت اللورين لشارل الساذج . وعندما سقطت السلالة الكارولنجية المرة الثانية في فرنسا عادت اللورين والتحقّت بجرمانيا .

- ٤٥٢ -

وشغلت اللورين كونراد دون نتيجة ، وصرفت انظاره عن حوادث خارجية وداخلية خطيرة ، ولم يستطع بسببها دفع الغزو الهونغاري والحيلولة دون معارضة الأدواق .

دفع الهونغارون هجومهم في المانيا حتى اللورين وعاثوا فيها الفساد ، ولم يستطع كونراد التدخل ، لأنه قضى عامين وهو في اللورين ووجد نفسه أمام معارضة داخلية شغلته وصرفت جهوده .

ولم تكن هذه المعارضة ، في الأصل ، موجة ضد الملك ، بل ضد الكنيسة التي حماها كونراد الأول من طغيان الأدواق لمصلحة التاج . وقد بدأت بوادر هذا الحلاف منذ آخر حكم لويس الطفل ومالبت ان تنتشر في كل مكان في بافاريا وساكس وسواب .

في بافاريا ، دشّن ارنولف سياسة تعصير جعلته يشبه شارل مارتل . فقد جرد الاديرة من املاكها ووزع أموالها بشكل اقطاعات على العلمانيين الذين أصبحوا اتباعه وزبائن يطعمن لهم ويتفانون في خدمته . وقد بسم له الحظ بسبب انتصاراته على الهونغارين وتمتع بشعبية خاصة في دوله ، ولكن هذا لم يمنع حقد الاساقفة عليه .

وفي ساكس ، خلف هنري اباه اوتون في ٣٠ تشرين الثاني ٩١٢ ، وكان يشعر بميله وعواطفه ، فلم يكن ليحترم الكنيسة كاسلافه ، ويرى ان جميع الوسائل صالحة إذا كان منها تقوية سلطته . ولكنه كان يخشى رئيس اساقفة ماينس ، هانتون ، وكان هذا فكراً ذكياً المعياً ماهراً عارفاً بدخائل الأمور . وقد أوحى إلى كونراد الأول بسحب تورنجه من يد الدوق الشاب التي حكمها ابوه من قبل ، ولكنه مات دون أن يحصل على نتيجة ايجابية وأصبح الدوق هنري عدواً للملك والكنيسة أكثر منه في أي وقت مضى .

وارتسمت حركة ممانلة في سؤاب ، حيث استطاع سالومون الثالث ، اسقف كونستانس أن يتخلص بمقتبل الدوق بركارد ، ولكن احد الكونتات أراد أن يثار للدوق الراحل او يحل محله وقام يناهض الجبر الفظيع واستطاع أن يسجنه .

ودخل النزاع مع الكنيسة في هذه الدوقيات الثلاث مرحلة حادة ، وظل الملك سنتين ممتنعاً لا يعمل شيئاً بسبب مشاغله في اللورين ، غير أنه في اليوم الذي يتخطى فيه نهائياً عن المطالبة بها يعود فيتدخل لصالح الاساقفة الذين يعتبرهم أفضل دعامة للعرش .

وحاول كونزاد في البدء ان يهدئ المنازعات بعد ان اوشكت تهدد بالحرب الأهلية فسعى الى التقرب من دوق بافاريا وكونتات سؤاب ليعزل هنري ساكس بعد أن تبين له خطره على الملكية ، كما حاول عن طريق الزواج الدبلوماسي أن يصل إلى مايريد ، ولكن كل هذه المساعي لم تكن لها تلك النتائج المنتظرة .

ولم يفلح السلاح ايضاً في اخاد مقاومة الادواق . ولذا لجأ كونزاد إلى الوسائل السلمية واستخدم الكنيسة . وعقد في ٢٠ ايلول ٩١٦ مجمعاً قومياً في هوهنالتهايم على حدود بافاريا وسؤاب وفرانكونيا مؤملاً أن الحديث بين اساقفة الدوقيات يمكن أن يؤدي إلى مصالحة عامة ، واستطاع ان يثير في هذا المجلس اهتمام البابا جان العاشر فبعث هذا مثلاً عنه إلى المجلس . ونجح كونزاد في هذه المرة لأن الاجبار الالمان استجابوا للنداء الا الاحبار السكسونيين لأن هنري احتجزهم في الدوقية ولم يستطيعوا الاسهام بالمناقشات .

وقد حفظت قرارات مجمع هوهنالتهايم وهي على نوعين : بعضها ذو أهمية عامة ويتعلق بالنظام الكنسي وتقويته بالاصرار على الاساقفة بضرورة

التبشير وتفسير الكتاب المقدس ، وعلى العلمانيين باحترام أموال الكنائس والامتناع عن محاكمة الاكليروس ودفع ضريبة العشر ، وعلى الجميع بتجنب اقامة علاقات مع المحرومين المطرودين من الجماعة الذين حلت بهم اللعنة الكنسية . وبعضها الآخر ، على العكس ، كانت له أهمية حالية . وبعد أن قدم الأجبار احترامهم للسلطة الملكية التي لاغى عنها لتقدم الايمان حكموا باللعنة سلفاً على كل من يتآمر على الملك بغية القضاء على حياته او خلعه ، ونحوا باللائمة على غياب زملائهم الساكسونيين وهددوهم بالاحالة على روما إذا لم يبدلوا موقفهم .

وهكذا انحازت الكنيسة بوضوح ووضعت سلطتها الروحية في خدمة قضية الملك وجعلتها قضيتها . ولكن سرعان ما تبين عدم جدوى هذه المؤيدات القانونية لأن الأمراء لم يبدوا أي اهتمام للقرارات المتخذة ولما ينصاعوا لما امروا به ، حتى اضطر كونراد الاول إلى اتخاذ تدابير زجرية بحقهم . وباءت السياسة الملكية في كل مكان بالاخفاق الذريع .

ومات كونراد الأول في ٢٣ كانون الأول ٩١٨ تاركاً ذكرى الملك الحاسر : فقد تخلى عن اللورين إلى شارل الساذج ، ولم يستطع دفع الغزو الهونغاري واتحاد المعارضة . ولكنه استطاع ، بالرغم من ظروفه الحرجة ، ان يرسم للملكية الألمانية خط السير في المستقبل ، وذلك بأن جعل من الكنيسة نقطة استناد له ضد الأدواق . وسياخذ اوتون الاول هذا البرنامج ويوسعه . وخلف كونراد الاول مباشرة دوق ساكس ، هنري ، وقد تصالح معه الملك في أيامه الاخيرة وسماه وهو على فراش الموت وفضله على أخيه ليكون خلفاً له . ولكن هنري ، على العكس ، سلك انجهاً مخالفاً لما أراد كونراد .

السلالة الساكسونية . — اجتمع الأمراء الألمان في فريتزلار في ١ أيار ٩١٩ وصادقوا على ارادة كونزاد الأخيرة وعهدوا بالتاج الملكي إلى هنري دوق ساكس بعد أن أجمعوا على أنه يفوقهم قيمة وأنه الوحيد القادر على تأمين النظام الداخلي والأمن الخارجي .

ولد هنري سنة ٨٧٦ ، وقد خلع عليه مؤرخو العصر الوسيط لقب « الصياد » نظراً لرياضته المفضلة . وكان أبوه اوتون دوق تورنجه ثم أصبح دوق ساكس عام ٨٨٨ . وخاف هنري أباه على هذه الدوقية عام ٩١٢ ، واستطاع بانتصاراته على السلاف والهونغاريين أن يقوي نفوذه . وقد مجد المؤرخون صفاته العسكرية واستقامته وجهه العدل وطيبه ، بما زاد في احترامه وولاء الشعب له . ومنذ توليه العرش كان ينوي توطيد السلام في الداخل والخارج . وذلك من جهة ، بالبحث عن تفاهم بين الملكية والأدواق . ومن جهة أخرى ، بوضع سد في وجه الغزو الهونغاري الذي طغى من جديد على ألمانيا في السنوات الأخيرة من حكم كونزاد الأول . وقد استطاع بما عنده من ذكاء وقوة وحس سياسي وشعور بالواجب أن يكون على مستوى المهمة التي نذب اليها إعادة انتخابه .

تختلف سياسة هنري الأول تماماً عن سياسة كونزاد الاول . فقد حكم هذا الأخير مع الكنيسة ضد الأدواق . أما هنري فقد انطلق من وجود الدوقيات القومية ، وعوضاً عن ان يكسر الأطر الجديدة ، التي فرضت عليه بظروف قاسية ، حاول أن يلينها ويمرنها ليسمح للسلطة الملكية بالتكيف معها أو بوضع نفسه فوقها .

وكانت اولى أعمال الملك الجديد ذات مغزى في هذا الاتجاه . حقاً لقد سماه كونزاد ليكون خلفاً له . ولكن هنري اراد أن يأخذ التاج من اقرانه . وبعد ان انتخب ملكاً رفض بالمقابل ان يبارك ويتوج على

يد رئيس اساقفة ماينس ، هيريجر ، بحجة انه غير اهل لهذا الشرف . وهذا التواضع المتكلف لا يجذع ولا ينطلي على أحد ، لأن الملك الجديد يرهن على انه لا يريد التكرار لماضيه ، واكد بحزم عن عزمه بانه يكون مستقلاً عن الأسقفية التي كانت تتمتع بنفوذ حاسم في عهد الحكم السابق .

وقد ظهرت هذه الاتجاهات بالتقرب من الأدواق والحقاق الأساقفة بهم . لأن سياسة هنري الأول كانت ترمي إلى تضييع الكنيسة وبقاء سلطة الادواق سليمة . ولكن هذه السياسة كانت عظيمة النتائج بالنسبة للملكية لو لم يقم خلف هنري الأول ، اوتون الأول ، برد فعل يعاكس اتجاه ابيه . لأن ما يخشى منه هو ان تنجرف الكنيسة ، التي حافظت حتى الآن على وحدتها القوية ، بالحركة التي فتت بمملكة جرمانيا . ولكن سياسة هنري الأول المسالمة لم تعط حتى الآن إلا نتائج طيبة ، لأن الاعتراف الرسمي بالدوقيات تقبله الادواق بترحاب وأصبحوا مساعدين للملكية . وعندما اطمأن هنري الأول لمساندة الأدواق ودعمهم أصبح بإمكانه توسيع المانيا باتجاه الغرب ، وفي الوقت نفسه ، حمايتها من الغزاة في الشمال والشرق .

ضم هنري الأول مملكة اللورين القديمة ، ولم تتمتع هذه المملكة في ظل النفوذ الفرنسي الا بهدوء نسبي . فقد ثار اميرها الكونت جيلبيرت بن الكونت رونه على شارل الساذج وربما كان ذلك منه بتشجيع من هنري الأول . وعلى أي حال نشبت الحرب بين ملك فرنسا وجرمانيا عام ٩٢٠ ، ولا تعرف على وجه الدقة المراحل المختلفة لها ، وكل ما يعلم هو انها انتهت بمعاهدة بون وبوجها تعهد الملكان بعبارات غامضة بصداقتها المتبادلة واعترافها بالملكيات العائدة لكل منها .

غير ان سقوط شارل الساذج حل القضية . وبعد تردد طويل دام سنتين في حرب أهلية اعترف اللورينيون نهائياً بهنري الأول ملكاً عليهم في ٩٢٥ . وفي العام ٩٢٨ منح هنري جيلبيوت لقب دوق وزوجه ابنته جيربيرج . وافت اللورين دوقية المانية كسائر الدوقيات الأخرى .

وبالرغم من ان الملك بارك حقوقاً الانقسام إلى دوقيات كما كانت الحال قبل توليه العرش ، فقد اهتم برفع جاه الملكية وتوجيه النضال ضد الهونغارين والسلافيين والدانباركيين ، وتحرير المانيا من الأخطار الخارجية .

لقد عاودت الغارات الهونغارية هجومها في السنوات الاولى لحكم هنري الأول ، ولكن الغزو الحقيقي كان في العام ٩٢٦ عندما انقض الغزاة على بافاريا وسواب واعملوا فيها النهب والحريق . وتآلم هنري الأول لهذا الحادث وعقد في اول تشرين الثاني ٩٢٦ مجلساً في فورمز ضم اساقفة وامراء علمانيين وتقرر فيه اجراء مفاوضات لانسحاب الهونغارين . ثم تلا هذا الغزو هدنة دامت سبع سنوات دفع هنري خلالها ضريبة للأعداء . ولكنه افاد من هذه الهدنة واتخذ استعداداً ليجعل المانيا في حالة تمكنها من الدفاع .

ولم يشأ الملك انشاء ثغور جديدة خشية من ان يتأتى عنها ضعف في السلطة الملكية . ولكنه انشأ حول المدن تحصينات في ساكسونيا ونورنجة ونظم مقاومة السكان . وضم ادواق بافاريا وفرانكونيا واللورين جهودهم لجهود الملك وساعده في كل ما أراد ، وخرجت السلطة الملكية من الأزمة قوية مرفوعة الرأس . ولا أدل على ذلك من النصر العظيم الذي حققه على الهونغارين في العام ٩٣٣ . وكان لهذا الظفر أثره في تأمين مستقبل الملكية .

وفي الوقت الذي كان فيه هنري الأول يحمي المملكة من غزو الهونغاريين ، قام بهجوم على السلاف . ولم يكتف الأذواق الساكسونيون كما كان يفعل السكارولنجيون ، باستقرار الأقوام حول الايلب بل كانوا يهاجمونها في عقر ديارها . وهكذا فعل الملك هنري الأول واخضع بلاد الايلب أخيراً للنفوذ الساكسوني (٩٢٩) .

وامتد نشاط هنري الأول إلى بوهيميا ودخلت هذه البلاد في ملك السياسة الألمانية التي شجعت فيها تغلغل المسيحية كما في سائر البلاد السلافية الأخرى .

وآخر حادث عسكري في حكم هنري الأول كان في حرب الدانماركيين واجبارهم على دفع الضريبة وتهيئة عمل التبشير الذي توجهه كنيسة هامبورغ وقد بدأ هذا العمل في ٩٣٥ .

وتوفي هنري الاول في ٢ تموز ٩٣٦ بعد حكم دام ثماني عشرة سنة . وهذا الحكم إذا ما قورن بأسلافه ظهر مثمراً وخصباً . ففي الخارج صد هجوم المغيرين من هونغاريين وسلافيين ودانماركيين . وفي الداخل وطد السلطة الملكية بوسائل قد تبدو خطيرة على المستقبل ولكنها الآن ناجعة ، ووضع حداً للحروب الأهلية باعترافه بالدوقيات ، وبارك بعمله هذا قوة منافسة للتاج واضعف الكنيسة حليفته ، وسيدرك ابنه وخلفه اوتون الأول اخطار هذه السياسة فيعمل على معالجتها بحدس عبقريته ، وستتجه في عهده المانيا وجهة جديدة . لقد رفع هنري الأول الملكية بعد أن أضناها الأذواق ، وسيبعث ابنه اوتون الأول الامبراطورية لصالح جرمانيا .

إيطاليا

من ٨٩٦ إلى ٩٤٧

نهاية امبراطورية سبوليت (٨٩٦ - ٨٩٨) . - لقد استطاع آرنولف الكارولنجي ملك جرمانيا ان يدخل روما في العام ٨٩٦ . ولكن عمله كان ضعيفاً ، فلم تمض بضعة اسابيع الا واستعادت إيطاليا استقلالها ورجعت امبراطورية سبوليت التي قلبها ارنولف . لأن لامبر بعد ذهاب الجيوش الألمانية عاد بعد ان طرده ارنولف وأخذ يقوم بتدابير انتقامية ، واستطاع بهذه الطرق الارهابية ان يخضع لومبارديا لسلطته . ثم تصالح مع بيرانجي ، منافسه القديم ، واعترف بسيادته على البـلاد الواقعة ماوراء نهري الآدا والبو ، واحتفظ لنفسه ، عدا دوقية سبوليت ، ميلان وبافيا مع اللقب الامبراطوري . ولم يكن ليفعل ذلك إلا في سبيل الزحف على روما التي عادت لحوزته في بداية عام ٨٩٧ . وهكذا بعثت امبراطورية سبوليت ، ولكن دون أن تكون طويلة الأجل ، واعترف امراء إيطاليا الوسطى بسلطة لامبر وتعاونوا معه ، واتخذ هذا عدة تدابير اصلاحية من شأنها اعادة النظام والرفاه إلى شبه الجزيرة الإيطالية . ثم مات اثر حادث صيد في ١٥ تشرين الأول ٨٩٨ ولم يخلف وارثاً . واستطاع بعده بيرانجي أن يستحوذ على التاج دون أن ينازعه أحد ، ولكن شتان ما بينه وبين الامبراطور الراحل الذي حقق اتحاد الايطاليين جميعاً وحمى شبه الجزيرة من ويلات الغارات التي حلت بها في فجر القرن العاشر .

الغارات الهونغارية والاسلامية . - لقد هاجم الهونغاريون إيطاليا قبل المانيا . فما استقر بهم المقام في سهل الدانوب الا وانقضوا في ربيع

عام ٨٩٩ بمجموعهم على ايطاليا دون أن يلقوا مقاومة ، لأن انسحاب آرنولف وموت لامبر حرما شبه الجزيرة الايطالية من هذين الرجلين القادرين على حمايتها .

واستطاع بيرانجييه بعد أن زين رأسه بالتاج أن يجهز جيشاً للدفاع ، ولكنه لم يستطع رد الهجوم الكاسح الا قليلا . وعاود الهونغاربيوت الكرة واعملوا في البلاد الحراب والدمار . ثم عرفت ايطاليا بعد هذه النكبة فترة راحة لأن الهونغاربيين وجها هجومهم إلى المانيا ، ولكن هذا لم يمنهم من العودة عام ٩٢١ و ٩٢٢ وأكثر من ذلك عام ٩٢٤ وآخر مرة عام ٩٢٦ عندما بلغ الغزو طوسكانه وهدد روما بالخطر .

وعرفت ايطاليا الجنوبية غزو المسلمين . فبعد أن أقام المسلمون في افريقية الشالية وصقلية وكامبانيا وفي المشارف المطلة على مصب نهر غارليانو ، قاموا في السنوات الاولى من القرن العاشر بسلسلة هجومات على شواطئ بروفانس وايطاليا .

كان انطلاق المسلمين في بادئ الأمر من افريقية ، لأن المسلمين في صقلية عاشوا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع بسلام مع المسيحيين ولم يكونوا على استعداد لاستئناف القتال .

ولكن أمير القيروان ابراهيم بن أحمد لم يتخل عن الجهاد ، وكانت صقلية تابعة له ، بيد أن زعماءها حاولوا أن يستقلوا عنه فبعث إليهم بابنه عبد الله ليوطد نفوذه في الجزيرة ، وجهز اسطولاً عظيماً واتجه صوب مزاره حيث نزل في ١ آب ٩٠٠ ثم دخل بالرمو وجعلها قاعدة لعملياته . ورأى أغريق كالابر الخطر فنظموا جيشاً لنجدة تاورمينا وكاتان ، وكانت معرضتين مباشرة للخطر . وحاول عبد الله دون تدخلهم بهجوم على

ريحيو عام ٩٠١ ونهبها . وخافت المدن المجاورة أن يصيبها ما أصاب ريحيو
فعرضت على الفاتح ضريبة قيمة فقبل . لاسيا وأنه كان يفكر بتقوية
النظام الاسلامي في صقلية ولا يطمح بفتوحات جديدة . ولكن هذه
السياسة كانت تخالف سياسة ابيه ابراهيم الطموح إلى الفتوحات
والمغامرات .

في العام ٩٠٢ استدعى ابراهيم ابنه عبدالله إلى افريقية، واتجه بنفسه صوب
صقلية ليحل محله . احرق تاورمينا وعبر مضيق مستينا ورفض مقترحات
مدن كالابر وطوف في البلاد من الجنوب إلى الشمال حتى كوسانزا ولاقى
فيها مقاومة غير منتظرة ومات أثناء الحصار بالزحار في تشرين الاول
(٩٠٢) . ثم تخلى حفيده زيادة الله بالحال عن مشروع جده ، الذي
كان يحلم بالوصول إلى روما ، وقفل راجعاً بالجيش إلى صقلية ونجت على
هذا النحو ايطالية الجنوبية .

وبعد موت ابراهيم قامت اضطرابات في افريقية وحالت دون هجوم
جديد على كالابر ، فضلاً عن أن صقلية اعلنت ولائها لسلطة خلفاء بغداد
وتعاهدت مع اغريق ايطاليا الجنوبية . وانتهت الغارات الكبرى . إلا
ان المسلمين في منطقة غارليانو قاموا بهجمات في منطقة كلبو (٩٠٥)
وفي الريف الروماني . ولكن سرعان ما ردت . وفي العام ٩١٤ نظم
البابا جان العاشر مع ماركينز سبوليت ، اليبريك ، وأمير كلبو والقائد
البيزنطي ، حملة صليبية بمساعدة الاسطول الاغريقي . وانتهت في العام
٩١٥ باجلاء المسلمين عن منطقة غارليانو ، ولكن ايطاليا القارية بقيت
معرضة لهجوم المسلمين من صقلية وافريقية .

غير ان الهجومات التي توالى ابتداءً من ٩١٥ لم تكن ذات أهداف
كبرى ، رغم ماسبته من خسائر : ففي ٩١٨ هاجم المسلمون ريحيو ،

ثم تجدد الهجوم عام ٩٢٢ واتبع بآخر هام استوك فيه سلاف الادرياتيک (٩٢٤ - ٩٢٥) . وفي العام ٩٢٥ نهبت اوريا وأخذ عدد عظيم من الأسرى . وفي ٩٢٦ سقطت تارنت بدورها تحت ضربات أمير صقلية والقرصان السلافي سيّان . وهاجم القرصان سالرنو ونابولي دون أن يتدخل الاسطول البيزنطي بقوة . ولم يكن في هذه الحملات تلاحم واستمرار ، كما يظهر ان المغيرين لا يرغبون بالاستقرار في ايطاليا الجنوبية . إلا أن أمير صقلية الحسن حاول في العام ٩٥٠ ان يحتل كالابرو : وقعت ريجيو في يده ، ونجت جيراس وكاستانو من النهب مقابل ضريبة ، ثم ظهر الحسن مرتين في ٩٥٢ و ٩٥٦ في ايطاليا القارية ودب فيها الخوف والرعب . وعلى ما يبدو ان الطرفين سئما القتال . فقد كانت بيزنطة ، في الشرق ، في صعوبات ، والمسلمون في نزاع وشقاق ، فما وسع الجانبين من مسلمين وبيزنطيين إلا أن وقعوا معاهدة الصلح في ٩٥٦ وتلت ذلك فترة هدوء نسبي .

وانتشرت الغارات الاسلامية في الشمال : ففي آخر القرن التاسع تناولت ساطيء بروفانس وادت في ٨٩٠ و ٩٠٠ إلى انشاء موقع إسلامي في فراكسينيتوم بالقرب غارد - فرينيه ، في المنطقة الواقعة بين سان - ترويز والبحر . ومن هذه المنطقة انتشر العرب بين جبال الالب ونهر الرون دون أن يجرأ أحد على ازاحتهم . وجهزت حملتان على فرينيه : الواحدة من قبل الاسطول الاغريقي عام ٩٣١ ، والأخرى من قبل ملك ايطاليا هوغ ، وامبراطور القسطنطينية رومان ليكاين عام ٩٤٢ ، ولكنها لم تؤدي إلى النتائج المتوخاة منها ، ولم تمنع المسلمين من صعود وادي الرون الأعلى وعبور ريشا والوصول إلى دير القديس - غال ونشر الرعب

في تلك الأرجاء . وظل هذا دأبهم إلى ان ارجع اوتون الأكبر الامبراطورية وأخلى العرب فرينه بعد أن ظلوا فيها قرابة ثمانين عاماً .

المنازعات السلالية (٩٠٨ - ٩٢٦) . - وخارجاً عن الغزو ، مرت إيطاليا في النصف الأول من القرن العاشر بحمن أخرى وأصابها ما أصاب الممالك الناشئة عن تجزئة الامبراطورية الكارولنجية من احتلال أجنبي وحرب أهلية .

بعد موت لامبرسبوليت عام ٨٩٨ قبل بيرانجي ملكاً ، وما لبث بعد سنتين إلا أن رأى منافساً له في شخص ملك بروفانس ، لويس ، بن بوزون ، حفيد الامبراطور لويس الثاني من جهة أمه ، ولا تعلم الأسباب التي دفعت الامراء الايطاليين إلى دعوة لويس : فهل يجب أن يرى في ذلك تعلق بالسلالة الكارولنجية ، أو أن بيرانجي حبيب الآمال التي عقدت عليه لأنه لم يستطع في العام ٨٩٠ دفع آثار الغزو الهونغاري . ان سكوت النصوص لا يسمح بأي فرضية في هذا الاتجاه . ولكن الصحيح الثابت هو ان لويس بروفانس دخل روما ، وزين البابا بندكت الرابع رأسه بالتاج الامبراطوري في ١٥ أو ٢٢ شباط ٩٠١ ، وقامت على اثر ذلك منازعات بين لويس وبيرانجي انتهت أخيراً بأن قبض هذا الأخير على لويس وسمل عينيه ثم سمح له بالعودة إلى بروفانس وفتح وحده بالتاج ولكن دون سلطة . ولم يستطع الذهاب إلى روما لأن ماركيز طوسكانة اداليرسد الطريق في وجهه ، ولأن البابا سيرج الرابع (٩٠٤ - ٩١١) لم يكن مستعداً لمنحه اللقب الامبراطوري هدف احلامه . غير أن البابا جان العاشر في العام ٩١٥ أبدى رغبة طيبة حيال بيرانجي ودعاه إلى روما ليتوجه امبراطوراً ، بالرغم من أن لويس الأعمى (لويس بروفانس) مازال على قيد الحياة .

وبالرغم من هذا اللقب الجديد ظل بيرانجيه وجهاً شاحباً ، على ما فيه من حب للسيطرة والاستبداد . وهذا ما أثار عليه ايطاليا الشمالية وحمل الثائرين على دعوة ملك بورغونيا رودولف الثاني . ولكن هذا لم يستطع عمل شيء عظيم ، ووجد في موقف حرج لأن أكثر البلاد لم تعترف بسلطته ، فضلاً عن ان بيرانجيه كان يعتمد على الهونغارين . ومن جهة أخرى كان هوغ آرل يحكم بروفانس باسم لويس الأعمى ، وبدا منذ ٩٢٣ منافساً ممكناً . وظل مصير ايطاليا قلقاً ولكن موت بيرانجيه في ٧ نيسان ٩٢٤ جعل الحل سهلاً . فقد هجر الايطاليون رودولف وعاد إلى مملكته في بورغونيا ، وتقبل هوغ في بافيا (تموز ٩٢٦) تاج ايطاليا واحتفظ به عشرين عاماً .

ومات لويس الأعمى عام ٩٢٨ دون وارث شرعي . وخلفه على بروفانس شارل - قسطنطين ، ابنه الطبيعي ، واعترف هذا بسيادة ملك بورغونيا . ولم يشأ هوغ آرل أن يكون خلفاً للويس الأعمى وحرص على ابعاد أي منافس له في ايطاليا . وهكذا عادت مملكة بروفانس القديمة إلى رودولف الثاني الذي حكم « مملكة آرل » الممتدة من بال إلى دلتا الرون . وعندما مات رودولف الثاني (٩٣٧) حاول هوغ آرل ان يصادر لصالحه ارث الأمير المتوفى ، غير أن تدخل ملك جرمانيا اوتو الأول حال دون مايريد وحافظت مملكة آرل على استقلالها ودام هذا الاستقلال قرناً (٩٣٣ - ١٠٣٢) .

ان تشكل مملكة آرل التي ضمت دولتين من لوتيرانجيا القديمة ، بينما أصبحت المملكة الثالثة ، اللورين ، دوقية المانية ، كان نتيجة من نتائج المنازعات السلالية التي انتابت ايطاليا من ٩٠٠ الى ٩٢٠ . غير أن

المنازعات بدأت تها في ايطاليا بعد هذا التاريخ ، وظل هوغ حتى ٩٤٥ بعيداً مما يعكس الصفر ، ولكنه ظل دون سلطة . ولم تكن الملكية الايطالية في الربع الثاني من القرن العاشر بأقوى من الملكية الجرمانية في زمن لويس الطفل وكونراد فرانكونيا الأول .

ايطاليا تحت حكم هوغ آرل (٩٢٦ ٩٤٧) . - ان الأسباب التي دعت إلى تشكل دوقيات قومية في المانيا أدت إلى تطور مماثل نوعاً في ايطاليا وان اختلف عنه في نتائجه . ان المنازعات السلالية ، وبخاصة الحادة في شبه الجزيرة في النصف الأول من القرن العاشر ، كسفت السلطة الملكية تماماً . وفي كل مكان قامت قوى محلية مستقلة استقلالاً يكاد يكون تاماً . وكانت ايطاليا تحت حكم هوغ آرل (٩٢٦ - ٩٤٧) مجزأة إلى امارات علمانية وكنسية لا سيطرة للمليك عليها .

ان ملكة ايطاليا السكارولنجية كان مركزها لومباريا وعاصمتها بافيا . وعندما مات شارل السمين ، استقل بيرانجيه مركيز فريول وتطلع إلى تاج الملك ، ومثله مراكينز آخرون .

ولم إلى الجنوب طوسكانا ، وفيها استطاع المكينز ادالبير ان يؤخر خلال سنوات عديدة تتويج بيرانجيه امبراطوراً ، ولم يعترف له بأي سلطة عليه .

ولم إلى جانب هؤلاء المراكيز الذين اغتصبوا الحقوق الملكية تألفت اقطاعية كنسية قوية وخاصة في لومبارديا . واستطاع الأساقفة ، في زمن الفوضى والاضطراب ، بعد وفاة شارل السمين ، بفضل نفوذهم على الشعب وازدياده بسبب الغارات الهونغارية والحروب الأهلية ، ان ينتزعوا من المطالبين بالسلطة والمتنازعين على التاج امتيازات هامة أمنت لهم سلطة العصر الوسيط - ٣٠

زمنية واسعة على المدن التي يواجهونها روحياً . وكان الأسقف في كثير من المدن يجبي الاتاوات التي كانت في السابق تغذي الخزانة الملكية ، وبحجة الدفاع عن البلاد ضد الغزاة يبني قصراً يساعده على شو سلطته المادية . ولم يكن لملك ايطاليا الذي أصبحت سلطته اسمية في شمال شبه الجزيرة ووسطها ، مابدفعه إلى فرض نفوذه على روما والمناطق المجاورة . فنذ أن زالت الامبراطورية الكارولنجية سقطت روما في يد الارستقراطية الرومانية ، التي كبح جماحها شارلومان وخلفاؤه ، واستبدت بالأمر واخذت تلعب بالكرسي الأقدس كما تشاء .

وفي شرقي وجنوبي روما كانت دوقية سبوليت تغطي وادي التير الأوسط وجزءاً كبيراً من الآبروز ، ووجد بين امرائها من أصبح ملكاً على ايطاليا وامبراطوراً .

أما ايطاليا الجنوبية فلم تخضع للفرنجة . وكان امبراطور القسطنطينية يطالب بها ولم يتدخل عن حقوقه عليها . وكانت ، من الناحية العملية ، مقسمة بين الاغريق واللومباردين والمسلمين .

وإذا أخذنا بالنصوص الاغريقية أمكن الاعتقاد بأن النفوذ البيزنطي ظل قائماً في ايطاليا الجنوبية بعد سقوط نيابة رافينه وفتح شارلومات ، وان الامبراطور قسطنطين السابع الارجواني ربط بمتلكات امبراطورية الشرق في ايطاليا بقيادتين : قيادة صقلية وقيادة لونغوبارديا . ولكن هذا التقسيم الرسمي ، وان تركنا نفترض بأن القسطنطينية لم تتدخل عن املها في ارجاع السيطرة الاغريقية إلى حيث كانت تمارسها في كل مكان ، لا يتفق والواقع . لأن صقلية كانت محتلة من قبل المسلمين والقيادة التي ترتبط باسمها اقتصررت على كالابر وعاصمتها ريجيو . أما قيادة لونغوبارديا ، وان شملت مبدئياً ايطاليا كلها وادعت بيزنطة بسيادة حقيقية عليها ، فهي لا

تمتد في الواقع إلى ما وراء البلاد التي يمارس حاكم باري سلطته عليها أي في بوي واوترانت . وظل الحكم البيزنطي ضعيفاً ، حتى ان الادارة السيئة التي رافقته هيات الشعب المرهق بالضرائب والموظفين الذين يعيشون على حسابه ، لأن يقبل ، متى سنحت الفرصة ، السادة الجدد الذين يتقدمون لحكمه .

وبين الممتلكات البيزنطية في بوي وكالابر ودول كامبانيا الصغيرة التابعة قليلاً أو كثيراً للقسطنطينية ، توجد دوقية بينيفن وامارة سالرنو ، وهما أثر من مخلفات الحكم اللومباردي في ايطاليا . وبفضل الأمراء اللومباردين ساد النظام والسلام ، واصلح الدمار الذي سببته الغارات ، وبدأت بشائر بقضة حضارية في ايطاليا اللومباردية التي كانت أول من خرج من الفوضى التي تخبط بها شبه الجزيرة . وقد تجلت هذه النهضة ببناء الاديرة ونسخ المخطوطات وتزيينها .

أما صقلية فلم تتخلص من حكم الأغلبة ، لأن المسلمين ، وان اخرجوا من القارة ، بقوا في الجزيرة ، وكانت لهم قاعدة ممتازة لجولاتهم في البحر المتوسط الشرقي . وكان خلاص صقلية هدفاً مشتركاً اتجهت اليه جهود البابا وامبراطور القسطنطينية ، ومن ثم ايضاً امبراطور الغرب بعد رجعة الامبراطورية عام ٩٦٢ .

هذه هي حالة ايطاليا السياسية اثناء حكم هوغ آرل . لقد بلغت التجزئة فيها نسباً أوسع مما في المانيا الدوقيات ، ووجدت فيها وحدات عرقية : لومباردية ، اغريقية ، اسلامية ، ولكنها لم تبلغ قوة ظهورها في جرمانيا . واستطاع امراء هذه الوحدات ان يتحرروا من سلطة الملك بحكم الواقع ، فضلاً عن أن سلطة الملك كانت بسبب المنازعات السلافية أضعف منها في

أي مكان آخر ، ولم يكن هوغ آرل بالمليك الذي يستطيع أن يعيد إلى الملكية الجاه الذي فقدته منذ أمد طويل .

ولقد شعر هوغ آرل بضعف سلطته واراد أن يؤمن وراثة العرش لابنه لوثير ، فرأى من الخير في العام ٩٣١ ان يشركه في الحكم ، وحاول أن يثبت قواعده باسناد المناصب العليا في الدولة إلى اقربائه الاقربين وإلى امراء بورغونيين . ولكن هذه الطرق جعلته مكروهاً في أعين الايطاليين بعد أن رأوا انفسهم مبعدين عن الاسهام في خدمة بلادهم ، وهذا ما يفسر لنا كيف ان أمير الرومانيين البيريك عمل مافي وسعه ليحول دون تنويع هذا الملك الكريه امبراطوراً . كما ان الارستقراطية الايطالية فكرت بالخلص منه والسعي لدى اوتون الاول ملك جرمانيا بالتدخل ، ولكن الحالة الداخلية والخارجية لم تكن تسمح له بالابتعاد عن جرمانيا دون التعرض للاخطار . وباءت المساعي بالفشل . غير ان النعمة بدأت تتفاقم على هوغ ومات اخيراً في ١٠ نيسان ٩٤٧ وخلفه ابنه لوثير ولم يكن يتمتع بأي سلطة حقيقية وسيزول في العام ٩٥٠ عندما تنضج ايطاليا وتصبح على استعداد للتدخل الالماني واستقبال اوتون الاول مخلصاً ومحرراً . وفي الحقيقة ان ايطاليا لم تستطع التغلب على الازمة الفوضوية التي خلفتها تجزئة الامبراطورية الكارولنجية والغارات والمنافسات السلافية . ولذا فان نهوض الملكية فيها لم يتم على سائكة المانيا ، ولم يأتها السلام الا من الخارج .

الفصل الحادي والعشرون

فرنسا بين الرويرتين والكارولنجيين

من ٨٨٨ إلى ٩٨٧

حكم اود (٨٨٨ - ٨٩٨) . - لقد كان انتخاب اود ملكاً على فرانسيا الغربية ، بعد موت شارل السمين ، حلاً املاء الخطر النورماندي، كما رأينا ، ولكنه لا يقتضي سقوط السلالة الكارولنجية نهائياً. لقد وجد في فرنسا ، كما في المانيا وايطاليا ، ولاء كارولنجي عتيد وعلى استعداد للقيام متى سنحت الظروف المواتية . وإذا حصل اود على التاج فذلك لأن الممثل الوحيد للسلالة الكارولنجية ، وهو شارل ، المولود بعد وفاة ابيه لويس الأول، كان ، وعمره آنذاك ٨ سنوات ، كان هزيراً ضعيف البنية ، وليس باستطاعته أن يقوم بمهام السلطة ومسؤولياتها .

ولذا سمي الكبار اود ، لأنه برهن على زعامته العسكرية وقوة شكيمة . وكان اود يملك كونتية باريس واملاكاً هامة في منطقة اورليان ، وكان سيد نوستريا ودوق المملكة الفرنجية بفضل اللقب الذي منحه اياه شارل السمين . ولقد بدا اكفاً من غيره على رد الغزو النورماندي عن منطقة السين واللوار التي يمارس عليها سلطانه مباشرة . أما في باقي المملكة ، على العكس ، فلا يتمتع بأي سلطة فعلية . وإذا لم ينته التطور الذي ولد النظام الاقطاعي ، فمن الممكن أن

نقول إن الانتفاع ، منذ آخر القرن التاسع ، أصبح بالتدريج وراثياً ، وإن التشابه بين الوظائف والانتفاعات أصبح شيئاً واقعاً . ولقد وجد في زمن اود سلالات كونتات مستقلين يعتبرون انفسهم كونتات اكثر بكثير مما هم موظفو التاج . ولذا تراخت الروابط التي تربط مختلف اجزاء المملكة بالمليك . ومالبت هذا التطور ان ازداد في عهد الملك المنتحب . فقد كان كبار الملاكين يحسدون اود ونخص بالذكر منهم بودون الثاني كونت فلاندر ، وریشار بورغونيا ، ورامولف الثاني كونت بواتو . ولذا كان اود بحاجة إلى كثير من الفطنة والقوة في الحكم لاسيما وان سلطته ضعيفة وتهدد بالانهيار عند أول صدمة .

ويبدو ان هذا الأمير قد برر الآمال التي عقدت عليه لان حكمه بدأ بنصر عظيم . قارع النورمانديين وتغلب عليهم في مونفوكون - في الأرغون (٢٤ حزيران ٨٨٨) . وكان لهذا النصر أثر كبير . ثم عاود النورمانديون غزوم ، ولكن اود في هذه المرة فعل مافعله شارل السمين من قبل واشترى انسحابهم ، ولم يستطع في شتاء العام ٨٩١ ان يمنع عودتهم الدورية واجتياحهم البلاد الواقعة في غرب فرنسا وشمالها وشرقها . إلا ان ارنولف بظفره في لوفن (٢٥ حزيران ٩٨١) انقذ الوضع واجبر النورمانديين على مغادرة القارة ، التي لا تكفي جشعهم ، والذهاب في هذه المرة للقيام بعملياتهم في انكلترا . وهذا الاخفاق ، الذي مني به اود ، مع مرافقه من عدم تبصر احياناً وفقر عزم أحياناً أخرى ، فتح الاعين عليه ، وولد عند بعض خصومه احقاداً ، وعند الآخرين طموحاً يخشى خطره في المستقبل . وقد ظهر ذلك في الثورة التي فجرها في ٨٩٢ بودون كونت فلاندر وثورته اكيثانيا والمؤامرة التي حاكها مطران رنس فولك عندما رأى الافكار ناضجة للقيام برد

فعل كارولنجي . ففي ٢٨ كانون الثاني ٨٩٣ اصطحب معه إلى الكاتدرائية شارل الساذج وكان لاجئاً عنده ، وباركه حسب المراسم التقليدية . وهذا العمل من شارل يعني المطالبة بتاج أجداده . غير ان اود لم يكن مستعداً للامحاء أمام منافسه . وفتح احتفال ٢٨ كانون الثاني ٨٩٣ دور مزاعات سلالية كبرى بين الكارولنجيين والروبيوتيين (سلاله اود) .

كان مع شارل الساذج كبار اوسترازيا القديمة ، ومع اود أهل نوستريا .

شعر اود بالخطر يهدده ، عندما علم ، وهو في اكيثانيا في بداية شباط ٨٩٣ ، بنجر مباركة شارل . ولذا تصالح مع خصمه اديمار بواتيه وغليوم اوفيون ووعداه بالبقاء على الحياد مقابل التنازل عن امتيازات كثيرة مازالت مجهولة . وهاجم اود دوق بورغونديا واجبره على التخلي عن مناصرة الكارولنجي ، ومن بورغونيا انطلق وحاصر رنس ، واسترد مملكته في بضعة اسابيع ولكن شارل الساذج تمسك واجبر اود على الابتعاد عن المدينة المطرانية ووقع معه هدنة عيد الفصح ٨٩٤ .

وعلى اثر ذلك قام فولك بناورات دبلوماسية منذ شباط ٨٩٣ . استكتب الأمير الشاب بعد حفلة المباركة رسالة إلى البابا فورموز اعرب فيها عن اعمق احترامه واجلاله فأجابه فورموز بالثفافة كريمة . وسعى فولك للحصول على مساندة الامبراطور ، غي سبوليت ، ومنافسه ملك جرمانيا ، ارنولف ، ولكن غي كانت له هموم أخرى ، وارنولف يحذر فولك بسبب تفاوضاته مع غي . غير أن فولك لم يتأثر وكتب إلى ارنولف يعلمه بأن شارل كان شاباً عام ٨٨٨ ولم يخلف شارل السمين في فرنسا ، اما الآن فهو قادر على حكم المملكة التي نفرت من ظلم اود ، ولمح في الوقت نفسه بالتضامن الذي يوحد بين أعضاء الأسرة

الكارولنجية ، وان يمثل الفرع الفرنسي للسلافة على استعداد لقبول تفوق
ارنولف ، والعمل يوماً ما ، بالمقابل ، على مساعدة ابنه على أخذ
الارث الجرماني .

قنع ارنولف بهذه الحجة واستقبل شارل الساذج في فورمز (أيار
أو حزيران ٨٩٤) وقبل الاعتراف به مقابل وعود مازلنا لنجهل فجواها
على وجه الدقة . وعاود شارل هجومه ولكنه اخفق اخفاقاً ذريعاً أمام
انصار اود ولم تقده مساندة ملك جرمانيا في شيء .

بدل هذا الاخفاق موقف ارنولف ، ودعا المتنافسين إلى بلاطه
للوصول إلى تحكيم يعيد له جاهه بعد ان ناله ما ناله بسبب الحوادث
الأخيرة . وتخلف شارل ، ومثل اود بين يديه في فورمز في آخر أيار ٨٩٥
وحصل كما يقول المؤرخون على كل ما جاء من أجله . وابتداء من هذا
التاريخ شغلت الحملة الثانية إلى ايطاليا ارنولف (تشرين الاول ٨٩٥)
فلم يعد لهم بالمنازعات السلافية في فرنسا . ولذا كان السلاح الحكم الفصل
بين شارل واود . وعندما اوشك اود أن يتغلب على خصمه ، عاد
النورمانديون الذين ذهبوا إلى لانكترا ، وظهروا من جديد في مصب
نهر السين وصعدوا النهر ، حتى ان شارل الساذج فكر ، في فترة من
الزمن ، ان يستعين بهم لفتح مملكة آبائه .

ولكن مطران رنس اقنع شارل بالعدول عن هذا العمل غير المشرف ،
ولجأ إلى التفاوض مع اود وماوسع هذا الاخير الا ان قبل بالمفاوضة
أمام خطر النورمانديين . وتم لقاء بين المتنافسين ، قبل فيه اود أن
يتنازل لشارل « عن قسم من المملكة » ووعدته « باكثر من ذلك
ايضاً » . وهذا التعبير الغامض الذي استعمله مؤرخ سانت - واسط

آثار عند المؤرخين المحدثين جميع أنواع الفرضيات التي يستحيل الحيار بينها . غير انه من المعتقد ان اود احس بدنو أجله ، وقد مات فعلاً في السنة التالية ، فوعد شارل الساذج بأن يقترحه ليكون خلفاً له .

ثم باذر اود إلى التعاهد مع النورمانديين ، لأن وجودهم في البلاد سبب اضراراً فاحشة في منطقة السين وحول باريس ، وما وسعه إلا ان سمح لهم باجتياح نوستريا واكتانيا . ولا شك في ان هذا الاتفاق لا يشرفه ، ولكن الحرب النورماندية والحرب الاهلية أدتا إلى الاءه بشكل أصبح من المستحيل القيام بأي مجهود جديد . ولم يعش اود بعد هذه التسوية الا قليلاً ومات في أول كانون الثاني ٨٩٨ بعد أن أوصى الكبار بانتخاب شارل الساذج خلفاً له .

ولا يمكننا الا ان نعترف بصراحة اخفاق محاولة تجربة ٨٨٨ التي أحلت منتخب الارستقراطية محل السلالة التقليدية . لقد دشن اود حكمه بنصر لامع على النورمانديين في مونفوكون ، ولكنه انتهى بالعقم . فقد كان تهديد النورمانديين اكثر خطراً في ٨٩٨ منه في ٨٨٨ . ومن جهة ثانية ، لقد فتكت الحرب الاهلية بالسلطة الملكية وساعدت الكبار على ممارسة دور الحكم بين ادود وشارل الساذج ، وكسفت الملكية أمام الاقطاعية الكبرى التي أخذت تعمل وتحكم كما يحلو لها . وهكذا نرى ان التطور الذي بدأ بعد موت شارلومان أخذ يزداد ولا شيء ينهه من الوصول إلى نهايته .

شارل الساذج . - وبدأت عودة السلالة الكارولنجية امراً لامندوحة عنه في الوقت الحاضر . لقد سمى اود شارل الساذج واعترف به ملكاً دون صعوبة . وبابيه روبرت اود ، وريشار بورغويا وغيلوم اوفيرن ، وهربرت فيرماندوا ، إلا بودون أبى واستكبر وحاول أن يعكر صفو

السلام بنهب الاموال الكنسية والاستيلاء على أملاك الآخرين ، ولكن ظهور شارل أمامه في أراس كان كافياً ليعلم ولاءه . وفي الحقيقة ان الامراء الفرنسيين ما كانوا يطلبوا غير ان يتجمعوا حول الملك الكارولنجي الذي حافظ على روح التوازن فيما بينهم . وهو وان انتخب من قبلهم إلا انه كان اعز منهم نسباً وأقوى قصباً .

وفي الحقيقة كان شارل لا يخلو من مناقب : لان القوة لاتنقصه ومن الممكن ان نتساءل ما إذا كان اللقب «الساذج» ، الذي الصقه به مؤرخو آخر القرن العاشر ، كان له في الاصل هذا المعنى السيء الذي أخذه فيما بعد . ولا نجد لسوء الحظ شاهداً معاصراً يسمح برسم شخصه بدقة . غير أنه من الممكن ان نحكم على هذا الامير من عمله ، فهو على ما يبدو ، كريم وصالح .

تأسيس دوقية نورمانديا . - لقد كان الحادث العظيم في حكم شارل الساذج معاهدة سان - كلير - على الابت وهي محاولة تصفية للقضية النورماندية .

عندما خلف شارل الثالث (الساذج) اود على العرش كانت القضية النورماندية على حداثها المعهودة ، لان المعاهدة التي ابرمها الملك الراحل لم تكن الا هدنة مؤقتة ، فضلاً عن ان السنة ٨٩٨ كانت سنة غزو نورماندي هائل . وقد تصدى للقائهم كبار الاقطاعيين واضطر أخيراً زعيم النورمانديين رولون ، بعد معركة دامية قتل فيها سبعة آلاف رجل (٢٠ تموز ٩١١) ، إلى القتال متراجعاً ، وتوقيع معاهدة سان - كلير - على - الابت مع شارل الساذج التي يمكن أن يكون تاريخها في تشرين الاول ٩١١ .

ومن الممكن معرفة الاسباب التي دعت شارل الساذج ورولون إلى ابرام هذا الصلح المتبادل . فقد كان كل من الجانبين يرنو إلى الراحة ، لأن الغارات النورماندية الاخيرة لم تأت بنفس الفوائد السابقة بل وادت أحياناً إلى الاخفاق وقتل المغيرين وذهاب المغنم ، عدا عن أن بعض الزعماء ممن عرفوا بالروح العملية ، أخذوا يتساءلون في السنوات الاولى من القرن العاشر ما إذا كان من المفيد التخلي عن أعمال الغزو غير المثمرة في الغالب واستغلال منطقة غنية وخصبة يمكن الحصول منها على موارد اكيدة . وتعزى هذه الحطة ولاشك إلى رولون الذي الزم بحاربه بحياة الاستقرار وثبتهم حول وادي السين الادنى .

وأخذ شارل الساذج بهذا الرأي ، لان الانتصارات التي حققها منذ توليه العرش تركت الحالة غير مستقرة ، والتنظيم العسكري للمملكة غير كاف لوضع سد لا يتزعزع أمام سيل الغزاة . وكما لوحظ بحق كان الجيش في عهد شارل الساذج مطبوعاً بطابع الاقطاعية ولذا فقد كل تلاحم . وكان « الموالون » ، ادواق ، كونتات ، اساقفة ، الذين يؤلفون هذا الجيش ، لا يعرفون من زعماء آخرين لهم الا الزعماء الذين يخدمون تحت أوامرهم المباشرة . وكان هؤلاء الزعماء يهتمون بالدفاع عن أملاكهم الخاصة ويتقبلون بصعوبة التجمع تحت قيادة وحيدة للمبادرة إلى مشاريع ذات نفع عام . وكانوا ، حسب القوى التي يتصرفون بها ، يردون الغزاة او يتفاهمون معهم ، ولكنهم كانوا يعملون بنظام مشتت فضلاً عن انهم يقومون بتأليف تآلبات موقفة كما في ٩١١ . والقاعدة العامة هي أنهم غير قادرين على الارتفاع فوق الافق المحدود لاراضيهم ، حتى ان فكرة الاسهام في عمل السلام ، في نطاق المملكة ، كان غريباً عنهم تماماً .

وقد ظهر فضل شارل الساذج في استغلال هذه الصفات التي تسيطر على حالة مملكته حوالي العام ٩١١ . ومن هنا أتت فكرة انهاء الغارات النورماندية بتحويل امتيازات أرضية .

لم يصلنا نص معاهدة سان - كلير - على الابد ، ولكن إذا سلمنا بالفائدة القليلة التي يجيزنا بها المؤرخ دودون سان كنتان وجدنا شيئاً من الحرج في إعادة بنائه . وفي رأي هذا المؤرخ يمكن رد الصلح الذي أبرم بين رولون وشارل الساذج إلى أربعة بنود أساسية .

- ١ - التنازل عن أرض ليملكها الزعيم النورماندي بنفسه .
- ٢ - التخلي عن بروتانيا لمحاربه ليعيشوا فيها كما يشاؤون .
- ٣ - زواج رولون بجيزيل ابنة شارل الساذج .
- ٤ - تعميم رولون .

ان البلاد التي تنازل عنها شارل الساذج إلى رولون عام ٩١١ هي ماتسمى الآن نورماندي العليا .

اما ما يتعلق ببروتانيا فان دودون يضيف بان رولون وجد أن منطقة السين المنخفضة مدمرة فطلب إلى شارل أن يدلّه على بلد ينهبه ، فقدم اليه شارل الفلاندر ، ولكن الزعيم النورماندي اعترض بأن هذه المنطقة مرزغبة لتكون غنيمة كافية ، وبين أنه يفضل عليها بروتانيا فحصل أخيراً عليها . وهنا يوجد ، كما لوحظ ، اسطورة لتبرير المزاعم التي رفعها الادواق النورمانديون المعاصرون لدودون . فكيف يستطيع رولون وهو المغلوب عام ٩١١ تحت أسوار شارتر أن يشير إلى مثل هذا المطالب التي من شأنها أن تقطع المفاوضات الجارية بناء على طلبه ؟

واما الزواج بين رولون وجيزيل فهو من قبيل الاسطورة ايضاً . لأن

جيزيل ، بنت شارل الساذج وفريرونه ، لم تولد في العام ٩١١ على وجه التأكيد ، والملك نفسه تزوج عام ٩٠٧ . اذن من المحتمل أن يكون دودون نقل مقطوعاً للمؤرخ ريجينون ذكر فيه ان الزعيم النورماندي غودفريد ، عندما أخذ الفريز ، تزوج ، في الوقت نفسه ، جيزيل بنت لوثير الثاني ، وانه علق على ذلك بعض تفصيلات جميلة تخيلها بنفسه ، مثل مشاورة الزعماء النورمانديين الذين الزموا رولون بالزواج من فتاة شرعية فارعة ، عذراء بلادنس ، راجحة العقل ، عذبة الحديث .

أما فيما يتعلق بتعميد رولون فمن الممكن قبوله ، لأننا إذا أخذنا بما يقول فلودوار رأينا ان النورمانديين بعد الهزيمة ، هزيمة شارتر « بدأوا يدخلون في دين المسيح مقابل التخلي عن بعض الكونتيات البحرية ومدينة روان » ، إلا ان دودون زين الاحتفال بتفاصيل فريدة . ولكن التعميد يبقى ويتم سياء المعاهدة : لأن نورماندي رولون ، الذين ظلوا حتى هذا التاريخ وثنيين ، دخلوا في ٩١١ في زمرة مسيحيي البلاد الغربية .

وقد أثار هذا الاتفاق بين شارل الساذج ورولون تفسيرات مختلفة ، وظل المؤرخون زمناً طويلاً مجمعين على استهجان سياسة شارل الساذج واتهامه بالجن واستسلامه للنورمانديين واقتطاعه اقليماً غنياً واعطائه إلى القرصان .

إلا أن هذا الرأي تغير واعتبرت معاهدة سان-كلير - على - الابت اليوم عملاً املاه العقل وسداد الرأي ، لأنه أنهى الغارات النورماندية وأعاد السلام إلى بلاد السين وادخل عناصر حياة جديدة في المسيحية الغربية . وربما يكون هذا التفاؤل ، بعد التشاؤم المفرط ، مبالغاً فيه ايضاً . ولاشك في ان عصر الغارات النورماندية الكبرى قد ولى وانتهى ، ولكن المعجبين المتحمسين لمعاهدة سان - كلير - على - الابت ، بالرغم من كل

شيء ، يوافقون على أن الغارات لم تنته تماماً ويضيفون بأن الغارات لم تعد تظهر مع ذلك إلا بشكل « مشاريع خاصة وخارجة عن عمل الدوق ان لم تكن مخالفة لارادته » .

ولكن كيف لهؤلاء النورمانديين ، وهم الذين عاشوا على النهب والشقاوة والقرصنة ، أن يصبحوا بين عشية وضحاها فلاحين وديعين ، وما كادوا يدخلون في المسيحية الا وتحلوا دفعة واحدة عن عاداتهم الوثنية ؟ ان تحويلاً كهذا مناجتاً لا سابق له ، ومن الممكن أن يؤكد بأنه لم يحدث . وفي الحقيقة ، كان صعب رولون يتكاثرون كل يوم بنجيدات جديدة من المهاجرين . ولذا وجدوا أنفسهم في ضيق في دولتهم ، وكلما سئمت لهم الفرصة ، كانوا يجددون هجومهم ، رغم اتفاقهم مع شارل ، على البلاد الواقعة في الشمال والشرق . ولقد رأى أواخر الكارولنجيين وأوائل الكابسين ، أكثر من مرة ، بقطة غرايتم في النزاع والقتال وحبهم المفرط للكسب والنهب . حقاً لقد تغير طابع الحرب ، ولكنها . استحكمت حتى اليوم الذي ضمت فيه نورمانديا إلى الدومين الملكي .

وإذا لم تزل الاخلاق والعادات الاسكانديناوية تماماً فان الدولة النورماندية على الأقل ، التي أصبحت تعرف في القرن الحادي عشر تحت اسم دوقية نورمانديا ، أخذت سياء شبيهة بسياء الاقطاعات الكبرى الأخرى ، واعترفت بادىء بدء بسيادة ملك فرنسا . ولا مربة في أن دودون يصف الارض المحولة إلى رولون بأنها ملكية وراثية معفاة من الاتاوات ، ولكنه يذكر بأن رولون دعي لمبايعة شارل الساذج وتقديم يمين الولاء له ، وهذا يعني بأنه استلم نورمانديا من الملك ، وسيحلف ، في الآجل ، غليوم ذي السيف الطويل ، خلف رولون ، يمين الولاء إلى رؤول (٩٢٧) ،

وسيجدد كبار نورمانديا ، باسم وشار الأول ، وهو في سن صغيرة ، هذا العمل لدى لويس الرابع .

ان النتيجة الواضحة لمعاهدة- سان - كلير- على الابلت هي دخول النورماندين في المملكة . ومن البديهي أن يتغلغل العنصر الفرنسي في هؤلاء الشماليين ، وهذا يرجع ولا شك إلى أن رفاق رولون لم يأتوا بنسائهم معهم ، وانهم تزوجوا من بنات منطقة السين . ولا شك في ان بعض اسماء الامكنة وبعض تعابير الحياة البحرية تذكر باصل النورماندين الاسكندينافي ، ولكن حضارة الدولة التي أسسوها ، في مجموعها ، كانت حضارة فرنجية ، فلا الحقوق ، ولا الادب ، ولا الفن ، باستثناء بعض الخصائص النحتية ، تحمل ما يشير إلى طابع البلاد الشمالية .

ومن الصعب أن نعرف كيف جرى هذا التمثل . ان المصدر الوحيد المحفوظ عن تاريخ نورمانديا في القرن العاشر هو تاريخ دودون سان - كنتان ، وقد عرفناكم هو موضع حذر وشك . ولذا يجب ان نعتبر في حكم الاسطورة قانون رولون الشهير الذي أسبغ عليه مترجم حياته سياء شعرية . ان خلف رولون وهو غليوم ذي السيف الطويل (٩٣٧ - ٩٤٢) يتصف بأنه امير فرنجي وامير مسيحي. غير أن التطور الذي تم في عهده قد انقطع فجأة بمقتله في ١٧ كانون الأول ٩٤٢. ثم حدثت بعد ذلك رجعة شديدة اسكاندينافية وثنية، اثرجي. مهاجرين جدد، ولكن هذه الرجعة كانت عابرة ، لأن ملامح الدولة النورماندية في العصر الوسيط قد ثبتت في النصف الثاني من القرن العاشر في عهد الدوق ريشار الأول (٩٤٣ - ٩٩٦) وفي عهد ريشار الثاني (٩٩٦ - ١٠٢٧) .

المنازعات السلالية (من ٨٩٨ الى ٩٣٦) . - يتصف حكم شارل
الساذج بصفتين أساسيتين :

- ١ - محاولة تصفية الغارات النورماندية بإنشاء دوقية نورمانديا .
- ٢ - ضم اللورين التي أعطيت لآخر من بقي من الكارولنجيين عند وفاة لويس الطفل (٩١١) .

وهذا الكسب ، الذي وسع المملكة الفرنجية من الغرب حتى بحر الشمال إلى الراين والفوج ، يمكن أن يثبت السلطة الملكية، ولكنه ، في الواقع ، ساعد لحد عظيم على إثارة الحرب الأهلية التي اجتاحت فرنسا ابتداءً من ٩٢٠ .

لقد جذبت دوقية اللورين شارل الساذج باعتبارها مهد عائلته وأعجبتة الإقامة بها . وهذا ما أثار عليه استياء الامراء النوستريين ، فقد أخذوا عليه استغناءه عن نصائحهم واتباعه إجماعات هاغون وهو لوريني من أصل منحط .

وزعزعت هذه السياسة وضع شارل الساذج في اللورين نفسها ، عندما قامت عليه ثورة دبرها جيلبيوت بن رونييه ذي العنق الطويل . فقد ذهب هذا الى المانيا وتظلم إلى الملك هنري الأول الذي خلف كونراد الأول عام ٩١٩ ، وكان يحلم بأخذ اللورين من فرنسا . وساء شارل الساذج مارآه من دعم هنري لجيلبيوت وفكر باجتياح المنطقة الرينانية ولكنه قهر في فورمز ٩٢٠ ورأى من صالحة أن يبرم مع ملك جرمانيا اتفاقية على مبدأ الحفاظ على الوضع الراهن . وانقذت اللورين في هذه المرة ، ولكن كل شيء يجعلنا نفكر انها ستضيع من يد شارل الساذج عند أول فرصة . ولم يكن من هذه الأعمال جميعاً الا ان قوت معارضة نوستريا المعادية

لمحاولات شارل الساذج في نقل مركز ثقل السلطة نحو الشرق ، وعوضاً عن ان يهديء الملك الحالة زاد في اشغالها بتحديات مغيظة .

وقد وقع في هذه الآونة ان توفي في (آب ٩٢١) دوق بورغونيا ريشار العادل وكان موالياً للكارولنجيين . وخلفه ابنه رول صهر روبير أخو الملك اود السابق وكان قد رضي عن المعارضة النوسترية .

انتخاب روبير وتتويجه (٢٨ - ٣٠ حزيران ٩٢٢) . - ونشبت الثورة في نيسان ٩٢٢ ، وانضمت فيها قوى روبير ورؤول . وانفض الناس من حول شارل الساذج ، ولم يعد في أمان حتى في دوله الشرقية . وفي ٢٩ حزيران ٩٢٢ انتخب المتآمرون روبير أخا اود ملكاً وتوج في اليوم التالي في كنيسة القديس - ريمي في رنس على يد غوتيه مطران سانس الذي سبق ان توج رأس اود بتاج الملك عام ٨٩٨ .

لم يفكر شارل الساذج بالانحناء أمام هذا الخصم الجديد وقرر أن ينازعه التاج بشدة . وفجأة جهز جيشاً في اللورين وزحف على سواسون ، مقر روبير ، ومهاجم منافسه في ١٥ حزيران ٩٢٣ ودب الذعر في جنوده . وقتل روبير في المعركة ، وبدأت الهزيمة لولا أن هوج ، بن روبير رد الخطر . وأخيراً تراجع الجيش اللوريني وهو في حالة فوضى تامة . وأوجدت معركة سواسون حالة مختلطة : فقد انتصر فيها الثوار ولكن ملكهم قتل ، ومن الصعب وجود شخص يحل محله . وتقدم هوج ، بين روبير وإيخلف اباد ، ولكنه لم يعط بعد الدليل على انه أهل لذلك . ومن جهة أخرى الا يكون معنى انتخابه بعد حكم اود وروبير ارجاءً ضمنيّاً للمبدأ الوراقي لصالح سلالة جديدة يمكن ان يمل منها في يوم من الأيام ؟

العصر الوسيط (٣١)

انتخاب رؤول دوق بورغونيا (١٣ تموز ٩٢٣) . - وبعد لأي قر الرأي أخيراً على انتخاب رؤول صهر روبير لقيمته الشخصية وقوته . ولكن شارل الساذج لم يقطع أمه وحاول أن يصلح بالدبلوماسية ما افسده السلاح ، ولكن محاولاته باءت بالاخفاق . وفي ١٣ تموز ٩٢٣ انتخب الكبار رؤول في مجلس عقد في سواسون وتوج ملكاً بيد مطران سانس ، غوتيه .

ومع هذا فلا يمكن القول بأن المملكة كلها قد قبلت به ملكاً . لأن الناخبين كانوا من امراء الشمال وبورغونيا فقط . أما نورمانديا وبروتانيا وجنوب فرنسا واللورين فما زالت على العموم متمسكة بالملك الكارولنجي .

ولم يكن لدى شارل متسع من الوقت للبحث عن أحلاف . فقد وقع في كمين نصبه له هربرت فرماندوا في آخر ٩٢٣ وحرمه من حريته . حتى ان الملك رؤول ، على ما عرف عليه من طباع كريمة ، استنكر هذا العمل ولكنه لم يعمل شيئاً لتخليص منافسه . وفي الحقيقة كانت الضربة موجبة في آن واحد له وللضحية ، فقد أصبح بيد هربرت رهينة ثمينة ولن يأل جهداً في استعائها ضد مليكه إذا ما ناوأ اطاعه ولم يرض جميع متطلباته . وبماكانه ايضاً ، اذا أراد ، أن يقوم بحركة لصالح الأمير الأسير . وكان هذا الحساب صحيحاً : ففي ٩٢٤ لاقى رؤول معارضة شلت نشاطه خلال خمس سنوات ومنعته من الحكم .

بدأت الاضطرابات في نورمانديا بعد خمسة عشر عاماً على معاهدة سان - كلير - على - الإبت ، وبالرغم من جميع التعهدات المعقودة ، وتركت نتائج وخيمة على فرنسا .

وفي العام ٩٢٥ ، وبينما رؤول منهمك في النزاع ضد النورماندين

عبر هنري الأول ملك جرمانيا نهر الراين واحتل اللورين التي اعترفت في
في البدء برؤول دون صعوبة . وفي ٩٢٦ ولتفس الأسباب لم يستطع
هذا الأمير أن يعمل شيئاً ضد الهونغارين الذين اجتاحتوا الشامبانيا ونهبوا
عديداً من الأديرة . وفي السنة نفسها ثارت اكيثانيا ضد رؤول بعد أن
عرفت أنه منهمك بالنورماندين ولا يستطيع أن يقوم بأي تدبير
زجري ضدهم . ، كما ثار أيضاً هربوت فرماندوا حياً في الحصول على
كويتية لان لتكون لابنه اود ، فضلاً عن ان له مطامع كبرى في
التاج الملكي . وعندما رأى أن رؤول لم يستجب لطلبه اثار الحرب
الأهلية في شمال فرنسا واعترف من جديد بشارل الساذج ملكاً ونقله
في ٩٢٧ من بيرون إلى سان ككتان .

ثم بحث عن حليف له وجر معه النورماندين الذين يخشون رؤول . وظلت
اكيثانيا جامدة رغم ولائها الكارولنجي . وتوسل إلى البابا ليون السادس
أن يمنح دعمه المعنوي ، فلزم البابا الصمت ولم يجز جواباً . وكذلك ملك
جرمانيا ، هنري ، لم ير ضرورة للانخراط في مغامرة لا تفيده في شيء .
ولذا اخفقت مناورة هربوت على طول الخط ورأى من الخير تأجيل تنفيذ
مشاريعه الكبرى . وفي ٩٢٨ أعاد شارل الساذج الى السجن ، وبادر
إلى مصالحة رؤول مقابل الحصول على لان التي اجلت عنها الجنود البورغونية

ومات شارل الساذج في ٧ تشرين الأول ٩٢٩ . أما ابنه لويس
فقد التجأ ، بعد خيانة هربوت فرماندوا ، إلى انكلترا ، مع أمه
اوجيف بنت الملك ادوارد الأول الشيخ ، ولم يفكر بالمطالبة بالعرش .
أما رؤول فلم يبق له منافس ، ولكنه يحتاج إلى بضع سنوات لتوكيد
سلطته قبل أن يقوم باصلاح ما افسدته الحرب الأهلية بعد الغارات الكبرى .

واستطاع رؤول أن يقضي على مقاومة النورماندين ومقاومة اكيثانيا ، ويتصالح مع هريوت فرماندوا ، ويفرض سلطته في كل مكان في الجنوب والشمال . وحوالي العام ٩٣٥ عادت وحدة المملكة . وبالأجمال ، ان هذا الأمير الذي انتخبه الكبار آملين أن يكون حسب هوام ، زاد في السلطة الملكية ، واكسبها شعبية بصفاته الشخصية . وما من شك في أنه يفوق أسلافه ، لأنه لم يكن زعيماً ذا قيمة وأهلاً للقتال فحسب ، بل أيضاً لأنه في بعض الظروف وضع خطأً ستراتيجياً لا تخلو من مهارة ومكنته من أن يظهر على خصومه . لقد كان رجل حكم : وعلى عكس اود ، الذي ترك الظروف تسيطر عليه ، كانت لرؤول سياسة وتابعها رغم الصعوبات العديدة التي اعترضت تحقيقها . هذا فضلاً عن ان المؤرخين مدحوا ثقافته وتقواه وكرمه وحبه للعدل والنظام وغيرها من هذه الصفات التي قوت نفوذه ورفعت جاهه .

ومات رؤول قبل أن يعطي كل امكانياته . وفي الوقت الذي ظهر فيه على مختلف المقاومات التي شغلته خلال عشرة سنوات أصيب باعزائه : فقد في آخر ٩٣٤ زوجته ايما التي ساندته بكل ما تستطيع من قوة وعزم ، وفي ٩٣٥ أخاه بوزون . وأخيراً سقط مريضاً ولفظ انفاسه في ١٤ أو ١٥ كانون الثاني ٩٣٦ .

لم يترك رؤول وارثاً مباشراً ، وخلفه اخوه هورغ الأسود دوقاً على بورغونيا . بيد أنه كان ممحياً ولا قدرة له على المطالبة بالتاج . وكانت الشخصية المرموقة في المملكة ابن حمي رؤول ، هورغ ، الملقب بالأكبر ، بن روبرت سيد نوستريا القديمة ، كونت باريس ، وكان يملك كثيراً من الأراضي بل كان اغنى ملاك في المملكة . وكانت زوجته اثيلد أخت ملك الانغلو - ساكسون اثلستان . ويضم إلى هذه القوة المادية ذكاء

من النوع الأول . ولا مرة في أنه لم تكن له تلك القيمة العسكرية التي كانت لأسلافه ، ولذا كان ميل إلى الدبلوماسية أكثر من السلاح . كان سياسياً نيراً ماهراً ، لا يعرف إلى وسوسة الضمير سبيلاً ، ولكنه يعرف كيف يعقد المكائد وكيف يحاها . وكان لديه من المؤهلات ما يجعله يقوم بالعمل الملكي ويتم العمل الذي رسمه رؤول .

ولم يشأ هونغ الأكبر على ما هو عليه من طموح ان يجرب حظه في الانتخاب . ورأى بثاقب نظره أن الظروف غير مواتية له تماماً . فقد لاحظ حذر الارستقراطية وحسدها له وخوفها منه بسبب حزمه ومرونة طبعه . ولذا فضل ان يتخلى عن اللقب الملكي وحاول ان يمارس السلطة فعلاً ان لم تكن حقاً ، وأعلن بعد وفاة رؤول ولاءه الكارولنجي ، ولم يخل هذا الولاء من منفعة ، وأقنع الكبار بدعوة لويس ، بن شارل الساذج الذي سبق والتجأ في انكلترا .

لويس الرابع ما وراء البحر (١٩ حزيران ٩٣٦) . - نال اقتراح هونغ الأكبر القبول وارسل وفد إلى لويس فجاء هذا وذهب إلى لان وباركه مطران رنس ارتود في يوم الأحد في ١٩ حزيران ٩٣٦ . وهكذا آل الامر ، بطريق الانتخاب ، إلى رجعة كارولنجية جعلتها انقسامات الأمراء حتمية . وعلى نقيض رجعة ٨٩٨ ستدوم هذه الرجعة نصف قرن وربما امتدت أكثر من ذلك لو لم تقطعها حوادث غير متوقعة عام ٩٨٧ .

الرجعة الكارولنجية (٩٣٦ - ٩٨٧) . - لم يكن لويس الرابع الملقب بلويس ما وراء البحر ليثبه اباه شارل الساذج في شيء . كان قوياً شديداً فارساً ممتازاً ، مرناً ، واهلاً لتجشم اقصى المتاعب . كان قليل الثقافة ، ولكن كان عنده من قوة الذكاء ، والمتانة ونشاط المزاج

ما يساعده على قهر الصعوبات . كان يريد أن يحكم ويتم عمل الرجعة الذي بدأ به رؤول ومهد الأرض أمامه .

بيد أن هذا البرنامج جعله في نزاع مع هوغ الأكبر . فقد كان هذا ثاني شخصية بعد الملك في الدولة ، ومن ثم « دوق الفرنجة بفضل الله » . ولذا كان الملك مضطراً ، في سبيل سلطته الخاصة ، أن يقبل حمايته الثقيلة ، لأن النفوذ العظيم الذي تتمتع بها هذه الشخصية القوية يمكن أن تكون له عوناً حقيقياً . ولذا انقاد إلى بورغونيا مع هوغ فاستخدمه لاشباع احقاده الشخصية ضد هوغ الأسود وارث رؤول . وأجبر هذا الأخير أن يسلم دوق الفرنجة قسماً من أرت أخيه ، وعوضاً عن أن يذهب إلى لان العاصمة الكارولنجية الحقيقية رافق هوغ الأكبر إلى باريس وخيل لهذا أن حله تحقق ، وأنه الوصي على الأمير ، وسيحكم باسمه .

وسرعان ما أحبط هذا الحساب كله لأن لويس الرابع شب عن الطوق وعطل مشاريع هوغ الأكبر واراد استرجاع استقلاله . رجع إلى لان واتخذ مطران رنس ، آرتود، مشاوراً له . وهذا العمل وحده كاف للكشف بوضوح عن نواياه .

لقد تجنب لويس اعطاء مسلك عدائي لانطلاقه . ولكن دوق الفرنجة خاب ظنه وأصيب في كبريائه . وكان النزاع لا بد واقعاً . وقد فرضت هذه الفكرة على الطرفين وشغلتهما فلم يفكرا بدفع الهونغاريين عندما هاجموا في العام ٩٣٧ الشامانيا وبورغونيا . وبينما كان هؤلاء الغزاة ينهبون الاديرة كان لويس الرابع وهوغ الأكبر منهمكين في البحث عن سند لنزاعها المقبل . حاول هوغ الحصول على حلف الماني بزواجه من آفوا ، أخت ملك جرمانيا اوتون الأول (٩٣٧) ، وتصالع مع منافسه القديم هريوت فرماندوا وغيره من الكبار . وتقرب لويس من دوق بورغونيا هنري الاسود

وتقابل معه عام ٩٣٨ وجرى بينها تفاهم ضد العدو المشترك . وهكذا نرى أن وحدة المملكة التي تحققت بصعوبة على يد رؤول قد انكسرت عام ٩٣٨ وفسد عمل الملك البورغوني .

وبينا كانت تجري هذه المفاوضات قامت الحرب بين الطرفين : حاول لويس الرابع ، قبل كل شيء ، أن يعيد بناء الدومين الملكي الكارولنجي القديم ، واستطاع أن يثبت وضعه حتى أصبح في حالة تمكنه من مقارعة تابعيه الكبار .

ثم قدم عليه أمراء اللورين وابدوا تعلقهم بالسلالة الكارولنجية فقبل بسيادته عليهم . وهذا القبول الف بين قلوب هونغ الأكبر والمعارضين الفرنسيين الآخرين وملك جرمانيا . ففي ٩٣٩ أبرم اوتون الأول اتفاقاً مع هونغ الأكبر وهربرت فرماندوا وارنول فلاندر وغيلوم ذي السيف الطويل وانحازو اليه ضد مليكهم . وبقي هونغ الأسود وحده مخلصاً للملك الذي اضطر أن يجابه في آن واحد الحرب الأهلية والحرب الخارجية .

اجتاح اوتون الأول ملك جرمانيا اللورين عام ٩٣٩ ثم انسحب اثر معارضة قامت على الراين وكادت تطيح به ، ولكنه تغلب على هذه الأزمة الداخلية واسترد اللورين وسلمها إلى الكونت اوتون بعد أن تصالح معه . وفي العام التالي ٩٤٠ عاد إلى اللورين ونفذ إلى الشامبانيا وتقبل في آتينيبي البيعة من الأمراء ، ثم لاحق لويس الرابع بعد أن فر بسرعة إلى بورغونيا ، وبلغ هونغ الأسود على ضفاف السين واجبره على الخضوع ، واعتبر نفسه أنه روى غليله وعاد إلى المانيا .

وبينا كان لويس الرابع يناضل اوتون الكبير ، كان يقاتل اتباعه الخاصين . واستمر في الدفاع . وفي العام ٩٤٢ تطور الوضع لصالحه .

فقد ارسل البابا ايتين الثامن إلى فرنسا المفوض داماس ليعرض
وساطته الحبرية وهدد باللعنة كل من يلاحق الملك بيد مسلحة ، وفي
الوقت نفسه ابدى اوتون جرمانيا استعدادا للتفاوض بعد أن تزوج
لويس الرابع اخته جريج ارملة جيلبرت اللورين . وتم التفاهم بين
المليكين في فيزيه في آخر تشرين الأول او في بداية تشرين الثاني ٩٤٢ ،
وابرم الصلح على قواعد مازلنا نجعلها لسوء الحظ .

وكان لهذه الحوادث صداها المباشر . فقد توطد السلام في
الداخل والخارج ، وحى البابا لويس الرابع ، واعترف بسلطته ملك جرمانيا
وتسامح بها الكبار التابعون . وبدا ان لويس الرابع ، وقد اعترف به
في كل مكان ، يستطيع الآن أن يحكم مملكته بسلام ، وان ولادة
ابنه لوثير ٩٤١ قد أمنت بقاء السلالة .

غير ان طموح هوغ الأكبر منع لويس الرابع أن يظهر كفاءته .
لقد كان يبدي احترامه للملكه . ولكنه كان يجتر الانتقام ، ويبحث
عن كل المناسبات التي تضعف منافسه وتقوي قضيته لاستئناف النضال
في فرماندوا و نورمانديا و بروتانيا .

واضطرب اوتون الاول ، ملك جرمانيا ، باعتباره ابن حمي لويس الرابع
وهوغ الأكبر ، لأن يلعب دور الحكم في فرنسا . وكانت كل من
الطرفين يخطب وده ، وكل شيء يدعوه لأن ينحاز إلى الملك الكارولنجي .
ولكن ما هي الفائدة التي يجنيها من زيادة قوة دوق الفرنجة
بعد أن أخذت اطمائه تقلقه ، ومن تشجيع ثورة في مملكة مجاورة
مباشرة يمكن أن تكون مثلاً سيئاً لتابعيه الخاصين ، فضلاً عن أن
الطرق التي يتبعها هوغ الأكبر تستحق اللوم ، وان انضمامه إلى تابع

فاسد ، لاجهاد ملك أسير خانة تابعه ، يمكن أن يعتبر حركة غير شريفة وليس فيها فروسية . لذا استجاب لرجاء اخته جريج ورفض مقابلة هوغ ، ولكن تدخله لن يغير الحالة مباشرة .

لاشك أن نتيجة هذا التدخل خلاص الملك لويس الرابع ، ولكن هذا الخلاص بيع غالباً ، لأن جريج سلمت لأن الى هوغ الاكبر وكان يطمع بهذا الموقع منذ زمن بعيد ، لانه يعتبر بحق مفتاحاً للدومين الكارولنجي ، ولان وجوده بيده يجعل نجدة ملك جرمانيا إلى لويس الرابع غير مجدية .

وتوترت الحالة بين لويس الرابع وهوغ الاكبر عندما اعتدى هذا الأخير على كنيسة رنس وازاح المطران الشرعي ونصب شخصاً يدعى هوغ بن هريوت كونت فرماندوا . وقد عقد لذلك مجمع انغلهام ، حضره اثنان وثلاثون اسقفاً ، وحكم بخلع هوغ وحرمانه . ثم صوت المجمع على قرار صرح فيه بأنه لا يمكن لاحد ان ينال من السلطة الملكية أو يخونها ، وبأن اللعنة ستحل بهوغ الاكبر إذا لم يبرر عمله أمام مجمع .

وصوتت الكنيسة علناً لصالح الملكة الكارولنجية ، ولكن هوغ لم يكتفِ للقرارات المتخذة وتهديدات مجمع انغلهام ، وأخذ يرتكب أعمال الفظائع في ابرشية رنس . ثم دعي إلى مجمع يعقد في تريف (ايلول ٩٤٨) لاعلان خضوعه . فلم يبال بشيء . غير ان الوضع انقلب عليه لصالح الملك لويس الرابع عندما دخل لأن بجيلة وطلب منه هوغ هدنة فقبل . وكان هذا العمل منه بداية لخضوع تام لاسيما وان المجمع الروماني ايد الحرمان الذي اتخذ في انغلهام وتريف . وفي بداية ٩٥٠ ابرم الصلح بين لويس الرابع وهوغ . ورغم أن العداء لم ينته تماماً إلا ان الملكة تمتعت بهدوء لم تعرفه منذ زمن طويل .

وانقطعت فترة الاستقرار هذه بموت لويس الرابع ما وراء البحر في (١٠ ايلول ٩٥٤) .

ومن الصعب الحكم على هذا الامير الذي لم تسعفه الحوادث على اظهار قدرته : فمن بعض الوجوه يمكن أن يعتبر حكمه تراجعاً بالنسبة للسابق ، لان نورمانديا كانت تحت سلطة سيادة دوق الفرنجة ، وفي ذلك خطر بانقطاع التوازن . ومن جهة أخرى ، لقد تغلب لويس الرابع على هوغ ، ولم يعد هذا الأخير يفكر بالمطالبة بالتاج .

انتخاب لوثير (١٢ تشرين الثاني ٩٥٤) . - وخلف لويس ابنه لوثير دون صعوبة ، رغم أنه لم يكن له من العمر سوى ثلاث عشرة سنة . وهذا الحادث الوحيد يكفي للبرهنة على الطابع الدائم للرجعة السكارولنجية في عام ٩٣٦ .

في ١٢ تشرين الثاني ٩٥٤ انعقد مجلس الكبار والاساقفة في رنس وانتخب لوثير بن لويس الرابع ثم كلفه اسقف رنس ، آرتود . ولم يبد هوغ الاكبر أي اعتراض ، ومات في ١٦ أو ١٧ حزيران ٩٥٦ . وذهب هذا الرجل غير مأسوف عليه ، الا ان موته افاد قضية السلام في البلاد . وترك ثلاثة اولاد : هوغ وقد عرف باسم هوغ كابيت ، اوتون ، أود - هنري . وكان الثلاثة قاصرين وغير قادرين على وراثة قوة أبيهم .

وكان لمطران كولونيا ، برونون ، تأثير على اخته جربرج ، وهذا ما جعله يتدخل في حكم فرنسا . وكان برونون في الوقت نفسه اخ هاثويد ارملة هوغ الاكبر ، ومن جهة أخرى كان دوق اللورين ، ويرى من صالحه الا تكون الملكية الفرنسية قوية . ولاجتنب كل خطر من هذه الجهة ، وجد ان احسن وسيلة هي القبض على ميزان المساواة بين السكارولنجيين والروبيرتين .

ومات برونون في ١٠ أو ١١ تشرين الاول ٩٦٥ واستطاع قبل وفاته بقليل ان يذهب بلوثير إلى المجلس الكبير المتعقد في كولونيانتحت رئاسة اوتون الاول (٢ حزيران ٩٦٥). وهذا يعني تأكيد السيطرة الجرمانية على الملكية الفرنسية . وتحمل لوثير ذلك بعض الوقت . وفي آخر ٩٦٥ وبداية ٩٦٦ تزوج ايمما بنت الامبراطورة آديلايد من زوجها الاول لوثير ملك ايطاليا . وعندما مات مطران رنس اودوي (٦ تشرين الثاني ٩٦٩) سمي ادالبيرون خلفاً له وكان شخصية ذكية طموحة متحمساً لاصلاح الاكليروس ، مصمماً على انتزاع كنيسته من ضغط العصر . ولكنه كان مقتنعاً أيضاً بأن النظام لا يمكن ان يسود العالم الغربي الا بنفوذ الامبراطور الالماني . ولا شك في أن وجود حبر غير بعيد عن الحدود الشرقية للمملكة السكارولنجية ، وعنده من الاستعداد والعزم ما يجعله ينفذ افكاره ، يؤانف خطراً ، ومالبت لوثير أن أدرك مدى هذا الخطر .

ولم يستطع الملك الشاب أن يقوم برد فعل بالسرعة التي ترجى ضد سياسة خاله برونون كولونيا . ولكنه رغب بأن يعيد إلى سلالة جاهها القديم . وإذا أخذنا بما قال به المؤرخون وجدنا انه لا يخلو من قيمة شخصية : فقد كان شجاعاً كاليه ، ويمتاز خاصة بروح العزم والنقير ، وسرعة الانجاز ، مع ما يضاف لها من نعومة تذهب احياناً إلى الخداع والمكر . وكان هم والدته جربرج ، التي توفيت في ١٤ آذار ٩٦٨ ، ان تعلمه مهنة الملك وتنمي عنده الصفات التي لاغنى عنها للحكم . وقبل وفاة برونون مارس عمله الشخصي في بعض الظروف وتدخل في عدة شؤون . وهذا التدخل يؤكد مزاجاً نشيطاً وارادة في ارجاع الامتيازات الملكية . وبعد موت برونون وموت اوتون الاول (٧ أيار ٩٧٣) الذي يكن

- ٤٩٢ -

له لوثير كل احترام ، تابع هذا الأخير اندفاعه الخاص وقطع العلاقات مع جرمانيا ، وزحف نحو اكس - لا - شابل ، ولم يستطع عمل شيء واكتفت جنوده بنهب القصر الامبراطوري ثم اعطى الامر بالانسحاب .

واراد اوتون الثاني أن يغسل هذا العار ، فجمع جيشاً كبيراً ، وفي ١ تشرين الاول ٩٧٨ اجتاح فرنسا واستولى على لان حيث نودي بشارل اللورين ملكاً ، ثم اجتاح البلاد المجاورة محاذراً مس الاديرة والكنائس ، وتوصل حتى نهر السين وعسكر فوق مرتفعات موهارتر ، ولاذلوثير بالفرار . ولكن هورغ كايت حمى مدينة ايتامب أمام الالمان . وانكسر هؤلاء في اندفاعهم واكتفوا باحراق ضاحية باريس . ونظراً لقرب الشتاء ومقاومة هورغ كايت ، استطاع لوثير تأليف جيش وراء السين ، وخاف اوتون الثاني على جنوده من المجاعة فقرر العودة (٣٠ تشرين الثاني ٩٧٨) . ولاحقه لوثير واستطاع ان يبيد مؤخرة جيشه . وفي ٢٥ كانون الاول دخل اوتون الثاني فرنكفورت ولم يحصل على نتائج اكثر من النتائج التي حصل عليها لوثير أثناء زحفه على اكس - لا - شابل .

ولم يبق أخيراً الا تصفية هذه الحرب العقيمة . وفي ٩٧٩ ارسل لوثير وفداً إلى اوتون الثاني للبدء بمحادثات السلام . وكان اوتون على أهبة الذهاب إلى ايطاليا ويتمنى المصالحة مع قريبه . وفي لقاء مارغوت - على - الشير اقسم الملكان على الصداقة والتحالف (تموز ٩٨٠) .

لقد كانت حرب المانيا اكبر خطأ ارتكبه لوثير ، لانه لم يكن لها أي داع رصين ولا يمكن ان تؤدي إلى أي نتيجة من طبيعتها ان تقوي شوكة السلاله الكارولنجية التي ترعزت بالخلاف بين لوثير وشارل

اللورين . وكان مشغولاً بما يترتب من نتائج على الملكية من عداوة أخيه . ومنذ ٩٧٨ اشرك ابنه لويس ، وعمره ثلاث عشرة سنة ، في الحكم وبورك في ٨ حزيران ٩٧٩ . ثم فاوض بزواج غني واستطاع ان يزوجه آديلايد ارملة أمير اكيثانيا ايتين ، كونت جيفودان . ولسوء الحظ كانت آديلايد اكبر منه سناً وغير رصينة على ما يبدو . فهجرها وذهبت إلى بروفانس وتزوجت غليوم الأول كونت آرل ، وتأثر جاء السلالة الكارولنجية بهذه المغامرة المضحكة .

وفي الوقت ذاته كان نفوذ البيت الرويبرتي في ازدياد ، وكان يمثله هوغ كاييت الابن البكر لهوغ الاكبر . فقد حظي بشعبية كبرى في دفاعه اللامع عن باريس عام ٩٧٨ ، كما ان غيوته الدينية أمنت له مساندة الاكليروس العصري والنظامي الذي غني بما منحه من هبات . وكان من البديهي ، إذا حدث حادث بين الملك ودوق الفرنجة ، ان يجحد هذا الأخير من يعتمد عليهم . وقد أغاظ لوثير هوغ بابعاده عن المفاوضات التي أدت إلى معاهدة مارتوت - على - الشير بينا افاد منه في الدفاع عندما اجتاحت البلاد . ولم يخف الدوق استياءه ، وليظهره بشكل محسوس ذهب في بداية ٩٨١ إلى روما والتقى بأوتون الثاني وجرت بينها مقابلة ودية . فجرح لوثير بدوره بهذا العمل غير الودي ، ولولا ضغط حاشيته لعادت الحرب إلى فرنسا عام ٩٨١ .

ولما رأى لوثير الهدوء مخيماً على المملكة في الداخل عاد من جديد واتجه نحو الشرق إلى سياسة المغامرات التي لا تتناسب مع الوسائل الموجودة تحت تصرفه . ان وفاة أوتون الثاني (٧ كانون الاول ٩٨٣ اسلمت المانيا إلى سلطة طفل عمره ثلاث سنوات ، أوتون الثالث ، وتحت سيطرة وصيته وهي الامبراطورة الأم تيوفانو الاغريقية الأصل . وفكر

لوثير ، بتأثير مطران رنس ، ادالبيرون ، بالحلم الحيايى وهو ان يطلب بان يعهد اليه بالوصاية على الامبراطور الفتى ، ولكنه تحلى بسرعة عن هذا الوم وتفاهم مع دوق بافاريا هنري ، زعيم المعارضة في المانيا . وعلى اثر ذلك وقعت حرب في الالزاس تراجع فيها لوثير ولكنه لم ييأس ، وجرت بينه وبين هوغ كاييت مواقع أخرى انتهت بالصلح (٩٨٥) . ثم نهياً لأخذ اللورين ولكنه توفي في (٢ آذار ٩٨٦) .

حكم لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧) . - ولم تترك وفاة لوثير أي صعوبة . حتى ان هوغ كاييت رغم علاقته والمساندات التي يمكنه الاعتماد عليها لم يحاول ان ينازع ابن المتوفى على العرش . وكانت عمر لويس الخامس تسع عشرة سنة ، ولكن لم تكن له قيمة ابيه كان خفيفاً مترددأ ومثار استهزاء الناس بمغامرة زواجه ، وبالرغم من كل ذلك ورث الملك ، وهذا يدل على متجى قوة الملكية الكارولنجية .

ودام حكم لويس الخامس سنة واحدة فقط ، وتركز خاصة حول النزاع بين الملك ومطران رنس ادالبيرون .

وكان الامير الشاب يكره هذا الخبر الذي يدفعه للتفاهم مع ملك جرمانيا . وكانت امه ايما ، بنت الامبراطورة اديلاييد ، أرملة اوتون الكبير ، تيل إلى سياسة التقارب مع المانيا التي يشعر لويس الخامس نحوها بنفور ، وما لبث أن أفسد علاقته مع أمه وتحالف مع هوغ كاييت ضد مطران رنس ، ولكن دوق الفرنجة حرص على مداراة ادالبيرون لغاية في نفسه ، فعزم الملك على الاستغناء عن منافسه القوي واصغى إلى حقه وعاث في رنس . فعرض ادالبيرون أن يبرر أعماله أمام مجلس يعقد في كومبيين في ٢٧ آذار ٩٨٧ وطالب برفع الحصار عن المدينة . وتأجلت الدعوى إلى ١٨ أيار . ولكن في الوقت الذي

بدأت فيه المناقشات مات لويس الخامس فجأة في ٢١ أو ٢٢ أيار ٩٨٧ .
انتخاب هوغ كابيت . - ولم يبق الا مثل واحد للأسرة الكارولنجية :
وهو شارل دوق اللورين الدنيا واخر لوثير وكان غير محبب الى الكبار ،
وينظر اليه البلاط الجرمانى نظرة سوء بسبب اطعائه في اللورين العليا .
وعندئذ رأى هوغ كابيت ان وقته قد حان ودقت ساعة عمله . ترأس
مجلس كوميين وأعاد لادالبيريون اعتباره . ثم قرر المجلس تأجيل أعماله
بعد أن اقسام الاعضاء اليمين بالا يقوموا بأي مبادهة لانتخاب الملك حتى
ينعقد مجلس آخر في سانليس في أواخر شهر أيار .

ومرت الأمور كما اتفق عليها . وفي سانليس تكلم ادالبيريون أمام
كبار المملكة بالقول الفصل . وقد حفظ المؤرخ ريشيه معناه على الأقل :
« ان العرش لا يكتسب بحق وراثي ، وانما يجب أن يوضع على رأس
المملكة من لا يتميز بنبله الجسدي فحسب ، بل أيضاً بصفات عقله ، من
يوصي الشرف به ، وتدعمه مروءته وشهامته » . ولا مجال لأي تردد بين
شارل « من لا يوجه الشرف ، وهدمه الجبل ، وفقد رشده حتى
أصبح لا ينجل من خدمة ملك اجنبي ، وهوغ الذي تشفع له أعماله
ونبله وجيوشه » .

وفي الحقيقة ، لقد كان جميع الناس يجذون هوغ كابيت ابتداءً من
كبار التابعين . ولذا قبلت النتيجة بسرعة ، وانتقل المجلس من سانليس إلى
نويون ونادى بهوغ كابيت ملكاً في ١ حزيران ٩٨٧ . وباركه المطران
ادالبيريون في رنس في ٣ تموز .

وانتهت السلالة الكارولنجية . وبالرغم من بعض الكسوف الموقت
الذي لاقته عاشت كثيراً ولأمد طويل في فرنسا اكثر مما عاشت في
الممالك المجاورة . وكان من الممكن أن تدوم اكثر من ذلك لولا

- ٤٩٦ -

موت لويس الخامس غير المنتظر ، وشخصية شارل اللورين غير المحببة الذي فقد كل اتصال بملكة أخيه وابن أخيه .

هذان هما السببان الأساسيان في تغيير السلالة عام ٩٨٧ الذي بني عليه كثير من الفرضيات التي يكذبها الواقع صراحة . وفي الحقيقة ان سقوط الكارولنجيين يرجع إلى الظروف ، وقد فاجأ في الوقت الذي كانت فيه السلالة تشد قواها بعد أزمة آخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر ، والمعارضة الكبرى التي تحملتها مراراً من جانب دوق الفرنجة . ولا شك في أن أواخر الكارولنجيين لم يتصرفوا الا بدومين قليل الاتساع لا يتجاوز الا قليلاً السين من جهة والموز من الجهة الأخرى . ومهما يكن هذا الدومين ضيقاً ، وخاصة إذا ما قورن بالنسبة إلى دومين هونغ كاييت ، فقد كان من الممكن أن يقدم موارد لاسييل إلى إهمالها ، ولا سيما بعد أن اعترف بسلطة الكارولنجيين اكبر جزء في المملكة أو اكبر الاقطاعات إلا دوقية نورمانديا وحدها التي كانت تابعة لدوق الفرنجة .

وعلى هذا فالسلالة الكارولنجية لم تسقط بسبب ضعفها . وكما اوضح مؤرخ أواخر الكارولنجيين « يبدو طوال النصف الثاني من القرن العاشر ان السلطة الملكية كانت محترمة اكثر مما كانت في المائة سنة السابقة » . ولا أدل على ذلك من نقل التاج من لويس الرابع إلى لوثير ، ومن لوثير إلى لويس الخامس ، ولم يكن في العام ٩٨٦ انتخاب ، بل بين ولاء بسيطة من قبل الكبار إلى ملك يحكم من قبل بسبب اشتراكه في السلطة .

ولم يكن تغيير السلالة إلا حادثاً عارضاً ، بيد أن نتائجه كانت ذات أهمية بعيدة جداً .

الفصل الثاني والعشرون

الكنيسة في أيدي العلمانيين

الاستقراطية الرومانية والكروسي الأقدس . - لقد أحدث انقسام الامبراطورية الكارولنجية تغيرات سياسية كان منها تجزئة الامبراطورية إلى عدة ممالك ، وانتخاب الملوك من قبل الكبار في كل دولة مثل ارنولف ملكاً في جرمانيا ، واود ملكاً في فرنسا ، وكذا الحال في مملكة بروفانس ومملكة بورغونيا ، ومملكة اللورين ، ومملكة ايطاليا ، ومن بعد ذلك محاولات اعادة الامبراطورية على يد ارنولف ، وأخيراً بعثها على يد اوتون الكبير من الأسرة الساكسونية في جرمانيا . ولقد زعزع هذا الانقسام سلطة البابوية وأدى إلى أزمة دينية .

في العصر الكارولنجي عاشت السلطان الروحية والزمنية متحدتين مع بعض ، وإذا وجد بعض الفتور بينها فلم يكن الا نادراً ودون أهمية عظمى . وإذا أثقل الاباطرة أحياناً على السدة الرسولية ، وخاصة بتدخلهم في انتخاب الخبر الأعظم ، الا أنهم أدوا اليها خدمات جلى في كبح جماح الطبقة النبيلة الرومانية التي كانت دوماً على استعداد للقيام في وجه البابوية ، وهموا دولة البابا من الاخطار الخارجية ؛ واحترموا ايضاً الرتب

الكنيسة وأخذوا بناصر النفوذ المسيحي بين شعوب الغرب . ولذا بقيت البابوية متعلقة بالنظام الامبراطوري ، وعملت اثناء الدور الذي سبق التجزئة النهائية على حفظ السلام والوحدة لأنها كانت تخشى من أن يؤدي زوال الامبراطورية بالكنيسة الى أقبح النكبات .

ولقد كان هذا الخوف معقولاً وعلى حق ، لأن روما وقعت فريسة الاضطراب والفوضى ، حتى آل الأمر إلى مقتل البابا جان الثامن (٨٨٢ م) . وهذا ما يوضح لنا كيف ان الكرسي الاقدس ، بعد موت شارل السمين (٨٨٨) ، تعلق ببعث الامبراطورية الكارولنجية التي يعتبرها أفضل ضمان لبقائه . غير أن سقوط الامبراطورية الكارولنجية حرم البابوية من حمايتها الأبرار وفتح لها دوراً حرجاً لم ينته إلا بتتويج اوتون الكبير امبراطوراً في ٢ شباط ٩٦٢ م .

ويبدو اثر زوال الامبراطورية الكارولنجية ان أسرة تيوفيللاكت أصبحت قوية في روما واستطاعت أن تغتصب لصالحها انتخاب الخبر الأعظم . ولقد حاول البابا جان التاسع ان يحول دون هذا الاغتصاب بوضع دستور ٨٢٤ ، المسمى دستور روما ، موضع التنفيذ والاجراء ؛ وبوجهه لا يجوز تسمية البابا إلا بحضور مندوبي (ميسّي) الامبراطور . غير أن فقدان الامبراطورية لم يجعل لهذا الدستور أي قيمة تذكر . ففي العام ٩٠٤ كان اعتلاء سيرج الثالث كرسي البابوية بفضل تيوفيللاكت وزوجته تيودورا . ولذا فان من اخطر النتائج التي ولدها تداعي الامبراطورية الكارولنجية على الكنيسة ان البابوية أصبحت خاضعة لثير الارستقراطية الرومانية .

وبالاجمال فان هذا النظام كان شؤماً على الكرسي الاقدس وعلى الكنيسة . ولقد شهد تاريخ الدين في القرن العاشر كسوفاً ، ولو جزئياً ، في السلطة

الرسولية ، ونجم عنه ضعف عظيم في النظام الاكليركي والاخلاق المسيحية . حتى ان كثيراً من الباباوات ضربوا لغيرهم المثل في الخلاعة والزذيلة . ولكن يجب الا نعمم هذا القول ونقبل ، كما قبلت طويلاً على علائها ، ودون اي فحص انتقادي ، اقايصص الفضائح التي ينقلها الينا ليودبراند كرييون مداحة اوتون الكبير . لقد اراد هذا المؤرخ أن يشيد بالخدمات التي قدمها الامبراطور الجرمانى إلى الكنيسة ، ولذا اجاز لنفسه تسويد صحيفة الدور الذي سبق مجيء اوتون الأول إلى ايطاليا ، واساءة الظن بجميع الاحبار الذين اعتلوا عرش البابوية على ايدي الارستقراطية الرومانية . ولكننا اذا فحصنا دقائق الوقائع ، شاهدنا بسرعة ان هذا الحكم العام يكاد يكون جائراً ، وان كلمة « البورنوقراطية » ، أي تأثير الخليلات في الحكم ، لا يمكن تطبيقها بصورة مشروعة على جميع تاريخ الكرسي الاقدس في هذا الدور .

إن البابا سيرج الثالث ، الذي يدشن هذا العهد ، قد اثقل عليه ليودبراند بصورة خاصة . وإذا اخذنا بقول هذا المؤرخ ، كان ذلك البابا عشيقاً لابنة تيوفلاكت ، مادوزيا ، ومن اتحادهما الشائ ولد البابا جان الحادي عشر . ومهما يكن من قول في شأن هذه الابوة فلا يمكن ان نعتبرها اكيدة . ولكن المقبول هو أن اخلاق سيرج الثالث كانت مدعاة للشك وعدم الثقة ، وان نفوذ اسرة تيوفلاكت عليه كان عظيماً ، وقد استطاع بفضلها أن يحتفظ بسلطة الخبر الاعظم رغم الكراهية العامة التي كان يلاقها بسبب مزاجه الاستبدادي وطبعه الحاد واحقادته الشخصية . وهذا ما صرفه عن الاهتمام بحكم الكنيسة وجعله يسير السياسة كيفما اتفق ، فأدى إلى الاضرار بسلطة الكرسي الاقدس ، وبالتالي بحفظ النظام الكنسي . ويبدو ، على كل حال ، انه لم يكن مهملًا اسقفيته

الخاصة كل الاممال ، فبفضل عنايته أعيد بناء كنيسة القديس يوحنا في قصر لاتران بعد أن تهدمت وأصبحت اطلالاً .

حكومة الكنيسة . — ان سلطة الكرسي الأقدس الزماني التي بناها غريغوار الاول الاكبر (٥٩٠ — ٦٠٤) وخلفاؤه لم يكتب لها البقاء بعد زوال الامبراطورية الكارولنجية ، حتى ان جميع المحاولات التي بذلت في هذا السبيل ذهبت عبثاً وكانت وقتية ، لان البابوية لبثت سجيئة الارستقراطية الرومانية ولم تلعب دوراً سياسياً في ايطاليا ، وإذا اتيح لها في بعض الاحيان ان تدخلت في المانيا او فرنسا فلم يكن لها ذلك الجاه الذي كانت تتمتع به بين الامراء المسيحيين في عهد البابا نيقولا الاول (٨٥٨ — ٨٦٧) والبابا جان الثامن (٨٧٢ — ٨٨٢) . الا انها على الاقل احتفظت بسلطانها الروحية التي لم تمس ، وهذا ما جعل الكنيسة الرومانية تبقى ، في القرن العاشر « أم جميع الكنائس » . وما زال تفوق السدة الرسولية مستمراً نافذ التأثير . ويكفي لذلك ان نتصفح مجموعة القوانين التي ظهرت خلال السنوات الاولى من القرن الحادي عشر فتأكد من ان سلطة الحبر الاعظم ما زالت سارية المفعول على جميع الاسقفيات . فمن ذلك ان بركارد فورمز ، الذي انتشرت مجموعته « ديكريتم » في فاتحة القرن الحادي عشر ، يذكر بان القديس بطرس كان اول من تسلم سلطة العقد والحل ، ويستخلص من هذا ان خلفائه الحق في ان يحكموا في القضايا التي تستعصي على الاساقفة ، ويعترف أيضاً ان المجمع الديني لا يكون عاماً ما لم يدع اليه الحبر الروماني ، وهذا وحده يستطيع ان يتصرف بالوشاح المطراني فيبعث به إلى من يشاء من المطارنة (رؤساء الاساقفة) . وفي هذا الوقت ايضاً يقبل آبتون فلوري في فرنسا « ان سلطة السدة الرومانية الرسولية تضيء في

جميع « الكنيسة » العامة لآث احبار هذه السدة اثما ينوبون عن بطرس السعيد أمير « الكنيسة كلها » ويؤكد بقوة « ان من يخالف الكنيسة الرومانية ينفصل عن اعضاءها ويدخل في جسد خصوم المسيح » .

ويبرهن تحري الحوادث على ان هذه الصيغ القانونية كانت تحبيراً للحقيقة والواقع . فهي تدل على ان الباباوات الذين تعينهم الارستقراطية الرومانية مازالوا يمارسون سلطتهم الرسولية على الكنيسة العامة ويتناول نشاطهم القضايا الروحية والزمنية .

على أنه يجب الا نبالغ في اهمية هذا التدخل البابوي وفي قيمته . وكل ما في الامر انه يشهد بصورة بسيطة ان الباباوات استطاعوا في القرن العاشر ان يحتفظوا بامتيازاتهم الاصلية ، وان حكم الكرسي الأقدس ما زال محترماً في الكنيسة ، وان احداً لم يفكر في انكار السلطة الرسولية . غير أن الوصاية الثقيلة التي فرضتها الارستقراطية الرومانية على الباباوات كانت تضايق ممارسة هذه السلطة ، ولا تسمح للاجبار الذين تعاقبوا على كرسي بطرس أن يديروا الكنيسة ولا المسيحية بصورة فعلية . لأن عمل الباباوات كان يقتصر خاصة على القضايا الحقوقية ولا يهتم غالباً بالحوادث الكبرى الكنسية أو الدينية التي بدلت بالتدريج سماء العالم الغربي .

وامحاء السلطة الجبرية كان محسوساً أكثر في داخل الكنيسة . وذلك لأن البابوية ، وان بقيت في أوج الرتب الكنسية ، ظلت لا تمارس العمل التوجيهي الذي يتطلبه مثل هذا المنصب ، حتى ان المجامع الدينية ، التي كانت عديدة في العصر الكارولنجي ، أصبحت نادرة في القرن العاشر ولم يكن لقوانينها الا اشعاع محدود ، فضلاً عن أن الغارات والحروب الأهلية جعلت حكم الكنيسة صعباً ، وآل الأمر إلى ضعف النظام .

واذا بدت البابوية عاجزة عن الدفاع أم الارستقراطية الرومانية ، فلم تكن قادرة أيضاً على الحيلولة دون سيطرة الملوك والامراء على الكنائس. ومما لا شك فيه أن الاغتصابات التي كان يرتكبها هؤلاء العلمانيون كانت كثيرة قبل القرن العاشر . ففي آخر العصر الكارولنجي كانت انتخاب الاساقفة والآباء تابعاً للملك : في المانيا كان الملك يحتفظ بهذا الحق كامتياز من امتيازاته الاساسية . وفي فرنسا تخلى الملك عن هذا الحق وتركه لتابعيه . ولقد تعممت هذه الحالات في القرن العاشر وفسحت مجالاً لكثير من المساوء التي وقف الكرسي الأقدس حيالها مغمض العينين .

السيمونية . - ولم يكن الامراء الزمانيون، الذين يخولون ادارة الاسقفيات والابويات أي الأديرة ، ليهتموا الا قليلاً بقيم المرشحين الروحية ، وكانوا في الغالب يتصرفون بالمناصب الكنسية لصالح اقربائهم واعضاء اسرانتهم الخاصة أو مقربهم . كما ان الملكيات العقارية الغنية التابعة للكنائس والأديرة كانت موضع اطماع الكثيرين . ولا يتروء هؤلاء في بذل الأموال الطائلة ليقطعهم اياها الملك أو الأمير ويحصلوا بذلك على ادارتها الزمنية والروحية معاً . ومن هنا نشأت تجارة الاشياء المقدسة التي أطلق عليها اسم « السيمونية » بالنسبة إلى سيمون الساحر اليهودي الذي أراد أن يشتري من القديس بطرس هبة الخوارق والاتياف بالمعجزات . وهكذا امتلأت الاسقفيات برجال الأموال لا برجال الفضائل التي تؤهلهم للكهنوت .

النيقولاوية . - واذا كانت السيمونية نتيجة لاغتصاب العلمانيين انتخاب الاسقف ، فقد ولدت هي بدورها عادة سيئة عرفت باسم « النيقولاوية » ، بالنسبة إلى نيقولا ، وهو زعيم فرقة لا أخلاقية

كما تروي لنا التقاليد الكنسية . ويقصد منها تفسخ وانحلال الاخلاق الكليركية .

ان الاسقف الذي حصل على كرسيه بماله أو بعلاقاته لا يكون على استعداد للخضوع إلى النظام الكنسي ، واذا رغب بهذه الوظيفة فليستمتع بوارثاتها . وهو بدوره يبيع المناصب التي تتعلق به ، ولا يتوانى منذ تقلده مهام وظيفته ، عن الانغماس في أهواء عصره : فمن ذلك انه يستمر في الصيد ويتردد على الحانات ويعاقر الراح ، ويزور المواخير ، ويسخر بقانون العزب الكنسي الذي فقد مع الزمن قوة الاجراء . وحذا على هذا الشكل الكليروس الادنى حذو الكليروس الأعلى . وقد كتب آتون فيرسي في منطقة بيمونت إلى كهنة اسقفية : « انني اخجل أن أقول ، ولكني أعتقد أن من الخطر أن أسكت ، ان كثيراً منكم انقادوا للهوى وسمحوا للنساء السوء أن يقمن في منازلهم ، ويقاسمنهم غذاءهم ويظهرن معهم أمام الجمهور ... وأخيراً جردت الكنائس لتزيين هؤلاء النساء » . وقد امتد هذا الانحلال الخلقي إلى الابويات ايضاً .

أمام هذا الوضع الدال على الفوضى الخلقية ، وقفت البابوية موقفاً محايداً ، وكانت هنالك فئة صالحة من الاحبار ، ممن وخزم ضميرهم لهذه الحالة وراحوا ينهون البابوية إلى الخطر الذي يهدد الدين من سوء سيرة رجاله . ومن هؤلاء الاحبار الأفاضل آتون فوسي وراثيه فيرونه . فقد اشارا عدة مرات إلى فداحة الشر في النصف الأول من القرن العاشر ، ولكن الكرسي الاقدس بقي يصم آذانه عن سماع النداء .

على أن المحاولات الوحيدة ، التي اجريت لالغاء السيمونية والنيقولاوية كانت من عمل الاساقفة الذين هزتهم الروح المسيحية الخالصة ، فحاولوا الوقوف في وجه هذا التيار الجارف ، مثل الحبرين اللذين تقدم ذكرهما

بالإضافة إلى أولريخ أوغسبورغ في ألمانيا وفولكران لوديف في فرنسا . غير أن هذه الغيرة ، التي دفعت هؤلاء الاحبار ، لم تكلل جهودها بال نجاح ، بل باءت بالخيبة والعجز والعقم لأنها جهود مبعثرة دون أي تلاحم أو استمرار . وما دام الانتخاب رهن السلطة الزمنية ، فأن الاسقف المصلح يكون ثمرة صدفة سعيدة لا تتجدد دوماً . لأن خلفه على الغالب لا يشبهه ، وكثيراً ما ينقطع العمل الذي بدأ به ، أو يفسد أو يتهدم بكليته . ولذا كان من الضروري القيام بحركة جماعية لاستئصال هذه المساوئ التي تلتصق وجه الكنيسة . والبابوية وحدها تستطيع أن توجه هذه الحركة وتنظمها بما لديها من سلطة وجاه ونفوذ . غير أن البابوية كانت سجيئة السلطة الزمنية ولذا فانها لا تريد ولا تستطيع القيام بأي محاولة من هذا النوع لا يرضى عنها او يعاكسها بالطبع حمايتها الطغاة . وهكذا استمرت الفوضى الحلقية حتى إلى ما بعد ارجاع الامبراطورية على يد أوتون الكبير . وظلت السيمونية والنيقولاوية تفتكان بالكنيسة فتكاً ذريعاً خلال آخر القرن العاشر والنصف الاول من القرن الحادي عشر . ولا شك ان هذه الفوضى الحلقية كانت نتيجة من جملة النتائج البعيدة والمؤسفة لزوال الامبراطورية الكارولنجية .

البابوية والحركة الوهابية . — ولما حرمت « الكنيسة العصرية » من توجيه السدة الرسولية انحرفت واستسلمت للسلطات الزمنية وعجزت عن القيام بعمل ضد المساوئ والذائل . غير أن « الكنيسة النظامية » سبقتها في التجديد ، وبشرت به منذ بداية القرن العاشر ، وتابعت سيرها في هذا السبيل وحظيت بتشجيع الكرسي الاقدس .

طريقة كلوني . — وعلى هذا النحو تأسست ابوية كلوني في ١١ تشرين الثاني (٩١٠) على ضفاف نهر الغرون في اسقفية ماكون

ومؤسسها دوق اكيثانيا ، غليوم التقي . وقد حُفِظ الصك الذي تأسست بموجبه هذه الابوية . ويلفت النظر فيه خاصتان :

١ - ان هذا الدير الجديد كان متحرراً من كل سلطة علمانية .

٢ - ان ابوية كلوني كانت متحررة من كل قيد زمني ، ومن سلطة الاسقف الروحية أيضاً .

وهذه الابوية تتعلق مباشرة بالخبر الروماني ، وفي ذلك ضمان لمستقبلها . ولذا كانت هُأمن من أن تقع في أيدي العلمانيين أو أن يكون على رأسها أمير من هؤلاء الأمراء الجشعين الذين قتلوا ، في الاديرة الاخرى ، روح الرهبانية وقلبوا بيوت العبادة والتوبة الى امكنة فسق وفجور . وقد احتفظت هذه الابوية باستقلالها التام وبقيت مأوى للحياة الدينية في وقت اجتاحت الفساد الكنيسة نفسها .

ولم تكن قاعدة كلوني في ذاتها الا بعثاً للتقاليد التي سارت على قاعدة القديس بندكت آنيان المأخوذة عن طريقة مون كاستينو . وبموجبها يعيش الرهبان في عزلة الدير بعيدين عن حياة العصر ، ويتخلون عن أموالهم الشخصية وعن كل ملكية فردية . وهذه هي الوسيلة الوحيدة للوصول إلى سلام الروح الذي هو مصدر وشرط لكل سلام . ويتفق نذر الفقير مع نذر الطاعة التي هي شكل أساسي للخضوع ، فضيلة الرهبانية الفائقة . وليس للكلوني من ارادة الا ارادة الاب ، فبين يديه يتنازل الراهب عن حريته وينفذ أوامره بسرعة وغبطة . وكذا العفة فريضة أساسية ولمراعاتها ينبغي الحذر : فلا يمكن لامرأة ان تدخل الابوية كما لا يسمح لراهب أن يدخل الى دار توجد فيها امرأة . وكبح جماح الشهوة الحسية يكون بالصوم والسهاد والجلد بالسياط ، عند الحاجة ، وبكل المتاعب التي تهدم الجسد وتنهك قواه .

وإذا فالفقر والخضوع والعفة والتوبة إنما هي وسائل يتخذها الراهب ليقطع السلاسل التي تربطه بالعالم للوصول إلى الله . وهو وإن هجر حياة العصر إلا أنه يطبق قانون الاحسان الفضيلة الاجتماعية الفائقة . وتصر قاعدة كلوني على ضرورة الصلاة والتقديس الشخصي بحضور الحفلات الدينية وغناء المزامير . وتعتبر العمل عنصراً أساسياً في الحياة الرهبانية التي تلخص بهاتين الكلمتين : صلاة وعمل . وتختلف أشكال هذا العمل : كالخدمة الداخلية ، والحصاد ، وقطاف الكروم ، والخطب ، ونسخ المخطوطات ، ودراسة الكتاب المقدس ، والفنون الحرة . ولقد لعب الكلونيون ، نظراً لنشاطهم الاقتصادي والفكري ، دوراً في تاريخ الحضارة ، وأسهموا بيناتهم الكنائس في تشكّل الفن الرومانسي وموه . ووسعوا أعمالهم في البر والاحسان وتوزيع الصدقات .

وقد انتشرت قاعدة كلوني وثمرت ثمراً عظيماً ، وظهرت منذ تأسيسها أبوية النموذجية جعلت كثيراً من أتباع غيلوم اكيثانياً يحذون حذو سيدهم .

وكان المؤسس لكلوني الاب برنون وقد توفي عام (٩٢٦) وخلفه عليهما القديس أودون . وبقي هذا أباً في كلوني من ٩٢٦ إلى ٩٤٢ . وكان صفحة عظيمة من صفحات القرن العاشر لا يتراجع أمام أقسى الامانات الجسدية ، ولا أمام الحشوع والضراعة التي يتوب بها المؤمن إلى الله توبة نصوحة ، ويراها ضرورية لتبرير شخصه وتقديسه .

ولكنه كان أيضاً رجل عمل نشيطاً يلهب حماسة في هدى الارواح إلى الله ، ويرى أن أفضل وسيلة للسير في طريق السلام يكون في قيادتها إلى شاطئ الرهبة ، ولذا قضى حياته في الكفاح لظفر النظام الكلوني ،

وان لا سلام لمعاصريه إلا بالرجوع إلى المثل الذي رسمه هذا « القائد الذي ارسلته العناية الربانية للناس في سيرهم نحو السماء » .

واستطاعت قاعدة كلوني ، بفضل هذا الاب المتحمس ، ان تحقق فتحاً عظيماً وتطهر كثيراً من الابويات بما لحق بها من عدوى اخلاق العصر . وساعده في مهمته هذه بعض الاساقفة ممن حافظوا على الروح الكهنوتية القديمة وسط الانحلال العام ؛ وبعض الأمراء ممن كانوا يأملون ، اذا اتبعوا خطا غليوم اكيثانيا ، ان يشتروا حياتهم المملوطة بالظلم ولزذيلة ، وينالهم العفو الالهسي ، ويجزيهم الله بما فعلوا جزاءً وفاقا . وكان كل من الفريقين يدعو اودون ويطلب منه ارجاع قاعدة القديس بندكت واصلاحها في اديرته .

ورغم هذا النجاح العجيب الذي لاقاه القديس اودون فقد صادف كثيراً من الصعوبات التي قاومت حركته واستقبلته دون حماسة كبيرة . وقد أراد ان يجعل عمله ناجحاً ودائماً ، ففكر في جمع الابويات المختلفة التي اخذت تراعي قاعدة القديس بندكت في نظام مركزي يرأسه زعيم مطلق السلطة . واستحصل في العام ٩٣١ من البابا جان الحادي عشر على امتياز خاص يقضي بالحاق الاديرة المصلحة بكلوني . وبهذا أصبح اب كلوني اباً لجميع الاديرة الفرعية الملحقة ، وبامكانه أن يندب لتمثيله فيها رئيساً . وهكذا ألقت كلوني جمعية رهبانية .

وإذ طبع البابا جان الحادي عشر كلوني بهذا الطابع فقد أدى للكنيسة خدمة جلى وان لم يشعر بذلك ، لأنه سمح للاصلاح الرهباني بالاستمرار والنماء . ولقد لمس خلفاؤه أهمية هذه الحركة وأخذوا يشجعون ويكثر من الامتيازات . وكانت الرهبانية القوة الوحيدة التي يمكن للكرسي الأقدس أن يعتمد عليها ، على حين أن الكنيسة العصرية

كانت تخضع بالتدريج للعلمانيين . وهذا أمر تحررت منه طريقة كلوني وفروعها .

وهكذا ظهر نظام كلوني ، وسط فوضى القرن العاشر ، مبدأ من مبادئ المحافظة . واستطاع هذا النظام ، تحت سلطة الكرسي الأقدس العليا وحدها ، أن يحقق وحدة الكنيسة النظامية . وقد وقف دوره عند هذا الحد ، لأن الحركة الكلونية كانت رهبانية فقط ولم تدخل الكنيسة العصرية الا قليلاً . وبما لا شك فيه ان روح كلوني قد تسربت هنا وهناك إلى بعض الأجيال ، فحاولوا أن يعيدوا الاكليروس إلى الأخلاق الفاضلة ، كما حاولت طريقة كلوني أن تخلق حول ابوياتها في بعض الكنائس جواً من الطهارة والنقاوة ملائماً لاصلاح الكنيسة الخلقية . غير ان دورها يقف عند هذا الحد ولم تجد للسلام مصدراً إلا في التخلي عن حياة العصر الفانية ، والاكتثار من الابويات الكلونية ، حيث يرقى الانسان إلى السماء إذا عاش مسيحياً بكل ما يتضمنه هذا القول من معنى .

الطريقة اللويفية . - ولم يتركز الاصلاح الرهباني في القرن العاشر حول كلوني وحدها ، فهناك حركة أخرى أخذت ترتبم معاصرة للحركة التي احدثها غليوم اكينانيا في مملكة اللورين حيث شعت وانتشرت منها في شمال فرنسا وشرقها . وأول من حاول هذه الحركة أمير شاب يدعى جيرارد خامره النفور من حياة العصر فبنى عام ٩١٤ ، على ارضه في برونيو بالقرب من نامور ، كنيسة جمع فيها الكهنة القانونيين وغرس في نفوس رفاقه قاعدة القديس بندكت ، ثم تخلى عن العالم وأصبح رئيساً للدير الذي أسسه ، وضرب للناس مثلاً في حياة الزهد والتقشف ، واكتسب بسرعة شهرة القداسة ، واستطاع ان يستميل إلى الرهبانية عدداً

من الأمراء مثل جيلبرت لورين ، وآرنول فلاندر ويصلح كثيراً من الأبويات .

وكان لجيرارد هذا عدد من المنافسين واكثرهم نفوذاً جان غورز . وكان هذا ابن أمير غني في منطقة الموزيل أحب حياة التقى والزهد وسافر إلى إيطاليا وزار روما ، ودير مون كاسينو ثم عاد وانتخب أباً لدير غورز . وعرف هذا الدير في عهده دوراً مضيئاً ومالئ ان امتد تأثيره على جميع أبويات اللورين العليا . وبينما كانت الحياة الدينية تنتعش في هذه الديرية القديمة ، قامت حركة عمران جديدة في أديره الراهبات .

وهكذا كان في اللورين العليا والدنيا حركة رهبانية كثيفة تتميز بصورة جلية عن حركة كلوني وتختلف عنها ببعض المميزات الخاصة . فقد كانت اكثر منها زهداً ونسكاً . ولم يكن هذا هو الطابع الوحيد الذي تختلف به عن كلوني ، بل ان الفارق يبدو في أن كلوني كانت تؤلف « جمعية » بينما كانت الديرية اللورينية تحتفظ باستقلالها الذاتي . وبينما كانت كلوني ترتبط مباشرة بالكرسي الأقدس ، كانت الأبويات اللورينية خاضعة لسلطة الاسقف ، وكان التماس بينها وبين الاسقفية وثيقاً . وبينما كانت كلوني واخواتها ترجع في الأصل إلى البابوية وتحصل منها على امتيازات استثنائية تجعلها على هامش الكنيسة العصرية وتجعلها في حذر بل وفي عدااء مع الأسقفية ، كانت محاولات الإصلاح في اللورين تقوم على أيدي الأساقفة . فمن ذلك أن الاساقفة آدالبيرون متر وغوزلن تول وريشي ليج كانوا بساندون المصلحين ويوجهونهم . ولولا الاساقفة لما أثرت جهود هؤلاء المصلحين .

يضاف إلى ذلك ان هذه الحركة كانت محلية . فبينما كانت كلوني

تفتتح العالم المسيحي بأجمعه ، كان المصلحون اللورينيون بعيدين عن كل فكرة واسعة الدعاية ، ولا يمتدون بعملهم إلى أبعد من اللورين والفلاندر والمانيا الرينانية . وفي الحقيقة ، ان تأثيرهم كاث من نوع آخر وستظهر نتائجه في الآجل البعيد . ففي اللورين هذه ، ولأول مرة ، عرفت الأسباب الحقيقية للأزمة التي تشكو منها الكنيسة منذ زوال الامبراطورية الكارولنجية ، ووضعت على بساط البحث مشكلة الاصلاح العام . وهذا ما لم يدركه الكلونيون بدقة ووضوح لأنهم كانوا منصرفين إلى مثلهم الأعلى الرهباني ، ولم يعرفوا أن اضطراب الأخلاق الاكليريكية كانت نتيجة استبعاد السلطة الزمنية للسلطة الروحية ، ولم يروا أن اصلاح الكنيسة لا ينجح إلا في اليوم الذي تستعيد فيه البابوية ، سيدة العالم المسيحي ، كامل الحرية والاستقلال .

على أن هذه الأفكار التي نجد صورتها البعيدة عند راتيه ليج ، في منتصف القرن العاشر ، ستلبث سنين طويلة لتتفتح وتضع . ولن تدخل في ساحة الجدل والكفاح إلا في اليوم الذي يأتي فيه كثير من المصلحين اللورينيين إلى روما ، كما هي الحال في عهد البابا ليون التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) ، ويتوصل أحدهم إلى البابوية باسم ايتين التاسع (١٠٥٧ - ١٠٥٨) . ولكن الكرسي الأقدس ، في الوقت الحاضر ، يحبل المميزات الحقيقية لهذه الحركة اللورينية ، ومازال الباباوات في معزل عن الطرق التي تؤمن استقلاله التام . وعوضاً عن أن يسير الحوادث جعل الحوادث تقوده وتسيره . وإذا خلاصه ارجاع الامبراطورية على يد اوتون الكبير عام ٩٦٢ من طغيان الارستقراطية الرومانية ، إلا أنه لم يعد اليه استقلاله وحكمه الذاتي . وسيخفض الباباوات حتى بابوية ايتين التاسع إلى الوصاية الامبراطورية التي قامت مقام اسرة تيوفلاكت ، ولا يتمتعون بالحرية الحق ، لانه ليس لديهم من السلطة ما يكفي لكفاح المساوىء التي تسربت إلى كل درجة من درجات الكهنوت .

الفصل الثالث عشر

اوتون الكبير

و

ارجاع الامبراطورية في الغرب

بقاء الفكرة الامبراطورية في الغرب . - في غضون النصف الاول من القرن العاشر عاشت كل دولة من الدول الناشئة عن تجزئة الامبراطورية الكارولنجية حياتها الخاصة دون أن يحاول أي ملك من ملوك هذه الدول ان يضم تحت لوائه هذه الاقنان التي انفصلت عن تلك الدوحة الام . وكذلك البابوية ، التي أصبحت حكرة بيد الطبقة النبيلة الرومانية ، لم تحاول بعث النظام الامبراطوري كما كان موجوداً في السابق . وبالرغم من ذلك فما زالت ذكرى الامبراطورية ماثلة في الاذهان ، حية في الآداب التي تمجد شارلومان والنظام الذي أقره .

ومنذ النصف الثاني للقرن التاسع أخذت اسطورة الامبراطور العظيم ترتسم في القصائد والاغاني العامة . وإذا رأينا الكتاب « الوجيز في السلطة الامبراطورية في مدينة روما » ، الذي ألف على الاكثر حوالي ٨٩٦ أو ٨٩٨ ، يشيد في مدح النظام الذي وضعه شارلومان ويرثي لفقدانه فقد استحسنت هذه العاطفة وازدادت في القرن العاشر بتأثير الشرور والمصائب التي سببها الغزو والغارات . ففي حوالي العام ٩٥٠ نجد

آدسون راهب مونثيراندر (في منطقة المارن الاعلى) في كتابه « حياة عدو المسيح » يقول : ان مجيء عدو المسيح ، الذي يتفق مع الزمن الذي تنفصل فيه جميع الممالك عن الامبراطورية الرومانية ، مازال بعيداً لانه « مادام هنالك ملوك فرنجة يقبضون على زمام الامبراطورية الرومانية ، فالمنصب الامبراطوري لا يزول ». ولقد كان تأثير هذه الآثار الادبية عظيماً . ففي كل مكان تتجاوب الاصدااء ويتكرر النداء لوان شارلومان جديداً يأتي فيضع حداً لهذه المحن الشديدة التي ألمت بالمسيحية جمعاء .

وتألق الفجر في القرن العاشر فانبتت عن شارلومان جديد أتى من المانيا . لان هذه المملكة استطاعت ، منذ تسنم الاسرة الساكسونية العرش عام ٩١٩ ، ان تصل إلى استقرار يتلاءم مع أثر بعيد المدى ويحتاج في تحقيقه إلى زمن طويل . وكان من حسن طالع هذه الاسرة أن انجبت رجلاً عبقرياً يتمثل في شخص اوتون الاول ، بن هنري الاول وخليفته ، الذي لقب بالكبير واليه يعود الفضل في ارجاع الامبراطورية الى حيز الوجود عام ٩٦٢ .

اوتون الكبير . - ولد اوتون الكبير في ٢٣ تشرين الاول ٩١٢ ، ولم يكن له من العمر سوى اربع وعشرين عاماً عندما خلف أباه هنري الاول ٩٣٦ على عرش جرمانيا. لقد كان يتمتع بجميع الصفات التي تؤهله لاكتساب عطف شعبه : كان طويل القامة ، ضخم العظام ، كث اللحية ، أشقر ، حاد النظر شغفاً بالرياضة البدنية ، شجاعاً ، جليداً لا يتراجع أمام أقسى المتاعب ولا يخشى في الحروب مجابهة الاخطار . وكان يضم في هذا الكيان الجسافي العظيم روح الحرب وتوقد الذكاء . وما لاشك فيه ان اوتون لم يكن مثقفاً لان تربيته العسكرية لم تجعل

منه رجلاً متعلماً . فهو يجهل اللاتينية ولا يتقن السلافية والفرنسية ، وقد تعلم القراءة على كبر وفي سن متأخرة ، غير أن هذا النقص الذي نراه في تعليمه لم يحل دون نبوغه وتفتق عبقريته اللذين جعلاه رجلاً دولة وقائد جيش ، فضلاً عن ان مزاجه العذب وطيبه الباسم قد طبعاً حكمه بطابع العدل والاعتدال ، فنال بذلك محبة الشعب وولاءه . وتأقني بعد هذا تقواه فتجعله قريباً إلى قلب رجال الدين . غير أنه كان في شبابه ، كسائر ملوك عصره ، لايراعي قوانين الاخلاق المسيحية . فقد أتاها ، وهو في السابعة عشرة من عمره ، ابن طبيعي من أسيرة سلافية حسناء ، ولكنه تعقل مع تقدم السن واشترى غواية الشباب بالعدول عن شهوات الحس ، والتمسك بأهداب الدين ، والقيام بما يتطلبه من عبادات عن أمانة واخلاص . وكان يؤمن بحماية القديسين ويجل آثارهم وبقاياهم عن ورع ، ويشرف على الحفلات الدينية بنفسه . ومن جهة أخرى ، كان يحاول دوماً أن يكيف حكمه مع المبادئ الانجيلية ويحقق ، على قدر جهده ، نموذج الملك المسيحي الذي يراه متمثلاً في شخص شارلومان .

ولم يشترك اوتون في شؤون الدولة في حياة ابيه الا انه ، عندما اعتلى عرش جرمانيا ، عرف المسؤولية التي يلقيها على عاتقه تسبب هذا المنصب . ولذا كان همه في المانيا توطيد الاثر الذي بدأ به والده ، ليستطيع بعد ذلك المطالبة بتاج ايطاليا والمنصب الامبراطوري . وهذه هي الغاية التي كان يهدف اليها اوتون ويسعى في تحقيقها بكل ما أوتي من قوة ومثانة ومعرفة في أصول الحكم .

لقد كانت سياسة اوتون الأول تختلف عن سياسة ابيه هنري الأول . وبينما نرى هذا الأخير يحاول أن يعيش قبل كل شيء على اتفاق تام مع العصر الوسيط - ٣٣

أدواق جرمانيا ويشركهم في سياسته حتى كسب ودهم ولم يحاول أحد منهم أن ينازع ابنه في مملكته ، نرى ان اوتون الاول يدشن حكمه بباركته في كنيسة اكس - لا - شابل ويتسلم الشارات الملكية من يدي مطران ماينس بينما كانت ترتل الانشودة الدينية « تودم » . وهو في هذه الحفلة الدينية يصل ما انقطع من التقاليد الكارولنجية في عهد هنري الأول ، ويخلع على الملكية الساكسونية طابعاً دينياً لم يكن لها في الاصل . ومن جهة أخرى ، تدل هذه الحفلة على رغبة اوتون الاول في التفاهم مع الاسقفية وربط الادواق بالسلطة الملكية بعد أن اتوا اليه وقدموا ولاءهم بين يديه .

ونحن إذا اطلعنا على توطيد الملكية الساكسونية في جرمانيا نرى ان اوتون الاول قد اعتمد كثيراً على مساندة الكنيسة له . وبالمقابل كان يمنحها الامتيازات الارضية والاقطاعية ، وحفر بذلك غوراً بينه وبين الادواق . فاذا ما وقف هؤلاء في وجه التاج ، وقفت الكنيسة إلى جانب الملك أمام العدو المشترك .

لقد كانت سياسة اوتون الاول ترمي الى السيطرة على الكنيسة بوضع يده على الاسقفيات ، والى اثناء الكنيسة لتكون عوناً له ، وهذه هي السياسة التي سار عليها طيلة حكمه في علاقاته معها .

في اول الامر كان تعيين الاساقفة من قبل الملك أو على الاقل برضى منه . وبعد ذلك أصبح الانتخاب لايجرى دون تدخل الملك ، حتى ان اوتون لايتردد في الانتقال من مكان لآخر ليقوم بهذا الامتياز الذي خوله لنفسه . فمن ذلك أننا نراه ، في العام ٩٤١ ، عندما شغل كرسي اسقفية فرتزبورغ وسبير ، لايتوانى عن الذهاب من ساكس الى فرانكونيا . وكذلك نراه في العام ٩٤٢ يقوم بسفر شاق طويل ليشرف على انتخاب

اسقف راتسبون . وكان في الغالب يعين الاسقف ولكنه يحاول دوماً الا يذهب مع ما يخالف أمانى الناخبين القانونيين . وفي بعض الاحيان لا يتورع عن القيام بترشيح رسمي ويبقى حراً في المصادقة على المقترحات التي تقدم اليه .

واستطاع اوتون على هذا النحو ان يشغل الاسقفيات باناس من صنع كفيه أو من أعضاء أسرته : فمن ذلك ان ابنه غليوم أصبح مطران ماينس وأخاه برونون مطران كولونيا ، وغيرهما من ذوى قرابه . ويجب أن نعترف أن هذا الانتخاب كان موفقاً بوجه عام . لأن من تقلدوا هذه المناصب كانوا على جانب عظيم من التقوى والصلاح وسعة الثقافة والمعرفة .

ويعتبر اوتون الاول هؤلاء الأساقفة الذين يعينهم تابعين يرتبطون مباشرة بالتاج الملكي . فهم أمراء زمنيون ويتمتعون بامتيازات عديدة . ولا شك ان اوتون الاول اتبع في سياسته هذه السياسة التي اتبعت في عهد أسلافه ، وكان منها أن منحت الاسقفية حصانات متعددة ، ولكن حكمه يسجل في هذه الناحية تقدماً محسوساً ، فقد زاد في السلطات القضائية الممنوحة لمحكمة الاسقفية على الارض التي تتمتع بالحصانة ، وتخلى لكثير من الأحرار عن بعض الحقوق الملكية الهامة مثل ضرب النقود وجباية الضرائب التي تفرض على التجار . ولم يكتف بذلك فحسب ، بل انه خول الاسقف سلطات الكونت في داخل المدينة وملحقاتها كما حصل ذلك في سبير عام ٩٤٦ ، وماكدبورغ ، وماينس ، وكولونيا ، وشور ، وجرى خلفاء اوتون الكبير على هذه السياسة . وهكذا توصلت الاسقفية الالمانية ، خلال النصف الثاني من القرن العاشر ، لأن يكون لها سلطة ونفوذ عظيم في الاراضي الواقعة تحت يدها .

وأصبح الأسقف على هذا النحو أميراً زمنياً لا يختلف عن كبار الاقطاعيين العلمانيين . وكان الملك يرى فيه تابعاً من تابعيه المباشرين ، ويتصرف تجاهه تصرف الأمير حيال تابعه . ولم يكتف بممارسة السلطة التقليدية التي تعترف له بها القوانين أثناء الانتخابات الاسقفية ، بل اراد أن « يقلده منصبه » بتسليمه بيده عصا الراعي ، والا يجري له أي احتفال لمباركته في منصبه الجديد إلا بعد اجراء هذه الشكلية . وهكذا أصبح الاسقف يأخذ كنيسة من الملك ، واليمين التي يحلفها بين يديه ميمناً اقطاعية . هذا ولما كان الروحي والزمني في الاسقفية يؤلفان كلاً واحداً ومن الصعب الفصل بينهما ، فقد نشأ التباس اثقل علاقات الكنيسة والدولة وخاصة عندما استرجعت السلطة العليا في الكنيسة ، ممثلة بالكرسي الأقدس ، كامل الحرية والاستقلال .

وهذا النظام الذي وضعه اوتون لا يخلو من محاذير . إلا ان هذه لا تظهر في الوقت الحاضر لان الأسقفية الألمانية في عهد اوتون الاول كانت قوينة الأخلاق وتهتم في وظائفها الروحية . لقد كان برونون كولونيا مثال الأسقف الكامل . ويمكننا القول كذلك عن اولريخ اوغسبورغ الذي حمى المدينة عندما هدها الهونغارون ووقف حياته على خدمة الكنيسة والتبشير بعناية فائقة . ولكن هذين الحبرين لم يكونا الامثالين من نوع ممتاز خاص . ومع الزمن أخذت المشاغل الزمنية تنمو عند الأساقفة وتضطرم في نفوسهم حتى طغت الآمال السياسية على المصالح الدينية الكبرى . وإذا كانت المساوية سهلة الاجتناب مع أمير كأوتون الأول فإن الحاق الأسقفية بالملكية أو ارتباطها بها ارتباطاً وثيقاً لا يخلو من محذور في المستقبل ، وكفي لذلك تغيير الملك حتى تتسلل الحوادث المؤسفة في داخل الكنيسة الامبراطورية .

وإذا حد اوتون الأول من نفوذ الأدواق واعتمد على الكنيسة فقد منح الملكية الساكسونية قوة عظيمة لانتجاري . وهذا ما يوضح لنا كيف ان ملك جرمانيا ، بعد عشر سنوات من توليه الحكم ، استطاع أن يفكر بوصول ما انقطع من تقاليد شارلومان ، ويفتح ايطاليا ويبعث الامبراطورية لصالحه .

فتح اوتون ايطاليا ونظمها وظفر على الهونغارين والسلافيين وبدا حامياً مجيداً للمسيحية . رد هجوم الشعوب الوثنية في الشمال والشرق وعمل على اشعاع الانجيل في بلاد الشمال أي في البلاد الاسكندنافية . وتابع هذا الجهد في البلاد السلافية . وساهم في تنظيم البعثات المسيحية وبدا كأنه متمم لما قام به شارلومان . وإذا ملأ اوتون الأول الكنائس برجالها واستعملها لتحقيق أهدافه الزمنية إلا أنه ما أنفك يساعدها كشارلومان ويمنح قرارات مجامعها الدينية قوة القانون . واستطاع بما قام به من خدمات للكنيسة أن يكسب عطف الاكليروس ويسخره لخدمته والدعاية له في ارجاع الامبراطورية . ولهذه الغاية نراه ، في ٣١ كانون الثاني ٩٦٢ ، أمام روما ، ولكنه لم يستطع اجتياز عتبة « المدينة الخالدة » إلا بعد أن أقسم اليمين التقليدية التي تطمئن البابا والرومانيين على سلامة نيافته . ولقد كانت وعوده أكثر وضوحاً من الوعود التي فاه بها من قبل أباطرة الكارولنجيين . فقد تعهد أن يعمل على تمجيد الكنيسة الرومانية واعلاء شأنها ، وألا يقوم بشيء ضد حياة خليفة بطرس وشرفه ؛ كما أقسم أيضاً ألا يعقد مجلساً في روما دون موافقة البابا ، والا يتدخل في شيء في ادارة دولة الحبر الأعظم ، وأن يعيد كل ما قبض عليه من تركة القديس بطرس ، ويحمي أموال

الكرسي الأقدس الزمنية . وبالمقابل يقسم البابا جان الثاني عشر والرومانيون ببقايا القديس بطرس الا يدعموا أعداء اوتون في ايطاليا .

وهذا التبادل في الوعد يدل بوضوح على استعداد جان الثاني عشر . فهو يريد أن يحافظ على السدة الرسولية ويصون لها ممتلكاتها . بيد أنه كان مجبراً على تحمل الحوادث ، ولم يقبل إلا عن غير رضى بالتخلي عن أطماعه الايطالية . وهو يريد على الأقل أن ينقذ كل ما بقي له من سلطة زمنية ويجول دون إلحاق الكنيسة الرومانية بالامبراطورية ، فدل بذلك على مهارة حقيقية . هذا ولما كان اوتون يرغب في دخول روما فقد أقسم على كل ما طلب منه . وهو وان لم يشأ لنفسه أن يكون مغلوباً فقد كان يفكر بتتويج نفسه امبراطوراً ولسوف يأخذ بثأره في في الساعة التي يختارها .

وفي ٢ شباط ٩٦٢ ذهب اوتون الأول إلى كنيسة القديس بطرس تصحبه الملكة اديلثيد وتناول من يدي البابا جان الثاني عشر التاج الامبراطوري بمقتضى الاحتفالات والمراسم المتعارف عليها في بزنة ودولة الفرنجة . ونادى به الشعب الروماني امبراطوراً حسب الاصول التقليدية ثم انسحب البابا والامبراطور بعد أن تبادلوا الهدايا الثمينة .

وبعد أن تقلد اوتون المنصب الذي يتوق اليه منذ سنوات عدة واطمأن به المقام أخذ ينتزع من البابا سلسلة من الامتيازات كان يعتبرها ضرورية لتأمين مستقبل الامبراطورية التي بعثها على شرفه .

وفي ١٢ شباط انعقد مجمع ديني في كنيسة القديس بطرس واتخذ تديبيرن هامين :

اولاً : يحدث جان الثاني عشر ، بناءً على طلب اوتون ، في

ماغدبورغ مطرانية ويلحق بها أسقفية مرسبورغ وتصبح على هذا النحو
ماغدبورغ مركز مطرانية البلاد السلافية والتبشير، والنفوذ الجرمانى .
ثانياً : يخلع جان الثانى عشر هيرولد من كرسي مطرانية سالزبورغ
بعد أن أظهر معارضته لسياسة اوتون الدينية ويعهد بوشاح المطرانية إلى
فريدريك المرشح الملكى .

إن البابا جان الثانى عشر فى هذين المرسومين يوافق ويصادق على
سياسة اوتون الكبير الدينية : فهو يعطيه الوسائل التى تتوسع بها المانيا
نحو الشرق ، ويعترف بسلطته المطلقة على الكنيسة فى مملكته . ولكنه
أثبت فى هذه المناسبة رفعة البابا . فقد ذكر فى أعلى المرسوم الذى
جعل فيه ماغدبورغ مطرانية أن من حق الكنيسة الرومانية أن تنظم
شؤون المسيحية وان ما فعله لها هو تنازل عند « توسلات اوتون
الحاشية » . وهو فى الوقت الذى يمنح اوتون الوسائل التى يزيد بها
قوته ، لا يتوانى عن اعلان تفوق البابا على الامبراطور .

وفى يوم ١٣ شباط أتى دور اوتون الأول وبرهن للبابا أن خليفة
بطرس إذا كانت له السيادة العامة فى الحقل الروحي والكنسي ،
فالامبراطور يتمتع بالامتياز نفسه فى الحقل الزمنى . ففي هذا اليوم أعلن
امتياز الشير الذى أثبت فيه حقوق البابا على ممتلكات الكنيسة الرومانية
وخاصة على الاراضي التى كانت منحة من بين وشارلومان . واستوحى
من دستور روما ٨٢٤ فوضع رقابته على ادارة الدولة الحبرية ، ونص
على أن مندوبيه (ميسى) يجب أن يقدموا اليه كل سنة تقريراً عن
الشروط التى يقام فيها العدل ، وينبؤوه عن القلاقل التى يمكن أن
تحدث . فهو بهذا يؤكد بأنه سيد روما التى وعدّها منذ بضعة أيام
خلت باحترام استقلالها .

يضاف إلى ذلك أن الدستور الذي يحدد به أحكام دستور ٨٢٤ يقرر بأن الحبر الذي ينتخب في المستقبل بصورة قانونية لا يشارك إلا بعد أن يقسم اليمين للامبراطور أو لملنديه (ميسى) . وهكذا نرى أن البابا إذا نادى بتفوقه على الامبراطور فليس ذلك إلا من قبيل الضلال والوهم ، وليس بإمكانه أن يحصل على منصبه دون مساعدة الرئيس الزمني للمسيحية .

ونرى بعد أن اتضحت لنا مراسيم مجمع ١٢ شباط وامتيازات الامبراطور في ١٣ منه ان الاتفاق بين البابا جان الثاني عشر والامبراطور اوتون الاول كان شكلياً محضاً ، وان وضع كل منها بالنسبة للآخر مازال قلقاً يشوبه سوء تفاهم عميق . لقد قبل جان الثاني عشر بحبي اوتون إلى ايطاليا أملاً في أن يضع حداً للفوضى التي كانت تسود في ايطاليا الشمالية وخوله منصب الامبراطورية شريطة ان تبقى الدولة الحبرية مستقلة استقلالاً تاماً ، ولم يدعه يدخل روما إلا بعد ان حصل منه على الضمانات الكافية في هذه القضية . أما ملك جرمانيا فلم يكتب بلقب الامبراطورية الشرفي فحسب بل أراد أن يحى شارلومان . ويقتضي ذلك في الزمني سيادة روما وايطاليا ، وفي الروحي الوصاية على الكنيسة الرومانية بعد أن تحورت من نير الارستقراطية المحلية .

وهذان المفهومان المتضادان يوضحان لنا كيف ان اوتون ، بعد أن ارجع الامبراطورية ، اصطدم بشقى المصاعب التي اضطرته أن يعود إلى ايطاليا مراراً ؛ وان جان الثاني عشر وان خضع عن كراهية لامتياز ١٣ شباط ، إلا انه عزم على الا يتقيد به ويصرف النظر عنه لاسيما وان الرأي العام في ايطاليا كان غير ملائم للألمانين . وقد راجت عنهم الاخبار بأنهم محاربون أشداء يخشى شرهم . واذا نودي باوتون امبراطوراً إلا انه

في ١٤ شباط ، أي عندما غادر العاصمة المسيحية ، لم يكن مطمئناً عن غده ويستطيع أن يتنبأ بوقوع انقلاب في العاجل القريب .
ولكن أوتون الأول لم يكن من أولئك الذين تلين قناتهم بسهولة ، فقد استطاع بما أوتي من قوة أن يثبت دعائم الامبراطورية في الغرب .
ورغم أن الظواهر يَدت معاكسة له ، فقد تغلب مفهومه على مفهوم جان الثاني عشر . ودام هذا الظفر ما يقارب القرن على الأقل ، وبقي الابطارة الجرمانيون حتى الاصلاح الغريغوري ، رغم المعارضة الشديدة في بعض الاحيان ، يسيطرون على روما ويمارسون نفوذهم على الحكومة الحبرية .

وبهذا الاعتبار تحقق حلم أوتون . لقد بعث امبراطورية شارلومان . وهذا هو المعنى الذي علقه المعاصرون على حادث ٢ شباط ٩٦٢ . وإذا قلنا بعث الامبراطورية فليس في ذلك ما يدل على أن الامبراطورية التي ارجعها أوتون الكبير تنطبق على امبراطورية شارلومان . لاشيء من ذلك البتة . لقد حكم شارلومان بلاد الغرب كلها . اما أوتون فقد كان سيداً في ألمانيا وفي قسم من ايطاليا ، لأث جنوب شبه الجزيرة بقي تابعاً لبيزنطة حتى آخر القرن الثاني عشر ، وليس للنفوذ الجرمانى أي سيطرة عليه . فضلاً عن أن هذا النفوذ كان وقتياً في وسطها . أما فرنسا فقد كانت خارجة عن امبراطورية أوتون . ولذا يمكننا القول ان الوحدة المسيحية التي حققها شارلومان لم ترجع إلى ما كانت عليه عندما توج أوتون الكبير امبراطوراً في ٢ شباط ٩٦٢ . عدا ان سلطة هذا الامبراطور بقيت ادنى مما كانت عليه سلطة شارلومان التي بقيت ذكرى تردد في خلد أوتون الاول وتوجه سياسته . وعلى هذا ظلت سلطته المانية اكثر منها عامة .

ومها يكن فليس من العدل ان نبخس قيمة الاثر الذي شاده الملك
 الساكسوني . لقد استطاع ، في هذه البلبلة التي تجبب فيها الغرب بعد
 وفاة شارل السمين ، أن يدخل النظام بعد الفوضى ، والحياة بعد الموت .
 واذا تضائل ظل الامبراطورية وضائق رقتها الأرضية ، فقد بعثت على
 كل حال من جديد وطبعت تاريخ الغرب اعتباراً من العام ٩٦٢
 بطابع مغاير لما كان في السابق ، وانتهت الأزمة التي نجمت عن تفكك
 الامبراطورية الكارولنجية .

الفصل الرابع والعشرون

النظام الأميري

النظام السياسي والإداري في ممالك أوربة الغربية

سيما أوربة الغربية في منتصف القرن العاشر . - لقد بدل زوال الامبراطورية الكارولنجية مصور أوربة الغربية تبديلاً عميقاً . وذلك بأن احل الانقسام إلى ممالك محل الوحدة الامبراطورية التي أعيد انشاؤها على يد اوتون الكبير بصورة غير تامة . ولم يقف عمل التفكك عندهذا الحد ، ففي منتصف القرن العاشر لم تكن كل مملكة من هذه الممالك الا فسيفاء من الدول ، وعلى رأس كل منها دوق أو مركيز أو كونت وليس للسلطة الملكية على هؤلاء في الغالب أي تأثير ، لأن هذه السلطة كانت ، في الحقيقة ، وهمية اكثر منها واقعية . يضاف إلى ذلك ان الكونتيات نفسها انقسمت إلى امارات مستقلة علمانية أو كنسية . وكان القائمون عليها يمارسون معظم الحقوق الملكية ولا يرتبطون بالكونت إلا بروابط التبعية ، أي بالولاء الشخصي ، الذي يربط الكونتات والأدواق بالملوك .

ولم يكن هذا النظام الأميري شيئاً جديداً ، فقد وجد ، كما رأينا ، في غضون العصر الكارولنجي ، وترجع اصوله الاولى إلى اعلى من ذلك ايضاً . فالتبعية التي تليق شخصاً يسمى التابع بشخص آخر يسمى

الأمير كانت تعترف بها الصكوك التشريعية منذ عصر شارلومان . وتعتبر في عهد خلفائه عنصراً من عناصر تشكيل الدولة : فكل شخص يستطيع ان ينتخب لنفسه أميراً ويقسم له يمين الولاء والاخلاص ؛ وبالمقابل يلقي منه الحماية والرعاية والتمثيل أمام الملك . وعلى الغالب يكون هذا التابع في الوقت نفسه مستفيداً يعهد اليه الامير بطريق الانتفاع بأرض يفلحها مقابل اتاوات معينة وينقلها الى أنسالة غالباً .

وعلى هذا الحادث الاجتماعي ، الذي نشأ منه النظام الاميري ، تعلقة بعض التعاملات التي سببت تجزئة الدولة ومهدت لتحويلها السياسي بشكل لم يكن في الحسبان : فقد تخلى الملك ، بالحصانة ، عن الحقوق الملكية على اراضي الملاكين العقاريين الكبار وأخذ هؤلاء يقضون بين الناس ويجبون الضرائب لأنفسهم . وأفادهم هذا الوضع وحصلوا على الاستقلال التام تقريباً على حساب الدولة . فقد قبل الملك خاصة ، وهذه هي المرحلة الحاسمة ، بتمثيل الوظائف بالانتفاعات وتخلى ، الى الكونتات ممثلي السلطة العامة ، عن جميع املاك الدولة والحقوق الملكية الداخلة في نطاق منطقتهم الادارية ، كرواتب تدفع لهم . وأصبح هؤلاء الموظفون مستفيدين ولهم حصانة ، وعوضاً عن أن يكونوا منتدبين ومسؤولين وقابلين للعزل من مناصبهم ، أصبحوا لا يرتبطون بالسلطة المركزية الا بروابط رخوة من الولاء والاخلاص . ولا شك في أن هذه الحال تعتبر ثورة لأنها حولت الكونتات ، وهم مبدئياً عمال الدولة ، الى موالين وتابعين . ومن الطبيعي أن تجعل الفوضى السياسية ، التي عمت تقريباً كل مكان خلال النصف الأول من القرن العاشر ، هذا « الولاء » نظرياً ، وأن تكسر العقبات التي تلحق الموظفين الكارولنجيين القدامى بالتاج الملكي .

ونرى في غضون هذا العصر ان جميع الممالك كانت مسرحاً للمنازعات

السلالية التي هزت السلطة الملكية . فقد كان الملوك ، في سبيل الحفاظ على التاج الذي كان ينافسهم عليه كثير من المطالبين ، يهتمون خاصة بتأمين مساعدة مخلصهم ويرون أن خير وسيلة للحصول على مساندتهم هي التخلي لهم عن امتيازاتهم التي حافظوا عليها . وهكذا فإن الأدواق والمراكيز والكونتات الذين كانوا منذ العصر الميروفنجي يطلبون حماية المليك ، قبل الدخول في الوظائف ، قد آل بهم الأمر الى ان أصبحوا تابعين للملك . واكتفى الملك باعتباره أميراً بالاحترام ويمين الولاء دون أن يمارس أي رقابة عليهم . وهناك اكثر من هذا : وهو ان الوظائف الكبرى التي تأتي عنها الاقطاعات الكبرى أخذت تنتقل بالوراثة . وعلى هذه الصورة تألفت اسر حقيقية لا تخضع للسلطة الملكية . ففي فرنسا مثلاً نجد ان أدواق بورغونيا ، منذ ريشار العادل (٨٧٧) يتوارثون وظائفهم كاهراً عن كبر ، وكذا الحال في نورمانديا في عهد غليوم ذي السيف الطويل (٩٢٧ - ٩٤٣) وريشار الأول (٩٤٣ - ٩٩٦) وريشار الثاني (٩٩٦ - ١٠٢٧) او في فلاندر ، منذ بودون زند الحديد (٨٦٣ - ٨٧٩) ، لم يفارق منصب الكونتية هذه الأسرة . ونجد الحالة نفسها في ألمانيا لان انتقال اللقب الدوقي لا يضايقه الا معارضة الاسر المنافسة . وهكذا توطد نظام الاخلاص الشخصي بعد ان حذف تدخل السلطة المركزية في الاقاليم المحلية التي أصبحت أمارات مستقلة .

وهذا التطور الذي نشاهده عاماً في جميع بمالك الغرب لم يقف في كل بلد في نفس المرحلة بل نتج عنه اختلاف وتنوع ولا يسعنا إلا أن نصر على هذه الناحية لأن النظام الأميري لم تكن له سياء واحدة في ألمانيا و ايطاليا و فرنسا .

النظام الأميري في ألمانيا . - ففي ألمانيا شهدت الملكية دور كسوف

تام في زمن لويس الطفل (٩٠٠ - ٩١١) وكونراد فرانكونيا (٩١١ - ٩١٨) ثم نهضت بعد وصول الامرة الساكسونية إلى السلطة (أيار ٩١٩) .

وقد استطاع أوتون الأول أن يجعل من الأدواق موظفين يعينهم ويعزلهم حسب هواه . وما كان صحيحاً من أجل الأدواق كان صحيحاً بالنسبة إلى الكونتات والمارغرافات الذين كانوا على رأس الكونتيات في الثغور أو الحدود المتاخمة للسلافيين والهونغاريين ويعتبرون جميعهم موظفين مقلدين بالحقوق الملكية وممثلين للسلطة المركزية يقومون بالعدل ويقودون الجيش باسم الملك .

ورغم النهوض الذي قام به أوتون الكبير فقد ظلت الكيانات الموجودة واصطدمت ارادة الأمباطور ببعض العادات المكتسبة . وإذا تخلص الملك في بعض الظروف من الأدواق والمارغرافات أو الكونتات العصاة المتمردين وتصرف بالقابهم لصالح اقربائه وأصدقائه فقد كان مضطراً في حالات عديدة ان يتكيف مع التقليد ويقبل بانتقال ارث الوظائف العامة حتى ان هذه الوظائف كانت تؤلف قسماً من تركة العائلة وظلت تشبه الانتفاع . ولكن السلطة الملكية ضعفت بتأثير هذا السبب او ذاك ، وهذا ما حصل في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ونجم عن ذلك أن أصاب المانيا ما أصاب بقية الدول الغربية الأخرى . هذا ولما قاوم أوتون الكبير النظام الأميري كان هذا النظام قد تأصل فيها متأخراً عن غيرها ولكنه دفع بجذوره إلى الأعماق وسيدوم فيها إلى زمن طويل .

ومن جهة ثانية ، كان أوتون الكبير وخلفاؤه يحاولون تعديل سلطة الأدواق وساقتهم الظروف إلى إيجاد امارات كنسية لصالح الكنيسة ، وأغدقوا عليها الهبات وتنازلوا للأخبار ، الذين يشبهون بالامراء الزميين ،

عن الحقوق الملكية التي ظلت حتى ذلك الحين قاصرة على الكونتات : ففي مملكة اللورين القديمة مثلاً أخذ أساقفة لياج كونية هوي ، برونا نجيرونز وهاسينغا وكوندروز تقريباً . وفي ماينس وكولونيا وماغدبورغ وكواره قلد اوتون الأول الاساقفة سلطات كونته على ادارة المدينة أو الأبرشية مع الحق بجباية الموارد المتعلقة بها . وكذا الحال في عهد اوتون الثاني في فورمز ومندن . ثم وسع اوتون الثالث وهنري الثاني هذه السياسة . وهكذا أصبحت الأسقفية في المانيا عنصراً من العناصر الأساسية في النظام الأميري . وبما أن العزب الكنسي يدعو إلى تبديل الأسقف عند كل وفاة فقد حافظ الملك على حق التسمية والتعيين . ولذا فان التصرف بالحقوق الملكية في أيدي الأحرار كانت محاذيره اخف على الملكية من محاذير التصرف بهذه الحقوق في أيدي الامراء الزميين .

النظام الاميري في ايطاليا . — على الرغم من أن ايطاليا ، منذ ٩٥١ ، كانت تابعة لملوك جرمانيا ، فقد حافظ النظام الأميري فيها ، خلال النصف الثاني من القرن العاشر ، على حيويته ونشاطه : ففي ظل الاوتونيين ، كما في العهد الفوضوي الذي تلا زوال الامبراطورية الكارولنجية ، بقيت شبه الجزيرة مقسمة إلى عدة امارات كان الامراء فيها أشبه بملوك حقيقيين . وقد أصبحت هذه الامارات وراثية ، ولم يستطع أوتون الكبير أن يذهب إلى ما يخالف هذه التعاملات القديمة : ففي طوسكانا مثلاً ورث الماركيز هربرت لقبه لابنه هوغ الكبير وأصبح هذا الأخير احدى الشخصيات الأساسية في السياسة الايطالية في آخر القرن العاشر . وكذا الحال في تورينو وكانوسا وسبوليت وايفرة . إلا ان فريبول ، التي تهم الدولة الجرمانية في ايطاليا ، اعتبرت ثغراً المانيا مرتبطاً بالملكة مباشرة . وكذا الأساقفة أيضاً حافظوا على استقلالهم وعلى اراضيهم

الكبرى . ولما كان المراكيز والكونتات يحسدونهم فقد ظلوا ، كما في المانيا ، مرتبطين بالتساج الذي يحميم ويثيرهم ليكون مطمئناً من مساعدتهم .

النظام الأميري في فرنسا . - وفي فرنسا كما في ايطاليا زالت الامتيازات الملكية بتمامها تقريباً ولم يستطع اوتون الكبير استرجاع السلطة الملكية ، بل ، على العكس ، نرى أن هذه السلطة كانت في ضعف مستمر بنتيجة المنازعات الطويلة بين الأسر والضرورة التي وجد فيها الكارولنجيون أو الروبرتيون واضطرتهم إلى التصرف ببعض الحقوق التي استطاعوا أن يحافظوا عليها ، ليشتروا المساعدة الضرورية لهم . ومن جهة أخرى ، لا نجد في فرنسا ما يشبه الدوقيات الألمانية . فقد كانت المملكة مقسمة إلى اثني عشرة أو خمس عشرة امارة دون أي ميزة عرقية ظاهرة وكأن زعمائها ، من الدوق أو المراكيز أو الكونت ، يضمون تحت سلطتهم عدة كوتيات كارولنجية . وكانت هذه الكونتيات دولاً حقيقية تحكمها سلالات وراثية ، وتدارس فيها جميع الحقوق الملكية . ولقد اضع الملك فيها سلطة الاشراف ، وقلم انواه يحافظ في بعض هذه الامارات على تعيين بعض الأساقفة . وما من أحد منهم فكر في أن يرجوه باستلام الدبلوم منه . ولم يكن في وسع هذه السيادة النظرية للملك أن تطلب من هؤلاء التابعين ، وهم أنسال الموظفين الكارولنجيين القدامى ، أي واجب يقتضيه الاخلاص والامانة . وهكذا توصل النظام الأميري إلى حد تطوره ، وسيمضي زمن طويل قبل أن يصبح باستطاعة الملكية أن تستعيد هذه الحقوق التي نخلت عنها .

سلطة التابعين الكبار . - لقد كان النظام الأميري يختلف بين مملكة وأخرى في أوربة الغربية . وهذه الاختلافات كانت اختلافات

درجة لا اختلافات طبيعية. فقد وجدت في كل مملكة امارات كبرى كان اصحابها في السابق موظفين قابلين للعزل من قبل الملك سيدهم ، وأصبحوا الآن لحد قليل أو كثير تابعين وراثيين له ، وهو زعيمهم وسيدهم ومولاهم . ولا شك في أن صفة هذه العلاقة لم تتبدل . ففي العصر الكارولنجي لم يكن الادواق والكونتات ليدخلوا في وظائفهم إلا بعد أن يكونوا قد وضعوا أنفسهم تحت انتداب سيدهم واقسموا له بين الولاء . وفي الحقيقة ان عقد التبعية في القرن العاشر والحادي عشر ينتج عن هذا الطقس ، ويتضمن الاحترام الناشئ عن الحماية القديمة وبين الاخلاص التي تقسم على الانجيل . وهما عملان يتم احدهما الآخر دون أن يتعارضا . وكما قيل على وجه الصحة : « إن التعهد التبعية ينشأ من اتحادهما الصميمي الذي لا يقبل الحل » .

ولكن إذا بقيت الصيغ الحقوقية كما هي نفسها ، فإن الحالة التي تشملها تغيرت بصورة عميقة . فمن جهة ، أصبح التابعون الكبار وراثيين ينقلون إلى ابنائهم دوقياتهم وكونتياتهم ، إلا في الحالة التي لا يكون لهم أعقاب مباشرة منهم ، أو عندما يكون الوارث قاصراً . وفي هذه الحالة يتدخل الملك . وبصورة عامة يكتفي الملك بقبول احترام ابن الدوق أو الكونت المتوفى . ومن جهة أخرى ، كان الملك في القرن العاشر يحتفظ ببعض المراقبة ، إلا في المانيا ، ويتمتع التابع الكبير شخصياً بالسلطات التي خولت اليه كمنسوب عن التاج . وأصبحت المحكمة الملكية محكمته الخاصة ، وصار يجبي الضرائب لحسابه بعد ان كانت في القديم تجبى وتسلم مبالغها إلى الادارة المركزية وله بلاطه وبذيع فيه اراداته الاميرية . وكان ، من الناحية النظرية . على الأقل ، يستأنف قرارات المحاكم الدنيا . وكان في فرنسا ، في كثير من الحالات ، يعين

العصر الوسيط - ٣٤

الأسقف ، ويمارس الحقوق الملكية على الكنيسة والأديرة ، اللهم إلا إذا تخلى عنها بطريق الانتفاع . يضاف إلى ذلك ان سلطته كانت متغيرة . وقد حدث في داخل هذه الإمارات الكبرى حادث مماثل للحادث الذي انشاها في نطاق المملكة ، وهو ان الامراء من صنف ادنى كانوا يتمتعون ، بنتيجة سلسلة من التصرفات المتتالية في آخر القرن العاشر ، بالحقوق الملكية التي تؤمن استقلالهم . ولقد توصل الاقطاعي الكبير في القرن الثاني عشر ، في فرنسا على الأقل ، إلى أن يأخذ منهم جميع ما اكتسبوه في القرن العاشر . ولكن تفتت السلطة الملكية ظل حتى ذلك التاريخ يرافق التجزئة الأرضية واستحكم طويلاً .

ولقد كانت هذه التجزئة الأرضية نتيجة للغارات الكبرى التي حصلت في القرن التاسع والعاشر وكان تأثيرها في انشاء النظام الاميري حاسماً اكثر من تأثير المنازعات السلافية .

ورأينا كيف ان الدولة ضعفت في آخر العصر الكارولنجي ولم تستطع في اكثر الحالات ان تؤمن المقاومة ضد غارات المسلمين والهونغارين والنورمانديين ، وان السكان تركوا وقواهم الخاصة فحاولوا ان يحموا أنفسهم باستعمال الموارد التي كانت في متناول يدهم مع تنظيم الدفاع المحلي . ولعبت سلالات الامراء الكبرى في بعض الاحيان دوراً وعبرت في حال النجاح عن ازدياد قوتها . فالسلطات المحلية التي كانت تتمثل بالأسقف او الكونت او الملاك العقاري ، وتتصرف بالوسائل الكافية ، تدخلت بشكل حاسم وردت جميع المخاوف الملازمة لهذه الغارات . وهكذا ولدت ضرورات النزاع سلسلة من الحوادث الاجتماعية واجتاز النظام الاميري بواسطتها مرحلة جديدة .

وعندما كان النورمانديون والهونغارون يهاجمون منطقة من المناطق ،

كان هم السكان فيها ان يجدوا لانفسهم ملجأً يعتصمون به من شر القتل، يدفعهم في ذلك حب البقاء، وقد يضطرون إلى تضيحة قسم كبير من أموالهم لانقاذ حياتهم المهددة . وكان لديهم ثلاث معاصم : المدن ، الاديرة المحصنة ، القصور .

دور المدن . - لقد كانت المدن في بادئ الأمر ملاجئ، وتذكر التاريخ ان السكان يفرون إليها إذا دامهم العدو . وكثيراً ماتعطينا هذه التاريخ عنهم صفحة سوداء قائمة . ففي مدينة سانس شوهد مرتين أثناء الغزو النورماندي (٨٩٨) والغزو الهونغاري (٩٣٦) ان رهبان دير سن بيير لوفيف يتركون الأبوية مع « البقايا » المقدسة ويلجأون إلى داخل الحصن . وفي آنجو كانوا يضحون بالارياض . وفي داخل آنجه وسومور وآمبواز كانت تتجمع نقاط المقاومة . وقد لعبت اوغسبورغ في المانيا و بافيا في ايطاليا الدور نفسه .

هذا ويمكننا ايضاح هذه الوظيفة التي كانت تقوم بها المدن : ان كثيراً من هذه المدن قد حافظت على أسوارها التي يرجع العهد بها إلى زمن الرومانيين . وهذه هي حال ماغدبورغ وفرتربورغ وهيلدشهايم . وفي الغالب كانت هذه الحصون لا تكفي للدفاع . ولذا كان من الضروري ان يعاد بناؤها واصلاحها . ففي المانيا، في عهد حكم هنري الأول ، كان السلافيون يهددون المدن الساكسونية . وقد حصنت هذه المدن بتبشيت من الملك . وفي مدينة نانت ظل الأسقف فوشيه من عام ٩٠٠ إلى ٩١٥ يشيد الكاتدرائية ويحيطها بسور . وقد هدم النورمانديون هذا السور فاعيد بناؤه عام ٩٤٠ وتم عام ٩٩٠ . وتوطدت مع الزمن قيمة المدن العسكرية بعد أن فقدت في القرن العاشر كل أهمية تجارية وكانت معصماً كما كانت سداً يرد سيل الغارات .

دور الأديرة . - وقد يقع في بعض الحالات ان المدن تكون بعيدة جداً لتؤمن وظيفة الدفاع . وعندما لا يستطيع الرهبان ، نظراً لبعده المسافة ، أن ينقلوا اليها « بقاياهم » وكنوزهم كانوا يحصنون الابويات ، وتصبح هذه الاديرة بدورها ملاجئ . ففي عام ٩٢٦ مما خبر في سن غال في سويسرا منبشاً بقدوم الهونغارين . وما كان من الاب انجلبرت إلا ان قام بحفر الخنادق ولكن هذه لم تجد نفعاً ولم تمنع من نهب الدير وسلبه . وفي مكان آخر كانت الأعمال أقل ارتجالاً . ففي بداية القرن العاشر استولى بودون كونت فلاندر على أبوية سن برتن وحصنها لتقوم بدور الدفاع ضد النورماندين . وكذا الحال في ليموج حيث جعل لابوية سن مارسيال برجان لتكون على أهبة الدفاع وصدد الغارات . غير أن هذه التحصينات كانت على الغالب ابتدائية واستعمل فيها الحشب أكثر من الحجر .

ظهور القصور . - ولنفس الغاية في الدفاع ، شهد القرن العاشر في مختلف بلدان الغرب ظهور القصور المنيعة التي استعملت لرد غارات العدوان والغزو قبل أن تستعمل في الحروب الخاصة ، وظلت المدن وحدها حتى وصول النورماندين محاطة بالأسوار . ثم تبين أن هذا الشكل من الدفاع لا يكفي ، ولذا شاد الكونتات والأساقفة وكبار الملاكين العقارين ممدناً محصنة (الابراج) تسد الطريق في وجهه الغازين وتعصم السكان الريفين من شر أذامهم . ففي ألمانيا ظل بناء القصر حقاً ملكياً . ولكن الاساقفة والامراء استطاعوا في بعض الاحيان أن يغتصبوا هذا الحق . وفي فرنسا وإيطاليا أصبحت مراقبة السيد المولى وهمية كغيرها . وحتى آخر القرن العاشر عندما حقق فن انشاء المعسكرات تقدماً عظيماً ، كان منظر القصر بدائياً . ويحتوي سوراً من الحشب يمنع

الدخول منه بواسطة خندق . وفي الوسط الحصن ، وهو في الغالب من الخشب ويشرف على الموقع . وقد نظمت فيه كل وسائل الدفاع : من أقبية تجمع فيها الاناوات الاقطاعية عيناً وكل ما يلزم لدعم الحصار زمناً طويلاً . وفي آخر القرن العاشر تحسن بناء القصر الأميري ، وحل الحجر محل الخشب في البناء وأصبحت الحصون ترد عدوان الهجوم . ومهما كانت هذه الحصون بدائية فقد لعبت المدن الاولى المحصنة أثناء الغارات دوراً عسكرياً لا يمكن نكرانه ، وكانت المدن والأديرة والقصور محور الدفاع . وهذا ما يوضح لنا كيف أن الاساقفة والآباء وسكان القصور أخذوا على عاتقهم مهمة الحماية وانتهى الحال بهم إلى الاستفادة من النظام الأميري .

حياة القصر . — كان القصر في النصف الثاني من القرن العاشر يؤلف وحدة سياسية حقيقية . وكانت سماء هذا القصر مختلفة . وكان ساكن القصر كونتاً . وإلى جانب الكونتات ، الذين توصلوا بطريق السلاح أو بطريق الدبلوماسية الزوجية لتوطيد وحدات ، وجد كونتات آخرون اكتفوا بالحصول على استقلالهم وملكوا قصراً أو عدة قصور على أرض الكونتية . ووجد أصحاب قصور من ورثة الموظفين ، الذين هم أدنى من الكونت في الكونتية ، كالفيكونت وآخرون ملاكون عقاريون قدامى يتمتعون بالحصانة ويمارسون الحقوق الملكية على أراضيهم ، وآخرون مخلصون للكونت الذي يعهد اليهم بحراسة هذا القصر أو ذاك . ونظراً لهذه الامتيازات ، التي منحت لهم ، أصبح القصر يؤلف بداية لامارة جديدة .

ومهما يكن فإن صاحب القصر ، بعد أن كان في بداية القرن العاشر زعيماً عسكرياً ، استطاع أن يأخذ على عاتقه مهمة السلطة الادارية . وكانت هذه السلطة تختلف حسب المناطق وحسب سعة الأراضي

التي يمارس فيها سيادته . فهو يقوم بالوظائف القضائية والمالية التي اختصها بنفسه على حساب مولاه . وكان هذا الاغتصاب متفاوتاً : ففي بعض الاحيان نجد أن الأمير قد تسلم زمام السلطة القضائية باوسع حدودها . وأحياناً يجري العكس فلا يكون له من السلطة الا جزء يسير . ومن هنا ظهر التمييز بين العدل الأعلى والعدل الأدنى ، وكان مصدراً لللباس حقيقي ومنازعات عديدة . وبالمقابل ورث الامير الضرائب التي كانت في السابق تدفع إلى موظفي الملك ولا تذهب إلى الكونتات ورثة اولئك الموظفين . ولم يكن في القرن العاشر ضرائب للدولة بل استعيص عنها بالرسوم الاميرية التي حافظ الملك عليها في ملكه الشخصي ، ولكنها كانت خارجة عن يده في غيره من الأملاك .

الرسوم (الحقوق) الاميرية . — ليس لدينا تصنيف دقيق عن هذه الرسوم لأنها مبعثرة وكثيرة . فهناك رسوم على الاراضي تجبى من الفلاح باعتبارها منتفعاً لا ملاكاً للأرض ؛ ورسوم يرجع أصلها إلى الملك . ثم دغم النوعان معاً وأصبح من الصعب عزلها عن بعضها . لذا يجب التمييز بينها من حيث الطبيعة .

من الممكن عزل بعض الخدمات وأهمها السخرة التي تجبر الفلاح على القيام في أرض الأمير ببعض الأعمال ذات النفع العام مثل صيانة القصر وكري الخندق وزراعة أرض الأمير كما كان يفعل ذلك الارقاء قديماً . وإلى هذه الخدمات تضاف الاتاوات عيناً مثل « ضريبة الانتاج » وبوجهها يدفع الفلاح إلى الامير قسماً من محصوله ومن قطيعه أو من نتاج دواجنه ؛ والاتاوات النقدية مثل ضريبة (السانس) وتمثل في الاصل سعر أجار الأرض ، وضريبة الرأس ، وضريبة القامة وكانت شخصية وأخيراً أصبحت تدفع بمقدار تتناسب مع الموارد ؛ ثم رسوم

الانتقال مثل رسم البضاعة المباعة ، ورسم الارث ، ورسوم الاطفاء عندما تترك الأرض للكنيسة ؛ ورسوم التجارة والصناعة ، ورسم العبور وكذا ضريبة الطاحون والفرن والمعصرة وغيرها .

وكان الأمير في القرن العاشر يتمتع بضرب النقود . وكثيراً ما كان يزيف هذه النقود فيجعلها منتجة . وله حق جباية الرسوم القضائية ، ويبقي بعضها من الابرء ، وبعضها من اغتصاب الحقوق الملكية ، وتفسح هذه مجالاً لغرامات باهظة ، وفي الوقت ذاته لجبايات ليست أقل منها رحمة كضريبة الحتم والطابع .

الاستبداد الاميري . - يبدو مما تقدم أن الأمير كان يتصرف بعدة موارد هامة ، وان هذه الموارد كانت ظالمة وتعسفية ، ثم نظمت تدريجياً مع الزمن . غير أن شيئاً من هذا لم يحدث بعد في القرن العاشر والحادي عشر . كان الأمير في ذلك التاريخ سيد أرضه المطلق ، يقيم في قصره وبشكل أحياناً مع الامراء المجاورين حلفاً حقيقياً ويتحدى انذار مولاه . الا أن الجهد الذي بذل في سبيل المركزية في آخر القرن الحادي عشر وفي القرن الثاني عشر أدى إلى إيجاد اقطاعات كبرى وأخذت سلطة الامير تتناقص بصورة محسوسة لحساب سلطة كـبير الاقطاعيين .

المدن وسلطة الاسقف . - كانت منطقة الامير غالباً منطقة ريفية ولم يكن حول القصر ، في أكثر الاحيان ، تكتل عمراني حقيقي . أما في داخل السور فلم تكن الحصون التي أوجدت في زمن الغارات لتلجئ الا الرجال الضروريين للدفاع أو لخدمة الامير الشخصية . ومع هذا فقد وجدت بعض الابراج في داخل المدن . وكان محتلوها يشاركون الاسقف في سلطته . وكان لهذا الاسقف ، ولا سيما في المانيا ، سلطة

ادارية عليا يمارسها مباشرة في داخل المدينة أو ينحولها الى ممثل عنه أو الى نائبه الزمني .

وما فتئت سلطة الاسقف آخذة بالتزايد منذ العهد الميروفنجي ، وذلك بفضل الحصانة التي يتمتع بها . ومنذ القرن التاسع كانت المدينة ، مركز الابرشية ، حيث يقيم الاسقف باستمرار ، خاضعة لسلطته التي يمارسها على الزمني والروحي . وله فيها محكمة ويرأسها رئيس الكهان القانوني ، واليه يرفع الاكليركيون والعلمانيون عدداً عظيماً من القضايا ، ونخص بالذكر منها قضايا الوصايا والزواج . وكان مكلفاً بمصلحة الطرق والشرطة وبناء الحصون واصلاحها ، ويحل محل الادارة المدنية المقصورة في كل شيء . واذا احتفظ الملك أو الكونت بحق تعيينه الا أنه لم يكن كسائر التابعين الا اميناً يتوجب عليه القيام بالخدمات التي يتطلبها الفداء الشخصي . ولقد أخذ مكانه في التسلسل الاميري وأفاد من الاستقلال الذي اكتسبه واستطاع أن يسترجع الأموال والحقوق التي انتزعت منه في العصر الكارولنجي وبالأجمال ، ان الاسقفية نظمت نفسها في داخل النظام الاميري . وكذا الحال في الابويات التي استطاعت بفضل الاصلاح الرهباني أن تحقق نجاحاً في مهمتها الدينية وتستعيد نشاطها .

ينتج مما تقدم أن النظام الاميري نشأ عن تجزئة السياسة تجزئة عديدة نتيجة الازمة التي وقع فيها الغرب الاوربي بعد زوال الامبراطورية الكارولنجية . ففي آخر القرن العاشر وأول القرن الحادي عشر كانت السلطة في اوروبا الغربية بيد الاقطاعي والاسقف . ولا نجد الملك قد احتفظ ببعض امتيازاته في السيادة الا في المانيا . ومع هذا فاننا

نرى الاقطاعي والأسقف ، وان حكما حسب مشيئتهما في الحق ، يرتبطان بمولاهما . ويمكن أن يكون هذا المولى ملكاً أو دوقاً أو كونتاً . ونزاهما يتمتعان في أراضيها بحرية ؛ إلا انها من الوجهة الحقوقية لا يتمتعان إلا بحق الانتفاع ، ويحتفظ المولى بحق الملكية العليا في أراضي تابعه . وفي الوقت الذي تحررت فيه السلطات المحلية من كل مايؤلف في السابق السلطة المركزية ، كانت الالتزامات التبعية ، التي تربط مختلف درجات التسلسل ، تعرف بكثير من الضبط والدقة ولو كانت هذا الأمر نظرياً .

علاقة التابع بالمولى . - يستند النظام الأميري في القرن العاشر والحادي عشر على تسلسل مزدوج : تسلسل الأشخاص وتسلسل الأموال . وقد انضمت فيه التبعية المتحدرة من الحماية القديمة إلى الانتفاع الذي اخذ اسم الاقطاع واختلط ببعضها . وأصبح التابع يأخذ اقطاعه من مولاه كما غدت الروابط الشخصية القديمة روابط أرضية . وعليه فالإقطاع ليس سوى انتفاع أصبح مع الزمن وراثياً . ولكن صفته الاولى لم تسقط بتامها في عالم النسيان ، بل أخذت توضع ، لحد بعيد ، الشكل الذي أخذته الروابط التبعية .

يمين الولاء . - في العصر الكارولنجي كان الانتفاع ، موضوع العقد بين المولى والتابع ، يدوم مدى الحياة . وفي القرن العاشر والحادي عشر ، عندما يتوفى أمير من الأمراء ، كان ابنه يذهب إلى مولاه ويقسم له يمين الولاء والطاعة وذلك بأن يمثل أمامه حاصر الرأس ، جاثياً على ركبتيه ، واضعاً يديه في يدي مولاه . فيقبله هذا على فمه . ثم يحلف الابن على الانجيل وعلى « البقايا » . وبفضل هذه اليمين يصبح « رجل » مولاه ويتوجب عليه تجاهه القيام بجميع الالتزامات . وبالمقابل يأخذ منه اقطاعه

بشكل رمزي كأن يتناول منه عصا أو رمحاً . ثم يتم هذا الطقس بشكلية أخرى وذلك بأن يذهب المولى وتابعه الجديد إلى الأرض حيث تجري « رؤية الأرض » .

ومن النادر أن يكون التابع ، كما سيجري فيما بعد ، تابعاً لسادة متعددين حسب مختلف الأراضي التي يتمتع بها . وبصورة عامة لم يكن له إلا مولى واحد يتعهد له دون أي قيد . ويبقى الاحتمام شكلاً أساسياً للفداء الشخصي ، وتوضح بين الولاء معنى هذا العمل ، وبانضمامها إليه تهر للعقد التبعية .

الالتزامات المتبادلة بين المولى وتابعه . - وبوجب هذا العقد يتوجب على كل من المتعاقدين القيام بالتزامات خطيرة حيال الآخر . فالتابع الذي أقسم بين الولاء لمولاه يعده ، حسب تعبير فولبير شارتر في رسالة له إلى غليوم الخامس دوق اكيثانيا عام ١٠٢٠ بأن يكون :

نافعاً ، سهلاً ، ممكناً ، وهذا يعني أنه لن يقوم بأي عمل من شأنه الاعتداء على شخص مولاه ، وأنه سيكون له في كل الظروف خادماً شريفاً غيوراً . ويتعهد المولى بدوره بأن يقابله بالمثل . ولكن بينا يكون المولى غير مكلف الا بواجبات معنوية ، يتوجب على التابع التزامات أخرى ايجابية . ويلخصها فولبير في كلمتين : النصح والعون .

النصح (كونسيليوم) . - ويراد بها خدمة البلاط قبل كل شيء . فقد كان التابع مكلفاً بأن يهرع ورجاله كلما دعاه المولى لشيء معه جميع الارادات العامة والمشاركة في الامارات التابعة له ، وأكثر من ذلك أيضاً اقامة العدل . وهذه هي إحدى امتيازات المولى الرئيسية . وهو لم يجرد في الغالب من العدالة التي بقيت من خصائص البلاطات

الاميرية . أما تنظيم القضاء نفسه فيختلف حسب البلاد . ففي المانيا يرى في القرن الحادي عشر نوعان للمحاكم :

١ - المحاكم العامة وهي في العصر الاميري تعتبر امتداداً للمحاكم العامة في الدور الكارولنجي ولها نفس الاختصاص .

٢ - المحاكم الخاصة وهي محاكم من نوع جيد ولا تنظر إلا في الدعاوى التي تربط التابع بمولاه . اما في فرنسا فلا يوجد إلا محكمة واحدة وهي المحكمة الاقطاعية التي تتفرع عن المحكمة المحلية الكارولنجية وتضم ، لمعرفة الدعاوى نفسها ، القضاة التابعين للمزمين بهذه الخدمة التي تؤلف أحد التزاماتهم الفعلية .

العون (او كسيليوم) . - وهذه الخدمة مزدوجة . فقد كان التابع ملزماً بتقديم العون لمولاه بشخصه وأمواله . وهذا يعني أنه ملزم تجاهه بالخدمة العسكرية والمعونة المالية . أما الخدمة العسكرية فستضح في القرن الثاني عشر بقواعد مضبوطة ودقيقة . ولكنها كانت غير محدودة في بداية العصر الاميري . كان على التابع أن يستجيب لنداء مولاه لحراسة القصر أو الاسهام في الحروب التي يقوم بها ، وعليه أن يأتي وتابعيه الخاصين ويبقى معهم تحت تصرف المولى وحسباً يشاء . ويأتي أحياناً عن هذه الخدمة اساءة استعمال تؤدي إلى انقاص الواجب العسكري . ويبدو هذا الواجب بشكل آخر ايضاً : فكان على التابع ان يسلم قصره إلى المولى « الغاضب أو الهادئ » عندما يطلبه منه اما للحيولة دون حركة تمرد وعصيان ؛ أو لأن القصر يمكن أن يفيد نقطة استناد في حرب ضد العدو . وكذلك لا يستطيع التابع أن يبني حصوناً جديدة دون رضى المولى . وهذا تحفظ لا بد منه ؛ إلا انه كان مهماً من

الناحية العملية في هذا النظام الذي كثيراً ما استعملت فيه القوة فيما يخالف الحق .

وعلى التابع أن يساعد مولاه بالمال . وهذا الالتزام يتصف بصفة التعسف والشدة ايضاً . ففي القرن الثاني عشر تذكر بعض الحالات التي يجب فيها العون إلا أن هذا في الأصل لم يكن سوى ضرورة . ولكنه أصبح ، مع الزمن ، مصدراً للكثير من المطالب التي تطلب في غير موضعها . فإذا كان التابع ضعيفاً استسلم للضغط ؛ وإذا كان قوياً قاوم ونشأ عن ذلك خلاف مسلح . وكان هذا الخلاف جرحاً دائماً في القرن العاشر والحادي عشر .

الاتاوات الاقطاعية . - لم يكن العون التكليف المالي الوحيد الذي يؤديه التابع لمولاه ، فالى جانب هذا الالتزام الملازم للعقد التبعية كخدمة العسكرية أوجدت التقاليد السالفة للعصر الاميري عدة اتاوات معرفة بشكل أفضل .

لقد نشأ الاقطاع عن الانتفاع مدى الحياة ، ثم أصبح وراثياً من الناحية العملية ، الا أنه يعود من الناحية النظرية إلى يد المولى في حال موت التابع ، ويشتويه منه الوارث مقابل رسم يؤديه اليه . وقد اختلف اسم هذا الرسم كما اختلف مقداره بين الطرفين . وكان للمولى الحق في التصرف بالاقطاع إذا لم يشأ أن يورثه للوارث . وإذا شاء التابع أن يبيع الاقطاع فلا يستطيع ذلك إلا إذا نص صك البيع على اذن المولى . وهذا السماح لا يحصل عليه الا بعد أن يدفع التابع رسوم الانتقال . وكذا يجب الا يتصرف التابع بالاقطاع دون رضى المولى . ومثل هذا التصرف الجزئي يمتد إلى كثير من الحالات كتحرير القن أو إنشاء قومون (مدينة) . وكل هذا يدل على أن التابع ، من الوجهة النظرية ،

ليس له الا حق الانتفاع لا ملكية الاقطاع . غير ان المفهوم الحقوقي الذي يعمل بوجبه الأمير وتابعه لا يأتي بحدود واضحة لممارسة سلطة الأمير في داخل الامارة . لذا كان الأمير أو الأسقف يتصرف بأرضه كما يريد ويديرها حسب هواه دون أن يستطيع التابع اظهار « حقه الاعلى » هذا التعبير الذي أصبح مع الزمن في عداد العبارات القديمة البالية .

الارث . - ولقد كان الارث دليلاً محسوساً لهذا الاستقلال الواقعي . وبالرغم من الشكليات الرمزية التي تذكرنا بأصل الاقطاع مدى الحياة ، فقد أضاع المولى كل سلطة للتدخل في ارث التابع . ففي القرن العاشر كان المولى يمارس حق الإرث عندما يموت التابع دون أن يترك وارثاً ذكراً أو عندما يكون الوارث قاصراً . ولكن تأسست مع الزمن قواعد تدعو إلى حذفه تماماً . فقد اعترف كونراد الثاني من اسرة فرنكونيا بارث الاقطاع من أي نوع في ايطاليا والمانيا وهذا ما اكسبه عند قول مترجم حياته ويون شعبية كبرى بين تابعيه . وانتشر هذا المبدأ في كل مكان ولم ينازعه أحد .

وهذا الاقطاع ، الذي غدا وراثياً في القرن العاشر ، لم يتبع القوانين العادية في الارث التي يتقاسم بموجبها الاولاد ارث أبيهم . وبما أن المولى يحتفظ بالملكية فهو يستطيع نظرياً أن يتصرف بها كما يريد ، وبالتالي أن ينتخب أحد أولاد التابع ليخلف اياه . وبصورة عامة كان يفضل الابن البكر وهكذا أوجد في كثير من الاقطاعات حق الابن البكر المطلق الذي يبعد القسمة ويحتفظ بالوحدة . وليس هنالك إلا كونت واحد في فلاندر وكونت واحد في نورمانديا ودوق واحد في بافاريا . غير أن عرف التقسيم أبدى مقاومة عنيفة لهذه الميول الجديدة . وكثيراً ما ذهبت

الوقائع ، في هذه النقطة ايضاً ، إلى ما يناقض هذا الحق . واهياناً كان يتوصل إلى حل وسط بين هذين المبدئين المتناقضين : ففي بروتانيا وتورين كان للابن البكر $\frac{2}{3}$ الارض ، ويتقاسم بقيّة الأولاد الثلث الباقي .

ونشأت صعوبات أخرى عن وراثة الاقطاع وخاصة عند فقدان الورثة الذكور أو الاعقاب المباشرة ؛ أو عندما يكون الوارث الشرعي قاصراً . ولم يفصل في هذه القضايا بشكل واحد في جميع البلاد . ففي ايطاليا نص دستور الانتفاع ، الذي أذاعه عام ١٨٣٧ كونزاد الثاني على أن المرأة مستثناة من الارث الاميري . وفي فرنسا كانت المبادئ بعيدة عن توريث المرأة لأنها لا تستطيع الخدمة العسكرية . غير انه قبل ابتداءً من القرن الحادي عشر بأن يسمح لها بأن تمثل نفسها . وانتقلت بهذه الصورة عدة امارات إلى أيدي النساء ؛ وبالتالي كان يبحث عن الوراثة الغنية في سبيل الزواج . وكان المولى يسرع في زواجها ليزيد في أرضه . وكلف هذا النوع من العوامل عقبة في سبيل التجزئة الناجمة عن النظام الاميري .

ولإذا لم يكن للتابع أعقاب مباشرة أخذ المولى الاقطاع . هذا من الوجهة الحقوقية . إلا أنه قبل فيما بعد أن يرث الأخ أخاه ، وكذا من أجل الأعمام وأبناء العم ، وقد يقع عندما يفقد الأمير ابنه البكر أن تحدث منافسة بين حفيده القاصر وابنه الثاني أو بين الاخوة الباقين ، ولذا فضل احترام امتياز الابن البكر .

وقد يقع إلا يوجد إلا وارث قاصر . ففي هذه الحالة كان المولى في القرن العاشر يأخذ الاقطاع . وفي القرن الحادي عشر بالعكس أدخل نظام « التأجير » : وذلك بأن يعين المولى « وصياً » . وفي غالب

الاحيان ينتخب نفسه وصياً . وهذا التدبير يسمح له بالتمتع بالموارد حتى يبلغ التابع القاصر سن الرشد . ثم انيط هذا الأمر إلى أقرب الاقرباء . ولا يخلو الأمر هنا من خطر على القاصر الذي يموت أكثر من مرة وفي شروط مشبوهة . وإذا كان القاصر بنتاً كان لحق « التأجير » أهمية أكثر لأنه يتطلب من الوصي أن يزوج البنت أو أن يتزوجها .

تطور النظام الأميري . — ولقد سهل هذا الزواج الأميري تجمع الاقطاعات . وبدأ رسم ذلك يتضح منذ النصف الثاني للقرن الحادي عشر . وبدأت بعد البعثة والتفتت حركة نحو المركزية أدت في فرنسا إلى تشكل الاقطاعات الكبرى التي يمارس فيها السلطة اقطاعي كبير دوقاً أو كونتاً . ولقد توصلت التجزئة في القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر إلى أعظم حد ؛ ولم تضعف فكرة الدولة بمثل هذه الضعف الذي وصلت اليه . وزوالها بكليتها تقريباً يوضح لنا ولا شك التأخر والانحطاط اللذين منبت بهما الاخلاق والطباع . هذا ولما كان البارون أو ساكن القصر غير مسؤول أمام أي إنسان ولا يعرف أي قيد لطيشه وأهوائه ، لذا كان يعطي لنفسه ولغرائزه مطلق الحرية . وعلى هذا فان أهم ما يميز النظام الاميري هو : التجزئة الارضية وكثرة الحروب التي ترافقها القسوة والشدة والعنف والاعتداء على الاشخاص والأموال .

الحروب الاميرية ونظم الصلح

إن ضعف الدولة ، الذي يدخل في أساس النظام الأميري ، يوضح لنا كثرة النزاع المسلح في القرن العاشر والحادي عشر . ولم يكن هنالك سلطة عليا قادرة على قمعه أو القضاء عليه . ونظراً لتفوق القوى المحلية ، كانت الحروب بين مملكة وأخرى حتى القرن الثاني عشر أمراً شاذاً

واستثناءً . وكل ما يمكن القول في هذا الصدد هو أن كبار الاقطاعيين كثيراً ما كان يحارب بعضهم بعضاً أو يتالبون على مولايم الملك كما هي حال اوتون الأول في ألمانيا ولويس الرابع ولوثير في فرنسا . وكان على هؤلاء الملوك أن يناضلوا اتباعهم الثائرين عليهم . وفي الغالب نرى في هذه المنازعات الداخلية أميراً يثور على أمير أو لفيماً من الأمراء على لفيث آخر . ولكن حرباً من هذا النوع لا تدوم أكثر من بضعة أسابيع أو بضعة أشهر إلا أنها تتجدد باستمرار . وهي لا تتعلق بمصالح سياسية واقتصادية بل هي ناشئة عن طيش الأمراء وأهوائهم ومصالحهم الفظيعة ومزاجهم الحربي وأطماعهم الشديدة . فكثيراً ما تقوم هذه الحروب للفصل في خلاف . وعوضاً عن أن يرفع هذا الخلاف إلى محكمة من المحاكم أو إلى حاكم من الحكام كان يسوى بطريق السلاح . وأحياناً يكون السبب في الحرب أمراً تافهاً : لكلام لم يفهم جيداً ، أو بسبب النساء ، فيعتدى على الجار ويعاث في أرضه الفساد . وأحياناً لا لسبب ظاهر : كأن يذهب المولى للحج أو لحمة بعيدة ويتوفى تاركاً وراءه وارثاً قاصراً . ومثل هذه الحالة كانت تعتبر فرصة سانحة للتابع ليوسع اقطاعه بضربة جريئة أو ليزيد في ثروته بالنهب والسلب . أو أن يحارب الابن أباه بعد أن طال عمره ولم يلق وجه ربه في الحدود المعتادة واضطر ابنه أن ينتظر كثيراً ليوثه . أو أن يثور الأخ على أخيه البكر لأنه أكثر حظاً منه . أو أن يجرد العم ابن أخيه « المحرم » لأنه أوتي حظاً كبيراً من الأثر . أو أن ينازع الأولاد أمهم الأرملة فيما خصصه لها بعلمها بعد وفاته . وفي بعض الأحيان ، عندما لا يوجد عذر يعترف به ، كانت الحرب لجرد اللذة في النهب . كانت الحرب عند البارون هوى يملكه في كل وقت : ولقد كان مسيحياً ولكن أعماله الدينية ليست سوى طقوس، ولا

تقتضي أي التزام خلقي أو معنوي . فهو يحضر يوم الأحد الصلاة التي تقام في كنيسته ويقضي الأيام الستة الباقية في ارتكاب السرقة والغصب والخطف والقتل ولا يترك هذه الأعمال العدوانية إلا ليستسلم للذائد الموائد والفجور .

غاذج من البارونات . - وهذا النموذج التقليدي للبارون ليس ضرباً من ضروب الخيال في الأدب بل هو حقيقة واقعة . ويكفي للاقتناع بهذا القول أن يفتح على سبيل المثال كتاب « خوارق القديسة فوا » ، ففي أقسامه الأولى ، التي حررت في بداية القرن الحادي عشر تفصيلات كثيرة عن اخلاق الأمراء في جنوب فرنسا في ذلك العهد . وكثيراً ما كان الرهبان ضحاياهم البريئة . فمن هؤلاء البارونات : رينون اوبن ، الذي طرد من الجماعة لكثرة أعماله في السلب والنهب والشقاوة ؛ وآديمار ليموج ؛ الذي سرق أحد تابعيه خيوله ، فما كان منه إلا أن انقض عليه وسمل عينيه . وكذا ويغون موناستيه ، فقد قبض على ثلاثة من تابعيه من كنيسة نوتردام دويوي والقاهم في غياهب الأقيية في قصره . وفي جنوب فرنسا كله نجد الناذج نفسها مثل بونس دوفرنيه سارق الخراف والجبن من ابوية سن مارتن في كانيجو . وكذا غارسند ، فيكونتس ييزيه وآغد ، التي انتزعت عام ١٠١٣ بالقوة من اختها سينيخوند قرية باليه في ابرشييه آغد ثم قامت بأبواب شرعية حقوقها .

وامثال هؤلاء البارونات الجشعين الفظيعين لم يقتصر وجودهم على جنوب فرنسا ، بل اننا نجد أشباههم في شمالها . وكلهم اناس لا يعرفون الا اعمال النهب والقتل والتخريب ولا يتراجعون امام اي شدة لاشباع غرائزهم الجائعة .

وليس من الصعب أن نجد مثل هؤلاء البارونات في ألمانيا ، وعلى الأقل حتى أوتون الكبير ، وكذا في إيطاليا حيث استمروا طويلاً . والأمثلة على ذلك كثيرة حتى ان الريف الروماني كانت يعج بالقصور وساكنيها ممن كانوا ينصبون المكائد والمساكن في طريق البابا والامبراطور .

كثرة الحروب . - كانت الحرب بين هؤلاء الأمراء شراً لازماً . وإذا كانت ويلات الحرب في بعض المناطق أكثر من غيرها فان حوليات آخر القرن العاشر مليئة قليلاً أو كثيراً بالمنازعات المسلحة . والأمثلة أكثر من أن تحصى في فرنسا في السنوات الاولى من حكم لوثير . ولا يمكن اعتبار عهده دوراً كثير الاضطراب . فقد توج الملك وبورك في ١٢ تشرين الثاني ٩٥٤ . وانقضى آخر السنة بالحرب بين رينو صاحب روسي وهربرت صاحب فرماندوا . ومن الممكن تعداد الأمثلة الكثيرة . وإذا كان من هذه الحروب ما هو هام ومنها ما هو تافه فقد كانت وبالأعلى على الأموال والأرواح في جميع الأحوال .

أصول نظم الصلح . - وهذه الأمثلة التي أتينا على ذكرها في كثرة الحرب تدل دلالة كافية على اضطراب جبل الأمن وعدم الطمأنينة والقلق التي أوجدها النظام الأميري . إلا أن هناك اختلافاً بين المناطق . ففي ألمانيا أعادت رجعة الملكية السلطة الملكية إلى المملكة بعد أن حلت بها المصائب منذ سقوط الامبراطورية الكارولنجية . وفي فرنسا كان الضرر أقل في الشمال حيث نجد أن الملك روبرت ، منذ آخر القرن العاشر ، قد خضع شوكة الأمراء الذين يعكرون النظام . أما في الجنوب ، حيث لم يعترف بالملكية الكابسية وحيث نجد أن مركيزة غوتيا ليست إلا تعبيراً جغرافياً، فكان الضرر أكثر . ومثل هذه الحال تؤدي إلى التجزئة الأرضية

وتزيل كل كبح للغرائز الحربية . ومهما تكن سعة الضرر فقد وجد في كل مكان . وأمام فقدان الدولة تحركت الكنيسة ووجدت حروب الأمراء في فرنسا وبورغونيا في وجهها نظم الصلح ، وترجع هذه النظم في أصلها إلى جذور كنسية .

ومن الصعب إن نعين العصر الذي تصعد إليه بداية رسم هذه النظم التي اتسعت بالتدريج دون أي مفاجئة . ففي العصر الكارولنجي عندما نشبت الاضطرابات بعد معاهدة فردن ، قامت الكنيسة باصلاح ذات البين وسعت جهدها لمنع المنازعات بين الأمراء وهددم البابا سرج الثالث بالعقوبات القانونية . وقد صرح نيقولا الاول في رسالته الشهيرة إلى البلغارين بأن الحرب شيطانية في أصلها ولذا يجب البعد عنها . وفي القرن العاشر ضعفت السلطة الحربية في البلاد المسيحية ولم يسمح هذا الضعف للكرسي الاقدس بممارسة تبشيره السلمي . غير أن الاساقفة في المناطق المعرضة لجنون البارونات الحربي ، أخذوا يتبادلون الرأي في وضع حد لهذا الوباء ، وما لبث تدخلهم الحجول في البدء إلا أن ثبت قدمه بعد ذلك بقوة عظيمة . وأول حركة قامت لصالح السلام كانت في المجامع الدينية التي انعقدت عام ٩٨٩ في شارو في اكيثانيا ؛ وفي عام ٩٩٠ في ناربونه في سبتمانيا . وواقع الامر ان هذين الجمعيتين رفعا احتجاجاتها ، وأذاعا عقوباتهما على من يعكر صفو السلام . غير أنه لا يوجد في قراراتهما إلا حكم غير مباشر على الحرب الاميرية . وعبثاً حاولا العثور على فكرة مذهبية أو أثر لتنظيم من شأنه أن يقمع هذه المبالغات الباطلة . والجدير بالملاحظة ان حماية الكنيسة تناولت العلمانيين والاكليروس ، وان الذين يريدون أن يسرقوا مال الفلاحين أو الفقراء ستنزل عليهم ضربات اللعنة وشدة الحرمان .

وقطعت خطوة أخرى في الجمع الذي عقده الأسقف غي آنجو في مدينة بوري عام ٩٩٠ واستترك فيه معظم أحبار آمبروت^١ وفينا^٢ (في فرنسا) وناربونه . وفي هذا الجمع صوت لأول مرة ، بناءً على طلب غي ، على ميثاق السلام . وهذا الميثاق يعدد العقوبات في وجه الحرب ، وفي الوقت ذاته يخلق قوة ضابطة لقمع جميع المخالفات ، كما يحرم إحراق الكنائس وخطف الحمول والقطعان واستعمال الأشخاص الأجانب في الانتفاع لإنشاء القصور أو حصارها والاعتداء على الرهبان أو رفقاتهم ممن يسافرون معهم دون سلاح ، وإيقاف الفلاحين لإجبارهم على اقتداء أنفسهم بالمال . ومن جهة أخرى ، وضع مشروع يعين الوسائل العملية لاحترام المقررات التي تتخذ في الجامع الدينية ؛ وشارك الفرسان والفلاحون ، دون كبير اندفاع ، في اقتراح الاسقف وأقسموا اليمين على مراعاة هذا الميثاق . ويعتبر عملهم هذا رسماً أولياً للجمع في سبيل السلام .

ثم اتضحت الفكرة وكانت موضع بحث يربط بين الصلح والعدل في جمع ليموج (٩٩٧) وجمع بواتيه (حول ١٠٠٠) حيث مثل أسقف بوردو وأساقفة بواتيه وليموج وانغوليم وسانت وتقرر بأن يسوى كل نزاع بين الافراد بموجب الحق ، وإلا كلاً من الاسقف والكونت يستطيعان طلب المساعدة من الموقعين على الميثاق ضد أعمال الشدة والقسوة . وقبل آخر القرن العاشر بدأت هذه الحركة في فيلي ومنها انتشرت في حوض اكيثانيا . وفي بداية القرن الحادي عشر أخذت تمتد في قسم كبير من فرنسا . وتألفت عصبات في سبيل السلام في بيكارديا بين سكان كوربيه وآمين^٣ . وفي العام ١٠٢٣ حرر وارن^٤ أسقف بوفيه^٥ وبيرولد أسقف سواستون لامراء اقليم رنس^٦ صيغة خاصة بمتعة نقرأ فيها العبارات التالية : « لن أجتاح بأي شكل من الاشكال الكنائس ولا

مخازن الكنائس اللهم إلا إذا كان القصد من ذلك القبض على الاشرار الذين يخرقون السلام أو يرتكبون القتل . ولن أقبض على الفلاح أو الفلاحة أو التجار أو آخذ منهم أموالهم أو أجبرهم على افتداء أنفسهم ، ولن اخرب أو أحرق البيوت . ولن أقتلع الكروم من جذورها أو أقطف ثمارها بحجة الحرب وسأرعى في هذه المعاهدة زمام كل من أقسم عليها ويرعاها تجاهي . وفي السنة نفسها تألفت عصبات أخرى في مملكة بورغونيا حيث عقد مجمع فردن على الدوب (١٠١٦) وأقسم الحاضرون اليمين على « الخلفات المقدسة » وتعهدوا بالتزامها . وفي عام ١٠٣٨ عقد مجمع في بروج بدافع من المطران ايمون ، وأعد فيه تنظيم أوضح مما في السابق : وهو أن كل مؤمن بلغ من العمر خمسة عشر عاماً ملزم صراحة بأن يحلف اليمين على السلام والدخول في (مليشا) الابرشيه المكلفة باحترامه . وعلى هذا النحو تألف نوع من حرس قومي مهمته احترام السلام . على أن أهم ما يميز في الحقيقة حركة الكنيسة لصالح السلام ، عدا عن التعهد الصريح بعدم الاعتداء على الاشخاص العزل من السلاح وتحديد وباء الحرب على المتحاربين وأموالهم ، إنما هو هذه الرابطة التي تربط أعضائها بميثاق يدوم مدة معينة من الزمن . ونجد في هذا العمل رد فعل منظم ضد النظام الاميري ومحاولة هامة لاحتلال التحكيم المبني على الحق محل الظلم الذي تمثله الحرب .

وقد أدرك الملوك في بداية القرن الحادي عشر أهمية هذه الحركة التي قامت بمبادرة الكنيسة وساموها فيها . وفي ١٠١٠ - ١٠١١ عقد رويير التقي مجلساً في اورلثان ونادى بالسلام . وفي المقابلة التي جرت في ايفوا (١٠٢١) بين رويير التقي ملك فرنسا وهنري الثاني امبراطور المانيا ، دلت الظروف على أن كلا منها كان يرغب بالسلام وتعهدا بوجود

- ٥٥٠ -

احترام «سلام الكنيسة المقدسة» في بلديهما . غير أن موت هنري الثاني في ١٠٢٤ والبابا بندكت الثامن المفاجيء في السنة نفسها حال دون الوصول إلى تحقيق هذه الاحلام في تعميم السلام بين الدول المسيحية كلها . ومن جهة أخرى ، ساعدت بعض الظروف الطارئة كالجماعة الكبرى في عام ١٠٣١ - ١٠٣٤ على عودة أعمال الشقاوة والنهب ، إلا أنها لم تحد من نشاط الاساقفة الذين يدعمهم الرأي العام .

هدنة الله . - وفي حوالي العام ١٠٤٠ تبدلت سياء الحركة قليلاً . فأضيفت « هدنة الله » إلى « سلام الله » وتهدف إلى جعل الحرب أكثر صعوبة وأكثر ندرة ، وذلك بقطعها ، في كل حين ، بحجة احترام ذكرى الايام الدينية .

ويبدو منذ ١٠٢٧ أن أول مجمع عقد لهذه الغاية في تولوج في اقليم روسيون حيث حرمت يوم الاحد . ودست كل فكرة من هذا النوع في بعض موثيق السلام . إلا أن « هدنة الله » تجسدت في العام ١٠٤١ بشكلها في رسالة حررها أساقفة اقليم آرل الكنسي بمساعدة اوديلون أب كلوني . ونقرأ في هذه الرسالة الشهيرة : « نطاب منكم ، وتوسل اليكم جميعاً ، يا من تحشون الله وتؤمنون به ، ويا من اشتريتم بدمائه ، أن تحافظوا على السلام فيما بينكم لتستحقوا أن تكونوا بهذا في سلام مع الله ولتبلغوا الراحة الأزلية . أقبولوا وحافظوا على هدنة الله التي قبلنا بها نحن وحافظنا عليها كما لو نزلت من السماء بوحى من الرحمة الالهية . انها تقتضي من جميع المسيحيين أصدقاء كانوا أم أعداء أن يراعوا السلام التام بهدنة تامة من مساء الاربعاء إلى مطلع الشمس في صباح الاثنين » . ووسع الاحبار الأسباب التي أوحى بهذا النظام الجديد بقولهم « لقد خصصنا لله أربعة أيام : الخميس

صعود المسيح ، الجمعة لذكرى آلامه ، السبت لدفنه ، الأحد لذكرى قيامته ، لثلاث تقع في هذه الأيام أي حرب وثلاثا يخشى أحد عدوه .
وهكذا قضت هدنة الله بتحريم الحرب خلال الأيام التي تذكر بالمراحل الاليمة أو المجيدة من حياة المسيح . وكان لهذا الاختراع نجاح مباشر .
وفي السنة نفسها عقد مجمع في مونتريوند في أبرشية لوزان وقرر هدنة الله في جميع الاسابيع من مساء الاربعاء إلى صباح الاثنين خلال الآحاد الأربعة التي تسبق عيد الميلاد وفي أيام عيد الميلاد حتى الأحد بعد عيد الملوك أو الغطاس (أي عيد ظهور المسيح للمجوس ويقع في ٦ كانون الثاني وهو عيد يذكر بهذا الحادث ويسمى يوم الملوك) ، وأخيراً من الصوم الأربعيني ، أحد السبعين ، إلى أول أحد بعد عيد الفصح .

وفي العام ١٠٤٢ أدخل هذا الاستعمال نفسه في نورمانديا ، ومنها امتد إلى دور سنة الصلوات المحصورة بين صلوات الربيع العامة وآخر اليوم الثامن لعيد العنصرة .

وتعممت مع الزمن هدنة الله في انحاء فرنسا . وفي المجمع الذي عقد في ناربونه (٢٥ آب ١٠٥٤) تحت رئاسة المطران غيفرد تقرر تقنين التشريع السابق كله . هذا ويمكن اعتبار هذه القوانين صيغة نهائية لهذا النظام المستحدث . وكلها تفتتح بشجب الحرب الأميرية . « إن المسيحي الذي يقتل مسيحياً آخر اثمًا يهرق دم المسيح » . وهنالك قرارات أخرى تتعلق بهدنة الله وسلام الله . فقد أعلنت الهدنة في كل أسبوع من مساء الاربعاء إلى صباح الاثنين فيما تقدم وذكرنا من أيام ، كما أعلنت في جميع أعياد العذراء والقديس يوحنا المعمدان والرسل ووقفات الاعياد الهامة وأوقات أيلول الاربعة . هذا وإن كثرة الأيام ، التي جرمت فيها الحرب ، جعلت هذه الحرب مستحيلة عملياً .

نظم السلام في المانيا وايطاليا واسبانيا . - وامتدت هدنة الله ببطء في خارج فرنسا . ففي ، المانيا لم تكن موضع بحث قبل ١٠٨١ عندما ادخلت في ابرشية ليج على يد هنري مطران تول . ثم تعممت خلال السنوات التالية . وتدل التآريخ في العام ١٠٨٣ على أن المملكة كلها كانت تتمتع بانظمة السلام .

وفي ايطاليا صوت مجمع ملفي (١٠ أيلول ١٠٨٩) على سلام الله في مقاطعة بوي وكالابر . وفي ١٠٩٣ عقد مجمع آخر في ترويا وقرر هدنة الله في المنطقتين الآتفتي الذكر . كما نفذت الهدنة إلى اسبانيا ونظمت فيها منذ ١٠٩٣ عندما انعقد مجمع جيرون

وعندما أصبحت البابوية على رأس العالم المسيحي ، في آخر القرن الحادي عشر ، أخذت على عاتقها قضية السلام وعممت جميع الالتزامات التي قررتها المجالس الفرنسية وغيرها . ويذكر لنا المؤرخ فوشيه شارتر ان البابا أوربينو الثاني ، في مؤتمر كلرمون (١٠٩٥) الذي قررت فيه الحرب الصليبية الاولى ، قد ندد بالحروب الأميرية وما تجرّه من ويلات بغية الوصول إلى هذه الخاتمة : « أطلب اليكم باصرار أن تحافظوا بقوة على الهدنة في كل ابرشية . وإذا خرقها أحد لجشع أو غطرسة فلا تترددوا بموجب السلطة الإلهية وهذا المجمع المقدس أن تضربوه بالحرمان » . ومما يكن الكلام الذي نطق به أوربينو الثاني ، فمن المؤكد أن هدنة الله قد أعلنت في كلرمون بنفس العبارات التي نودي بها في ناربونه . كما نص قانون آخر بتمتع الرهبان والاكليركين والنساء بسلام الله في كل يوم . ونظراً لغلاء المعيشة آنذاك أمتد هذا السلام خلال ثلاث سنوات على جميع الفلاحين وجميع التجار .

نظم السلام والنظام الاميري . - يسجل مؤتمر كلرمون نقطة الذروة

التي توصلت اليها نظم السلام ورد الفعل الكنسي ضد الحروب الاميرية وما تجرّه من أضرار . لقد نشأت هذه الحركة في جنوب فرنسا وكانت من أجمل صفحات تاريخ العصر الوسيط ، وشرفت الأساقفة الذين أوحوا بها وغذوها . ولكن من الصعب أن نعين الحدود التي نجحت فيها ، ونقول إن العقوبات الروحية كانت كافية لتعديل مغالاة البارونات . ويظهر لنا أيضاً ان الرابطات التي أوجدت في كل مكان تقريباً ، بعد مجمع بوي ، لم تقم طويلاً بنشاط كبير . وقد نتساءل بعد هذا ما إذا كان السكوت عن هذا النشاط كان بسبب التعب والاعياء والياس . ويبدو لنا أن الكنيسة كانت تنقصها القوة الضرورية لتفرض احترام مقرراتها . إلا أن هذه الفكرة قد بذرت وستنبت نباتاً حسناً . حتى ان ملوكاً ، من أمثال غليوم الفاتح وهنري الأول في انكلترا ولويس السادس في فرنسا ، وبعض الاقطاعيين الكبار قد خامرهم هذه الفكرة وانتهى بهم الأمر إلى أن عملوا على ظفرها عندما اتاحت لهم الوسائل الضرورية ، ولكن يجب أن ننتظر إلى آخر القرن الحادي عشر . بل وحتى بداية القرن الثاني عشر . فحتى ذلك التاريخ ما زال النظام الاقطاعي ، بنتائجه السياسية والاخلاقية ، يثقل حياة الدول ويسيطر عليها في كل الظروف .

الفصل الخامس والعشرون

السياسة الامبراطورية

من اوتون الأول إلى وفاة هنري الثالث

٩٦٢ - ١٠٥٦

المانيا بين ايطاليا والعالم السمرقي

٩٦٢ - ٩٩٦

نتائج ارجاع الامبراطورية . - لقد استطاعت السلالة الساكسونية ، في منتصف القرن العاشر ، أن تكسب قوة ونفوذاً عظيمين ، وذلك لأنها أدركت قبل كل شيء الرسالة التي فرضتها الحوادث عليها ، وعرفت كيف تتجمع في درء الأخطار الجسيمة التي تهدد الغرب . لقد استطاع اوتون الأول أن يدفع الغزو الهونغاري ويرد وثبة السلاف ، ولكنهم لم يبيدوا وظلوا متكئين فيما وراء الايلب والاورد يهددون بالانقياد لعواطفهم أمام سحر الغرب وتخريب ساكس ووستفاليا من جديد . وقد ارتسم منذ الآن البرنامج الامبراطوري بوضوح وهو : الدفاع عن المسيحية ضد غارات الشرق ، وفضل من ذلك التبشير بالمسيحية في أوساط السلاف بعد أن تحولوا إلى تابعين للتاج الألماني . هذه هي الرسالة التي فرضت على اوتون وخلفائه .

رأى اوتون الكبير بحسه السياسي هذا الاتجاه الممكن للجهد الجرمامي بعد انتصارات ٩٥٥ على السلاف والهونغايرين ، ولكن الظروف كانت أقوى من إرادته الشخصية . ففي اليوم الذي دعيت فيه السلالة الساكسونية للتدخل في ايطاليا لاقت موهبتها التقليدية محنة قاسية وساقها التتويج الامبراطوري إلى مصير آخر . وإذا كان الامبراطور الجديد وارث قسطنطين وتيودوس وشارلومان فهل يمكن أن يزدان بلقبه إذا لم يسيطر على روما وايطاليا ؟ إن الحوادث الأخيرة لا تترك مجالاً لوم : حقاً لقد كان يتوجب عليه فتح ايطاليا ، وكيف لا ينقاد إلى هذه الجاذبية ؟ عندئذ يمكن أن تعرف القضية التي وضعت غداة رجعة الامبراطورية في العام ٩٦٢ . لقد كان يجب على السياسة الامبراطورية أن تثابر وتستمر ، طبقاً لتقليد طويل ، في تقدمها نحو الشرق ، أو ، بالعكس ، تنزلق نحو الجنوب . وهل سيكون محورها على الايلب أو على البو ؟ السؤال مربك ، ولكن اوتون أجاب عليه محاولاً مواجهة العاملين مها كانا ثقلين : فقد رمى إلى تقوية امبراطوريته في آن واحد بفتح ايطاليا وبتوسيع النفوذ الألماني في البلاد السلافية ، ولكن خلفاءه لم يكونوا أهلاً لامتام هذا العمل العظيم ، واعجزتهم الحوادث واصطدموا بصعوبات انقلبت ، في بعض الاحيان ، إلى نكبات .

ايطاليا بعد التتويج الامبراطوري . - لقد لاحظ اوتون الاول عقب تنويعه أن سلطته ضعيفة في ايطاليا . لأن الملك السابق يبرنجه لم يغلب مطلقاً ، والبابا جان الثاني عشر ، رغم موقفه الصحيح وتنزله ، لم يتدخل عن اطاعه الزمنية ، بل كان يتطلع إلى سيادة ايطاليا أكثر من أي وقت مضى . ولما كان الامبراطور عقبة أساسية أمام تحقيق أحلامه فقد قرر ، رغم وعوده ، أن يضع جميع المتاعب الممكنة في وجه اوتون .

ولم يكن الاغريق في شبه الجزيرة راضين عن الحوادث الاخيرة ،
 وكانوا يراقبون الاحداث تاركين أمر التدخل للوقت الذي يختارونه .
 وباختصار كانت طريق اوتون الأول مفروشة بالاشواك ، وإن أي
 خطأ منه يوشك بالقضاء على النتائج التي كسبها بسهولة في بداية
 العام ٩٦٢ .

كان على اوتون الاول ، في بادئ الامر ، أن يقضي على بيرنجيه ،
 فذهب من روما واتجه صوب البحيرة الكبرى في ايطاليا الشمالية ، لأن
 بيرنجيه بدافع من زوجته فيللا قرر الذهاب بالحرب حتى النهاية . ولكن
 اوتون مالبت أن عاد إلى روما بعد أن أته منها أخبار مزعجة
 وبدلت برناجه .

لقد كان البابا جان الثاني عشر يرأسل ادالبير بن بيرنجيه . وفي الوقت
 الذي كان يطمئن فيه اوتون عن حسن نواياه كان يهيء دخول الأمير
 الشاب إلى روما ، بعد أن تحالف معه لاجباط أعمال ملك جرمانيا .
 ولما دخل ادالبير روما ، في تشرين الأول ٩٦٣ ، انطلق اوتون في اعقابه
 وبدأ أمامها في ٣ تشرين الثاني ٩٦٣ .

ولم يتخل عن اوتون جميع الرومانيين ، وما وسع جان الثاني عشر
 إلا أن لاذ بالفرار يصحبه ادالبير ، وعاد الامبراطور من جديد سيداً على
 روما ، ودعا دون طلب موافقة البابا إلى عقد مجمع في كنيسة القديس
 بطرس في ٦ تشرين الثاني ضم أربعين أسقفاً وكرادلة - كهاناً أو شماسين
 وممثلين عن الطبقة النبيلة الرومانية . ووجهت في هذا المجمع الاتهامات الثقيلة ضد
 البابا ، وتقرر أن يدعى الحبر الروماني للمثول ، فرد مهتداً اوتون بالحرم
 إذا سمى بابا آخر . وفي ٤ كانون الاول جرم جان الثاني عشر بتهمة
 الحيانة العظمى وخلعه المجمع ونادى بالموظف ليون خلفاً له .

امتيان ٩٦٣ . — كان خلّع البابا جان الثاني عشر غير الشرعي والمخالف للقواعد القانونية نتائج خطيرة : فقد عدل الامتياز الممنوح إلى الكنيسة الرومانية غداة التتويج الامبراطوري وحرر من جديد وبشكل يزيد سلطات ملك جرمانيا في الانتخاب الجبري . ونص فيه : ان من ينتخب لهذه الوظيفة المقدسة الرسولية لا ينصب جبراً أعظم قبل ان يقسم أمام رسلنا أو ابننا ، لارضاء الجميع وللسلام ، ميمناً بمائلة اليمين التي اقسمها عفويّاً سيدنا وأبونا الروحي الجليل ، ليون . لقد كانت صيغ الادارة الجبرية غامضة قصداً . ولكن التطبيق ، الذي أجري للدبلوم قبل أن يذاع ، يكشف عن المعنى الحقيقي الذي لاجمال للشك فيه : لقد كان الامبراطور يعني تسمية الجبر الروماني ، وبذلك انتهى استقلال السدة الرسولية . ولتوطيد النفوذ الالمامي في ايطاليا ، أراد اوتون السيطرة على روما ، والمسيطرة على روما كانت تلزمه الوسائل لابعاد كل بابا يجرأ على الذهاب إلى ما يخالف مقاصده . وهكذا أدت السياسة الايطالية إلى ارجاع القيصرية البابوية الامبراطورية بشكل أقسى بكثير مما كانت عليه سلطة جستنيان وشارلومان .

وبعد أن ظن اوتون الاول أنه انهى المقاومة الرومانية عاد إلى سان — ليو على البحيرة الكبرى وتقبل خضوع بيرنجيه وزوجته وارسلها أسيرين إلى المانيا، ولقد حان الوقت للقضاء عليها ، لان الامبراطور، كإرأينا، ما كاد يغادر روما إلا وعقد جان الثاني عشر مكايده . وفي ٣ كانون الثاني نشبت مشادة في المدينة فاسرع اوتون وقمعه دون عناء ، ثم غادرها قبل الاوان ، وبفضل ثورة جديدة دخل جان الثاني عشر عاصمته وفر ليون الثامن مسرعاً إلى حاميه .

وانعقد مجمع في كنيسة القديس بطرس في ٢٦ شباط ٩٦٤ ، ويكاد

يكون تركيبه مطابقاً لتركيب مجمع تشرين الثاني ٩٦٣ ، وكسر جميع أعمال هذا المجلس وخلع ليون الثامن وحكم باللجنة على جميع من ظلوا يعترفون به بابا . وما كان جان الثاني عشر ليرجو أكثر من إعادة اعتبار رسمي له ، ولم يعيش بعدها كثيراً ومات في ١٤ أيار ٩٦٤ .

وحمل اوتون الاول خلال أربع مرات على روما لفرض سلطته الامبراطورية . وفي المرة الرابعة أراد أن يؤمن المستقبل فأتى بابنه اوتون الثاني إلى روما ، وفي يوم عيد الميلاد ٩٦٧ تقبل الابن بدوره التاج الامبراطوري .

كان اوتون الاول يتصور في ذهنه أن تشمل الامبراطورية شبه الجزيرة كلها . ومن هنا ظهرت رغبته في فرض سلطته على الإمبراء اللومبارديين في الجنوب الذين يعتبرهم تابعين له . ولكنه اصطدم في هذه النقطة بعقبات رصينة أتت من وجود الاغريق في ايطاليا الجنوبية . وإذا اعترفت بيزنطة بجميل الملك الجرمانى لانه خلص الكنيسة من جان الثاني عشر وحياته المملوكة التي أثارت الاستياء من حوله ، فبالمقابل كانت ينظر نظرة سوء إلى محاولات اوتون المتكررة لوضع عاصمة المسيحية تحت اشرافه . ونجم بين بلاطي القسطنطينية و اكس - لا - سابل ، اللذين ظلا حتى ذلك الحين على علاقات طيبة ، فتور في العلاقات ومن الممكن ان يزداد إذا تابع اوتون الاول خطته في فتح ايطاليا .

المفاوضات مع الاغريق . - رأى الامبراطور هذه الصعوبة وحاول ازالته بالدبلوماسية . لقد بدا له ان زواج ابنه اوتون مع تيوفانو ، بنت رومان الثاني وربية البازيلوس الحاكم نقفور فوكاس ، يمكن أن يؤدي إلى انفراج سعيد . ولكنه ضل ضللاً بعيداً : لقد دشّن نقفور

حكمه باخفاق في صقلية غير أنه لم يكن مستعداً لترك المجال حراً للتوغل الألماني . وعندما كان اوتون الأول في رافينه في نيسان ٩٦٧ ، قدم عليه وفديزنطي وأفهمه أن امبراطور الشرق متمسك بجميع حقوقه في ايطاليا الجنوبية . وبنتيجة هذه المحادثات أرسل بدوره إلى القسطنطينية دومينيكو البندقي حاملاً اقتراح الزواج . ولم يستقبل دومينيكو بترحاب ، وطلب نقفور في البدء تخلياً رسمياً صريحاً من قبل الألمان عن كل فكرة ضم أراضي اغريقية . ورأى دومينيكو ان التعليقات تنقصه فتواري . وذهب وفد بيزنطي جديد وقابل اوتون في كلبو (كانون الثاني ٩٦٨) ولم يحصل على تعهدات أوضح ، وبدا أن مشروع الزواج بين اوتون الثاني وتيوفانو قد عدل عنه .

عندئذ خيل لـ اوتون الأول أن يصل إلى أهدافه بشكل أفضل وهو أن يحدد سياسة التخويف التي نجحت في روما . وتدير أمر مساندة أمير كلبو باندولف الاول رأس الحديد بعد أن جعله مارغراف كاميرينو ودوقية سبوليت . أما أمير سالرنو جيزولف فلم يقبل الاعتراف بسيادته . ولما اطمأن اوتون الاول إلى مساندة باندولف وحياد جيزولف جاء إلى كلبو في بداية عام ٩٦٨ واستقبل السفراء البيزنطيين ، ثم اجتاح أبوليا وزحف على باري عاصمة قيادة لونغبارديا . وأدرك أن فتح الممتلكات البيزنطية أصعب مما تصور . وقد لزمه جيش عديد واسطول لانتزاع باري ، ثم اضطر لرفع الحصار أمام فقدان الوسائل الكافية .

ولما اجهضت محاولة التخويف لجأ إلى الدبلوماسية ، وأرسل إلى القسطنطينية ليود براند كرميون ، وكان عارفاً بالاغريقية ، وشخصاً مغروراً متفائلاً لدرجة الافراط ، ومفعماً بالاوهام ومقتنعاً بان انخاذ الاوضاع

القوية يمكن أن يؤثر على بماطلة البيزنطيين . غير أن تنبؤاته خابت . فقد بدا نقفور فوكاس متغطرساً صلباً ، مزدرياً . وبعد أن ترك ليودبراند ينتظر عدة أيام المقابلة التي يرجوها أخذ يلومه بلهجة قاسية ومحتقرة على الاعمال التي ارتكبها الالمان في روما ومهاجمة المدن الاغريقية في جنوب ايطاليا . فارتبك ليودبراند وحاول جهده أن يبرر سياسة سيده ، ولم يستطع التغلب على آراء البيزنطيين ، وعومل أسيراً لا دبلوماسياً بعد أن أشبعوه اهانة وخزياً ، ولم يعد له هم سوى تحرير نفسه . ولم يكنتم فرحه اذ غادر القسطنطينية في ٢ تشرين الاول ٩٦٨ وكان سعيداً أن نجح من الاغريق بعد أن رأى من خيانتهم ما رأى .

وما علم اوتون الاول بمعاملة سفيره على هذا النحو حتى غضب وقرر البدء بالحرب دون ابطاء . وقد أعرب عن نواياه بطرد الاغريق المتغطرسين من ايطاليا وحققه عليهم . وفي ربيع ٩٦٩ اجتاح كالابر ، ولم تنجح الحملة بالاجمال . لأن الاغريق تجنبوا مجابهة الجيوش في العراق . وكان من الصعب الحصول على نجاح حاسم . وبعد أن عاث في بوفينو قفل راجعاً إلى ايطاليا الشمالية تاركاً لصديقه باندولف رأس الحديد متابعاً الحصار مع الجيش الالمانى الذي وضعه تحت أوامره . غير أنه قبض على باندولف وسبق إلى القسطنطينية بينما كانت جنوده تفر باضطراب تاركة الاغريق يتقدمون حتى منطقة كابو . ولما علم اوتون الكبير بهذه النكبة أرسل جيوشاً جديدة انتصرت أخيراً بالقرب من آسكولي . وجاء بدوره في ربيع ٩٧٠ وحاصر بوفينو ، وإقام بين امبراطوريتي الشرق والغرب نزاع لارحة فيه ، واتسعت سياسة اوتون اتساعاً غربياً . وبالرغم من ان كثيراً من المصالح كانت تتطلب وجوده في شمال الالب ، فقد برح مكانه على شواطئ المتوسط .

زواج اوتون الثاني وتيوفانو (١٤ نيسان ٩٧٢) . - غيران
 موت نفقور فوكاس المفاجيء بالمناسبة سمح بمعالجة موقته . واطهر
 الامبراطور الجديد جان ترميسيس استعدادة للسلام باطلاق سراح باندولف
 رأس الحديد . ولما كان اوتون يرجو ايضاً انتهاء الخلاف مع الحفاظ
 على اطامحه الزوجية ، فقد بدأ السير نحو التفاهم . وفي ٩٧١ ارسل
 مطران كولونيا ، جيرون ، إلى القسطنطينية فاستقبل استقبالاً يختلف عن
 استقبال ليودبراند ، وفي ٧ نيسان ٩٧٢ عاد إلى روما مصحوباً بالقاتنة
 تيوفانو ، وكان عمرها آنذاك ست عشرة سنة . فسحرت عذوبتها القلوب
 بدءاً من قلب خطيبها ، واحتفل بالزواج في كنيسة القديس بطرس يوم
 الفصح (١٣ نيسان) وتوج البابا جان الثالث عشر الامبراطورة الجديدة ،
 وبلغ اوتون الاول أهدافه وهدهد نفسه بالامل في أن هذا الزواج سيجعل
 الاغريق أكثر تساهلاً وسيساعده على تقوية النفوذ الالماني في ايطاليا .

الصلح مع الاغريق . - وللمرة الثانية ضل ضلالاً بعيداً . فملاشك
 فيه أن هذا التحالف الزوجي يمكن أن يحدث انفراجاً وحياء سلاماً لبضع
 سنين ، ولكن ما من نص يدل على أن جان ترميسيس قد أعترف باللقب
 « امبراطور روماني » الذي خص اوتون به نفسه . ومن جهة ثانية ،
 بالرغم من ان كابو وبينيفن بقيتا تحت السيادة الالمانية فلم يكن للبازيلوس
 أي نية في ان يسلم بوي وكالابر ونابولي وسالرنو مهراً إلى تيوفانو .
 وبقيت الاوضاع على حالها : وهي ان ملوك جرمانيا اذا استمروا
 في احلامهم في الهيمنة على ايطاليا فسيضطهدون بالعقبة نفسها . ولذا لم
 يكن هنالك موضع اتفاق دائم في العام ٩٧٢ بل هدنة موقته فقط .
 ولكن بإمكان اوتون الاول على الاقل ان يعود إلى المانيا حيث لم تعرف
 السياسة التقليدية للبيت الساكسوني اي توقف ، تجاه السلاف ، بالرغم من
 حضور الامبراطور الدائم في ايطاليا .

المانيا والسلاف بعد ٩٥٥ . - لقد كان لوتون الاول في الواقع سياسة سلافية وسياسة ايطالية ، وإذا لم يساعده الموت على جني ثمارها فعلى الاقل هيا عدة مفاهيم عظيمة بدأت تنفذ من ٩٦٢ إلى ٩٧٢ .

لقد كانت خطة الامبراطور اوتون الاول ترمي إلى :

١ - القيام بمحملات بين الايلب والاور لاثاء النفوذ الجرمانى في هذه المناطق .

٢ - الحفاظ على الجرى الادنى لنهر الايلب للحيلولة دون هجوم أقوام الاوبوتريت والفاغرين وحتى الليوتيس .

يبد أنه في السنوات الأخيرة من حكمه طبع سياسته بطابع سلمي وأراد أن ينمي النفوذ الألماني بطريق التبشير بين أقوام الفيند الوثنيين . فمن ذلك أنه قام بعمل تنظيمي هام في البلاد السلافية فقسمها إلى اسقفيات وأسس فيها أديرة بندكتية كما حاول أن يستخدم وسائل النفوذ الألماني نفسها في بولونيا ولكن موته أوقف هذا العمل .

وفي بلاد سلاف الجنوب قام الاساقفة بعمل تبشيري عظيم بغية توطيد النفوذ الألماني في بوهيميا وكاراثيا وبانونيا . وشادوا الكنائس والأديرة وأصلحو الاكليروس لصبء الهونغارين . واستطاع النفوذ الألماني بهذه المحاولات المختلفة أن يصل حتى ضفاف نهر الليثا .

غير أن وفاة الامبراطور أعقبت نتائج خطيرة إن في هونغاريا أو في غيرها . وذلك لان الاضطرابات الداخلية التي طبعت بداية حكم اوتون الثاني أفسدت جاه المانيا وأبعدت عنها الهونغارين والسلاف .

وفاة اوتون الكبير (٧ أيار ٩٧٣) . - وباختصار ، لم يكن للسياسة الايطالية ، حتى وفاة اوتون الاول ، صدى سيء على الحدود

الشرقية . فقد استمر التوغل الالماني في البلاد السلافية في آخر الحكم ، وإذا لم تؤخذ الجماهير إلا بصعوبة فان الامراء على الاقل كانوا أكثر انقياداً وطاعة . وعندما رجع اوتون في العام ٩٧٣ من إيطاليا واحتفل بعيد الفصح في كويدلينبورغ قدم عليه وفد هونغاريا وأدواق بوهيميا وبولونيا لتحيته ووهنوا نجاهه على احترام ودي . وهذا يدل على ظفر سياسته . فمنذ تنويجه عام ٩٦٢ وهو يحلم بامبراطورية جرمانية كبيرة كامبراطورية شارلومات ، ولكن تبين له أن من المستحيل إعادة بناء ما كان موجوداً في فاتحة القرن التاسع ، فأراد أن يعمل شيئاً آخر ، وعوضاً عن أن يتابع ضم فرنسا إلى المانيا وإيطاليا ، حاول أن يتدفع نحو الشرق ونحو الجنوب . وكان فتح إيطاليا أصعب مما توقع وشغله عشرة أعوام ، ولكن هذا الفتح لم ينجح في تحويله عن بلاد الالب والاورد والفرات . وأخيراً عند ما رأى نفسه حراً في تصرفه في بدء عام ٩٧٣ تنهياً لتوكيد السيادة الجرمانية على السلاف ، ولكن الموت فاجأه في مرسبورغ في ٧ أيار ٩٧٣ ، ولسوء حظ المانيا انه تركها بين يدي ابنه ، اوتون الثاني ، وكان فتى غراً غير مجرب وخلواً من العبقرية .

اوتون الثاني . - كان عمر اوتون الثاني آنذاك ثمانية عشر عاماً . كان صغيراً بديناً ولم تكن له هيئة أبيه الجميلة . إلا انه كان أكثر منه ثقافة . وهذا هو التفوق الوحيد له . لقد اندفع بعيداً في تعليمه وأكثر من ذلك ان تربيته لا ترضي تماماً ، ولم تؤثر في مزاجه الشهواني ولا في إعجابه بنفسه . وكان شطط سلوك الامير الشاب سبباً في الاستياء بعد أن جعلته غطرسته ، التي كانت مضرب الامثال ، في متناول رياء بطانة السوء التي شجعت غرائزه الرديئة ، وازادت أن تغرس فيه الميل إلى الاستبداد . لقد ورث طموح أبيه غير أنه لم يكن له نفاذه أو قوته ولا الطريقة

الضرورة لتحقيق مآربه . كان ضعيف الذكاء ولذا انقاد للجوادر عوضاً عن أن يسيرها ، ومن هنا اتت الخفاقات المتكررة التي تتضح في آن واحد بعدم كفاية أوتون الثاني وبالصعوبات الحقيقية لحالة ما فتئت تزدد حرجاً .

الصعوبات الداخلية والخارجية . - لا شك أن انتقال المملكة والامبراطورية قد تم دون أقل مضايقة . فقد بورك أوتون الثاني ملكاً في أيار ٩٦١ وتوج امبراطوراً في يوم عيد الميلاد ٩٦٧ . ولكن على الرغم من أن الامراء بعد وفاة أوتون الاول كانوا مجمعين على تجديد بين الولاء ، فقد ظل أوتون الثاني حتى ٩٧٦ مجهداً تماماً بمعارضة سواب واللورين وبافاريا . وعلى الحدود ، لم يظهر سلاف الشمال في الحال أي بادرة حربية ، الا أن دوق بوهيميا بوليسلاس الثاني انضم إلى جانب دوق بافاريا هنري اللدود الذي ثار على أوتون الثاني وكسر التفاهم الذي وجد في عهد أوتون الاول . ومن جهة أخرى ، اجتاحت ملك الدانمارك هارالد المانيا . وأخيراً ، في الغرب ، تأثرت العلاقات مع فرنسا بصدى وفاة أوتون الكبير ، وأدت قضية اللورين عام ٩٧٨ إلى قطيعة دامت حتى ٩٨٠ .

الثورة الرومانية ٩٧٤ . - ولم تكن حالة ايطاليا بأمثل . ففي العام ٩٧٢ ، عندما توفي جان الثالث عشر الذي أظهر بعض الاستقلال حيال أوتون الكبير ، كانت شبه الجزيرة الإيطالية إلى جانب الهيمنة الألمانية وأبدت انتخاب بندكت السادس الذي أقيم على العرش في ١١ كانون الثاني ٩٧٣ ، وبدأت أنها تكرر انتصار الامبراطور . غير أن كريسانت ، الذي يمثل حزب الارستقراطية القديمة في العام ٩٧٤ ، أثار روما على البابا الامبراطوري فقبض عليه وأعدم في أقبية قصر سانتانج ، ثم أقام

على الكرسي الرسولي ، في حزيران ٩٧٤ ، الكردينال الشماس فرانكون باسم بونيفاس السابع . ولكن مجيء مبعوث الامبراطور ، الكونت سيكون ، كان كافياً لفرار الغاصب وترك مكانه لاسقف سوتري فنصب هذا بابا تحت اسم بندكت السابع . وبالرغم من اعتقال بونيفاس السابع في القسطنطينية وشجبه في مجمع عقد لهذا الغرض ، فقد تزعمت السيطرة الألمانية في ايطاليا ، وبدا مجيء الامبراطور ضرورياً اليها .

اوتون الثاني في ايطاليا . - ولكن اوتون الثاني لم يأت إلى ايطاليا إلا في العام ٩٨٠ بعد أن أخذ المعارضة الداخلية ، ورد الدانياركيين وحاول حملتين غير مثمرتين في بوهيميا ، وأبرم الصلح مع فرنسا . وكان القصد من هذه الحملة توكيد النظام وطلب القيام بالواجبات التبعية التي تجمهلت وتنسبت . ولم يأخذ الامبراطور معه أي جيش . وكانت ترافقه الامبراطورة تيوفانو وأمه اديلايد وحاشية من الأساقفة والأمراء . وكانت روما فريسة الاضطراب ، ولكن البابا بندكت السابع ، على ما فيه من شعور بواجباته ، كان غير قادر على فرض سلطته . ودخل الامبراطور روما واستقبل بها . وفي يوم الفصح (٢١ آذار ٩٨١) ترأس اوتون الثاني والبابا مجلساً شجب السيمونية وفصل في مختلف القضايا الكنسية . وبقي الامبراطور في روما حتى بداية الصيف وثبت السلام بعد انسحاب كريسانت في أحد الدير وحرمات المعارضة من رئيسها . وأصبح بإمكان الامبراطور أن يفرح بهذا النجاح السهل الذي شجعه على متابعة ارجاع الامبراطورية الرومانية بمغامرة خطيرة كثيراً .

الحملة الامبراطورية على ايطاليا الجنوبية . - لقد تطورت الحالة في ايطاليا الجنوبية ، منذ وفاة اوتون الكبير في اتجاه مغاير للمصالح الجرمانية . فقد مات باندولف رأس الحديد (٩٨١) الموالي للسلاطة

الساكسونية ، وأحدث وضعاً منافياً للامبراطور الالمانى وملائماً الاغريق .
 وشاء أوتون الثانى توطيد سلطته بها كلف الأمر ، واتخذ ظهور الخطر
 الإسلامى وتهديد الاغريق ذريعة للتدخل . وفى الواقع كان يفكر بالافادة
 من ارتباك البيزنطيين لتوطيد الهيمنة الالمانية فى الجزيرة ، لانمام « مملكة
 ايطاليا » ، الجزء الأساسى من الامبراطورية الرومانية « التى يريد »
 كما يقول المؤرخ تينار « الحفاظ عليها كما تركها أبوه له » وارتأى أن
 يرجع ايطاليا الجنوبية بنصر مبن على المسلمين ويقوى جاهه فى هذه
 المناطق التى لم يستطع أبوه ، رغم عبقريته ، أن يؤصل فيها القوة الالمانية .

غير أن هذه المشاريع الخيالية أخفقت جميعاً . ففي ١٣ تموز ٩٨٢
 جرت موقعة بينه وبين المسلمين بالقرب من رأس كولون دحر فيها ومنى
 باخفاق ذريع . وكان هذا الاخفاق بالنسبة للامبراطورية الاوتونية نكبة
 لا سابق لها . فقد هدم لقرنين خطط الهيمنة الألمانية على ايطاليا الجنوبية
 وولد فى الأجزاء الأخرى من شبه الجزيرة قناعة بأن القوة الجرمانية ليست
 قوية كما يعتقد حسب الظواهر الخداعة . لقد أوحى أوتون الكبير بالخوف
 والاحترام ؛ ولكن أوتون الثانى انهار تحت الشك والريب ولم يعد
 لقراراته أى حساب : وقد شعر الامراء بشغل الحزى وتساءلوا بقلق ما
 إذا كان هذا الامبراطور الفار ، الذى شهد عاجزاً خراب جيشه ، له من
 السلطة الكافية ما يجعله يفرضها على أعدائه التقليديين ويدعهم واثقين
 من ان الجيش الامبراطورى لا يقهر . إن نصر العرب ، فى أقصى
 جنوب ايطاليا ، وضع القضية السلافية من جديد وبحدة أكثر من أى
 وقت مضى ، على ضفاف الايلب والأودر .

القضية السلافية فى عهد أوتون الثانى . - وكان لهذا التساؤل عدة

أسباب . فنذ بداية الحكم لوحظ تراجع النفوذ الالماني تدريجياً في البلاد السلافية . ولم يكن للحملات التي وجهها إلى بوهيميا أي تأثير على الدوق بوليسلاس . يضاف إلى ذلك ضعف التبشير المسيحي بعد اهمال اوتون الثاني له . وهذا الامتناع أيقظ الالهواء المعادية للدين والجرمانيين . وستفجر لدى أول فرصة . ولا غرابة اذا اجتاز الدانماركيون الحدود بعد نكبة رأس كولون وهدموا القصور وقام أمير الاوبوتريت باحراق هامبورغ والاسقفيات .

وعلى ضوء هذه الأحداث يفهم هياج الالمان بعد اخفاق رأس كولون فقد كشف الهجوم الدانيمركي والسلافي ابعاد النكبة الايطالية . وأرسل وفد إلى اوتون الثاني لاسترعاء انتباهه إلى الاخطار التي نشأت في السمال . فعقد الامبراطور مجلساً في فيرونه لدراسة الوضع . وظهر في هذا المجلس عدم وعيه للأمر . وفي الوقت الذي كانت فيه المملكة الجرمانية مهددة كان يفكر باسترجاع السلطة الامبراطورية في ايطاليا . لقد وجد أمام سياستين : اما الهجوم على إيطاليا أو الدفاع عن التراب الالماني ضد السلاف ، فوقع اختياره على الأول وأراد الثأر المستحيل وضى لاعتبارات انانية لا جدوى منها بأمن دوله . وكانت خطته في هذه المرة اجراً ايضاً : فقد عبر مضيق مسينا وأراد تقويض سلطة المسلمين في صقلية . ولذا تقرب من البندقية وأبرم معها في ٧ حزيران ٩٨٣ معاهدة تكفل للجمهورية حرياتها التجارية وانتظر من وراء ذلك مساندتها عند العودة أو على الأقل حيادها الكريم في حرب الثأر التي أراد القيام بها ضد المسلمين .

موت اوتون الثاني (٧ كانون الاول ٩٨٣) . - وانطلق اوتون الثاني من فيرونه نحو الجنوب ، وفي الطريق بلغه نعي بندقية السابع فرأى من الحكمة ، خوفاً من حدوث اضطرابات ، أن يذهب إلى روما

ليعين خلفاً له ، فوقع اختياره على بطرس أسقف بافيا وسمي هذا بايا باسم جان الرابع عشر . ولم تثر هذه التسوية أي صعوبة . ولكن الامبراطور عاش بعد هذا الحادث قليلا ، وتوفي بدوره في ٧ كانون الأول ٩٨٣ تاركاً ابناً عمره ثلاثة أعوام ، أوتون الثالث .

هجوم السلاف . — وزال أوتون الثاني عن الوجود دون أن يحقق مشروع الحملة الصليبية ضد المسلمين ، ولكنه ، قبل أن يلفظ روحه ، عرب مراودة سياسته في ألمانيا . فقد كان هجوم السلاف مصحوباً بالمكارة من كل نوع : التهديم والحريق والاعدام ورد الفعل الوثنى ضد كل ما هو مسيحي وألماني . ولم يبق من العمل الكبير الذي شاده أوتون الاول في شرقي مملكته الجرمانية شيء بعد أن ركم عجز خلفه فيما وراء الايلب وفي ايطاليا انقراضاً لا يمكن اصلاحها .

المعارضة الالمانية والايطالية . — وبدا المستقبل قائماً لا سيما وان وارث العرش كان طفلاً عمره ثلاثة أعوام . ولذا فان المعارضة الالمانية والايطالية العتيدة بدأت تستيقظ الواحدة بعد الاخرى بفضل هذه الظروف .

في المانيا ، كان دوق بافاريا هنري اللدود يتطلع لطرد السلالة الساكسونية ، واستطاع في فترة من الزمن أن ينتزع الفتى أوتون الثالث من أمه . وأعتمد على مساندة ملك فرنسا لوثير الذي يطمع في اللورين ، ومساعدة دوق بوهيميا بوليسلاس الذي يتابع بثبات سياسة التحرر .

وفي روما ، رأت الارستقراطية أن الوقت مناسب للخلاص من البابا الامبراطوري ، وعاد بونيفاس السابع من القسطنطينية وظهر فجأة عام ٩٨٤ وبمشاركة كريسانت قبض على جان الرابع عشر وسجنه في قصر سانتانج وتركه يموت جوعاً

— ٥٦٩ —

ثم حل محله على الكرمي الرسولي دون أن يمنعه الحزب الالماني بعد أن حرم من رئسته . ومثل هذا الجبر الحفود لا يمكن أن يكون في صالح أوتون الثالث الذي أوشك أن يخسر الامبراطورية وبماله في المانيا وايطاليا .

وصاية تيوفانو . — غير أن الامير الفتى انقذته سياسة أمه الماهرة التي عهد اليها بالوصاية عليه . وهذه الاميرة الاغريقية الجميلة المشعة رقة وعذوبة وعقلاً كانت على ما يبدو غير مهتاة للدور الذي فرضته الظروف عليها . إلا أنها برهنت على عقل راجح وحس سياسي أعلى جداً من زوجها . لقد كانت تعلم أنها غير شعبية في المانيا ، لأنها نطقت ببعض كلمات بانسة اثناء اخفاق رأس كولون ، ولذا انمحت أمام أسقف ماينس فيليجيز الذي بارك أوتون الثالث في اكس - لا - شابل يوم عيد الميلاد ٩٨٣ وتركت له أمر إخماد المعارضة البافارية وخصت نفسها بالقضايا الايطالية .

لقد وجهت تيوفانو هذه القضايا بكثير من الحصافة وحاولت أن تصلح الاخطاء التي ارتكبها أوتون الثاني . ومن البديهي أن تبادر إلى اسقاط مشروع الحرب الصليبية ضد المسلمين الذي لم يرض عنه الالمان والايطاليون والاغريق ايضاً الذين أغرتهم تيوفانو بانفراج لصالح الامبراطورية الجرمانية . لقد كان يهملها قبل كل شيء أن تمنع الكراهية حيال النظام الاوتوني . وبفضل دعم حماها اديلايد ، أرملة أوتون الأول ، التي تتمتع نظراً لماضيها بجاه عظيم ، وأيضاً بفضل تحالف الاسقفية الشديدة التعلق بالسلالة التي ماقتت تغنيها ، والموقف الملائم الذي وقفه هورغ طوسكانا الذي لاحظ في ضعف أوتون الثالث الفتى ضماناً للاستقلال ، استطاعت تيوفانو الحفاظ

على ايطاليا الشمالية والوسطى تحت طاعتها . وخدمتها الظروف في روما . فقد توفي البابا بونيفاس السابع ٩٨٥ بعد أن اتعب الرومانيين بشدته ، وعوضاً عن أن تحاول تيوفانو فرض بابا من اختيارها سمحت للرومانيين بانتخاب خلفه جان الخامس عشر ، ولم تعارض في أن يأخذ زعيم الارستقراطية جان كريسانت بن كريسانت المتوفى عام ٩٨٤ ، لقب حامي . واعترف الجميع لها بهذا الاعتدال ، وفي مقدمتهم كريسانت . وفي ٩٨٩ كان بإمكانها أن تأتي إلى روما بمناسبة عيد الميلاد وتستقبل فيها بكل ترحاب . وقد استطاعت بمداراتها القوى المحلية أن تنقذ السيادة الامبراطورية .

كانت سياسة تيوفانو الايطالية سعيدة بعامه . كما برهنت الوصية ، بمساعدة اسقف ماينس ، على الحكمة والعقل والطريقة والقوة والعزم لدى مواجهة القضية السلافية . لقد رأت بأمر عينها ان الخطر الحقيقي يأتيها من بوليسلاس بوهيميا الذي كان يحلم بتأليف امبراطورية كبرى على أبواب جرمانيا ليهاجم بقواه على القوة الجرمانية . فحاول أولاً أن يهاجم دوق بولونيا ميسكو ، وكان هذا في جانب اوتون الثالث ٩٩٠ ، فاهتمت تيوفانو حالاً بانقاذ بولونيا ، ثم تصالح بوليسلاس وميسكو وساد الهدوء على حدود الايلب وفي كل هذا لم تعوز تيوفانو المهارة ولا القوة .

وفاة تيوفانو (١٥ حزيران ٩٩١) . - لقد استطاعت تيوفانو، بنت شاطئ البوسفور ، أن تقوم السياسة الجرمانية الناجمة على يد اوتون الثاني بعيداً عن طريقها التقليدية ، وفهمت ضرورات الزمن ولاحظت بعين صافية كيف يجب أن يكون المصير الحقيقي للامبراطورية الاوتونية . ولو اكتفت بالتخلي عن مشاريع فتح جنوبي ايطاليا لقليل بأنها خدمت

مصالح البيزنطيين ، ولكن محاولتها لتثبيت السيطرة الامبراطورية في ايطاليا في حدود معقولة ، وجهدها الواعي البصير للحيولة دون تشكيل امبراطورية كبرى سلافية تحت ادارة دوق بوهيميا يوهنان على أنها عرفت في أي اتجاه يجب أن تتجه الامبراطورية التي شادها همها وكانت له متممة أكثر من زوجها الراحل اوتون الثاني . ولسوء الحظ ماتت تيوفانو ، وهي في زهرة العمر ، في ١٥ حزيران ٩٩١ ، ولم يكن لابنها غير احد عشر عاماً . ومع هذا فان توجيهاتها استمرت سائدة إلى أن أصبح اوتون الثالث راشداً وحكم بنفسه .

وصاية ادبلايد (٩٩١ - ٩٩٤) . - وإذا أخذنا بما كتبه تيتار انتقلت الوصاية ، بعد وفاة تيوفانو ، إلى يدي أرملة اوتون الاول ، ادبلايد ، التي عاشت حتى عام ٩٩٩ ، ولكن لم يكن لها أي نفوذ ابتداءً من ٩٩٤ وهو التاريخ الذي انسحبت فيه من البلاط . وكانت فيليجيز مستشارها المفضل كما كان مستشار تيوفانو ، ولذا سادت الاتجاهات نفسها : وهي أن يسود النضال ضد السلاف على أي اهتمام آخر . وما من سنة إلا وتشير التاريخ فيها إلى حملة جديدة . وخضع السلاف للقوة ولكنهم عرقلوا عمل المبشرين وجعلوا حياتهم جحيماً .

وشد اوتون الثالث . - وبالرغم من أن سياسة تيوفانو وفيليجيز السلافية قد اثمرت فان كثيراً من الثبات كان ضرورياً . وإذا أريد الحصول على نتيجة دائمة وجب التخلي نهائياً عن اغراءات ايطاليا لتتركز فيما وراء الالب جميع القوى المادية والمعنوية التي تتصرف بها الامبراطورية . وعندما استلم الفتى اوتون ادارة الاعمال وجد أمام موقف حرج أكثر من أي وقت مضى وهو : هل ينبغي لالمانيا الواقعة بين ايطاليا والعالم السلافي أن توجه جهدها الاساسي إلى الشمال أو إلى الجنوب ، وهل ترد

حدود المسيحية الى الاودر والفيستول أو تشع السيطرة الجرمانية حتى صقلية ؟ ومن التناقض الفريد أن الساكسوني اوتون الثاني جذبه سراب المتوسط بينما الشرقية تيوفانو عادت إلى التقليد الساكسوني المحض واستأنفت النزاع ضد السلاف . لقد أختار اوتون الثالث طريقه بين هاتين السياستين اللتين رسما الآباء له وتعلق باخطاء أبيه وبالغ فيها وجعلها مثالية .

علم الامبراطور اوتون الثالث

٩٩٦ - ١٠٠٢

اوتون الثالث . - لقد حكم اوتون الثالث الشاب المانيا وايطاليا ست سنوات . وكان وجهاً يلفت النظر في تاريخ العصر الوسيط . ومن الصعب الكشف عن ملامح سمائه المتقلبة المتحركة التي تلتقي فيها المتناقضات الغريبة والمؤثرات المختلفة . وربما تساعد دراسة هذه المؤثرات المتتالية على معرفة هذه الشخصية اللينة المتغيرة التي لاتلبث على حال .

كان اوتون الثالث بن اوتون الثاني وتيوفانو . وقد ترك منذ طفولته إلى غرائزه وذوقه ، وأسلمته أمه لهواه خشية من أن تعاكسه فتخسر عطفاً تعرض عليه فوق كل شيء . ولذا حاولت ، أقل ما يمكن ، أن تهب هذه الروح الموهوبة ، ولكنها غير متزنة وكثيرة الاحلام وثابتة . يتأهبها طوراً طوراً طموح غير معتدل فينطلق بها بعيداً إلى أجواء فوق طبيعته تفقد فيها الشعور بحقائق الدنيا وخيرات هذا العالم . كان متفقاً تقيض عروقه بالدم الشرقي . وأخذته الحضارة الملمية فأظهر احتقاراً حقيقياً للشدة الجرمانية ، ولكن هذا لم يمنعه من تقدير أساتذته وذكايتهم

وطرق تعليمهم . كان مسيحياً وتربى على أيدي رجال كنيسة وتغذى
إيمانه بمصادر صوفية حادة جداً فأصبح لا يتراجع أمام أقسى الاماتات الجسدية .
وظل طوال حياته متقلباً بين التطلع إلى النسك الشديد وغريزة السيطرة
التي تؤدي به إلى الحلم بامبراطورية واسعة تفوق امبراطورية شارلومان .

يضاف إلى ذلك أن المؤثرات التي تأثر بها ما كان منها إلا أن
قوت عنده هذه التناقضات . لقد تأثر بالثقافة اللاتينية فطبع في
الاعجاب بالقديم وإرادة ارجاع الامبراطورية الرومانية وتسلسلها الوظيفي
واحتفالاتها الفخمة وحضارتها المشرقة . وما وسعه إلا أن استسلم
لكل هذا . فتارة تتفجر عنده الرغبة في احياء قسطنطين ، أو
على الأقل شارلومان ، والسيطرة على العالم وبهره بالبذخ ؛ وتارة يستسلم
لدافع معاكس فيكره البلاط ، ويهيم على وجهه في الطرق الكبرى نحو
العزلة عارياً جائعاً متأثراً بأراء القديس ادالبير والقديس نيل .

وهذه التأثيرات المتباينة المتنوعة توضح تعقيد طبع اوتون الثالث .
لقد كانت تسيطر عليه ارادة ثابتة لا تتزعزع في أن يكون « امبراطوراً
مباركاً للعالم الروماني » . ونادى بنفسه « رومانياً ، ساكسونياً ،
إيطالياً » ، ولكنه روماني أكثر منه ساكسوني ويحلم قبل كل شيء بتثبيت
مقامه في روما واقناع الرومانيين بأنه ، وان كان ابن الماني واغريقية ،
أهل لان يكون مواطناً مثلهم ويشيد حول روما العاصمة امبراطورية
عامة لا يرى ولا شك حواشيا وأطرافها وحدودها إلا في الضباب البعيد .
ولكن إذا بدا مفهومه هذا حليماً لم يدع الموت الغاشم له وقتاً لتحويله
إلى حقيقة ووجود ، فقد ظل ثابتاً وأكداً على نقيض مفهوم أبيه وجده
الذين حاولوا بمخافة بسط شوكتها الالمانية دون الاهتمام بامتيازاتها
الامبراطورية . لقد أراد اوتون الثالث أن يكون امبراطوراً وسيعمل
ويقرر ويشرع امبراطوراً ، على شاكلة الامبراطور شارلومان الذي

بقيت ذكراه عالقة في ذهنه . وكانت هذه الامبراطورية أكثر من عامة أيضاً ، وستكون امبراطورية مسيحية تنمي حكم المسيح ، وسيكون للكنيسة فيها مكان ممتاز . ونظراً للتربية التي تلقاها اوتون الثالث والصدقات التي عقدها كان ايمانه حياً جداً ، وعبر عنه بأعماله العامة والخاصة . ففي بعض الاوقات كان يتغلب مزاجه الاستبدادي على دينه ويجعله يرتكب افراطاً يخالف الاخلاق الانجيلية ؛ وأحياناً أيضاً ، على اثر حديث مع استاذ القديس ادالبير أو القديس نيل ، كانت تخامرهم فكرة العزف عن العالم ليكون قديساً ويتخلى عن تاج بال . ليحصل بالتأكيد على آخر ، تاج المصطفين الأخيار ، الذي يقاوم الزمان ويتحدى الموت . وسيقوم بين تذوق البذخ واندفاعات النسك نضال دائم مخفوف بالقلق : فتارة يكون اوتون الثالث متغطراً مستبداً طائشاً يفيض بالطموح ، وتارة يكون متواضعاً ، زاهداً ، نادماً ، متقشفاً ، كريماً .
فهذه هي سيماء هذا العاهل الذي تتجمع فيه التناقضات وتتصادم ، وهذا حكمه الذي هو أشبه ما يكون بالخط المنكسر الذي يعطي طابعاً متناوباً بين صعود وهبوط ويعكس شخصيته .

رحلة اوتون الثالث إلى ايطاليا (٩٩٦) . - وتحت تأثير استاذه جيرير كانت الفكرة الامبراطورية عنده غالبية وأخذت تتوحد بقوة . ففي شباط ٩٩٦ رأى اوتون الثالث أن الوقت قد حان للذهاب إلى روما والبحث عن التاج الذي ازدان به رأس أبيه وجده . وكانت المانيا هادئة بعد أن سكنت نائمة السلاف وضعفت اثر الحملات المتعاقبة . وفي ايطاليا كانت الاسقفية في صالح النظام الاوتوني . اما الارستقراطية الرومانية فوقفت متحفظة . وظل اوتون الثالث متفائلاً ، وفي الوقت

نفسه عازماً على كسر كل مقاومة . وكان حضوره في شبه الجزيرة كافياً لتوكيد الاحترام والخوف .

انتخاب غريغوار الخامس بابا . - بعد وفاة البابا جان الخامس عشر جاءه رسل الرومانيين يرجونه أن يعين لهم بابا رغم أنه لم يكن امبراطوراً بعد . وكانت هذه المناسبة فرصة للاعراب عن تنظيم سير العلاقات بين الكهنوت والامبراطورية . لقد كان أسلافه في الماضي يحرصون أنفسهم بحق تسمية البابا ، ولكنهم ، بحياء له ما يبرره ، كانوا يختارون اكليركيا رومانياً أو اسقفاً ايطالياً . أما هو فقد رأى للسيطرة على روما والكنيسة أن يخول التاج البابوي الى الماني : وهو ابن عمه اوتون كارانثيا ، وكان اكليوكي كنيسة ، وأصبح هذا بابا باسم غريغوار الخامس . ثم ذهب هذا البابا الجديد إلى روما وبورك دون أقل مقاومة في ٩ أيار ٩٩٦ .

تتويج اوتون الثالث . - وبعد أن عبر اوتون الثالث جبال الالب من شعب برنيز وتقدم من بافيا نحو رافينه حكم على الكبار بمن سبوا خسائر للكنائس ، ثم اتجه صوب روما ، وفي ٢١ أيار ٩٩٦ توجه البابا غريغوار الخامس امبراطوراً حسب المراسم المعتادة . ولتوكيد سلطته نفى كريستانت ، وكان يخشى عداوته ، ولكنه عفا عنه بعد طلب البابا الذي حرص على الا يثير الارستقراطية ضده . وساد ، ولو ظاهراً ، الوفاق بين الامبراطور والبابا والرومانيين .

عودة اوتون الثالث إلى المانيا . - وبدا الأمن سائداً . وفي بداية حزيران ٩٩٦ غادر اوتون الثالث روما عائداً إلى المانيا بعد أن عادت الغارات السلافية . وحاول الامبراطور ردعها قبل أن تستفحل . ولم يكن له ذوق اسلافه في الحرب ، ولذا جنح إلى السلم واحترام استقلال

السلاف تحت سيادته في ظل الامبراطورية التي يترأسها .

ثورة روما ضد غريغوار الخامس . - وفي روما حاول البابا غريغوار الخامس أن يقوم بدوره بكل جد وشدة انجيلية ، وأراد إصلاح المفسد بكل حماسة ، وأثارها حرباً على السيمونية وتوظيف المحاسيب والأقرباء . إلا أن هذه العودة إلى التقاليد المقدسة لم ترق في عين الارستقراطية . وبعد أن غادر أوتون الثالث ، أخذت تقاوم البابا حتى أضطر لترك مكانه وعاد كريستانت سيداً في روما ورأى أن يقيم على الكرسي البابوي جان فيلاغات ، وهو مرب قديم لآوتون الثالث ، تحت أسم جان السادس عشر . وتخلصت روما مرة أخرى من السيطرة الجرمانية ، ولكن لأمد قصير .

وعاد أوتون الثالث إلى روما بعد أن أمن جانب السلاف ، وأعاد البابا غريغوار الخامس إلى عرشه ، وقضى على المتمرد كريسانت وصحبه بفضاعة ، وعفى عن استأذه فيلاغات . ثم انتابته نوبة من النسك والصوفية فأخذ يتجول في أنحاء ايطاليا ، ثم عاد إلى روما بعد أن نزل من سماء أحلامه ومارس وظائفه امبراطوراً .

وتوفي في هذه الاثناء البابا غريغوار الخامس في ١٨ شباط ٩٩٩ تاركاً ذكرى البابا المصلح ، الذي لا يعرف في الحق لومة لائم ، ومجاول جهده الحفاظ على النظام الكنسي بكل شدة ، والضرب على أيدي الاساقفة المتمردين على توجيهات الكرسي الأقدس ، غير مبال بارتباطاتهم وعلاقاتهم . وحالت وفاته العاجلة دون تحقيق إصلاح الكنيسة كما يرجو .

البابا سيلفستر الثاني . - وسمى أوتون الثالث في هذه المرة مستشاره وصفيه جيروير مطران رافينة وبورك تحت اسم سيلفستر الثاني . وهذا الاسم سيلفستر له مغزاه . فقد كان البابا سيلفستر الاول

معاصراً للامبراطور قسطنطين عندما أعد تنظيم الامبراطورية المسيحية . وكان سيلفستر الثاني كسميه من أفضل أعوان السياسة الامبراطورية ، وهذا الوضع لم يجنبه الأخذ باتجاهات سلفه في إصلاح حكم الكنيسة . كان يشجع أهداف أوتون الثالث في الامبراطورية العامة ، ولكنه كان مقتنعاً ، في المضمار الروحي ، بأن لا سند للسلطة الجبرية ، وجهد في فرض احترامها على الكنائس .

وهذا المفهوم الذي كونه سيلفستر الثاني عن السلطة الرسولية لم يمنعه من أن يكون أميناً مخلصاً لأوتون الثالث ويمده باشعاع ذكائه . وبدأ في فاتحة القرن الحادي عشر ان البابا والامبراطور ، حسب التعبير الاتباعي ، مشعلا العالم .

واقدر عبر هذا العمل المتواجد عن اتجاه جديد كل الجدة في حكم المسيحية . فعلى حدود الامبراطورية حاول أوتون الثالث وسيلفستر الثاني أن يضا إلى الامبراطورية الشعوب التي دانت بالمسيحية حديثاً مع تمتعها باستقلال ذاتي واسع عوضاً عن أن تفرض عليها وصاية المانيا السياسية والدينية . وطبقت سياسة الحكم الكنسي الذاتي في بوهيميا كما في بولونيا وهونغاريا . ولقد أخذ على أوتون الثالث اضعافه الامبراطورية بهذه السياسة . وهذا الرأي لا يخلو من حقيقة ، لأن مفهوم الامبراطور ، المتأثر ولا شك بآراء سيلفستر الثاني ، لا يشبه في شيء مفهوم أسلافه . فقد ظل هؤلاء الماننا قبل كل شيء واستخدموا المسيحية لسط نفوذ عرقهم . أما أوتون الثالث فكان اغريقيا بأمه ورومانياً بتبنيه ، ولذا كان يحلم بامبراطورية مسيحية ، غير جرمانية ، عامة ، مركزها روما لا اكس - لا - شابل ، تضم بحرية جميع الشعوب التي اعتنقت قانون المسيح دون أن تضم إلى هذه العصر الوسيط - ٣٧

الدولة أو تلك من الدول الموجودة . ومن الممكن أن يتساءل عما يمكن أن تعطيه هذه الحطة العظيمة والمثالية نوعاً ، لو عاش أوتون الثالث بصورة كافية لتوسيعها . وإذا بدت انها قبل الأوان فقد كانت ، على الأقل ، تعبيراً لالهام كريم انصرف أكثر من مرة بتأثير مزاجه الاستبدادي .

وكانت روما في الحطة عاصمة هذه الامبراطورية العامة . ولذا اهم اوتون الثالث قبل كل شيء بتوكيد سلطته فيها وجعلها مقراً له ابتداءً من ٩٩٩ ، وفي بداية العام ١٠٠٠ اضطر إلى الذهاب إلى المانيا والاقامة فيها ستة أشهر بعد أن توفيت جدته الامبراطورة اديلايد وعمته الأم ماتيلد ، ثم عاد إلى ايطاليا وأقام في روما وزعم أنه يحكم العالم .

كان اغريقياً ولذا أدخل إلى البلاط بعض تعاملات المراسم البيزنطية . كان يأكل وحده ، على مائدة منفصلة ، غير محفوف بالكبار ، كما كان يفعل أبوه وجده ؛ ويلبس رداء ذهبياً تقليداً للرداء الذي كان يلبسه أجداده لأمه ؟ وأخذ كبار الموظفين الالقاب الدارجة في القسطنطينية ، ويرى فيهم موظف المشجب ، وهو سيد المليشا الامبراطورية . وكان الامبراطور الشاب يتطلع إلى زواجه من أميرة اغريقية ، وقام خلال مرتين بمفاوضات لهذه الغاية : أولاً في عام ٩٩٦ بوساطة فيلاغات ، ثم في ١٠٠١ بوساطة مطران ميلانو ، آرنولف . وكل هذه العلام تدل على قوة وراثه الأم ، ولكن الفكرة الرومانية أقوى ايضاً . ويرى تينار « ان الامبراطور أراد أن يحدد في عهده التعاملات الرومانية القديمة التي زال معظمها » . لقد كان الاوتونيان الاولان ملكي المانيا وايطاليا معاً ، ولكن لا يوجد بين هاتين المملكتين إلا اتحاد شخصي محض ، وكل منهما تحافظ على ادارتها المتميزة . أما اوتون الثالث فاراد ، على العكس ،

— ٥٧٩ —

صهرهما في بوتقة الوحدة الامبراطورية ، باعتباره امبراطوراً رومانياً مباركاً . وهكذا تحول التنظيم الاداري . ففي عهد اوتون الاول واوتون الثاني وجد ديوانان متميزان أحدهما في المانيا ، والآخر في ايطاليا ، ومثل ذلك في عهد وصاية تيوفانو . ولكن اوتون الثالث ، منذ تسلم السلطة ، قلب كل شيء . ومنذ رحلته الاولى الى ايطاليا أصبح الجهاز الأدنى في الديوان ايطالياً وينتقل من ايطاليا إلى المانيا أو بالعكس . وفي كل ذلك دليل ملموس على نزعة المركزية والوحدة الرومانية التي سادت في الحكم الامبراطوري .

وكانت هذه الامبراطورية امبراطورية مسيحية ايضاً . فقد أعلن اوتون الثالث أنه « عبد الحوارى » ، واعتبر الكنيسة الرومانية أمماً لجميع الكنائس على أن تبقى ملحقه وتابعة للامبراطور الحاكم ومدينة له بكل شيء . فلاهبة قسطنطين التي يطعن بها ، ولاهبة شارلومان بقادرتين على أن يكون لهما بعض القيمة ، بل القيمة لاوتون الثالث الذي برهن بكرم عظيم على اعترافه بالبابا ، استأذه القديم ، ومنحه ثماني كونتيات في المارش واكسرخوسية وافينه التي أعلن أنها تابعة له ، وربما كان في هذا الزعم في التفوق على الكرسي الاقدس بزور خلاف خنقها الموت وهي ما تزال في المهد .

ولولا هذا الزوال قبل الأوان لكان من المحتمل أن يصطدم حلم الامبراطور في ايطاليا نفسها بعقبات عنيفة ، لأن أونون في عين الرومانيين رغم مساعيه ، يحمل عيب أصله الالماني ، ولا يستطيع ، بسبب الذكريات السيئة التي تركتها حوادث عام ٩٩٨ ، أن يكون شعبياً محبباً لدى الشعب . لقد أدت سياسته الدينية إلى تجريد الارستقراطية لصالح الكنيسة فسبب

بذلك استياء شديداً ، هذا فضلاً عن الاحقاد التي اشتد اوارها لدى الحزب المعادي للهيمنة الالمانية

وفي روما أخذت المعارضة شكل مهدداً . فقد قامت الثورة ضده وقتل عدد من الجنود الالمان وغدت الحالة خطرة على الامبراطور نفسه حتى اضطر إلى مغادرة روما سرأ في ١٦ شباط ١٠٠١ ، وذهب إلى رافينه حيث خامره العطش إلى الاشياء الازلية ، ولم يفكر الا بالتوبة عوضاً عن معاقبة الرومانيين ، ثم عاد من جديد وغرته الحياة الدنيا فعاقب البيسيفنتيين وكان له ما يشكو منهم .

ولم يستطع الدخول إلى روما ، وبعد جولة في الجنوب عاد إلى رافينه وفكر بالعودة إلى المانيا عندما وصلته منها أخبار مزعجة ، ومات فجأة في باتيرنو في أسفل جبل سقراط في ٢٤ كانون الثاني ١٠٠٢ ، في الوقت الذي جاء فيه مطران ماينس من باري مع الاميرة البيزنطية الشابة التي خطبت لتكون زوجاً له . ونقل جثثانه إلى مملكته في جرمانيا من سهل لومبارديا الصاحب باصوات الحقد .

ولم يترك أوتون الثالث وارثاً مباشراً ، فشغل التاج في ايطاليا وفي المانيا . فهل ستقاوم وحدة الامبراطورية ، وهي هدف أسمى لحكومة الامبراطور أوتون الثالث ، هذه المحنة ؟ وثم إلا يهدد عمل اوتون الكبير بالانهيار اثر زوال آخر سليل للأسرة الساكسونية !

حكم هنري الثاني

(١٠٠٢ - ١٠٢٤)

هنري الثامن . - كان خلف اوتون الثالث الأمير البافاري ، هنري . وهو آخر حفيد للملك هنري الاول الصياد ، وابن دوق بافاريا هنري اللدود وجيزيل بنت ملك بورغونيا ، كونراد الحب للسلام . ولم يتسلم التاج الامبراطوري إلا في ١٠١٤ ، ولكنه ، باعتباره ملك جرمانيا ومن بعد ملك ايطاليا ، استعمل امتيازات أسلافه نفسها .

لقد تربى هنري الثاني تربية دينية في مدرسة هيلسهام ، وكانت تحركه العواطف الدينية التي تحرك اوتون الثالث . واذا رسم قديساً لقداسته الكبرى فان إيمانه لم يكن كإيمان اوتون الثالث . كان إيمانه متزناً ، قاسياً ، وأقل صوفية ، وله تأثيره في حياته العامة والخاصة .

أما هو فكان كريماً محسناً محباً للسلام كارها للحرب . ويجب أن يضاف إلى هذه الصفات البشاشة والشجاعة والقوة والصبر على البلاء وحب العدل وطيب المزاج وغيرها من هذه الخصال التي تحببه إلى الشعب . لقد كان هنري الثاني نموذج الامبراطور المسيحي الكامل ، ولكنه امبراطور بقدر ما هو مسيحي ؛ وبالرغم من رغبته الصادقة في خدمة الكنيسة ، كان يعتبر نفسه ، ويرتبط في ذلك باللاتونيين ، مقلداً حياتها بكنهوت اسمى ، وله الحق بادارتها في الزمني والروحي . ولكنه دل في كل ذلك على اعتدال حقيقي تجاهها . لقد كان بطبيعته متزناً راجحاً ونصيبه من الفطنة أكثر من الذكاء .

وفي الحقيقة ، كان البرنامج الامبراطوري يتحول تبعاً لمن يطبقه . لقد حلم اوتون الثالث بامبراطورية عامة ، أما نظرات هنري الثاني فكانت

متواضعة لأن كل ما يريده هو إقرار السلام وحماية الكنيسة في الداخل والخارج ورد الوثنية واعطاء الامبراطورية بسياسته وتشريعه طابعاً دينياً عميقاً . ولذا عزف عن المشاريع الكبرى والخيالية التي سُغلت سلفه وجعل همه الاساسي الحفاظ على ايطاليا ووضع سد في وجه السلاف .
ومها يكن هذا العمل معقولا فهو يبدي صعوبات حقيقية نشأت عن الحالة المضطربة التي تركها اوتون الثالث إلى خلفه .

في المانيا ، كان على هنري الثاني أن يناضل لعدة سنوات معارضة قوية على الحدود في عالم السلاف لدى الاقوام الشرقية وفي بوهيميا وبولونيا . وفي ايطاليا ، أخذت الحوادث وضعفاً حرجاً . فقد قام آردون ماركيز ايفريه وتوج ملكاً في بافيا . وفي روما مات البابا سيلفستر الثاني بعد اوتون الثالث بقليل وترك الكرسي الاقدس من جديد تحت رحمة الارستقراطية الرومانية . فمن ذلك أن الحامي جان كريسانت عين تباعاً البابا جان السابع عشر ثم البابا جان الثامن عشر وظلت الارستقراطية تتصرف بالتاج البابوي خلال نصف قرن .

وانقسمت المانيا واجتاحها الغزاة ، وتحررت ايطاليا من الهيمنة الجرمانية وبدأ على هذا النحو أن عمل اوتون الكبير أوشك أن ينهار ، ولذا توجب على هنري الثاني ، وارث السلالة الساكسونية ، أن يحزم أمره ويبعد الاوضاع إلى ما كانت عليه .

بدأ هنري الثاني قبل كل شيء بتهدة الحالة في مملكة جرمانيا . واضطر إلى الحرب في بولونيا رغم حبه للسلام . واسترعت ايطاليا اهتمامه ايضاً . وكلما هدأت الحالة على جهة الايلب ذهب إلى سهل البو والعكس بالعكس . ومنذ ان هدأت بولونيا بادر إلى روما للبحث عن التاج الامبراطوري الذي انتظره اكثر من عشر سنوات .

تتويج هنري الثاني امبراطوراً (١٦ شباط ١٠١٤) - ٠ - وفي روما تم له ما أراد وتوج امبراطوراً في ١٦ شباط ١٠١٤ على يد البابا بندكت الثامن ، وعقد مجعاً لانعلم عنه شيئاً إيجابياً . وساعده الحظ بموت اردون في ١٤ كانون الأول ١٠١٤ ونوطد السلام في ايطاليا الشمالية .

ثم عاود النضال في بولونيا ودام هذا النضال من ١٠٤ إلى ١٠١٨ وانتهى بالصلح . ويبدو من خلال النصوص أن بولونيا لم تعترف بالسيادة الجرمانية . ولا شك في أن البلاد بين الايلب والاور كانت مسيحية ولكن النفوذ الالماني فسخ المجال فيها للنفوذ البولوني .

وكان لهذا الوضع صداه لدى السلاف ، فقد أوشكت المسيحية الكاثوليكية أن تزول أمام عودتهم إلى الوثنية وميلهم إلى الاستقلال ، حتى ان العمل الذي قام به اوتون الكبير كان على شفا جرف هار . وبدا أن الامبراطورية تنطوي على نفسها دون أي تعويض من جهة الغرب حيث لم يسجل هنري الثاني أي نجاح عندما هاجمه كونت فلاندر بودون الرابع الأحمى في فالانسين . ولئلا يكون هنري قلقاً في نزاعه ضد بولونيا رأى من الخير أن يتخلى لهذا الأمير عن بعض الجزر في بحر الشمال .

ولم يكن هنري الثاني في مملكه بورغونيا بأسعد منه في الفلاندر ، وظل المستقبل أمامه غامضاً لايطمان له .

وجذبتة ايطاليا الجنوبية بسحرها كما جذبت أسلافه ولم يسعده الحظ مثلهم .

وهكذا اصطدمت سياسة هنري الثاني في الجنوب كما في الشمال

بعقبات كآداء ، ورغم أنه كان يجب السلام من كل قلبه ، إلا أنه اضطر إلى القيام بحروب مستمرة وغير مشرة . ولم يستطع توطيد تفوقه على إيطاليا ، وظلت الملكية الجرمانية تمارس فيها سلطة نظرية أكثر منها فعلية . وتخلّى لبولونيا عن الأراضي التي فتحها أسلافه في بلاد السلاف . ولكنه ، على الأقل ، حاول أن يدخل إلى امبراطوريته المتصاعدة حياة جديدة بأشباعها بالمسيحية .

الامبراطورية المسيحية . — لقد أشرنا آنفاً أن هنري الثاني كانت لديه فكرة كهنوتية تماماً عن وظيفته . فقد كان يعتبر نفسه مقلداً بمهمة الدفاع عن الايمان ضد الاعداء في الداخل والخارج ، وملاحقة الهرطقة ، وهذا ما فعله خاصة في ١٠١٢ عند دخول الكتيرين (فرقة الاليجوازين الذين يعتقدون بوجود إله للخير وإله للشر وبالتناسخ) إلى ألمانيا ، وأكثر من ذلك السهر والحفاظ على قوانين المجامع لدى الإكليركين والعلمانيين . وكان مشعباً بغيرة المصلح ، يجب رئاسة المجامع وإسهامه الشخصي في المناقشات وفرض وجهة نظره ، ويمارس تدخله لصالح الدين الحنيف كعقد الزواج بين أقرباء من الدرجة الثالثة ، أو قضايا الطقوس مثل تثبيت وقفة (بيرمون) العيد ، أو بدء الصيام ، ويشعر بواجبه في رفع المستوى الأخلاقي للإكليروس .

وأهم الامبراطور بالأبويات . فالحياة الرهبانية ، التي تفرض التخلي عن الأموال الأرضية وتأمل الأشياء الأزلية ، ظهرت لهذا الأمير ، المتعلق بالكمال النفسي ، شكلاً نقياً للتخلي المسيحي ، واعتبر انتشارها في الامبراطورية أهلاً لخلق الجو الديني الذي يريجه . وشجع هنري الثاني دخول الإصلاح الكلويني إلى ألمانيا ، ولكنه فضل الإصلاح الداخلي الذاتي الذي قام به بوبون ستافيلوت تلميذ ريشار سان — فان . وكان بوبون هذا أقل صرامة من

استاذة الذي بدا مستقلاً جداً حيال السلطات الزمنية ، وتقبل من يدي هنري الثاني منصب أبوية دير ستافيلوت - مالميدي ، وانحاز إلى العاهل الحريص على أن تكون له اليد العليا على الاديرة ، وبدعمه نجح في مسعاه في تطهير الاكليروس النظامي . ودخل هذا الاصلاح في نطاق الاصلاح الامبراطوري كما تصوره هنري الثاني .

وحلم هنري الثاني بعض الوقت في تعميم هذا الاصلاح على الغرب كله . وعندما فاجاه الموت اقترح أن يعقد ، باتفاق مع رويير النقي ، مجمعا كبيرا يضم الاساقفة الالمان والايطاليين والفرنسيين للتنسيق بين الاتجاهات الدينية الخاصة وتأمين السمو الحلقى للاكليروس الذي تعلق به قلب الامبراطور ، ولكن وفاته اجهضت هذا المشروع .

القيصرية البابوية الامبراطورية في عهد هنري الثاني . - وهذه
الغيرة المصاحبة التي لاسبيل إلى نكرانها لم تمنع هنري الثاني من البقاء أميناً على التقليد القيصري البابوي لأسلافه . لقد كان يعتبر نفسه مقلداً في الكنيسة بسلطة عليا في التوجيه والتقويم . وجعل يسمي الاساقفة ويعارض كل المحاولات التي ارتسمت خاصة في ماغدبورغ وتريف لارجاع حرية الانتخابات ؛ وفعل مثل ذلك تجاه الأديرة وأراد أن يكون لها سيذاً مطلقاً . ولم يتردد أيضاً في خلع الاجبار الذين يشك في اخلاصهم السياسي ، أو الآباء الذين انتخبهم اخوتهم ولا يبدوون له ضمانات ضرورية ، وأكد سلطته السامية على الكنيسة بتدخلات دائمة في المضمار الروحي ، ووضع نفسه بدلاً عن السلطة الكنسية في كثير من الظروف ، ولعب أيضاً دور الحكم في المنازعات التقليدية بين الاسقفية والرهبات الذين ينزعون إلى التخلص من ادارة الاسقف المحلي ، وحافظ بشدة على

حق زيارة الاساقفة الذين تعاون معهم في اصلاح الابويات مثل فيليجيز ماينس ، تاجينون ماغديبورغ ، ادايرون بال ، جيبار راتسبون ، وغيرهم ممن عملوا بنجاح على توطيد النظام بعد أن ناهضه بعض الآباء من حولهم ثروتهم الأرضية إلى امراء زمينين .

هنري الثاني والبابوية . - وتأكدت القصرية البابوية أيضاً في علاقات هنري الثاني مع الكرسي الأقدس ، حتى رد البابا ، في ظل الاوتونيين ، إلى دور نائب متواضع للامبراطور . وقد لوحظ ذلك أثناء الجمع الذي عقد في روما غداة السويج . فقد كان هنري يدير المناقشات وينشر القرارات ويظهر أنه الرئيس الأعلى للكنيسة . وفي العام ١٠٢٠ دعي البابا بندكت الثامن إلى المانيا كأسقف بسيط . ورغم ما أحيط به من اجلال وتقدير لم يستطع أن يعبر عن ارادة تخالف ارادة الامبراطور .

ولاغربة إذا تراخت الأواصر التي تربط روما بالكنائس المحلية ، لأن السلطة الامبراطورية حلت محل سلطة الكرسي الأقدس ، وفقد الأخبار الاعلون معنى التسلسل الكاوليكي أيضاً .

أثر هنري الثاني . - لقد كانت السلطة الرومانية في عهد هنري الثاني اسمية صرفاً بعد أن استلم الامبراطور زمام المبادرة في كل شيء . وإذا راعى الامبراطور في حياته الخاصة تعاليم الاخلاق الانجيلية وبرهن حيال الكنيسة على بعض التنازلات ولم يتسامح بأي اعتداء على القانون الديني ، فلم يقبل بتفوق السلطة الروحية أو استقلالها وحلقها بسلطته . وأثره الاصلاحى في مثل هذه الظروف لا يمكن أن يكون قطعياً ، لأن أي تغيير بسيط في الحكم يضعه من جديد موضع بحث ، وستبرهن الاتجاهات المعارضة لحلف هنري الثاني ، كونراد الثاني ، صراحة بأن هذا الاثر غير قابل للحياة .

ومات هنري الثاني في ١٣ تموز ١٠٢٤ دون أن يترك وارثاً مباشراً .
وانتقل التاج ، بعد انتخاب ابن عمه الذي حكم باسم كونراد الثاني ، من
البيت الساكسوني إلى البيت الفرنكوني .

أوائل الإمبراطرة الفرنكونية

١٠٢٤ - ١٠٥٦

كونراد الثاني . - لم يكن كونراد الثاني ليشبه سلفه . كان
جندياً لا يعرف من أعمال الفكر إلا ماهو ضروري للحفلات الدينية ،
وشجاعاً جلدأ ، وعلى استعداد لبذل شخصه . يحب العسكرية ويرى في
الحرب خير وسيلة لفرض احترام الارادة الامبراطورية . وكان حاد الطبع ،
عنيفاً ، فظاً ، يرفض كل معاكسة أو مقاومة ، ومقتنعاً بأن لا أحد
لممارسة سلطته ، ولا يقبل برقابة الكنيسة ورقابة العلمانيين ، ولا يتم بمراعاة
القانون الكنسي إلا قليلاً تزوج في العام ١٠١٦ ابنة عمه ، جيزيل
سواب ، وهي قريبة من درجة محرمة ، وابقاها إلى جانبه ، رغم تحذير
بعض رجال الدين ، ولم يعبأ بقوانين الكنيسة وكهانها ، وأخذ
يبيع الاسقفيات ويعتبرها ملكاً تابعاً للتاج خاصة . وهذا المزاج الاستبدادي
لم ينضب عنده مصادر الذكاء : فقد كان فكراً قوياً ، خصباً بالموارد ،
واضح النظر ، عائقاً ، مرناً في اختيار الوسائل . وهذا ما ساعد كونراد
الثاني على أن يكون سياسياً طيباً ومحارباً بأسلاً مقداماً وعلى يده
دخلت السياسة الامبراطورية في دور التحقيق .

وفي الحقيقة ، ان كونراد الثاني عاد إلى تقاليد اوتون الكبير ، ولم

يعد مجال للكلام عن امبراطورية عامرة ولا امبراطورية مسيحية بل امبراطورية جرمانية . لقد سيطر اوتون الثالث وهنري الثاني على الكنيسة، ولكنها كانا يشعران حيالها بالعطف والاحترام وحاول كل منهما بحسبه أن يأخذ بيدها ويشجع جهدها . وكان التبشير والاصلاح في اطار الحكم المطلق الامبراطوري مهما الاول . أما كونراد الثاني فقد حاول بكل بساطة أن يوسع المانيا ويسيطر عليها بالحاق جميع السلطات العلمانية والكنسية بالامبراطور . وليست الفكرة الامبراطورية والفكرة المسيحية عنده إلا بقايا من الماضي . لقد كان المانياً قبل كل شيء ، ويريد بالفتح توسيع مملكته في الشرق والغرب والجنوب . ولا يهم الاصلاح الكنسي هذا الأمير السيموني الذي يشبه الأموال الكنسية بالاقطاعات ويرى في القائين عليها اتباعاً . وليست الكنيسة في نظره إلا واسطة أو قوة يحسن استخدامها لتحقيق السياسة الامبراطورية .

قضى كونراد الثاني الأشهر الاولى من حكمه في تقوية الوضع الداخلي واستقراره لاسيا وان التاج لم يستطع في العام ١٠٢٤ الانتقال بالوراثة وتوطيد الهدوء بسرعة . وبفضل السلام المدني استطاع كونراد أن ينصرف بكليته لقضايا السياسة الخارجية .

وساعدته الظروف : فقد مات بوليسلاس شروبي في بولونيا في ١٧ حزيران ١٠٢٥ بعد أن زين رأسه في بداية العام ١٠٢٥ بالتاج الملكي هدف أحلامه ، وترك خلفاً له ابنه ميسكو الثاني بعد أن سماه ليكون ملكاً بعده ، ولكن هذا الاختيار لم يرض الشعب عنه بالاجماع . واضطر الملك الجديد إلى قتال انصار أخيه . وبذلك زال الخطر البولوني عن المانيا ، واستطاع كونراد في الوقت نفسه أن يبرم بمهارة معاهدة حسن جوار مع ملك الدانمارك ، كنوت الكبير ، قريب بوليسلاس .

ولما اطمأن من جهة الشمال ولى وجهه شطر الجنوب حيث سكت الحوادث مسلماً قلقاً .

لقد ايقظ موت هنري الثاني مقاومة ايطاليا ، ولم يكن الحكم الألماني شعبياً في شبه الجزيرة . وظل الاكليروس وحده ، بما أنعم عليه اوتون الثالث وهنري الثاني ، موالياً للامبراطورية ، ولكن الارستقراطية العلمانية لم تقبل إلا بطاعة ظاهرة وموقته . أما شعب المدن فكان معادياً صراحةً ومن الممكن ملاحظة ذلك بالحال . فما أن اذيع نبأ وفاة هنري الثاني في بافيا إلا وثار السكاث وخربوا القصر الملكي ، وحاول بعضهم البحث عن ملك وقدموا التاج تباعاً إلى ملك فرنسا روبرت الثاني ، ودوق اكينانيا غليوم الخامس ، ولكنها لم يستلما لهذا الاغراء . وهكذا وجدت الارض مهددة تحت أقدام الملك الفرنكوني ، فبادر بقطع دابر القلاقل وذهب بنفسه مطالباً بحقوقه .

كونراد الثاني في ايطاليا . — غادر كونراد الثاني المانيا إلى ايطاليا . وتوج في ٢٣ آذار في ميلان ليبرهن بهذا التغيير للتعاملات التقليدية عن شعوره حيال سكان بافيا ، ثم اجتاحت الريف المحيط بها واتجه نحو الجنوب الشرقي صوب رافينه ، حيث قامت بين السكان والجنود اشتباكات دامية أخذت بتدابير قاصمة فظة ، وتابع زحفه على روما ، وكان على ابوابها في ٢١ آذار ١٠٢٧ .

استقبله البابا جان التاسع عشر ، وفي ٢٦ آذار ١٠٢٧ توجه امبراطوراً بحضور ملك بورغونيا رودولف الثالث وكنوت ملك الدانمارك ، ووضع التاج على رأس الملكة جيزيل على الرغم من أن الزواج الملكي كان محرماً قانوناً . ولكن البابا ليس له ما يجعله يعترض عليه ، لأن انتخابه نفسه كان غير قانوني . ألم يتجاوز الرتب الكنسية كلها في يوم واحد ليكون بابا !

ودل البابا على ضعف خبرته وعدم اهتمامه . فقد انعقد مجمع في لاتران في ٦ نيسان ونوقشت فيه قضايا عديدة وحسبها الامبراطور بشكس يتفق ومصالحه السياسية أكثر من القواعد القانونية . ونال الكرسي الرسولي من الحزبي ما ناله في هذا المجمع ، ونجح كونراد في فرض سلطة القيصرية البابوية ، ونظم كل شيء حسب هواه . وبدأت ترسم خلال هذه الاقامة سياسة جديدة . لقد اعتمد هنري الثاني ، كما رأينا ، على الاكليروس الأعلى خاصة ، أما كونراد الثاني فلم يتغل عن هذه المساعدة العظيمة القيمة ، ولكنه تعلق أيضاً بمصالحه الملكية الألمانية مع الارستقراطية العلمانية التي تحسد الكنيسة وتطمع بأملها الغنية . وأراد أن يمسك بميزان المساواة بين هاتين القوتين اللتين تتجاذبان ايطاليا ، فلقي هذا التدبير منه صدى في نفوس الأمراء . وحاول أيضاً أن يزيل الانطباع السيء الذي تركته الجنود الألمانية عند الجماهير بعد العنف الذي ارتكبته . وبرهن بذلك على أن السلطة الامبراطورية تضمن السلام والنظام . وبدأت الهيمنة الألمانية في ايطاليا أقوى منها في أي وقت مضى . وأصبح بإمكان كونراد الثاني أن يغادر ايطاليا مطمئناً قري العين . وكانت الوضع في بولونيا يستدعي عودته ، لأن ميسكو الثاني كان يغذي كايه نفس العواطف تجاه المانيا . فجهز عليه حملة ، وحاول ميسكو الثاني المقاومة لولا أنه خشي هجوماً روسياً من خلفه يتفق مع هجوم الألمان . ولذا فضل الاستسلام . فعفا عنه الامبراطور واعترف له بجزء من بولونيا .

وتم لكونراد في بوهيميا ما أراده في بولونيا وأصبحت تابعة لألمانيا التي أصبحت سيدة الدول الواقعة على حدودها الشرقية . وفي الشمال أيضاً ، تحررت الشعوب السلافية بعض الوقت من الوصاية الجرمانية ثم اضطرت للخضوع من جديد .

وأراد كونراد الثاني أن يمتد بسيادته الألمانية على هونغاريا ولكنه ، في هذه الجهة ، مني باخفاق كامل ، وحافظت مملكة المجر على استقلالها . وبفضل الأمن الذي تم على الحدود الشرقية استطاع كونراد الثاني في آخر حكمه أن يحقق في الغرب كسباً هاماً وهو كسب مملكة بورغونيا بسبب صلات زوجته جيزيل التي كانت حفيدة كونراد المحب للسلام . وفي ١٠٣٨ تم هذا الكسب نهائياً وأعطى كونراد الثاني مملكة بورغونيا لابنه هنري واثركه بالسلطة في حياته ، ودل بذلك على من سيكون خلفاً له ، وأقسم الحضور اليمين . وعندما توفي كونراد الثاني في ١٠٣٩ انتقلت السلطة إلى الابن دون أقل صعوبة .

لقد كان ضم بورغونيا أكبر حادث في عهد كونراد الثاني . فقد توسعت بهذا الضم رقعة الامبراطورية ، لأن قسماً من سويسرا الحالية مع بلاد نهري الصون والرون وبعض الاراضي الواقعة على الضفة اليمنى لهذين النهرين دخلت في الامبراطورية .

ولكن الاوضاع في ايطاليا كانت قلقة ولا سيما في المدن اللومباردية . لقد عرفت مدن سهل البو في آخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ، بفضل نهضة الحياة الاقتصادية ، دوراً من الرفاه والحصب ، وغنيت بتجارة الأقمشة والحبوب ، وتشكلت على هذا النحو طبقة تجار ثرية تكره سيطرة الاسقفية والامراء العلمانيين وتنزع إلى الاستقلال . وظهرت هذه النزعة أيضاً عند الطبقة الاقطاعية الدنيا بحقدتها على الاقطاعية العليا كنسية أو علمانية . وفي ١٠٣٥ - ١٠٣٦ قامت ثورة المدف اللومباردية على الاكليروس الأعلى والاستقرائية العليا . وتركت هذه الثورة آثارها في المانيا . وانحدر كونراد الثاني إلى ايطاليا وحاول أن يلعب دور الحكم بين الاطراف المتنازعة . ثم عاد إلى المانيا

وتنازعتة الأحزان : مات صهره ، هرمان سؤاب ، وكنته كونينغوند ،
زوجة هنري الثالث . ومرض بدوره في ربيع ١٠٣٩ ومات في ٤
حزيران في اوترخت .

اثر كونراد الثاني . - يتصف حكم كونراد الثاني بعودة ظاهرة
جداً إلى تقاليد اوتون الكبير ، والحصول على مكاسب أرضية : في الشرق ،
ارجعت الاراضي التي تنازل عنها هنري الثاني ؛ وفي الغرب ، ضمت
ملكة بورغونيا . وامتدت الامبراطورية من الاودر إلى الرون والصون .
غير ان السنتين الاخيرتين من حكمه كانتا مشؤومتين وأضعفت الأزمة
الاطالية في ١٠٣٧ - ١٠٣٨ الوضع بعد أن كان قوياً غداة انتصاره
على السلاف وضم بورغونيا . غير أن كونراد الثاني ، بعنفه على الاحبار
واحتقاره القانون الكنسي ، فصل عنه الكنيسة وخلق من هذه الجهة معارضة ،
وسيكون لهذه المعارضة صداها على الامبراطورية بعد عشرين عاماً .

المعارضة الكنسية . - كان كونراد الثاني يعتبر الاساقفة تابعين
له ، ولا يتوانى عن الاعتداء على القوانين الكنسية أو فرض عقوبات دينية
رغم أنه لا يملك هذه الصفة . وسبب هذا السلوك الجريء استياء ، وهذا
الاستياء يوضح ، أكثر من السيمونية ، كراهية الكنيسة للنظام . ولا شك في
ان محاولات المعارضة ما زالت خجلى بعد ، ولكن بعض القرائن تدل
على تحول الافكار .

ورأى هنري الثالث الخطر فحاول أن يتداركه بالعودة إلى تقاليد
هنري الثاني ، ولكن حكمه المصلح لم يستطع التغلص من العادة المتأصلة ،
القيصرية البابوية ، غير أنه كفر عنها برفعه إلى السدة الرسولية رجالاً يمتازون
بفضائلهم العالية ، وجمع حوله الأفكار والافئدة رغم تصرفاته الاستبدادية
وعدم احترامه للقوانين الكنسية

هنري الثالث . - خلف هنري الثالث اياه كونراد الثاني ، في بدء حزيران ١٠٣٩ ، وله من العمر اثنان وعشرون عاماً . ربه أمه جيزيل على يد الاساقفة فنشأ أكثر ثقافة وديناً من أبيه ، ولصكه ورث عنه غرائزه وجهه للسيطرة . وهو يشبه هنري الثاني باعتداله وكرهه السيمونية وغيرته المصلحة التي نال بها عطف الكنيسة . بيد أنه كان ، كهنري الثاني ، يريد البقاء سيداً مطلقاً على الاسقفيات بما فيها اسقفية روما ويحلح صاحبها وبعينه كما يشاء ، ولا يمكنه أن يتصور كنيسة دون أن يكون رئيساً عليها ، وافكاره عن الوظيفة الامبراطورية سامية ويمتاز بهذا عن سلفيه المباشرين .

وكان أول اهتمام العامل الجديد أن يأتي بحل للقضية الميلاية ، لأن الموقف الذي اتخذته ابوه حيالها صدم عواطفه الشخصية ولم يجزراً على اعلان استيائه . و اراد أن يبرهن على احترامه لقوانين الكنيسة ، ولذا حل الجيش الذي كان معداً في عهد ابيه كونراد الثاني ضد المطران آريبير ، وما وسع هذا المطران امام هذا العمل إلا ان جاء إلى المانيا وقدم خضوعه (١٠٤٠) واقسم بين الولاء لهنري الثالث وتقبل منه العفو واسترجع منصبه وعادت السكينة إلى ايطاليا واصبح بإمكان الملك ان يوجه انتباهه الى الحدود الشرقية وظل منهمكاً بقضايا السلاف والهونغارين خلال سبع سنين الى ان تم له ما اراد واعلنوا خضوعهم . كما قوي وضعه في بورغونيا ولم تسبب له قلقاً .

زواج هنري الثالث (تشرين الثاني ١٠٤٣) . - لقد فقد هنري الثالث زوجته الاولى الاميرة كونيغوند الدانباركية في آخر ايام ابيه كونراد الثاني واستطاع بزواجه الثاني من آنيس ، ابنة دوق اكيثانيا

العصر الوسيط - ٣٨

غليوم الخامس ، في تشرين الثاني ١٠٤٣ ، أن يشد الاواصر التي تربطه بملكته الأخيرة لأن الملكة الشابة ، من جهة أمها ، التي تسمى آنيس أيضاً ، كانت حفيدة أوت - غليوم ، كونت بورغونيا .

القضية الايطالية . - وبعد أن أمن هنري الثالث جانب الشرق والغرب أصبح بإمكانه أن يفكر بالنزول إلى ايطاليا لاسيما وان الوضع فيها كان يحمله على الاسراع دون ابطاء . ففي لومبارديا قامت الحرب الأهلية بين النبلاء واتباعهم . وفي روما ثار الشعب على البابا بندكت التاسع وأقام محله ، في ٢٢ شباط ١٠٤٤ ، سيلفستر الثالث . وبعد بضعة أسابيع انتهى هذا البابا أمام منافسه ، وبعد قليل مل هذا الأخير الحيرة وتنازل عن البابوية في ١ أيار ١٠٤٥ لصالح جان غراسيان الذي أخذ اسم غريغوار السادس .

وايطاليا الجنوبية أيضاً ، عرفت دوراً مليئاً بالاضطراب . وبفضل المناسبات القائمة بين الأمراء أخذ النورمانديون المقيمون في افيرسا منذ عهد دوق نابولي سريج الرابع يتسللون تدريجياً في البلاد .

في سنة ١٠١٦ حاصر المسلمون سالرنو فأنجدها بعض فرسان نورمانديين عائدین من الأرض المقدسة بعد الحج ، وكان عددهم اربعين فارساً ، واستطاعوا أن ينقذوا المدينة . وعندما عادوا إلى نورمانديا قصوا مغامراتهم على اخوانهم وحضوهم على الذهاب إلى جنوب ايطاليا . ثم كثر عدد المغامرين وأخذوا يقدمون عنهم وينخرطون في الجيوش كجنود مرتزقة ، ثم انقلبوا إلى فاتحين وأسسوا لانفسهم جاليات ومستعمرات .

وفي العام ١٠٤٢ أخذ زعيمهم رينولف مدينة غايت من أمير سالرنو ، غيار الخامس . وتجمع حوله مغامرون خفاف ذو اقدام ودون ضمير نذكر منهم ولدي تانكريد ، صاحب هوتفيل ، وهما غليوم زند الحديد .

ودرو . وتدخل هؤلاء في النزاع بين الاغريق واللومباردي آردوَن واستطاعوا أن يكونوا سادة بوي الغربية ، حتى أن سلطة البازيلوس اقتصرت على شاطيء أبوليا وكالابرو وتارَنتُ وارض اوترانت . ولكن الوضع لم يكن مؤثماً لبيزنطة بسبب الانقسامات الموجودة في المعسكر الآخر . وإذا تفاهم غيار الخامس مع هذين النورماندين وأصبح أحدهما ، درو ، صهره ، زوج ابنته ، فقد ساء التفاهم بينه وبين النورماندين في آفيرسا . وبالأجمال كانت ايطاليا تتخبط في الفوضى وبدأ الوقت مناسباً للتدخل الجرمانى .

هنري الثالث والكرومي الاقدس . - في خريف ١٠٤٦ عبر هنري الثالث الالب وكان حضوره في لومبارديا كافياً لاعادة السلام . وفي بليزانس التقى بالبابا غريغوار السادس ورجاه أن يدعو إلى مجمع يعقد في سوتري ، وفي هذا المجمع خلع الحبر الرومانى دون أن يرفع ضده أي اعتراض (٣٠ كانون الأول ١٠٤٦) . وفي الوقت نفسه حكم ضد البابا الزور سيلفستر الثالث . وفي مجمع آخر عقد في روما ، في ٢٤ كانون الأول ، اتخذ المؤيد نفسه حيال بندقى التاسع الذي قد يكون ارجاعه مفروضاً اذا اعتبر غريغوار السادس غير شرعى . وبعد ذلك ، ودون أن يشاور أحداً احل محل الباباوات الثلاثة المخلوعين صديقه أسقف بامبرغ ، سويدغر ، ووافق عليه الاكليروس والشعب وبورك يوم عيد الميلاد باسم كليمان الثاني . ولم تؤيد القيصريه البابوية في أي وقت مضى كما أبدت بمثل هذا الشكل الفظ . لقد قلب هنري الثالث ، الذي ينعت بالمصلح ، التقاليد القانونية كلها ، وتجراً أكثر من أبيه السيموني الطاغية وشد وثاق الكنيسة الرومانية التي هو بحاجة اليها لكسر آخر المقاومات الايطالية وفرض حكمه الاستبدادى المطلق في كل مكان . وفي الحقيقة كان البابا

الألماني غير قادر على معاكسة ارادته القوية وكسر العبودية التي اذل بها الكرسي الرسولي .

تتويج هنري الثالث امبراطوراً (٢٥ كانون الاول ١٠٤٦) . -
 ودل كليمان الثاني على خضوعه يوم مباركته ووضع التاج على رأس هنري الثالث وزوجته ، آنيس ، وأخذ الامبراطور لقب حامي الرومانيين الذي يجعل منه سيد المدينة الحالدة والانتخابات الجبرية . وبعد ذلك واصل زحفه نحو الجنوب لانهاء ايطاليا ووضعها تحت رحمته .

وكان هم هنري الثالث أن يستعيد كابو ، حيث استقر غيار سالرنو ، ويردها إلى أميرها باندولف لتوطيد التوازن . ثم قرر بان يلحق الاميرين النورماندين مباشرة به ، فقلد دوو كوتية بوي ودينولف كوتية آفيرسا . ولا تخلو هذه السياسة من مهارة : فهي تحول دون تشكيل سلطة قوية في ايطاليا الجنوبية . وكانت هنري الثالث يأمل في الحفاظ على الانقسام والتجزئة ليبسط أخيراً سيطرته الجرمانية حتى اقصى ايطاليا . ولكنه اخفق أمام بينيفن بعد أن رفضت أن تفتح له الابواب ، وكان هذا الاخفاق كافياً للدلالة على أن الوصول إلى الاهداف الكبرى للسياسة الامبراطورية ، منذ اوتون الكبير ، بحاجة إلى كثير من الثبات والمثابرة . ولكن هنري الثالث اضطر للعودة إلى المانيا لأمر هامة وتخلي عن حصار المدينة وسيكون لهذه العودة المفاجئة اثر على مجاهه .

الامبراطورية المسيحية في ١٠٤٦ . - لا شك ان تتويج هنري الثالث امبراطوراً يسجل نقطة القمة في الطريق المقطوعة منذ ٩٦٢ ، لأن برنامج اوتون الكبير بدا على وشك التحقيق ، ولم تكن الامبراطورية في أي وقت مضى باوسع مما هي عليه الآن : لقد بلغت الادور من جهة ، والرون والصون من جهة أخرى ، وتقدمت على طول الدانوب وفي جنوب

روما . وحكم هنري الثالث ثلاث ممالك : جرمانيا ، بورغونيا ، إيطاليا ، واعترف السلاف والهونغاريون بسيادته والولاء له ، وخضعت الكنيسة نفسها لسلطة الامبراطور فأمسك بدارتها الروحية والزمنية في البلاد المسيحية ، باستثناء بلاد الغرب التي نجت من نفوذه . ولكن أسباب الضعف كانت تختفي تحت هذه الظواهر : ان امتداد الامبراطورية ، ونقص التلاحم والتمثل غير التام للأجناس المختلفة ، تؤلف جميعاً قوى انحلال . ولمنع عملها كان يتوجب وجود جيش قوي وموارد كافية . ولكن الملك لا يستطيع أن يعتمد إلا على الجنود الاقطاعيين وعلى موارد ملكه . ومن جهة ثانية ، إذا ساعدت القيصرية البابوية على تشكيل السلطة الامبراطورية فقد هيات أفولها : لقد ذهب كونراد الثاني وهنري الثالث بعيداً في الطريق التي سلكها الاوتونيون ، فأثارا رد الفعل الكنسي ، ومنه خرج تحوير الكنيسة الرومانية ، وافتتحت ازمة ، بعد وفاة هنري الثالث ، ظهرت بوادرها الاولى في آخر حكمه .

رد الفعل . — لقد كان لهذه السياسة صداها في هونغاريا وبلاد السلاف وإيطاليا والكنيسة .

حاولت هونغاريا زحزحة النير الامبراطوري فوجه اليها الامبراطور حملة باءت بالفشل . ونجا الهونغاريون من السيادة الجرمانية وبدأوا في العام ١٠٥٤ بهجومهم وفتكوا بكارنثيا .

وظهرت التطلعات الى الاستقلال في بوهيميا وطرد الألمان من البلاد ، وهذا يدل بوضوح على سلوك سياسة جديدة . وحال موت هنري الثالث دون تدخله ، ولم يستطع الأمراء الساكسونيون رد السلاف الغزاة . وهكذا أصبح أثر اوتوت الكبير ، مع ما يكمله من عمل اوائل الفرنكونيين ، موضع بحث وتساؤل .

وكذا الحال في إيطاليا ، فقد انتهى تتويج هنري الثالث ، عام ١٠٤٦ ، بانسكده الايام .

إن مقتل بونيفاس طوسكانا (٦ أيار ١٠٥٢) حرم الامبراطورية من افضل خدامها . ولم يترك الامير الراحل الا اولاداً قاصرين . وبادرت أرملته بياتريكس ، التي تملك اموالاً في اللورين ، الى المطالبة بركيزة طوسكانا فلم يهتم هنري بارضاها ونشأ عن ذلك فتور محسوس في العلاقات وسيزداد في اليوم الذي تتزوج فيه بياتريكس ، دون علم الامبراطور ، دوق اللورين ، غودفروا ، رأس المعارضة الالمانية في ١٠٥٤ .

وكانت إيطاليا الجنوبية أيضاً موضع قلق . فقد أقبل عليها النورمانديون باعداد ضخمة . وبعد ذهاب هنري الثالث دخل المسرح أصغر أبناء تانكريد ، روبرت غيسكار ، وانخرط في خدمة باندولف الثالث ، وريشار ، الذي انتخبه سكان افيرسا كونه بعد وفاة رينولف (١٠٤٧) . وكلا الاثنين محاربان بأسلحة واختصاصيان في النهب وأعمال الشقاوة ، ومكرهما مضرب الأمثال ويتفق واحتقار كل ما هو ولاء أو اخلاص أو ضمير . فالقتل والسرقة في نظرهما توافه وترهات لا أهمية لها ، وكل الوسائط صالحة لكسب الأراضي مهما كانت الحسارة التي يمكن أن تنجم عنه للقريب العائلي أو الكنسي العصري أو النظامي ، وعليه يقع واجب اغنائها بأوسع ما يمكن . ولقد ولد تطبيق هذه المبادئ ارباباً ملائماً لنجاح مشاريعها . فمنذ ١٠٤٨ انتزع نورمانديو بوي ترويا ، وتوغل روبرت غيسكار في اقليم كالابر وأراد متابعة الفتح ليطرد الاغريق طرداً كاملاً . وكانت الوقت مناسباً : فقد ضاق صدر حكومة القسطنطينية بشاغل الشرق ، ولم تستطع ارسال جنود إلى إيطاليا . وربما كانت تخشى ما هو اكثر من ذلك من جهة الشمال حيث كان الباباوات الالمان :

كليمان الثاني (١٠٤٦ - ١٠٤٧) ، داماس الثاني (١٠٤٧ - ١٠٤٨) ليون التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) يعملون بقوة لانقاذ مصالح وطنهم . لقد حاول ليون التاسع خاصة أن يجمع حوله ضحايا النهب النورماندي وتقبل تظلمات البيينيفنتيين المستقلين المنعزلين الذين بدأوا يندمون على موقفهم حال الامبراطور عام ١٠٤٧ . وباتفاق مع هنري الثالث ، عندما ذهب الى ألمانيا في العام (١٠٤٩ و ١٠٥٠) ، ارسل الكاردينال مهبوت لحايزة المدينة باسم الكرسي الاقدس (١٠٥١) . وحاول من بعد أن يعتمد على الأمراء الصغار المهدين قليلاً أو كثيراً ، ولكنه شعر بخيبة أمل ، وخاصة في سالرنو حيث اعترف النورمانديون بيجزولف ، خلف غيار الخامس القتل عام ١٠٥٢ ، سيداً . وبالتالي اضطر أن يدعمهم ضد أعدائهم . وعندئذ تقرب من الاغريق وحاول معهم في ١٠٥٣ القيام بهجوم ، وفي الوقت الذي ذهب فيه لاجراء الاتصال بهم في بوني الشمالية هاجمه ريشار افيوسا و روبير غيسكار (٢٣ حزيران ١٠٥٣) بالقرب من سيفيتات . وهزم الجيش الحبري . وسقط البابا نفسه في أيدي النورمانديين وردوا اليه حريته بعد تخليه ، ان لم يكن عن المدينة فعلى الأقل عن ريف بيليفن . وانهارت جميع مشاريع الامبراطور التي يمثلها ليون التاسع . وفي الحقيقة إن السقوط النهائي للسيطرة البيزنطية في ايطاليا الجنوبية كان في صالح النورمانديين دون الألمان .

وما فتئت الحالة تزداد سوءاً في جنوب شبه الجزيرة وفي وسطها منذ التتويج الامبراطوري . وفي ١٠٥٥ تأثر الامبراطور لدى سماعه بزواج بياتريكس وهزيمة سيفيتات فأتى إلى ايطاليا محاولاً استرداد ماخسر ، ولكنه لم يصل إلى شيء كثير . والتجأ جوفروا في اللورين دون أن ينتظره . وانتقم الامبراطور بسجن بياتريكس واضطر أن يطلق سراحها دون

ابطاء . وأرسل وفداً إلى الجنوب فلم يتقدم بخطوة في حل القضية النورماندية ، واضطره الهجوم على الليوتيس إلى العودة إلى المانيا قبل أن يجد تسوية عامة للقضايا الإيطالية . ولم يستطع الاعتماد إلا على الكرسي الأقدس ، ولكن ثورة في روما قامت تحطم السلاسل التي غلت الامبراطورية بها عنق الكهنوت . وانتهت الهيمنة الجرمانية . حقاً لقد أعدت هذه الثورة ، ولكن زمام المبادرة فيها لم يكن بيد الارستقراطية الرومانية في هذه المرة بل بيد الكليروس الأعلى ، وفي ذلك خطر عظيم .

رد الفعل الكنسي . — لقد ارتسمت بوادر رد الفعل على استعباد الامبراطور للكنيسة منذ بداية الحكم ، وانضحت في الواقع بعد اعتداء ١٠٤٦ . ويرجع الفضل في ذلك إلى أسقف لياج ، وازون الذي كشف الستور عن مفساد السلطة التي ارتكبها هنري الثالث في مجمع سوتري وعندما أخذ رأيه في انتخاب البابا الجديد ، بعد موت كليمان الثاني (٩ تشرين الأول ١٠٤٧) ، لم يتردد في لوم الامبراطور ، رغم ولائه له ، على خلع غريغوار السادس وتسميته في حياة البابا الشرعي ، بابا جديداً للسدة الرسولية ، مع أن « القوانين الالهية لا تخوله بكل بدهة هذا الحق لأن الجبر الأعظم لا يمكن أن يجاكمه أحد الا الله وحده » . وسبق لوازون أيضاً في العام ١٠٤٤ ان دافع بنفس القوة عن حقوق السلطة الروحية وعن استقلال الكهنوت عندما أظهر هنري الثالث رغبته في خلع فيدغر مطران مدينة رافينه . وهذا يعني شجب كل السياسة الدينية للسلالة الساكسونية والسلالة الفرنكونية . ان فكرة تحرير الكنيسة الرومانية من القيصرية البابوية الامبراطورية نشأت في مملكة اللورين

القديمة ، حيث وضع سلف وازون ، راقه، ليسيح ، قبل قرن ، بوضوح مدهش ، مبدأ تفوق السلطة الكهنوتية بالنسبة للسلطة الملكية .

سياسة هنري الثالث الاصلاحية . - رأى هنري الثالث الخطر فحاول انقاذ سياسته الدينية بسياسة مصلحة . ولا شك في أن الباباوات كليمان الثاني (١٠٤٦ - ١٠٤٧) وداماس الثاني (١٠٤٧ - ١٠٤٨) وليون التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) ، وفيكتور الثاني (١٠٥٥ - ١٠٥٧) الذين عينهم كانوا مثال التقوى والصلاح والقداسة وطيعين لارادة الامبراطور ، ومندفعين بحماسة في حركتهم الاصلاحية ، ووافقوا يكافحون مساويء الاكليروس . ففي العام ١٠٤٩ عقدت ثلاثة مجامع برئاسة البابا ليون التاسع نفسه في روما و رنس و ماينس ، ووجدت فيها الأحكام السابقة ضد السيمونية والنيقولاوية وارفقت بؤيدات (عقوبات) ناجعة . ودعم هنري الثالث الحركة ومنح قرارات هذه المجمع قوة القانون في الامبراطورية كلها ، ربحى مدحه بطرس داميان وشبهه بدانيال جديد وهنأه على انتزاعه المسيحية من فم التين النهم وفصله بمجسام الفضيلة الالهية رؤوس الافعوان المسمى السيمونية ، .

ومع هذا لم يغير هنري الثالث برنامج سياسته الكنسية وأراد أن يبقى سيد الاسقفيات المطلق يعطيها من يشاء وينزعها من يشاء ، وكذلك حاله مع السدة الرسولية ، ولم يفكر البتة بالخضوع أمام قوانين الكنيسة التي أخذت تتضح بشدة في حبرة ليون التاسع الذي نشأ في الوسط اللوريني . على أن هذا البابا وان لم يجرأ على القيام في وجه المليك الذي رفعه للسدة الرسولية ، فقد كان على الأقل مصلحاً ومفعماً بالأفكار الجديدة .

أثر البابا ليون التاسع . - وفي الحقيقة ، لقد صنع ليون التاسع الأسلحة التي تساعد خلفاءه على التحرر من قبضة القيصرية البابوية . فقد دفع دراسة قوانين الكنيسة وحقوقها دفعة قوية . والفت في محيطه ، بجوالي ١٠٥٠ ، مجموعة تضم ٧٤ عنواناً وتبدأ بسلسلة نصوص أخذت عن مجموعة المراسيم المنتحلة التي الفت حوالي ٨٥٠ في إقليم تور تحت اسم ايزيدور وأدرجت فيها ، تحت عنوان له مغزاه ، « التفوق الكنسي » ، حقوق الحبر الروماني وسلطاته ، كما عرضت أيضاً بشكل عقائدي في المطول « اتهامات الاغريق العدائية » الذي حرره باسم البابا الكاردينال مهربت مواينموتيه ليرد به على مزاعم بطريرك القسطنطينية ، ميخائيل سيرويلير .

وشهدت هذه الأفكار في عهد حبرية ليون التاسع بعض التطبيق . فقد حاول البابا ، بعقد المجمع المتكررة ، أن يشد الاواصر التي تربط روما بمختلف الكنائس المسيحية ، ويظهر في شتى التدخلات تفوق التشريع الروماني . فأخذت الانظار تتجه شيئاً فشيئاً نحو السدة الرسولية التي لم يبق لها إلا أن تسترد حريتها تجاه الامبراطورية . وسمح موت هنري الثالث وقصر خلفه للمصلحين اللورنيين ، الذين اتوا إلى روما في حبرية ليون التاسع ، أن يجتازوا المرحلة العليا ويضربوا القيصرية - البابوية الامبراطورية الضربة القاضية .

وفاة هنري الثالث (٥ تشرين الأول ١٠٥٦) - بدأت بوادر الازمة تترى تباعاً ، بين ١٠٤٦ و ١٠٥٦ ، من كل جهة : فقد نزعَت الشعوب السلافية والهونغارية إلى التحرر من الوصاية الالمانية ، وطردت ايطاليا السيطرة الجرمانية ، ونهيات الكنيسة لتزيح عن عنقها نير القيصرية

- ٦٠٣ -

البابوية . ولم يكن باستطاعة هنري الثالث أن ينال من هذه المحاولات المختلفة التي تهدم البناء الذي شاده اسلافه . وتفاقت الحال بموته في (٥ تشرين الاول ١٠٥٦) . وكان وارثه ، هنري الرابع ، غلاماً عمره أربع سنوات ، وضع تحت وصاية أمه آنيس . وفي الوقت نفسه ضعفت قوى المقاومة ولا شيء يستطيع احكام السد في وجه الامواج التي تهاجم الامبراطورية من جميع الجهات . وفي العام ١٠٥٧ تحررت الكنيسة الرومانية بانتخاب ايتن التاسع وفتح عهد جديد في تاريخ المسيحية الغربية .

الفصل السادس والعشرون

التوسع الدانماركي

أصول الامبراطورية الدانماركية

بينما كان الاباطرة الساكسونيون والفرنكونيون يتابعون سياساتهم المتوسطة ، كانت سماء اوروبا الشمالية الغربية آخذة بالتحول . ففي فجر القرن العاشر ، وفي بضع سنوات ، فتح الدانماركيون النورفيج وانكلترا وانشأوا حول بحر الشمال امبراطورية موقته ، ولكن بشاؤها دلت على اشراق عظيم .

مملكة الدانمارك في فاتحة القرن العاشر . - كانت مملكة الدانمارك في مستهل القرن العاشر تضم جوتلاند ، شلزيغ حتى نهر الايدر ، فيونيا ، سيلاند ، جزيرتي لالاند وفالستر ، سكانيا ، هالاند مع مواقع امامية على الشاطئ السلافي للبالتيك في المنطقة التي تطابق بروسيا الحالية . واعترف قسم من النورفيج بهيمنتها ، وكانت الدانمارك اكبر دولة في الشمال دون منازع .

وكان غورم الشيخ يحكم البلاد . وما لدينا عنه اساطير أكثر منها معلومات يطمأن لها . ولقد رأينا في السابق أن الملك الجرمانى هنري الصياد غزا الدانمارك في العام ٩٣٤ وفرض عليها الجزية ، وخضعت في السنوات التالية للنفوذ الجرمانى وأخذ المبشرون الذين أرسلتهم كنيسة هامبورغ

ينشرون هذا النفوذ وينصرون الشعوب الوثنية في هذه البلاد وساندم البلاط في أداء رسالتهم ، وأظهر الملك غورم وابنه هارالد كل عطف عليهم ، واعتنقت الملكة ثيرا الدين الجديد . وإذا أخذنا بالأسطورة وجدنا أن هذه الملكة لعبت دوراً هاماً في الحكم وحاولت ، مع تشجيعها التبشير بالإنجيل ، أن تحد من الهيمنة الألمانية ، والتيها ينسب انشاء السور العظيم دانيبورك للحيولة دون غارات الجيران من الجنوب . ولذا لم تعد محاولة هنري الأول ممكنة قبل عام ٩٧٥ .

هارالد السن الزرقاء (٩٥٠ - ٩٨٦) . - ولا يعلم تاريخ وفاة غورم ، ومن الممكن أن تكون في منتصف القرن العاشر . وكان خلقه ابنه هارالد السن الزرقاء الذي نظر اليه بشيء من المبالغة مؤسساً للدولة الدانماركية .

وفي الداخل لم يضع هارالد أي عقبة في وجه التوغل المسيحي . وشيدت الكنائس ونظمت الاسقفيات . وفي تاريخ لايمكن تعديده بالضبط تعمد الملك مع زوجته غونهيلد وابنه سفيند . وكان هذا الأخير ضعيف الايمان ، فأثار في آخر الحكم رد فل وثنياً عنيفاً ، ولم يستطع هارالد اخماده فافسد النتائج المكتسبة سابقاً .

وكان لهارالد سياسة قومية رغم علاقاته الممتازة بكنيسة هامبورغ . وكان يتحمل بمشقة دفع الجزية إلى ملك جرمانيا ، ولم يستطع في حياة اوتون الكبير أن يتهرب منها ، ولكنه حاول بعد موته أن يتحرر ، وبالرغم من أن سفراءه جددوا ، في العام ٩٧٣ ، في مجلس كويدلانبورغ ، بين الولاء التقليدية لاوتون الثاني ، كان يتخذ استعداداته للهجوم . ولكن مشاريعه افشيت لمنافسه فسبقه وزحف عليه . ولم يكن اللقاء الاول في صالح الالمان ، فما وسعهم إلا أن أغاروا انتقاماً على شلزيغ واشغلوا

- ٦٠٦ -

النار في السور دانيوبرك واجبروا هارالد على طلب الصلح والوعد بدفع الجزية .

ولم تكن محاولات هارالد السن الزرقاء سعيدة أيضاً في بسط نفوذه على النورفيج .

كانت النورفيج في منتصف القرن العاشر فريسة الحروب الأهلية التي أفسدت وجودها كملكة . لقد تحققت وحدتها في النصف الثاني من القرن التاسع على يد هارالد فيرهير ، وكان هذا أميراً على المنطقة المحصورة بين بحيرة فينير والدوفريلد ، ثم بسط سلطته شيئاً فشيئاً على البلاد كلها ، وحتى على الجزر المجاورة لايكوسيا وعلى ايرلندة . غير أن موت هذا الأمير الذي نجعل تاريخه الصحيح خلف أزمة وراثية دامت زمناً طويلاً ، وأفاد منها هارالد السن الزرقاء في فتح النورفيج واحتفظ لنفسه بالشاطئ الجنوبي وسلم أراضي الشمال إلى الكونت هاكوت الذي أعلن ولاءه للسيادة الدانماركية . ثم بدا له وأراد أن يكون مستقلاً ، فقام هارالد لمعاقبته بعدة هجمات على الشاطئ النورفيجي . ولكن اسطوله دمر في جوت هيورونغفا واضطر إلى التخلي مؤقتاً عن مشروع التوسع في شمال الباطيك .

وبالاجمال ، ان سياسة الغزو التي سلكها هارالد السن الزرقاء أدت إلى الاخفاق في جهة المانيا وفي جهة النورفيج ، وفقد الملك شعبيته ولامه الناس على استسلامه للجيش الجرمانى . وفي العام ٩٨٣ انقلب الاستياء إلى ثورة ، وقبل ابن هارالد ، سفيند ذو الذقن الفراء أن يكون على رأس المعارضين ، وتنازل أبوه له عن العرش . وأراد سفيند أن يرضي من رفعوه إلى السلطة فحارب الامبراطور ، وأفاد من الفوضى التي

سببها اخفاق رأس كولون، وهاجم أحد القصور التي شادها اوتون
الثاني أمام الشاطئ الدانيمركي وعاث في الشواطئ الألمانية وبقيت
الأمر عند هذا الحد .

أهمية حكم سفيند (٩٨٦ - ١٠١٤) . - لقد أسهم سفيند في
تشكل الامبراطورية الدانماركية أكثر من أيه بكثير ، وكانت تحركه
روح الفايكنغ القديمة ، وهوى الجرب والقرصنة ، ويضطرب برغبة
الفتح ولا يتراجع أمام أي مشروع مع البقاء أصولياً في جراته ، وقد
وجه ضرباته لانكلترا والنورفيج وضمها تبعاً للمملكة الدانماركية .

كان القرن التاسع في انكلترا ، كما في كل بلاد اوروبه الغربية ، عصر
غارات الفايكنغ الكبرى . وأدت هذه الغارات فيها إلى تشكيل مناطق
احتلال عند وفاة الفرد الكبير ضمت مملكتي نورثامبريا وانغليا - الشرقية
وقسماً من مملكة مرسيا ، وبقيت وسكس وحدها محافظة على استقلالها
مع بقايا من مرسيا التي يحكمها الدوق اثلرد . وبالرغم من انتصارات
الفرد والحفاظ على الامارات المتناثرة في البلاد ، ظلت انكلترا الانغلية -
الساكسونية قابضة في جنوب التاميز ، ولكنها أخذت تمتد في النصف الأول
من القرن العاشر بفضل سياسة خلفاء الفرد الكبير .

الاسترداد الانغلي - الساكسوني في عهد ادوارد (٨٩٩ - ٩٢٥) . -

حكم ادوارد الشيخ بن الفرد الكبير من ٨٩٩ الى ٩٢٥ وكان اميراً من
الطراز الأول . لم تكن له قيمة أيه الفكرية ، غير انه كان جندياً
حقاً ، قوياً ، جلدأ ، جريئاً ، قادراً على جلب النصر بذكائه وحسن
توجيهه ونشاطه الجم . لقد أراد تخليص انكلترا من حكم الدانمارك ،
وظهر أنه من أفضل عمال الوحدة القومية ولو لم يتوصل إلى ذلك تماماً .
وقد ساعد في عمله التحرري ، الذي شغله طوال حياته ، صهره اثلرد

وأكثر من ذلك بعد وفاة هذا الأخير ، أخته الخاصة الثلثاء التي يسميها المؤرخون سيدة المرسين . وكانت امرأة مسترجلة بروحها الحازمة القوية وعندما أصبحت ارملة كشفت عن مواهب فائقة في حكم دولها وفي توجيه الحرب ضد الدانماركيين .

حاول الدانماركيون أن يفيدوا من تغيير الحكم لاسترداد ما انتزعه الفرد منهم ، ولكنهم ردوا على اعقابهم بعد أن اجتاروا نهر السفرون ، واعطى هذا النصر المبين لادوارد واخته ثقة بنفسها بعد أن ظلا خلال عشرة أعوام يقومان ببناء التحصينات استعداداً لهذا النصر . وقد أراد الدانماركيون تقويض هذه الحصون ، قبل أن يتم انشاؤها ، فأخفقوا ، ولم يأسوا ، وبمساعدة الفايكنغ الآتين من بروتانيا الفرنسية جددوا عزمهم ، ولكنهم اصطدموا بعقبة كآداء . وفي ٩١٨ هاجم الانغلو - ساكسون بدورهم ، وتوالى الفتح في السنوات التالية واستطاع ادوارد قبل وفاته (في ١٧ تموز ٩٢٥) أن يسترد مرسيا كلها مع المدن الخمس: لنكولن ، توتنهام ، دربي ، ليسستر ، ستامفورد التي تؤلف محور تنظيم العدو ، ثم انغليا - الشرقية ومنطقة كامبردج . ونادى به الايكوسيون وملكهم قسطنطين الثالث (٩٠٠ - ٩٤٢) « أباً وأميراً » ، وفتحت هذه النتائج آمالاً كبرى للمستقبل ، لا سيما وان روح الفايكنغ القديمة قد ضعفت عن ذي قبل بعد أن انهكت الحروب الداخلية انسال القرصان الأوائل الذين لم يتكيفوا مع الحرب الدفاعية التي فرضت عليهم ولم يكونوا مستعدين لها ، ولم يكن لهم من هم إلا ان يثروا دون الاهتمام باستقلالهم السياسي .

واستمر الفتح الاستودادي في عهد خلف ادوارد الشيخ ، ابنه آثيلستان (٩٢٥ - ٩٣٩) . وكان هذا الملك الجديد كريماً مثقفاً مثل الفرد

الكبير ، ولم يكن له مزاج أبيه في الحرب ويفضل العمل بالدبلوماسية أكثر من السلاح .

وبعد أن اعتلى العرش التقى بزعم الدانباركين سيتريك في تامورث عاصمة مرسيا ، وقدم اليه يد اخته مقابل وعده باعتناق المسيحية ، فقبل سيتريك ، وما لبث أن نكث وعده ورمح بزوجه ودينه الجديد وتوفي بعد ذلك . وزحف آيلستان نحو الشمال في ٩٢٦ واحتل مملكة نورثامبريا واصبح منذ الآن سيد كل انكلترا الحالية . وفي ٩٣٣ تألب عليه ملك ايكوسيا ، قسطنطين الثالث ، وحاول أن ينتزع منه ثمار فتجه . وبعد نزاع قاس سمح النصر المين في برونانبوره في ٩٣٧ للانغلو - ساكسون بالحفاظ على مكاسبهم كلها . وأصبح آيلستان بحق ، حسب التعبير المضروب على نقوده ملك بريطانيا كلها وازداد جاهه بزواج احدى اخواته بشارل الساذج ، والاخرى بدوق الفرنجة هورغ الكبير والثالثة باوتون الكبير .

المهجوم الدانباركي في عهد ادموند (٩٣٩ - ٩٤٦) وادرد (٩٣٦ - ٩٥٥) . - ان موت هذا الملك المجيد قبل اوانه ، في ٢٧ تشرين الأول ٩٣٩ كاد ان يفسد النتائج التي جناها . ففي ٩٤٠ اراد الدانباركيون ان يفيدوا من وضع ادموند اخي آيلستان وخلفه ، وكان عمره ثمانية عشر عاماً ، وثاروا ونادوا ملكاً اولاف غوثفريثسون فاجتاز هذا الويلاند واحتل تامورث ، فقبل بهجوم معاكس منظم ، وتوفي وخلفه اولاف كواران الذي فر الى دبلن . واضطر ادموند في العام ٩٤٥ في سبيل التحالف مع ايكوسيا ان يسلم الكمبرلاند للملك ايكوسيا مالكولم خلف قسطنطين .

ولسوء الحظ قتل ادموند في العام ٩٤٦ ولما يبلغ سن السادسة والعشرين

وكان ابنه ادوي وادغار صغيرين فعاد التاج الى أخيه ادرد ، وكانت سنه ثلاثاً وعشرين سنة . وحاول الدانيار كيوت من جديد التخلص من نير الانغلو - ساكسون ، ودفعهم الى ذلك مطران يورك ، ولستان عدو سلالة الفرد الكبير . وقام الشعبان يتنازعان على الارض الانكليزية وكانت المعركة لصالح الانغلو - ساكسون . وبدأ في العام ٩٥٤ من جديد ان ادرد « ملك بريطانيا كلها » ، ولكنه لم يتمتع بظفره ومات في ٢٣ تشرين الثاني ٩٥٥ تاركاً المملكة إلى ادوي ، بن ادموند ، وعمره اربع عشرة سنة .

المملكة الانغلية- الساكسونية في عهد ادوي (٩٥٥ - ٩٥٩) وادغار (٩٥٩ - ٩٧٥) . - دام حكم ادوي أربع سنوات فقط لم يتعكر خلالها صفو السلام الخارجي ، ولو دام أكثر من ذلك لكاد نزاع الأحزاب أن يضعف المملكة الانغلية-الساكسونية . وبموته انتقلت السلطة إلى أخيه ادغار وكان أكثر منه ذكاء وقوة .

كان عهد ادغار (٩٥٩ - ٩٧٥) دور سلام لأن انكلترا بعد فتح الاسترداد شعرت بحاجة الى التنظيم . وان قسماً من تشريع العصر الوسيط يرجع إلى هذه الست عشرة سنة المليئة حقاً . قام الأب غلادستون الذي أصبح مطران كانتوربري بصلح الكنيسة الانكليزية بعد أن أصبحت حالتها المعنوية لاترضي ، وطرد الرهبان الفاجرين ، وسهر على مراعاة قـاعدة القديس بندكت وكافح السكر والفجور عند الاكليروس العصري ، ونظم بمساعدة الملك إدارة الكنيسة ووضع نظاماً حقوقياً لأموالها .

ويبدو أن الدانيار كيين ، من جهتهم ، لم يحاولوا تعكير السلام . وإذا أخذنا بقول فلورنت ورسستر وغيليوم مالمسبوري وجدنا أن ثمانية ملوك

حضرُوا حفلة التتويج التي أجلت حتى عام ٩٧٣ لأسباب مجهولة ، بما يؤكد في آن واحد هدوء المملكة وجاه الملك الملقب بلقب الحب للسلام . ولكن هذا الهدوء لم يدم بعده . وفتح موته ، في ٨ تموز ٩٧٥ ، أزمة ساعدت ملك الدانمارك سفيند على قسح انكلترا .

أزمة ٩٧٥ - ٩٩٠ . - ترك ادغار ولدين : البكر ، ادوارد ، من زواجه الأول من اثلفلد ، وعمره ثلاث عشرة سنة ؛ والثاني ، اثلرد ، وليد الملكة الفريث ، وقد أتم الثامنة . وتوج ادوارد على يد مطران كانتوربري ومات قتيلاً في ٩٧٨ بعد حكم قصير انقضى في النزاع بين الأحزاب وخصوم الإصلاح الديني . وخلفه اثلرد ، ولم يكن له عشر سنوات ، وهذا القصر الجديد كان نكبة أكثر مما سبقه .

وبدا أن انكلترا ماضية إلى خرابها ودمارها وتركت لنفسها . واستيقظت في هذه الآونة روح الفايكنغ بعد أن نامت في بداية القرن العاشر . ففي العام ٩٨٦ خلف سفيند الفطيع أباه هارالد السن الزرقاء في الدانمارك وكانت روحه فايكنغية ويحلم بغامرات بعيدة ، وفكر بنجدة الدانماركيين في انكلترا بعد أن دحرم الانغلو - ساكسون واستعبدوهم دون أن يتزوجوا بهم . وكان هؤلاء الدانماركيون منبهين لطاعة أول إشارة تأتيهم من وطنهم الأصلي . وغادر سفيند النورفيج مؤقتاً ووجه وجهه شطر انكلترا ، وكان اثلرد غير قادر على حمايتها ، وهكذا فسحت الفوضى مجالاً للغزو .

الحملة الدانماركية الأولى في انكلترا (٩٨٦ - ٩٩٤) . - بعد الغارات الأولى في ٩٨٠ و ٩٨٢ ساد هدوء نسبي من ٩٨٣ إلى ٩٨٦ . وفي هذه السنة الأخيرة التي بدأ فيها حكم سفيند في الدانمارك ظهر الفايكنغ من جديد في ايرلنده . وفي ٩٨٨ ظهر اسطول مؤلف من

عناصر دانياركية ونورفيجية في بحر بريستول . وكانت هذه الأعمال فاتحة لهجوم انطلق في ٩٩١ واشترك فيه مع الدانياركيين كثير من النورفيجيين . لم يكن الانغلو-ساكسون في حالة تمكنهم من الدفاع . ولا شك في أن اثلرد بلغ سن الرشد ولكنه بدا أميراً جامداً وضعيفاً ، دون ذكاء ، واهي العزيمة ، وغير كفء لتنشيط وتنسيق القوى التي أنشأها الحكم السابق لأسلافه . وتهاونه يوضح انتصار الدانياركيين . وبالرغم من الأعمال الحارقة التي قام بها بعض الأمراء ، وكانت مدعاة للاعجاب ووحى الشعراء ، فقد ابعدت قوى الانغلو-ساكسون في ٩٩١ . وفي العام ٩٩٤ جاء سفيند الى انكلترا ؛ وهزم في بادئ الأمر أمام لندن ، ولكنه عوض عن ذلك بالنهب في سسكس وهامبشاير ونشر الذعر بين انصار اثلرد . وبدا استمرار النضال مستحيلاً فارسل مطران كانتوربري ، سيريك ، إلى معسكر العدو للتفاوض بالصلح . وقبل الفايكنغ أن يكونوا مرتزة في خدمة ملك انكلترا ووعدهم من جانبه بدفع الجزية لهم . وفي الحقيقة ، ان كلاً من الطرفين عزم على النكث بوعده . وبعد توقيع المعاهدة بادر اثلرد إلى إنشاء اسطول له ، بينما قام الدانياركيون يضعون أيديهم على القصور في منطقة الهمبر ، ولكن سفيند اضطر إلى العودة إلى الدانيارك لحادث خطيرة جعلت حضوره ضرورياً وتبع عن ذلك هدوء نسبي في انكلترا .

القضية النورفيجية . - ومن الممكن أن يكون السبب في عودة سفيند غزو السويد للدانيارك . ولكن التوقيت الذي أعطته مصادر حديثة نسبياً غير يقيني ليسمح بتوكيد إيجابي في هذا الموضوع . ان حالة النورفيج أيضاً تستحق فحصاً دقيقاً . لقد أصبحت حكومة هاكون غير شعبية وارتسم حزب قوي لصالح اولاف تريغفسون الذي كان آنئذ في انكلترا

يحارب إلى جانب الدانماركيين في مولدن . وقد أرسل اولاف في آخر ٩٩٤ لابرام الصلح مع اثلرد ووعدده بالا يقوم بشيء ضد المملكة الانغلية - الساكسونية . وبعد أن اعتنق المسيحية وعمد ، غادر انكلترا ويم وجهه شطر النورفيج ، وفي ظروف غير معروفة جيداً نودي به ملكاً في ٩٩٥ .

الهيمنة الدانماركية في الباطيك . - اقلقت هذه الثورة النورفيجية سفيند ، فنتسي خلافاته مع السويد وبادر ، بعد أن طلق زوجته الأميرة السلافية غونيلد وتزوج أرملة عدوه القديم ايريك ، سيفريد . وعلى هذا إذا ما وقع خلاف بين الدانمارك والنورفيج اصطفت السويد إلى جانب الدانمارك ، بينما يكون السلاف في صالح اولاف . واهتم سفيند أيضاً في خلق عطف عليه لدى أنصار هاكون القدامي ، ورغم اعتناقه المسيحية ، لدى وثنبي النورفيج الذين اقلقتهم غيره اولاف الدينية .

وبعد أن اطمأن سفيند لهذه الأحلاف هاجم اولاف تريغفسون ، وفي صيف العام ١٠٠٠ قامت معركة بحرية كبرى في هيلسينبورغ بين النورفيجيين والفيند من جهة ، والدانماركيين والسويديين من جهة أخرى ، ودارت لصالح هؤلاء الآخرين . وهلك اولاف في الملحمة وقسمت النورفيج بين الغالبيين ، واحتفظ سفيند لنفسه بالشاطئ الجنوبي ، وترك القسم الشمالي كله لابن هاكون ، ايريك ، باستثناء سبع كونتيات في بلاد ترونجهيم تركت للملك السويد من خدماته .

تسجل معركة هيلسينغبورغ بداية الهيمنة الدانماركية في شمال غربي اوروبا . وإذا لم يكن سفيند بعد سيد النورفيج فهو يحكم على الأقل شاطئ الباطيك ويسيطر على المضائق ، ويستطيع ، عندما يريد ، أن ينهي فتح المملكة المجاورة ، إلا أنه في الوقت الحاضر فضل أن يصل

إلى حل مع الجهة الأخرى لبحر الشمال، مع الدوله الانغليّة- الساكسونية .
 فتسح سفينه لانكلترا . - ونيما كان سفيند من ٩٩٥ الى ١٠٠٠
 يركز جهوده نحو النورفيج ، كان اثلرد يعد ثاره . فقد جمع اسطولاً
 وهاجم به ، دون كبير نجاح ، المؤسسات النورفيجية في جزيرة مان ،
 بينما كانت تدور رحا معركة الباطيك التي قررت مصير البلاد
 الاسكندنافية . وفي السنوات التالية تحالف مع دوق نورمانديا ، ريشار ،
 وتزوج اخته ايما في (١٠٠٢) واكثر من أعمال الدفاع ، وعندما رأى نفسه
 أنه قوي بشكل كاف عدل عن دفع الجزية وحاول التخلص من خصومه
 بذبحهم وانهم الدانياركيين باعداد قتله ، وبهذا العذر أمر بكل برودة
 بقتل كل من يمكن الوصول إليه . وكانت مذبحه القديس - بريس
 الشهيرة (١٣ تشرين الثاني ١٠٠٢) التي تركت عدداً عظيماً من الضحايا
 الدانياركيين من بينهم اخت سفيند ، غونيلد ، وزوجها باليغ .

أدت هذه الاثارة الدموية بالخال إلى أعمال انتقامية من جانب الدانيارك
 فقد أراد سفيند أن يثار لأخته وصهره . وفي ١٠٠٣ ظهرت السفن
 الدانياركية على الشاطئ الانكليزي . وبفضل التحالف النورماندي والدفاع
 البطولي في انغليسا - الشرقية قاوم اثلرد الصدمة في الستين ١٠٠٤
 و ١٠٠٥ . وفي العام ١٠٠٧ و ١٠٠٨ أعد هجوم عظيم . وفي العام ١٠٠٩
 جاء فايكنغ جوم في خدمة سفيند ، وأحتلوا التاميز ، بينما ذهب اسطول
 ثان وعاث في كونتيات الجنوب . وفي ٥ أيار ١٠١٠ أحرز الدانياركيون
 نصراً عظيماً في وينغيمير في جنوب نورفولك واستولوا على كانتوربري
 وقتلوا المطران آلفيج . وبدأت مقاومة الانغلو- ساكسون غير قوية في كل
 مكان ، ولم تر حاشية اثلرد وسيلة للسلام غير دفع جزية عظيمة . وقبل
 بها الدانياركيون إلى جانب الأسلاب والغنائم وتعهدوا بان يكونوا كما

في السابق جنوداً مرتزقة عند الملك الانكليزي ، وهذا لم يمنعهم من إعداد غزو هائل يؤمن لهم امتلاك الجزيرة البريطانية .

وفي ١٠١٣ رأى سفيند أن وقته قد حان ، وبدأ أن كل شيء معد لتأمين فوزه : فقد ضعفت المملكة الانغلية - الساكسونية اثر الغارات المستمرة وأعمال السلب المتكررة ، وساد الهدوء في النورفيج ، وظلت السويد له حليفاً مخلصاً ، والسلاف في نزاع مع المانيا ، ولم يكن هنري الثاني بقادر على التدخل بعد نضاله العقيم ضد بولونيا ، وبدأت الدانمارك قوة بحرية لاتقهر ، ورسخت قدم السلالة الحاكمة ، حتى ان الأبن البكر ، هارالد ، استطاع الحفاظ على المملكة في غياب أبيه . وفي هذه السنة ١٠١٣ أيضاً ذهب اسطول عظيم نحو شواطئ كنت وسكس وانطلقت من المواطن الدانماركية في انكلترا حملة على وسكس . وأتى سفيند نفسه ليستلم قيادة القوى الاسكندنافية في انكلترا ، وفي ايلول عبر بلاد الميدلاندز واتجه بجيشه نحو الجنوب وعبر التاميز عند اوكسفورد التي استسلمت مع ونشستر . إلا أن لندن قاومت بعناد واضطر سفيند إلى حصارها . واربك فرار اثلرد الى نورمانديا الانغلو- ساكسون ، في كانون الثاني ١٠١٤ ، وفتحت لندن أبوابها . وعندما تم فتح انكلترا وأوشك الفاتح العظيم أن يقطف ثمار انتصاره فاجأه الموت في ٢ شباط ١٠١٤ .

الامبراطورية الدانماركية عند وفاة سفيند . - لقد كاد العمل الذي قام به سفيند الا يعيش بعده . لأن الامبراطورية التي شاهدها تقطعت بعد زواله . وخلفه في الدانمارك أبنه البكر ، هارالد ، ونادى الجيش في انكلترا ابنه الآخر ، كنوت ، الذي قام بدور لامع في الحملة على وسكس . ويبدو ، من جهة أخرى ، أن النورفيج ، التي دخلت في حصة كنوت ، قد نزعّت إلى التخلص من السيطرة الدانماركية ،

- ٦١٦ -

وبعث فيها موت سفيند روح الاستقلال . لقد كان التفتت حتمياً ، وكاد عمل الفاتح العظيم أن ينهار في قليل من الزمن لولا أن تداركه أبنة كنوت الذي لقب فيما بعد بالكبير . فقد عمل خلال حكمه الذي دام عشرين عاماً (١٠١٤ - ١٠٣٥) على تحقيق برنامج أبيه ولكن دون أن ينجح في خلق شيء دائم .

كنوت الكبير

١٠٣٥ - ١٠١٤

الملك كنوت . - عندما نادى الدانيار كيون بكنوت ملكاً لم يكن له من العمر أكثر من تسعة عشر عاماً . أبوه سفيند وأمه غونهيلد البولونية . وطبقاً لارادة أمه ، التي كانت تهتم بإبعاده عن البلاط الدانياري وتبنيته لمصير مجيد ، قضى معظم شبابه في جومسبورغ حيث اقيمت مستعمرة فايكنغ لمراقبة أقوام الفيند . وكان يسود هذه الجماعة نظام قاس : فمن ذلك وجوب طرد كل من يتراجع أمام الخصم ، والخضوع في كل شيء لارادة الزعيم ، وله وحده الحق في التصرف بالغنائم . كما كان محرماً عليهم التغيب أكثر من ثلاثة أيام ، ولا يمكن لامرأة أن تدخل بينهم . وكان الشاب كنوت ملزماً بهذه الواجبات ، ولم يعوزه الاعتياد على الحرب واقتحام الشدائد والأخذ بتقاليد آباءه وأجداده . وعندما دعي فايكنغ جومسبورغ للاسهام في فتح انكاتراصجهم كنوت وفتحت أعماله البطولية عين الجيش عليه فتنادى به ملكاً عند وفاة أبيه ، بينما خلف هارالد أباه سفيند على عرش الدانيارك .

رد فعل الانغلو- ساكسون (١٠١٤ - ١٠١٥) . لقد كانت

المملكة التي ترأسها كنوت حديثة العهد بالفتح . ولذا فان أول عمل يفرض عليه هو توطيد سلطته على انكلترا التي مازال مستقبلها غير يقيني ولا يطمأن له . لأن وفاة سفيند احييت الأمل في نفوس الانغلو- ساكسون . ولا شك في أن اثلرد لم يجرأ بعد على مغادرة نورمانديا . ولكنه أرسل ابنه الشاب ادموند يجزي الوعود الجذابة لرعاياه التي تخلى عنها يجين في أوقات الخطر . وقنع بهذه الأقوال امراء المناطق الواقعة في جنوب نهر التاميز ، ولم يؤمنوا بقوة الدانيارك التي نكبتها الحروب المميتة ، وتصوروا أن موت سفيند يجعل وصول جنود جدد أمراً صعباً ، وافترضوا أن ليس لكنوت تجربة أبيه ولا خبرته ، ورأوا أن حظهم الأخير في استرداد الأراضي التي خسروها ، ولذا صفحوا عن اثلرد وأصبح بإمكانه أن يعود إلى انكلترا .

وهذه العودة التي اتبعت بهجوم مباشر ، فاجأت كنوت فبادر بسرعة إلى سفنه واضطر إلى مغادرة مملكته ليلجأ عند أخيه هارالد في الدانيارك . وبدأ الحكم بداية سيئة . وأوشكت انكلترا أن تنجو من السيطرة الدانياركية بعد أن أبادت المذابح انروعة العناصر المرتقة في الجزيرة الكبرى . أما من عاش بعدم فقد اعترفوا باثلرد ، حتى ان توركيل زعيم مستعمرة الفايكينغ قبل عرض المال الذي قدم إليه مقابل التعهد بوضع نفسه تحت أمر اثلرد .

ولم يستطع كنوت العزف عن فتوح أبيه . ولذا أخذ اعداداته في الدانيارك في ربيع ١٠١٥ ، وفي آخر آب عاد إلى انكلترا يصحبه توركيل والكونت ايريك النورفيج ، ونزل في ساندويتش وأنجبه نحو الجنوب ، وبسم له الحظ في هذه المرة : فقد كان اثلرد مريضاً واضطر

- ٦١٨ -

إلى ترك الجيش ، وساء التفاهم بين ابنه ادموند قائد الجيش وبين أفضل مساعديه الكونت ادريك الذي انتقل إلى صف الدانماركيين . وقدمت وسكس تخضوعها بعد أن اخلاها ادموند ، وحذت حذوها نورثامبريا ، وأبدت لندن بعض المقاومة . وزاد موت اثلرد في ٢٣ نيسان ١٠١٦ في حظ كنوت فأصبح سيد أعظم جزء في المملكة ، وما عليه إلا أن يطلب التاج من خصومه القدامى .

اجتمع مجلس من الوجهاء في ساوثامبتون في الأيام الأولى من شهر أيار واعترف بكنوت ملكاً على انكلترا ، ولكن مجلساً آخر اجتمع على عجل في لندن وفادى بادموند . ولم يبق إلا السلاح وحده حاسماً بين المدعين بالتاج . حاصر كنوت لندن ، ولم يستطع منع ادموند من مغادرة المدينة ، وهذا ما اضطره إلى ترك قسم من قواه تحت قيادة توركيل وملاحقة منافسه . واستطاع ادموند أن ينجو من ضغط الدانمارك ويتصلح مع الدوق . فاحرج كنوت واضطر إلى ترك حصار لندن والمبادرة إلى سفنه ، وهذا لم يمنعه أثناء مروره من نهب مرسيا التي سارت في ركاب ادريك . وترك قسماً من جيشه في جزيرة شيبي على مصب الميـدوي وأرسل اسطوله إلى الشمال نحو مصب اورويل ، في سفولك ، حيث وجد نقطة استناد للحملة المستقبل .

وهكذا هرب النصر مرة أخرى من أيدي الدانماركيين . واستطاع ادموند أن يشكل جيشاً جديداً ، وأعاد خلاص لندن الثقة إلى أنصاره ، ولكن نقص الوحدة في القيادة ظهر بفضاعة من جديد . لأن الزعماء الانغلوساكسون لم يتفاهموا على سير العمليات : كان ادموند يريد أن يهاجم قبل أن يستجمع كنوت قواه بينما يرى ادريك أن يتمهل ، وكانت

معركة آشينغتون في ١٨ تشرين الأول ١٠١٦ دون مساعدة ادريك هزيمة نكراء لادموند وسقط فيها خيرة رجاله ، وأضطر إلى الفرار نحو السيفرن . وعاد كنوت إلى حصار لندن .

وانقطع كل أمل للانغلو-ساكسون ، ولكن الدانماركيين أيضاً نكبوا بهذه الحروب المتكررة وتمنوا الصلح . وأدرك ادموند هذه الأوضاع وحاول أن ينقذ بالدبلوماسية جزءاً من أرثه ، وأرسل إلى كنوت سفراء وكلفهم بعرض مقترحاته عليه ، وقبل كنوت بفكرة التقسيم . و أبرمت معاهدة بهذه الروح : وهي اتفاق ديرهرست ١ تشرين الثاني ١٠١٦ ، وبوجها يحتفظ ادموند بـ وسيكس ويحكم كنوت مرسيا ونورثامبريا ، ويشكل التاميز حداً فاصلاً بين الدولتين ويبدو أن لندن بقيت لكنوت واستمر هذا في فرض الجزية على مملكة ادموند .

ونص اتفاق ديرهرست على أنه إذا مات أحد الأميرين ، خلفه الأمير الآخر . وفي ١٠١٧ مات ادموند في ظروف سرية . ولم يكن لكنوت فيها أدنى يد ، واستلم أرثه ولم يلق أي مقاومة : فقد مات أولاد ادموند ومانن أحد بين الانغلو-ساكسون له من القدرة ما يجعله ينازع الفاتح الدانماركي على التاج ، واعترفوا به ملكاً . وكما كان في الماضي اثيلستان أصبح كنوت « ملك بريطانيا كلها » .

ضياح النورفيج (١٠١٥ - ١٠١٧) . - وبينما كان كنوت ينهي استرداد مملكته الانكليزية ، فحررت النورفيج ، التي تركها سفيند له ، من السيطرة الدانماركية . وكان المدعي بالعرش اولاف القوي الذي عاش حتى ذلك التاريخ اما في انكلترا أو في نورمانديا حيث تعمد . وبعد أن خدم تارة عند اثلرد ، وتارة عند ريشار ، فكر بالافادة من حوادث انكلترا لأخذ التاج ، غرض أحلامه . وبلغه خبر اسهام ايريك النورفيج

- ٦٢٠ -

في الحملة التي اعادت إلى كنوت الاراضي التي خسرها ، فيها مشروعه بتوقيت عجيب موافق للوقت الذي كان فيه كنوت يجتاز بحر الشمال لفتح انكلترا ، وأبحر إلى النورفيج . ونزل فيها دون عناء واعترف به سكان السواحل واستقر في نيدرورس وجعلها عاصمة له وبني فيها كنيسة وضاعت النورفيج مؤقتاً من يد الدانمارك ، لأن كنوت كان منهمكاً في انكلترا ولم يستطع منازعة اولاف ، ولكنه صمم على أخذها منه متى سنحت الفرصة .

كنوت ملك الدانمارك . - لقد شغل كنوت في توطيد سلطته في انكلترا وحاول أن يصلح ما أفسدته الحرب والفوضى الحكومية التي صجبت حكم اثلرد . وبينما كان متعلقاً بهذا العمل الأساسي مات أخوه هارالد ملك الدانمارك في العام ١٠١٨ بعد حكم دون ضياء . ولم يترك هارالد وارثاً له فعاد التاج حتماً إلى كنوت ونودي به ملكاً في ١٠١٩ أثناء رحلة إلى الدانمارك . وكان هذا الحادث أساسياً بالنسبة له ، لأن الدانمارك بأساطيلها وجنودها كانت مساعداً ثميناً له . وفتحت بوضعها الجغرافي أمام كنوت آفاقاً جديدة نحو الشرق . ويستطيع بعد هذا أن يعود إلى أحلام أبيه ومشاريعه الكبرى في تحويل البaltic إلى بحيرة دانماركية .

كنوت والسلاف . - حاول كنوت بادية بدء أن يدفع شعبه نحو السلاف المقيمين على طول الشواطئ البaltic . وكانت مستعمرة جوم على الأودر قاعدة ممتازة للعمليات . انطلق منها في العام ١٠٢٢ بسفنه على البلاد الواقعة في شرق الفيستول ، وأدت هذه الحملة إلى إنشاء مراكز على ضفاف الاودر والفيستول والدينيا ، وشع النفوذ الدانماركي في هذه الأرجاء دون أن يكافحه أحد . ولم يستطع ملكا جرمانيا ، هنري الثاني ، ثم كونراد الثاني ، بسبب صعوباتها مع بولونيا ، معاكسة هذه السيلسة

التوسعية واضطرا طوعاً أو كرهاً إلى التكيف مع تقدم التجارة الدانماركية في البحر البaltيك . حتى ان كونراد الثاني فكر بالتحالف مع كنوت واشتراه عام ١٠٣٥ بشعر شلزيغ ، وختم هذا التقارب بعقد قران غونيلد ، ابنة كنوت ، على ابن كونراد الثاني ، هنري الثالث ، في المستقبل ، ولم يبق على كنوت الا فتح النورفيج لانهاء بناء الامبراطورية الشمالية .

النورفيج في عهد اولاف القديس — لقد حاول اولاف القديس ، الذي استولى على السلطة في النورفيج ، أن ينصر البلاد بمجاسة مفاجئة أثارت عليه مقاومة قسم من الشعب الشديد التعلق بوثنيته . ومن جهة جهة أخرى ، أثار حكمه الاستبدادي الاقطاعية التي كان يهملها ارجاع الامتيازات التي تمتعت بها في عهد هاكون . وتكونت على هذا النحو معارضة توجهها ارستقراطية زعماء جريئين وأقوياء ، بعضهم وثنون مثل تور وهاريك رأسي الفتنة التي كلفت اولاف حياته ، والآخرون مسيحيون مثل ايرلنغ وابنار .

شعر اولاف بهيوب العاصقة ، فقرّر كسر الحركة بالقوة وقام بعدة تدابير قمع لاتتفق والمثل الأعلى المسيحي الذي بشر به . فانفض من حوله انصاره ، وبدأ كنوت محوراً ممكناً لانهاء نظام الارهاب الذي فرضه اولاف .

معركة نهر هيلج (١٠٢٦) . — وكان كنوت منهمكاً حتى ١٠٢٤ بتنظيم انكلترا وتهدة الدانمارك والحلة ضد الفيند ، فلم يتمكن من نجدة المعارضين النورفيجيين . وفي شتاء ١٠٢٤ - ١٠٢٥ أرسل إلى بلاط اولاف وفداً يطالبه بالتناج لشخصه ، فطرده اولاف هؤلاء الرسل ولم يعد بالإمكان اجتناب الحرب .

ولم يكن كنوت مستعداً للقتال في صيف ١٠٢٥ فانتهز اولاف هذه الملهة غير المنتظرة وفاوض بحلف مع ملك السويد الشاب ، آنوند جاكوب

- ٦٢٢ -

الذي خشي من أن يمتد كنوت بفتوحه نحو الشرق إذا ما أصبح سيد النورفيج . وفي ربيع ١٠٢٦ اضطر كنوت إلى الذهاب إلى انكلترا ، ولم يظهر في بحر البaltic ، فقرر الأميران الهجوم . واجتمع الاسطول في مصب فيورد ترونجيم ، ولكن كنوت بعد أن علم ببرنامج خصمه ، اندفع بقوة في تعبته ، وبسرعة لا تتصور وصل المياه الدانماركية وسد الطريق في وجه أولاف الذي وصل في ذلك الحين إلى مقربة من شواطئ سيلاند . وقامت معركة كبرى بالقرب من مصب نهر هيلج في شرق سكلاندا ولم تدر في صالح كنوت ، وانطوى أولاف بانتظام ولم يستطع كنوت بسبب الحسائر الجسيمة التي تكبدها أن يفكر بملاحقته .

فتح النورفيج (١٠٢٨ - ١٠٣٠) . - ولما لم يستطع كنوت تجديد هجومه مباشرة عمد إلى المناورات الدبلوماسية . فسعى إلى حل لب النورفيج والسويد ، وحاول كسب آتوند . وفي آخر ١٠٢٦ قام بحجه الشهير إلى روما وأعلن غيرته الدينية المخلصة . واستدر عطف البابا وأمن مساندة الزعماء النورفيجيين ، وخاصة إيرلنغ ، وفي الوقت نفسه اندفع في تعبته العسكرية ، وفي ١٠٢٨ اجتاز بحر الشمال باسطول مجهز على أحسن طراز وحاذى شواطئ جرمانيا ونزل في النورفيج وزحف على نيداروس ، وبعد أن اخضع البلاد المجاورة لها نودي به ملكا ، واضطر بعد ذلك أن يعود للدانمارك ومنها إلى انكلترا ، وعندئذ عاود أولاف الهجوم ، ولكنه اضطر إلى الهرب بسرعة إلى السويد . وفي ١٠٣٠ قام بأقصى محاولة لاسترجاع مملكته ، وغلب على أمره ، وقتل في معركة دامية في الشمال الشرقي من ترونجيم (٢٩ تموز ١٠٣٠) وبقيت النورفيج أخيراً لكنوت وخول سلطته فيها إلى ابنه سفيند .

الامبراطورية الدانيادكية . - وبسقوط اولاف زالت آخر عقبة في تشكيل الامبراطورية الدانيادكية . وتجمعت تحت صولجان كنوت الكبير ثلاث ممالك : الدانيارك ، انكلترا ، النورفيج ، يضاف لها الاراضي السلافية في وديان الاودر والفيسطول السفلى . وصرح ملكا ايكوسيا وايرلندة بانهما تابعان للفتاح ، واعترفت بسلطته جزر شيتلاند واوركاد وربما هبريد ايضا . ومخرت الأساطيل الدانيادكية عباب بحر الشمال والبحر الباطيك والجزء الشمالي من المحيط الاطلسي . وما من ملك في البلاد المسيحية اللاتينية مارس سلطته او نفوذه على اراض بمثل هذه السعة .

غير ان هذه الامبراطورية ينقصها التماسك والتلاحم . فهي تتألف من أجناس مختلفة ، وليس فيها شيء مشترك ، وانشئت على عجل وحسب الظروف ، وتعتمد على شخص المليك وحده . وادرك كنوت ان من المستحيل عليه ان يمارس سلطته بنفسه في كل مكان ، فحولها الى نوابه وامتعمهم بسلطات واسعة : ففي الدانيارك أخذ اثنى ابناء كنوت ، هارثا كنوت ، لقب ملك ؛ وقسمت النورفيج بادىء بدء بين هاكون وويك ، وليس لهما الا لقب كونت ؛ ثم سلمت في ١٠٣٠ الى الابن الآخر ، سفيند . وحكم كنوت انكلترا وحدها مباشرة ، واقام عادة في وسكس في وينشستر ، وضم بلاطه دانيمركيين ونورفيجيين وسويديين وحتى نورمانديين وانغلو - ساكسون . وهذا هو عنصر الصهر الوحيد بين مختلف اجزاء الامبراطورية . وفيما عدا ذلك حافظت كل مملكة على نظمها وتشريعها ، وبجالسها الخاصة ، دون وجود أي رسم لتنظيم عام .

حكم كنوت في انكلترا . -- كانت انكلترا موضع اهتمام كنوت

الكبير . فقد وضعت أمامه قضايا دقيقة وبخاصة غداة الفتح . فكان يجب في آن واحد ارضاء الدانياركيين وتمثيل الانغلو - ساكسون . وقد برهن الملك الشاب في هذا المعنى على مهارة حقيقية . كافأ الزعماء الذين ساعدوه في حملاته المتوالية بتوزيع الجزية ، ومنحهم امتياز الاراضي المصادرة وبعض وظائف الكونتات . ومن جهة أخرى ، حذف كل معارضة ساكسونية ، بالتخلص ، من كل من تسول له نفسه برئاسة حركة ضد النظام الدانياركي ، واعدم على هذا النحو الأمراء الذين لا يتق بهم مثل ادريك الذي تزوج بنت اثلرد ، واثيلنج أحد ابناء الملك اثلرد وكان منفياً ونجراً على الدخول لانكلترا : وارسل الى دوق بولونيا ، بوليسلاس اولاد ادموند ، وليحول دون أي هجوم من قبل ولدي اثلرد وايماء ، الفرد وادوارد اللاجئين في نورمانديا ، تزوج امها وانتزع منها وعداً بان الاولاد الذين يلدون من زواجهما يفضلون في أخذ التاج على اولادها من اثلرد .

ونظم كنوت انكلترا سياسياً وادارياً بشكل يحول دون قيام أي ثورة ، واحتفظ بتقسيم المملكة إلى أربع دوائر كبرى تطابق الممالك القديمة ، ووضع على رأس كل منها (اورلدومز) أي حكاماً عسكريين كباراً وقد عرفوا أحياناً بقساوتهم وجفافهم . وأنشأ بنفس الفكرة حرس الينغمين ليحل محل الجيش الدانياركي الذي سرحه في ١٠١٨ ، ويتألف من أغنى رجال البلاد من انغلو - ساكسون واسكاندينافين . وكان النظام في هذا الجيش المختار شديداً لدرجة فائقة ، وكان بيد كنوت أفضل اداة للسيطرة على انكلترا .

وحاول كنوت أن يدعم قوته ، وفي الوقت نفسه أن يتقرب من رعاياه باحترام اعرافهم . وفي ١٠١٨ عقد في اكسفورد مجلساً كبيراً قرر ، بناء

على طلبه ، بأن تستمر قوانين ادغار في إدارة انكلترا . وما من شك في أن هذا التدبير زاد في حب الشعب للقاتح ، فضلاً عن أن انكلترا تمتعت باستقلال ذاتي تام ولم يسهم سكانها إلا استثناءً بالحروب التي اقتضاها التوسع الدانياركي . ولا نجد في الوثائق ما يشير إلى أي جهد لادخال النظم الاسكندنافية في البلاد إلا في نقاط تفصيلية دون أهمية . ومع هذا فقد تمتع كنوت بشهرة المشرع ، ولكن نشاطه كان دوماً في اتجاه التقليد الانكليزي الذي تناهى بكل بساطة ، ودل بذلك على روح سياسية حقيقية .

حكم كنوت في الدانيارك . — ولا تعلم جيداً التدابير التي تسجل حكم كنوت في الدانيارك . وشعبيته فيها أقل ظهوراً منها في انكلترا . في ١٠٢٦ قامت حركة مقاومة رصينة ضده وكان روحها الكونت اولف وكان المعارضون يلومون كنوت على إقامته دون انقطاع في انكلترا ، ونادوا بانه هارثا كنوت ملكاً ، فجاء كنوت إلى الدانيارك حيث جعل المهجوم النورفيجي والسويدي حضوره ضرورياً ، وخضع المتمردون وأسهوا في معركة نهر هيلج ، ولكنه حقد على اولف وأمر بقتله في سورة غضب . ولم يعيش بعدها في الدانيارك وتنازل عن إدارة المملكة لهارالد بن توركيل . ويبدو أنه لم يحاول أن ينشر فيها النظم الانكليزية ، وكل ما يمكن أن يشاهد هو أنه نزع إلى إحلال مطران كاثوربري محل مطران هامبورغ عند مباركة الأساقفة ، وكان الملك يسمى هؤلاء الأساقفة ، ولذا ادعى كنوت بأن له نفس السلطات الكنسية التي كانت للملك في أوربة المسيحية الغربية .

حكم كنوت في النورفيج . — لقد كانت النورفيج أثناء الفتح الدانياركي تتخبط في فوضى يرثى لها . وحاول كنوت أن يعيد إليها النظام . العصر الوسيط - ٥٠

وهنا نرى بعض التجديدات التي تشير إلى نفوذ الأعراف الأنغلو - ساكسونية :
فاللغة العينية التي يهبها الرعايا النورفيجيون في عيد الميلاد ، وبعض القوانين
على الإيرادات ، وقوانين الجزاء ، إنما هي تكيف واضح مع القوانين
الانكليزية . لقد كان أثر كنوت قليل الشعبية في النورفيج ، وما لبثت
المعارضة أن قامت ضد ابنه سفيند الشاب .

سياسة كنوت الكبير الدينية . - كانت الامبراطورية الدانماركية
في آخر حكم كنوت الكبير فيفساء بمالك متميزة بحكمها عاقل واحد .
وكان الرابط الوحيد بين هذه الممالك خارجاً عن هذا الاتحاد الشخصي ،
الرابط الديني ، لأن الامبراطورية الدانماركية كانت امبراطورية مسيحية .
لقد اعتنق الملك نفسه قانون المسيح بكثير من الإخلاص ، وهذا
الإخلاص يرى في كل ظاهرات تقواه . ولا شك في أنه خرق أكثر
من مرة تعاليم الإنجيل الأخلاقية : فقد كان محباً للحرب ، فظيعاً ، شرساً
عند المناسبة ، محباً للثأر والانتقام ، قليل الضمير عندما تكون له منفعة ،
ومحافظاً على روح الفايكنغ ، ولكن هذا لم يمنعه من أن يقدر كل
التقدير تأثير الايمان المسيحي في ثمر الحضارة . ولقد حقق التبشير بالإنجيل في
البلاد الاسكندنافية خلال حكمه تقدماً جديداً بمساعدة المبشرين الذين أتوا
من الجزر البريطانية . ومنذ أن فتح كنوت النورفيج لم يتخذ أي حيلة
حيال الوثنيين الذين اضطر لمداراتهم حتى ذلك الحين ، واشتد النضال ضد
عبادة الأصنام .

وأظهر كنوت الكبير حيال الكنيسة كل احترام ، ولكن علاقاته
معها لم تكن على وتيرة واحدة . ففي بداية الحكم رأى فيها قوة يمكن
أن تسهم في عمله فأخذ يداريها في سبيل منفعتة ولكنه راعى بعض الحيلة

ثلاثا يثير عليه الجيش الدانيمركي الذي يضم كثيراً من الوثنيين والمنفيين النورفيجيين وكانوا كثيراً في بلاط وينشستر . ولذا اقتصر على تعبير الكنائس التي دمرتها الغارات ، واغناء الأديرة بالهبات ، وتخويل الكليركين بعض الحرب ، ولم يجرأ على الذهاب إلى أبعد من ذلك . ونحت تأثير الأبحار الانكليز مثل اثلوث الصالح ، مطران كانتوربري ، ولايفنغ ، اسقف كريدبتون ، أصبح ايمانه أكثر عمقاً وأكثر اقتناعاً ، وتطورت بالتالي علاقاته مع الكنيسة ، وفي ١٠٢٢ نظم الكنيسة الدانماركية ورسم المطران اثلوث بناء على طلبه ثلاثة أساقفة جدد .

الحج الى روما (١٠٢٦ - ١٠٢٧) . - ثم قطعت مرحلة اخرى في آخر عام ١٠٢٦ بالحج الشهير الى قبر الحواريين . ومن الصعب الكشف عن أسباب هذه الرحلة . فقد صرح كنوت في رسالته إلى الشعب الانكليزي بأنه يريد إيفاء نذر قديم للعفو عن ذنوبه . وربما كان يريد التكفير عن قتل أولف بعد أن ندم حقاً على ما فعل . ولكن هنالك أسباباً أخرى سياسية تضاف لذلك . ففي الوقت الذي انتزع فيه كنوت النورفيج من أولاف القديس ، حرص ولا شك ، على توكيد غيrote على الدين ، وحاول إقناع البابا بشرعية مزاعمه . وربما كان يريد تطمين كونراد الثاني على نتائج المشروع النورفيجي ، ولذا لم يكن حضور كنوت عرضياً في روما في آذار ١٠٢٧ أثناء التتويج الامبراطوري . وأخيراً كانت الكنيسة الانكليزية موضوع محادثاته مع البابا جان التاسع عشر ، ونظمت شؤونها باتفاق مع الكرسي الأقدس . وقد أصر كنوت في رسالته إلى الأنكليز على ضرورة دفع الاتاوات التي وعد بها إلى القديس بطرس ، وفي الوقت نفسه أعلن بأنه حصل على تخفيض الحقوق الباهظة التي يتطلبها المطارنة لإرسال الوشاح (الطيلسان) الأسقي. ومن جهة أخرى ، لاشك أنه عند عودته من

روما زاد في سلطته على الكنيسة الانكليزية : وابتداء من ١٠٢٧ تدخل بلاط وينشستر باستمرار في الشؤون الكنسية وواجهها بشكل واقعي . وهذا يدل عند كنوت على اهتمام ظاهر لكل ما يتعلق بالكنيسة . شيئاً فشيئاً أخذت الامبراطورية الدانياركية شكل امبراطورية مسيحية ولا تتميز عن دول أوربة الغربية الأخرى إلا ببعض بقايا من روح الفايكنغ المصطبغة بالوثنية .

وفاة كنوت الكبير (١٢ تشرين الثاني ١٠٣٥) . - توفي كنوت
في ١٢ تشرين الثاني ١٠٣٥ في شافنسهري ودفن في وينشستر في الابوية المهداة للرسل القديسين . وترك ثلاثة أولاد ، سفيند ، هارالد ، هارثا كنوت ، وبنثا ، غونهيلد ، زوجة الامبراطور في المستقبل ، هنري الثالث . ومن الجلي أن امبراطوريته لم تعش بعده لأث الشقوق صدعت البناء الذي شاده على عجل . ففي انكلترا يجب الاعتماد على سلالة اثلرد ومملوها لاجئون في نورمانديا ولهم أنصارهم وخاصة في ايكوسيا التي لم تستطع السيطرة الدانياركية النفوذ إليها . وظلت الدانيارك تكره الاتحاد مع انكلترا . وفي النورفيج ولد الحكم السيء للشاب سفيند وأمه والأزمة الاقتصادية ، التي عبر عنها بمجاعة فظيعة ، إستياء فظيعة ، فضلاً عن أن الكنيسة الاسكاندينافية اعلنت قداسة أولاف في (٣ آب ١٠٣١) وأصبح موضع إجلال شعبي ، وقبل عامين على موت كنوت ، في ١٠٣٣ ، تفجرت ثورة ولكنها اخفقت . وفي ١٠٣٥ أثار وصول هاغنوس بن القديس أولاف الحماسة . واضطر الشاب سفيند إلى اللجوء في الدانيارك قبل أن يكون لدى كنوت المريض متسع من الوقت للتدخل ، وهذا الفرار كان ناقوس الخطر بالنسبة للامبراطورية الدانيمركية التي انهارت بسرعة كما أنشئت : ففي أقل من عشر سنوات على موت كنوت زال كل أثر له .

تغيت الامبراطورية الدانيماركية

١٠٣٥ - ١٠٤٢

خلافة كنوت الكبير . - إذا أخذنا بما قاله بعض المؤرخين رأينا أن كنوت نظم في حياته مصير امبراطوريته وقسمها بين أولاده الثلاثة : فكانت النورفيج حصة سفيند ، والدانبارك إلى هارثا كنوت ، وانكلترا إلى هارالد . وهذا الرأي مبني على حادث واحد وهو أنه في الوقت الذي زال فيه الملك تقلد هارثا كنوت حكم الدانبارك وسفيند النورفيج بينما هارالد كان يقيم في انكلترا ، ولكن لاشيء يدل على أن كنوت اتخذ ترتيباته للمستقبل . ان تغيت الامبراطورية الدانيماركية حالاً بعد وفاته كان ثمرة الظروف أكثر بكثير مما كان ثمرة إرادته .

ماغنوس ملك النورفيج . - كانت النورفيج في العام ١٠٣٥ في طريق استرداد استقلالها . فقد اعتزل سفيند في الدانبارك ومات عام ١٠٣٦ ، ولم يبق أمام ماغنوس أي منافس . كان ماغنوس ، بن القديس أولاف ، قوياً بجاه اسمه وبصفاته الحربية اللامعة . اعترفت به في البدء بلاد ترونجهم ثم كامل المملكة . وفتح موت كنوت أمامه مستقبلاً مليئاً بالوعود . وأيد موت سفيند آماله . وليزيل عن هارثا كنوت كل فكرة في الغزو انطلق عليه بهجوم قوي قاده إلى المياه الدانيمركية وبدأت حرب دامت سنتين (١٠٣٦ - ١٠٣٨) وعلى أثرها تصالح الأميران واعترف كل منهما بالآخر ملكاً ، واتفقا على أنه إذا مات أحدهما دون وارث خلفه الآخر ، وأدى موت هارثا كنوت في ١٠٤٢ إلى تطبيق هذا البند لصالح ماغنوس النورفيج الذي ورث عندئذ الدانبارك . وحتى ١٠٤٧ حكم ابن القديس أولاف المملكتين . وحرصاً منه على تقاليد أبيه ، حمى

الايان المسيحي ونشره في اسكاندينافيا بمساعدة ملك السويد ، آنوند جا كوب الذي يشاطره عواطفه وقناعاته . وناضل ضد الفيند وبمساعدة الجنود الساكسونية انتصر عليهم في شلزيغ . وأدى موته عام ١٠٤٧ إلى فصل النورفينج وخلفه عليها صهره ، هارالد ، واعترفت الدانمارك بسفيند استريشون ملكاً .

هارتا كنوت ملك الدانمارك . - إن تاريخ الدانمارك تحت حكم هارتا كنوت (١٠٣٥ - ١٠٤٢) غير معروف جيداً . ويمثله المؤرخون كائناً نحيفاً هزياً مريضاً يخامرته طوال حياته قضاء الله والحلود ، ولكنه كان مجرداً من هذه الجراءة التي ساعدت أباه وجده على كتابة صحيفة من أمتع صفحات العصر الوسيط . ولم يفكر هارتا كنوت بالمطالبة بعرش انكلترا حيث هيا الاضطراب السياسي المديد فيها سقوط النظام الدانماركي .

هارالد ملك انكلترا (١٠٣٥ - ١٠٤٠) . - وبعد موت كنوت تنازعت زوجته السيطرة على انكلترا . فاعتمدت إحداها ، أوجيف ، أم هارالد ، على مرسيا وعلى بلاد الاحتلال القديم (دنلو) . وكان يدعمها كونت مرسيا ، ليوفريك . والأخرى إيماء ، أم هارتا كنوت ، على وسكس والكونت غودون الذي لعب دوراً هاماً في السنوات الأخيرة من حكم كنوت الكبير ، وكافح بنشاط لصالحها .

انتصرت أوجيف في البدء . فقد انعقد مجلس في اوكسفورد ساد فيه العنصر الدانماركي ، وبفضل ضغط ملاحي التاميز ، نادى بهارالد ملكاً مع اعترافه بهارتا كنوت ملكاً على الدانمارك . وحاولت وسكس الخروج على هذا القرار ؛ ولكن امتناع هارتا كنوت جعل هذه المعارضة غير ناجحة . ولارضاء الكونت غودون الذي يجب الاعتماد عليه ، سمح لإيماء

أن تحافظ على حكم وسكس . ولكن الملكة الطموحة على اثر المكاييد التي دبرتها لصالح أحد أولادها من زواجها الأول ، الفرد ، الذي نزل في انكلترا في ١٠٣٧ ، نفيت إلى نورمانديا وتحلقت منذ ذلك الحين بتهينة عودة أولاد اثلرد إلى مملكة أبيهم القديمة .

هارتا كنوت في انكلترا (١٠٤٠ - ١٠٤٢) . - إن موت هارالد في ١٧ آذار ١٠٤٠ أوقع اياها في ورطة كبرى ، وكان عليها أن تختار بين هارتا كنوت وأولاد اثلرد . وأدركت بسرعة ان انكلترا لم تنضج بعد لارجاع سلالة الفرد الكبير فلم تحاول معاكسة مجي هارتا كنوت ، الولد الحي الوحيد الذي بقي من أولاد كنوت . وهكذا توج الأمير الشاب ملكاً على انكلترا في ١٨ حزيران ١٠٤٠ . ودام حكمه سنتين (١٠٤٠ - ١٠٤٢) وكرهه الشعب فيها بسبب مطالبه المالية وتدابيره الانتقامية من أنصار هارالد . وأدى موته (٨ حزيران ١٠٤٢) بسرعة إلى عودة الملوك الانغلو - ساكسون .

ارجاع السلالة الانغلية - الساكسونية الى انكلترا . - لقد تقدم ثلاثة مرشحين لحكم انكلترا : ملك النورفيج ، ماغنوس ، الذي أصبح ملك الدانبارك ، وبه يمكن أن تتشكل من جديد امبراطورية كنوت لصالح بيت القديس اولاف ، ثم ابن أخ لكنوت ، سفيند ايستويثسون ؛ وأخيراً ادوارد ، ابن اثلرد وايا . ونودي حالاً بهذا الأخير . وحاول سفيند أن ينزل انكلترا ، ثم بدا له واكتفى بأن ينتزع من منافسه وعداً بأن يكون خلفه . ولما كان ادوارد ، الملقب بـ المعروف قد نذر على نفسه نذر العزب فبما كان سفيند أن يتصور آمالاً لاتتحق لاث غليوم الفاتح هو الذي سيحكم بعد ادوارد .

أثر كنوت الكبير . - تسجل السنة ١٠٤٢ اخفاقاً باتاً لمحاولة كنوت الكبير في ضم شاطئي بحر الشمال تحت السيطرة الدانماركية ، ومن الممكن أن تعتبر تاريخاً هاماً في تاريخ اوروبا الغربية التي قد يختلف تطورها كثيراً لو عاشت الامبراطورية بعد مؤسساها .

ومها يكن عمل الفاتح الدانماركي موقفاً فقد ترك آثاراً تدل على قيمته . لقد أدخل كنوت شعوب الشمال في اطار البلاد المسيحية الغربية . وعلى الرغم من ردود الفعل الوثنية ، العنيفة أحياناً ، فان تأثير الانجيل ظهر تدريجياً ومعه تأثير الكنيسة والبابوية . وفي العام ١٠٥٣ صدر قرار عن البابا ليون التاسع نظم ايسلاندة وغروثلاندا اللتين اُلحقا كساتر البلاد الاسكاندينافية ببطرانية هامبورغ وبعدها أتت جزر اوركاد بدورها واعتنقت المسيحية .

وفي الوقت نفسه تحولت الحضارة الاسكاندينافية وتقربت من حضارة الممالك الأخرى في اوروبا الغربية . ولقد قبل بحق بأن حكم كنوت يسجل آخر عصر الفايكنغ ، وبالنسبة للبلاد الاسكاندينافية فجر عصور جديدة . فقد انتهت الغارات البحرية الكبرى ، وانطوت المملكتان الدانماركية والنورفيجية على نفسها وانصرفتا للتجارة عوضاً عن القرصنة . وأوجد الاتحاد الموقت بين انكلترا والدانمارك والنورفيج وتوسع النفوذ الدانماركي في بلاد الفيند حركة مبادلات منظمة . ووصلت الفراء والحاصلات الشمالية الأخرى الى الموانئ الانكليزية . وباختصار لقد أصبح العالم الاسكاندينافي عنصراً من عناصر الحياة لا التخريب ؛ وهذا ولاشك نتيجة أساسية من نتائج الأثر الذي انجزه كنوت الكبير .

الفصل السابع والعشرون

الملوك والتابعون

في النصف الأول من القرن الحادي عشر

النتائج السياسية للنظام الأميري . — ان استقرار النظام الأميري في ممالك اوربه الغربية يعتبر أعظم حادث في تاريخ القرن العاشر السياسي الى جانب ارجاع الامبراطورية على يد اوتون الكبير . وان الصفة الأساسية لهذا النظام ، في ذلك العصر ، هي اغتصاب الموظفين للحقوق الملكية . وقد وضعت الأسئلة نفسها في كل مكان : هل يقبل الملوك نهائياً بهذا الوضع المتصاغر ويتركون الأمراء ينزعون منهم امتيازاتهم الأخيرة التي حافظوا عليها ، أو انهم ، على العكس يحاولون استعادة ما أجبروا على التخلي عنه ؟ وهل يحاول الاتباع بدورهم تخطي العوائق التي تقف عثرة في طريق استقلالهم التام ؟ لقد بدأ هذا النزاع في كل مكان وبصفات مشتركة ومتنوعة ، حسب البلاد ، ولذا يحسن أن نستعرضها ونبرز أهميتها .

ضعف السلطة الملكية في ألمانيا

سلطة اوتون الكبير الملكية . — لقد كانت المملكة الجرمانية ، من بين جميع الدول الغربية ، المملكة التي كوفح فيها النظام الأميري

بقوة ، واستطاعت السلطة الملكية ، بفضل سياسة النهوض وتقييم الوضع التي سلكها هنري الأول واوتون الأول أن تسترد المواقع التي خسرتها أثناء الدمار العام الذي تلا زوال الامبراطورية الكارولنجية . وبفضل اشراك الابن في التاج في حياة أبيه استطاع المبدأ الوراثي أن يتأسس ويبقى : فعند وفاة هنري الأول (٩٣٦) ووفاته خلفائه وثق الانتخاب الروابط الدموية وأصبح هذا التقليد قوياً ، وفي اليوم الذي تنطفيء فيه السلالة الساكسونية يرتفع أخيراً صوت الأمراء لصالح أقرب قريب للأوتونيين . وفوق ذلك ، استعادت السلطة الملكية في عهد أوتون الأول صفة السيادة التي خسرتها أثناء حكم لويس الطفل (٩٠٠ - ٩١١) وكونزاد الأول (٩١١ - ٩١٨) . وكان للملوك الساكسونيين نفس البائس ، أي نفس السلطة العامة في لأمر كالمملوك الكارولنجيين ، ويضاف إليها حق العفو ، وبموجبه يستطيعون في آن واحد أن يلغوا العقوبات التي أعلنها أتباعهم ويفرضوا بأنفسهم عقوبات على مخالفة أوامره . وكانوا يتصرفون بإدارة قوية تخدم نزعاتهم الاستبدادية : فقد بقي البلاط الكارولنجي مع كبار موظفيه الذين يعتبرون مشاوير عادين للملك . وجرت العادة مجدداً على عقد مجالس كبرى ، وجعل الحضور فيها إجبارياً على كل من يدعون إليها تحت طائلة اعتبارهم متمردين . ووجد أخيراً أن أوتون الكبير استطاع أن يصنع ادواً كانوا سادة ألمانيا الحقيقيين في منتصف القرن العاشر ، وأن يفرض على المارغرافات والكونتات بسل وحتى الأساقفة دور مندوبين مقلدين وظائف عامة . وبكلمة ، لم يكن الجميع من علمانيين وكهنة إلا ادوات في يد الحكم المطلق الملكي .

وإذا طور أوتون الأول النظم في اتجاه ملائم للتاج فلم يستطع محو ذكريات الماضي وحذف الطموح والجزع والتوق إلى إرضاء الرغبات في

الأطر القديمة التي مازالت قائمة . ولكنه شلها بمهارة بتصنيفها من جديد وجعلها دوقيات ووضعها في أيدي أقربائه وأصدقائه . فقد أعطيت بأفاريا إلى أخيه هنري ، زوج حديث ، أرملة الدوق آرنولف القديم ، والسواب إلى صهر هذا ، بركارد ، وفرنكونيا إلى هرمان بيلونغ رجل ثقتة . وبفضل هذه التدابير الحاذقة لم تعرف الملكية الساكسونية مقاومة حقيقية حتى ٩٧٣ . ولكن لم يكن لهذه الوسائط إلا تأثير مؤقت ، فضلاً عن أن إرجاع الإمبراطورية وضع القضية الإيطالية واضطر أوتون الأول إلى الغياب كثيراً عن ألمانيا ، فنشأ عن ذلك بعض الانفراج في ممارسة السلطة ساعد على الأقل بعض الأدواق الطموحين على الأمل . وعندما زال الإمبراطور الكبير قامت معارضة وبدأت تنمو تبعاً للظروف الخارجية : وذلك أن الالتزامات الناشئة عن إرجاع الإمبراطورية أدت إلى أفول الحكم الملكي المطلق في ألمانيا نتيجة للمقاومات والمنازعات التي نشبت في في الأقاليم الألمانية .

الملكية الجرمانية عند وفاة هنري الثالث . — كانت وفاة هنري الثالث في ٥ تشرين الأول ١٠٥٦ نكبة حقيقية لألمانيا . لأن الوضع الخارجي كما رأينا ، لم يكن لامعاً . وفي الداخل كان على الملك أن يحسب حساباً للأدواق الذين لم يستطع أن يحركهم حسب هواه ، وأخذوا يطالبون بامتياز التصرف بمتاصبهم حسب التعاملات الوراثية .

وكان لهنري الرابع ، وريث الإمبراطور الراحل ، أربع سنوات من العمر ولذا كانت الوصاية ضرورية ، وليس في ذلك ما يعيد القوة إلى السلطة الملكية الضعيفة . ولذا فإن النظام الأميري الذي استقر في ألمانيا عند وفاة هنري الثالث رسخ أكثر من ذي قبل . فقد كان الأدواق والمارغرافات والكونتات يظهرون بأعمال إيجابية أنهم مستقلون عن التاج ، ونهيات على هذا

- ٦٣٦ -

النحو حركة أدت في بدء النزاع بين الكهنوت والامبراطورية إلى انتخاب ملك ثان عوضاً عن هنري الرابع المخلوع ، دوق سواب رودولف راينفيلدن (١٠٧٧) .

قصر هنري الرابع . - أخذت الامبراطورة آنيس الوصاية على ابنها هنري الرابع عند وفاة أبيه هنري الثالث . فاصطدمت مباشرة بصعوبات مختلفة حالتها بكثير من الفطنة والحكمة . وكان بودون الخامس في فلاندر يؤمل بفضل هذا القصر أن يتم الفوائد التي اكتسبها سابقاً . وفي ثغور الشمال فتح موت المارغراف غليوم ، الذي قتل في كفاح بائس ضد الليوتيس (١٠ أيلول ١٠٥٦) ، ازمة وراثية مزعجة : لأن أخ الراحل من أمه ، أوتون الذي طرده اودون شتاد الذي يتمتع بثقة البلاط ، حاول إثارة ساكس . وفي فرانكونيا ، ثار فريديريك غلايشبرغ ، بينما أخذ السلافيون يتحركون على حدود الألب .

أمام هذا الفوران العام ، سلكت الوصية سياسة رشيدة أصولية : جردت بودون من سلاحه باعترافها بتملكه جميع الاقطاعات التي كانت مرتبطة بالفلاندر في زمن هنري الثاني . وفي صيف ١٠٥٧ قلدت هنري الرابع إلى بادربورن ، وأمن موت أوتون في حرب هاوس - نايندورف إلى أودون وراثية ثغور الشمال ، وأدى إلى الهدوء في ساكس . وفي فونكونيا أخيراً ، قمع خروج فريديريك غلايشبرغ دون صعوبة . وتوطد الهدوء في كل مكان ، واستمر حكم هنري الثالث بفضل حصافة آنيس . غير أن الوصية ، للحيلولة دون استياء الأمراء ، كانت مضطرة لسلوك سياسة التخلي . وعندما مات أوتون الثالث السواي (٢٨ أيلول ١٠٥٧) اسلمت الدوقية إلى رودولف راينفيلدن ، عدو الملك في المستقبل ، واهتمت بخطوبته إلى إحدى بناتها ، ماتيلد ، ولتعوض على الكونت برتولد الذي

وعده هنري الثالث بوراثنة اوتون قلده كارنثيا (١٠٦١) . ونحلت في الوقت نفسه عن حكم بافاريا التي كانت تديرها منذ وفاة ابنها الثاني ، كونراد ، لصالح الكونت الساكسوني اوتون نوردهايم . ورغم كل هذه التنازلات خلعت في نيسان ١٠٦٢ ، إثر انقلاب نظمه مطران كولونيا ، آنون ، ودوق بافاريا الجديد . وهكذا تأكد ظفر الاقطاعية العليا الألمانية وأصبحت أقوى من الملكية . وفي الوقت نفسه تحررت الكنيسة من الوصاية الجرمانية ، وأتفق سقوط القيصريّة البابوية الامبراطورية مع سقوط الحكم الملكي المطلق . وافتتحت أزمة فظيعة بالنسبة للملكية الفرنكونية ، وأنسمت في آن واحد بالنزاع ضد البابوية والنزاع ضد الأمراء الألمان ، وأصبح كل من هذين النزاعين غير منفصل عن الآخر .

فرنسا في عهد أوائل الطبسين

أوج النظام الأميري . - لقد اتفق تغيير السلالة في فرنسا عام ٩٨٧ مع أوج النظام الأميري . وعندما قبل هونغ كليت التاج ، بعد أن أصبح شاغراً بموت لويس الخامس الكارولنجي ، انقسمت المملكة إلى خمسة عشر ملكاً كبيراً ، دول اقليمية حقيقية ، تحكمها سلالات وراثية تخرج بناتها عن نفوذ الملك وتنقسم بدورها إلى عدد من الإمارات التابعة التي اغتصب أصحابها بدورهم الحقوق الملكية . وبدأت خارطة فرنسا على هذا النحو فسيفاء واسعة تعلوها بعض وحدات مهيأة لتشكيل إقطاعات كبرى .

ان الاختلاف بين فرنسا وألمانيا يبدو في أن ألمانيا منقسمة إلى دوقيات أقل عدداً وذات طابع جنسي أكثر ظهوراً . ومن جهة ثانية ، بينما كان الأدواق وتابعوهم في ألمانيا ، في زمن الأوتونيين ، موظفي الملك ،

لم يكن لهوغ كابيت على الوحدات الإقليمية الكبرى إلا سيادة وهمية .
وفي المانيا ، كان هم الملكية الإبقاء على إمتيازاتها ، بينما كان همها ، في
فرنسا ، استرداد هذه الإمتيازات .

الكنيسة . - في المملكة الجرمانية ، دخلت الكنيسة في أطر النظام
الأميري وأصبحت قوة أرضية كبرى ، ولكنها غير وراثية ، وظل
المملك سيد الأسقفيات ويسمي القائين عليها . وفي فرنسا ، كانت سلطة
المملك على الكنيسة محدودة كثيراً ، وسلطة الاقطاعيين الكبار ، سادة
« الأسقفيات الأميرية » نامية بالمقابل . لقد كان الأسقف يتمتع في الغالب
باستقلال حقيقي ، واستطاع أن يكسب السلطة الزمنية على الأقل في مدينته
الأسقفية ، ولكنه في جرمانيا لا يتمتع بالسلطة الدومينية الواسعة التي
خولت إليه ، وسيكون للأسقفية دور سياسي هام جداً في بعض
الحالات ، وبدأت الكنيسة مع الاقطاعية ، في فرنسا ، أكبر قوة تحسب
الملكية حسابها .

السلطة الملكية . - ينتج مما تقدم أن السلطة الملكية ظلت محمية
جداً : فقد كان هوغ كابيت مرتبطاً بصورة وثيقة بالاقطاعية التي انتخبته ،
وبالكنيسة التي باركته ، ولا يستطيع شيئاً دون واحدة منها . ومع
هذا ينبغي ألا نبالغ بضعف السلطة الملكية ، فقد احتفظت ، على قلتها ،
ببعض الحظ ومن الممكن أن تستغل في الوقت المناسب .

لقد كان هوغ كابيت سيد دولة شبيهة بهذه الوحدات الإقليمية . وهذه
الدولة هي الدومين الملكي الذي أثقل فقدانه ابتداء من القرن الحادي
عشر مصير الملكية الجرمانية . ويتألف هذا الدومين من البلاد التي كان
يلكها شخصياً عند انتخابه ، ومن البلاد التي عادت إليه من الارث
الكارولنجي : فمن جهة ، منطقة باريس ، ايتامب ، اورلئان ، مولن ؛

ومن جهة أخرى ، بلاد الراين والواز مع كوميين و رنس ولأن . ومع هذا فقد قلت قيمة هذا الدومين في آخر القرن العاشر لما منحه الملك من اقطاعات عديدة لمقربيه أو اعترافاً منه بجميل ، فضلاً عن أن سلطة الملك انبثت بسلطة تابعين علمانيين صغار في بعض المناطق .

ومع هذا ، لا يمكن إهمال هذا الدومين . فهو يتمتع بموقع ممتاز ، وسينمو ويكبر عندما تتاح للملك القوة المادية الكافية ويجعل إمتيازاته النظرية ، المرتبطة بوصفه سيداً ، عملية .

ولا مجال في الواقع لانكار قيمة الحقوق التي حصل عليها الملك من الرابط التبعية الذي يربط كبار الاقطاعيين به . وإذا كانوا ، واقعاً ، متساوين ، فهو ، حقوقياً ، أعلى منهم : لأنه يستطيع أن يطلب منهم خدمة البلاط ويدعوهم إلى مجالس للنظر ، حسب التعبير الشهير لفولبير شارتر ، في قضايا « العدل والصلح وحالة المملكة وشرف الكنيسة » ؛ وهو مصدر كل حق ، ويستطيع أن يصدر إرادات عامة مشتركة لكل من هو داخل في المملكة الفرنجية ؛ وهو أيضاً حارس السلام ، وعدله أعلى من أي عدل آخر . ويضاف إلى هذه السلطة المبنية على الحق الاقطاعي ، سلطة تأتية من المباركة : فالملك « مسيح الرب » ، وهذه الصفة تخوله قوة معنوية وجاهاً دينياً يجعلانه أعلى من كبار تابعيه . وسيأتي يوم يمارس فيه هذه الامتيازات المختلفة ويبني الحكم الملكي المطلق على انقراض النظام الأميري ، وسيخلق الوسائل الكفيلة لتوسيع الدومين الملكي بتدخلات ماهرة في الخلافات بين كبار التابعين . وسينصرف أوائل الكاسبين لهذا العمل المزدوج في علاقاتهم مع العالم الاقطاعي . ولكن يجب في البدء تسوية القضية السلالية التي كانت تفوق في العام ٩٨٧ سائر القضايا الأخرى كلها .

القضية السلالية . - بعد انتخاب هوغ كابيت ومباركته وجد نفسه أمام منافس ، شارل ، دوق اللورين الدنيا ، اخي لوثير وآخر ممثل للعائلة الكارولنجية . ولم يكن حظه قليلاً . فقد وجد في دوقيته القوى الضرورية للنزاع ؛ ومن جهة أخرى ، حافظ في الدومين الكارولنجي القديم على علاقات سرية وبفضلها يستطيع فرض سلطته وتأمين مستقبل عائلته .

حكم هوغ كابيت (٩٨٧ - ٩٩٦) . - لقد انصرف هوغ كابيت في السنوات الأولى من حكمه لتأمين مستقبل سلالة بيعت تعامل كارولنجي . فبعد بضعة أشهر على انتخابه اشرك في الملكية ابنه البكر رويير (٣٠ كانون الأول ٩٨٧) . وكان هذا العمل منه جرأة عبقرية . فبفضله أصبحت السلطة الملكية التي يارسها الملك وابنه معاً غير قابلة للقسمة ووراثية ، ولذا ، عندما يزول أحد الملكين ، يبقى الآخر مقلداً الوظيفة التي يارسها وحده ولا ضرورة للانتخاب ، كما أن فكرة التقسيم بين اولاد المتوفى تصبح غير واردة . وهذه السابقة التي بعثها هوغ كابيت دامت في عهد خلفائه . فقد اشرك رويير معه ابنه هوغ ، وبعد موت هذا الأخير ، ابنه الآخر ، هنري الأول ، وسيفارك هذا الملك في حياته ، ابنه فيليب ، رغم أنه مازال قاصراً .

كذلك حدد هوغ إتجاه السياسة الكابسية في علاقاتها مع تابعيها . فمن جهة ، حاول إثناء الدومين المنكي ، ولم يكتف بان يشمل الممتلكات الكارولنجية ، بل ضم سائليس و درو اثر إنطفاء السلالات المحلية . ومن جهة أخرى ، تدخل في الحرب القائمة بين تابعين من تابعة الكبار ، كونت آنجو ، فولك نيرا ، وكونت بلوا ، اود الأول . وفي شباط ٩٩٦ ، أي في الوقت الذي يحاصر فيه اود فولك في لانجيه ، ظهر على اللوار وأجبر كونت بلوا على طلب هدنة ساعدت الانجفي على تجنب الاخفاق .

على أنه يجب ألا نبالغ في قيمة هذه الحوادث . والصحيح هو أن الدور السياسي ، الذي لعبه هوغ كابيت ، يؤكد من جانبه على تفهم حقيقي للوضع . فقد استطاع طوراً وطوراً أن ينمحي ويتقدم ، وحافظ ، باعتداله الذي لا ينفي القوة ، على مواقع الملكية تجاه التابعين الكبار وساعد سلالته على البقاء .

روبير التقي (٩٩٦ - ١٠٣١) . - وأكمل روبير التقي من ٩٩٦ إلى ١٠٣١) عمل أبيه وسلفه هوغ كابيت . وقد صور مترجم حياته ، هيلغود ، سيأه بكثير من الفن وأعطى صفتين أساسيتين لطبعه : التقوى والنشاط . ولم يكن ، كما ظن طويلاً ، أميراً يجيد الانشاد على المقرأ في الكنيسة ، بل أيضاً كان فارساً يحب الصيد والحرب ، وأسهم بشخصه في حملات عهده ، ولم يخش أن يعرض نفسه للخطر . غير أنه رغم خضوعه لقوانين الكنيسة ، لم يضح بمطالب مزاجه الشهواني : فقد عشق ابنة عمه بيوت أرملة كونت بلوا ، وتزوجها زواجا غير شرعي بعد أن طلق زوجته الأولى ، سوزان ، وقبل أن يكون خلال خمسة أعوام تحت ضربة الحرمان (اللعنة) غير أن عقم هذا الاتحاد الذي شجبه الكنيسة جعله ينفصل عن بيوت ويتزوج كونستانس آرل التي عوضت كثرة نسلها قباحة طبعها .

فتح بورغونيا . - سار الحكم سيرا لامعاً في البدء . ففي ١٥ تشرين الاول ١٠٠٢ توفي دوق بورغونيا ، هنري ، عم روبير ، دون أن يترك ولداً ، فطالب بارثه الملك وتابع هنري ، كونت بورغونيا ، أوت - غليوم . وتقدم أوت واحتل الدوقية . فلم يخف روبير . وفي ربيع ١٠٠٣ عاث في بورغونيا حتى الصون . وفي ١٠٠٥ انتصر انتصاراً حاسماً وتم له فتح العصر الوسيط (٤١)

بورغونيا التي زادت شوكة الملكية . وعهد روبرت بادلرة الدوقية إلى ابنه هنري ، ولكنه ظل فيها سيداً ، ولكن هنري الأول أقطعها فيما بعد إلى أخيه روبرت فأضاع بهذا فائدة المغامرة التي قام بها أبوه .

روبير التقي والاقطاعية . - وفي الوقت الذي كان ينمي فيه روبرت الدومين الملكي ، حاول تثبيت سلطته على العالم الاقطاعي . فقد دعم حركة سلام الله . وقاوم الاقطاعية الصغرى في الدومين وقمع شططها بشجاعة ، ولم يتردد في تهديم القصور .

إلا أن روبرت كان أقل حظاً من غيره في علاقاته مع كبار التابعين . وعندما توفي في ٢٠ تموز ١٠٣١ ، كان وضع الملكية قلقاً في بعض جوانبه .

هنري الاول (١٠٣١ - ١٠٦٠) . - كان خلف روبرت الاول ، ابنه هنري الاول ، ولم تكن له قيمة أبيه وجده . ورغم الظلال التي تغشى سياحه ، يمكن القول بأنه لا يشبه أسلافه . فقد أثار استياء رجال الكنيسة بجشعه المثالي الذي دفعه دون عذاب ضمير إلى بيع الأسقفيات والمناصب الكنسية الأخرى . وذكرؤه على ما يبدو ضعيف . وإذا برهن في عدة ظروف على الشجاعة الفروسية فلم يستطع مقاومة خصومه الكبار .

الازمة السلافية والنزاع ضد آل بلوا . - افتتح الحكم بأزمة عائلية عندما قام أصغر أولاد روبرت التقي ، ويسمى روبرت أيضاً ، بنزاع أخاه على التاج بمساعدة أمه الملكة كونستانس التي كانت تظهر تفضيلها له . ورأى أود بلوا في ذلك فرصة للدخول في النزاع وأبدى رأيه لصالح المنافس الفتى . وبقي جيرانه ، منافسوه ، مثل دوق نورمانديا وكونت آنجو وكذلك كونت فلاندر مخلصين لهنري . وبمؤامرة كونستانس احتل أود سانس . وأضطر هنري إلى اللجوء في نورمانديا ولكنه ما عتم

أن عاود الهجوم ووقف بمساعدة فولك نيرا كونت آنجو أمام سانس ولم يستطع دخولها على ما يبدو (تموز - آب ١٠٣٢) . ثم عادت كونستانس إلى عواطفها الطيبة وتوطد السلام ، وعوض هنري على روبرير بدوقية بورغونيا وألقى بذلك أكبر فائدة حصل عليها روبرير التقى . واستمر في نضال اود الذي كان ينازع كونراد الثاني على مملكة بورغونيا . ومن هنا تم تقارب بين الامبراطور وملك فرنسا وتقابلا في دوفيل على الموز (أيار ١٠٣٣) وبذلك نقلت الحرب إلى الشامبانيا واللورين وتوالى حتى موت اود في حرب بار (١٥ تشرين الثاني ١٠٣٧) . ولم يؤد موت الأمير إلى السلام . وكان على هنري أن يكافح لعدة سنوات آخر ضد ولديه : إيتين وتيبو اللذين تقاسما دوله ، وأخذ احدهما بلوا وشارتر ، والآخر الشامبانيا . ولكنه حول بمهارة الحرب نحو آنجو ، وقلد الكونت جوفروا مارتل ، خلف فولك نيرا ، منطقة تورين ، وأخيراً غلب إيتين وتيبو في نوي واضطرا إلى الصلح (١٠٤٤) . وبعد لأي استطاع هنري في العام ١٠٥٥ ، عند وفاة الفيكونت رينار ، أن يعوض سانس وانتهت الأزمة التي بدأت في فاتحة الحكم .

هنري الأول ونورمانديا . - وكان لهذه الأزمة صدى آخر غير منتظر . فقد استبعد هنري الأول بالنورمانديين في حربه ضد اود بلوا . وليشكرهم على مساعدتهم ترك للدوق روبرير الشيطان ، الفيكسان الفرنسية . ولكنه جوزي جزاء سنمار بهذا الاقتطاع للدومين ، وذلك لأن خلف روبرير الشيطان ، غليوم الدعي (ابن حرام) ، رغم نجدة الملك له ضد باروناته الثائرين ومساعدته له في نزاعه ضد كونت آنجو ، جوفروا مارتل ، أصبح أفضع عدو له ، ومات هنري الأول في ٤ آب ١٠٦٠ والحرب مازالت قائمة .

المملكة الكابسية عند وفاة هنري الأول . - ان الوضع الذي اورثه هنري الأول لابنه فيليب الأول ، الذي بورك في ٢٣ أيار ١٠٥٩ كان أخطر من الوضع الذي وجدده عند تسلمه العرش. ودام حكمه ثلاثين عاماً وكان مطبوعاً بتراجع السلطة الملكية . لأن الدومين الملكي باقطاع دوقية بورغونيا والتخلي عن الفيكسان الفرنسية إلى نورمانديا ، اقتصر على المنطقة الباريسية مع الملحق مونتروي - على - البحر ، وهو صديق للملكة سوزان ، الذي حافظ عليه روبرت بعد طلاق الأميرة البائسة . وفوق ذلك لم يكن الملك قادراً على فرض احترامه على تابعيه الكبار الذين لم يخشوا مهاجمته وفرض هزائم مخزية عليه . غير أنه يرى ، من جهة أخرى ، عمل تعمير وتجمع في الدول الاقليمية المجاورة للدومين الملكي : في الفلاندر ونورمانديا وأنجو .

وباختصار ، ان خارطة شمال فرنسا لم تتطور لصالح الملك الكابسي . ولا شك في أن الرابط الحقوقي ، الذي يربط التابعين الكبار بالملك ، مازال مرعياً . ففي مباركة فيليب الأول (٢٣ أيار ١٠٥٩) وجد دوق اكيثانيا ويمثلون عن دوق بورغونيا وكونت فلاندر وكونت أنجو . ولكن هذا العمل ليس سوى عمل طقسي ودون أهمية ، لأن كل واحد من هذه الشخصيات سيد في اقطاعه ويعامل الملك معاملة الندالند . وقد أخفقت جهود الملكية ، فلم يكبر الدومين . وكانت امتيازات السيادة وهمية . وترك هنري الأول خلفاً له ، ولدأ عمره ثمانية أعوام ، فيليب الأول . وزاد هذا القصر في وضع الملكية خطورة .

قصر فيليب الأول (١٠٦٠ - ١٠٦٧) . - عهد هنري الأول قبل وفاته بالوصاية إلى كونت فلاندر ، بودون الخامس . ولا يعلم جيداً تاريخ المملكة في هذا الدور الذي امتد حتى موت بودون (١٠٦٧) .

ولكن ينتج من بعض سير القديسين ومراسلة مطران رنس ، جرفية ، وجود قلاقل اقتضت تنازلات من جانب بودون . وكان لهذه السياسة فائدة في الحفاظ على هدوء نسبي . ولكن الصحيح هو أن الاقطاعية قوت مواقعها : ففي داخل الدومين ، اضطرب الأمن خلال حكم فيليب الأول كله وفي الخارج ، بدأ الحكم الشخصي للمليك الشاب باخفاق مدوي في فلاندر ، وحدث في آخر وصاية بودون حادث آخر خطير : وهو أن دوق نورمانديا ، غليوم الفاتح ، الذي يمكن اعتباره أقوى تابعيه الكبار ، أصبح في العام ١٠٦٦ ملك انكلترا ، ولم يكتف بإنشاء قوة أرضية لا حد لها بالنسبة لقوة الكابسين ، بل بدا للملك نداءً ومساوياً في التسلسل . ولذا فإن قضية علاقات الملكية الكابسية بالاقطاعية اتمحت ، نوعاً ما ، أمام تنافس الملوك . وسيسلك كبار للتابعين أحد سبيلين : أما التجمع حول الملوك ، وأما الوقوف مراقبين خلفاً من أكبر خلافات العصر الوسيط في الغرب الأوربي . وكما تطور تاريخ جرمانيا الداخلي حول نزاع الكهنوت والامبراطورية في اليوم الذي تحررت فيه الكنيسة ، كذلك اختلفت جميع ظاهرات الحكم وسياسة الكابسين ، ابتداءً من ١٠٦٦ ، بمنافستهم مع السلالة النورماندية التي نشأت عن فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح .

انكلترا في عهد ادوارد المعرف

النظام الأميري في انكلترا . - لقد وجد النظام الأميري في انكلترا ، وأصوله فيها قديمة جداً ، وحقق تقدماً كبيراً في القرن العاشر أثناء النضال ضد الدانماركيين . ففي عهد آثيلستان (٩٢٥ - ٩٣٩) كان كل رجل حر مجبراً على أن يكون له أمير أو (ثان) . ويوجد أمراء بقدر ما يوجد قرى . وهذا الأمير ، في الغالب ، ملاك أراض

- ٦٤٦ -

ويملك على الأقل خمس هايدات من الارض ، وملزم في الوقت نفسه بالتزامات عسكرية . ويمكن أن يتبع الملك مباشرة أو أن يكون ملحقاً بأمير (ثان) آخر . وسلطاته ، مثل سلطات التابعين في القارة ، متغيرة : فأحياناً يكون له حق القضاء في أراضيه ، وأحياناً يكون مجرداً من هذا الحق .

وفي الوقت نفسه يرى نشوء اقطاعية كبرى وراثية أخذت بعد الدور الدانياركي تحتكر السلطة . ولمقاومة الغزاة بقوة جمع ادوارد الشيخ (٨٧٩ - ٩٢٥) وآثيلستان (٩٢٥ - ٩٣٩) عدة كونتيات تحت امرة رئيس واحد (الدورمان) وكانت سلطته القضائية في الاصل قاصرة على الكونتية ، ثم امتدت على اراضي تضم كثيراً من الكونتيات المشابهة للوحدات الاقليمية الفرنسية الكبرى : فقد كانت وسكس في عهد اثلرد (٩٧٨ - ١٠١٦) مقسمة بين حاكمين (الدورمان) وفي مرسيا ، يدير الالدورمان معظم المملكة القديمة تقريباً . وقد أخذ هؤلاء الحكام ، بسبب وظائفهم ، أهمية كبرى ، وسيجدونها بعد الدور الدانياركي . وقد حافظ كنوت عليهم ، ولكنه خفض عددهم إلى أربعة ، وحكم كل واحد منهم مملكة من الممالك القديمة ، وقبض عليهم بيده لثلاث معتدوا بشيء على السلطة الملكية . وعندما زال الفوا بسرعة ارستقراطية وراثية أخذت تعادل قوتها قوة الملك .

السلطة الملكية . - بقي الملك ، نظرياً على الأقل ، سيداً على انكلترا ، وكان كذلك فعلاً في ظل النظام الدانياركي ، وتمتع بامتيازات هامة : فهو رئيس الجيش والقاضي الاعلى ؛ وله دومين واسع ، وعدا عن الايرادات التي تأتي منه ، كان يأخذ أيضاً موارد هامة من الغرامات ورسوم المرور ورسوم السوق والضرائب غير المباشرة الاخرى ، ولكنه

لا يستطيع أن يشرع ، أو يقضي ، أو يعلن الحرب ، أو يجبي. الاتاوات دون تدخل مجلس العقلاء أي الاساقفة والالدورمن وموظفي البيت الملكي . وهكذا كانت سلطة الملك محدودة جداً ، ومحدودة أكثر من ذلك أيضاً في الادارة المحلية لان هذه الادارة في معظمها تخرج من يد الملك .

والادارة المحلية شيء كثير التعقيد . والدائرة هي الكونتية (شابر) التي يحكمها في آن واحد الاسقف ، الدورمان ، وهو مشترك لعدة كونتيات ، وهو فيها الزعيم العسكري ؛ والشريف (سيرمان) ويسميه الملك ويكلف بجباية الضرائب والقضاء وتطبيق القانون . وهذه الازدواجية في الادارة لا يمكن إلا أن تضر بسلطة الملك . وفي الواقع كان الشريف يقبض على محكمة الكونتية ويرأس جلساتها . ولكنه لا يملك حرية حركاته : فمن جهة يساعده الملاكون العقاريون ومندوبو القرية الذين يؤلفون محكمة الكونتية ويقومون لديه بدور « مجلس العقلاء » لدى الملك ؛ ومن جهة أخرى ، يصطدم دوماً بالدورمان الذي كان في القديم ينتخب انتخاباً ثم أصبح وراثياً وأصبح زعيماً قومياً ، نائباً حقيقياً للملك وتفق سلطته بالضرورة سلطة الملك . وعلى أثر الاضطرابات التي تلت موت كنوت الكبير نجد ارسقراطية الدورمان ، وكل منهم يسيطر على عدة كونتيات ، احتجزت السلطة لصالحها ، وتوصلت بعد الرجعة الانغلية - الساكسونية لان تقوم في عهد ادوارد المعرف (١٠٤٢ - ١٠٦٦) بالدور الذي لعبه الكارولنجيون سابقاً لدى أواخر الميروفنجيين . وهذا الاعتبار ظهر ظفر النظام الاميري في انكلترا أكثر مما ظهر في ممالك اوربة الغربية الاخرى .

ادوارد المعرف . - كان ادوارد ، الذي دعي لحكم انكلترا عام

١٠٢ ابن اثلرد ، ولقب بالمعرف . وهذا اللقب يكفي لتمييز هذا الملك الذي حياته تقواه الحارة ليكون راهباً . ويمتدح المؤرخون أيضاً سيرته الجليلة وصلاحه العظيم اللذين خولاه بعض الجاه ان لم يكن كثيراً من السلطة . وخطاه الكبير هو أنه عاش خمساً وعشرين عاماً في نورمانديا ولم يعرف جيداً المملكة التي دعي لادارتها . وكان مزاجه السلمي يتراجع أمام الصعوبات ، ويترك الامور تجري على عواهنها . غير أن بطاقته النورماندية المؤلفة خاصة من اكليركين ، مثل اولف و روير جوميسج ، اللذين خولها المناصب العليا في الكنيسة الانكليزية ، كانت أحياناً تقوم برد فعل ضد الارستقراطية التي استحوذت على السلطة خلال هذا الحكم .

غودون . - وبين اللورمان ، الذين يسيطرون آنذاك على انكلترا ، وجد من يتجاوز الجميع بثروته وطموحه : وهو حاكم وسكس غودون . فقد تصور قبل غيره وفي وقت مبكر مشروعاً ينقل بموجبه التاج إلى أسرته أو يخلف بشخصه ادوارد المعرف ، وللوصول الى ذلك حاول قبل كل شيء أن يكون سيد انكلترا المطلق . واستطاع أن يزوج ادوارد المعرف ابنته الخاصة اديث . وظل هذا الزواج عقيماً وزادت اطاح غودون الشخصية ، وتابع عمه ، وفي العام ١٠٤٣ وضع ابنه البكر سفيند في وادي السفن ، وفي ١٠٤٥ أصبح ابنه الثاني هارولد الدورمان في انغليا - الشرقية ، وبذلك أمن لنفسه للتصرف بملكيتين من الممالك الانغلية - الساكسونية القديمة .

ومع هذا ، أوشكت بعض العرائش أن تقوم في وجه هذه المشاريع ، وقد آتت بخاصة من النورمانديين الذين يحيطون بادوارد المعرف ويظهرون معادين لها بصراحة . ولذا يمكن تصور وقوع نزاع وضرورة البحث عن حلفاء . ولهذا السبب زوج غودون اقنى أولاده ، توستينغ ، إلى أميرة

فلاماندية ووضع في مرسيا حاكماً ، ابن أخيه ، بيورن ، أخا سفيند. إسترشون . وهكذا سيطرت عائلته على القسم الاعظم من انكلترا وأصبح بامكانه في حالة حرب أهلية ، أن يؤمل بمساعدة النورماندين وحتى الدانماركيين .

أزمة ١٠٥١ - ١٠٥٣ . - ولم تؤد هذه الخطوة الموضوعية إلى شيء . فقد افسد أبناء غودون عمل أبيهم بفضائحهم : فمن ذلك أن البكر سفيند خطف في ١٠٤٦ رئيسة دير ليومستر ونفي بسبب ذلك إلى الدانمارك ثم استطاع العودة إلى انكلترا ليقتل بيورن . وتحولت الانظار عن غودون ، وتبدلت نظرة البلاط اليه حيث أصبح روبير جوميسج في العام ١٠٥١ مطران كانتوربري وأراد التخلص منه. وفي ٢١ كانون الاول ١٠٥١ وبجحة انه دعم سكان دوفر في ثورتهم ضد ابن حمي الملك ، اوستاش بولوفي ، وضع خارج القانون ونفي ، وانسحب في الفلاندر وشكل فيها جيشاً ونزل به مصب نهر التاميز ، بينما هاجم أولاده انكلترا من الغرب . وكان ادوارد المعرف يخشى الحرب فقبل بالتفاوض وأفضل من ذلك استسلم أمام مطالب غودون . واستطاع هذا أن يستعيد ماخسره . أما سفيند فقد مات وهو يطأ تراب انكلترا . واضطر روبير جوميسج واولف إلى مغادرة انكلترا . وسلم كرسي كانتوربري إلى ستيغاند الذي أعطى جميع الضمانات إلى غودون . وكان النصر مبنياً: فقد انمحت الملكية وخزيت أمام زعيم الارستقراطية ، وبدا أن المستقبل يبسم له .

ولم يكن هذا الظفر طويل الامد . ففي ١٥ نيسان ١٠٥٣ سقط غودون مريضاً اثر نزيف دماغي قبل أن يصل إلى نهاية حله العظيم .
حكم هارولد . - ورث هارولد سلطته . وكان مودوداً ولم تعوز

حكومته القوة ولا المهارة . قام بعدة حملات إلى ايكوسيا وبلاد الغال وفتح قسماً منها . ولم يمل أمر عائلته وتقديم العون لها . ففي ١٠٥٥ مات حاكم نورثامبريا ، سيورد ، فعين خلفاً له ، أخاه توستينغ الذي حل محل الورثة الطبيعيين . وكذلك في العام ١٠٥٧ عين خلفاً إلى ليوفريك في مرسيا ، أحد اخوته ، غايث ، وأنشأ كونتية أخرى إلى ثالث ، ليوفواين . وأمسك على هذا النحو بكل انكلترا تحت سلطته وبدأ أنه مهيأ لقبول التاج في اليوم الذي يزول فيه ادوارد المعرف . ومع هذا فان الحزب النورماندي قاوم هذا الزعم . وعندما أزال الموت الملك ادوارد بن ادموند ، آخر سليل لاسرة الفرد الكبير ، وضعت قضية الخلافة بكل وضوح : كان من الممكن أن يفضل على هارولد مرشح واحد وهو دوق نورمانديا ، غليوم النقي ، وكان طموحه مساوياً لطموحه . وبدأ أن الحرب لاحالة واقعة عند وفاة ادوارد في ١٠٦٦ . وغيرت هذه الحرب مقدرات انكلترا الاقطاعية وكان لها صداها على مستقبل المملكة الفرنسية .

ظفر التبعية في منتصف القرن الحادي عشر . - وبدافع من الحادئين العظمين الذين حدثا في منتصف القرن الحادي عشر ، تحرير الكنيسة الرومانية (١٠٥٩ - ١٠٧٦) وفتح انكلترا على يد غليوم النقي (١٠٦٦) ، سيتغير التطور السيامي لمملكتي الغرب ، وسيكون النزاع بين الملوك والتابعين ملحقاتاً بالقضايا الكبرى التي ستنشأ عن هذين الحادئين ونتائجها العديدة . وفي منتصف القرن الحادي عشر ظفر التابعون في كل مكان : ففي المانيا ، ظهر تراجع الملكية ؛ وفي فرنسا ، لم يستطع الكابسيون الحفاظ على بعض النتائج التي حصلوا عليها في عهد روبرت النقي ؛ وفي انكلترا ، لم يكن على ادوارد المعرف ما يدل على أنه ملك . وبعد قرن تتغير الحال تماماً ويسجل الحكم الملكي المطلق أكثر من نصر على النظام الاقطاعي .

الفصل الثامن والعشرون

تحرير الكنيسة الرومانية

مهرية ابنين التاسع

١٠٥٧ - ١٠٥٨

انتخاب الحبر الأعظم في ٢ آب ١٠٥٧ . - توفي الامبراطور هنري الثالث في ٥ تشرين الأول ١٠٥٦ ، ومات بعده بقليل البابا فيكتور الثاني الذي عينه الامبراطور في العام ١٠٥٥ ، حسب التعامل الجاري ، ليكون خلفاً للبابا ليون التاسع . وبعد أن عرف البابا فيكتور الثاني بهنري الرابع ملكاً على جرمانيا والامبراطورة آنيس وصية عاد إلى إيطاليا في بدء العام ١٠٥٧ وتوفي في آريزو في السنة نفسها في ٢٨ تموز .

وما كاد الحبر ينتشر في روما إلا واجتمع الكليركيون وانتخبوا بموافقة الشعب الروماني أب مونكاسينو فريديريك اللورين بابا باسم ايتين التاسع وبورك مباشرة في (٢ آب ١٠٥٧) . وبعد هذا أرسل الكليروس رئيس الشماسين هيلدبراند إلى جرمانيا ليعلم الامبراطورة الوصية آنيس ، أرملة هنري الثالث ، التي تحكم باسم ابنها هنري الرابع ، بنتيجة الانتخاب . ولم يكن في وسع آنيس إلا أن اعترفت بالبابا الجديد .

إن اعتلاء ايتين التاسع كرسي البابوية كان انقلاباً حقيقياً أو ، على الأصح ، رد فعل شديداً ضد القيصرية البابوية التي فرضت نفسها في زمن هنري الثالث على الكنيسة الرومانية . وهذه المحاولة تدل ولا شك على

عزم الكنيسة على التخلص من الرقعة الجرمانية . وانتخاب أب مونكاسينو يدل على هذه النزعة الجديدة .

ايتين التاسع . - كان ايتين التاسع أخاً إلى غودفروا الألفى دوق اللورين . وقد تزوج هذا بياتريكس أرملة بونيفاس مونفرا ، ماركيز طوسكانا ، وأصبح له نفوذ كبير في ايطاليا الوسطى وعمل فيها على مكافحة التفوق الالماني بشدة . وكان ايتين التاسع يمثل في الكنيسة النزعة اللورينية المعاكسة لأي تدخل للسلطة الزمنية في الشؤون الكنسية . ولبت حتى عام ١٠٤٩ رئيساً للشمامسين في ليسج ، أي كان احدي الشخصيات البارزة في اسقفية وازون ، حيث خرجت المقاومات الاولى ضد السلطة الامبراطورية في الأمور الكنسية . أرسله البابا ليون التاسع في عدة بعثات هامة وخاصة في المفاوضات التي كان يراد منها قطع دابر الحصار في الكنيسة والقضاء على الشقاق الشرقي . وكان الامبراطور هنري الثالث ينظر اليه نظراً سيئاً ، وإذا أخذنا بقول ليون اوستي ، كما ذكر في كتابه « تاريخ دير مونكاسينو » ، نرى أن الامبراطور اوعز إلى فيكتور الثاني للقبض عليه . وليدفع عن نفسه غائلة الخطر ، اعتكف في دير مونكاسينو وأصبح أباً له . وعندما تصالح الامبراطور مع أخيه غودفروا خف الضغط عليه قليلاً ونال من يدي فيكتور الثاني لقب كاردينال . غير أن هذا لم يغير وجهة نظره ولم يتردد في ٢ آب ١٠٥٧ في قبول التاج البابوي الذي قدمه له الرومانيون دون موافقة البلاط الالماني .

ولقد كان من المنتظر أن يأتي ايتين التاسع بمخطط لبرنامج جديد ، غير أن حبريته لم تدم أكثر من ثمانية أشهر ولم يسمح له قصر هذه المدة بالاشراف على مقدرات الكنيسة وممارسة النفوذ المرتقب من قوته

الاستقلالية . وكل ما حفظ عنه يدل دلالة أكيدة على عزمه على الحد من تدخل العلمانيين في الكنيسة . على أن الحادث الهام لحبريته يبقى قائماً في المطول « خصوم السيمونية » الذي بين فيه الكاردينال مهبوت ، صديق ايتين التاسع ، برنامج المصلحين اللورينيين ورثة تقاليد وازون ليسج وخصوم القيصرية البابوية الامبراطورية .

الكاردينال مهبوت . - دخل مهبوت أبوية موينموتيه في اسقفية تول . وقد أعجب به الأسقف برونون ، ولما أصبح بابا باسم ليون التاسع دعاه إلى روما . وفي الجمع الذي عقد في عيد الفصح في ١٠٤٩ منحه لقب كاردينال وعينه أسقف سيلفا - كانديدا ، فلبى دعوة الحبر وسام في حكم الكنيسة الرومانية . وأرسله البابا ، نظراً لمعرفته الاغريقية ، إلى القسطنطينية مع فريديريك لورين ليحولا دون القطيعة الدينية بين الغرب والشرق . ولم يكن له دور في عهد البابا فيكتور الثاني . غير أنه في عهد البابا ايتين التاسع كان من أبرز الشخصيات في الكنيسة الرومانية ، وقد نشر في آخر ١٠٥٧ وبداية ١٠٥٨ مطوله « خصوم السيمونية » وعرض فيه جميع الأفكار الجديدة المتعلقة بحكم الكنيسة .

ولا مجال هنا للبحث عن التحليل العميق الذي يجريه الكاردينال في مختلف أشكال « الهرطقة » ، فتصويره للأسقف السيموني نهكم لاذع ، ولوحته عن دمار الكنائس التي ينهبها الرعاة السيؤون تهيج الشعور . غير أن المهم في القسم الأصيل من أثره هو العلاجات الخاصة التي يدل عليها لشفاء الكنيسة .

ان بعض هذه العلاجات قانوني : لأن الكاردينال مهبوت يعد السيمونية هرطقة ، ويعتبر مباركة الاسقف الذي اشترى كرسية لافية ، وينكر قيمة الترفيع في الرتب الكنسية على يده . لأن « الفضل »

- ٦٥٤ -

إذ لم يؤخذ مجاناً لا يمكن أن يسمى فضلاً . وإذا كان القديس بطرس داميان يكتفي بأن يفرض على المخطئين التوبة والتغلي عن وظائفهم ، فان الكاردينال همبرت ، على العكس ، يرى إلغاء جميع الاعمال السيمنية وتحريم الكنيسة ممن دخلوا اليها على يدهم . وهذا الرأي يمكن الاعتراض عليه من الوجهة القانونية ، وهو خطر من الوجهة العملية لأنه يخشى من أن يضعف عدد الكليركيين بصورة شاذة .

وينكر الكاردينال همبرت اغتصاب السلطات العلمانية للامتيازات الكنسية ويشجب تدخلهم في الانتخابات الاسقفية ، لأن قواعد النظام الكنسي كانت تقتضي بان ينتخب الاسقف من قبل الكليروس والشعب مع موافقة المطران ورضى الأمير . أما في الوقت الحاضر فان الأمراء يعينون الاسقف بأنفسهم .

برنامج الإصلاح . — ولذا فان برنامج الإصلاح يرمي إلى تحرير الاسقفية من كل نفوذ علماني والعودة إلى قواعد الانتخاب القديمة من قبل الكليروس والشعب . وهذا البرنامج يمكن أن يعتبر مبرراً قانونياً للانتخاب الذي جرى في ٢ آب ١٠٥٧ وكان منه اعتلاء ايتين التاسع كرسي البابوية . ويقترح الكاردينال أن يعمم هذا الأصول الذي اتبع في هذه الظروف على جميع الاسقفيات . كما يحاول أيضاً أن يلحق السلطة الزمنية بالسلطة الروحية ويقول في هذا الصدد: « ان من يريد بحق ومنفعة مقارنة المنصب الكهنوتي بالمنصب الملكي يستطيع أن يقول ان الكهنوت في الكنيسة شبيه بالروح ، والمملكة بالجسد ، وهما يتعابان وكل منهما بحاجة للآخر ، وكل منهما يستمد العون من الآخر . ولكن لما كانت الروح تسيطر على الجسد وتسيره فكذلك المنصب الكهنوتي ، انه أرفع شأنًا من المنصب الملكي ، كالسما بالنسبة للأرض . وليجري كل شيء بانتظام

يجب على الكهنوت ، كالروح ، أن يعين ما يجب عمله ؛ وعلى المملكة ، التي هي الرأس ، أن تدير جميع الأعضاء وتقسّمها حيث يلزم .

وهذا البرنامج الاصلاحى ليس إلا طباقاً للتقاليد القيصريّة البابويّة التي لبثت حتى وفاة هنري الثالث تدير سياسة الاباطرة الكنسية . وهو أيضاً برنامج البابا ايتين التاسع ولم يستطع تطبيقه لمعالجة المنية له .

غير أن خلفه نيقولا الثاني (١٠٥٩ - ١٠٦١) تبناه وحققه بصورة جزئية وذلك بتحرير الكرسي الأقدس من نير السلطات الزمنية .

مهرية نيقولا الثاني (١٠٥٩ - ١٠٦١)

لم يكد البابا ايتين التاسع يلفظ آخر أنفاسه إلا واجتمعت الطبقة النبيلة الرومانية وانتخب جان مينشيوس أسقف فيلثري باسم بندكت العاشر ، وبدأ أن الحالة رجعت إلى ما كانت عليه عندما كانت اسرة تيوفيلاكنت تتصرف بالتاج البابوي .

ورغم هذه الظواهر فان الوضع لم يتبدل لأن حزب الاصلاح لم يكن على استعداد للتساهل مع هذا التدخل الخطر ، بل انتخب جيرارد أسقف فلورنسا بابا باسم نيقولا الثاني .

لذا وجب التخلص من البابا الدخيل في روما . إلا أن هذا لم يبد مقاومة شديدة بعد أن ساء الدور الذي لعبه ناخبوه ، ودخل نيقولا الثاني روما ، بعد قتال في الشوارع ، وأعتلى عرش القديس بطرس .

المراسيم الحبرية . - وفي ١٣ نيسان ١٠٥٩ عقد مجمعاً في قصر لاتران حضره ثمانون أسقفاً ، جلهم ايطاليون ، وأذاع أمام هذا المجلس مرسوماً يتعلق بالانتخاب الحبري . ويتلخص هذا المرسوم في أنه « إذا شغرت السدة الرسولية فعلى الكرادلة - الاساقفة أن ينظموا كل شيء بعناية

كبرى ، ثم يدعون الكرادلة - الكليركين ، وأخيراً ، يوافق باقي الكليروس والشعب على هذا الانتخاب الجديد . وللحيلولة دون سم المنفعة وتدخله منتعلاً هذا العذر أو ذاك يجب على رجال الدين أن يقوموا بالانتخاب وعلى الآخرين أن يتبعوهم . أما حقوق الامبراطور ، ملك جرمانيا ، فقد صيغت بعبارات مبهمه : « مع سلامة الشرف والاحلال الواجبين لابننا العزيز جداً هنري ، الملك عاليماً ، والذي نأمل أن يكون امبراطوراً إن شاء الله » .

ولإذا تبين أن الانتخاب غير ممكن في روما فعلى الكرادلة - الأساقفة أن ينتقلوا إلى غيرها مع الكليركين والعلمانيين « ولو كانوا قلائل » ؛ وإذا لم يستطع المنتخب ان يعتلي عرش البابوية بسبب الحرب أو نزاع الأحزاب فله الحق في حكم الكنيسة الرومانية والتصرف بوارداتها .

وهذا التحليل البسيط لمرسوم ١٣ نيسان ١٠٥٩ يبين لنا بوضوح خصائص التشريع الحديث لأن نيقولا الثاني يرجع انتخاب الحبر الأعظم إلى الكليروس كما كان عليه قبل دستور روما ٨٢٤ ؛ ويحدث في الكليروس فئة بمنازة من الناحيين وتتألف من الكرادلة - الأساقفة أو من الأساقفة الذين تتألف منهم أبرشية روما . أما العلمانيون فقد أخرجوا من الانتخاب ، سواء الطبقة النبيلة المحلية في روما أو ملك جرمانيا أو حامي الرومانيين . وعلى هذا فاستقلال الكراسي الأقدس حيال السلطات العصرية قد قطع مرحلة هامة نحو التحرير .

ولاشك في أن هذا المرسوم لم يرض من كانوا يتمتعون بامتيازاتهم التقليدية . فقد ظلت الارستقراطية الرومانية تدعم بندكت العاشر . غير أن الكراسي الأقدس لم يخش هذا الخطر وبحسب له حساباً ، فلديه من الأخلاف الأقوياء ما يجعله في أمان . ولم تكن المانيا بالتي يخشى خطورها أيضاً .

وإذا استطاعت الوصية أن توطد السلام الداخلي في المملكة فقد وجدت أن من الفطنة في مثل هذه الظروف أن تلزم جانب السكينة لاسيما وأنها لا تستطيع أن تعتمد في إيطاليا على أي مساعدة فعلية . ولكن يجب ألا ننسى أن هذا التدبير الذي اتخذته البابا كان من شأنه الضرر بمصالح التاج ، ولذا لم يكن بالإمكان أن يترك شأنه دون أن يلقى ، على الأقل ، حركة استياء .

وفي الحقيقة ، ان البابا نيقولا الثاني بعث الكاردينال ايتين إلى الوصية ليعلمها بالمقررات التي اتخذت في قصر لاتران . غير أن البلاط الملكي رفض استقبال الرسول البابوي . وظل هذا خمسة أيام يرجو مقابلة الوصية فلم يظفر ، وعاد أدراجة دون أن يؤدي رسالته . وبعد بضعة أشهر اجتمع الأساقفة الألمان في مجمع خاص وحكموا على أعمال البابا بالبطان وشجبوا جميع مقرراته .

ولكن نيقولا الثاني لم يعبأ بهذا التدبير ، وعقد في نيسان ١٠٦٠ مجمعاً ثانياً في قصر لاتران وأذاع من جديد المرسوم المتعلق بانتخاب الحبر الأعظم واحتفظ بأحكامه الأساسية : وهي أن يسوى الانتخاب بمعرفة الكرادلة — الاساقفة ويوافق على ذلك من هم دونهم في الرتبة الكنسية ، على أن يكون بإمكان الكرادلة إجراء الانتخاب في خارج روما .

ومن مقارنة المرسومين الآتفي الذكر : ١٠٥٩ و ١٠٦٠ نرى أن مرسوم ١٠٥٩ ينص على رضى الكليروس والشعب ، في حين أن مرسوم ١٠٦٠ يبقى صامتا عن العنصر العلماني ، حتى ان الجملة « الشرف والاحلال الواجبين لابنتا العزيز جداً هنري » حذفت . وهكذا كان جواب البابا على مكاييد الارستقراطية الرومانية وموقف البلاط الجرمني .

العصر الوسيط - ٤٢

الاتجاه الجديد في السياسة الحبرية . - واذ سمح البابا نيقولا الثاني لنفسه باتخاذ هذا الموقف الحازم تجاه خصميه فذلك لأن وضعه في ايطاليا كان قوياً . فمازال غودفروا اللورين حليفه . وفي العام الفأث (١٠٥٩) تصالح والأمراء النورمانديين في ايطاليا الجنوبية . ففي شهر تموز من هذه السنة ذهب إلى بوي وعقد مجمعاً في آمالفي في ٢٣ آب وتقبل بين الولاء من روبري غيسكار .

كانت المفاوضات الأولى من جانب روبري . وقد رأى هذا من صالحه أن يتفق مع الكرسي الأقدس ، وذلك لأن الدولة التي أسسها في جنوب ايطاليا كانت سلسلة من الاغتصابات والاعتداءات على حقوق الغير وليس لها أي وجود شرعي ، فضلاً عن أنه كانت منافساً لبيزنطة ، ولم يكن بإمكانه أن يكون تابعاً للأمبراطور الجرمانى لأن هذا كان يطمع منذ قرن بوضع يده على الأراضي التي استولى عليها الأمير النورماندي . ورأى روبري أن البابوية قد تخلصت من الوصاية الالمانية فوجد من صالحه أن يتعد معها ويعترف بسيادتها ويشغل مكانه في الاطار الاقطاعي .

وفي اجتماع آمالفي صرح بأنه تابع للبابا وقبل منه لقب دوق مع امتلاك بوي وكالابر وبعض أراضي في لاتيوم ، كما وعد أن يكون حليف الكرسي الأقدس ، وتعهد ، إذا توفي البابا قبله ، « بأن يساعد خير الكرادلة واكليروس روما وعلمانيها على انتخاب البابا وعلى ارتقاء هذا البابا منصبه بشرف القديس بطرس » . هذا ومن المحتمل أيضاً أن يكون ريشار كابو قد سار على مثال جاره روبري واعترف بالسيادة الحبرية .

وأراد نيقولا الثاني ان يتم هذا الاتجاه الجديد في سياسة الكرسي الأقدس بتقارب مع فرنسا ، فأرسل مندوبين حبريين لحضور حفلة المباركة التي جرت في ٢٣ أيار ١٠٥٩ على شرف فيليب الاول الذي سيخلف

والده هنري الأول على مملكة فرنسا . وتفاوض البابا مع الملكية الكابسية بواسطة مطران رنس جرفيه وأذت المناوضات إلى تفاهم بين الجانبين . وستقوى أواصر هذا التفاهم في عهد الجبرية التالية . وفي الحقيقة ، ان هذه السياسة لم تكن إلا نتيجة لبرودة العلاقات مع الملكية الجرمانية .

التدابير الإصلاحية . - وبعد أن تحرر نيقولا الثاني من الوصاية الامبراطورية أصبح مطلق اليدين في متابعة الإصلاح الذي بدأ به ليون التاسع ، وكان تأثيره في هذا الحقل حاسماً أيضاً ، لأن مراسيمه المتعلقة بالانتخابات الجبرية كانت ترافقها قوانين تستهدف النيقولاوية والسيمونية . حرم نيقولا الثاني بمقتضى تقاليد الكنيسة « على كل كاهن ، أو شماس ومن تحته ، يتخذ خليفة ، أو لا يتغلى عن خليلته ، أن يرثل القداس أو يحضر الاحتفال الديني . كما حرم على المؤمنين أن يستمعوا إلى القداس من كاهن عنده خليفة » . ولم يكتف بالضرب على أيدي الجرمن بل أراد أن يمنع الشر قبل وقوعه ، ففرض على الاكليروس حياة مشتركة ليستطيع بعضهم مراقبة بعض .

وكذا السيمونية أيضاً كانت موضع عناية الجبر الأعظم . ففي مجمع ١٠٥٩ جدد بحقها جميع الأحكام السابقة . وفي مجمع ١٠٦٠ وطد العزم على الا يتخذ أي محابة أو مداراة حيال السيمونيين ، ويجرمهم من مناصبهم ، ويلغي في المستقبل حق تخويلهم الترفيع الكنسي ؛ وإذا صادق على أعمالهم في الماضي فذلك « بداعي الرحمة أكثر منه بعاطفة العدالة » ، كما قرر أيضاً بأنه لا يحق لأي اكليريكي بحال من الأحوال « أن يتناول كنيسة من يدي علماني مجاناً أو بال » .

أثارت هذه التدابير مقاومة الاكليروس الفاسد . وقد حفظ صدى الاحتجاج على هذه التدابير في رسالة قدسية ألفها في اولريك ايمولا ، عام

- ٦٦٠ -

١٠٦٠ ، وفيها يعارض نظرية الجبر الأعظم في العزب الكنسي بنظريته في الزواج الكهنوتي . وفيها يشكو حالة التفسخ التي وصلت إليها الأخلاق الكليركية ، ويرى أن خير وقاية لذلك هو السماح للكهنة بعقد زواج شرعي « والا يجبر أحد على ملازمة العفة ويكره عليها أكرهاً » . وقد لاقت هذه النظرية السهلة تقييداً ، كما هو منتظر ، ونجحت نجاحاً كبيراً في إيطاليا والمانييا وفرنسا وظهرت تفسيرات موسعة لرسالة أولريك .

ومما تكن هذه المعارضة شديدة فلم تكن عزم الكرسي الأقدس عن القيام بالإصلاح . وقد ظهرت إرادته جلية في مدينة (ميلانو) حيث أرسل بطرس داميان ، كاردينال اسقف اوستي ، وأنسلم بادجيو ، اسقف لوقة ، وكلاهما حواراي متحمس للعفة الكليركية ، وبعد مجادلات عنيفة استطاعا ان يأخذا على المطران غي عهداً بالآلا يأخذ في المستقبل أي اقاوة على منح المناصب الكنسية والانتساهر في قضية الزواج الكليركي . إلا أنه لم يكن صادقاً في وعده ، ورغم أنه أقسم اليمين ظل يغمض عينيه على المساويء التي تقتك بالكنيسة . ولذا فان قضية ميلانو سوف توضع من جديد في عهد خلفاء نيقولا الثاني .

وتابعت حركة الإصلاح سيرها في فونسا أيضاً . فبعد أن رجع الكاردينال ايتين من المانيا عقد ، في ١٧ شباط ١٠٦٠ ، في مدينة تور ، مجمعاً واذاع باسم البابا التشريع الجديد المتعلق بالسيمونية والنيقولاوية وبقيت جومانيا وحدها مغلقة أبوابها في وجه النفوذ الروماني .

وفاة نيقولا الثاني . - وتوفي نيقولا الثاني في ٢٧ تموز ١٠٦١ . وكانت خبرته قصيرة ولكنها مليئة وخصة بجلال الأعمال . وتعتبر من هذه الناحية مقدمة لجبرية غريغوار السابع . وقد خلف نيقولا الثاني

بابا حسن النيات ، إلا أنه لم تكن له تلك القوة التي امتاز بها سلفه ، ولذا لم يستطع الدفاع ضد حملات القيصريّة البابوية الامبراطورية ليزيد في رسوخ الأوضاع التي ظفرت بها الكنيسة من ١٠٥٧ إلى ١٠٦١ .

مهرية الكسندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣) ور الفعل الامبراطوري

توفي البابا نيقولا الثاني وبقي الكرسي الحبري شاغراً أكثر من شهرين : فقد قامت في أثناء ذلك اضطرابات شديدة في روما بتدبير من الطبقة النبيلة الرومانية التي رأت نفسها اقصىت عن الانتخابات وحاولت أن تمنع تطبيق مرسوم ١٠٥٩ . غير أن أنصار الإصلاح لم يقفوا مكتوفي الايدي . وذهب ديديه مونكاسينو إلى الأمير ريشار آفيسا ونحت حماية الجنود النورماندية اجتمع الكرادلة - الاساقفة وقاموا بتنفيذ الامتياز الذي خوّلهم إياه التشريع الجديد وألبسوا تاج البابوية الى آنسلم لوقه . وأصبح هذا بابا باسم الكسندر الثاني (١ تشرين الأول ١٠٦١) .

ولاشك في أن انتخاب هذا البابا كانت موفّقاً من عدة نواح ، لأن آنسلم هذا كان خصماً للمساويء التي تشين بالكنيسة . وقد كافح بعزم وحرارة الاكليركيين النيقولاويين في لومبارديا . وليس هنالك مايؤخذ عليه سوى أنه لم يكن له ذكاه سلفه . فمنذ أن أعتلى عرش البابوية وجد في وضع حرج ، وذلك لأن الكونت جيرارد غاليريا أرسل وفداً إلى جرمانيا ليوجر باسم الرومانيين تعيين كادالوس أسقف بارما بابا في روما . فلم يتردد البلاط الجرمانى ونادى بكادالوس بابا في مجمع عقد لهذا الغرض في مدينة بال . وإذا حللنا حقيقة الوضع رأينا أن البلاط الجرمانى لم يكن ليشعر تجاه هذا البابا المزعوم بأي عطف خاص ، ولكن الغاية من هذا

الانتخاب هي عدم الاعتراف بانتخب الكرادلة وتهديم عمل نيولا الثاني التحريري وإرجاع الامتياز الذي يتمتع به الامبراطور .

وأثر موقف الامبراطورة آنيس استياء رجال الكنيسة لانفاقها مع النبلاء الرومانيين ، أعداء الامبراطورية التقليدية كما هم أعداء الكهنوت ، وموافقتها على تعيين كادلوس ، لاسيما وأنه يجر وراءه ماضياً ثقيلاً لا يشرفه كثيراً ولا يجعله قريباً إلى عطف المصلحين الذين أخذوا يناوؤونه مناوأة شديدة .

كان رجال الكنيسة يؤملون بمساعدة غودفروا اللورين وزوجته بياتريكس . فما كاد كادلوس يبارك بابا باسم هونوريوس الثاني إلا وحاولوا أن يسدوا طريق روما في وجهه ، ولكنه ضرب جنود الخبرة واستطاع أن ينفذ إلى كنيسة القديس بطرس . وعاكست الظروف الكسندر الثاني واضطر إلى الالتجاء في أحد الأديرة .

أما غودفروا اللورين فقد لبث حكماً على الوضع يراقب سير الحوادث عن كثب . وكان يرغب بالكسندر الثاني ولكنه كان يتمنى أن يتصالح مع البلاط الألماني لينظم كفاحه ضد نورماندي ايطاليا الجنوبية لأن تقدمهم نحو الشمال بدأ يقلقه ويقض مضجعه . ويبدو أن الظروف كانت مواتية لتحقيق مثل هذه الامنية : فقد قامت ثورة في القصر الألماني جردت الملك الشاب هنري الرابع من وصاية أمه وأوصلت آنون مطران كولونيا إلى السلطة في نيسان (١٠٦٢) . وفي أيار ١٠٦٢ وقف غودفروا أمام روما وأمر الطرفين المتخاصمين بالانسحاب كل في ابرشيته حتى يتخذ ملك جرمانيا قراراً حاسماً في هذا الشأن .

ويمكننا بعد أن رأينا تسلسل الحوادث ، أن نقول : لو كان البابا نيولا الثاني حياً لما قبل بهذا الأصول المشين الذي يعود فيضع ، بين

ييدي السلطة العلمانية ، أمر الفصل في قضايا القوانين الكنسية . ولكن الكسندر الثاني لم يدرك ، ولا شك ، انه إذ أطاع غودفروا فقد عرض تحرير الكنيسة الرومانية للخطر ، وضحي بالمبادئ الأساسية التي وضعها سلفه . عاد إلى أبرشيته في لوفة وظل من آب ١٠٦٢ إلى ربيع ١٠٦٣ ينتظر القرار الملكي .

ورأى البلاط الألماني في هذا الوضع فرصة سانحة يسترجع بها ما فقده من سلطة ، ويصبح سيد الموقف ، فضلاً عن ان الحل الذي ارتآه غودفروا يهد له السيل للتخلص من منتخب النبلاء الرومانيين . لذا كله دعا آنتون إلى انعقاد مجلس في اوغسبورغ للنظر في حجج كل من المتنافسين ومعرفة أيها البابا الحقيقي .

انعقد المجلس في تشرين الأول ١٠٦٢ وبدأ أنه منصرف لانقاذ الظواهر ، حتى انه أرسل من جانبه رسولاً إلى إيطاليا ليقوم بتحقيق جديد . وبقي الكسندر الثاني ساكناً على هذا الأصول الشاذ الذي يخضع رئيس الكنيسة العامة إلى حكم الاساقفة الالمانين والامير الزمير ، وأخيراً اعترف به في اوغسبورغ ودخل روما في أوائل آذار ١٠٦٣ وظفر على منافسه ، ولكنه بقبوله حكم الملك الجرمانى ، الغى مرسوم ١٠٥٩ وضرب استقلال الكرسي الاقدس ضربة كبرى .

ولم يكف هذا الاذلال الذي لحق بالبابا ، بل ان بطرس داميان ، اثناء انعقاد جمع اغسبورغ ، حاول الدفاع عن الكسندر الثاني فبعث من فرنسا ، حيث كان مندوباً لمهمة ، إلى آنتون كتاباً يرجوه فيه أن يعقد جمعاً بأمرع وقت ممكن ويقطع دابر الخصام . وعلى ما يبدو أنه كان على غير علم بما جرى فأساء إلى الكسندر الثاني من حيث لا يريد ، وهو على ما هو عليه من حسن نية . يضاف إلى ذلك أن الكسندر الثاني لم يجرأ على

التهرب من هذا الاقتراح الذي أوحى به مندوبه وليس فيه ما يرفع من شأنه . وربما شعر الكسندر الثاني بعد عودته إلى روما بمحاولة جديدة من قبل أنصار كادالوس فدعا ذلك بطرس داميان إلى مثل هذا الطلب .

وعقد جمع في مانتو ١٠٦٤ أثناء عيد العنصرة وترأسه آنتون ودافع فيه الحبر الشرعي عن نفسه بخضوع أمام الحبر الالماني وأخذ يرد الاتهامات الكاذبة التي ألصقت به . وأخيراً حكم على كادالوس الغائب بالحرمان والطرود من الجماعة واعترف بالكسندر الثاني وعاد إلى روما . وحلت الأزمة ولكن البابوية خرجت منها صاغرة تجرر أذيال الحية . وهكذا بعد ان قضت مراسيم نيقولا الثاني على القيصرية البابوية الامبراطورية فترة من الزمن تعود هذه الأخيرة فتأخذ بثأرها وتقلق الافكار في المستقبل .

بتر العلاقات مع النورمانديين . - وكان لشقاق كادالوس نتيجة اخرى مؤسفة في حق الكرسي الأقدس ، لان الكسندر الثاني سبب قطع العلاقات بين البابوية والنورمانديين ، اثر تحالف الكهنوت والامبراطورية . وفي الحقيقة ، لقد احترم النورمانديون تعهداتهم وسهروا حسب وعد آمالفي على تطبيق مرسوم ١٠٥٩ ، وبفضل ريشار آفيسا ، كما رأينا ، اجتمع الكرادلة - الاساقفة في تشرين الاول ١٠٦١ وانتخبوا خلف نيقولا الثاني . وفي جمع مانتو طلب آنون إلى الكسندر الثاني أن يعرب عن علاقاته مع النورمانديين فانكر البابا حلفاءه الاقدمين فأصبحوا في حل من تعهداتهم تجاهه . وتوترت العلاقات بين الكرسي الاقدس وبينهم حتى ان ريشار آفيسا زحف على روما في آخر العام ١٠٦٦ .

حكومة الكسندر الثاني . - وإذا تخلى الكسندر الثاني عن الاتجاهات التي رسمها نيقولا الثاني فقد تابع باخلاص وشدة العمل الاصلاحى الذي دشّن في عهد أسلافه ، وأولى مكافحة النيقولاوية والسيمنية اهتمامه . وسبق

أن لاحظ ، مذ كان اسقفاً في لوقه ومندوباً حبرياً في ميلانو ، ضعف الوسائل التي يستعملها أنصار الإصلاح وعدم كفايتها حتى توصل إلى هذه النتيجة وهي : أنهم لا يستطيعون القيام بالحرب إذا لم يسندهم الكرسي الاقدس وبوجههم . وعندما تولى المنصب الرسولي ، حاول أن يربط بالكنيسة الرومانية جميع القوى المسيحية ، وأكد مرات عديدة بأن حكم البابا لا يمكن أن يلقى أو يحول من أحد ، وإن هذا البابا له الحق أن يتدخل في شأن ، وإن مقرراته يجب أن يقبلها الملوك والاساقفة دون نقاش . وبفضل هذا التوجيه الذي بدأت تتضح صورته منذ ليون التاسع واثنين التاسع ونيقولا الثاني عملت حبرية الكسندر الثاني ، وإن دشت بتخاذل مؤسف ، إلى حد بعيد في تحرير الكنيسة الرومانية .

مشاورو الكسندر الثاني . - وقد ساعد الكسندر الثاني في تنفيذ برنامجه الاصلاحى حواريان متمسكان بالفكرة الرومانية وهما بطرس داميان وهيلدبراند .

كان بطرس داميان منعزلاً في دير فونته - آفلانا فأخرجه ايتين التاسع وجعل منه كاردينالاً واسقفاً في أوستي . وكان هذا الراهب مأخوذاً بفكرة التوبة والزهد والتقوى ، وجعل همه أن يبين للاكليروس واجباته الكهنوتية وينير سبيله وينتثله من حمأة الرذيلة والفساد ويطهره ، وبعد هذا يأمره بالتبشير بالانجيل وتشر الحياة المسيحية الحق في الاوساط العلمانية . وهو ما زال ، في كل ظرف من الظروف ، العبد المطيع والخدام المتواضع للكنيسة الرومانية التي أسسها « الاله فاطر السماء والارض » ، وهي بفضل ذلك أعلى من كل سلطة كنسية أو علمانية .

وأكثر من بطرس داميان ، كان هيلدبراند يرى بأن الكرسي الاقدس وحده يستطيع بما لديه من سلطة كافية أن يجبر الاكليروس على الخضوع .

- ٦٦٦ -

إلى نظام الكنيسة القديم وكان منذ شرح شبابه خادماً الكنيسة الرومانية ومتعصباً لها ويرى بأنها تمثل الكهنوت الاسمي ، ورسالتها قيادة الارواح في طريق السلام . وكان محاسباً لدير القديس بولس ومندوباً في غاليا في حبرية ليون التاسع وفكتور الثاني وسفير ايتين التاسع في المانيا ، يدافع عن امتيازات السدة الرسولية ، وظهر هذا الدور بوضوح اثناء الشقاق الذي حصل في الكنيسة في عهد نيقولا الثاني ، وقد أبدى في كل مواقفه غيرة وحماً ودفاعاً مجيداً عن البابا الشرعي ، وأصبح مشاوراً لالكسندر الثاني الذي أخذ يصغي اليه ويشاركه في الرأي ولا يعمل إلا حسب توجيهاته .

إصلاح الكنيسة في عهد الكسندر الثاني . - وبتأثير هذين الرجلين وأمثالهما نهض إصلاح الكنيسة نهوضاً جديداً وخاصة في ايطاليا . ففي جنوبها عقدت عدة مجالس تحت رئاسة مندوبي الحبر الاعظم أو من قبله مباشرة وكلها سهرت على الحفاظ على التشريع الروماني رغم كسر التحالف بين الكرسي الاقدس والامراء النورمانديين . وفي فلورنسا ، اتهم الاسقف بطرس بالسيمونية فأقيل عن كرسيه رغم دعم غودفروا اللورين له . وفي ميلانو حاول الكسندر الثاني أن يضع حداً للاضطرابات التي تعكر صفو العاصمة اللومباردية إلا أنه كان فيها أقل حظاً منه في غيرها .

وفي خارج ايطاليا سعى الكسندر الثاني في نجاح الاصلاح أيضاً . وقد تدخل عدة مرات في فرنسا وخاصة اثناء الانتخابات التي جرت في سواسون (١٠٦٣) وشارتر (١٠٦٥) وكانت هذه المناسبات تظهر بوضوح إرادته في احتواء التشريع الروماني . ولا شك أن الفضل في ذلك يعود إلى جبرفيه مطران رنس والمشاور الكنسي لدى الملك الشاب فيليب الأول .

أما في المانيا فكان الأمر على العكس . ورغم أن البلاط الجرمانى

اعترف أخيراً بآلكسندر الثاني إلا أنه لم ينس حوادث عام ١٠٥٩ وبقي مصمماً على مكافحة النفوذ البابوي ليعيد سيطرة القيصرية البابوية الامبراطورية. ولكن نفوذ البابوية ما فتئ في ازدياد منذ حبرية ليون التاسع . ولذا فإن النزاع بين الكهنوت والامبراطورية أصبح أمراً محتملاً، وقد ارتسمت معالمه منذ كان الملك هنري الرابع قاصراً ، وتنهأت في هذا العهد الحرب الأهلية وانضمت إلى المنازعات الدينية .

المانيا بعد وفاة هنري الثالث . - لم يكن لوفاة الامبراطور هنري الثالث نتائج يخشى خطرها بصورة مباشرة وذلك لأن الامبراطورة آنيس استطاعت بفطنتها واعتدالها وتنازلها عن بعض الامتيازات الخطرة في المستقبل ، ان تتغلب بسرعة على الصعوبات الداخلية التي واجهتها : ففي العام ١٠٥٧ ردت هجوم السلاف على حدود نهر الايلب . وفي هونغاريا كان الملك آندره قد تقرب من المانيا وخطب حديث اخت هنري الرابع إلى ابنه سالومون، إلا أن أخاه بيلا ازاحه عن العرش واضطر سالومون إلى الالتجاء عند الامبراطورة وظل حتى عام ١٠٦٣ واعيد إلى عرش هونغاريا .

أما سياسة الامبراطورة الكنسية فلم تكن موفقة : فقد أقصت غونتيه اسقف بامبرغ بعد أن كان مستشاراً عند هنري الثالث في ايطاليا ومشاوراً لها فأثارت سخط الاسقفية عليها . وقام آنون مطران كولونيا وأكبر الشخصيات الكنسية في ألمانيا بانقلاب ازمجت فيه آنيس عن الحكم ولم تفكر بعد باسترجاع سلطتها . وأخذ المطرانان آنون وآدالبرت بوجهان شؤون المملكة إلى أن بلغ الملك هنري الرابع سن الرشد .

ليس في حياة آنون الخاصة ما يؤخذ عليه فقد كان تقياً ورعاً وزاهداً متقشفاً في بعض الاحيان ، يتقبل الافكار الإصلاحية ويسعى لتحقيقها .

وهو الذي أصلح ما بين الملكية الجرمانية والكروسي الاقدس باقصائه كادالوس والاعتراف بألكسندر الثاني بابا شرعياً . غير أن حياة التقى لم تطفئ ، عند هذا الحبر حب الغطسة والكبرياء . وهو وإن لم يطمح بالبابوية ، كما لمح بذلك اعداؤه ، إلا أنه كان يريد أن يسيطر على المانيا . ولم تكن السياسة الخارجية لهنه كثيراً فتترك إدارتها إلى آدالبوت مطران بريم وإلى أوتون نوردهايم دوق بافاريا .

أما آدالبوت بريم فلم يكن أقل طموحاً من زميله ، وحاول بشتى الوسائل أن يهدم جاهه لدى الملك هنري الرابع حتى اضطر آلتون ان يقاسمه الوصاية . ولكن هذا لم يمنع آدالبوت من التأثير خلال فترة من الزمن على الملك هنري الرابع وجعله يعمل بوجهه .

وبما لاشك فيه ان هذا الحبر قد لعب دوراً هاماً في تاريخ المانيا في آخر حكم هنري الثالث وأول حكم هنري الرابع ، وظل لغزاً لا يحل ، وكاث من ١٠٤٣ إلى ١٠٥٦ من مؤسسي الحضارة المسيحية في البلاد الاسكاندينافية . حتى إن عمله التبشيري امتد إلى عهد هنري الرابع القاصر ودل في كل هذا على غيرة الحواري وخصب الوسائل ونقاوة الايمان الخالص المنزه عن كل غرض أو منفعة ، الذي يرمي ، قبل كل شيء ، إلى إبعاد الوثنيين عن عبادة الأصنام والأوثان . ولم تقتل هذه الروح العلوية عنده عاطفة الكبرياء الفطرية التي تملكته فبلغت كنيسة . فقد شاد في هامبورغ كنيسة فخمة ودعا المصورين الايطاليين لزخرفتها حتى أصبحت آية في الابداع الفني وتفوق ، على ما يظهر ، كاتدرائيات الغرب كلها . وأراد أن يمتد بسلطته على جميع البلاد المجاورة لأبرشيته وخاصة ساكس والفرين ، كما رجا بفضل نفوذه على هنري الرابع أن يسخر قوى الملكية لخدمة كنيسة على أن يبقى خادماً لمصالح التاج ، ولكن أعله خائب .

إلا انه على الاقل استطاع أن يحول دون ذهاب الملك إلى إيطاليا ليساعد البابا ضد النورمانديين . وبذلك أثار آدابورت حوله ضجة من السخط والاستياء وبخاصة الامراء العلمانيين الذين نقموا عليه ، ورأى أن يلوذ بالفرار ويترك مكانه خلواً إلى زميله آنون . وأدى سقوطه إلى نتائج مؤسفة حقاً في صالح المانيا والكنيسة أيضاً . فقد تقلص نفوذ بريم - هامبورغ وانقطع عمل التبشير وبدأ نفوذ الملك هنري الرابع يظهر بالتدريج . إلا أن طريقة الحكم التي سلكها أدت إلى استياء الطبقة الارستقراطية في البلاد لاسيما وان البطانة التي التفت حوله أضرت به . وبعد أن كانت الاستياء يتجلى ببعض حوادث عارضية دون كبير أهمية ، جعل يتفاقم ويأخذ شكلاً خطراً . وإذا استطاع هنري الرابع أن يظفر على حركات العصيان التي قامت ضده في ساكس وبافاريا وتورنجه فقد زاد استبداده في سخط الأمراء عليه وسارت المانيا في طريق الحرب الأهلية . واتفق في هذا الوقت أن اثار سياسة هنري الرابع الدينية ، المستوحاة من نزعة الاستبدادية ، إلى وقوع الخلاف بينه وبين الكنيسة الرومانية التي شعرت بقوتها ولم تكن على استعداد للاكتفاء ، كما في السابق ، بأن تكون آلة طيعة في يد القيصرية البابوية الامبراطورية .

هنري الرابع والكنيسة . — كانت الكنيسة في عهد الوصاية في حالة محزنة . فقد كانت الاسقفيات والأبويات تباع بالمزاد أو توزع على أقارب الملك وأصدقائه ومقربيه حتى ان منهم من كان يعلو كرسي الاسقفية دون أن يبلغ السن القانونية ، ومنهم من يشتري الاسقفية بمبلغ عظيم من المال فاذا ما أعتلى كرسيه عمل على ملء جيوبه ببيع المناصب الكنسية والأواني المقدسة وحتى الالبسة الكهنوتية . وقل في هذا الدور الحزين للأخبار الذين انتخبوا بصورة صحيحة . ووقعت الكنيسة

الألمانية في فوضى حقيقية لم تخل من خصومات مفاجئة سالت على طلباتها الدماء .
 . وتوجه أهل الغيرة على الدين خلال مرات عديدة إلى الكرسي الاقدس يطلبون تدخله . ولم يأل البابا الكسندر الثاني جهداً في هذه المناسبات .
 فتارة ينجح في فرض وجهة نظره وطوراً تتغلب إرادة هنري الرابع على إرادته . ولكن الكسندر الثاني ، رغم جهوده المشكورة ، لم يستطع أن يحد عبث السيمونية ، أو يحول دون تعيين الاسقف من قبل الملك مباشرة .

وكان هنري الرابع مصمماً على الا يتساهل في تدخل البابا في القضايا الكنسية . ولكن الاحوال تبدلت منذ عشرين سنة ، لأن الكنيسة الرومانية ، وقد تحررت على يد نيقولا الثاني ، كانت تحرص على استقلالها وتريد أن تحافظ على حريتها في العمل أيضاً . وتمثل هذه العاطفة في شخص هيلد براند . فقد كان يدافع بحماسة عن الامتيازات التي تعترف بها القوانين للكرسي الاقدس ، ويطبّع السياسة الحزبية بطابع جديد لم يكن لها في الماضي . وستنفجر هذه النزعات الجديدة اثر حادث خاص كاد يؤدي إلى قطع العلاقات بين البابوية والملكية .

ولم يتلق هنري الرابع تربيته الاولى عن أمه الامبراطورة آنيس ولا عن وصيه المطران آنتون ، بل كان العوبة الأهواء المغرضة . ومن أخطاء آدالبرت أنه شجعها طمعاً في أن يحكم المملكة وحده تاركاً الأمير الفتى وشأنه مستمتعاً بحياة الفسق والفجور . وخطب له آنون بيرت تورينو وعوضاً عن أن يتزوج ويلزم حياة الاسرة كان يؤخر زواجه ما أمكن . وعندما سقط آدالبرت عام ١٠٦٦ نزل عند إرادة الامراء وقاد بيرت إلى الكنيسة وما عزم بعد زواجه إلا أن هجر زوجته الشابة وعاد سيرته الاولى . وفي عام ١٠٦٩ أراد أن يطلقها وتقام لهذا الغرض مع سيففريد

مطران ما ينس ، فعقد له مجمعا للبحث في هذه القضية . وادعى أن زواجه لم يتم واستطاع ان يهدد بيوت البائسة وحصل منها على تصريحات لا تفهم معناها ولا مغزاها .

غير أن سيغفريد خشى الصواعق التي قد تنزل عليه من روما فلم يجزأ على فسخ هذا الزواج الذي ليس له أي مبرر قانوني ، ورجا البابا أن يبعث اليه برسول حبري ينظر في الأمر فقدم بطرس داميان باسم البابا وصرح ، في حضرة هنري الرابع ، ان الطلاق تحرمه الكنيسة على الملوك كسائر المؤمنين وأضاف بأن الكسندر الثاني ، حارس القانون ، لا يبارك مرتكب هذه الكبيرة ، ولا يتوجه امبراطوراً . ولم يكن من هنري الرابع إلا ان اذعن . ولكنه بالمقابل ، احاط نفسه بلفيف من المشاورين المناوئين للكنيسة الذين طردتهم من الجماعة . وهذا ما ادى إلى وقوع الملك بدوره تحت طائلة الحرمان ايضاً . وكل هذه القرائن ، رغم رغبة الكسندر الثاني وهيلدبراند في الصلح ، تدل دلالة واضحة على ان السلام قصير الأمد بين البابوية والامبراطورية .

البابوية والنورمانديون . - وإذا كان هذ التوتر لا يخلو من خطر على البابوية فقد كان يهددها أيضاً خطر النورمانديين بسبب تصريحات الكسندر الثاني في مجمع مانتو وبتو العلاقات بينهم وبين البابوية . فمذ جمع آمالفي انصرف رويير غيسكار إلى أخذ كالابر من أيدي البيزنطيين وتم له فتحها في ١٠٦٠ ، وتقدم عام ١٠٦٢ واستولى على بونديزي . وانتهز الصعوبات التي تتخبط فيها الامبراطورية الشرقية واستولى على باري (١٠٧١) . وأصبح سيد بوي بعد أن أجلى الاغريق عنها . وفي الوقت ذاته أخذ رويير وأخوه روجه صقلية من أيدي المسلمين ودخل الأميران بالرمو . وهذه العمليات الحربية الشاقة المصحوبة بالفوز تارة وبالخذلان اخرى

صرفت رويبر عن ايطاليا الوسطى . أما جاره ريشار آفيوسا فقد استقر في كابو منذ العام ١٠٦٢ وغاييت (١٠٦٣) وحاول العدوان على الكرسي الأقدس واجتاح الريف الروماني .

ولم يكن لدى الكسندر الثاني أمام هذا الخطر الذي يداهمه إلا الالتجاء إلى نجدة البلاط الجرمني . وكان هنري الرابع يرغب في تجهيز حملة إلى ايطاليا رغبة في الحصول على عدة فوائد أهمها تهديم نفوذ النورمانديين في ايطاليا ، وحماية الكرسي الأقدس حماية ظاهرية تضطره إلى الاعتراف بالوصاية الألمانية ، واحتمال التتويج الامبراطوري بعد الظفر . وعقد في ٢ شباط ١٠٦٧ مجلساً في اوغسبورغ فرحب بهذا المشروع .

ولكن هذه الحملة المزمع تسييرها إلى ايطاليا لم تقع ، ولا تعلم على وجه الصحة الأسباب المانعة . وربما فكر هنري الرابع بان الابتعاد عن مملكته في مثل هذه الظروف قد يدفع بالاستياء الذي حوله إلى الثورة . ومن المحتمل جداً أن يكون هذا التأجيل بسبب دبلوماسية غودفروا اللورين الذي خشي من أن الجيوش الألمانية ، اذا أتت إلى ايطاليا واخضعت النورمانديين ، تعود وتهدد استقلال دوله . وعلى كل حال استطاع غودفروا أن يبعد هنري الرابع ويحصل منه على لقب نائب الامبراطور ، وبعدها سار إلى ريشار كابو الذي حرمه البابا وحاصر آكوينو . ثم تصالح البابا والأمير في (آب ١٠٦٧) .

وكان هذا الصلح خير حل للسدة الرسولية ، لأن التدخل الجرمني لم يبق له مسوغ . وهدأ بال البابا من جانب النورمانديين ، ووثق من مساندة غودفروا اللورين له ، وأصبح بإمكانه أن يتخذ بعد الآن موقفاً مستقلاً عزيزاً . وقد قدم عليه من قبل هنري الرابع عام ١٠٦٨ آتون مطران كولونيا واوتون دوق بافاريا فرفض استقبالهما لأنها تقابلا في الطريق مع

- ٦٧٣ -

سقف بارما ومطران رافينه وكلامهما محروم ، حتى ان آتون اضطر إلى التوبة ليحظى بحضرة البابا .

وهكذا نرى ان الكسندر الثاني ، بعد أن تخلى عن سياسة نيقولا الثاني ، يعود من جديد فيجنح إليها في السنوات الأخيرة من حبريته ويرى أن التحالف مع النورماندين ضرورة ماسة ، لأنه خير مجيب لما تتطلبه الحالة العامة للكنيسة ، ولا سيما عندما ينشب النزاع بين الكهنوت والامبراطورية .

والنقطة الأخرى التي يستند عليها الكرسي الأقدس في إيطاليا هي دولة طوسكانا حيث توفي غودفروا الأحمى . ولكن موته لم يبدل شيئاً في الوضع لأن ابنه من زوجته الأولى ، غودفروا الأحذب ، تابع سياسة أبيه حيال الكنيسة وتزوج ماتيلد ابنة بياتريكس زوجة أبيه . وكانت ماتيلد هذه متعلقة بالبابوية وستقدم إليها خدمات جليلة .

وتوفي الكسندر الثاني في ٢١ نيسان ١٠٧٣ . ورغم أن الظروف التي أحاطت بداية حبريته كانت شاقة فقد فارق الحياة والكنيسة تتمتع بوضع جيد .

فاتمة مبرية غريغوار السابع

١٠٧٣ - ١٠٧٦

وفي ٢٢ نيسان ١٠٧٣ ، وبينما كان يجهز الكسندر الثاني ، ارتفعت جلبة كبرى في الجمهور الذي حضر الجناز ، وصرخ الناس من اكليركيين وعلمانيين رجالاً ونساء : « هيلدبراند اسقف » . وبعد حين اجتمع الكرادلة وصادفوا على هذا الانتخاب الشعبي ورفعوا إلى السدة الرسولية هيلدبراند بابا باسم غريغوار السابع .

وظاهر الحال يدل على أنه لم يراع مرسوم نيقولا الثاني في هذا الانتخاب ، لأن الشعب انتخب هيلد براند بصورة عفوية قبل أن يقوم الكرادلة - الأساقفة بأي عمل . ولكن هؤلاء لم يبدوا أي اعتراض ، كما لم يتخذوا أي حيلة أو حذر في هذا الانتخاب . ولو تركوا وأنفسهم لما انتهوا إلا إلى هذه النتيجة التي كان يتمناها جميع أنصار الإصلاح بكل حرارة .

كان غريغوار السابع رجل الكنيسة الرومانية الذي يشار إليه بالبنان ويستطيع أن يسير بالإصلاح إلى الغاية المتوخاة ، هذا الإصلاح الذي اقترن باسمه وعرف بالإصلاح الغريغوري . فمذ ثبت أن السجل ، الذي يتضمن رسائله ، ليس كما ظهر طويلاً من جمع أحد تلاميذه ، بل هو سجله الأصيل ، وأن أوراقه الأساسية قد أملاها بنفسه ، تكشف لنا سيما هذا الحبر العظيم وأصبح من السهل أن نستخلص منها صفاته العامة .

حرارة إيمان تنيرها تقوى صوفية ، وعاطفة عميقة في عجز الانسان أمام الله ، تسيره دوماً مشيئته وتهيمن عليه في كل لحظة أرادته . فهو الذي يقضي وهو الذي يعفو ، ولا مرد لحكمه ، وحاجة لاتقهر في السمو إلى الملأ الأعلى لتتقرب من الحضرة الالهية بالصلاة والزلفى والعزف الكلي عن الذات وحب الألم والاحسان الفائض الذي يعز الناس ويكره الرذائل ويظل أفضل مصدر للسلام المسيحي .

هذه هي العناصر المختلفة التي تؤلف صورة غريغوار السابع وشخصيته . ان فكرة الاله ولدت عند هذا البابا عاطفة خالصة للقيام بواجباته التي تلخص بكلمة واحدة : التبشير . وليس التبشير في نظر هذا الحبر ، نشر المذهب المسيحي فحسب بل هو أيضاً تقويم المساويء وممارسة سلطة

اصلاح المفاسد التي تؤلف جزءاً متمماً من السلطة العامة التي خولها المسيح الى القديس بطرس وخلفائه من بعده .

البرنامج الغريغوري . — وهذه السلطة التي تؤخذ من المسيح هي التي جعلت غريغوار السابع ينصرف بكليته إلى خدمة الكنيسة واصلاحها لأن همه الأول « استئصال شأفة البدعة السيمنية والعودة بالاكليروس ، المكبل بتفسخ الحياة المحجلة ، إلى لزوم العفة » . ويرى غريغوار السابع أكثر من أسلافه أن للكرسي الأقدس وحده من السلطة ما يكفي لتقويم المساويء . ان المسيح أسس الكنيسة الرومانية وجعلها أفضل الكنائس المسيحية . فهي رسول الله تصدق بكلماته وتعتبر عن إرادته إلى الأساقفة والمؤمنين ، وتتمتع بسلطة مطلقة وغير محدودة . ولذا يجب على كل إنسان ، مهما كان شرطه ، أن يخضع أمامها . وكان غريغوار السابع ، منذ أن اعتلى عرش البابوية وقبل أن يعرف طبيعة السلطة الجبرية في « أمالي البابا » ، موطداً العزم على أن يستعمل جميع الامتيازات التي تخوله إياها التقاليد الكنسية في اصلاح الاكليروس الفاسد .

وفي سبيل هذا الاصلاح كان يريد ان يחד جميع القوى المسيحية ، ويعتمد على الأساقفة ، ويجادل أن يربطهم بصورة وثيقة بالسدة الرسولية ، وذلك بالاكتثار من المندوبين الرسولين . وان مراسيمه الاولى تدل على هذا الجهد القوي القلق الذي بذله في إزالة الخمول عن الأجار الذين كانوا يتطلعون قبل كل شيء « إلى مجد هذا العالم وشهوات اللحم » . وكان يأمل بأن تسهم السلطة الزمنية أيضاً في عمل السلام . وليس لديه ضد الملوك أي رأي مسبق أو أي فكرة حزبية . وقد لاحظ نيات هنري الرابع السيئة تجاه قوانين الكنيسة ، إلا أنه كان يرغب من صميم نفسه

ودون أن يضحي بالتفوق الروماني ، أن يوطد التفاهم والوثام التقليدي بين الكهنوت والامبراطورية . وقد كتب إلى رودولف سواب عام ١٠٧٣ : « وكما أن جسد الانسان تسيره العينان ، نوره الزمني ، فكذلك جسد الكنيسة يسيره هذان المنصبان : الكهنوتي والعلماني اللذان يوفق بينهما الدين الحنيف ويؤلفان نوره الروحي » .

وطبقاً لهذا المذهب حاول غريغوار السابع أن يحل المشاكل المتعلقة مع الملك الجرمني لينصرف بعد ذلك إلى تطبيق برنامجه الاصلاحى .

غريغوار السابع وهنري الرابع . - عندما أصبح هيلد براند بابا كان هنري الرابع مطروداً لأنه لم ينفصل عن مشاوريه المطرودين . كما أنه في آخر أيام حبرية الكسندر الثاني لزم جانب خصوم الاصلاح في لومبارديا وأراد أن يفرض في ميلانو مطراناً من انتخابه الخاص بعد أن رفض منتخب الكنيسة . غير أن غريغوار السابع كان يريد أن يحل القضية حلأً سلمياً ويثبت إرادته على ألا يخالف القواعد القانونية التي خرقها هنري الرابع ، ولذا أبدى لهذا الأمير بواسطة غودفروا اللورين الأحدث بأنه على استعداد للعفو والسماح ، ولمح بتتويج الامبراطور في المستقبل القريب ، وحاول أن يدل على صدق نواياه وإخلاصه وحبه للصلح ورغبة منه في الحيلولة دون الحرب الأهلية التي كانت تهدد هنري الرابع بعد أن قامت الثورة في ساكس وأخذ سكان هذه الدوقية على هنري الرابع أنه لا يحترم حرية الأهلين ولا امتيازاتهم ويملاً البلاد بالقصور والحصون والحاميات . وقد ازداد هذا الاستياء فانقلب إلى حركة تمرد وعصيان حقيقية . وحاول هنري الرابع المفاوضة فطلبوا إليه تدمير الحصون الملكية لأنها لم تكن للدفاع عن الامبراطورية . وتخرج موقف هنري الرابع وامتدت الحركة من

ساكس إلى تورنجه . كما أن الجيش الذي كان مقرراً أن يهاجم ساكس لم يجشد . ولو كان غريغوار السابع يشعر بأدنى عداوة تجاه هنري الرابع ، كما نسب إليه ، لكانت هذه المناسبة فرصة وحيدة لإثارة النزاع بين الكهنوت والامبراطورية . ولكنه كان أبعد من أن يعير المتمردين عطفه وسلطته المعنوية لأن البابا كان يشعر برغبة ملحة في السلام . وفي رسالة مؤرخة في ١ ايلول ١٠٧٣ بعث بها إلى رودولف سواب يظهر أنه غير راض عن ثورة ساكس وأنه مجذول كل حل من شأنه أن يعيد الوئام والتفاهم بين الجانبين .

امام هذا الموقف اخرج كانت المقاومة مستحيلة ، ولذا فكر الملك بمصالحة الكرسي الأقدس والتساهل مع الساكسونيين . وفي أوائل ايلول كتب إلى البابا رسالة أعرب فيها عن أسفه واغتصابه أموال الكنيسة وبيعه الأسقفيات بغير حق ورجاء عفو به بكل خضوع وتقديم جليل احترامه للكرسي الأقدس ، وصرح بأنه على أتم الاستعداد لحل القضية الميلاية بشكل يتفق ورغبات الكنيسة .

وهكذا نحقق حلم غريغوار السابع : لأن ثورة ساكس أدت بصورة غير مباشرة إلى اتفاق بين الكهنوت والامبراطورية دون أن تتنازل الكنيسة الرومانية عن امتيازاتها وتتخلى عن استقلالها تجاه السلطة الزمنية .

ولم تكن نتائج هذه التسوية أقل حظاً في ألمانيا ، لأنه أصبح بإمكان هنري الرابع ، بعد أن اطمأن من جهة روما ، أن يبدأ مفاوضات مع الساكسونيين ويعتمد على مساعدة غريغوار السابع المعنوية . وفعلاً جرت المفاوضات إلا أنها ظلت عقيمة ، لأن الثائرين كانوا يطلبون تقويض الحصون التي شادها هنري الرابع . وامتدت العداوة بين الجانبين إلى عام

١٠٧٤ عندما وعد هنري بتهديم الحصون ، سبب النزاع ، وخضع له الساكسونيون والتورنجيون .

المراسيم الإصلاحية آذار ١٠٧٤ . - واستبشر غريغوار السابع خيراً بعودة السلام الذي يرجوه من أعماق نفسه . ولكن هل يقوم هنري الرابع بعد هذا بما يتوجب عليه فيظهر اعتوافه وشكره للكرسي الأقدس ويساعده في إتمام رسالته الإصلاحية ؟ كان غريغوار السابع منذ بداية حبريته يكرر ندائه إلى الأساقفة براءة قانون العزب وحسن تطبيقه من قبل الكليروس . وفي الاسبوع الأول من الصوم (من ٩ - ١٥ آذار ١٠٧٤) عقد مجمعاً في روما وأذاع مراسيمه في النيقولاوية والسيمونية . وتقرر أن كل من يصل بالمال إلى رتبة مقدسة أو وظيفة كنيسة لا يستطيع ممارسة أي عمل كهنوتي ، وإن كل من حصلوا على كنائسهم بالوسيلة ذاتها ، يفقدون كنائسهم . أما الكليركيون الذين يتعاطون الفحشاء ويرتكبون الآثام فقد حرم عليهم القيام بالقداس كإحرم على الشعب حضور طقوسهم . وفي الحقيقة ، إن هذه التدابير ليست الا نسخة جديدة للتدابير التي أخذها نيقولا الثاني في مجمع لاتران ١٠٥٩ ، وكلها تدل دلالة أكيدة على رغبة البابا في القضاء على الكهان الأشرار وفصلهم عن قطيع المؤمنين ، كما تبدو أنها انعكاس لأفكار بطرس داميان التي تبناها غريغوار السابع .

تطبيق المراسيم . - لقد دل سياق الحوادث على أن هذه المراسيم كانت غير كافية : فقد بعث البابا برسله إلى المانيا ليصالحوا هنري الرابع مع الكنيسة ويذيعوا التشريع الروماني في النيقولاوية والسيمونية فأدوا القسم الأول من رسالتهم هذه خير الأداء ونجحوا في مسعاهم . إلا أنهم عندما أرادوا أن يفرضوا مراعاة قانون العزب الكنسي اصطدموا بمعارضة الكليروس الأعلى والأدنى ، حتى إن سيغفريد مطران ماينس وليار بريم

- ٦٧٩ -

ادعيا بأن ليس لندوبي البابا الحق في الدعوة الى مجمع في داخل المملكة الجرمانية . وثار الاكليروس على السلطة الرومانية ، ونادوا بالبابا هرطقياً وجعلوا يقولون : « ان إجبار الناس بالقوة على أت يعيشوا كالملائكة ومناواة الطبيعة في أن تتبع مجراها ، إن كل ذلك من شأنه أن يشجع على الزنى وفساد الأخلاق » .

وبدا أن إصلاح الكنيسة في المانيا قد مني بالاختفاق لسوء إرادة الأساقفة الذين عينهم الملك وثاروا ضد النظام الروماني . ولم يكن حظ غريغوار السابع في فرنسا بأسعد منه في غيرها لأن مقاومة الاكليروس هنا تضاعفت بعداوة الملك واحتقار المراسيم الحبرية ، حتى ان فيليب الأول أخذ يطبق السيمونية بصورة علنية . وفي الدولة الانغلية - النورماندية ، حيث كان غليوم الفاتح مجذبا للاصلاح ، كان الاكليروس على غير استعداد لتقبل الأفكار الرومانية .

تطور البرنامج الفريغوري . - وتأثر غريغوار السابع جداً أمام هذه المقاومات المختلفة حتى ان المراسيم الحبرية في بداية العام ١٠٧٥ كانت تدل على الحزن والقلق ، ولكنها لا تشعر باليأس والقنوط . لقد كان هم البابا المستقبل ، وثقته بالله تعالى عظيمة . وإذا أخفق جهده في التبشير والوعظ أمام أنانية الأساقفة ولا مبالاة الأمراء فهناك طرق أخرى أدق وأنجح . وخير وسيلة تنضب فيها ينابيع السيمونية والنيقولاوية المسمومة هي العمل على انتقاء الاكليروس انتقاء حسناً وانتزاع انتخابات الأساقفة من أيدي الأمراء العلمانيين والرجوع ، كما كان يريد الكاردينال همبرت في العام ١٠٥٨ ، إلى القواعد القانونية القديمة التي تكفل استقلال الكنيسة . ولذا تم تشريعه في السيمونية والنيقولاوية بمرسوم خاص في التقليد العلماني .

موسوم التقليد العلماني (شباط ١٠٧٥) . - لم يحفظ نص هذا المرسوم الشير ، ويبدو أن غريغوار السابع وسع القانون السادس للمجمع لاتران (١٠٥٩) المتعلق بالكنائس الخاصة ، فجعله يشمل جميع الأسقفيات والأبويات . وينص هذا القانون على أنه « لا يحق لأي كاهن أو كاهن بأي حال من الأحوال أن يأخذ كنيسة من يدي العلماني مجاناً أو بالمال » . ولذا فإن إلغاء تدخل السلطة العلمانية في الانتخابات الاسقفية والأبوية يمنع كل تدخل سيموني ويبعد عن الكنيسة « الذئاب الضارية » التي لاتفكر إلا في اقتراس قطيعها عوضاً عن أن تقوده في طريق السلام . وفي الوقت ذاته حاول غريغوار السابع أن يعزز نجاح الاصلاح فسعى إلى تثبيت التفوق الروماني على دعائم متينة عملياً ونظرياً . فمن ذلك أن جمع شباط ١٠٧٥ لم يكتف بالتشريع بل نظر في الحالات التي تُعصى بها السلطة الرسولية وفرض عقوبات شديدة في بعض الحالات وعزل الأساقفة الذين يقفون موقفاً عدائياً من البابا أو يقاومون رسله . ولم يوفر العلمانيين ، بل صب عليهم جام غضبه وطردهم من الجماعة ، مثل روبريغ غيسكار وابن أخيه ، لاعتدائهما على أراضي البابا ، وهدد فيليب الأول ملك فرنسا بالحرمان . وفي كل ذلك كان يدل على أن التفوق الذي تطالب به السدة الرسولية لم يكن مجرد صيغة قانونية بل على العكس حقيقة حية .

أما البابا . - وكان غريغوار السابع يحرص على تعريف هذا التفوق وتحديد مميزات ونتاجه كما أوضح في الأمالي المعروفة باسم « أمالي البابا » التي تتضمن ٢٧ مادة .

يقول غريغوار السابع : « ان مؤسس الكنيسة الرومانية هو السيد المسيح وحده » وعلى هذا القول يشيد هيكل نظريته في السلطة الخيرية ، ويعتبر سلطة العقد والحل التي خولها المسيح إلى القديس بطرس ذات

أصل الهي . ويقول ان السيد وعد بطرس بأنه يوفقه دوماً ، ولذا فان الروح القدس هي التي تملئ وتوحي أفعال الحبر الروماني وتعصمه من كل خطأ . وتنص المادة ٢٢ من الأمالي على : « ان الكنيسة الرومانية لم تخطئ ، كما يشهد بذلك الكتاب المقدس ، ولن تخطئ أبداً » .

وباسم هذه المبادئ يطالب غريغوار السابع بسلطة مطلقة وغير محدودة على جميع المسيحيين . ويضيف بأنه لا يحق لأحد أن يحاكم البابا بل له الحق أن يحاكم جميع الأساقفة ويرفع إليه الدعاوى التي تبدو له ذات خطورة خاصة ، أو التي لم تستطع المحاكم الأسقفية البت فيها . وهو الذي يشرع لجميع الكنائس ، ويبدل ، إذا اقتضى الأمر ، الدوائر الكنسية وله جميع السلطات على الاشخاص الذين يأثمرون بأمره ، كما له الحق في نقلهم وعزلهم دون أن يسأل عما يفعل ، ولمندوبيه المكانة الأولى أنى وجدوا ومهما كانت درجاتهم الكنسية .

وموقفه من السلطات العلمانية مستوحى من هذه المبادئ نفسها . فهو يعلن ان البابا يستطيع ان يحرم الأباطرة من تاجهم ويجعل رعاياهم في حل من بين الولاء التي أقسموها للولوك الظالمين .

وبعد اطلاقنا على أمالي البابا لانجد أي مصلح ايطالياً كان أو لورنياً استطاع أن يستخلص ، من المبادئ القانونية ، التي يرجع إليها أصل النظريات الغريغورية ، نتائج واضحة بهذا الوضوح . ان أصالة افكار غريغوار السابع الحقيقية تبدو في ان اصلاح الكنيسة لا يمكن أن يتحقق إلا بالمركية الكنسية ، الوسيلة الوحيدة للقضاء على مقاومة الاسقفية ، وربط الممالك المسيحية بالكرسي الأقدس .

ولم يبق على غريغوار السابع ، بعد ان وضع نظريته في التفوق الروماني ، إلا أن يكييفها مع الظروف ويؤمن تطبيقها ، أي أن يبرهن

بأفعاله على ان الكرسي الأقدس لا يسمح بمخالفة مراسيمه، وانه يستعمل، عند الاقتضاء، جميع الامتيازات التي تخوله إياها قوانين الكنيسة . ولا أدل على ذلك من حكم الحبر الروماني بالحرماني على ملك جرمانيا هنري الرابع في شباط ١٠٧٦ .

علاقته غريغوار السابع وهنري الرابع حتى ١٠٧٥. - لبثت العلاقات في الظاهر ودبة بين غريغوار السابع وهنري الرابع . ولقد رأينا أن الأمير الجرمانني تصالح مع الكنيسة الرومانية واسترحم منها العفو عن أخطائه السابقة ، وأعلن عن حسن نواياه في المستقبل . وظل هذا التقام حتى أيلول ١٠٧٥ ، وعمل غريغوار السابع مافي وسعه لتهدة حركة العصيان في ساكس ، واستقبل هنري الرابع ، بعد مجمع آذار ١٠٧٤ ، رسولي البابا وتناول من أيديها مرسوم العفو ووعدهما بالمساعدة لتأدية رسالتها الإصلاحية . ولم يكن باستطاعة هنري الرابع أن يسلك غير هذه الطريقة السلية . فقد كان يستعد للقيام بحملة إلى هونغاريا ويفكر خاصة بالانتقام من الساكسونيين ، ولا يستطيع تفتيق خطته هذه إلا إذا عاش بسلام تام مع الكرسي الأقدس .

قام هنري الرابع بحملته التأديبية ضد الساكسونيين ونشر في بلادهم القتل والنار والرعب ، ولم يوفر الكنائس والنساء والاطفال ، حتى دانت له البلاد في (تشرين الأول - كانون الأول ١٠٧٥) وما أن تم له ذلك حتى بدا متعالياً متفطرساً متكبراً . وما خضوع الساكسونيين وبثوه العلاقات بينه وبين البابا عقب ذلك مباشرة في كانون الثاني (١٠٧٦) إلا دليل واضح على ما كان يضر في نفسه من سوء نية .

انقطعت العلاقات بين البابا والملك الجرمانني بسبب الحادث التالي : وهو أن هنري الرابع أراد أن يرضي الحزب الامبراطوري في ميلانو، فعزل

آتون مطران هذه المدينة وعين بدلاً عنه تيدالد وهو مازال شماساً بسيطاً. ولم يستطع غريغوار السابع أن يغمض عينه على هذا الفعل الأليم والفضيحة الشنعاء ، لا سيما وأنه تساهل معه من قبل عدة مرات في جرمانيا حباً في السلام . وكتب البابا للملك يأخذ عليه مخالفته للقوانين الرسولية ويظهر له استعدادة للعفو إذا تخلى عن تيدالد ، ولكن هنري الرابع أجاب هذه الدعوة الأبوية بالتحدي الوقع .

عقد الملك هنري الرابع مجلساً من الأساقفة والأمراء في فورمز (٢٤ كانون الثاني ١٠٧٦) وقرروا خلع غريغوار السابع بعد أن اتهموه باغتصاب سلطته وتقويض سلام الكنيسة وتعديه على حقوق المحاكم الأسقفية بتحويل نفسه حق الحكم في جميع الدعاوى الكنسية ، وطموحه الزمني في إيطاليا ونزعه عن ملك جرمانيا المنصب الذي تخوله الوراثة له ووقع الحاضرون على التصريح الآتي :

« أنا ... أسقف ... أعلم هيلد براند بأنني امتنع عن الخضوع له وعن طاعته ، ولا اعتوف به بابا ولا أمنحه هذا اللقب » .
 إن حكم فورمز يعتبر من عدة نواح جواباً على « أمالي البابا » ، ويبدو تعبيراً للقيصرية البابوية الامبراطورية أمام النظرية الغريغورية في التفوق الروماني . ومن هنا يمكن التنبؤ بتصادم المذهبين ووقوع الخلاف .
 وبعد اجتماع فورمز أرسل أسقفنا سير وبال إلى إيطاليا ليدعوا أحبار لومبارديا إلى الاشتراك في الحكم على البابا بالخلع . وقد تم لها ذلك دون صعوبة في مجلس بليزانس حيث تقرر أن يبعث رسول إلى المجمع الذي سينعقد في روما بمناسبة عيد الصوم ليبلغ المجتمعين الحكم الصادر بحق البابا .
 عقد مجمع روما في ١٤ شباط وأدى المبعوث رسالته ودعا الكليركين أن يذهبوا إلى الملك هنري الرابع في عيد العنصرة ليتسلموا بابا من صنع

كفيه . وما انتهى من كلامه إلا وارتفعت أصوات الاحتجاج وكاد المجتمعون أن يجهزوا على المبعوث لولا أن تداركه غريغوار السابع وحماه بشخصه . وبعد هذا الحادث العارض تكلم البابا باسم سلطة العقد والحل التي خولها المسيح للحواري وحرّم على هنري الرابع « الذي تجرأ بكبريائه الجنونية على الكنيسة » أن « يحكم مملكة المانيا وإيطاليا » وحل بعد ذلك رعاياه من بين الولاء له . وبعد أن ذكر أن الملك كان على صلة بالمطرودين ، وازدري تنبيه السدة الرسولية له ، حكم عليه بالحerman .

كان هذا الحكم حادثاً فريداً في تاريخ العلاقات بين البابوية والسلطات الزمنية . فهو يقضي بتطبيق النظريات المدرجة قبل عام في « أمالي البابا » ويشير إلى قيمتها المذهبية والعملية . وفي كل ذلك دليل على أن الكنيسة الرومانية ، التي تحررت على يد نيقولا الثاني من الوصاية الجرمانية ، قد أثبتت تفوقها لا على الاساقفة والاكليركين فحسب بل أيضاً على الملوك الذين يجب عليهم ، تحت طائلة العقوبات الروحية والزمنية ، أن يمتثلوا لتوجيهات السدة الرسولية . هذا ويمكننا أيضاً أن نقدر سعة المرحلة التي قطعتها الكنيسة خلال الثلاثين سنة الاخيرة : ففي سنة ١٠٤٦ خلع هنري الثالث بسلطته الخاصة البابوات الثلاث : بندكت التاسع وسيلفيستر الثالث وغريغوار السادس الذين كانوا يتنازعون السدة الرسولية ، دون أن يثير أي مقاومة تذكر . وفي العام ١٠٧٦ يجيب غريغوار السابع على هذا الحكم بحكم من نوعه ويدعو رعايا هنري الرابع الا يعترفوا به ملكاً . وبعد أن كانت البابوية حتى ذلك التاريخ تابعة للإمبراطورية أصبحت الآن قوة يحسب حسابها .

الفصل التاسع وعشرون

تشكل المملكة الأنغلية – النورماندية

في الوقت الذي كان فيه جهد ايتين التاسع ونيقولا الثاني وغريغوار السابع يحرق الكرسي الأقدس من ضغط القيصرية البابوية ويؤمن له الاستقلال سبيلاً لتفوقه على الدول المسيحية ، كان فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح يحول سماء اوروبا الغربية ويضع للمستقبل قضايا كبرى وخطيرة بين الكهنوت والامبراطورية . كذلك أنشأ اتحاد انكلترا ونورمانديا ، تحت صولجان واحد ، دولة جديدة ، حول المانش ، وولد في القرن الثاني عشر نزاعاً بين المملكة الكاسبية والمملكة الأنغلية – النورماندية ودام هذا النزاع حتى أواخر العصر الوسيط .

دوقية نورمانديا في منتصف القرن الحادي عشر

غليوم الدعي ، دوق نورمانديا . - بينما كان تحرير الكنيسة الرومانية أثراً جماعياً طويل النفس تضافرت على تحقيقه جهود جيل من المصلحين ، كان فتح انكلترا من تصور وإعداد وتحقيق رجل واحد ، دون نورمانديا ، غليوم الدعي .

ولد غليوم الدعي عام ١٠٢٧ . وهو ابن روبرت الشيطان من سريته آرليت . أصبح دوقاً في الثامنة من عمره (١٠٣٥) ، وكان من أبرز شخصيات العصر الوسيط . وإذا كان من الصعب الكشف عن ملامح

سبائه ، التي أصبحت اسطورية ، فن الخارج عن الشك أن هذا الأمير الشهير فرض شخصيته على معاصريه بواهبه الطبيعية وصفاته الخلقية النادرة. كان عضلياً ، جلدأ ، مهياً ، قوياً ، يحب التمارين الرياضية العنيفة كالفرسية والصيد والحرب ، ولا يشبه مع ذلك الأمراء الاقطاعيين الآخرين . وإذا كان كمعظمهم لا يستطيع السيطرة على أعصابه وسورة غضبه ، فقد كان يعنى بأن يكون سلوكه منسجماً مع ايمانه الديني ، ويعرف خطورة الالتزامات الادبية التي يفرضها القانون المسيحي . كان يكره الرذيلة ويكافح الاخلاق والعادات السيئة في محيطه ، وضرب للناس المثل في الاخلاص الزوجي ، ومنح زوجته الشرعية ، ماتيلد ، بنت بودون الخامس ، كونت فلاندر ، عطفأ خاصاً وغمراً بجنان رقيق طاهر عف تقي نقي ، وطبق قوانين عادلة على رعاياه ، وفرض احترام سلطته على باروناته ، وعرف كيف يستدر عطف شعبه بتأمين السلام في نورمانديا . وهذا الاعتدال لاينفي عنده الطموح الواسع واععداد الوسائل لتحقيقه . ففي أقل من خمسين عاماً استطاع أن يقوم بعمل من الطراز الأول أكد فيه قوة مفاهيمه وتحقيقها بأصول وصبر وثبات .

دوقية نورمانديا . - كانت دوقية نورمانديا محور قوة غليوم الدعي فقد تمتعت منذ تسلمه حكمها عام (١٠٣٥) في داخل المملكة الفرنجية باستقلال تام تقريباً . ولا شك في أن ملك فرنسا لم يتنازل عن سيادته على هذه الاراضي التي تنازل عنها في السابق شارل الساذج إلى رولون ، ولكن الصلات التبعية اقتضت عملياً على شيء قليل جداً . فنذ الاضطرابات التي تلت وفاة غليوم ذي السيف الطويل (١٠٤٢) تمت السلطة الدوقية باستمرار ، لأن كل شيء كان جديداً ولم تضرب السلطة العامة بالاقتطاعات التي زعزعت سلطة الاقطاعي الكبير في غيرها من المناطق ، لأن جهود

سلفي غليوم الدعي ، ريشار الأول (٩٤٣ - ٩٩٦) وريشار الثاني (٩٩٦ - ١٠٢٧) كانت منصرفة إلى الحيلولة دون وقوع أي اغتصاب ممكن ، واستطاعت هذه الجهود أن تكلل بالنجاح في الحفاظ على وحدة نورمانديا ضد هجمات البارونات . ولم يتشكل فيها دومينات واسعة جداً يمكن أن تقاوم بقوتها الأرضية السلطة الدوقية التي ظلت في الواقع سليمة لم تمس . وفي الحقيقة ، لقد استعمل ريشار الأول وخلفاؤه سلطتهم المطلقة باعتدال باحثين قبل كل شيء عن سيادة العدل ونشر السلام . وهذا ما أكسبهم شعبية كبرى في قلب الجماهير .

حكم غليوم الدعي . - وظل غليوم الدعي أميناً على خط هذا السلوك ، واضطر في بعض الأحيان إلى استعمال القوة للحفاظ على امتيازاته . فقد اصطدم عند استلامه شؤون الدوقية بثورة البارونات الذين انتهزوا فرصة قصره لازاحة النير الذي يثقل كاهلهم . ولا شك في أن سلطته تعرضت في هذه الفترة لبعض الاضرار ، ولكنه منذ أن بلغ سن الرشد بادر إلى استرداد المواقع التي خسرها : أمر بخلق القصور التي شيدت في كل مكان ، وانتصر ، بفضل مساندة ملك فرنسا ، هنري الأول ، على الأمراء النورمانديين في معركة وادي الكشبان (١٠٤٧) ، وفرض طاعته ، واستعادت السلطة الدوقية شوكتها وبشكل أقوى بما في الماضي . وكان غليوم الدعي أميناً على التوجيهات التي رسمها أسلافه . ولذا تحرر قبل كل شيء من السيادة الكابسية التي أصبحت في عهده بقية حقوقية . وكان الوحيد ، من بين كبار الاقطاعيين ، الذي لم يحضر عام ١٠٥٩ حفلة تتويج فيليب الأول . وفي داخل الدوقية أجبر تابعيه أن يقبلوا بوجود حاميات أميرية في قصورهم بغية استتباب الأمن الداخلي وقوة نفاذ نظم السلام التي شجع على انتشارها وحببته إلى قلوب الناس من علمانيين واكليزيين .

وسياسته الكنسية مستلهمة من الاتجاهات نفسها في علاقاته مع الأمراء . فهو يريد أن يكون سيد الكنيسة كما هو سيد المجتمع العلماني ، وأن يسمي بنفسه الأساقفة والآباء . ولكن انتخابه كان مجرداً من كل مفسدة . واستعمل سلطته لما فيه خير الدين : فقد أسس أديرة وشجع فيها دخول الإصلاح الكلوني وكافح السيمونية والنيقولاوية بشدة واستحق لذلك عطف الكرسي الاقدس الذي بآرك مشاريعه وساعدها .

وبفضل هذا الاعتدال الذكي المعدل لقساوة الحكم المطلق نفع غليوم الدعي في الدولة النورماندية قوة حقيقية تعتمد على شعبية اجماعية . وهذه الشعبية ساعدته على تصور ووضع خطط واسعة انضجها مع الزمن وأخذ ينفذها حسب الظروف .

غداة نصر وادي الكشبان (١٠٤٧) وبينما كان يخمّد الاقطاعية النورماندية ، اتجه بانظاره صوب منطقة المين الواقعة بين نورمانديا والآنجو ويبدو أن هذه المنطقة مهيأة لتبتلع من إحدى هاتين الدولتين الاقليميتين . وقد أفاد غليوم الدعي من مساعدة ملك فرنسا له ومن ضعف الكونت جوفروا الاطى وفرض نفوذه عليها . وبالرغم من الثورات التي قامت في سبيله استطاع الحفاظ على هذه الكونتية ووسع بها أملاكه من جهة الجنوب . ثم تابع في الغرب مشروعاً من نفس النوع في بريطانيا ، اثر وفاة ملك انكلترا ادوارد المعرف (٥ كانون الثاني ١٠٦٦) ، وشغل نفسه بتعزيز السيادة النورماندية فيها .

غليوم الدعي وانكلترا . - لقد حلم غليوم الدعي بالتاج الانكليزي لا سيما وان الملك إدوارد المعرف لم يكن له ورثة مباشرون . وكان إدوارد ، من جهة امه إيتا ، ابن اخت رويير الشيطان ، ابي غليوم ، ولم يستطع إعتلاء عرش أجداده ، كما رأينا ، إلا بفضل دعم القوة النورماندية له .

وكان للروابط العائلية والخدمات قيمة هامة لاجدل فيها ، حتى ان غليوم النورماندي الطموح لم يدعها تفوت فتسقط في زوايا النسيان .

في ١٠٥١ ذهب غليوم إلى انكلترا تصحبه حاشية فخمة ، فاستقبله ، ابن عمته الملك إدوارد المعرف بحفاوة ، ولم يعدده بأي وعد ايجابي ، ولكنه دل على عطف خاص نحوه . وهذا العطف ولد عند غليوم آمالاً واسعة . وربما استسلم للوهم والضلal ، لأن ادوارد المعرف ، بالرغم من العطف الذي ابداه للامراء النورمانديين ، كان يفكر باستمرار سلالة الفرد الكبير ونقل التاج الى ابن أخيه ادموند ، ادوارد ، المنفى في هونغاريا ، وقد دعاه ليكون الى جانبه . ولكن ادوارد هذا توفي عند وصوله الى انكلترا وترك ثلاثة أولاد صغار لا يقدرّون على المطالبة بآرث ادوارد المعرف ومقاومة الاقطاعية الانكليزية التي يتزعمها هارولد ، بن غودون ، ويطمع بالملكية لشخصه ويفكر بان الوقت حان لاغتصاب مماثل للاغتصاب الذي قامت به الأسرة الرويوتية في فرنسا في القرن الفائت .

ويبدو أن ادوارد المعرف كان يخشى هذا الحل الأخير بعد ان عرف ان الفتى ادغار بن ادوارد المتوفى لا يستطيع أن يحكم ، وبتأثير بطانته من الاكليركيين النورمانديين أرسل ، في العام ١٠٦٥ ، مطران كانتوربري ، روبر ، وقدم التاج الى غليوم . وبعد أسبوعين على مجيء هذا الخبر الى نورمانديا أوقعت عاصفة هارولد في يدي كونت بونثيو ، غبي ، فسلمه الى دوق نورمانديا ، ولم يستطع زعيم الاقطاعية الانكليزية استعادة حريته الا بعد ان أقسم بيمين الولاء الى غليوم ، منافسه في المستقبل . وكانت المعسر الوسيط - ٤٤

— ٦٩٠ —

هذه اليمين سلاحاً بيد النورماندي ؛ لأن هارولد يعتبر حائناً إذا استمر بطالته في أن يكون خلفاً لادوارد المعرف .

وفاة ادوارد المعرف (٥ كانون الثاني ١٠٦٦) . - وافستحت قضية الخلافة في ٥ كانون الثاني ١٠٦٦ بوث الملك . وكان غليوم الدعي قوياً بقرابته وارادة الملك المتوفى واليمين التي أقسمها هارولد . ولذا كان في وضع ممتاز لتحقيق أكبر مطمح في حياته وتجديد مغامرات الفاتحين الدانباركين ، سفند وكنوت الكبير ، مع كل حظ في النجاح .

سنة ١٠٦٦

القلاب ٦ كانون الثاني ١٠٦٦ . - غداة وفاة ادوارد المعرف ، أي في ٦ كانون الثاني ١٠٦٦ لم ينتظر هارولد انتخاب الأمراء ونادى بنفسه ملكاً على انكلترا وباركه مطران يورك ، الدرد ، وسوي كل شيء في صبيحة واحدة . ورغم ان هذا الانقلاب مخالف للتقاليد الانكليزية ، لم يثر أي احتجاج مباشر ، وشايع معظم الاساقفة والبارونات هارولد وانحنوا أمام الأمر الواقع خوفاً بما هو أشد وأمر ، الغزو الاجنبي . إلا أن أهل نورثامبريا أبدوا بعض المقاومة التي استغلها أخو هارولد الخاص ، توستيغ . فقد ابعد هذا عن إرث أبيه غودون ، رغم أنه الابن البكر والتجأ في الفلاندر حيث تزوج بنتاً لبودون الخامس وأصبح بذلك عديلاً لغليوم الدعي . والحق يقال ان توستيغ لم يكن بالذي يخشى خطره ، ومن الممكن كسبه ببعض الامتيازات . ولكن الخطر الحقيقي الذي يهدد هارولد كان من الخارج : من ملك الدانبارك سفند ايسثريتسون ، ومن دوق نورمانديا ، غليوم الدعي الذي كان يتهاى لاثبات حقوقه .

الاستعدادات النورماندية . — منذ أن عرف غليوم نبأ وفاة الملك وانقلاب ٦ كانون الثاني أرسل إلى هارولد رسولاً وكلفه بأن يذكره باليمين التي قطعها على نفسه قبل بضعة أشهر أثناء اقامته في نورمانديا . وحرص على القول ان منافسه حث يمينه ليبرر الحملة في أعين الكنيسة التي يعلق أهمية كبيرة على تحالفها معه . وفي الواقع، لقد اعترف البابا الكسندر الثاني بسمعية حزام غليوم وبعث إليه بشعرة من شعر القديس بطرس والراية التي تجلب لجيشه الحماية من الله تعالى .

وكان غليوم قوياً بدعم الكرسي الاقدس له ويمكنه الاعتماد أيضاً على مساندة تابعيه . وبينما كان يفاوض روما ، دعاهم إلى ليندون . ويبدو من تعداد المؤرخين ان هذا المجلس ضم عدداً عظيماً من الامراء ، واثبت فيه بعض الاعتراضات خوفاً من الاخطار التي قد تأتي عن اجتياز بحر المانش أو من القيمة العددية للجيش الانكليزي . وبالرغم من أن حملة غليوم إلى ما وراء البحار لا تتفق وقواعد الخدمة العسكرية الاقطاعية ، فقد وافق البارونات اجمالاً على مشروع مولاهم ، وبدا هذا المشروع مشمراً في نظرهم بعد أن تصوروا الهبات الأرضية الغنية التي تكافئ القيام بهذه الخدمة التبعية الاستثنائية . لقد كان الأمل بالغنية يجذوهم جميعاً . ومن الصعب ، بسبب مبالغة المؤرخين تقدير عدد الجنود التي صحبت غليوم ، ولكن من الممكن أن نفترض أن الجيش الذي اجتاز المانش معه لا يتجاوز خمسة الاف رجل إلا قليلاً .

وفكر الدوق غليوم أيضاً بالوسائل الضرورية لتأمين النقل ، فجمع وحدات الاسطول في مصب نهر الديف على المانش وتم الحشد في شهر آب في سان — فاليري ، ولم تكن الرياح مواتية للبحار واضطر ان

يبتظر حتى ٢٩ أيلول للاقلاع ، ثم نزل في بيفنسي على الشاطئ البريطاني واحتلها دون عناء .

استعدادات هارولد . - كان هارولد متبياً لكل احتمال . وكما أشرنا ، لقد أعترف به القسم الأعظم من الشعب الانكليزي ، واستطاع أن يستدر العطف بحكمه المعتدل وحماية الكنائس والأديرة وملاحقة المجرمين وتأمين النظام والسلام ، وأفاد من ذلك لايقاظ العاطفة القومية ، وفي الوقت نفسه جعل المملكة في حالة دفاع ، والف في الغرب والجنوب جيشاً قادراً على مجابهة النورمانديين . وأفسد خطط أخيه توستيغ . وبعد أن حاول هذا عبثاً إثارة بلاد المهبرجاء وساعد ملك النورفيج ، هارالد هاردرادا الذي احتل جزر أوركاد ونزل عند أفواه نهر الاوز وغلب في ٢٠ أيلول . وأدرك هارولد مدى الخطر ، وأفاد من جود غليوم في سانت فاليري فأسرع إلى توستيغ وهارالد هاردرادا ودارت معركة حامية قتل فيها الاثنان مع عدد من المحاربين الاسكندنافيين . ثم عاد بسرعة الى منطقة لندن ووصلها متأخراً ولم يستطع مقاومة النورمانديين ، ولكنه تمكن على الأقل من أن يجمع القوى التي تسد طريق العاصمة في وجه الغزاة .

معركة هاستنغز (١٤ تشرين الأول ١٠٦٦) . - تقدم هارولد حتى سينلاك وحصن جيوشه على رابية بهذا الاسم . ووقع الاختيار على هذا الموقع لأن الراية التي احتشد عليها الانكليز تشرف على سهل هاستنغز حيث ينتشر الاعداء ولا يستطيعون الزحف على لند - دون ترك الكثير من الضحايا . وكان هارولد متفوقاً بعدد جيشه . وإذا لم يمكن تقدير عدد جنوده بدقة فما لاشك فيه انها كانت تفوق جنود غليوم الفاتح . ولكن النورمانديين كانوا يتفوقون بسلاحهم الخفيف وقيادتهم المجرية وفرسانهم المدربين وإلى هؤلاء يرجع الفضل في جزء من الفوز .

ومن الصعب معرفة ماتم على وجه الصحة في هذا اليوم الأغر ، فقد ظلت الاوصاف التي تتكلم عنه زمناً طويلاً مستوحاة من قصة دو التي كتبها واس حوالي العام ١١٦٠ ولم يعرف معركة هاستنغز إلا من قصص آبيه أو من مطبوعة بايو الشهيرة التي فسح تاريخها مجالاً لكثير من الجدل ، ولم يكن سابقاً على وجه التأكيد للسنوات الاولى من القرن الثاني عشر . وإذا كانت هذه الوثائق المتأخرة تلور خاصة الأساطير التي بعث بها حادث من طبيعته أن يضرب الخيال ، فإن المصادر المعاصرة في معظمها مصادر نورماندية ويتجلى فيها التحيز والتمجيد بكل صراحة : إن أسقف آميان ، غي بونثيو ، الذي نظم قصيدة عن معركة هاستنغز بين ١٠٦٦ و ١٠٧٤ ، و غليوم بواتيه مؤلف « تاريخ الدوق غليوم » الذي ظهر بين ١٠٧١ و ١٠٧٧ أثزان مدحيان متحمسان مندفعان ولا يمكن قبول شهادتهما إلا بحذر . وكذلك النص الانكليزي الممثل خاصة بغليوم الملبوري لم يظهر إلا في منتصف القرن الثاني عشر ويحتوي أيضاً كثيراً من التفاصيل الاسطورية . ولذا فان النقد يصطدم ، من أجل الأحداث التي جرت ابتداءً من ١٤ تشرين الأول ١٠٦٦ ، يوم الملحمة ، بسلسلة عقبات كداه .

وفي الحقيقة ، ان النصر النورماندي ، في هاستنغز ، لا يترك مجالاً لشك ، ولكن الذي يبدو أيضاً هو أنه كان مشكوكاً فيه في بعض الأحيان ، وانه كلف غالباً . وكل ما نستطيع استخلاصه هو أن معركة حامية الوطيس دارت في سهل هاستنغز ومات فيها الأمير هارولد واخوته . وبعد أن فقد الانغلو - ساكسون زعماءهم انسحبوا وقاتلوا متراجعين وغلب غليوم ولم يبق له إلا أن يقطف ثمار ظفروه .

- ٦٩٤ -

ويقول المؤرخون ان غليوم ، عوضاً عن أن يزحف مباشرة إلى لندن ، بقي خمسة أيام في ساحة القتال يدفن القتلى . وهذا يعني أنه أراد أن يستجمع قوى جيشه بعد المعركة . وفي ٢٠ تشرين الأول تقدم على طول الشاطئ وأجتازرومني حيث عاقب السكان الذين هاجموا جيشاً نورماندياً ودخل دوفر ، ثم نظم الساحل واتجه نحو لندن ولم يبد السكان نحوه أي عطف . فقد اجتمع مجلس من الوجهاء والمواطنين بوحى من رئيس أساقفة كانتوربري ، ستيغاند ، وفادى بالشاب ادغار آثيلينغ ابن أخي ادوارد المعرف ، ملكاً . ولكن الاجماع لم يتم على هذا الأمير الطفل وأعلن الكونتات موافقتهم شكلياً وكانوا على استعداد لمشايعه غليوم .

وفي هذه الظروف بدت كل مقاومة مؤقتة . واستطاع غليوم أخيراً أن يقطع مواصلات لندن مع الخارج ، واستعمل طرق التخويف باحراق الاحياء الواقعة على الضفة اليمنى لنهر التاميز ، واستسلمت المدينة أخيراً ، وكان ستيغاند أول من قدم خضوعه ، وقلده زعماء الحزب القومي ، حتى ان ادغار نفسه اضطر إلى الاعتراف بدوق نورمانديا ملكاً على انكلترا .

تتويج غليوم الفاتح (٢٥ كانون الأول ١٠٦٦) . - ولم يستسلم غليوم الفاتح للتوسلات التي كانت تنهال عليه من كل جانب ، ويتوج نفسه ملكاً ، بل فضل قبل كل شيء أن يهدى الافكار ويحصل على مشايعة الناس له . وفي يوم عيد الميلاد في ٢٥ كانون الاول ١٠٦٦ قبل التاج من يدي رئيس أساقفة يورك في كنيسة القديس بطرس في قصر وستمنستر حيث يرقد ادوارد المعرف .

وكان هذا الاحتفال تتويجاً للفتح الذي أراد غليوم أن بسبغ عليه

- ٦٩٥ -

صفة الشرعية في أعين الشعب . وقد اصطبغ بصبغة البروتوكول التقليدي . وفي حضور الاكليروس والشعب أقسم غليوم اليمين « على أن يحمي كنائس الله المقدسة وكهانها ، وأن يحكم الشعب بالعدل والحكمة وأن يعلن قانوناً عادلاً ويأمر الناس بمراعاته » . ولم يفته شيء من حيث تدخل الكنيسة وقبول الشعب . وهكذا ائتمت آثار الاغتصاب الفاتح وعادت انكلترا تسير قدرها .

تدابير التهدة . - وإذا قبلت لندن النظام الجديد فات غليوم الفاتح لا يمكنه أن يباهي بأنه حصل على اجماع الشعب الانكليزي في آخر العام ١٠٦٦ فما زال بحاجة إلى كسب معظم رعاياه . وهذا مادفعه إلى اتخاذ تدابير من شأنها بعث الثقة والخوف معاً .

وإذا أخذنا برأي المؤرخين وجدنا أن الملك أراد قبل كل شيء أن يقطع دابر الفوضى والعنف والاضطراب التي تخشى عادة في أعقاب النصر . فقد حرم على جنوده السلب والنهب والاختلاف إلى الخانات وأماكن السوء والاعتداء على النساء ، وأسس لهذا الغرض محاكم خاصة لتقمع بشدة مخالفة النظام . ومن جهة أخرى ، كافأ الزعماء النورمانديين الذين دفعهم الطمع إلى انكلترا بهبات أرضية على حساب أنصار هارولد ، وحاول أن يجنب الاعتداء على أموال الانكليز الذين لم يجاربوه ، حتى ان عامة الشعب لم تشعر بما يؤلمها من تبديل الاوضاع واحلال النظام النورماندي محل النظام الأنغلي - الساكسوني .

وهذه السياسة المعتدلة العاقلة لم تمنع الفاتح من اتخاذ حيلته . فقد وضع أخاه اودون بابو في قصر دوفر وكلفه بالاشراف على شاطئه كنت ، وعهد إلى مخلصيه بتهدة الحالة في شمال المملكة . ووضعت الحاميات النورماندية

في كثير من القصور بغية التدخل مباشرة في الحالة التي يظهر فيها أقل .
حركة مقاومة

وكان لهذه التدابير نتائج سعيدة . فقد توالى خضوع المناطق الواحدة
بعد الاخرى ، حتى ان غليوم في العام ١٠٦٧ اطمأن عن سلطته في
انكلترا وعاد إلى نورمانديا ظافراً بصعته الفتى ادغار وكثير من
الامراء الانكليز .

ولكن الفاتح مالبث أن عاد إلى انكلترا لان نوابه كادوا أن يفسدوا
عمله بظلمهم وجشعهم وطمعهم وفضاعتهم ، حتى تحولت الكراهية إلى
ثورة . واستطاع غليوم أن يقضي على المقاومات واحدة بعد أخرى ويتمتع
أخيراً بسلطة غير منازعة ، وينهي تنظيم مملكته .

تنظيم انكلترا في عهد غليوم الفاتح

صفات أثر غليوم الفاتح . -- إن العمل الذي قام به غليوم الفاتح
في العشرين سنة التي تلت الفتح ، كان مأخوذاً ببناء النظام على أسس
دائمة وثابتة . ولكن كثيراً من العقبات وقفت في طريق الملك : فالثورات
التي كافحها ، ان لم تدل على عاطفة قومية قوية جداً ، فعلى الأقل ،
دلت على التردد والقلق وسوء الظن . ولذا ينبغي قبل كل شيء ، سلوك
سياسة حازمة ورجيمة جلب الشعب الانكليزي إلى جانبه . ومن جهة
أخرى ، ينبغي ارضاء شهوات البارونات النورمانديين الذين استهوتهم
انكلترا طمعاً في الحصول على دومينات لاستغلالها . ولم يرتبك غليوم
لكل هذا ، وإذا لم يتوصل لارضاء كل الناس فقد استطاع على الأقل
أن ينشئ في انكلترا ، وهذا ما يبدو مسبقاً متناقضاً ، ملكية ذات حكم

مطلق تعتمد على نظام أميري ولكنه عرف كيف يعدل هذا النظام
ببراعته المعتادة .

ادخال النظام الأميري إلى انكلترا . - لقد كان النظام الاميري
معروفاً في انكلترا قبل الفتح النورماندي ، ولكنه لم يكن ظاهراً بثل
ما كان عليه في القارة . فمذ عصر الانغلو - ساكسون تنازل الملوك في
بعض الحالات عن أراض إلى بعض الامراء ، وتركوا عليها الحقوق
الملكية ، وفي المنازعات الكبرى التي قامت في القرن التاسع والعاشر
كثرت نقل الملكية ، وأفادت الكنيسة كثيراً من هذا النقل في بعض
الأحيان . وفي بداية القرن الحادي عشر لم تقم الملكية الدانماركية بحركة
تقاوم هذا الدفع ، بل سلمت به وكافأ كنوت بهيات بمائسة محاربه
المخلصين له . ومع ذلك فان هذه الاقطاعات لم تكن عامة كما كانت في
فرنسا . فقد وجد في انكلترا إلى جانب الارستقراطية العسكرية والعقارية
طبقة عديدة نسبياً وهي طبقة الملاكين الأحرار ، وظل هؤلاء يستغلون
أراضيهم كالمعتاد ، ولكنهم وجدوا في الغالب في ظروف صعبة لاستغلالها .
لقد كانوا تحت رحمة ملاك كبير مجاور ، وأدى الأمر بهم أخيراً إلى
أن طلبوا عونه ونجده ووضعو أنفسهم تحت تبعيته . ووجدت روابط
غير معرفة جيداً ومتغيرة أساساً ونشأ عنها التباس عظيم .

هكذا كانت الحالة الاجتماعية في انكلترا عند مجيء النورماندين ،
ولكن غليوم الفاتح أدخل إليها النظام والوضوح وطورها في اتجاه
بلائم الملكية .

وما زالت سياسة غليوم حتى اليوم مغلفة ببعض الغموض ولم يتفق
المؤرخون على طابع التدابير التي بسط بموجبها النظام الأميري نفوذه في انكلترا .

ولكن من الواضح أن يكون الاغتصاب في أساس هذه التدابير ، وعنه نشأ التحول في صيغة الملكية . لقد وضع غليوم باديه بدءه على الدومينات الخاصة بأعضاء الأرستقراطية الانكليزية الذين أودوا في يوم ١٤ تشرين الأول ١٠٦٦ . ومن جهة أخرى ، ان الثورات ، التي قامت في السنوات الأولى من حكمه ، فسحت مجالاً لتدابير انتقامية لاقت بتيجتها أراض كثيرة المصير الذي لاقته أراضي الأبطال الذين سقطوا في معركة هاستنغز . وتشكلت بيد غليوم الفاتح على هذا النحو كتلة ملكيه كبرى وتقاسمها مع أبناء وطنه . ولم يقف الملك عند هذا الحد ، بل صادر أيضاً الأموال العقارية لمن لم يشاعوه منذ اليوم الأول ولكنه سمح لهم باقتنائها شريطة أن يأخذوها منه وأن يصبحوا رجاله . وهكذا زالت الملكية الصغيرة الحرة . وفي آخر حكم غليوم الفاتح لم يبق من كبار الملاكين الذين كانوا في العصر الأنغلي - الساكسوني إلا حوالي ألف وخمسمائة متصرف . ولم يبق أي تمييز بين الانكليز والنورماندين بل الكل تابعون للملك ، وكل واحد منهم يستغل مانواراً (المنزل والاراضي التي حوله) واحداً أو عدة مانوارات (مزارع) ، ويستطيع أن يؤجر ويستأجر الاراضي . ويتوجب عليه تجاه الملك الخدمة الاقطاعية في العون والنصيحة ، ولكنه يقوم بالقضاء ويحجي الاتاوات .

الصفات الخاصة للنظام الأميري في انكلترا . - وبكلمة موجزة لقد أدخل الملك النورماندي النظام الأميري إلى انكلترا دون أن يترك أقل فارق حقوقي بين الغاليين والمغلوبين . ولكن هذا النظام أخذ فيها سماء خاصة ، واستطاع غليوم الفاتح بتشجيعه انتشار النظام الأميري وتنظيمه أن يجنب المحاذير التي ظهرت للسلطة الملكية في غير انكلترا .

ولهذا السبب لم تضعف السلطة العامة بل خرجت قوية بهذا التحويل الاجتماعي .

وعندما ينظر إلى خارطة انكلترا في آخر القرن الحادي عشر يرى بأن البلاد قسمت إلى عدة أمارات آخذة بالنمو ، مانوارات شبيهة بأمارات القارة التي تضم حول القصر دوميماً ريفياً تختلف سعته حسب المناطق . ومن العجب أن نجد فيها أثراً لاقطاعات كبرى . ولقد أراد الفاتح هذه النتيجة عمداً لأنه قصد ، قبل كل شيء ، أن يحول دون تشكيل هذه الدول الإقليمية التي قد تزيل سلطانها سلطة التاج في داخل المملكة . لقد أراد الملك أن يكون أكبر ملاك عقاري واسمى زعيم تخشاه الأرستقراطية العسكرية . ولذا حذف حكام الكونتيات (الدورمين) الذين يمكن أن يكونوا تابعين كباراً مستقلين ؛ ولم ينشئ أي سلطة من هذا النوع لصالح الزعماء النورماندين الذين شعروا بنتيجة ذلك بخيبة أمل . وكان بينهم أغنياء غناء كبيراً ، ولكن مانواراتهم كانت مبعثرة عبر المملكة ومتناثرة في اثني عشرة وأحياناً في عشرين منطقة مختلفة . إلا أنه في بلاد الحدود ، مثل أسقفية درهام وكونتية شيلستر وشروبشاير ، تألفت كونتيات متسعة قليلاً لمجاهاة هجمات ممكنة من جهة ايكوسيا وبلاد الغال والبحر . وفيما عدا ذلك لا يوجد دوميئات واسعة مؤلفة من قطعة واحدة ، لأن السائد هو التجزئة غير المحددة والمعرفة التي من شأنها إساءة سلطة الملك الذي يعتبر بما يملك من ١٤٢٢ مانوار أعظم ملاك عقاري ، ومن حظه الا يجد أمامه أي قوة منظمة .

كتاب الحساب الأخير . - ومن المستحيل إعادة بناء مراحل هذا التعديل الأرضي الواسع . فقد سكبت عنه المؤرخون سكوتاً مؤثراً .

يبد أنه حفظ على الأقل صك المساحة (الكاداستر) الذي أودعت فيه نتائج التحويل . فقد وضع عام ١٠٨٦ بأمر من الملك ودل عليه فيما بعد تحت اسم « كتاب الحساب الأخير » .

وإذا لتساءل ماهي فكرة غليوم الفاتح عندما أرسل المحققين إلى الكونتيات والمثويات والقرى وكلفهم القيام بإحصاء جميع ملكيات المملكة وتعداد الواردات التي يمكن الحصول عليها ؟ وهل فعل ذلك في سبيل الحصول على الضريبة أو أنه أراد أن ينهي التحويل الاجتماعي الذي بدأ به في السنوات السابقة ؟ من الصعب الجواب إيجابياً في هذا الموضوع . وربما ظهر المفهوم معاً : فمن الممكن أن يكون الملك قد أراد معاً تأمين جباية عادلة للضريبة وإنشاء مانورات في كل مكان تأسست فيه الملكية الحرة واستطاعت الحفاظ على بقائها . وعلى أي حال ، لم يغب شيء عن تحري المحققين الدقيق ، من حيث أصل الملكيات ، واسم مالكيها ، وعدد الفلاحين الذين يسكنون الدومين ، وعدد الحيوانات الداجنة الضرورية لاستغلاله ، وسعة السطح المزروع ، والمروج والغابات وبالغ الاتاوات من كل نوع . وبفضل هذا المنجم الذي لا ينضب من المعلومات يمكننا أن ندرك أهمية الإصلاح الاجتماعي الذي قام به غليوم الفاتح من ١٠٦٧ إلى ١٠٨٦ والتأكد من أنه لم يكن هنالك أي تمييز بين مختلف المتصرفين انكليزاً أو تورمانديين ، وإن الخدمات الاقطاعية خاصة كانت نفسها بالنسبة للجميع .

الاتاوات الاقطاعية . — إن بعض هذه الاتاوات سابق للفتح ، والأخرى ادخلت من نورمانديا . بين الاولى ، الحراج ، وهي ضريبة استثنائية فرضت على الأرض التي كانت مخصصة في الأصل لتدفع إلى الدانماركيين ، وعاشت إلى ما بعد الغارات الاسكندنافية ، والغاها

ادوارد المعرف ثم أعادها غليوم الفاتح ، وفي آخر العهد ، كانت تأتي سنوياً بعشرين ألف جنياً . ويضاف إلى هذه الموارد ، الموارد التي تأتي من العدلية والحقوق الدومينية ، والتي كانت على العكس ، من أصل نورماندي .

هذا ولما كانت حصيلة هذه الضرائب المختلفة تذهب مباشرة إلى التاج ، وكان الدومين الملكي ، من جهة ثانية ، يجهزه بواردات هامة أيضاً فقد وجد غليوم الفاتح غنياً جداً ، ومن الممكن أن نفترض أنه كان عند وفاته يأخذ سنوياً خمسين إلى ستين ألف جنيه ، وكان هذا المورد عاملاً في قوة الملكية الانكليزية وجعلها أقوى من غيرها .

النظم السياسية والادارية . - إن النظم السياسية والادارية التي منحها غليوم الفاتح لانكلترا ، وضعت بروح واحدة وأدت لهدف واحد وهو تقوية السلطة الملكية وخلق ملكية مطلقة الحكم .

لقد أعلن غليوم الفاتح ، غداة تتويجه ، انه ينوي حكم البلاد حسب قوانين ادوارد المعرف مع ما يجلب اليها من « إضافات يعتقد بأنها ضرورية لصالح الشعب الانكليزي » . وفي الواقع لقد تبنى الفاتح النظم السابقة للفتح عوضاً عن أن يقلبها ويستغني عنها في خطة الاصلاح الملكي . وفكر عن حق بأن احترامه ومراعاته للتعاملات القومية تجلب له عطف رعاباه الجدد . وفي السنة الرابعة من حكمه نراه عين لجنة وكلفها بالبحث عن الأعراف في كل كونتية وطلب إلى الممثلين المحلفين فيها أن يعرفوا بالقوانين التي يبعثون العيش في ظلها . وعندما علم أماني الشعب أذاع قوانينه الخاصة التي اشتقت في نقاط عديدة منها من القوانين التي منحها كنوت لانكلترا بعد الفتح الدانماركي . وهي تدل على اهتمام حقيقي باحترام تقاليد الماضي .

- ٧٠٢ -

وعلى هذا النحو وجدت ، إلى جانب الجيش الاقطاعي المؤلف من النورمانديين ، المليشا القديمة المؤلفة من رجال المثويات والكوتنيات . وكذلك بلاط الملك يذكر في بعض نواحيه ، بمجلس العقلاء ، وللتوكيد على القرارات الهامة مثلاً في الظروف الكبرى ، كان غليوم يعقد مجالس ويدعو اليها جميع رجال الملك .

ورغم هذا الاحترام للماضي ، كان غليوم الفاتح ينظم كل شيء بشكل يبقى فيه سيد الحكم . وكانت الاجتماعات العادية لبلاط الملك لاتضم إلا عدداً صغيراً من الأشخاص ، كبار الموظفين ، حبرين ، بارون أو بارونين . وتنظم رغبة الملك وحدها الدعوات إلى هذه الاجتماعات . أما الادارة المحلية فكانت منوطة منذ ١٠٥٧ بـ الشرفاء وبرتبطون مباشرة بالمليك ويأمرون باحترام سلطته . وهم موظفون حقيقيون ، وكان غليوم ينتقيهم من النورمانديين ويعهد اليهم بتفويض حقيقي بسلطته . ومع ذلك لم يستطع أن يقيمهم تحت سلطته بصورة وثيقة كما ثنى ، ولم يستطع أن يمنع بعضاً منهم من نقل وظيفتهم لورثتهم ، وهذا من طبيعته إضعاف إشراف الناج وتشجيع توسع النظام الاقطاعي المعاكس لنزعات الحكم المطلق .

السياسة الدينية . - وامتد حكم غليوم الفاتح المطلق إلى الكنيسة ، واستطاع هذا الملك أن يؤكد سلطته عليها بسهولة ، لاسيما وان الكرسي الأقدس كان يثق به كثيراً . لقد كان الكسندر الثاني يقدر قيمة غليوم الاخلاقية حق قدرها ، وخاصة بعد أن برهن مراراً على غيوره الدينية وعطفه على الاصلاح ؛ وبناءً على نصيحة هيلدبراند ، الذي أصبح في العام ١٠٧٣ بابا باسم غريغوار السابع ، بارك الحملة النورماندية في

العام ١٠٦٦ ، وكان مقتنعاً بأنها تستطيع أن تقوم بخدمة تجديد الكنيسة الانكليزية .

الكنيسة الانكليزية قبيل الفتح النورماندي . - لقد تأملت الكنيسة الانكليزية كثيراً من الأزمة السياسية التي أثارها المعارضة الارستقراطية خلال حكم ادوارد المعرف . وكان ايمان هذا الامير حياً وتقواه شديدة وكثيفة ، حاول اصلاح الكنيسة ولكن ظفر غودون في ١٠٥١ اضطره إلى ابعاد خيرة مساعديه ، الاكليريكين النورمانديين ، وقبول أساقفة من صنع الاقطاعية العليا في الاسقفيات الشاغرة . وانقسم الاكليروس إلى فئتين : أنصار غودون وقد التفوا حول ستيغاند ونسستر وآخرون، مثل ولستان ورسستر ، لم يقبلوا أن يكونوا تحت سلطة مطران تائر على روما . ومن الطبيعي أن يشكو النظام الكنسي من هذا الانقسام . فقد كانت السيمونية والنيقولاوية تفتكان بشكل أقبح مما كان في أي وقت مضى . وفقدت الكنيسة الانكليزية كل حياة واستقلال . ومنذ القرن العاشر لم تعقد أي مجمع وكانت تكتفي بالاسهام في مجالس العقلاء ، ولكن الاكليروس فيها كان تحت سلطة الدولة ، سيدة الاشخاص والاموال الكنسية . ولكن البايوية ، منذ حبرية ليون التاسع (١٠٤٨ - ١٠٥٤) دخلت في طريق مصلحة وكانت تنتهز أول فرصة سانحة لاصلاح كل شيء وإعادة التفوق الروماني والتقاليد القانونية التي سقطت في حين الاممال .

وكان الفتح النورماندي الفرصة المنتظرة . واتفقت مصالح غليوم الفاتح مع مصالح الكرسي الاقدس . فمن ذلك أن الاسقفية الانكليزية لم تسهم علناً بالثورات التي تلت نصر ١٠٦٦ ، ولكنها بالرغم من كل

شيء ، بسبب نفوذ ستيغاند ، بدت مخيفة بالنسبة للنظام الجديد . وكان من الممكن أن يخدم عمل التطهير الضروري قضية الدين الحنيف . وهكذا اتحدت البابوية والملكية في عملية الإصلاح ، ودخل الإصلاح الكنسي إلى انكلترا وتوطدت الملكية النورماندية .

تطهير الاكليروس الأعلى . - وعندما انتهت أعمال التمرد فكر غليوم الفاتح بتنظيم الحياة الدينية في انكلترا . وفي ١٠٧٠ طلب مجيء مفوضين حبريين ترأسوا في عيد الفصح وعيد العنصرة مجامع علينية في ونشستر وويندسور ، وخلع ستيغاند والاساقفة الذين باركهم . وأقام غليوم أساقفة نورماندين ، ولم يبق الاعدد ضئيل من الاساقفة المحليين من أبناء البلاد . ورسم الملك لكرسي كاتوبري الاب لانفرايك بعد أن اختبر علمه القانوني وتفانيه اللامحدود . وأصبح هذا الجليلق مشاورة الكنسي ، وقام باتفاق معه في اصلاح عام للكنيسة الانكليزية .

اصلاح الكنيسة . - لقد أعد هذا الاصلاح في عدة مجامع عقدت في ونشستر (١٠٧٢) ، لندن (١٠٧٥) ، ونشستر (١٠٧٦) وستمستر (١٠٧٧) غلوسستر (١٠٨٠) وغلوسستر من جديد (١٠٨٥) والاجتماع البسيط لهذه المجالس دليل على الاتجاهات الجديدة . لقد استلم غليوم الفاتح زمام المبادرة في الدعوة لهذه المجالس وصادق على مقرراتها ، ولم يؤثر أبداً على المناقشات التي كان يديرها جليلق كاتوبري ، زعيم الكنيسة الانكليزية . ومن هنا كان لهذه الكنيسة بعض الاستقلال ، وقد ظهر ذلك بقرار مجمع ونشستر الذي فصل القضاء الكنسي عن القضاء العصري وقرر بأن أي قضية من نوع روحي لاتعرض في المستقبل على قضاة علمانيين ؛ ومن جهة ثانية ، ان الاساقفة ورؤساء الكهان لا يقومون برافعات كنسية في محاكم المثوبات لان لهم محاكمهم الخاصة حيث يحكمون

حسب الحق القانوني لا حسب الحق العرفي . ومع هذا فان غليوم ، مع تنجويله الكنيسة الحربية التي لم تتمتع بها حتى ذلك التاريخ ، حافظ بغيرة على امتيازاته الملكية : فلم يكتف بتسمية الاساقفة والمصادقة على قرارات المجامع ، بل الزم الاكليركيين بالخدمة الاقطاعية وخص نفسه بحق تقرير الحالات التي يجب أن يتدخل فيها القضاء الكنسي ، بل ذهب وزعم أن الحرمان الذي يحكم به على بارون لا يكون له مفعول إلا بعد أن ينال موافقته . وهكذا لم تتج الكنيسة المصلحة من الحكم الملكي المطلق .

وحصل الاصلاح على نتائج رصينة : إن العزب الكنسي الذي أسقط في زوايا الامل ، أعيد مع بعض التخفيف الذي لاغنى عنه مراعاة للرحلة الانتقالية ، وتقرر على أن الاساقفة في المستقبل لا يستطيعون رسم الكهان إلا إذا تعهد هؤلاء بأن يظلوا اعضاء . وشجبت السيمونية بشدة . وبرهن الاساقفة على الكثير من الغيرة في قيامهم بوظائفهم ، وتعامل الزبارة الرعوية للنهوض بأخلاق الاكليروس النظامي الذي كان موضع اهتمام غليوم الفاتح : فقد جاء رهبان كلونيون من القارة وقاموا في داخل الابويات بتطهير شديد ، وتوطد النظام البندكتي ، وشيدت أبنية جديدة ، وكانت مراكز حياة دينية حية ونشطة .

غليوم الفاتح والكروسي الأقدس . - لقد كانت هذه التدابير مطابقة لروح التشريع الذي أذاعته المجامع الرومانية في بداية حقبة غريغوار السابع . وهذا يوضح لنا كيف أن خلف الكسندر الثاني كان سعيداً إذ وجد ملكاً يقاسمه وجهة نظره ، وسمى غليوم الفاتح « الملك العزيز جداً والابن الوحيد للكنيسة الرومانية المقدسة » . وهناك مراراً على عدم بيع الكنائس ، واجبار الاكليركيين على العفة ، وسيادة المعمر الوسيط - ه ،

السلام والعدل بين رعاياه ، وعدم استسلامه لاجهات أعداء المسيح الذين حاولوا أن ينصبوه ضد السلطة الرسولية . وبالرغم من هذه الاحكام التفاؤلية فقد وجدت بعض الغيوم في علاقات ملك انكلترا والبابا . لقد كان غليوم شديد الغيرة على سلطته ، وأراد الحفاظ على استقلال الكنيسة الانغلية - النورماندية حيال الكرسي الأقدس ، ولذا اصطدم بالنزعة المركزية لحكومة غريغوار السابع .

الملكية الانكليزية في زمن غليوم الفاتح . - لقد كان الخلاف مع الكرسي الأقدس نتيجة ، من بين نتائج أخرى ، للأفكار التي سادت حكم غليوم الفاتح . ان غليوم الفاتح لم يتسامح في انكلترا ، كما في نورمانديا ، بسلطة غير سلطته ، وإن كل سياسته تنهي إلى الحفاظ على الأشكال التقليدية ، وتحت ظواهر خداعة ، اقامة ملكية مطلقة لا تشبه في شيء الملكية الممجية والجامدة في عهد ادوارد المعرف . ولقد رأينا أن هذا الحكم المطلق مارس سلطاته في الغالب تبعاً لمصالح الشعب . ولا شك في أن غليوم الفاتح كان في بعض الحالات عنيفاً ومستبدأ ، وخاصة عندما يكون لأهوائه الشخصية دخل في الموضوع ، ولكنه بالاجمال ، أدخل إلى انكلترا سلاماً نورمانديا واثني عليه مداحوه الشناء الذي يستحقه ، وهذا ما أكسبه شعبية خاصة .

نتائج فتح النورمانديين لانكلترا . - لقد عاش أثر غليوم بعد وفاته . وإذا انقسمت المملكة الانغلية - النورماندية بعض الوقت في آخر القرن الحادي عشر فقد الفت وحدتها من جديد في بداية القرن الثاني عشر . وبانتظار توسعها الكبير ، الذي تلا وصول هنري الثاني بلانتاجونه (١١٥٤) ، أصبحت غداة حملة ١٠٦٦ عاملاً من العوامل الأساسية

في السياسة الأوروبية . وتأثر تاريخ أوروبا الغربية باتحاد انكلترا ونورمانديا تحت صولجان واحد : لقد نشأت قوة جديدة حول بحر المانش وهددت الدول المجاورة في القارة وخاصة المملكة الكابسية الناشئة . ولذا فان للتاريخ ٦٦ ١ أهمية خاصة في تاريخ العصر الوسيط بمائة لتاريخ ١٠٥٩ الذي طبع تحرير الكنيسة الرومانية . ولذا فان النشاط السياسي في الغرب اتجه ، من جهة ، نحو النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ؛ ومن جهة أخرى ، نحو النزاع بين المملكة الكابسية والمملكة الأنغلية — النورماندية وسيدوم حتى فجر العصور الحديثة .

الفصل الثالثون

النزاع بين الكهنوت والامبراطورية

حتى وفاة هنري الخامس

١٠٧٦ - ١١٢٥

غريغوار السابع وهنري الرابع (١٠٧٦ - ١٠٨٥)

بدأ النزاع بين الكهنوت والامبراطورية مباشرة عقب مجلس فورمز الذي صرح بسقوط غريغوار السابع عن منصب الحبرية (٢٤ كانون الثاني ١٠٧٦) وبعد مجمع روما (١٤ شباط ١٠٧٦) الذي أجاب بخلع ملك جرمانيا هنري الرابع . ودام هذا النزاع قرنين بين الأباطرة والبابوات أو بين نظريتين لاتتفقان : القيصرية الامبراطورية الجرمانية ، والنيافة الرومانية التي يدل عليها باسم التيقراطية أي « الحكومة الالهية » أو « المشيئة الالهية » .

كانت الحالة ، عقب القطيعة بين السلطين ، تتطور لصالح الكرسي الأقدس ، لأن الحكم الذي قضي به ، في ١٤ شباط ، كان له صدى عظيم في ألمانيا . ففي مجمع فورمز لم يكن أمام الأساقفة متسع من الوقت والحرية للتفكير . فقد أجبرهم هنري الرابع على تحرير وتوقيع تصريح عدم الخضوع والعصيان ؛ ولم يستطيعوا أن يفعلوا غير ذلك ، وإلا لتعرضوا لأشد الأخطار . غير أنه لم تمض بضعة أسابيع إلا وأفاقوا من حلمهم ،

وأخذوا يتصورون خطورة العقوبات القانونية التي قد تلحق بهم ، وجعلوا يبدلون وضعهم . يضاف إلى ذلك أن غودفروا الأحدب دوق اللورين الدنيا مات قتيلاً وبوته زال خير دعامة لهنري الرابع في إيطاليا .

لهذه الأسباب المختلفة أخذ الأساقفة يرجعون عن غيهم ويدخلون في طاعة الحبر الأعظم . وإذا لاحظنا أن الأمراء العلمانيين لا يبدون تجاه مليكهم أي حماسة ، أمكننا أن نتصور أن وضع هنري الرابع في ربيع عام ١٠٧٦ بدأ يتضعع عما كان عليه في السابق .

كان الملك في اوترخت يوم سبت النور (٢٦ آذار ١٠٧٦) عندما علم بالحكم الذي أصدره البابا بحقه . وكان إلى جانبه أسقف هذه المدينة ، غليوم ، وهو من أنصاره المتحمسين ، وجران آخران من دعاة . وقد خاف هذان الأخيران وفرا سراً في حلك الظلام . وكان لانسحابهما أكبر الأثر ، لاسيما وان صاعقة نزلت على كاتدرائية اوترخت ، في يوم الفصح ، حيث كان غليوم يجبر ، باسم الملك ، الحرمان ضد البابا ، فدل بذلك على حكم الله وزاده تأييداً أن مات الحبر المجدف بعد بضعة أسابيع على هذا الحادث .

واستمر هنري الرابع في مقاومته . فمن اوترخت وجه إلى غريغوار السابع رسالة شهيرة يتهم فيها الحبر « بوصوله إلى الكهنوت بالمال والخطوة والقوة » ويلقي إليه بهذا الأمر : « نحن ، هنري ، الملك بفضل الله ، ندعوكم مع جميع الأساقفة : اهبوا ، اهبوا فانتم محكومون إلى الأبد » . وفي الوقت ذاته دعا الأساقفة الألمان إلى الاجتماع في فورمز في عيد العنصرة (١٥ أيار ١٠٧٦) لانتخاب بابا جديد .

غير أن هيئة الأساقفة لم تستسلم في هذه المرة ، وكانت فورمز في اليوم الموعد خالية تقريباً ، واضطر الملك إلى تأجيل الاجتماع إلى ٢٩ حزيران

على أن يكون في ماينس . ولم يسفر هذا الاجتماع عن شيء لكثرة المتخلفين . وأخذ المترددون ينضمون شيئاً فشيئاً إلى صف البابا .

وظل البابا منذ جمع روما (شباط ١٠٧٦) يعلن بأنه على استعداد للصفح عن الملك إذا قام هذا بما يتوجب عليه تجاه الكرسي الأقدس حسب قوانين الكنيسة . وكانت الرسالة التي بلغ بها البلاد المسيحية جمعاء ، في آخر شباط ، قرار الجمع ، نداء حاراً للمؤمنين بدعوتهم فيه أن يتوجهوا إلى الله بصلواتهم و « أن يلهم التوبة قلب الكافرين ، لأنها الوسطة الوحيدة التي » تعيد الملك إلى حضن أمنا العامة التي عمل على انقسامها . وكان غريغوار السابع مسوقاً بعوامل دينية ، همه قبل كل شيء أن يمارس كامل سلطة العقد والحل التي خولها المسيح للحواري بطرس ، ولذا لم يكن له من رغبة سوى أن يلفظ حكم العفو الذي يدل ، كحكم الحرمان ، دلالة واضحة على التفوق الروماني .

وكان لهذا الموقف المسالم أثر عظيم في ألمانيا . فقد كثرت عدد الأساقفة المنشقين عن الملك ، ودخل المسرح الأمراء الألمان ، وجعلوا يتساءلون ما إذا كان الوقت قد حان للتخلص من طغيان هنري الرابع . وفي بحر ايلول ١٠٧٦ ألتقى كبار أمراء ألمانيا بأساقفتها وقرروا عقد اجتماع في ترييور في ١٦ تشرين الأول للنظر في هذه القضية التي تشغل ألمانيا . وانعقد المجلس في الموعد المعين وحضره مندوب عن البابا بين الحاضرين ألا يستبقوا الحوادث ويحاولوا قبل كل شيء الحصول على امتثال الملك وخضوعه . وكان هذا في أوبنهايم ، وأزعجه تخلي الأساقفة عنه ، فرأى ، إذا أراد الاحتفاظ بتاجه ، أن ينقاد للتيار العام وحرر وثيقتين : الأولى وتسمى الوعد إلى مندوب غريغوار السابع ، وبها يتعهد بأن « يراعي طاعة الكرسي الأقدس في كل شيء » وأن « يعمل كل

ما في وسعه ليكون ممتناً منه . . والثانية بلاغ يتوجه به إلى الأمراء ويصرح فيه بأنه على استعداد « لتبديل حكمه الأول مقابل أي رأي سلمي » . وربما كان يؤمل أن يتأثر مندوب البابا لهذه العبارات الغامضة في الندم ويصالحه مع الكنيسة دون أن يقوم بتعهدات أخرى واضحة في قضايا الخلاف . ولكنه كان يجهل أن غريغوار السابع قد احتفظ لنفسه بحق العفو . وعندما علم بذلك قبل المقترحات التي قدمها إليه مندوب البابا والأمراء ، وبموجبها يدعى البابا إلى اجتماع يعقد في اوغسبورغ تحت رئاسته في ٢ شباط ١٠٧٧ حيث يلفظ الحكم النهائي اما بالعقاب أو السماح .

وصادق على هذا الاتفاق غريغوار السابع ونهياً للسفر إلى ألمانيا في أوائل كانون الثاني ثم وصل إيطاليا الشمالية . وعوضاً عن أن يلقي فيها الحرس الذي يجب أن يرافقه إلى ألمانيا ، كما كان متفقاً عليه مع الأمراء الألمانين ، إذا به يدهش عندما يعلم أن هنري الرابع في الطريق قادم إليه . وفي الحقيقة ان الملك لم يكن ليؤغب بمجيء البابا إلى ألمانيا . وكان يخشى من أن يقف مجلس اوغسبورغ ضده ، لأنه لا يستطيع أن يعتمد على الأساقفة ، وأقل منهم على الأمراء ، لأنه يعرف عداؤهم وموقفهم منه . أمام هذا المستقبل الذي لا يطمأن إليه رأى هنري الرابع أن يستبق خصومه بالذهاب إلى إيطاليا ، وبتوبة مدبرة مصحوبة باخراج مسرحي رائع يستدر عطف البابا ورحمته ويلتزع منه العفو الذي يجعله من جديد كاثوليكياً رومانياً ، وأهم من ذلك ، ملك جرمانيا .

وقد استعان هنري الرابع لهذه الغاية بأشبينه ، هوغ كلوني ، لأنه يعلم منه رغبته في بقاء التفاهم سائداً بين الكهنوت والامباطورية . وبعد أن وثق من هذه المساعدة انحدر إلى إيطاليا .

ولما سمع غريغوار السابع بمجيء الملك المفاجيء التجأ إلى قصر كانوسا

الواقع في الجنوب الغربي من ريدجيو التابعة إلى الكونتس ماتيلد . وحاول هنري الرابع أن يتفاوض معه على الفور بواسطة هوغ كلوني وماركينز ابست ، آزون ، وآديلايد سافوا وماتيلد نفسها أيضاً . وبدأ البابا في أول الأمر صلباً لا يريد أي مفاوضة ، لأنه يعلم بأن العفو قبل أوانه قد يفسد وضع الكنيسة ، وبعد لأي هزته الأريحية أمام مظاهر الندم التي حاول هنري الرابع أن يحرك قلبه بها .

وفي ٢٥ كانون الثاني ١٠٧٧ وصل الملك كانوسا يصحبه حرس قليل ليمنع عنه كل شبهة . وبقي ، كما يقول مرسوم لغريغوار السابع ، ثلاثة أيام دون شارات ملكية ، عاري القدمين في ثياب التائب ، وهو يسترحم العفو الرسولي حتى « أهاج من شهد هذا السلوك أو من ترك صدهاء في نفوسهم » . وتوسط حاشية الحبر الأعظم لصالح الأمير . وعجبت الكونتس ماتيلد وهوغ كلوني لما رأياه من « قساوة غير عادية » عند البابا وذهبا إلى أن انتهاه « بالفضاعة والظلم » . وظل غريغوار السابع يقاوم ثلاثة أيام . ثم « غلبه استمرار الندم » واستقبل هنري الرابع على أن يحلف ميمناً بوقعها الحاضرون .

وقد حفظ نص هذه اليمين . وفيه يعد الملك في الحدود التي يعينها البابا « أن يقيم العدل حسب حكمه وعلى وفاق مع نصيحته ويوافق ، إلا لمانع حقيقي وموقت ، على منح غريغوار السابع مهدقة مرور إذا أراد أن يأتي إلى ماوراء الجبال أي إلى ألمانيا ، ويسهر على سلامته وسلامة حاشيته ، ويجول دون أي محاولة تدبر ضده » .

وتشبه هذه اليمين بين أوبنهايم بغموضها ولا تتضمن من جانب الملك تعهداً واضحاً بأنه سيمثل بين يدي مجلس أوغسبورغ . كما أنه لم يتعرض لأي مشكلة من المشاكل الحارة ، كمشكلة مشاوريه الأشرار ، أو قضية

التقليد العلماني ، أو قضية التفوق الروماني . والخلاصة ان غريغوار السابع لم يحصل على أي ضمان .

أما هنري الرابع فقد استرجع تاجه بعد أن تصالح مع البابا وعندما يمثل أمام البابا لا يكون مثله مثل المذنب الذي يرجو بكل ضراعة عفوه ويعترف باخطائه ، بل يقف موقف الملك . ولو افترض أن المجلس المزمع عقده قد انعقد فكيف يستطيع البابا أن ينقض حكمه السابق ويلفظ حكماً يخالف حكمه في كانوسا ؟

وفي الحقيقة ، ان هنري الرابع ، قبل كانوسا ، كان واثقاً من ضياع تاجه ، أما بعد كانوسا فلديه من الحظ ما يجعله يحتفظ به . وقد استطاع في نزاعه مع الكرسي الأقدس والأمراء أن ينجح ويكسب ما كاد يضيعه . ولا شك في أن غريغوار السابع قد أزال بفعله هذا جميع الفوائد التي حصل عليها في بحر عام ١٠٧٦ ، ولكن فعله كان علوياً تلهمه عاطفة مسيحية نبيلة . ولو أن البابا بقي متعنّياً واحتفظ بوضعه الاول وأبقى باب القصر موصداً في وجه المذنب المتوسل ، لأشهر بأنه سياسي حازم ودبلوماسي متين بعيد النظر ، إلا أنه بعفوه وسماحه دل على أنه مسيحي حقاً وأهل للتخلي عن أعراض النجاح الزمني والتكيف مع ما يطلبه الاحسان .

ومع هذا فان سلطته الروحية بقيت مصونة لم تمس . وإذا عقد في روما (شباط ١٠٧٦) ، فقد حل في كانوسا (كانون الثاني ١٠٧٧) مذنباً أثمياً طوراً وثائباً طوراً آخر . وسلطة العقد والحل هذه ، التي تلمي جميع سياسة غريغوار السابع ، قد اعترف بها هنري الرابع ضمناً عندما توسل إليه أن يصفح عنه . وهذا الاعتراف في نظر غريغوار السابع نتيجة هامة لأنه يرى فيه انحناء القيصرية البابوية الرومانية أمام التفوق

الروماني ، ولذا فإن كانوسا ظفر غريغوار السابع ، ولكن خداع هنري الرابع وطموح الامراء جعلاه ظفراً مرقئاً فخير الأمد .

جلسا أولم وفورشهايم (شباط - آذار ١٠٧٧) . - وبينما كان ينتظر في ألمانيا اجتماع أوغسبورغ بفارغ الصبر ، أحدث عفو كانوسا اضطراباً عظيماً في الأفكار . وبما لاشك فيه أن البابا كان يعلن دوماً عزمه على الهجاء في القريب العاجل ، ليحقق سلام الكنيسة ووفاء المملكة ، غير أن الوضع قد تبدل بتمامه . ومن هنا حصل اختلاف بين غريغوار السابع وحلفائه الامراء الذين قلما يشعرون بالاعتبارات الدينية ويريدون قبل كل شيء أن يخلصوا المملكة من الطاغية الذي يكرهونه .

وفي منتصف شباط اجتمع كبار المملكة من أساقفة وأمرء في مدينة أولم وبعد أن درسوا الحالة قرروا أن يدعوا لاجتماع آخر يعقد في فورسهايم في ١٣ آذار ليتخذوا قراراً بشأن الملك . ولم يقطعوا اتصالهم مع البابا ، بل كلفوا شخصاً يدعى رابوتون جاء يحمل إليهم خبر مقابلة كانوسا ، وطلبوا اليه أن ينقل إلى روما الآمال التي تعقد على سفر البابا وأضافوا مع شيء من التهمك أن غريغوار السابع يحسن صنعا لو استرحم لهذه الغاية موافقة هنري الرابع ومعونته .

ولم يستطع الخبر الاعظم أن يقوم برحلته واكتفى بأن أرسل إلى فورسهايم مندوبين يحملان رسالة مهمة يؤكد فيها دوماً عزمه على الهجاء إلى ألمانيا متى أمكنه ذلك . ويبدو أن التعليقات الشفهية التي تلقاها سفيراً الكرسي الأقدس كانت أشد وضوحاً . فقد كانت ترمي إلى منع ما لا يمكن إصلاحه وإرجاء كل حل .

ولا يعلم على وجه الصحة تاريخ اجتماع فورسهايم لأن تحزب المؤرخين الساكسونيين قد شوهوه بصورة غريبة . والصحيح الثابت الذي خرج

عنه هو أن الأساقفة والأمراء المجتمعين خلعوا هنري الرابع ووضعوا مكانه رودولف سواب . وبعد بضعة أيام توج ردولف ملكاً في ماينس بحضور الاساقفة والامراء الذين انتخبوه وبتخلف المندوبين الحبريين حرصاً منها على اتباع الحطة التي رسمها اليها غريغوار السابع .

واتخاب رودولف سواب وضع البابا في موقف حرج : لأن هنري الرابع منذ كانوسا لم يبرح ايطاليا وأخذ يطلب منه أن يسنده ضد المعتصب ، وكذا رودولف أيضاً كان يصرح بأنه على استعداد لطاعة الكرسي الاقدس في كل شيء . وبملا شك فيه أن مجلس فورسهايم لم يأخذ بتوجيهات الحبر الاعظم ، ولكن موقف هنري الرابع مازال غامضاً . وإذا امتنع الملك شخصياً عن كل عمل عدائي ضد الكرسي الاقدس فان الاساقفة اللومبارديين لم يتخذوا أي حيلة ، حتى تجرباً أحدهم وسجن مندوبي البابا بعد طرد تيدالد المطران الدخيل وإعادة الوضع إلى ما كان عليه في ميلانو . كل هذا يدلنا على موقف غريغوار السابع القلق . ولكن هذا الموقف ، وإن بدا متردداً في الظاهر ، كان في الواقع مسوقاً بدافع التكيف والعمل حسب القواعد القانونية : وإذ صرح البابا بان الكرسي الاقدس له الحق في معرفة الامور العصرية والبت فيها ، فهو يريد أن يدرس القضية ، وعندما ينتهي مندوبوه من تحقيقهم يعلن « أي الطرفين يمكن أن يحكم طبقاً للعدل » .

ولكن الحوادث ذهبت على نقبض هذه الحطة الرشيده ، لان كلا الجانبين لم يتق بالوسائل التي اقترحتها روما وأراد أن ينهي الحصار بامشاق الحسام . ولما علم هنري الرابع بانتخاب رودولف سواب عاد إلى ألمانيا ووصل بافاريا حيث جمع أنصاره وأتجه إلى سواب وأعمل فيها الحراب والدمار ،

وفي أولم عقد مجلساً وحكم غيانياً على الأمراء المتمردين وصادر اقطاعاتهم
ثم رجع إلى بافاريا بعد عدته .

بدأت الحرب في تموز ١٠٧٧ وأجرت بين الطرفين عدة مواقع غير حاسمة
وتوسط البابا لاعادة السلام والوثام بين الطرفين . غير أن كل أمل في
السلم قد أخفق ولم يبق أمل إلا في ظفر السلاح . ومضى العام ١٠٧٨
والسلاح عاجز كالدبلوماسية عن تسوية الوضع ، واستمرت الحرب الاهلية
دون أن تأتي بنتائج يعول عليها . وأخذ كل من الملكين يزيد في نفوذه
ويسعى في جلب البابا إلى جانبه ليحكم على خصمه . أرسل هنري الرابع
إلى روما كتاباً يثبت فيه عزمه على الا يضايق عمل البابا ويرجو غريغوار
السابع الا يقوم بأي حكم . وحاول رودلف والساكسونيون بدورهم أن
يستعطفوا الحبر الاعظم على أعمال التخريب والقتل والاعتداء التي يرتكبها
جيش هنري الرابع ، وتوسلوا إليه أن يحدد حكمه عليه . غير أن
غريغوار السابع ظل ثبت الجنان لا يتأثر ولا ينحاز لطرف دون آخر
واكتفى في مجمع تشرين الثاني ١٠٧٨ بأن يسمع إلى مندوبي الحصين
الذين أتوا إلى روما . كما رفض في مجمع شباط ١٠٧٩ أن يستل
السيف الرسولي من غمده ، أي ان يصرح بشيء ، قبل أن يتضح له
له كل شيء . الا أنه على الأقل أجبر رسل هنري الرابع ورودولف
سواب ان يتلوا أمام حكم المندوبين الحبريين . وقبل على هذا النحو
مبدئياً التحكيم الأعلى للكرسي الأقدس . وبقي على البابا أن يمارس هذا
التحكيم بصورة فعلية .

قام مندوبو البابا بالتحقيق . وحاول هنري الرابع أن يرهوهم فذهبت
جهوده عبثاً ، وعندئذ طلب خضوع الساكسونين قبل كل شيء . ودهام
للهمجه الى فرتزبورغ ليقدموا خضوعهم . وكان من الطبيعي أن يرفضوا

المثول فهاجمهم في بداية ١٠٨٠، ودل بذلك على تلاعبه وسوء نيته . وجرت بينه وبين رودولف سؤاب موقعة في فلارشهايم (٢٧ كانون الثاني ١٠٨٠) قاتل فيها رودولف متراجعا ، ولم يكن باستطاعة هنري الرابع ان يلاحقه واعتبر نفسه ظافرا . وأراد أن يخيف البابا بهذا الظفر المزعوم .

أرسل هنري الرابع الى روما مطران بريم ، ليار ، وأسقف بامبرغ روبرت . واختياره لليار له معناه ففيه يتمثل العصيان على السلطة الحربية كما ظهر لنا ذلك عام ١٠٧٤ . ولكن غريغوار السابع كان أبعد من أن ينزل عند مناورة من هذا النوع ، لأنه لا يعلق موقفه على حوادث سياسية أو عسكرية ، بل كان همه أن يؤمن ظفر العدالة قبل كل شيء ويعطي أحكامه بعد دراسة التحقيق الذي قام به مندوبوه .

وفي ٧ آذار ١٠٨٠ افتتح المجمع الروماني الذي ينعقد عادة في كل سنة بمناسبة الصوم . وفي هذا المجمع أذاع البابا حكمه في القضايا الجرمانية ولخص في خطاب تمتع تاريخ العلاقات بين الكرسي الأقدس والمانيا خلال السنوات الأخيرة وانهم هنري الرابع بالحيولة دون الاجتماع الذي قرر انعقاده في المجمع العام المنصرم . ثم حرم هنري واعترف برودولف سؤاب « الذي انتخبه الالمان ملكاً » .

وليس ضروريا أن نبين خطورة هذا الحكم بعد تحقيق دقيق دام عدة سنوات . فهو تعبير صريح للتفوق الروماني الذي يطالب به في « أمالي البابا » . وفيه قرر غريغوار السابع ، باعتباره ممثلاً للقديس بطرس ، أي الحصين يعمل حسب أمرا الله ، وقام بدور الحكم الأعلى الذي يعتبره امتيازاً من امتيازاته الأصلية .

جلس بريكسن وانتخاب كليمان الثالث (٢٥ حزيران ١٠٨٠) - .
كان الملك هنري الرابع في لياج في عيد الفصح عندما بلغه حكم الطرد

والخلع الذي نزل به . وفي عيد العنصرة جمع في ماينس تسعة عشر حبراً المانيا وأشاروا عليه بخلع البابا وقرروا أن يعيشوا أسقف سير الى ايطاليا ليحصل على موافقة الاساقفة اللومباردين فنال موافقتهم دون رجاء . وعندما أمن جانب الاساقفة والعلمانيين عقد مجلساً في ٢٥ حزيران ١٠٨٠ في بريكسن على حدود المانيا وايطاليا .

لم يعطنا المؤرخون تفصيلات ضافية عن هذا المجلس . ولكن محضر الجلسة التي خلع فيها غريغوار السابع ، يعطى قائمة الاساقفة الحاضرين واكثرهم لومبارديون ، لأن الالمانيين الذين أتوا الى هذا الاجتماع كانوا قلة ، ولا نرى شيئاً ظاهراً يسترعي النظر في التهم الموجهة ضد البابا . وكل ما في الأمر ان اعيد الاتهام الذي وجه اليه في مجلس فورمز واضيف اليه اتهامه بالهرطقة . وبعد هذا أعلن سقوط هيلدبراند وانتخبوا مكانه مطران رافينه ، غيبرت ، بابا باسم **كليمان الثالث** ، وكان مطروداً ومحكوماً عليه بالحرمان منذ ١٠٧٨ .

لا شك أن هذا الانتخاب غير قانوني ، لأن مجلس بريكسن لا يتمتع بأي صفة في انتخاب البابا . ولقد شعر بذلك حتى انه اضطر أن ينحت نصاً جديداً لمرسوم نيغولا الثاني ليجعل غريغوار السابع مخالفاً للقانون الكنسي . وعندما أراد أن يعين خلفه لم يراع بنود هذا النص المزيف . وإذا كان المرسوم المزور الذي وضعه يحول الملك جزءاً هاماً في الانتخاب، ويجذف امتياز الكرادلة — الاساقفة الذين لم يحضر أحد منهم الى بريكسن فقد احتفظ على الاقل لهيئة **الكراولة المقدسة** مبدأ انتخاب الحبر الروماني ومن بعدها الاكليسوس وشعب روما . غير أن هذا العنصر الأخير لم يشترك في الانتخاب ، ولم يحضر هذا الاجتماع الا الكردينال هوغ كانديد الذي انتخب غيبرت رافينه . ولكن لم يعلق على ذلك كبير أهمية ، ظناً

بأن بالرأي العام يجهل دقائق القضايا الحقوقية ، فلا يلاحظ عيوب الأصول الذي اتبع في الانتخاب . ويمكن بعد هذا أن ينصب كليمان الثالث على كرسي بطرس وتعترف به المسيحية جمعاء بابا شرعياً وخليفة الحواري ويضع على جبين هنري الرابع التاج الامبراطوري .

ولم تكن هذه الافعال الا ضلالاً ، لأننا ، اذا استثنينا مملكة جرمانيا ولومبارديا ، نجد الاكليركيين العلمانيين والاساقفة والملوك مازالوا متعلقين بالدين الحنيف . ويجب أن نرى في هذا الحادث نتائج الجهود التي بذلها غريغوار السابع في داخل الكنيسة . فقد فرض على الاكليروس احترام المقررات التي تتخذها المجامع ، وشد الاواصر التي تربط روما بمختلف الابشيات ، وحدث الى جانب المندوبين الموقتين ، ووظيفتهم تمثيل السلطة الحبرية في ظروف معينة ، المندوبين الدائمين . ويمارس هؤلاء سلطة القضاء على قسم واسع من الاراضي ، ويرأسون المجامع المحلية التي تذاع فيها المراسم الإصلاحية ، ويجامعون الاساقفة والاكليركيين المتمردين ويعرضون على السدة الرسولية القضايا الهامة . وبفضل هذه الجهود المستمرة تمت السلطة الحبرية وتوطدت . يضاف الى ذلك أن المجموعات القانونية ، التي صدرت بوحي من غريغوار السابع ، كانت تحرص على تبرير نظريات التفوق الروماني التي ذكرت في « أمالي البابا » وتدلل على ذلك بفقرات من الكتاب المقدس وشواهد من آباء الكنيسة وقوانين المجامع الدينية والمراسم المزورة . وكذا رسالة الكاردينال آتّون آتّون فأغنت بنصوص جديدة المجموعة التي تضم ٧٤ عنواناً والتي الفت في عهد ليون التاسع . وبين ١٠٧٥ و ١٠٨٠ عهد البابا الى آنسلم لوقا والى دوسدودي بهمة ثقيلة يراد منها جمع مختلف « الأحكام » التي من شأنها أن تثبت قانونياً أن الكرسي الأقدس له كل السلطة على الكنيسة العامة وليس لأحد من الناس أن يحاكم الحبر الروماني

خليفة بطرس الذي عهد اليه المسيح برسالة الهية . واذا لم تظهر مجموعة آنسلم لوقا الا حوالي العام ١٠٨٣ ومجموعة دوسدودي في ١٨٠٦ أو ١٠٨٧ فمن المقبول ، في الوقت الذي انعقد فيه مجلس بريكسن ، ان تقاليد الكنيسة كانت في صالح البابا غريغوار السابع ، وإذا استثنينا الاحبار اللومبارديين والألمانيين الذين عملوا تحت إكراه الملك هنري الرابع ، أمكننا القول ان هيئة الأساقفة في أوربة الغربية بقيت ملتفة حول البابا الشرعي .

ومثل هذا الموقف كان موقف اكثر الأمراء المسيحيين . لان حكم بريكسن لم يكن له صدى في انكلترا حيث ظل غليوم الفاتح ، كما يقول البابا ، يقاوم الرجاء الذي يقدم اليه من اعداء الكنيسة الرومانية ، ولا في اسبانيا حيث كان ملوك آراغون وليون ونافار « الابناء الخاضعين للحواري » . وفي فونسا لم يكن فيليب الاول مطيعاً للأوامر الحربية إلا أنه كان يؤمل أن يكفر عن مشاريعه السيمونية بحسن التفاته وحياده . أما البلاد المتاخمة لألمانيا ، باستثناء بوهيميا حيث كان ورايسلاس ينتظر من هنري الرابع التاج الملكي ، مطمح أنظاره ، فكانت بصورة عامة في صالح غريغوار السابع لغرضين : الأول ، غيرتها على الدين ؛ والثاني ، مصلحتها السياسية ، لأنها كانت تريد التخلص من النفوذ الجرمانى الذي يهددها . ولذا فان هنري الرابع لا يستطيع أن يعتمد في آخر العام ١٠٨٠ على أي مساعدة خارجية ، ولكن يمكن القول ان سلطته توطدت في ألمانيا بعد أن اضطرت معارضة الساكسونيين له ، وقتل رودولف سواب (في ١٥ تشرين الاول ١٠٨٠) وعلى اثر ذلك كان هنري الرابع يرغب في خضوع الساكسونيين مها كلف الأمر ويعيد السلام إلى ألمانيا قبل أن يذهب إلى ايطاليا لينصب كليمان الثالث بابا في روما . ويبدو ان هنري

الرابع بذلك جهداً كبيراً في اقناع الساكسونيين إلا أنه لم يحظ بما يريد .

وبينا كانت هذه الحوادث تجري في ألمانيا كان غريغوار السابع ينهياً للنزاع ، ولم يثن شيء من عزمه وظل إيمانه لا يتزعزع ، وثقته بالله عظيمة لأنه يرى « ان الكنيسة المقدسة ، بعد أن تغلب أعداءها وتوقعهم في حيرة من أمرهم ، سوف تتمتع بالراحة في نشوة المجد » . وفي ١١ كانون الاول ١٠٨٠ عين راعياً لكنيسة رافينه بدلاً عن غيبرت المنشق . وفي آخر شباط ١٠٨١ عقد جمعاً في روما وجدد حكمه بالطرد على هنري الرابع وأنصاره . وفي ١٥ آذار ، أي في الوقت الذي ينهياً به الملك لعبور الألب ، وجه البابا إلى أسقف متز ، هرمان ، رسالة عرض فيها نظريته في التفوق الروماني ونادى باسم سلطة العقد والحل التي خولها المسيح إلى القديس بطرس أن سلطة الحبر الأعظم لا تحتل أي استثناء أو تحديد . فهي تتناول العلمانيين كالكليركيين والملوك كالأساقفة . ولما كان هنري الرابع عصياً نائب الله ، لذا كان من العدل أن يجرّد من المنصب الملكي . وصفوة القول ان البابا كان ينتظر الحوادث بصفاء ثابت ولكن هذا لم يمنعه من القيام ببعض التدابير الضرورية .

كان غريغوار السابع يعتمد في شمال إيطاليا على الكونتس ماتيلد التي وهبت دولها إلى الكرسي الأقدس . وقدر أن يجدد تحالف نيغولا الثاني مع النورمانديين الذين يستطيعون أن يناوؤوا الجرمانيين في إيطاليا . وليس بالسهل أن يتقرب من هؤلاء الأمراء بعد أن لس منهم اعتداءهم على أرضي البابا وعدم برهنتهم على احترام السدة الرسولية ، ولكنه اضطر تحت ضغط الظروف إلى الدخول معهم بمفاوضات أدت إلى اعتراف روبرت العبر الوسيط - ٦

غيسكار بسيادة البابا وتحديد الوعود التي قطعها على نفسه في عهد نيقولا الثاني .

وكان البابا يعول على هذا التحالف كثيراً ، وقد أخطأ في ذلك ، لأن روبرغ غيسكار في العام ١٠٨٠ كان يطمح بفتح الامبراطورية البيزنطية ، أو على الأقل ، بفتح ايليريا . في العام ١٠٧٨ سقط الامبراطور ميشيل السابع عن العرش وكان قد خطب لابنه قسطنطين ابنة غيسكار ، واتخذ الأمير النورماندي من هذا الحادث عذراً للتدخل ، لا سيما وان مغتصب الامبراطورية في بيزنطة بوتانياتس زج الخطيئة المسكينة في الدبر . لذا كان روبرغ غيسكار منصرفاً بكليته إلى مشاريعه الشرقية ولا يفكر بحماية البابا ضد هنري الرابع الذي انحدر إلى ايطاليا بعد أن خذل اللومبارديون جيش الكونتس ماتيلد .

خيل إلى هنري الرابع أن الحملة الألمانية في ايطاليا ستكون نزهة عسكرية بسيطة ولذا لم يصطحب معه عدداً كثيراً من الجنود . والواقع أنه لم يلق في طريقه أي مقاومة . ووقف أمام أسوار روما في ٢١ أيار يحيط به الاحبار المنبوذون من غريغوار السابع . ثم وجه إلى الرومانيين نداء لم يتعرض به إلى غريغوار السابع وأعلن عزمه على توطيد السلام في الكنيسة .

ظلت أبواب روما موصدة . ولم ينصب كليمان الثالث على عرشه كما لم يتوج الملك امبراطوراً في اليوم الموعود وهو يوم عيد العنصرة . وتعزى الملك باجتياح الريف الروماني . وبعد أربعين يوماً اضطر إلى رفع الحصار عن المدينة الخالدة . ووصل هنري الرابع هذا الاخفاق الذي ناله في روما حاول أن يعدل الكفة ليقوي وضعه في ايطاليا وخاصة في المدن التي أخذ يغدق عليها الامتيازات . واعتزل الكونتس ماتيلد في قلعة

كانوسا . وفي الوقت ذاته غادر روبير غيسكار ايطاليا وذهب لفتح ابليريا وحاصر دورازو وظفر على الجيش البيزنطي الذي أرسله الامبراطور الكسيس كومنين لنجدة المدينة ، وبدأ أن كل شيء يبسم له وصار يتطلع بانظاره نحو القسطنطينية .

ان ضعف مقاومة ماتيلد وبعد غيسكار جعلاً هنري الرابع يستمر في تحقيق مشروعه في أخذ روما . وفي شباط ١٠٨٢ ظهر أمام المدينة وبين لسكانها أنه لا يضر في نفسه أي حقد عليهم ، ودعا في الوقت ذاته هيلبراند أن يأتي اليه ويبرهن على عدالة دعواه ، وتعهد أن يصون حياته حتى ولو برهنت القوانين على إدانته .

لم يقبل البابا أن يحاكم من سلطة زمنية . وفهم الرومانيون ذلك وظلت أبواب المدينة موصدة . وحاول هنري الرابع الهجوم على حي المدينة الليونية فرد . وفي أحد الشعانين (١٧ نيسان) من تلك السنة عاود الهجوم دون نجاح ، واضطر إلى الاحتفال بعيد الفصح في ٢٤ نيسان ، في مدينة البانو .

ورغم هذا الاخفاق فان وضع الملك في ايطاليا تحسن . فقد استطاع أن ينزع من جانب البابا أمير كابو ، جوردان الذي حسد روبير غيسكار ورغب أن يوسع أملاكه على حسابه بمساعدة الجيش الألماني ، حتى ان جوردان مهد له السبل بمقابلة مع ديديه أب مونكاسينو . وتهور هذا ووعد الملك بأن يتوج امبراطوراً بيدي البابا الشرعي . وفي أثناء حصار روما عقد هنري ، بواسطة جوردان ولاشك ، تحالفاً مع امبراطور الشرق ، الكسيس كومنين ، وكان هم هذا أن يوحد بين جميع أعداء روبير غيسكار في ايطاليا حتى يضطره إلى العدول عن مشروعه في الزحف على القسطنطينية . ورجع غيسكار إلى ايطاليا عن

- ٧٢٤ -

طريق اوترانت ولبت ستين في اخماد عصيان تابعيه . وحاول هنري الرابع أن يأخذ روما قبل أن تتدخل القوى النورماندية . ووقف للمرة الثالثة أمام روما . وقبل الهجوم النهائي رجح أن يضعف معنويات السكان خلال بضعة أشهر بقطع مواصلاتهم مع الخارج . وقد نجحت هذه الحطة وبدأ من كانوا مع البابا ينفذون من حوله وجنحوا الى السلم . وسلمت المدينة ودخل كليمان الثالث كنيسة القديس بطرس باحتفال مهيب . أما غريغوار السابع فظل محاصراً في قصر سانتانج ورفض الاستسلام . ولكن النبلاء في روما رغبوا في المصالحة واقنعوا الطرفين المتخاصمين بقبول فكرة عقد مجمع يدعو اليه غريغوار السابع جميع أساقفة البلاد المسيحية .

انعقد المجمع في ٢٠ تشرين الثاني ١٠٨٣ الا أنه لم يضم الا الأساقفة الابطاليين والفرنسيين ، وذلك لأن هنري الرابع كان يوقف الكثير من الاحبار وهم في طريقهم الى روما . ولذا فان المجمع فقد طابعه الذي أريد له .

وجرت محاولات الوصول الى حل وسط بين الطرفين انتهت بالاخفاق واستمر الحصار . وخاب أمل الرومانيين في السلام . وهجر البابا ثلاثة عشر كلاردينالاً . أما العلمانيون فكانت تقدمهم مساعدات روبرت غيسكار ولذا كانوا أكثر استعداداً للمقاومة . وكان هنري الرابع يناضل بالذهب البيزنطي ضد الذهب النورماندي . وفي آخر عام ١٠٨٣ وأول ١٠٨٤ استقبل وفدأ من القسطنطينية قدم اليه المبالغ الضرورية للقيام بحملة ضد دوق بوي . ودفاعاً عن الشكليات ذهب إلى كامبانيا دون أن يقوم باي عملية جديدة وعاد إلى روما ليقوم بالهجوم النهائي . وفي هذه المرة احتل

أحياء الضفة اليسرى لنهر التير ودخل عدو البابا كليمان الثالث قصر لاتران .

وظل غريغوار السابع غير مبال بما يحدث . ولما طوق في قصر سانتانج من كل جهة ، فضل أن يستسلم للموت ، إذا لزم ذلك ، على أن يضحي بالمبادئ التي دافع عنها طوال حياته . تم دعاه هنري الرابع إلى المثل أمام مجمع يجتمع في كنيسة القديس بطرس في ٢٤ آذار ١٠٨٤ فبقي في ازدراء المستكف لا يجيب على شيء . ونظمت دعوى في حق البابا كانت مجرد اتهام ضده أكثر بكثير منها دفاعاً عن الملك . وأخيراً حرم مجلس لاتران غريغوار السابع وخلعه واعترف بكليمان الثالث بابا بصورة رسمية . وتبع هذا الاحتفال احتفال آخر كان ينتظر منذ عهد طويل . ففي ٣١ آذار توج عدو البابا هنري الرابع امبراطوراً كما توجت معه الملكة بيوت ونحقت الغاية من الحملة الإيطالية .

ثم تابعت العمليات العسكرية سيرها وظل قصر سانتانج محاصراً واحتل الملك البالاتن والكابيتول . ووقف النجاح عند هذا الحد . وكان غريغوار يعتمد على أنصاره في الريف الروماني وقد ساعدته مقاومتهم على الانتظار ريثما تأتي النجدة النورماندية .

بادر روبرت غيسكار لانقاذ البابا . ولم يكن باستطاعة هنري الرابع مقاومة النورماندين فحارب متراجعاً . ودخلت جيوش روبرت روما . وجرت موقعة بين الطرفين خرج منها روبرت ظافراً ووصل إلى قصر سانتانج وخلص غريغوار السابع . ثم عاد القتال من جديد وأعمل النورمانديون النهب في روما . واضطرب وضع البابا على اثر ذلك واضطر إلى البعد عن روما ولجأ إلى سالرنو أخيراً . وفي آخر ١٠٨٤ عقد مجمعا جدد فيه حرمان كليمان الثالث وهنري الرابع وأرسل إلى مختلف البلاد

المسيحية مندوبيه ليعلموها بهذا الحكم . وفي الوقت ذاته نشر آخر رسالة له . ويمكن اعتبارها وصيته الروحية . وفيها يعلن إيمانه بنجاح عمله واقتناعه ، رغم الحدثن والنواب التي أملت بالكنيسة الرومانية ، بأن المسيحيين الحق سيأخذون على أنفسهم حماية السدة الرسولية ويؤمنون تفوقها على ملوك الأرض « المتألمين على الرب ومسيحه » .

وبعد إعلان هذه الرسالة بقليل توفي غريغوار السابع في (٢٥ أيار ١٠٨٥) . ولقد ترك لنا مداحته بول برنيد قصة تشيد بأيام البابا الأخيرة وتتضمن أخباراً لاصحة لها البتة . ولاشك أن العبارة التي يذكرها على لسان البابا المحتضر وهي : « كنت دوماً أكره الظلم وأحب العدالة » إنما هي محض اختلاق وليست حقيقية ، غير أنها تلخص لنا هذه الحياة المشبعة بالمثل الأعلى التي رصدت نفسها بكليتها لخدمة الكنيسة والكرسي الأقدس . لقد كان غريغوار السابع علوياً قبل كل شيء ، نائباً للمسيح ، وممثلاً للحواري بطرس ، وبقي ، كبابا ، صحيفة كبرى في التاريخ وعلماً من أعلام الكنيسة . إلا أنه يجب أن نقول أيضاً ان الحس السياسي كان ينقصه . ففي كانوسا خاصة فرط بظفره ليؤدي الاحسان النبيل السامي الذي يعتبره واجباً من أقدس واجباته .

أثر غريغوار السابع . — إذا أخذنا بالظواهر فان حبرة غريغوار السابع انتهت بالفشل ، لأن استيلاء هنري الرابع على روما وإقامة عدو البابا على كرسي القديس بطرس ، وذهاب غريغوار السابع الى سالرنو ، كل هذه الوقائع الأليمة تدل على بطلان الجهود التي بذلها لتأمين التفوق الروماني . ولكن سياق الحوادث لا يبور في المستقبل مثل هذا التشاؤم . ويجب ألا ننسى أن غريغوار السابع اذا لم يستطع أن يحقق ظفر نظريته في التفوق الروماني بصورة عملية كما أراد ذلك في « أمالي البابا » ،

إلا أنه استطاع أن يصنع السلاح الضروري للدفاع عنها . فقد ظهرت في آخر حبريته مجموعة القوانين التي جمع فيها آنسلم لوقا النصوص التي تبرهن على شرعية هذه النظرية . وفي الوقت ذاته كان المحاجون بالأقلام يعتمدون على هذه النصوص ويستخلصون منها النتائج الصالحة لمزاعم البابا . كان أصدقاء غريغوار وأنصار الامبراطور يحاولون أن يضعوا الحكم الملكي المطلق المؤسس على وراثة الحق الإلهي ، خارجاً وفوق قوانين الكنيسة . وكان الغريغوريون يناهضونهم بالتقاليد الكنسية ويظهرون أثر غريغوار السابع إرجاعاً للقواعد التي وقعت في حيز الإهمال منذ أن هبت العاصفة وزالت الامبراطورية الكارولنجية . وطوراً وطوراً كان رجال البابا يجردون أقلامهم للرد على حجج خصومهم . كل ذلك أثرى المفهوم الغريغوري في سلطة العقد والحل بأفكار جريئة وجديدة . وفي السنة التي توفي غريغوار السابع قام الالزاسي مانيفولد يعرض النظرية العقديّة في الملكية . وتتلخص بأن الملك لا يحكم إلا بموجب عقد ضمني بينه وبين رعيته فإذا كسر هذا العقد وحكم دوله خلافاً للعدالة والاحسان فإن رعيته تكون في حل من ميثاق الولاء له ، وعلى البابا أن ينظر في الأسباب التي تبرر عصيانها ويؤيدها بسلطته العليا .

وأفادت هذه الحركة الفكرية في تثبيت التقاليد القانونية ، وقبول السلطة الرومانية واحترامها ونشر الأفكار الغريغورية التي تخول الكرسي الأقدس كل السلطة على الكنيسة العامة وعلى الأمراء المسيحيين ، وهيات ظفر البابوية في حبرية اوربينو الثاني بعد أن ألت بالسلطة الرسولية أزمة حادة بعد وفاة غريغوار السابع .

أزمة البابوية بعد غريغوار السابع

١٠٨٥ - ١٠٨٨

انتخاب فيكتور الثالث . - رجا الكرادلة غريغوار السابع ، وهو على فراش الموت ، أن يدلهم على أكفأ رجال الكنيسة ليكون خلفاً له فسمى لهم آنسلم أسقف لوقا وأود كردينال - أسقف أوستى ، وهو غ مطران ليون . ومع هذا فإن تاج البابوية كان من نصيب أب مونكاسينو ، ديديه ، مرشح جوردان أمير كابو ، الذي أقنع الكرادلة بأن ديديه يستطيع أن يخدم الكنيسة أكثر من أي شخص من الشخصيات التي سماها غريغوار السابع .

غير أن هذا الضغط العلماني كان مخالفاً للمبادئ الغريغورية ، ولذا أثار عند ديديه كثيراً من الوسواس ، وأنه ضميره فذهب إلى مونكاسينو ورد المنصب الذي قدم إليه وجرت مساعي أخرى إلا أنها لم تثنه عن عزمه ، وبعد سنة مضت بالمفاوضات انعقد مجلس الكرادلة وانتخب ديديه رغماً عنه في (٢٤ أيار ١٠٨٦) ، ولم يرض بذلك واعتزل في مونكاسينو .

ولاشك أن بقاء الكرسي الأقدس شاغراً طيلة هذه المدة يضر بمصالح الكنيسة لاسيما وإن المسيحية ، في مثل هذه الظروف الحرجة ، أحوج ما تكون إلى رجل قوي الشكيمة كفء للقيام بما يتطلبه هذا المنصب ليجمع شمل أنصار البابوية في إيطاليا وألمانيا ويوحد كلمتهم . ولكن لداعي اليأس وإن بدأ هذا الخطر جسيماً .

أما كليمان الثالث فلم يستطع البقاء في روما وذهب إلى رافينه . وفي شمال إيطاليا ظفرت الكونتس ماتيلد على جيوش هنري الرابع العائدة

إلى ألمانيا والتف حولها أنصار الحزب الغريغوري . أما في جنوب شبه الجزيرة ، فلم تكن الحوادث لتجري وفقاً لصالح السدة الرسولية . فقد توفي روبرت غيسكار وخلف أبناً يدعى روجه . وكان هذا في نزاع مع بوهيموند أخيه لأبيه من زوجته الأولى . وعدا عن هذا الانقسام العائلي كانت عائلة غيسكار في خصام مع عائلة كابو . ولذا كان السلام في إيطاليا النورماندية رهن أقل حادث عارض .

ولم يكن الوضع في ألمانيا يدعو إلى الاطمئنان في المستقبل لأن الساكسونيين لم يعرفوا كيف يستغلون غياب هنري الرابع لصالحهم . يضاف إلى ذلك أن الزعماء الدينيين كانت تنقصهم الجرأة والقناعة بمبادئهم فلم يستطيعوا مقارعة خصومهم الحجة بالحجة ليظهروا عليهم . ولكن لم ينفذ كل أمل في صالح البابوية إذا وجه حمايتها وأحسن قيادتهم . ول سوء الحظ كان ينقصهم التوجيه الصحيح غالباً ، لأن خليفة غريغوار السابع ، ديديه ، لم يكن له من العزم والنفوذ والجاه ما يجعله يوفق بين النوايا الصالحة المبعثرة وينسق جهودها ويدفعها في الطريق السوي .

ولد ديديه في ١٠٢٧ من أسرة نبيلة في بينيفن وأصبح أب مونكاسينو عام ١٠٥٨ وكردينالاً في الكنيسة الرومانية عام ١٠٥٩ وظل في حبرة غريغوار السابع منعزلاً . كان مهندساً معماراً ، غاوية للفن ، جماعاً للتحف ، محباً للكتب ، لاهم له إلا ترين مونكاسينو : شاد فيه مكتبة وصالة وكنيسة فخمة جمع فيها التماثيل والفسيفساء والفريسات والمنمنمات والحلي وأدوات الزينة والكتب الدينية . وإذا تدخل في حكومة الكنيسة فلا يرمي من تدخله إلا الحفاظ على هذه الثروة الفنية ضد غارات الحرب وأعمال السلب والنهب . وهذا مايعمل لنا جهوده في عقد تحالف دائم بين البابوية والنورمانديين ومحاولة التوسط عام ١٠٨٢ بين

هنري الرابع وغريغوار السابع . كان ديديه ، رغم فضائله الكهنوتية التي لا مجال للشك فيها ، قليل الاطلاع على شؤون الكنيسة ، قليل التدريب على خفايا الدبلوماسية ودقائقها ، وينقصه الحزم الضروري ليضطلع بإعباء البابوية . يضاف إلى ذلك أن الظروف التي أحاطت به ، عند اعتلائه كرسي البابوية كانت خطيرة على الكنيسة الرومانية ، ولذا فإن انتخابه بابا باسم فيكتور الثالث كان فاتحة لازمة ظهرت بهجومين على البابوية : الهجوم الامبراطوري ، ويرمي إلى دفع الغريغوريين المحرومين من زعيمهم إلى الانضمام في صف كليان الثالث ؛ والهجوم الغريغوري الذي فرق الحزب الخفيف وأوشك أن يؤمن نجاح هنري الرابع .

الهجوم الامبراطوري . - وفي هذه الفوضى التي تتخبط فيها الكنيسة من جراء شغور الكرسي الجبري وانتخاب ديديه ، حاول أنصار هنري الرابع قبل كل شيء أن يبرهنوا لخصومهم أن كليان الثالث هو البابا الشرعي . فقد حور غي فراره ، بناء على طلب عدو البابا ، رسالة تدعى « هيلبراند المنشق » . وفيها أظهر أن هيلبراند منشق وانتخابه باطل ، ولذا يجب خلع . أما غيبرت رافينه ، الذي نودي به باسم كليان الثالث فيجب أن يكون وحده البابا . ولم تكن الحجة التي أدلى بها غي أقوى من حجة مقدميه ، ولكن الشيء المهم فيها هو الاعتدال الظاهر الذي يبرهن عليه هذا المدافع الجديد عن هنري الرابع . فأصوات الحقد والغضب ، التي نراها في الآثار القدحية التي ظهرت في السنوات المتقدمة ، حذت كلها . ولكن إذا تحولت الحيلة والوسيلة فليس في ذلك ما يبدل على تبدل النظرية لأن غريغوار السابع بقي في رأي هذا الفريق مغتصباً .

الهجوم الغريغوري . - وكان الهجوم الغريغوري أشد خطراً على البابوية ويتمثل في شخص مطران ليون ، هوغ ، مفوض غريغوار السابع

في غالبا . كان هونغ رجل مبادئ ، قاسياً ، متطرفاً ، غريغورياً أكثر من غريغوار السابيع نفسه ، لا يعرف المهادنة في الدين ولا التسامح في العدل . وتمكن هذه العاطفة في نفسه أزال من قلبه الشفقة على الضعف البشري . ولذا فإن عقيدته الإصلاحية وميوله المتطرفة دفعته إلى الوقوف في وجه فيكتور الثالث .

وصل هونغ إلى روما بعد انتخاب ديديه بقليل والتقى به في مونكاسينو فحدثه ديديه عن « الأعمال القبيحة » التي ارتكبها في آخر حبرية غريغوار السابيع والظروف التي امت بانتخابه وجعلت هذا الانتخاب مضطرباً ومخالفاً لإرادة الله ، وصرح بأنه لا يقبله ولا يرضى به . كما برهن على سلامة نواياه بدعوته إلى مجمع يعقد في آذار ١٠٨٧ ، ودعا إليه هونغ ليون وصديقه ريشار أب دير سن فيكتور مارسيليا الذي كان مرافقاً له .

اطمأن هونغ وريشار لما سمعا وذهبا إلى كابو لحضور المجمع . غير أن ضربة مسرحية حقيقية حدثت في هذا الاجتماع . فقد قبل ديديه تحت ضغط الأمير جوردان وروجه غيسكار الشاب بانتخابه ولبس الجبة الحبرية ، وفي ٢١ آذار ١٠٨٧ قبل تاج البابوية ، واعترف به الكرادلة الأساقفة الحاضرون إلا هونغ ليون ، فقد لزم الصمت الجليل بعد أن تخلى عنه أخوانه . وبعد هذا دخل البابا روما وأزاح النورمانديون أنصار كلبيان الثالث ، وجرت له في ٩ أيار حفلة دينية ، وبدأ أن الازمة الداخلية ، التي مزقت الكنيسة منذ وفاة غريغوار السابيع ، قد انتهت ولم يبق سوى الخطر الخارجي .

وهذا الخطر الخارجي أيضاً مال إلى الضعف لأن وضع الغريغورين تحسن في إيطاليا كما في ألمانيا . ففي مجمع كابو أنضم روجه غيسكار إلى فيكتور الثالث ، وكذا أكثر الأمراء النورمانديين . وفي الشمال كانت

الكونتيس ما تيلد في حالة حسنة بعد ذهاب هنري الرابع ، وقدمت روما لتحوي البابا الجديد وتطمئه عن ولائها للكرسي الأقدس .

وفي ألمانيا كان هنري الرابع في حرب مع الساكسونيين ولذا لم يكن بإمكانه أن يتعد عن ألمانيا لينجد عدو البابا .

أما فيكتور الثالث فبعد أن استتب له الأمر عقد مجلساً في بينيفن (٢٩ آب ١٠٨٧) وجدد فيه حرمان هنري الرابع ، وطرد هوغ ليون وريشار مرسيليا دون أن يتوك مجالاً للصلح معها . وليس بالمستحيل أن يكون قد أذاع من جديد التشريع الغريغوري في النيقولاوية والسيمنية والتقليد العلماني . إلا أن تاريخ هذا الجمع قد غُطش بسحب من الاساطير ومن الصعب الادلاء بشيء ثابت . ولا شك في أن فيكتور الثالث لم يقطع علاقاته مع توجيهات سلفه ، غير أن مراسيمه كانت قليلة ولذا لا نستطيع أن نستخلص منها نتائج صريحة .

ومات فيكتور الثالث في ١٦ ايلول ١٠٨٧ ولم تترك جهريته أثراً جديراً بالتسجيل . كان هذا البابا محباً للبديع ، مقدراً للفن ، وليس لديه أفسار شخصية في حكومة الكنيسة . ولقد حاول في عهد غريغوار السابع أن يقرب بين الكهنوت والامبراطورية ، غير أنه لم يفكر في تلك الظروف إلا لصالح ديره دون أن يرتاب في خطر هذه المحاولة . وعندما زال الخطر عنه عاد فاقتفى آثار الجهر العظيم . ولما انتخب بابا بتأثير الامراء النورماندين وقف أمامه الغريغوريون المتزمتون ، وهذا لم يمنعه من ان يظل غريغورياً ، ولكنه كان قبل كل شيء شخصية محمية كامدة شاحبة الوجه بين غريغوار السابع واورينو الثاني .

اوورينو الثاني (١٢ آذار ١٠٨٨) . - رجا فيكتور الثالث قبل أن يلفظ نفسه الاخير أن يكون خلفه اود شاتيون كازدينال -

أسقف أوستي. وهكذا كان ، فقد اجتمع الكرادلة الأساقفة وانتخبوه بابا باسم اوربينو الثاني .

ولم يمس الانتخاب دون صعوبة . لأن المشقين كانوا يهددون روما ورغم مساعدة جنود الكونتيس ما تيلد لم يستطع الكرادلة الاجتماع والمناقشة بسلام . وحسب الأصول المرعية في مثل هذه الحالة في مرسوم نيقولا الثاني ذهب الكرادلة إلى تيراسين وقبلوا التصويت بالانتدب ليسمحوا للاكليروس والشعب الروماني الاسهام في الانتخاب .

كان من الصعب إجراء انتخاب أفضل من هذا الانتخاب . كان أود فرنسي المنبت ، أصله من شاتيون على المارن من ابرشية رنس تلمذ على يد القديس برونو والقديس هونغ كلوني، ثم سمي في عام ١٠٧٨ أسقف أوستي، وأنتدب في العام ١٠٨٤ - ١٠٨٥ إلى ألمانيا وهو من أفضل مساعدي غريغوار السابع ، حتى ان هذا الاخير دل عليه بين من اقترحهم خلفاً له . وقل من الاحبار من توصل مثله إلى السلطة بعد طول التجربة والحنكة في القضايا الكنسية ، فضلاً عن الذكاء والطباع التي يتحلى بها . ولقد قال عنه بطرس ييزان : « كان شجاعاً عليمًا في الكتاب المقدس مفعماً بتقاليد الكنيسة ، وعنده من الثبات ما يجعله يسهر على مراعاتها وملاحظتها . وكذا برنولد كونستانس يشيد بعلمه بقوانين الكنيسة وتقواه التي هي ثمرة النظام الكلوني الذي جبل روحه . وهذا العلم وهذه التقوى اتحدا عنده مع الحس السليم وكرم النفس والارادة القوية التي لا تنفي العذوبة والاحسان . ولقد تبين له من طول صلته بالناس ان الوسيلة الوحيدة لتجديد الكنيسة والنهوض بها بعد أن حلت بها الأزمة التي لازمت حبرية فيكتور الثالث ، هي السير على غرار غريغوار السابع وتقليده وإقامه في كل شيء . وقد كتب إلى الاساقفة الالمان في ١٣ آذار ١٠٨٨ « ثقوا بي ثقكم من

— ٧٣٤ —

قبل بأينا السعيد البابا غريغوار . انني أقتني آثاره في كل شيء واطرح ما طرح ، وأشجب ما أشجب وأعز ما أحب وأثبت وأؤيد كل ما اعتبره عادلاً وكاثوليكياً ، وفي كل شيء أفكر مثله .

وهكذا فإن حبرية غريغوار السابع التي أنقطعت في ٢٥ أيار ١٠٨٥ تعود فتبدأ في ١٢ آذار ١٠٨٨ ، لأن النظريات الغريغورية بقيت تلهم جميع أعمال هذه الحبرية الجديدة ، وظلت الكنيسة الرومانية توجه المسيحية وتلاقي المقاومات نفسها والمعارضات نفسها والموالين أنفسهم أيضاً مع ما يقويها من حجج قانونية تؤلف القلوب وترد الحائرين وتهدي الضالين سواء السبيل .

الكنهوت والامبراطورية في حبرية اورينو الثاني

١٠٨٨ — ١٠٩٩

الشقاق والقضية الرومانية . — ان متابعة العمل ، الذي بدأ به غريغوار السابع ، تقتضي قبل كل شيء إنهاء شقاق كليان الثالث وإعادة البابوية إلى روما ومنحها الوسائل المادية التي تكفل لها ممارسة سلطتها العظمى . وهذا ما كان يرمي إليه اورينو الثاني ، في السنوات الخمس الأولى من حبريته، وما تابعه بثبات وعزم وتفاؤل . وتحقيقاً لهذا البرنامج سعى أولاً في عقد الاجلاف التي يمكنه الاعتماد عليها .

رأى البابا أورينو الثاني أن قوة الكرسي الأقدس ناجمة عن مساندة الأبحار والأمراء الايطاليين له ، وأن حملات هنري الرابع في إيطاليا أفقدت الملكية الجرمانية قسماً عظيماً من جاهها في شبه الجزيرة ولم يبق إلا فئة قليلة التفت حول أولريك بطريرك اكويلا ولبثت منشقة .

- ٧٣٥ -

أما باقي رجال الدين فقد دخلوا في طاعة الكرسي الأقدس وسعت الكونتس ماتيلد أن توحدهم في كتلة واحدة .

والسند الثاني للكرسي الأقدس في إيطاليا هو الأمراء النورمانديون ، فقد كان يهمهم كما يهم الكونتس ماتيلد الحد من التوسع الجرمانى . ولكن الحرب بين بوهيموند وأخيه روجيه عادت وأشتعلت بعد وفاة فيكتور الثالث ودامت إلى ١٠٨٩ . وإذا صرفنا النظر عن هذه الانقسامات فإن الأمراء النورمانديين كانوا في صالح البابا بالاجماع ، وقد حاول هذا أن يقوي علاقاته مع جوردان كابو وروجه كونت صقلية .

وبالإجمال ، ان إيطاليا النورماندية كإيطاليا الشمالية اعترفت بأوربينو الثاني . أما كليمان الثالث فلم يكن له أنصار إلا في الريف الرومانى .

أوربينو الثاني والمانيا . - أما الوضع في ألمانيا فكان يختلف عنه في إيطاليا . إن شعاع الأمل ، الذي بدا في حبرية فيكتور الثالث ، عاد وانطفأ بسرعة لأن جميع الحوادث التي جرت في ساكس وبافاريا أضعفت وضع الكرسي الأقدس في المانيا . ويلاحظ المؤرخ برنولد كونستانس أن لم يكن في ألمانيا في بداية العام ١٠٨٩ سوى خمسة أساقفة مخلصين للبابوية ، ومن الصعب بمثل هذه القوى الضئيلة مباشرة عمل ناجح .

إلا أن أوربينو لم يترك اليأس ليدخل الى قلبه ، فبينما كان يشد أواصر التحالف في إيطاليا كان يعمل على تنظيم القوى الغريغورية في المانيا . ففي ١٨ نيسان ١٠٨٩ عين جيبارد كونستانس نائباً رسولاً في ألمانيا . ورسم له السياسة الحبرية في رسالة قيمة تدل على أنه لم يضع باي فكرة من الأفكار الغريغورية ، بل أظهر مرونة أكثر من غريغوار السابع . ولاريب في أن هذا التعيين لاقى محله لما يتمتع به هذا الحبر من حظوة ومكانة في المانيا . كان جيبارد عارفاً بالقضايا الألمانية ، واقفاً

عليها ، فضلاً عن انه كان على اتفاق تام مع البابا أوربينو الثاني ويقاسمه قوة العقيدة ورسوخ الإيمان ، وفوق هذا وذاك تهيوه واستعداده للسلام والصلح . وإذا عرفنا أيضاً أنه قريب لأكثر أسر ألمانيا القديمة أمكننا أن نقول ان هذه القربى تريد أيضاً في حظ نجاحه .

رسم أوربينو الثاني إلى « نائبه » في ألمانيا الخطوة الواجب اتباعها ، ويمتاز باعتدالها الحازم لأن البابا احتفظ بالحرمان الذي يثقل كاهل الملك وعدو البابا والحق بهما « جميع الذين يساهمون في عمل السوء بأسلحتهم ومالهم ونصائحهم وطاعتهم ، وخاصة إذا قتلوا منها أو من أنصارهما الرتب والوظائف الكنسية » . وقد منع تحت طائلة الحرمان الاتصال بأنصار كليمان الثالث وهنري الرابع المحرومين ، ولكنه أبدى استعداداً لتخفيف توبة الذين حادوا عن القانون بطريق الجهل أو الخوف أو الضرورة، وترك إلى جيسارد حرية العمل ليدخل في حظيرة الكنيسة جميع الكليركين الذين وصلوا إلى مراتبهم عن غير حق . ولا شك أن هذا الوضع المسالم المصالح، الذي أخذ به البابا أوربينو الثاني، كان من شأنه أن يرد من أمعنوا في الضلال وأتبعوا سبل الغواية وظلوا في شقاقهم عن رد فعل أكثر منه عن قناعة شخصية . ولم يكن في وسع الرأي الألماني إلا أن جذب هذه التوجيهات وأستقبلها برضى ، لأنها تمت عن إرادة خالصة في العودة إلى السلام في ظل الدين الخفيف . ولكن هذه السياسة الرشيدة لم تمنع وجود بعض الملحفين المتطرفين الذين أنكروا على البابا أوربينو وضعه .

وإذا نظم أوربينو الثاني الكفاح ضد الشقاق الامبراطوري في ألمانيا وإيطاليا فذلك لم يصرفه عن أهدافه في تطهير روما والريف الروماني من بذور الشقاق والنفاق ، لأن كليمان الثالث مازال يحتفظ فيها ببعض القوة، حتى انه عقد مجمعا في إيار أو حزيران ١٠٨٩ وحكم ببطلان بابوية أوربينو

الثاني ، كما حكم على المتمردين على سلطة هنري الرابع . وأذاع بالمقابل سلسلة من المراسيم حرم فيها السيمونية والنيقولاوية تحت طائلة العقوبات الشديدة وبفضل هذه السيرة التي سلكها أخذ يفخر بأنه خليفة بطرس الحقيقي وبه تتجسد الوحدة الرومانية التي فطم عراها غريغوار السابع عندما حكم على الملك الذي يتناول سلطته من الله تعالى .

ولكن هذه الحطة لم تنجح إلا قليلاً ولم تمنع أوربينو الثاني من الاستيلاء على روما ودخولها بين هتاف الشعب الروماني وتناثر الأزهار وإقامته القداس في كنيسة القديس بطرس . ولا شك في أن هذا الظفر كان عظيماً من الناحية المعنوية لأنه غسل العار الذي لطخ الكنيسة عام ١٠٨٤ . ولم يبق على أوربينو الثاني إلا أن يستقر ويوطد سلطته في المدينة بعد أن دخلها مباغتة . وهذا ماسعى إليه في آخر العام ١٠٨٩ وأول العام ١٠٩٠ بتحالفه مع النورماندين وتقوية وضع الكونتس ماتيلد في إيطاليا الشمالية وفصل هنري الرابع عن عدو البابا كليمان الثالث .

وما كاد أوربينو الثاني يدخل عاصمته إلا وغادرها إلى آملفي حيث عقد مجعاً حضره روجه غيسكار محاطاً بكوئنتات بوي وكالابر . وبهذه المناسبة جدد التحالف مع آل غيسكار وأقسم روجه بمين الولاء للكنيسة الرومانية وتقبل دوقية من يدي البابا . وبفضل هذه التعهدات استطاع أوربينو الثاني أن ينظر إلى المستقبل بثقة أكثر من ذي قبل . فاذا ما انحدر هنري الرابع إلى إيطاليا أدرك النورمانديون الخطر الذي يهددهم من تفوق الجرمانيين في شمال شبه الجزيرة وجنوبها ، ولذا ينحازون إلى جانب البابا ضد الفاتح .

وأهم من هذا أيضاً أن يسد البابا طريق روما في وجهه الجيوش
العصر الوسيط - ٧٤

الألمانية ، ولذا سعى في تقوية الكونتس ماتيلد في إيطاليا الوسطى . وكانت ماتيلد أرملة منذ ١٠٧٦ ولها من العمر ثلاث وأربعون سنة . ورغم أنها عاشت كراهبة تامة في حياة العصر ، إلا أن البابا فكر في زواجها في آب ١٠٨٩ مع الشاب ولف الخامس بن ولف الرابع دوق بافاريا ، ولم يكن له من العمر سوى سبعة عشر عاماً . ولاشك أن هذا الزواج الدبلوماسي يعود على البابوية بأفضل الثمرات والفوائد لأنه يربط بين زعيمى المعارضة في ألمانيا وإيطاليا ويقوي وضع الكونتس ماتيلد في إيطاليا الشمالية ويجعل بافاريا في صالح الغربيين . ولكننا نتساءل بعد هذا ما إذا كانت هذه المناورة الجريئة سابقة لأوانها . وفي الحقيقة ان هنري الرابع قد نبه إلى الخطر الذي ينجم عن هذه القوة الجديدة ، وأشير عليه أن يقضي عليها قبل أن تستفحل وتصبح في حالة تشل تأثيره في إيطاليا . ولذا فان هذا الحادث قد عجل في الهجوم الامبراطوري على إيطاليا . أما البابا أوربينو الثاني ، رغم التقدم الذي تم في بداية حبريته ، فلم يكن على جانب من القوة يستطيع أن يقف بها أمام الضربة التي يمكن أن توجه إليه .

وربما كان يعرف مبلغ قوته ، لأنه ، وان حاول أن ينظم الدفاع عن شبه الجزيرة ، لم يعمل على مايعيق سير المفاوضات خلال العام ١٠٨٩ التي كانت تجري في ألمانيا بين هنري الرابع وخصومه . ففي هذا التاريخ تقدم الامراء الموالون للكرسي الاقدس إلى الملك معربين له أنهم على استعداد للاعتراف به إذا قبل الانضمام إلى صف البابا الشرعي . وكانت الفرصة مواتية ، حتى ان هنري الرابع ، على ما يظهر ، جنح لهذا الحل ، غير أن الاساقفة المنشقين جعلوه يعدل عن رأيه لأنهم خافوا ، إذا تم التقام على هذا الأساس بين الكهنوت والامبراطورية ، أن يخلعوا من مناصبهم

لمشايعتهم الشقاق . وأخيراً تغلب رأيهم على الملك في جمع سبير (١٤ شباط ١٠٩٠) . وعوضاً عن أن يسوى السلام ، بدىء على العكس بالاستعداد للحرب والحملة على إيطاليا .

أما جيبارد كونستانس فلم يكن في وسعه بعد أن يحدث في داخل المملكة تحولاً في الرأي يمنع هنري الرابع من الابتعاد عن ألمانيا . وحدثت حوادث كان من شأنها أن قوت وضعه . فقد خسر الغريغوريون بوفاة أسقفين عظيمين من أصل خمسة ، وبوفاة برتولد ابن رودولف سواب من العلمانيين ، خير سند لهم .

ولذا يمكننا القول ان الأفق لم يكن نقياً من كل عاصفة رغم الظفر الدبلوماسي الذي ناله أوربينو الثاني خلال العام ١٠٨٩ . وثارت العاصفة في ربيع ١٠٩٠ . وانحدر هنري الرابع إلى إيطاليا وحاول قبل كل شيء أن يقضي على مقاومة الكونتس ماتيلد ، وحاصر مدينة مانتو ولاقى في هذا الحصار مقاومة عنيفة ، ولكنه فتحها أخيراً واستولى على كثير من الحصون . وجرت بينه وبين ولف بافاريا مقابلة . ولم يستطع هذا الأخير أن يفصل الملك عن عدو البابا كليان الثالث . وعمل هنري الرابع على فتح المدن في إيطاليا الشمالية .

وكما كان مرتقباً ، ألقى وصول هنري الرابع الرعب في إيطاليا . وأضطر البابا أوربينو الثاني أن يفر إلى كابو ومنها إلى سالرنو ولم يستطع أن يؤمل بتدخل عسكري من قبل حلفائه النورماندين لوفاة أرملة روبير غيسكار ووفاة جوردان ونزاع الأمراء النورماندين فيما بينهم . وهكذا فان الفوضى التي وقعت فيها إيطاليا النورماندية حرمت الكرسي الأقدس في العام ١٠٩١ جميع ما كسبه بشقة في العام ١٠٨٩ . وبينما كانت البابا الشرعي يهيم على وجهه في جنوب شبه الجزيرة ، استولى خصومه على قصر

سانتانيج ودخل كليمان الثالث روما . ولكن هذه الصدمة لم تؤثر في أوربينو الثاني ولم تفقده شجاعته وتوازنه ، ولم يتنازل عن مزعم من مزاعمه بل عقد مجعاً في بينيفن في ٢٨ - ٣١ آذار ١٠٩١ وجدد الحرمان ضد كليمان الثالث وأشياعه . ولكنه أمام خطورة الحالة جنح إلى المصالحة مع هنري الرابع شريطة أن يصون حقوق الكنيسة الرومانية .

ولم يكن الوضع العام في ألمانيا إلا مؤيداً لهذه الفكرة التي جنح إليها البابا ، لأن الجهود التي بذلها جيارد كونستانس في تنظيم الغريغورين لم تؤت أكلها بعد . كان جيارد يكافح بشدة ولكن النجاح غير قريب . وضعف الغريغورين في إيطاليا وألمانيا يوضح لنا كيف أن أنصار أوربينو الثاني حاولوا مصالحة البابا والامبراطور . وقد بدأ التثبت في المفاوضات من قبل اتباع الكونتس ماتيلد الذين أجبروها على الدخول في المفاوضات بعد أن رأوا المدن الإيطالية تسقط واحدة بعد أخرى في يد هنري الرابع . فوضع الملك شرطاً أولاً لكل اتفاق الاعتراف بالبابا كليمان الثالث الذي جاء ولحق به . ولذا لم تسفر المفاوضات عن شيء . لقد كانت الكونتس ماتيلد متعلقة بالكروسي الأقدس عن إيمان ولم يكن في وسعها إلا أن دفعت مستنكرة هذه الفكرة التي تسيء إلى وجدانها الحساس الرقيق . ولكن اتباعها ألحوا عليها وبعد مناقشات حامية الوطيس قطعت ماتيلد المفاوضات وعادت مطمئنة النفس إلى الحرب وقررت أن تذهب بالكفاح إلى النهاية .

وقد ألفت هذه الجهود الفائقة مكافأتها لأن الظفر ماعتم أن بدل المعسكر وصار في جانب الكونتس . وأراد هنري الرابع أن تسلم كانوسا فغادرتها إلى بيانلو ، ثم عاد جنودها وحاصروا جيوش هنري الرابع من كل جهة فلم يجد بداً من القتال متراجعاً نحو بيانو .

لقد تجاوزت نتائج واقعة كانوسا جميع الآمال ، فقد اضطر هنري الرابع الى التراجع وتبعه جيش ماتيلد يستعيد القصور ، الواحد تلو الآخر ، التي فقدوها منذ بداية الحرب . وهكذا فان حملته بدأت ظافرة وأنهت بكارثة حقيقية ، لأن طريق روما أصبح مغلقاً في وجهه . واذا لم يستطع أوربينو الثاني الدخول الى عاصمته ، فكذلك كليمان الثالث لا يستطيع الظهور فيها . وسر الرأي الايطالي بنتائج حرب البو الظافرة فمال الى صالح البابا الشرعي . يضاف الى ذلك أن النجاح الدبلوماسي الذي حصل عليه الكرسي الأقدس في آخر العام ١٠٩٣ لم يكن منه سوى أن أيد هذه الأوضاع المواتية .

واتفق أن أنكسار هنري الرابع على نهر البو وقع عندما ثار ابنه البكر كونراد . ولا يعلم على وجه الصحة سبب هذا الاختلاف الذي وقع بين الأب وابنه . ومهما يكن فان أوربينو الثاني والكونتس ماتيلد حاولا أن يستغلا هذا الاختلاف . إلا أن الحوادث لم تجر بالسرعة التي فكرتا بها لأن هنري الرابع اكتشف المؤامرة وقبض على ابنه وزجه في السجن حيناً من الزمن ، إلا أن كونراد استطاع أن يفر وتوج ملكاً على إيطاليا في ميلانو من قبل المطران آنسلم وبرضى من ماتيلد وولف . وهذا الانقسام الذي جرى في العائلة المالكة مع ما صحبه من تراجع جيش الامبراطور كان بمثابة ضربة قاسية ويمكن أن يسبب دماره وذهاب مزاعمه في ايطاليا .

وحدث في ذلك الحين حادث آخر عظيم الأهمية ، ويجب أن ترى فيه يد ولف وما تيلد . يقول برنولد كونستانس ان المدن اللومباردية : ميلانو ، كريمون ، لودي ، بليزانس ، ألفت حلفاً ضد هنري الرابع في العام ١٠٩٣ ، ولا يعطينا أقل تفصيل عن طبيعة هذا الحلف ولا عن تنظيمه . وكل ما قاله

انه كان تحت رعاية ولف ، إلا أنه على ما يظهر كان مرحلة من حركة التحرر التي حدثت خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر في معظم مدن إيطاليا الشمالية . وإذا كان تنظيم المدن بصورة عامة لم يكن سابقاً للسنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر أو أوائل القرن الثاني عشر فعلى الأقل ان سلطة الأسقف العظيمة في القديم ، قد هوجت بشدة . وتوزيع كونراد بن هنري الرابع ملكاً على إيطاليا لم يكن منه إلا أن شجع المدن على التحرر من نير الاحبار الذين فرضهم الامبراطور ، وفي الوقت نفسه ، من الوصاية الألمانية . وهذا هو معنى الحلف اللومباردي الذي لم يكن منه سوى دعم جهد اورينو الثاني والكونتس ما تيلد .

وسجل العام ١٠٩٣ كذلك تقدم الغريغوريين الذين استطاع جيبارد كونستانس أن ينظمهم . فقد عقد مجلس في أولم وانتخب برتولد آخر جيبارد دوقاً على سواب وتقرر أن يكون هذا الدوق مع ولف الرابع ملحقين بجيبارد بيمين التبعية . وبهذا يكون يمثل الكرسي الأقدس في ألمانيا مقلداً سلطة سياسية عليا تساعد على إظهار عمله الشخصي .

وفي هذا الوقت الذي انتظم فيه عقد الغريغوريين في ألمانيا ، أخذ يظهر أثر الرهبان ، لأنهم لم يبقوا كما كانوا في عهد غريغوار السابع بعيدين عن النزاع ، بل ان أثرهم فيه كان عظيماً . فقد انتشر الكلونيون في كل ألمانيا وكثرت مراكز الحياة النظامية . وبينما كان القديس هوغ ، أب كلوني ، يلزم الحياء في النزاع بين الامبراطورية والكهنوت نرى أن تلاميذ غليوم ، أب هيرشو ، اشتركوا في النزاع وأخذوا يبشرون ضد التقليد العلماني وضد الملكية المنشقة وضد أنصار عدو البابا . وبفضل هذه الدعاية استطاع جيبارد كونستانس ، وهو كلوني أيضاً ، أن يوقظ غيرة اللامبالين وينال الكثير من النجاح .

فمن هذا أن اللورين في العام ١٠٩٣ خرجت من يد هنري الرابع وأخذ الاساقفة يدخلون في طاعة البابا الشرعي . وارتسمت حركة بمائة في المناطق المجاورة . وفي ساكس كان التبدل عظيماً ونشطاً . فقد استيقظت ساكس على يد هران ، أسقف هلمبرشتاد ، الذي عينه البابا أورينو الثاني مفوضاً جبرياً ، ونسقت عملها مع بافاريا وسواب واللورين .

وفي الوقت الذي تطرح فيه إيطاليا هنري الرابع وتظهر في ألمانيا بوادر الاستقلال دخل أورينو الثاني روما وضرب الشقاق ضربة قاضية ، وبدأ أن وضع البابوية قد تحسن أكثر من ذي قبل ، لأن الهجوم الألماني في إيطاليا رد على أعقابها كما خذل عدو البابا . وبذا استطاعت الكنيسة الرومانية العودة إلى غايتها الأولى التي لم تصرف النظر عنها ، وباشرت عملها في الإصلاح الكنسي . وبعد أن عاد أورينو الثاني إلى روما أذاع للعالم المسيحي أنه يحمل الأمانة الدينية التي حملها سلفه من قبل وأنه سيجدد ويوضح التشريع الغريغوري الذي وافقت عليه المجامع الرومانية من ١٠٧٤ إلى ١٠٧٥ . وفي صيف ١٠٩٤ غادر روما بلاء إرادته ، وفي بليزانس عقد مجمعاً دعا إليه أساقفة البلاد جميعاً . فأجابه ما يقارب من ٤٠٠٠ أكليركي و ٣٠٠٠٠ علماني حتى ضاقت الكنائس بالحاضرين وعقد الاجتماع في الهواء الطلق .

وسبق هذا المجمع عدة مجامع اقليمية وافق فيها الأحبار على الأحكام التي اتخذها غريغوار السابع ضد النيقولاوية والسيمونية وحظر على المؤمنين حضور القداس الذي يحتفل به الاكليركيون المجرمون . وفي بليزانس جدد أورينو الثاني بشكل صريح وعلني المراسم الانشائية في إصلاح الكنيسة . واحتفظ بأحكام سلفه كما أثبت الفقه الروماني في بعض النقاط التي تترك مجالاً للتأويل وخاصة فيما يتعلق برقي المناصب

الكنسية على يد الاساقفة السيمونيين : فقد أثبت المجمع بطلان كل تقديس يدخل فيه المال ، إلا أنه قبل ، على العكس ، تنازلاً ، ان تقديس السيموني لشخص انتخب دون سيمونية يبقي ساري المفعول إذا كان هذا الشخص يجهل قباحة المقدس . وكذا كل من كل قانونياً قبل أن ينال ربحاً سيمونياً يجب أن يحتفظ برتبته شريطه أن يعيد ما كسب من مال عن طريق السيمونية .

يلاحظ إذا طابع الاعتدال في قوانين بليزانس التي كانت تعبيراً لرغبة أوربينو الثاني في الوفاق والصلح . وما فتى البابا في جمع بليزانس يبحث عن النتائج التي توصل إليها اللاهوتيون وتتفق مع وجهة نظره . ولا شك ان كان بينهم من كان متعنناً مثل بونيزون أسقف سوتري مؤلف « كتاب الحياة المسيحية » الذي يقول ببطلان الرتب التي يمنحها الحبر السيموني أو المحروم ولا يقبل في ذلك التساهل بحال من الأحوال . وعلى نقيضه كان الكاردينال دوسدودي في إيطاليا وبرنولد كونستانس في ألمانيا يتدحان بقاء العقوبة التي حلت بالمنشقين ، إلا أنها يجنحان إلى تسهيل العودة إلى حضن الكنيسة لكل من أقترف جرماً عن غير إدراك ووعي .

وتجددت قوانين بليزانس مراراً حتى آخر حبرية أوربينو الثاني . وفي كل مجمع يعقد كانت تتم هذه القوانين بعدة تدابير تهدف إلى نشر الأخلاق المسيحية بين الكليركين والعلمانيين كالقوانين المتعلقة بالقتل والغصب والزواج وغيرها .

وهذا النشاط الإصلاحى كان دليلاً على هدوء النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ، وليس في ذلك ما يدل على سلم دائم أو هدنة مؤقتة . لأن هنري الرابع لم تخامره أي فكرة في الخضوع رغم خذلانه العسكري

والدبلوماسي . ولم يمض قليل من الزمن على مجمع بليزانس إلا وبلغه ان ماتيلد خيبت ظن ولف الشاب ولم تنجب له اولاداً أو تزيد في قوة أسرته ، ولذا هجرها وتخلّى عنها . فرأى هنري أن الكونتس ، بعد أن حرمت مساندة بافاريا لها ، لا تستطيع مقاومة الجيش الجرمانى . وهاجمها الملك في نوغارا فأخفق وسجل عاراً جديداً عليه ، ولم يستطع أن يخلص إيطاليا الشمالية من نفوذ البابا . وفي الجنوب أيضاً تزوج ابنه العاق كونراد ابنة كونت صقلية ، روجه . وفي كل هذا توطيد لنفوذ الكرسي الأقدس في شبه الجزيرة . لذا قفل راجعاً إلى جرمانيا . وكان وضعه فيها قلقاً لا يدعو إلى الاطمئنان ، فقد هجر الاساقفة الشقاق . ولم يكن أسعد حظاً مع العلمانيين . وعلى العكس كان وضع البابا في تحسن لان إيطاليا كلها التفت حول الكرسي الأقدس .

ومات البابا اوربينو في ٢٩ تموز ١٠٩٩ ، واذا لاقت جبريته في اول الامر بعض الصعوبات فقد سجلت ظفراً في السنوات الاخيرة . ففي العام ١٠٩٩ يمكن ان يقال ان الشقاق الامبراطوري قد انتهى ظاهراً ولم يبق لكليمان الثالث إلا نفر قليل من الأنصار . وأخذت الكنيسة في الغرب ، بفضل المركزية ، تتصاع لتوجهات البابوية اكثر مما كانت في الماضي . ومن الناحية السياسية انحازت إيطاليا بكاملها إلى جانب روما . وفي ألمانيا أخذ الحزب الغريغوري بالتوسع . وقبل وفاة اوربينو الثاني بخمسة عشر يوماً سقطت القدس في ايدي الصليبيين (١٥ تموز ١٠٩٩) فكللت بذلك جهود البابا . وإذا حدثت الحرب الصليبية الأولى وبلغت هدفها فذلك يرجع إلى اوربينو الثاني لأنه ارادها وبشر بها ونظمها ووجهها وكانت منذ العام ١٠٩٥ الفكرة المسيطرة عليه . هذا ولما كان الملك هنري الرابع وسائر ملوك الغرب بعيدين عن هذه الحركة فإن المجد

- ٧٤٦ -

المتبعث عن الفوز كل الكنيسة الرومانية التي أصبحت عند حد تعبير الدبلوماسية الحبرية ، ام الأمم كما هي ام الكنائس .

وهكذا فإن اورينو الثاني منح الكرمي الأقدس هبة لم يعرفها من قبل ، ولكنه لم يعده إلى حظيرة السلام الذي كان يشده ويسعى إليه منذ اعتلائه عرش البابوية ، وذلك لأن هنري الرابع رفض الامتثال والخضوع ولم يشأ ان يتنازل عن مزاعمه القيصرية بل تغنت برأيه وظل يدعم عدو البابا ، ولذا فإن النزاع بين الكهنوت والامباطورية مازال مستمراً .

نزاع التنظيم العلماني والكنسي

في عهد هنري الخامس

١١٠٠ - ١١٢٥

انتخاب باسكال الثاني (١٣ آب، ١٠٩٩) . - خلف اورينو على كرمي البابوية الكاردينال روني الذي انتخب في ١٣ آب ١٠٩٩ بابا باسم باسكال الثاني

وكان هذا رجلاً قديماً ومساعداً أميناً للباباوات الذي تعاقبوا على عرش البابوية في آخر القرن الحادي عشر . غير أنه لم يكن لديه من المؤهلات ما يجعله يقوم بالمهام الملقاة على عاتقه ، وليس له ذكاء سلفه، بل ان صفاته الاخلاقية خولته الوصول إلى منصبه . كان راهباً يرغب قبل كل شيء بظفر الاصلاح في الكنيسة ، ولكن ينقصه التبصر في الأمور وبعد النظر والحزم والمرونة التي ساعدت الحبرية السالفة على تحقيق كثير من الآمال .

ولم تمض سنة على وفاة اوربينو الثاني إلا وتبعها وفاة كليمان الثالث (٨ ايلول ١١٠٠) . وحاول المنشقون في روما أن يكون خلفه تيري سنت روفين ، إلا أن الأحناف قبضوا عليه وزجروه في دير كافا . وجرت محاولة بمائلة لصالح البوت أسقف سانت ساين ، إلا أنها باءت بالخيبة ، وتوطدت أخيراً وحدة الكنيسة .

وبدا الجو ملائماً للصلح بين الكهنوت والامبراطورية ، حتى ان هنري الرابع لم يفكر في انعاش الشقاق المحتضر . فذ علم بموت كليمان الثالث عقد مجلساً في ماينس في عيد الميلاد حضره الأساقفة والأمراء وتم الاتفاق على ارسال وفد إلى روما لتحقيق وحدة الكنيسة وإقامة بابا بانتخاب الرومانيين وجميع الكنائس .

وهذه الأمنية تعرب عن رغبة الأساقفة والأمراء في السلام . غير أن هذه الرغبة لم تلق أي صدى في روما لأن باسكال الثاني كتب إلى جيبارد كونستانس في ١٨ كانون الثاني ١١٠١ أنه على غير استعداد للصلح على هذا الاساس . ولكن الا يتضمن قرار ماينس تجديد انتخاب البابا لاسيما وان الداعين لذلك هم مندوبو الامبراطور ولا يعتبر ذلك مناقضاً للمبادئ الغريغورية ! لقد كان من الممكن بقليل من الذكاء والحكمة والارادة الطيبة الوصول إلى إيجاد حل وسط شريف يعيد السلام والوئام بين الطرفين . غير أن باسكال الثاني عوضاً عن أن يجنح إلى هذا الحل المعقول رجح استئثار الصعوبات التي كان يتخبط بها هنري الرابع في ألمانيا من جراء ثورة الأمراء عليه واضطراره لمحاربتهم . يضاف إلى ذلك أن البابا شجع أعداء الامبراطور . ففي ٢١ كانون الثاني ١١٠٢ ، أي في الوقت الذي كان يستعد فيه هنري الرابع للهجوم على الفلاندر ، كتب إلى أمير هذه المقاطعة روبرت فريزون ، بعد عودته من الحرب الصليبية ، يحثه

على ملاحقة هنري الرابع رأس الهراطقة ويؤكد له « ان لأحب إلى الله من ذلك » . وبعد بضعة أسابيع أي في ١٢ آذار عقد مجعاً في قصر لاتران ضم الاساقفة الابطاليين خاصة وجدد فيه الحرمان الذي ينقل الملك ، كما حكم في الوقت ذاته ببطلان التقليد العلماني . ولقد عزا بعض المؤرخين هذه الشدة والصرامة من قبل باسكال الثاني إلى الحقد الذي يكنه ضد المانيا . ولكن العوامل الدينية عند هذا الراهب تفوق المفاهيم السياسية ، وربما يكون الدافع إلى ذلك أن باسكال الثاني أراد أن يعرب لهنري الرابع عن إيمانه واخلاصه للباديء القانونية التي تفرض عليه التوبة النصوحة مقدمة لكل عفو .

وهكذا فسر هنري الرابع موقف البابا . وفي ٦ كانون الثاني ١١٠٣ ، وفي مجلس حضره كبار الشخصيات الكنسية والعلمانية ، أعلن بصورة صريحة عزمه على الذهاب إلى القدس ليرفع عنه طائفة الحرمان ويعيد السلام إلى ما كان عليه بين المملكة والكهنوت . ولكن هل في هذا الفعل ما يدل على أن الملك كان صادقاً خالص النية ؟ لاشيء يناقض هذه الفرضية ، غير أن خداع هنري الرابع المتكرر وتجارب الماضي فرضت على باسكال الثاني التعقل والحذر وجعلته يتريث ويلاحظ الحوادث عن كذب ، ويسجل الوعود التي قطعها الملك على نفسه بالخضوع والندم على ما فعل ، والا يبرم عفواً عاجلاً ، حتى يرى كل شيء قد تم كما أراد . هذا فضلاً عن أن الوضع كان يقتضي اتخاذ مثل هذه الخطة لأن هنري الرابع لم يفعل شيئاً يدل على رغبته في مغادرة المملكة . فقد كان في آخر عام ١١٠٣ وأول ١١٠٤ مشغولاً في توطيد السلام في فلاندر وتهدة الاضطراب في ساكس ، واقرار بعض الاساقفة في مراكزهم

وليس هنالك ما يجعلنا نتنبأ بحجه الى الديار المقدسة لاسيا وان ابنه هنري أعلن العصيان عليه فحال دون تحقيق هذا الحج الى الأبد .

أزمة الملكية في جومانيا . - كان هنري الخامس يشترك في الحكم مع أبيه منذ (١٠٩٨) وقد توج و قدس في (١٠٩٩) ولكنه ظل مبعداً عن كل مساهمة فعلية في الحكم ، كان طموحاً ، مستبداً مجرداً من الوسوس ووخز الضمير ، لا يعرف كبحاً بلجأ أهوائه ، توافاً إلى الحكم. غادر البلاط سرّاً في ١٢ كانون الأول ١١٠٤ ولجأ في ركابه جميع المستائين من ساكسونيين وسوابيين وبافاريين . ولم يكن أبوه أقل منه طموحاً وحرصاً على الملك . لقد كانت الاثنان مفعمين بنفس الغرائز والاهواء ولذا كان الصراع بينها شديداً ودام حتى الموت . وقد جعل هذا النزاع بين الأب وابنه موقف الكرسي الأقدس دقيقاً . ولا مشاحة في أن البابا يعتبر راعياً عاماً لجميع المؤمنين وضماناً للسلام المسيحي ، ولذا فهو لا يستطيع أن يكون الا فوق جميع القضايا الشخصية ويعمل على تهدئة الخلاف . ولكن يجب أن نعترف بأن باسكال الثاني ، وان كانت نواياه على مثل ما ذكرنا ، كان ، من الناحية العملية ، العوبة بيد هنري الخامس ، ولم يستطع الحفاظ على توازنه وتجرده فيقف محايداً بعيداً عن كل غرض .

ومن المنتظر في مثل هذا الحُصام أن يبحث كل من الأب وابنه عن مساندة البابا له . وقد استطاع هنري الخامس أن يستثمر الحرمان الذي وقع فيه أبوه ليجمع حوله أنصار الكرسي الأقدس في ألمانيا . وما كاد يعلن العصيان حتى أرسل إلى روما وفداً ليرى رأي باسكال الثاني في صحة اليمين التي أقسمها من قبل إلى أبيه ، وصرح فوق ذلك بأنه لن يقبل بالمملكة إلا بعد رضى البابا . واستسلم باسكال الثاني لأقوال

هذا الشاب المخادع وأوقع نفسه في حبال مكره . وعوضاً عن أن يحتفظ برصاته ويتخذ حيطه ويبقى سيد الموقف، ويعرض تحكيمه على الاثنين ، هنا هنري الخامس على عواطفه وطاعته ووعد بالامبراطورية وأنعم عليه ببركة الرسولية . وبفضل ذلك استطاع هنري الخامس أن يجلب اليه عطف الغريغورين في ساكس وبافاريا ويتحمسوا له عن نية صافية . وظنوا أن ساعة التحرر قد حانت والتفوا حوله معلنين تأييدهم له .

أمام هذا الموقف لم يكن في وسع هنري الرابع الا أن اقترح على ابنه اقتسام المملكة ووعد أن يجعله خلفاً له . فأجاب هنري الخامس بلغة المرائي المحتال ان القضية الهامة في هذا الحين هي ارجاع الوحدة في الكنيسة . وموقف باسكال الثاني جعل الملك الشيخ يخشى من أن يؤدي التسليم بلا قيد ولا شرط الى خلعه عن العرش . لذا رجح أن يجرب حظه بقوة السلاح وفي غرة آب ١١٠٥ غادر ماينس وانحدر نحو الجنوب وقابل جنود ابنه بالقرب من راتسبون . وحاول كل منها اجتناب الحرب : كان هنري الرابع يريد السلام ، ولم يشأ هنري الخامس أن يدشن حكمه بسفك الدماء، ولكنه أراد أن يأخذ أباه على حين غرة وبالحياة . الا أن خطته هذه افتضح أمرها وفر هنري الرابع وعاد الى ماينس فتبعه ابنه وهدده بمغادرة المدينة حتى اضطر إلى الزواج عنها الى كولونيا . ودخل هنري الخامس ماينس ودعا الى عقد مجلس عام بحضور المفوضين الرسولين جيبارد كونستانس وريشار البانو ليعلن سقوط هنري الرابع . وخاف هذا مغبة الأمر فخرج من عزلته وقدم استعداداً للمثول أمام المجلس ليعلن خضوعه التام أمام ممثلي الكرسي الأقدس . وحاول هنري الخامس أن يحوله عن غايته فقبض عليه وأخذه أسيراً عنده وتم لهنري الخامس ما أراد . وحكم المجلس على هنري الرابع غيابياً وجدد

حرمانه واضطر طوعاً أو كرهاً الى التخلي عن شاراته الملكية . وتوج هنري الخامس ملكاً في ٥ كانون الثاني ١١٠٦ . وذهب وفد يطلب إلى البابا تأييد هذا الحكم الذي أعلن خلافاً للقواعد القانونية لأن المجلس رفض مسمع المتهم .

وبينا كان هذا الوفد في طريقه إلى روما حاول هنري الرابع أن يستعيد تاجه . فمن قصر انجلبايم حيث كان أسيراً وجه إلى سكان كولونيا نداء حاراً ورجا اشيبه هونغ كلوفي أن يتوسط لدى باسكال الثاني في العفو عنه ، كما حاول أن يفصل بعض الأساقفة والأدواق عن ابنه هنري الخامس . وجرت واقعة بين هذا وبين أنصار أبيه عند كولونيا اضطرتهم إلى القتال متراجعاً نحو اكس - لا - شابل . وعندما ظهر اشعاع الأمل بالنصر لقي هنري الرابع حتفه في ٧ آب ١١٠٦ بعد أن أنهكه التعب . وقد اعترف بجميع أخطائه إلى بوركارد أسقف منستر وكلفه أن يسلم خاتمه إلى ابنه . وهكذا انتهت أزمة الملكية في جرمانيا . غير أن البابوية سوف تلقى في الملك الجديد ، الذي خدمت مصالحه ، ألد أعدائها . وعاد النزاع بين الكهنوت والامبراطورية سيرته الأولى منذ العام ١١٠٧ .

باسكال الثاني والتقليد العلماني . - إن النزاع بين الكهنوت والامبراطورية لم يبد ، في هذه المرة ، في وجه العام من حيث السيطرة على العالم ، بل ظهر في الناحية الخاصة منه وهي قضية التقليد . فبدأ العام ١١٠٢ ، كما رأينا في مجمع لاتران ، جدد باسكال الثاني التشريع الغريغوري . وبعد أن اعتلى هنري الخامس العرش عقد البابا في تشرين الاول ١١٠٦ في غواستالا في ايطاليا العليا مجمعاً آخر حضره معظم الأساقفة الايطاليين وكثير من الفرنسيين وبعض الألمانين ، وأعلن في

هذا المجمع عفوه عن عدد عظيم من الأجرار المنشقين المنزهين عن السيمونية ثم حرم على الاكليركيين أن يتقلدوا مناصبهم الدينية من أيدي العلمانيين كما حرم على العلمانيين تخويل أي تقليد كنسي كان . وليؤيد قوله بالفعل حكم بجلع برون مطران ترين من منصبه لمخالفته المبادئ القانونية .

ومثل هذا الموقف له في المستقبل معناه الواضح ، لأن باسكال الثاني لم يفكر بالتخلي عن التشريع الغريغوري أو طرحه في زاوية المهملات ، إلا أنه كان على استعداد لدراسة هذه القضية التي تركت مجالاً للنقاش والجدل .

وكذا هنري الخامس ، أبدى رغبته ، قبل وفاة أبيه ، في التفاهم على هذا الموضوع . ولكن هذا لم ينع ، منذ تسلم السلطة ، أن يتصرف بالاسقفيات بحراً فاضحة ، ولم يكن في وسع الكرسي الأقدس أن يغمض عينيه عليها . وإذا كان قطع العلاقات بينها محتملاً إلا إذا أمكن الوصول إلى حل وسط يوفق بين الطرفين .

النظرية الفرنسية في التقليد . — وفكرة التقارب بين وجهتي النظر وجدت منذ بضع سنوات . وقد نشأت في فرنسا حيث وجد حل لمشكلة التقليد ، وهذا الحل يصون سلامة المبادئ القانونية ولا يمسها ، ويحول في الوقت ذاته السلطة الزمنية بعض الامتيازات .

لقد كان التشريع الغريغوري يتمشى مع التعاليم الكنسية الصرفة وقد تجاوز روح النص فأقصى كل تدخل للملوك أو الأمراء في الانتخابات الاسقفية والغى كل رضى كان لهم في الماضي . ولكن لا يمكن إرجاع هذا الرضى للأمراء الزميين فيرتاحون له وتسوى الأمور ، وبوضع حد للخلاف ؟ هذه هي النظرية التي عرضها ايف اسقف شارتر في آخر حبرية اوربينو الثاني . يقول ايف : ان التقليد العلماني لا يحرق

القواعد الكنسية مادام مطبقاً على الأموال المتعلقة بالأسقفية أو الأبوية . ومن المرطقة أن يظن بأن هذا التقليد العلماني يحول أي سلطة كنسية . وبعد ألا يمكن أن يتحقق الاتفاق بين الكنيسة والدولة اذا قبل أن الملك يحول التقليد الزمني فيما يتعلق بالأراضي والواردات الأخرى ، دون أن يكون له دخل في الوظيفة الكنسية ؟ لاشك أن هذه النظرية جريئة وتذهب على خلاف جميع المفاهيم المرعية الاجراء التي تجعل الأسقفية كلاً لا يقبل الانقسام ولا الانحلال . ومع هذا فان النظرية لا تخرج عن التعاليم الكنسية ، بل انها كانت سهلة التطبيق ، فموجبها يحتفظ الاكليروس والشعب بحق الانتخاب ، والمثروبوليت (المطران) بحق المباركة ، ويقتصر الملك على تسليم الأسقف ، الذي هو تابعه ، الأموال الخاصة بوظيفته . وثم الا يستطيع باسكال الثاني وهنري الخامس أن يتفاوضا على هذه الأسس ويصلا إلى تسوية قبلها البابوية وترضى عنها الملكية الجرمانية !

وفي العام ١١٠٥ كان في عزم باسكال الثاني السفر إلى ألمانيا لتسوية قضية التقليد . وفي مجمع (غواستالا) ألح الأساقفة على دعوة هنري الخامس فأجاب البابا بالتخلي عن هذا المشروع مؤقتاً بعد أن قبله في أول الأمر . على أن المؤرخ ايكوهار أورا الذي نأخذ عنه هذا الخبر ، ينسب عدول البابا عن رأيه ، إلى الخوف من الملك . ويحتمل على الأكثر أن باسكال الثاني أراد ، قبل البدء في مناقشة خطيرة من هذا النوع ، أن يؤمن لنفسه حلفاً ، ولهذا السبب نراه بعد مجمع غواستالا يذهب إلى فرنسا . ونرى سوجر مؤلف « ترجمة حياة لويس السمين » يلح في كتابه على الضرورة التي وجد فيها البابا وأضرته إلى مشاورة ملك فرنسا وابنه على اثر التعديلات والمطالب المتعلقة بالتقليد والتي أضناه بها الملك هنري . وكان العصر الوسيط (٤٨)

فيليب الأول ، ملك فرنسا ، قد رفع عنه في العام ١١٠٤ قرار الحرمان الذي ناله بسبب اتصاله الحرام مع بروتاد مونفور . وكان ابنه لويس يشترك بالسلطة مع أبيه ويستشير سوجر ، وييدي نحو الكرسي الأقدس آيات الاحترام . ولذا كان من المناسب انهاز مثل هذه الفرصة والاستفادة منها .

وعندما وصل البابا إلى حدود الأراضي الملكية في شاريتيه على اللوار استقبلته باحترام رسل الملك وابنه ، ولكنه ، عوضاً عن أن يتجه إلى سان - دوني مباشرة حيث كانا ينتظرانه ، ذهب إلى شارتر وتحدث إلى الأسقف ايف ليأتيه بجل نهائي . ووصل البابا أخيراً إلى سن - دوني بعد عيد الفصح (١١٠٧) وفيها انحنى الملكان احتراماً أمام خليفة بطرس وطلب إليهما أن يساعدا الحواري وثأبه كما فعل أسلافها . ولم تعرف على وجه الصحة الأحاديث المتبادلة في هذا الاجتماع ، ولكننا نستخلص من حديث سوجر نتيجتين : الأولى ، أن وضع الكنيسة في فرنسا قد سوي في خطوطه الكبرى طبقاً لأفكار ايف شارتر . الثانية ، أن الملكين وعدا باسكال الثاني بالمساعدة إذا مست الحاجة ضد هنري الخامس .

وبعد أن حصل باسكال الثاني على هذا الوعد اقترح على ملك جرمانيا أن يقابله على الحدود بين فرنسا وألمانيا . واكتفى هنري الخامس بأب أرسل إليه وبدأ التقى به في شالون على المارن . وتتلخص نظرية هنري الخامس بضرورة أخذ موافقة الامبراطور قبل الانتخاب ، وإلزام المنتخب ، يعد القديس ، بأن يرجو هذا الامبراطور أن يقلده منصبه رامزاً اليه بالحاتم والعصا . فرفض باسكال الثاني رفضاً مطلقاً وقال : « إذا لم يكن باستطاعة الكنيسة أن تنتخب حبراً دون استشارة الأمبراطور ، فهذا يعني أنها كالرقيقة ملحقة به وان المسيح قد مات جزافاً . ان التقليد

بالخاتم والعصا ، وهما شيان متعلقان بالمذبح ، إنما هو اعتداء على حقوق الآله نفسه .

واصطدمت النظريتان بشدة ، ولم تتركاً منفذاً للخلاف . وإذا أعلن هنري الخامس رأيه في التقليد بالعصا والخاتم وهما شارتا الوظيفة الكهنوتية فهذا يعني أنه يطالب بامتيازات روحية ليس في وسع البابا أن يوافق عليها . يضاف إلى ذلك أن ممثليه ، عوضاً عن أن يناقشوا النظرية الجبرية ويبحثوا عن مجال للتفاهم ، انسحبوا وهم يهددون « أن الحصومة لا تنتهي هنا بل في روما » . وكان باسكال الثاني يرغب في السلام ، همه أن يمنع عن الكنيسة الرومانية المخن الدموية ، وحاول استئناف المفاوضات والتفاهم على هذه القضايا بلهجة هادئة متزنة ، ولكن دون جدوى .

وبينا كان المجلس منعقداً في سالون ، كان هنري الخامس يعمل على تعيين الأساقفة بنفسه ، وصمم على أن تظهر أفكاره بالقوة ، وكما أعلن مندوبوه ، أن ينهي في روما خلافه مع الكرسي الأقدس . ولكن الحالة في ألمانيا أخرجت ثلاث سنوات تنفيذ هذه الخطة المرسومة .

ولم يجزع باسكال الثاني لما حدث بل انه في مجمع عقد في لاتران في ٧ آذار ١١١٠ ، جدد تحريم التقليد العلماني ، وحاول محاجو الامبراطور الاشادة بقوة حجج سيدهم معتمدين في ذلك على امتياز مزور لهادريان الأول ، فأجابهم لاهوتيو باسكال الثاني بالدفاع عن النظرية الغريغورية وذكرهم بان الامبراطور لا يمكن أن يتصرف بالخاتم ، رمز الزواج الصوفي ، الذي يعقده الأسقف مع كنيسته يوم المباركة ، ولا بالعصا التي يقود بها قطيعه ، وليس هنالك ما يبدل على تساهل البابا أو تخليه عن أي شيء .

هنري الخامس في ايطاليا . — وعندما أمن هنري الخامس الحالة في ألمانيا

عبر جبال الألب يجيش من ثلاثين ألف رجل ، ودخل إيطاليا فأحدث فيها الخوف والذعر ، وخضعت له المدن دون حرب ، وتوصل إلى طرسكانا دون أن تبدي الكونتس ماتيلد أي مقاومة . ومن آريزو أرسل وفداً إلى باسكال الثاني . ولم يشك بالفوز بعد هذا الزحف الظافر ، فقد كان البابا منعزلاً لاحتلافه في إيطاليا ، وبقيت الكونتس ماتيلد على الحياد ، وليس من السهل معرفة الأسباب الموجبة لذلك . وفي الجنوب كان روجه ، دوق بوي ، منهمكاً بالمصاعب الداخلية . وفي صقلية توفي الكونت روجه الأول وكان ابنه الحدث روجه الثاني تحت وصاية أمه آديلايد وليس له من القوة ما يجعله يتدخل في نزاع الكهنوت والامبراطورية . وإذا كل باستطاعة هنري الخامس أن ينفذ ببرودة الحطة التي وضعها قبل النزول إلى إيطاليا . وواصل زحفه على روما ووجه إلى الرومانيين رسالة ، على نمط والده ، وأعرب عن عطفه ووعده بالسلام والعدل وأسفه على عدم تمكنه من زيارة المدينة الخالدة قبل هذا الحين . وأرسل في الوقت ذاته وفداً إلى البابا . وفي ١١١١ شباط التقى برسل باسكال الثاني وانعقدت المحادثات فوراً بين الطرفين . وعجب بمثلو الملك كيف أن الحبر الأعظم لا يريد الاعتراف بالتقليد الملكي الذي قبل خلال ثلاث وستين جبرية ، وذكروا بإلحاح أن الأساقفة تناولوا من شارلومان وحلفائه كثيراً من الأراضي التي تبرر مزاعم الملك الجرمان في فيما يتعلق بالانتخابات الأسقفية . فأجابهم رسل باسكال الثاني : إذا كانت هذه هي النظرية الملكية ، فإن البابا على استعداد لتغلي الأساقفة عن جميع الأراضي والأموال والواردات وبكلمة مختصرة عن جميع الحقوق الملكية (ريغاليا) التي يأخذونها من الأباطرة . وطعنهم الجانب الآخر أن هنري الخامس يتغلي بلاء إرادته عن التقليد إذا بر باسكال الثاني بوعده .

وهكذا أخذ النقاش اتجاهاً لم يكن منتظراً وادى الى الفصل الكلي بين الروحي والزمني ، كما بين ذلك الكاردينال دوسدودي في رسالته « في الرد على السيمونيين المعتدين » التي نشرها في عهد أوربينو الثاني وقال فيها ان هذا الحل هو خير وسيلة تعيد الأكليروس إلى مراعاة واجبه الكهنوتي بعد أن انصرف الى خدمة البلاط . ومثل هذا الحل يعجب باسكال الثاني لأنه مأخوذ بمثل أعلى مسيحي ، غير أنه لا يوافق ملك جرمانيا ، لأن الاقطاعية الكنسية الخارجة عن قوانين الوراثة أدت له كثيراً من الخدمات منذ قرن ونصف ؛ ولا يوافق الأساقفة الألمان الذين عينهم الملك وتوصلوا الى وظائفهم بالحيلة ، لأنها تجردهم من طيات هذا العالم وتحرمهم من حياة الزهر ، وتضطرم الى العيش في ظل الفقر الانجيلي . ولا شك أن هذا الاختلاف في وجهة النظر يؤدي إلى سوء تفاهم . وقد شاء هنري الخامس أن يزيله في الساعة التي يختارها .

والمرجح في مثل ذلك الحين أن يترك باسكال الثاني الطاهر القلب يضل في أوهامه . وعقد مندوبو هنري الخامس مع الرسل الحبريين العقد المعروف باسم كونكوردات سوتري ، ويبدو بشكل تصريحين : أحدهما من البابا ، والآخر من الملك . يتخلى الأول باسم الأساقفة عن الأموال الكنسية وعن جميع الريغاليا ؛ ويعد الثاني بأن يعزف عن الانتخابات الأسقفية والتقليد . وبعد توقيع هذا الاتفاق جاء هنري الخامس بنفسه الى سوتري . وفي ٩ شباط وافق على التعهدات التي قبلها الطرفان واشتروط لقبولها أن يقبل بها الأساقفة الألمان . وهذه خيانة منه ومخاتلة . فقد كان واثقاً من أن هؤلاء سيثرون على البنود التي تضر بمصالحهم المادية ، وبذا يلتمس عذراً لفرض مزاعمه الخاصة .

وبعد أن تبودلت الايمان تهاً هنري الخامس لدخول روما . وفي ١٢

شباط حلف على احترام الأعراف الرومانية ، وذهب الى كنيسة القديس بطرس ، كما هي العادة ، وأقسم اليمين ووعد أن يكون في المستقبل حامياً للبابا وصديقاً يدفع عن الكنيسة شر أعدائها . وبعد هذا نادى به باسكال الثاني امبراطوراً وقاده الى داخل الكنيسة نحو مائدة البورفير المستديرة حيث تلى الدعاء الثاني لحفلة التتويج . وهنا أعرب البابا عن استعداده لتنفيذ الشق الأول من كونكوردات سوتري وسأل هنري الخامس عن عزمه في تنفيذ الشق الثاني . غير أن الملك ، عوضاً عن أن يجيب عن السؤال المطروح ، طلب الى البابا أن يعرفه بتصرجه الخاص . وهذا أقرب للمنطق ، لأن التخلي عن التقليد ان هو الا نتيجة لتخلي الحبر الأعظم عن (ريغاليا) الكنائس . فقام باسكال الثاني بما طلب إليه بكل طيب وقرأ امتيازاً مطابقاً لقرار سوتري عدد فيه المحاذير التي قد تلحق بالنظام الكنسي من جراء التمتع بالاعراض المادية وأبدى رغبته بالرجوع إلى التقاليد الكنسية الخفيفة . وما كاد يتم كلامه إلا وأضطرب المجلس . أما هنري الخامس فقد ظل أميناً على موقفه الذي اتخذ في سوتري وطلب أن يجتمع باساقفة مملكته قبل أن يبدي استحسانه وموافقته . وأنقطعت طقوس التتويج . وأنسحب الملك مع الأخبار ، ثم عاد وصرح أن مشروع البابا غير قابل للتطبيق وهرطقي من بعض وجوهه . فشده البابا وخارت قواه ورفض أن يتم الاحتفال . وألح هنري الخامس على أن يتم ، وظل الحبر الأعظم متمنعاً ، فرأى هنري الخامس أن يستعمل القوة . وتناقلت الأفواه هذه الاخبار في المدينة ، وقامت على اثر ذلك مشادة ، وأعطى الملك أمره إلى الجنود أن يقبضوا على البابا ويأخذوه أسيراً مع الكرادلة ولم ينبج منهم إلا أسقفان اختبأ في مستشفى قريب من كنيسة القديس بطرس . وهكذا آتت هذه الجناية ، التي دبرها هنري الخامس ، أكلها

ولم يبق عليه إلا أن يستخلص منها النتائج الضرورية ويجبر باسكال الثاني بالقوة على قبول المزاعم الملكية . أما الرومانيون فلم يقفوا مكتوفي الأيدي ، بل انهم ثاروا ، وفي فجر يوم الاثنين هاجموا الالمانيين باندفاع زائد وأوشكوا أن يطردوهم من كنيسة القديس بطرس . وجرح هنري الخامس في وجهه وفقد رشده وكاد يودي لولا أن تداركه الكونت أوتون ميلانو وأعطاه فرسه الخاص . ورأى الجيش الالماني أن يترك الكنيسة ويتراجع إلى شمال التيبر نحو موقع حصن حيث يمكنه الهجوم بشروط حسنة . أما البابا فقد أجبره الملك على خلع لباسه الجبري وقاده إلى قصر تريبيكوم . وبعد بضعة أيام نقله إلى المعسكر الالماني ، وبينما كان الرومانيون مستمرين في دفاعهم الجيد والكردينال جان توسكولوم ينادي ويستغيث بالامراء المسيحيين عن غير جدوى ، كان باسكال الثاني البائس يضطهد ويوقع على الاعتراف بالتقليد العلماني . وخشي البابا مغبة المناظرة على المقاومة ، وربما أضرت بالمساجين والكنائس فاستسلم والالم والذل يحزان في نفسه ، وتقوه بهذه الكلمات البسيطة : العمل لتحرير الكنيسة ، ووعده بأن يصرح برسوم علي أن للملك الحق بأن يخول التقليد الاساقفة والآباء المنتخبين دون سيمونية وبصورة حرة ولكن مع الموافقة الملكية . وفي ١١ نيسان تبودلت الايمان بين باسكال الثاني وهنري الخامس . وحرر البابا لدى كاتب العدل امتيازاً يخول الملك تقليد الاسقفيات . وبعد ذلك عاد إلى كنيسة القديس بطرس وانهى حفلة التتويج .

واذا لاحظنا هذه الوقائع المباشرة نجد أن امتياز باسكال الثاني يقضي بخراب الاصلاح الغريغوري وظفر النظرية الجرمانية ، أي ان هنري الخامس يتمتع بسلطة تقليد الاسقفيات والابويات بالعصا والحاتم في الروحي كما في الزمني . ثم ان انطواء البابا تحت هذه الضرورة القاسية التي المت به

وخضوعه للمطالب الامبراطورية ، يعود بالكنيسة الى اسوأ الايام التي استبدت فيها القيصرية الامبراطورية بالبابوية ، أي الى العهد الذي كان هنري الثالث يفرض فيه ارادته السامية . ولكن الحوادث برهنت على ان شيئاً قد تغير منذ نصف قرن . لان الاكليروس الاعلى ، وقد نفخت فيه روح الاصلاح الغريغوري ، لم يكن على استعداد لقبول مثل هذا الاعتداء على استقلاله وحرية . فما كاد ينتشر خبر استسلام باسكال الثاني في ديار الغرب الا وهلك الوجدان المسيحي هزة عنيفة تعالت معها اصوات الاحتجاج والاستياء بأشكال مختلفة ، ولكنها كلها ترمي الى هدف واحد . وعرف في كل مكان ان مستقبل الكنيسة في خطر ، وتوجب اكراه باسكال الثاني على العدول عن فعله والغاء الامتياز الذي انتزع منه بالقوة .

ظهرت هذه الحركة في أول الامر من ايطاليا وقد تعرضت لقضية التقليد العلماني بوضوح مع جميع النتائج التي تتعلق بها في الحالة الحاضرة . يقول القانون على هذه الحركة : ان الكرسي الأقدس حكم بالبطلان مرات عديدة على التقليد العلماني . ولذا فإن كل من يخالف هذا التشريع هرطقي ، وبالتالي إن امتياز (١٢ نيسان ١١١١) الذي هو نقي لهذا التشريع لا يمكن أن تقبله الكنيسة . إذن فالاسقفية الايطالية تريد الحفاظ على التشريع الغريغوري وتطلب من باسكال الثاني أن يؤيده بطرح التعهدات المخالفة له .

ولكن إذا طرح الاكليروس الايطالي امتياز ١٢ نيسان ولمح بأن البابا كان في وسعه أن يقاوم أكثر مما قاوم فلم يخرج عن سلطة باسكال الثاني . أما في فرنسا فإن المعارضة كانت عنيفة جداً ويمكن ايضاح ذلك بسهولة : إن الاحبار الفرنسيين لم يكونوا كزملائهم الايطاليين شهوداً عياناً للحوادث التي مرت في روما ولم تأخذهم رعشة في الخوف على وحدة

الكنيسة وعلى حياة قطيعهم ، ومن جهة أخرى كانوا متعلقين بالأفكار الغريغورية التي تأصلت جذورها فيهم بفضل المفوضين الحبريين وخاصة هونغ ليون ، ولذا فهم يحكمون على حاله من وجهة نظر موضوعية وبسيطة دون أن يدركوا تعقدها وخطورتها ، ويأخذون على البابا ، بشدة جاهلة وجائزة ، تخليه عن شيء أساسي في المراسيم الغريغورية ، حتى ان احتجاجهم أوشك أن يكون عصياناً .

وجه جوفروا أب فاندوم إلى باسكال الثاني رسالة قليلة الاحترام يذكره فيها أن سفينة بطرس لم تنج من الغرق إلا بقوة ربّانها ، ولذا فهو يخشى من أن يرطم الخليفة الحالي للحواري بالصخور الزورق الذي حمل عليه يهوذا الجديد . ويقول : « إن بطرس السعيد الذي كان في السابق يطوف فوق الامواج أليس هو الآن مغمور تحت هذه الأمواج؟ » وزاد فطبق على باسكال الثاني قول داود ، مؤلف المزامير ، : « كلمات الصلاة تنفي الظلم والمكر » ولم يتورّد في أن يؤكد أن هذا الحبر الأعظم ليس راعياً بل ذئباً يتغذى بدم شياهه أو « نبياً أفسده إبليس » ولذا لا يمكن التعلق به و « إغماض العينين عن كفره » . وذهب بعضهم إلى محاكمة البابا في مجمع يعقد في آنس على نهر الصون .

ولكن الا يؤدي مثل هذه الاقوال والأفعال إلى حدوث أزمة داخلية في الكنيسة قد تكون أشدّ وقعاً وأعظم خطراً من الأزمة التي أثارها طموح هنري الخامس !

وجنب الشقاق في الكنيسة بفضل ايف شارتر . فقد استطاع هذا الحبر أن يحكم الدراية والفتنة والدين الحنيف . وعندما دعي إلى مجمع آنس رفض الذهاب وأظهر حيطة وكتب إلى جوسران ليون الداعي لهذا المجمع يقول : « ألم يجهّد بطرس سيده ثلاث مرات . إن هذا لم يمنع من

- ٧٦٢ -

بقائه رسولاً ومكلفاً بإدارة الكنيسة ؟ . ومن جهة أخرى ، ان باسكال الثاني انصاع للاكراه ولذا فات موافقته على التقليد العلماني لقيمة لها ولن بالو جهداً ، متى استعاد حريته ، أن يذيع المذهب الصحيح . وقد ذكر ايڤ شارتر بالصفات الأساسية لهذا المذهب ليزيل كل التباس وسوء تفاهم بقوله : إن التقليد العلماني لا يكون هرطقة ما دام الملك أو الأمير الذي يخوله لا يتملكه جنون الارادة فينقل الروح القدس وحقيقة السر .

وبفضل ايڤ شارتر هدأت المعارضة ولم تتحول إلى ثورة وتابع الجميع المبدأ الغريغوري الذي لا يخول أحداً محاكمة الحبر الروماني . ولم يبق من حوادث (١١١١) إلا حركة عفوية إجمالية ، حارة ، مستاءة تريد الحفاظ على التشريع الذي أملاه غريغوار السابع ، حتى ان هذه الحركة امتدت إلى المانيا حيث غادر كونزاد مطران سالزبورغ البلاط الملكي وحاول آدالبرت المستشار ، دون كبير نجاح ، أن يرد مليكه ويرجعه إلى لزوم الاعتدال .

أمام هذه المعارضة التي ارتفعت من كل مكان فكر باسكال الثاني بتقويم الحال . ورسائله في صيف وخريف (١١١١) تدل على نفس حزينة قلقه تشكو مرارة الشدة التي أثقلت كاهله ، ولم يكن له من هم سوى خير المؤمنين . حاول أن يستعطف الامبراطور وبين له أن الاتهامات الموجهة اليه بما يحمر لها وجهه . ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح ، ولم ير اذنأ صاغية لما يطلب ولذا صار إلى النزول عند الرجاء الذي كان ينصب عليه من كل حذب وصوب وخاصة من جهة ايڤ شارتر . وسعى هذا الاسقف بما أوتي من لباقة ان ينير ظلمات هذا البابا الطيب ويهديه

من روعه وبعيد اليه الثقة بنفسه . وهكذا نرى أن باسكال الثاني في آخر عام ١١١١ يتخذ وضعاً جديداً ويكتب إلى إيف شارتر معترفاً انه لم يدعن إلا بحكم الاكراه والقوة . وفي كتاب آخر وجهه إلى غي فيننا (في فرنسا) أعلن عن نيته في الغاء الامتياز الذي منحه لهنري الخامس .

وفي ١٨ آذار ١١١٢ افتتح مجمع في لاتران حضره أكثر من مائة أسقف وعرضت فيه تفاصيل الحوادث التي وقعت في شباط - نيسان (١١١١) فانقضت غيوم الشك . وأراد الحاضرون أن يسكنوا وساوس باسكال الثاني لأنه لم يشأ أن بحث يمينه بعد أن أقسم بالا بحرم هنري الخامس ، وتبنوا الأصول الذي وضعه جيرارد أنغوليم . وفي ٢٣ آذار أعلن البابا أمام المجمع بأنه يتمسك بالكتاب المقدس وقوانين الرسل وقوانين المجمع الدينية العامة الأربعة : نيقية ، القسطنطينية ، أفسوس ، خالقيدونية ، ومراسيم الباباوات وخاصة مراسيم غريغوار السابع وأورينيو الثاني . ويمدح ما مدحوه ، ويطرح ما أطرحوه ، ويدافع عما دافعوا عنه ، ويحرم ما حرموه . وطبقاً لهذا التصريح ألغى الامتياز الذي اغتصبه هنري الخامس بالقوة .

وعاد على هذا النحو الاصلاح الغريغوري بارادة الكرسي الأقدس والأسقفية : غير أن هذا الحل المتزن المعقول لم يرض عنه بعض الأحرار المتطرفين وعدوه غير كاف . فمن ذلك أن غي مطران فيينا عقد في مدينته مجعاً في ١٦ أيلول ١١١٢ وأعلن أن التقليد العلماني هرطقة وحرم هنري الخامس ثم طلب إلى باسكال الثاني أن يصادق على هذه القرارات فأوقع البابا في مشكله عويصة ، لأن السياسة الحبرية تريد أن تتجنب كل ما يدعوا إلى اثارة هنري الخامس . وبعد أن اختتم مجمع لاتران جلساته أرسل

جيوارد انغوليم بهمة إلى البلاط الجرماي ليطلعه على القوانين الرومانية .
ورغم ضجة الحقد التي قامت حول الامبراطور لم يجزأ على معاملة المفوض
الرسولي معاملة سيئة كما فعل ذلك في العام المنصرم مع البابا . ولذا فإن
موافقة البابا على مقررات مجمع فيينا وحرمان هنري الخامس مما يبعث
الحلاف ويثير الانتقام .

وليسكت باسكال الثاني الاهواء المتطرفة أيد بشكل غامض منهم مقررات فيينا
(٢٠ تشرين الأول ١١١٢) وتجنب حرمان هنري الخامس والقي عليه مسؤولية
كل اكراه جديد يقع في المستقبل . وبعد مجمع لاتران (آذار ١١١٢)
رجا أنصار الامبراطور في إيطاليا أن يعود دون إبطاء إلى شبه الجزيرة
لأن حضوره فيها يستوجب ذلك . غير أن الحالة العامة في ألمانيا حالت
خلال أربع سنوات دون إجابة هنري الخامس هذا النداء . ووقفت
خلالها في وجهه جميع ألمانيا الكنسية والعامانية . غير أنه لم يفقد ثقته بنفسه
وبإمكاناته .

وفي آب ١١١٥ قدم عليه وفد يحمل اليه نبأ وفاة الكونتيس ماتيلد .
ولاشك في أن ارملة غودفروا اللورين قد وهبت دولها إلى الكرسي الأقدس
مرتين : الاولى عام ١٠٨٠ ؛ والثانية عام ١١٠٢ ، غير أنها في آخر
حياتها تقربت من هنري الخامس واجتمعت به في بيانللو عام (١١١١)
حين عودته إلى ألمانيا . وكان للامبراطور انصار في طرسكانا فنصحوه الا
يتأخر ويأتي ويضع يده على الارث لا سيما وأنه لم يكن في وسع البابا
ان ينازعه عليها . لقد كانت هذه الدعوة مغرية . ولكن يجب تأمين
الهدوء في ألمانيا اثناء غيابه في إيطاليا ، وإذا أمكن في نفس الوقت ،
المصالحة مع الكرسي الاقدس . ولذا دعا هنري الخامس الأمراء إلى
ماينس في أول تشرين الثاني واعلمهم ببرنامج إصلاحه آملاً في أن يساعد تطبيقه

على إصلاح الأخطاء السابقة . ولكن لم يأت أحد إلى الاجتماع . ودعا مجلساً آخر في سببر في ١٠ كانون الأول فلم يضم سوى بضعة أساقفة وعلمانيين لا شأن لهم . وحل ٢ كانون الثاني ١١١٦ والامبراطور في سببر قلق ، متردد ، حائر في الطريق الواجب اتباعها : فهل يجب إرجاء السفر إلى إيطاليا والقضاء أولاً على المعارضة الألمانية ، أو على العكس الذهاب إلى شبه الجزيرة وتوطيد النفوذ الامبراطوري ليقسط خطط الحوصم ويفاوض في السلام مع البابا ؟ وبعد أن تردد في ايها يأخذ عزم على النزول إلى إيطاليا وبعث إلى باسكال الثاني بونس أب كلوني بهمة قبله وانحدر في طريقه الى ايطاليا . وليبرهن على حسن نواياه المسألة لم يصطب معه الا لفيفاً من الأساقفة والأمراء . وبعد أن استملك ارث ماتيلد زار دوله الجديدة ولم يلق فيها أي مقارنة تذكر . وهكذا تحقق حلم أبيه وحلم أجداده من قبل ووقعت ايطاليا الشالية والوسطى تحت سيطرة النفوذ الجرمانى .

ولم يبق عليه الآن إلا أن يحصل بأقرب وقت ممكن من باسكال الثاني على تسوية لاتمس المزايم الامبراطورية ولو أدى الأمر إلى التنازل عن بعض الامتيازات الشكليه . غير أن البابا ، وقد اشتدت عضده في هذه المرة بمنصرة الكنيسة له ، لم يكن على استعداد للتنازل عن امتيازات مضادة للحق القانوني . وفي ٦ آذار أي في الوقت الذي دخل فيه هنري الخامس ايطاليا عقد مجمعاً في لاتران وأيد التشريع الغريغوري في التقليد . وفي خلال الدورات التالية ألح بعض الأساقفة على الحبر الرومانى أن يجرم الامبراطور . إلا أن باسكال الثاني بقي مصراً على موقفه وتحززه ، واكتفى بأن أجاهم بلباقة واكتفوا بهذا الجواب الغامض .

وعندما اقترب هنري الخامس من روما رأى باسكال الثاني أن يغادرها ،
معتبراً بتجارب الماضي ، إلى بينيفن . كما أن حالة روما كانت تقتضي
هذا الرحيل . فقد توفي محافظ روما وأراد البابا أن يكون خلفه من
خلصائه ، إلا أن حركة شعبية قامت ضد مرشحه وأقيم ابن المتوفى رغمًا
عنه . وفي مثل هذه الشروط كان من الأفضل أن يتعد عن روما .
ودخل هنري الخامس روما دون صعوبة ، وعلى ما يبدو ، أنها استقبلته
بهودة ، وأراد مقابلة البابا فأجابه بالرفض . ثم قفل راجعاً ، وبينما كان يتعد
عن روما كان باسكال الثاني يقترب منها ودخلها في ١٤ كانون الثاني ١١١٨ ، وبعد
بضعة أيام خلت توفي فيها (في ٢١ كانون الثاني ١١١٨) وخلف وراءه شهرة
الحبر العادل الصالح وإن لم يكن حاذقاً دوماً .

انتخاب جيلاز الثاني . - وبعد ثلاثة أيام من وفاته اقترح الكرادلة
أن يكون خلفه جان غاييت مستشار الكنيسة الرومانية ومساعد اوربينو الثاني
وباسكال الثاني . ثم نودي به بابا من قبل الاكليروس والشعب وسمي
جيلاز الثاني .

لقد كان هذا الانتخاب موفقاً من عدة وجوه . لأن جيلاز الثاني
يجمع إلى تقواه المثالية وأخلاقه الكريمة قوة العزم التي تنقص باسكال
الثاني ، وقد أبدى ذلك منذ تسنمه عرش البابوية رغم الظروف الحرجة
التي أحاطت به . فما كاد الانتخاب يتم إلا واقتحم تشانتشيوس فرانجياني
أبواب الكنيسة التي جرى فيها الانتخاب وأمسك بتلابيب البابا وضربه
ضرباً مبرحاً وقاده إلى السجن . وأثار هذا الاعتداء استياء الجمهور فطالب
فرانجياني بتحرير أسيره . وعندها فك عقال جيلاز الثاني وذهب إلى قصر
لاتران . ولما علم هنري الخامس بوفاة باسكال الثاني اقترب من روما

ودخلها على حين غرة . ولم يكن من الباب إلا أن غادرها إلى غاييت التي نشأ فيها ، حيث لاخوف عليه .

وخاب أمل هنري الخامس وأخذ يخيف جيلاز الثاني وهدده بالعودة إلى روما ليقم له الاحتفال الديني ، وزاد بأنه سيعين بنفسه بابا إذا لم يطعه منتخب الكرادلة . وقبل جيلاز الثاني هذا التحدي لأنه يعلم أن الكنيسة وراءه تدعمه ، وأن عدو البابا سيكون سخرية الجميع . ولذا رد عرض هنري الخامس واكتفى بأن بين عزمه على عقد مجمع في ميلانو أو كريمون حيث يسعى إلى حسم الخلاف الذي أمتد طويلاً بين الكهنوت والامبراطورية . وبقي هنري الخامس متعتاً ثم انتخب بوردن مطران براغا (في البرتغال) ونادى به ، على سبيل التهكم ، بابا باسم غريغوار الثامن (٨ آذار ١١١٨) .

لم يضطرب جيلاز الثاني وكتب إلى اكليروس وشعب روما يطمنهم في عواطفهم ، وإلى مؤمني فرنسا مبيناً لهم عيوب البابا الامبراطوري . وفي كابر في ٧ نيسان أعلن حرمانه لهنري الخامس وغريغوار الثامن وكلف من ينقل هذا الحكم الى المانيا . وخاف هنري الخامس أن يفقد ملكه فبادر إلى مغادرة ايطاليا (حزيران ١١١٨) دون أن يكتث بغريغوار الثامن المنكود الحظ الذي جلا عن روما بينا دخلها جيلاز الثاني في (٥ تموز ١١١٨) .

وإذاً فقد باءت بالفشل حملة هنري الخامس الثانية على ايطاليا . وإذا سمحت للامبراطور احتلال أملاك الكونتس ماتيلد إلا أنها لم تؤيد الحل الامبراطوري في الخلاف الذي يقسم الكهنوت والامبراطورية . كما أن هنري الخامس لم يحصل على سحب التدابير التي ألغى امتياز (١١١١) ولا على تخلي باسكال الثاني وجيلاز الثاني عن المبادئ الغريغورية . وبعد الا يكون من المعقول أن يضار إلى فكرة حل وسط شبيه بالحل الذي تبنته

فرنسا بتأثيرايف شارتر منذ بضع سنوات خلت ؟ لقد وجد الحل ولكن يجب أن تمر ثلاث سنوات أخرى ليقبل كل من الطرفين التخلي عن نظريته المتطرفة ويرجع الوثام على الخصام .

ولكن يجب أن نقول انه لو لم تكن هنالك رغبة حقيقية في الصلح من كلا الطرفين ، لما تمكن كل من البابا والامبراطور من الوصول إلى الغاية المنشودة . فمذ أعلى جيلاز الثاني عرش البابوية رأى أن الصلح غير ممكن ما لم يكن هنالك وساطة بينه وبين الامبراطور . وقد حدثت في روما مشادة (في ٢١ تموز ١١١٨) ورأى البابا أن يغادرها في (٢ ايلول ١١١٨) واتجه في هذه المرة نحو فرنسا عوضاً عن أن يبحث عن ملجأ في ايطاليا الجنوبية . لأن الملك لويس السادس مازال ييدي حيال الكرسي الأقدس آيات العطف والاحترام ، ومازال نظام التقليد ، الذي امتدحه ايف شارتر ، مرعي الاجراء في دوله برضى الطرفين .

وما وصل البابا كلوني إلا ووافته المنية في (٢٩ كانون الثاني ١١١٩) . وموت جيلاز الثاني بعيداً عن روما ، والكرادلة مبعثرون ، كل ذلك من شأنه أن يخلق شتى الصعوبات في انتخاب خلفه . غير أن كونون برينست ولامبرت أوستي اللذين وجدا على فراش الخبر عند وفاته ، أخذوا عاتقهما تعيين البابا الجديد على أن يصادق على اختيارهما بطرس أسقف بورتو الذي بقي في روما ليمثل البابا جيلاز الثاني في غيابه . ثم يلجأ بعد ذلك بواسطته إلى الحصول على موافقة الاكليروس والشعب . فانتخب (غي) مطران فيينا ، وأحاطا روما علماً بهذا الانتخاب في (١ آذار ١١١٩) . ثم نودي بغي بابا باسم كاليكست الثاني في كنيسة القديس يوحنا المعمدان . في قصر لاتران .

كاليكست الثاني . - ولم تنتظر نتيجة المشاورة ، وجرت حفلة التتويج في كاتدرائية فيينا ، وتسلم كاليكست الثاني حكم الكنيسة . ينتسب كاليكست إلى أسرة كورنات قديمة في بورغونيا ويمت بصلة القرابة إلى الامبراطور . أصبح مطراناً منذ ١٠٨٨ واشترك بجميع الحوادث التي رافقت أزمة (١١١١) فاكتسب بذلك حكمة التجربة وخبرة السلطة . ورغم أنه تتلمذ على هوغ ليون وميوله المتطرفة ، إلا أن لديه من المرونة والحس المسيحي الذي يجعله يتطور ، إذا مست الضرورة ، نحو المفاهيم المعتدلة . وكانت فكرته عند اعتلاء عرش البابوية أن يفاوض في صلح شريف بين الكهنوت والامبراطورية ، ويريد كسلفه الاعتماد على فرنسا . ولذا فان المقابلة التي أرادها جيلاز الثاني مع لويس السادس ستم وتتبع في ١٨ تشرين الأول بجمع في رنس يدعى اليه الأساقفة الألمان .

ألمانيا بعد عودة هنري الخامس . - وجعلت حالة ألمانيا العامة الامبراطور ينجح إلى الصلح مع الكرسي الأقدس . فقد وجد أن الوضع مضطرب بعد أن عاد من ايطاليا . فما فتئت ساكس في غيابه ثائرة ، والحدود الشرقية غير مستقرة أمام هجمات الهونغاريين ، والكنيسة الألمانية التي تأصلت فيها روح الإصلاح الغريغوري في نزاع مع الامبراطور فيما يتعلق بقضية الانتخابات الأسقفية ، وكل فريق يريد فرض وجهة نظره على الآخر ، والاكليروس الأعلى كان يناصر كاليكست الثاني ويتكيف حسب النظام الروماني . إن كل ذلك جعل الامبراطور يفكر في الصلح . ودعا الأمراء الألمان إلى مجلس يعقد في ٢٤ حزيران في منطقة ماينس للبحث عن الوسائل التي يمكن أن يعود بها الوفاق بينه وبين رعيته من جهة ، ومع الكنيسة من جهة أخرى . وأمام هذا الاستعداد

العصر الوسيط - ٩٠

الذي أبداه الامبراطور ، رأى الأمراء ألا يمتنعوا عن الحضور كما في السنوات السابقة ، ولبوا نداء مليكهم وأسفر الاجتماع عن نتائج طيبة . فقد اتفق كل من الطرفين على أن يعيد الأراضي التي استولى عليها أثناء الحرب الأهلية . وأظهر الجميع رغبة في السلام الديني . وبحضور مفوضي كاليكست الثاني الذين أتوا ليعلموا البلاط الجرمانى بالبابا الجديد ، تقرر ارجاء كل قرار إلى انعقاد مجمع رنس . وبالأجمال فان هنري الخامس أبدى استعداداه للمفاوضة وأصبح التماس ممكناً بين الطرفين .

وفي هذه الأثناء كان كاليكست الثاني يتابع تحقيق برنامجيه . ففي ايتامب تقابل مع لويس السادس . وبنتيجة هذه المقابلة أرسل إلى هنري الخامس وفداً مؤلفاً من بونس أب كلوني وغليوم شامبو أسقف سالون على المارن . وكان انتخاب هذين المفوضين الفرنسيين موفقاً لاسيا وانه وجد في المملكة الكابسية حل وسط لقضية التقليد ، ومن الممكن أن يتبنى هذا الحل في ألمانيا . والتقى بونس وغليوم بهنري الخامس في ستراسبورغ وبين الأسقف حسنات النظام الفرنسي بقوله « يا صاحب الجلالة ، إذا أردتم صلحاً حقيقياً وجب أن تتخلوا عن تقليد الأسقفيات والابويات . ولتطمثنوا بأن سلطتكم الملكية لن يناهز أقل نقص فانى أعلمكم بانى ، عندما انتخبتم أسقفاً في فرنسا ، لم أتسلم شيئاً من الملك لا قبل المباركة ولا بعدها . ومع هذا فاني أؤدي له الضرائب وأقوم بالخدمة العسكرية وسائر الحقوق الأخرى الخاصة بالدولة ، وأخدمه بأمانة كما يخدمكم أساقفتكم في مملكتكم بموجب التقليد الذي تسلموه منكم وجر عليكم الحرمان » . فأجاب هنري الخامس بأنه لا يرغب في شيء سوى الولاء الاقطاعي ، وأختتم غليوم كلامه بأنه مادامت هذه رغبة الملك فات الخلاف سهل الحل .

وأتى غليوم شامبو إلى باريس حيث التقى بكاليكست الثاني وقص عليه نتائج مهمته ، فسر الخبر الأعظم لذلك وأرسل الى الامبراطور مندوبين لوضع مشروع معاهدة . والتقى المفوضان بهنري الخامس بين متزو فردن . وجددت وعود ستراسبورغ . وتقرر باتفاق تام على مقابلة بين البابا والامبراطور في موزون في ٢٤ تشرين الأول ، ووقع الجانبان التصريح الآتي : يتخلى هنري الخامس عن كل تقليد في الكنائس ويضمن الصلح لحصومه ويعدم بالمساعدة على استرجاع أموالهم ؛ وكذا كاليكست الثاني من جهته ، يقسم اليمين على الصلح ويتعهد بأن يعيد لانصار الامبراطور ما لهم .

وفي غضون ذلك كان البابا كاليكست الثاني في طريقه الى رنس يصحبه الملك لويس السادس . وقد افتتح الجمع في ١٨ تشرين الأول ١١١٩ بحضور ثلاثة عشر مطرانا وثلاثة وستين أسقفاً وأكثرهم فرنسيون وإيطاليون وألمانيون مع بعض الاسبانيين والانكليز . ثم ان البابا ترك المجلس يبحث في القضايا الكنسية وفي الدعوى التي أقامتها دوقه اكيثانيا هيلدوغارد على زوجها المتقلب غليوم التاسع ، ومن ثم ذهب الى موزون حيث كان هنري الخامس بانتظاره .

جاء هنري الخامس الى موزون يصحبه ثلاثون ألف رجل ، فأحدثت رؤيتهم في نفس البابا انطباعاً سيئاً لاسيما وان ذكرى حوادث روما عام ١١١١ مازالت حية في ذهنه . وأشارت حاشية البابا أن تجري المفاوضة بواسطة مندوبين عنه في أول الأمر على أن يذهب الى قصر موزون التابع لمطران رنس لينظر سير المفاوضات عن كثب . وذهب غليوم شامبو مكانه ليقتراح بعض التعديلات الأولى على التصريح الآنف الذكر . ان نص التصريح الجديد غير معروف وكل مانع له أن الايضاحات

التي طلبها البابا كاليكست الثاني كانت ترمي الى أن الامبراطور ، بتخليه عن التقليد ، لا يمكنه أن ينتزع من الأساقفة اقطاعات الامبراطورية ، وان الصلح الذي وافق عليه البابا لا يتضمن بقاء الأحبار ، الذين عينهم هنري الخامس بصورة غير قانونية ، في مراكزهم .

وهذه التعديلات وإن كانت شرعية في ذاتها ، إلا أن محذورها هو إعادة البحث في نصوص اتفق عليها من قبل . وأبدى غليوم شامبو مهارة قوية ولكن هنري الخامس عرض بأنه لم يعد بما ورد في النص الجديد وألح على نوايا البابا الطيبة عندما قبل أن الأساقفة ، بعد الاتفاق ، يجب أن يخضعوا كأسلافهم إلى نفس الالتزامات الاقطاعية . ثم طلب هنري الخامس منهجه مهلة للتحدث إلى الأمراء ، وما مضت هذه المهلة إلا وطلب أخرى فرفض غليوم . وانقطعت المفاوضات . وأعلم كاليكست الثاني الامبراطور بأنه ترك المجمع العام وأتى لمقابلته حباً في السلام ، ولذا فهو لا يستطيع أن يترك قضايا الكنيسة معلقة طويلاً كما أنه على أتم الاستعداد لاستقبال الملك .

وانقطاع المفاوضات في موزون كان له صداه المؤسف في ألمانيا حيث ينتظر الصلح بفارغ الصبر . وبما أن هنري الخامس أبدى في اجتماع حزيران ١١١٩ استعداداً للصلح ، وعرف عن كاليكست الثاني أنه يحمل وراءه ماضياً ثقيلاً ومتطرفاً ، لذا فقد القيت مسؤولية انقطاع المفاوضات على عاتق البابا لاسيما وأنه ، قبل أن يغادر رنس ، حكم بالحرمان على هنري الخامس وعدو البابا غريغوار الثامن . ونرى أن تغييراً حدث في ألمانيا لصالح هنري الخامس في آخر عام ١١١٩ وأول ١١٢٠ . ولم يبق سوى الأساقفة الرينانيين والساكسونيين محافظين على موقفهم . وأوشكت الوحدة أن تتم حول الامبراطور ، لولا أنه أساء التصرف فبعث الخلاف

بينه وبين الأمراء من جديد . وجرت بينه وبينهم مواقع دامية ، ولكن ظهر فيها أن ألمانيا ملئت الدماء . هذا ولما كان الصلح الديني ضماناً للصلح المدني ، لذا وجب استئناف المفاوضات للوصول إلى تفاهم ضروري بين الكهنوت والامبراطورية .

وتقرر أن يسمى من كل معسكر إثنا عشر وسيطاً على أن تدرس مقترحاتهم في مجلس يجتمع في فورتزبورغ في ٢٩ ايلول ١١٢١ . وقد اجتمع هذا المجلس في التاريخ المحدد وقرر الصلح العام في جميع ألمانيا تحت طائلة الموت ، ثم أعيدت إلى الامبراطور أراضيهِ وإلى الكنيسة أموالها ، وبعد أن شكوا المجتمعون فداحة الحرمان الذي أثقل هنري الخامس اتفقوا على أن يعيشوا إلى البابا أسقف سبير وأب فولدا ليلغاه نتائج الاجتماع ويطلبوا اليه عقد مجمع ديني عام « حيث تفصل الروح القدس فيما لم يستطع الناس التوصل إلى حله » . ونالت المقررات موافقة هنري الخامس : وهذا يعني أن الامبراطور يعترف بسلطة الحبر الروماني السامية الذي أصبح يحمل بين يديه مقدرات البلاد المسيحية بأجمعها .

وبعد أن اختتمت دورات مجمع رنس أقام كاليكست الثاني بعض الزمن في فرنسا ثم عاد إلى إيطاليا في أول عام ١١٢٠ ودخل روما في ٣ حزيران واستقبله فيها بمثله بطرس كاردينال أسقف بورتو والمحافظ بطرس وممثلا الأسرتين الشريفتين فرانجياني وكولونا وقد نسباً أحقادهما القديمة وجعلوا يتنافسان بالهتافات . وأصبح البابا على هذا النحو يتمتع بقوة حقيقية . واستطاع دون صعوبة أن يقبض على عدو البابا غريغوار الثامن الذي التجأ الى سوتري ويبعث به الى أبوية كافا . وانتهى الشقاق بهذا الشكل ولم يبد هنري الخامس أي رغبة بإعادة غريغوار الثامن .

المفاوضات بين كاليكست الثاني وهنري الخامس . - وصل مندوبو هنري الخامس في أول عام ١١٢٢ ، ومن المحتمل أن يكون هؤلاء المندوبون قد أتوا الى البابا بجميع الضمانات الضرورية لأن كاليكست الثاني كتب في ١٩ شباط الى الامبراطور كتاباً ملؤه الحنان والعطف وكلف آزوت أسقف أكوي أن يحمله اليه . وانتخاب هذا الرسول المخلص لهنري الخامس يدل أيضاً على كرم فعال الحبر الاعظم . وبعد ذلك بقليل سافر ثلاثة كرادلة الى ألمانيا . وعوضاً عن أن تفتتح المفاوضات في ماينس كما كان مقرراً ، نقلت الى فورمز ودارت في جو هاديء بعيد عن مدينة المطران أدالبرت الذي ما زال يحقد على الامبراطور .

ولا تعلم على وجه الصحة تفاصيل هذه المفاوضات . والوثيقة الوحيدة الواضحة عنها هي كتاب أرسله المطران ادالبرت الى كاليكست الثاني . ولكن هذه الوثيقة من خصم يحقد على هنري الخامس ليس لها تلك السلطة التي منحها اياها بعض المؤرخين ، لذا يجب الاكتفاء بقول المؤرخ ايكوهاردورا الغامض وهو أن المفاوضات سارت بعناية دقيقة وانتهت في ٢٣ ايلول ١١٢٢ الى حل وسط عرف باسم كونكوردات فورمز .

كونكوردات فورمز (١٣ ايلول ١١٢٢) . - تتألف هذه

الكونكوردات من تصريحين : احدهما من الامبراطور ، والآخر من البابا . « يدع هنري الخامس الى الله ورسوليه القديسين بطرس وبولس والى الكنيسة المقدسة كل تقليد بالحاتم والعصا » ؛ ويعد بأن تكون الانتخابات حرة ؛ ويتعهد بأن يرد الى الكرسي الأقدس الأموال والريغاليا التي في سلطته ، ويضمن الصلح الصادق الى كاليكست الثاني وأنصاره . ويسمح البابا ، من جانبه ، أن تجري الانتخابات الأسقفية والأبوية بحضور الامبراطور « دون سيمونية ودون أي اكراه » ؛ ويرضى في حالة

النزاع أن يعطي الامبراطور ، بمساعدة المتربوليت ، « موافقته ومعونته الى من هو أصلح للمنصب ؛ ويقبل أن يتسلم المنتخب بالصولجان « الريغاليا » الا ما كان خاصاً بالكنيسة الرومانية ، ويقوم بالواجبات التي تقتضيها ؛ وبالمقابل يضمن الصلح للامبراطور والى جميع من حاربوا الى جانبه .

وبعد أن وقع الامبراطور والمندوبون الحبريون هذين التصريحين أقام الكردينال لامبرت أسقف أوستي قداساً رسمياً ، وفي ختامه قبل هنري الخامس قبلة الصلح وناولته بيديه . وأعيد الامبراطور إلى حضن الكنيسة دون أي توبة ، وفي ذلك دليل على كرم كالكست الثاني وحسن التفاته . وقد تجلّى ذلك منه أيضاً في رسالته، المؤرخة في ١٣ كانون الأول ١١٢٢ ، التي أظهر فيها إلى هنري الخامس فرحه بهذه الخاتمة السعيدة للمفاوضات .

خصائص كونكوردات فورمز . - وبعد فهل يحق للبابوية أن تفرح على هذا النحو وترى في كونكوردات فورمز ظفراً لجميع المزايم التي رسمتها منذ حبرية غريغوار السابع ؟ قد يكون من الضلال القول بهذا ، كذلك لا يمكن أن نرى في هذه الكونكوردات ظفراً للنظرية الامبراطورية . ومن الملاحظ أن الكونكوردات لم تتعرض لقضية « السيطرة على العالم » الخطيرة ، لأن البابا لم يتخل أبداً عن الحق الذي طالب به غريغوار السابع في مراقبة أعمال الملوك وكذا الامبراطور لم ينحن أمام تفوق الكرسي الأقدس . وظلت التيقراطية الرومانية والقيصرية البابوية الامبراطورية على استعداد للجهابة في كفاح جديد . ولكن هل سويت قضية التقليد على الأقل طبقاً للنظرية الغريغورية ؟ لا شيء من هذا ؟ فبين كونكوردات فورمز ومرسوم ١٠٧٥ وهذه . إن غريغوار السابع يعتبر الأموال الكنسية خاصة برب الكنيسة لا بالملك الذي يخول التمتع بها إلى من

يتسلم إدارتها أو إلى خلفائه من بعده . وهو بهذا ينفي كل تدخل للسلطة الزمنية ولا يعترف لها بملكية عليا . وكذا المزاعم الامبراطورية لم تنل بغيتها أيضاً ، لأن الفقهاء والمحاجين الذين يعملون لحساب هنري الرابع وهنري الخامس يقولون بأن للملك ، نظراً للخدمات التي يؤديها للكنيسة والهبات العديدة التي يهبها إياها ، الحق في أن يقلد بالعصا والخاتم ؛ بينما نجد أن كونكوردات فورمز ترفض له هذه الشكلية في التقليد . وفي الحقيقة ، ان هذا الحل النهائي يتصف بصفة التسوية بين النظريات المتناقضة . وموجده القانوني هو إيف شارتر الذي أمتاز بأنه تقدم عصره وفصل بين خصائص الأسقف الروحية والزمنية التي تم عليها الاتفاق بين كالكيسكث الثاني وهنري الخامس . وعن هذا التمييز نشأ التقليد بالعصا والخاتم من جهة ، والتقليد بالصولجان من جهة أخرى . الأول يذكر بزواج الأسقف بكنيستته زواجاً صوفياً وبالسلطات التي له على الأرواح . والثاني يعبر عن سيادة الامبراطور في القضايا الزمنية .

إن كونكوردات فورمز حل الحس السليم . ولا بد لنا أن نذكر أنها تتضمن بعض النقاط الغامضة . فمن ذلك أن تدخل الامبراطور في الانتخابات الأسقفية لم يعرف تعريفاً كافياً . فهل حق المراقبة ، الذي اعترف به التصريح الحلبي ، يخوله أن يرفض تقليد الأموال الكنسية إلى مرشح انتخبه الاكليروس والشعب ولكن لا يعجبه لسبب من الأسباب ؟ إن الكونكوردات لاتفصل في هذه القضية الشائكة . ولو حظ أيضاً أن معنى كلمة ديفاليا لم تعرف تعريفاً واضحاً . وان البند المتعلق فيها بالكنيسة الرومانية غير واضح أيضاً . ولكن لا يمكننا القول بأن هذه المأخذ الحقوقية جعلت تطبيق هذه المعاهدة صعباً ، بل ان قليلاً من النوايا الحسنة والارادة الطيبة من كلا الجانبين كان منه أن أزال سبباً

من جملة الأسباب التي أدت الى الخلاف بين الكرسي الأقدس والامبراطورية.

نتائج صلح فورمز . - وبفضل هذا الصلح استطاع الكرسي الأقدس أن يستأنف عمله الاصلاحى . واذا علق غريغوار السابع أهمية عظيمة على قضية التقليد فذلك لأن اصلاح المساوىء وبعث مكارم الاخلاق في الاكليروس منوط بها . وإذا كان من عمل فورمز أن فصل في هذه القضية وأتاه بالضمانات الكافية فان الكرسي الأقدس يستطيع من جديد أن يوسع البرنامج الغريغوري . وقد اختتم الكونكوردات بجمع عام عقد في لاتران أثناء الصوم لعام ١١٢٣ من ١٨ إلى ٢٨ آذار حضره ٣٠٠ أسقف من مختلف البلاد . وأول قانون صوت عليه في هذا المجمع يشجب السيمونية . والسابع يحرم على الكهان اتخاذ الخيلات أو معاشره النساء المتزوجات والسكنى مع أي امرأة ما خلا الأم والأخت والعمة والحالة أو كل قرية بعيدة عن الشك ؛ والثالث يحرم مباركة الاسقف الذي لم ينتخب بصورة قانونية ؛ والثامن والتاسع يحميان الأموال الكنسية ضد مزاعم العلمانيين .

وإذا كانت الكنيسة مستقلة عن السلطة الزمنية في أشخاصها وأموالها وفي مأمن من قوة المال وتجنب الاكليروس عن أي تماس غير نقي مع العصر ، أفلا نرى في ذلك البرنامج الغريغوري الأصلي الذي وضعه الباباوات نصب أعينهم وتابعوا تحقيقه رغم العقبات والمصاعب الكثيرة ! إن أول نتيجة للسلام الذي تم بين الكهنوت والامبراطورية هي أن البابوية دفعت الاصلاح دفعة جديدة ، هذا الاصلاح الذي كافحت من أجله طويلاً وتالت كثيراً .

وتستطيع الكنيسة الرومانية الآن المضي في هذا العمل الاصلاحى

لأنها تتمتع بقوة أكثر مما كانت عليه في عهد غريغوار السابع . إن مجموعة القوانين التي الفت في آخر القرن الحادي عشر وأول القرن الثاني عشر ، قد أوضحت سلطتها فيما يتعلق بالمذهب والنظام . وقد أخذت هذه السلطة بفضل المجامع الاقليمية والمفوضين الحبريين ، تفرض نفسها كضرورة . ومن جهة أخرى ، ان وضع الكرسي الأقدس في روما قد توطد في حبرية كاليكست الثاني . وقد أفاد من الحركة الشعبية التي قامت لصالحه أثناء عودته الى روما ليهدم بعض الحصون وينزع اعادة بنائها ويقضي على أعمال النهب والسلب التي كانت يقوم بها قطاع الطرق في الأرياف . وعندما مات كاليكست الثاني (١٣ كانون الأول ١١٢٤) كانت قوة البابوية الزمنية في تحسن ظاهر .

وعلى العكس ، ان كونكوردات فورمز لم ترجع السلام الى ألمانيا ، ويعطينا المؤرخون لوحة قاتمة عن السنوات الأخيرة لحكم هنري الخامس . واذا أخذنا بقولهم نجد أن العصابات المسلحة كانت تذهب من ساكس وتحوب البلاد وتنتشر فيها الرعب والخوف والارهاب . وربما يكون في هذه الأقاصيص بعض المبالغة . والصحيح فيها هو أن الامبراطور وقع في خلاف جديد مع ساكس . وكان الدوق لوثير يلمس أي عذر للقيام بالمعارضة . يضاف إلى ذلك أن هنري الأول ملك انكلترا قد جر صهره ، زوج ابنته ، الامبراطور هنري الخامس ، إلى الحرب معه ضد فرنسا وانتهت هذه الحرب بالهزيمة .

وهكذا ضاعت جهود هنري الخامس في تثبيت الحكم المطلق . وبعد أن كانت السلطة الملكية قوية في عهد الاوتونيين وأوائل الاباطرة الفرنكونيين أخذت قوة الأمراء تناوؤها منذ آخر حكم هنري الثالث .

- ٧٧٩ -

وكذا لم تكلل بالنجاح جميع المحاولات التي قام بها الأباطرة وترمي إلى توسيع سلطتهم في الخارج .

ومات هنري الخامس في ٢٣ أيار ١١٢٥ في اوترخت وله من العمر أربع وأربعون سنة . ولما لم يكن له أولاد فقد أبدى رغبته بأن يكون خلفه ابن أخته ، فريدريك هوهنشتاوفن . إلا أن التاج قدم إلى لوثير ساكس الذي لم يتصالح معه . وانطفأت السلالة الفرنكونية بموت هذا الأمير الطموح الاستبدادي الذي أراد أن يسيطر على الكنيسة وعلى ألمانيا ولكن دون أن يتوصل إلى تحقيق أي مشروع من مشاريعه .

الفصل الحادي والثلاثون

أصول النزاع

بين المملكة الكابسية والآنفلية — النورماندية

المناوشات الاولى

١٠٦٧ — ١١٠٠

نتائج فتح النورماندين لانكلترا . — لقد أحدث فتح النورماندين لانكلترا خللاً في توازن أوربه الغربية ، لأن اتحاد دولتين متقابلتين على شاطئ المانش ، تحت صولجان واحد ، أوجد لصالح غليوم الفاتح قوة جعلت جيوانه القارين يخشون نتائجها . ولقد كان الملك الكاسي مهدداً أكثر من أي ملك آخر ، لاسيا وان سلطته ، في منتصف القرن الحادي عشر ، كانت محدودة وضعيفة .

ولكن هذا الحادث لم تكن له نتائج مباشرة على المملكة الفرنجية . ولا شك في ان اطماع غليوم الفاتح كانت تنمو كل يوم وتغريه باستعمال هذه القوة الجديدة التي يتصرف بها لتحقيق مشاريعه في مناطق الفيكسان والمين وبروتاليا، ولكن العمل التنظيمي في انكلترا عاكسته معارضة قوية ومديدة أخذت من وقت غليوم الفاتح أكثر مما ظن ، واضطرته الى البقاء في انكلترا ، وأفاد من ذلك الملك الكاسي وأخذ يعدد عدته .

السياسة الكاسبية . - ان بودون الخامس كونت فلاندر الوصي الذي حكم المملكة الفرنجية منذ وفاة هنري الأول (١٠٦٠) ، توفي في ١٠٦٧ غداة فتح النورمانديين لانكلترا . وخلفه ابنه بودون السادس على الفلاندر ، وفي الوقت ذاته بلغ فيليب الأول ، بن هنري الأول ، سن الرشد ، وأمن بنفسه إدارة أمور المملكة ، واستطاع ، على قدر الامكان ، أن يلاحظ بسرعة الاتجاه الذي يجب أن تسير فيه السياسة الكاسبية بعد حادث عام ١٠٦٦

لقد فكر فيليب الأول بأن يناضل وحده ضد غليوم الفاتح . وللحيلولة دون هجوم ممكن ، جمع حوله الاقطاعيين الكبار الذين قلقوا من قوة النورمانديين ، وبالرغم من الصلات العائلية التي تربط آل بودون بغليوم الفاتح لم تكن الفلاندر بمنحى من امكان أطعاه دوماً . وفي الجنوب ظل كونتات آنجو ناقلين على ضياع منطقة المين وانتقالها تحت النفوذ النورماندي عام ١٠٦٣ . وقد دعت الظروف إلى أن يقوم نائب بين الملك الكاسبي وكونت فلاندر ، وكونت آنجو ليكون ضماناً ضد أطعاع النورمانديين . وفي العام ١٠٧٦ كان غليوم الفاتح مطمئناً من جانب انكلترا فجاء وحاصر موقع دول في برويانا، وكان أمراء هذه المنطقة يناصبونه العداة ، فانهز فيليب الأول الفرضة وأستعان بدوق اكيثانيا غي - جوفروا والانجويين وأخطر غليوم إلى الانسحاب والصلح . وكان لهذا النصر نتائج سعيدة عادت بالنفع على ملك فرنسا : ففي عام ١٠٧٧ ضم الفيكسان الفرنسية التي تركها له سيمون كريبي قبل أن يكون راهباً ، ولم يثر غليوم الفاتح أي احتجاج ؟

فيليب الأول ودويير كورتهوز . - وفي العام ١٠٧٨ استقبل فيليب الأول الابن البكر لغليوم الفاتح ، روبيير كورتهوز ، وكان هذا جزءاً إلى

الملك وطلب من أبيه أن يتخلى له في حياته عن حكم نورمانديا ومين .
ووعده فيليب الأول بالمساعدة ، وأعطاه مقر جربروا ، في منطقة بوفيه ،
وكان قاعدة ممتازة للعمليات . فجاء غليوم حالاً وحاصر الموقع ، ولم
يستطع أخذه عنوةً وانسحب جريماً ، وفاوض ملك فرنسا ، وجاء هذا
إلى جربروا (كانون الثاني ١٠٧٩) ولعب دور الوسيط بين الأب وابنه .
وبمحضوره وعد غليوم الفاتح أن يترك لروبير نورمانديا . وهكذا انتهت
تجزئة الدولة التي أنشئت عقب حملة ١٠٦٦ .

اجتياح الفيكسان و وفاة غليوم الفاتح (٩ أيلول ١٠٨٧) . - لقد سجلت
سياسة فيليب الأول بين ١٠٧٦ و ١٠٧٩ فوزاً حقيقياً . فقد قور غليوم الفاتح أن
يكسر الجهد الكاسي قبل أن ينمو ، ولكن تنظيم اكلترا أجل مشاريعه
الهجومية . وفي آب ١٠٨٧ اتخذ ذريعة غارة فرسان فرنسيين على الفيكسان
النورماندية واجتاح الفيكسان الفرنسية ، واندفعت جنوده في أعمال السلب
وأحرقت مدينة مانت ، ولكن غليوم سقط بعدها مريضاً وعاد إلى روان
حيث مات في ٩ أيلول ١٠٨٧ .

تجزئة المملكة الأنغلية - النورماندية . - لقد كاد زوال غليوم
الفاتح أن يؤدي إلى دمار أثره بسبب تجزئة دوله . وطبقاً لإرادة
المتوفى ، عادت نورمانديا إلى ابنه البكر ، روبير كوتيز ، وانكاثوا
إلى الثاني ، غليوم الأشقر ؛ والثالث هنري ، حرمة أبوه من الأثر ،
فاعطاه أخوه روبير ، الذي حرص على مداراته ، مدينة افرانس وكونتية
كوتانس .

ولقد ولد تفتت المملكة الأنغلية - النورماندية أزمة دامت ، بالرغم
من بعض الهدوء في بداية القرن الثاني عشر ، حتى وصول هنري الثاني
بلاناجونيه إلى العرش عام ١١٥٤ ، وساعدت المملكة الكاسبية على تمتين

وضعها وتقويم السلطة الملكية الضعيفة ، لمجابهة منازعات لا يمكن اجتنابها مع جيرانها الخطرين .

غليوم الأشقر ملك انكلترا . - لقد احترمت إرادة غليوم الفاتح الأخيرة . فقد خلف روبرت كورنهورز أباه على نورمانديا دون صعوبة مقابل بعض التنازلات للاقطاعية . وفي انكلترا استلم غليوم التاج بفضل مساندة جثليق كانتوربري ، لانفرانك ، الذي أمن له مشايعة مجلس العقلاء . وأقسم اليمين أن يحكم حسب قوانين العدل وأن يتكيف مع آراء الكنيسة ويحترم حرياتها .

ولكن من الممكن أن يشك بقيمة هذه التعهدات ، لأن غليوم الأشقر لا يشبه أباه في شيء . وقد زعم اورديريك فيتال بأنه ضرب أسوأ . مثل في السلوك ، ونهب أموال الكنائس لإرضاء لاهوائه . ولم يشعر المؤرخون الانكليز بعطف نحو هذا الملك الجديد ، وكتب عنه هنري هنتينغدون « كان أكثر شراسة وخبثاً من أي إنسان آخر » ، وأحاطت به حاشية سيئة ، وكانت مستعدة للاستسلام لمشاورين أفسد منه ، وغيوراً على سلطته كما كان أبوه غليوم الفاتح ، وحاول أن يبسط حكمه الملكي المطلق مسترسلاً في غرائزه الاستبدادية . فآثار معارضة النبلاء والاكليروس الأعلى واختلافه مع القديس آنسلم ، جثليق كانتوربري . وأراد هذا الأخير أن يتخلى عن مسؤولياته أمام البابا اورينو الثاني ، فلم يقبل استقالته لصالح الكنيسة . وفي مجمع باري (تشرين الأول ١٠٩٧) هدد البابا غليوم الأشقر باللعنة والحرمان . وقامت مفاوضات بهذا الشأن ولكنها قطعت بوفاة البابا (٢٩ تموز ١٠٩٩) والملك (٢ آب ١١٠٠) .

سياسة غليوم الأشقر القارية . - لم تترك المعارضة لغليوم الاشقر في انكلترا متسعاً من الوقت للاهتمام بشؤون القارة ، ومع هذا فقد حاول أن يجمع قطاعي الدولة الانغلية - النورماندية بطرد أخيه روبر كورتهوز .

وقد رسم المؤرخون عن روبر كورتهوز لوحة تختلف عن لوحة غليوم الاشقر ، ولكنها ليست لصالحه ، كان روبر محبوباً ، كريماً ، سخياً ، خفيفاً ، ينقصه الحس السياسي كاملاً . عاش صحبة المهرجين والنساء فأباد بسرعة الاموال التي خلفها له أبوه ونسي الحكم ، فوجد الامراء فرصة مناسبة للخلاص من الروابط التي غلهم بها غليوم الفاتح ، وتلت الفوضى السلام ، وأصبحت نورمانديا سهلة المنال .

وفي ١٠٩١ اجتاز غليوم الاشقر المانش ، وتقدم نحو أو ، ولاسباب جبهة تصالح مع روبر واشترى انسحابه ببضعة قصور . وما لبث أن عاد ثانية إلى نورمانديا . ففي ١٠٩٦ ذهب روبر كورتهوز إلى الحرب الصليبية وعهد إلى أخيه بحكم الدوقية في غيابه . فأفاد غليوم من ذلك لمعاودة سياسة التوسع نحو الشرق التي قطعها موت أبيه : وفي ١٠٩٧ طالب فيليب الاول بالفيكسان ، ومدن : بونتواز ، شومون ، مانت ، فقبول بالرفض وعادت الحرب في تشرين الثاني ١٠٩٧ .

ولا نعلم جيداً تاريخ هذه الحرب . فقد كلف من الجانب الفرنسي الابن البكر لفيليب الاول ، لويس ، بصدد الهجوم ، وكانت مهمته صعبة التنفيذ : لان كثيراً من الامراء الفرنسيين ، تحت تأثير الرشوة الانكليزية ، انتقلوا إلى صف العدو . ولكن الفرنسيين تغلبوا أخيراً وسلم الدومين الملوكي .

الملكة الكاسبية في آخر القرن الحادي عشر . - ووجد ملك

أنكثرا في صعوبات من جراء قيام الثورات عليه في مين وأنجو ، ولكن ملك فرنسا لم يحاول استغلال هذا الوضع . وهذا الجمود منه يتناقض مع النشاط الذي بذله في السنوات الأولى من حكمه الشخصي . ولا شك في أن هذا الجمود كان نتيجة الفوضى في حياته الخاصة . ففي ١٠٩٢ طلق فيليب الأول الملكة بيرت فريز ، وخطف برتراد مونفور الخليفة زوجة كونت آنجو ، فولك الريشن . وصرح سوجر ، مؤلف حياة لويس السادس ، بأنه أصبح منذ ذلك الحين أسير اللذة ولم يهتم بشؤون المملكة . وكان ابنه ، الأمير لويس ، المولود ولا شك في ١٠٨١ ، قتيلاً لا يستطيع أن يحمل محله تماماً . وبترام يلفت النظر ، أي في الوقت الذي تجتاز فيه المملكة الآنغلية - النورماندية أزمة تخفف نتائج حادث ١٠٦٦ ، كانت المملكة الكابسية تشكو فقدان التوجيه الذي ظهر لكل عين وبشكل محسوس حتى بداية القرن الثاني عشر .

تقدم السلطة الملكية في عهد فيليب الأول . - ومع هذا لم يكن حكم فيليب الأول غير مجد للملكية . ففي الربع الأخير من القرن الحادي عشر تحققت خطوة حاسمة نحو المركزية بإحلال القصر محل البلاط في حكم المملكة . ففي وصاية بودون (١٠٦٠ - ١٠٦٧) كان الملك يأخذ رأي البلاط في القضايا الهامة . وشيئاً فشيئاً استغنى فيليب الأول عن هذه الموافقة والقرارات الأساسية التي تقع على أشخاص حاشيته المباشرة المجتمعين في القصر . وفوق ذلك ، حدث اختصاص في وظائف القصر نفسه ، ويلاحظ تشكل وزارة من كبار موظفي التاج ، مثل رئيس الديوان المتعلق بشخص الملك ورافقه في تنقلاته ، والسينيغال (قائد الجيش) ودوره عسكري خاصة ؛ والكونيتابل (الأمر الأعلى للجيش) العصر الوسيط - ٥٠

والساقى وليس لهما صفات دقيقة معينة . وبكلمة لقد كان القصر على رأس الادارة . ولذا قويت السلطة الملكية .

توسع الدومين الملكي . - وفي عهد فيليب الأول لما الدومين الملكي بمكاسب هامة . ففي عام ١٠٦٧ كان هذا الدومين يضم مناطق باريس وايتامب واورلئان وسانس ، ومونتروي - على - البحر التي ضمت في عهد روبير التقي . ولكن فيليب الأول وسعه خارج نطاق المنطقة الباريسية . ففي ١٠٦٨ ضم منطقة الغاتينه ثم كوربي ، التي تخلى عنها آرنول فلاندر . وفي ١٠٧٧ ضم الفيكان الفرنسية أي منطقة مانت ، بونتواز ، شومون التي حماها ضد العدوان الأنغلي - النورماندي وأخيراً في ١١٠١ استوى بروج من الفارس اود آرن الذي ذهب للأرض المقدسة ، وبها أصبح له موطىء قدم فيما وراء نهر اللوار . وبفضل هذه المنطقة ، في اكينانيا ، هيا توسع النفوذ الكابسي في الجنوب الغربي .

ولسوء الحظ ، ان هذا الدومين الذي يمكن أن يصبح عنصر قوة مازالت إدارته سيئة . وكان مقسماً إلى دوائر على رأس كل منها قاض يقيم العدل في غياب الملك ويحيي الاتاولت الدومينية . وهؤلاء الموظفون مخولون بالسلطة الملكية ، ولكنهم لم يستعملوا هذه السلطة دوماً في صالح التاج . ومن جهة أخرى ، لقد وجد في داخل الدومين ، وهذا سبب ضعف أخطر ، أمارات صغيرة حافظ أصحابها على استقلال يكاد يكون تاماً : مثل أمارات بومون ، موغورانسى ، مونليري ، بوزيه . وكانت هذه الامارات متكثلة حول قصور حصينة ، وكثيراً ما كانت تتور على الملك .

نزاع المملكتين الكابسية والأنغلية - النورماندية في آخر القرون الحادي عشر . - ويفهم في هذه الظروف أن الملك الكابسي كان تحت

رحمة حادث بطراً في دومينه الخاص ، ولذا لم يستطع أن يقوم بهجوم واسع النطاق ضد الدولة الأنغلية - النورماندية . ان تقسيم دول غليوم الفاتح ، والمعارضة التي لاقاها غليوم الأشقر من جهة ، وحياة فيليب الأول الخاصة المضطربة ، والوضع غير المستقر في الدومين الملكي من جهة أخرى ، إن كل هذه الأمور توضح لنا لماذا لم ينم النزاع في آخر القرن الحادي عشر ، ولن يبلغ أيضاً شكله الحاد في النصف الاول من القرن الثاني عشر . غير أن تواجد ملكين لهما قيمتهما الحقيقية : هنري الاول في انكلترا ، ولويس السادس في فرنسا ، أدى إلى وجود قوى على استعداد لان تتجابه يوماً ما : فمن ١١٠٠ إلى ١١٣٥ توطدت السلطة الملكية في فرنسا كما في انكلترا . وقد بدأ الملكان ، في بعض الاوقات ، بالمنازعات الكبرى التي عرف فيها عهد فيليب أوغست وأولاد هنري الثاني .

التنافس بين هنري الاول ولويس السادس

١١٠٠ - ١١٣٥

جلوس هنري الاول في انكلترا ولويس السادس في فرنسا ، -
لقد توفي غليوم الاشقر في حادث صيد ، في ٢ آب ١١٠٠ . ولم يترك وارثاً مباشراً ، ولم يعد أخوه رويير كورتهوز من الحرب الصليبية ، وكان آنذاك في صقلية ، فطالب الابن الثالث المنحى لغليوم الفاتح بعرش انكلترا . وانحاز البارونات له ، عدا غليوم بروتوي ، وبعد أن انتخبوه قادوه إلى وستمنستر حيث توجه أسقف لندن (في ٥ آب ١١٠٠) .
وفي هذا التاريخ أخذ لويس السادس على عاتقه إدارة المملكة الكابسية .
ولإذا لم يحمل على وجه التخمين لقب الملك المسمى إلا بعد ذلك

بقليل ، فقد كان يشارك أباه في الحكم ويمارس منذ حرب الفيكسان ١٠٩٧ وظائف رئيس الجيش . ولا شك في أن فيليب الاول حتى وفاته (١١٠٨) ، لم يتدخل تماماً عن الاهتمام بالادارة ، ولكنه ، ابتداءً من ١١٠٠ ، سلك سياسة جديدة في علاقاته مع الاقطاعية أوسع الكنيسة ، وفي الواقع ان حكم لويس السادس بدأ منذ ذلك الحين .

وفي الحقيقة إن اعتلاء عرش انكلترا وفرنسا في آن واحد من قبل هنري الاول ولويس السادس سيبدل بصورة محسوسة سماء المملكتين الغريبتين .

هنري الاول ملك انكلترا . — لقد كان هنري الاول يشبه أباه أكثر من أخويه . كان وفياً ، عادلاً ، بعيداً عن المنفعة ، يكره الرذيلة والعنف ، وفي غداة جلوسه على العرش تزوج أخت ملك ايكوسيا ، اديث ، التي أخذت اسم ماتيلد ، وليس في حياته الخاصة ما يشبه حياة غليوم الأشقر . وإذا ورث عن غليوم الفاتح غرائز استبدادية ، فقد أراد خير رعيته وحماها من ظلم النبلاء وتمنى أن يصل مع الكنيسة ما انقطع من تقام في العهد السابق ، وعند تنويجه أصدر ميثاقاً يعكس استعداد الشخصي ويشجب مفسد الحكم الراحل ، وارجع قوانين ادوارد المعرف مع التعديلات التي اجراها غليوم الفاتح ، ثم وعد الكنيسة بالحرية في الانتخابات واحترام أموالها ، ووعد الأمراء بحرية نقل اقطاعاتهم ، ورعيته بتشريع معتدل للديون والغرامات ، وأقسم اليعين على ذلك فأيد جميع هذه التعهدات ، وعبر عن نفس النوايا العادلة الرحيمة والسلمية . ودل كل شيء على أن عهده سيكون عهد إصلاح لما أفسده الاضطراب الذي ساد انكلترا منذ ١٠٨٧ .

لويس السادس ملك فرنسا . - كذلك ترك وصول لويس السادس إلى السلطة ، في فرنسا ، الأمل باتجاه جديد . ولد هذا الأمير في آخر ١٠٨١ . وكان أفنى من هنري الأول بعشر سنوات ، ولكن تجربته تختلف بحسب ظروفه ، فما كاد ينهي تربيته في ابوية القديس - دوني حتى قلده فيليب الأول (١٠٩٢) منطقة بونتواز ومانت والفيكسان . وفي العام ١٠٩٧ ، ولما يئنه السادسة عشرة من عمره ، أسهم في الحرب ضد غليوم الأشقر . وخولته مغامراته الحربية وجولاته ، عام ١٠٩٨ ، أن يكون فارساً وان يشارك في الحكم رغم اختلافه مع أبيه في موضوع بورتاد مونفور .

وكشف لويس السادس منذ فتوته عن مواهب رجل الحرب ، وهو كما وصفه مترجم حياته ، الأب سوجر ، « بطل لا مثيل له ومصارع عظيم » . هام طوال حياته بالحروب ولم يتردد في بذل شخصه والالتحام بقوى العدو والاندفاع وسط اللهب والنار عند تهديم الحصون ، حتى انه اقترح أن ينهي الحرب بين فرنسا وانكلترا بكفاح فريد بين الملكين . وباختصار لقد كان فارساً حقاً ، وشجاعاً صدقاً ، مستقيماً ، مخلصاً ، يكره الخداع والحيانة ، همه أن يعمل طبقاً للعدالة وأن يحفظ لكل إنسان حقه . غير أن العيوب الملازمة لسلالته لم توفره . فقد كان جشعاً قريباً إلى الفساد والرشوة ، واهلاً ليبع مساعدته لمن يقدم أكثر ، نهماً ، شهوانياً ، ولقبه السمين في التاريخ يذكر بسمه المبكر الذي كان نتيجة الافراط في الشهوات ولذائد المائدة ، ومنعه في سن الاربعين من ركوب الحيل . وعندما كان مراهماً أخته بنت طبيعية ، ولم يتزوج إلا في سن الخامسة والثلاثين ، بعد أن قاوم طويلاً لوم ايف شارتر .

ورغم هذه المثالب ، كان لويس السادس أعلى من الملوك الذين سبقوه . وكان يريد ، مثل هنري انكلترا ، أن يقوى سلطته الملكية . ومن ١١٠٠

إلى ١١٣٥ يرى على شاطيء المانش جهد لتوطيد السلطة الملكية على قواعد
واسس متينة ، وإعادة وسائل العمل التي فقدتها أو التي جردت منها .

هنري الأول والبارونات الانكليز . - لقد كان هم هنري الأول
منذ وصوله إلى العرش ان يفرض سلطته على البارونات الذي نصبهم استبداد
غليوم الأشقر في وجه الملكية . وعندما عاد أخوه البكر روبرت كوتهوز
من الحج طالب أيضاً بالتاج الانكليزي واثار اضطراباً دام قليلاً : ففي
١١٠١ حاول روبرت كورتمز اجتياح انكلترا ، ولكن وساطة كونت
مولتن أعاد السلام ، وأرجع هنري الأول إلى روبرت الذي اعترف به ملكاً
الكونتانتان التي اشتراها منه في السابق ؛ وعفا الملك عن اوستاش بولوني،
البارون الوحيد الذي انحاز الى منافسه .

ولم يأل هنري الأول جهداً في خضد شوكة المعارضة الارستقراطية ،
حتى ان بعض النبلاء ممن ثاروا عليه أو ممن كانوا يعتدون على أموال الآخرين
لاقوا جزاءهم وجردهم الملك من أملاكهم .

ومع انتهاء المعارضة الارستقراطية توطد السلام الديني الذي أضر به
استبداد غليوم الأشقر .

كان هنري الأول ، الذي أخذ لقب « الاكبركي الصالح » يعطف
على الكنيسة ، وقد برهن حيالها عن احترام عميق وتقاهم ونبذ كل
شقاق . ولكنه ، فيما يتعلق بقضية التقليد ، ظل متمسكاً بسلطته ومطالبته
بيمين الولاء ، وأخذت قضية التقليد العلماني دوراً كبيراً بين الملك هنري
الأول والقديس آنسلم رئيس أساقفة كانتوربري ، ولكن المفاوضات
انتهت أخيراً إلى نتيجة سعيدة بفضل وساطة آذيل بلوا أخت هنري الأول
التي هيأت في ليغل مقابلة بين الملك والمطران . وأخيراً تخلى هنري الأول

عن تقليد المناصب الكنسية ، وتنازل آنسلم على أن يقسم الاساقفة اليمين للملك من أجل الاقطاعات المتعلقة بالاستقفيات . وفي مرسوم ٢٣ آذار ١١٠٦ صادق البابا باسكال الثاني على هذا الاتفاق . وأخيراً انعقد مجلس في لندن في آب ١١٠٧ وثبت بصورة قطعية القواعد التي يجب أن تسود علاقات الكنيسة والدولة : ونص على ان الاسقف لا يمكن أن يقلد وظيفته بالعصا والخطام لا من الملك ولا من أي شخص علماني آخر . ومن جهة أخرى ، ان التكريس الاسقفي لا يمكن أن يحدث قبل ان يقسم المنتخب للملك يمين التبعية من اجل اقطاعاته . وهكذا توصل الجانبان إلى حل وسط يتفق ونظريات ايف شارتر .

توطيد الوحدة الأنغلية - النورماندية . - ان العودة إلى تقاليد غليوم الفاتح لم تتأكد وحدها ، في بداية حكم هنري الأول ، بتوطيد السلام المدني والسلام الديني اللذين كسرهما استبداد غليوم الأشقر ، بل لقد تشكلت أيضاً الدولة الأنغلية - النورماندية في ١١٠٦ من جديد كما كانت قبل ١٠٨٧ .

كانت علاقات هنري الأول مع أخيه روبرت كورتهوز طيبة في الظاهر ، ولكن هنري مافئء يعمل على توحيد نورمانديا وانكلترا تحت صولجانه : ففي ١١٠٤ قام برحلة إلى القارة وتصالح فيها مع خصومه ، واشترى معظم الأمراء النورمانديين بالمال . وفي الوقت ذاته أرسل وفداً إلى ملك فرنسا فيليب الأول ، ووفداً آخر إلى كونت أنجو ، جوفروا مارتل الثاني ، ليؤمن حياذ الأول ، وتحالف الثاني . وفي ١١٠٥ اجتاز المانش من جديد وأعلن أنه اتى ليطالب بارثه الأبوي الذي أصبح فريسة الأشقياء ، فنجح في مسعاه بعد أن أحرق ودمر القصور واقام الحاميات . ودانت له البلاد ، وبدأ ان الوحدة الأنغلية - النورماندية عادت من جديد وتوطدت بقوة .

قطع العلاقات بين هنري الاول والمملكة الكابسية . - وهذا التشكيل الجديد لدولة غليوم الفاتح أرجع العداوة مع المملكة الكابسية وحول الحرب المناوشات إلى حرب حقيقية . وكان لدى هنري الأول جيوش تفوق جيوش أبيه في السنوات التي تلت فتح انكلترا ، ومن جهة أخرى ، لقد جمدت المعارضة الانكليزية غليوم الفاتح واضطر إلى كفاحها حتى وفاته . أما هنري الأول فكان يتمتع على شاطئ المانش بشعبية حقيقية . ولذا كان بإمكانه أن يندفع إلى الأمام ، لاسيا وأنه عرف ضروره بسط نفوذه في القارة قبل أن يعطي لويس السادس إلى المملكة الكابسية القوة المادية التي كانت تنقصها في القرن الحادي عشر ، ولذا أثار القطيعة .

كانت هذه القطيعة مخفوفة بالأخطار ، ولكن لويس السادس كان يتابع منذ ١١٠٠ هدفين أساسيين : السلام مع الكنيسة وتوطيد السلطة الملكية في داخل الدومين بخضوع اقطاعي اقليم جزيرة فرنسا . وقد تحقق الهدف الأول عند وفاة فيليب الأول ، ثم تبعته القطيعة مع انكلترا ، ولم ينق الجو في الدولتين ، وكان الملك الكابسي في وضع دون قوة منافسه . لقد قدم لويس السادس إلى المملكة الفرنسية خدمة جلي بوضع حد للمناقشات التي حالت حتى الآن دون اتفاق دائم بين الملكية الكابسية والكنيسة .

لم يوفر نزاع التقليد فرنسا ، ولكنه لم يكن بنفس الشدة التي كان عليها في ألمانيا ، ولم يدع فيها التشريع الغريغوري إلا في ١٠٧٧ في مجمع أوتن ، وبدت البابوية كريمة في تطبيقه مكتفية بلاحقة الأجبار السيمونيين وخلصهم . وسلك البابا غريغوار السابع حيال فيليب الأول سياسة الملاينة رغم ماأخذ عليه من اخضاعه الكنيسة وجعلها خادماً ، وحاول أن يعقد

- ٧٩٣ -

معه اتفاقاً عندما دخل نزاع الكهنوت والامبراطورية مرحلته الحادة .
ولكن فيليب الأول جعل هذا الاتفاق مستحيلاً بسيمونيه الكريمة،
وفي حبرية أوربينو الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩) بفضيحة حياته الخاصة . ففي
١٠٩٢ طلق زوجته الشرعية ، برتفريز، وخطف برتراد ، زوجة كونت
آنجو ، فولك الريشن ، واستطاع أن يبارك هذا الاتحاد على يد أحد
الأساقفة ، ولكن البابا ثار على هذا العمل الخالف لقوانين الكنيسة ودعا
الملك إلى العدول عن علاقاته غير المشرفة . ولكن هذا اليوم ظل دون
نتيجة . وفي العام ١٠٩٤ حلت به اللعنة في مجمع أوتن على يد هوغ ليون ،
وفي السنة التالية جدد البابا هذا الحكم بشخصه في المجمع الذي عقد في
كليرمون فيران، وفي ١٠٩٧ أتمت اللعنة بالمنع الكنسي . ولكن هذا التدبير
الخطير لم ينل شيئاً من عناد الملك وعشيقته . وتوفي أوربينو الثاني (في
٢٩ تموز ١٠٩٩) دون أن يفرح بمصالحة ملك فرنسا مع الكنيسة . وفي
١١٠٤ رجا فيليب الأول عفو باسكال الثاني ، مقابل الوعد بقطع علاقته مع
برتراد ، ودخل في جماعة المؤمنين .

وأصبح السلام الديني ممكناً منذ الآن ، ونحقق أثناء رحلة باسكال
الثاني إلى فرنسا (١١٠٦ - ١١٠٧) . وإذا اجتاز البابا جبال الألب
إلى فرنسا فذلك ليؤمن المساندة الكابسية تجاه ألمانيا المهددة ، لأن
التسوية العادلة لقضية التقليد يمكن أن تسهل أمر التحالف المرجو . وقبل
أن يذهب البابا إلى القديس - دوني ، حيث كان ينتظره فيليب الأول ولويس
السادس ، عرج على شارتر وزار ايف . وهذه الزيارة تدل بوضوح
على الاتجاه الذي تسير فيه السياسة الحبرية التي جنحت إلى الاعتدال
والحل الوسط بفضل أفكار ايف شارتر : وبموجبها يتم انتخاب الأسقف
من قبل المجالس الكنسية ويحظى بموافقة الملك .

وشهدت نهاية حكم فيليب الأول مصالحة الملكية مع الكرسي الأقدس ،
الشرط الأساسي الذي لاغنى عنه للسلام الديني . وقد نتساءل ماهو دور
لويس السادس في المفاوضات التي انتهت إلى هذا الاتفاق ؟ ان فقدان
النصوص الاميجابية لايسمح بالايضاح ولكن حضور الملك في مقابلة القديس -
دوني يؤكد بوضوح إرادته في التقارب مع البابوية .

لويس السادس واقطاعية المومين (١١٠٠ - ١١٠٨) . - ولقد كان
للملكية الكابسية كل الفائدة في تأييد هذا التحالف لما يتمتع به الاكليسوس
من جاه ونفوذ ، ولكنها لاتستطيع أن تفكر بزيادة قوتها
مادام الملك غير محتوم بشكل أفضل في داخل الدومين . وكان لويس
السادس أول ملك رأى الاتجاه الذي يجب طبع السياسة الكابسية به : وابتداء
من اليوم الذي يظهر فيه نفوذه الشخصي تبدأ الملكية بنزاع مستعر
ودؤوب ضد الاقطاعية الصغيرة في « جزيرة فرنسا » التي فرضت عليها
اخفاقات حادة .

وانطلاقاً من بداية القرن الثاني عشر يتغير موقف الملكية الكابسية
حيال تابعيها المباشرين ، ويقوم الملك بعمل قوي يدل على وجود إرادة
حازمة في فرض احترام النظام والسلام على أصحاب القصور الذين استحكموا
في حصونهم واعتادوا أن ينظروا إلى مليكهم نظراً إلى كمية مهمة .
ولاقت هذه السياسة النجاح طوراً والافخاق طوراً آخر . ولم يأل الملك
جهداً في استخدام الطرق الدبلوماسية إلى جانب العمليات الحربية ، ولكن
لله نجاح كان يتطلب منه الصبر والناة والجهد الدائب الطويل . وعندما
توفي فيليب الأول ، أدرك هنري الأول ملك انكلترا الصعوبات التي كان
يتخبط بها لويس السادس في فرنسا ، فهاجمه على نهر الابلت وخالف بذلك
السياسة التي تقتضي منفعة الشخصية أن يؤخر مفعولها .

حاول البابا كاليكست الثاني الوساطة بين الملكين . وفي طريقه إلى رنس لحضور مجمع ٢٠ تشرين الأول ، اجتمع في موريني في ٣ تشرين الأول بالملك لويس السادس ، ورأى إمكان الوساطة في النزاع الفرنسي - الانكليزي ، وكان لويس السادس يظهر عطفه حيال الكرسي الأقدس ودعمه للكنيسة الرومانية .

وبالمقابل ، كان هنري الأول يبدي حيال السدة الرسولية عواطف أخرى : فبعد أن قبل بالكونكوردات في التقليد أخذ يشكو من البابا ، وفي ١١٠٨ لمح بأنه يريد ممارسة حقوقه القديمة من جديد ، وعاد إلى تعامل أبيه وأخيه بعد وفاة مطران كانتوربري (في ٢١ نيسان ١١٠٩) وترك الأسقفيات شاغرة ليفيد من وارداتها ، ومنع المفوضين الجبريين من الهجيء إلى انكلترا . فاحتج البابا باسكال الثاني في ١١١٥ وتوترت الحالة بين الملك والكرسي الأقدس . وفي تشرين الاول ١١١٩ كانت استعدادات كاليكست الثاني ملائمة لصالح لويس السادس الذي كانت الكنيسة الرومانية تنفي عليه في شتى الظروف .

وبعد مجمع رنس ذهب كاليكست الثاني إلى الحدود الأنغلية - النورماندية وتقابل مع هنري الاول في جيزور ونقل إلى ملك فرنسا اقتراحات منافسه . ولكننا لانعلمها بدقة ، إلا أنها ، على ما يبدو ، كانت تتضمن الوضع الراهن ، لأن كلاً من الأميرين ، في العام ١١٢٠ رد للآخر القصور والاسرى الذين وقعوا في سلطته ، حتى ان غليوم آدولن بن هنري الاول ، قدم بناء على طلب والده ، احترامه إلى لويس السادس من أجل دوقية نورمانديا .

وبعد قليل على توقيع هذه المعاهدة غرق الابن البكر لهنري الاول ،

غليوم آدولن ، وكثير من أعضاء العائلة المالكة الانكليزية بسبب خفتهم وعدم فطنتهم . ولما لم يكن للملك وارث ذكر مباشر فان ابن روبري كورتوز ، غليوم كيتون ، طمع من جديد بدوقية نورمانديا وتعلق منذ سنة ١١٢٢ بتشكيل تآلب دخل فيه كونت آنجو ، فولك الخامس ، وآموري مونفور وغاليوان مولن . ورعى لويس السادس هذا التآلب دون أن يشترك فيه رسمياً . أليس في ذلك فرصة يحلم بها في تفريق المملكة الأنغلية - النورماندية من جديد ! أدرك هنري الاول الخطر بالحال ، ولينخلص من ملك فرنسا ، الذي لم يتروك له وقتاً للراحة والاطمئنان ، هياً عملية واسعة النطاق ودفع صهره ، الامبراطور هنري الخامس ، إلى مهاجمة المملكة الكاسبية . وكان هذا يحقد على لويس السادس لموقفه في النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ، فوجد أن الفرصة مناسبة للانتقام وتنبأ لاجتياح فرنسا من الشرق ، في الوقت الذي نقل هنري الاول الحرب إلى الفيكسان حيث انتصر في روجوتيه (آذار ١١٢٤) .

الغزو الألماني لفرنسا (تموز - آب ١١٢٤) . - وفي آخر تموز ١١٢٤ دخل هنري الخامس المملكة الفرنجية وزحف على رنس وأراد انتزاعها فجأة . ولهذا الحادث « أنب لويس السادس النبلاء » وذهب إلى القديس - دوني يطلب حماية الشهيد وأخذ الراية (راية ملوك فرنسا) وبسرعة وصل رنس حيث حشد قواه ، ولبي نداؤه وأقبل الامراء من كل حدب وصوب . وقد كتب سوجر « لقد كان الفرسان والمشاة على كثرتهم أشبه بالجراد يغطي سطح الارض على طول الانهار والجبال والسهول » . ومهما يكن في هذا القول من مبالغة فالباقي الصحيح هو أن كبار الاقطاعيين ، أمام الخطر الذي يهدد المملكة بكاملها ، هرعوا بالمبادرة حتى كانوا منهم يبدون حيال الملك اللامبالاة والعداء . وأرسلت الكنائس كتباً بها التي

أخذت تنافس الجنود الاقطاعية حماسها . وباختصار ، كانت المملكة كلها وراء الملك ، ولأول مرة ظهر التضامن القومي .

ومن المستحيل تقدير عدد الجنود المحشودة في رنس في آخر تموز ١١٢٤ ، ولكنه من المؤكد أعلى من عدد الجنود الالمان . ووصلت اصداء هذه التعبئة العظيمة إلى اسماع هنري الخامس ، فرأى الامبراطور من العقل ألا يذهب إلى ما وراء الاخفاق . فما كاد يصل إلى مستر إلا وانسحب مفضلاً ، كما يقول سوجر ، العار والشنار على تعريض امبراطوريته وشخصه لانتقام الفرنسيين . وامتنع لويس السادس عن ملاحقته ، لأن الانسحاب الالمانى منحه من الجاه مايكفي حتى فضل البقاء عند موقعه .

ان اخفاق التالب والغزو الجرمانى في فرنسا كان له في تاريخ المملكتين الغربيتين نتائج هامة . فابتداء من ١١٢٤ لم يعد هنري الاول ملك انكلترا يهاجم المملكة الكاسبية ، وبدأت هدنة طويلة امتدت الى ما بعد جلوس هنري الثاني بلانتاجويه ١١٥٤ . ولذا فأن الملكيين الفرنسي والانكليزي ، بفضل هذا السلام ، تابعوا ، بنشاط متجدد ، عملهم في تثبيت السلطة الملكية التي انصرفوا اليها منذ تسلمها العرش . وافتتحت مرحلة حاسمة في تشكيل المملكتين الأنغلية - النورماندية والكاسبية .

حكومة لويس السادس . - لقد حافظ حكم لويس السادس حتى النهاية على السلوك الذي حلم به منذ بداية القرن الثاني عشر . ففي الادارة جدد لويس السادس قليلاً واكتفى ببقاء اصلاحات أبيه سليمة لم تمس . وبقي الحكم ، كما كان في الربع الاخير من القرن الحادي عشر ، مركزاً في أيدي عدد من رجال القصر الملكي . ويدور في فلك هؤلاء الكبار جهاز من الاكليركيين بصرفون الامور ، بينما يتابع الملك بنفسه الهدف الذي رسمه لنفسه منذ شبابه وهو فرض السلطة الملكية على مختلف

الطبقات التي تؤلف المملكة .

وبفضل السلام مع الأنجليين - النورماندين أنهى لويس السادس اخضاع الاقطاعية الصغرى في الدومين التي مافتيء بياضها بعزم لايلين ولايين . وكللت جهوده بالنجاح . وفي آخر القرن الحادي عشر تبدلت سياء الدومين الملكي . فقد كان في السابق مزبثراً بالحصون ، وفيه توصل أصحاب القصور الى الاستقلال التام تقريباً وأخذوا يناوؤون السلطة الملكية ويشلون التجارة . أما الآن فقد أصبح للسلالة الكابسية نقطة استناد قوية قادرة على دعم سياسة واسعة النطاق ، واستطاع ملك فرنسا لويس السادس ، بالقضاء على هؤلاء الاقطاعيين ، أن يخول التاج قوة مادية كانت تنقصه ، كما أغناه اخفاق الغزو الجرمانى بجاه معنوي أفاد منه كثيراً .

وفي الوقت الذي أنشأ فيه هذه القوة المادية وولد هذا الجاه المعنوي أدى الى الملكية خدمة أخرى : فقد هيا للمستقبل حلفين ثمينين : حلف الكنيسة وحلف الطبقات الشعبية .

في الظاهر ، يرى في سياسة لويس السادس الكنسية تناقضات . وهذا يرجع الى أن الملك ، مع مجاملته للاكليروس ، لم يشأ أن يضحي مايعتبره حق التاج الذي لايمس . وقد وقع في الحلاف مع الاسقفية عدة مرات ، اما لانه أراد أن يفرض مرشحه ، أو لأنه أراد أن يحل القضاء الملكي محل القضاء الكنسي في الدعاوي التي لايمكن أن تكون قانونياً من خصائص البلاط . وفي هذه الظروف المختلفة وفي غيرها كان الملك مستبداً عنيفاً غاضباً ، وهذا مادعا ايف شارتر الى لومه ، حتى ان القديس برنار ، على شدته المعروفة ، شكاه للبابة هونوريوس الثاني واعتبره هيروود جديداً . ولكن يجب ألا يعلق كبير أهمية على هذه الحوادث ،

لأنها لم تمنع تقدم الإصلاح الغريغوري في داخل المملكة الكابسية بمساعدة الملك لويس السادس نفسه ، وان نظرية ايف شارتر في التقليد قد ظفرت في فرنسا باستثناء بعض الحالات النادرة التي وقع فيها الملك في خلاف مع الكنيسة بشأن الانتخابات . وبالأجمال يمكن القول ان الحوادث أبدت ، في فاتحة القرن الثاني عشر ، النظرية الشارترية في فرنسا

وفي الوقت الذي احترام فيه الملك لويس السادس استقلال الكنيسة ، إلا في بعض الحالات ، كان يشجع على نشر الإصلاح الديري الذي جاء في السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر يتم إصلاح كلوني . وتدل كثرة الهبات على الأهمية التي يعلقها الملك على النظم الجديدة : مثل آرووين ، فونتفول ، تيرون ، سيدتو ، وجمعية كلوني القديمة التي حصلت منه على امتيازات ثمينة . وكذلك نظام برميونتره كان موضع اهتمامه وإنعامه . لقد أغنى لويس السادس الأديرة وجماعات الكهنة في الكنائس ، وسهر على مراعاة القاعدة الديرية وساعد الآباء على فرض احترامها ، وفي كل هذا كان يدل على غيرته الدينية الواضحة وعلى الشعبية التي تمتع بها بين رجال الكنيسة .

هذا فضلاً عن أن لويس السادس دعم الكرسي الأقدس في ظروف عصيبة ، ولقد رأينا دوره في النزاع بين الكهنوت والامبراطورية قبل كونكوردات فورمز . وفي العام ١١٣٠ مرت الكنيسة الرومانية عند وفاة هونوريوس الثاني بأزمة جديدة هددت الوحدة المسيحية : لأن البابا المنتخب نظامياً ، اينوسان الثاني ، رأى أمامه عدو البابا ، أناكليت . وكانت كل من المتنافسين يبحث عن مساندة فرنسا . وقد علق لويس السادس تفضيله الشخصي برأي كنيسة فرنسا وعقد في إيتامب مجمعاً قومياً اعترف بشرعية اينوسان الثاني . وجرت مشايعة فرنسا مشايعة ملك انكلترا والامبراطور.

وأسهم أكثر من أي شخص آخر بانتهاء الشقاق الذي يقيم المسيحية .

وفي الحقيقة ، ان البابوية مدينة في جزء كبير من نجاحها في حبرية باسكال الثاني وجيلاز الثاني وكالكست الثاني وابنوسان الثاني إلى التحالف مع فرنسا . ولكن الملكية الكابسية أفادت أيضاً من هذا الوفاق مع الكنيسة . ففي قضايا التنظيم الكنسي كان الحل الذي يتبناه الكرسي الأقدس على وفاق مع مصالح السياسة الفرنسية ، وبالتالي كان الكابسيون في توسعهم الأرضي يستطيعون الاعتماد عموماً على مساندة البابوية لهم .

وهناك حلف آخر واضح قليلاً وخجولاً ارتسم بين الملكية والشعب : ان سياسة لويس السادس حيال الأقتان الريفين لم يكن لها ذلك الاستمرار وسعة النظر للذات نسباً إليه طويلاً . ومع هذا فقد نسبت إليه بعض أعمال التحرير التي أمثلها نواياه التقية ، أو أيضاً اتفاقات تعود إلى تبادل الأقتان بقصد صيانة القوانين العائلية . وحاول الملك أيضاً حماية سكان الأرياف ضد مضايقات الموظفين وخاصة ضد متطلبات الضريبة المزعجة . وهذه الفكرة الشريفة أوحى بميثاق لوريس النموذجي الذي تبنته بالتالي عدة مدن حرة . ان سكان هذه المدينة الواقعة في منطقة غاتينية قد تحرروا من خدمة الحراسة ، والسخرة ، والقامة ، والمساعدة وعدد من الضرائب غير المباشرة . واثاثهم إلى الأمير ، وخاصة الملك معرفة بدقة . وما من أحد منهم متعلق بالأرض . وهذا يقتضي الحرية للجميع . وإلى هذه التحسينات الاجتماعية تضاف الامتيازات التجارية : فقد أخذ الملك على عاتقه رعاية الأشخاص الذين يأتون إلى السوق ، وأعفى البضائع التي ينقلها أبناء المدينة من كل رسم . أما الحقوق السياسية فلم تكن موضع بحث . فقد كان من الواضح أن لويس السادس أراد خاصة التنمية الاقتصادية في غاتينية دون أن يفكر بحسب السكان بمنح الحريات . وسياسته حيال القومونات متأثرة بشاغل مماثلة .

لويس السادس والحركة القومونية . - لقد تسارعت في فرنسا في عهد لويس السادس ثورة انتزعت من السلطة الأميرية عدداً من المدن وحوالتها إلى قومونات أي إلى هيئات مستقلة ذاتياً ، أمارات حقيقية جماعية في داخل الاقطاعية . وقد بدأت هذه الحركة التجريبية في عهد فيليب الأول وتحررت على هذا النحو لومانس ، كامبرية ، سان - كنتان ، بوفيه . وفي عهد لويس السادس السمين تحررت مدن شمال فرنسا بدورها : أراس ، نويون ، مانت ، فالانسين ، آميان ، كوريي ، سواسون ، بروج ليل ، سانتومير . وفي عهد لويس السابع وفيليب أوغست امتدت الحركة إلى جنوب فرنسا .

وضع هذا الحادث للملكية قضية خطيرة : لقد أصيبت الملكية مباشرة في نويون ومانت ، فهل يجب أن تكافح الحركة القومونية أو على العكس أن تشجعها ؟ ويبدو أن لويس السادس لم يتصور بهذا الشكل هذه الورطة المقلقة ، وإن اللقب « ابو القومونات » الذي منحه أحياناً ينطبق على أبنه لويس السابع أكثر مما ينطبق عليه . لقد ظهرت سياسته متروكة ومتناقضة . ومع هذا فقد شجع لويس السادس طوعاً أو كرهاً الثورة القومونية ، وهذا يفسر لنا العطف الذي كسبه في أوساط المدن . وقد اعترف سكان المدن وسكان الأرياف بجميله بسيادة النظام والسلام التي أفادت منها المعاملات التجارية . وكانت الطبقات العاملة تشارك الاكليروس عواطفه ، ومافتىء اخلاصها للملكية ينمو في القرن الثاني عشر .

الاقطاعات الكبرى في عهد لويس السادس . - وبالمقابل ، انت ملك فرنسا ، الذي هذا الدومين الملكي وهياً فيه عن وعي أو غير وعي الأحلاف العصر الوسيط (٥١)

التي ساعدت خلفاءه على إتمام الوحدة الفرنسية ، لم ينل من الاقطاعات الكبرى ، بل انها ، على العكس ، توحدت خارجاً عن الملكية في الثلث الأول من القرن الثاني عشر .

في فائحة القرن الحادي عشر كانت فرنسا تتألف من أمارات لم يكن الاقطاعي الكبير ليارس عليها الاسيادة وهمية ، ولكن الحال كانت على العكس في عهد لويس السادس ، فقد تم عمل مركزية في داخل الوحدات الاقليمية الكبرى التي ارتسمت في آخر العصر السكارولنجي . وإذا كان الاقطاعي الكبير ، في معظم الأحوال ، لا يستطيع أن يفرض على اتباعه سلطته أو يسترد الحقوق الملكية التي اغتصبها في السابق ، فعلى الأقل وجدت روابط تضامن بينه وبين باروناته . ووضعت مجالس براءات عامة للاقطاع كله . وفوق ذلك ، توصل السيد الأعلى بحروب سعيدة دبلوماسية زواجية عليمه إلى توسيع اقطاعه ودومينه الشخصي ، واستطاع أيضاً أن ينمي سلطته وينقلها بانتظام إلى خلفائه وينشئ إدارة خاصة به . وبكلمة ، ان ما حققه في داخل اقطاعه هو ما حققه فيليب الأول ولويس السادس في الدومين الملكي . وعلى هذا النحو تشكلت هذه الدول الاقليمية التي أعطت فرنسا القرن الثاني عشر سيادتها الخاصة . وتجدر الإشارة إلى أن التطور الذي أحدثها كان أسرع في الشمال والغرب منه في الشرق والجنوب . وهذه الاقطاعات الكبرى هي : الفلاندر ، الأنجو ، بروتانيا ، دوقية اكيثانيا ، كرواتية تولوز ، دوقية بورغونيا ، كرواتية شامبانيا .

لويس السادس وكبار الاقطاعيين . - يلاحظ ، في الثلث الأول من القرن الثاني عشر ، في جميع الاقطاعات الكبرى ، عمل مركزية واحد . ولكنه يكاد يظهر في لانغدوك ، بورغونيا ، شامبانيا ، ويكون قريباً من نهايته كما في الفلاندر وأنجو واكيثانيا . وقد أنشئت في هذه الأقاليم الأخيرة

إدارة تشبه إدارة الدومين الكابسي وتنفذ إلى داخل الإمارات التابعة ؛ وفي تلك ، على العكس ، لم مجرد البارونات من الحقوق الريغالية وظلوا يجهلون الاقطاعيين الكبار قليلاً أو كثيراً . وفي المجموع يوجد نزعة نحو إشادة دول إقليمية تحكمها سلالات وراثية .

وهذا التطور يجعل عمل الملك صعباً في داخل الاقطاعات الكبرى . ولا شك في أن الرابطة الحقوقية لم تزل ، لأن كبار الاقطاعيين ظلوا مخلصين للملك ويقدمون احترامهم له ، وكما لوحظ جيداً « يتحدرون ، باستثناء دوق نورمانديا ، من كونتات وادواق ومراكينز العصر الكارولنجي » ، ولم يكسر اغتصاب الحقوق الملكية روابط الفداء الشخصي الذي يربطهم بالملك ، ولكن هذه التبعية اقتصرت عملياً على شيء قليل . وقد استطاع لويس السادس أن يقوي في داخل الدومين السلطة الملكية ، ولكنه لاقى عنتاً في الخارج لفرض امتيازاته في السيادة ؛ ومع هذا ، إذا استطاع أن يفكر بمطالبة كبار الاقطاعيين بالقيام يومياً بالتزاماتهم الاقطاعية ، وحاول أن يقوم في مجموع المملكة الفرنجية بالواجبات التي يرى أنها تقع خاصة على كاهل الملكية حامية السلام ، بمحاربة الأمراء المشاغبيين والناهيين الذين يعكرون صفو النظام .

وفي كل هذه الظروف المختلفة كان الملك يظهر بظهر الملك القاضي ، والحكم الأعلى ، ويمارس امتيازات السيادة .

أثر لويس السادس . - غير أنه كان من الصعب على الملكية الكابسية أن تنال من الاقطاعات الكبرى التي اعتادت أن تحكم نفسها بنفسها ، وكانت تحقّق الوحدة الإقليمية فيها يعارض نهضة الوحدة الفرنسية المستقبلية بعقبات رصينة . والصحيح هو أن لويس السادس أوجد وسائل

التغلب على هذه العقبات : وذلك بأث جعل الملكية قوية في داخل الدومين ، وهياً لها مساندة الاكليروس والطبقات العاملة ، وأظهر للجميع بأنها تقوم بمهمة الحفاظ على السلام والنظام ، وأعطاهما القوة المادية والجاه المعنوي ، ووضعها في موضع جيد لاستئناف الحرب مع انكلترا ، حيث حاول هنري الأول أيضاً أن يقوي السلطة الملكية .

حكومة هنري الأول في انكلترا . - لقد حاول هنري الأول ، منذ بداية حكمه ، تأكيد السلطة الملكية ، وأعاد إلى انكلترا السلام المدني والديني الذي أفسده استبداد غليوم الأشقر . وبالتالي ، ان مايميز قبل كل شيء حكومته هو هذا الجهد السعيد عموماً لتجسين إدارة المملكة وتوضيح التشريع الانكليزي . وإذا كان غير صحيح اعتبار هنري الأول منشئاً للحريات الشهيرة التي انتظرت زمناً طويلاً ، فقد كان له الفضل ، على الأقل ، في تعديل الحكم الملكي المطلق بادخال قواعد دقيقة في عمل الحكومة . فاليه يرجع تنظيم القصر الملكي الذي بدأ بالتنوع في اختصاص الادارة القضائية والادارة المالية . فمن جهة ، تشكلت لجنة من البارونات تمارس إشرافاً حقيقياً قضائياً وتخول في الكونتيات قضاة مكلفين بالاستئناف وبفرض فقه القصر الملكي على المحاكم المحلية . ومن جهة أخرى ، عهد بالادارة المالية إلى عدد من المستشارين . ويؤلف هؤلاء مجلس المالية حيث يجلس مدير الخزانة والقائد الأعلى للجيش وموظفان من الديوان الملكي وعدد من الاكليركين يكون أحدهم مقرواً ويحرر تقريراً لكل جلسة . ويرأس الملك مبدئياً الجلسات القضائية والمالية . ولما كان مضطراً إلى التغيب بسبب مشاغله القارية ، فقد كان يقوم مقامه قاض نائباً عنه ، وأخذ هذا النائب أهمية كبرى في عهد غليوم الأشقر . ووجد أيضاً في نورمانديا خمسة قضاة ، وكان أحدهم ، أسقف ليزيو ، يتمتع بتفوقه على الآخرين ،

ويقوم بدور نائب عن الدوق، والآخرون قضاة متنقلون أو مستشارون في مجلس المالية .

ويمكن القول أن الأطر الادارية في انكلترا العصر الوسيط قد ثبتت في عهد هنري الأول ونشأ عن ذلك ضبط في ممارسة القضاء وفي جباية الضرائب وجدد جهاز الموظفين في الوقت نفسه : فمن ذلك أن الشرفاء في الكونتيات ، الذين يؤخذون من بين الارستقراطية النورماندية الصغيرة كانوا يطبقون القانون بشدة ، وباعتدال أيضاً ، ويتكيفون في الغالب مع التعاملات النورماندية ، وقد أوجدوا على هذا النحو نوعاً من وحدة قضائية بين مختلف أقسام المملكة . وبهذا الاعتبار أسهم حكم هنري الأول كثيراً في صهر الدومينات الواقعة على جهتي المانش ، مفضلاً بالتدريج القانون النورماندي على حساب القانون الانكليزي . وفيما يتعلق بالضرائب كانت اصلاحات هنري الأول أقل عمقاً . ففي الميثاق الذي نشره غداة تسنمه العرش ، أعلن عن نواياه العادلة والمعتدلة ، ولكن لا يبدو انه تمسك بوعوده . إن الضرورات القاربة اضطرته أن يجبي ضريبة الخراج بنفس الشدة التي كانت في عهد أسلافه ، وأن يطلب مساعدة أثقلت كاهل الطبقات العاملة . غير أن مشاغله الضريبية حملته على تشجيع النهوض الصناعي والتجاري . أليس في إغناء المدن خير وسيلة لتغذية الخزانة الملكية وبالتالي جعل الرسوم التي تفرض عليها أكثر فائدة ! ويبدو أن هذا هو السبب الذي حمل هنري الأول على تشجيع نمو النظم البلدية في المدن الانكليزية . فقد كان عدد هذه المدن قليلاً في بداية القرن الثاني عشر . وكانت الأماكن المحصنة القديمة أو التجمعات التي تشكلت حديثاً حول القصور النورماندية « الأبراج » ، في ذلك التاريخ ، لاتضم إلا عدداً صغيراً من السكان . وكان من صالح التاج تشجيع توسعها بسبب الموارد

التي يمكن أن تنتجها . ولذا فإن هنري الأول تسامح بتشكيل حكومات بلدية حسب صيغة ميثاق بروتوي النورماندي الذي تبنته كثير من المدن الانكليزية دون أن يعارض التاج في ذلك . وكذلك شجع « أصناف التجار » ، وشجع بالتالي النمو الاقتصادي . وحصلت لندن خاصة على بعض الامتيازات التي يجب ألا نبالغ في أهميتها ، ولكنها كانت في أصل نهوضها في المستقبل .

تطور الملكيتين الطبسية والادفلية - النورماندية

من ١١٣٥ إلى ١١٥٤

وفاة هنري الأول (١ كانون الأول ١١٣٥) ولويس السادس (١ آب ١١٣٧) - لقد توفي هنري الأول في ١ كانون الأول ١١٣٥ وتبعه لويس السادس في ١ آب ١١٣٧ . وإذا لم يؤد خلافتها إلى إي نتيجة ملموسة فإن قوى الملكتين زادت بشكل محسوس وسجلت السلطة الملكية في كل منها تقدماً حقيقياً . ويبدو أن مستقبل المملكة الكاسبية ، عند وفاة لويس السادس ، كان لامعاً بسبب النجاح الدبلوماسي الذي أحرزه .

زواج الأمير لويس آلينور اكيثانيا . - في نيسان ١١٣٧ كان دوق اكيثانيا ، غليوم العاشر ، في الحج في شنتياق (القديس يعقوب في كومبوستيل) . وقد شعر بقرب منيته فرجا البارونات الذين يحيطون به أن يعهد بدوقيته وابنته آلينور إلى ملك فرنسا ، سيده ، ليخطب هذه الأخيرة لابنه . وهكذا كان . فقد قبل لويس السادس عرض تابعه وأرسل بالخال لويس الشاب إلى الجنوب يصحبه حرس فخم ونخص بالذكر أب دير القديس - دوني ، سوجر . وذهب الموكب إلى بورديو واحتفل بالزواج في آخر تموز ١١٣٧ عند وفاة لويس السادس . وعلى هذا النحو

بما الدومين الكاسبي بمناطق : بواتو ، ليموزن ، اوفيرن ، بيريجور ،
بورردوليه ، آجونييه ، وغاسكونيا . وأفتتحت آفاق كبرى نحو الجنوب
في فجر الحكم الجديد .

خلف هنري الأول . - وفي انكلترا كان العكس ، لأن البلاد
كانت على أهبة الحرب الأهلية . فقد هلك بن هنري الأول ، غليوم
آدولن ، عام ١١٢٠ ، في حادث غرق السفينة « بلانش - نيف » وكان
الملك مشغولاً بمستقبل دوله . وفي سنة ١١٢٦ عرف الناس بأن وريثته ابنته
ماتيلد ، أرملة الامبراطور هنري الخامس ، التي تزوجت ثانية بالشاب
جوفروا بلانتاجونييه ، الابن البكر لكونت أنجو فولك الخامس . ومن
هذا الزواج أتاه في ١١٣٣ ولد ، هنري (هنري الثاني في المستقبل) ،
ولكن الأمير الفتى كان عمره سنتين عندما توفي جده . وكان من الواضح
ان يرجع انتخاب الملك الجديد بخاصة إلى إرادة البارونات .

ايتين ملك انكلترا . - لم تحكم انكلترا في الماضي امرأة ولم تكن
أرملة هنري الخامس مسماة لتوجد سابقة : كانت متغطرة متكبرة ،
مستبدة ، منفرة ، وقد أخطأت في نظر الانكليز بزواجها من شاب من
القارة ، آنجفي ، ولم يرض البارونات به ليحكم باسم زوجته . ولذا لم
تحترم إرادة هنري الأول : وعندما ذهبت ماتيلد مع أخيها ، الدعي
روبيرت غلوسستر ، إلى نورمانديا حيث توفي هنري الأول ، لتحضر جناز
أبيها ، نادی بورجوازيو لندن وبعض البارونات ملكاً ايتين ، بن كونت
بلوا ، ايتين - هنري ، ومن جهة أمه آديل ، حفيد غليوم الفاتح .
كان هنري الأول قد تبنى ايتين قبل أن يأمر البارونات بانتخاب
ابنته ، وربما فكر بان يورث تاجه إلى ابن أخته . ولاشك في أن هذا
الأخير بايع ماتيلد في عيد الميلاد ١١٢٦ مع الأمراء الآخرين ، ولكن

على ما يبدو أن هذه اليمين لم تضايقه كثيراً . فقد كانت له شعبية كبرى بين الانكليز في عيشه معهم وظهر مجاملاً للبارونات و كريماً مع الكنائس . وما كاد يعلم بموت الملك ، إلا وترك ماتيلد تقوم بواجباتها الأخيرة نحو أبيها ، وهرع إلى لندن حيث نودي به ملكاً وتغلب على تردد مطران كانتوربري وتوج في وستمنستر في ٢٣ كانون الأول ١١٣٥ وسلمه روجر سالزبوري مفاتيح الخزانة الملكية .

وفي القارة ، شابت نورمانديا ايتين، وأصبح بإمكان هذا الاعتماد على مساندة أخيه تيبو بلوا - شامبانيا الذي أسعده أن يجد مساعدة انكليزية له في نزاعه ضد منطقة آنجو . وكذلك تخلى كونت غلوسستر نفسه عن أخته ولم يبق لماتيلد إلا ملك ايكوسيا ، دافيد الأول ، اخو اديث ، زوجة هنري الأول الأولى . ورأى هذا الأمير خاصة في نزاع وراثة الملك في انكلترا فرصة موالية لاجتياح مملكة نورمبولاند القديمة التي ما برح الملوك الايكوسيون يطالبون بامتلاكها .

حكم ايتين . - لم يفد ايتين من الظروف المواتية التي أحاطت تسنمه العرش . فقد كان مجرداً من التبصر بعواقب الأمور ، وخيل إليه أن منع بعض الامتيازات للبارونات والاكليروس يكفي لتوكيد سلطته : ولذا دشّن عهده بميثاق يؤيد الحريات الانكليزية وينمي سلطات الكنيسة وخاصة فيما يتعلق بالقضاء . رأى أن يهديء ملك ايكوسيا ، دافيد ، بالتخلي عن بعض المدن لابنه ، هنري ، الذي أقسم له بيمين الطاعة . وفي العام ١١٣٧ اقتنع بأن هذه التدابير أمنت السلام على أسس صلبة وذهب إلى القارة ليطالب ملك فرنسا بالاعتراف به وينهي المشكل مع جوفروا بلانتاجونيه ، كونت آنجو ، وزوج ماتيلد ، الذي اجتاحت نورمانديا واستطاع

ايتين أن يحصل على مشابعة الملك الذي قلد نورمانديا إلى ابنه أوستاش ، وأن يرم هدية سنتين مع جوفروا ، وتعهده له بدفع مبلغ مائتي ألف مارك فضي سنوياً . وكان عليه أن يبقى ما استطاع بعض الوقت في دوقيته حيث ما انفك أنصاره وخصومه يتجابهون ، ولكنه اضطر قبل آخر سنة ١١٣٧ إلى الرجوع إلى انكلترا ليقمع ثورة هونغ بيغوت وبودون روفير .

معارضة البارونات ، - لم تبد العملية أي صعوبة ، ولكن الاستياء لما في بحر العام ١١٣٨ : فقد أخذ على ايتين الافاضة بالانعام على محظيه وتوزيع الألقاب والمناصب والدومينات عليهم ، وإعاشة جيش من المرتقة الفلاماندين حوله ، وإظهار سوء ظنه بالانكليز . وقام روبرت غلوسستر على رأس الثائرين في الجنوب والغرب واستطاع أن ينظمهم بسهولة ، لأن ايتين بعد أن تصالح مع البارونات سمح لهم بتحصين قصورهم ، وفي هذه الأثناء اجتاح ملك ايكوسيا دافيد النورمبولاند .

ومع ذلك أخفقت الحركة ، لأن ايتين حمل على الايكوسيين وتغلب عليهم في واقعة الواية وأجبرهم على العودة إلى بلادهم ، ثم أطبق على المتمردين وأعاد النظام إلى مجراه واسترجعت السلطة الملكية ، لولا أن اخطاء جديدة أفسدها .

معارضة الكنيسة . - وأكبر خطأ ارتكبه ايتين اساءته إلى الكنيسة التي كان مديناً اليها بوصوله إلى عرش انكلترا . ففي حزيران ١١٣٩ اوقف روجر سالزبوري بعد أن شك في اخلاصه وأخذ عليه قوته المفرطة . والواقع أن دور روجر كان أساسياً في عهد الحكم السابق وحاسماً بعد وفاة هنري الأول ، ثم لما نفوذه . فأراد الملك أن يضرب هذه القوة الناشئة قبل أن تصبح خطرة على التاج ، واستولى على قصوره وعلى أصحابها ، فارتكب بذلك خطأ كبيراً . وحاول أن يقنع الرأي العام

بأنه هاجم البارونات الاغنياء غنى فاحشاً ولم يهاجم الأساقفة . وكرهته الكنيسة ، حتى ان المفوض الحبري ، هنري أسقف وينشستر ، الذي كان تأثيره لا يقل عن تأثير روجر سالزبوري ، وقف ضده .

وفقد ايتين شعبيته في نظر الارستقراطية ، وتخلي عنه الاساقفة ، وأصبح في وضع لا يمكنه من المقاومة في اليوم الذي تثبت فيه ماتيلد حقوقها في التاج .

الحرب الأهلية في انكلترا (١١٣٩ - ١١٤١) . - لقد وجدت ماتيلد بعض البارونات الذين دعوا إلى انكلترا ولكنها لم تحصل على أي نتيجة حاسمة ، ثم لاقت بعض النجاح الذي فتح لها أبواب لنكولن نوتنغهام ، او كسفورد ، لندن (حزيران ١١٤١) .

ولكن هذا النصر لم يدم طويلاً ، لأن ماتيلد ارتكبت أخطاء ايتين نفسها : رفضت ان تعترف بقوانين ادوارد ، وصاشرت أموال الكنيسة ، وأبعدت الأسقف هنري وينشستر فأثارت استياء الاكليروس الأعلى . كما اساءت إلى اللوندنيين بسحقهم بالرسوم . وظهر حكمها استبدادياً كحكم ايتين . ثم أن فظاظتها المتكبرة حيال زوجة منافسها ، ماتيلد بولوني جعلت آخر من بقوا معها ينفذون من حولها . واستمرت الحرب الأهلية . وفي ٢١ حزيران ثارت لندن وأجبرت الامبراطورة على الانسحاب العاجل إلى او كسفورد . ومن جهة أخرى ، أعلن المندوب الحبري ، هنري وينشستر ، صراحة ورسمياً عن عداوته الصريح للنظام الجديد . ثم تطورت الحال لصالح ايتين الذي عاود الهجوم وساندته كونتيات الشرق بينما ظل الغرب أميناً لماتيلد . وأخيراً في العام ١١٤٧ ، بعد موت روبرت غلوسستر ، تخلت ماتيلد عن كل شيء وعادت إلى القارة .

فتح جوفروا بلاتاجونيه لنورمانديا . - وبقي ايتين ملكاً وحيداً على انكلترا ، ولكن وضعه فيها كان ضعيفاً . وخزجت نورمانديا من يده : وعندما كان يناضل ماتيلد ، فتح جوفروا بلاتاجونيه هذه الدوقية . ومنذ ذهب ايتين في العام ١١٣٧ كانت البلاد فريسة الحرب الأهلية . وحافظ المدعيان على انصارهما ، ولكن حتى ١١٤١ اكتفى جوفروا بأن يدعم ، ببعض الغارات المنعزلة ، البارونات الذين كانوا إلى جانب ماتيلد . ثم أخذ يفتح المدن واحدة بعد واحدة ، وفي أيار أو حزيران ١١٤٤ أخذ جوفروا لقب دوق نورمانديا ، واعترف به ملك فرنسا دوقاً مقابل تخليه عن جيزور . وفي السنوات التالية نظم الدوقية ، واحترم النظم النورماندية القديمة ، وفي خريف ١١٥٠ سلمها إلى ابنه هنري ، وكان عمره سبعة عشر عاماً .

انكلترا ونورمانديا في منتصف القرن الثاني عشر . - وبفضل نشاط جوفروا بلاتاجونيه خرجت نورمانديا من يد ايتين . وحكم في هذه المدة أيضاً على دولة غليوم الفاتح بالتجزئة . ان خمسة عشر عاماً من المنازعات السلالية أبادت عمل التنظيم الصابر الذي حققه هنري الأول ، وولدت الحرب الأهلية الفوضى والدمار . وفي نورمانديا ، كان البارونات مقسمين بين ايتين وماتيلد ، وعادوا حياة الاستقلال ، حتى ان جوفروا لاقى مشقة عظيمة في كبسج جماعهم . وفي انكلترا ، فقد الملك كل سلطة على الكنيسة التي حققت استقلالها الذاتي ، بينما غطى البارونات البلاد بالقصور واغتصبوا الحقوق الملكية واثقلوا سكان الارياف بظلمهم وطغيانهم . وباختصار ، ان الازمة السلالية الطويلة ، التي تلت وفاة هنري الأول ، أدت إلى ضعف سياسي واقتصادي جعل انكلترا في حالة صغار حقيقي وانقص قوة مقاومة نورمانديا .

لويس السابع ملك فرنسا . - ويبدو أن الملك الكاسبي أفاد من هذا الوضع . ولا شك في أن فيليب الأول ولويس السادس كانا يتوقبان الفرص المواتية لذلك ولم يقصرا في الافادة . غير أن لويس السابع لم يبرهن على مثل هذه المهارة . كان عمره ست عشرة سنة عند وفاة أبيه ، وكشف منذ بداية حكمه عن طبع ضعيف ، متردد ، مستعد للانحناء أمام إرادة قوية ولو قليلاً . لقد رضع أولاً لنفوذ أمه ادبلايد سافوا ، ولنفوذ الاكليركيين الذين ربوه ، وأخيراً إلى نفوذ الملكة آلينور التي أحباها ، كما يقول المؤرخون « حباً مفرطاً » . واضطرت ادبلايد أن تغادر البلاط ، ورأى الأب سوجر بسرعة أن نفوذه على الملك الشاب لا يمكن أن يمنع الاخطاء السياسية التي يوحى بها طيش الملكة التي لا يساوي طبعها مهرها .

دور آلينور اكيثانيا . - لقد قضت آلينور شبابها في وسط لم تلمح فيه النساء بشدتهن ، وتأثرت بذلك ، واتحدت فيها الحقة الشهوانية بالزهو الغنج . كانت عذبة ظريفة ولا تجهل أي تكلف أو اصطناع تستطيع أن تسيطر به على هذا الأمير الذي لا يعرف شيئاً عن الحياة ، وإن تفرض نفوذها عليه ، ودام هذا النفوذ إلى اليوم الذي عرف فيه لويس السابع شخصياً طيشها واستهتارها . أما في الوقت الحاضر فالملك على استعداد لأن يضحي بذوقه وتفضيله لهواه الجنوني . لقد كان من عادته أن يحترم الكهان وإن يحيطهم به ويسألهم النصيح . وكان نفسه تقياً جداً موسوساً مهتماً بتكليف حياته طبقاً لتعاليم الانجيل . وكانت الينور على عكس ذلك تماماً : فقد اعتادت في بلاط إكيثانيا على الضحك من الاكليركيين وعدم إطاعة أوامر الأساقفة . ولما انتقلت إلى القصر الكاسبي شعرت بسرعة أنها غريبة ، وبفضل سحرها وجاذبيتها اضطرت

الملك أن يتخذ حيال الاكليروس موقفاً لا يتجاوب مع عواطفه الشخصية .
 نزاع لويس السابع مع الكنيسة . - لقد تميزت بداية حكم لويس
 السابع بخلافه مع الكنيسة التي جعلها أبوه لويس السادس حليفاً للتاج .
 ففي رنس ١١٣٩ وسانس ١١٤٦ ، دعم الملك القومونات القائمة في وجه
 مطارنتها . وفي بروج (١١٤١) أراد أن يعاكس منتخب الكهنة
 ويضع اكليركياً من رجاله بأي ثمن . وتدخل البابا ايثو سانت الثاني
 للدفاع عن الحريات الكنسية ، وبعد أن خول الوشاح للمنتخب النظامي
 منع الاحتفال بالعبادة حيث وجد لويس السابع . واستمر الملك في
 عناده ، وشجعه آلينور على المقاومة ، وكانت تحقد على الكنيسة لأسباب
 شخصية : وذلك أن أختها ، بتروني اكيثانيا ، تزوجت السيشال رؤول
 فرماندوا . ولابرام هذا الزواج الذي باركه أساقفة لان وسانليس ونويون
 طلق زوجته الشرعية ، وتسمى آلينور أيضاً وهي ابنة أخ كونت شامبانيا
 تيبو الرابع . واحتجت الزوجة المهجورة ، وجاء مفوض حبري خصيصاً
 إلى فرنسا والغى زواج رؤول وبتروني ، وأمام ثورتها المشتركة على
 مقرارات الكنيسة حرمها وضرب أراضي كونت فرماندوا بالمنع .
 ودعم لويس السابع رؤول ارضاء للملكة ، وهذا العمل منه غير سياسي
 لأنه اصطدم في آن واحد مع الكرسي الأقدس والكونت تيبو الرابع
 الذي أخذ بناصر ابنة أخيه وقدم ضيافته للمفوض الحبري المكلف بإعلان
 قرار الحرمان .

حرب الشامبانيا . - وفي ١١٤٢ ، وبايحاء من آلينور أعلن الملك الحرب
 على تيبو الشامبانيا وأحرق فيتري حيث هلك ألف وثلاثمائة شخص في الهبوط
 ولم يكن هذا العمل الشاذ بالذي يرفع جاه الملك في أعين الكنيسة والبابا ،
 بل أثار استياءهما كما حرك وسامه لأن هواه لآلينور لم

يطفىء عاطفته الدينية ، ولذا لم يستطع مقاومة ضميره ، وأدرك الاخطاء التي ارتكبها بحق الكنيسة والمملكة وبعض الاقطاعيين من أنصاره ، وتقبل قبولاً حسناً اقتراحات السلام التي عرضها عليه القديس برنار .

السلام مع كونت شامبانيا والكنيسة . - كان القديس برنار في هذا الظرف وسيطاً وحكماً : فقد أثر على الملك وكونت شامبانيا والبابا ، واستطاع بعد مفاوضات حثيثة أن يوطد السلام المدني والديني . جعل بادىء بدء تيبو الرابع ولويس السابع يوقعان في ١١٤٣ معاهدة فيتري التي لم تصبح قطعية إلا في السنة التالية بعد أن أدت توسلات هذا الراهب السيستوسي الذي لا يقاوم بالملك والمملكة إلى الخضوع إلى متطلبات الكنيسة : فقد قبل لويس السابع أن يتخلى عن رؤول فرماندوا وان يعترف ببطرس شاتر ، منتخب الكهنة ، مطراناً لبورج ؛ وتعهد منذ الآن أن يقف أثناء الانتخابات الأسقفية عند الامتيازات التي تعترف بها القوانين له . ويبدو منذ قضية فيتري ان نفوذ آلينور على الملك أخذ يعادله نفوذ الكليركيين ، وان الوسوس الدينية ولدت سياسة جديدة .

الحرب الصليبية الثانية . - وفي يوم عيد الميلاد ١١٤٥ ، في بورج ، أعلن لويس السابع إلى بلاطه بأنه قرر الذهاب إلى الأرض المقدسة لينجذب الدول المسيحية بعد أن سقطت الرها وجعلت الموقف حرجاً . وفي ١١٤٧ تابع هذا المشروع الذي عبر عنه بالافخاق ، وكان محذوره أن جعل الملك ينسى الحوادث التي جرت في غرب المملكة . إلا أن السلام ، على الأقل ، ظل مخيماً في غيابه بفضل حكمة الأب سوجر الذي عهد اليه الملك بالوصاية قبل سفره .

حكم سوجر . - ولم يكن في وسع لويس السابع أن يختار أفضل من هذا الأب الحكيم . نشأ سوجر في وسط متواضع ، وتثقف

ثقافة واسعة ونفقه في الادارة في دير القديس - دوني وما لبث أن أصبح له أبا في ١١٢٢ . ورغم انتقاد القديس برنار لسو جر ، لا يسعنا إلا أن نعتز بالخدمات الكبرى التي قدمها للدير : فهو الذي عمر الزماني فيه بادارة عاقلة حكيمة يجتمع فيها القلق في تخفيف تكاليف فلاحي الدومين والاهتمام الدائم بالا يترك أي مورد يفر من يده . وفوق ذلك رفع ووسع الكنيسة القديمة التي هددت بالخراب ، وجلب إلى القديس - دوني الفنانين اللانغدوقيين والبورغونيين والفلامان . وحتى ١١٤٧ لم يساهم بحكم المملكة إلا قليلاً : فقد عهد اليه لويس السادس بعدة مهمات لدى البابا وكلفه بتربية ابنه ، ومن ١١٣٧ إلى ١١٤٧ ابعده كراهية آلي نور له عن شؤون المملكة خوفاً من تأثيره على الملك ، ولكن لويس السابع كان يتق به حتى بدا له ، عند ذهابه للحرب الصليبية ، رجلاً ضرورياً للحفاظ على السلام في داخل المملكة .

وقام سو جر بهذه المهمة باعجاب ، ومع ذلك لم توفره الصعوبات ، ولكنه استطاع أن يتغلب عليها بالاعتماد على مجلس من الاساقفة والبارونات ، وقدم بذلك خدمة حقيقية للملكية . وفي الوقت نفسه استطاع ، بفضل تنظيمه المالي ، أن يؤمن حاجات الحرب الصليبية دون أن يضغط على أحد . وعندما عاد لويس السابع إلى فرنسا في عيد جميع القديسين ١١٤٩ وجد الحالة أحسن مما تركها ، ولكن موت سو جر (في ١٣ كانون الثاني ١١٥١) المفاجيء ، في الوقت الذي افتتحت فيه أزمة بالغة الخطورة ، كان نكبة للمملكة .

لويس السابع والقضية الأنغلية - النورماندية . - ولم يعرف لويس السابع كيف يجنب هذه الأزمة . إن الخلاف مع الكنيسة ،

والنزاع مع تيبو الرابع ، والحرب الصليبية الثانية ، لم تحول نظره عن القضية الأنغلية - النورماندية التي سيطرت حتى الآن على السياسة الكابسية . ونظراً لانصرافه نحو أهداف أخرى ، لم يعرف كيف يفيد من الحرب الأهلية التي قامت عند موت هنري الأول . ولا شك في أنه كان يشعر بضرورة الحيلولة دون اتحاد الأنجو و نورمانديا . وغداة جلوسه على العرش ، عام ١١٣٧ ، قبل الاحترام الذي قدمه اليه اوستاش الابن البكر لآيتين ، بغية اخفاق ماتيلد . ولكنه لم يدعمه بمجد وترك جوفروا يفتح نورمانديا ، وبأخذ لقب دوق في ١١٤٥ . وبالرغم من تعهداته لاوستاش ، صادق على الأمر الواقع مقابل التنازل عن جيزور ، لأنه كان ، في ذلك التاريخ ، يفكر في الذهاب إلى الأرض المقدسة . وعند عودته ، أبدى بعض الاستياء ، لأن ابن جوفروا ، هنري ، تأخر في تقديم احترامه من أجل نورمانديا ، ولأن جوفروا في أيار ١١٥١ سجن في آنجيه صديقه جيرو برليه ، أمير مونتروي - بيليه ، ولكنه اقتصر على التهديد واكتفى بأن يقسم هنري له اليمين ، وان تترك له بعض المناطق في الفيكسان ليوقع مع جوفروا السلام الذي وضعت بفضل آخر معالم الامبراطورية الأنجفية .

تشكيل الامبراطورية الأنجفية . - توفي جوفروا بلانتاجونية في ٧ ايلول ١١٥١ وخلفه ابنه هنري في اقطاعه ، وحقق بذلك اتحاد أنجو مع نورمانديا التي قلد إدارتها . وأضاف الأمير الشاب إلى هذين الاقليمين في السنة التالية ، دوقية اكيثانيا . إن انحراف سلوك آلينور ، التي أخذها لويس السابع معه إلى الحرب الصليبية الثانية ، أثار غيرة الملك ، وعند عودته فكر بالانفصال عنها . وقد سبق للقديس برنار ان كشف عن روابط القرابة التي تجعل هذا الزواج حراماً . وفي مجمع بوجانسي

فسخ الزواج ، فتقدمت آلي نور بشخصها ومهرها إلى هنري بلانتاجونيه الذي ستصير إليه انكلترا أيضاً .

فاهر الملك ايتين السادسة والستين من عمره وظلت سلطته ضعيفة . وبقيت الكنيسة معادية له ، وكان مجموع السكان يطالب بأن يعطى لأمير يعرف كيف يحكمه ويبعث السلام في النظام . وهذه الكراهية العامة لم يكن من شأنها إلا أن شجعت مزاعم ابن ماتيلد بالتاج الانكليزي . وفكر ايتين بالخطر : وفي ١١٥٢ حاول أن يشارك ابنه الخاص ، اوستاش ، بالملك ، ولكن الأساقفة قابلوه برفض رسمي صريح . فرأى هنري بلانتاجونيه في ذلك دعوة للاستيلاء على التاج : وفي كانون الثاني ١١٥٣ نزل في انكلترا يصحبه حرس عديد ، ولم يحصل مع ذلك على المشايعة المباشرة والاجماعية التي أمل بها . ولكن ، بعد موت اوستاش ، بن ايتين ، تطورت الحالة لصالحه . وارثاى البارونات عندئذ أن يوقع ايتين معاهدة ويللنغفورد ، وبوجها تبنى هنري واعترف به وارثاً له . ثم توفي الملك العجوز وخلفه هنري الثاني بلانتاجونيه دون أقل نزاع . وتألفت الامبراطورية بصورة قطعية . وهكذا تشكلت دولة واسعة قوية مغيرة للدولة التي شادها غليوم الفاتح . ومقابل المملكة الكابسية التي أخذ يرتسم أمامها في العام ١١٣٧ المستقبل المشع قامت في العام ١١٥٤ امبراطورية كبرى ضمت انكلترا إلى دومين قاري واسع . وفي أقل من عشرين عاماً تبدلت الحالة تماماً ، وسيأخذ التنافس الأنغلي - الفرنسي الناشئ عن فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح ، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر ، حدة متزايدة . وعرف هنري بسرعة كيف يعيد بناء انكلترا بعد أن أضعفتها الحرب الأهلية . ومن جهة أخرى ، إذا كانت بداية حكم لويس السابع أدت بالكابسين إلى تراجع أرضي ، فان القوى التي أوجدها فيليب الأول ولويس السادس بقيت سليمة وسيعرف فيليب اوغست كيف يستعملها .

العصر الوسيط (٥٢)

الفصل الثاني والثلاثون

الحرب الصليبية

تكوين فكرة الحرب الصليبية

مشروع الحرب الصليبية . - إن الخلافات الدينية والسياسية التي قسمت الغرب الأوربي ، في آخر القرن الحادي عشر ، لم تمنع بقاء الوحدة المسيحية وتوحيدها أمام الاسلام ؛ وان الحملة ، التي أدت في العام ١٠٩٩ إلى أخذ القدس ، على أيدي الفرسان الغربيين ، كانت تضم ، تحت ادارة البابوية ، فرنسيين وألمانيين ونورمانديين وانكليز واسبانيين ؛ وبينما كان نزاع الكهنوت والامبراطورية يدور في المانيا وايطاليا ، والكابسيون في الغرب يتجهون مع الملوك الأنجليين - النورمانديين ، اهتز البارونات والجمهير الشعبية ، ولبوا نداء الحبر الروماني ، واندفعوا نحو الشرق لحرب الاسلام في ملحمة كبرى سميت الحرب الصليبية الاولى.

ولم يكن هذا المشروع الكبير ، كما ظن أحياناً ، ثمرة حماسة عفوية ، أو اندفاعاً مباشراً ، بل ظهر ، على العكس ، نتيجة مخاض نشيط ، ومن المهم ، قبل كل شيء ، أن نرسم مراحل المتابعة .

القضية الاسلامية في القرن العاشر . - لم يثر فتح البحر المتوسط على أيدي المسلمين في القرن السابع والثامن من جانب العالم الغربي رد فعل مباشراً . وظلت الدول المسيحية ، حتى منتصف القرن الحادي عشر

تدافع بشقة عن مواقعها دون أن تحاول استرداد الاراضي التي فقدتها ، وتلاومت مع الوضع المتصاغر الذي نجم عن النكبة الكبرى ، واكتفت بتسوية لارضاء تقوى المؤمنين . ولم يمنع هذا الوضع الحج إلى الديار المقدسة ، وتسامح به المسلمون فكثروا في القرن العاشر . وبما لاشك فيه أن الحج لم يحل من كل خطر . ولكن أليس في ركوب الاخطار وسيلة للسلام ؟ لقد كان طريق فلسطين يعج بنخبة الحجاج المسيحيين ممن يهتمون بتقديسهم الشخصي ، وبكبار المحرمين الذين يجدون في التوبة وسيلة للعفو .

إن فكرة الذهاب إلى الأرض المقدسة وتخليصها من أيدي المسلمين لم تخامر فكر الغربيين في القرن العاشر ولا في القسم الأعظم من القرن الحادي عشر . وكان يبدو أن الاغريق وحدهم أهل للقيام ببادة الاسترداد وتخليص الاراضي المقدسة من أيدي المسلمين . غير أن الواقع دل على أن الهجوم على العالم الاسلامي ، من قبل الدول المسيحية ، قد أتى من البلاد الواقعة حول البحر التيراني : فمن ايطاليا وبروفانس واسبانيا ، تلقى الاسلام هجمات الأمراء المسيحيين الغربيين ، ولم تكن الحرب الصليبية ، في آخر القرن الحادي عشر ، إلا امتداداً في الشرق للنزاع الذي جرى في أشباه جزر غربي المتوسط .

فتح النورمانديين لصقلية . — لقد لعبت القضية الاسلامية ، كما رأينا ، دوراً هاماً وأساسياً في السياسة الايطالية في القرن العاشر . ولا شك في أن النفوذ الاسلامي ، بعد معركة غاريليانو (٩١٥) وسقوط فرينيه (٩٧٢) ، قد زال من ايطاليا القارية وبروفانس ، ولكنه تماسك طويلاً في صقلية واضطر الاغريق إلى الانسحاب . وحتى

منتصف القرن الحادي عشر اجهضت جميع المحاولات لاسترداد الجزيرة . وكانت نكبة رأس كولون خاتمة الحملة التي قام بها في العام ٩٨٢ اوتون الثاني . ومن جهة ييزنطه لم يكن الحصي جان ، في العام ١٠٣٥ ، أسعد حظاً عندما حاول اقتلاع صقلية من سلطة المسلمين . غير أن استقرار النورماندين في ايطاليا الجنوبية فتح دوراً لحرب الاسترداد : ففي ١٠٦٠ عبر روجيه غيسكار مضيق مسينا ، فرد على أعقابها ، ثم جدد جهده في شباط ١٠٦١ فباء بالخيبة . وعندئذ أدرك صعوبات المشروع وعدم كفاية التعبئة ، وبمساعدة أخيه روبر استولى على مسينا في صيف ١٠٦١ . وبفضل هذه النقطة الصلبة استطاع أن يتوغل في داخل الجزيرة عندما دعاه أمير سيراكوزة ، ابن الثمنة ، وكان في حرب مع أمير جيرجاني ، ابن الحواس ، والتحم مع هذا الأخير في معركة غير فاصلة أمام كاسترو - جيوفاني وعوض نفسه عن هذا النصر المزيّف بنهب جيرجاني . ولكن مقتل ابن الثمنة ، في ١٠٦٢ ، حرّمه من حليف ثمين ، وردّه ، خلال فترة من الزمن ، إلى دور الدفاع . وفي العام ١٠٦٣ حاز نصراً مميّناً في سيراامي وتقدم في منطقة كاسترو جيوفاني . وفي ١٠٦٤ ساعده أخوه روبر من جديد وحاصر بالرمو ولم يستطع انتزاعها . وعقب هذا الاخفاق . جمد عدة سنوات . وفي العام ١٠٧١ قام الهجوم الحاسم وسقطت على اثره كاتان في تموز ١٠٧١ ثم بالرمو (كانون الثاني ١٠٧٢) . وسقط الحكم الاسلامي في صقلية ، واستقر روبر غيسكار في بالرمو وفي مسينا ، بينما احتل روجيه ، تحت سيادة أخيه ، باقي الجزيرة وانتزع بعد ذلك آخر ما تبقى فيها من المواقع الاسلامية .

الحكم الاسلامي في اسبانيا . - وعندما كان الاسلام يحلو عن

صقلية تحت ضغط النورماندين ، كان النزاع محتدماً في شبه جزيرة ايبريا ، حيث استطاع العرب ، بعد انسحابهم من غاليا على أيدي الامراء الكارولنجيين ، البقاء وتثبيت مواقعهم . وبعد دور مديد مليء بالمنازعات الداخلية أمتد طوال القرن التاسع ، أخذ يمثل السلالة الأموية عبد الرحمن الثالث في العام ٩٢٩ لقب خليفة ووطد الوحدة بين رجاله وتشكلت حول قرطبة امبراطورية متجانسة عرفت في منتصف القرن العاشر اشراقاً حقيقياً . فن ٩٣١ إلى ٩٧٤ شغل فتح المغرب وتخليصه من أيدي الفاطميين ، الخلفاء ، ولكن عندما انتهى هذا المشروع بدأ الهجوم في الشمال على المسيحيين وأخذ برشلونة في ٩٨٦ ثم ريبول في ١٠٢٧ - ١٠٢٨ ، وحول ١٠٤٥ توصلت الجيوش الاسلامية إلى قلب كاتالونيا وهددت من جديد بعبور حدود البيرينه . وتواجد هذا التقدم مع النصر على البحر ، فقد فتحت ساردينيا ، ونهبت آنتيب (١٠٠٣) ، وبيزا (١٠٠٥ و ١٠١٦) . واربونه (١٠٢٠) .

وهكذا ارتسم ، في بداية القرن الحادي عشر ، هجوم اسلامي جديد على البلاد المسيحية الغربية ، غير أن المنازعات الداخلية حالت دون الوصول إلى جني الفوائد المتوخاة . وإذا كانت عبد الرحمن الثالث (٩١٢ - ٩٦١) والحكم الثاني (٩٦١ - ٩٧٦) قوين ومحترمين ، فان ابن الثاني ، الهيثم الثاني ، لم يستطع التغلب على المقاومة التي وقفت في سبيله وقلبته في (١٠٠٩) . ثم توالى الثورات ، وتجزأت خلافة قرطبة إلى عدة أمارات متنافسة . إلا أن دولة سرقسطة حافظت بهمة المقتدر (١٠٣٩ - ١٠٨١) على قوة توسعها وشملت الإمارات التابعة في لاردة (ليريدا) ، ووشقة (هويسكا) وقلعة أيوب . وبالأجمال ، ان الامبراطورية العربية المجزأة المقسمة لم تكن على درجة من القوة التي كانت لها في زمن خلفاء قرطبة

الكبار ؛ وفي منتصف القرن الحادي عشر، كان الوقت مناسباً في اسبانيا كما في صقلية ، للقيام بحرب استردادية مسيحية .

الممالك المسيحية في اسبانيا . - ولم يكن هذا الاسترداد ممكناً دون مساعدة خارجية ، لأن شبه الجزيرة الايبيرية لا تستطيع تحرير نفسها بقواها الخاصة ، حتى ان الممالك المسيحية التي استطاعت أن تتماص لم تصرف إلا بوسائل ضعيفة وغير كافية . لقد كانت اسبانيا الشمالية في حالة تجزئة غير صالحة للقيام بمشروع عسكري . وفي القرن العاشر أصبحت بلاد بنبلونه (بامبلون) ، التي كانت في السابق داخلة في الشجر الكارولنجي ، نواة لمملكة مستقلة وامتدت على يد سانش الكبير (٩٩٤ - ١٠٣٥) على الحوض الأعلى لنهر الايبير : فقد ضم هذا الأمير العظيم إلى النافار قشتالة بعد أن انتزعها من ليون ، والاقاليم البشكنسية،البه(الافا) غويبرزكووا وبسكاي ، وكونتيات آراغون وسوبرارب . ولكن دولته ، التي كان من الممكن أن تأخذ على عاتقها توجيه الدفاع ضد الاسلام ، تجزأت بعد موته (١٠٣٥) إلى عدة امارات ضعيفة : ففي الغرب ، استعادت قشتالة استقلالها وانضمت من جديد إلى مملكة ليون المؤلفة من آستوريا ، كانتابريا جيليقية (غاليس) وبلاد برغش (بورغوس) (١٠٣٧) ، وحكم ملكها فرناند الأول الكبير (١٠٣٥-١٠٦٥) البلاد التي تمتد من نهر دويره(دورو) إلى خليج غاسكونيا ؛ وفي الشرق : الآراغون التي انفصلت عن النافار أيضاً كان مركزها بلاد جاقا(جاكا)ومنها امتدت تدريجياً،تحت حكم راميرو الأول(١٠٣٥-١٠٦٣) ، على السفح الجنوبي لجلال البيرنيه ، بينما ضم في الجنوب ، حوالي ١٠٤٥ ، السوبرارب . وبين آراغون والبحر بقي الشجر الاسباني القديم تحت اسم كونتية برشلونه ؛ وفي ٩٨٦ أدى الهجوم الاسلامي إلى سقوط عاصمتها ، وما لبث الكونت بوريل ان استعادها ، ولكن رامون

بوريل (٩٩٢ - ١٠١٨) تقاتل مع المسلمين من جديد وأصبح وجود امارته المطوقة في الجنوب والغرب من دولة سرقسطة القوية ، غير أكيد .

وباختصار ، لقد كانت اسبانيا الشمالية في منتصف القرن الحادي عشر مقسمة إلى أربعة دول مسيحية قائمة حول حوض الايبر ، وقيمها تأتي من وضعها الجغرافي على حافة اليرنيه ، وإذا ردت إلى نفسها لما استطاعت أن تعمل شيئاً ضد الاسلام . لقد كانت مجردة من كل قوة دفاعية ومن الممكن أن تغرق في حال تشكل وحدة إسلامية ، وهذا ما فهمه أبناء الجانب الآخر من جبال اليرينه حيث فكر في وقت مبكر بتقوية هذا الحصن الضعيف للبلاد المسيحية الغربية .

بوادر الحرب الصليبية في اسبانيا . - يرجع تاريخ الحرب الصليبية الاولى في إسبانيا إلى عام ١٠٦٣ . فقد تهيأت في القرن الحادي عشر بمجداث مختلفة : يأتي في الدرجة الاولى الاحلاف الزوجية التي قربت العائلات الاميرية في كلا البلدين : لقد كان سانش الأكبر (٩٩٤ - ١٠٣٥) ابن حمي سانش - غليوم ، دوق غاسكونيا ؛ وتزوج رامير الأول ملك آراغون ، حوالي ١٠٣٨ ، أميرة من بيغور ، ارميسند ، وكانت أخت هذه ، ايتينيت ، في ذلك الحين ، ملكة نافار ؛ وأصبحت ابنة رامير الأول كونتس تولوز بزواجها من غليوم ، بينما تزوج كونتا برشلونة ، رامون بوريل (٩٩٢ - ١٠١٨) و رامون بيرانغر الأول (١٠٣٥ - ١٠٥٠) باميرتين من بيت قرقشونة ، وفي الآجل ستكون آلوديس المارش الليموزينية كونتس برشلونة ، وستربع كونستانس البورغونية ، بزواجها من الفونسو السادس ، على عرش قشتاله . وأخيراً ، بين ١٠٥٠ و ١٠٦٠ ، تم زواج فيليسي ، ابنة كونت روسي هيلدون ، ابن ثان

للك آراغون ، سانش راميريز ، يمكن أن يعتبر سبباً مباشراً للحرب الصليبية الاسبانية التي كان أحد زعمائها ايبيل روسي ، ابن حمي سانش .

وهكذا نشأت علاقات وثيقة بين الممالك المسيحية في اسبانيا والاقطاعات الكبرى الفرنسية في الجنوب والشرق ، ولا غرابة منذ ذلك الحين أن تجهز هذه الاقطاعات بخاصة الفرسان الذين يكافحون الاسلام في شبه الجزيرة . وارتسمت أيضاً علاقات سياسية : ففي تشرين الأول ١٠١٠ ذهب سانش الكبير إلى مدينة القديس يوحنا آنجلي ، والتقى فيها بملك فرنسا ، روبرت التقي ، ودوق اكينانيا ، غليوم الكبير ، وكونت بلوا ، اود ، ولكن لم يكن ذلك إلا اتصالاً بسيطاً ، حتى ان آديمار شابان الذي يذكر لنا قصة هذا اللقاء لا يأتي بأي تلميح عن مفاوضات للقيام بحملة فرنسية في اسبانيا . وفي العام ١٠٢٧ رجا سانش ، في نزاعه ضد المسلمين ، مساندة ابن حميه ، سانش - غليوم ، الذي أتاحه بجيوش غاسكونية وبمساعده استطاع أن يفتح سينكو فيلاس ويوطد نفوذه في وادي الايبير . غير انه لا يمكننا أن نصف هذه العملية بحرب صليبية ، كما لا يمكن أن نعطي هذا الاسم إلى الجولة الاسطورية التي قام بها النورماندي روجيه الثاني التوني الذي هرع بعد ١٠١٨ . لنجدة الوصية على برشلونة ، ارميسند .

الحزب الصليبية الفرنسية الاولى في اسبانيا (١٠٦٣ - ١٠٦٥) . - لم توجد ، حتى منتصف القرن الحادي عشر ، حرب صليبية على سبيل الحصر . بل يلاحظ ، بعد وفاة سانش الكبير (١٠٣٥) ، بعض الهدوء في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين . فقد اقتصر خلف سانش في نافار ، غاروسيا ، على بعض العمليات التفصيلية التي ثبتت سيطرته على الحوض

الأعلى لنهر الايبو . وحاول معاصره ، رامير الأول في آراغون (١٠٣٥ - ١٠٦٣) الحصول بالدبلوماسية على امتيازات للمسيحيين في دولتي سرقسطة وتطيله (توديلا) ؛ ومع هذا ، ففي ١٠٦٣ ، ولأسباب لا تعرف جيداً عاود الهجوم على الاسلام زاحفاً على بربشتر (بارباسترو) ، ولكنه قتل بينما كان يحاصر غرادوس (أيار ١٠٦٣) .

وأثار هذا الحادث المفجع استياءً عميقاً في اسبانيا وفي العالم الغربي . وكانت البابوية أول من تأثر له ، حتى ان البابا الكسندر الثاني فكر حالاً بتنظيم حملة لدواء الخطر الذي لم يقدره الكرسي الأقدس حق قدره حتى حادث غرادوس . وتلبية لدعوة الحبر الروماني ، جمع غليوم مونتروي جيشاً في ايطاليا الجنوبية ، كما جمع الشامباني ايل روسي ، ابن حمي سانش راميريز ، جيشاً من فرنسيي الشرق وانضم اليهم نورمانديون ؛ وأخيراً هرع الاكيتانيون . وسمي دوقهم ، غي جوفروا ، فائداً أعلى لجميع الجيوش الفرنسية والاطالية . وهكذا نهى العالم الغربي تحت أمر البابا للهجوم على الاسلام ، ونشأت فكرة الحرب الصليبية .

لقد تجاوز نجاح الحملة كل أمل . وفي ربيع ١٠٦٤ نفذ الاكيتانيون إلى وادي الايبو وانضموا إلى غليوم مونتروي وذهبوا لحصار بارباسترو ودخلوها في آخر تموز ١٠٦٤ . وإذا سلمنا بما تقوله المصادر الاسلامية ، وجدنا أن انتصارهم قد تلطخ بكل أنواع الشطط . ومما تكن قيمة هذا الحكم فالصحيح هو أن الغنائم التي كسبها الصليبيون كانت كثيرة ، وان الصليبيين الذين بقوا لحماية الموقع استسلموا بسهولة لحياة البذخ التي لا تتفق وتعاليم الاخلاق المسيحية . وفقدوا على هذا النحو قوة كفاحهم وأصبحوا في حالة لا تمكنهم من الصمود أمام هجوم اسلامي معاكس .

وهكذا عادت المدينة فسقطت في أيدي المسلمين ، وانتهت الحرب الصليبية الايبيرية الاولى ، رغم بدايتها الطيبة ، بالاخفاق .

أخذ طليطلة على يد الفونسو السادس (١٠٨٥) . - وفي السنوات التالية ضعف وضع المسيحيين الاسبانيين . ولكن فكرة تخلص شبه الجزيرة من السيطرة الاسلامية ، بمساعدة الفرسان الفرنسيين ، ظلت مستحكمة دوماً . ان زواج الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، من كونستانس ، أخت هونغ ، دوق بورغونيا ، أثار ، في ١٠٧٩ ، الأمراء البورغونيين وقادهم هونغ بنفسه . وفي آراغون كان سانش - راميريز (١٠٦٣ - ١٠٩٤) ، بعد ضم النافار إلى مملكته (١٠٧٦) ، تخامره فكرة الاسترداد ولم يكتم ألمه : ففي ١٠٧٣ ، دعا من جديد ابن حميه ايل روسي ولم يتوصل هذا إلى نتائج ذات أهمية . وفي ١٠٨٠ استؤنف النزاع ، وماقتئت البابوية تشجعه في عهد غريغوار السابع والكسندر الثاني ، وعهد في هذه المرة بإدارة الهجوم إلى قاهر بارباسترو ، غي جوفروا ، دوق اكيثانيا . ولا يعلم على وجه الدقة الميزان الصحيح لهذه الحملة التي اشترك فيها أمراء بيجور وبيارن ، ولكن يعلم ، من ١٠٨١ إلى ١٠٨٥ بفضل المنافسات بين الأمراء المسلمين الذين يتنازعون خلافة ملك سرقسطة ، المقتدر ، ان المسيحيين الاسبانيين الذين يساعدهم الغاسكونيون واللانغدوقيون الذين يقودهم فيكونت اربونة وكوثنتات قرقشونة وبيغور ، قووا الفوائد التي حصلوا عليها وتقدموا نحو بارباسترو (بربشتر) وتوديبلا(تطيلة) . وفي الوقت نفسه ، في أيار ١٠٨٥ ، أخذ الفونسو السادس ، ملك قشتالة ، طليطلة ، فتوج هذه الانتصارات .

رد الفعل الاسلامي . - ويبدو في ذلك التاريخ ، ان الاسلام اضطر ، لأجل قصير ، أن يستسلم تحت ضغط الفرسان المسيحيين ولفترة

بضع سنين عادت الحالة إلى ما كانت عليه تماماً . لقد هز هجوم غي - جوفروا والفونسو السادس المسلمين بقوة ، ففكروا بنجدة أبناء دينهم من افريقية ، وعقب تفتيت الامبراطورية العربية وضع المرابطون تحت سيطرتهم المغرب العربي كله والفوا دولة قوية ، عاصمتها مراكش ، قادرة على التوسع والفتح . وفي ٣٠ حزيران ١٠٨٦ نزلوا في الجزيرة الخضراء ، وأطبقوا في الزلاقة ، بالقرب من باداجوز ، على الجيش المسيحي ، المؤلف من اسبان وفرنسيين . وفكر الفونسو السادس بالتراجع حتى البيرنيه ، بينما تحلت جيوش آراغون ونافار عن حصار سرقسطة ، كما تخلى كونت برشلونة عن حصار طرطوشه (تورتوزه) ، وازدادت الحالة سوءاً بموت غي - جوفروا . وعلى هذا النحو أصبح من الصعب تنظيم حرب صليبية جديدة .

حرب صليبية فرنسية جديدة في اسبانيا (١٠٨٧ - ١١٠١) - .
ان النصر الذي حققه المرابطون في الزلاقة أيقظ حمية الفرسان الفرنسيين ، وفي جميع الاوساط التي كان الناس يتابعون فيها باهتمام حوادث اسبانيا ، كانت تتخذ الأبهة لدحر الفاتحين الجدد . وتجمع النصوص ، وان كانت تنقصها الدقة ، على الاشارة إلى الزخم والاندفاع في كل مكان ، و« ذهبت ألوف الفرنسيين إلى اسبانيا » ، كما يقول المؤرخ السينوفي كلاريوس . ويميز فيهم ثلاث فرق :

- ١ - البورغونيون والشامبانيون بزعامة الدوق اود .
- ٢ - النورمانديون والبواتقيون (سكان اقليم بواتو) والغاسكونيون وزعيمهم فيكونت مولن ، غليوم شاربانتيه .
- ٣ - اللانغدوكيون والبروفانسيون وقائدهم الكونت ريموث سان جيل .

ويبدو أن نتيجة هذه الحرب الصليبية لم تكن متناوبة مع الجهد العجيب الذي بذل لها : لقد أخذ الصليبيون إيستلا على حدود نافار ، ولكنهم اخفقوا أمام تطيلة (١٠٨٧) ، فنبطت مهمتهم وعادوا إلى فرنسا عدا البورغونيين الذين ساعدوا الفونسوا السادس على تقوية نفسه على نهري دويره والتاج . وظل حكم المرابطين في اسبانيا سليماً .

ثم استؤنفت الحرب الصليبية عام ١٠٨٩ وكان البابا اوربينو الثاني دافعاً لها . وكما رأينا ، ينتمي هذا البابا إلى أسرة نبيلة قديمة في اقليم شامبانيا ، ولد نحو ١٠٤٠ في شاتيون على المارن وكان عمره عشرين أو خمسة وعشرين عاماً عندما قاد ابن وطنه ايبيل روسي الفرسان الفرنسيين للهجوم على برشترو (بارباسترو) . ومن هنا يفهم بأن البابا الذي قضى شبابه في هذه البيئة كان ، منذ بدء حبريته ، مأخوذاً بفكرة الاسترداد المسيحي في اسبانيا . وسمع نداؤه ، وخاصة في جنوب فرنسا ، حيث تجمع الجنود الذين سيقاتلون لخلاص شبه الجزيرة . وكان هدف هذه الحرب الصليبية الجديدة وشقة (هويسكا) أهم موقع في مملكة سرقسطة ، ولكن لم يتوصل اليها إلا بمجهود طويل مستمر . وفي العام ١٠٨٩ انتزعت مونسون ، ثم في ١٠٩١ أو ١٠٩٢ نابال ، بينما استولى إرمغول الرابع من ارقله (اورجيل) على بالاغير في اتجاه لاردة (١٠٩١) . ثم تبع ذلك فترة توقف ثبت فيها الصليبيون وقوا المواقع التي فتحوها . وفي ١٠٩٤ هاجم سانش راميريز هويسكا أخيراً . ولكنه جرح جرحاً مميتاً أثناء الهجوم في ٤ حزيران ١٠٩٤ وفي العام ١٠٩٦ فقط بعد انتصار الغاسكونيين في الكوداز (١٨ تشرين الثاني ١٠٩٦) سقطت المدينة في يدي خلف سانش ، بطرس الأول ، الذي أقام فيها عاصمته : وسيم استسلام برشترو (١١٠١) هذه الانتصارات الفرنسية في اسبانيا .

البابوية والحروب الصليبية . - إن تحرير قسم عظيم من شبه جزيرة ايبيريا كان يتواجد مع الزحف على القدس (١٠٩٦ - ١٠٩٩) ، وقد تقرر هذا الزحف في شهر تشرين الثاني ١٠٩٥ في مؤتمر كليرمون .

وينتج من الصفحات السابقة أن الهجوم المسيحي على الاسلام الذي أطلق عليه اسم « الحرب الصليبية » كان أولاً في أشباه جزر غربي المتوسط . ولا شك في ان حملة صقلية بسبب اطماع النورماندين لم يكن لها صفة الحرب المقدسة ، وحتى في اسبانيا فاق الروح الأميري على الروح الديني . ومهما يكن فقد تابعت البابوية هذه المشاريع عن كثب . ومنذ آخر الدور السكارولنجي اعتبرت الدفاع عن المسيحية ضد الاسلام جزءاً من امتيازاتها وخصائصها . وإذا نجحت شبه الجزيرة الإيطالية ، في بداية القرن العاشر ، من السيطرة الاسلامية فالفضل في ذلك يرجع إلى البابا جان العاشر . وفي القرن الحادي عشر ، عندما ارتسم الاسترداد المسيحي ، ظل الكرسي الأقدس أميناً على تقاليدته ، وأهم بالنزاع وأخذ يطالب بالحقوق العليا على اسبانيا باسم هبة قسطنطين المنتحلة . وفي ١٠٦٣ استلم الكسندر الثاني زمام المبادهة في الحملة التي أدت إلى سقوط بربشتو ؛ وفي المرسوم الحبري المؤرخ في ٣٠ نيسان ١٠٧٣ خول غريغوار السابع الصليبيين التمتع بالأراضي التي يأخذونها من المسلمين ، شريطة أن يعترفوا بأنها أقتهم من القديس بطرس ، لأن مملكة اسبانيا « كانت تابعة في القديم إلى القديس بطرس » ، وظلت ، بالرغم من سيطرة الوثنيين الطويلة « تابعة للسدة الرسولية » . ليس في ذلك دليل واضح على أن الحرب الصليبية الفرنسية في اسبانيا كانت تحت اشراف الحبر الروماني وتوجيهه الأعلى !

ولكن هل فكرت البابوية بمد هذا الهجوم على الاسلام في الشرق ؟

لقد تصور غريغوار السابع إرسال نجدة عسكرية إلى الامبراطور البيزنطي لمساعدته على كفاح البتشيغ ، ولكن هذا التدبير ، باعتراف البابا ، كان يراد منه ايجاد استعداد ملائم عند الاغريق لاتحاد كنائس روما والقسطنطينية الذي انكسر قبل بضع سنين بشقاق ميشيل سيرولير . ولكن هذا المشروع لم تكن له نتيجة ، وقد حول النزاع بين الكهنوت والامبراطورية اهتمام غريغوار السابع عن الشرق بسرعة . غير أن الحرب الصليبية التي ظلت محدودة في الغرب أخذت تعم في حبرية اوربينو الثاني وتتسع وتتجه نحو أهداف بعيدة .

مجمع بليزانس (آذار ١٠٩٥) . - إن الفكرة الاولى للحرب الصليبية في الارض المقدسة كانت بمبادة البابا اوربينو الثاني وحده . ففي السنوات الأخيرة من حبرية غريغوار السابع كانت الحسالة في الشرق تستدعي القلق بسبب الأتراك السلجوقيين الأشداء الذين أخذوا القدس (١٠٧٨) وانطاكية (١٠٨٥) واحتلوا في ١٠٩٢ عدداً من الجزر في البحر المتوسط . وأصبح حج المسيحيين مستحيلاً بعد أن دمرت الكنائس وعاث الاضطهاد بشدة غير مألوفاً . وبعد أن لوحظ الهدوء في منتصف القرن الحادي عشر ، ساد الخطر وأخذ الاغريق أنفسهم يوجهون انظار الغرب اليه .

وفي المؤتمر الذي ترأسه اوربينو الثاني في بليزانس من ١ إلى ٧ آذار ١٠٩٥ قدم عليه وفد أرسله امبراطور بيزنطة ، الكسيس كومنين ، بغية « التوصل باصرار إلى البابا وجميع المؤمنين بالمسيح لاسعافه بنجدة للدفاع عن الكنيسة المقدسة » . ويبدو أن رسل الكسيس ، لاستدوار عطف وشفقة الأشخاص الحاضرين في المجلس ، رسموا لوحة مؤثرة عن

الآلام التي يتحملها المسيحيون الشرقيون من الأتراك ، حتى ان اوربينو الثاني أخذته الرأفة بهذا الشقاء الانساني ، وأخذ يتصور تدريجياً تشكيل جيش غربي يخلص الأرض المقدسة ويضع حداً لتعصب السلاجوقين . وكان مواطنه ايل روسي مهياً لدراسة القضية الاسلامية في مجموعها : كما أن اوربينو الثاني كان يتابع باهتمام ديني النزاع الكبير القائم في شبه جزيرة ايبيريا منذ ١٠٨٩ ؛ ومن جهة ثانية ، اضطر ، في السنوات الاولى من حبريته ، أن يغادر روما وعاش في ايطاليا الجنوبية وتحدث مراراً مع روجيه غيسكار فاتح صقلية . فلا غرابة اذن أن نتحدث الأخبار التي نقلها رسل الكسيس في نفسه صدمة خرج عنها هذا التحويل في سير الحرب الصليبية .

اوربينو الثاني في فرنسا . - إن مشروع إرسال حملة إلى الشرق ، بتأثير الوفد البيزنطي في مجمع بليزانس ، أخذ يتضح في صيف ١٠٩٥ . وحتى آخر حزيران ، جاب اوربينو الثاني لومبارديا ثم اتجه صوب فرنسا وحل بها في آخر تموز . وفي ٣ آب كان في فالانس ، وفي ١٥ منه في بوي ، وفي ١٨ في لاشيز - ديو حيث بارك كنيسة الدير الذي شاده القديس روبر . ومن هنا اتجه نحو الجنوب ، ووصل في أول ايلول إلى سان - جيل حيث قضى بضعة أيام ، ثم في تاراسكون ، آفينيون ، سان بول القصور الثلاثة ، ليون ، ماکوت ، ووصل كلوني في ١٨ تشرين الأول ، ومنها ذهب إلى كليرمون ليفتتح في ١٨ تشرين الثاني المجمع الكبير الذي دعا اليه أثناء إقامته في بوي .

وهذا الطريق الذي سلكه البابا له معناه . فمما كاد يدخل فرنسا إلا وذهب رأساً إلى بوي التي حج أسقفها ، ايمار مونتي ، إلى الأرض المقدسة . ومن المحتمل أن يكون المشروع الشرقي قد نضج في بوي التي

تقرر فيها عقد مجمع كليرمون . من المؤكد أن إيمار مونتني أشار على البابا بأنه يستطيع تأمين القيادة العسكرية للحملة إذا عهد بها إلى ريمون الرابع سانت جيل ، كونت تولوز ، الذي وضعه دوره في الحرب الصليبية الاسبانية في الصعيد الأول مع دوق بورغونيا ، أود الأول ، ولكنه كان يفوق رفيقه في السلاح بتقواه وعواطف احترامه للسلطة الدينية . ثم ان الضرورة التي دفعت البابا اوربينو الثاني للتحديث مع ريمون سانت جيل توضح وحدها لماذا جاء إلى فرنسا بطريق البحر ، لأن الحبر الروماني ، بعد إقامته في بوي وقبل الذهاب إلى كلوني ، عاد مباشرة إلى جنوب فرنسا بعد أن أتى منه . يضاف إلى ذلك أن اشتراك الكونت بالحملة الصليبية غداة مجمع كليرمون الذي بشرت فيه هذه الحرب ، لا يمكن إيضاحه إذا لم يكن ريمون ، قبل افتتاح المجمع ، على علم بسياق النوايا الخيرية .

وبعد أن أمن اوربينو الثاني هذا السند العظيم تابع محادثاته وحاول أن يجمع حول ريمون سانت جيل أمراء فرنسيين آخرين : فاوض اود ، دوق بورغونيا ، الذي لعب دور الوسيط بين البابا وملك فرنسا ، فيليب الأول الذي حرم في العام الفائت لزواجه ببرتاد مونفور . وقبيل مجمع كليرمون تم لقاء في موزا بين فيليب الأول وأود والمفوض الحبري ، هونغ ليون ، ولكن فيليب لم يرض بالانفصال عن زوجة كونت أنجو الخائنة ، ولم يرفع عنه قرار الحرمان ، وأصبح اسهام ملك فرنسا بالحرب الصليبية التي خطط لها مستحيلًا . ويبدو أن هذا الامتناع جر امتناع اود الأول الذي لم يذهب إلى الأرض المقدسة رغم بلائه اللامع في اسبانيا . وهكذا استطاع البابا اوربينو الثاني ، بمساعدة إيمار مونتني وريمون سانت جيل ، أن يجمع جيش الشرق من بين أمراء جنوب فرنسا الذين تدربوا على نضال الاسلام .

مجمع كليرمون (تشرين الثاني في ١٠٩٥) . - في منتصف تشرين الثاني ١٠٩٥ وضع البابا خطته وعين الزعماء الذين سينفذونها وتنبأ بالوسائل الضرورية لتحقيقها . وفي المجمع الذي افتتح في كليرمون ، في ١٨ تشرين الثاني ، كشف عن مشروعه الكبير ووضعه .

أجاب نداء البابا اثنا عشر مطراناً وثمانون أسقفاً وتسعون أباً . وخصصت الجلسات الاولى لاصلاح الكنيسة وتوضيح نظم السلام . وفي ٢٧ تشرين الثاني خرج اوربينو الثاني من الكنيسة التي انعقدت فيها حتى هذا التاريخ دورات المجمع وجابه الجمهور الذي كان يتدافع بالمناكب في الساحة أمامه . ولم يحفظ النص الصحيح لخطابه ، ولكن التحاليل التي تركها مؤرخو الحرب الصليبية عنه تتفق بصورة كافية ، ومن الممكن إعادة بناء هذا النص بشيء من الدقة . لقد توجه البابا إلى « الفرنسين الذين أحيمهم الله واختارهم » وأعلمهم بالاخبار السيئة التي تلقاها من الشرق وقال : لقد اجتاح شعب لعين كافر الاراضي المسيحية ، وأعمل فيها الحديد والنار وقتل السكان ، أو ردهم إلى العبودية ، وخرب الكنائس أو تملكها لاقامة الشعائر الاسلامية . وبعد أن رسم اوربينو الثاني هذه اللوحة القلعة القى على سماعته نداء حاراً أثار حماسة الجمهور . وقطع الخطاب الجبري ، ودوى صوت « هذه ارادة الله » مجلجلاً كالرعد من الصدور اللاهنة ، ثم كرره البابا وجعل منه علامة للمشايعة ، وطلب من جميع الذين يريدون ان يضحوا بانفسهم في سبيل الله ان يضعوا شارة الصليب . وبينما كانت قطع القماش الاحمر تنتقل بين الحضور ، كانت الكردينال غريغوار يتلو ، باسم الجميع الجائمين على الركب ، الاعتراف العام بجميع الذنوب . وبعد ذلك أخذ البابا يمنح عفوه الرسولي إلى الذين يصرحون بأنهم على استعداد للذهاب إلى الأرض المقدسة .

العصر الوسيط - ٥٣

ولم يكن عدد الحضور في الاصل عظيماً جداً ، ثم أخذ يزداد تدريجياً في الاشهر التالية من انعقاد الجمع ، ولكن سكوت المؤلف المغفل لكتاب « تاريخ المملكة الفرنجية » وريمون ايجيل يدل بوضوح على أن الجمع الشهير لم يكن له تلك الأهمية التي عزيت اليه طويلاً ، ولم تنشأ الحرب الصليبية فيه مباشرة من تماس الحماسة بين الحضور . ان المرحلة الاساسية فيه هي تهيئة حملة الشرق عندما أعلن اوربينو الثاني رسمياً مشاريعه ليقوم فيما بعد بالاعمال الضرورية لتحقيقها . وربما كان يوم ٢٨ تشرين الثاني حاسماً أكثر من يوم ٢٧ منه . ففي هذا التاريخ عين البابا باتفاق مع اعضاء الجمع ، أسقف بوي ، ايمار مونتي ، مفوضاً جبرياً ، وكلفه أن يحتل مكانه على رأس الجيش الذي سيذهب إلى الأرض المقدسة ، واستقبل سفراء ريمون سان جيل الرابع حملة امنية سيدهم ، وأملى التدابير الخاصة المتعلقة بأموال الصليبيين الموضوعة تحت حماية الكنيسة ليستطيع هؤلاء استعادة مملكتها عند عودتهم .

رحلة أوربينو الثاني في غرب فرنسا وجنوبها (١٠٩٥ - ١٠٩٦) . -
وفي الأشهر التالية تمت فكرة أوربينو الثاني بنطق أخاذ . ولم يفكر البابا مطلقاً بتجنيد الجيوش الأربعة التي سيتوزع عليها الصليبيون ، ولم يتصور إلا جيشاً واحداً يحتشد في بوي في ١٥ آب ، ودعا جميع الفرسان الذين أبدوا رغبتهم في الذهاب إلى الأرض المقدسة أن يلتحقوا ، قبل هذا التاريخ ، بجيش ايمار مونتي وريمون سان جيل ، كما لم يعتمد كثيراً على إقبال أمراء الشمال . وان طريقة ، بعد مجمع كليرمون ، يدل على انه يفكر خاصة بدعوة بارونات غرب فرنسا وبخاصة جنوبها . ومن كليرمون توجه إلى ليموج وبشر من جديد بالحرب الصليبية في يوم عيد الميلاد . ثم ذهب إلى بواتيه حيث بقي من ١٤ إلى ٢٧ كانون الثاني ١٠٩٦ وجاب

أقليم آنجو والمين في شباط ، ثم أخذ طريق الجنوب ماراً من سانت وبوردو وبلغ تولوز في بداية أيار ، واتى اليه ريمون سان جيل وصحبه عبر اقطاعه في اللانغدوك حيث أقام البابا قرابة ثلاثة أشهر . وعقد في نيم آخر مجمع وتم العمل الذي بدأ به في كليرمونت وتابعه خلال جولته الكبرى .

والمرة الثانية كان لطريق البابا معناه ومغزاه . لأن مقاومة فيليب الأول لأوامر المفوض الحبري هورغ ، اثناء مقابلة موزا ، اضطرت اوربينو الثاني إلى التخلي عن كل فكرة للتبشير في شمال فرنسا وفي بورغونيا حيث كان الدوق اود مخلصاً لسيده . ولذا جمع البابا جيش الارض المقدسة من جنوب فرنسا وبخاصة من اقطاع تولوز . ولم يستجب لدعوة البابا فولك الريشن ، كونت آنجو ، وغليوم التاسع دوق اكييتانيا . وركز البابا شيئاً فشيئاً كل آماله على ريمون سان جيل الرابع وقرر معه في تولوز وفي نيم من أيار إلى تموز ١٠٩٦ آخر تدابير التنظيم . ولكن الوقائع تجاوزت تنبؤاته بشكل واسع : فبينما كان البابا ينشئ ، في البلاد التي ألقت النضال ضد الاسلام ، الجيوش الضرورية لتنفيذ مشروعه الشرقي ، كان البارونات يجhezون أنفسهم في كل مكان في فرنسا بدافع من الاساقفة والمبشرين الشعبين ، والجمهير الشعبية تسير بارتياح على الطريق المؤدية إلى القدس .

جيوش الحروب الصليبية - وفوجىء اوربينو الثاني في العام ١٠٩٦
بأن ثلاثة جيوش تشكلت بصورة مستقلة عن الجيش الذي أجهد نفسه في تشكيله .

الأول ، يضم فرنسيي الدومين الملكي والاقطاعات الكبرى المجاورة . ولم يستطع الملك قيادة بشخصه لأن اللعنة طرحته خارج الكنيسة ، وكان زعيمه الحاص أخو فيليب الاول ، هورغ ، كونت فرماندوا .

وهو شخصية متكبرة مستعلية ، ولكنه لا يخلو من مواهب دبلوماسية ، وتجمع حوله ايتين - هنري ، كونت بـلوا ومو وشارتر ؛ وروبير كورتهوز ، كونت نورمانديا ؛ وروبير ، كونت فلاندر .

الثاني ، يضم فرنسيين من الشمال ولورنيين والماني ، وكاث يقوده غودفروا بويون ، دوق اللورين الدنيا ، حامي القبر المقدس في المستقبل ، وكان نصيراً لهنري الرابع في نزاع الكهنوت والامباطورية ، ولذا لم يكن مهتماً للدور الذي سيلعبه في الأرض المقدسة .

الثالث ، يضم نورمانديي ايطاليا الجنوبية . وقد تجمع حولهم صليبيو شبه الجزيرة الآخرون ونهأوا أيضاً للانطلاق تحت ادارة بوهيموند تارنت وابن أخيه تانكريد الذي بدت الحملة له وسيلة ممتازة لتحقيق اطماع روبر غيسكار القديمة واقتطاع أمارات لنفسه في شرقي البحر المتوسط .

هذا ويجب الا يظن بان هؤلاء الفرسان كانوا يهتمون اهتماماً خاصاً بنجدة المسيحيين المضطهدين أو بتخليص قبر المسيح . ولقد أشار المؤرخ الير ايكس - لا - شابيل إلى أن كان بينهم زناة وقتلة ولصوص وكفرة ؛ وان الرغبة في المغامرات وسحر الشرق وجاذبية المناطق المجهولة التي يفتخر بثروتها ، لم تكن ، بالنسبة للكثيرين ، غريبة عن الرغبة بالحرب الصليبية . أما جيش الجنوب الذي يقوده المفوض الهبري وكونت تولوز فقد بقي أميناً لفكرة اوربينو الثاني . لقد كان ايمار موتي في أبرشيته حوارياً للاصلاح الغريغوري ، وما من أحد أجدر منه في الحفاظ على الروح الديني في هذه الاقطاعية التي ينتسب اليها بولادته ويعرفها باندفاعها الكريم وغرائزها الجشعة . وسيدعمه باعجاب ريمون سان جيل ، النموذج الكامل للفارس المسيحي ، العف ، المؤمن ، الذي نسي أن اقطاعه المتشكل حديثاً يتطلب حضوره ، واقسم اليمين ، تحت الراية المقدسة ، على الاعداد

إلى أمارته ، والذي عهد اليه البارونات ، بسبب طهره وأخلاقه ، بعد اكتشاف الرمح المقدس الذي طعن به المسيح ، بحراسة هذه البقية الثمينة . وبهذا الزعيم ظهر جيش الجنوب بحق جيش الايمان ، وكما لاحظ بعض المؤرخين ، كان المفوض الحبري ومساعدته الأمين ، كونت تولوز ، على رأس هذا الجيش ، يشبهان موسى وهارون .

الحرب الصليبية الشعبية . - لم ينطلق أي جيش من الجيوش قبل آخر صيف ١٠٩٦ . ففي ٣٠ تموز من هذه السنة هاجمت القسطنطينية أفواج مضطربة ، بعد أن اجتازت اوروبا على أقدامها مجردة من كل شيء ، معدمة ، وأعربت للاغريق عن رغبتها بالعبور إلى آسيا للذهاب إلى القدس . ولم يكن شيء من هذا في خطة اورينو الثاني . ففي مجمع كليرمون خشى البابا انطلاق الحماسة الشعبية ، وأراد تنظيم حملة بمائة للحملة التي كانت تستهدف اسبانيا ، وحرم صراحة على الشيوخ العجز والنساء غير المتزوجات الاسهام فيها ، ولكن المبشرين الشعبيين الذين كفوا بنشر فكرته تجاوزوا تعليماته وأثاروا عن وعي أو غير وعي بين الجماهير اندفاعاً واسعاً نحو القدس . ولدى سماع صوت الراهب البيكاردي ، بطرس الناسك وأقرانه استسلم الفلاحون المصابون بالجذب والواثقون بمستقبل أفضل ، لدافع ايمانهم ، وأخذوا يحدون ثيرانهم وخيولهم ويشدونها بعرباتهم ويكسدسون فوقها دون تنظيم أطفالهم ومتاعهم وبتانهم وأثاثهم المتواضع ، ثم شغصوا إلى المكان المحدد للتجمع وانطلقوا في الطرق الكبرى مقتنعين بانهم ذاهبون لفتح السماء ، وطلبوا من جميع المدن التي يلقونها في طريقهم ما إذا كانت هذه هي القدس التي يؤمنون أن يذوقوا فيها طعم الراحة والأفراح الصافية التي تتوج نضجيتهم التي قبلوا بها عن طيب خاطر . وكان الزعماء : بطرس الناسك ، غوتشالك ، غوتيه المعدم

يشبهون الجنود . ولم يلامس ذكاؤهم الفج ونفوسهم الساذجة بأي حال شكل الصعوبات التي تلازم توجيه هذه الأفواج غير المنظمة ، ولكن الايمان في نظرم يقوم مقام كل شيء ويؤدي إلى الهدف السري البعيد ، ويكون الانسان في سبيله مستعداً لتجعل كل شيء حتى الشهادة . اليس الثواب على قدر المشقة !

صفات الحرب الصليبية . - وهذا الرحيل الجماهيري نحو الأرض المقدسة يطبع ، نوعاً ما ، آخر مرحلة للحرب الصليبية . لأن الهجوم على الاسلام، تحت ضغط الظروف ، بدل طابعه تدريجياً فبارادة اوربينو الثاني تكاثف وانتشر من الغرب نحو الشرق ، من شبه الجزيرة الاسبانية والاطالية نحو آسيا الصغرى وسورية وفلسطين ، ولم يحرك في العام ١٠٩٦ الأمراء الاكيتانيين واللانغدوكيين والبورغونيين فحسب ، بل العالم الاقطاعي كله في الغرب الاوربي وعدداً لا يحصى من صغار الناس ، وأخذ طابع حج جماعي كما هو حرب استرداد مسيحية . ولكنه احتفظ على الأقل ببعض ملامح تقليدية تذكر بأصوله الاولى فالبابوية في ١٠٩٥ ، كما في ١٠٦٣ وحتى في ٩١٥ أخذت المبادرة على عاتقها ، ودور اوربينو الثاني ، يذكر بدور الكسندر الثاني قبل بربستر (بارباسترو) او دور جان العاشر في معركة غارليانو . ومن جهة أخرى ، في الشرق كما في اسبانيا ، كان الفرنسيون ، وبخاصة فرنسيو الجنوب ، ينفذون الخطط الحربية ، ويكتبون على الطرق المؤدية إلى القدس : هكذا أراد الله للفرنجة .

الزعنف على القدس

١٠٩٦ - ١٠٩٩

اخفاق الحروب الصليبية الشعبية . - لقد كان الصليبيون الأوائل الذين أتوا إلى الشرق ممن استجابوا لدعوة المبشرين الشيعيين . وقد انقسم هذا القطيع البشري الذي جمعه بطرس الناسك وأقرانه إلى خمسة أفواج غير منظمة : اثنان منها ، بوجهها الكاهنان فولكمار وغوتشالك ، لم يَصْلا إلى الغاية المقصودة : فقد جاءا من اللورين وسواب وفرانكونيا وبلغا هونغاريا ، أحدهما عن طريق بافاريا ، والآخر عن طريق بوهيميا والنمسا . ولما علم ملك هونغاريا ، كولومان ، بفضاعتها منعها من المرور من دوله فأرادوا اقتحامه . وقامت معركة حقيقية في ليترا أبيد فيها معظم الصليبيين (حزيران ١٠٩٦) . والفوج الثالث ، فوج الكونت ايميش ، وصل بدوره إلى هونغاريا ولم يتقدم إلى أبعد منها . أما الفوجان الآخران فقد تجمع أحدهما حول بطرس الناسك ، والآخر وراء غوتيه باسي وغوتيه المعدم ، واستطاعا أن يبلغا شواطئ البوسفور .

انطلق في البدء غوتيه باسي وعبر هونغاريا دون حادث ، وجرت مناوشات بينه وبين الصرب والبلغار ، ومات بعد ذلك وانتقلت قيادة جيشه إلى غوتيه المعدم الذي استطاع بفضل الحرس الذي قدمته حكومة نيش (صربيا) أن يصل في ٣٠ تموز ١٠٩٦ إلى القسطنطينية حيث لحق به بطرس الناسك .

غادر بطرس كولونيا في ١٩ أو ٢٠ نيسان وقد طبع عبوره من هونغاريا والامبراطورية البيزنطية بأنواع الحوادث التي لانعلمها جيداً .

ولم يتورع الصليبيون من النهب والسلب ، وكلف حاكم بلغاريا نيكيتاس بحصارهم ، ولكنه اضطر إلى الفرار إلى نيش التي نهبت مثل بلغراد . ولما علم الامبراطور الكسيس الأول بما أخبره به نيكيتاس ، تسامح مع هذه الأقوام الفوضوية وأجبرها على ألا تقيم أكثر من ثلاثة أيام في المدن التي تدخلها . ومن صوفيا وفيليبوبولي وادرنة وصل بطرس الناسك القسطنطينية في ٣٠ تموز . وقابله الكسيس الأول ونصحه بأن ينتظر مجيء الجيوش المنظمة المتجهة نحو الشرق أيضاً ليعبر معها البوسفور . فكافأه الصليبيون على هذا الفعل الكريم بتخريب العاصمة ونهبها وسلبها . وبادر إلى التخلص من هؤلاء الضيوف الغلاظ وتركهم يعبرون البوسفور في ٥ آب ١٠٩٦ . ولم يعط القرب من الأتراك هؤلاء الجنود الشذاذ معنى النظام : فعوضاً عن أن يبقوا بالقرب من المضيق تحت حماية الجيش الاغريقي قاموا بنهبون حتى مدينة نيقية ، وأدى هذا العمل منهم إلى القضاء عليهم جميعاً تقريباً ، واضطر بطرس الناسك إلى العودة إلى القسطنطينية مع فلول جيشه العرمرم .

وانتهت الحرب الصليبية الشعبية إلى كارثة ، وجسمت الكراهية بين الاغريق والغربيين ، كما وضعت العقبات على طريق البارونات الذين اقتربوا تبعاً ، في خريف ١٠٩٦ ، من حدود الامبراطورية البيزنطية للاجتماع في القسطنطينية طبقاً لتعاليم المفوض الحبري ايمار موني .

حشد الجيوش الصليبية في القسطنطينية . — ولم يتحقق حشد مختلف الجيوش على شواطئ البوسفور إلا في أيار ١٠٩٧ ، وأول باروت وصل عتبة الامبراطورية الاغريقية كان هوغ فرماندوا . فقد اجتاز هذا الأخير بسرعة ايطاليا والبحر الادرياتيكي ونزل في دورازو ، وكان حاكمها جان ، ابن أخ الامبراطور . وقد علم بمجيء هوغ من الوفد ، المؤلف من أربع وعشرين فارساً ، الذي أرسله الأمير المغرور أمامه ليمهد له الطريق .

وعوضاً عن أن يستقبله الحاكم رسمياً قبض عليه وسلمه إلى الجنود الاغريقية فقادوه إلى القسطنطينية ووصلها في تشرين الثاني ١٠٩٦ مستغرباً من معاملته أسيراً عوضاً عن معاملته أخاً للملك . ومع هذا ، أطلق الكسيس سراحه مقابل بين الولاء ، وأقسمها هوغ على عجل دون أن يقدر ولاشك قيمتها ونتائجها .

ولحق بهوغ فرماندوا غودفروا بويون . فقد سلك هذا الاخير ، عبر هونغاريا ، الطريق التي سلكها بطرس الناسك ، ودخل الامبراطورية البيزنطية من نيش حيث جمع الكسيس المؤن لمنع النهب . ولكن هذه الحيلة لم تحل دون نهب سيليفوي الذي لم يلفه غودفروا ولم يمنعه ، وسبقته على أي حال شهرته السيئة . وهكذا وصل زعيم الصليبيين اللورنيين القسطنطينية في ٢٣ كانون الأول ١٠٩٦ .

ولم يأت الصليبيون الآخرون إلا آجلاً : وصل روبير كورنوز وايتين بلوا و روبير فلاندر الى بوي في تشرين الثاني ١٠٩٦ بعد أن باركهم اورينو الثاني اثناء مرورهم من لوقا . وأرادوا أن يشتوا قبل أن يعبروا الادرياتيک . وفي ربيع ١٠٩٧ أبحروا إلى ابيروس . ولم توفر المحن جنودهم من الفرق في البحر والنهر ومهاجمة البلغار ، حتى ان كثيراً من الامراء ، وقد ثبطت مهمتهم ، عادوا إلى الغرب . وباختصار كان هذا الجيش ، الذي كان قائده الأعلى هوغ فرماندوا الذي سبقه ، عديداً عندما وصل في أيار ١٠٩٧ إلى العاصمة البيزنطية حيث تقدمته قبل بضعة أسابيع الجيوش اللانغدوكية والنورماندية .

كان قائد الجيش اللانغدوكي ريمون سان جيل كونت تولوز والمفوض الحبري ايمار موتي . عبر منطقة البندقية وشعب الالب الجوليانية واتجه صوب اسكلافونيا (الصربيا) . واجتاز هذه المنطقة الجبلية الوعرة

المسالك في أربعين يوماً وعانى فيها من جفاف الماء وهبوب ريح «البورا» الفظيعة الجلدية ما عانى ، واعترضت الصليبيين المشاكل ، ولم يساعدهم السكان الذين يكرهونهم على التغلب عليها . وتجشم ريمون سان جيل كثيراً من الصعوبات في منع العصابات من قتل المتخلفين أو مهاجمة المنعزلين ، أو في رفع معنويات رفاقه الذين انقلبت حماسهم الاولى الى يأس عميق . وبعد كثير من المتاعب والمنازعات وصل الى سكوتادري حيث يقم ملك الاسكلافون (الصرب) قسطنطين بودين ، تابع الكرسي الاقدس ، الذي سهل تموين الجيش وساعده على بلوغ دورازو . ثم سار في الطريق الى القسطنطينية ماراً من سالونيك بعد أن لاقى من سوء ارادة الاغريق وهجوم البتشيغ الشيء الكثير ، ووصلها في آخر نيسان ١٠٩٧ .

ووصل نورمانديو ايطاليا الجنوبية ، الذين يقودهم بوهيموند ، الابن البكر لروبير غيسكار ، وابن اخيه تانكريد ، في الوقت نفسه تقريباً ، فقد أبحر خمسمائة أمير وعشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل في بدء تشرين الثاني ١٠٩٦ الى دورازو وها ، بطريق كاستوريا وبيلاغونيا ، بلغوا القسطنطينية ، وكان البتشيغ يهاجمهم على طول الطريق وخاصة على ضفاف نهر فاردار .

موقف الامبراطور الكيس من الصليبيين . - لقد تجمعت الجيوش الصليبية كلها في القسطنطينية ، ووضع عبورها من العاصمة البيزنطية قضايا كبرى ، وكشف عن سوء تفاهم خطير فصح مجالاً لمفاوضات شائكة بين الصليبيين والامبراطور الكيس : لقد جاء الصليبيون الى الشرق لحلاص الارض المقدسة ، وأتى بعضهم ، مثل ريمون سان جيل ، اطاعة لمثل أعلى ديني ، والآخرون ، مثل بوهيموند ، أملاً بإنشاء امارات غنية في الشرق وللعيش بسهولة ويسر وبدخ ، ولم يفكر أحد منهم بأن يعمل لحساب

بيزنطة أو أن يفتح لها الامارات التي خسرتها سابقاً في آسيا الصغرى وسورية وفلسطين . غير أن الكسيس الأول اختط لنفسه برنامجاً معاكساً : ففي ربيع ١٠٩٧ فكر خاصة باستغلال الحرب الصليبية لصالحه ، واقترح على الصليبيين العمل في آن واحد لله الذي أراد انطلاقتهم وللامبراطور البيزنطي الذي لا يطلب شيئاً غير تخويلهم المرور عبر دوله ، ومساعدتهم على تحقيق الغاية التي ارادتها العناية الإلهية لهم .

عين الزعماء الصليبيين . — لقد كان هوغ فرماندوا اول من جاء إلى القسطنطينية ، وبادر بحلف عين الولاء التي طلبها البازيلوس لاسترجاع حريته . وعندما دخل غودفروا بويون العاصمة بدوره حاول الكسيس الأول أن ينتزع منه وعداً بمائلا ، فرفض ، وقد ادرك غودفروا ، اكثر من كونت فرماندوا المتكبر ، خطورة هذا التعهد : ان قسم الولاء الى الكسيس معناه انه يعترف بأنه تابع له ويقبل سلفاً بأن يقدم له احترامه من اجل الاراضي التي يأخذها من الترك ؛ فلا المصلحة العليا للحرب الصليبية ولا مصلحة زعمائها يمكن ان تتفقا مع هذا التعهد الذي قد يضع مصير الأرض المقدسة بين يدي الامبراطور المنشق ويلحق الفرسان الغربيين بالامبراطور البيزنطي . وهكذا ظهر اختلاف وجهات النظر واوشك ان ينقلب الى نزاع ، ولكن الموارد من كل نوع المقدمة في القسطنطينية كانت تؤمن حتماً ظفر البازيلوس على الامراء المعوزين ، وكان سهلاً عليه ان يجعلهم تحت رحمته ، لأنهم كانوا مجردين من كل شيء ومضطرين الى ثمين أنفسهم من البلاد التي يرون بها . وبعد مفاوضات عابثة قرر الكسيس الاول ان ينتزع منهم خبزهم اليومي باغلاق انبار القسطنطينية (في ٢ نيسان ١٠٩٧) . فأجاب بودون اخو

غودفروا بويون على هذا التهديد بنهب جوار العاصمة وحرق احد ابوابها .
ولكن الكسيس تغلب على اندفاع الصليبيين . وأخيراً ، اقسام غودفروا
اليمن المطلوبه ، وبعد ان استقبل على المائدة الامبراطورية رضي بعبور
البوسفور ليفسح المجال للجيش الأخرى القادمة .

وبعد ان حقق الكسيس هذا النجاح الاول أمل باستسلام الزعماء
الآخرين . وكان يخشى خاصة بوهيموند ، بعد ان عرف احلامه الشرقية
الواسعة ، فأرسل اليه الى دوزا دبلوماسيين وكلفهم بتهيئة الجو ليجعلوا هذا
النورماندي المحتال يترك جيشه تحت قيادة تانكريد ويأتي مباشرة الى
القسطنطينية حيث عومل باكرام وعن سعة . ان رؤية الغرفة المملوءة
بالذهب والفضة والاحجار الكريمة والامشة الفنية وما قدم اليه كانت
كافية لاقتناع هذا الجشع بن غيسكار الذي اقسام أيضاً بين الولاء طالبا
فقط منصب دمستق الشرق الاكبر . ولكن الكسيس لم يمنحه اياه نظراً
لأنه يخوله سلطة زائدة على الجيش الاغريقي .

موقف ريمون سان جيل من الكسيس الاول . - وبعد هوغ
فرماندوا وغودفروا بويون وبوهيموند انحنى الزعماء الآخرون تباعاً أمام
طلبات الكسيس باستثناء واحد منهم ، كونت تولوز ، ريمون سان جيل
ولما طلب اليه أن يقسم اليمن الاقطاعية ، إلى الامبراطور البيزنطي ، رفض
وقد أصر ولمح بأنه يغذي مقاصد سوداء . وليقطع دابر هذه الشكوك
الظالمة رضي ان يقسم « بأن يحترم حياة الكسيس وشرفه » ولا اكثر ،
وذلك « لأنه لم يأت ، كما قال ، ليعدم أميراً آخر غير الأمير الذي
ترك من اجله وطنه » . وبقي وحده أميناً مخلصاً لروح الحرب الصليبية
ويؤمن بهذا الموقف العزيز على أنه كان غريباً عن الترتيبات السياسية كلها

وانه يريد فقط ان يتابع العمل الديني الاكبر الذي رسمه هدفاً للجيش الذي يقوده ، من فوقه ، مفوض اوربينو الثاني . وعندما وصل تانكريد أخيراً إلى القسطنطينية تبنى الموقف نفسه . وبقي ريمون منعزلاً وسيدافع وحده حتى النهاية عن الفكرة الأولى للحرب الصليبية التي أصبحت مشروعاً سياسياً عقب استسلام بوهيموند وغودفروا بويون واتراجها ، ولذا فان الاقامة في العاصمة البيزنطية تسجل بداية لتطور تدريجي تصعب معاكسته .

أخذ نيقية (حزيران - ١٠٩٧) . - وكلما أبرمت الاتفاقات مع الامبراطور الكسيس كانت الجيوش الغربية تجتاز البوسفور وتتفد إلى آسيا . ثم بدأت الحرب ضد المسلمين . وقد بولغ طويلاً بالصعوبات . إلا أن مقارنة المصادر اللاتينية والاعريقية مع المصادر العربية برهنت على أن المقاومة لم تكن منظمة جيداً . فقد أضى القتل والاعتصاب والحروب الأهلية الدول الاسلامية في آسيا الصغرى وسورية . وجعل التحاسد والشقاق بين الأمراء الاتحاد ضد العدو المشترك أمراً مستحيلاً ، ولم يصطدم الصليبيون بتألب عام بل بمقاومات محلية عنيدة متفاوتة القوة .

وفي ١٤ أيار بدأ حصار نيقية التي أخذها السلطان السلجوقي ، سليمان ، في العام ١٠٨١ . وكانت هذه المدينة ، بإبراجها الثلاثمائة وبجبرتها التي تشكل في الغرب دفاعاً طبيعياً عجيباً ، تؤلف عقبه قوة لا يمكن التخلي عنها وتركها ظهرياً ، فضلاً عن النجدة التركية التي أتت لتساعد على الدفاع . وقد هاجم البروفانسيون جيش النجدة وأجبروه على الانسحاب ، ثم أخذ الحصار يشتد شيئاً فشيئاً : ضرب الصليبيون الاسوار بالقذائف والكمباش ، وانهار أحد الابراج بعد أن لغمه ريمون سان جيل ، وانطلق اسطول اغريقي على البحيرة التي كان التموين بها ممكناً . وفي ١٩ حزيران ، عندما

لم يبق إلا اعطاء الامر بالهجوم العام ، شهد الفرسان الغربيون فجأة العلم البيزنطي مرفرفاً فوق المدينة : حقاً لقد أسهم الكيس في العمليات العسكرية ولكنه كان يتفاوض مع المحاصرين وحصل على استسلامهم واحتلت الجيوش الاغريقية نيقية التي لم يتوجب على الصليبيين تسليمها الى الامبراطور ، وطلب هذا تجديد بين الولاء فأصر ريمون سان جيل وتانكريد على الرفض ، ثم ثنى النجاح لخلقائه الممتازين الذين تقدموا دونه عبر آسيا الصغرى .

انتصار دوريليه (١ تموز ١٠٩٧) . - كان الزحف نشيطاً واقتضى أولاً عبور هضبة الاناضول القاحلة . وبعد عشرة أيام على أخذ نيقية التقى الصليبيون ، في سهل دوريليه ، بجيش تركي قوي (١ تموز ١٠٩٧) . ودام القتال يوماً كاملاً وانتهى بفرار الاتراك بعد أن تخلوا عن غنائم كثيرة على أرض المعركة . ووجدت الطرق المؤدية الى سورية مفتوحة أمام الفرسان المسيحيين .

أخذ هرقله (ايلول ١٠٩٧) - وكانت تنتظر الصليبيين بحن أخرى . لأن البلاد القاحلة والمجدبة بطبيعتها تحولت إلى صحراء حقيقية بعد أن غادرها الاتراك . وكان التموين شاقاً : فقد نقص الماء والعلف ومات كثير من الحيلول وعانى الجيش شدة الحرارة القائظة . وفي شهر آب سقط كونت تولوز مريضاً حتى كاد يودي ، ثم عادت اليه الروح عندما بدأ اسقف أورانج بقراءة قداس الأموات على روحه . وخرج الصليبيون من هذه البلاد القاسية ودخلوا بملكة أرمينية الصغيرة حيث الانهار والسكان المسيحيون فسهل عليهم التموين . وتوج أخذ هرقله (ايلول ١٠٩٧) هذا الجزء من الحملة ، وأنهى التفاهم الذي استطاع ايمار موتي أن يحافظ عليه بين هؤلاء

القادة الذين لم يطفىء الايمان المسيحي عندهم الغرائز الجشعة ولا الاطماع الزمنية .

بودون أمير الرها . - وغداة هذ النصر الجديد لم يستطع بودون ، أخو غودفروا بويون ، وتانكريد أن يكبجا طويلا جماع رغبتها في المغامرات الحربية ، فانفصلا عن مجموع الجيش وتسلقا جبال طوروس وهاجما الاتراك في منطقة تارس . وفوجيء الاتراك بهذا العدوان ونزحوا عن المدينة ، فاحتلها بودون حالاً بينما اتجه تانكريد صوب أضنه ، حيث كان الارمن يلتمسون مجيئه ، وبعد أن التحق بعض الوقت بالصليبيين عاد فتركهم من جديد وذهب إلى العراق حيث دعاه أمير الرها الارمني ، نوروس ، وكان مسناً وليس له أولاد ، فاستقبله استقبالا عظيماً ، وترك له دوله ، وعاجلته المنية حتى اتهم بودون بقتله . وعلى أي حان أصبح أخو غودفروا بويون في ٨ آذار ١٠٩٨ أمير الرها ؛ وبعد ذلك تزوج أرمنية وأصبح شرقياً .

حصار انطاكية . - وبينما كان بودون وتانكريد يضربان هذا المثل المؤسف كان الصليبيون يوالون زحفهم نحو القدس . ففي ١٥ ايلول ١٠٩٧ غادروا هرقله ؛ وفي ٢٧ منه كانوا في قيسارية كبادوكيا ؛ وفي ٣ تشرين الأول استقبلهم بلاساتيا بمجاسة . وبعد استراحوا بضعة أيام دخلوا ثنايا طوروس الشرقي « وهو جبل شيطاني مرتفع كثيراً وضيق كثيراً ، ولا يجزأ أحد في الطريق الواقع على سفحه أن يسبق الآخرين » . وبعد أسبوع دخلوا وادي العاصي . وفي ٢٠ تشرين الأول كانت الطليعة على ثلاث ساعات من أنطاكية ، وبدأ حصار عاصمة سورية الشهيرة بذكري الحواري بطرس .

كانت انطاكية مركز معسكر محصن تهيمن عليه قلعة قوية ، وأسوارها

محصة باربعائة برج وتستند على المنحدرات العمودية لذرا الجبال المجاورة . وقد جمع فيها الحاكم ياجي سيان ، بغية الحصار ، مؤناً وافرة ، وقرر بحاميته المؤلفة من ستة آلاف رجل أن يدافع حتى النهاية . ولم يكن بيد الصليبيين لأخذ هذا الحصن المنيع وسائل كافية : لم يكن عندهم عتاد الحصار ، وهذا ماينفي امكان الهجوم . ومن جهة اخرى ، كانت تنقصهم وحدة القيادة ، لأن كل واحد منهم كان يعمل حسب هواه دون أن يتم بحاراه ودون أن يخضع إلى توجيهات عامة . غير أن الحوادث ، مع ذلك ، تكفلت بتعليم هؤلاء الزعماء الغربيين . ويبدو أن المبادهة ، لاقامة ارتباط بين مختلف الجيوش المنتشرة على ضفاف العاصي ، أنت من ايام موتي وريمون سان جيل : ولتسهيل المواصلات بين المحاصرين أقام ريمون جسراً من الزوارق على النهر ، وعندما بدد الصليبيون مواردهم من البلاد ، نظم التمرين باحداث مجلس تقرر فيه أن يذهب بوهيموند وروبير فلاندر للبحث عن المؤن ، بينما تستمر الجيوش الأخرى بالحصار .

امتد الحصار . وفي ٢٩ كانون الأول ١٠٩٧ حاولت حامية انطاكية الخروج في وقت تواجد فيه فجر شمالي وزلزال أرضي ، فنشر الذعر بين الصليبيين ؛ حتى ان بطرس الناسك نفسه لاذ بالفرار بعض الوقت ، وعانى المفوض الحبري كثيراً من العنت في نضال اليأس العام . وبفضل وصول جيش من الانكليز جاءوا إلى ميناء انطاكية ، السويدية ، (في ٥ آذار ١٠٩٨) ووجد بينهم مهندسون ، استطاع الصليبيون أن يبنوا ، في المكان المسمى الحمربة التي ينفذ منها الأتراك ، دبابة من الحشب كان وجودها كافياً لايقاظهم . ومن جهة ثانية بدأ الجوع يعمل في داخل الموقع والمعنويات تضعف بين المحاصرين . وتمكن بوهيموند أن يتصل بهم ، وبعد أن عرض على البارونات أن يدخلهم انطاكية إذا قبلوا أن يسلموه

المدينة ، استطاع ، بفضل الحيانة ، أن يحتل برجاً وان ينفذ منه إلى الداخل ويفتح الأبواب (في ٢ حزيران ١٠٩٨) .

انتصار الصليبيين على كربغا (٢٨ حزيران ١٠٩٨) . -

أصبح الصليبيون سادة انطاكية . بيد أنهم لم يكونوا في نهاية متاعهم ، لأنهم انقلبوا من محاصرين الى محاصرين . فقد أتى جيش تركي يقوده أمير الموصل ، كربغا ، وحاصره في ٤ حزيران ، ولم يبيء الصليبيون شيئاً لمواجهة الحصار ، ونقصت المؤن ، وبعد بضعة أيام اضطروا لسد جوعهم إلى قطع أوراق الأشجار وغلي جلد الأبقار ، وضعفت معنوياتهم من جديد : وفكر كثير من الفرسان بالاستسلام ، وآخرون ، أثناء الليل ، علقوا حبلاً في شرفات الحصن وانزلقوا في الريف . وفي وسط هذا القلق ، في ١٠ حزيران ، أعلم فلاح بروفانسي ، بطرس بارتلمي ، بأن الحواري القديس آنذريه تجلى له وأمره أن يدل زعماء الحرب الصليبية على أن الرمح ، الذي خرق به القائد الروماني لونيخن خاصرة المسيح ، يوجد مطموراً في كنيسة في أنطاكية . وفي ١٤ حزيران اكتشف الرمح في المكان المعين . وبفضل هذه الحيلة عادت الشجاعة إلى نفوس الصليبيين ، وفي ٢٨ منه ، بعد ثلاثة أيام من الصيام ، انطلق الصليبيون في القتال تحت قيادة بوهيموند ، ودخلوا المعسكر التركي ، وهزموا جيش كربغا ، وأصبح طريق القدس مفتوحاً أمامهم .

الزحف على القدس . - ولم يتقدم الصليبيون مباشرة . فبعد أن أخذت انطاكية نشب النزاع بين الأمراء . فقد قرر بوهيموند الاحتفاظ بالمدينة لنفسه دون أن يهتم بالتعهدات المعقودة في القسطنطينية . غير أن رفاقه لم يقاسموه وجهة نظره ، وقرروا ، رغماً عنه ، إرسال هوغ فرماندوا العصر الوسيط - ٥٥

ليحمل إلى الامبراطور الكسيس مفاتيح انطاكية ، وقبلوا مع ذلك ان يسلموا النورماندين المواقع التي كانوا يحتلوها . ولم يشأ البروفانسيون وحدهم الانحاء أمام مطالب بوهيموند ورفضوا أن يجلووا عن قصر الحاكم الذي استقروا فيه .

وأخر هذا النقاش بين الزعماء الانطلاق . ولم يبد الصليبيون الآخرون أي مبادرة لاستئناف الزحف نحو القدس ، وفضلوا بعد النصر أن يعوضوا الآلام التي تحملوها حتى الآن . واتبع أخذ انطاكية بمذابح وأعمال نهب لا حصر لها ، ولم توفر البلاد المجاورة . وبينما كان الصليبيون منصرفين لفظاعاتهم من كل نوع ، انتشر وباء الطاعون وقتك فيهم فكأ ذريعاً : وكان يموت منهم في كل يوم من ١٠٠ إلى ٣٠٠ شخص . وأصاب الوافدة المفوض ايمار موني ، فأودى في أول آب . وفقد هذا الخبر ، الذي عرف حزمه المشع بالبصرة والذوق الصائب كيف يهدي طموح البارونات ، كان كارثة حقيقية أدت إلى تشعث عام : ذهب بوهيموند لزيارة ممتلكاته في كيليكيا ، وشخص غودفروا بويون وأمراء آخرون إلى الرها ، بعد ان جذبهم وعود بوهيموند الساحرة . وباختصار ، استؤنف الزحف على القدس في نيسان ١٠٩٩ تحت قيادة ريمون سان جيل وتانكريد وروبير كورتهوز ، ثم لحق بهم غودفروا بويون أثناء حصار عرقة .

أخذ القدس (١٥ تموز ١٠٩٩) . - وأخيراً ، بطريق بيروت وصيدا وقيسارية ، وصلوا في ٧ حزيران ١٠٩٩ إلى تل يطل على مدينة القدس . وكان فرح الصليبيين عظيماً : وإذا أخذنا بما قاله بعض المؤرخين وجدنا ان الجميع ، أمام منظر المدينة المقدسة ، خروا على ركبهم يذرفون الدموع . وبقي عليهم أن يدخلوا المدينة ، واتخذت كل الاستعدادات لذلك : استقر روبر كورتهوز في الشمال : وعسكر غودفروا بويون وتانكريد

ورويرو فلاندر في الشمال الشرقي ، بينما استقر ريمون سانت جيل على جبل النبي داود (صهيون) .

بدأ الحصار صعباً . فقد توقعته الحامية منذ تاريخ مديد وأمنت التموين لزمّن طويل ، بينما كان الصليبيون ، كما في انطاكية ، بحاجة إلى كل شيء ، بدءاً من الماء واضطروا إلى الذهاب إلى بعيد للبحث عنه . ولحسن حظهم وصل حديثاً اسطول جنوي إلى يافا فسهل بذلك التموين وبالتالي العمليات العسكرية .

بدأ الهجوم الأول في ١٣ حزيران فأخفق اخفاقاً ذريعاً يستدعي الشفقة . وبعد هذه التجربة القاسية تعلم الزعماء الغربيون وقاموا بأعمال كبرى . كما أن قصة رؤيا بطرس ديديه ، الذي تجلّى له ايمار مونتي ، قوت حمية الجنود . وفي يوم الجمعة ، في ٨ تموز ، طاف المسيحيون حفاة في موكب رسمي حول الأسوار وهم ينشدون الاناشيد فتجيبهم عليها من اعلى الحصون أصوات الرقى السحرية والاغاني الحربية التي ترددها النساء المسلمات . وفي الأيام التالية تم بناء دبابات من الخشب ، وردمت الخنادق ، وجمعت الآلات والادوات ، وفي الليل ، من ١٣ إلى ١٤ تموز ، اعطي الامر بالمهجوم العام ، ودام هذا طيلة نهار ١٤ تحت طوفان من السهام والقذائف المحرقة . ولم تمنع مقاومة المحاصرين دبابة دائرة يحتلها غودفروا بويون واخوه أوستاش من إصابة السور في شرقي المدينة . وفي ١٥ تموز ، في الساعة التي صلب فيها المسيح ، كما يقول المؤرخون ، نفذ قسم من الصليبيين إلى المدينة من هذه الثغرة ، وفي الوقت نفسه اقتحم تانكريد باب القديس ايتين وتسلم ريمون سان جيل برج داود .

وانتهت الحرب الصليبية الاولى بخاتمة دامية : ففي نشوة النصر أخذ

الفرسان الصليبيون يجبطون خطب عشواء ويقتلون الرجال والنساء والاطفال وقاموا بأعمال تلطخهم بالعار . وعندما كلوا من القتل ذهبوا إلى القبر المقدس وحمدوا الله بدموع الفرح .

الحرب الصليبية في الشرق والغرب

في بداية القرن الثاني عشر

حملة النجدة (١١٠١) . - لم يمهأ أخذ القدس الكفاح ضد الاسلام لان الحماسة ، التي أثارها في الغرب حضت ، على العكس ، الفرسان غير الصليبيين في ١٠٩٦ على الانطلاق لنجدة من ناضلوا «لتنحير المسيحية الشرقية» وقبل أن يصل البارونات الغربيون إلى نهاية الحملة وجد من الضرورة المجيء لمساعدتهم . وما فتيه أوربينو الثاني يحض على إرسال النجدة . وتوفي البابا الفرنسي في ٢٩ تموز ١٠٩٩ بعد بضعة أيام على سقوط القدس . ولكن فقدته لم يمنع ذهاب جيش النجدة الذي أسهم في تشكيله . وكان هذا الجيش يتألف بخاصة من لومبارديين ، واتجه صوب القسطنطينية بطريق البلقان العادية . وبعد بضعة حوادث مماثلة لمرور الصليبيين الاوائل من العاصمة البيزنطية ، عبر البوسفور ، ودخل آسيا الصغرى والتحق به جيش فرنسي يقوده ايتن بلوا . وكان ريمون سان جيل في القسطنطينية آنذاك فاستلم قيادة هذه الجيوش وذهب بها نحو بغداد ، وبمساعدها استطاع أن يخلص بوهيموند بعد أن وقع اسيراً بيد الاتراك في العام ١١٠٠ ، ولكنهم ، بعد أخذ آفسير ، غلبوا بالقرب من سيرفا ، وبكل مشقة وعناء استطاع بعض الفارين الوصول إلى ميناء سينوب .

ثم تشكلت حملة ثانية بقيادة كونت نوفير ، ولم تكن أسعد حظاً ، وتحولت إلى هزيمة في جوار هرقله .

وأخيراً تشكلت حملة ثالثة من الاكيتانيين والالمان يقودها غليوم التاسع الاكيتاني وفيلف بافاريا الرابع ، فانهمزمت ايضاً في منطقة هرقله . وباختصار ، لقد أخفقت حملة النجدة إخفاقاً تاماً . ثم انطلقت بضع نجيدات من الموافي الايطالية ، جنوة ، ييزا ، البندقية ، وحتى مجيء لويس السابع إلى الارض المقدسة لا توجد حرب صليبية حقيقية في الشرق .

الدفاع الاسلامي في اسبانيا . - وبينما كان الصليبيون يفتحون القدس ، أعد هجوم إسلامي في شبه الجزيرة الايبيرية . وبالرغم من انتصار الفرسان الغربيين ، ما فتئت قوة المرابطين في ازدياد في السنوات الاولى من القرن الثاني عشر ، بفضل ضم دولتين مستقلتين حتى ذلك الحين، اشيلية (١٠٩٧ - ١١٠٦) وبلنسية (فالانس) (١٠٩٩ - ١١٠٢) . ومنذ ان خلف السلطان علي (١١٠٦ - ١١٣٠) أباه يوسف كانت امبراطوريته تغطي افريقية الشمالية مع اسبانيا في جنوب الايبير ، وكان يفكر في استئناف الجهاد ودحر المسيحيين إلى شمال البيرينه . وفي ١١٠٨ اجتاح قطلونية (كاتالونيا) وتوصلت جنوده إلى ستين كيلو متراً عن برشلونة .

الحروب الصليبية عام ١١١٤ . - وأحدثت هذه الغارة ذعراً حقيقياً . وكما يحدث في مثل هذه الحال ، فكر بنجدة فرنسية ، واوفد أسقف برشلونة إلى الملك لويس السادس لاعلامه بخطورة الوضع ، فوصل في وقت غير مواتٍ ، عندما استؤنفت الحرب ضد ملك انكلترا . وذكر الحبر ان المسلمين على مسافة خمسة أيام سيراً من موبليه وسات جيل . ولم يحصل على مساعدة مباشرة واكتفى بالوعود . وكان الملك منهمكاً بكثير من القضايا المختلفة ، ولذا لم يستطع أن يتمسك بشيء منها ، وانتقلت المفاوضات إلى

أعلى : واستقر الرأي على ان النجدة الخارجية لا غنى عنها ولا يمكن ان تأتي إلا من بلاد البحر المتوسط والبيرينه التي تهتم مباشرة بالقضية الاسلامية .

ولكن الخطر خف مؤقتاً : لأن الجيش الاسلامي انسحب بعد ان جمع كثيراً من الغنائم . وكان لدى رامون بيرنغر الثالث (١٠٩٣ - ١١٣١) متسع من الوقت لاتخاذ استعداداته المفيدة ، فضلاً عن ان المرابطين ، في السنوات التالية ، انهمكوا خاصة باتمام الوحدة الاسلامية ببسط سلطتهم على سرقسطة (١١١٠ - ١١١١) . وتفاوض رامون مع امراء جنوب فرنسا وهياً معهم حملة ضد جزر الباليار ليفيد في آن واحد من هدوء اسبانيا الشمالية وأمن تجارة البحر المتوسط لانتزاعها من المسلمين . ومنذ ١١١٢ بدأ اللانغدوقيون والبروفانسيون بعبور البيرينية تحت قيادة برنار آتون صاحب قرشونه ، وايميري الثاني صاحب ناربونة ، وغيلهم الخامس صاحب مونبليه ، ورعيون ديه بو . وقد حان الوقت ، لأن كاتالونيا اجتاحت من جديد في العام ١١١٤ وأحرز ايميري ناربونة ورامون بيرنغر في مارتوريل نصراً عظيماً اضطر جيش المرابطين الى الانسحاب ، ولكنه انطوى بانتظام . وبعد بضعة أسابيع ، في بداية ايلول ، عاد يحاصر برشلونة وخلصها بعد عشرين يوماً . وفي الوقت نفسه ، خلف ملك آراغون الفونس الأول في العام ١١٠٤ ، أخاه بطرس الأول ، وبفضل زواجه من ابنة عمه اودا كاضم قشتالة حيث توفي الفونس السادس (١١٠٩) ، وعاون عمل كونتي ناربونة وبرشلونة ، وبمساعدة ابن عمه ، كونت بيش ، وروترو الثاني ، وفيكونت بيارن ، غاستون الخامس ، هاجم سرقسطة ولم يستطع الاستيلاء على المدينة ، ولكنه احتل جوانبها وانتزع تطيله (نوديل) في آب ١١١٤ .

الحرب الصليبية عام ١١١٨ وأخذ سرقسطة . - وانتقل الصليبيون

من الدفاع إلى الهجوم . ففي ١١١٥ قام الهجوم الذي خطط ضد الباليار : احتلت بالما في شهر آب ، وانتهى فتح ماجورقة في ١١١٦ . وكانت هذه العملية مقدمة لعملية أخرى أهم منها بكثير في اسبانيا القارية . ففي ١١١٨ ، وبمبادرة البابا جيلاز الثاني ، انعقد مجمع في تولوز ونظم حملة صليبية واسعة ضمت أمراء جنوب فرنسا كلهم تقريباً ، وكان على رأسهم كونت تولوز ، برتوان ، وكونت قرقشونه (كاركاسون) ، برنار آتون ، وفيكونت بيارن ، غاستون . وانضم الكونت روترو ، صاحب بيرش ، الذي لعب دوراً نشيطاً على الاير عام ١١١٤ ، إلى البارونات اللانغدوقيين والغاسكونيين وقاد مع غاستون بيارن الحملة التي كان هدفها في هذه المرة سرقة .

وانتزع الموقع بعد سبعة أشهر . وقد طبق فيه غاستون بيارن ، الذي اسهم بلسط نشيط في أخذ القدس ، الطرق نفسها : انشأ دبابات وابراجاً من الحشب وهاجم بها الأسوار التي تحمي المدينة . فقابلته الحامية بمقاومة عنيفة وناضلت يائسة إلى اليوم الذي ارسل فيه علي إليها جيش النجدة الذي انهزم في ملتقى الاير وشقة (ويسكا) في ٨ كانون الأول ١١١٨ ، وفي ١٩ كانون الأول استسلمت سرقة . وكان هذا الفوز اكبر نجاح أحرزه الصليبيون في اسبانيا .

حاول المرابطون أن يعوضوا اخفاقهم بهجوم جديد ، واصطدمت جيوش المسيحيين والمسلمين في حرب دامية في كوتاندرا بين سرقة وبلنسية (فالانس) في ١٨ حزيران ١١٢٠ ، وظلت ساحة القتال بيد الفرنسيين والاراغونيين الذين قتلوا خمسة عشر إلى عشرين ألف مسلم وعادوا بالكثير من الاسلاب والغنائم . وتداعت مواقع الدولة الاسلامية القديمة في سرقة ، الواحد بعد الآخر ، وخاصة قلعة ايوب ودروقة (داروكا) .

ومن جهة أخرى ، وبينما كانت آراغون تمتد على كل حوض الايبير الأوسط ، كان الكاتالونيون ، الذين فتحوا سرقسطة ، يتقدمون نحو افواه النهر . ولم يسجل الاسلام تراجعاً مثل هذا التراجع في أي وقت مضى .

نتائج الحروب الصليبية الفرنسية في اسبانيا . — لقد أدت الحرب الصليبية في الغرب إلى نتائج حاسمة كالحرب الصليبية في الشرق . وكان أخذ سرقسطة صدى لأخذ القدس . كما كانت نتائجه ، من بعض الوجوه ، أكثر صلابة ودواماً بفضل الروح السياسية التي برهن عليها الرجلان اللذان كانا روح هذه الحركة التحريرية ، ملك آراغون ، الفونس الأول ، وكونت برشلونة ، رامون بيرنغر الثالث الذي استحق لقب «الكبير» . لقد ضم الأول إلى الاراغون قشتالة مع جميع توابعها . وكان الثاني المؤسس الحقيقي للدولة الكاتالونية التي شادها على جانبي سلسلة البيرينه وضم اليها كونتيات بيلن وسردانيا (١١١٧ - ١١٢٩) ثم أضاف اليها ، بسبب زواجه من دوس ، بنت جيربيرج ، كونتس بروفانس وجيفودان ، كونتيات بروفانس وجيفودان وروويرغ وميلو . وفي ١١٣٦ انضمت الدولة الأراغونية والدولة الكاتالونية تحت صولجان واحد ، وبمقتضى وحدة اسبانيا المسيحية التي دشنت فيها الحرب الصليبية الفرنسية ، بتشجيع من الباباوات الكسندر الثاني وغريغوار السابع وارينو الثاني وجيلاز الثاني ، الدور الكبير الذي لعبه العصر الوسيط .

وهكذا سيطرت الحرب الصليبية الشرقية والحرب الصليبية الغربية على تاريخ القرن الحادي عشر الراحل وتاريخ القرن الثاني عشر في فجره ، وكالتا ، في المسيحية المنقسمة ، خميرة وحدة معنوية ، ودشتا عصراً جديداً حاولت الروح الدولية فيه أن تؤكد وجودها فوق جميع النعرات الاقليمية الخاصة .

الفصل الثالث والثلاثون

حضارة القرنين العاشر والحادي عشر

القرن العاشر

لم تكن الأزمة التي تلت تفتيت الامبراطورية الكارولنجية أزمة سياسية فحسب ، بل كانت أيضاً أزمة إقتصادية ودينية وفكرية ، ولاقت الحضارة الغربية ، على اختلاف أشكالها ، مالاقت من الغارات والحروب الأهلية وتجزئة الدولة وضعف التسلسل الكنسي . وفي الحقيقة ، كان القرن العاشر عصر قلق واضطراب وانحراف ، ثم تلتته ، في القرن الحادي عشر ، نهضة بدت تبشيراً للعيان قبل حلول العام ١٠٠٠ .

الأزمة الاقتصادية

انحطاط التجارة . - إن الانحطاط الاقتصادي ، الذي يلاحظ في بداية القرن العاشر ، كان سابقاً لتفتيت الامبراطورية الكارولنجية وظهور النظام الأميري ، ويمكن الصعود به إلى عهد الفتح الاسلامي عندما أغلق البحر المتوسط في وجه التجارة الغربية ، ولكنه تفاقم أيضاً عندما أدت الغارات النورماندية ، بين ٨٣٤ و ٨٤٤ ، إلى تدمير ميناءي دورشيد وكانتوفيك . وكانت الصفات الغالبة على الحالة الاقتصادية ، عندما خلع لويس السمين عن العرش وتداعت الامبراطورية الكارولنجية ، تظهر في

زوال المراكز العمرانية كمواطن، مبادلة ، والاستعاضة عن التجارة الكبرى بالاستهلاك المحلي في داخل الدومين ، وتغلب الحياة الزراعية . ثم أخذت تزداد في النصف الأول من القرن العاشر .

وفي خلال هذا الدور ظل البحر المتوسط وبحر الشمال مغلقين في وجه التجارة الغربية ، ثم جسمت معاودة الهجوم الاسلامي ، في إيطاليا وإسبانيا والبروفانس ، الشروط السابقة . وإذا استقر النورمانديون في فرنسا عام ٩١١ ، فقد أثار ظهور الهونغارين الاضطراب في ألمانيا وإيطاليا والورين وبورغونيا والشمبانيا حتى استحالت القيام بالمعاملات التجارية . وإلى هذه الآلام التي سببها الغزو تضاف الآلام التي ولدتها الحرب الأهلية : فالمنازعات السلية التي عانت خاصة في إيطاليا وفي فرنسا ، وثورات كبار التابعين وجولانهم وأسواطهم زادت في عدم الأمن ، كما أوجد استقرار النظام الأميري عقبات جديدة .

وفي الواقع ، إن الحصون ، بعد أن أفادت كملاجيء في زمن الغارات ، أصبحت في الغالب الأعم وجرأ حقيقة يأوي إليها الأشقياء الذين لم يكتفوا بنهب أراضي الجار بل أثروا بقطع الطرق ونهب التجار الآمنين . وفي ألمانيا ، استطاع هنري الأول وأوتون الكبير أن يحدد أعمال السلب والنهب . أما في فرنسا وإيطاليا فكان من الخطر المغامرة على الطرق الكبرى ، لأن الانسان في كل وقت كان معرضاً للهاجة والنهب . وفي العصر الأميري كانت ضرائب التجار ورسوم المرور التي حافظت الملكية على فائدها زمناً طويلاً ، تعيق التجارة ، ولكنها تخلت عنها أخيراً كسائر الحقوق الملكية الأخرى : وكان على السلع التجارية التي تسير على الطرق أن تدفع رسم الحركة والغبار المثار . أما التي تنقل على الماء

فتدفع : ضريبة الجسر والضفة والميناء . ولم تفسد التجارة من تحويل الضرائب العامة إلى اتاوات دومينية ، بل ازداد عدد الرسوم بسبب التجزئة الأرضية . وكان الأمراء حريصين على زيادة مواردهم ، ولذا أوجدوا رسم المرور دون أن توجد جسور للعبور ، وتوسعوا في جباية الرسوم التجارية من السفن التي لا ترسي . وازداد سعر الرسوم أيضاً وبلغ نسباً مفرطة . ولا عجب إذا قل عدد التجار ، بعد أن هددوا ، في أموالهم وأرواحهم ، وتعرضوا للأخطار التي امتدت في بعض المناطق إلى آخر القرن الحادي عشر.

النظام الدوميني في القرن العاشر . - وبسبب هذه الظروف تسارع التطور الذي بدأ في زمن شارلومان . ان مابيز الحياة الاقتصادية في القرن العاشر هو أنها كانت متمركزة في داخل الدومين أكثر من أي وقت مضى . ففي العصر الكارولنجي امتصت الملكية الكبرى الملكية الصغرى . وقد عاشت هذه الدومينات الكبرى في الغالب : ففي انكلترا بقي ثلثا الأرض في أيدي بعض الأسر النبيلة ؛ وفي ألمانيا ، كان زعيم بيت آل فيلف يمتلك حتى أربعة آلاف مائس . وفي بعض المناطق ، كالبلاد الواقعة على شاطئ بحر الشمال واكتانيا وغاليا الجنوبية ، وكشمال وشرق انكلترا ، كان الملاكون الصغار ، على العكس ، عميين بقوة . أما في غير هذه المناطق فقد أدى نمو النظام التبعية إلى بعض التجزئة ، وتألقت ، على حساب الدومينات الكبرى ، الانتفاعات بشكل أراضي أي الاقطاعات التي أقام فيها الأمراء تابعيهم . ولم تتبدل الشروط الاقتصادية : فقد ظل كل من هذه الدومينات يكتفي بنفسه ويستخدم موارده كلها . وحول مسكن الأمير ، أو الدومين الكنسي ، حول الكنيسة أو الدير ، وجدت الأنبار والأهراء والطاحونة والمعصرة والمشغل التي يعمل فيها التجار والحداد والحياط والنساء اللواتي ينسجن الصوف ويصنعن الثياب .

انحطاط الصناعة . — ولا عجب في مثل هذه الظروف الاقتصادية أن تنمو الحياة الزراعية أكثر من الحياة الصناعية . وقد تراجعت هذه الأخيرة منذ عهد شارلومان وازداد التقهقر في ظل النظام الأميري . فقد زالت كل تجارة تبادل وأصبح الاستهلاك محلياً ، ولم يبق موجب للاهتمام بجذب الزبائن بطرق أفضل وأحسن . وشجعت اخلاق القرن العاشر الفظة والحريية على هذا الركود : فقد نزع حياة المجتمع الى الزوال . وكان صاحب القصر يجهل نعمة البذخ ولا يتطلع ، لارضاه رغباته ، الى أكثر من مائدة عليها ما طاب من صنوف الطعام والشراب . واقتصرت مشاغل الدومين على صنع الأشياء التي لاغنى عنها للحياة اليومية ولا أكثر من ذلك . وكانت تصنع فيها الأسلحة وأدوات الفلاحة ، ولكن لاتعرف كيفية معالجة الفلز المعدني . أما صناعة النسيج فقد اقتصرت على بعض أعمال الغزل والنسيج والصباغة حسب طرق بدائية تماماً . أما في بعض المراكز الممتازة ، كمدن لومبارديا والبندقية ، مثلاً ، فقد حافظت على تقاليد القدية .

ركود الزراعة . — وإذا انحطت الصناعة والتجارة فان الزراعة لم تعدل على أي تقدم ورفق : ان جابلفت النظر في الصكوك هو كثرة الأراضي البور : فقد كانت الأقسام المنخفضة من أوربة الغربية مغطاة بالمراوغ ، بينما كانت الغابات الموسمية (اللاند) في هضاب فرنسا وألمانيا وانكلترا تحتل أماكن واسعة . وكانت الغابة تمتد على ثلثي غالبا ، وعلى كل ألمانيا الوسطى ، وعلى سهول البلاد المنخفضة وإيرلنده وبلاد الغال وثلث انكلترا ، وعلى شمال شرقي اسبانيا وإيطاليا الشمالية ، وتؤلف مورداً هاماً : كانت الغابات التي يؤخذ منها حطب التدفئة تتوالى عموماً مع الغابة ذات الدوحات العالية التي تأتي منها المواد الضرورية للبناء وصناعة العربات وصناعة البراميل . وكان الصيد أيضاً منتجاً للموارد ، وكذلك تربية النحل

الذي يعطي الشمع المستعمل في صنع الشمع العسلي والعسل المستعمل للتفكه وتحضير شراب العسل أو نبيذه . وأخيراً تساق في الغابة قطعان الخنازير عند قطاف البلوط . وفي بعض المناطق ، في الشمال الغربي من فرنسا وفي انكلترا تقطع الغابة مراعى تختلف إليها الخيول والثيران وخاصة الحراف ، دون أن يكون هنالك تربية على سبيل الحصر . وكانت الزراعات قليلة جداً والطرق المستعملة في الزراعة محافظة على طابع لاشكل له : فحتى القرن الحادي عشر كانت الأدوات المستعملة بسيطة للغاية ، مثل الرفش والمحول والنورج والمحراث الحشبي . ولم يعرف استعمال السماد ، حتى ان أكثر الزراعات انتشاراً مثل زراعة الكرمة ، كانت في مرحلة ابتدائية .

اتلاف الأرياف . - ان المخطاط التجارة يوضح جزئياً هذا الركود في الزراعة ، لأن ضيق أسواق الاستهلاك لا يدعو الى الانتاج . غير أن هذا لا يكفي لايضاح أزمة الريف لأن الغارات والحروب الأهلية هي المسؤولة الكبرى عن هذا الانحطاط .

ولكن يجب ألا نعمم ، لأن جميع المناطق لم تصب بدرجة واحدة بهذا الوباء المزدوج : ففي فرنسا ، مثلاً ، نكب الجنوب في وقت متأخر وباقل عمقاً من الشمال ، ولكن مامن بلد في القرن العاشر نجاً بكامله . وسواء أكان المقصود ملوكاً أم اقطاعيين كباراً أم أمراء بسطاء فلا يمكن تصور الحرب دون اتلاف منظم : ففي ٩٣٩ عبر اوتون الكبير الراين واجتاح بلجيكا لاختضاع الدوق جيلبيوت ، وحرق ونهب المناطق التي اجتازها وعاد بالاسلاب والغنائم . وأراد جيلبيوت أن يثأر لنفسه ، فعبر الراين وعاث في البلاد واشعل النيران فحلقت كل شيء حتى الأرض ، وجمعت جيوشه الغنائم وقطعان الحيوانات الكبرى والصغرى . وفي ٩٤٦ نهب الملكان لويس واوتون دون اشفاق المناطق التي اجتاحتها ،

وكان ذلك سهلاً عليها لأن الفلاحين فروا أمامها وتركوا كل شيء .
ويأخذ الألم شكلاً حاداً إذا كان الكلام عن البارونات المجردين من
أي وازع أو رادع أو وسوسة ضمير . ان كتاب « خوارق القديسة
فوا » ، الذي يزخر بالتفاصيل المثيرة عن الحياة الاميرية ، يبين أن فرسان
منطقة الاوفيون ، عندما يتجابهون في حروب دموية وغير مجدية ،
يدمرون بالحديد والنار الدور وأراضي الفلاحين ، ويعدد أمثلة واضحة
مقنعة تماماً . وفي الطرف الآخر من فرنسا ، في نورمانديا ، كان رويبر
بلم من ١٠٠٢ إلى ١٠٠٥ في حرب مع جيرانه ، وعاث في الاراضي
حتى فر الفلاحون وتركوا حقولهم بوراً زمناً طويلاً . وكذا الحال في
كل مكان تقريباً : لقد كانت نتيجة كل حرب اميرية احراق القرى
والحصائل الزراعية ونهب الحيوانات وفي الغالب قتل السكان .

النظام الاميري والطبقات الريفية . - لقد كان سكان الريف
يتحملون نتائج الحروب العامة والخاصة ، وهذا هو السبب في الركود
الزراعي ، كما يتحملون وطأة النظام الاميري الذي أوجد القنانة ، من وجهة
النظر الاجتماعية .

لقد شهد القرن التاسع ، بصهر المعمرين والارقاء الزراعيين ، تشكل
طبقة الأقنان المتعلقين بالأرض . وبما شك فيه أن كان في القرن العاشر
متصرفون أحرار يستغلون الأرض مقابل الاتاوات المحددة ببدل الايجار ،
ولكنهم شكلوا ، في فرنسا وانكلترا كما في ألمانيا وإيطاليا ، استثناء ،
وإذا تركت جانبا بعض التكاليف الملازمة لشرب القنانة التي لا تثقلهم ،
فقد كانوا ملزمين بالالتزامات المتوجبة على الأقنان

وكان لهذا التطور بعض الفوائد : فقد أعطى للرفيقي القديم في
الدومين قطعة أرض ، وثبتت عليها ، وسمع له أن يجد في الزراعة

الموارد الضرورية لاعاشه واعاشه ذويه . أما المعمر القديم الخرف فقد أمن له هذا التطور بعض الحماية . وبالمقابل ، ان استقرار النظام الاميري في الغرب كانت لها أسوأ النتائج لدى مجموع الطبقة الريفية بحذفه كل رقابة لسلطة عليا ، وتسليمه الفلاحين لظلم البارونان الجشعين الطائشين والفظيعين أحياناً ، دون معاذ أو ملاذ ممكن . ولم يعد القن شيئاً من الملكية التي تباع أو تبادل مع الدومين الذي يؤلف جزءاً منها ، أولاً يستطيع الاستغناء عن موافقة أميره في كل مايتعلق بأعمال حياته كالزواج أو الادلاء بشهادته أو نقل أمواله إلى أولاده فحسب ، بل كان عليه أيضاً « أن يدفع ضريبة القامة ويقوم بالسخرة دون رحمة » . كان يدفع ضريبة القامة كلما كان البارون بحاجة إلى المال ، وضريبة الرأس السنوية الثابتة ، ولا يدخل في هذا المعنى أي اعتبار لمورد ، وأخيراً عليه أن يدفع الضريبة التي تتناول الناس الأحرار أيضاً . وكان عليه ، فوق ذلك ، أن يقوم بالسخرة والخدمات الأخرى ، ويتحمل العديد من الضرائب غير المباشرة دون حساب الغرامات التي هي وسيلة أخرى لسلبه قسطاً من موارده . وباختصار كان يؤدي الحقوق الاميرية العديدة التي تثقل كاهل الأشخاص والأراضي . فهو على هذا النحو مسحوق تحت ثقل الضرائب . ومن الوجهة الحقوقية ، كانت حالة الفلاح في صفار دائم تحيط به قساوة الحياة من كل جانب .

التحكم الأميري . - لقد كان التحكم الأميري ، أكثر من تعديد الاتاوات ، أصلاً لجميع الشرور التي تشكو منها الطبقة الريفية في القرن العاشر . وقد رأينا فيما سبق الخسائر التي كانت تسببها الحروب ، ولكن هذه الخسائر لم تكن الوحيدة . فمن ذلك ان الأمير ، إذا وجد قرى أو أراضي مزروعة تضايقه لتنظيم صيده ، لا يتردد في تخريب بعضها

وقلب الأخرى دون أن يهتم بالشقاء الذي يحدثه بعمله . ان ممارسة حق الايواء تعطي مجالاً لمفاسد مطابقة : ويكفي لذلك أن يقرأ في كتاب « خوارق القديس بندكت » قصة وصول اود رابع أولاد روبيير .
التقي إلى قرية جرميني : فمن ذلك أن خدم الأمير ، لاشباع شراسته ونهمه ، وضعوا أيديهم على كل مارجدوه ، وهددوا بالجلد بالسياط الفلاحين الذين يحتجون على متطلباتهم ، واخذوا يجمعون في الكنيسة حصيلة هذه الاغتصابات ، وبينما كان الفقراء يتضورون جوعاً ، كان الخدم يعدون طعاماً تعجز عنه أقوى المعدات ، ويشعلون شموع عيد الفصح لضاءة هذا الافراط في الشرب والاكل . والأمثلة من هذا النوع كثيرة . وان التقاويم لتزخر بهذه المغامرات التي تعتبر دليلاً على انحطاط المعنى الاخلاقي . وبصورة عامة ، لم يكن البارون ليصغي الا لأنانيته الشخصية وظل لامبالياً بآلام الغير ولا يحاسب نفسه على ما اقترفت يداه .

بؤس الفلاح . - وبعد أن رأينا مارأينا من أفعال هؤلاء البارونات نعود فلا نعجب للشقاء الذي كان يلم بالطبقات الريفية في القرن العاشر . لقد انعكس فقر الفلاح على داره ، وهي كوخ من الحشب بسقف من القش وأرض ترابية واصطبل مجاور للسكن ، وعلى أثاث بيته وملابسه وغذائه القاصر على منتجات الأرض التي يتركها له الأمير ويتألف من الحبز الأسود والحضار والالبان ، ومن النادر السمك ولحم الخنزير . وهذه قرائن تدل على شظف في العيش مجرد من كل رفاه وكل فرح وينتهي في الغالب بالجذب المطبق والعدم . ونرى في « خوارق القديس بندكت » المليء بالمعلومات الثمينة عن الحياة الريفية أن قناً من أقنان الابوية فر إلى بورغونيا لانه فقير ؛ وآخر ارتكب سرقات لأنه لم يجد عملاً لسد حاجات أمه العجوز ؛ وآخرين اضطروا إلى التسول لأنهم

لا يملكون شيئاً . وإذا فكرنا بأن حالة الأقنان على الأراضي الكنسية أفضل مما في غيرها فمن الممكن أن نستنتج أن الأرض ، على الاغلب ، في القرن العاشر ، لا تغذي صاحبها . وإذا ما الفائدة من زرعها مادامت حاصلاتها لا تستعمل جملةً إلا في تغذية الجشع الأميري .

المجاعات . - لقد كانت حالة الطبقات الريفية قاسية دوماً وأصبحت مفرجة في بعض الأوقات . ففي حوليات القرن العاشر والحادي عشر تتردد كلمة مجاعة دون انقطاع . وإذا أخذنا بما قاله المؤرخ رؤول غلايير وجدنا أن ثنائي وأربعين سنة عجيبة مرت بين ٩٧٠ و ١٠٤٠ . وليس في ذلك ما يدهش . فقد بلغ تدني التجارة حده الأقصى في القرن العاشر ، وبكفي أن تؤدي الشروط الجوية إلى محصول رديء ، أو أن تحتاج الحرب بلبداً من البلاد حتى تفتقد المواد الأولية الضرورية . وبما لاشك فيه أن كثيراً من المجاعات التي يشير إليها المؤرخون كانت ذات طابع محلي ، ولكن الكارثة كانت أحياناً عامة ، كالمجاعة الكبرى التي حصلت في العام ١٠٠٠ وعانت في العالم الروماني حتى لم تبق منطقة إلا وأعوزها الحبز ، كما كتب رؤول غلايير . ويذكر هذا المؤرخ أن الناس في كثير من الأماكن كانوا فريسة الآلام الفظيعة ، حتى أنهم كانوا يتغذون بلحم الحيوانات والزواحف القذرة بل وأيضاً بلحم الحيوانات والنساء والأطفال . وفي العام ١٠٣١ حدث ما هو أسوأ ، وذلك أن الحرارة أصبحت معاكسة ولم يعد بالامكان وجود أي وقت ملائم لزراعة الأراضي أو الحصاد بسبب المياه التي غمرت الحقول . فقد فاضت الأرض بالامطار المستمرة التهاطل وتعذر البذر . وفي أوقات الحصاد كانت الأعشاب الطفيلة والشيلم تغطي الأرياف . ولم تعط الأرض الطيبة العصر الوسيط - ٥٥

إلا قليلاً جداً . ولم توفر هذه المجاعات إيطاليا وغاليا وانكلترا . وسادت في كل مكان مشاهد الملح والذعر والخوف . وبالرغم من هذه المبالغات التي خرجت على قلم المؤرخ فهي لاتنفي صحة الكثير من الحوادث التي كان لها شاهداً عياناً حزيناً ، كبيع اللحم البشري في أسواق بعض المدن .

الأوبئة . - وكان للمجاعة نتائج أخرى . لأن التغذية السيئة ، التي يجب الاكتفاء بها في أوقات الجذب ، ولدت أوبئة مشؤومة . ويدلنا رؤول غلابير في قصته عن مصائب العام ١٠٣١ أن الجبز في بورغونيا صنع من التواب الأبيض المخلوط بالطحين أو النخالة ، ومالبت الكثيرون بمن تغذوا بهذا الغذاء الفريد الغريب أن تورمت أجسادهم وأودوا . ومن السهل أن ندرك بعد هذا أن نظام التغذية على هذا النحو كان خطراً على الصحة العامة ، ولا نعجب إذا فتك الطاعون بعد المجاعة فجعل أوربه بلاقع خلواً من السكان ثلاثة أعوام . ويشير آندريه فلوري إلى انتشار وباء في اـكيتانيا كان يهاجم عظم الانسان وينخر فيه . أما الجذام فكان نادراً تقريباً ولم ينتشر في أوربه الا بعد الحروب الصليبية .

الأزمة الاجتماعية . - لقد انتابت هذه الآلام من كل نوع سكان الأرياف وزادت الشقاء الملازم للنظام الأميري . ولكن إلى أي حد استسلم الفلاحون لهذا المصير ؟ الحقيقة ان هذه القضية صعبة الحل . فما لاشك فيه أن وجدت هنا وهناك اضطرابات تدل على الاستياء : فمن ذلك أن الفلاحين النورماندين ثاروا عام ٩٩٧ بحجة أن الغابة ، التي يتصرف بها امراؤهم بحرية ، يجب أن تكون تابعة لهم ، وندبوا بعضهم لدعم مطالبهم . ولكن هؤلاء السفراء رجعوا مشوهين وعاد كل منهم إلى محراثه . وهناك حركات أخرى ، كحركة عام ١٠٠٨ في بروقانيا ، تدل على القلق الذي ساور النفوس في عالم الريف . ولاشك في أن

الفلاح ، في بعض الأحيان ، كان يلجأ إلى الطرز السلمية ، كان ينخرط في عصبات السلام ، ولكنه ، حتى القرن الثاني عشر ، لم ينجح في الوصول إلى تحسين قدره . ولذا فان الأزمة الزراعية ، التي لازمت الظلم الاجتماعي بتأثير النظام الطبقي ، لم تضعف الا ببطء شديد .

المخططات الدينية والفكرية

ضعف الروح الدينية . - ان حدة الآلام الاجتماعية الناجمة عن الأزمة الاقتصادية تتضح جزئياً بضعف الروح الدينية . فاذا أساء الأمير استعمال السلطة التي خولها إياه النظم فذلك قبل كل شيء لأنه فقد احترام الأشياء المقدسة بل وحتى أبسط المعاني الأخلاقية . وفي الواقع ان ما يميز قبل كل شيء العالم الاميري في القرن العاشر إنما هو فساد الأخلاق المريع . ولا مرية في أن البارون كان يختلف إلى الكنيسة ويتقبل الأسرار ، وفي ساعة الموت كان يحاول تقديم بعض الهبات والاعطيات ليدفع عنه غضب الله ، وعلان التوبة النصوحة ، ولكن هذه الاعمال المتأخرة ليست إلا بقايا ايمان محروم من كل غذاء فكري وأخلاقي . لقد كان أمير القرن العاشر يعتقد بوجود الله وخلود الروح ولكنه كان يجهل شروط السلام وغير قادر على كسب جماع غرائزه . وكان يرى أن الزنا ذنب لانتيجة له ، وحب الكسب هفوة وزلة صغيرة ، والمرأة رقيقة لتخليد اسمه واشباع رغباته وأهوائه ، والفلاح مادة بشرية يجب استغلالها ما أمكن .

الأخلاق الأسقفية . - وغزت روح العصر الكنيسة أيضاً . لأن زوال الامبراطورية الكارولنجية وضعف السلطة الرومانية وضعها تحت

رحمة الأمراء الذين كانوا ، في كثير من الحالات ، يعينون الأساقفة والآباء عوضاً عن الملك . ولذا ظلت المشاغل الدينية غريبة عن هذه الأسماء الملتطخة بالرشوة والفساد . وعندما أصبحت المدينة الاسقفية امارة لم يعد لإنسان يذكر الاسقف بواجباته الروحية ، فنسي الصفة المقدسة لوظيفته ، وسيطر عليه الاهتمام بالمشاغل الزمنية ، وانزلق في مهاوي الرذيلة . ولقد كتب القديس اودون أب كلوني : « لقد شبع الكهان لحماً وثلثوا غطرسة وجفت قلوبهم بخلاً ، والانهم اللذة ، واقلقهم الحُب ، واستشاطوا غضباً ، وقسمهم الشقاق ، وأفسدهم الحسد ، وقتلهم الفجور » . وتبرهن الحوادث على ان هذا الالب لم يبالغ في قوله ، لأن قوانين المجامع الدينية خاصة ترينا لأي درجة سقط العزب الكنسي في زوايا الاهمال ، حتى بين هيئة الاساقفة . ومن جهة أخرى ، لقد قتل الروح الأميري الروح المسيحي : فمن ذلك ان سالومون كونستانس قضى حياته في الحرب وشارك في المنازعات السياسية في سواب دون أن يتراجع أمام أقبح أنواع العنف . وأصبح ارشامبو سانس في العام ٩٥٨ مطراناً بارادة قريبه . وانغمس الكونت رينو في حياة الفجور ، وكان يهتم بكلابه وعقبانه اكثر من رعاياه ، ويواظب على الصيد أكثر من القيام بالخدمة الإلهية .

انحطاط الأديرة . - وتسلت الاخلاق الوثنية إلى داخل الابويات ، ولولا قوة حواربي الاصلاح الكلوني الاوائل لزالَت التقاليد البندكتية في بداية القرن العاشر . ففي مملكة اللورين ، في سينون وفي جَمبلو ، انتشرت الاباحة والفجور . وفي ايطاليا ، كانت الحالة أكثر قبحاً ، لأن الرهبان كانوا يعلون خليلات منعهن الحياء في بادئ الأمر فاخترت عن الأنظار ، ومالبثن أن أظهرن مفاسدهن في وضع النمار . وفي فرنسا ،

اجتنب الشر بسرعة بفضل التوسع الذي لاقته طريقة كلوني . ولكن الاستقبال السيء ، الذي لاقاه المصلحون ، يبرهن على أن الحالة لم تكن في فرنسا أفضل مما في غيرها من البلاد المجاورة .

وتراكم الخراب المادي إلى جانب هذا الخراب المعنوي . وشكت الكنائس والأديرة بخاصة ويلات الغارات النورماندية والهونغارية والاسلامية حتى ان بعض المناطق ، كما في بافاريا ، السواب ، اللورين ، الشمبانيا ، البورغونيا ، وديان السين واللوار ، ولومبارديا وإيطاليا الجنوبية ، كانت تحتاجها الغارات بصورة دورية ، ولا تكتم قصص المؤرخين وسير القديسين مدى الكارثة . وكان الرهبان ، عندما يقترب البرابرة منهم ، يهجرون الأبواب دون أن يكون لديهم متسع من الوقت يخفون فيه الكنوز المحفوظة لديهم . ولم تهدم الكنائس أو تحرق فحسب ، بل سرقت التحف الفنية وبعثت ، واحترقت المكتبات مع وثائقها الغنية ومخطوطاتها الثمينة . وفي آخر القرن التاسع وبداية القرن العاشر هجر دير مونكاسينو مدة سبع وستين عاماً . وتحت الحاح البابا آغايت جاء بندكتيون من كابو ، في العام ٩٥٠ ، وسكنوا الدير وأعادوا إليه تقاليده المجيدة . وكذا الحال في فرنسا وإنكلترا وألمانيا . وحيث مر الغزاة ابعدت حضارة القرون السابقة .

الانحطاط الفكري . - من المهم أن يؤدي خراب الكنائس والأديرة إلى الانحطاط الفكري والفني . فقد حافظت الكنائس والأديرة في العصر الميروفنجي والكارولنجي بكل تقوى على التقاليد الأدبية القديمة الوثنية والمسيحية ، إلا أن غزو الأبرشيات من قبل أساقفة الأمراء المجردين من كل ثقافة والمهتمين بالمشاغل المادية ، وبعثرة الرهبان أثناء الغارات الكبرى ،

وزوال مدرسة القصر مع الامبراطورية ، كانت ، في القرن العاشر ، ظروفًا قاسية لانتلاءم ونهوض الفكر الغربي .

الأدب الكنسي . - لقد امتاز العصر الكارولنجي بنمو الأدب الكنسي ، وكان قصر اكس - لا - شابل مركزاً للدراسات اللاهوتية التي شعت بصورة واسعة في الخارج . وانتهت هذه الحركة مع الامبراطورية ولم يبق في القرن العاشر لاهوتيون أو فلاسفة . والاسم الوحيد الذي يمكن ذكره هو ديمي اوسيو الذي علم الجدل في رنس ثم في باريس ، ولف عدداً من الكتب ، دون كبير أصالة ، لتفسير الكتاب المقدس والمزامير . وهنا وهناك ، وبخاصة في ايطاليا الجنوبية ، نشرت مجموعات قوانين كنسية في النصف الأول من القرن العاشر وافتت حلقات السلسلة التي تربط القديس ايزيدور الاسبيلي بيوركارد فورمز . وأهم ما يمثل هذا الأدب الكنسي هو هذه المؤلفات التي نشأت عن الجدل الذي رافق حبرية البابا فورمز ، وعن رد الفعل الذي كانت مركزه كلوني ضد روح العصر .

او كسيلوس وفولغاريس . - ولقد حاول الكاهنان او كسيلوس وفولغاريس اثبات صحة الأعمال التي قام بها البابا فورمز وتجريد الاحقاد التي قامت ضد هذا البابا البائس بعد وفاته من سلاحها . وكثير من مجموعاتها التي ضمت النصوص الملائمة لم يكن لها أهمية أدبية . ولكن الأمر يختلف بالنسبة إلى حوارهما وحججهما لصالح البابا ، فقد عرضت بنطق أخاذ .

القديس اودون . - ان الاضطراب الاخلاقي ، الذي تلا الازمة الرومانية في القرن العاشر ، انعكس عند القديس اودون أب كلوني .

فقد كتب بناء على طلب توريون ، اسقف ليموج ، كتاب « المقارنات »
 وصور فيه رذائل المجتمع الكنسي والعلماني بواقعية مفرطة أحياناً . كما
 ترك القديس اودون أيضاً أثراً يتعلق بسير القديسين والليتورجيا . وكان
 اخلاقياً قبل كل شيء ، ولذا لم يكن لبعض الاعتبارات الميتافيزيقية ،
 التي زين بها كتابه ، قيمة كبرى . حتى ان الأدوية ، التي يقترحها
 لمعالجة أمراض زمانه الاجتماعية وتكليف بخاصة مع غيرته الرهبانية ، لم
 تكن ناجعة . وفي الحقيقة ، ان مايجعل له مقاماً في الآداب إنما هو
 هجومه اللاذع على الاكليركيين والعلمانيين الذين أهلكهم الفجور والكبرياء ،
 المصدران السامان لجميع الذنوب الأخرى . وقد أجاد في رسم صورة
 كبار الاقطاعيين الذين يتخذون شتى السبل لملء جيوبهم ، ويكونون على
 استعداد دائم لاستئناس الفقراء ليجعلوا منهم زبائن يجرؤنهم وراءهم بكل
 أهبة ، ويهتمون بالاسراف ، ويجهلون أفراح الفكر والروح ، وتستعبدهم
 الذذة دون القدرة على التفكير بشيء آخر غير هذا الجبال الجسافي الذي
 يقف على الجسد وحده . و « لو أن الناس يرون ما هو كائن تحت الجلد ،
 مثل أوس تراكيا الذي ينفذ بصره ، كما يقول ، إلى جميع الأشياء ،
 لشعروا بنفور عميق لدى رؤية النساء » . ولم يوفر الاكليركيين الذين
 انساقوا أيضاً نحو الهاوية بغطرسة ابليسية . « إن قانون العمل ، الضروري
 لعامة الناس الفانين ، لا يوجد بالنسبة لهم . وهم يهونون في الرذيلة وأيديهم
 مملوءة . وعلى مثال الغني الذي يلبس الارجوان يقضون نهارهم بالمآدب ،
 ويزدانون بالملابس الفاخرة ، ثم ينسون واجباتهم الوظيفية ، وپرثون
 بجسدهم الضائع في مهاوي الفجور . وحسب تعبير الشاعر الكوميدي ،
 ان فينوس لتبرد إذا لم ينتج باخوس وسيريس وفرة كهذه » .
 آتئون فرسي وراثيه لبيج . - لم تولد التطلعات المصلحة كتاباً

عظاماً في داخل الكنيسة العصرية . وقد ترك آنتون ، اسقف فرسي ، من ٩٢٤ الى ٩٦٤ بعض الرسائل وجاؤل فيها ان يعيد الاكليروس الفاسد الى ممارسة حياة افضل ، وكشف هجومه على السيمونية والنيقولاوية عن لاهوتي ورجل عمل وحبر مقدس لم يكن له حماس اودون كلوفي ، ولكنه عرف كيف يجد اللهجة المحببة التي يستطيع ان يؤثر بها في النفوس . اما راتيه ليسج فقد تلمذ على الأب هيلدون ثم أصبح اسقف فيرونه واضطر فيها مراراً الى الحرب امام مقاومة كهانه . توفي في نامور عام ٩٧٤ ، وكان اكثر اصالة من آتون فرسي . واثره الأساسي « المقدمة » الذي افه في سجن بافيا ، حيث زجه ملك ايطاليا ، هورغ ، يضم برنابجا جنديراً لاصلاح الكنيسة أخذ عنه الكتاب اللورينيون فيما بعد ، كما عبر فيه بتظلمات حارة عنه الآلام التي تحملها اثناء اسره

الشعر الحماسي . - اما في الأدب الديني فقد كان الشعر الحماسي ، الذي توحى به الظروف والمناسبات ، يحتل المكان الأول : فعلى عتبة الدور الذي تلا زوال الامبراطورية الكارولنجية اوجت الغارات النورماندية للشاعر الرابع آبتون بالقصيدة المسماة « حصار باريس » . وقد كتبها في ٨٨٨ ، وفيها يقص حصار النورماندين لباريس (٨٨٥ - ٨٨٧) . وتعتبر هذه القصيدة وثيقة ممتازة تزخر بالتفاصيل الممتعة ؛ وبفضلها انتعشت حياة الاشخاص والوقائع بأدوار ملؤها الحياة واللون . فوصف باريس وتحصيناتها ، والمدافعين والمهاجمين ، وقصة الزحف النورماندي ، وغير ذلك ، تقرأ كلها بلذة حقيقية بالرغم من الاخطاء وفساد الذوق والاهتمام بالشكل .

اما « أعمال الملك بيرنجيه » التي تصف النضال الذي قام به ملك ايطاليا فهي ابعد عن ان تكون لها نفس القيمة ، لأنها تخلو من البحث

الصابر ، ويغلب عليها المدح الفخم ، ولكنها تزود بمعلومات قيمة عن المنازعات السلالية التي قامت في شبه الجزيرة الإيطالية .

ريجينون بروم . - اما التاريخ المنشور فلم ينتج ، فإعدادا تكملات الحوليات الكارولنجية ، الا اثرأ له بعض الأهمية وهو : « تاريخ ريجينون بروم » . وليس لهذا التاريخ أهمية الا فيما يتعلق بالحوادث المعاصرة . لأن القسم الأول منه جمع بما ألفه غيره . وكذا الحال في بداية القسم الثاني من ٧٤١ الى ٩٠٦ . اما عمل ريجينون الاصيل فيتضمن تاريخ السنوات الاخيرة من القرن التاسع والسنوات الاولى من القرن العاشر . ويمكن ان يؤخذ عليه قبوله الأخبار الشفوية التي تتناقل حوله ، واستسلامه لتقليد المؤلفين القدامى . ولكن سرده للحوادث ، ببساطة واعتدال ، جعله مستساغاً وابعده عن الجفاف العادي الذي يرى في الحوليات ، فضلاً عن الأحكام التي تصحب سرده وتدل على روح في تقصي الحوادث .

الفقر الأدبي . - توفي ريجينون عام ٩١٥ ولم ينتج التاريخ بعده ، كسائر الأنواع الأدبية الأخرى ، شيئاً يذكر قبل عصر اوتون الكبير ، الذي شهد بداية نهضة أدبية تعاصر وتسائر قليلاً أو كثيراً عودة الامبراطورية . وحتى ذلك التاريخ ، كان العالم الغربي فريسة المحن ، يشكو فقراً فكرياً مدقعاً . وإذا استثنينا المؤلفات التي أثبتنا على ذكرها أعلاه ، لم يكن بين الشعراء الغنائيين من مدرسة القديس - غال ، تلاميذ نوتكر الذي توفي ٩١٢ ومازال ينتسب إلى العصر الكارولنجي ، أو واضعي سير القديسين ، ومنهم القديس اودوث ، من يستحق الوقوف عنده ، وكذا الحال فيما يتعلق بالحياة الفنية في العصر الكارولنجي التي تقاعست موقتاً ، ولكنها بدأت ، في آخر القرن العاشر ، بنهضة رومانسية خلفت دور الغارات الخربة .

القرن الحادي عشر

النهضة الاقتصادية

صفات القرن الحادي عشر العامة . - قامت في الغرب الاوربي حوالي العام ١٠٠٠ نهضة حقيقية ، ولم تبدأ في وقت واحد في جميع البلاد ، كما لم تتناول بنفس الشدة مختلف فروع النشاط البشري ، ولكنها لامستها جميعاً وبشرت ببداية عهد جديد . لقد خلف المنحنى النازل ، الذي سلكه العالم الغربي حتى الآن ، منحنى صاعد يختلف حسب البلاد بين نهاية القرن العاشر في مكان وبداية القرن الحادي عشر في مكان آخر . وسجل عصر الاوتونيين فجر حضارة العصر الوسيط التي بلغت كامل تفتحها في زمن القديس لويس .

لقد اندفعت الحياة الاقتصادية اندفاعاً حاسماً . وإذا لم تحقق الزراعة سوى تقدم خجول ، فعلى الأقل عدت تجارة التبادل إلى مجراها بعد انقطاع ، وحدثت نهضة عمرانية ظهرت نتائجها للعيان في الحياة الاجتماعية .

الاستثمار الزراعي

الظروف الملائمة للنهوض الزراعي . - ارتسمت في القرن الحادي عشر ، وفي تواريخ مختلفة حسب المناطق ، ظروف ملائمة للزراعة . فقد وجد ، في بادئ الأمر ، بعض الاستقرار في النظام الأميري . ففي هذا العصر قويت في ألمانيا سلطة الاساقفة والآباء الأرضية ، وتألفت في فرنسا الشمالية دول اقليمية مركزية قليلاً أو كثيراً استطاع فيها بودون فلاندر الخامس ، وغيلوم الفاتح ، وحتى روبرت الثاني ، بانتظار

لويس السادس ، أن يوطدوا أمناً نسبياً أفاد الفلاح منته . وفي الوقت نفسه قام الأساقفة ، في اكيثانيا ، واللانغدوك ، وبورغونيا ، برد فعل ضد روح العصر وقرروا « سلام الله » الذي انتشر في كل مكان تقريباً وامتد به البابا اوربينو الثاني عام ١٠٩٥ على جميع البلاد المسيحية . وفي هذا العالم المضطرب أخذ النظام بالنشوء ، وحاول كبار الاقطاعيين ترقية الزراعة بحماية الفلاح وتجنبيه الغارات المنظمة التي كانت في العصر السابق تشل نشاطه ، وذلك بتشجيع إحياء الاراضي البور ، وجذب اليد العاملة الضرورية اليها . ويعود الفضل إلى بودون الخامس ، كونت فلاندر ، في أعمال التجفيف الكبرى التي قام بها على طول شاطئ بحر الشمال . وشجعت الكنيسة أيضاً القيام بهذه المبادعات وسبقت غيرها أحياناً : لقد ضمت الاملاك الكبرى الكنسية والديرية المستغلات الزراعية الاولى واستخدمت فيها الطرق العلمية المفيدة التي تزيد المحصول .

التقدم الاجتماعي . - وشجعت الكنيسة أيضاً حركة تحرير الاقنان التي ارتسمت خبطى وتعممت في القرن الثاني عشر . ومنذ آخر القرن العاشر وجد ميثاق ، في « كتاب الاقنان » في مارموتيه ، يعلن بأن تحرير الرقيق عمل خيري صالح . ثم أكد فيما بعد ايف شارتر في رسالة شهيرة بأن جميع الناس سواسية أمام الله الذي لا يميز بين الأحرار والاقنان . فتحرير الرقيق اذن هو اعداد خلود أفضل ، وتأمين في هذا العالم ، لدخل مباشر ، لان القن إذا أراد كسب حريته دفع رسماً مرتفعاً أحياناً ، وفوق ذلك ، قلق كثير من البارونات من الهجرة بسبب ظروف الحياة القاسية . وللحيلولة دون الذهاب زرافات علقوا اقنانهم بالارض التي يفلحونها وحولهم إلى متصرفين احراراً وأخذت اتاواتهم المحدودة تخفف من ثقل ديونهم . ومهما يكن فقد تحقق على الاقل تقدم

اجتماعي ، لان الفلاح الحر لم يعد يدفع ضريبة القامة ويقوم بالسخرة دون رحمة ، بل تحددت التزاماته بعقد ، ولم يعد معرضاً لمضايقات التحكم الاميري ، وتمتع بأمواله بأمن وأصبح لديه من الحماسة ما يجعله يفلح حقله ويزرع كرمه .

زيادة الولادة . - وفي الوقت الذي نهأت فيه هذه الظروف المناسبة لنمو الزراعة أخذت زيادة الولادة تجهز السواعد الضرورية . وإذا نكبت الجماعات والابوثة سكان اورب الغربية في القرن العاشر وبداية الحادي عشر فقد نصلوا إلى الحفاظ على عددهم بل وعلى زيادته . وتكشف الصكوك ، في كل مكان تقريباً ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، عن تشكل قري ، وأكثر من ذلك عن اقبال اليد العاملة الجديدة التي أصبح دورها غالباً .

الضيوف . - وتتألف هذه اليد العاملة من الضيوف الذين ثبتهم كثير من الأمراء ، منذ القرن الحادي عشر ، على أراضيهم البور . وقد وجد في ذلك العصر سكان كثيرون رحل يتألفون من الأقنان الذين غادروا أرضهم لسبب من الأسباب ، وأبناء العائلات من غير الابكار ، وجنود تبعث عن عمل بعد انتهاء الحرب . وليس لدى الجميع إلا فكرة واحدة وهي الخلاص من حياتهم التائهة والعمل في سبيل الأجرة . ولذا وضعوا أنفسهم تحت تصرف الأمراء الكنسيين والعلمانيين الذين يفكرون باحياء غاباتهم وأراضيهم الموات . وكانوا يقيمون بعيداً عن بلدهم الأصلي ويشكلون في الغالب في وسط الغابة تجمعات تضم خمسين داراً . ومن الطبيعي أن يتغير ظرفهم بعد أن نظم بعقد شخصي . وهذا الظرف ، بعد تدخل العقد ، يختلف عن ظرف القن : فقد

عرفت جميع التزامات الضيف ورقم الغرامات التي يدفعها في حال المخالفة ؛ وامتنع الأمير عن قبول أي خدمة غير عادلة ، وأحياناً تخلى عن كل ابتوة في السنوات الأولى التي تلي الإقامة . وبكلمة مختصرة ، ان الضيف حر : وهو تارة مزارع وتارة مستأجر ، وشرطه الحقوقي لا يشبه في شيء شرط القن .

تقدم الاستعمار الزراعي . - لقد لعب الضيوف دوراً عظيماً في تاريخ القرن الحادي عشر الاقتصادي . فقد كانوا رواد أعمال احياء الاراضي الموات وبناء السدود التي غيرت سماء اوربه الغربية . ولا شك في أن تاريخ النهوض الكبير هو القرن الثاني عشر ، ولكن العمل اندفع منذ القرن الحادي عشر . فقد بدى بتجفيف المزارع في جنوب فرنسا وفي الاوفيرن . وفي الفلاندر ، على طول الشاطئ ، بدأ النضال المنظم ضد البحر بواسطة المهاجرين الآتين من الداخل ونشأت أراضي غنية وخصبة بنيت عليها القرى التي تنتهي اسمائها عادة بلفظ كوك أو كاييل . ومن هذه المنطقة الفائضة بالسكان انطلق رواد آخرون أخذوا يجففون مستنقعات (مور) بلاد بريم ويفيدون بتجربتهم المنطقة الواقعة وراء نهر الايلب .

وبفضل هذا الاحياء زرعت أراضي جديدة . وشجع الاكليروس بقوة الاعمال من هذا النوع ، وبالتالي أدرك كثير من الامراء الفائدة التي يجنونها من انقاص الاراضي المغطاة بالاحراج والعواصج . ولتحويل هذه المسافات إلى أراضي مزروعة كان يلجأ عموماً إلى قلع الاعشاب واحراقها وتنظيف الارض من بقايا جذوع الاشجار مما يساعد المحراث على عمله في حرث الارض . وتراجعت الغابة في كل مكان كثيراً أو

قليلاً حسب المناطق . ففي المانيا ، وانكلترا ، وفرنسا ، ومن ثم في اسبانيا ، أخذت الاراضي المحرقة تقسح المجال إلى الاراضي المفلوحة والكروم .

الزراعات الأساسية . - وبين هذه الزراعات التي خلفت الغابة ، يجب أن تذكر الاهمية التي تركت لزراعة الحضر والبساتين . واستطاعت الاديرة خاصة أن تفيد من الحضر والفواكه موارد هامة . وعرفت زراعة الكرمة توسعاً سريعاً في بروتانيا ، حول روان وكوتانس والقديس - برتن في الفلاندر . أما الزراعات الاخرى فقد ظلت في مرحلة دنيا . وظلت الدورة الزراعية الثلاثية بتوالي البور وحبوب الشتاء وحبوب الصيف ؛ وكانت المستغلات ضعيفة الامتداد ، ويستعمل فيها المحراث الحشبي مع البقر حيواناً للحراثة أكثر من الحصان . وكان المددود بهذه الطرق ضعيفاً : فقد كان القرن الحادي عشر عصر أحياء الاراضي ؛ أما عصر التقدم الفني في الزراعة فسيأتي بعد ذلك .

تربية الحيوان . - واقتصرت تربية الحيوان على شيء قليل ، كتربية قطعان الخنازير والاعنام خاصة . وتتوالى بين مسافة وأخرى المروج مع الحقول المزروعة . وفي بعض البلاد ، كما في انكلترا وشمال غربي فرنسا ، بدىء بتربية الابقار مع تفضيل تربية الخيول . وتكاثر هذه الخيول عندما انطلق العالم الاميري في الحملات البعيدة التي كانت تتطلب سلاح الفرسان أكثر من أي حرب بسيطة خاصة .

غنى الطبقة الريفية . - ولا يمكننا أن نصف هذه النتائج الحظي بنهضة زراعية ، بيد أنها تؤلف بوادر مشجعة ، لأن اعداد الوسائل الضرورية لتوسع الزراعة وتحسين المستغلات الزراعية كان ملحوظاً وعظيماً . وباختصار ، إذا تحقق تقدم كبير في القرن الثاني عشر والثالث عشر

خاصة فذلك لأن حالة الارياف ظهرت منذ القرن الحادي عشر على ضوء ملامح :
لقد بدا نقص البؤس بشكل ظاهر ، وندرت منذ ١٠٩٠ سنوات
العوز والجدب ، وازدادت غلة الارض بينما ثبتت الاتاوات الاميرية
وسار الفلاح في طريق اليسر ونهياً للافادة من الغنى العام الذي احداثته
النهضة التجارية .

النهضة التجارية

العودة إلى اقتصاد المبادلة . — وبينما كانت الزراعة تعود إلى الحياة
ببطء كانت التجارة تسجل في القرن الحادي عشر صعوداً عجبياً مطبوعاً ، قبل
كل شيء ، بالعودة إلى اقتصاد المبادلة بعد أن زال بتأثير الغزوات
والغارات . ولقد دعت إلى هذا البعث الجديد أسباب عدة أهمها : عودة
أهمية ميناء البندقية ، وافتتاح المواني الفلاماندية وإنشاء منافذ جديدة .

التجارة البندقية . — إن النمو الاقتصادي الذي لاقته البندقية كان
سابقاً للقرن الحادي عشر . ولقد كان من حسن حظها ان بقيت
تحت الحماية الاغريقية بعد سقوط السيطرة البيزنطية في ايطاليا ، وهذا
ما ساعدها على التخلص من التقلبات السياسية التي هزت شبه الجزيرة بعد
تفتت الامبراطورية الكارولنجية . ونظراً لموقعها الجغرافي في معزل عن
الغارات الاسلامية ، لم تقطع علاقاتها التجارية مع القسطنطينية ، فضلاً
عن أن المعاهدة ، التي وقعتها ، في آذار ٩٩٢ ، مع الامبراطور باصيل
الثاني ، خولتها فوائد جمركية ، وأمنت لها حماية قوية في المواني الشرقية ،
وساعدت على ازدياد تجارتها . أن الدوج بطرس الثاني اوسيلولو (٩٩١ -
١٠٠٩) ، وهو من أحسن صانعي العظمة البندقية ، استطاع على اثر

حملة شهيرة عام (١٠٠٠) أن يحرر الجمهورية من ضريبة كانت تدفعها إلى السلافيين ، وأن يوطد ، في الوقت نفسه ، نفوذه على موافي إيستريا ودالماسيا ، في زارا وسبالاتو وراغوزه ، التي تعتبر مراحل على طريق الشرق . وأخيراً أفادت البندقية من الأعياء الذي ظهر في البلاد الإسلامية الشرقية ، في آخر القرن العاشر ، وفامت بمفاوضات أدت إلى تحويل تجارتها امتيازات في حلب والاسكندرية والقاهرة ودمشق والقيروان وبالرمو . وهكذا القت بقواعد قوتها التجارية : ففي آخر القرن العاشر أصبحت ، بسبب موقعها عند منفذ سهل البو والشعاب الألبية ، وسيطاً بين ألمانيا وإيطاليا من جهة ، والشرق الأريقي والإسلامي من جهة أخرى . وبلغت حركة الميناء نسباً عظيمة . ثم ان روح المبادرة والقيام بالأعمال ، اللذين كشف عنها البنادقة خلال توسعهم الذي تابعوه بانتظام ، كانا ضماناً للمستقبل : فقد كانوا سادة أسواق البحر المتوسط ، وسيخرجون تجارة الغرب من خيالها ويفيدون كهمة وصل بين عالمين منعزلين اقتصادياً وسياسياً ودينياً .

ومنذ القرن العاشر أيضاً ، كانت البندقية تكثف تجارتها مع بيزنطة ، وفي الوقت نفسه تضع المعالم نحو الغرب . فقد انشأت علاقات تجارية مع بافيه ، ثم أفادت من العلاقات الطيبة مع اوتون الأول و اوتون الثاني و اوتون الثالث ، وبسطت نفوذها الاقتصادي على جميع مدن سهل البو ، التي نشأت على الصناعة في بداية القرن العاشر ، وصدرت منها انتاجها الى الخارج . وبفضل المعاهدات التي وقعها مع الإباطرة الجرمانيين حصرت التجارة مع كل هذه المدن . ثم انتشر اشعاعها فيما وراء لومبارديا : فقد بلغت بطريق الشعاب الألبية ، وخاصة برينر وشبلوغن والقدس - برنار ، ألمانيا وغاليا وإسبانيا . وتقدمت موافي البحر التيراني الذي كانت

تمخذه الاساطيل الاسلامية دون انقطاع وظل ممنوعاً على الملاحين . ولذا كان القرن الحادي عشر ، بالنسبة لجمهورية البندقية ، بداية عصر ازدهار سينفتح مع الحرب الصليبية الاولى عندما أمن انشاء الدول اللاتينية في سورية وفلسطين للتجارة البندقية منافذ جديدة .

التجارة الاسكاندينافية . - وفي الوقت الذي القت البندقية فيه قواعد قوتها للمستقبل ، يلاحظ أيضاً يقظة النشاط الاقتصادي في شمال غربي أوربة ، لأن تثبيت الغزاة الاسكاندينافيين، في نورمانديا وفي انكلترا، كان من نتيجته تحويل هؤلاء القرصان الجريئين إلى تجار وديعين . وقد جذبهم الشرق بسحره ايضاً ، وعبروا روسيا بطريق كييف ونوفغورود ، ووصلوا إلى القسطنطينية وبغداد ، ولكن تجارة بحر الشمال والبالتيك ، التي انقطعت بسببهم في القرن التاسع ، اعيدت بعنايتهم . وبفضلهم انفتحت للتجارة تدريجياً الموانئ القائمة على مصبات انهار أوربة الوسطى أو المصبات الانكليزية . وبفضلهم أيضاً استأنفت البلاد المنخفضة نشاطها وموهبتها البحرية بسرعة .

نهضة الحياة البحرية في البلاد المنخفضة . - لقد هيأت الطبيعة البلاد المنخفضة للتجارة . ففيها تلتقي الانهار : الايسكو والموز والراين وتفتح طريقاً عريضه للنفوذ نحو الداخل . ومن جهة أخرى ، ان بحر الشمال ، المحصور بين الجزر البريطانية والقارة ، يؤلف ممراً تستعمله ضرورة الملاحة التي تضم البلاد الشمالية إلى بلاد اوربة الجنوبية الغربية ، وهو في الوقت نفسه رابط طبيعي بين انكلترا والدول التي تواجهها . وفي كل عصر لعبت موانئ الشاطئ الفلاماندي نشاطاً كبيراً انقطع اثناء عصور الكوارث فقط . وقد ظهر فيه ميناء بروج بعد ان دمرت كاتوفيك ودورشتيد

العصر الوسيط - ٥٦

في منتصف القرن التاسع ، وبدأ مستقبلها الزاهر منذ القرن الحادي عشر .
ولا تعرف جيداً الظروف التي أدت إلى هذا التجديد التجاري ،
ولكن الوثائق من كل نوع تشير ، منذ بداية القرن الحادي عشر ، إلى
وجود علاقات بين الفلاندر من جهة ، وانكلترا والدانمارك وبروسيا وروسيا
من جهة أخرى . وإذا لم يكن لدينا فكرة واضحة عن عناصر هذه
التجارة فيبدو البناء المواني الفلاماندية كانت تصدر منذ ذلك الحين
الأمشة الصوفية الناعمة التي كانت تصنع دوماً في داخل البلاد .

وفي آخر القرن الحادي عشر ، تمت نهضة البلاد المنخفضة التجارية ،
واوجد فتح انكلترا ، على يد غليوم الفاتح ، منافذ جديدة ومن جهة
أخرى ، شعت التجارة البندقية ، ووصل التجار الايطاليون إلى الشامانيا
وسيفتلفون ، في بداية القرن الثاني عشر ، إلى عدد من الاسواق الشهيرة ،
وستقوم لمحة بين التيارين التجاريين الكبيرين اللذين نشأ في آخر القرن
العاشر وسيطبع اتصالها التجارة الدولية بطابع جديد .

انشاء أسواق جديدة . - وهذا التوسع التجاري ، الذي سيتوطد
خاصة في القرن الثاني عشر ، سيكون أيضاً نتيجة للتوسع الديني والسياسي .
وفي الوقت الذي تؤمن فيه البندقية حصر العلاقات مع الشرق البيزنطي
وينهض فيه بحر الشمال للحياة ، تفتتح الاسواق في كل مكان تقريباً .
كما أن الضغط التبشيري نحو الشمال الشرقي ، الذي بدأ مع حكم أوتون
الكبير ، أدخل في المسيحية الشعوب السلافية الممتدة فيما وراء الايلب .
وفي الجنوب ، حيث انتظم النزاع ضد النفوذ الاسلامي ، جذبت اسبانيا الفرسان
الغريين وعقدت الصلات الوثيقة مع البلاد المجاورة ، بانتظار الحملة الصليبية
الاولى التي تسهل استئناف التجارة المتوسطية . وكان للنشاط الكثيف
في البلاد المسيحية نصيب في النهضة الاقتصادية : أصبح الحج ، شيئاً فشيئاً ،
في القرن الحادي عشر ، شكلاً من الاشكال الأساسية للتقوى في العصر

الوسيط ، وأخذ الناس يسلكون الطرق المؤدية إلى روما وسنت باق
في كومبوسيل ، وشارتر وبوي ، وتدفعهم الرغبة إلى تقديس انفسهم
بالتوبة ومن الطبيعي ان تكون هذه الطرق التي يسلكها الحجاج مطروقة
بالتجار الذين يجدون رجيمهم في ظواهر الايمان .

ومن جهة ثانية ، أصبحت المواصلات أمينة بفضل عمل الشرطة ، الذي
قام في داخل الاقطاعات الكبرى في آخر القرن الحادي عشر وبداية
القرن الثاني عشر وافاد في حماية الزراعة والتجارة .

وهكذا نهيأت جميع الظروف الاقتصادية والدينية والسياسية
فشجعت النهضة التجارية . واذا انتجت هذه النهضة آثاراً دائمة فهذا يعود
إلى أنها أفادت منذ الأصل من تنظيم فائق دام حتى آخر العصر الوسيط .
تشكيل دابطات التجار . - ان الشكل الأساسي لهذا التنظيم هو
الرابطة التجارية التي وجدت منذ بداية القرن الحادي عشر . فقد كان
التجار ، في الأصل ، كالضيوف ، من بين الشعب العائم المهائم على وجهه
باحثاً عن وسائل عيشه . وقد شعروا بضرورة تجمعهم ، وتفادوا بهذا
التجمع الاخطار على الطرق التي ما زالت غير آمنة ، وقاموا في الوقت نفسه
بأعمال تجارية هامة . وعلى هذا النحو نشأت الرابطات الاولى ، وتآلفت من مغامرين
نشطيين اشتركوا في السراء والضراء ووجدوا جهورهم واستطاعوا أن يثروا .
وشيثاً فشيثاً تمت هذه الروح المتقابلة وتآلفت قافلات حقيقية نظمتها الرابطات
« الغيلد » في الشمال و « الفريري » أو « الشركات » في الجنوب ؛
واستطاعوا أن ينقلوا المنتجات البعيدة جداً عن بلادهم الأصلية . فما يذكر
مثلا في لندن ، منذ القرن العاشر ، وجود تجار متجمعين على هذا النحو
انوا من كولونيا ودينان وروان ، وفيما بعد ، في اسبانيا ، وجود تجار
من شرق فرنسا . وفي القرن الحادي عشر أثرت الغيلد والشركات

وازدهرت في الفلاندر وإيطاليا الشمالية ونورمانديا وبيكارديا ومنطقة السين والبلاد الرينانية . وكان ينظر إليها في البدء بحذر ، ولكنها تمكنت تدريجياً من عطف الناس بعد أن أتت إلى المناطق المعوزة بالسلع الضرورية التي تنقصها ، ومن ثم أعادت اقتصاد المبادلة ، وكانت مصدر رفاه عام للجميع . ولذا لم يفكر أحد باعاقه حريتها أو تحديد أرباحها ، وامتد عملها تدريجياً ، ونشأ عن ذلك نمو واسع في التجارة الدولية .

الطرق التجارية الكبرى . — لقد كانت السبيل التي أخذتها التجارة على صلة وثيقة بالظروف التي انشأتها . فمن البندقية من جهة ، ومن بروج من جهة أخرى ، انطلقت الطرق نحو داخل القارة . ف وراء البندقية ، أصبحت لومبارديا ، في القرن الحادي عشر ، بلداً من انشط بلاد العالم الغربي في الزراعة والصناعة . وعندما خرج المسلمون من بروفانس وساردينيا وصقلية انساق البحر التيراني بدوره في حركة التوسع هذه ؛ وبعد البندقية ، شعرت جنوه وبيزا بوهبتها التجارية ، وأصبحت لومبارديا أكثر من ذي قبل منطقة عبور : وغدت برغام ، فيرونه ، ميلانو ومعظم مدن حوض نهر البو مراحل ضرورية لتنفيذ الجبال . وفيما وراء الالب ، نقلت أنهار الدانوب والراين والرون بدورها المنتجات الآتية من الشرق وإيطاليا ولاامت التجارة البندقية المانيا الوسطى .

وحدث الشيء نفسه للداخل فيما وراء بروج : كانت حركة السفن نشيطة على نهري الايسكو والموز ، وشيئاً فشيئاً خلفت التجارة الداخلية التجارة البحرية ، وأنشئت سلسلة مستودعات في المدن الفلاماندية ، في غاند ، ايبير ، ليل ، تورنيه ، وقلديلا إلى الجنوب ، كامبرية ، فالانسين على الايسكو ، ليج ودينسان على الموز ، كولونيا وماينس على الراين كانت أيضاً تابعة للمواني الفلاماندية . وعلى هذا النحو اقترنت الطرق

التي تنطلق من بروج من الطرق التي يسلكها التجار البنادقة ، وتم الاتصال بين هذه الطرق ، في القرن الثاني عشر ، في الشامانيا ، وأمن هذا اللقاء ازدهار الاسواق التي جعلت من تروا ، بار على الارب ، بروفن ، لاني ، من أشهر الاسواق التي يكثر اليها الاختلاف في عالم العصر الوسيط .

وكانت بروج والبندقية قطبي التجارة الغربية في القرن الحادي عشر . ولم تعرف المواني الأخرى مصيراً لامعاً كهذا المصير . فعلى المحيط ، أخذت روان بعض الأهمية بسبب روابطها السياسية التي تربط نورمانديا بانكلترا ، أما بوردو فلم تستيقظ الا آجلاً . وعلى المتوسط كانت ناربونة في انحطاط عضال ، ولم تنافس مرسيليا جنوة بعد ، الا أن المنطقة المتوسطة من غاليا عادت فربطت ، بعد الحروب الصليبية ، التقاليد القديمة التي كانت في السابق ، وبفضل الاسكندريين أقام البحر الباطيك ملاحنة نشيطة تابعة لحد ما إلى بروج وبحر الشمال .

نهضة الحياة المدنية . - وعلى طول هذه الطرق البحرية أو القارية بعثت المدن . وكلما توسعت التجارة استخدمت أجهزة أكثر : فالى جانب التجار الذين يسافرون دون انقطاع ، كانت تتطلب ، عند عقد المواصلات الكبرى ، وجود يد عاملة مستقرة مقيمة تحمل البضائع وتفرغها ، وتنشئ السفن ، وتصنع العربات ، وبما أنه كان يتوجب تجهيز هذه اليد العاملة بما تحتاج اليه في حياتها ، فقد تم التجمع بتوافد الحجازين واللحامين وصانعي البيوة (الجعة) والحياك . وفي جميع النقاط التي تترك فيها البضائع الطريق المائية لتسلك الطريق البرية أو بالعكس ، وفي النقاط التي تحتشد فيها هذه الطرق أو النقاط التي تتفرع منها ، وبكلمة واحدة ، في أي مكان يتم فيه عمل الحياة التجارية ، تشكلت تكتلات عمال وتجار وأصحاب

مصارف تختلف أهميتهم حسب أهمية المكان الذي هم فيه . وكأنت هذه الضرورات التجارية مصدراً لنمو المدن الذي ارتسم ، حسب تواجد فائق ، على طول هذه الطرق التي المعنا إليها : ففي إيطاليا الشمالية والفلاندر ظهرت المدن الأولى التجارية التي تختلف عن المدن المحصنة التي كان السكان يجدون فيها ملجأ زمن الغارات النورماندية أو الهونغارية .

غير أن فقرنا بالنصوص لا يسمح بمعرفة مختلف أوقات هذا التطور . وفي الأغلب ، كان تجمع التجار ينشأ على جانب التجمع الذي كان موجوداً في السابق : ففي ستراسبورغ ورايتسبون ظهر بجانب المدينة الأسقفية ، وفي غاند في أسفل القصر ، وثارة يكون محصوراً في سور المدينة القديمة التي اتسعت بمناسبة الظروف ، كما هي حال مرسيليا ، وثارة يقوم خارج الأسوار ويؤلف أيضاً ربضاً ملحقاً بالمدينة أو مدينة جديدة تقابل القديمة ، أو ميناء واقعاً على حافة النهر حيث تحمل البضائع وتنزل . ثم أخذ هذا الربض يتجاوز المدينة في الأهمية واغتصب اسمها وأصبح سكانه حوالي العام ١٠٨٠ يسمون البودجوازيين (سكان المدن) مقابل سكان الحصن الذين يسكنون المدينة القديمة المحصنة . وكانت هذه المدينة الجديدة نفسها محاطة بسور يحمي ثرواتها من العدوان الخارجي ؛ ولها كنديستها وسوقها ، وباختصار لقد أصبحت مركزاً حقيقياً للحياة المدنية .

ظهور الصناعة . — لقد أعطى ظهور الصناعات الجديدة التي تجمعت ، حول أماكن المبادلة في أرباض المدن ، نشاطاً كثيفاً ، ولم تعد الصناعة النوميية قادرة على أن تكفي الحاجات التي نجمت عن الغنى العام . وكان الاستهلاك النامي يتطلب إنتاجاً وافرأ وتقنية متطورة وعلى هذا النحو عرفت صناعة النسيج في المدن التجارية ، في لومبارديا والفلاندر ،

منذ القرن الحادي عشر ، نهضة حقيقية : كانت لوقا تصنع الأقمشة ولحراثتها شهرة أكيدة . وتنقصنا المعلومات الدقيقة عن المدن المجاورة ، ولكن استخدام ميلانو ، في القرن الثاني عشر ، ستين ألف عامل لصنع الاصواف الناعمة ، يجعلنا نفترض أن أصول هذه الصناعة تصعد إلى أعلى من ذلك . وكانت الفلاندر ، منذ القرن العاشر ، تصدر الأقمشة إلى انكلترا ، وتستصدر دوييه وغاند واير ، في القرن الثاني عشر ، من هذه الأقمشة إلى جميع الأسواق الأوروبية . وانشئت الصناعات الغذائية ايضاً في كل مكان تقريباً أما الصناعة المعدنية فقد استيقظت بعد زمن طويل ، ويبدو انها لم تغد التجارة الاوربية إلا في وقت متأخر جداً .

طبقة وجهاء المدينة . - ومثل هذه الأحداث لابد وان تتوكل اصداءها في النظام الاجتماعي . كتب هنري ييرن : « ان نشوء المدن يسجل بداية عصر جديد في التاريخ الداخلي لأوربة الغربية ، فحتى ذلك الحين كان المجتمع يضم طبقتين نشيطتين : الاكليروس والطبقة النبيلة . وعندما أخذت الطبقة البورجوازية مكانها إلى جانبها تمته أو بالاحرى انته . ولم يتغير تركيبه حتى آخر النظام القديم » . وفي الواقع ، ان العودة إلى اقتصاد المبادلة فجرت في المدن ارستقراطية تجار أثرت بسرعة . ومنذ القرن الحادي عشر يرى في ايطاليا العليا وفي المدن التي تتسلسل على طول انهار الايسكو ، الموز ، الراين ، الدانوب ، تجار يتعاطون أعمال البنك والتجارة معاً ، وما لبثوا أن أصبحوا اغنياء ووجهاء . وكان الفرسان يبحثون عن بناتهم للزواج طمعاً في مهرهن العظيم ، كما كان يبحث عنهن ايضاً من كانوا يسمون في المدن اللومباردية الزعماء الذين يقابلون الاقطاعية العليا . وهكذا تشكلت طبقة الوجهاء المدنية ،

وكانت تؤلف قوة حقيقية ، لأنها كانت تملك الثروة المنقولة ، الراسمائل التي اصبحت دورها حاسماً في حركة الحياة الاقتصادية .

ولم يكن لهذه الطبقة الوجيهة مكانها في التنظيم الاجتماعي المنبثق عن النظام لأُميري الذي لا يفترض وجودها ، لأن الاقتصاد الدوميني لا يعرف الا الصنّاع بعد أن ردهم إلى حالة شبيهة بحالة الفلاحين . ولذا فإن تجار القرن الحادي عشر الغربيين عن الدومين والآتين من الخارج وجدوا انفسهم على هامش المجتمع ؛ وليس لهم شرط قانوني ولا يعيشون إلا بفضل حالة واقع . وإذا احترم الامراء حريتهم الشخصية ، فلا يعترفون بها حقاً ويجاولون أن ينقلوا معاملاتهم برسوم جائرة ، كحق المرور وضريبة السوق ، وبالغرامات والاثاثات الباهظة جداً من جميع الانواع التي تشل نشاطهم . ومن هنا أخذت العداوات والاحقاد تزداد وسببت بالتالي ثورة حقيقية .

لقد كان التجار اقوياء بوسائلهم المادية التي يتصرفون بها ، وأقوياء بمساعدة الصنّاع والعمال من كل طبقة الذين تتضامن مطالبهم معهم ، ولذا قاموا يدافعون عن مصالحهم المادية وحريتهم ويبحثون في المجتمع عن كسب مكانة رفضت لهم ، ولن يكون هذا ممكناً إلا في اليوم الذي يتحرر فيه الربض من المدينة (البرج) مركز السلطة الاميرية ويكسب مع استقلاله حكماً ذاتياً متحرراً من سلطة صاحب القصر والأسقف . ان الرابطات القوية ، التي تحمي المصالح الاقتصادية وتساندها في الغالب الفرق الدينية والشركات التجارية والاصناف الصناعية ، أعطت قوة الدفع ونسقت جهودها . وبكلمة ، ان النهضة المدنية ، وهي نتيجة عودة اقتصاد المبادلة ، أدت إلى تحرير المدن التي بدلت سماء المجتمع الغربي .

حوسكة تحرير المدن . - كان من المحتم بعد هذا الارتباط الذي يربط الأحداث الاقتصادية والاجتماعية أن تبدأ حركة تحرير المدن في قطبي التجارة ، في ايطاليا الشمالية وفي الفلاندر . وهذا ما حصل فعلاً .

في ايطاليا الشمالية . - ان تفصيلات الحوادث في ايطاليا الشمالية غير معروفة جيداً . فمن المعلوم ان الحكم في البندقية ، قبل ١٠٣٢ ، كان ملكياً ، ولكنها هزت سلطة الدوج الحاكم ومنعته منذ توليه منصبه أن يشرك معه ، خلفاً يختاره . وعلى هذا النحو استعادت طبقة الوجهاء حقها في الانتخاب بعد أن اعمل وعهدت إلى عضوين منها بالاشراف على السلطة التنفيذية . وفي الوقت نفسه ، أي في النصف الأول من القرن الحادي عشر ، حاولت كرييون وميلانو أيضاً أن تتحررا من طغيان الاسقف أو الاقطاعية العليا ، ولكن الفوز لم يكمل دوماً جهود التجار المتحالفين مع الزعماء ، بيد أن المدن اللومباردية توصلت في آخر القرن إلى الحصول على استقلالها . وفي هذا التاريخ ، وجدت الطبقة الوجيهة المدنية نجدة غير منتظرة من البائنايين ، وكان هؤلاء يتألفون من أعضاء الاكليروس الأدنى والشعب النحيل ، مأخوذون بمثل أعلى اخلاقي وبرغبة حارة لحياء الطهر التقليدي في الكنيسة ، فقاموا على الاسقفية السيمونية الفاسدة . وأحدث هذا التحالف نتائج سعيدة ، وتحورت على هذا النحو مدن لومبارديا ، وامتدت الحركة منها إلى البروفانس واللانغدوك .

في الفلاندر وفي شمال فرنسا . - وفي الوقت نفسه تحورت المدن في الفلاندر وفي شمال فرنسا . وأول قومون (مدينة) تحورت كانت قومون كامبريه ولها تاريخ نموذجي خاص : كانت كامبريه في القرن الحادي عشر تابعة للأسقف ، ومع الزمن تشكل حول القصر ربض نشط

فيه التجارة . وفي العام ١٠٧٧ كان السكان على خلاف مع جيرارد الثاني . وقد أفادوا من غياب هذا الحبر في ألمانيا ، حيث ذهب ليتقلد منصبه من يدي الملك هنري الرابع ، وثاروا عليه . وقاد التجار الاغنياء الحركة ، وتبعهم جماهير الصناع وحتى الكليروس ، واتهموا جيرارد بالسيمونية . واستولوا على أبواب المدينة ونادوا باستقلال القومون ونظموا أنفسهم لعودة الأسقف . ولهذا الغاية شكل البورجوازيون رابطة محلفة ومالبت أن أصبحت بالنسبة لغيرها خلية خرج منها النظام القوموني . ولم يتأسك هذا النظام المرئجل ، وعندما عاد الأسقف قضى على القومون ، وانطلق الاندفاع : وبين ١٠٨٠ و ١١٢٠ استطاع كثير من مدن شمال فرنسا مثل سان كنتان ، بوفيه ، آراس ، نويون ، فالانسين ، لان ، آميان ، كوربي سواسون ، بروج ، ليل ، سان - اومير أن تتحرر وان تنشئ فيها ادارة مستقلة . وكانت الحركة في كل مكان على صلة بالتنظيم الاقتصادي : ففي بوفيه ، مثلاً ، قام صنف الصباغين بالمبادعة ، وتألفت تحت رعايته ، كما في كامبريه ، رابطة محلفة اعترف بها الاسقف آنسو أولاً ثم انكرها فيما بعد ، ولكنها تجاوزت دفاعها وبقيت محور التنظيم القوموني . وبصورة عامة يمكن القول ان انشاء القومون كانت نقطة انطلاق ثورة ترافقها كل أنواع الشدة والعنف . ففي لان ، أفاد البورجوازيون ، كما في كامبريه ، من غياب الاسقف غودري ، وهو شخصية فريدة تحب الحرب أكثر من القيام بالطقوس الدينية ولا يتراجع أمام قتل أعدائه ، وعند عودته دخل في نزاع مع القومون ، ثار الصناع عندئذ على الحبر البغيض وأغلقوا دكاكينهم وهاجوا القصر الاسقيفي وانتزعوا غودري من قبوه ونشلوه من قعر برميل اختبأ به وعرضوا جسده لكل اهانة ، ثم احرقوا دور الكليركيين والفرسان . ولكن جميع القومونات لم تنفخ

في مثل هذه الأمواج من الدم ، لأن الثورة تمت أحياناً سليماً ، ومهما يكن طابعها فالنتيجة تبقى نفسها دوماً : وهي أن المدن ، التي انطلقت في حركتها على هذا النحو ، تحررت من أميرها .

الحريات المدنية . - ان ما يميز القومون ، قبل كل شيء ، هو الحرية . وكما يقول المثل الألماني ان هواء المدن يحرر . فقد زالت منها كل عبودية . ويقول هنري بيرن في هذا الصدد : « لقد كانت الحرية في السابق حصراً على الطبقة النبيلة ، ولا يتمتع بها رجل الشعب إلا بصفة استثنائية . وبالمدينة تستعيد الحرية مكانها في المجتمع كصفة طبيعية للمواطن . فيكفي منذ الآن أن يقيم الانسان على الأرض المدنية ليحصل عليها . ان الحرية التي تمتع بها التجار وخدم في الواقع ، هي الآن في الحق رابطة مشتركة بين جميع البورجوازيين » .

ولم يكن الاشخاص يتمتعون وخدم بهذه الحرية ، لأنه لوحظ بحق أنها امتدت على الأرض أيضاً : فقد تغطت المدينة في القرن الثاني عشر بالدور ، ثم ان هذه الدور ، المعفاة من الرسوم الاقطاعية ، أصبحت وراثية . ثم أدى تحرير المدن إلى حذف هذه الرسوم الاقطاعية ، وخاصة الاتاوات الاميرية وضرائب التجار التي تعيق نقل البضائع . ولا شك في أن الأزمة المالية ، التي انتابت معظم المدن المتحررة ، أدت إلى فرض رسوم غير شعبية ، ولكنها ، في الوقت الحاضر ، ليست بذات موضوع : لأن حرية التجارة ، التي أضيفت إلى حرية الاشخاص وحرية الاراضي ، بقيت حسنة من الحسنات الكبرى التي أتت بها الثورات القومونية الأولى .

وهذه الحركة المدنية الناشئة عن اليقظة الاقتصادية احدثت في المضمار التجاري والصناعي تقدماً جديداً أخذ يتوطد في القرن الثاني عشر ،

أي العصر الذي تفتحت فيه النظم البلدية التي طبعت مجتمع العصر الوسيط بسبب جديدة : ان الثروة المنقولة والحرية والاستقلال السياسي أمنت للمدن في العالم الغربي مكاناً هاماً لم تجرأ أن تتطلع اليه حتى ذلك التاريخ .

النهضة الفكرية والفنية

اليقظة الدينية

اشعاع نظام كلوني . - لقد رافق تحسين شروط الحياة المادية الناشئ عن عودة اقتصاد المبلدة ، في القرن الحادي عشر ، تقدم في مضمار الفكر ، وتواجدت مع نهضة التجارة والصناعة نهضة فكرية وفنية . وكان مصدر هذه النهضة اليقظة الدينية التي ارتسمت منذ آخر القرن العاشر وكانت ظاهرتها الاولى الانتشار غير العادي لطريقة كلوني . وإذا بولغ في بعض الأحيان تأثير جمعية كلوني في داخل الكنيسة وأسمي القول ونسب اليها مبادئة الاصلاح الغريغوري ، فلا يسعنا ، بالمقابل ، أن ننزع اسهامها الواسع في العمل الحضاري في القرن الحادي عشر . ففي هذا العصر بلغت أقصى توسعها . ولقد تابع خلفاء القديس اودون ، المتوفى عام ٩٤٢ ، عمله بنفس الاخلاص إلى المثل الأعلى البندكتي وبنفس الذكاء المبدع ، ونفس المتانة الحصة المثمرة . وإذا استثنينا ايام الذي لم يعمل شيئاً سوى ان مر مرور الكرام من (٩٤٢ - ٩٤٨) ، واهتم خاصة بزيادة زمني السير وجدناهم كلهم قد أخذوا مكانهم بين قديسي الكنيسة بعد أن ضربوا في حياتهم المثل لمعاصريهم بسعة جهدهم . فقد وهبوا عمراً طويلاً ونشاطاً يتجاوز الطبيعة البشرية العادية ، وكانوا ، دون انقطاع ، في الطرق والسبل يكتفون فروغهم في كل

مكان ويجذبون بفصاحتهم التي لاتقاوم الأرواح القاسية إلى الرقة الديرية ويعرفون ، في المناسبة ، كيف يستعملون سحر جاذبية الدبلوماسية التي لايحتقرونها . فقد أثار مايول (٩٤٨ - ٩٩٤) ، لتحقيق البرنامج الكلوني ، اهتمام سادة أوربه الغربية ، وخاصة الملوك الكابسين هورغ وروبير . ولم يكن اوديولون (٩٩٤ - ١٠٤٩) بعده أقل مهارة في استغلال الثقة التي يتمتع بها لدى الباباوات والأمراء الزمنيين في صالح الجمعية ، حتى ان جميع اديرة أوربه الغربية تقريباً تبنت الأعراف الكلونية في بداية القرن الثاني عشر .

كلوني والعمل الفكري . - وهذه الأعراف الكلونية ، كما قننت في القاعدة التي حررت في عهد القديس مايول ، تستلهم مباشرة من التقاليد البندكتية وقد غيرت في بعض نقاطها . والتجديد الذي أتت به كلوني هو التفوق الذي خولته للعمل الفكري بالنسبة للعمل اليدوي . ففي بداية القرن الحادي عشر كان آبون فلوري يعتبر ان الوسيلة الناجعة ، التي يكافح الراهب بها الرذيلة وينمي الفضيلة ، هي دراسة الآداب ، ويفرض على تلاميذه واجباً من واجباتهم الاساسية ، نسخ المخطوطات . ولذا فالعلم ، تحت أشكاله المختلفة ، كالنفوذ إلى أسرار الكتاب المقدس أو كشف أحسن الطرق في البناء ، يبدو هدفاً أساسياً ، وعلى الراهب الكلوني أن يسعى إليه . فمنذ عهد برنون كان لكلوني مدرسة ، وقد أدارها القديس اودون قبل أن يصبح أباً ، واكتسب بعدها شهرة عامة . وكان للأبوية عقب تأسيسها مكتبة ضمت ، في منتصف القرن الحادي عشر ، عدداً هاماً من المخطوطات الثمينة المزينة بالمنمنمات ، وجمعت المؤلفات الكبرى التي وضعها آباء الكنيسة . شيئاً فشيئاً قبل الكتاب الدنيويون في الأديرة اللورينية التي نافست بمجاساتها الأديرة الكلونية في دراستها . ولكن القديس

اوديلون اعتبر هؤلاء الكتاب سامين للأفكار، ومع هذا فقد وضعت مؤلفاتهم على الرفوف إلى جانب المؤلفين المقدسين، وأخذ فيرجيل، و أوفيد، وجوفينال مكانهم إلى جانب القديس غريغوار والآباء الآخرين. وأطاعت الفروع بالطبع الدفع الذي تلقته من الابوية الأم، وفي كل مكان في فرنسا، في المانيا، في ايطاليا، كانت الأديرة المرتبطة بـكلوني تتنافس بتقوى على الدراسة: وفي الحقيقة، ان العلم والفن لمدينان كثيراً إلى هذه الأديرة الكارونية.

حركة النسك. - ومع هذا، اصطدم النظام الكلوني ببعض المقاومات. فقد اخذت عليه المركزية الشديدة والبذخ المفرط. وتوضع الشكوى الاولى معارضة الابويات الفلاماندية واللورينية والجرمانية التي فضلت عليه نظاماً أقل شدة كالنظام الذي تبناه مصلحو دير القديس - فان. والشكوى الثانية هي شكوى الأرواح المأخوذة بالمثل الأعلى للنسكي الذي لم تستطع كلوني اشباعه وارضاهه. وعندما جاء القديس بطرس داميان في العام ١٠٦٣ إلى كلوني مفوضاً حبرياً اشتكى من الطعام الذي وجدته موفوراً غزيراً، ونصح الرهبان بأن يقتروا على انفسهم كثيراً، ولكنهم ردوا عليه بأن الحرمان الشديد لا يتلاءم مع العمل الفكري الكثيف. وهكذا نجابه مفهوم الحياة الديرية. وكان مفهوم بطرس داميان مفهوم النسك، وكانوا كثيراً في ايطاليا في القرن الحادي عشر، كما وجدت اديرة للنسك في فرنسا، أرض كلوني، ووجدت منها اديرة للرجال والنساء وأهما دير سينو الذي انشأه في العام ١٠٩٨ روبرت موليسم، وكان هذا الدير يجسد، في آخر القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، النزعة المعارضة لكلوني.

دير سينو. - في العام ١٠٧٥ جمع روبرت، وهو شاب شريف من

الشامبانيا ، في موليسم ، بعض رفاقه وعزموا على ممارسة طريقة القديس بندكت بكاملها . بيد أنه وجد أن النظام قاس جداً فعدل ، كما في كل مكان ، بالانقلاص من العمل اليدوي . ومع هذا فقد احتج كثير من الرهبان ، ومنهم روبر ، ضد هذه الليونة وحصلوا من المفوض الحبري ، هونغ ليون ، على السماح بالبحث عن عزلة جديدة في الغابة الممتدة في جنوب ديجون ، في سيتو ، واقاموا فيها ، في ٢١ آذار ١٠٩٨ . وادخل فيها روبر دير موليسم باعتباره اباً له . ثم امتد دير سيتو وأصبح له أربعة فروع .

تختلف قاعدة سيتو كثيراً عن قاعدة كلوني . ويمكن اختصارها بكلمتين : فقر و امانة . وكان على الدير أن تبني خارج المدن ، ويقض أن تكون وسط الغابات التي يجب قطعها وحياتها للزراعة . ويتألف الطعام فيها من الحضر والماء فقط ، واللباس من بزة فضفاضة يعلوها اسكيم . وينام الرهبان بلباسهم في مهجع مشترك على فراش ووسادة من القش . وقد ارادت سيتو بذلك الرجوع إلى القاعدة البندكتية . ومثل هذا النظام يلائم بصورة افضل العمل اليدوي ، الذي وضع موضع الشرف ، أكثر مما يلائم الثقافة الفكرية التي اقتضت ، بالعكس ، على قراءة الكتاب المقدس وآباء الكنيسة . أما الدراسات الدنيوية فلا تستطع بالفعل أن تساعد في ثقافة الراهب الروحية . ولأن هذا التقييد مع الزمن ، ولكن تلاميذ روبر موليسم أبدوا حيال الاشياء الفكرية احتقاراً واعراضاً يختلفان بشدة مع المثل الأعلى الكلوني . ويرى القديس برنار ، أب كليرفو ، الذي يجسد ابتداء من ١١١٤ حركة سيتو ، أن لا يكون للراهب هدف الا الغوص في تأمل الذات الآلهية ، وأن امانة الجسد تستطيع أن تفجر رؤى الروح .

سينتو وحضارة العصر الوسيط . - ولكن هذا المفهوم للحياة الديوانية يمكن أن يكون خطراً على الحضارة . ومع هذا لم تكن الحال كذلك . لان الشهرة التي تمتعت بها النظم الزعديّة في آخر القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر لم تقطع مصادر الاقبال على كلوني ، وإذا اثار بذخها الغني وبذخ بعض اخواتها ، في ذلك العصر ، النقد اللاذع فقد نبه هذا النقد إلى ضرورة الاصلاح الذي تعلّق به اسم بطرس الجليل اب الدير من ١١٢٢ إلى ١١٥٦ الحلف الأهل للقديس اودون ، والقديس مايول والقديس أوديلون والقديس هوغ . ومن جهة أخرى ، لقد أسهم نظام سينتو ، هو ايضاً ، بهذه الحضارة التي عمل على ازدهارها . لقد اضطر أن يبني كنائس ، وإذا لم تشبه هذه الكنائس بشيء الكنائس الكلونية وكانت مجردة من كل تزيين نحني أو تصويري ، واقتصرت فيها الأثاث على أبسط تعبير له ، فقد ولدت ، رغم كل شيء ، بخطوطها الشديدة والعارية ، شكلاً عظيماً للفن المسيحي ، هذا فضلاً عن ان التقوى السيئوية قد عبرت عن نفسها بصوفية انتجت آثاراً ذات أهمية ادبية رفيعة مثل تفاسير القديس برنار لنشيد الاناشيد .

اصلاح الكنيسة العصرية . - وانتقلت النهضة الدينية من الكنيسة النظامية إلى الكنيسة العصرية . ولكن هذه الأخيرة اقتضت زمناً طويلاً لتتحرر من العادات الوثنية التي افتتحتها أثناء الأزمة التي تلت سقوط الامبراطورية السكارولنجية . ولا شك في أنه وجد هنا وهناك ، منذ القرن العاشر ، اساقفة اتقياء تدفعهم غيرة حارة لحير الارواح ولكن عملهم لم يشمر إلا قليلاً . وقد ازداد عددهم في عصر هنري الثاني في المانيا وروبير التقي في فرنسا . ومع هذا ونستطيع بعد الاصلاح الغريغوري أن نرى نتائج ملموسة . وقد تأكّدت هذه النتائج خاصة في الدور الذي تلا كونكوردات

فورمز (١١٢٢) وجمع لاتران الكبير (١١٢٣) . ولكن ، منذ آخر القرن الحادي عشر ، اخذ الاساقفة الاقطاعيون السيمونيون النيقولاويون ، الذين شجعهم المجمع ، يتكون المكان للرعاة الحقيقيين ، مثل ايف شارتر الذي يمثل النموذج الكامل . ومنعت المجمع الترقية بطفرات . ولم يتوصل من بعد إلى الاسقفية إلا عند بلوغ الثلاثين أو الخامسة والثلاثين وقطع الدرجات المتعاقبة في الاكليريكية . وانتقلت الانتخبات بالتدريج إلى يد الكهنة القانونيين ، وانتظم هؤلاء في كثير من الابريشيات حسب قاعدة القديس اغسطينوس التي طبقت في منتصف القرن الحادي عشر في بعض مجالس الكهنة وتعممت في فرنسا والمانيا وانكلترا . وقد تأثر النظام الكنسي بانتشار هذه القاعدة التي تتضمن ، مع الحياة المشتركة ، نفري الفقر والطاعة . وفي بدايه القرن الثاني عشر قامت صلات بين مختلف هذه الطوائف التي استقرت خارجاً عن الكنائس الكاثدرائية .

المدارس الأسقفية . - وتأثرت الحضارة بتنظيم الابريشيات الجديد وبنمو التقوى التي كانت نتيجة لهذا التنظيم . أليست الدراسة شكلاً من الأشكال الأساسية للحياة الدينية ووسيلة آمنة للوصول إلى الله ! وقبل الاصلاح الغريغوري كان الهم الأساسي للأساقفة ، الذين يقاومون طغيان العصر ، إنشاء المدارس وتنميتها في ظل كاتدرائياتهم ، لأن العلم عندهم لا ينفصل عن التقوى .

التعليم . - وهذه المدارس المختلفة ، ديرية أو أسقفية ، فرنسية أو المانية ، كان برنامج الدراسة فيها لا يختلف في الواحدة عن الأخرى . فقد استمر التعليم في كل واحدة منها كما كانت في زمن شارلومان وحسب الطرق التقليدية : الثلاث أي النحر والبلاغة والجدل ؛ والرابوع ، العصر الوسيط - ٥٧

ويتألف من الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . ومع ذلك ، كان الطالب يتعمق ، حسب مزاجه الشخصي ، بهذا الفن أو ذلك قليلاً أو كثيراً . وتوطد على هذا النحو اختصاص نسبي يفسر كيف أن الأجانب كانوا يقبلون تباعاً على هذه المدرسة أو تلك .

الجدل الديني المذهبي . — ان نهضة المدارس الديرية والأسقفية ، التي رافقت اليقظة الدينية ، توضح لحد عظيم تجديد الحيوية الفكرية التي امتاز بها القرن الحادي عشر . فقد عاد تذوق الدراسة : بديء بقراءة المؤلفين المقدسين والدنيويين ، وأريد من جديد عقد الصلات مع تقاليد آباء الكنيسة وتكييفها مع الحاضر . وهذه الرغبة وحدها تكفي لاعداد حصاد وافر من الكتاب الكسنيين . وجهاز ظهور الهرطقة الجدل بغذاء جديد نشط رقي الفكر . ومنذ آخر القرن العاشر انتشرت مذاهب قريبة من المانوية — الجديدة في شمال فرنسا وانحدرت منه إلى جنوبها ثم إلى ايطاليا . ولا يعلم ماهو مضمونها الصحيح : فهل ذهب تلاميذها حتى المناداة بخلود المادة ؟ لا يمكن الجزم بذلك . وعلى كل حال ، لم يعتقدوا بقوة التعميد ولا بضرورة الممارسات الخارجية وأطرحوا التسلسل الكنسي . وفي آخر القرن الحادي عشر ظهرت هرطقة أخرى وهي هرطقة بيرانجييه التووي فاثارت في العالم المسيحي قلقاً شديداً : لقد درس هذا الراهب في شارتر واقتنع بان جميع القضايا يمكن أن تحل بمجدل واحد ، وطرح في سر القربان المقدس نظريات مناقضة لتعليم الكنيسة التقليدي : فهو لا يرى في هذا السر استعالة تامة ، بل ان الخبز والخمر يحتفظان بجوهرهما حتى بعد التقديس ، بحيث أن المسيح لا يكون تحت هذين العرضين الأقدسين (الخبز والخمر) إلا كائناً روحياً (لا مادياً) وفكرياً . وهذه النظريات الجريئة ، التي شجبتها عدة مجامع ، مالبت أن أثارت ردوداً

أتت من قدامى زملاء بيرانجيه شارتر ، مثل لانفرانك كانتوربوري ، اديلمان ليج ، هوغ بروتوي . وإلى جانب هذا الجدل الافخارستي ، فسحت قضية الثالث بعض الوقت مجالاً إلى أدب غزير نشأ عن نظريات روسلن ، وهو اكليركي من كومين ، شجب في العام ١٠٩٢ في سواسون لأنه جاهر بأن أشخاص الثالث الثلاثة ، مع كونها متطابقة بالارادة وبالقوة ، تبقى مع ذلك متميزة كثلاثة ملائكة أو ثلاثة أرواح .

الجدل حول الاصلاح الغريغوري . - لم تثر المهرطقات وحدها الجدل الفلسفي ، بل ان إصلاح الكنيسة ، الذي تعلق به إسم غريغوار السابع وبدأ قبل خبريته ، أثار بين اللاهوتيين والحقوقيين تصادمات في الأفكار وتبادلات في وجهات النظر ملائمة لحركة أدبية . فنذ منتصف القرن الحادي عشر ، أي من اليوم الذي شجبت فيه السيمونية والنيقولاوية ولاحقها الكرسي الأقدس بشدة ، كانت أنصار هذه المفاصد وخصومها يتجابهون بالأقلام ويدافعون عن حلول متعارضة ، وبعد ١٠٧٥ ، عندما وسع غريغوار السابع ساحة الاصلاح ، تكاثف هذا النشاط الأدبي أيضاً . ولم يدر النقاش حول ضرورة العزب الكنسي فحسب ، بل في أصل الكنائس ، وفي الحقوق العائدة للسلطات الروحية والزمنية ، وفي التفوق الروماني والامتيازات الامبراطورية ، والبحث عن الحجاج في الكتاب المقدس ، وعند آباء الكنيسة ، وفي التاريخ ، ونتج عن ذلك عودة لدراسات الحلق القانوني الكنسي والجدل القلمي .

تحويل العالم الأميري . - لقد ظهر نمو الأدب الكنسي في القرن الحادي عشر مرتبطاً بمختلف ظاهرات اليقظة الدينية . وتجاوزت إحدى هذه الظاهرات حدود العالم الاكليركي وبلغت المجتمع العلماني ، ووجد في

الواقع أمراء واكبر كيون ، وإذا ظل بعضهم خاضعين لأهواء العصر ولا يستطيعون التخلص من رذائلهم ، فان آخرين كيفوا حياتهم تدريجياً مع المبادئ المسيحية الشريفة . ولا شك في أن التطور في هذه الناحية بطيء كثيراً ، ولم يأت بنتائج حقاً إلا في القرن الثالث عشر . ومع هذا ، فمنذ النصف الثاني من القرن الحادي عشر ، ظهرت روح جديدة في العالم الأميري ، وكان تعبيرها الواضح في الحرب الصليبية في اسبانيا والحرب الصليبية في الشرق ؛ وفي الوقت نفسه ، ونحت تأثير مثل أعلى ديني يدفع هذه الحملات التقية ، تحولات بعض النظم وخاصة نظام الفروسية .

الفروسية . - الفارس ، في التعريف ، رجل يقوم بالخدمة العسكرية على الفرس . وهو يأتي في أدنى التسلسل الاقطاعي ، ويتبع سيداً ويرتبط به بيمين الولاء وبمختلف الالتزامات التبعية . وعندما يبلغ سن الرشد ، أي عندما يكون قادراً على القيام بواجبه العسكري « يسلح الشاب النبيل فارساً » ، وكان لهذا الطقس ، في العصر الكارولنجي ، صفة علمانية محضة ، حتى أصبح ، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر نوعاً من تعميم ثان وأخذت رمزيته تتعقد دوماً . وهذا الفارس مؤمن وحياته الأخلاقية ليست دوماً على وفاق تام مع تعاليم الانجيل ، ولكنه ، على الأقل ، يدعو إلى الايمان المسيحي ويتعهد بنشره وحياته . وفي العام ٨٧٨ فرض البابا جان الثامن على جميع الفرسان الذين يريدون أن يكسبوا حياة الخلاوة ، وجوب كفاح الكافرين ، ولا سيما بعد أن أصبح هذا الكفاح ملجأ في القرن الحادي عشر عندما هب العالم الأميري الفرنسي لنجدة المسيحية التي يهددها الاسلام في اسبانيا . وحاولت الكنيسة في الوقت نفسه أن تفرض السلام في الغرب وأن تضع حداً للحروب الخاصة ، واضطرت أن تذكر الفرسان بواجباتهم الدينية . وترينا بعض نصوص

القرن الحادي عشر هذا التدخل عند تقلد الأسلحة : وذلك بأن يبارك
الكلمن السيف ويذكر بأن عليه أن يخدم في الدفاع عن الكنائس
والأرامل والبتامى ، وعلى العموم ، كل خدام الله ضد « فظاعة الوثنيين » .
وفي القرن الثاني عشر ، كان الفارس الشاب يغسل ويلبس قميصاً من
الكتان ، رمز الطهر ، وثوباً أرجوانياً ، صورة الدم الذي يجب أن
يسفكه في سبيل الله ، منتظراً أن يكافح ، وهذا ما يكون أقل أخلاقية ،
في سبيل حب سيدة متزوجة على العموم .

وهذه العواطف الجديدة وجدت تعبيرها في مضار الأدب ، لأن ظهور
الملحمة باللغة العامية ارتبط ارتباطاً وثيقاً بالحرب الصليبية وبتحويل الحرب
الأميرية إلى جهاد (حرب مقدسة) .

الفكر المسيحي في القرن الحادي عشر

كانت النتيجة الأولى لليقظة الدينية نهضة في الفكر المسيحي بأشكال
مختلفة : فقد نهضت الفلسفة واللاهوت والعلوم والحق القانوني الكنسي ، في
آخر القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ، نهوضاً لم تعرفه منذ آخر
عصر آباء الكنيسة .

جيريو . — كان الصانع الأول لهذه النهضة جيريو الاوفيرني (وهو
البابا سيلستر الثاني في المستقبل) . درس دراسة قوية في دير أورياك
الكلوني وأقام في اسبانيا بالقرب من أسقف فيش ، العالم آتون ، ثم أصبح
زعيم مدرسة رنس منتظراً انعام آتون الثاني وآتون الثالث ليجعل منه
مطران رافينه ثم بابا . كان هذا الخبر رجل عمل طبع بطابعه مصير
المسيحية الغربية ، وعالمناً أصيلاً . وبالرغم من أن هذه الأصالة كانت موضع
نزاع في بعض الميادين ، فقد استطاع أن يقف ، قبل البيرو الكبير والقدس

توماس الاكوييني ، على معارف عصره كلها : كان أديباً إنسانياً يحب القديم ، فقد تغذى بأدب فيرجيل وهوراس ولوكن والشعراء اللاتينيين الآخرين ، وكاتباً رشيقاً ، بسيط الأسلوب ، ورسائله المتقنة على الطريقة الشيسثرونية ذات سحر أخاذ ، وموسيقياً وتلميذاً لبويس ، وقد تأثر به وألف نثر على شرف الملائكة ، كما كان لاهوتياً ورياضياً وفيلسوفاً .

والحق يقال ، ان هذه الشخصيات الثلاثة واحدة عنده . فاللاهوت عند جريبر ، لا ينفصل عن العلم والجدل اللذين يقويان معطيائه . وآثاره اللاهوتية خاصة قليلة . وقد حاول أن يوفق بين النظريات المتباينة عند باسكار رادبير ورابان مور في سر القربان المقدس . وإنتاجه العلمي هام جداً : وإذا لم يأت بفاهيم جديدة حقاً ، فعلى الأقل يجب أن نقول ان مامن أحد في عصره دفع بعيداً مثله دراسة الرياضيات باهتمامه قبل كل شيء بالتطبيقات التي تقبلها : اما لأنه يوضح طرق الحساب المعروفة قبله أو يبين كيفية استعمال الجداول الحسابي ، وهو نوع من لوحة ذات اقسام كتبت عليها الأعداد ، واما لأنه يدرس وسائل قياس السطوح ، فيتابع ، قبل كل شيء ، هدفاً عملياً ويتجنب الغوص في النظرية المحضة . وهذا مايؤلف أصالته الحقيقية التي تظهر في الفلك أيضاً : ولا شك في انه في هذه المادة لم يخترع شيئاً ، ولكنه كان عصرياً باهتمامه في جعل هذا العلم يعتمد على مسلمات التجربة ؛ وكان تلميذاً حقيقياً لبطليموس ، فقد عرف عنه مباشرة ، أو على الأقل بالواسطة ، الكرة المسطحة والمدافع ، وطبق الطريقة التجريبية وصنع كرات خاصة لتسجيل أوضاع الكواكب ومتابعة سيرها في السماء ؛ وإذا كان « كتاب الاسطرلاب » أثره ، فيمكن أن يعتبر رائداً . وبفضل الترجمات اللاتينية بدأ بنشر الافكار العربية في الفلك في الغرب . وكان

له في ليج وشارتر تلاميذ امناء لطرقه حاولوا صناعة الادوات الفلكية واستعملها .

وكان تأثير جيريير الفيلسوف كبيراً ، واليه تصعد أصول الجدل . وللأسف لا تعرف مذاهبه إلا من فقرة من ريشيه وصف فيها مناقشة بقيت شهيرة مع اوتريك . وكان عالماً بالمنطق مقتنعاً بان الحقائق اللاهوتية يمكن أن تتوطد بالبرهان . وكان ينزع إلى البرهان بالعقل ما هو معقول . وفي كثير من الاعتبارات نجد ان الحركة الفلسفية ، التي ثبتت في القرن الحادي عشر في شارتر ، جرت على طريقته .

مدرسة شارتر . - ان اسم مدرسة شارتر لا ينفصل عن قضية الكليات التي سادت الجدل الفلسفي في القرن الحادي عشر وما بعده . وقد وضعت القضية في شارتر منذ عصر فولير . وكان يراد تعيين العلاقة التي توجد بين الاحساسات التي يستطيع العقل بواسطتها القبض على اشياء حقيقية والمفاهيم المجردة التي تعمم المعارف الخاصة الناتجة عن الاحساسات . وبتعبير آخر . هل هذه المفاهيم تنطبق على الحقيقة أو هي انشاء فكري بسيط ؟ هل يوجد تطابق بين الشيء المفهوم والشيء الموجود خارج الفكر الذي فهمه ؟ أجاب فولير وتلاميذه ، متأثرين بافلاطون والقديس اغسطينوس بقولهم : يوجد فوق الأشياء المرئية أشياء لا مرئية ولكنها حقيقية ايضاً ، يعود بعضها للعقل ، وبعضها الآخر للايان ، أو ، اذا استعملنا لغة فولير نفسها ، : ان الجواهر الفلسفية وجوهر الله لها حقيقة مستقلة عن الفكر .

ويعارض هذا الموقف الافلاطوني ، للواقعية ، موقف شارتر ، موقف الاسمية « اللفظية » ، وهو موقف ارسطو . يرى هذا الفيلسوف أن ما يوجد في .

الطبيعه هو الفئودي وحده ؛ وبالتالي فان « الكليات » ليست اشياء موجودة محقة فيها ، بل تظهر كمفاهيم مجردة تطابق الحقيقة كثيراً أو قليلاً . ومن هنا اذا اكد بأن الانواع والأجناس كلمات وليست اشياء فلا يوجد الاخطاء ، وقد قطعت هذه الخطوة ، بعد موت فولير ، من قبل بعض تلاميذه الذين لم يشاءوا أن يقبلوا معرفة أخرى غير المعرفة التي تأتي من التجربة . فعوضاً عن ان تلحق الحواس بالعقل والعقل بالايان ، كما فعل فولير ، وهوغ لانغر وآدمان ليسج ، اريد أن تخضع الى مسلمات العقل وحتى مسلمات الايمان الى النقد بحجة ان مايبقى وحده انما هو الأشياء التي ترى وتلمس . وبكلمة ، ان الكلي لا يكون واقعاً . وليس ذلك الا اسماً ، ومن هنا اتت التسمية الاسمية التي اعطيت لهذه النظرية . ولكن الاسمية لم تنجح في شارتر الانجاحاً موقتاً . وفي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ظل المفكرون مخلصين لفكر فولير وتفوقت الواقعية . وكان يمثلها اللامع في بداية القرن الثاني عشر برنار شارتر استاذ جيلبير دولا بوريه وجان سالز بوري ، اكبر فيلسوف فيما وراء الطبيعة في هذه المدرسة . ويظهر من مؤلفات برنار ومن شواهد تلاميذه انه يقسم الكائنات الى ثلاث طبقات : الله ، المادة ، الأشكال البدائية التي تفيض عن العقل الالهي وتتعد بالمادة وتحولها . وكان برنار آخر المفكري الشارترين ، وعنه أخذ الأساتذة الذين علموا في باريس في منتصف القرن الثاني عشر ، واقموا تثبيت المذهب الواقعي ، ولكن في وقت كسفت فيه مدرسة باريس مدرسة شارتر ودشنت مستقبلاً لامعاً .

روسن كومبين . - لقد وجدت النظريات الاسمية ، في خارج مدرسة شارتر ، محامياً مكافحاً في شخص روسن كومبين . ولسوء الحظ لم

يحفظ عنه شيء ، ويعرف خاصة " بوده على القديس آنسلم ، ولكن ينتج من هذه الردود نفسها أن روسلن كان ، في آخر القرن الحادي عشر ، خصماً لا يقاوم للواقعية ، ويرى بأنه لا يوجد في الطبيعة إلا ذاتيات ، وليست الكليات إلا تعابير لفظية ، ولا يسعنا أن نقول مع ذلك بأنه كان يقيم تطابقاً بين الأسماء والأشياء . ويبدو أن نظرياته لم تعش إلا قليلاً بعد الضربات الفظيعة التي وجهها إليها القديس آنسلم أشهر جدليي مدرسة بيك .

القديس آنسلم . - كان القديس آنسلم ، مثل جيرير ، رجل دراسة ورجل عمل ، ولكنه لم يأت إلى العمل إلا آجلاً ورغماً عنه . فقبل أن يصبح مطران كانتوربري ، كان مدير مدرسة ، ثم أب بيك حيث وضع سلفه لانفرانك الدراسات الفلسفية موضع الشرف . لقد كتب كثيراً ، والفت تعاليم الكنيسة على وجود الله وطبيعته ، على الله والخلق ، وحاول أن يدعم معطيات الايمان بحجج العقل ، وان يربط التعاليم الاخلاقية بهذه النظرات الفوق طبيعية .

وإذا اريد تحديد مكان القديس آنسلم بين اتجاهات الفكر الكبرى في العصر الوسيط لوجب أن نصنفه بجانب الواقعيين . فهو يرى أن العدل والحقيقة والخير والأفكار الأخرى من هذا النوع التي يفهمها الفكر لها وجود واقعي ، وفوق الأجناس والأنواع وفوق العالم المحسوس ، يرى الله الوحيد ، العلة والمبدأ لكل الاشياء . ان ما يسيطر على فلسفته ، وبهذا تغنى قضية الكليات بظواهر جديدة ، هو الحجة الكلامية الخاصة بالبرهان على وجود الله الذي يعرفه بأنه أكبر الكائنات ولا يمكن تصور أكبر منه . . وبضيف : « ان مثل هذا الكائن لا يمكن أن يوجد ببساطة في فكرنا الذي يتصوره . وإذا لم يكن فينا إلا بصفة كائن متصور ،

فيمكن أن تصور ، عدا ذلك ، بأنه ، في الواقع ، على ما هو عليه من كمال
اسمى . وإذا كان الكائن الاعظم الذي يمكن تصويره لا يوجد الا في عقلنا
فيكون في الوقت نفسه كما يمكن أن يفهم أنه أعظم ، وهذا مستحيل ،
لأن الكائن الاعظم يوجد ولا شك بشكل لا يمكن أن يتصور أعظم منه
لا في العقل ولا في الواقع .

ان القديس آنسلم ، ببيان الحجة الكلامية التي تجعل الله كائناً شخصياً ،
قوة لا متناهية وخيراً أعظم معاً ، فتح طريقاً جديدة للجدل الفلسفي ،
ولكن ليست هنا أصالته الوحيدة . ان ما يجعله في أصل حركة العصر
الوسيظ ليس هو نظرياته الملهممة من القديس اغسطينوس أو الفلسفة
الافلاطونية الحديثة بل ما هو أكثر ، أي طوقه : فهو أول من طبق
يجزم في العصر الوسيط الجدل في أمور الايمان ، وأدخل الفلسفة في مضمار
ظل حتى الآن محجوزاً للاهوت . ويقول ان الايمان في جوهره لا يعفي
من فهم العقائد التي يعلمها ولا من فهم الكتاب المقدس : وكان يتخذ الايمان
سبيلاً للفهم . وانطلاقاً من الايمان صل إلى العلم مع قبوله بأنه يمكن
بالعقل وحده ، الوصول إلى البرهان على وجود الله وحقيقة بعض العقائد .
ومع هذا ، فان العقل لا يبرهن إلا على الوجود نفسه ، ولكنه لا يعرف
طبيعة هذا الوجود ، وان الايمان وحده قادر على وصفه . العقل يفهم
أن الكائنات المنتهية لا يمكن أن تستمد وجودها من نفسها بل تأخذ
من كائن أعلى هو الله ، أو أيضاً ان كل الأشياء الصالحة تصدر بالضرورة
عن صلاح واحد يسلك سبيل الله ، ولكنه إذا انتهى إلى فكرة الكائن
الكامل فهو لا يعلم النفوذ الى صفاته ، بل ان الايمان وحده يؤدي إلى إله
واحد ومثلث .

الجدل في بداية القرن الثاني عشر . - جذبت هذه الطريقة

المعاصرين ، وأحدثت ، منذ بداية القرن الثاني عشر ، نشاطاً غير عادي . حقاً لقد كان القديس آنسلم أعظم اسم للفكر المسيحي في بداية العصر الوسيط ولكن كان له منافسون . ومن الممكن أن نذكر بين معاصريه ، عدا بمثلي مدرسة شارتر ، اودون ، زعيم مدرسة تورنيه الذي توفي عام ١١١٣ على كرسي أسقفية كامبريه ، وقد طبق النظريات الواقعية على الذنب الأصلي ، وأنسلم لان (حوالي ١٠٥٠ - ١١١٧) تتلمذ في بيك على القديس آنسلم كاتول بري والف مجموعة كبوي تسمى « الأحكام » ، وأخيراً غليوم شامبو الذي تخطى عن مواقف الواقعية وغاص في نوع من اللامبالية . وبموجبها يوجد الواقع نفسه دون تمييز في جميع الأفراد . وقد ارتسم رد الفعل ضد الواقعية عند اديلارد باث ، وكان عالماً وعلى صلة بالطرق التجريبية ، ويرى أن الأنواع والاجناس بالنسبة لها ليست إلا أشكالاً لتصور الفئوي المنبعث عن حدس عميق . وعلى هذا النحو يبشر بفهم جديد لقضية الكليات التي تعلق بها اسم ايلار في منتصف القرن الثاني عشر .

رد الفعل الصوفي . - لقد كان من المهم أن تثير نهضة الفلسفة في القرن الحادي عشر معارضة النساك الذين يرون أن الحياة المسيحية المؤسسة على الايمان تقتضي خاصة جهداً مستمراً نحو الكمال ، وان تبرير العقيدة بحجج العقل اما هو اسراف غير مفيد لوقت ثمين ؛ ولذا فمن الأفضل أن يبحث ، عند تأمل الكتاب المقدس ، عن غذاء اخلاقي معنوي يغذي الروح وينفخ فيها القوة الضرورية لاستكمال السلام ، هذه هي النظرية النسكية والصوفية معاً التي وسعها في منتصف القرن الحادي عشر بفصاحة حارة القديس بطرس داميان .

القديس بطرس داميان . لقد أصبح هذا الناسك بارادة البابا ليتين

التاسع كلدينال أسقف اوستي ، وترك عدداً عظيماً من المؤلفات والرسائل والمواظ والخطب التي توحى بالازدراء العميق للفنون الحرة وبخاصة للجدل العاجز عن بلوغ الله القادر دوماً على قلب منشآت العلم البشري الضعيفة . ومن الافضل ، كما يقول ، التأمل في قصر الحياة وضعف الأشياء البشرية وفي الموت الذي يتبعه يوم الحساب وفي العقوبات الخلدة التي تهددنا ، داعماً هذه الأفكار القاسية بالصوم والجلد والامانات المختلفة الأخرى . ومن هنا ينشأ الحوف من الذنب ، الغاية القصوى للحياة الدينية التي يصل اليها الانسان قطعاً باتصال سرمدي مع كلام الله المحفوظ في الكتاب المقدس أكثر من النقاش في حقيقة الأفكار .

هذا هو النص العادي لكتب ورسائل القديس بطرس داميان ، وقد وجد لتوسيعها لهجات لامثيل لها تجعل منه ممثلاً عالياً للأدب الصوفي قبل القديس برنار . كما أظهر معاصره اوتلوه القديس عسيران (١٠١٠ - ١٠٧٠) الازدراء نفسه حيال الجدل وحرم استعماله على الرهبان . وستظهر هذه الأفكار نفسها في الآجل القريب على لسان مانيغولد لاوتنباخ . ووقفت النزعة الصوفية أمام النزعة العقلانية : وتجاهمت النزعتان في القرن الثاني عشر على يد خصمين عبقريين ايبيلار والقديس برنار .

الآثار الجدلية . - لم يتناول جدل القرن الحادي عشر وحده ميدان الفكر المحض بل ان المناقشات الكبرى التي أتاحها اصلاح الكنيسة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر كان لها صدها الأدبي . فقد نوقشت بادية بدء اشكال الاصلاح : وكان بطرس داميان ، الحواري والناسك معاً ، مقتنعاً بان التبشير لا يكفي لانتراع الاكليروس من حماة الفساد وحب الكسب ، وكتب في النيقولاوية والسيمونية صفائف غراً وفضل فيها اصلاحاً اخلاقياً صعباً ان لم يكن مستحيلاً . وبالمقابل

نجد الكاردينال هبوت مواينموتيه ، وهو من المدرسة اللورينية ، في مطوله « خصوم السيمونية » الذي ظهر عام ١٠٥٨ ، الحق بتحقيق الاصلاح الاخلاقي بتحقيق الاصلاح الكنسي ، وكان أقل عاطفة وأكثر منطقاً من حيس فوته - افيلانا ، ودل على الوسائل التي يتحقق بموجبها انتقاء الهيئة الاسقفية ، الدواء الوحيد للمفاسد التي تفتك في الكنيسة .

وفي حبرية غريغوار السابع ، الذي كان لرسائله الى هرمان متر قيمة أدبية لاجدل فيها ، تطور الجدل نحو أهداف جديدة : فعلى اثر الموقف المعادي ، الذي وقفه الملوك حيال الاصلاح ، احتلت قضية علاقة الكنيسة والدولة المقام الأول : فمن جهة هنري الرابع ، شاد فنريك تريف وبطرس كراسوس ، لتبرير خلع البابا من قبل ملك جرمانيا ، نظرية الملكية الوراثية في الحق الإلهي التي يكون بموجبها الملك ، صورة الله ، غير مسؤول الا أمام الله . أما غريغوار السابع وإنصاره : برنولد كونستانس ، غيارد سالزبورغ ، مانيجولد لاوتباخ فقد وسعوا الكلام الانجيلي الذي أقر سلطة العقد والحل لصالح بطرس ، وتعلقوا بتبرير شمول هذه السلطة التي نقلها بطرس الى خلفائه والتي يجب على الملوك أن يخضعوا لها كسائر الناس الفانين . وكما أشرنا سابقاً يرى مانيجولد أن النظرية الرومانية ترافقها فكرة جريئة خاصة وحديثة جداً : وهي أن ممارسة السيادة مرتبطة بالقيام بالواجب الذي تتضمنه ، وعندما يعتلي الأمير العرش يقوم بين هذا الأمير ورعيته عقد يبقى ساري المفعول مادام الأمير متمسكاً بوعده . ولكن هذا العقد ينكسر في اليوم الذي يخرق هذا العقد بتأديبه في طغيانه . وهذه هي النظرية العقدية للسيادة التي يتناولها العصر الوسيط غالباً وترجع الى مانيجولد لاوتباخ .

ان الطريقة التي اتبعها هؤلاء الجدليون تلفت النظر كافتكارهم . ومهما

يكن الحزب الذي ينتمي اليه الواحد منهم فانه يزعم بان التقاليد الكنسية الى جانبه ويجادل ان يبرهن ، اما بنصوص مقتبسة عن الكتاب المقدس والآباء ، او بحجج تاريخية ، على حقيقة توكيده ، ولكن استعمال النصوص المذكورة أو الحوادث التي استشهد بها ، فيه شيء من السفسة لأن النصوص نفسها والحوادث نفسها اذا فسرت أو نقلت بشكل مغاير أفادت ايضاً في دعم النظريات المعاكسة .

النهضة الحقوقية . — ان طرق الجدل توضع وتشترط من عدة اعتبارات نهضة الحقوق التي هي صفة تلفت النظر في تاريخ القرن الحادي عشر الفكري . لقد كان فقهاء هنري الرابع ، لتبرير نظريتهم في السلطة الملكية ، يستشهدون بعدد من النصوص مقتبسة من الحق الروماني ؛ وكان بطرس كراسوس خاصة ، يعرف قانون جوستينيان ومجموعة الفتاوى التي درسها ولاشك في رافينة حيث كان هذا النوع من الدراسة مزدهراً قبل ان يتركز في بولونيا (في ايطاليا)

ومما الحق الكنسي بصورة موازية للحق الروماني . والحق يقال ان نهوضه كان سابقاً : فمنذ بداية القرن الحادي عشر الف بركارد فورمز في المانيا وآبون فلوري في فرنسا مجموعات قوانين كنسية تفوق مجموعات العصر السالف . وقد تعددت المجموعات ، ابتداءً من حبرية غريغوار السابع ، وأصبحت في آن واحدة منظمة . فقد حرر آتون وآنسلم لوقا والكاردينال دوسدودي مطولات حقيقية للبرهنة ، حسب عناوين الكتاب الأول من مجموعة آنسلم ، على « تفوق الكنيسة الرومانية وسيادتها » وعرفوا ، بفضل جمع النصوص المستعملة ، كيف يبرزون الحقوق والامتيازات ، وعدا ذلك ، تتميز مجموعاتهم عن المجموعات السابقة بكثرة النصوص التي

جمعوها وبالعناية بنسخ النصوص الصحيحة أو على الأقل المعتبرة كما هي في العصر الذي كتبوا فيه .

وهذا الاندفاع الذي أعطي في العصر الغريغوري انتشر في الدور التالي : فمن ذلك أن بونيزون سوتري وايف شارتر وكثير غيرهما ، حرروا بدورهم مجموعات قوانين كنسية ، وأدت الحركة في آخر الأمر الى مجموعة غراسيان وتعتبر الاولى من نوعها .

براية الفن الرومانسي

النهضة الفنية في القرن الحادي عشر . - لقد تأثر الفن ، كالفكر ، بنتائج اليقظة الدينية . وكتب المؤرخ رؤول غلايبر : في السنة الثالثة بعد العام ألف أعيد بناء الكنائس من جديد ، في العالم كله تقريباً ، وبخاصة في ايطاليا وغاليا ... وحدث تنافس عام في بناء الكنائس الجميلة والغنية : وقد قيل ان العالم المسيحي ، بالاجماع ، نزع اسماله العتيقة واكتسى بثوب الكنائس الأبيض » . ينتج عن هذا الشاهد أن كثيراً من العماثر شيدت في القرن الحادي عشر ، وإذا صرفنا النظر عن العماثر التي زالت من الوجود فإن إحصاء المباني يؤيد أقوال المؤرخ . رلسوء الحظ ، ان نقص النصوص وأكثر من ذلك أيضاً صعوبة تكييف النصوص التي حفظت مع المباني التي تتعلق بها ، بسبب الترميمات التي أجريت لها ، لاتساعد على تتبع الانتقال من الفن الكارولنجي ، الذي امتد حتى منتصف القرن العاشر ، إلى الفن الرومانسي ، كما تفتح في كلوني وفيزليه أو في سان - سيرن تولوز . ان تواريخ بناء هذه العماثر الكبرى يحتمل النقاش ولا يوجد اتفاق ، بسبب فقدان النصوص التي يطمأن إليها ، على تحديد الزمن الذي خرج فيه فن التمثال من دور التأس الطويل وتفتح عن منشآت كبرى مثل تركيب مواساك وفيزليه ، فضلاً عن أنه من الصعب من الوجهة

الزمنية إعادة بناء تطور ماسمي « الفن الرومانسي الأول » الذي بدت تبشيره منذ النصف الثاني من القرن العاشر ، وكان فناً أساسياً في القرن الحادي عشر .

ولكن أين نشأ فن البناء الرومانسي ؟ يبدو من دراسة الأعمال التي تناولت هذا الموضوع بالدرس أن هذا الفن رأى النور في منطقتين مختلفتين : منطقة الأوفيون في فرنسا من جهة ، وبلاط البحر المتوسط : في لومبارديا وبروفانس ، وكالونيا ، حيث كانت له قوة توسع كبرى ، من جهة أخرى . وذلك لأن الحفريات كشفت عن أسبقية هذه المناطق ، ومنها انتشر في البلدان الأوربية وتحسن وازدهر .

وصحب هذه النهضة في البناء نهضة في النحت . فقد اختفى فن التمثال تماماً منذ الغارات الجرمانية في القرن الخامس ، ولكنه ظهر تدريجياً في آخر القرن العاشر ، في المناطق التي نشأ فيها فن البناء الرومانسي . كان الفن الرومانسي فن بناء أكثر مما هو فن تزيين ، وقد امتاز باستعمال الحجر المنحوت وظهور العقد الحجري والترتيب المنظم للأشكال والحجوم .

وشاد هذا الفن أبنية علمانية : قصوراً ودوراً وجسوراً وأبنية دينية . وقد ذهب أكثر المباني الأولى وظلت الكنائس دور الله تفوق على دور عباده . ولكن مبادئ البناء والاسلوب واحدة في الأبنية الدينية والدينية . أخذ هذا الفن الجديد عن الفن الروماني والفنون الشرقية (الكنائس الأرمنية والقبة البيزنطية والقوس العربي أو المستعرب) ، وبدت هذه التأثيرات واضحة في التزيين ، وتضاف إليها التأثيرات الأيرلندية والإسكندنافية والجرمانية والبربرية والبدائية ، ولكن الفن الرومانسي يمتاز عنها بسعته وقوته وتجديده في إعطاء الأولوية إلى الحجر لا إلى التزيين : وقد استخدم

الجبر المنحوت والمرصوف فوق بعضه بدقة وضبط على صفوف عوضاً عن الأحجار المختلفة الأشكال المكسرة بغير انتظام والمغموسة في المونة . وهذا ما ساعد على تقدم حاسم في بناء الأقواس والعقود .

أما مخطط الكنائس فكان على شكلين : المخطط بشكل صليب ، وهذا يساعد المؤمنين على التقدم في داخل الكنيسة من الصحن المركزي نحو الجورس ، ومن صحنين أو أربعة صحنون جانبية باجتياز جناح الكنيسة نحو الدعليز الصدراقي الذي يحيط بالجورس وعليه تفتح القابلات المشعة حيث تجل بقايا القديسين . والمخطط الثاني هو المخطط ذو الثلاثة صناديق المتوازية . وهناك مخططات أخرى مثل المخطط الدائري تقليداً لكنيسة القيامة في القدس .

الرسم والمنمنمات . - ومن الملاحظ ، في الواقع أنه إذا وجد في القرن الحادي عشر تجديد شامل في البناء ونهضة في النحت فلا يمكن أن يشار إلى شيء من هذا في الرسم . لقد كان للرسم الجداري والمنمنمات توسع كبير في العصر الكارولنجي وظلت هذه الفنون في القرن الحادي عشر شكلاً أساسياً للفن ولم تخضع بالتالي إلى تحويل جذري . وقد وجد لفن الرسم مدرسة ، في جنوب فرنسا وشمالي إسبانيا ، سبقت مدرسة النحت . كما وجدت مراكز أخرى في ألمانيا وإيطاليا الجنوبية .

الحركة الأدبية في القرن العاشر

صفات النهضة الأدبية . - لقد انبعثت النهضة الفلسفية والنهضة الفنية في القرن الحادي عشر عن اليقظة الدينية التي بدأت في منتصف القرن العاشر وما فتئت تتكاثف حتى الإصلاح الغريغوري . وارتسمت النهضة الأدبية أيضاً حول ٩٦٠ وكانت على صلة بالأحداث السياسية ، وظهرت العصر الوسيط - ٥٨

في أصلها ، كنتيجة لارجاع الامبراطورية على يد اوتون الكبير . وعمل الأباطرة الساكسونيون وأيضاً الامبراطوران اديلبايد وتيوفانو أكثر من غيرهم على إيقاظ الآداب الدنيوية التي وقعت في حال سبات وخبال في النصف الأول من القرن العاشر ، وجذبوا الكتاب إلى بلاطهم ودفعوا نشاط الأديرة . وكان للامبراطور اوتون الثاني بنتان راهبتان ، وقد لعبتا في هذا الاتجاه دوراً حاسماً ، وامتد الدفع إلى الأديرة ، واتجهت هذه المؤسسات الدينية نحو الآداب الدنيوية والجدل ، وظلت فرنسا أرضاً خصبة لها .

التاريخ في عصر اوتون الكبير : ليودبراند كويمون . — ان رجعة الامبراطورية في الغرب ، في ٢ شباط ٩٦٢ ، نشطت المؤرخين . وبعد سنتين على هذا الحادث الف ليودبراند أسقف كريمون كتاباً عنوانه : « كتاب الحوادث التي جرت للامبراطور اوتون الكبير » .

كان ليودبراند يعيش في بلاط بيرانجييه ، ملك ايطاليا ، ثم اختلف معه وأخذ يخدم المصالح الجرمانية في شبه الجزيرة الابيطالية ليشأ من الظلم الذي لحق به واعتبر نفسه ضحيته . والحق يقال ان « أعمال اوتون » لم يكن كتابه الأساسي ، فقد ألف في العام ٩٥٨ كتاباً يسمى « آنتابو دوزيس » وحاول فيه ، بحجة تأليف تاريخ لعصره ، أن يهيء رجعة الامبراطورية مشيداً بمدح العمل الذي قام به اوتون الاول ، ومنكراً لكل من وجهوا السياسة الابيطالية ، منذ آخر القرن التاسع ، مها اختلفت ألقابهم . ولذا فليس لهذا الكتاب سوى قيمة تاريخية ضعيفة . لأنه مؤلف قدح ومدح معاً يكشف عن صفات المؤلف الادبية ، لقد كان ليودبراند يجيد بحبث في سرد قصص حقيقية أو منتحلة ، ولكنها على كل حال ، جائزة على أعدائه ، كما يجيد في رسم صفات وملامح حاكمة أو هجائية ساخرة . لقد كان متكاملاً

لادعاً يعرف كيف يكون في المناسبات مؤثراً ومهيجاً للعواطف : إن سرده للحوادث العسكرية الكبرى في عهد اوتون الكبير يعتبر من أفضل أجزاء مؤلفه .

فيدوكند كورفيه . - وهو مؤرخ آخر للسلاطة الساكسونية في جرمانيا ، ويختلف عن ليودبراند . وتتضمن « الكتب الثلاثة في الحوادث التي جرت للساكسونيين » التي وضعها بين ٩٦٥ و ٩٦٧ ، تاريخ ساكسونيا من أصولها الخرافية حتى عصره ، ويمجد الشعب الساكسوني أكثر بكثير من الملك الذي شرفه ونشر شهرته . وبينما نجد ليودبراند لايهم بالصحة إلا قليلاً ، فان فيدوكند أراد أن يصنع مؤلفاً تاريخياً حقاً وصدقاً : فاجلاله للسلاطة الاوتونية لم يؤثر على حياده ، وعند الحاجة ، احترامه لاعداء الامبراطور العظيم . ويستحق فيدوكند أن يذكر في سجل الكتاب العسكريين ، لأن الصفحات التي خصصها لبعض الوقائع الحربية والثورات قوية في اعتدالها .

وعدا ليودبراند وفيدوكند ، أنتج التاريخ الالماني والايطالي ، في زمن الاوتونيين ، تاريخ نادرة مثل « تاريخ بندكت جبل سقراط » وهو مجموعة كبرى تذكر فيها نوابب البلاد المسيحية بعبارات مؤثرة ، كما تضم تراجم كتبت بشكل مرض وتتناوب فيها التوسيعات التقليدية والقصص الدقيق الذي يتم قصص ليودبراند وفيدوكند .

الشعر الخامس : روزفيتا . - واوحى عمل اوتون الكبير أيضاً بقصيدة حماسية نظمها روزفيتا الراهبة في دير غاندرسهام . وقد تفتحت الموهبة الشعرية لهذه الراهبة الفتية بقراءة الاساطير المأخوذة عن الاناجيل المنتحلة ومن سير القديسين . وبناء على طلب الام جربرج ، ابنة أخ

أوتون الكبير ، بدأت ، بعد تتويج الامبراطور عام ٩٦٢ ، بنظم قصيدة في « أعمال الامبراطور أوتون الاول » ، ومجدت فيها « أعمال قصر اوغست » . وهذه القصيدة تعتبر نصاً رسمياً للحكم لان البلاط نفسه قدم لها وثائقه . بيد أن الحوادث العسكرية والدبلوماسية لا تحتل فيها المكان الذي تحتله في آثار ليوببراند وفيدوكند . وقد ذكرت روزفيتا بركة تقية الحياة الخاصة لاسرة الامبراطور وأظهرت نحوها كل عطف وإجلال : ففي شعرها يبدو أوتون داود ثانياً بعثه الله ليخزي الوثنيين ويؤمن سلام الكنيسة ، وشخصية أرسلتها العناية الإلهية لسلام العالم .

ونظمت روزفيتا قصيدة أخرى تاريخية على شرف ديرها تسمى « مؤسسة دير غاندرسهام » ، وقطعاً مسرحية مجردة من كل عمل ، حتى يمكن أن نوصف بالقصص الحماسية الحوارية . وبالرغم من الغاية الاخلاقية ، التي تعترف فيها بصراحة ، فهي لاتتوانى عن تصوير المشاعر الحسية التي تم عن الهوى العميق . ويبدو تأثير الشاعر اللاتيني تيرانس واضحاً في هذه الآثار الاخيرة . وفي ذلك مايدل على صلة الاديرة الالمانية بالادب القديم .

ايكهارد القديس — غال . — لقد كانت روزفيتا تمثل حركة الشعر في العصر الاوتوني اكثر من أي شخص آخر ، وكان لها منافسون شخص بالذكر منهم ايكهارد راهب دير القديس — غال في سويسرا . نظم في عهد هنري الأول ، أي حوالي العام ٩٣٠ ، قصيدة قص فيها في ١٤٥٦ بيتاً اسطورة فالتاريوس بن ملك اكيثاينا وخطيبته هيلدوغارد ، وتتلخص في انها ارسلت رهيبتين لدى آتيل ، زعيم قبائل الهون ، فأسرهما . ولكنها استطاعا ان ينجوا من الأسر ويتزوجا . وتعتبر هذه القصيدة الغنائية قصيدة قوية بمجد بشكل شخصي فضائل جرمانيا الحربية مع مايعدها من عاطفة مسيحية ظاهرة .

الأدب الرمزي . - وفي الوقت نفسه عرفت قصيدة أخرى ، من نوع آخر ، نجاحاً عظيماً ، وضعها راهب القديس - ايير في مدينة تول على لسان الحيوانات . وقصتها مقتبسة من ايزوب ، ولها طابع رمزي مسيحي : وفيها يصهر الذئب كصورة للشيطان ، بينما يمثل المسيح فيها نارة بأسد ونارة بثعلب . والحيوانات الأخرى تنطق وتعقل وتعيش كالرهبان . وتأثير القديم فيها ظاهر : فقد نهب هوراس و اوفيد وبرودانس فيها بكثرة ، ولكن الاطار فيها أصيل .

النهضة الأدبية في فرنسا . - وتؤكد هذه الآثار المختلفة حيوية المانيا الأدبية في عصر الاوتونيين . وفي فرنسا اقتصر الشعر على بعض المقطوعات الحماسية ، والتاريخ الطبيعي بشعر دون كبير أهمية . ولكن التاريخ مثل بشكل افضل على يد فلودوآر وريشيه .

فلودو آر رنس . - يتمثل تاريخ العصر في فرنسا بأدب فلودوآر رنس وهو مؤرخ فرنجي يكتب باللاتينية . ولد في ايبورن عام ٨٩٤ ومات نحو ٩٦٦ . عمل كاهناً قانونياً في كنيسة رنس . وكتب « تاريخ كنيسة رنس » وحوليات تغطي الدور ٩١٩ - ٩٦٦ . وبالرغم من ميله المفرط للحوادث الاسطورية والعجيبة فان معلوماته بوجه عام موثوقة يطمأن لها . الا انه لا يضاعى من حيث القيمة الادبية ليودبران كرميون بل وحتى فيدوكند كورفيه .

ريشيه راهب دير القديس ريمي . - كان ريشيه راهباً في دير القديس ريمي في مدينة رنس . الف تاريخاً « يشمل الدور ٨٧٩ - ٩٩٥ »، وغم به حوليات هنكمار مطران رنس . وكان ريشيه كاتباً حقاً يهتم قليلاً بالصحة وال ضبط ، معجباً بالمؤلفين اللاتينيين القدامى ، وبخاصة سالوست . فقد كان يقلده باستمرار وبشكل موفق لحسن الحظ . وامتاز دون سائر مؤرخي

عصره بحس مرهف يعرف كيف يصور التفصيلات بمهارة وفنٍ وحياة .
ويعتبر قصصه من أحسن القصص الذي كتب في آخر القرن العاشر .
غير أنه لم يكن في كل ذلك مؤرخاً ، ولذا لا يمكن الاعتماد عليه
والثقة بأخباره .

المركز الأدبية في القرن الحادي عشر

وخارجاً عن الشعر والتاريخ لا نجد في عصر. الاوتونين آثاراً أدبية
هامة جدية بالإشارة الا مؤلفات جيرير . فقد كان مفكراً وكاتباً من
الطراز الأول ورسائله يمكن أن تضاهى رسائل أشهر مؤلفي العصر القديم .
ولذا كانت النهضة محدودة في اغراضها الأدبية كما هي محدودة في الزمان ،
لأن الشعراء بعد زوال السلالة الساكسونية أصبحوا نادرين ، ولا نجد في
القرن الحادي عشر اسماً يمكن أن يوازي روزفيتا : فلا الالماني ريو دلب
الذي وضع أول رواية في الفروسية ، ولا الفرنسي سيرون الذي نظم قصيدة
في مدح غليوم الفاتح وقصيدة في هجو جيلير أب دير القديس مارتن في
مدينة كن* ، ولا الايطالي دونيزون الذي غنى مجد الكونتس ماتيلد ،
يستحقون أن يلفتوا النظر زمناً طويلاً . يضاف إلى ذلك أن التاريخ
زال كنوع أدبي .

وإذا وضعنا جانباً بعض التراجم مثل ترجمة حياة روبير التقي التي
وضعها هيلغو ، و ترجمة كونراد الثاني التي ألفها فييون ، أو بعض المؤلفات
الشخصية مثل تاريخ رؤول غلاير ، وجدنا أن التاريخ قد آل ، حتى عصر
الحروب الصليبية إلى حويلات جافة وباردة تذكر الحوادث دون نظام
ودون أي اهتمام بالتأليف . وهكذا لم تولد بعض الحوادث العظيمة ، مثل

فتح النورماندين لانكلترا ، أو النزاع بين الكهنوت والامبراطورية ، سوى تأريخ مجردة من كل اهتمام ادبي . وفي هذه الطبقة من التأريخ يجب وضع مؤلفات غليوم جوميسج ، وغليوم بواتيه ، وبرنولد كونستانس وايبكهارد اورا . إلا أنه يجب أن نذكر أن هونغ فلافيني وسيجويبر جملو قد وضعوا في آخر القرن الحادي عشر في قصصها بعض النور واللون وذكرنا ، ولو من بعيد ، بكتاب العصر الاوتوني .

مطرزة بايو . - ويضاف إلى هذه المؤلفات مصدر قصصي آخر ، مطرزة بايو . وهي تاريخ مصور على قطعة قماش مطرزة طولها ٧٠ م وعرضها ٥٠ س م وتضم ٦٢٣ شخصاً . تصور هذه المطرزة فتح انكلترا على يد غليوم الفاتح حتى معركة هاستنغز في ٧٩ لوحة مع سلسلة نقوش كتابية . وقد اختلف في تاريخ صنع هذه المطرزة وحامت حولها مناقشات عديدة . ويعتقد من صور الاشخاص المعروفين في محيط غليوم الفاتح ان هذه المطرزة معاصرة له وانها صنعت بأجاء من اسقف بايو ، أخي غليوم ، وتعتبر هذه المطرزة نوعاً حديداً للتاريخ المصور .

مؤرخو الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٥ - ١٠٩٩) . - لقد أوجدت الحرب الصليبية الاولى عدداً من المؤرخين . ولكن هؤلاء وجدوا أمام صعوبات جمة . فمن ذلك ان الحرب وقعت في ديار الاسلام بعيداً عن الغرب الاوربي ، وان الصليبيين الذين اشتركوا في هذه الحرب كانوا يميلون إلى المبالغة في سرد الحوادث ، فضلاً عن ان ذكريات هذه الحوادث قد نسيت مع الزمن وتعاقب الاحداث ، وان الحرب الصليبية قامت في البدء على عناصر فرنسية وما لبثت أن اصبحت مشروعاً دولياً ضخماً ، وكان كل مؤرخ ينزع إلى تمجيد زعمائه وجيشه . ونظراً لكثرة الجيوش

وتعددهما لم يستطع المؤرخون الوقوف على احوالها العامة ، ولكنهم قصوا ما رأوه وما سمعوا به ، وهذا يوضح كثرة الأساطير التي رافقت قصة الحرب الصليبية ، ويدعو الباحثين إلى نقد دقيق للمصادر وتصنيف زمني لمؤرخي هذه الحرب مع دراسة كل منهم دراسة عميقة وافية .

لقد عرف تاريخ الحملة الصليبية الاولى أربعة مصادر معاصرة وهي :

- ١ - « تاريخ الحملة الصليبية الاولى » لمؤلف مجهول .
- ٢ - « تاريخ الفرنجة الذين فتحوا القدس » لمؤلفه ريمون ايفيل .
- ٣ - « تاريخ حملة القدس » لمؤلفه البيوت اكس - لا شابل (آخن) .
- ٤ - « تاريخ القدس » للمؤلف فوشيه شارتر .

وحولت الحرب الصليبية كتابة التاريخ وأخذ هذا التحويل يظهر في بداية القرن الثاني عشر على يد كاتبين هامين : غيير نوجان وسوجر . غيير نوجان . - كان غيير أب نوجان - تحت - كوسي ، وتوفي عام ١١٢٤ . الف ترجمة حياته وتسمى « حياتي » ، قلد فيها تقليداً واضحاً « اعترافات » القديس اغسطينوس ، وهذا الكتاب ينفصل عن الكتب التي كتبت في الوقت نفسه . وفيه يعرض غيير ببساطة حياة الظروف التي خالط فيها ، كما يقص بامتناع ذكريات شبابه وانطباعاته عن البيئة العائلية والارستقراطية في مدينة بوفيه حيث عاش باديء بدء ، ويرسم الأطوار الأساسية لتاريخ ديره وكنيسة لان ، دون أن ينسى الثورة القومونية التي ترك عنها قصة مبتذلة قليلاً ولا تذكر في شيء الحوليات الجافة التي وصلنا بها تاريخ القرن الحادي عشر السيامي والديني .

سوجر . - ونجد الصفات الأدبية نفسها في حياة لويس السادس

لمؤلفه سوجر أب دير القديس - دوني ، وكان قصاصاً بارعاً يجيد وصف الحوادث وتمييز نفسية الشخصيات . والصورة التي تركها عن لويس السادس ، رغم أنها مطبوعة بالاعجاب العميق ، تظل حقيقية ومخلصة ، ويوجد في هذا الاخلاص نفسه شيء مؤثر يضاف إلى سحر « حياة لويس السادس » . ورغم ان سوجر كان عقلاً راجحاً ، فهذا لا ينفي عنه الحماسة : فقد استهوته الذكريات المتعلقة بديره ، وعندما اخفق هنري الخامس في عام ١١٢٤ فاضت وطنيته بشيء من الغناء . وقد أخذ عليه نقص ذوقه ورشاقته الناعمة ، واسلوبه المعقد الذي يقلد فيه المؤلفين القدامى . ورغم هذه المثالب تبقى « حياة لويس السادس » ، بعفويتها وصدقها ، أثراً من اطلاق الأدب اللاتيني في بداية القرن الثاني عشر .

مجموعات الرسائل : ايف شارتر . - ومن الممكن أن نضع ، بصورة ، موازية لحياة لويس السادس ، رسائل ايف شارتر التي تدشن مجموعات رسائل القرن الثاني عشر . كان ايف حقوقياً ، ساهم في الأمور السياسية ، ومشاوراً يصغي اليه الباباوات ويعملون بنصحه في كل ما يهم علاقاتهم مع كنيسة فرنسا والملكية . وهذا ما خوله سلطة واسعة . وقد ترك أكثر من ثلثائة رسالة موجهة في معظمها إلى الملوك والاساقفة . وفي هذه المراسلات معلومات ثمينة تتعلق بتاريخ السنوات الاخيرة من القرن الحادي عشر والسنوات الاولى من القرن الثاني عشر . وفيها نجد صورة الشخصيات المرموقة ، وقد رسمت بحماسة ورشاقة تجعل قراءتها جذابة ومثيرة .

والى جانب رسائل ايف يمكن ذكر رسائل أخرى لا تخلو من فائدة وتؤكد تقدم اللغة اللاتينية في فرنسا .
ظهور الشعر في اللغة العامية . - ومع هذا فان هذه اللغة

اللاتينية ستمهي أمام اللغة العامية ، لغة وائل في الشمال ، ولغة أوك في الجنوب ، التي نفذت في فرنسا الى الأدب في القرن الحادي عشر . وهذه ميزة من مميزات النهضة التي أتينا على ذكر مراحلها الأساسية . فنذ النصف الاول من القرن كتبت سير قديسين شعراً : ألم المسيح ، سيرة القديس ليجه ، سيرة القديس الكيس في شبل فرنسا ، سيرة القديسة فوا في اللاندوك ، ويجب ان نضيف اليها قصيدة عن بويس الشاعر اللاتيني . وربما يجب ان نرى في ذلك شكلاً بدائياً وتقياً لأغاني الفخر التي ستنجح في الآجل القريب .

أغاني الفخر الاولى . — أغاني الفخر هي ملاحم باللغة العامية بمجد اعمال بعض الشخصيات المشهورة بمغامراتها ومآثر بطولتها . وكان هذا النوع من الأدب في نشأته على صلة وثيقة بالحوادث الكبرى التي مرت في القرن الحادي عشر وأهمها الحجاج والحرب الصليبية . ففي الأديرة الممتدة على طول الطرق المؤدية الى دور العبادة والمزارات ، وفي الطرق الموصلة الى اسبانيا كان المنشدون ، على وفاق مع الرهبان ، يجدون ويوسعون في غنائهم المراحل التي مرفها تاريخ الأديرة التي ذكرت باختصار في الحوليات . وفي الحرب ، التي دارت رحاها في اسبانيا في منتصف القرن الحادي عشر ، استيقظت ذكرى المنازعات الكبرى التي اصطدمت فيها المسيحية بالاسلام واخذت تقوى . وكان الفرنسيون الذين يعبرون جبال البيرينه يتغنون بذكرى شارلومان الذي سبقهم ومر في هذه الطريق :

غير ان معظم اغاني الفخر التي ترجع الى القرن الحادي عشر مفقودة اليوم ولا تعلم الا من الاشارة اليها في النصوص . ومع ذلك فقد احتفظ بقصيدة « ايزامبارت وغورمون » التي يرجع تاريخها الى السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر وتغني انتصار ملك الفرنجة . وبين ١١١٠

و ١١٢٠ ظهرت ، أشهر هذه الملاحم ، « اغنية رولان » ، وهي قصيدة تتألف من اربعة الاف بيت نحمد فيها قصة طويلة لحادث عسكري وهو مقتل مؤخره جيش شارلومان في شعب رونسفال (رونسوف) عام ٧٧٨ وتعددت فيها اعمال البطولة وانعكست حوادث الحرب الصليبية في اسبانيا ، وظهر رولان ورجاله يكافحون كفاح المستميت اربعمائة الف مسلم ويتركون انفسهم يقتلون على ارض المعركة دون ان يطلبوا أي نجدة . وهؤلاء الابطال يمثلون الفرسان الفرنسيين الذين بذلوا دماءهم على تراب شبه جزيرة ايبيريا دون حساب في سبيل الدفاع عن الايمان المسيحي .

الشعراء الطوافون الأوائل . - ورأى هذا العصر نفسه نشأة اوائل الشعراء الطوافين . ففي آخر القرن الحادي عشر تحول العالم الأميري ، في بعض المناطق على الأقل ، ولانت الاخلاق ، حتى ان البارون الذي ما كان ليحلم حتى ذلك الحين الا بالحرب والشرب سماً شيئاً فشيئاً نحو تمتع ادق وانعم . وهذا التطور محسوس بخاصة في الجنوب الغربي من فرنسا في منطقة اكيثانيا التي تمثل فيها رقة المناخ ووفرة الموارد الى العيش الهادئ والبطالة . وفي هذه المنطقة ظهر الشعر الغنائي : وكان اول الشعراء الطوافين الدوق غليوم التاسع . وهذا الأمير الذي لاتأخذه أي وسوسة دينية كان شهوانياً يحب الكسب ، وغير قادر على ان يأخذ الأمور الحظيرة ، كالحرب الصليبية وبين الزواج ، مأخذ الجد ، كما كان مستعداً لتضحية كل شيء في سبيل اهوائه وجهه . وقد ترك احدى عشرة قصيدة يمتزج فيها الحساسية بالشهوانية كما تنسي النغمات العلوية الخلاعة الروحية . وفي العام ١١٠١ ، أي عندما سافر للحرب الصليبية ، بعد لامبالاة مفرطة ، أعرب عن ندمه برصانة مؤثرة فاضت بالشعر الجميل ، وهذا لم يمنعه من ان يحمر في حاشيته عدداً من المخططات اللاتي ، اذا اخذنا بقول المؤرخ

- ٩٢٤ -

جوفروا فيجوا ، اسهمن في اخفاق الحملة واوحين الى الدوق الحوّل
القلّب بأشعار اقل ابداعاً .

الحبوية الأدبية والفنية في القرن الحادي عشر . لقد كانت اغنية
رولان واشعار غليوم اكينانيا نقطه انطلاق لحركة شعرية واسعة باللغات
الرومانسية ، اللغات المشتقة من اللغة اللاتينية والسابقة للغة الفرنسية من
من الوجهة التاريخية ، . والقرن الحادي عشر ، في الأدب كما في الفن ،
ليس الا فجعراً ، ولكنه فجر حضارة متألفة تفتحت في القرنين التاليين ،
بينما استمر التحول الواسع الديني والاجتماعي والسياسي الذي نهيأ في
الوقت نفسه .

★ ★ ★

الفهرس

المقدمة

العصر الوسيط

الفصل الأول

نهاية العالم الروماني والغارات الكبرى

الغارات الهبرية الكبرى ١٤ . الجرمانيون ١٦ . الهون ٢٢ .

الفصل الثاني

نتائج الغارات

اثر البرابرة السياسي والاجتماعي ٣٠ . اثر البرابرة في الحياة الاقتصادية ٣٥ .
العمران المدني ٤٠ . الحياة الزراعية ٤٤ . نتائج الغارات الدينية والثقافية ٤٦
اثر البرابرة الفني ٥٨ .

الفصل الثالث

المدخل إلى تاريخ الكنيسة

الكنيسة في العصر الروماني ٦٠ . يسوع المسيح ٦٢ . تعاليم يسوع مؤسس
الكنيسة ٦٢ . الرسل وانتشار المسيحية ٦٣ . تنظيم الكنيسة ٦٥ . الرهبانية ٧١
باكوم مؤسس الحياة البيرية ٧٢ .

- ٩٢٦ -

الفصل الرابع

المملكة الفرنجية

حكم السلالة الميروفنجية

٤٨١ - ٧٥٢

الفرنجية ٧٥ . كلوفيس ٧٧ . خلفاء كلوفيس ٨٠ . نزاع الملكات ٨٢ .
عصر حجاب القصر ٨٤ . قدامى السكارولنجيين وأثر شارل مارتل ٨٦ . حكم
كارلومان وبين ٩١ . انقلاب بين القصير ٩٢ . بين والبابا ٩٣ . فتح سبتانيا ٩٨
فتح اkitانيا ٩٨ . علاقة بين مع الكنيسة ٩٩ . علاقته مع الشرق ٩٩ .

الفصل الخامس

الحضارة الميروفنجية

الحياة الاقتصادية

الزراعة ١٠٠ . التجارة ١٠٣ . النقل ١٠٥ . العملة ١٠٧ . الصناعة ١٠٨
المدن ١٠٩ . الفن : البناء ١١١ . التصوير والنحت ١١٢ . الفسيفساء ١١٣ .
التصوير والمنعمات ١١٣ . الكتابة ١١٣ . فن الصياغة ١١٤ . الآداب : الادب
١١٥ . التاريخ : غريغوار اسقف تور ١١٩ . سير القديسين ١٢٠ . كسوف اللغة
اللاتينية الاتباعية ١٢١ . الاخلاق والعادات والمجتمع : بلاط الملك ١١٢ .
انحطاط الميروفنجيين ١٢٣ . الحجاب والادواق ١٢٣ . الشعب ١٢٤ . الوبئة
والامراض والمجاعات ١٢٥ . الاضطرابات النفسانية ١٢٥ . أسس القومية
الفرنسية : ظهور فرنسا ٢٢٥ . فرنسا العصر الوسيط ١٢٩ . نشأة فرنسا ١٣٠

- ٩٢٧ -

الفصل السادس

الكنيسة في العصر الميروفنجي

الاسقف ١٣١ . كفاح العقيدة ضد الهرطقات ١٣٥ . المجامع الدينية ١٤٦
التعليم ١٣٦ . صبء الوثنيين ١٣٧ . تبشير القرى ١٣٨ . أصل الحياة الديرية في
غاليا ١٣٨ . الاديرة ١٣٩ . الرهبان الايرانديون ١٤٠ . قاعدة القديس بندكت
١٤١ . عبادة القديسين ١٤٤ . المخلفات ١٤٤ . المسيحية والوثنية ١٤٥ طقوس
التوبة ١٤٦ .

المملكة الفرنجية

حكم السلالة الكارولنجية

٧٦٨ - ٨٩٩

الفصل السابع

تأسيس الامبراطورية الكارولنجية في الغرب

٧٦٨ - ٨٠٠

بداية الحكم ١٥٠ . شارلومان وايطاليا ١٥٢ ، توسع الفرنجة في الشمال
الشرقي : خضوع الفريز ١٥٨ . فتح ساكس ١٥٩ . التوسع الفرنجي في الجنوب
الشرقي : خضوع بافاريا . خضوع الآفار ١٦٣ . التوسع نحو الجنوب والغرب :
شارلومان واسبانيا ١٦٤ . فتح التتخوم الاسبانية ١٦٦ . علاقة شارلومان
بانكلترا ١٦٨ .

- ٩٢٨ -

الفصل الثامن

امبراطورية شارلوماز

٨٠٠ - ٨١٤

تتويج شارلومان ١٧١ . الخلاف مع بيزنطة ١٧٦ . حكم شارلومان (٨٠٠ - ٨١٤) ١٧٩ . نهاية حكم شارلومان ١٨١ . وفاة شارلومان ١٨٦ .

الفصل التاسع

الامبراطورية الكارولنجية

من وفاة شارلومان الى معاهدة فردن

٨١٤ - ٨٤٣

سياسة لويس التقي العامة ١٨٧ . براءة ٨١٧ (اوردناسيو آميري) ١٨٩
عصيان برنارد في ايطاليا ١٩٢ . دستور روما (٨٢٤) ١٩٣ . السياسة الخارجية
١٩٤ . بواذر الازمة في الامبراطورية ١٩٦ . ثورة (٨٣٠) ١٩٨ . ارجاع
لويس التقي الى السلطة ٢٠٢ . وفاة لويس التقي ٢٠٥ . النزاع بين اولاد لويس
التقي ٢٠٥ . معاهدة فردن (آب ٨٤٣) ٢٠٨ .

الفصل العاشر

الممالك الفرنجية والامبراطورية الكارولنجية

٨٤٣ - ٨٨٧

من معاهدة فردن إلى وفاة لوثير الاول

٨٤٣ - ٨٥٥

نظام الاخاء ٢١٠ . حكم لويس الثاني في ايطاليا ٢١١ . شابل الاصلع ٢١٢

— ٩٢٩ —

بملكة لويس الجرمانى ٢١٤. امبراطورية الغرب من وفاة لوثير الاول الى وفاه لوثير الثاني (٨٥٥ — ٨٧٠) ٢١٥. دعوى توتبرج زوجة لوثير الثاني ٢١٧. امبراطورية الغرب من وفاة لوثير الثاني الى وفاة شارل الاصلع (٨٧٠ — ٨٧٧) ٢٢٣. امبراطورية الغرب من وفاة شارل الاصلع الى خلع شارل السمين (٨٧٧ — ٨٨٧) ٢٢٦.

الفصل الحادي عشر

نهاية الامبراطورية الكارولنجية

٨٨٧ — ٨٩٩

تجزئة الامبراطورية الى ممالك

آرنولف ملك جرمانيا ٢٣٠. اود ملك فرنسا ٢٣١. بملكة بروفانس ٢٣٣. بملكة بورغونديا ٢٣٤. بملكة اللورين ٢٣٥. ايطاليا ٢٣٦. ايطاليا البيزنطية ٢٣٨. بقاء فكرة الامبراطورية في الغرب ٢٣٩. محاولة ارجاع الامبراطورية: خطط البابا ايتين الخامس ٢٣٩. امبراطورية غي سبوليت (٢١ شباط ٨٩١) ٢٤٢. حملة آرنوف الاولى في ايطاليا (٨٩٤) ٢٤٣. عودة آرنولف ٢٤٤. حملة آرنولف وتتويجه (٨٩٥ — ٨٩٦) ٢٤٥. مرض آرنولف ووفاته ٢٤٥. نهاية الامبراطورية الكارولنجية ٢٤٦.

الفصل الثاني عشر

الكنيسة في العصر الكارولنجي

انتشار المسيحية في اوربة وتنظيم الكنيسة الفرنجية ٢٤٩. الجدل والمهرطقات ٢٥٣. البابوية والملكية الكارولنجية ٢٦٠.

العصر الوسيط — ٥٩

- ٩٣٠ -

الفصل الثالث عشر

الحضارة الكارولنجية

الحياة الاقتصادية

الزراعة ٢٦٩ . التجارة ٢٧٤ . الصناعة ٢٧٧ . النقد ٢٧٩ . الحياة الفكرية : النهضة الكارولنجية ٢٨٠ . تطور النهضة وفتحها ٢٨٤ . الانواع الادبية ٢٨٥ . التاريخ ٢٨٨ . التراجم ٢٨٩ . كتب السياسة ٢٩٠ . تاريخ الاسقفيات والاديرة ٢٩١ . سير القديسين ٢٩١ . اللاهوت والفلسفة ٢٩٢ . مناقشات في سر القربان المقدس ٢٩٣ . الجبرية ٢٩٣ . اسهام الاغريق في النهضة الكارولنجية ٢٩٤ . الحياة الفنية ٢٩٦ . المباني الكارولنجية ٢٩٧ . الرسوم والفسيفساء ٢٩٨ . فن الصياغة ٢٩٩ . البرونز ٢٧٩ . العاج ٢٩٩ . النحت على الحجر ٢٩٩ .

الفصل الرابع عشر

النظم الميروفنجية

الاستبداد الملكي

الملكية نظام أساسي ٣٠٢ . سلطه الملك على الكنيسة ٣٠٦ . الضرائب ٣٠٩ . النقد ٣١٠ . الخدمة العسكرية ٣١٠ . العدل الروماني ٣١٢ . العدل الجرمني ٣١٢ . تبني النظام الجرمني ٣١٢ . المساواة السياسية بين الرعايا ٣١٤ . طبقة الشيوخ ٣١٤ . الطبقة النبيلة ووظائف البلاط ٣١٤ . الادارة المركزية المزعومة ٣١٥ . محكمة القصر ٣١٧ . القصر عاصمة متنقلة ٣١٧ . بهاء الملكية الزائفة ٣١٨ . الفوضى والاسراف ٣١٩ . انحطاط الضريبة العقارية ٣٢٠ . كثرة الضرائب غير المباشرة ٣٢٠ . الحصانات ٣٢٠ . خراب الادارة النقدية

٣٢١ . زوال الدومين العقاري ٣٢٢ . ضعف السلطة الملكية ودمارها : سلبية السكان ٣٢٣ . قوة القصر ٣٢٤ . القصور الشرعي وسلطة القصر ٣٢٥ . ظفر القصر ٣٢٦ . الأدواق ٣٢٧ . حاجب القصر ٣٢٧ . الكبار وحاجب القصر ٣٢٨ .

الفصل الخامس عشر

النظم الكارولنجية

فكرة الدولة ٣٢٩ . الملكية والوصول إلى العرش ٣٢٩ . الحكم الملكي المطلق ٣٣٠ . الملك المشرع ٣٣١ . الامتيازات الاخرى ٣٣٢ . الامبراطورية والوصول إلى المنصب الامبراطوري ٣٣٣ . السلطة الامبراطورية ٣٣٣ . القصر ٣٣٤ . الديوان الملكي والقابلة الملكية ٣٣٥ . المفتشون والتعقيق ٣٣٦ . الكونتات والكونتيات ٣٣٦ . الثغور والدوقيات ٣٣٧ . الدوائر والعمال الملحقون ٣٣٨ . التنظيم القضائي ، (المألوس) ٣٣٩ . أصول المحاكمات وحق الاثبات ٣٣٩ . محكمة القصر ٣٤٠ . شخصية الحقوق ٣٤٠ . الجيش ٣٤١ . الاسطول ٣٤٢ . النقد ٣٤٢ . الواردات الملكية ٣٤٣ . الحصانة ٣٤٤ . استريا ٣٤٥ . الامارات اللومباردية في جنوب ايطاليا ٣٤٥ . الاراضي الحربية ٣٤٥ .

الفصل السادس عشر

تحول المجتمع الفرنجي

الاصول الاقطاعية

تعريف الاقطاعية ٢٤٩ . طبيعة الاقطاعية السياسية والاجتماعية ٣٤٩ . فكرة التطور الاقطاعي ٣٥٠ . الرعاية والاحسان في العصر الروماني : الرعاية الرومانية ٣٥٤ . تعهد الأموال ٣٥٦ . الحماية الامبراطورية ٣٥٦ . تعهد الزبون ٣٥٦ . الرعاية العامة .

٣٥٧ . الاحسان الروماني ٣٥٧ . ضرورة الاحسان ٣٥٧ . الاحسان الروماني
 ٣٥٨ . تطبيق الاحسان ٣٥٨ . واجبات المستفيد ٣٥٩ . الرعاية والاحسان في
 العصر الميروفنجي : الرعاية ٢٥٩ . رعاية الملك ٣٦٠ . شكل الدخول في
 الرعاية أو طلب الحماية ٣٦١ . الاحسان ٣٦٢ . تطبيقات الانتفاع المختلفة
 ٣٦٢ . ضريبة المنتفع ٣٦٣ . الطبقة النبيلة والانتفاع ٣٦٣ . ضالة ضريبة المنتفع
 ٣٦٤ . الحماية الحربية : الخدمة العسكرية العامة ٣٦٥ . خدمة الافراد المسلحة
 ٣٦٦ . نشأة خدمة الافراد المسلحة ٣٦٦ . الاحسان الى المخلصين المسلحين ٣٦٧
 تعايش شكلي الامتياز ٣٦٩ . احسان الافراد ٣٦٩ . الرعاية والاحسان في
 العصر الكارولنجي : التجديد المزعوم في هذا الدور ٣٧٠ . التبدلات الحقيقية ٣٧١ .
 الاحترام ٣٧٢ . الكارولنجيون والتبعية ٣٧٣ . التضاد بين المبدأ الملكي والمبدأ
 التبعية ٣٧٦ . الملكية والارستقراطية ٣٧٦ . وراثة الوظائف ٣٧٧ . الثغور
 والدوقيات ٣٧٧ . تعميم الروح التبعية ٣٧٧ . زوال الملكية الحرة ٣٧٨ .
 مصير الملاكين الصغار ٣٧٨ . التبعية في الأسرة ٣٧٨ . التبعية في الحياة العاطفية
 ٣٧٨ . تبدل العلاقات بين الرعاية والاحسان ٣٧٩ . ظهور كلمة اقطاع ٣٧٩ .
 تسلسل الاقطاعات ٣٨٠ . تطور لاثورة ٣٨٠ .

الفصل السابع عشر

العالم الاسكاندينافي حتى آخر القرن التاسع

المظاهر الاخلاقية ٣٨٣ . الدين ٣٨٣ . الابجدية الاسكاندينافية ٣٨٤ .
 الحضارة المادية ٣٨٤ . الحياة الاقتصادية ٣٨٥ . المجتمع والدولة ٣٨٧ . الحملات
 البحرية ٣٨٨ . أسباب الغارات النورماندية ٣٨٩ .

- ٩٣٣ -

الفصل الثامن عشر

الجزر البريطانية

من القرن الخامس إلى القرن العاشر

البروتون ٣٩١ . الانغلو ساكسون ٣٩٤ : توطد الجوت والساكسون
والآنغل ٣٩٤ . اعتناق الأنغلو - ساكسون المسيحية ٣٩٦ . النزاع بين الدول
الانكليزية ٣٩٨ . الفرد الكبير ٣٩٩ . حضارة العصر الأنغلي - الساكسوني:
المصادر ٤٠١ . احتلال الارض واستغلالها ٤٠١ . الحياة المدنية والتجارة ٤٠٢ .
طبقات المجتمع ٤٠٣ . الحقوق ٤٠٣ . النظم السياسية والادارية ٤٠٣ . الادارة
٤٠٥ . النزوع إلى الاقطاعية ٤٠٧ . الحالة المعنوية ٤٠٩ . الأدب ٤٠٩ . الفن
٤١٠ . وجود انكلترا ٤١١ . ايرلنده : الموقع والتاريخ السياسي ٤١٢ . النظم
والحضارة ٤١٦ . اللغة والأدب ٤١٨ . الفن ٤١٨ . ايكوسيا (سكوثلاندا)
٤٢٠ .

الفصل التاسع عشر

اسبانيا المسيحية

من ٧١١ إلى ١٠٣٧

التاريخ السياسي

ملكة استرياس (آستوريا) ٤٣٤ . مملكة ليون ٤٢٧ . قشتالة ٤٣٠ .
النافار ٤٣١ . الآراغون ٤٣٣ . النظم والحضارة : الملكية ٤٣٣ . الكنيسة
٤٣٧ . الطبقات الاجتماعية ٤٣٨ . الحياة الاقتصادية ٤٣٩ . الحياة الفكرية
٤٤٠ . الحياة الفنية ٤٤٢ .

— ٩٣٤ —

الفصل العشرون

المانيا وايطاليا

من وفاة ارنولف إلى اوتون الأول

المانيا

من ٨٩٩ إلى ٩٣٦

الخطر الخارجي : السلاف والهونغارون ٤٤٤ . تشكل الدوقيات القومية
٤٤٨ . حكم كونراد الأول (٩١١ — ٩١٨) ٤٥١ . السلالة الساكسونية ٤٥٥
هنري الأول ٤٥٥ .

ايطاليا

من ٨٩٦ إلى ٩٤٧

نهاية امبراطورية سبوليت (٨٩٦ — ٨٩٨) ٤٥٩ . الغارات الهونغارية
والاسلامية ٤٥٩ . المنازعات السلافية (٩٠٨ — ٩٣٦) ٤٦٣ . ايطاليا تحت
حكم هونغ آرل (٩٢٦ — ٩٤٧) ٤٦٥ .

الفصل الحادي والعشرون

فرنسا بين الرويرتين والكارولنجيين

من ٨٨٨ إلى ٩٨٧

حكم اود (٨٨٨ — ٨٩٨) ٤٦٩ . شارل الساذج ٤٧٣ . تأسيس دوقية
نورمانديا ٤٧٤ . المنازعات السلافية (٨٩٨ إلى ٩٣٦) ٤٨٠ . انتخاب روبرت
وتتويجه (٢٨ — ٣٠ حزيران ٩٢٢) ٤٨١ . انتخاب رؤول دوق بورغونيا (١٣

- ٩٣٥ -

تموز ٩٢٣ (٤٨٢ . لويس الرابع ماوراء البحر (١٩ حزيران ٩٣٦) ٤٨٥ .
الرجة الكارولنجية (٩٣٦ - ٩٨٧) ٤٨٥ . انتخاب لوثير (١٢ تشرين
الثاني ٩٥٤) ٤٩٠ . حكم لويس الخامس (٩٨٦ - ٩٨٧) ٤٩٤ . انتخاب هونغ
كليت ٤٩٥ .

الفصل الثاني والعشرون

الكنيسة في أيدي الملمانيين

الارستقراطية الرومانية والكرسي الأقدس ٤٩٧ . حكومة الكنيسة
٥٠٠ . السيمونية ٥٠٢ . النيقولاوية ٥٠٢ . البابوية والحركة الرهبانية ٥٠٤ .
طريقة كلوني ٥٠٤ . الطريقة اللورينية ٥٠٨ .

الفصل الثالث والعشرون

اوتون الكبير

و

ارجاع الامبراطورية في الغرب

بقاء الفكرة الامبراطورية في الغرب ٥١١ ، اوتون الكبير ٥١٢ .

الفصل الرابع والعشرون

النظام الاميري

النظام السياسي والاداري في ممالك اوربة الغربية

سما أوربة الغربية في منتصف القرن العاشر ٥٢٣ . النظام الاميري في المانيا ٥٢٥ .
النظام الاميري في ايطاليا ٥٢٧ . النظام الأميري في فرنسا ٥٢٨ . سلطة التابعين الكبار
٥٢٨ . دور المدن ٥٣١ . دور الاديرة ٥٣٢ . ظهور القصور ٥٣٢ . حياة القصر
٥٣٣ . الرسوم (الحقوق) الاميرية ٥٣٤ . الاستبداد الاميري ٥٣٥ . المدن

— ٩٣٦ —

وسلطة الأسقف ٥٣٥ . علاقة التابع بالمولى ٥٣٧ . بين الولا ٥٣٧ . الالتزامات المتبادلة بين المولى وتابعه ٥٣٨ . النصح (كونسليوم) ٥٣٨ . العون (او كسيليوم) ٥٣٩ . الاتاوات الاقطاعية ٥٤٠ . الارث ٥٤١ . تطور النظام الاميري ٥٤٣ الحروب الاميرية ونظم الصلح ٥٤٣ . نماذج من البارونات ٥٤٥ . كثرة الحروب ٥٤٦ . أصول نظم الصلح ٥٤٦ . هدنة الله ٥٥٠ . نظم السلام في المانيا وايطاليا واسبانيا ٥٥٢ . نظم السلام والنظام الأميري ٥٥٢ .

الفصل الخامس عشر

السياسة الامبراطورية

من اوتون الأولى إلى وفاة هنري الثالث

٩٦٢ — ١٠٥٦

المانيا بين ايطاليا والعالم السلافي

٩٦٢ — ٩٩٦

نتائج ارجاع الامبراطورية ٥٥٤ . ايطاليا بعد التتويج الامبراطوري ٥٥٥ امتياز (٩٦٣) ٥٥٧ . المفاوضات مع الاغريق ٥٥٨ . زواج اوتون الثاني وتوفانو (١٤ نيسان ٩٧٢) ٥٦١ . الصلح مع الاغريق ٥٦١ . المانيا والسلاف (بعد ٩٥٥) ٥٦٣ . وفاة اوتون الكبير (٧ أيار ٩٧٣) ٥٦٢ ، اوتون الثاني ٥٦٣ . الصعوبات الداخلية والخارجية ٥٦٤ . الثورة الرومانية (٩٧٤) ٥٦٤ اوتون الثاني في ايطاليا ٥٦٥ . الحملة الامبراطورية على ايطاليا الجنوبية ٥٦٥ . القضية السلافية في عهد اوتون الثاني ٥٦٦ . موت اوتون الثاني (٧ كانون الاول ٩٨٣) ٥٦٧ ، هجوم السلاف ٥٦٨ . المعارضة الالمانية والايطالية ٥٦٨ .

وصاية تيوفانو ٥٦٩ . وفاة تيوفانو (١٥ حزيران ٩٩١) ٥٧٠ . وصاية ادليبيد (٩٩١ - ٩٩٤) ٥٧١ . رشد اوتون الثالث ٥٧١ . حلم الامبراطور اوتون الثالث (٩٩٦-١٠٠٢): اوتون الثالث ٥٧٢ . حملة اوتون الثالث إلى ايطاليا (٩٩٦) ٥٧٤ . انتخاب غريغوار الخامس بابا ٥٧٥ . تنصيب اوتون الثالث ٥٧٥ . عودة اوتون الثالث إلى ألمانيا ٥٧٥ . ثورة رونما ضد غريغوار الخامس ٥٧٦ . البابا سيلفستر الثاني ٥٧٦ . حكم هنري الثاني (١٠٠٢ - ١٠٢٤) : هنري الثاني ٥٨١ . تنصيب هنري الثاني امبراطوراً (١٦ شباط ١٠١٤) ٥٨٣ . الامبراطورية المسيحية ٥٨٤ . القيصرية البابوية الامبراطورية في عهد هنري الثاني ٥٨٥ . هنري الثاني والبابوية ٥٨٦ . أثر هنري الثاني ٥٨٦ . أوائل الاباطرة الفرنكونيين (١٠٢٤-١٠٥٦): كونراد الثاني ٥٨٧ . كونراد الثاني في ايطاليا ٥٨٩ . اثر كونراد الثاني ٥٩٢ المعارضة الكنسية ٥٩٢ . هنري الثالث ٥٩٣ . زواج هنري الثالث (تشرين الثاني ١٠٤٣) ٥٩٣ . القضية الايطالية ٥٩٤ . هنري الثالث والكرسي الاقدس ٥٩٥ . تنصيب هنري الثالث امبراطوراً (٢٥ كانون الأول ١٠٤٦) ٥٩٦ . الامبراطورية المسيحية (في ١٠٤٦) ٥٩٦ . رد الفعل ٥٩٧ . رد الفعل الكنسي ٦٠٠ . سياسة هنري الثالث الاصلاحية ٦٠١ . أثر البابا ليون التاسع ٦٠٢ . وفاة هنري الثالث (٥ تشرين الاول ١٠٥٦) ٦٠٢ .

الفصل السادس والعشرون

التوسع الدانماركي

أصول الامبراطورية الدانماركية

مملكة الدانمارك في فاتحة القرن العاشر ٦٠٤ . هارالد السن الزرقاء (٩٥٠ - ٩٨٦) ٦٠٥ . أهمية حكم سفيند (٩٨٦ - ١٠١٤) ٦٠٧ . الاسترداد الأنغلي - الساكسوني في عهد ادوارد ٨٩٩ - ٩٢٥) ٦٠٧ . المجهوم الدانماركي في عهد

- ٩٣٨ -

ادموند (٩٣٩ - ٩٤٦) وادرد (٩٣٦ - ٩٥٥) ٦٠٩ . المملكة الانغلية -
الساكسونية في عهد ادوي (٩٥٥ - ٩٥٩) وادغار (٩٥٩ - ٩٧٥) ٦١٠
ازمة (٩٧٥ - ٩٩٠) ٦١١ . الحملات الدانماركية الاولى في انكلترا (٩٨٦ -
٩٩٤) ٦١١ . القضية النورفيجية ٦١٢ . الهيمنة للدانماركية في الباطيك ٦١٣
فتح سفيند لانكلترا ٦١٤ . الامبراطورية الدانماركية عند وفاة
سفيند ٦١٥ .

كنوت الكبير

١٠١٤ - ١٠٣٥

الملك كنوت ٦١٦ . رد فعل الانغلو - ساكسون (١٠١٤ - ١٠١٥)
٦١٧ . ضياع النورفيج (١٠١٥ - ١٠١٧) ٦١٩ . كنوت ملك الدانمارك
٦٢٠ . كنوت والسلاف ٦٢٠ . النورفيج في عهد اولاف القديس ٦٢١ . معركة
نهر هيلج (١٠٢٦) ٦٢١ . فتح النورفيج (١٠٢٨ - ١٠٣٠) ٦٢٢ .
الامبراطورية الدانماركية ٦٢٣ . حكم كنوت في انكلترا ٦٢٣ . حكم كنوت
في الدانمارك ٦٢٥ . حكم كنوت في النورفيج ٦٢٥ . سياسة كنوت الكبير
الدينية ٦٢٦ . الحج إلى روما (١٠٢٦ - ١٠٢٧) ٦٢٧ .
وفاة كنوت الكبير (١٢ تشرين الثاني ١٠٣٥) ٦٢٨ .

تفتت الامبراطورية الدانماركية

١٠٣٥ - ١٠٤٢

خلافة كنوت الكبير ٦٢٩ . ماغنوس ملك النورفيج ٦٢٩ . هاوتا كنوت
ملك الدانمارك ٦٣٠ . هارالد ملك انكلترا (١٠٣٥ - ١٠٤٠) ٦٣٠ .
هارتا كنوت في انكلترا (١٠٤٠ - ١٠٤٢) ٦٣١ . ارجاع السلالة الانغلية -
الساكسونية إلى انكلترا ٦٣١ . أثر كنوت الكبير ٦٣٢ .

- ٩٣٩ -

الفصل السابع والعشرون

الملوك والتابعون

في النصف الأول من القرن الحادي عشر

النتائج السياسية للنظام الأميري ٦٣٣ . ضعف السلطة الملكية في المانيا :
سلطة اوتون الكبير الملكية . الملكية الجرمانية عند وفاة هنري الثالث ٦٣٥ .
قصر هنري الرابع ٦٣٦ .

فرنسا في عهد اوائل الكابسين

اوج النظام الأميري ٦٣٧ . الكنيسة ٦٣٨ . السلطة الملكية ٦٣٨ .
القضية السلافية ٦٤٠ . حكم هونغ كايت (٩٨٧ - ٩٩٦) ٦٤٠ . روبرت التقي
(٩٩٦ - ١٠٣١) ٦٤١ . فتح بورغونيا ٦٤١ . روبرت التقي والاقطاعية ٦٤٢
هنري الأول (١٠٣١ - ١٠٦٠) ٦٤٢ . الازمة السلافية والنزاع ضد آل بلوا
٦٤٢ . هنري الأول ونورمانديا ٦٤٣ . المملكة الكابسية عند وفاة هنري الاول
٦٤٤ . قصر فيليب الاول (١٠٦٠ - ١٠٦٧) ٦٤٤ .

انكلترا في عهد ادوارد المعرف

النظام الأميري في انكلترا ٦٤٥ . السلطة الملكية ٦٤٦ . ادوارد المعرف
٦٤٧ . دور غودون ٦٤٨ . ازمة (١٠٥١ - ١٠٥٣) ٦٤٩ . حكم هارولد
٦٤٩ . ظفر التبعية في منتصف القرن الحادي عشر ٦٥٠ .

— ٩٤٠ —

الفصل الثامن والعشرون

تحرير الكنيسة الرومانية

حبرية ايتين التاسع

١٠٥٧ — ١٠٥٨

انتخاب الحبر الأعظم (في ٢ آب ١٠٥٧) ٦٥١ . ايتين التاسع ٦٥٢ .
الكاردينال هبرت ٦٥٣ . برنامج الإصلاح ٦٥٤ .

حبرية نيقولا الثاني

(١٠٥٩ — ١٠٦١)

المراسم الحبرية ٦٥٥ . الانجاه الجديد في السياسة الحبرية ٦٥٨ . التدابير
الإصلاحية ٦٥٩ . وفاة البابا نيقولا الثاني ٦٦٠ .

حبرية الكسندر الثاني (١٠٦١ — ١٠٧٣)

ورد الفعل الامبراطوري

شقاق الكنيسة ٦٦١ . بتر العلاقات مع النورماندين ٦٦٤ . حكومة
الكسندر الثاني ٦٦٤ . مشاورو الكسندر الثاني ٦٦٥ . اصلاح الكنيسة في عهد
الكسندر الثاني ٦٦٦ . المانيسا بعد وفاة هنري الثالث ٦٦٧ . هنري الرابع
والكنيسة ٦٦٩ . البابوية والنورمانديون ٦٧١ .

فاتحة حبرية غريغوار السابع

١٠٧٣ — ١٠٧٦

البرنامج الغريغوري ٦٧٥ . غريغوار السابع ٦٧٦ . المراسم الإصلاحية

(آذار ١٠٧٤) ٦٧٨ . تطور البرنامج الغريغوري ٦٧٩ . مرسوم التقليد العلماني
(شباط ١٠٧٥) ٦٨٠ . أمالي البابا ٦٨٠ . علاقة غريغوار السابع وهنري
الرابع (حتى ١٠٧٥) ٦٨٢ .

الفصل التاسع والعشرون

تشكل المملكة الأنغلية - النورماندية

دوقية نورمانديا في منتصف القرن الحادي عشر

غليوم الدعي ، دوق نورمانديا ٦٨٥ . دوقه نورمانديا ٦٨٦ . حكم غليوم
الدعي ٦٨٧ . غليوم الدعي وانكلترا ٦٨٨ . وفاة ادوارد المعرف (٥ كانون
الثاني ١٠٦٦) ٦٩٠ .

حملة ١٠٦٦

انقلاب (٦ كانون الثاني ١٠٦٦) ٦٩٠ . الاستعدادات النورماندية ٦٩١ .
استعدادات هارولد ٦٩٢ . معركة هاستنغز (٤ تشرين الأول ١٠٦٦) ٦٩٢ .
تتويج غليوم الفاتح (٢٥ كانون الأول ١٠٦٦) ٦٩٤ . تدابير الهدنة ٦٩٥ .

تنظيم انكلترا في عهد غليوم الفاتح

صفات أثر غليوم الفاتح ٦٩٦ . ادخال النظام الأميري إلى انكلترا ٦٩٧ .
الصفات الخاصة للنظام الأميري في انكلترا ٦٩٨ . كتاب الحساب الأخير ٦٩٩ .
الائاتات الاقطاعية ٧٠٠ . النظم السياسية والادارية ٧٠١ . السياسة الدينية
٧٠٢ . الكنيسة الانكليزية قبل الفتح النورماندي ٧٠٣ . تطهير الاكليروس
الأعلى ٧٠٤ . اصلاح الكنيسة ٧٠٤ . غليوم الفاتح والكرسي الأقدس ٧٠٥ .
الملكية الانكليزية في زمن غليوم الفاتح ٧٠٦ . نتائج فتح النورمانديين
لانكلترا ٧٠٦ .

— ٩٤٢ —

الفصل الثلاثون

النزاع بين الكهنوت والامبراطورية

حتى وفاة هنري الخامس

١٠٧٦ — ١١٢٥

غريغوار السابع وهنري الرابع

(١٠٧٦ — ١٠٨٥)

بدء النزاع ٧٠٨ . مجاسا اولم وفورشهايم (شباط — آذار ١٠٧٧) ٧١٤ .
مجلس بريكسن وانتخاب كليمان الثالث (٢٥ حزيران ١٠٨٠) ٧١٧ . أثر
غريغوار السابع ٧٢٦ .

أزمة البابوية بعد غريغوار السابع

١٠٨٥ — ١٠٨٨

انتخاب فيكتور الثالث ٧٢٨ . الهجوم الامبراطوري ٧٣٠ . الهجوم الغريغوري
٧٣٠ . اوربينو الثاني (١٢ آذار ١٠٨٨) ٧٣٢ .

الكهنوت والامبراطورية

في حبرية اوربينو الثاني

١٠٨٨ — ١٠٩٩

الشقاق والقضية الرومانية ٧٣٤ . اوربينو الثاني وألمانيا ٧٣٥ .

— ٩٤٣ —

نزاع التقليد العلماني والكنسي

في عهد هنري الخامس

١١٠٠ - ١١٢٥

انتخاب باسكال الثاني (١٣ آب ١٠٩٩) . ٧٤٦ . أزمة الملكية في جرمانيا
٧٤٩ . باسكال الثاني والتقليد العلماني ٧٥١ . النظرية الفرنسية في التقليد ٧٥٢ .
هنري الخامس في ايطاليا ٧٥٥ . انتخاب جيلاز الثاني ٧٦٦ . كاليكست الثاني
٧٦٩ . ألمانيا بعد عودة هنري الخامس ٧٦٩ . المفاوضات بين كاليكست الثاني
وهنري الخامس ٧٧٤ . كونكوردات فورمز (١٣ ايلول ١١٢٢) ٧٧٤ .
خصائص كونكوردات فورمز ٧٧٥ . نتائج صلح فورمز ٧٧٧ .

الفصل الحادي والثلاثون

أصول النزاع

بين المملكة الكابسية والآنفلية — النورماندية

المناوشات الاولى

١٠٦٧ - ١١٠٠

نتائج فتح النورماندين لانكلترا ٧٨٠ . السياسة الكابسية ٧٨١ . فيليب
وروبر كورتهوز ٧٨١ . اجتياح الفيكسان ووفاة غليوم الفاتح (٩ ايلول ١٠٨٧)
٧٨٢ . تجرئة المملكة الآنفلية — النورماندية ٧٨٢ . غليوم الأشقر ملك انكلترا
٧٨٣ . سياسة غليوم الأشقر القارية . المملكة الكابسية في آخر القرن الحادي
عشر ٧٨٤ . تقدم السلطة الملكية في عهد فيليب الأول ٧٨٥ . توسع الدومين
الملكي ٧٨٦ . نزاع المملكتين الكابسية والآنفلية — النورماندية في آخر القرن
الحادي عشر ٧٨٦ .

- ٩٤٤ -

التنافس بين هنري الاول ولويس السادس

١١٣٥ - ١١٠٠

جلوس هنري الاول في انكلترا ولويس في فرنسا ٧٨٧ . هنري الاول ملك انكلترا ٧٨٨ . لويس السادس ملك فرنسا ٧٨٩ . هنري الاول والبارونات الانكليز ٧٩٠ ، توطيد الوحدة الآتغلية - النورماندية ٧٩١ . قطع العلاقات بين هنري الاول والمملكة الكاسبية ٧٩٢ . لويس السادس واقطاعة الدومين (١١٠٠ - ١١٠٨) ٧٩٤ . الغزو الالماني لفرنسا (تموز - آب ١١٢٤) ٧٩٦ . حكومة لويس السادس ٧٩٧ . لويس السادس والحركة القومونية ٨٠١ . الاقطاعات الكبرى في عهد لويس السادس ٨٠١ . لويس السادس وكبار الاقطاعيين ٨٠٢ . أثر لويس السادس ٨٠٣ . حكومة هنري الاول في انكلترا ٨٠٤ .

تطور المملكتين الكاسبية والآتغلية - النورماندية

من ١١٣٥ إلى ١١٥٤

وفاة هنري الاول (١ كانون الاول ١١٣٥) ولويس السادس (١ آب ١١٣٧) ٨٠٦ . زواج الامير لويس آلينورا كيتانيا ٨٠٦ . خلف هنري الاول ٨٠٧ . ايتين ملك انكلترا ٨٠٧ . حكم ايتين ٨٠٨ . معارضة البارونات ٨٠٩ . معارضة الكنيسة ٨٠٩ . الحرب الاهلية في انكلترا (١١٣٩ - ١١٤١) ٨١٠ . فتح جوفروا بلانتاجونيه لنورمانديا ٨١١ . انكلترا ونورمانديا في منتصف القرن الثاني عشر ٨١١ . لويس السابع ملك فرنسا ٨١٢ . دور آلينورا كيتانيا ٨١٢ . نزاع لويس السابع مع الكنيسة ٨١٣ . حرب الشامانيا ٨١٣ . السلام مع كونت الشامانيا والكنيسة ٨١٤ . الحرب الصليبية الثانية ٨١٤ . حكم سوجو ٨١٤ . لويس السابع والقضية الآتغلية - النورماندية ٨١٥ . تشكيل الامبراطورية الأنجفكية ٨١٦ .

الفصل الثاني والثلاثون

الحرب الصليبية

تكوين فكرة الحرب الصليبية

- مشروع الحرب الصليبية ٨١٨ . القضية الاسلامية في القرن العاشر ٨١٨ .
- فتح النورماندين لصقلية ٨١٩ . الحكم الاسلامي في اسبانيا ٨٢٠ . الممالك المسيحية في اسبانيا ٨٢٢ . بوادر الحرب الصليبية في اسبانيا ٨٢٣ . الحرب الصليبية الفرنسية الأولى في اسبانيا (١٠٦٣ - ١٠٦٥) ٨٢٤ . أخذ طليطلة على يد القونوس السادس (١٠٨٥) ٨٢٦ . رد الفعل الاسلامي ٨٢٦ . حرب صليبية فرنسية جديدة في اسبانيا (١٠٨٧ - ١١٠١) ٨٢٧ . البابوية والحرب الصليبية ٨٢٩ . مؤتمر بليزانس (آذار ١٠٩٥) . اوربينو الثاني في فرنسا ٨٣١ .
- جمع كليومون (تشرين الثاني ١٠٩٥) ٨٣٣ . رحلة اوربينو الثاني في غرب فرنسا وجنوبها (١٠٩٥ - ١٠٩٦) ٨٣٤ . جيوش الحرب الصليبية ٨٣٥ .
- الحرب الصليبية الشعبية ٨٣٧ . صفات الحرب الصليبية ٨٣٨ .

الزحف على القدس

١٠٩٦ - ١٠٩٩

- اخفاق الحرب الصليبية الشعبية ٨٣٩ . حشد الجيوش الصليبية في القسطنطينية ٨٤٠ . موقف الامبراطور الكسيس من الصليبيين ٨٤٢ . بين الزعماء الصليبيين ٨٤٣ . موقف ريمون سان جيل من الكسيس الأول ٨٤٤ . أخذنيقية (حزيران ١٠٩٧) ٨٤٥ . انتصار دوريليه (١ تموز ١٠٩٧) ٨٤٦ . أخذ هرقله (ايلول ١٠٩٧) ٨٤٦ . بودون أمير الرها ٨٤٧ . حصار انطاكية ٨٤٧ . انتصار الصليبيين على كربغا (٢٨ حزيران ١٠٩٨) ٨٤٩ . الزحف على القدس ٨٤٩ .
- أخذ القدس (١٥ تموز ١٠٩٩) ٨٥٠ .

- ٩٤٦ -

الحرب الصليبية في الشرق والغرب

في بداية القرن الثاني عشر

حملة النجدة (١١٠١) ٨٥٢ . الدفاع الاسلامي في اسبانيا ٨٥٣ . الحرب الصليبية عام ١١١٤ . الحرب الصليبية عام ١١٨ وأخذ سرقسطة ٨٥٥ . نتائج الحرب الصليبية الفرنسية في اسبانيا .

الفصل الثالث والثلاثون

حضارة القرنين العاشر والحادي عشر

القرن العاشر

الازمة الاقتصادية

المخطاط التجارة ٨٥٧ . النظام الدوميني في القرن العاشر ٨٥٩ . المخطاط الصناعة ٨٦٠ . ركود الزراعة ٨٦٠ . ائتلاف الأرياف ٨٦١ . النظام الأميري والطبقات الريفية ٨٦٢ . التحكم الأميري ٨٦٣ . بؤس الفلاح ٨٦٤ . المجاعات ٨٦٥ . الأوبئة ٨٦٦ . الازمة الاجتماعية ٨٦٦ .

المخطاط الفكري

ضعف الروح الدينية ٨٦٧ . الاخلاق الأسقفية ٨٦٧ . المخطاط الاديرة ٨٦٨ . المخطاط الفكري ٨٦٩ . الادب الكنسي ٨٧٠ . او كسيلوس وفولغاروس ٨٧٠ . القديس اودون ٨٧٠ . آتتون فرسي وراتيه ليسيچ ٨٧١ . الشعر الحماسي ٨٧٢ . ريجينون بروم ٨٧٣ . الفقر الأدبي ٨٧٣ .

القرن الحادي عشر

النهضة الاقتصادية

صفات القرن الحادي عشر العامة ٨٧٤ .

الاستعمار الزراعي

الظروف الملائمة للنهوض الزراعي ٨٧٤ . التقدم الاجتماعي ٨٧٥ . زيادة
الولادة ٨٧٦ . الضيوف ٨٧٦ . تقدم الاستعمار الزراعي ٨٧٧ . الزراعات
الأساسية ٨٧٨ . تربية الحيوان ٨٧٨ . غنى الطبقة الريفية ٨٧٨ .

النهضة التجارية

العودة الى اقتصاد المبادلة ٨٧٩ . التجارة البندقية ٨٧٩ . التجارة
الاسكندنافية ٨٨١ . الحياة البحرية في البلاد المنخفضة ٨٨١ . انشاء اسواق
جديدة ٨٨٢ . تشكيل رابطات التجار ٨٨٣ . الطرق التجارية الكبرى ٨٨٤ .
نهضة الحياة المدنية ٨٨٥ . ظهور الصناعة ٨٨٦ . طبقة وجهاء المدينة ٨٨٧ .
حركة تحرير المدن ٨٨٩ . في ايطاليا الشمالية ٨٨٩ . في الفلاندر وفي شمال فرنسا
٨٨٩ . الحريات المدنية ٨٩١ .

النهضة الفكرية والفنية

اليقظة الدينية

اشعاع نظام كلوفي ٨٩٢ . كلوفي والعمل الفكري ٨٩٣ . حركة النسك ٨٩٤ . دير
سيتو ٨٩٤ . سيتو وحضارة العصر الوسيط ٨٩٦ . اصلاح الكنيسة العصرية
٨٩٦ . المدارس الاسقفية ٨٩٧ . التعليم ٨٩٧ . الجدل الديني المذهبي ٨٩٨ .
الجدل حول اصلاح الغريغوري ٨٩٩ . تحويل العالم الأميري ٨٩٩ .
الفروسية ٩٠٠

الفكر المسيحي في القرن الحادي عشر

جيرير ٩٠١ . مدرسة شارتر ٩٠٣ . روسلن كومبين ٩٠٤ . القديس آنسلم
٩٠٥ . الجدل في بداية القرن الثاني عشر ٩٠٦ . رد الفعل الصوفي ٩٠٧ . القديس
بطرس داميان ٩٠٧ . الآثار الجدلية ٩٠٨ . النهضة الحقوقية ٩١٠ .

- ٩٤٨ -

بداية الفن الرومانسي

- النهضة الفنية في القرن الحادي عشر ٩١١ . البناء ٩١٢ . النحت ٩١٣ .
الرسم والمنمنمات ٩١٣ .

الحركة الأدبية في القرن العاشر

- صفات النهضة الأدبية ٩١٣ . التاريخ في عصر اوتون الكبير : ليودبراند
كريمون ٩١٤ . فيدوكند كورفيه ٩١٥ . الشعر الحماسي : روزفيتا ٩١٥ .
ابكهارد القديس - غال ٩١٩ . الأدب الرمزي ٩١٧ . النهضة الأدبية في
فرنسا ٩١٧ . فلودوار رنس ٩١٧ . ريشيه راهب دير القديس ريمي ٩١٧ .

الحركة الأدبية في القرن الحادي عشر

- الآثار الأدبية في القرن الحادي عشر ٩١٨ . مطرزة بايتو ٩١٩ . مؤرخو
الحملة الصليبية الاولى (١٠٩٥ - ١٠٩٩) ٩١٩ . غييرنوجان ٩٢٠ . موجر
٩٢٠ . مجموعات الرسائل : ايف شارتر ٩٢١ . ظهور الشعر في اللغة العامية
٩٢١ . أغاني الفخر الاولى ٩٢٢ . الشعراء الطوافون الاوائل ٩٢٣ . الحيوية
الادبية في القرن الحادي عشر ٩٢٤ .

كلية شكر

أعمق الشكر لكل من أسهم
في نشر هذا الكتاب

تاريخية الحديث



الموسوعة التاريخية الحديث

تاريخ العصر الوسيط

من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة

تاريخ القرن السابع عشر

تاريخ القرن الثامن عشر

تاريخ النصف الأول من القرن التاسع عشر

تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تاريخ القرن العشرين

١٩٤٥ - ١٩٠٠

التاريخ الدبلوماسي

١٩٥٨ - ١٩٤٠

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوربية)

أربعة أجزاء